ما وراء الطبيعة

المجموعة الثانية

التحويل الى حبر الكتروني

التجميع في مجلد واحد







الأعداد من (21) الى (40)

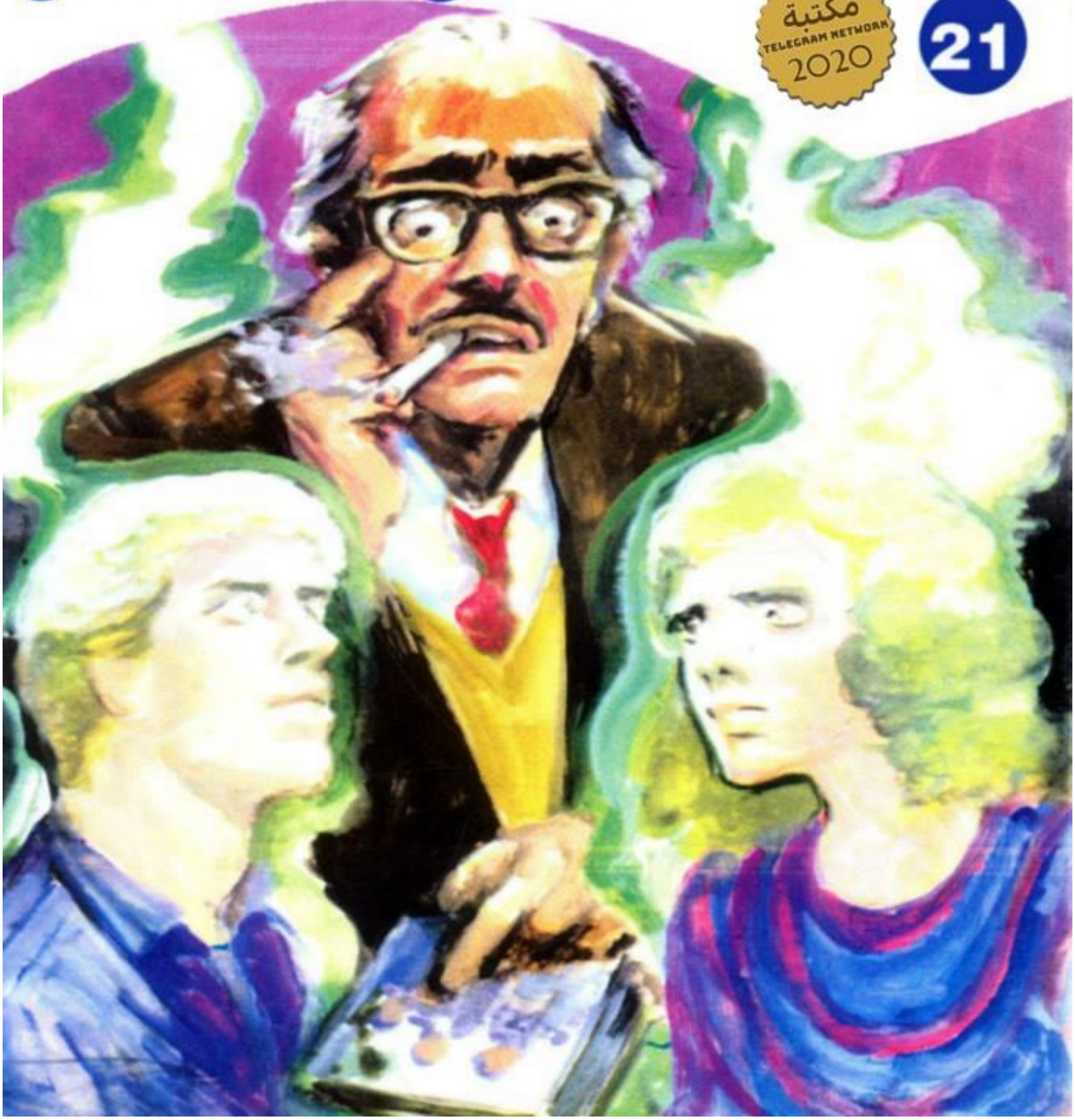
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة عدو الشمس

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

21



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

إنّها من نوع الأمسيات التي أفضل...

(عبد الوهاب) يترنم في المذياع بإحدى قصائده الفصحى القديمة.. تعرفون بالتأكيد تلك الأغاني التي يهمهم فيها مع الموسيقا بين مقاطع الكلام.. ما أروعها!

وأمامي ديوان شعر لـ (تاغور) الشاعر الهندي العظيم.. الديوان مترجم إلى العربيّة لكنّ الترجمة لم تفسد شيئًا من حرارة الكلمات ووهج العاطفة المنبعثة من قلب عرف معنى التسامح مع الكون..

أنا أيضًا تعلّمت أخيرًا كيف أفهم الكون وأحبه، بعد ما ضاع شبابي في محاولات خرقاء لتغييره أو تهذيبه.

اليوم فقط فهمت أنّ هذا هو (أفضل العوالم الممكنة) وأننا حقًا لمحظوظون...

هل حان وقت الكلام؟..

إذن فلتسترح قليلًا يا (عبد الوهاب) أيها الملهم..

ولتغف قليلًا يا (تاغور) العبقري.. ولا تغضبا مني..

أنا لست ملهمًا ولا عبقريًا مثلكما.. لكنني أملك بعض حكايات (مسلية) للغاية، كما كان (دوماس) يصف رواياته في آخر حياته..

للأسف لا توجد لدى فرصة للاختيار اليوم.. فأنا مُلزم بأن أحكي لكم قصّة (عدو الشمس) التي وعدتكم بها بعد لقائي مع د. (لوسيفر) في (نيويورك) مع حكايات (التاروت)...

لست في حل من أن أؤجل ذلك، لأن غضبكم على تأجيلي قصّة الكاهن الأخير لم يهدأ بعد. وأنا لا أكرر أخطائي مرّتين إلا حين لا يكون أمامي سبيل آخر...

دعونا إذن نصغ إلى قصّة عدو الشمس... وهي خالية من الرعب تقريبًا.. وهذا- حتمًا - يناسب الآنسات الصغيرات الجالسات هاهنا.. لكنّها طريفة ومشوقة وهذا - حتمًا - يناسب الجميع...

تعالوا معي عبر أحداث هذه القصة التي أعتقد أنّها ستكون أدق ما كتبت.. لأنّها عبارة عن مذكرات كتبتها في ذات وقت حدوثها.. وبالتالي لم يتدخل وهن الذاكرة في حرف منها..

وسأقدم لك هذه المذكرات كما هي دون تعليق..

* * *

١ - حكاية صورة..

الثلاثاء ٨ يوليو:

عادة غريبة هي أن يجلس المرء إلى مكتبه ليكتب مذكراته.. خاصّة إذا ما كان المرء إنسانًا عاديًا من الذين تزخر بهم الطرقات وطوابير المجمعات الاستهلاكية..، في رأيي أن من يجرؤ على هذا لابد أن يكون من عينة (العقاد) أو (سعد زغلول) أو (روميل) حيث تشكل الحوادث الصغيرة في حياته (تاريخًا) حقيقيًا تسترشد به البشريّة من بعده..

أما بالنسبة لفرد تقليدي مثلي فلابد أن المذكرات لن تزيد على: صحوت من النوم - أفطرت . ذهبت للعمل . عدت من العمل - نمت - صحوت - خرجت - نمت...

إذن لماذا قررت أنا أن أمارس هذه الجريمة؟!

المشكلة هي أن الأيام تتراكم في مخزن ذكرياتي..

زكائب من الوجوه وأكداس من العلاقات وسلال كاملة من الوعود التي لم أف بها بعد...

شعرت اليوم بأنني بحاجة إلى تنسيق كل هذا وإلا فالويل لي.. وبما أنني - أصلًا . من النوع نافد الصبر الذي لا يواظب على التنفس إلا لأنّه يتم رغمًا عنه، فإنني لا أتوقع أن تستمر هذه العادة الذميمة طويلًا...

أتوقع أن أواظب على الكتابة بضعة أيام.. شهرًا أو أكثر.. ثم أنسى الأمر برمته و(تعود ريمة لعادتها القديمة).. لا تخشوا شيئًا إذن...

* * *

الأربعاء ٩ يوليو:

أشعر بخمول غير عادي بعد عودتي من (نيويورك)، وتلك الحكاية الغريبة التي كانت لي مع المدعو (لوسيفر).. لعله الحر.. لعله الإرهاق.. لعله الشعور بالوحدة..

لكنني أشعر بكلمات الأديب البرازيلي (ماشاو دوأوسيس): لا أدري من أين أبدأ الحياة!..

لا أجد في روحي الرغبة في عمل أي شيء سوى الجلوس في الدار أقرأ كتبًا عن السحر، وأقاوم رغبة التدخين التي تمزقني.. أشعر بالحاجة إلى إخراج هذا السم من حياتي بأي ثمن...

أتحرق شوقًا كى أذهب إلى المعمل لأرى تلك الصور التي كنت التقطتها قبل سفري إلى (نيويورك).. وهي تلك الصور التي بنى د. (لوسيفر) عليها قصته المرعبة الخاصّة بي...

القصة تتعلق بطالبين - فتى وفتاة . أحدهما من النوع المسمى (عدو الشمس) أو (ألبينو).. عرفت من طلبتى أنهما زوجان.. وأنهما حديثًا الظهور في كليتنا... وأنهما انعزاليان تمامًا وميالان إلى الانطواء...

أثارت ريبتى - في أثناء رحلة القناطر إياها - محاولتهما الدءوب من أجل الفرار من عدسة الكاميرا، حتّى ظننت بهما الظنون.. إلا أنني نجحت في التقاط صورة لهما خلسة على سبيل العناد، وأرسلت الفيلم إلى المعمل ونسيت كل شيء عنه..

إلى أن ذكّرني د. (لوسيفر) بالأمر حين قرأ لي أوراق (التاروت)، أمّا رؤيته الخاصّة لما سيحدث فهي أنني لن أجد أثرًا للزوجين في الصور عند عودتي إلى مصر.

التفسير: تفسير غريب ومضحك هو أن الزوجين قادمان من عالم آخر، ويتضح لي أنهما مخلوقان بشعان لزجان يهمهما بأي ثمن أن يستردا هذه الصورة.

والنتيجة: يتسللان إلى شقتى ليلًا ليستردا الصور، وتنتهي القصة بوفاتي. عليهما اللعنة. وبأبشع الطرق.

ملحوظة: إلى حدٍ ما تذكرني هذه الحبكة بحبكة فيلم (تكبير) لـ (أنطونيوني) الذي عرض في نادي سينما القاهرة العام الماضي - ١٩٦٧. وهو يناقش الصورة التي تبدو فيها جثة.. ويكون على المصور أن يواجه مطاردة لحوحًا من فتاة تريد هذه الصورة...

وطبعا لم يكن (أنطونيوني) يتحدث عن الموضوع من حيث كونه مرعبًا.. بل ليوحي بعبثية وهراء ما نكافح من أجله..

ما علينا...

غدًا سأستجمع عزيمتي وأرتدي ثيابي وأحلق ذقني ثم أبحث عن الحذاء (ليتني أذكر أين رميت هذا الأحمق).. وأذهب إلى معمل التصوير لأبحث عن هذا الفيلم...

* * *

الخميس ١٠ يوليو:

لقد فعلتها...!

أي والله!.. نجحت في الانتصار على حالة الجمود التي كنت أمر بها، وخرجت إلى المستشفى ثم عرجت على معمل التحميض إياه لأذكرهم بالفيلم... لكنّ الفتاة التي تعمل هناك (وهي بالمناسبة معتوهة نوعًا) قالت لي وهي تتأمل الإيصال وتشهق:

. لكنّ هذا منذ شهر تقريبًا.

ضغطت على أعصابي.. وقلت:

- لا أعتقد أن الأمر يتعلق بقصعة من الثريد لو لم أسارع إليها لنفد الثريد منها.. هذا الفيلم ثابت.. ولو أنني تركته عامين فالمفترض أن أجده هاهنا.

. أعرف.. لكنّ.. المشكلة هي أن...

وعكفت - مع فتاتين أخريين - نتفحص عشرات الأكياس الورقية التي تحوي أفلامًا أخرى.. ثم هزت رأسها في تعاسة:

. هلا جئت غدًا.. ربما كان...

تصاعد الدم إلى رأسي:

. إذن فنظام هذا المعمل لا يزيد على نظام سوق الأغنام...

في حرج قالت وهي تنصرف قاصدة زبونًا آخر:
. المشكلة أن حادث سطو قد وقع هنا منذ أسبوع.. ومن لحظتها اختلط كل شيء.. ثم جاءت الشرطة لتزيد الأمر سوءًا.. هيه!.. أفندم!.. متى أحضرت الفيلم؟
تركتها وركبت سيارتي وأنا أشعر بأنني عوملت بإهمال لا أستحقه..
وفي الطريق إلى دارى خطرت لي بعض أفكار أعتقد أنّها لا تخفى على ذكاء أحد...
يجب أن اتأكد..
أدرت قرص الهاتف في شقتي طالبًا (عبد المجيد) صديقي المحاسب الذي يقطن في شقّة تطل شرفتها على معمل التصوير..
وسمعت صوته الغليظ يتساءل عمن هناك.. فقلت في غيظ:
. إنّه أنا طبعًا يا أحمق.. من سواي؟
- لكنك لم تقل حرفًا.. فكيف تتوقع مني أن...؟
. لا عليك.. قل لي.. متى وكيف سرق معمل التصوير الذي أمام دارك؟
. اهتمام غير عادي.. على كل حال هو سُرق منذ أسبوع تقريبًا.. وسرقته لغز.. لأن السارق لم يمس شيئًا ذا أهميّة سوى... مجموعة من الصور الفوتوغرافية والأفلام التي لم يتم تحميضها!
. هل أنت موقن بهذا؟..
. حتمًا.. إن (سليمان) صديقي و... قل لي.. كيف حالك أولًا؟ ومتى عدت من (أمريكا)؟.. إن أسفارك هذه..
كان رأسي يهدر كمحرك توربيني عملاق..
أجبته بعبارات قصيرة، ثم جلست أفكّر في مغزى هذا..
ظاهريًا يبدو الأمر كلّه مجرد صدفة.. لكنني. وقد سمعت ما قاله د. (لوسيفر) - أشعر بهاجس معين.
لماذا لا تكون سرقة محل التصوير جزءًا من حماس هذين الزوجين لاسترداد صورتهما؟!
يبدو لي الأمر كذلك...
ولكن كيف عرفا أنني اخترت هذا المعمل بالذات؟..
للمرة الأولى أشعر بالذعر يغمرني.. لا يمكن أن يتنبأ (لوسيفر) بالمستقبل.. أنا أعترف له بقدرته على رؤية الماضي - ربما عن طريق قراءة الأفكار - لكنّ نبؤاته بصدد الغد أثبتت فشلها جميعًا...
إذن.. الأمر لا يعدو أن يكون صدفة..
غدًا - الجمعة - أعود إلى المعمل، وأحاول أن أجد صوري المأفونة هذه...

* * *

الجمعة ١١ يوليو:
بعد صلاة الجمعة قصدت المعمل إياه..

في هذه المرّة لم أجد هناك سوى تلك الفتاة البلهاء، حيث أن الجميع انصرف لتناول الغداء.. فما إن رأتني حتّى أشرق وجهها، ومدت يدها تخرج لي كيسًا ورقيًا.. وتقول:

. د. (رفعت إسماعيل)!.. لقد وجدنا صورك! سألتها وأنا أدس الكيس في جيبي وأناولها الإيصال:

. مرحى!.. أين وجدتموها!

. كان الفيلم السلبي معلقًا في غرفة التحميض.. فلم يفطن إليه أحد..

شكرتها.. وغادرت المعمل.

الآن يمكنني أن أعرف الحقيقة...

سأصاب بانهيار عصبي لو وجدت مكانًا خاويًا في هذه الصور.. لكني كذلك سأصاب بخيبة أمل لو لم أجد هذا المكان سأنتظر حتّى أصل إلى البيت.. وحين أخلو بنفسي هناك يمكنني فهم الموضوع برمته..

* * *

٢ - لا مجال للهلع..

الجمعة ١١ يوليو (تابع):

بيد ملهوفة رحت أتصفح الصور...

يا للسخف!.. كلها تظهر وجوهًا ضاحكة بلهاء تتراص في صفين.. الصف الأمامي جالس والصف الخلفي واقف، يحاول أفراده بأصابعهم أن يصنعوا آذانًا لأفراد الصف الأمامي..

كنت أعرف هذا، وسمحت لنفسى به للأسف..

ولعمري تلك هي مشكلة فن التصوير في مصر.. ما إن تصوب الكاميرا إلى مشهد طبيعي بارع الجمال حتّى تجد من يحشر نفسه حشرًا في الكادر ليرى كم هو جميل.. وبعد ثانية يحتشد عشرات المتطفلين حوله، ليغدو موضوع الصورة أبعد ما يكون عما كنت تزمع!.

دعونا من هذه الملاحظات...

آه!.. ها هي ذي الصورة...

في لهفة أدرسها.. أقربها من عيني.. حسن..

لا داعي لمزيد من القلق.. أنا أرى الفتى (الألبينو) وزوجته الحسناء بوضوح تام من خلف كتف الطالب إياه.. وأرى تلك النظرة في عين الفتى إذ أدرك أنني ألتقط الصورة...

لقد كان د. (لوسيفر) يهرف بما لا يعلم إذن..

هما مجرد زوجين طبيعيين يكرهان الفضوليين من أمثالي.. وأنا الذي كدت أجن كي أرى هذه الصورة!..

لا داعي لمزيد من الهلع إذن..

* * *

السبت ١٢ يوليو:
لا مفر من أن أقع في شرك (التقليدية) من جديد...
صحوت من النوم.. تناولت إفطارًا دسمًا (أحاول أن أزيد من وزني بضعة كيلوجرامات بعد الإقلاع عن التدخين).. ذهبت إلى المستشفى.. عدت للبيت.. طهوت لنفسي غداءً دسمًا لنفس الأسباب السابقة.. نمت.. صحوت..
خرجت.. عدت.. سأنام بعد إنتهاء هذه السطور إذن..
(لا أدري من أين يجيء أصحاب المذكرات بكل الكلام الذي يكتبونه إلى حد أنّهم يملئون مجلدات كاملة).

* * *

الأحد ١٣ يوليو:.
ناديت (مدحت) - أحد الطلبة عندي . وقدمت له مجموعة الصور السخيفة التي التقطتها مع الفيلم..، وطلبت منه أن يرفع عن عاتقى مهمّة إعطاء كل صاحب صورة صورته..
كان (مدحت) شابًا نحيلًا عصبيًا سريع الانفعال والصراخ، ممن يستعملون أذرعهم في التعبير أكثر من اللازم.. وهو كثير الحركة إلى حد أنك تجد قميصه دومًا وقد أبى أن يبقى داخل سرواله.. وتشعر كأنما هو خارج من مشاجرة دامية طيلة الوقت..
إنه يذكرني بشبابي إلى حدٍ كبير، ولعل هذا هو السبب في أنني أستريح إليه.. وأثق به أكثر من غيره..
قال لي (مدحت) وهو يحاول ألا يرفع صوته:
- هل يسمح وقتك ببضع دقائق يا د. (رفعت)؟
. في الواقع يا (مدحت).. أنا مشغول..
حك رأسه في توتر.. ثم بلل شفته السفلى بلسانه وغمغم:
. ثمّة شيء ما يضايقني.. و....
. إذن.. تعال لمكتبي غدًا..
وفارقته وأنا أعرف - بالتأكيد . نوعية ما يضايقه.. إن (مدحت) هو نموذج لذلك الشاب الطموح المندفع صاحب شهوة (إصلاح الكون).. إذن من الطبيعي أن يكون هناك دومًا شيء يضايقه..
لقد اعتدت منه . مثلًا . أن يجيء مكتبي ليقول لي في هستريا:
- سئمت الفقر والمرض!
كأنما - الأحمق - يتوقع أن عندي على مكتبي زرين.. زر خاص بمنع الفقر وزر خاص بمنع المرض.. وأن شكواه إليّ ستدفعني دفعًا إلى ضغط الزرين فيزول الفقر والمرض...
أحيانًا أخرى يقتحم المكتب هاتفًا:
- تبًا للحروب!
فأمد يدي باحثًا عن زر (وقف الحروب) على مكتبي، لكني لا أجد واحدًا.. للأسف..



إن موهبتي البارعة في الإنصات قد جلبت على الوبال.. وأعرف عشرات يحسبون مهمتي في الحياة هي الإصغاء كلامهم وهواجسهم.. لا أكثر...

إذن لي أن أتوقع أن (مدحت) يريدني لشيءٍ من هذا القبيل على غرار (يسقط الاستعمار) أو (فلتحي الإرادة الفيتنامية) أو أي شيء قد يتفتق عنه ذهنه...

في المساء:

بالمصادفة البحتة قابلت د. (محمد شاهين)..

أستاذ (الأنثروبولوجي) العتيد البريء كالأطفال..، إن علاقتي بـ د. (محمد) تعود إلى ذلك اللقاء العاصف في شقتي يوم كان يحسبني آكل بشر..، بعدها التقينا مرّات محدودة جدًا كان آخرها ذلك اللقاء في فيللا د. (سامي) ليلة راح كل منا يحكي خبراته مع الرعب.. ماذا كانت قصته هو؟.. لا أذكر بالضبط.. أعتقد أنّه تحدث عن قط خائف بلا سبب.. وصديقه الشبيه بالشيطان.. ربما كان ذلك... المهم...

كان كلانا يشعر بالخواء والحاجة إلى رفيق..، فأنا عزب قليل الأصدقاء، وهو أرمل في الآونة الأخيرة، وقد أدركت من نحوله وشحوبه أن أموره ليست على ما يُرام.. ولا غرابة في هذا.. فهو رجل يحتاج إلى زوجة عاقلة تمنعه من إيذاء نفسه أو ارتكاب حماقات تجلبها براعته القاتلة..

جلسنا في مقهى (الفيشاوي).. العبق الساحر الذي لا يزول لحي (الحسين).. وذلك الحزن المرهف لليالي الصيف..

استنشقت هواء المساء.. وتسربت قشعريرة إلى جلدي..، أريد أن أبكي ولا أعرف سببًا لهذا.. لقد أعاد إليّ هذا الرجل ذكرى حاولت أن أتجاهلها طيلة الوقت حتّى حسبتني نسيت...

لقد كانت (هويدا) موجودة في كل لحظة قابلته فيها!

كلا.. لم يكن حبًا.. بالتأكيد لم يكن كذلك.. لكنّه شعور دامٍ يؤلمني.. سمّه الألفة.. سمّه الاشتياق.. سمّه أي شيء... ومن يدري؟. لربما كان الأمر كلّه حنينًا إلى (رفعت إسماعيل) تلك الأيام التي لن تعود.

حول كوبين من الشاي الجيد جلسنا نثرثر... قرقرة الماء في (الشيشة) التي يدخنها باحتراف حقيقي.. وصراخ النادل.. وارتطام أحجار (الدومينو)..

قال لي د. (محمد) وهو يضع المزيد من قطع الفحم بالماسك:

. ما هي آخر أخبارك؟

. خواء.. لا أكثر..

- أنت اخترت هذا لنفسك.. لماذا لم تتزوج حين كان سنك مناسبًا؟

ثم استدرك.. وقال في حرج:

- لازالت سنك مناسبة.. أعني أنّها كانت مناسبة أكثر!

قلت وأنا أذيب مزيدًا من السكر في الشاي:

. إنني (هاملت) المصري.. البطل بلا بطولة.. أتكلم وأتكلم لكني أخشى أن أفعل.. لم أزل أعتبر من يقدمون على الزواج شجعانًا إلى حدٍ غير عادي.. ثم من هي البطلة التي تتحمل إنسانًا يقضي نصف يومه في القراءة.. ونصفه في النوم.. ونصفه الثالث - إن كان له نصف ثالث - في الاكتئاب؟

-.. والنصف الرابع في مواجهة الأشباح..!

ثم إنّه قال لي وهو يجرع جرعته الأولى من الشاي:

- عندي لك عروس مناسبة.. فقط إذا كنت جادًا..
تثاءبت.. وقلت في تعاسة:
.أنا متحمس.. لكنّ لا تبدو الحماسة على ملامحي.
.إذن نلتقي هنا غدًا لنرتب اللقاء..

* * *

الاثنين ١٤ يوليو:
عندي اليوم موعدان يثيران فضولي إلى حدٍ ما..
الموعد الأول: مع (مدحت) الطالب المتحمس إياه.
الموعد الثاني: مع د. (محمد شاهين) ليلًا للحديث عن زيجتي القادمة. وإليك ما حدث...
في العاشرة صباحًا كنت جالسًا في مكتبي منهمكًا في كتابة إحدى الأوراق العلمية، حين سمعت من يقرع الباب مستئذنًا للدخول..
رفعت عيني فوجدت (مدحت) على الباب.. وعلى كتفه تتدلى حقيبة يد صغيرة..
أشرت له أن ادخل ففعل.. أشرت له أن أجلس فجلس...
أشرت له أن تكلّم سريعًا.. فتكلم..
وكان ما قاله مثيرًا للاهتمام:
- أنت تعرف يا د. (رفعت) أنني من هواة التصوير.. ثمة شيء غير عادي لاحظته في تلك الرحلة التي قمنا بها معك إلى القناطر قبل سفرك..
سقط القلم من يدي ونظرت له بإمعان.. فأردف:
- كنت أشك في الأمر حتّى رأيت صورك وصور صديق آخر كان يحمل كاميرا هو الآخر... هل تأملت الصور بعناية؟!
ومد يده لي حاملًا مجموعة من الصور أخرجها من الحقيبة.. فتناولتها منه دون أن أبعد عيني عن عينيه هل سيقول هذا الفتى شيئًا مما يجول بذهني؟..
رحت أتصفح الصور دون كلمة.. لم أر ما يثير كل هذا الوجل لديه.. كلها مماثلة لصوري أنا.. ذات الوجوه الضاحكة في بلاهة..
قلت له محاولًا أن يبدو صوتي هادئًا:
- ماذا تراه هنا ويثير ريبتك؟..
اتسعت عيناه وتناول صورة منها ليشير إلى شخص يقف فيها:
- هذا هو (شريف السعدني).. وهو يتحدث إلى شخص ما..، وهذه الصورة.. يبدو فيها (ماهر) وهو يضع يده على كتف شخص ما..، أذكر هذه الصور جيدًا لأنني لم ألتقطها بنفسي.. هناك صديق التقطها لنا ليظهرني ضمن المجموعة..
.إن هذا ليس مبررًا كافيًا للذعر فيما أرى..
- كلا.. أنت لا تفهمني..
وفي لهجة أثارت الرعب في قلبي غمغم:

.أين أنت؟.. لا أجدك في أية صورة برغم أن (شريف) كان يحدثك.. و(ماهر) كان يضع يده على كتفك أنت..!!
.....!

* * *

٣ - أين أنا؟

الاثنين ١٤ يوليو [بقية]:
شعرت . كما هو متوقّع - بالذهول..
كان هذا آخر شيء أتوقع أن يقوله لي الفتى..
إذن ف د. (لوسيفر) لم يكن مخطئًا على طول الخط.. ثمّة شيء من صواب فيما قال.. لكنّه أخطأ بصدد الشخص..!
كنت شاردًا في كل هذا بينما الفتى يضيف:
-.. وحين رأيت صورك أدركت أنّه من المستحيل أن أكون واهمًا.. لأن صورتي وأنا أحمل الكاميرا وأصوبها تجاهك واضحة في عشر لقطات على الأقل.. بمعنى أنّه كان المفترض أن أجد بدوري عشر لقطات تبدو أنت فيها حاملًا الكاميرا..!
وابتلع ريقه:
- من المعتاد . عند وجود مصورين لذات الحدث . أن يظهر كل منهما مرارًا على فيلم الآخر...
بللت شفتي بلساني.. وتأملت الصور:
- هذا حق.. ولكن لابد من تفسير ما...
إذن كنت واهمًا بصدد الزوجين..
واحد فقط كان يستحق أن أبحث عنه في الصور بشك..
وهذا الواحد هو أنا...! ...
تساءل (مدحت) في قلق:
- هل تملك تفسيرًا لهذا يا د. (رفعت)؟
- بالطبع لا أملك.. كل ما أعرفه هو أنني لست شبحًا؟
قال وهو ينهض ويجمع صوره:
. أنا أعرف أن لديك خبرة بهذه الأمور.. لهذا...
- أية أمور؟!..
شعر بأنّه محرج.. وارتجفت يداه وهو يقول:
. هذه الأمور.. أعني.. كان واجبًا أن أنبهك.. لربما هو داء عضال في بدايته... أو...
قلت له في جديّة:
- اسمع.. أريد أن تبقى هذه الصور معي.. أريد كذلك أن يظل هذا الموضوع سرًا بيننا..
. أنت تعرف أنك تستطيع الاعتماد على يا د. (رفعت). وكانت هذه هي بداية اليوم... !..
ويا لها من بداية غير عادية!...
كان أول شيء فعلته بالطبع هو أن ذهبت لأتأكد من أن وجهي موجود في المرآة المعلقة في الحمام...

كل شيء كما هو.. ذات القبح والنحول والصلع والحمد لله..
ثم إنني تركت العمل مبكرًا، وهرعت إلى أحد استديوهات التصوير حيث طلبت أن يصورني من أجل جواز السفر بضع صور...
كنت متأنقًا في هذا اليوم بشدة وهذا من حسن حظ الصورة.. لكنّ المصور وقف خلف الكاميرا، وداري رأسه بمنفاخها بعض الوقت.. توطئة لأن يبرز رأسه من جديد ليقول في كياسة:
. هل ترى أن نؤجل هذه الصورة بعض الوقت حتّى يكون مظهرك ملائمًا؟!
عليك اللعنة!.. إنني لفي أفضل حالاتي اليوم..
. إنّه ملائم بالفعل!
وهكذا التقط لي الرجل الصورة غير مقتنع..
ودعاني أن أزوره غدًا لأتسلمها...
. وهل من طريقة لتسلمها الآن؟..
- للأسف.. مستحيل[1] هذا عن منتصف اليوم..

أما عن نهايته.. فقد ذهبت إلى (الفيشاوي) في المساء بحثًا عن د. (محمود شاهين)..
كان جالسًا على ذات المائدة يدخن الشيشة واضعًا ساقًا على ساق.. وقد استرخى كرشه أمامه.. وصلعته تلتمع بالعرق..
فما إن رآني حتّى هش وبش.. وطلب لي فنجانًا من القهوة..

قلت له في كياسة رأيي عن تدخين أستاذ جامعي للشيشة.. فخلع منظاره السميك كاشفًا عن عينيه الضيقتين المنهكتين. وقال:

- التدخين نفسه عادة همجية.. نوع من العربدة الذاتية.. فإذا أنت رأيت رجلًا يحرق نفسه بموقد الكيروسين بدلًا من موقد الغاز، فلا تلمه إلا على إحراق نفسه...

. منطق لا بأس به..

وأحضر النادل صينية عليها فنجان القهوة.. فجرعت جرعة ماء حتّى لا أصاب بالقرحة (فأنا لم أذق طعامًا من ليلة أمس لأنني لم أجد عندي رغبة في طهي إفطار ولا غداء..)..

شرعت أحكى له بعض الأكاذيب مستمتعًا بأنّه يصدّق كل حرف مما أقول.. لولا البلهاء - كما قال (مارك توين) - لما حقق الآخرون في هذا العالم أي نجاح...

وبعد نصف ساعة طلبت منه أن يحكي لي عن هذه العروس.. قال لي:

. هي تدرس الفلسفة في كليتنا، وقد فاتها قطار الزواج لأنّها انهمكت في عملها إلى حد أنّها لم تسمع صفارته إذ يرحل..

صحت في حنق:

- يا سلام!.. ولماذا أتزوج واحدة فاتها قطار الزو..؟

رأيت عينيه المرهقتين تحدقان في عيني.. وسمعته يقول:

- لأنك شخت حقًا يا (رفعت).. ألم تفهم هذا بعد؟

يا للألم!.. أبدًا لن يفارقني الشعور بأنني مازلت طفلًا.. أصغر من كل هذه الكلمات الكبيرة.. وفي لحظة احتضارى لن أشعر سوى بأنني طفل يموت.. لقد شخت حقًا..

قلت منهمكًا مستسلمًا:

- بلى.. أفهم.. حسن.. هل هي جميلة؟

توقعت أن يقول: فاتنة.. وكان هذا سيثير قلقي.. فأنا لا أثق بذوقه البتة.. فهذا الغرير لا يعرف حتمًا معنى كلمة (جميل).. لكنّه أراحنى إذ مط شفته السفلى.. وهز كفه بمعنى أن...

- بين.. بين.

لا بأس.. إذن هناك أمل.. مادامت لم ترق له..

- وماذا عن شخصيتها..؟

- بين.. بين.

وعائلتها؟..

- بين.. بين..

- وهل هي على شيء من الرجولة؟

- بين بين... ماذا؟.. هل تمزح؟

قلت وأنا أرشف القهوة:

- ظننت عتهًا أصابك فجعلك لا تردد إلا (بين بين).

ثم وضعت الفنجان متسائلًا:

. ومتى وكيف أراها؟



كان جالسًا على ذات المائدة يدخن الشيشة واضعًا ساقًا على ساق .. وقد استرخى كرشه أمامه ..

- تعالى إليّ غدًا في تمام العاشرة صباحًا.. وسنجد طريقة..
وهكذا.. جلست أرمق الجالسين في فضول.. وأدس بذور اللب بين أسناني.. غريب أنني نسيت تمامًا ما حدث صباح اليوم.. بالتأكيد هو مجرد كابوس أو خطأ مُعيّن.. سيتضح كل شيء لي غدًا.. أمّا الآن فلنحاول تسلية د. (محمد).. سألته في إغراء:
- هل تلعب الطاولة؟
- بالتأكيد...
. أنا لا ألعبها...!
لا أدري لماذا أشعر بأنني أستفز هذا الرجل..!

* * *

الثلاثاء ١٦ يوليو:
عرجت على ستدوديو التصوير فوجدته مازال مغلقًا.. إذن سنرى شأن هذه الصورة حينما نعود إلى الدار..
وهرعت إلى كلية الآداب، فوجدت د. (محمد شاهين) جالسًا مع اثنين من طلبة الدراسات العليا، يحدثهما عن تصوره لما ينبغي أن تكونه الـ... المهم.. دعونا من هذا...
بعد أن انصرفا سألني عن سبب شحوبي.. هل هو الحياء؟..
- الواقع أنّ هناك ما يثير توتري هذه الأيام...
ثم سألته مباشرة وبلا تمهيد:
- متى لا يظهر الإنسان في الصور الفوتوغرافية؟!
- سؤال غريب حقًا!
وتأمل الأوراق التي بين يديه.. ثم قال:
. قالوا لنا: إن الأشباح لا تظهر.. وكذلك لا يظهر مصاصو الدماء..
- ألا يوجد تفسير آخر؟
. لو كان هناك واحد فأنا لا أعرفه.. ولكن لماذا تسأل؟
قلت وأنا أنهض وأشير إليه أن يحذو حذوي:
. إن من لا يظهر في الصور الفوتوغرافية لهو إنسان في مأزق.. إذ كيف يستطيع هذا البائس أن يظهر في صورة العرس؟!
بدا الذهول على وجهه.. وظننت أنّه يحاول أن يربط الكلمات بعضها بالبعض.. لكنّه قال في سذاجة:
- لا داعي لصورة العرس.. أنا لم آخذ صورة عرس عندما تزوجت!
لن يفهمني هذا الرجل أبدًا..
لن يعرف أبدًا لحظات مزاحي من لحظات جدي.. وذهبنا إلى قسم الفلسفة.. فياله من مكان محبط!.. كنت أتوقع أن أرى الفلاسفة الرواقيين جالسين على درجات السلم.. وأن أجد من يمشي حاملًا فانوسًا.. أو أن أرى من يعيش في برميل.. لكنّه كان مكانًا عاديًا جدًا.. مكاتب.. وسكرتيرة تطبع شيئًا ما على الآلة الكاتبة.. وبعض طلبة يسألون عن ميعاد امتحان التخلف.. و...

. دكتورة (كاميليا)؟
كانت هناك.. تدير ظهرها لنا وتلتقط كتابًا ما من فوق أحد الرفوف...
ولمحت شعرًا كستنائيًا قصيرًا.. وتايورًا رمادي اللون.. ويدًا معروقة عصبية تتحرك هنا وهناك بحثًا عن صيد فلسفي جديد..
شعرت بالهلع.. إنّه كابوسي القديم.. سوف تستدير هذه المرأة لأكتشف أنّها مسخ ذو أنياب.. أو أن لها رأس ذئب.. أو..
لكن . لشدة الغرابة - رأيت وجهًا رقيقًا..
كانت ترتدي منظارًا أنيقًا يرتفع فوقه حاجبان متحديان.. وكانت تضع كمية هائلة من مساحيق التجميل.. لا أدري السبب في وجود علاقة طردية بين قوة شخصيّة المرأة وبين حبها لتلطيخ سحنتها بهذه الأصباغ، لتبدو كهندى أحمر من (الشيين) ذاهب لإحراق معسكر وعلى الفور راح (الكمبيوتر) في رأسي الأصلع يصنف ويفند.. ويضع هذه المرأة في ملف من ملفات البشر التي أحتفظ بها...
وكان الملف الذي دخلته د. (كاميليا) هو ملف (المثقفة الهستيريّة التي لا تهمد، والمدافعة أبدًا عن حرية المرأة).. وهو ملف مناسب إلى أن أعرفها أكثر.
كانت (هويدا) موضوعة في ملف (أنثى بلهاء تبحث عن عريس، ولا تقرأ سوى حظها في الصحف).
وكانت (ماجي) موضوعة في ملف (الصديق الذكي اللطيف).. وأنا نفسي موضوع في ملف (المتشائم المكتئب الذي زاده الخوف من الكون نحولًا).
ورأيت (كاميليا) تتقدم نحونا وعلى فمها ابتسامة متحفظة.. وهنا عرفت حقيقة مروعة..
عندما تنوي أن تبدأ مشروع زواج لا تصطحب معك أحدًا.. وبمعنى أفضل.. لا تصطحب د. (محمد شاهين) بالذات.. إن هذا الرجل لفضيحة تمشي على قدمين..
لقد راح يعرفني بالدكتورة (كاميليا) وعلى وجهه ابتسامة خبيثة.. وراح يقول كلامًا واضح المغزى.. ويغمز بكلتا عينيه.. و.. و.. حتّى إنني تمنيت لو تحولت يدي إلى قذيفة نوويّة أدسها في فمه ليخرس إلى الأبد...
قالت لي بصوت رجولي قليلًا:
. فهمت أن سيادتك من المهتمين بالفلسفة..
وقبل أن أرد صاح د. (محمد) في حماس، واللعاب يتطاير من شدقه:
- جدًا.. جدًا.. إن د. (رفعت) فيلسوف عالي المستوى.. إنّه يتفلسف في كل مكان.. في الشارع.. في العمل.. في الفراش.. في دورة المياه.. إن هذا الرجل هو - ما شاء الله - (أرسطو) مصر!
قالت في رزانة:
. عظيم!.. سيكون من دواعي سروري أن أتبادل الحديث معك. ولكن ليكن ذلك في وقت آخر.. حيث إن ظروفي...
ونظرت إلى ساعتها..، فهززت رأسي بمعنى أنني أقدر وأفهم.. ووليت الأدبار مع د. (محمد)...
سألني ونحن عائدان عما يجول بخاطري...
. لا أدري - قلت له . لا أعتقد أنّها تناسبني أو أنني أناسبها..
- هو مجرد انطباع.. تعال غدًا بدوني وجاذبها أطراف الحديث..

وهكذا... تم تأجيل الحكم في قضية زواجي..
الآن جاء وقت العودة لداري...
عرجت على ستوديو التصوير لأخذ صوري..، قال لي المدير في حيرة: إنّه اسف على الخلط غير المقصود الذي حدث..
.أي خطأ؟!
- صورتك يا سيدي.. لم تلتقط.. وجدنا (النيجاتيف) خاليًا من وجهك الكريم.. وبرغم هذا كان المنظر الخلفي موجودًا بكل تفاصيله.. لابد أن خطأ ما قد حدث.. ولكن.. يخيّل لي أنك ترتجف يا سيدي.. ترتجف!.. فما هو السبب في هذا؟!
.....

* * *

٤ - البحث عن سبب..

الثلاثاء ١٦ يوليو:
انقطعت علاقتي بالعالم الخارجي...
كان الذعر الذي عصف بعالمي يفوق الوصف...
إذن فالموضوع حق لا مزاح فيه ولا مبالغة ولا سوء تفاهم إن شيئًا ما شريرًا يحدث لي...
هرعت إلى المستشفى باحثًا عن د. (رأفت) زميلي.. وهو رجل صموت كالقبر.. أثق بكفاءته تمامًا..
حكيت له ما كان بصدد الصورة.. فبدا غير مصدق.
. لا توجد سابقة علمية تحكي عن شيء كهذا..
. إذن فما هو التفسير..؟
- خطأ بسيط.. ظن ذلك الطالب أنّه التقط صورتك ولم يكن هذا صحيحًا.. أمّا المصور فكان شارد الذهن حين التقط صورة لم تكن أنت قد جلست أمامه فيها.
- يبدو لي هذا مبالغًا في الاستنباط..
. لكنّه الحل الوحيد...
ووضع يده على كتفي في رفق.. وقال:
. أنا أسمع الكثير عن هوايتك للأمور الخوارقية والأشباح والبيوت المسكونة.. أسمع الكثير فأصدق ما أصدق وأكذب ما أكذب.. لكني أعرف شيئًا واحدًا.. إن هذه الهواية ستدمر السور الفاصل ما بين الحقيقة والوهم في عقلك الباطن..
- هل تعني؟...
. نعم.. كف عن لعب دور (صائد الأشباح) قليلًا.. وفكّر كطبيب..
نظرت إلى عينيه مناشدًا:
- هلا أجريت كل الفحوص الممكنة لي؟.. أريد التيقن من أن شيئًا ما لم يصبني..
- وما هي التحاليل الخاصّة بمرض (التلاشي الفوتوغرافي) هذا؟
. لا أدري..
تنهد في صبر.. وغمغم:
- سنقوم بتجربة كل شيء إذن...

* * *

وهكذا تحول (رفعت إسماعيل) إلى فأر تجارب..

أخذوا مني دمًا يوازي ما سال في معركة (حطين) من دماء.. رسم قلب.. رسم مخ.. فحص لقاع العين..

عينات من كل سوائل جسمي.. والنتيجة: لا شيء..

إذا ما تغاضينا عن تصلب الشرايين المبكر، وانسداد الشريان التاجي الرئيسي، وتحتل شبكية العين، والربو، والتهاب البروستاتا.. يمكن القول إنني بصحة ممتازة.. وإن جسدي يعمل كما كان دائمًا.. إلا أنّ الجزء الرديء من القصة بدأ حين وقفت لالتقاط صورة بأشعة (رونتجن) لصدري... وكانت النتيجة هي أن الفني عاد بوجه ممتقع ليصارحني:

- ثمّة خطأ ما.. الفيلم لا يظهر شيئًا على الإطلاق!

. تعني أن رئتي سليمتان؟

- بل أعنى أنّه لا توجد رئة على الإطلاق!.. لا يوجد شيء!

هذه هي الضربة القاصمة إذن...

الخطأ لا يتكرر ثلاث مرّات من أشخاص مختلفين...

ماذا قد حدث لي؟...

لا أفهم.. ولن أفهم قبل أن أهدأ قليلًا..

* * *

الأربعاء ١٧ يوليو:

لم يحدث لي شيء غير عادي.. وهذا في حد ذاته أمر مثير يستحق أن أكتبه في مذكراتي...

الخميس ١٨ يوليو:

عشرة أيام على بدء كتابتي مذاكراتي.. يبدو أنني سأواظب على هذا العمل الأحمق فترة أكثر مما توقعت.

نتائج الفحوص التي أجريتها تتوالى، وكلها طبيعية.. لا يمكن القول إنني أعاني مرضًا عضالًا معينًا..

سألت (رأفت) عن رأيه في كل هذا.. فحك رأسه وقال:

. الحق أنني لا أدري..

ثم ابتسم ونظر لي نظرة لا أفهم معناها:

. ما هي المشكلة في كون صورتك لا تظهر على الأفلام؟.. ألا ترى معي أنّ هذا في صالح القيم الجمالية على كل حال؟!

صعد الدم إلى رأسي:

- يا سلام!.. تريد أن أطمئن إلى ظاهرة مغايرة لكل قوانين الطبيعية.. والكارثة هي أنني محور هذه الظاهرة..!

- لكنك بصحة طيبة عمومًا..

ثم تنهد.. وقال في ملل:

- حسن.. هل ترى أن نستشير أحد المختصين بعلم البصريات؟

- أفضل أن يظل الأمر فيما بيننا حتّى أجد تفسيرًا..
وحين عدت لداري، رحت أحاول أن أضع تصورًا لما حدث لي..
أمسكت بورقة وقلم ودونت أفكاري:
أولًا: يوجد سبب ما يمنع انعكاس صورتي على الأفلام.
ثانيًا: هذا السبب قد يكون فيزيائيًا أو ميتافيزيقيًا.
ثالثًا: الأسباب الفيزيائية هي: تغير معامل انكسار خلاياي.. أو امتصاص جسدي لأشعة الضوء.
رابعًا: هذا التغير الفيزيائي غير المسبوق، قد ينجم فرضًا عن تعرضي لإشعاعات معينة.
خامسًا: السبب الميتافيزيقي لا يمكن التكهن به..
ولكن.. ما هو سياق حياتي في الفترة الماضية؟
هل تعرضت لإشعاعات أو مؤثرات غير عادية؟
يمكن القول إن آخر صورة رأيت فيها نفسي التقطت في (سويسرا) حين حلمت بذلك الحلم الكابوسي عن الغرباء..
بعد هذا واجهت جلسة تحضير أرواح في دار (سام كولبي) النصاب اليهودي، وُضعتُ في عوالم (إدجار آلان بو).
وبعدها حضرت جلسة (التاروت) مع د. (لوسيفر).
إذن فلو كنت قد تعرضت لمؤثر ما.. فهذا لم يحدث إلا مع (كولبي) أو (لوسيفر)...
طبعا لا داعي لأن أضيف أنني لا أحلم في هذه اللحظات.. وإلا كان الحلم تفسيرًا مريحًا جاهزًا...
إن رأسي يوشك على الانفجار...

* * *

الجمعة ١٩ يوليو:
كوابيس شنيعة تطاردني طيلة ليلة أمس...
تارة أجدني في كهف مظلم وسط حشد من الشياطين، يقومون بتنصيبي رئيسًا لهم.. وهو شرف لا أرحب به على الإطلاق.
وتارة أخرى أنا كائن شفاف كف عن أن يكون ماديًا.. وأبدأ في التساؤل بقلق: هل هذا هو الموت؟!!
وأنا يا رفاق أخشى الموت كثيرًا.. ولست من هؤلاء المدعين الذين يرددون في فخر طفولي: نحن لا نهاب الموت.. كيف لا أهاب الموت وأنا غير مستعد لمواجهة خالقي؟!.. إن من لا يخشى الموت هو أحمق أو واهن الإيمان.. وكفاني أن (عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه . أعلن أنّه يخشى الموت كثيرًا.. فأين نحن منه؟
لهذا يمكنكم تصوّر شعوري وأنا أحلم بأنني توفيت حقًا!..
أصحو من النوم غارقًا في العرق البارد، فأدخل الحمام.. وأتأمل وجهى المنتفخ المرهق في المرآة...
وهنا أتذكر شيئًا نسيته تمامًا.. لماذا لم أعد لمقابلة د. (كاميليا)؟..
كان النسيان قد حاصرني في ركنه الضيق المظلم منذ أيام... فلم يعد عندى متسع للتفكير فيها...
وقبل أن أتخذ قرارًا دق جرس الهاتف..
هرعت لأرد وأنا - كالعادة . أتوقع مصيبة..
سمعت صوت امرأة خشنًا كالرجال يسألني:
- د. (رفعت)؟
- هذه أنا.. (كاميليا)..!
. (كاميليا) من؟
. هل نسيت؟.. قسم الفلسفة.. يوم الثلاثاء الماضي.
يالها من مصادفة!.. وكيف عرفت هذه السيدة - أعني الآنسة - رقم هاتفي؟.. وكيف جرؤت على..
- .. مرحبًا يا دكتورة.. أنا.. أنا...
. لم نرك ثانية لاستكمال حديثنا الذي لم يبدأ.. رأيت أن أتخذ أنا الخطوة الأولى..
- و... ورقم هاتفي؟
. أعطانيه د. (محمد شاهين).. كنت أعرف أنني واجدة إياك صباح الجمعة حتمًا..
- بـ.. بـ.. برافو!
سألتني في لهجة عملية:
. ما هو برنامجك اليوم؟
- بـ.. برنامجي؟.. سأطهو طعام الغداء وأصلى الجمعة ثم أعود لأكله.. وبعد ذلك...
- حسن.. نلتقي في السابعة مساء عند...



وحين عدت لدارى ، رحت أحاول أن أضع تصورًا لما حدث لى ..

أمسكت بورقة وقلم ودونت أفكارى ..

وذكرت اسم إحدى الكافتيريات.. ثم ودعتني دون أن تترك لي فرصة الاعتراض، وأنهت المكالمة..

شعرت أن اللترات الخمسة من الدم الموجودة في عروقي، قد احتشدت كلها في رأسي.. واحتشد لتران منها في أذني...

هل حقًا سمعت ما سمعته؟..

لقد عرفت كثيرات بدءًا بفلاحات قريتي وانتهاء ببنات الأسر العريقة المتحذلقات في (إنجلترا).. لكني لم أر قط هذه الجرأة الوقحة.. التي أثارت حفيظة فلاح (الشرقية) الرابض في أعماقي...

وقلت لنفسي: إن هذه العانس تحاول أن تطبق قيودها حول الأحمق الذي جاءها يسعى طالبًا الزواج منها.. هذا هو التفسير الوحيد...

إلا أنني - في تمام السادسة مساء - وجدت نفسي أرتدي البدلة الكحلية التي تجعلني فاتنًا (وهذا رأيي الخاص طبعًا).. ورباط العنق الذي اشتريته من (نيويورك).. وقمت بتمشيط الشعر الأشيب على جانبي رأسي بعناية.. لماذا أفعل ذلك؟.. يا له من سؤال!

وفي تمام السابعة دخلت إلى الكافتريا أبحث عنها..، وكانت جالسة في ركن القاعة إلى احدى الموائد.. تتابع الموسيقا القادمة من مكان ما بحركات انسيابية من يدها...

الذي أثار هلعى أكثر من غيره هو أنّها تمسك بين أناملها لفافة تبغ!.. أبدًا لن أبتلع فكرة الأنثى المدخنة مهما اتسعت نظرتي لتحوي الكون ذاته..

يجب أن أفر.. يجب..

لكني لم أفعل...

مشيت نحوها وحييتها بهزة من رأسي وجلست...

قالت بالإنجليزية: إنني دقيق في مواعيدى، ثم قدمت الى علبة سجائرها.. فهززت رأسي أن لا...

- غريب هذا..!.. قالوا: إنك تدخن كمحرقة الجثث.

- كنت.. أحاول أن أموت بسبب آخر غير هذا.. وعلى كل حال.. من هم الذين قالوا لك؟

. كثيرون.. إنني أعرف عنك أشياء عديدة..

جاء النادل يرمقنا بشك، وعلى ثغره بسمة خبيثة..

فطلبت قدحًا من الليمون، ثم تذكرت أنني يجب أن أكون سخيًا هذه الليلة.. فطلبت قدحين..

وبدأت (كاميليا) تتكلم....

ولم يكن كلامها غبيًا أو مملًا بحال.. فهي تعرف ما تتكلم عنه...

تحدثت عن الفلسفة وعن دورها في الحياة، وعن ثقافة المرأة ونظرة المجتمع إلى استقلاليتها..، وعن تخلف الفكر الذي يرفض مشاركتها الرجل في كل شيء.. ثم سألتني:

- هل تحب الفلسفة؟

درت بعيني أتأمل الموائد حولنا.. ثم قلت بحذر:

- أعتقد أنّها (فن إضاعة الحياة).. الحديث عن القيثارة بدلًا من العزف عليها...

. إن ما تقوله لهو نوع من الفلسفة..

- ربما.. لكني لست فخورًا بذلك..

برغم كل شيء كنت أشعر بعدم راحة لجلوسي معها.. لم أمل طيلة حياتي لهذا النمط من النساء المتحديات المستفزات اللواتي يملكن نوعًا من الرجولة لا تخطئه العين..

قالت لي وهي تشعل لفافة أخرى:
. أردت أن أقول لك: إنك لم تعتد التعامل مع عقل امرأة.. وأنا سأكون عقلًا صديقًا لك.. أعرف أنك تتعامل مع الخوارق بكثرة.. ولسوف تحتاج إلى من يفكّر معك ويحلل معك ويفند معك.. دع هذا الدور لي..
. هل تهتمين بهذه الأمور حقًا؟
- حتمًا.. ولهذا حرصت على الظفر بصداقتك..
هل هى جادة؟.. إذن فالأمر لا يتعلق بالزواج.. إنّها تلعب معي دور الصديق الذكر الذي سيعينني في حل مشاكلي..
وكأنما عرفت ما يدور بذهني، قالت محذرة:
- لكني أنذرك.. إن لقاءنا لقاء عقلين.. فإذا حاولت أن تلعب دور فاتن النساء معي؛ فإن هذه ستكون نهاية صداقتنا..
صديق؟.. يا له من عرض مغر..!.. أنا أحتاج الآن إلى صديق أكثر مما أحتاج إلى زوجة.. لماذا لا أجرب هذا العقل الآن وأصارحها بمشكلتي التي تبدو بلا حل!..
رشفت جرعة من الليمون، ورحت أحكي لها قصتي مع الصور الفوتوغرافية.. بينما هي تصغي لي.. عيناها الرماديتان لا تطرفان إذ تحدقان في عيني بثبات خلف زجاج منظارها..
. وهكذا ترين أنني لا أملك أي تفسير لهذا..
ساد الصمت برهة.. وكادت تفتح فاها لولا أن سبقتها قائلًا:
- .. ولا تقولي إنني (وهم) كعادة الفلاسفة.. فأنا لن أفهم هذا السخف ما حييت...
ابتسمت بثقة.. وغمغمت:
- قصّة غريبة حقًا.. لكنّ دعنا نتحدث بصيغة فلسفية.. أنت تراني بمواصفات معينة.. غيرك يراني بمواصفات أخرى..، من هو المحق ومن المخطئ؟.. من أنا حقًا؟.. هل تفهم ما أريد قوله؟
- لا...
. أعني أن ما رأته الكاميرا هو حقيقتك..
. تعنين أنني شفاف دون أن أبدو كذلك؟
قالت وهي تدفن لفافة التبغ في المطفأة:
. أعني أنك تتحول تدريجيًا إلى شبح يا د. (رفعت).
.....

* * *

٥ - عدو الشمس..

السبت ٢٠ يوليو:
صحوت من نومي، فنهضت لأفتح خصاص النافذة.
وبدلًا من أن ينسكب ضوء شمس الصيف البهيج ليفترش الغرفة، شعرت أن دلوًا من حمض (الكبريتيك) قد انسكب فوق جسدي كلّه - ملايين الإبر الدقيقة تنغرس في لحمي...
ماذا أصاب الشمس؟.. ماذا حدث؟..
أغلقت النافذة بإحكام، وهرعت إلى الداخل..
وأمام المرآة تأملت وجهي..
لا مجال للشك!.. إن حروقًا صغيرة من الدرجة الأولى تنتشر على جلدي، وتحيط العينين وركني الفم..
ماذا دهاني وأنا نائم؟
هل أصبت بحساسية مفرطة تجاه الشمس؟.. أم أصبت بالبورفريا؟
أم.. ماذا أقول؟...
كدت أحاول ثانية لكنني أشفقت على وجهي من مزيد من الألم.. طفقت أدهن وجهي بالجلسرين.. ثم هرعت إلى الهاتف، وطلبت د. (رأفت) في داره...
- هذا أنا.. (رفعت)..
- أرجو أن تكون في مصيبة تبرر إيقاظي قبل موعدي بساعة.
- بالفعل.. لقد أصبت بحساسية مفرطة تجاه ضوء الشمس.. ولن يكون باستطاعتى الخروج للعمل.. إنني....
وارتجف صوتي على الرغم منى:
. (رأفت).. ماذا يحدث لي؟.. أنا خائف!
قال في توتر:
- يا للهول!.. سأكون عندك حالًا يا (رفعت).. فلا تخش شيئًا..
ووضع السماعة..
بعد نصف ساعة كان في داري..
شرع يتفحّص الحروق في وجهي باهتمام بالغ.. وازدادت تجاعيد وجهه عمقًا وجديّة...
ثم إنّه قال وهو يجلس على الأريكة:
- هذا غريب!
في حنق صحت:
. هل هذا هو كل ما تستطيع تقديمه لي؟
وضع ساقًا فوق ساق، وغمغم وهو يعقد ذراعيه على صدره:

- دعنا نتعقل قليلًا.. أريد أن تحكى لي كل شيء من جديد..
- .....

* * *

- .. وهذا هو كل شيء..
قال وهو ينقل ساقيه:
- لاحظت أنك تجاهلت الطالبين . الزوج والزوجة - تمامًا.. ونسيت كل شيء عنهما.. أرى أن نعيد البحث عن حقيقتهما من جديد، فلربما كانت لهما علاقة بالموضوع..
- يمكن أن يساعدك (مدحت) في ذلك.. هل تعرفه؟ ذلك الطالب المعتوه بالفرقة الرابعة.. إنهما زميلاه.. أمّا فيما يتعلق بي.. فما هو رأيك بالضبط..؟
نهض متثاقلًا.. وغمغم:
- الأمر يتلخص في حساسية ضوء شديدة.. لقد رأيت أسوأ منها.
. في ليلة واحدة؟!
. ما أكثر ما يجهله الأطباء..
ثم تمنى لي حظًا سعيدًا، ووعد بأن يفعل ما يراه صوابًا.. وتركني وانصرف..
يا للهول!.. لا أريد أن أكون وحيدًا.. يحرقني الإحساس المرير بأن هذه مشكلتي أنا فقط.. أتعذب وحدي.. أجن وحدي.. بينما يعود كل واحد إلى داره مسرورًا، يحمد الله على أنّه ليس أنا... أريد آخرين بأي ثمن...!

* * *

أمام المرآة عدت أتأمل وجهي...
هو نفس الوجه الذي اعتدت أن أراه أربعين عامًا..
ولكن ما سر التغير الذي طرأ لخلاياه؟..
ما سر هذا التبدل في خواص ذاتي؟..

* * *

عدت أطالع قصّة (الرجل الخفي) تحفة (ولز) الخالدة..، أعرف أنني لست خفيًا.. لكني كذلك بالنسبة للعدسات.. يا لها من قصّة ملهمة..!
في هذه القصة تمكّن ذلك الطبيب البارع من تبديل معامل انكسار خلايا جسده، لتصير مماثلة للهواء..
بالتالي صار شفافًا مثله مثل قضيب الزجاج المغمور في الماء.. والحقيقة أنّ هذا الرجل الخفي - الذي كاد يحكم العالم في القصة . كان أعمى..!.. نعم أعمى.. لأنّه لا يملك خلايا سوداء في شبكية

عينه، ولقد ارتكب (ولز) هذا الخطأ الجسيم في غمار انبهاره بطرافة المحتوى الأدبي للقصة..
مشكلتي أنا تختلف...
إن الكل يرونني.. لكنّ أفلام التصوير لا تستطيع..
فلو كان معامل انكسارى قد تغير - مثل بطل (ولز) - لصرت خفيًا تمامًا حتّى ولو صرت أعمى.. ولما رآني أحد.
إذن معامل انكسارى كما هو..
وجودي هو الذي تغير..
أنا وهم يحسب الآخرون أنّهم يرونه...
أنا شبح يخدع الجميع ولكنّه لا يخدع الكاميرا..
فإذا أضفنا إلى هذا كلّه ما طرأ من حساسيتي لضوء الشمس، لقلت: إنني أتحول إلى مسخ حقيقي.. شيء قريب من مصاصي الدماء أو ما هو أسوأ..
لماذا يحدث لي هذا أنا بالذات؟..

* * *

بعد الظهر تلقّيت مكالمة هاتفية من (صديقي) الجديد..
. هاللو!.. (رفعت)؟.. أنا (كاميليا)..
- ليس صعبًا أن تعرفي أنني (رفعت).. فلا أحد سواي يعيش هنا.. وليس عسيرًا أن أعرف أنك (كاميليا).. فأنا لا أتلقى مكالمات أنثويّة بتاتًا..
- يسرني أنك لا تحاول لعب دور (دون جوان)..
- (دون جوان)؟.. بمظهرى وحالتي الصحية؟.. أنا لا أملك مزاجًا يسمح بالمزاح..
- حسن.. ما هو برنامجك لهذه الليلة؟
. لا برنامج...
ضربت لي موعدًا للقاء، وكالعادة أغلقت السماعة قبل أن أتنصل أو أنتحل أعذارًا...
لم لا أذهب للموعد؟.. أريد أن أرى الشارع وأسمع صوت الناس يتشاجرون ويصخبون.. سيكون الموعد ليلًا ولن تضايقني أشعة الشمس بالتأكيد...
وهكذا...
تجدونني جالسًا معها في كافتريا أخرى، أرشف القهوة وأحكي لها عن الذي أصابني اليوم..
لم أعد بحاجة إلى الخيال كي أعرف مشاعر مصاص الدماء، الذي لا يخرج إلا مع انسدال الظلام، ولا يعود لداره إلا حين ينذر الفجر بالبزوغ..
قلت لها:
. قلت بالأمس: إنني أتحول إلى شبح.. ما هو في رأيك سبب هذا؟
- ربما لأنك فقدت علة وجودك..
اللعنة على كل هذا الهراء!.. لا أمقت شيئًا قدر أن أجد نفسي وسط متاهات لفظية لا تنتهي..، على الأقل أنا واثق من أنني لم أمت بعد.. وروحي تهيم.. تهيم؟!.

سألتها في قلق:

. سمعت أن المتوفين يظلون فترة لا بأس بها يمارسون حياتهم العادية، غير مصدقين أنّهم ماتوا، وأن الآخرين لا يرونهم.

نفثت دخان لفافة تبغها في وجهي وقالت:

. تعني أنك كذلك؟

- ربما...

- هذا هراء.. لا تصدّق أي حرف عن الموت مما يقوله العامة..، مادام أحد لم يعد من هناك ليحكي ما رآه، فكل هذه تكهنات..، كل ما أعرفه أنا هو أنك تنبض بالحياة أمامي.. أراك.. وأسمع صوت لهاثك..، صدقني في أنّ هناك تفسيرًا أكثر منطقية..

- وما هو؟

. لا أدري.. لكنني سأعرفه فيما بعد...

* * *

الأحد ٢١ يوليو:

كانت ليلة أسود من كل الليالي السوداء في حياتي محتشدة.. لم أعد بحاجة لرؤية الكوابيس في أثناء نومي، لأن حياتي ذاتها صارت كابوسًا متصلًا..

إلا أنني . فليحي التفاؤل - نهضت لأفتح النافذة، آملًا في أن يكون ما حدث أمس وهمًا أو حالة عارضة!..

أي ي ي!.. إنّه لعذاب لا يوصف!.. في هذه المرّة شعرت إن جسدي كلّه يغوص في فوهة بركان امتلأت بالحمم..

ألقى بي الألم فوق الفراش.. ثم تحاملت على نفسي فتدثرت بالبطانية، ونهضت لأغلق بوابة الجحيم هذه..

ترررررررررن!..

الهاتف من جديد.. إن تلقّي ثلاث مكالمات في أسبوع لشيءٍ يفوق طاقتي على الاحتمال.. يوشك هذا البيت أن يتحول إلى (سنترال) مركزي. ذهبت لأرد وأنا أعالج بيدي اليسرى كل تلك القشور التي انتثرت فوق وجهي، وعلى ساعدي الأيمن..

صوت د. (رأفت) الوقور:

. (رفعت)؟.. أهذا أنت؟

. لو كان سواي فالبيت مسكون.. و...

. دعك من السخرية.. وقل لي.. بخصوص هذين الطالبين المتزوجين اللذين تحدّثت عنهما.. قلت لي في أية فرقة؟

. الثالثة على ما أظنّ..

- حسن.. (مدحت) لا يعرفهما.. لا أحد يعرفهما في الكلية بأسرها.. بل يؤكد الجميع أن شخصين بهذه المواصفات لم يكونا في رحلة القناطر.. لابد أنّ هناك خطأ ما...

ولكن.. خطأ.. مستحيل!

هل فقد الجميع عقولهم؟

ربما أنني قد جننت أو في طريقي إلى ذلك..

والدكتور (رأفت) لم يزل يتكلم.....

* * *

7 - هو..

الأحد ٢١ يوليو [بقية]:

لن أطيل وصف حالة انعدام الوزن التي شعرت بها، بعد هذه المكالمة اللعينة.. أنت تفهم ما أريد قوله دون أن أتعب نفسي..

لقد رأيت هذين الزوجين بعيني..

سألت عنهما.. سألت كثيرين - و(مدحت) من بينهم. فقيل لي: إنهما زوجان حديثا الظهور في الكلية.. بل والتقطت لهما صورة..

كيف ينكر الجميع الآن وجود هذين؟.. هناك مؤامرة عامّة لجعلي أفقد عقلي، أو ربما أنا فقدته بالفعل..؟! ..

ولكن... الصورة!..

هذا حق.. الصورة التي التقطتها عندي، وفيها يبدو وجهاهما كأوضح ما يكون...

هذه الصورة دليل لا يُدحض على صدق ما رأته عيناي وسمعته أذناي...

هرعت إلى الخزانة، وشرعت أبحث فيها حتّى وجدت مجموعة الصور.. شرعت أفتش بلهفة حتّى وجدت الصورة...

الحمد لله!.. الآن أرى وجهيهما.. كنت سأنتحر حتمًا - بعد أن أفقد عقلي - لو لم أجدهما فيها، أو لم أجد الصورة أساسًا..

إذن أنا محاط بمجموعة من الكاذبين..

إلا أن شيئًا من القلق ظلّ يخامرني.. ذلك النوع من القلق الذي يدفع المرء دفعًا إلى أن يخرج من شقته (لحسن الحظّ أن مدخل الشقة معتم خال من الضوء).. يتجه بخطى ثابتة إلى شقّة جاره (عزت).. يقرع الجرس..

ينفتح الباب عن وجه (عزت) الكئيب الشبيه بمرضى الفشل الكلوي المتقدم..، مازال هو هو فيما عدا خصلة صغيرة من الشعر نابتة في أسفل ذقنه.. يحاول بها أن يبدو عبقريًا شاذًا..

كان بعد نائمًا كما هو واضح، وأدركت أنّه مازال وطواطًا آدميًا.. بومة بشريّة تصحو ليلًا وتغفو نهارًا.

. (رفعت).. ألا تنام أبدًا؟

- وأنت لا تصحو أبدًا.. أريد أن أسألك عن شيء..

ودسست الصورة تحت أنفه.. وقلت:

. صف لي ما تراه هنا...

قرب الصورة من عينيه.. وتثاءب.. ثم غمغم:

. أرى كتفًا.. ثم.. هآآآآه!.. ثم حديقة.. هل هذه الصورة ملتقطة في الإسكندرية؟ ربما (أنطونيادس)؟.. ولكن.. لا.. على كل حال ما أهميّة الكتف الذى يوقظني فجرًا بهذا الشكل؟

تساءلت في إلحاح:
- فقط ترى كتفًا؟.. أين الفتى والفتاة في هذه الصورة؟
أعاد التأمل ثم غمغم:
. هل هي أحجية؟.. لا يوجد فتى وفتاة هنا..!
انتزعت منه الصورة دون كلمة أخرى.. واستدرت عائدًا إلى شقتي.. متجاهلًا صوته الذي وصل لمسمعي يردد:
- هذا الرجل ليس على ما يُرام..
نعم.. أنا هو هذا الرجل..
فما إن أغلقت الباب علي نفسي، حتّى رحت أردد أنني لا ينبغي أن أجن.. لا يجب أن أفقد صوابي..
أولًا: اختفيت أنا تمامًا من الصور بشهادة الجميع.
ثانيًا: اختفى الزوجان تمامًا عن الجميع عداي، ولا يزعم أحد أنّه رآهما أساسًا..

* * *

رب قبح عند (زيد)
هو حُسنّ عند (بكر)
فهما ضدان فيه..
وهو وهم عند (عمرو)
فمن الصادق فيما يدعيه؟.. ليت شعري..
ولماذا ليس للحس قياس؟..
... لست أدري...
(إيليا أبو ماضي - الطلاسم)

* * *

صدقت يا صاحب (الطلاسم)..
أنا أفهم الآن هذه الحيرة الملتاعة.. عدم الفهم لما هو صواب وما هو خطأ.. هل أنا أهذي أم الآخرون يهذون؟ لعلهم يكذبون.. ولكن ما مصلحتهم في الكذب؟ ولماذا يجمعون عليه؟.. لا داعي لإضاعة وقتي في سؤال آخرين عن هذه الصورة.. فأنا أدرك في أعماق أعماقي أنّهم سيقولون الشيء ذاته: لا نرى أحدًا في الصورة..
ولكن لماذا أرهق نفسي بحثًا عن تفسير؟..
ما الضرر - حقًا . من أن أرى الزوجين أو لا أراهما؟
وما الضرر في ألا تظهر صورتي على الأفلام؟..
الضرر واضح.. إذ كيف أعيش بقية حياتي - إن كان لها بقية . عاجزًا عن رؤية النهار؟!..

* * *

الاثنين ٢٢ يوليو:

اليوم زارني (مدحت) حاملًا علبة من... الشيكولاتة!..

يا لك من أحمق يا (مدحت)!.. أنا لست مريضًا حتّى تعاملني بهذا الأسلوب المعقد... لكنّه قال لي في مودة:

- نفتقدك كثيرًا يا د. (رفعت).. إن عددًا من الطلبة كان يبغى زيارتك، لكني عرضت عليهم أن أقوم بذلك وحدي، حاملًا تحياتهم وعلبة من الشيكولاتة.. أعرف مدى كراهيتك للزحام...

- وكيف عرفت عنواني؟

. د. (رأفت).. هو من أبلغنا بمرضك..

ثم ابتسم في ذكاء، وقال:

. ألم أنذرك؟.. لابد أنّه مرض نادر يفقد المريض قدرته على الظهور في الصور!

. لا أعرف مرضًا مماثلًا سوى الموت..!

وجلبت له بعض المياه الغازية.. ثم جلست أرمقه وهو يجرعها محاولًا أن أسبر غوره...

- (مدحت)..

- نعم يا د. (رفعت)؟

- لماذا كذبت؟!

تقلص وجهه استبشاعًا للتهمة.. ونظر لي غير مصدق.. فقلت له ضاغطًا على مقاطع الكلام.

- أنت كذبت..، والآن لا يوجد هنا سوانا ولن يسمعك أحد.. أريد منك أن تفسر لي سر إنكارك رؤية هذين الزوجين في رحلة القناطر..، أنت رأيتهما.. وأجبت على سؤالي عنهما.. وقلت: إنك تعرفهما منذ فترة.. فكيف تقول الآن: أنّ هذا لم يكن؟

بدت الحيرة على ملامحه، ووضع الكأس جانبًا ليقول:

. أنا لا أفهم يا د. (رفعت).. لو كان شيء من هذا قد حدث فأنا لا أذكره.. لا أعرف طالبين متزوجين في هذه السنّ المبكرة، كما لا أذكر أننا تبادلنا كلمات كثيرة في أثناء الرحلة..

- مرّة أخرى تكذب!

بدا عليه الارتباك، فهو لا يعرف ما يقول.. وبعد هنيهة غمغم:

- لا أدري لماذا تهتم يا سيدى بهذين.. إن المشكلة الحالية بالنسبة لك هي مشكلة (التلاشي الفوتوغرافي).. وكنت...

. أنا من يحدد مشكلته لا أنت!

. أعني أنني لم أعر هذا الموضوع اهتمامًا.. و...

نهضت في عصبية، فرفعت الصينية التي كانت أمامه بما عليها من بقية زجاجة المياه الغازية.. واتجهت للمطبخ..

قال في ارتباك:

- لكني لم أفرغ بعد من...

صحت وأنا أعود، وأجذبه من ذراعه لينهض:
. لا أراك مستحقًا لشربها.. والآن دعنا نتفق على أنك شخص غير مرغوب فيه هنا، ولئن استطعت الإمساك بكذبك فلسوف أنسفك نسفا..!
وبحركة مسرحيّة أشرت للباب:
- اخرج!.. اخرج!
كاد الانفعال يدفعني إلى أن أقول له: اخرج يا عدو الله!، كما كانوا يفعلون في مسرحيات (يوسف وهبي) القديمة، لكننى تمالكت نفسي.. فاكتفيت بالمقطع الأول..
- ولا تنس هذه!
ووضعت علبة الشيكولاتة تحت إبطه، وقدته إلى الباب.. بينما هو يردد عبارات مختلطة بلا معنى ربما هي اعتذار.. أو محاولة لفهم الموقف.. المهم أنّه خرج خروجًا مهينًا.. للأسف لم أجرؤ على ركله فإن هذا كان سيريحني كثيرًا...
إن الذي يكذب عليك في وجهك عالمًا أنك تعرف كذبه، لهو إنسان فذ.. إنسان جدير بحطب جهنم..

* * *

الثلاثاء ٢٣ يوليو:
في ساعة مبكرة من النهار اتصلت بي د. (كاميليا) تسألني عن حالي، نسيت أن أقول هنا إنّها تعاني من الفراغ مثلى لأنّها تعيش وحدها.. والداها متوفيان..
وأخواتها متزوجات.. وأنا واثق بأنها هشة تمامًا تحت قناعها المتسلط الواثق من نفسه.. وأنّها بحاجة لإنسان.. أي إنسان...
. لم تذهبي للعمل اليوم إذن؟!
- اليوم إجازة.. عيد الثورة.. أم لعلك نسيت؟
. لقد فقدت اتزاني حقًا.. لم أعد أذكر من أنا..
ضحكت تلك الضحكة العالية الرنانة المميزة لهاته النسوة الهستيريات.. وقالت:
. ما هي أخبار التحول الشبحي؟!
ولفظت كلمة (تحول) باللاتينية (ميتامورفوزس) كعادتها، وأنا أجد هذا الأسلوب استعراض ثقافة لا أكثر.. ما هو عيب لفظة (تحول) وما الصعوبة في نطقها؟!..
قلت لها..
. المزيد من تساقط الجلد.. وأنباء محيرة للغاية..
. عن هذين الطالبين؟
- وكيف عرفت؟
- ربما منك..
ودار الحديث لفترة لا بأس بها.. لا أذكر حقًا عم تحدثنا، لكنّها كانت تسلية معقولة..

بعد انتهاء المكالمة، دق جرس الهاتف ثانية.. لم يعد هذا البيت (سنترالًا) مركزيًا.. بل هو أقرب إلى مركز إسعاف.. فلنر من هذا المتطفل:

- صباح الخير يا (رفعت).. هذا أنا.. (رأفت).

. أخيرًا.؟ حسبتهم أخذوا الهاتف من دارك..

. ما هذا الذي فعلته مع (مدحت)؟.. لقد حكى القصة في كل مكان، والكلية كلها تتساءل عن حالتك العقليّة.. يقولون: إن ولعك بالخوارق قد بدأ يؤثر في مخك..

- لقد استحق هذا.

تنهد في صبر.. وقال:

- لم يحدث في التاريخ أن طرد أستاذ تلميذه الذي جاء يحمّل له أمنيات زملائه بالشفاء.. حتّى لو كان هذا الأستاذ هو د. (فرانكنشتاين) نفسه..

لم أرد.. فقال وهو يحاول أن يهدئ من لهجته:

. على كل.. حاولت أن أحسن الوضع بقولي: إن مرضك قد جعلك عصبيًا..

. لا بأس.. إنّها لحقيقة..

وفي هذه الثانية دق جرس الباب، فاعتذرت من (رأفت) طالبًا أن يمهلني ريثما أرى من هناك...

وأزحت الرتاج ونظرت إلى خارج الباب المفتوح..

رأيت شابًا أبيض الشعر، أحمر الجلد من ذلك الطراز الذي يسموّنه (ألبينو).. أو عدو الشمس...

وفي اللحظة التالية أدركت أنّه هو.. الذي بدأت به هذه المأساة...!

* * *



رأيت شابًا أبيض الشعر ، أحمر الجلد من ذلك الطراز الذى

يسمونه (ألبينو) ..

مذكرات (آشتا)

هذا الجزء غير مكتوب على ورق، ولم يُستخدم الحبر في كتابته.. بل هو نوع من الرؤى، أو الإيحاءات التي هي إلى الهواجس أقرب..

١ - غير المدعوين..

١٨ (آشتا) عام ١٥٦٩ ٣٢:

ربما أنا أول مواطن من (أرض الأطياف) يجلس ليكتب مذكراته.. وهي لعمري عادة غريبة يمارسها (الماديون) أحيانًا كأن حياتهم ملحمة تستحق التدوين..

متى جئت إلى هذا العالم؟.. لابد أنّ هذا حدث من زمن سحيق إلى حد أنني نسيت كل شيء عنه...

إن تاريخ شعبنا لقديم للغاية.. ربما منذ اللحظات الأولى لوجود هذا الكون نفسه..، ونحن الآن. في عام الوميض ١٥٦٩ ٣٢. مازلنا لا نعرف الكثير عن نشأتنا...

كل ما نعرفه أننا كنا هنا دائمًا...

نحن نعيش مع (الماديين).، جوارهم.. أمامهم.. خلفهم.. في كل مكان يذهبون إليه.. لكنهم لا يروننا.. ربما لأن هناك عيبًا شنيعًا في عيونهم، أو في قدرتهم على التخيل..

أعرف أنّهم يؤمنون بوجود الجان، ولكن أحدهم - مهما بلغ من قوة تخيّل - لعاجز عن تخيّل وجود كائنات أخرى غير ماديّة في كل موضع...

إننا نحيا في ديارهم.. لماذا نبني بيوتًا خاصّة بنا مادام هناك من فعل ذلك لنا؟..

لكم سيدهشون!.. هذا الأعزب الذي يعيش وحيدًا كذئب متفرد ماذا سيقول.. وماذا سيفعل.. لو تصوّر لحظة واحدة أنّ هناك أسرة من عشرة أفراد تشاركه السكن تحت سقف داره؟!..

حتى مواصلاتهم نركبها، ولو أنّ المواصلات لا تمثّل مشكلة بالنسبة لشعب الأطياف.. لأننا نوجد حيث نريد متى نريد...

لا مشكلة هنالك بالنسبة لشعب ينتقل عبر الأثير، مخالفًا كل القواعد الطبيعية وقوانين المادة..، لقد اقترب بعض (الماديين) من الحقيقة.. منهم (آينشتاين) الذي قال: إن الكتلة تتلاشى إذا وصلت لسرعة الضوء، و(ستيفن هوكنج) العالم القعيد الذي تحدث عن الثقوب السوداء.. كلاهما اقترب من الحقيقة.. لكنّه لم يلمسها حقًا..

ومن الواضح طبعًا أن أحدًا من (الماديين). لم يفهم عم تحدث هذان العالمان الملهمان، وماذا أرادا قوله بالضبط.

نحن نعيش حول (الماديين) في كل مكان تقريبًا..

تعدادنا يفوق البلايين.. نعرف ونلاحظ كل شيء دون أن يتخيل أحد مجرد وجودنا...

قد يبدو هذا إلى حدٍ ما شبيها بما يقوله البشر عن (القرين).. لكنّ الموضوع يختلف تمامًا، ولعمري هذا هو ديدن (الماديين) الدائم.. إنّهم يضعون السحر والأشباح والجان والشياطين والأرواح والتجسدات.. كلها في سلّة واحدة.. ويخافونها كثيرًا!!.. بينما نحن نختلف بشدة عن هؤلاء.. وأبسط اختلاف هنا هو أن أحدًا لم يسمع عنا قط...

* * *

١٩ (آشتا) عام ١٥٦٩ ٣٢:

اسمي هو (آشتا).. أبي يُدعى (آشتا) وأمي تدعى (آشتا).. (آشتا) هو الاسم الذي يُطلق على كل شيء وكل فرد في عالمنا.. (آشتا) هو اسم الشهور كلها.. و(آشتا) هو اسم فصول السنة كلها.. و(آشتا) هو اسم حاكمنا.. ورئيس وزرائنا.. وكل سفرائنا..

تسألني - بعقلك المادي المتحجر . عن الفوارق بين كينونة وأخرى في عالمنا.. أقول لك: إننا نعرف ما نتكلم عنه.. لأن الكلام ليس من عيوبنا.. إن وجودنا هو وجود الأفكار ذاتها.. (التخاطر) - كما تسمونه . هو لغتنا الوحيدة.. وحين أفكّر في حبيبتي (آشتا)، يكون الجميع على علم بمن أعنيه بـ (آشتا).. لأن الجميع يرون صورتها في أذهانهم.. والآن دعني أقص عليك تفاصيل يوم في حياة رجل من (أرض الأطياف).

أعيش هذه الأيام في دار مستشار متقاعد.. عجوز لطيف المعشر رقيق الحاشية.. يقضى سنوات ما بعد المعاش في مشاهدة التلفزيون بعد ما تزوج أطفاله، ونسوا أمره تمامًا.. وتوفيت زوجته.. وهو الآن ينتظر النهاية في صبر...

لكن هذا الرجل الذي لا يخشى الموت، سيموت هلعًا لو عرف أنّ هناك من يشاركه المسكن.. بل والفراش ليلًا..!

نعم.. أين تتوقع مني أن أنام مادام بالبيت فراش واحد!!.. صحيح أن الرجل يغط في نومه كضفدع.. وصحيح أنّه يدخن كثيرًا، لكني أتحمل كل هذا...

أصحو في الصباح لأقرأ الصحف معه . من فوق كتفه - وأنا سعيد لبطء قراءته..

ثم يجلس إلى مائدة الإفطار، فأجلس معه..

وهنا الفارق الهائل بين (الماديين) والأطياف.. (الماديون) يلتهمون الفول والطعمية والجبن، بينما نحن الأطياف نلتهم الأفكار المنسية والذكريات.. هذا الركام الذي ينساه (الماديون) في أركان عقولهم هو طعامنا..

لهذا نحن مولعون بالأشخاص ضعاف الذاكرة، فهم يقدمون لنا طعامًا روحيًا لا ينفد.. أحيانًا تكون الأفكار فاسدة أو مسمومة من ثم نصاب بنزلة معوية حادة.. (كدت ألقي حتفي ذات مرّة حين أكلت أفكار أحد الصحفيين المشاهير!)..

وحين ينهض مضيفي من المائدة.. أكون قد امتلأت حتّى التخمة.. ويكون هو قد نسى شيئًا جديدًا...

ويفكر الرجل في الخروج لرؤية الشمس بالخارج..

هنا أكف عن ملاحقته..

فالشمس هي عدونا الأزلي، وهي قدس الأقداس بالنسبة لنا.. لقد خاف المصريون القدماء التمساح.. وربما لهذا عبدوه وجعلوه ينتظر الخطاة ليلتهمهم في العالم الآخر يبدو أن شعب الأطياف فعل ذات الشيء.. كنا نخاف الشمس لأنّها تبددنا وتحرقنا.. من ثم حرمناها على أنفسنا.. لكننا بجلناها واحترمناها..، وفي عقيدتنا أن من يتكلم عن الشمس يُنفى إلى عالم الضوء (سو) إلى أبد الآبدين..

لهذا يعيش شعب الأطياف حياته كلها في الغرف المغلقة المظلمة.. أو في ضوء (النيون) المعقم البارد لكنني كنت أشعر بعدم الراحة..

كنت بحاجة إلى أن أعرف أكثر...

يقول (الماديون) في أساطيرهم: إن (بروميثيوس) البطل الإغريقي كان متشوقًا إلى معرفة سر النار.. النار المقدسة التي تشتعل في جبال (الأوليمب).. لهذا سرق قبسًا منها، وعلّم البشر جميعًا كيف يصنعون النار..

(والنار هنا طبعًا هي رمز للمعرفة).. من ثم انتقم منه سادة (الأوليمب) بأن أرسلوا إليه (بندورا).. المرأة الفاتنة.. المرأة الفضولية التي جلبت الوبال على الجميع..

أعرف هذه الأسطورة لأنني قرأتها في كتاب نسيه مضيفي مفتوحًا على مكتبه..

كنت أنا .مثل (بروميثيوس) - ظامئًا إلى المعرفة.. ظامئًا إلى سر النار المقدسة: الشمس...

وكانت لدي (بندورا) أنا الآخر.. هي (آشتا)...

هل أصفها لك؟.. تريد ذلك؟.. هأنتذا تنسى يا صديقي أننا غير ماديين.. وأنّه من المستحيل أن أقول لك: إن شعرها كان لونه كذا.. وعينيها كان لونهما كذا.. و... و...

كانت طيفًا.. طيفًا رقيقًا.. أفكارها رطيبة منعشة كالنعناع (هل يقرب هذا الصورة من ذهنك؟.. كل (الماديين) يحبون النعناع).. وكانت لي وحدي.. لي منذ الأزل..

كل شيء كان يؤكد أنني و(آشتا) سنمتزج الامتزاج المقدس النهائي، الذي تنبعث منه أضواء وليدة تغدو أطيافا أخرى.. الكل كان يبارك امتزاجنا..

(آشتا) و(آشتا) و(آشتا) و(آشتا) و(آشتا).. حتّى (آشتا) وافق بعد تردد على امتزاجنا..

الليلة ألقاها في حديقة الحيوان.. وأبثها عواطفي.

* * *

الظلام يسود حديقة الحيوان.. إنّه منتصف الليل.. زئير النمور يتعالى في أقفاصها.. هذا طبيعي.. فالحيوانات ترانا بوضوح تام.. إن القطط تموء حين ترانا وتنظر لأعلى.. والكلاب تتوتر وتصدر زئيرا مكتومًا..

لا أحد من البشر هنا..، وحبيبتي (آشتا) قادمة تنساب فوق الأعشاب.. نحوي.. أشعر سرورًا في روحها.. وألقاها بمثله:

- .....

- .....!

آه!.. معذرة!.. نسيت أنني أحدث الأميين الذين لا يجيدون قراءة الأفكار.. ليكن.. سأحاول أن أترجم الحوار لكم:

- حبيبي (آشتا)!..

.حبيبتي (آشتا)!..

- متى يكون الامتزاج النهائي؟.. إلى متى نعيش في دارين متباعدتين؟

.حينما يقرر (آشتا) الأكبر ذلك..

تقول وهي تفكر في أشياء مبهجة للغاية:

- سئمت الحياة مع هذه (الماديّة) الكريهة التي أقطن دارها.. إنّها لا تكف عن قراءة مجلات الموضة، ووضع المساحيق على وجهها أمام المرآة.. لماذا تعتقد أن جسدها يستحق كل هذه العناية لمجرد أنّه ذو كتلة ماديّة؟!.. ثم هي تكذب.. وما إن تخلو بنفسها حتّى تتحول إلى شيطان...

- آه يا ملاكي!.. إن في حوزتنا من أسرار البشر ما يكفي - لو أعلن - لانتحارهم جميعًا ثلاث مرّات..

قالت وهي تفكر في الجمال المطلَق:

- حين نمتزج سنذهب لنعيش في فندق من ذوي النجوم الخمسة.. لابد أنّ هناك حجرة خالية من الأطياف.. في أحد الفنادق..

- للأسف إن هذا العالم مزدحم بالجان والأروح والشياطين - إلى جانب البشر طبعًا . إلى درجة أنّه لا يوجد موطئ لقدم.. كيف لو عرفت (الماديّة) التي تعيشين عندها أن غرفة نومها يغفو بها عشرة آلاف مخلوق غير مرئي؟!..

- آه!.. ستموت هلعًا بالطبع.. فلن يضايقني هذا كثيرًا..

قلت لها وأنا ألمس كيانها فينبعث ذلك الضوء الأخضر الغامض الذي حير العلماء.. فتارة سموه (ضوء سانت إلموس) في المناطق القطبية.. وتارة حسبوه ضوء حشرات مضيئة، ولم يعرفوا أنّه ضوء الحب.. قلت لها:

.إنني أعتزم القيام بمشروع غير عادي..

- وماهو؟

- أريد أن أعرف المزيد عن الشمس!.. أن أراها!

.هل جننت يا (آشتا)؟... كيف تجرؤ على لفظ كلمة شم... أعني قدس الأقداس!

- لا يمكن أن أعيش حياتي دون أن أفهم ما هي..

- ستحرقك بنيرانها.. ستتلاشى..

- ومن أدراك أنّ هذا يحدث؟.. علمونا هذا منذ الصغر. ولكن أحدًا لم يجرؤ على المحاولة..

- لقد فقدت صوابك!

- أريد أن أفعل مالم يفعله السابقون.. لأكون جديرًا بك وموضعًا لفخرك الدائم ..

- لن أفخر بك وأنت تخالف قانوننا الأزلي..

قلت لها وأنا أتأهب للرحيل:



لا أحد من البشر هنا ..، وحبيبتى (آشتا) قادمة تنساب فوق الأعشاب ..

- غدًا في الصباح الباكر أخرج إلى الضوء.. لأرى الشمس وأنعم بها.. فلئن هلكت فعزائي أنني هلكت وأنا أعرف..

وابتعدت عن مجال أفكارها...

* * *

٢٠ (آشتا) عام ١٥٦٩ ٣٢:

اليوم قد يكون آخر أيام حياتي، وقد يكون أهمها..

اليوم أعرف إلى الأبد ما تعنيه لفظة (شمس).. اليوم أتسلل عبر خصاص النافذة المغلقة إلى الخارج.

ومثلما فعل (برومثيوس).. أضحي بحياتي من أجل المعرفة..

(برومثيوس) قضى بقية حياته معلقًا بين جبلين يلتهم الرخ كبده في كل يوم.. وفي الليل ينبت له كبد جديد... لتتكرر المأساة... ماذا سيحدث لي أنا...؟

* * *

٢ - المارق...

٢٠ (آشتا) عام ١٥٦٩ ٣٢ [بقية]:
(سو)!.. (سو)!..
الضوء الساطع الذي جعلونا نخافه ونحتقره.. (سو)! القرص الذهبي المشتعل يسكب حنانه ودفأه فوق الأرض الثكلى..
لم أحترق.. لم أتلاش.. فقط عرفت السر.. فهمت حقيقة هذا الكون.. الإحكام المطلَق في كل شيء.. الخالق الأعظم سخّر هذا القرص؛ كي يهب الأرض الحياة.. إن هذا...
وفي لحظة تالية تلاشى كل شيء..
وجدت نفسي أقف في قاعة شاسعة ملأى بالبشر الذين يتناقشون في قضية ما..، ووجدت حولي عشرات الأطياف تحيطني..... وفي ذهنهم سمعت لفظة واحدة: العقاب!..
وعرفت أين أنا.. أنا في قاعة بمبنى الأمم المتحدة يتخذها شعب الأطياف للمحاكمات الكبرى..
وكان البشر غارقين في جدل شديد حول حرب (فيتنام) وإلزام الحكومة الأمريكية بالانسحاب..
في نفس وقت محاكمتي..
أما نحن الأطياف فكان حوارنا الفكري مختصرًا:
- أنت يا (آشتا) خرقت قانون الأطياف.. وتحدّثت مع (آشتا) عن الشمس.. بل وحاولت رؤيتها..!
- كنت أريد أن أعرف.. وعرفت.. وهأنذا لم يصبني ضرر
. لقد هدمت قدس الأقداس عندنا..
وهنا صاح أحد البشر في هستيريا:
. إن حكومة (سايجون) تحاول تبرير إمبرياليتها!
- أنت يا (آشتا) قد خرقت القانون عمدًا.. وجريمتك لا يمكن الدفاع عنها أو تفنيدها..
البشري مازال يصيح في البشر الجالسين حوله:
. نعم.. جريمة لا يمكن تفنيدها..!
- لهذا يا (آشتا).. عقوبتك هي النفي مع (آشتا) التي شاركتك التآمر.. النفي إلى عالم الضوء (سو) بلا رجعة.
- هذه الصور تثبت تورط السوفييت في مهاجمة القوات الأمريكية!
. ستكتسب أنت و(آشتا) مظهرًا ماديًا هشًا.. وتعودان إلى العالم المادي لتعيشا هناك.. أنتما لن تعودا طيفين.. ستفقدان (لاماديتكما) إلى الأبد...
. الرحمة يا (آشتا) الأكبر!.. ليس هذا!.
ولكن (آشتا) الأكبر كان صارمًا...
ولمحت (آشتا) العزيزة.. أفكارها ملأى بالهلع والتوسل.. كانت تتألم.. وعرفنا أننا سنصير بشرًا.. وأن أحدًا لن يرحمنا...

* * *

الأحد ٥ يونيو:

تم التجسد في إحدى الحدائق العامة.. وكان الوقت ليلًا..

الجسدان اللذان اختيرا لنا يمثلان شابًا وفتاة على قدر لا بأس به من الوسامة.. لكنّ - للأسف - حدث خلط في أصباغ الفتى، من ثم جاء شاحب البشرة.. من النوع الذي يسميه (الماديون) عدو الشمس.. أمّا (آشتا) فكان تجسدها موفقًا..

ووقفنا نرمق جسدينا في حيرة.. للمرة الأولى أرى (آشتا) الفكرة المجرّدة، وقد صارت فتاة جميلة.. كيف عرفت أنّها جميلة؟.. لا أدري.. يبدو أنني فقدت (لامباديتي) للأبد حقًا...

كانت تبكي وتولول.. لم لا؟..

لقد كانت الأحداث عاصفة.. منذ ثانية كنا في اليوم العشرين من (آشتا) عام ١٥٦٩ ٣٢.. واليوم نحن في اليوم الخامس من يونيو عام لا أدري كم بالضبط..

أنا من جلب لها هذا الوبال... البائسة!..

على أننا كنا بحال طيبة.. المشكلة الوحيدة هي أننا نعرف حدود هذين الجسدين اللذين يغلفاننا..

أولًا: لا تترك هذه الأجساد ظلًا..
ثانيًا: لا تظهر هذه الأجساد في الصور الفوتوغرافية [حاليًا يحاول العالم العظيم (آشتا) أن يحلّ هذه المشكلة بتطوير نوع الأنسجة التي تحيط بالطيف.. لكنّ أحدنا لن يستفيد من هذا الاختراع!].
ثالثًا: لا تحتمل هذه الأجساد الشمس بصورة مطلقة.. إن الشمس الساطعة تجعل جلدنا يحترق.
رابعًا: تحتاج هذه الأجساد إلى طعام، ولا يمكنها التنقل بحرية كما كان متاحًا لها..
خامسًا: يمكن جعل هذه الأجساد غير مرئية لبرهة محددة.. وهذا يفيد في وقت النوم أو الراحة، فلن نكون بحاجة إلى مسكن.. إن أي مكان يناسبنا..

* * *

الثلاثاء ٧ يونيو:
نحن في القاهرة.. المكان الذي كنا نعيش به ونحن طيفان.. لكنّ من أين نبدأ الحياة إذن؟...
نحن نعرف الكثير عن البشر.. فنحن نراقبهم طيلة حياتنا.. إن سننا ومظهرنا لا يصلحان إلا للتصنيف تحت قائمة واحدة: طلبة الجامعة.. لهذا.. ولنتمكن من ممارسة حياة طبيعية في هذا العالم المروع، لابد أن نلتحق بجامعة ما.. ونزعم أننا زوجان.. هذه هي الطريقة الوحيدة كى نبرر عزلتنا الدائمة.. كون (آشتا) متزوجة سيحميها من ملاحقات كل الأوغاد الذين يظنون أنّهم ذوو فتنة.. وكوني متزوجًا سيفسر عدم رغبتي في مصادقة أحد...
قمت بتزييف أوراق تقول: إننا طالبان في كلية طب (...)، إن كل شيء هين بالنسبة لمن يستطيع أن يكون غير مرئي..
وبدأنا نحاول الاندماج في الحياة الجامعية..
حاولنا أن نقنع أنفسنا بأننا سعيدان بكوننا (ماديين).
ولكن يا لفضول هؤلاء القوم..!
في كل مكان تذهب إليه، تجد عشرات العيون الفضولية ترمقك في غير ود.. فأكاد أصرخ: ماذا تريدون منا أيها الأوغاد؟!
تدخل إلى مكان ما فيرمقونك في ذهول، ولسان حالهم يقول:
تبًّا!.. إنّه يدخل!..
ثم تجلس فترى العيون تكاد تثب من محاجرها، لسان حالهم يقول: ياللهول!.. إنّه يجلس أيضًا!.. أية جرأة!
أمّا تناولك لمشروب غازي فإنّه يجعلهم يموتون من الذهول، وهم لا يصدقون أنك قد بلغت هذا المدى البعيد!
لماذا لا تتركوننا وشأننا أيها الحمقى؟!..

* * *



الجسدان اللذان اختيرا لنا يمثلان شابًا وفتاة على قدر لا بأس به من الوسامة ..

الخميس ٩ يونيو:

الفضول يغمر الجميع في الكلية بشأننا.. أحد الطلبة المولعين بالتدخل فيما لا يعنيهم جاءنا يعرض خدماته، لكنّه في الواقع يحاول معرفة (كنهنا) بالضبط.. عرفت أن اسمه (مدحت)...

قال لنا: إنّ هناك رحلة تقوم بها الكلية إلى القناطر الخيرية يوم السبت القادم، وأصر على أن نشترك معهم، لأننا . كما قال . نبدو أميل إلى الانطوائية، والانطوائية - كما قال - هي فطر سام يذبل في النور والهواء...

سألت (آشتا) بالتخاطر الذي لم نفقده بعد:

. ما رأيك؟

. لم لا؟.. يجب أن نندمج في هذا العالم بأي ثمن.. نحن لم نعد من شعب الأطياف.. لابد لنا من مكان ما.

ووافقنا على الرحلة.. كنا نستشعر الوحدة.. فقد حرمنا من رؤية الأطياف الأخرى للأبد برغم أننا نعرف أنّهم يروننا.. ويحيطون بنا طيلة الوقت..

ترى ماذا يقولون عنا الآن..؟

* * *

السبت ١١ يونيو:

كانت تجربة مريرة، الجلوس في حافلة يملؤها الصخب، وضجيج البلهاء.. وعرفت و(آشتا) أننا لن نتأقلم مع هذا العالم أبدًا.. إلا أننا شعرنا بارتياح لمشرف الرحلة.. وهو أستاذ جامعي يُدعى (رفعت إسماعيل). رجل نحيل كالأفاعي.. كئيب متعكر المزاج كخرتيت.. يدخن بإفراط كبركان...

كان يجلس وحيدًا يرمق كل هذا في اشمئزاز..

وشعرنا أننا . على الأقل - وجدنا واحدًا يشاركنا مشاعر الغربة..

لكن ظننا خاب حين وصلنا إلى مقصدنا..

فقد تكشف هذا الرجل عن فضولي غير عادي، لا يكف عن مطاردتنا بنظراته كلما ذهبنا هنا أو هناك..

وازداد الأمر سوءًا حين أخرج كاميرا فوتوغرافية، وشرع يحوم حولنا كقط حذر..

وأدركت مقصده على الفور.. إنّه يحاول أن يلتقط صورة لنا لغرض في نفسه!.. يجب منعه بأي ثمن.. وإلا سيفتضح أمرنا تمامًا.. محاولات عديدة بذلها.. ومحاولات عديدة فررنا بها. لكنّ فرارنا لم يزده إلا إصرارًا..

وجاءت اللحظة التعسة حين نجح في اقتناص صورة لنا، من وراء كتف طالب كان يخفيه عنا.. يا للكارثة!

قالت (آشتا) في هلع:

. انتهى الأمر.... لن يجدنا في الصورة، ولسوف تتراكم علامات الاستفهام حولنا.. لم تعد حياتنا ممكنة هنا.. فلنرحل..

- اصمتي يا (آشتا).. إن هذا الرجل سيدفع ثمن فضوله غاليًا..

وخطرت لي فكرة..

إن جسدينا يتكونان - تحت الجلد. - من طاقة.. طاقة ذات إشعاع يمكنه أن يؤثر في الفيلم.. إن صورتنا ستنطبع على الفيلم.. لكنّ بشريًا لن يراها.. لن يراها سوى كيان طيفي.. سوى كتلة من الطاقة..

لو أن (رفعت) هذا بدأ يتحول الي طيف، فإنّه سيبصر صورتنا على الفيلم دون جهد.. وفي ذات الوقت ستبدأ تغيرات غير مفهومة تصيبه.. ربما يجن.. ربما يفقد صوابه.. لا يهم.. لقد كان هو البادئ بالعدوان.. فلنبدأ انتقامنا.. الآن يا (آشتا).

وفي رحلة العودة بالحافلة ظللت و(آشتا) نواصل ما بدأناه.

تشابكت كفانا وشرعنا نوحد طاقتنا كي نزعزع كتلة خلايا هذا الرجل.. ببطء يتخلى عن ماديته ويغدو مثلنا.. مجرد صورة لا أكثر.. لكنّه لا يشعر بهذا..

وعرفنا أنّه حين يطبع الصور سيجد صورتنا واضحة أشد ما يكون الوضوح، لكنّ أحدًا سواه لن يراها.. لا بأس..

لن يدفعه هذا إلى الشك فينا.. بل سيشك في قواه هو العقليّة..

* * *

الاثنين ١٣ يونيو:

لم تنته المفاجآت الأليمة...

اقترفت (آشتا) خطأ جسيمًا في إحدى المحاضرات الختامية للعام، حين سألت المحاضر عن معنى لفظة (رئة) الإنجليزية..

وللحظة ظنها الرجل تمزح.. ثم أصابه الذهول.. وراح يردد:

- طالبة في السنة الثالثة بكلية الطب.. ولا تعرف أن (لانج) معناها رئة!.. إن هذا ليس جهلًا.. بل هو يدخل في نطاق الجريمة.. من أين أتيت يا دكتورة؟.. من المريخ؟.. هل أنت واثقة من أنك معنا هنا؟

بدا لي الرجل موشكًا على الإصابة بنوبة قلبيّة..

لكن المشاكل لم تنته..

فبعد المحاضرة فوجئنا بالطلبة يحتشدون حولنا ليمنعونا من مغادرة القاعة.. ورأيت المدعو (مدحت) يتقدم منا وفي عينيه نظرة عداء واضحة.. وسمعته يهتف:

- هذا حق.. من أنتما؟!

تعالى صوت طالب منهم:

- أمس سألته عن رأيه في مباراة (الأهلي والترسانة).. كل مخلوق في مصر تابعها أو سمع عنها.. أما هو فلم يعرف أصلًا أن هناك مباراة.. أكاد أقسم إنّه لم يسمع عن لفظة (أهلي) من قبل!

كان يتحدث عني.. وتعالى صوت رفيع لطالبة تقول:

- أما هي.. فلا تعرف شيئًا على الإطلاق.. لم تفهم معنى (ساتان) ولا (أورجانزا) ولا (بيديكير).. حتّى حين سألتها عن (الكوافير) الذي تتعامل معه تساءلت في حيرة: هل تعنين حاكم الإقليم؟!

قال (مدحت) وهو يكشر عن أنيابه:

- هذا هو السؤال.. من أنتما؟ هل أنتما جاسوسان إسرائيليان؟
- ربما هما من المريخ كما قال د. (محمود)؟
.أو طالبان مزيفان من هواة الطب..
كان الموقف يزداد سوءًا.. من الواضح - كما تنبأت (آشتا) - أنّه لا وجود لنا ولا مكان في هذه الكلية...
- (آشتا).. يجب أن نرحل..
- أنا معك.
تبادلنا هاتين العبارتين عبر سيل أفكارنا، الذي لم يسمعه هؤلاء..
- لكنّ يجب أن نمحو كل أثر لنا في عقولهم...
- تعني أن نلتهم كل هذا الكم من الأفكار؟.. سنصاب بتخمة..
- هذا هو الحلّ الوحيد..
وشرعنا نستخدم موهبتنا الطيفية...
شرعنا نبتلع كل الذكريات بخصوصنا من عقول حشد الطلبة المحيط بنا..، وحين انتهت مهمتنا كان كل واحد منهم يرمق الآخرين بنظرات زائغة.. وقد نسى كل شيء عن السبب الذي احتشدوا من أجله..
وانتهزنا الفرصة لنختفي عن عيونهم، قبل أن يرونا.. فيتذكرون..

* * *

الثلاثاء 14 يونيو:
قر قرارنا على الاستقرار في إحدى الجامعات الإقليمية، وفي كلية أخرى غير الطب.. فنحن لم نكن يومًا ممن يجيدون الإنجليزية أو اللاتينية.. على أننا شعرنا أنّ هناك شيئًا يتحتم علينا عمله قبل أن نرحل..
فمادام أمرنا قد افتضح، وانهارت خططنا في هذا المكان، فلم يعد هناك داع لكي نترك د. (رفعت إسماعيل) في طور اللامادية الذي يمرّ به.. لسوف يتعذب المسكين كثيرًا.. خاصّة حين يفقد تحمله للشمس (سو) ويحترق جلده.. ويغدو عدوًا للشمس مثلنا..
وهذا أمر متوقّع خلال شهر أو أقل...
إذن علينا أن ننتزع منه ما منحناه إياه من طاقة..
عرفنا عندئذٍ أن الرجل قد سافر إلى (الولايات المتحدة).. وأنّه سيبقى هناك شهرًا أو أقل قليلًا...
سيكون علينا أن ننتظره حتّى يعود كي نحرره...

* * *

الثلاثاء ٨ يوليو:

لقد عاد د. (رفعت إسماعيل) اليوم.. هذا حسن.. لقد مرّت رحلة (الولايات المتحدة) بسلام إذن، ولم يلتقط له أحد صورًا.. المفترض منا الآن أن نحرره دون أن يشعر هو بذلك.. لابد من عدد من اللقاءات الدانية معه تتيح لنا انتزاع طاقته.. ولكن كيف؟...

وكانت (آشتا) تملك الجواب...

الفتاة التي كانت (آشتا) تعيش معها عندما كنا في عالم الأطياف، هي أستاذة فلسفة عانس تدعى (كاميليا)..

وكانت (آشتا) قد درستها تمامًا.. عرفت كيف تتكلم.. كيف تلبس.. كيف تضع (الماكياج).. بل عرفت حتّى طريقة تفكيرها وأسلوب حياتها...

وخطرت لنا الفكرة المجنونة.. (آشتا) تتنكر لتبدو كالأستاذة.. (وهذا هيّن كل مع المساحيق التي تضعها هذه) وتذهب لتتعرف الدكتور (رفعت)..

وعن طريق لقاءات متعددة تتمكّن من استخلاص طاقته.. ولكن متى وكيف؟.. هذا هو السؤال...

* * *

الاثنين ١٤ يوليو:

الأمور تسير على ما يرام...

كنت قد قابلت بالصدفة - منذ ايام - رجلًا يدعى د. (محمد شاهين) يزور (كاميليا) في مكتبها.. وعرفت بالصدفة أنّ هذا الرجل هو صديق قديم لـ (رفعت إسماعيل)...

هذا رائع!.. سيكون هذا الرجل هو حلقة الوصل التي أريدها..

زرته في مكتبه، وقلت له: إنني صديق قديم وقريب لـ (رفعت).. وأن الجميع قلق، لأن قطار الزواج سيفوت هذا المخبول... ثم قلت له: إنني أرشح د. (كاميليا) لتكون مدام (إسماعيل)..

تحمس الرجل للفكرة، وأدركت أنّه طيب القلب إلى درجة البلاهة.. فطلبت منه أن يبقى الأمر سرًا بيننا، على أن يفاتح د. (رفعت) بالأمر كأنه عارض.. ومن بنات أفكار د. (محمد) وحده..

وفي نفس الوقت كانت د. (كاميليا) قد سافرت إلى (الإسكندرية) في رحلة قصيرة. وصارت دارها الخاوية ملكًا لي و(آشتا).. وهكذا صار لنا بيت وفراش وتلاجة وحمام...

وفي هذا البيت شرعت (آشتا) تستعد لكي تلعب دور د (كاميليا) حين يأتي (رفعت) ليراها غدًا..

كان الماكياج متقنًا، ومع المساحيق، والجمة كستنائية اللون، والمنظار الأنيق، والتايور الرمادي المميز لـ (كاميليا)، صار الشبه تامًّا.. خاصّة و(رفعت) لم يرها من قبل.. و(محمد شاهين) لا يرى أبعد من مترين.. أمّا بالنسبة للباقين في القسم، فمن قال: إن هذه هي د. (كاميليا)؟!.. إنّها دارسة نهمة للفلسفة لا أكثر...

* * *

الثلاثاء ١٥ يوليو:
تم اللقاء الأول ...

* * *

الجمعة ١٩ يوليو:
تم اللقاء الثاني في (كافتريا).. وحاولت (آشتا) أن تكون (كاميليا) تمامًا في كل شيء... لم يشك (رفعت) في أمرها.. لكنّ المهمة كانت أعقد مما تصورت.. يحتاج الأمر إلى كثير من التركيز لإنهاء هذه اللعنة التي تطارد (رفعت)..
المشكلة أنّها لن تستطيع ممارسة هذا التركيز دون أن تثير ريبته..

* * *

الثلاثاء ٢٣ يوليو:
لن تطول المهزلة أكثر من ذلك..
عرفت أن (رفعت) ملأ الدنيا صراخًا، وقد بدأ الناس جميعًا يتحدثون عن خباله، وتبدل طباعه.. وأنّه طرد الطالب الذي زاره حاملًا هدية الطلبة من أجل مرضه..
يجب أن ننهي عذاب هذا البائس حالًا، خاصّة أنّه عذاب بدون جدوى...
وفي الصباح توجهت إلى داره...
وقرعت جرس الباب في تصميم...

* * *

[عودة إلى مذكرات د. (رفعت)]

٧ - أطياف!

الثلاثاء ٢٣ يوليو [بقية]:
انتهى الفتى من سرد قصته، وراح يرتقب الانفعالات التي سآتي بها..
لكنني ظللت أرمقه في تراخ.. عاجزًا عن قول شيء.
قال لي وعلى شفتيه تتلاعب ابتسامة خافتة..
. ألن تلومني؟.. ألن تقول لي كم أنت محنق؟!
فتحت فمي.. وبصعوبة خرجت الكلمات:
- ود. (لوسيفر)..؟.. لقد كانت قصته أقرب إلى الصواب من كل شئ.. هل هذا الرجل....؟!
وصمت.. لكنّ الفتى أدرك ما أردت قوله..
قال في هدوء:
. إن د. (لوسيفر) - كما تسمونه . يعرف حقيقة وجودنا، وقادر على الاتصال بنا.. وأعتقد أن القصة كلها وصلته بشكل ما..
ثم أردف، وهو ينظر في عيني:
. إن ما قاله لك (لوسيفر) لم يكن رجمًا بالغيب.. بل كان يتحدث عن حقائق يعرفها.. وبالمناسبة: نحن نُسمّيه (هو)، وهناك من يسموّنه (خريولسن)..
. إن ما تقوله لغريب.. غريب حقًا.. حتّى إنّه يتجاوز قدرتي على الحكم الأخلاقي على الأمور.. لا أدري ما إذا كان كل هذا يدعو للحنق أم لا , لكنني غير قادر على الغضب..
ضحك الفتى - الذي لا أعرف كيف أناديه - وقال:
. هل لديك أسئلة أخرى؟
قلت وأنا أقذف بعض حبات النعناع إلى فمي:
- الواقع أنّ هناك احتمالًا لا بأس به في كونك تخدعنى.
- وكيف لي أن أعرف كل شيء عن مشكلتك.. وعن د. (كاميليا).. وعن د. (لوسيفر)؟.. وعلى كل حال.. الأمر هين..
ومد يده نحو مفتاح النور.. فأضاءه.. وعلى الفور غمر الضوء الحجرة.. وسار بتؤدة ليلامس الجدار..
قال وهو يجذبني لأقف جواره:
. انظر إلى ظلي.. وظلك..
نظرت إلى الجدار.. فوجدت ظلى الأصلع النحيل ينظر مشدوهًا أمامه إلى... إلى لا شيء...
إن الفتى لا يترك أي ظلّ على الجدار..!

. هل رأيت؟.. إن الضوء يمرّ عبر قناعي المزيف دون جهد.. ولهذا لا تنعكس صورتي على الأفلام...

- ولـ.. لماذا أرى أنا ظلي ما دمت مثلك؟

رفع كفه في كبرياء:

- لحظة من فضلك.. لست مثلي.. بل أنت في الطريق لذلك.. ولو أنني تركتك وشأنك لصحوت بعد شهر من النوم لتجد أنك لا تترك ظلًا..

ثم إنّه قادني عائدًا بي إلى الأريكة.. وجلس، وجلست.. وقال وهو يخلع حذاءه ويتربع جالسًا:

. والآن - وقد زالت الشكوك جميعًا . أرى أن تمنحني تفكيرك وكيانك كلّه يا د. (رفعت).. سأعمل الآن على شفائك من وصمة (التلاشي الفوتوغرافي) هذه...

. أكون شاكرًا لو أسرعت...

أمسك بيدي وأغمض عينيه...

* * *

أنا أحلق فوق المحيط بأجنحة من شمع مثل (إيكاروس).. الشمس.. لا أريدها!.. إنّها ستذيب أجنحتي.. إنّها ستجعلني أهوى من عل...

(إيكاروس) مات لأنّه دنا كثيرًا من الشمس.. من الحقيقة.. وأنا مثله أقترب.. وأقترب. دون أن أستطيع المقاومة..

أطياف في كل مكان.. أطياف تتأملني وتضحك.. برغم هذا أنا عاجز عن رؤية ملامحها..

زجاجة العصير انسكبت.. لكنّ النمر لم يلحق بالغزلان..، (آشتا).. (آشتا).. تناديك من الثقب الأسود.. القزم الأخضر لن يلبث طويلًا حتّى يتحول إلى ثقب.. ثقب أسود كبير.. لماذا لم يجروا لي جراحة اللوزتين؟.. ربما لأن (قابيل) قتل أخاه.. لو لم ير الغراب لما عرف كيف يواري سوأة أخيه..

السماء تتحول إلى خنجر عملاق يهوى فوق صدري.. وأنا ممدد على الكلأ مقيدًا بلا حيلة..

سيخرج هذا الخنجر كل الدماء الفاسدة.. كل الأوهام.. ربما يستأصل لي اللوزتين أيضًا.. (بو) كان يعرف كيف يفزعني.. والآن مات (بو).. فمن سيفزعني بعد هذا؟..

و (كاميليا) لها صوت رجل.. ترى هل هي تملك أحلامًا أنثويّة؟.. هل تحب الزهور والربيع؟.. السير (ماكيلوب) يرفع البوق إلى شفتيه.. وعما قريب يخرج وحش (لوخ نس) من البحيرة..

لا!.. ليس (ماجي)..... النبات المشئوم يمد سيقانه ليمتص دمائي.. إن (براكسا) تريد جسدى لتعيش فيه.. الاستحواذ.. (أينشتاين) كان عبقريًا.. و...

هوذا الثقب الأسود.. ليس ثقبًا وليس أسود.. إنّه مجرد باب يقود إلى بعد آخر.. وعلى جانبه يقف (آشتا) ملوحًا بذراعه اليمنى لي.. لا أرى ملامحه.. فقط ظله.

. هل حقًا انتهيت يا (آشتا)؟..

- نعم يا د. (رفعت).. أنت الآن حر.. لقد استرددت ماديتك.. وما أغربه من ارتباط!.. من المعتاد أن الحرية تعني الخلاص من الماديّة..

- وهل.. هل سأظهر في الصور؟..
- بالتأكيد.. وسترى الشمس دون وجل...
- وهل ستلتهم ذكرياتي عنكما.. وعن شعب الأطياف؟
- كان هذا منطقيًا يا د. (رفعت).. لكننا لن نفعله.. لقد وجدنا في رأسك عقلًا يمكنه استيعاب الفكرة.. عقلًا يمكن أن يحتفظ بالأسرار.. عقلًا شريفًا.. ولا نطلب منك سوى وعد بأن تحفظ سرنا..
- ولكن... أليس من الأوفق والأسلم أن تزيلوا ذكراكم من عقلي؟
- بالعكس.. نحن بحاجة إلى (الماديين).. يجب أن نتعلم منهم أكثر حتّى لا تحدث أخطاء جديدة..، ستكون أنت صديقنا الوحيد من بينهم..، ولك أن تتوقع زيارات أخرى منا..
. إذن أنا حلقة الوصل ما بين العالم المادي وأرض الأطياف؟..
. نعم.. لو افترضنا أنني و(آشتا) مازلنا طيفين..
والآن.. لا تضعف يا د. (رفعت).. لقد تركت في عقلك الباطن نسخة من مذكراتي.. وحين تصحو ستجد الأحداث هنالك.. لكنّ لا تضعف.. أريد أن تقسم أنّ هذا سر بيننا...
. أ.. أقسم أن...
. هيّا يا د. (رفعت).. إنني أنتظر...
. أ.. أقسم أن أحفظ السر..!
- حسن يا د. (رفعت).. أعرف أنّه بإمكاني أن أثق بك.. والآن يُمكنك أن تترك نفسك لأمواج النعاس اللذيذ التي تتقاذفك.. فكر في جزيرة بالمحيط بها كوخ..، الكوخ مصنوع من (البامبو)... داخل الكوخ يوجد بحار عجوز.. وببغاء.. وقيثار.. و...

* * *

كم الساعة الآن؟..
لقد جاء الليل.. غريب هذا!. إن رأسي يعجّ بالخواطر والأفكار.. لهذا جلست لأكتبها قبل أن تذوب كالآيس كريم.. أفكار هي أشبه بكيس مليء بالبيض الطازج.. لو لم أخرجها فورًا فلسوف يهشم بعضها البعض...
وقد انتهيت الآن فقط من كتابة مذكرات اليوم الثالث والعشرين من يوليو أهم يوم في حياة مصر.. وأغرب يوم في حياتي الخاصّة..

* * *

الأربعاء ٢٤ يوليو:
ظللت حبيس الفراش طيلة اليوم لا أجرؤ على الخروج إلى ضوء الشمس.. لا أدري ما هو صواب وما هو وهم...

* * *

السبت ٢٧ يوليو:

للأسف.. الشمس غائمة اليوم.. لن أعرف الحقيقة أبدًا.. مدفوعًا بفضول لا يهمد اتجهت إلى كلية (الآداب).. وسألت في قسم الفلسفة عن الدكتورة (كاميليا)..

قالت السكرتيرة في لا مبالاة.. وهي مستمرة في الطباعة على الآلة الكاتبة:

- حظ حسن.. لقد عادت اليوم فقط من الإسكندرية!

سرت متوترًا نحو الغرفة التي علقت على بابها لافتة خشبية تقول (أ.د. كاميليا منصور).. وقرعت الباب بحذر:

- ادخل!

دعاني الصوت الرجولى الخشن فدخلت.. كانت هي.. هي بعينها.. لكني لاحظت أنّها لم تبد سعيدة أو متحمسة للقائي.. قلت لها وأنا أجلس:

- لم تتصلي بي منذ أربعة ايام

- أفندم؟!

- منذ أن جلسنا في الكافتيريا نتحدث عن التلاشي.. لم...

رأيتها تنهض وقد رفعت كتفيها.. وعلى وجهها أعتى علامات الغضب.. وعندئذ عرفت أنّها حقًا ليست هي.. لون العينين مختلف.. الذقن مدبب ومشقوق.. التجاعيد أكثر.. المساحيق أقل.. ليست هي... والآن يجب أن أفرّ.

- هل جننت أيها المخبول؟.. أنا أجلس معك في كافتيريا وأتصل بك في دارك؟.. عم تتكلم بالضبط يا أستاذ؟.. أنا لم أرك في حياتي.. يا لها من وقاحة وقلة حياء!.. يا (شعبان)!.. (شعبان)!

لقد فتحت بوابة الجحيم على نفسي، وحين تبدأ هاته السيدات قويات الشخصية القياديات في الصراخ، فلن يُسكتهن سوى الديناميت.. وها هو ذا (شعبان) الساعي يهرع إلى الغرفة ليعرف سبب هذا الصراخ...

-- خذ هذه الحثالة وألق بها إلى الخارج!

ثم تنهدت في إعياء.. وأردفت:

- إنّه يتهجم علي...!

* * *

خاتمة..

إلى هنا تنتهي الفترة التي اقتبستها من مذكراتي، ولربما أعود لهذه المذكرات مرة أخرى حين أجد ما يستحق.. فهي - قطعًا - ملأى بكلام لا طائل من ورائه.. وخواطر سخيفة.. ومشاريع لم تتم قط...

انتهت القصة إذن بهذا الموقف المحرج، ووجدتني أرمي إلى الخارج رميًا.. لكنني على الأقل تأكدت تمامًا من أن كل ما حدث لي لم يكن وهمًا...

قابلت د. (محمد شاهين) بعدها في (الفيشاوي)، وسألني عما حققت من نجاح في موضوع الزواج، فقلت له - بخبث - إنني لا أعرف سبب تبدل طباع (كاميليا)، وطلبت منه أن يتوسط لي عندها فوافق متحمسًا..

وقد كان..!..

صحيح أنّها لم تطرده ولم تلق به في الشارع لأنهّا تعرفه جيدًا، لكنّها ظنت بحالته العقليّة الظنون حين راح يحكي لها تفاصيل لقائي معها.. بينما هي لم تكن في القاهرة أصلًا!..

هذا عن (كاميليا)..

أمّا عني أنا.. فلا داعي لأن أقول: إنني هرعت إلى ستوديو التصوير، وطلبت التقاط صورة لي..

وفي اليوم التالي وجدت، صورتي المفزعة، فبدت لي أجمل ما رأيت في حياتي..

ومن نافلة القول أن أقول إنني عدت أتحمل الشمس.. وصارت أشعتها الذهبية الفاتنة صديقتي الدائمة..

* * *

أما عن آخر ذيول القصة - علاقتي بطلبتي - فقد تكفل به (مدحت) نفسه.. الذي شرحت له مدى توتري وتدهور صحتي في تلك الأيام الكئيبة...

يذكر القارئ أنني تحدثت عن (أشخاص) ما.. في مقدمة قصتي مع حارس الكهف (العدد السابع)...

قلت لك: إنهم انصرفوا.. وأبيت أن أذكر أية تفاصيل عنهم..

الواقع أن الوقت قد حان لأعلن هذه الحقيقة التي كنت أحاول إرجاءها بعض الوقت..

إن (آشتا) و(آشتا) و(آشتا) - الثالث له ظروف مماثلة لهما - مازالوا يزورنني من حين لآخر..

أحيانًا يقرعون الباب..

وأحيانًا أجدهم فجأة أمامي داخل الشقة..

طبعًا هذا الكلام لا أجرؤ أن أخبر به أحدًا سواك لأنّه يشبه - إلى حدٍ كبير - ما يقوله المجانين..

هؤلاء الضيوف غير المدعوين يجيئون إليّ من حين لآخر ليحكوا لي المزيد عن عالمهم..
طبعا لم تنجب (آشتا) لأن جسدها مجرد قشرة، بلا رحم ولا مبايض ولا أي شيء.. لكنهما سعيدان معًا.. وهما - بعد ربع قرن أو أقل قليلًا - ينتقلان من بلد لبلد.. ويعيشان في إطار جديد في كلّ مرّة..
والسبب - حتمًا - هو شبابهما الدائم الذي سيثير الأقاويل حولهما إذا استقرا للأبد في مكان واحد.. اليوم هما زوجان يعملان في محطة بنزين في (فلوريدا).. غدًا هما طالبان في كلية الهندسة بـ (موسكو).. بعد غد هما يبيعان الشاي في (غرزة) على طريق (سمنود).. المهم أنهما معًا.. وأنهما يفران من عدسات الكاميرا ومن الشمس الساطعة..

* * *

والآن...
أسمع عواء - أو خرير - وحش أسطوري مرعب، يتحرك في أقبية الأساطير الإغريقية قادمًا نحوي.. ليضيف ذكرى مروعة جديدة إلى ذكرياتي...
إن (المينوتور) قادم.. ومعنى هذا أن ندعو الله ألا نكون نحن ضحيته القادمة.. سأحكي لكم التفاصيل كلها.. ولكن هذه قصّة أخرى.

د. رفعت إسماعيل - القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ -حكاية صورة..

٢ -لا مجال للهلع..

٣ -أين أنا؟

٤ -البحث عن سبب..

٥ -عدو الشمس..

٦ -هو..

مذكرات (آشتا)

١ -غير المدعوين..

٢ -المارق...

٧ -أطياف!

خاتمة..

روايات
مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة عدو الشمس

قالوا إن الأشخاص الذين لا ينظرون في عينيك مباشرة ، هم أشخاص لا يستحقون ثقتك .. فلا تأمن لهم أبدًا ، تُرى ماذا يقولون عن الأشخاص الذين لا تظهر صورهم على الأفلام الفوتوغرافية ؟ .. الأشخاص الذين لا ظل لهم .. والذين لا يتحملون ضوء الشَمس ؟ الأشخاص الذين يوجدون حولنا ولا نعرف عنهم شيئًا ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة المينوتور

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

لا تنسوا أن الأحداث في نهاية الستينات.. حين كانت الصور الفورية نوعًا من قصص الخيال العلمي..

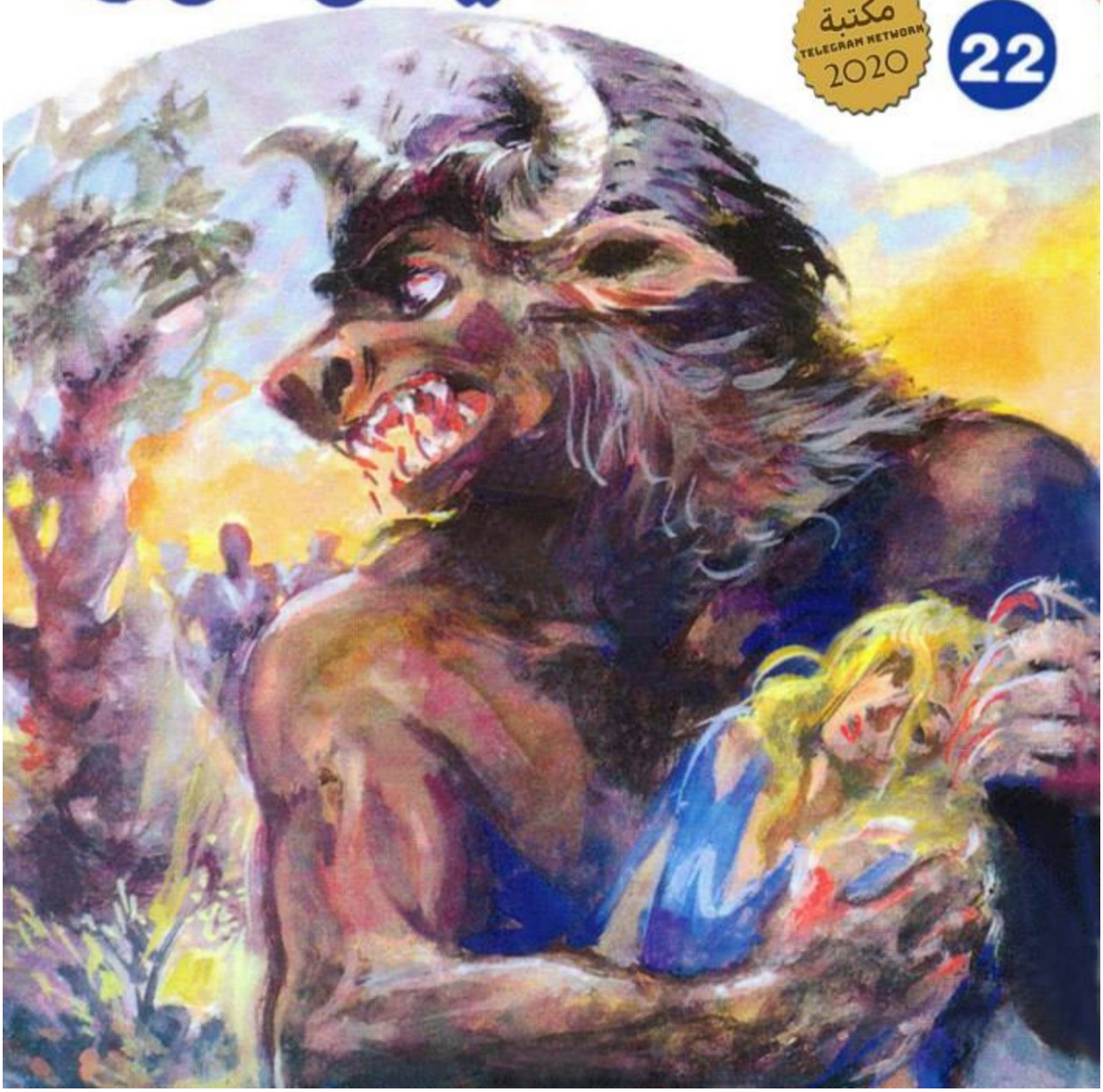
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة المينوتور

22

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

أنا د. (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد.. ومريض القلب الدائم.. والعزب الأبدي..

أنا الذي واجه (العساس).. وواجه لعنة (شاكال) النارية.. وضاع في عوالم (آلان بو).. وغاص في قلب الحقيقة إلى الحد الذي تسمح به آدميته..

أنا الشيخ الفاني الذي تشبه حياته ورقة في شجرة صفصاف إبّان الخريف..

الكل ينتظرها كي تسقط..

الكل يعرف يقينًا أنها ستسقط..

ناموس الحياة يقول إنها ستسقط..

لكنها لم تسقط بعد..!

تسألونني عن سبب بقائي فوق الشجرة حتى هذه اللحظة.. أية فيتامينات أبتلعها؟.. أية أطعمة أمتنع عنها!.. أية رياضات أمارسها؟

أقول لكم إنني أفعل كل ما من شأنه أن يقضي على حياة سلحفاة عمرها عامان.. والتفسير الوحيد عندى هو أن أجلي لم يحن بعد..

أجلي لم يحن بعد..

لهذا أدعوكم الليلة ـ من يدري؟. لربما كانت الأخيرة ـ إلى أن تصغوا لقصة أخرى..

يبدو أن الوقت قد حان كي أحكي لكم قصة (المينوتور)..

اليوم نعود من جديد إلى عوالم (الميثولوجيا) الإغريقية. وكالعادة ـ كما حدث مع رأس (ميدوسا) ـ لن يكون اللقاء مبهجًا على الإطلاق..

سموه الرعب.. سموها الكآبة..

المهم أنكم هنا.. وأنكم تتطلعون في شغف إلى لقاء (المينوتور).. لهذا دعونا لا نضع وقتًا في ثرثرة الشيوخ هذه ولنبدأ..

* * *

١ - الأسطورة..

مينوتور: (مينوس + توروس) في الإغريقية. وحش يبدو نصفه كإنسان ونصفه الآخر كثور. يعيش في المتاهة التي بناها (ديدالوس) لـ (مينوس). كانوا يقدمون له قربانًا سنويًا من سبعة فتيان وسبع عذارى، إلى أن قتله (ثيذيوس).

[قاموس (وبستر) الشامل]

* * *

مرّة أخرى نعود إلى عالم الأساطير الإغريقية المعقد المتشابك، الرائع برغم ذلك.. والذي كوّن جزءًا هامًا من تكوين عقولنا، لا ندرك أهميته إلا حين نتحدث عن بطولات (هرقل).. أو نستعمل (أطلس) البلدان.. أو نصف فتاة حسناء في قصائدنا بأنها (فينوس).. وحتّى أول مركبة فضاء لمست القمر كان اسمها (أبوللو)..

في هذه المرّة سنقصد جزيرة (كريت) لنلقي الفنان البارع والمهندس الإغريقي الموهوب (ديدالوس)..

تذكر الأساطير الإغريقية لـ (ديدالوس) إنّه هو أول من حاول الطيران في التاريخ، مستعملًا جناحين من شمع.. وللأسف جرب هذا مع ابنه (إيكاروس).. ولقد انتاب الحماس هذا الأخير حتى أنه دنا من الشمس أكثر من اللازم.. وذاب جناحاه ليهوى غارقًا في المحيط..

كما يذكر لـ (ديدالوس) أنه هو من بني (اللابيرنث) أو (المتاهة) في (كريت).. وهو الحل السعيد الذي وجده الرجل للتخلص من كارثة بيولوجية حطت على هذه الجزيرة..

لقد كان لدى (مينوس) ملك (كريت) وحش من هذه الوحوش الشنيعة التي تزخر بها الأساطير الإغريقية.. ولم يكن بالتأكيد أسوأ من (ميدوسا) - التي تحدثنا عنها في الكتيب السادس - لكنه كان سيئًا بما يكفي..

كان هذا الوحش مزيجًا من الإنسان والثور.. وثمّة روايات تقول: إن الثور كان هو النصف العلوي، وأخرى تقول: إن الثور كان هو النصف السفلي.. لا يهم...

المهم أنه كان مزعجًا ومرعبًا.. وكان يقتل كل من يدنو منه.. وبالتأكيد لم يكن صالحًا لتربيته كقط سيامي أو كلب (لولو).. لكنّ (مينوس) الأحمق ظن انه من المفيد أن يحتفظ المرء بـ (مينوتور) في داره.. ودفع ثمن هذه الحماقة غاليًا..

فلما استطار شر الوحش؛ استنجد الملك بالمهندس الإغريقي العبقري (ديدالوس)..

ولابد أن المهندس فكر كثيرًا في حل المعضلة.. ولابد أنه أجرى حسابات مستفيضة على آلته الحاسبة الإغريقية - كل شيء جائز في الأساطير - ثم دسّ القلم وراء أذنه.. وقال:

- سنبني (اللابيرنث)!

هنا لابد أن الملك تساءل في غباء:

- (لابيرنث)؟

- نعم.. (اللابيرنث) في الإغريقية معناه: التيه.. سنحيط هذا الوحش بممرات معقدة. ومنحنيات، وشعاب متداخلة.. ولسوف يركض هذا الوحش بين الممرات إلى يوم يبعثون.. عاجزًا عن الخروج..

وقد كان..

وصار هذا (اللابيرنت) المعقد جزءًا من معالم (كريت).. بل وصار جزءًا هامًا من ألعاب (الكمبيوتر) التي تدور كلها حول محاولة الخروج من متاهة. في حين تطاردك بالداخل أشياء مبهمة لا تدري كنهها.. لكنها تلتهم ما تراه..

* * *

لكنّ القصة لم تنته بعد..
إن الجزء السيئ منها لم يبدأ حتى هذه اللحظة..
كان الإغريق يحقدون ويحسدون، مثلما نفعل نحن طيلة يومنا.. ولقد بدأت المأساة بفوز ابن (مينوس) ملك (كريت) بالألعاب الأوليمبية في (أثينا)..
وإذا نوى الفتى أن يعود إلى بلاده محملًا بالجوائز؛ استشاط ابن ملك (أثينا) غضبًا.. وأكل الحقد قلبه..
لذا أرسل قطاع الطرق ليهاجموا ابن ملك (كريت).. ويمزقوه إربًا.. ويلقوا بجسده للسباع..
الحق أنها كانت خيانة دنيئة حقًّا..
أما الأدهى فهو أنها وصلت بالكامل إلى أذن (مينوس)، فجن جنونه.. وجرد جيشًا مهولًا زحف به على (أثينا)..
وما جاء الصباح إلا والبطاح تموج بقتلى الإغريق.. وبدأ حصار (مينوس) الطويل لمدينة (أثينا) ليرغم اهلها على الاستسلام. وكان الحصار مرهقًا. شح فيه الماء والزاد..
وأرسل (إيجوس) إلى (مينوس) يعرض عليه الصلح..
لكن الأب المكلوم في ابنه رفض الصلح.. وقال إن كل (أثينا) لا تكفيه عوضًا عن ابنه...
لكنه ـ لما كان رجلًا سهل الإرضاء ـ يكفيه أن يعود بسبعة من أجمل وأقوى الفتيان.. وسبع من أجمل العذارى.. ولسوف يأخذهم معه إلى (كريت) ليرمى بهم إلى (المينوتور)...
ولم يجد ملك (أثينا) البائس سوى أن يوافق على هذا العرض. الذي سيتكرر كل عام.. وإلا فهي الحرب..
وعاد الكريتيون إلى جزيرتهم حاملين إلى وحشهم صيدًا ثمينًا.. يكفيه لمدّة عام...

* * *

ومرت السنون.. وأهل (أثينا) يدفعون الفدية عن يدٍ وهم صاغرون.. حتى ظهر (ثيذيوس)..
و (ثيذيوس) - بالمناسبة - هو ابن الملك (إيجوس) من عذراء ريفية حسناء قابلها في إحدى رحلات الصيد..
والأخ (ثيذيوس إيجوس) - كما لنا أن نتوقع - هو بطل إغريقي متحمس من أولئك الذين يفتشون عن المتاعب بالمجهر...
وهذه الشخصية ذات البعد الواحد تتكرر بإفراط في الأساطير الإغريقية.. البطل مفتول العضلات عاري الصدر.. بسيفه البتار وغضبه الجبار.. وبحثه الدائم من أجل أن يرث عرش مملكة ما.. ودائما هو يتحرك طبقًا لنبوءة.. كلهم كذلك.. من (أوديب) إلى (أخيل).. ومن (هرقل) إلى (برسيوس)..
وهكذا.. تقول الأسطورة إن (ثيذيوس) ألح على أبيه في أن يرسله إلى (كريت) هذا العام ليكون ضمن البؤساء الذين سوف يلتهمهم (المينوتور)..
«يجب أن يعلم أهل (أثينا) أننا نجرع ذات الكأس التي منها يجرعون..».



المهم أنه كان مزعجًا ومرعبًا . . وكان يقتل كل
من يدنو منه . .

بهذا الحس الديموقراطي ركب (ثيذيوس) السفينة مع رفاقه، ماخرين بحرًا [تلاطمت أمواجه، وزخرت أثباجه، وطم آذيه] على حد قول الأستاذ (دريني خشبة) أول من ترجم هذه الأسطورة إلى العربيّة..

ولقد وصلت السفينة إلى (كنسوس) عاصمة (كريت)، ونزل منها أولئك الضحايا القادمون..

لكن ابنة (مينوس) أعجبت كثيرًا بـ (ثيذيوس) الوسيم القوي.. ناسية ـ أو متناسية ـ أنه أخو قاتل أخيها..

وكان أن قررت إنقاذه.. فقدمت له خيطًا قالت له أن يربطه عند بداية (اللابيرنث).. ثم يدخل التيه ليلًا بينما (المينوتور) نائم.. فيبحث عنه ويقتله بسيفه البتار..

بعد هذا يستطيع العودة أدراجه مسترشدًا بطرف الخيط الذي يحمله.. هكذا لن يضل طريقه ويموت، مثلما يحدث لمن لم يسعدهم الحظ أن يقتلهم (المينوتور)... وقد كان..

نجح (ثيذيوس) في قتل الوحش.. وعاد ليتزوج الفتاة.. وليكون صلح بين (أثينا) و(كريت).. وتعم السعادة البلاد..

وهنا تنسى الأساطير الإغريقية كل شيء عن (ثيذيوس)...

وننسى نحن كل شيء عن (المينوتور) إلا في خيال الشعراء وعند علماء النفس.. حيث (المينوتور) رمز لامتزاج البهيمية والنبل في نفس الإنسان.. وليس الإنسان بشرًا كله ولا ثورًا كله بل (بين بين)..

الآن.. نحن نعرف كل شيء عن الأسطورة..

يمكننا أن نترك شاعر اليونان الضرير (هوميروس) يعزف على قيثاره.. ونترك التيه.. ونترك (أخيل)..

ونعود إلى عالم الواقع..

إلى (كريت) عام ١٩٦٩..

* * *

٢ - ما كان.. وما سيكون..

أرقد هذه الأيام مسترخيًا - للمرة الأولى منذ عشر سنوات - أتأمل الخيوط المعقدة التي نسجها عنكبوت الأيام، صانعًا منها نسيج ذكرياتي..

من العجيب أن خطابات عديدة وصلتني في الآونة الأخيرة، كلها من أشخاص سمعوا عني.. ويحسب كل منهم أنه يرى شبحًا.. أو أن جاره مصاص دماء.. أو أن عمّه مذءوب..

هناك فتيات يقسمن أن غسالة الثياب تعمل وحدها في منتصف الليل... وعجوز يؤكد أن الثلاجة تمشي في الصالة عند الفجر.. وشاب واثق أن خالته لها جناحا وطواط..

برغم كل هذا الهراء شعرت برضا بالغ...

فأنا - كما تلاحظون - قد بدأت أتخذ بالتدريج شكل (وكالة أشباح) يلجأ إليها الناس حين يشعرون بأن شيئًا ما على غير ما يُرام...

لقد نشرت عدة مقالات عني.. والتقت بي مذيعة شقراء تلوك اللبان على شاشة التلفزيون..

وتدريجيًا بدأ الناس يسمعون عن (رفعت إسماعيل).. بعدما كان نسيًا منسيًا لا يعرفه سوى أصدقائه.. ومن قرءوا تلك المقالة عن (الزومبي) في المجلة الإنجليزية إياها.

قد يقول بعضكم إنني لا أملك الخبرة الكافية بعد..

لكني أقول إن هذا صحيح في فترة ما.. وفي ذلك الوقت كنت أردد دومًا عبارة (لست صانع أساطير.. ربما أنا هادم لها).. وكانت خبرتي محدودة دائمًا..

أما اليوم - حين أتأمل حياتي - أجد أنني قد عشت خبرات قلّما تتاح إلا للأشباح.. ولم يعشها بشري قبلي في حد علمي.. وهذا يتيح لي حرية الثرثرة كما أشاء..

أنا لست من الطراز الذي يتكلم في أمور لا يفقه فيها شيئًا..

* * *

والآن.. دعنا نتأمل خبراتي حتى عام ١٩٦٩..

١- عالم مصاصي الدماء بتوابيتهم وأوتادهم وثومهم:

كانت لي معهم مغامرتان زائفتان في الواقع.. مرة مع أسطورة مصاص الدماء.. ومرة مع إحدى قصص (التاروت).. وتعلمت من ذلك أنه لا وجود لشيءٍ كهذا..

٢- عالم مسوخ الذئاب والقمر المكتمل وخناجر الفضة:

لم يثبت لي وجودهم قط بعد قصتي مع أسطورة المذءوب.. لكني عرفت عنهم الكثير.. وعرفت أصل هذه الأسطورة.

٣- عالم الوحوش التي لم يرها أحد:

واجهت وحش (لوخ نس)، وعرفت من واجه رجل الثلوج.. وهذا كافٍ لأكون ذا خبرة بالأمر..

٤- عالم الموتى الأحياء والقبور المفتوحة والأطراف المتآكلة:
كان لي لقاء مع (زومبي) مزيفين.. وأعتقد أنني أعرف قدرًا لابأس به من الموضوع...
٥- عالم الأساطير اليونانية والحفائر:
مع رأس (ميدوسا) العائد: واجهت كابوسًا حقيقيًا.. وبرغم أن المسألة تكشفت عن خدعة.. فإنني على استعداد تام لمواجهة الأسطورة القادمة..
٦- عالم لعنة الفراعنة والمومياوات والتحذيرات عنى التوابيت:
خبرتي مع مومياء الفرعون (أخيروم) وحارسه الذي يفتك بالعلماء..
٧- عالم النباتات المفترسة وخلافه.
٨- التجسدات الميتافيزيقية التي نجهل الكثير عنها:
لقائي مع شعب الأطياف. وحسناء المقبرة. وأرض أخرى..
٩- غزاة الفضاء والأطباق الطائرة والشهب:
لي مغامرة لم تكتمل معهم، نموذج للكابوس المجسد.. هي أسطورة الغرباء.
١٠ - القدرات البشريّة غير العادية:
أسطورة الكاهن الأخير.. عن محارب (النافاراي) الذي جاء من عالمه ليزيد الحياة تعقيدًا..
وهكذا أستطيع القول إنّه ما من مجال من مجالات دنيا ما وراء الطبيعة؛ إلا وخبرته إلى حدٍ ما..
١١ - النبوءات الشريرة وأوراق (التاروت):
يمكن القول إنني اصطدمت بها في (جامايكا) وفي (نيويورك).. مرة مع الأم (مارشا) ومرة مع د.(لوسيفر).
١٢- السحر الاسود:
إن خبرتي به متكررة.. مرة مع سحرة (الفودو) ودمى (الفتيش).. ومرة مع (لعنة الفراعنة).. ومرة مع (شاكال).. ومرة مع (نوسفيراتو).. آه.. يبدو أنني لم أحك هذه القصة بعد..
١٣ - البيوت المسكونة والبوابات الصدئة والعناكب:
إن أسطورة البيت هي نموذج جيد لبيت ليس مسكونًا فحسب.. بل هو نفسه يملك طاقة روحية عالية..
والآن يمكنني - بكل تواضع - أن أزعم أنني قادر على الإدلاء برأيي في أي موضوع يعرض عليّ من مواضيع ما وراء الطبيعة..
ربما جاء رأيي خاطئًا.. لكنه - بالتأكيد - يستحق الاهتمام...

* * *

معظم ما يصلني من مراسلات يصلني على عنوان العمل، لأن أحدًا لا يعرف عنوان منزلي.. لكنّ الصحف حين تتحدّث عنى تقول: د. (رفعت إسماعيل).. أستاذ بكلية طب كذا..
ولقد وصلني فيض من خطابات حتى أن د. (رأفت) صديقي العتيد قال لي متهكمًا:
- إن من ير كم خطاباتك يحسبك انشأت مكتب بريد خاصًا. مقره هذه الكلية..

ـ مت بغيظك!.
صحيح أنّ بعض الخطابات غير مفهوم. وصحيح أن بعضها لا يصدّق.. إلا أنّ كثيرًا منها يحوي أشياء مثيرة للاهتمام حقًّا..
من ضمن هذه الخطابات كان هناك هذا الخطاب الطويل. الذي سلمه لي باليد شاب يُدعى (سالم محمد شحاتة)، والذي نشرته كاملًا في الكتيب الثامن تحت عنوان (أرض أخرى)..
ولقد سلمني خطابين آخرين بعد ذلك.. واحدًا سأنشره تحت عنوان (أرض المغول)، وواحدًا تحت عنوان (أرض العظايا)[1].. ولا داعي لأن أقول إنني ميال لعدم تصديق هذه القصص التي يمطرني بوابلها الأخ (سالم)..

لكنها ـ جميعًا ـ شائقة.. وكلها تطلق عنان الخيال.. لهذا لا أرى ما يمنع من نشرها يومًا ما..
هناك خطابات عدة بلغات أجنبيّة. لا أعرف أكثرها.. منها خطاب يقول لي بمودة ولطف:
ـ أردشار نور هاه تاميل سيزده بدر ناكواه شيلوش!.
وأنا أحيي هذا الأسلوب الرصين المتماسك، ودقة الإعراب.. وإن كنت أتمنى ألا أموت قبل أن أعرف اسم هذه اللغة.. التي تأكدت من أنها ليست الفارسية ولا الإيرانية ولا الأوردية ولا الأفغانية.. ولا....
هناك خطاب آخر كتب بحروف سلافية.. تلك الحروف التي تجعلك تقلب الورقة عدة مرات بحثًا عن الوضع الأمثل للإمساك بها.. لأنك تجد حرف (أ) اللاتيني مقلوبًا.. فإذا قلبت الورقة وجدت حرف (ن) اللاتيني مقلوبًا!.. وهكذا..
لن أدهش لو كان هذا الخطاب من الكونت (دراكيولا) نفسه.. يهنئني بعيد ميلادي...
ثمة خطاب ثالث هو أقرب إلى الطرد.. ألصقت عليه عشرات الطوابع تحمل اسم (هيلاس) ـ اليونان ـ وبداخله ثلاثون ورقة من القطع الكبير.. كتب عليها بالإنجليزية ما هو أقرب إلى قصة طويلة معقدة.. وبخط صغير جدًّا..
التوقيع يحمل اسم البروفسور (ديمتريوس كوبرانوس)..
ومرفق بالخطاب بعض صور غير واضحة لشيءٍ ما.. مع أسهم باللون الأحمر توضح تفاصيل هذا الشيء..

* * *

وفي داري ـ مع كوب من الشاي الثقيل ـ رحت أطالع هذا الخطاب المبالغ في طوله..
ومرة أخرى شعرت بأنني أدخل عالم المرآة المسحور، لأعيش في كون آخر.. وعالم يختلف في كل شيء عن عالمي هذا..
وحين انتهى الخطاب.. كانت عضلات عيني ـ العضلة الهدبية بالذات ـ قد أنهكت.. وشعرت بأن عيني تحولت إلى ساقي رياضي بعد سباق اختراق الضاحية عدوًا..
لقد ظن هذا الـ (كوبرانوس) أنه يكتب فوق طابع بريد.. ومن يدري؟ لربما استعمل المجهر في كتابة خطابه هذا..

على كل حال.. أمّا وقد انتهى الخطاب فأنا أجده مسليًا إلى حد لابأس به، وبه مسحة ما من الرعب..

لهذا سأترجمه لكم في الصفحات التالية..

وكالعادة.. سأعود قبل أن ينتهي الكتيب لأعلق على هذا كله.. فذكروني أن أفعل ذلك أرجوكم حتى يحتفظ الكتيب بطابعي..

وفي الكتيبات القادمة سأحاول أن أنتقى لكم القصص الأكثر إمتاعًا.. لأقدمها لكم على هذه الصفحات..

بالتالي ستستريحون من ثرثرتي لفترة لابأس بها..، وإن كنتم ستجدون أسلوبي وسخريتي المقيتة بين السطور وفوقها.. لأنني سأعيد سرد كل شيء بنفسي..

ترى ماذا يحمل لنا هذا البروفسور (كوبرانوس) من ساعات سيئة؟

اقلبوا الصفحة إذا كان رقمها فرديًا.. أو انظروا إلى اليسار إذا كان رقمها زوجيًا.. لتروا بأنفسكم!

* * *

٣ - عودة إلى اليونان...

عزيزي د. (إسماعيل):

طالعت بفائق الاهتمام ما ورد في مجلة (...) عن مغامرتك مع هؤلاء (الزومبي) في (الكاريبي)، كما طالعت بشغف حكايتك مع رأس (ميدوسا).. تلك القصة التي تحدّثت عنها الجرائد اليونانية كثيرًا.. وللأسف كان الأمر كله أجمل من أن يكون حقيقيًا..

أنا - بوصفي عالم آثار مخضرمًا - أعرف (ميخائيل كاراداكس) جيدًا، وأعرف أنه أقرب إلى نصاب وسيم منه إلى العلماء.. وكان بإمكاني أن أريحك من تلك المأساة التي عشتها في جزيرة (كارادوس) لو أنني علمت طرفًا من الموضوع...

على كل حال يقضي (كاراداكيس) وزوجته الإنجليزية أعوام السجن المؤبد الآن.. ومن المؤكد أن العلم لم يخسر كثيرًا جدًا بفقدهما..

وحين طالعت هذه القصة: ظلت في عقلي الباطن فترة لا بأس بها.. وكان طبيعي أن يطفو وجهك إلى سطح أفكاري حينما اصطدمت أنا بقصة جديدة من عالم (الميثولوجيا) اليونانية. وهي لعمري قصة غير مبهجة على الإطلاق..

وحين أكتب لك هذا الخطاب لا أطمع في معونة منك.. ولا أطمع في رأي وإن كان صائبًا.. بل أنا راغب في أن تعيش معي هذه التجربة الغريبة. وأن تثري فهمك لعالم ما وراء الطبيعة كما أثريت أنا فهمي.. إن الإنسان هو حشد من خبرات من سبقوه.. وأنت حين تقول عبارة مثل: دخلت داري فأضأت المصباح الكهربي. وخطوت إلى الثلاجة فتناولت قدحًا من الماء، وفتحت التلفزيون. حين تقول هذا.. فلا تنس أن أجيالًا ماتت وهي تقاتل من اجل ابتكار المصباح الكهربي.. واجيالًا قاتلت من أجل اختراع الثلاجة.. وعقول لا حصر لها كادت تنفجر وهي تحاول ابتكار التلفزيون...

إن الإنسان هو تجارب من سبقوه.. ولو لم تصلنا خبرات كل هؤلاء لنأخذها أو نضيف إليها: فأين كنا سنكون اليوم؟! مقدمة طويلة هي.. متحذلقة ربما.. لكني لا أجد طريقة أخرى أبرر بها كتابة خطابي الطويل هذا لك..

وغدًا ستعرف عن (المينوتور) قدر ما أعرفه أنا.. برغم تباعد بلدينا واختلاف لسانينا..

أليس هذا فاتنًا؟.. أليس هذا ساحرًا؟

* * *

اسمي (ديمتريوس كوبرانوس).. أستاذ في علم الآثار.. وبالطبع أنا مهتم بالآثار (الهللينية).. أبلغ من العمر خمسين عامًا.. متزوج ولي طفلة جميلة تدعى (ميليسا).. وهذا يعود لأنني تزوجت في سن الأربعين.. السن التي يتزوج فيها كل من يخشون الزواج ويخشون الوحدة كذلك..

صفاتي الجسدية قد لا تعني كثيرًا.. لكني - ليسهل التخيل - قصير القامة للغاية.. متضخم الرأس.. أميل إلى الهزال.. أدخن الغليون طيلة الوقت ليكتمل مظهر العالم الذي أصبو إلى أن أكونه.. من يعرفونني يقولون إنني هادئ الطباع.. أقرب إلى الخجل والبعد عن الآخرين، وأنك تحتاج إلى وقت لابأس به كي تكسر أسوار تحفظي..

من يدري؟.. ربما كان هذا التحفظ درعًا اقي به نفسي سخرية الآخرين من غرابة منظري.. وأعترف هنا أنك لا تستطيع الكلام معي دون أن تحني رأسك.. ولا تستطيع أن تمنع ابتسامة سخرية على شفتيك.. قد تتدارك الأمر فتجعلها ابتسامة تلطف..

لا أدري ما جدوى هذه التفاصيل بالنسبة لك.. لكنّها على الأقل ترسم الجو المحيط بي كاملًا، وتجعلك تراني بدلًا من أن تسمعني فحسب.

* * *

نحن الآن في (كريت)..

لابد أنك تعرفها إلى حدٍ ما، من مغامرتك السابقة التي كانت قريبة منها.. جزيرة البحر المتوسط الهادئة التي تقع جنوب بحر (إيجه)..، حيث نشأت أول حضارة غربية على الإطلاق وهي حضارة (المينو)..

عاصمة (كريت) الغابرة التي كانت مزدهرة منذ خمسة عشر قرنًا هي (كنسوس).. وهي المكان الذي ستدور فيه قصتنا..

ماذا بوسعي أن أقول أكثر عن (كريت)؟..

إنها أكبر جزر اليونان.. تمتد الجبال بها من الشرق إلى الغرب.. لها سهول ساحلية ضيقة.. ويعيش بها رعاة خشنون.. ولا تنتج الجزيرة سوى النبيذ وزيت الزيتون..

إلى هذه الجزيرة البائسة وصلت وأسرتي الصغيرة، وفريق مكون من رجلين (باسيلوس) و(ستافروس) وكلاهما يعمل بالآثار اليونانية مثلي..

واستقررنا في خان صغير بالبلدة، وجندنا بعض سكان الجزيرة ليكونوا عمال حفر لنا.. ولم يكن هذا عسيرًا، لأنّهم اعتادوا مجيء هؤلاء المخابيل من (أثينا) الذين يحفرون الأرض.. ولا يتركون حجرًا فوق حجر كأنهم خلدان مسعورة..

والمحصلة دائمًا هي رأس مهشّم لـ (أبوللو) أو ذراع مفككة لـ (فينوس).. أو رمح صدئ..

ثم يعود المخابيل إلى (أثينا) وتنتهي الضوضاء إلى حين..، وبعد شهور يوضع الرأس في المتحف اليوناني، وجواره بطاقة تقول إنّه (رقم ٣٢١٦٧٢ - أ) و(من حجر البازلت).. ثم ينسى الأمر برمته ولا يهتم به أحد..

هذا هو عملنا.. ونحن لا نتذمر..

لكننا اليوم نشعر بأننا مقبلون على كشف هام نوعًا..

* * *

تسألني عن كنه هذا الكشف.. وعن العلامات التي أنذرتنا به.. أقول لك إن جميع الدلائل توحي بهذا:

١- المنطقة التي نعمل بها في (كنسوس) لها تاريخ حافل حقًّا.

٢- يتحدث الأهالي عن (شيء ما) يحدث هنا.

٣- وجدنا على حدود المنطقة أكثر من لوحة حجرية كتب عليها حفرًا: ابتعد عن هنا أيها الغريب.. وكان جميعها مدفونًا تحت أطنان من الغبار.

٤- وجدنا جزءًا من جدار كتب عليه اسم (مينوس)، وهو ملك أسطوري لـ (كريت) لا نعرف عنه شيئًا إلا من الأساطير الإغريقية.

٥- هذه المنطقة بكر تمامًا، ولم يعبث بها معول الباحثين على النقيض من باقي أجزاء (كريت). التي تحولت إلى مزار للأرانب البرية من كثرة الحفر.

والآن تم اتخاذ القرار بأن نبدأ الحفر في منتصف القطاع تمامًا.. عند مركز الدائرة التي تنتشر اللافتات على حدودها.. وبدأنا العمل في يوم قائظ..

يوم من تلك الأيام التي تشعر فيها بأن الحر يحرق روحك، ويبخر الهواء من رئتيك قبل أن تتنفسه..

الرجال الأشداء نزعوا قمصانهم وراحوا يهوون بالمعاول فوق الصخور الجيرية التي تشكل أكثر مساحة (كريت).. ومن حين لآخر يُصاب أحدهم بضربة شمس فيقيء وينهار.. أو يوشك على الموت..، ويهرع آخر ليجرع الماء ويبتلع بعض الملح.. ويخرج آخر زجاجة (نبيذ) يرشف منها رشفة على أمل أنني لا أراه...

أحيانا يتبادلون السباب باليونانية الفجة.. أو يتبادلون نكاتًا بذيئة لا ألومهم عليها كثيرًا، وأدير بصري في مساعدي (باسيلوس) و(ستافروس).. وهما نقيضان في كل شيء..

(باسيلوس) نموذج للشاب المتحمس المندفع.. الفخور بوسامته.. والذي لا يرحم مرءوسيه، ويرى دومًا أنهم لا يقدمون أقصى ما عندهم.. وأنّهم شرذمة من الكسالى..

إنه ذلك الطراز من البشر الذي لا يخشى - بل ويسره - أن يكون مكروهًا، وأن يرى نظرات المقت في عيون من حوله، لسان حاله يقول - مثل (راسبوتين) - إنّه كلما كثر أعدائي ازددت قوة..

أما الآخر - (ستافروس) - فهو رقيق إلى حد الأنوثة.. رحيم إلى حد الخنوثة.. من طراز الشباب الذين أعدهم أهلهم لعائم لا وجود له.. عالم مفرداته هي (من فضلك - عفوًا - أستميحك عذرًا - شكرًا).. وتكوينه الجسدي مقارب لتكوينه النفسي..

فهو بدين نوعًا.. متراخ.. تشعر حين ترى عينيه أنه يوشك على السقوط غافيًا في أية لحظة..

ووجهه - الخالي من الخشونة الرجولية - أقرب إلى وجه بقرة مسترخية راضية بما حولها من عشب..

لكنه - أشهد - يملك عقلًا راجحًا يفوق بمراحل عقل زميله الذي يشبه الطاووس. ولا يفوقه ذكاء..

بهذه المجموعة الشاذة بدأت عملية التنقيب بحثًا عن... عن ماذا؟.. عن شيء ما...!..

* * *

عندما تزايدت حرارة المناخ. وعندما ازداد عدد الإغماءات.. وازداد بحر القيء حتى كاد يغرقنا: أمرت بتأجيل الحفر إلى المساء حيث الأنسام الرحيمة.. وعلى ضوء المشاعل..

فما دمنا لا نطارد أرنبًا بريًا.. لا أرى ما يمنع من التوقف برهة..

وجاء المساء..

المشهد يبدو كحلم ملون أهواه كثيرًا.. مشهد الرجال وقد امتزجوا بالظلام وضوء اللهب، وهم يحاربون الصخور..

صحيح أن البعوض يجعل منا الطبق الرئيسي في وجبة عشائه.. وأن الثعابين تداعب أقدامنا.. وأن العقارب تتذمر من تلويثنا لبيئتها في ساعات نزهتها الليلية: لكننا نستمتع بالحفر الليلي دون



وجدنا جزءاً من جدار كتب عليه اسم (مينوس) ..

شك.. خاصة مع أغاني الرجال الغريبة على أذني..
الحفرة تتسع..
وأدنو منها لألقي نظرة مدققة.. ثم أضيء كشافي وأتأمل جوانبها... ويدنو (ستافروس) مني ليرى ما أراه...
- من المؤكد أنّ هناك شيئًا ما هنا.
- هذا محتم.. هذه الجدران المهدمة تؤكد ذلك..
كانت هناك فتحة.. والفتحة تبدو كأنها في سقف ما.. ونحن الآن نقف فوق هذا السقف.. نرنو لأسفل عاجزين عن رؤية ما يدور بالداخل..
أشرت للرجال كي يوسعوا الفتحة أكثر.. فتذمر أحدهم من أن الوقت متأخر بما يكفي.. وهم يعملون طيلة النهار و... قاطعته صائحًا:
- أنا لن آخذ من وقتكم اكثر من ربع ساعة...
- إن الأجر الذي....
وهنا تدخل (باسيلوس) في كبرياء. ليزجر العامل ويزجرني معه دون قصد:
- هيه!.. لا تدلّه يا بروفسور.. ولا تتوسل إليه.. أنا أعرف هذا الطراز من القوم.. يريد الانصراف ليلحق بالحانة مبكرًا. حيث يحسو لترين من (الأوزو).. ثم يعود لامرأته ليوسعها ركلًا وصفعًا حتى الصباح.. ويجيء منهكًا ليعلن أنه بحاجة للراحة...
نظر له العامل في غل، وارتسمت بسمة شريرة صفراء على وجهه، وأقسم إنّه كان خليقًا بتهشيم رأسه الجميل بالمعول لو كان تهشيم الرءوس حقًّا مشروعًا للإنسان..
أشرت للعامل أن ينصرف.. ويعاود الحفر... ثم استدرت إلى (باسيلوس) لأصارحه محنقًا برأيي:
- إن هؤلاء القوم فقراء يا (باسيلوس)، لكنهم لم يخسروا روحهم بعد.. فلا تفرط في إهانتهم معتمدًا على حاجتهم للمال..
- حسن سيدي.. لكنّ بعض الحزم....
هنا صاح (ستافروس):
- هل يكفي هذا القدر يا بروفسور؟
نظرت إلى الحفرة.. دنوت منها وسلطت الكشاف على قاعها.. وابتلعت ريقي..
- هل هذا كاف؟
سألني (باسيلوس) من وراء ظهري.. لكني لم أرد عليه..
كنت شارد الذهن أرمق القاع..
هل أنا واهم أم أنني أرى عظامًا آدمية مكدسة هناك؟!...

* * *

٤ . التيه..

بالتأكيد هي عظام..
وبالتأكيد هي آدمية..
لكن كشفًا هذا ليس فريدًا في عالم الآثار.. فالعظام ذاتها آثار مهما اختلفنا حول هذا الرأي أو ذاك.. المهم هو ما بداخل الحفرة..
وحول ضوء المصابيح رحنا نتجادل باحثين عن السياسة المثلى للتعامل مع هذا الكشف، الذي قد يقودنا إلى آفاق أرحب..
ورأينا أن أصوب الحلول هو أن نعود إلى ديارنا، وفي الصباح الباكر يتدلى أحدهم من الفتحة بحبل ليرى ما يدور بالداخل..
هل هي مقبرة؟ لا أتوقع ذلك.. فالمقابر لها تصميمها، ولها رائحتها، ولها طابعها الذي لا يعجز عن تبينه عالم آثار أو حانوتي..
من يدري؟ لربما كان هذا بيتًا أو قصرًا مغمورًا..
غفل عنه الزمن ردحًا.. ثم شاء حظه العاثر أن نجده نحن..
على كل حال.. سنعرف هذا غدًا..

* * *

عدت إلى الخان.. إلى غرفتي الصغيرة هناك؛ حيث كانت زوجتي (هيلين) جالسة تحيك شيئًا ما على الأريكة.. وابنتي (ميليسا) تتسلى برسم شيء ما على الورق المتناثر على الأرض..
إن (هيلين) تصغرني بخمسة وعشرين عامًا.. وأعتقد أن ما يربط بيننا هو ما يُسمّى بالحبّ.. فالشيء الذي يدفع شابة حسناء مثلها إلى أن تتزوج رجلًا غير ذي مال ولا وسامة ولا قوة: لهو شيء غير مادي بالتأكيد.. وأعتقد أنه أقرب إلى لفظة (حب)..
لكنها لا تبدي هذه العاطفة أبدًا.. وتعاملني معاملة رسمية متحفظة جافة، كتعامل الرجال المهذبين مع الغرباء..
أما طفلتي (ميليسا) فهي شيء رائع.. شقراء كعذارى (الأوليمب) زرقاء العينين كـ (فينوس) - لو كانت (فينوس) زرقاء العينين - وهي تحبني دون تحفظ.. وهذا هو أجمل ما في الأطفال.. الحب يعطى دون ثمن ولا تحفظ.. ويعطى كثيرًا جدًّا...
- عمت مساء يا (هيلين)..
- مساء!..
هذه هي تحية المساء التي اختصرتها إلى أقصى حد ممكن.. فلو أنها استطاعت الاكتفاء بالهمزة لفعلت.. وكما ترى فالثرثرة ليست من عيوب زوجتي.. وهي كذلك لا تفرط في واجبها..

ـ العشاء على المنضدة..
فأذهب إلى هناك، وأرفع الغطاء المصنوع من قش مجدول.. لأجد بعض الشطائر وحبيبات الزيتون. أعدتها لي على عجل في مطبخ الخان.. أجلس لألتهم هذه الوجبة الهائلة.. وبالسكين أقتطع بعض شرائح الخبز أدسها في فمي وأرشف بعض (الأوزو)..

* * *

(ديمتريوس).. لا تنم أرجوك..لا تغلق عينيك...

* * *

(ديمتريوس).. أشعر بأنني كلب أليف في الدار ينتظر عودة سيده ليلًا..

* * *

(ديمتريوس)... أنت لم تحقق شيئًا ولن تحقق.. خمسون عامًا من الدوران كالذبابة في غرفة موصدة.. وغدًا يفتحون النافذة لتحلق منها نحو الأبدية.. غير تارك في الغرفة سوى صدى أزيز جناحيك..

* * *

يمكنني غدًا ـ أو بعد غدٍ ـ أن ألعب دور الزوج المحب، أمّا الآن فأنا لا أصلح لأي عمل سوى النوم ثماني ساعات متواصلة.. للأسف نحن محرومون من الاستحمام في هذا الخان لأنّه ـ ببساطة ـ لا يوجد مكان يصلح لهذا.. ولا سبيل أمامنا سوى الذهاب إلى العجوز (إيرين) للاستحمام عندها مقابل دراخمتين أو أكثر..
وكذا تراني يا د. (رفعت) راقدًا في الفراش على ظهري.. وصدري يعلو ويهبط.. وغطيطي يعلو ويخفت.. وأحلم..
أحلم ببئر مظلمة لا ينيرها سوى شعاع كشاف، وعظام آدمية تتكدس بلا عدد.. بلا عدد...

* * *

في ضوء النهار الفتى الذي لم يعلموه الغلظة بعد.. أقف وسط الرجال أرمق البئر التي حفرناها في الظلام أمس..
ولم أر في هذه المرّة شيئًا غير عادي.. فما هو الطريف أو الجديد في بئر تعلو بناءً غامضًا، وتبطن العظام أرضيتها؟!

نظر (باسيلوس) إلى الرجال نظرة صارمة.. وفي اشمئزاز طلب منهم أن يجلبوا السلم المجدول من الحبال..، ثم راح يشرف على تثبيته إلى وتدين على جانب فتحة البئر..، ومد يده يدفع السلم لينحدر عبر الفتحة حتى لامس القاع..

وبحركة درامية لا داعي لها على الإطلاق... نظر نحوي.. وهز رأسه طالبًا أن أتمنى له حظًا سعيدًا.. فهززت رأسي كأنني (البابا) يدعو له.. وعلى الفور راح يهبط لأسفل فوق درجات السلم...

دنا (ستافروس) من خلفي.. ليتأمل المشهد وهو يلهث كالخنزير.. ثم غمغم:

- فتى شجاع.. لكنّ الموقف لا يستحق كل هذا المناخ الدرامي.. إنّه لا يضحى بنفسه إلى هذا الحد الذي يتظاهر به.

قلت وأنا أشعل غليوني:

- هذا الفتى يعيش حالة عشق مبرح لذاته.. عشق يصل إلى حد البكاء.. وأنا واثق أنه هو وهو سعيدان معًا إلى أقصى حد..

وفجأة سمعنا نداءً مزمجرًا قادمًا من البئر.. فهرعنا لنرى ما هنالك..

كان صوت (باسيلوس) يصيح بي من أسفل:

- بروفسور... هلا نزلت إلى أسفل معي؟.. تعال ومعك (ستافروس)...

تبادلت و(ستافروس) نظرة متسائلة..

ثم شرعت لاهثًا أنزل درجات السلم والغليون في فمي.. حتى شعرت بأنني أختنق.. بالواقع لم أعد أملك أي نوع من اللياقة البدنية.. وتلاني المترهل (ستافروس) الذي لم يكن أفضل حالًا...

كان ارتفاع الأرض عن قاع الحفرة خمسة أمتار.. لكنّها بدت لنا كأنما نهبط من فوق جبل (كليمنجارو)...

وعلى الأرض كان (باسيلوس) يقف مبتسما... عاقدًا ذراعيه على صدره.. وقد وضع الكشاف الذي يحمله على الأرض لنرى موطئ قدمينا..

نزلنا لنقف جواره. وعلى الفور فهمنا سر ندائه.. وسر انبهاره.. لقد كان المكان الذي يقف به ممتدًا إلى مسافة لا بأس بها.. جداران قائمان بدا عليهما القدم يشكلان دهليزًا.. وفوق الرءوس نرى ضوء الشمس يتسرب من الفتحة التي منها نزلنا..

ـ أتريان؟ هذا نفق..

أعدت إشعال غليوني.. وتأملت الموقف:

- هذا حق.. ولكن إلى أين يؤدي؟

- ربما إلى مقبرة؟

وتأملت الأرض التي نقف عليها.. كانت من الحجر الصلد.. وقد تكدست فوقها العظام التي رأيناها من أعلى..

بالواقع كانت العظام متناثرة هنا وهناك.. في كل مكان تقريبًا داخل هذا النفق الغامض..

ولكن من أين جاءت؟.. لو كانت هذه مقبرة فالمفترض أن تتواجد العظام في شكل منسق بهيج، فوق رفوف محفورة بالجدار أو في صناديق خشبية متآكلة..

أما أن توجد هكذا كان هناك من عبث بها وبعثرها، فأمر لا أفهمه ولا أستسيغه البتة..

رفعت الكشاف إلى أعلى مرسلًا الشعاع إلى نهاية النفق الذي نقف فيه. فرأيت جدارين يمتدان إلى بعيد. ثم يذوبان وسط الظلمة التي لم يستطع الشعاع أن يبددها..

- هلما يا فتيان لنرى ما هنالك..

وبدأت المشي بخطى مترددة..

غريب هو هذا الشعور الذي لا يوصف، والمذي يداهمني كلما مشيت في مكان لم يدخله سواي.. أو لم يدخله سواي منذ زمن سحيق.. إن الجدران تكتسب عندئذٍ شخصيّة مهيبة صموتًا.. وأكاد أشعر بها تراقبني، وتحصي أنفاسي، كأنما تحاول سبر غور هذا الدخيل.. مثلما يحدث في الأفلام الرديئة عندما يدخل غريب إلى حانة يملؤها الرعاع.. فيتوقفون عن الثرثرة والضحك.. ويثبتون عيونهم عليه في فضول وتحدٍ.. محاولين أن يقوموا وزنه...

هذه الجدران معادية.. أكاد على هذا أقسم...

ثمة علامات على بعض أجزاء الجدار.. كأنما هناك يد قد رسمتها بـ (الطبشور)...

وبصعوبة تبينت حروفًا يونانية كتبها أحدهم..

هذه الحروف تقون:

يـ...ن... تأ... ون... بـ... دي... أتر... وا... مل ور... ءكم...

مال (باسيلوس) يتأمل الكتابة على ضوء الكشاف... وفي وقاحة غمغم، وهو يلوك قطعة اللبان:

- هذا المعتوه كان يهوى الكلمات المتقاطعة..

ارتجف (ستافزوس). ومسح جبهته بيده.. وهمس:

- بل هو تحذير على طريقة (دانتي).. لقد تخيل (دانتي) أن الجحيم قد كتبت على بابه عبارة. يا من تدخلون هنا.. دعوا خلفكم كل رجاء.. هذه العبارة لابد أنها تقول: يا من تأتون بعدي.. أتـ... اتركوا وراءكم الأمل.. أو شيئًا من هذا القبيل..

هزّ (باسيلوس) رأسه في ملل.. وقال:

- إذن هو معتوه وشاعر.. لقد بدأ هذا يثير اهتمامي..

- دعنا نواصل الفحص..

ورفعت الكشاف.. ورحنا نشق الظلمات بشعاعنا.. فكلما زالت الظلمة وجدنا المزيد منها بانتظارنا..

لابد أننا لم نمش سوى عشرة أمتار. حين توقف (ستافروس) وأشار إلى جدار يسد النفق أمام وجوهنا. عاكسًا ضوء الكشاف كافضل ما يكون. حتى تبدّد الظلام تمام.. وهتف:

- يبدو أنّ هذه نهاية انمغامرة..

لكنني دنوت من الجدار.. ونظرت إلى اليمين.. وإلى اليسار..

كان هناك نفق يمتد يمينًا.. ونفق يمتد يسارًا.. وكلا النفقين يعاني من قبضة شياطين الظلام...

- فلنر ما هنالك يا بروفسور...

- لا داعي يا شباب...

ونظرت لهما باسمًا.. وانتزعت الغليون من فمي:

- أعتقد أنّ هذا هو (اللابيرنث) الأسطوري.. لقد وجدناه أخيرًا... !..

* * *

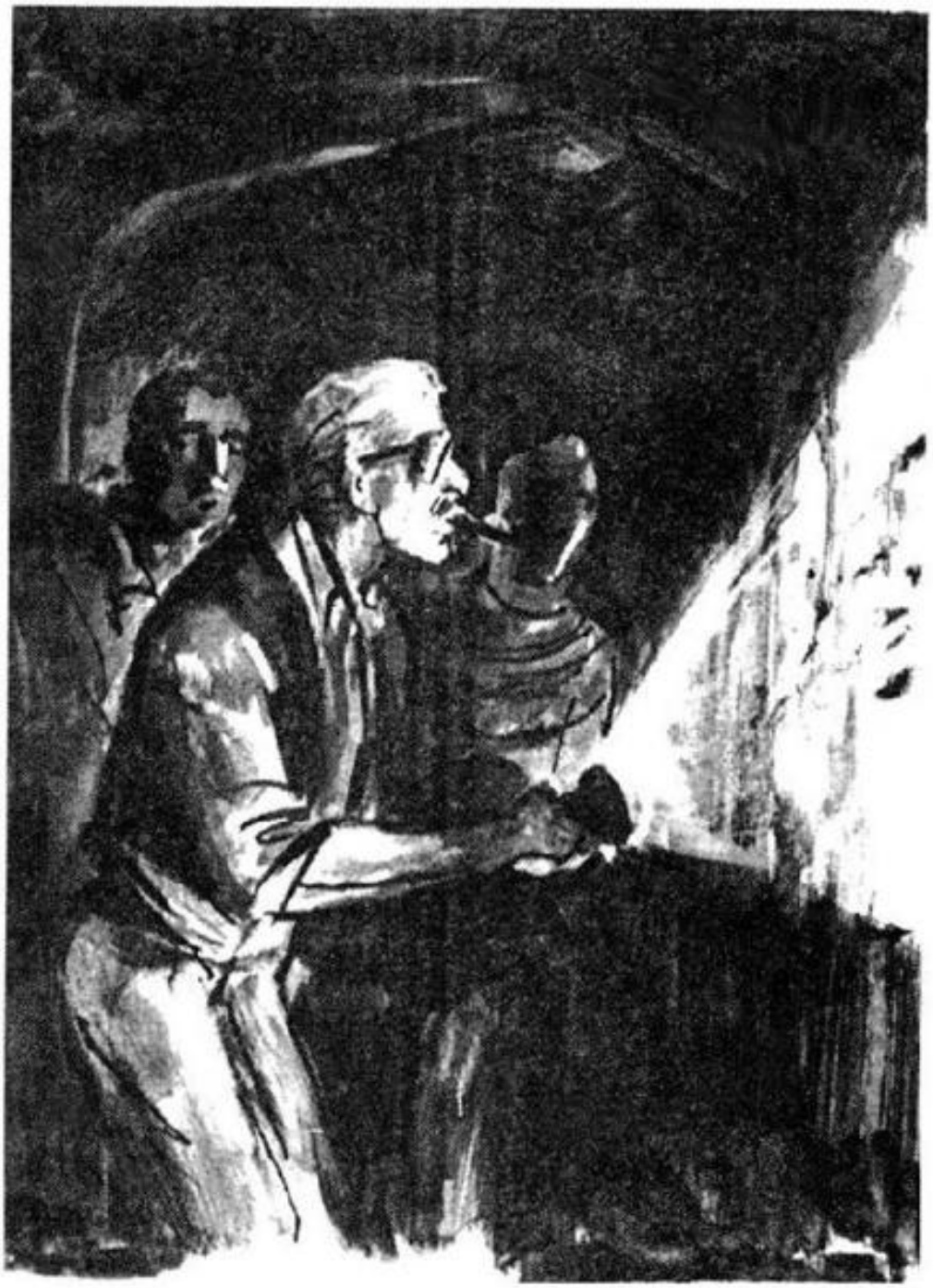
٥ - اشياء غير مألوفة..

أنت مثلي يا د. (رفعت) تفهم سحر المجهول وبريقه.. ورهبته..
القشعريرة المقدسة التي تغزو عمودك الفقري، كلما فكرت في ثلوج (الهيمالايا).. أو أعماق المحيط المظلمة.. أو غابات (الملايو) التي لم يجرؤ إنسان على اجتيازها...
أنت تفهم هذا.. ولسوف تريحني من عبء الكلام عنه..
أنت تفهم هذا.. لذا لن أطيل في وصف هذه الجزئية..

* * *

- (اللابيرنث)؟.. تعني التيه الذي قام (ديدالوس) ببنائه من أجل (مينوس)؟
- بالتأكيد.. إن الأمر لا يحتاج لكثير من الذكاء كي نعرف أنّ هذه الممرات متشعبة إلى حد لا يصدّق..
يوجد بناء أثري واحد يحمل هذه السمة وجميعنا يعرف اسمه..
ثم إنني رفعت رأسي للسقف.. وهتفت بصوت مجلجل:
- أيها السيدان.. إن التاريخ يصنع ها هنا..!..
انحنى (ستافروس) يتأمل الأرض.. ثم جثا على ركبتيه وأمسك قطعة ملساء من العظام.. عظمة ساعد هي حتمًا.. وتساءل:
- سيدي.. هل تعني أنّ هذه العظام هي..
- نعم.. هي....
- عظام ضحايا (المينوتور)؟
- حتمًا.. وإلا بم تفسر تبعثرها في كل موضع بهذه الكيفية؟ لو كانت هذه مقبرة لوجدنا العظام مرتبة.. ولو كانت مقبرة وسطا عليها اللصوص فكيف خرجوا؟
نظر لي (باسيلوس) وبصق قطعة اللبان.. ثم حك رأسه في حيرة.. وقال:
- و لكننا جميعًا نعرف أنّ هذه أسطورة..
قلت في صبر:
- (المينوتور) أسطورة.. هذا رأي يحتمل الصواب والخطأ.. من الممكن أن يكون أسطورة.. لكنّ (اللابيرنث) حقيقة.. وقد تم إقحام الأسطورة عليها... مثل قصة (أوديب) مع (أبو الهول).. القصة مختلقة لكنّ (أبو الهول) حقيقة واقعة[2].. ولقد نشأت كثير من أساطير البشر بهذه الكيفية.. لكني - برغم ذلك - لا أرى ما يمنع من أن يكون (المينوتور) حقيقيًا..

جلس (ستافروس) على الأرض متربعًا.. وهو ما زال يلهو بالعظمة شارد الذهن.. ثم قال:
- والآن.. ماذا سنفعل..



ثمة علامات على بعض أجزاء الجدار .. كأنما هناك يد
قد رسمتها بـ (الطبشور) ..

قلت وأنا أشعل غليوني الذي انطفأ ثانية:
- لا شيء.. نغادر هذا النفق.. ثم نعود وفي نيتنا ألا نضل الطريق بداخله.. ومعنا ما يلزم من حبال وأجهزة اتصال لاسلكية ومعاول.. وبعدما نتحقق من أننا وجدنا شيئًا هامًا: يمكننا إبلاغ هيئة الآثار في (أثينا).. إذا يبدو لي أنّ هذا التيه أكبر من قدراتنا..
نهض (ستافروس) وتثاءب.. فرمقه (باسيلوس) في اشمئزاز.. وسمعته يغمغم في حنق:
- كيف يمكن للإنسان أن يكون خنزيرًا كسولًا إلى هذا الحد؟
لم أعلق.. بينما نحن عائدون إلى الفتحة التي نزلنا منها.. ورحنا - بعناء كثير - نتسلق السلم الليفي إلى أعلى..
وفي الخارج كانت الشمس الحارقة تشوي الموجودات بلا رحمة.. وكان الرجال مبعثرين وقد سكب بعضهم الماء على رأسه.. أو رقد عاري الجذع تحت قطعة قماش يحاول أن يجد تحتها ظلًا..
ولم يبد واحد منهم أي فضول لمعرفة ما وجدناه، فالفضول لم يك قط من مزاياهم ولا عيوبهم..
أصدر (باسيلوس) بتعالٍ تعليماته لهم أن يعودوا لديارهم حتى إشعار آخر.. ثم راح و(ستافروس) يدقان بعض الأوتاد المعدنية حول فتحة البئر التي عرفنا الآن أنها ثقب في سقف التيه..
وقاما بربط حبل غليظ ما بين الأوتاد وبعضها ليكون سورًا يحجب الأطفال والفضوليين من السقوط في البئر..
أما وقد تم هذا.. فقد انتصف النهار. وحان وقت العودة إلى ديارنا.. أعني غرفاتنا..

* * *

فيما بعد عرفت ما يلي:
لقد عاد (باسيلوس) إلى غرفته في الخان.. ونزع ثيابه شاعرًا بالضيق لكون الحمام غير متاح.. لكنّ الأمر عاجل.. فقد تحول شعره إلى عجينة من التراب والعرق. لذا قام بالأسلوب العملي الوحيد، وهو أن يستحم مستعملًا قصعتين.. واحدة يملؤها بالماء.. والأخرى يقف فيها كي لا يغرق الماء الأرضية، وبكوز صفيحي صدئ يسكب الماء فوق رأسه وباليد الأخرى يفرك قطعة الصابون على جسده..
وفي رضا راقب الماء المتسخ الذي تساقط من عليه.. شعور ممتع هو أن يعرف أنّ هذه الأقذار لم تعد تكسوه..
ارتدى الروب وراح يتأمل في إعجاب صورته في المرأة..
وهنا دق الباب.. ورأى خيالًا مألوفًا يحمل عشاءه منعكسًا في المرآة.. هذه هي (إيزبيا) ابنة صاحب الخان.. وهي فتاة تملك قدرًا متواضعًا من الجمال.. لكنّ لا يمكن وصفها بالقبح.. إذا تجاوزنا عن عرج بسيط..
تعسة هي.. بائسة.. يسهل على من يعرف النساء أن يعرف أنها تحب.. وبالطبع هو حب غير موفق بحال..

- هوذا عشاؤك..
قالتها. ووقفت جواره صامتة تتأمله. إذ يحدّق في المرآة..
- هل تريدين شيئًا؟
لاذت بالصمت.. لثوان.. ثم تهانفت.. ودفنت وجهها بين خصلات شعرها الأشقر.. ومن كيانها تصاعد صوت نهنهة..
في نفاد صبر سألها:
- ألن تكفي عن هذا الهراء؟
- بلى.. بلى.. سأكف..
وازداد صوت النهنهة المتصاعد منها ارتفاعا.. أردف (باسيلوس):
- لا أدري لم تأخذين الأمور على هذا المنحى.. إن الرجال يروحون ويجيئون.. فلماذا أكون أنا وحدي المسئول عن تعاستك؟ صه!.. لا تقولى شيئًا عن الحب.. فأنا لن أمنح عواطفي لابنة صاحب خان أبدًا.. ولقد تدنيت كثيرًا حين أبديت لك لطفًا.. لكنّ القصة قد انتهت الآن يا فتاة.. ولا داعي لأن تفسدي فصولها الأخيرة..
- لكني أحبب...
رفع إصبعه محذرًا وعلى وجهه تقطيبة جادة:
- صه!.. هأنتذى تعودين إلى لفظة الحب.. ولا أدري حقًّا ما هو هذا الحب الذي تثرثرين به.. انظري لهذا الحساء...
ومد الملعقة الصدئة فملأها من طبق الحساء.. ورفعها لفيه:
- أنا أحب هذا الحساء.. والآن.. سلورب!.. لقد شربت ما بطبقي.. ولم أعد أحبه.. الأمر كهذا ودون تعقيدات..
توقفت الفتاة.. وحاولت أن تقول شيئًا، بينما (باسيلوس) يلوك ما بالحساء من بصل وهو يرمق صورته في المرآة دون أن يحرك ساكنًا.. وفي اللحظة التالية هرعت الفتاة مغادرة الحجرة..
موقف قاس - خطر له هذا! - لكنه ضروري.. وهذا هو قدره.. كلما وجد فتاة أمامه ظل يلاحقها.. حتى إذا هامت به حبًا صارحها بأنها غير جديرة به.. موقف قاس واجهه مرارًا.. لكنه ضروري... فلو أن أحدًا ترك لأولئك الفتيات الحبل على الغارب. فماذا يبقى من ذاتيته؟ وماذا يبقى من حريته؟
لكن هذا الحساء لذيذ الطعم حقًّا..

* * *

فيما بعد - أيضًا - عرفت ما يلي:
كان (ستافروس) في تلك الأثناء جالسًا في حجرته، يدون التقرير اليومي عن نتائج الحفر.. حين دق الباب.. ورأى تلك الفتاة الرقيقة (إيزبيا) ابنة صاحب الخان. تدلف إلى الغرفة لتضع عشاءه على الخوان.. ثم تهم بالانصراف.. فناداها:
- (إيزبيا).. انتظري لحظة من فضلك..

فتصلبت الفتاة بحركة آلية.. ووقفت تنتظر..
تأمل وجهها.. وأدرك ما هنالك:
ـ أنت كنت تبكين؟؟
لم تجب.. لكنّ العبرات تزداد غزارة كلما سال الحمقى عنها.. وكانت إجابة كأبلغ ما يكون.. من ثم عاد يتساءل:
ـ هل هو (باسيلوس) اللعين؟.. هل آذاك؟
ـ كثيرًا يا سيدي.. كثيرًا...
قالتها بصوت مخنوق.. وقبل أن يسألها عن المزيد كانت قد غادرت الغرفة..
يا لـ (باسيلوس) اللعين!.. لقد اعتاد (ستافروس) أن يجد الخير نقيًا في أشر الناس طرًا.. وأن يجد الشر في ذوي النبل والصلاح.. إلا (باسيلوس).. هذا الوغد هو شر مطلق بلا ذرة من عطف أو رقة أو حنان.. إنّه نموذج للشخصية الأنانية (السيكوباتية) التي لا تريد من المجتمع إلا مصالحها.. ولا تعطيه شيئًا على الإطلاق..
أما أسوأ ما في الأمر؛ فهو أن (ستافروس) كان يهيم بالفتاة حبًّا.. منذ أن جاء إلى (كريت) وحتّى الآن..

* * *

لابد أن (إيزبيا) وضعت الشال عني كتفيها. وغادرت الخان عند منتصف الليل.. وحدها..
ولابد أنها كانت تبكي.. ولابد أن العبرات كانت تحول بينها وبين الرؤية الصافية.. كل هذا مؤكد..
لكن القمر كان بدرًا.. وجعلها هذا تزمع أن تتجه نحو الهضبة حيث كان الرجال يعملون صباحًا..
من المؤكد لنا أنها فعلت هذا.. لأن آثار قدميها على الأرض الجيرية تؤكد أنها اتجهت في هذا الاتجاه...
كان يمكننا أن نقسم إن مشهد الهضبة كان رهيبًا في ضوء البدر البارد الفضي.. وخيالات غامضة تتلاعب هنا وهناك.. لكنّ الحزن لا يدع في النفس مكانًا لشعور آخر.. سواء كان الرهبة أو الخوف.. و(إيزبيا) كانت حزينة..
حزينة إلى حد أنها لم تلحظ أن الحبال المحيطة بموقع الحفر قد تمزقت.. وأن البئر صار بلا حدود تحيطه..
حزينة إلى حد أنها لم تسمع صوت الخطوات من ورائها..
حزينة إلى حد أنها لم تصرخ..
ولعلها لم تجد الوقت الكافي لذلك..

* * *

إنه الصباح..
وحين صحونا من النوم أدركنا أن الأمور ليست على ما يُرام في الخان. رجال يدخلون ويخرجون.. وضوضاء..
نظرت نحو (هيلين) متسائلًا عما عساه مصدر هذه الجلبة. وكانت الإجابة سريعة جدًّا.. وغير متوقعة بحال.
اقتحم غرفتي صاحب الخان - على غير استئذان - وهتف:
- ألم ترَ ابنتي (إيزبيا)؟..
- بلى.. وقت العشاء.. طبعًا..
- لم يرها أحد بعد هذا.. إنني لا أفهم...
ثم فارقني غير منتظر لردي...
خرجت وراءه، لأجد الخان مليئًا بالوجوه المتسائلة. والشوارب الكثة. والبنادق لنفر من رجال الشرطة المحليين..
وكان (باسيلوس) يقف بينهم بقامته المديدة.. يكرر في ثقة:
- للمرة الألف أقول إنها قدمت لي العشاء ثم انصرفت.. وليست لديَّ أدنى فكرة عن...
- اخرس أيها الثعبان!...
صاح (ستافروس) في عصبية.. وأنا لم أر (ستافروس) يتشاجر في حياتي، وعهدي به الليونة والاستسلام.. لكنه في هذه المرّة كان ثائرًا كبركان، وقد احتشد الدم في وجهه وكاد يسيل من أذنيه..
ورأيته يشير إلى (باسيلوس) متهمًا:
- إنني واثق أنّ هذا الفتى مسئول عن اختفائها.. لقد رأيت الفتاة وكانت في حال غير طبيعية.. وأنا أعرف أنّ هناك شيئًا ما بين الاثنين....!
- هراء!..
قالها (باسيلوس) وهو يرمقه بنظرات لو أنها تقتل لأحالته إلى مصفاة آدمية..
رفعت كفي في كياسة، طالبًا حقي الطبيعي في أن أعرف ما يدور هنا بشأن اثنين من معاوني..، فقال لي أحد رجال الشرطة:
- الفتاة خرجت من الخان أمس عند منتصف الليل.. هناك من رأوها تفعل.. وآثار أقدامها واضحة على الأرض.. ثم لا أثر لها بعد ذلك.. نحن نعتقد أنّ هناك من تحرش بها.
في غضب صاح (ستافروس):
- بل انتحرت.. بخعت نفسها، وعندي على ذلك ألف يقين.. لقد آذى هذا العقرب الوسيم روحها.. ابحثوا يا رجال عن جثتها في بحيرة.. أو مهشمة أسفل مرتفع.. أو مدلاة من حبل في سقف كنيسة مهجورة..
صحت فيه محنقًا:
- (ستافروس)!.. آمرك أن تخرس.. لا تزد الأمور تعقيدًا..



حزينة إلى حدّ أنها لم تسمع صوت الخطوات
من ورائها . .

ثم نظرت إلى الرجال طالبًا أن يدلوني على مسار خطوات الفتاة.. وخرجنا في موكب غاضب من الأهالي ورجال الشرطة، ونساء (كريت) المولولات دائمًا في ثيابهن السوداء.. كل هذا يحيط بالفتيين..

وفي ضوء الشمس الحارق رأينا خطوات حذاء أنثوي تتجه نحو المرتفع.. المرتفع حيث كان الحفر يجري بالأمس..

صحت في الرجال وقد فهمت ما جرى:

ـ هناك من مزّق انحبال المحيطة بالفتحة.. لابد أن الفتاة قد سقطت في البئر إلى داخل التيه..!..

ـ إذن هاتوا الحبال..!..

وتدلى أحد الرجال - من ذوى الوزن الخفيف - في حبل.. وراح ينزلق عليه إلى أسفل بحذر..

على حين وقفنا نحن بأعلى نرمق الفتحة المظلمة، ونرمق رأس الرجل ينزلق ببطء ليختفى في الظلام.. وتمر دقيقتان..

ثم سمعنا صوته ينادي في هلع:

- يا رجال... قد وجدت عظامها...

تصايح الناس في هلع.. وهوى أبوها على ركبتيه يقرع رأسه بكفيه.. وصرخت عجوز وشقت ثيابها...

هنا صحت كي أهدئ الجميع:

- صبرا يا إخوان..... إن هذه العظام موجودة منذ الأمس.. وهي تعود لتاريخ سحيق.. وحتّى لو فرضنا أن الفتاة قد سقطت في البئر.. فما كان لها أن تتحلل بهذه السرعة!.. إن (إيزبيا) في مكان آخر دون شك..

بدا عليهم الاقتناع. وتنفس بعضهم الصعداء..

ثم رايت الرجل الذي كان قد هبط إلى القاع يصعد متسلقًا الحبل ثانية.. وفي جيبه دسّ ثلاثة عظام ليرينا إياها.

قال رئيس الخفر. وهو يُلقي بالعظام أرضًا:

ـ لا عليك يا (خريستو).. ما دمت لم تجد الجثة ذاتها مهشمة العنق: فما زال أمامنا أمل..

ثم التفت إلى الرجال آمرًا:

ـ فلنفتش الكنيسة المهجورة.. ونمسح الشاطئ كله..

وانصرف الرجال جميعًا.. في حين تخلفت أنا و(ستافروس) و(باسيلوس).. كان (ستافروس) راكعًا على ركبته يتفحّص عظمة طويلة وجدها بين هذه العظام التي أخرجها الرجل من البئر..

ـ هل ثمّة شيء يا (ستافروس)؟

قال وهو يتشمم العظمة.. ويتفحصها في عناية:

ـ إنها عظمة ساق.. أشعر من رائحتها وملمسها أنها طازجة.. لم تجففها السنون كباقي العظام...

ثم نظر لي نظرة ذات معنى.. وأردف:

ـ إن لي خبرة طبية معقولة لأنني بدأت دراسة الطب ولم استكملها.. هذه العظمة هي قصبة ساق يسرى.. ويوجد كسر سيئ الالتئام في منتصفها.. (باسيلوس).. لقد كانت (إيزبيا) تعرج في سيرها قليلًا.. فأية ساق كانت تعرج بها؟

بلل (باسيلوس) شفتيه بلسانه.. ونظر إلى الأفق.. وغمغم:

ـ كانت تعرج بساقها اليسرى!!..

.....

* * *

٦ - ومزيد من الأشياء..

قمنا بإعادة ربط الحبال حول البئر، وزدنا عددها هذه المرّة لتكون سورًا حقيقيًا يمنع أي شخص من الدنو هناك..

لم نخبر أحدًا بقصتنا لأن احتمال الخطأ وارد.. ومادام اسم الإنسان لا يكتب حفرا على عظامه. فنحن لا نستطيع أن نقسم إن هذه هي عظام الفتاة..

غذا نستكمل البحث داخل هذا التيه. ونعرف أكثر..

أما الآن فننبق السر بيننا.. لأن أول ما سيقوم به هؤلاء الأهالي المحنقون، هو أن يطلقوا على البئر اسمًا شاعريًا مثل (فم الشيطان).. ثم يحضروا الديناميت أو الخرسانة ليسدو هذا الفم نهائيًا، ويضيع علينا كل المجهود الذي قمنا به، ولن نعاود الحفر إلا في حماية كتائب من الجيش اليوناني ودبابتين على الأقل..

لهذا عدنا إلى قواعدنا سالمين..

وفي نفس الوقت كان الرجال يبحثون عن شيء ما في الجزيرة كلها.. دون جدوى طبعًا..

* * *

تسألني ـ وأنت محق في هذا ـ عن السبب الذي منعنا من سد الحفرة نهائيًا.. لقد عرفت فيما بعد مدى خطئنا..

لكن ماذا أقول لك؟

إننا يونانيون.. ونخضع لقواعد الدراما الإغريقية (الأرسطوطالية) حيث البطل يسير ـ بإصرار مزعج - نحو قدره.. وحيث ينذره كل شيء بالمصير المحتوم لكنه لا يبالي..

* * *

عند العصر عاد الرجال خالي الوفاض إلى الخان..

ورأيت صاحب الخان - أبا (إيزبيا) - يتقدم في خطوات متثاقلة إلى منتصف قاعة الطعام.. مغبرًا مشعثًا ملوثًا بالعرق.. وقد اختلط شعره بالتراب، وتمزقت ثيابه.. لابد أنه زحف داخل أكثر من كهف.. وتعلق في أكثر من سقف.. وغاص في أكثر من بئر..

كانت عيناه جمرتين متقدتين من لهب..

ورأيته يقف أمام (باسيلوس).. بينما هذا الأخير مازال يلوك قطعة اللبان في استعلاء، ويداه في جيبه متحديًا..

قال صاحب الخان ضاغطًا على أسنانه:

- اسمع يا ابن الشيطان.. لم أجد دليلًا على أنك مسئول عن اختفاء ابنتى.. لكني - والله يعلم ذلك - أعرف أن لك علاقة بالأمر.. لهذا اعتبر نفسك إنسانًا ميتًا من الآن فصاعدًا!..

بلا مبالاة تساءل (باسيلوس):

- هذا مسل.. ومتى؟

- حين أقرر أنا.. والآن اخرج من هنا!.. لا أريد أن أراك تحت سقف داري ثانية..

وأشار إلى الباب في حزم..

فمشي (باسيلوس) بين الدهماء، متظاهرًا بعدم اللامبالاة.. وخرج..

قلت محاولًا تهدئة الأمور:

- أي (يانّي).. إن الفتى لم يفعل ما تظن أنه فعله..

- لا يهم.. ما أعرفه هو أن له علاقة ما بالأمر..

قال رئيس الخفر. وهو يصب لنفسه بعض النبيذ:

- غدًا نواصل بحثنا.. نحن لم نتفقد قبو الخمور بعد..

قال قائل:

- والطاحونة المهجوة..

- إن غدًا لناظره قريب.. أمّا الآن فقد بدأ الظلام..

* * *

بدأ الظلام..

يا لهذا الحارس الليلي من كائن غريب!.. بعباءته السوداء المدلهمة يخطو منحنى القامة بين الدروب.. يطفئ هذا المصباح وذاك.. يُلقي عباءته فوق المنعطفات وبين الديار.. يبعثر زهور الغموض والرهبة هنا وهناك.. يحييه البوم.. وترف له أجنحة الوطاويط.. وتنبح الكلاب.. وتعوى القطط الضالة..

إن الظلام هو الملك المطلَق للبلاد.. فالمجد له..

لكن الظلام لم يثر خوف (لازاريدس)..

إنه يعرف هذه الجزيرة كظهر يده.. ويعرف أنه ما من شيء يحدث فيها على الإطلاق، وحتّى لو حدث شيء فهو يحدث للاخرين فقط.. الاخرون فقط يجرحون ويصابون ويموتون.. أمّا هو...

الحقيقة الآن هي أنه ثمل تمامًا..

لقد أفرط في احتساء (الأوزو) في الحانة منذ ساعة. وهو يعرف ما سيحل به حين تعرف امرأته ذلك...

(نانا) القوية الضخمة سليطة اللسان.. ستبدأ بالصراخ فيه، ثم تكيل له عددًا من اللكمات.. ثم...

لا يهم.. فلم تعد ضرباتها تؤلمه...

المشكلة هي أنه يشعر بساقيه لينتين كعودين من (المكرونة) المسلوقة، أو قالبين من (الهلام)..

المشكلة هي أن البيت مازال بعيدًا.. بعيدًا جدًا..

يمكنه اختصار المسافة لو صعد هذا المرتفع، ليمر بموقع الحفر الذي يعمل به كل هؤلاء المخابيل من (أثينا).. والذي يعمل به هو أيضًا.. لكنه لن يعمل به غدًا لأنّه بالتأكيد سيظل فاقد الوعي حتى الظهر.. وسيصحو بصداع لعين.. وسيحسو أقداح عصير الطماطم محاولًا أن يفيق من تأثير هذا السم..

شرع يغني بصوت عالٍ:

- لا يا (ميخائيلوس).. أنا لن أعود لسماع ألحانك جوار شجرة (الدردار).. لأن....[3]

لاهثًا يرقى المنحدر.. واللعاب يسيل من فيه..

- .. لأن.. القرية كلها تعرف أمرنا... و.....

تبًا... هذه الصخور تمزق نعليه.. إن أنفاسه لم تعد تطيـ...

- ولأن أبي قال لي.. لا.. ليس (ميخائيلوس).. إنّه لا يجيد سوى عزف المزمار.. وأمي... ..

هيه..!.. هو ذا قد وصل إلى جوار الحفرة التي حفروها أمس.. والتي حسبوا أن الفتاة قد وقعت فيها..

- وأمي قالت لي.. لا.. ليس (ميخائيلوس).. إنّه لا يملك سوى قلبه الفتى وذراعيه القويين.. و...

شيء غريب!.. إن هذه الحفرة تحيطها حبال ممزقة تتدلى من أوتادها.. لماذا يحيط هؤلاء المخبولون حفرتهم بأنصاف حبال؟ من الغريب أيضًا أن.. أن ماذا؟.. لقد نسي!.. هي هيه!.. إن أفكاره سريعة البخر حقًّا..

وبصوت أجش واصل الغناء:

- .. وخالتي قالت لي.. لا.. ليس (ميخائيلوس).. فهذا الفتى يملك عينين تسحران من تراهما.. لهذا...

يخيل له أنه يسمع صوت خطوات من وراء ظهره...

خطوات.. وصوت أنفاس لاهثة.. لا.. بل هو شيء أقرب إلى خوار الثيران..

- .. لهذا يا (ميخائيلوس).. لن أعود لسماع ألحانك جوار شجرة (الدردار)..

هذا الشيء ثقيل الحركة بالتأكيد...

إنه يدنو منه أكثر فأكثر..

وفي اللحظة التالية أحسّ بكف ثقيلة توضع على كتفه..

صرخ في هلع.. واستدار ليرى..

* * *

أنهت (ماريا) غسيل الثياب لأسرتها الصغيرة..

للأسف أن الوقت ليل.. لكنّها واثقة من أنّه سيجف سريعًا.لأن الهواء جاف حار... وهو أنسب لجفاف الثياب..

شرعت تعلق الثياب فوق الحبل الذي يمتد من جدار دارها إلى شجرة البلوط القريبة، ثم إنها عادت إلى الكوخ لترى ما إذا كانت طفلتها غافية في سلام...

إن (ماريا) على قدر لابأس به من الجمال برغم أعوامها الأربعين. وطفلتها قد ورثت عنها ذات الجمال.. لذا بدت الصغيرة كملاك نائم.. ملاك بلل ثيابه الداخلية للأسف!..
نزعت عن الطفلة سراويلها واستبدلتها لها، دون أن توقظها.. ثم رأت أن الوقت مبكر بعد.. ولن يعود زوجها من الحانة - ملتقى كل رجال البلدة - إلا بعد ساعتين..
فلماذا لا تنتهز الفرصة وتغسل هذه الثياب في البئر سريعًا؟ إن البئر قريبة.. والقمر الليلة مكتمل..
لهذا غادرت الدار مسرعة. قاصدة البئر التي تقع جوار المرتفعات..
وهذه هي مشكلة الطموح الزائد..
لقد أنساها هذا الطموح أن تغلق باب الكوخ على طفلتها النائمة.. و..

* * *

كان هذا هو (ميكوس) العجوز خفير الدرك..
- (لازاريدس) أيها السكير.. لسوف تهشّم عنقك يومًا ما في إحدى جولاتك الليلية..
تنفس (لازاريدس) الصعداء.. وهوى على رأس (ميكوس) يلثمها:
- لقد أخفتني أيها العجوز.. إن لأنفاسك خوارًا كخوار ثور...
- إنّه الربو يا (لازاريدس).. الربو.. هلا عدت لدارك الآن؟ إن أشياء غريبة تقع في البلدة هذه الأيام.. ويبدو أن هؤلاء الأثينيين أبناء الشياطين قد جلبوا نحسهم إلى (كنسوس).. هيا.. عد إلى دارك..
هز (لازاريدس) يديه في وجه البدر.. وهتف:
- كنت أمرح أيها العجوز.. أمرح..
وعاد يغني في صوت أجش وهو يترنح مبتعدًا..
- لا.. يا (ميخائيلوس).. أنا لن أعود لسماع ألحانك جوار شجرة (الدردار)..
كانت هذه هي الأغنية التي رددها.. كما أكد (ميكوس) في المحضر الرسمي الذي كتبه بعد يوم..
ولقد أثار هذا الاهتمام بالتفاصيل ضيق رئيس المخفر، لكنه رأى ألا بأس من ذكر هذا في المحضر..
والمؤكد أن (لازاريدس) قد شفي من إدمان الخمر بعد تلك الليلة..
شفي إلى الأبد..

* * *

خيل إلى (ماريا) أنها سمعت صوت خطوات، فنظرت حولها لترى.. ولم يكن هناك شيء..
عادت تغسل الثياب الداخلية لطفلتها في مياه البئر..
حين خيل إليها أنها تسمع صوت خوار كخوار الثيران..

مستحيل هذا.. لابد أنه صوت جريان المياه..
واصلت غسيل الثياب.. حين بدأت تشعر الصوت يزداد ارتفاعًا.. كان القمر يرتمي أمامها في مياه البئر.. ومعه وجهها الوسيم.. وفي كل لحظة تهتز الصورة وتتموج.. تذكرت ـ بالتأكيد ـ قصة الفتى (نركيسوس) الذي عشق صورته في الماء. وحسب أنها عروس بحر حسناء، فكلما حاول أن يلثمها تشوّش الماء.. وغابت الصورة عن ناظريه.. وفي النهاية انتحر الفتى المطعون في حبه جوار ضفة النهر، ومن جثته نمت أزهار نرجس[4]...

إن وجهها هو أقرب إلى وجه عروس بحر حسناء، ترمقها من تحت الماء في وله وافتتان..
لكنها لاحظت شيئًا آخر يطل من فوق كتف عروس البحر في الماء.. ثم تذكرت أنّ هذا الشيء هو بالتأكيد يقف خلفها هي..!
لم تتبين ما هو..
لكنها عندما تبينته عرفت أنه رأس.. رأس شيء ما..
شيء يقف خلفها الان.. ويصدر أصواتًا غريبة...!

* * *

وحين مر (لازاريدس) قرب البئر..
لابد أنه رأى مشهدًا مروعًا.. مشهدًا لم يستطع فهمه من اللحظة الأولى.. لكنه في ضوء القمر يبدو واضحًا بغير حاجة إلى مزيد من الإضاءة..، وطارت الخمر من رأسه فورًا..
لابد أنه صرخ.. لابد أنه جرى..
وفجأة توقف وهو يشعر بخفقات قلبه تتسارع وتتسارع. حتى لم يعد يستطيع التحكم فيها...
ألم ممض يغزو صدره.. وستار أسود يهبط أمام عينيه..
وإذ سقط أرضًا.. لابد أنه رأى الشيء يدنو منه..

* * *



وإذ سقط أرضًا .. لابد أنه رأى الشيء يدنو منه ..

٧ - أسطورة المينوتور...

لقد عم الغضب البلاد.. وجاحت العواصف في أرجاء المعمورة.. ومن بين الغيوم هطل سيل غاضب هتون..

هكذا كان (هوميروس) أو (سوفوكليس) سيصفان رد الفعل الذي اجتاح أرجاء (كنسوس)، حين صحى الناس ليجدوا مأساتين في جزيرتهم الهادئة..

(لازاريدس) العجوز وجدوه ملقى على الأرض قرب البئر، وعلى وجهه أعتى أمارات الرعب..

أما (ماريا) فقد عاد زوجها ليجد طفلته تبكي وحيدة في الكوخ.. وراح - مسعورًا - يبحث عنها في كل صوب..

وفي الصباح وجد ثيابًا ممزقة قرب البئر.. وقطرات دم.. ثم لا شيء يدل على مكان زوجته.. لكنّ الثياب ثيابها حتمًا.. والثياب الملقاة على حافة البئر هي سروال داخلي لطفلته.. واضح أن الأم التعسة كانت تغسله حين.. حين ماذا؟

لا أحد يدري...

* * *

في دار العمدة جلس عشرة رجال حول منضدة، يحتسون القهوة ويدخنون. وقد بدت عليهم أمارات الجديّة..

كنت أنا بين هؤلاء الرجال.. و(يانّي) صاحب الخان.. و(ستافروس) و(باسيلوس).. والعمدة نفسه ببدانته وصلعته المميزة. وشاربه القصير المضحك..

وخارج الدار وقف خمسون رجلًا هائجًا، عازمين على تحطيم أي شيء في أية لحظة لأي سبب.. فقط امنحهم فرصة الانفجار.. إن الإنجليزية تحوى لفظة هي panic لانملك مثلها في اليونانية، ولا أدري إن كان مثلها في العربيّة.. إنها تعبر بصدق عن الهلع الجماعي المصحوب بانفلات أعصاب، مع عجز تام عن التعقل..

وهلع كهذا هو ما يجعل رواد مسرح يتدافعون نحو الباب إذا رأوا دخانًا أو شموا شياطًا.. غير عابئين بتهشيم بعضهم البعض تحت الأقدام، أو سحقًا فوق الجدران.

ولفظة panic هي خير تعبير عن حالة القوم في هذا اليوم..

وفي الداخل كنا أكثر هدوءًا.. وكنت أنا أقول في تعب:

- هكذا.. ترى يا عمدة أننا في مأزق.. وأرجو أول ما أرجو أن تعيد الاعتبار إلى مساعدي (باسيلوس)...

هتف العمدة في تبسط:

- طبعًا.. طبعًا.. أعتقد أن (يانّي) لم يعد يحمل ضغينة ما..
ابتسم (يانّي) ابتسامة صفراء.. ولم يقل شيئًا..
أضفت وأنا أشعل غليوني..
- نحن الآن واثقون أنّ هذا الشيء الذي يجتاح القرية؛ وكلفنا أرواح ثلاثة أبرياء.. إنما جاء من الحفرة.. جاء من القبو الذي وجدناه بالأمس.. والدليل على هذا هو تمزق الحبال التي أحطنا بها الفتحة أمس.. للمرة الثانية تتمزق... وأنا لست ميالًا إلى أنّ هذا عبث عابث.. فلا سبب يدعو شخصًا عاقلًا لتمزيق حبال تحيط ببئر.. إن الشيء هو الذي مزّق الحبال.. وأكاد أجزم أنه كان يحمل ضحيته إلى البئر عائدًا في كلّ مرّة...
ومددت يدي إلى لفافة من ورق أحملها.. وقلت:
- هوذا الدليل على كلامي.. هذه العظمة أثارت انتباه (ستافروس).. أمس.. وأعتقد أنه مصيب..
ورفعتها ليروها.. وبالطبع تحاشيت ذكر أسماء، لأن هناك احتمالًا لا بأس به في أن يكون (يانّي) هو أبو صاحبة العظمة!
- كما ترون.. هذه العظمة طازجة.. نخاعها أحمر.. ويخيل لي أنها تخص إحدى ضحايا الشيء.. وقد وجدناها في الحفرة..
ساد الصمت هنيهة..
بعد لحظات تساءل أحد الرجال:
- ولماذا لم يمس هذا الشيء (لازاريدس)؟..
- لأنّه كان قد مات.. وهذا ما تفعله الدببة حين تجد جثة.. فتتشممها.. ثم تنصرف عنها في فتور...
مرة أخرى عاد الصمت...
وإن كنت قادرًا على سماع الأفكار تدوي في أذهان الجالسين، وأن تعد أنفاسهم...
بعد قليل همس العمدة:
- أرى أن الجميع يشاركني الرأي في وجوب سد الحفرة..
قلت في إحباط:
- لكنّ كشفًا كهذا لا يمكن أن يُدفن..
- إن الخطر يفوق الفائدة المرجوة.. وعلى كل حال يمكنكم دائمًا أن تعودوا مع حشد من عسكريي (أثينا)، لتفتيش الدهليز.. ومحاصرته.. وتمشيطه..

* * *

هنا تساءل (ستافروس) وهو يضع القدح على المنضدة:
- ترى هل ما زلت تؤمن بوجود (المينوتور) يا بروفسور؟
تصايح الرجال بالكلمة في دهشة..
فكلهم سمعوا هذه الأسطورة منذ نعومة أظفارهم.. و(كريت) كلها تعيش في هذا الجو منذ الفجر وحتّى غروب الشمس...

- (مينوتور)؟ (مينوتور)؟..
قلت أنا محاولًا أن أبدو عقلانيًا باردًا:
- هذا مجرد فرض.. (اللابيرنث) به وحش.. فماذا عساه يكون هذا الوحش سوى (المينوتور)؟..
ابتسم العمدة في تهكم مهذب..
على حين قال (باني) وهو ينزع البيريه من على رأسه:
ـ لو فرضنا هذا جدلًا.. فالأسطورة ذاتها تقول إن (ثيذيوس) قتله.. فكيف عاد للحياة؟
ـ أنا أفترض ولا أملك أدلة.. لكنّ لماذا لا نفرض أن الملك (مينوس) أذاع هذا لينهي حربه مع (أثينا)، وينقذ ماء وجهه من إلغائه لفدية سنوية كانت تؤرق ضميره؟
لماذا لا نفرض أن (ثيذيوس) كاذب؟ لماذا لا نفرض أن (ثيذيوس) شخص افتراضي، ولم يكن له وجود؟
قال العمدة ملوحًا بكفيه:
- ليكن.. ليكن.. نحن لن نضيع الوقت في افتراضات لا جدوى منها.. ليكن ما بالقبو هو (المينوتور) أو حماتي لا يهم.. المهم أنّ هناك وحشًا مفترسًا يجب منعه من الخروج...
ثم أصدر أوامره إلى رجلين جالسين، بدت عضلاتهما المفتولة في الساعدين والكتفين العريضتين..
- (سبيروس) و(كوستا).. عليكما أن تصحبا الرجال إلى البئر.. وتقوما بما يلزم لسد هذه الفتحة..
ـ ليكن.. سندعمها بالحديد، ثم نصب فوقها طبقة من الأسمنت.. وبعدها نهيل التراب عليها.. ونرويه..
- على بركة الله..
فلم يكد المساء يجيء، حتى اختفت الفتحة تمامًا.. ولم يعد يسيرًا العثور عليها حتى بالنسبة لنا..
إنه قرار صائب حقًا...

* * *

نعم.. هو قرار صائب بالنسبة لـ (نيقوس).. ولن يتراجع عنه..
كان الجميع يقولون إنّه مشاغب، ويقولون إنّه مولع بالتحدى وروح القتال..
وقد كان كذلك..
إن أعوامه العشرة تغري من هم أكبر بالسخرية منه.. ولطالما حاول أن يتفوق على من كانوا أكبر منه سنًا.. استعمل ألفاظًا أكثر بذاءة من ألفاظهم... حفظ نكاتًا أوقح من نكاتهم.. تعلم تدخين التبغ مثلهم.. تشاجر مرارًا على غرارهم...
لكنهم لم يقبلوه قط بينهم.. دائمًا كان بالنسبة لهم (ذلك الغرير).. ولطالما سخر منه (فرانجوليس) ـ أو (فرنجو) كما يسمّونه ـ لأن صوته رفيع كالفتيات وذقنه ناعمة لا تكسوها تلك الخشونة السوداء المحببة في ذقون هؤلاء...

كان يحتد أحيانًا.. لكنّ بعض لكمات كانت تلقى به أرضًا فوق الغبار، يبكي كرامته الجريحة أكثر من بكائه ألمًا..

واليوم قال له (فرانجوليس)، وهو يمسك بتلابيبه:

- اصغ لما أقول يا (نيني).. وإلا فتحت كرشك..

كان النصل الحاد للمطواة الصدئة ينغرس في لحم بطنه. وكان يعرف أن (فرانجو) لن يجرؤ على (فتح كرشه): لكنّ الشعور كان كريها وغير مريح بالتأكيد..

- أنت تزعم أنك رجل.. أليس كذلك؟..

قال بعناد:

- بلي.. رجل...

- إذن.. ستريني ذلك..

وقاده مع عصابة الفتيان المراهقين إلى المرتفع.. قرب مكان الحفريات التي كان يمارسها الرجال من (أثينا)...

ورأى (نيقوس) حفرة في الأرض.. جواره تراب متكوم ومعول..

- نريد منك أن تهبط في هذه الحفرة!..

قال واحد آخر وهو يشعل لفافة تبغ.. (عُقب لفافة في الواقع):

- نحن حفرنا هذه الحفرة.. إن شيئًا مروعًا يحدث بهذا المكان.. ولقد ردموا اليوم الحفرة التي صنعها الأثينيون.. لكننا اصطنعنا هذه.. وستكون هي اختبار شجاعتك..

ونظر (فرانجوليس) إلى عينيه.. وهتف:

- هل تجرؤ على النزول يا (نيني)؟

- ولم لا؟

قالها بتحدٍ كعادته.. فتبادل (فرانجوليس) نظرات السخرية مع من حوله، وهو يلوك عودًا من الثقاب بين أسنانه..

إن زعامة هذا الطراز من المراهقين؛ تكون للأكثر قدرة على إيذاء الآخرين.. والأكثر سادية.. والأكثر بذاءة..

وكان (فرانجوليس) يعي أنه لكي يحتفظ بزعامته عليه أن يحافظ على درجة معينة من السادية والبذاءة.. و القسوة..

لذا قال للصبي:

- ليس الآن يا (نيني).. بل ليلًا!..

قان واحد من العصابة:

- لا تقس على الآنسة يا (فرانجو).. أنت تعلم أنه لا يجرؤ!..

قال (فرانجو) في لهجة رحيمة:

- حقًّا يا شباب.. وهذا مؤسف.. إن هؤلاء الأطفال...

وهنا كان طبيعيًا أن يثور الصبي. وقد لعبوا على الوتر الحساس المضمون.. صعد الدم إلى رأسه وأزمع أن يقبل لعبتهم الخطرة دون مناقشة..

- ليكن يا (فرانجو).. الليلة عند منتصفه..

- هذا ولد شجاع...

* * *

وها نحن أولاء نرى (نيقوس) وقد عقد أمره على قبول التحدي.. كان خائفًا.. لكنّ كبرياء الأطفال كانت أقوى من خوفه..

ها هوذا يدنو من البئر الجديدة التي حفرها هؤلاء..

فيجد ـ في الظلام ـ (فرانجو) وثلاثة آخرين ينتظرونه.. وناوله الأول شمعة.. وأشعل فتيلها.. ثم غمغم:

- ستقضى ربع ساعة هناك.. بعدها تخرج.. وسنكون بانتظارك لنعلن أنك حقًّا رجل..

تناول الصبي الشمعة دون كلمة..

ثم اتجه إلى فتحة البئر، حيث كان حبل غليظ ربطه المراهقون في شجرة قريبة.. وبدأ يتدلى إلى أسفل ممسكًا الشمعة بيد.. والحبل بيد أخرى..

ولم يكن الارتفاع كبيرًا.. خمسة أمتار لا أكثر..

وسالت قطرة من الشمع الساخن على كفه.. فهزها ليخفف من الحرق الذي شعر به... لعق يده.. ثم تخلى عن الحبل..

ونظر لأعلى ليرى.. فوجد الحبل يرتخي.. ثم يسقط من أعلى ليتكوم على الأرض جواره كثعبان ميت..

وفي اللحظة التالية رأي وجه (فرانجو) يطل من أعلى:

- حظًا سعيدًا مع الاشباح يا (نيني)..... سنعود لك في الصباح لنراك.. هوهوه!.. أو لنرى ما تبقى منك... هو هوه!..

ودوت عدة (هوهوات) من الثلاثة الواقفين حوله..

وعندئذ فقط تذكر (نيقوس) أنه مازال طفلًا..

طفلًا وحيدًا في الظلام...

* * *

٨ - الوحش بيننا..

الخاطر الأول هو وضع الشمعة على الأرض وتثبيتها:
الخاطر الثاني هو تسلق الجدار للخروج من الحفرة..
نظر (نيقوس) إلى أعلى...
المشكلة هي أن الفتحة في منتصف السقف. وليست جوار الجدار. وبالتالى عليه أن يتسلق لأعلى.. ثم يمشي على السقف كذبابة حتى يصل إلى الفتحة.. ويخرج جسده منها..
أمّا محاولة قذف الحبل لأعلى ففاشلة حتمًا. لأن الحبل لن يجد ما يتعلق به...
وهنا ـ على ضوء الشمعة المتراقص - رأى قطعة حجر بارزة من الجدار قرب السقف..
سيكون عليه إذن أن يقذف حبله ليلتف حول هذا الحجر.. ثم يتسلقه إلى أعلى.. وحين يصل إلى مستوى الحجر ربما أمكنه أن يعيد قذف الحبل إلى حافة الحفرة.. وربما أمكنه أن يصل إليها..
مد يده يصنع أنشوطة من الحبل..
وفي حذر كوم الحبل.. ورماه إلى أعلى..
فشل مرّتين.. وفي المرّة الثالثة التف الحبل بأنشوطته حول الحجر البارز.. جذبه ليتأكد من أنّه سيتحمل ثقله..
ثم بدأ يتسلق..
كان يرتجف كورقة.. ودموع الخوف تبلل عينيه.. لكنه كان يعرف أن عليه ألا يبقى بهذا النفق لحظة أخرى..
فلم يمنعه الذعر من القيام بعمل إيجابي..
الأوغاد.. الأنذال.. حين يخرج من هنا سيمزقهم بيديه.. ولسوف يعرفون من هو (نيقوس) حقًّا.. سينشب أسنانه في عنق (فرانجو) وينتزع حنجرته وسط هلع الآخرين.. وصراخهم..

وغدًا يأخذونه وسط هلع الآخرين.. وصراخهم...
وغدًا يأخذونه إلى المخفر.. وهناك سيقف أمام رئيس الخفر والدم يسيل من ثغره ويبلل ثيابه..
ولسوف يسأله (ميكوس) العجوز عن سر قتله لأولئك المراهقين الأربعة.. فيقون في ملل:
ـ لقد استفزوني أيها العجوز.. استفزوني!..
عندئذ يقهقه (ميكوس) حتى تتبدى أسنانه النخرة.. ويبصق.. ويقول:
ـ كان هذا جيدًا يا فتى.. إن أولاد الأفاعي هؤلاء يستحقون ما هو أكثر.. هي هي هي..!
ومع ضحك العجوز يضحك (نيقوس).. يضحك.. يضحك وهو يواصل تسلق الحبل إلى أعلى..
وقد عاد إلى أرض الواقع.. ويتأمل الخطوط على الجدار التي كتبها أشخاص مجهولون من قبل..
ويرى علامات عدة..
كان قد وصل إلى مستوى السقف، ومن هناك يفكر في طريقة للزحف أفقيًا حتى يصل إلى الفتحة..
رفع جسده ليمتطى الصخرة البارزة، وأحاطها بفخذيه كأنها صهوة حصان.. ثم فك الحبل من حول الصخرة.. وتهيأ لقذفه تجاه فتحة البئر.. حين سمع الصرخة..

* * *

ترى هل تألموا..؟.. إذا لم يكونوا قد تألموا فلماذا صرخوا؟

من قصة (رأس ميدوسا)..

الكتيب السادس

* * *

في اللحظة التالية أظلمت الفتحة..
لم يعد يرى ضوء القمر الملتمع من خلالها..
وأيقن أن شيئًا ما يسد الفتحة من أعلى..
وفي اللحظة التالية لذلك، سمع خوارًا وحشيًا..
واستطاع أن يتبين شيئًا ما يُلقي من أعلى.. شيئًا ثقيلًا هوى كالحجر ليصطدم بالأرض..
ثم شيئًا آخر.. أمّا الشيء الثالث فكان يصدر أنينًا متوسلًا..
وسرعان ما هوى إلى أرض الحفرة.. وهمدت حركته..
لقد انطفأت الشمعة حين هوى فوقها الجسد الأول..
بعد هذا هوى جسم رابع ليلحق بالأجسام السابقة..
عجز (نيقوس) عن فهم ما يحدث..



وفى المرة الثالثة التف الحبل بأنشوطته حول الحجر
البارز . . جذبه ليتأكد من أنه سيتحمل ثقله . .

لكن غريزته ـ الشبيهة بغريزة القطط ـ قالت له ألا يصدر صوتًا.. وأن يظل حيث هو دون حراك..

ثم أحسّ أن جسمًا هائلًا يتسلق داخلًا إلى الحفرة.. آتيًا من الخارج وكان الظلام دامسًا لكنّ (نيقوس) أدرك أنّ هذا الشيء يفوق كل كوابيسه فظاعة..

وتصلب جسده والتصق بالجدار أكثر، وحبس أنفاسه..

وأدرك أنّ هذا الشيء ينحدر ببطء من الفتحة إلى الجدار المجاور. بخفة وسلاسة ودون مراعاة لقواعد الجاذبية.. كأنه عنكبوت ضخم..

عنكبوت؟

لا.. فهذا الشيء يملك يدين وقدمين كالبشر.. لكنّ قامته فارعة تقارب الأربعة أمتار، ورأسه عملاق لا يمت بصلة لرءوس البشر..

وفيما بعد وصفه (نيقوس) بأنه أقرب إلى رءوس الماشية!

والتمع ضوء القمر ليرى الصبي الأجسام الملقاة على أرض القبو..

عندئذٍ أدرك أنها أجساد المراهقين الأربعة الذين رموه هاهنا..

وقد بدا من أوضاع رقابهم، ومن انثناء أطرافهم أنهم لم يعودوا يمتون بصلة لعالمنا..

إن هذا الشيء الذي قتلهم يهبط الجدار الآن على بعد أمتار منه.. مصدرًا خوارًا ولهاثًا مريعين...!

ودس (نيقوس) يده في فمه، وعض عليها بقوّة كي يمنع الصرخة التي تريد أن تخرج.. وأحس بدم ساخن يسيل على ذقنه من جراء العضة... لكنه لم يشعر ألمًا..

هوذا الشيء يهبط إلى القاع..

وفي ضوء القمر الخافت البارد، رآه (نيقوس) يكوم الجثث الأربع فوق ذراعيه ـ جثتين على كل ذراع ـ ثم يمشي متثاقلًا عبر النفق وهو يصدر زئيرًا مريعًا..

وبعد لحظات تلاشي الشيء.. وخبت الضوضاء، وعاد الظلام..

كان هذا أكثر مما يستطيع الصبي أن يحتمله.

وبيد مرتجفة قذف الحبل نحو الفتحة..

التفت الأنشوطة حول طرف صخرة يبرز من جدارها.. وباليد الأخرى أحكم ربط الحبل حول الصخرة التي يجلس عليها...

قلبه يوشك أن يتوقف ذعرًا..

لكنه لن يفقد الوعي.. ليس هنا..

مد يده وتشبث بالحبل.. ودعا الله أن يكون الحبل متماسكًا.. فهو لايريد أن يسقط متدليًا في هذا الفضاء الكريه..

راح يزحف كدودة فوق الحبل.. ممسكًا بيديه وساقيه..

وأخيرا دنا من الفتحة.. لمسها بأنامله..

فكور جسده ليخرج منها..

وفي اللحظة التالية كان في العراء.. يشم هواء الليل الذي عطره القمر.. ويتنفس الصعداء..

لكنه لم ينتظر أكثر...

سارع بالركض مبتعدًا عن هذا المكان الرهيب..

* * *

فرغ الصبي من سرد القصة بالتفصيل على مسمعي، ومسمع العمدة، ورجل الشرطة.. ثم راح يرتجف ولا ألومه على ذلك لحظة..

قلت وأنا أربت على كتفه:

- لا عليك يا بني.. أنت في أمان الآن..

سألني العمدة عن رأيي فيما حدث.. فقلت:

- الأمر واضح.. لقد رأى الصبي (المينوتور).. كان الغلمان ينتظرون بجوار الحفرة حين فاجأهم الوحش من الخلف.. ولابد أنه غادر الحفرة قبل وصولهم.. كان يبحث عن فريسة فلم يجد.. وحين عاد إلى الحفرة وجدهم ينتظرون.. فقتلهم.. ثم ألقى بجثثهم إلى البئر.. ريثما يهبط هو لأسفل ويحملهم إلى حيث يفترسهم...

- يا للهول!

- نعم.. لقد دفع هؤلاء الفتية ثمن قسوتهم غاليًا..

- ونجا (نيقوس) بمعجزة..

تساءل رئيس الخفر وهو يرسم الصليب:

- ماذا عسانا فاعلون؟.. هل نهبط إلى التيه لنفتشه حاملين مشاعلنا؟

قلت في شرود:

- لا جدوى من ذلك.. فالفتية هلكوا دون شك.. ثم إن الهبوط إلى التيه انتحار حقيقي...

- إذن ماذا ترى؟.

- أرى أن نسد هذه الحفرة أيضًا..

- ولو نبشها عابث أخر؟

- يجب أن تعرف كل (كنسوس) بالقصة.. يجب أن يعرف كل القوم أنّ هناك وحشًا مريعًا يعيش تحت أقدامهم.. وأن ما يفصله عنا هو طبقة الأرض التي نقف فوقها.. إن الأمر لا يحتمل المزاح..

نهض رئيس الخفر.. ووضع بندقيته على كتفه:

- سوف آخذ الرجال إلى هناك حالًا.. ونسد الحفرة على ضوء المشاعل..

قال العمدة راضيًا:

- حقًّا تقول.. إن هؤلاء الرجال ثائرون إلى حد أنه لابد من إنهاكهم بعمل ما يستنزف طاقتهم العدوانية..

وقد كان...

* * *

مسرح الأحداث كان رهيبًا..

ولقد وجد الرجال مطواة (فرانجوليس) الصدئة.. وأعقاب سجائر عديدة.. وحذاعين.. وبقع دم..

يبدو أن الصبية كانوا جالسين على بعد عشرة أمتار من الحفرة، يدخنون ويتمازحون.. حين وجدوا (المينوتور) يخرج لهم من وراء الأشجار..

ولابد أنهم لم يجدوا الوقت الكافي للفرار..

وعلى ضوء المشاعل راح الرجال يمارسون مهمتهم الحزينة.. يسدون الحفرة كأنما يهيلون التراب فوق قبر الفتيان الأربعة..

وحين انتهوا رحلت المجموعة الحزينة في صمت..

بقعة من نور تغيب تدريجيًا في قلب الظلام...

* * *

- عمت مساء يا (هيلين)..

- مساء..!

قالتها، ودستت إبرة الحياكة في أذنها تزيل حكة ما..

جلست على الأريكة العتيقة بجوار الفراش، ورحت شارد الذهن أجتر أحداث النهار الرهيب، والأمسية الأكثر رهبة..

- أمازالت الطفلة نائمة؟

قالت في فتور دون أن تنظر إليّ:

- إنها الثالثة بعد منتصف الليل..

وابتسمت في مرارة.. واردفت:

- إنك تزيد ساعات غيابك ساعة كل يوم.. وهأنذا قد صرت جزءًا من هذا المقعد..

لم أرد أن أجادل أكثر.. فأشعلت غليوني وأرحت ساقي على مقعد خشبي صغير.. بعد دقائق قلت:

- صدقيني.. إنني لا ألهو ولا أعاقر الشراب في الحانة.. إن العمل يمتصني إلى حد لا يصدّق.. وهذه الأيام بالذات توجد...

- ومنذ متى لم يمتصك العمل؟!

صاحت كمن توشك على البكاء.. وأردفت وهي تلقي ما تحوكه على الفراش عند قدمي الطفلة الغافية:

- منذ تزوجنا وانا لا اشكل في حياتك سوى ركن صغير جدًا.. تتذكره كلما عدت لدارك منهكًا.. أنت تعود إليّ لمجرد أنك لا تجد مكانًا آخر تقضي فيه الليل.. سيان عندك غسلت قمصانك أم لم أغسلها.. طهوت أو لم أطه.. نمت أو صحوت..

واكتست عيناها بغشاوة رقيقة من دموع:

- في البدء كففت عن منحي ما أريد من حب.. والآن كففت عن طلب أي شيء مني.. ولو كان غسيل جورب متسخ..، حينما تزوجتك يا (ديمتريوس) - برغم فارق السن - ظننت أني سأجد فيك حنان الآباء وحكمة الفلاسفة وذكاء العلماء.. أمّا اليوم...

وابتلعت ريقها:

-.. فلا أجد فيك أي شيء على الإطلاق..
ودون كلمة أخرى نهضت مسرعة، وفتحت باب الغرفة.. خارجة إلى الممشى.. هرعت لتقف عند النافذة التي في نهايته ترمق الليل المظلم الصامت بالخارج..
جلست أنا أرمق (ميليسا) الغافية كالملائكة..
لماذا يموت الحب يا ملاكي الصغير؟ لماذا تخبو تلك الجمرة المقدسة لتصير رمادًا برغم لهيبها الذي أحرقنا يومًا؟ متى وكيف كففت عن الاهتمام بـ (هيلين)؟
رجل في سني وقبحي ووهن صحتي كان - لابد - أسعد الناس بزوجة شابة حسناء مطيعة كهذه.. لكني لست سعيدًا ولا حزينًا.. بل أنا لا ألاحظ وجودها عنى الإطلاق كما قالت هي...
وكما قالت هي.. يبدأ فقدان الحب بأن نكف عن العطاء.. بعدها نكف عن الأخذ.
لقد وهبت حياتي كلها لعملي فلم أعد أرى سواه...
والكارثة هي أنني لم أحقق شيئًا على الإطلاق..
وحتى (اللابيرنث) الذي ظفرت به أسفر عن كارثة.. كارثة يستحيل الإفادة منها بحال...
حتى إنني...
إنها تصرخ...
(هيلين) تصرخ صرخة مروعة كأنما هناك من ينتزع أحشاءها..
هرعت كالملسوع خارجًا من الغرفة لأنقذها..
فإذا بها تصطدم بي، وهي عائدة إلى الغرفة بدورها..
وارتمت في أحضاني تنتحب. وترتجف.. وهي في حالة هستيرية غير مسبوقة.. ومن فمها تخرج أشلاء كلمات..
اخيرا افهم كلماتها:
- إنّه.. خلف النافذة!
- من؟.. من هو؟؟
- لا.. لا أدري..
ثم ضاقت عيناها.. وهمست.
- كان يرمقني من وراء الزجاج.. رأس كرأس ثور!
.....

* * *

٩ - يجب أن ننزل التيه..

- مستحيل يا (هيلين).. يوجد شيء واحد يحمل هذا الوصف، وهو الآن حبيس التيه تحت الأرض..
- لكني أقسم إنني رأيته..
وكان خمسة من ساكني الخان قد التفوا حولنا..، ورأيت (باسيلوس) بفانلته الداخلية يقف ممسكًا ببندقية.. و(ديمتريوس) بمنامة مزركشة وقد بدت عليه علامات النعاس..
ثم ظهر صاحب الخان (يانّي) حاملًا بندقية أخرى:
- ألن تنتهي هذه الليلة اللعينة؟
قلت له وأنا أطوق زوجتي بذراعي:
- إنها تظن أنها رأت (المينوتور) يرمقها من وراء الزجاج..
- مستحيل.. إنّه سجين الآن!
- هذا ما قلته..
- وهل زوجتك تعرف القصة؟
استشار نحو الواقفين، وهتف كأنه يقود أغنام ضآلة إلى راعيها:
- هيا يا (جدعان).. لا داعي للتوتر.. لقد رأت السيدة كابوسًا..
وتفرق الجمع...
كدت أعود مع (هيلين) إلى غرفتنا.. لكنّ الرجل ناداني، فدنوت منه.. وإذا به يقرب فمه من أذني هامسًا:
- أترانا أغلقنا الفتحة بينما الوحش خارجها؟!

* * *

كان تساؤلًا في محله..
وفي الصباح حين عرفت أن أحد رجال الخفر قد اختفى. تاركًا بندقيته مهشمة إلى نصفين.. عندئذٍ فهمت مدى أهميّة السؤال.. وعرفنا أن (المينوتور) حر طليق في (كنسوس).. وعاجز عن العودة إلى التيه..
ولقد قضينا النهار كله نمشط المنطقة دون جدوى.. بحثنا في المرتفعات.. في مخزن الغلال.. والطاحونة.. والكنيسة المهجورة.. لكنّ سدى...
وفي النهاية عدنا إلى موقع الحفر الأول.. وكان ذلك عصرًا. فعرفنا أنّ هناك من حفر المكان مستعملًا الصخور الحادة ومخالبه.. وجرف طبقات الغبار والأسمنت.. ثم انتزع الحديد الذي غطوا به الفتحة...



هرعت كالملسوع خارجًا من الغرفة لأنقذها . .

لم نحتج لذكاء كثير كي نعرف من الفاعل..
لقد عاد الوحش إلى بيته من جديد...
وأمام الفتحة تساءل (ستافروس) في حيرة:
- هل سنسد هذه أيضًا؟ إن هذا الوحش يلعب الشطرنج معنا.
قال صاحب الخان وهو ينحنى ليتفحص فتحة البئر:
- ربما لو سددناها.. يتضح لنا أنه غادرها منذ دقائق..!
قال (باسيلوس) للمرة الأولى بعدما استعاد ثقته بنفسه:
- ولو لم نسدها.. نكون قد تركنا باب الجحيم مواربًا..
- إذن الحل هو نزول التيه!
والتقت عدة عيون متسائلة فوق وجه الرجل.. حتى لم يعد فوق وجهة مكان لعين أخرى...
وتساءل (ستافروس) في حيرة:
- لكنّ هذا انتحار حقيقي..
قلت أنا وقد راقت لي الفكرة:
- بالعكس.. أرى أنّ هذا هو الحل الأمثل بدلًا من لعب لعبة الحُفر هذه مع (المينوتور)..
ثم إنني رفعت يدي صائحًا:
- سأكون أنا الأول يا رفاق.. ولسوف أهبط إلى الوحش في عقر داره.. لكني لن أستطيع شيئًا وحدي..
رفع صاحب الخان يده هو الآخر:
-- أنا معك.. فلو أنّ هذا الشيء قتل (إيزبيا)...
- لابأس.. وأنت يا (ستافروس)؟
نظر لي (ستافروس) في تراخ.. ثم هزّ رأسه موافقًا..
- وماذا عنك يا (باسيلوس)؟
بدا الشرود للحظة على وجه (باسيلوس) القسيم.. ونظر لي ثم إلى (يانّي) صاحب الحانة.. وغمغم بعد هنيهة:
- لا.. لن آتي معكم!
نظر الرجال إليه في ازدراء.. ودمدم أحدهم شيئًا ما عن الرأس الجميل الخالي من الشجاعة..، وإن كنت أختلف معهم في هذا.. فالشعور العام الجارف هنا هو النزول إلى التيه.. وليس من الشجاعة في هذه اللحظة أن تقول (سأنزل).. بل الشجاعة أن تقول (لن أنزل)...
إن احتمالات فتك (المينوتور) بك تحتمل المناقشة..
أما احتمالات فتك الرجال الثائرين بك فقوية جدًا...
قلت محاولًا تلطيف الجو:
- لابأس.. لن يكون هناك أي إرغام...
ثم ناظرًا نحو حشد الرجال:
- هل من آخر؟
رفع (ميكوس) العجوز حارس الدرك يده.. وسعل.. ثم قال:
- وأنا معكم..!

ـ أأنت يا (ميكوس)؟ إن لك شأنًا غير هذا.. ولا أخال صحتك تتحمل أن...
قال وهو يلف لفافة تبغ ويعلق طرفها بلسانه ليلصقه:
ـ في سنى هذه يسهل أن يجدوني ميتًا في الصباح.. إما بسبب نوبة قلبيّة أو أزمة ربوية أو نزف في الدماغ.. لن يكون هناك فارق كبير لو وجدوني ميتًا بسبب (المينوتور)..
عدت أرمق الرجال باحثًا عن متطوع جديد...
لكنهم تحاشوا نظراتي..
وعرفت أن فورة الحماس قد انتهت، وعاد الذعر المتوجس.. وأن كل واحد منهم يتمنى لو لم أنظر إليه متسائلًا.. من ثم وفرت عليهم هذا العناء، وقلت في حزم:
- هذا يكفى يا رجال.. سنكون أربعة.. وأحسب هذا كافيًا.
ثم نظرت نحو (ستافروس) وطلبت منه أن يعد لنا:
١- عدة كشافات بحالة جيدة.
٢- بعض أطعمة ومشروبات.
٣- بنادق لنا جميعًا، وبعض أصابع الديناميت.
٤- طبشور وحبال وبوصلة.
ثم فارقتهم لأودع زوجتي.. على أن نبدأ التحرك خلال ربع إلى نصف ساعة...
وفي غرفتي شرعت أعد حقيبتي.. ورفعت (ميليسا) إلى ذراعي، ولثمت خدها الشبيه بثمرتي خوخ ناضجتين..
هتفت (هيلين) وهي ترقب ما يحدث:
ـ إذن أنت...؟
- بالتأكيد.. أنا ذاهب لقتل (المينوتور) ومعي رجال أشداء..
ـ أي رجال أشداء؟
ـ أنا.. و(ستافروس) و(يانّي) و(ميكوس) العجوز..!
- يا لهم من أبطال!.. أنت هزيل كسحلية.. و(ستافروس) متراخ كبقرة.. و(يانّي) بدين كخنزير.. و(ميكوس).. هه؟.. ماذا أقول عنه؟.. سلحفاة!
قلت وأنا أضع الطفلة على الفراش:
ـ (هيلين).. لا تعقدي الأمور.. أرجوك..
- أنا أحبك يا (ديمتريوس).. ولو فقدتك.. أخشى أن أكرهك يومًا لهذا..
أخيرا أسمع هذا الاعتراف الرقيق الذي منعها الكبرياء من الإدلاء به طيلة عامين أو أكثر.. ولئن كان (المينوتور) سينهي حياتي، فإنّه على الأقل قد أعادها لي أولًا..
قربت وجهها من وجهي.. وكانت دمعتان على مقلتيها..
وهنا دق الباب في كياسة..
ذهبت لأفتحه، فوجدت (باسيلوس) واقفًا في الردهة متحاشيًا نظراتي.. وفي فتور قال دون تعبير على وجهه:
ـ أنا آت معكم يا بروفسور...

* * *

قلت له في مودة وأنا أربت على ظهره:
ـ لابأس يا بني.. كنت أعرف...
قال بنفس اللهجة الصارمة:
ـ لم أرد أن أنزل التيه، لأجد الوغد صاحب الخان معي في الظلام.. إن رأسه مليء بالشكوك ولا أدري ما قد يفعله إذا ما انفرد بي..
ثم ـ بنفس التعبير ـ غمغم:
ـ أعتقد أن ابنته كانت ذاهبة لتنتحر.. لكنّ (المينوتور) سبقها..
ـ إذن أنت ترهب أباها لا الوحش..
- بالتاكيد.
- حسن.. أسرع بإعداد حقيبة.. حقيبة ظهر صغيرة الحجم، وخذ بندقية من (ستافروس) لأننا سنتحرك حالًا..
وللمرة الأخيرة اعتصرت كف زوجتي في يدي، واستدرت حاملًا الحقيبة على ظهري.. واتجهت إلى الباب..
وبدأت الحملة، ويا لها من شيء مثير للشفقة..!

* * *

الآن ننزل الحفرة حاملين كل ما أخبرتك به..
سعال (ميكوس) العجوز.. واصطكاك أسنان (ستافروس).. ولهاث (يانّي) البدين.. ورجفة ساقي أنا..
كل هذا يقول لي إن حملتنا لن تكون موفقة إلى هذا الحد.
ووصلنا إلى القاع.. فأمرت الرجل الذي يقف يرقبنا أن يرفع الحبل. ويوصد الفتحة جيدًا..
تساءل (ستافروس) في هلع:
- ولماذا يا بروفسور؟
- لا أريد لهذا الشيء أن يغادر التيه بينما نحن نبحث عنه بالداخل..
- قد نختنق..
- لا أظن.. إن (المينوتور) وحش. لكنه يحتاج الهواء مثلنا.. وأظن هذا التيه يحوي كمية هائلة من الهواء..
ورأينا الفتحة توصد فوقنا..
وشعرنا بأن التراب الذي يهيله الرجل. إنما هو ينهال فوق قبورنا ويخنق أرواحنا.. الظلام يغمر كل شيء..
وأضاء (باسيلوس) كشافة الكهربي المتصل ببطارية سيارة. ليعطيه حياة أطول.. وراح يمسح الجدران بها..
و عند أقدامنا كانت العظام مكدسة.. عظام ضحايا (المينوتور) من شباب (أثينا).. أو عظام حمقى مثلنا ظنوا أنهم على قتله قادرون...

انحنى (ستافروس) ليلتقط عظمة ساعد من على الأرض.. وقال:
- هذه العظمة جديدة..
- ماذا تعني؟ - قلت في سأم - إنها من عظام الـ.. الفتاة..
أشار إلى موضع لم يتم التحام فيه من العظمة.. و غمغم:
- إنها عظمة ذكر لم يبلغ الثامنة عشرة بعد.. أو أنثى لم تبلغ السادسة عشرة بعد.. ها هو ذا موضع الالتحام لم يتكلس بعد.. إنها عظمة واحد من المراهقين الذين مكروا بـ (نيقوس) أمس..!
- هذا ليس بهيجًا على الإطلاق..
ثم نظرت إلى الرجال الأربعة الذين أكسبهم ضوء الكشاف، سمتًا شيطانيًا.. أنت تعرف تأثير هذا الضوء القادم من أسفل.. وقلت في كياسة:
- من سيكون قائدنا؟ لابد لنا من قائد..
- هل هذا سؤال؟ أنت طبعًا..
- إذن أطالبكم بطاعة عمياء.. ليس الوقت وقت إظهار رجاحة عقلكم، ولا إثبات غبائي.. ما أقول سينفذ!
- لك هذا...
ناولت كلًا منهم كشافًا، وبندقية، وقطعة طبشور.. سيقوم كل منهم باستكشاف مجموعة ممرات.. ويده على زناد البندقية بينما الكشاف تحت إبطه..
وكلما استكشف أحدهم ممرًا رسم أسهمًا تدله على الاتجاه الصائب.. لا نريد أن يموت أحد لمجرد أنه ضل طريقه.. وعلى من يجد شيئًا مريبًا، أو يوشك كشافه على الانطفاء، أو تنفد قطعة الطبشور منه.. أن يعود أدراجه إلى هذه النقطة مسترشدًا بأسهمه...
تساءل (باسيلوس) واجمًا:
- وكيف نخرج من البئر بعد انتهاء كل هذا؟
- إن معي مسامير ومطرقة.. يمكننا تسلق الجدار كما نتسلق جبلًا.. ونفتح الغطاء دون جهد..
ثم أشرت لهم:
- (ياني).. ستأخذ النفق الأيمن.. وأنا الأيسر.. (ستافروس) يأخذ امتداد النفق إلى الخلف.. ومعه يمضي (باسيلوس) و(ميكوس) على أن ينفصلا إذا وجدا تفرعًا.. ولسوف نلتقي هاهنا بعد ست ساعات سواء وجدنا الوحش أو لم نجده..
في ضيق غمغم (باسيلوس):
- لا أحب هذا.. إن اتحادنا لقوة.. أمّا الآن فسيفتك الوحش بكل منا منفصلًا...
بحزم صرخت في وجهه:
- أمّا الآن - وقد قبلت قيادتي - فقد أغلق باب المناقشة.. نفذ..!
وفي تردد بدا الرجال مسيرتهم المتوجسة..
لم يكن قراري عن ديكتاتورية.. بل أردت أولًا أن أوفر الوقت اللازم لاستكشاف هذا التيه.. ثانيًا: أردت أن أقلل عدد الموتى لأن الوحش سينقض فجأة.. وفي الغالب لن نستوعب وجوده قبل أن يفتك بثلاثة منا.. ومشينا مجتمعين يجعل الأمر بالنسبة له أقرب إلى قدم تهوى فوق سرب نمل.. أمّا تفرقنا فيجعله يفتك بواحد.. ثم يبحث عن الآخرين الذين قد يكونون سمعوا صراخًا أو جلبة تجعلهم أكثر تيقظًا...

* * *

ملحوظة من د. (رفعت إسماعيل):

إنه الفجر.. وأنا لم أنم بعد، إذ استغرقت في ترجمة هذه الرسالة بخطها المجهري اللعين.. لذا أترككم الآن لأنام.. وسأعود لأستكمل القصة في الغد..

فإلى لقاء..

* * *

١٠ . مواجهة في (اللابيرنث)...

صباح الخير..

(رفعت إسماعيل) قد صحا من النوم، وأعد لنفسه بعض البيض المسلوق وكوب شاي.. وجلس يلتهم كل هذا..

إنها الواحدة ظهرًا.. أعرف هذا.. لأنني سهرت كثيرًا ـ كعاشق ـ ليلة أمس مع الأخ (كوبرانوس) وقبوه..

على كل حال.. في سن المعاش لا يعود النوم حتى الظهر جريمة يعاقب عليها القانون.. أو تؤدي إلى رفتك وجوع أطفالك وطلاقك..

دعونا الآن نستكمل هذه الأحداث..

أين كنت؟ ما هي آخر عبارة ترجمتها؟ (هذه العظمة جديدة)؟

لا.. لا.. (تجعلهم أكثر تيقظًا..)؟.. هذه هي.. إذن فلنواصل السرد..

* * *

رسمت سهمًا بالطبشور على الجدار.. ثم بدات أمشي عبر الممر الأيسر.. بقعة من الضوء تدنس حرمة ظلمات دامت قرونا..

من جديد أشعر بأن الجدران تعاديني، وأنها تحاول فهم من أكون..

بينما وقع خطواتي على الأرض غير المرحبة يصارحني كم أنا وحيد...

وكم أنا في خطر..

أرسم سهمًا آخر.. ثم أخذ انحناءة يمنى..

لم أحاول يومًا أن أتخيّل شعور الخرزة البيضاء في المتاهة التي يلهو بها الأطفال.. إن الأمر يبدو سهلًا حين ترقبه من أعلى.. عندئذٍ تفهم مدى وضوح الأمر، ومدى تخبط الخرزة وقراراتها الخاطئة على الدوام...

ما أمس حاجتي إلى أن أعلو.. أعلو لأرى هذه المتاهة من المنظور الذي يسميه المهندسون (عين الطائر)..

لو ارتفعت أكثر لرأيت المتاهة أوضح.. ولو ارتفعت أكثر الرأيت الكرة الأرضية أوضح..

كأن العلو يرتبط بالحكمة.. ويرتبط بوضوح الرؤية.. لهذا لن يدهشني لو أنّ الملائكة تعرف عنا كل شيء.. ونبدو لها ـ نحن البشر ـ كائنات متخبطة تحبو هلعي في متاهة.. عاجزة عن رؤية الطريق السديد...

تبًا لشرود ذهني!.. ليس الوقت مناسبًا بحال..

علامة أخرى بالطبشور...

لابد أنني قد توغلت كثيرًا لأنني أمشي منذ ربع ساعة..

* * *

هل مشت قدما (ثيذيوس) فوق هذه الأحجار يومًا؟
لا أدري.. لكنّ هذه الأحجار لامست بالتأكيد قدمي مئات من فتيان وفتيات (أثينا).. أقدام بضة خائفة.. وأقدام عضلية متوجسة داست هنا قبلي..
وكلهم رأى (المينوتور) في اللحظات الأخيرة..
أنا أختلف عنهم جميعًا إذ أحمل قطعة (طبشور) وكشافًا وبندقية..

* * *

ولكن هل يمكن لوحش أن يعيش ثلاثين قرنًا؟
علامة أخرى بالطبشور...
لم لا؟.. إننا لم نر وحوش كثيرة تجمع ما بين الثور والإنسان.. ولا يوجد ما يمنع من اجتماع غرابة المظهر مع غرابة دورة الحياة.. ولا مانع من أن تصحب التشريح الغريب وظائف أعضاء أغرب.. فإذا كانت بعض السلاحف تعيش قرونًا.. وبعض الذباب يعيش يومًا.. فأي شيء نعرفه؟.. وما هي القاعدة؟
إننا نجهل كل شيء عن أي شيء..

* * *

ولكن.. ماذا يفعل الآخرون الآن؟

* * *

أرى.. أرى بعين الخيال (باسيلوس) يتفقد ممراته.. وقد فرد قامته ليوحي لنفسه بالثقة.. ولسان حاله يقول: (هذا المينوتور لا يليق بي)..
وأراه يشعل لفافة تبغ.. ثم ينظر لساعته..
فيما بعد عرفت أن (يانّي) صاحب الخان اجتاز عدة ممرات.. راسمًا علامة الطبشور إياها..
وفجأة وجد نفسه في ممر.. يقف في منتصفه شخص منحن يشعل لفافة تبغ.. وعرف أنه (باسيلوس).. لقد تلاقت الممرات!
وتقلصت قبضته على البندقية...
تذكر (إيزبيا).. رآها تسير في جنح الظلام دامعة العينين كسيرة الفؤاد، بعد ما تسلى أحد الأوغاد بقلبها..

القلب الذي لم يمنح لأحد من قبل.. أخذه (باسيلوس) ثم ألقاه كما يُلقي بعود الثقاب الآن..
وهناك سارت.. وكان (المينوتور) ينتظرها...
وفي هدوء رفع فوهة البندقية وصوبها نحو مؤخرة رأس الشيطان القادم من (أثينا).. لا شهود هنالك..
ولئن هلك كلاهما فلن يعرف أحد بما حدث.. ولئن عاش (يانّي) فقد قضى التيه أو المينوتور على (الأثيني) الوسيم..
ضغطة واحدة من أجل (إيزبيا).. واحدة فقط..

* * *

(ستافروس) كان يدندن لحنًا حزينًا...
ولقد تساءل مرارًا عن جدوى كل هذا.. عن جدوى الحياة أصلًا.. لقد ماتت (إيزبيا) ولن يجديها الانتقام من المينوتور الأصلي الذي افترسها.. ولا من المينوتور الآدمي الذي حطم أحلامها..
ربما واحد فقط يستحق الموت هو (ستافروس).. الذي لم يستطع أن يدافع عن حبّه..
علامة طبشور أخرى...

* * *

ارتجفت يد (يانّي) على الزناد..
وسمع (باسيلوس) يقول دون أن يدير له ظهره:
ـ هيا.. لم لا تفعل؟!
في هدوء أنزل (يانّي) فوهة البندقية.. وغمغم:
ـ لا أستطيع!
- ولم لا؟
ـ لا أدري.. وددت لو قتلتك ألف مرة.. لكنى لا أستطيع..
استدار (باسيلوس) في بطء، ولفافة التبغ تتدلى من شفتيه.. وغمغم وهو يضع بندقيته أرضًا:
ـ أنت لم تقتل رجلًا من ظهره من قبل..
ـ لم أقتل أي رجل.. لا من ظهره ولا من وجهه..
- إنني...
وقبل أن يكمل عبارته؛ أحسّ الرجلان أن السقف ينهار فوقهما..
أما (يانّي) فتذكر على الفور مغامرة (نيقوس).. وتذكر أن (المينوتور) يمشي على السقف والجدران كسحلية..
إذن كان الشيء فوق رأسيهما طيلة الوقت...!
وقبل أن يفهم ما يحدث.. رأى عملاقًا هائلًا مغطى بالشعر يقف أمامهما.. ارتفاعه أربعة أمتار.. ورأسه رأس ثور غاضب.. وذراعاه تكادان تنفجران من العضلات المتزاحمة..

قال (باسيلوس) شيئًا ما قبل أن يغيب رأسه بين فكي الثور العملاق..
ورأى (يانّي) - غير مصدق - الوحش يطوح جسد (باسيلوس) المعلق بين فكيه، يمينًا ويسارًا.. ويمينًا ويسارًا.. حتى أحسّ (يانّي) أن فقرات عنقه هو نفسه تكاد تنفصل..

وأطبقت العضلات الهائلة على الجسد، لكى يكف عن انتفاضة الاحتضار الأخيرة..
ولم ينتظر (يانّي) حتى يعرف نهاية المشهد.. إذ حمل الكشاف في يده وراح يركض عبر الممرات، وقلبه يكاد يثب إلى فمه.
الفرار..... الفرار!.. كرشه العملاق يترجرج.. بندقيته هوت أرضًا.. يركض عبر ممرات لم يضع علامة الطبشور عليها...
وكان في هذا قرار إعدامه.. حتى لو فر من الوحش..

* * *

بعد ربع ساعة وجد (ستافروس) جثة (ميكوس) العجوز.. لقد هشمها الوحش بضربها في انجدار مرارًا..
وكانت هناك طلقتان ثقبتا الجدار.. وبندقية مهشمة.. وكشاف ديس بقدمين لا تعرفان التعقل..
وعلى الأرض كانت هناك قطرات دم.. دم أسود تتجه إلى نهاية الممر..
إذن أطلق العجوز بندقيته، وجرح الوحش..
تأكد (ستافروس) من حشو سلاحه.. وأخذ شهيقًا عميقًا ثم راح يمشي بحذر مقتفيًا قطرات الدم..
كان هناك ممر جانبي في نهاية هذا الممر..
وتصلب جسده إذ أدرك أنه يسمع صوت خطوات..!
تراه أحدهم؟.. لا.. إنّه لا يرى ضوءًا.. فما الشيء الذي يقدر على السير في هذا الظلام الثقيل؟
صوت الخطوات يدنو أكثر فأكثر من الممر الجانبي..
ركع على ركبته واحكم التصويب.. يعلم الله وحده كيف سيبدو الشيء.. لكنه سيصوب على العينين لو كانت له عينان..
يعلم الله وحده أي كابوس سيملأ هذا الفراغ بعد ثوان...
إصبعه يتقلص عنى الزناد..
الخطوات تدنو أكثر... و...
في اللحظة التالية وجدت أمامي (ستافروس) يصوب البندقية نحوي.. وكنت أنا مستعدًا لضغط الزناد..
وتنفس كلانا الصعداء..
- حسبتك هو!
- وأنا كذلك..!
- لماذا تمشي في الظلام؟
- انقطع سلك من سلوك الكشاف. ولم أستطع ربطه..
- إذن من حسن حظي أني هنا.. سنسير معًا من الآن فصاعدًا..
ثم إنّه أشار إلى الأرض حيث قطرات الدم.. وقال:
- هلك (ميكوس).. ولكنّه جرح الوحش.. وإن أثره لواضح..



وقبل أن يفهم ما يحدث . . رأى عملاقًا هائلاً مغطى
بالشعر يقف أمامهما . .

- إذن هيا بنا...
لم أعلق على موت العجوز..
فما دمنا لسنا في نزهة. فالموقف لا يحتمل ترف الرثاء لأحد..
فيما بعد يمكننا أن نلقى الزهور والخطب على قبور قتلانا.. إنها حرب.. وفي الحرب لا تعرف ما إذا كنت حيًّا أم ميتًا إلا حين يبدأ رجال الخدمات الطبية في حصر الجثث.. أما الآن فما زال الأمل قائمًا في أن يرثينا الناس غدًا..
مضينا نقتفى آثار الدم، غير ناسين وضع علامات الطبشور هنا وهناك..
وأخيرا كان هناك ممر جانبي سمعنا صوت الخوار قادمًا منه.. نحن لا نطارد (المينوتور).. هو الذي يطاردنا..
والآن عليك يا (ستافروس) أن تتهيأ لإطلاق الرصاص.. وأنا معك في اللحظة ذاتها..
ستطلق الرصاص على القلب.. وأنا على العينين.. بعد هذا تطلق الرصاص على البطن.. وأنا على العنق.. وبعد هذا..
لا داعي للمزيد من التخطيط.. ولنرتجل وقت اللزوم..
أرجوك ارسم بعض الرعب أو التوتر على وجهك..
سئمت هذا التعبير الكسول المتراخي المنفصل عن العالم..
الخطوات تقترب.. تقترب.. والكشاف مسلط على الممر..
في الثانية التالية شعرت بشيء مريع يرفعني في الهواء. ووجدت نفسي أطير لأرتطم بالجدار ..
لقد جاء من الخلف.. كيف؟
إنه الصدى اللعين جعل صوت خطواته يبدو كأنما من أمامنا.. أضف لذلك أن تركيزنا وكشافنا كانا مسلطين على الاتجاه الخطأ..
إن هذا الوغد لا يضل طريقه أبدًا..
وفي هلع رأيت وجه الثور المرعب الخالي من التعبير.. ثور له أنياب حادة كالخناجر.. والجسد العملاق المكسو بالشعر يقف على قدمين مخلبيتين قويتين ويزأر.. وكان قادمًا نحوي..
وبطرف عيني رأيت (ستافروس) يهرع على ركبتيه ليأخذ من حقيبته شيئًا ما..
لماذا لا تطلق الرصاص يا أحمق!.. لماذا لا...؟
وفجأة رأيته يصرخ في الوحش.. ثم يهرع ليسكب فوقه سائلًا ما في (جركن) بلاستيكي كبير.. قذفه في وجهه، فأصدر الوحش زئيرًا أو خوارًا - لا أدري حقًّا - واستدار له...
- بروفسور... علبة ثقابك... بنزين!
فهمت على الفور مرماه..
لم أكن أعرف أنه يحمل بنزينًا معه.. وعلى الفور مددت يدي لأخرج علبة الثقاب، وحشرت عودين فيها ثم حشرت الثالث بينهما وأشعلت الرابع.. تلك الطريقة التي كنا نلهو بها في طفولتنا. ويشد الكبار آذاننا لمنعنا من اللّهو بها.. أسلوب قاذفة السهام المشتعلة التي تحدث الكوارث...
أشعلت العود الثالث المحشور. وصوبته نحو ظهر (المينوتور).. فانطلق كالقذيفة ليضرب ظهره.. و.. فهام!..
اشتعل البنزين في ربع ثانية..
ورأيت الشيء يتلوى.. ويصدر هديرًا مريعًا..

وإذ دار نصف دورة رأيت ثقبين في جدار صدره من رصاصتي (ميكوس)...
لحظات من الرعب.. ثم هوى أرضًا.. وتلوى قليلًا..
وهمدت حركته...
نهضت من سقطتي، وحملت حقيبتي وبندقيتي.. وهرعت ألحق بـ (ستافروس).. ورائحة الحريق تزكم أنفينا..
ورحنا نركض عبر الأنفاق مذعورين يقتلنا الهلع.
لكننا ـ بر غم هذا ـ نشعر بلذة الخلاص..
أخيرا توقفنا جوار أحد الجدارين التي رسمت عليها أسهم طبشورية ربما بيدي أو بيده أو بيد أحدنا..
ورحنا نلهث...
ونظرت إلى (ستافروس) وابتسمت..
وكذا ابتسم هو..

* * *

١١ - انتيكليماكس..

ملحوظة من د. (رفعت إسماعيل):
يمكن ترجمة (الأنتيكليماكس) بالقمة المضادة أو عكس الذروة، وهي تعبير يصف به كتاب الدراما أن تصل الأحداث إلى ذروتها. وهي ذروة صالحة لانتهاء القصة تمامًا ـ وفجأة تأتي ذروة أخرى قد تضعف السياق غالبًا..
على كل حال.. المشكلة مشكلة الأخ (كوبرانوس) لا مشكلتي..
وهاهوذا ينتقل إلى ما يُسمّى الـ (أنتيكليماكس).. عندما..

* * *

وشرعنا نجد السير عبر الأنفاق ماشين مع أسهمنا..
ورحنا نتكلم للمرة الأولى بعد ربع ساعة من صمت:
ـ كانت فكرة جيدة أن تحضر البنزين معك..
ـ وفكرة أجود أن تقذف الثقاب بأسلوب المقلاع هذا..
ـ كان لابد من وسيلة لإشعال البنزين دون أن أقترب.. وإلا صرت قطعة فحم أنا الآخر..
ـ لابأس.. اليوم فقط أثبتنا أن (ثيذيوس) لم يقتل (المينوتور).. لقد اضطر أهل (كريت) إلى دفن التيه بأكمله ليتمكنوا من الحياة..
- .. وظل الوحش في حالة سبات طيلة هذه الأعوام حتى أيقظناه نحن..
وهنا توقفت.. إذ سمعت صوت خطوات تقترب..
ونظرت نظرة ذات معنى إلى (ستافروس)..
فرأيت وجهة الخامل يبتسم..
ورأيت هالة من نور تدنو منا عبر منحنى النفق..
ثم ظهر وجه (يانّي) الدهني اللحيم، وعيناه توشكان أن تخرجا من محجريهما...
فما إن رآنا حتى صاح في هلع:
ـ حمدا لله!.. أنتما حيان؟
- وظافران.. ولكن أين (باسيلوس)؟
ـ هلك.. انتزع الوحش عنقه.. وأين (ميكوس)؟
ـ تهشّم ألف قطعة.. لكنه ـ للحق ـ مات كبطل إغريقي..
وافترشنا الأرض. ورحنا نتحدث.. ونتبادل سرد ما حدث بالتفصيل.. ولقد هنأنا (يانّي) على قتل (المينوتور).. لأنّه...
ـ لا أصدق أن وحشًا كهذا يمكن أن يموت..

- وكذلك نحن..
كان (ستافروس) جالسًا يعبث في حقيبته، ويتأمل الجدران.. ثم قال لي بطريقته الوديعة:
- هلا ناولتني الثقاب يا بروفسور؟
- هل ستدخن أول لفافة تبغ في حياتك؟
- بل سأنظف أذني!
ناولته الثقاب.. وتركته يتأمل، وعدت أقول لـ (يانّي):
- أراهن على أن مصرع (باسيلوس) كان رد اعتبار لك..
قال وهو يمسح عينيه في تعب:
- حقًّا.. لكني - صدقني - لم أحب ما رأيته.. لقد استحق الفتى أن يموت على كل حال.. ولا أخال هناك من ندم على فقده.. لقد قتل الوحش من تسبب في موت ابنتي.. وقتل (ستافروس) قاتل ابنتي نفسه.. أرى في هذا عدلًا صارمًا مجيدًا..
- إنني أرى...
في اللحظة التالية وثب (المينوتور) علينا من ركن النفق..!
كان يخور كبركان.. وقد فرد ذراعيه إلى جانبيه.. والزبد يسيل أنهارًا من شدقيه.. وقد احترق أكثر جسده وتشوه.. وفاحت رائحة اللحم المحترق منه...
وهنا صرخ (ستافروس) وهو يلقى شيئًا ما جوار الوحش:
- بروفسور.. (يانّي)..... ابتعدا...
- ولكن...
- بحق السماء أسرعا!
وعندئذ رأيت ما رماه جواز قدمى المينوتور.. كان هذا إصبعًا من الديناميت المشتعل..
لقد كان هذا هو ما يبحث عنه في حقيبته.. ولأجله طلب الثقاب!
لقد كان يسمع خطى الوحش طيلة الوقت لكنه لم يخبرنا..
وهو ذا يثب فوق ظهر الوحش متشبثًا بخصره..
متشبثًا بخصر هذا البركان الثائر، محاولًا أن يرغمه على البقاء جوار الإصبع المشتعل..
وجرينا أنا و(يانّي).. فلم يعد بوسعنا عمل شيء..
جرينا كما لم نجر في حياتنا..
ودوّى صوت الانفجار..
واهتز التيه مرارًا.. لكنه لم ينهر كما توقعت..
الدخان يفعم المكان..
ونحن نلهث طلبًا للهواء.. لكننا نجونا..

* * *

وقال (يانّي) وهو يثبت الوتد الأول في الجدار:

ـ لقد كان بطلًا حقًّا.. للمرة الألف أتعلم أن الرجال ليسوا بمظهرهم.. لقد كان ـ رحمه الله ـ أقرب إلى فتاة مترهلة..

مسحت دمعة سالت على خدي.. وهمست:

ـ كان بطلًا إغريقيًا.. سار في تصميم إلى مصيره المحتوم.. ولو كان لدينا (هوميروس) آخر لخلده في قصيدة أبدية.. إن (ستافروس) هو قاتل (المينوتور) الحقيقي وليس (ثيذيوس)...

* * *

وحين خرجنا من فتحة التيه..

كان الفجر يتمطى في كسل بعد ليلة طويلة.. طويلة..

ولم يكن أحد هناك..

بإخلاص / د. كوبرانوس

* * *

خاتمة

انتهى خطاب بروفسور (كوبرانوس).. وانتهى (المينوتور)..
للأسف لم يحفظ لنا الانفجار عظامه. وأنا لا ألوم (ستافروس) كثيرًا. لكنني كنت أفضل لو اختار طريقة أقل جذرية للخلاص من هذا الكابوس الإغريقي..
لكنها ملحمة حقيقيّة..
وإنني لأجد الكثير من ملامح أبطال (الإلياذة) في هذين الشابين (باسيلوس) و(ستافروس)..
واضح أن الأول كان يشعر بندم، وأنه أراد الموت.. لكنّ كبرياءه السقيم منعه من الاعتراف بذلك..
على كل حال.. مازال التيه هناك.. ينتظر.. ويمكنك أن تزوره لو خطفت رجلك لترى (كريت)..

* * *

أشعر بمتعة حقيقيّة حين أقرأ هذه الخطابات آمنًا في فراشي.. غير مضطر إلى مصارعة وحش إغريقي في قبو مظلم..
وبالطبع لن اكون مضطرًا إلى مواجهة رعب المستنقعات...
إن الخطاب التالي يتحدث عن مستنقعات تتصاعد منها غازات (الميثان). وترفرف الوطاويط الرقيقة فوق مياهها..
ومن يعبر مستنقعًا يكون عليه أن يدفع ضريبة المرور بالدم..
ولكن.. لماذا أفسد قصتي؟
إن هذه لقصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
١ -الأسطورة..
٢ -ما كان..وما سيكون..
٣ -عودة إلى اليونان...
٤ ـ التيه..
٥ -اشياء غير مألوفة..
٦ -ومزيد من الأشياء..
٧ -أسطورة المينوتور...
٨ -الوحش بيننا..
٩ -يجب أن ننزل التيه..
١٠ ـ مواجهة في (اللابيرنث)...
١١ -انتيكليماكس..
خاتمة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة المينوتور

إنه هو..!.. لابد أنّه هو ..
عندما تسمعون هذا الخوار ،
تشعرون أنه هو .. عندما تَسمعون
هذه الخطوات ؛ تُفكّرون أنّه هو ..
عندما ترون هذه العِظام المبعثرة ،
تدركون أنه هو ... إنّه في مكان ما
ينتظرنا .. يَشم رائحتنا ..،
وحينما يجدنا .. سنوقن
جميعًا أنه هو ....!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة رعب المستنقعات

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

العظايا معناه الزواحف..

[2←]
المواجهة الشهيرة بين (أوديب) والوحش المصري الذي له رأس امرأة وجسد أسد.. لقد وجه الوحش سؤالًا عسيرًا لـ (أوديب). لكنّ هذا أجاب عنه.. من ثم تحول الوحش إلى تمثال عملاق..!

أغنية من خيال المؤلف.. فلا توجد أغنية يونانية بهذا السخف!. [←3]

هذا هو أصل كلمة (نرجسية) أي العاشق لذاته.. [←4]

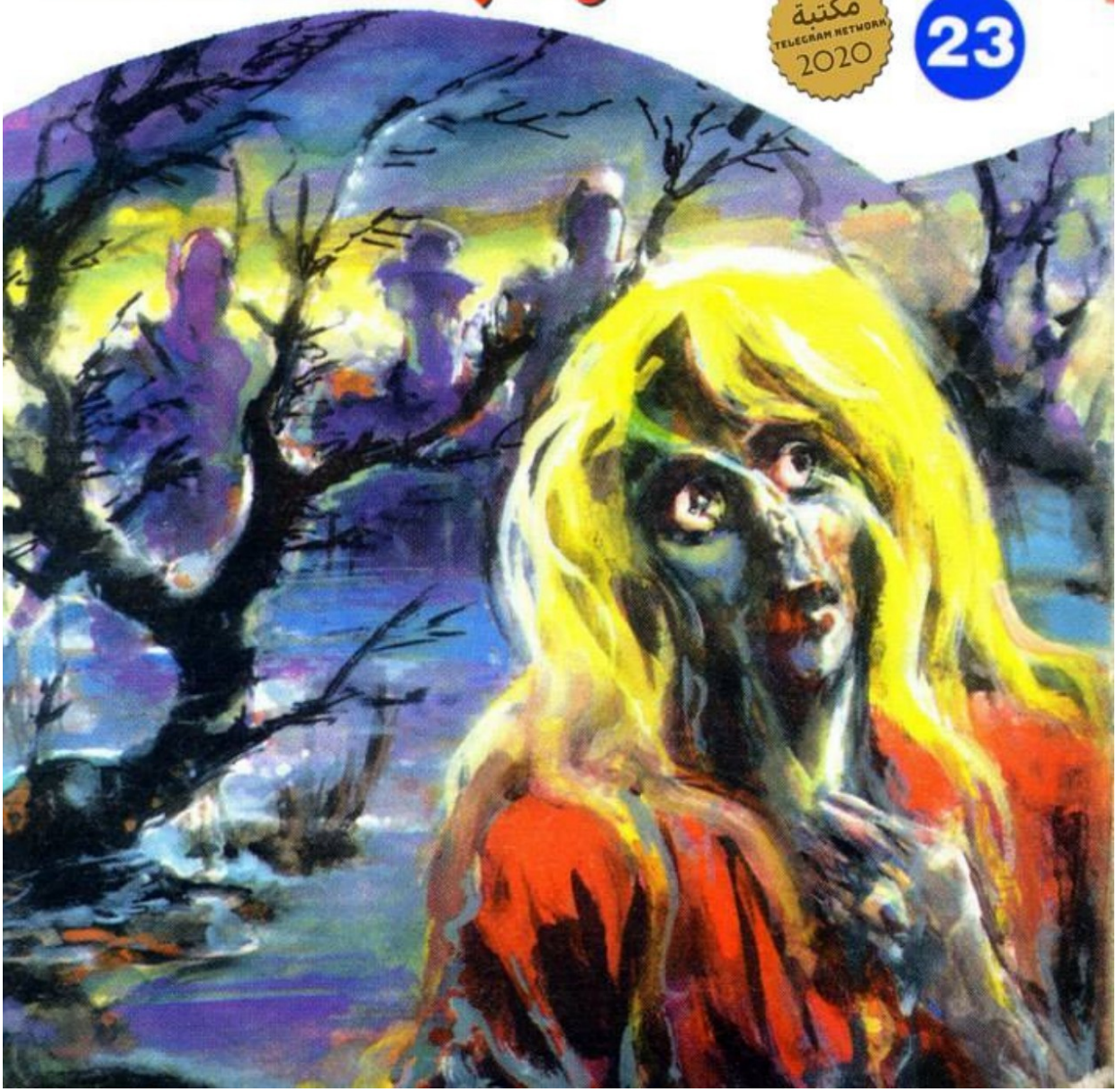
روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

أسطورة رعب المستنقعات

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

23



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

ومع ذلك قد أظل حيًّا..!

صحيح أن حرارتي قد تجاوزت. الـ ٣٩ درجة، وصحيح أنني أرتجف كذيل حية الجرس، وصحيح أن مكتبي عامر بالأدوية التي تبتلع وتشم وتحقن وتدهن وترش..، وصحيح أن طبيبي - وهو من تلاميذي - لم يبد مهتمًا بعلاجي كثيرًا على اعتبار أن رحيلي أو بقائي لم يعد يعني أحدًا..

لكن هذه الدلائل كلها لا تشير إلى قرب رحيلي أكثر مما تشير الغيوم إلى قرب هطول المطر..

من يدري؟.. قد تشرق الشمس من جديد، وتبدد هذه الغيوم السخيفة هازئة بعلماء الأرصاد جميعًا..

ومن يدري؟.. قد أظل حيًا لأحكي لكم قصة.. اثنتين.. مائة من قصصي الكابوسية ذات المذاق الكريه..

هل تذكرون من أنا؟..

من جديد أكرر: أنا د. (رفعت إسماعيل) العجوز.. الطبيب المتقاعد هاوي الأشباح والغرائب..، والشبيه بورقة الكرم الأخيرة في تلك القصة التي نسيت اسم كاتبها.. لقد ظلت البطلة طيلة القصة تنتظر سقوط الورقة من غصنها.. لكنّ الورقة ظلت متشبثة بالغصن في عناد لا يوصف.. ولهذا سر لن أحكيه؛ لأن المجال ليس مجاله....

والآن.. دعونا نتحدث عن رعب المستنقعات..

إنه لاسمٌ موحٍ.. ذو رنين يجمد الدماء في العروق.. وإنني لأرجو أن تكون القصة على مستوى عنوانها.. لحظة حتى أغلق جهاز (الكاسيت)..

هاهو ذا!.. لحظة أخرى حتى آخذ (كبسولة) المضاد الحيوي.. فالساعة الآن التاسعة مساء كما ترون.. ذكروني فقط أن آخذ الجرعة التالية في الثالثة صباحًا.. فليس هناك من يقدم لي الدواء سواي.. جلوب!.. جلوب!...

والآن.. أنا جاهز وطوع أمركم يا رفاق...

هيا بنا....

١ - خطاب جديد..

مازلنا - إذن - في العام ١٩٦٩..

ومازلت - إذن - في داري أتسلى بمطالعة كم الخطابات الهائل الذي بدأ يصلني من بقاع المعمورة..

خطابات كتب بعضها بحروف تتجه من اليمين إلى اليسار.. وبعضها يتجه من اليسار إلى اليمين.. وبعضها يتجه من أعلى إلى أسفل.. وبعضها يشع من نقطة واحدة في المركز!...

خطابات لها رائحة البارفان الأنثوي أو (لوسيون) الحلاقة الرجولي، أو تبغ الغلايين أو البصل، أو رائحة الخفافيش الميتة، أو رائحة عرق مصاصي الدماء، أو رائحة عصير القصب، أو رائحة لبن الماعز المختمر.. أو (الفودكا)!..

الخطاب الذي توقفت عنده اليوم له طابع القصة.. ويحمل رائحتها.. لهذا هو قصة اليوم..

وهو يتلخص في مفكرة مهترئة صغيرة الحجم، وورقة واحدة تم طيها بحيث تحيط بالمفكرة..

والورقة تحوي السطور التالية بالإنجليزية:

عزيزى د. (إسماعيل):

هذه المفكرة تحوي الأحداث المريبة والمفزعة التي وقعت شمال (إسكتلندا) في الفترة من ٢٢/١٢/١٩٦٧ إلى ٢/١/١٩٦٨. وأنا على يقين بأنك واجد فيها ما يثير شغفك واهتمامك. ولربما أكثرت من الأسئلة فأمعنت فيها.. ولربما وجدت إجابة.. ولربما لم تجد..

كل هذا لا يهم، طالما أنك قد شعرت بتلك الكهرباء المقدسة تزحف على مؤخرة عنقك، وتسلبك القدرة على النوم.. وطالما انفتحت أبواب موصدة في خيالك حسبت أن مفاتيحها قد ضاعت منذ زمن سحيق..

عندئذ ستدخل.. ولسوف يملؤك الفرق.. بعدها تشعر بتلك اللذة الحريفة.. اللذة المريرة القادمة من أعمق آيات الرعب، ولتحتفظ بالمفكرة يا سيدي العزيز كما تشاء بعد أن تفرغ منها.. فأنت على ذلك أقدر وبه أجدر..

أما أنا.. فكفاني ما لاقيت مع هذه السطور الدامية، فأنا أعرف أنني لن أجد في نفسي حاجة إلى هذه المفكرة مرّة أخرى..

المخلص: س. ب

هكذا فحسب!.. واضح أنّ هذا الأخ (س. ب) غير مولع بالثرثرة وإن كانت إنجليزيته راقية إلى حد لاشك فيه.. وخطه جميل (صناعي) من النوع الذي لا يخرج إلا من آلة أو إنسان يملك يد آلة..

أعددت لنفسي قدحًا من الشاي الرديء، وعدت إلى مقعدي الوثير وبدأت أتفقد - بأسلوب (الفرّ) المعروف - صفحات المفكرة.. كانت في حالة سيئة في الواقع؛ تناثرت البقع في أرجائها، وأزالت كثيرًا من الحبر، وجعلت الصفحات تتجعد في مواضع عديدة..

وجدت بعض عبارات أثارت شغفي، لكنّها ـ كما يحدث في هذه المواقف ـ كانت تتراءى لعيني في لمحة، فإذا حاولت الرجوع إلى موضعها وجدت هذا مستحيلًا...

«كان الخطر قادمًا..»، «الموتى العائدون»، «ولكن الجثة لا تفزعني..».... إلخ...

إذن.. فلنحاول أن نقرأ بهدوء أكثر..

في الصفحة الأولى ـ باطن الغلاف بمعنى أدق ـ كانت هناك العبارات التالية:

مجموعة النداء الأولى:

أرتميس ـ كاسيس ـ هرملاكايوس

ثم بيركادوس (أربع مرات).

مجموعة النداء الثانية:

أشيوست ديمترا ـ إرسادوك

(في وجه القمر).

ثم....

«إينياس (تعمل وحدها دون معين)»

ثم ملحوظة عابرة كتبها صاحب المفكرة الأحمق:

«لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال. فيما عدا ذلك تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط..»

هنا ـ أصارحكم يا إخوان ـ بدأ (الفأر يلعب في عبي).. والشعيرات إياها على ساعدي تنتصب..

هذه تعويذات لاشك فيها.. ومذاقها يوحي ـ كما هي العادة ـ بالشياطين والعياذ بالله.. ربما هي لاستدعائها أو الفرار منها لا أدري بالضبط، لكني على كل حال لم أعد مستريحًا في جلستي.. ولكم أن تفهموا ذلك..

منذ متى يوجد هذا الركن المظلم في صالة داري؟ إن إضاءة شقتي ليست على ما يرام أبدًا.. أضف لهذا أنّ هذا التمثال الصغير الموضوع جوار باب غرفة النوم لا يبدو جميلًا.. يخيّل لي أنه يراقبني بشكل أو بآخر.. ثم إن....

لحظة!.. هل سمعتم هذا مثلي؟.. ثمّة شخص يتحرك في المطبخ.. لاشك في هذا..

إن أعصابي توشك على الاحتراق تمامًا.. والسبب بالطبع هذه الكلمات اللعينة ذات المذاق الغامض.. والغموض مرعب دائمًا ومنذ أن اصطك الإنسان هذه الكلمة..

إن هناك حلًا واحدًا يضمن لي سلامة قواي العقليّة، وأنتم جميعًا تعرفون هذا الحل....

نعم... هو كذلك!

* * *

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم!.. قد عاد الكابوس الحى!»

هتف (عزت) ـ جاري العزيز ـ في هلع وهو يفتح الباب ليراني أقف على باب الشقة حاملًا المفكرة في يد، وكوب الشاي في يد.. وأحاول أن أبتسم في تودد..

ـ «هل لديك كائن بروتوبلازمي آخر يا جلاب المصائب؟»

قلت له في رقة وأنا أدخل شقته:

- «ما هذا الهراء يا (عزت)؟.. نحن الاثنان جاران... وكلانا وحيد كالمجذوم.. برغم هذا لا نرى بعضنا إلا لمامًا... لماذا لا نعيد تجديد صلاتنا من حين لآخر؟».

- «جئت متوددًا إذن لا مهددًا؟».

- «جئت أخًا..»..

- «في منتصف الليل؟».

- «إنما نحن طفلا الليل التوءمان...».

- «إذن اجلس عليك اللعنة..».

وجلست.. هذا هو كل ما أصبو إليه.. دفء الصحبة الآدمية وأنفاس شخص. أعرف يقينًا أنه ليس شيطانًا ولا جنيًا ولا مصاص دماء ولا مسخًا.. صحيح أن (عزت) يبدو كهذا كله، لكنه مظهره الذي لا ذنب له فيه..

الآن أستطيع قراءة تلكم المفكرة في هدوء..

لكن (عزت) لم يكن غرًا ساذجًا، ولم يكن ليفوت الفرصة الثرية التي قدمها له القدر بعد منتصف الليل...

وهكذا شرع يثرثر عن عبقريته، وعن أعماله الفنية الرائعة حتى تمنيت أن أدس إحدى هذه التحف في حلقه ليخرس تمامًا..، لهذا قلت له في فتور:

- «(عزت).. لماذا لا تنهض وتمارس عملك؟».

- «لن أتركك تشعر بالسأم..»..

- «كيف أشعر بالسأم وأنا أرى ميلاد عبقرية أمام عيني؟».

- «ربما أنهض.. ولكن بعد قليل..»..

عليه اللعنة!.. لن أتخلص من هذا اللزج أبدًا.. كأنه ليس من أبسط حقوقي البشريّة أن أذهب إلى شقّة جاري بعد منتصف الليل لأقرأ ما أريد عنده...

هنا مال ليرى المفكرة..

وفي فضول تساءل:

- «ما هذه؟».

- «يخيّل إليّ أنها مفكرة..».

- «رد ينم عن ذكاء.. دعني أرها..».

ومد يده وأمسك بها وراح يتصفحها.. لحسن الحظ أن إنجليزيته رديئة جدًا برغم كثرة من يلقاهم من أجانب..

نهضت أتفحص تمثالًا مرعبًا في ركن الغرفة، يمثل رجلًا يتألم وهو يحاول أن يفقأ عينه بدبوس شعر...

- «موضوع غريب بعض الشيء يا (عزت)؟».

- «هذا (أوديب) يا (رفعت) في قمة مأساته..».

- «أعرف هذا.. لا يوجد أناس كثيرون من هواة فقء عيونهم الخاصّة في هذا العالم.. لكنه موضوع شاذ».

- «ليس أكثر شذوذًا من هواياتك الخاصّة.. تأمل هذا الهراء الذي تقرؤه..» - وراح يتلو بالإنجليزية الرديئة بعض العبارات ـ «مجموعة النداء الأولى: أرتميس - كاسيس -..... إلخ».

كنت أنا أتأمل التمثال في فضول وأدور حوله، وقد هالني مدى قبحه وبشاعته، لهذا لم أعط أهتمامًا لما يقوله (عزت) بصوت عالٍ.. وبلهجة خطابية مزعمة:

- «إينياس (تعمل وحدها دون معين).. ملحوظة: لا تحاول ترديد.....».

وهنا انتبهت إلى ما حدث..

رفعت عينين مشدوهتين إلى (عزت) لأجده منهمكًا في القراءة، وهو يؤرجح رأسه يمينًا ويسارًا ليبدو ظريفًا.

قاطعته بصوت مبحوح:

- «(عزت).. آ.. هل قرأت الأسماء كلها؟».
- «هه؟.. طبعًا..».
- «بـ.. بصوت مسموع؟».
- «ماذا تعني؟».
- «لا شيء.. لا شيء.. كنت شارد الذهن لا أكثر!».

* * *

٢ - الكوخ..

سأحاول أن أكون موضوعيا...
قد وعدتكم أننا سنقضي الوقت بين صفحات المفكرة، فلا داعي إذن لأن أستولى على القصة في هذه المرّة..
الموقف كما يلي: أنا جالس على الأريكة في دار (عزت) أطالع المفكرة، بينما هو عاكف على كتلة من الصلصال يشكلها بيديه العاريتين.. في فمه غليون يطبق عليه بأسنانه.. بتلك العصبية وذلك الغل اللذين رآهما في مثالين آخرين سواه، فقرر تقليدهما.. وعلى صدره تلك المريولة البلاستيكية التي يسميها الأطباء (ماكنتوش)..
لن أصارحه برأيي في أن كتلة الصلصال تبدو هكذا أجمل مما ستكون عليه بعد أيام من العمل المضني من جانبه.. موسيقا (شوبرت) تفوح كالعطر في المكان.. و..
- «ليس (شوبرت) يا (رفعت).. بل (ليست).. ظننتك تعرف الفارق بينهما..».
لن أصارحه مرّة أخرى أنني العدو رقم واحد للموسيقا الكلاسيكية، ولأعد الآن إلى المفكرة..
للإنصاف أقول: إن المفكرة مكتوبة بنظام ودقة.. لكنّ ما بها لا يكفي - لو نشر - ليغطى أربعين صفحة.
لهذا سأعيد السرد.. ولكن بطريقة أكثر تفصيلًا وتمهلًا..
وبأسلوبي أنا....

* * *

شيء ما.....

* * *

تدور أحداث هذه المذكرات في الفترة من ٢٢/١٢/١٩٦٧ إلى ٢/١/١٩٦٨..

* * *

من البداية يسهل عليك معرفة أن صاحبة المفكرة هي السيدة (هيلين ماكجواير) زوجة (أندرو ماكجواير)..
يبدو واضحًا كذلك أن (أندرو) مهندس معماري، وأن شيئًا ما ليس على ما يرام بينه وبين (هيلين) فهي تتحدّث عنه بشيء من فتور وعدم ود.. صحيح أنها لا تناديه بأسماء على شاكلة

(المدعوق) أو (اللي ما يتسماش) على غرار زوجاتنا المصريات ذوات الحس اللغوي المرهف؛ لكنك تقرأ هذا مما بين السطور...

الأخ (أندرو) راغب في قضاء وقت طيب في الكوخ الذي يملكه؛ وهذا الكوخ يقع شمال (أسكتلندا) قرب أخدود (جلن الكبير) الذي يقسم مرتفعات (أسكتلندا) إلى شطرين ينحدر أحدهما نحو (لوخ موند) وينحدر الآخر نحو (أبردين)..

هناك ـ لمن يعرفون (أسكتلندا) - يوجد ممر يُدعى (ممر سبتال أوف جلنشي).. تتفرع بقرب هذا الممر ألعن شبكة مستنقعات في (إنجلترا).. هي عبارة عن مساحة شاسعة من المياه الراكدة شيطانية الرائحة، تنعقد فوقها شبكة من الضباب وسحب غاز (الميثان) التي تحيل المكان جحيمًا حقيقيًا....

لم يكن واحد من الأقدمين يقصد هذه المستنقعات فقط..، فهي لا تبدو مكانًا محببًا للنزهة..

وعلى كل حال.. كان من السهل أن يضل المرء فيها.. أو يغرق.. أو تنزلق قدماه ويدق عنقه...

وبالطبع لم يكن كوخ (أندرو) وسط هذه المستنقعات؛ لكنه قريب منها إلى حد كبير.. يوجد ممر ما بين الأشجار يقودك من باب الكوخ إلى تلك الأوحال..

أما الكوخ ذاته فكوخ ريفي جميل مصنوع من الأخشاب، ومعد لإقامة أربعة أفراد به..، وكان الوصول إليه يتم عن طريق الصعود بالسيارة في طريق صاعد.. ثم العبور فوق جسر صغير عتيق.. وعندئذٍ تجد نفسك في جنة (ماكجواير)..

لاحظت كذلك أن المرأة تصف الكوخ في مذكراتها بشيء من التفصيل وهو غير معتاد بالنسبة لشخص يكتب لنفسه.. فأنت لا تسود عدة صفحات من مذكراتك في وصف غرفة نومك لنفسك.. لكنى فهمت مجازًا أن المرأة تزور الكوخ للمرة الأولى في حياتها، زوجها اعتاد المجيء إليه.. أمّا هي فمبهورة مدهوشة من كل شيء.. وهي لا تحب هذه الرحلة كثيرًا وهو شيء طبيعي ما دمنا نعلم أنها لا تحب زوجها - هو الآخر - كثيرًا..

بقي أن أسمي لك الضيفين المرافقين للزوجين..

هما زوجان شابان.. مسز ومستر (ستوكلي).. بالطبع لم تذكر المفكرة شيئًا عن مظهرهما لهذا أترك تخيل هذا المظهر الخيال القارئ.. وهي مهمّة سهلة.. إن عبارات على غرار (داعب شاربه بيده) أو (سال العرق على لغده البدين) أو (راحت تمشط خصلات شعرها الأشقر) أو (ضحك كاشفًا عن أسنانه النخرة) تكون كافية في العادة لرسم صورة لا بأس بها. للأبطال.

يعتزم الزوجان (ستوكلي) قضاء العطلة مع الزوجين (ماكجواير) في كوخهما.. لا أدري أية عطلة هي.. ولكن.. بالتأكيد..!.. ٢٢ ديسمبر.. لابد أنها إجازة أعياد رأس السنة.. وهى ما هي بالنسبة للأجانب حيث تختلط الثلوج البيضاء بالأناشيد.. ويختلط صوت أجراس الكنائس بصوت الأجراس المعلقة في رقبة (الرنة)، وهي تنهب الثلوج حاملة (بابا نويل) وما معه من هدايا، سيدسها في جوارب الأطفال المعلقة على حاجز المدفأة..

وهكذا...

نرى أن المفكرة تبدأ برحلة تقوم بها المجموعة الرباعية في سيارة صغيرة تحمل على ظهرها لوازم الإقامة كاملة..

وهي رحلة طبيعية لا مشاكل فيها سوى الصمت المطبق ما بين الزوجين (ماكجواير).. ذلك الصمت الذي جثم في السيارة ككابوس أسود عتيق؛ وأصاب الزوجين (ستوكلي) بعدوي الصمت.. صمت الحرج هذه المرّة...

وتتحدث مسز (ماكجواير) هنا عن لعنة الإجازات.. فتقول:

- «لعنة الإجازات هي لعنة أزلية تحل بكل من يقرر قضاء إجازة.. خاصة إذا كان الزوج مثقلًا بالأعباء والهموم. عندئذٍ يبدو متوترًا عصبيًا نافد الصبر في ليلة السفر.. ويغدو على استعداد للشجار لأي سبب وأوهى سبب.. ولهذا يندر أن يكون الزوجان على ما يرام في الصباح قبيل سفرهما.. لابد من مشاجرة تفسد كل شيء.. ويتحول السفر إلى نوعٍ من أداء الواجب، وإيفاء لالتزامات وارتباطات عدة بعضها شخصي وبعضها مالي..، إن لعنة الإجازات أبدية ولا ترحم أحدًا.. وعندما تأتي لا يبقى معنى لأى شيء».

هذا هو ما قالته بأسلوب. لا بأس به..

نعود الآن إلى السيارة التي يسود جوها ذلك الفتور الصامت.. أو الصمت الفاتر..



بالطبع لم يكن كوخ (أندرو) وسط هذه المستنقعات ؛
لكنه قريب منها إلى حدّ كبير ..

كان على (أندرو) عبور الجسر.. وهو أخطر جزء من الرحلة بسبب الهاوية العميقة التي تتمدد تحت الجسر كوحش يفغر فاه...

في البدء غادر السيارة ونزل يتفقد أخشاب الجسر بقدمه، كجندي يمهد لعبور رتل من الدبابات فوق جسر ألماني يسيل له لعاب المقاومة الفرنسية..

- «لا بأس..!»

وببطء عاد إلى السيارة وأدار محركها..

وراحت العجلات تتحرك بحذر فوق الأخشاب المقعقعة.. والجسر ذاته يهتز يمينًا ويسارًا..

- «(أندرو)!.. كفاك هذا.. فلنعد!»

قالتها (سارة ستوكلي) في توتر من المقعد الخلفي.. لكنّ أوان التراجع قد ولّى.. فالسيارة الآن في منتصف الجسر.. والعودة تحمل ذات خطر التقدم..

كري ي ي ي كريك!.. كريك!.. تشوك!

وأخيرًا!.. تلمس عجلات السيارة أرضًا ثابتة، وتخرج الأنفاس من الصدور بعد طول احتباس...

صاح (جون ستوكلي) في مرح:

- «كانت تجربة مثيرة يا زميلي!.. لكنّها خطرة..»

رسم (أندرو) ابتسامة مفتعلة على شفتيه اللتين تيبستا من طول الوجوم.. وقال:

- «كانت هذه مبالغة مني.. فالجسر أقوى مما يبدو..».

- «أوه.. ربما.. لكنّ كل شيء يكف عن أن يكون جيدًا في لحظة معينة من حياته.. وهذا الجسر شيء.. قد تكون هذه هي اللحظة المقصودة!».

- «إن هذا يحتاج إلى نحس مبالغ فيه..».

ومن جديد ساد الصمت..

الكوخ يتبدى من بعيد.. في الواقع بدا لهم كأنهم ثابتون والكوخ هو الذي يدنو منهم أكثر فأكثر..

قالت مسز (ستوكلي) وهي تشهق انبهارًا:

- «إنّه جميل...».

وقال زوجها في مرح:

- «إن ذوق (أندي) جميل يا (هيلين).. ألا ترين ذلك؟».

- «هم م م م!».

قالتها في فتور دون أن تتخلى عن طابع (الاشمئناط) العام الخاص بها..، وتوقفت السيارة.. ونزل الرجلان منها لينزلا حاجيات السفر والحقائب من على ظهرها..

مسح (أندرو) عويناته (إذن هو يرتدي عوينات) واتجه بحملة الثقيل إلى الباب، فأولج المفتاح في القفل العملاق العتيق المعلق هناك.. وفي حذر فتح الباب محدثًا ذلك الصرير الحزين الطويل لباب عجوز يتاوه من آلام مفاصله..

على حين وقف (جون) جواره يتأمل المكان..

- «لقد تكاثف الجليد حقًّا..»..

قال (أندرو) لاهثًا وهو يحمل حقيبته:

- «إن داخل الكوخ هو جنة حقيقيّة في ليالي الشتاء..، وهذا هو البرنامج الأساسي لنا..».

ثم نادى المرأتين كي تلحقا بهما...

وبينما المرأتان قادمتان تتعثران وسط الجليد المتراكم على الأرض؛ مال (أندرو) وهمس بشيء ما في أذن رفيقه..

لم تسمع (هيلين) - صاحبة المذكرات ـ ما قيل طبعًا.. لكنّها عرفته بعد أيام، كان ما قاله (أندرو) لـ (جون) هو:

ـ «يخيّل إليّ أنّ هناك من عبث في محتويات الكوخ... ولكن لا تخبر المرأتين بذلك الآن!!».

.....

* * *

٣-أحدهم كان هنا..

شيء ما يتحرك هناك.....

* * *

توجد أخشاب في المدفأة.. يرونها في الضوء الخافت..

اتجه (أندرو) إلى هناك، واستعان بعود ثقاب وزجاجة من (الكيروسين) ليشعل النار في هذه الكومة.

الدفء يغمر المكان بذلك الإحساس البهيج.. النار.. أول صديق للإنسان وأول عدو له.. ذلك الوحش رائع الجمال يرقص رقصته السرمدية وضوؤه الذهبي يترقرق على الوجوه...

بعد هذا حمل (أندرو) (جركن) عملاقًا من المازوت، واختفى بعض الوقت.. بعد ثوان تعالى صوت الهدير الكئيب المميز لمولدات الكهرباء...

وعاد باسمًا ليعلن لهم:

- «يمكنكم إضاءة المصابيح الآن..»..

بعد الضغط على عدة مفاتيح غمر النور البهيج المكان..

كان الكوخ في حالة جيدة.. واستطاعوا أن يروا (أنتريه) صغيرًا أنيقًا بقرب المدفأة.. وفراء دب يغطي الأرضية الخشبية، وفوق رف المدفأة توجد ساعة حائط يدق بندولها بانتظام وعقاربها تشير إلى الوقت الصحيح: الثالثة بعد الظهر..

كانت هناك مكتبة مشي لها (جون) ووقف يتأمل كعوب مجلداتها.. مسرحيات (شكسبير).. الإنجيل.. قصص عن (روب روي).. ومجلد سميك له كعب مهترئ كتب عليه بخط مذهب: إكليبوس...

سألت (سارة) صديقتها وهما تصطليان أمام النار:

- «كيف تأتى أنك لم تجيئي هنا قط؟»

مدت (هيلين) يدها إلى حقيبة يدها فتناولت علبة سجائر، وأخرجت لفافة دستها بين شفتيها.. لم تكن في حياتها من المدخنات، لكنّها تعلّمت من السينما أن مضطربي الأعصاب الفاشلين في حياتهم يدخنون بشراهة.. وهي كانت مضطربة الأعصاب فاشلة في حياتها، أو هكذا كانت تعتبر نفسها منذ عام...

قالت لـ (سارة) وهي تشعل لفافة التبغ:

- «كان يهوى هذا الكوخ قبل زواجنا.. ونحن متزوجان منذ عام أو أكثر قليلًا كما تعلمين، فلم تتح لنا الفرصة للقدوم هاهنا معًا..».

همست (سارة) وهي تتامل النار:

- «إنّه لمزاج غريب إلى حدٍ ما.. هذا الانعزال.. وكل هذه المستنقعات..».
- «يقول دومًا عبارة واحدة: إنّه يثير الخيال..».
- «إنّه على حق...».
وعادت الصديقتان تتأملان النار..

* * *

(جون) و(أندرو) يتهامسان حيث وقفا أمام المكتبة..
تساءل (جون) وهو يقلب صفحات (شكسبير):
- «ما الذي دعاك للظن بأن هناك من دخل الكوخ؟»
قال (أندرو) في صوت خفيض جاد:
- «هذا النظام والتنسيق المبالغ فيهما.. لا يوجد غبار.. لا خيط عنكبوت واحدًا.. لا رائحة عطن.. لا تنس أننا نتحدث عن كوخ لم أدخله منذ أكثر من عام..»..
- «هل تعني أنّ هناك من كان يتسلل إلى الداخل.. ويقوم بأعمال التدبير المنزلي متطوعًا؟»
- «لا أدري.. أشعر أنه كان هناك من يسكن هنا..».
- «وهل فحصت النوافذ؟».
- «كلها موصدة من الداخل بمزاليجها المزدوجة.. والقفل على باب الكوخ لم يتزحزح من موضعه.. كل شيء على ما يرام...».
- «إذن أنت تهذي..»..
- «أتمنى هذا.. لكنى أستبعده..».
ثم أضاف (أندرو) وهو يحدّق في وجه صاحبه:
- «ثمّة شيء آخر... توجد أخشاب كثيرة في المخزن.. لكني لم أضع خشبًا في المدفأة خلال إقامتي الأخيرة هنا.. وهذه - لعمري - نقطة أخرى لا أرى لها تفسيرًا!».

* * *

منذ عامين كانت جالسة في ذلك المطعم وحيدة ترشف الحساء وتطالع الجريدة..، وجاء ذلك الشاب الرزين الذي يرتدي العوينات وبدلة أنيقة تنم عن ذوق جيد..
في تهذيب سألها:
- «هل هذا المقعد خال؟».
هزت رأسها أن نعم.. وسمحت له بالجلوس، وعادت تطالع الجريدة.. كل ما علق بذهنها من وجهه هو عيناه النفاذتان المصممتان..
لابد أنه حاول التودد إليها كثيرًا.. حاول فتح سبل الكلام.. لكنّها لم تكن في حالة نفسية مهيئة للاتصال بالآخرين.. لماذا يبحثون عنها؟.. لم يضايقونها؟..
كان يواصل الكلام.. وهي تتجاهله..

بعد قليل بدأ العبء النفسي يتزايد على روحها... لا تدري كيف حدث هذا لكنه حدث..
شعرت بخيط من المخاط يسيل على شفتها العليا.. وبلل غير معتاد يغمر خديها.. ثم انفجرت باكية!

* * *

انتهى (جون) و(سارة) من إعداد المأكولات على المائدة الخشبية الصغيرة التي في وسط القاعة..، بعض الخبز المقدد والمعلبات.. كانا قد وضعا باقي الأطعمة التي جلبوها معهم في الثلاجة الصغيرة بالطابق الثاني...
وللمزيد من الرومانسية أشعلت (سارة) شمعة وضعتها في وسط المائدة..
وجلس الأربعة يأكلون.. وإن ساد الصمت من جديد.. فكرة جديدة لشيءٍ يُقال.. شيء يُقال.. راح كل منهم يجيل فكره في أمور الدنيا بحثًا عن شيء ما يمكن أن يقطع هذا الصمت دون جدوى..
وهنا وجدت (هيلين) عبارة مناسبة:
- «هل المستنقعات خطرة يا (اندرو)؟»
راح (أندرو) يلوك الطعام.. وجرع من الشراب جرعة.. ثم غمغم باسمًا:
- «حقًا هي خطرة.. ولا أنصح أحدًا بالتجوال فيها..».
- «إن الجليد يزيد الأمر تعقيدًا..».
- «ليس الجليد فقط...».
وازدادت ابتسامته غموضًا..

* * *

- «أستميحك عذرًا.. لم أقصد أن أدميك..».
قالها وهو يربّت على معصمها..
كانت حائرة في كارثة المخاط النازل من أنفها، أين ذهب هذا المنديل اللعين؟.. لماذا لا تجده في حقيبتها؟ إن هي إلا ثانية ويتدلى على المائدة وتحدث الفضيحة.
لهذا غمرها الامتنان حين وجدت ذلك المنديل النظيف العطر في يدها.. وعلى الفور.. بتووووووووه!..
أخيرا استطاعت أن تتكلم.. قالت في حرج:
- «أنا التي أعتذر.. لقد بدوت لك حمقاء..».
- «لا عليك.. ليتك تعرفين كم يحسد الرجال النساء على دموعهن.. لابد لبركان المشاعر أن ينفجر خارجنا وإلا انفجر داخلنا..».
وكانت هذه هي البداية..
إن ذروة العلاقة الحميمة بين اثنين هي لحظة الدموع.. وهما قد بدأ بها..!
واستغرق بعض الوقت - أيامًا - حتى يعرف سر بكائها في تلك اللحظة..

* * *

قال (أندرو) ضاغطًا على حروف كلماته:
- «هل تعرفون سر حبي العارم لهذا الكوخ؟».
- «الهدوء على ما أعتقد؟».
- «بل الرعب..!».
قالها بصوت كالفحيح.. حتى إن الهواء الخارج من فيه مع المقطع الأخير جعل لهب الشمعة يتراقص..
وأحست (هيلين) بقشعريرة.. فهي دون سواها تعرف حتمًا مدى صدق هذه العبارة الأخيرة..
- «هواية غريبة على ما أظن؟»
- «نعم.. الرعب.. الرعب الذي يزحف على العروق ويوشك أن يجمد الدماء فيها.. الرعب الذي يسري فوق عمودك الفقري كالجليد يزحف فوق ظهر دجاجة في ثلاجتك..».
كانت عيناه تلتمعان وراء زجاج العوينات في شبق شهواني.. وخطر لـ (سارة) أن الرجل لا يبدو على ما يرام...
ثم إن (أندرو) مال على المائدة هامسًا:
- «هل تعرفون من كان يعيش في هذه الأصقاع قديمًا؟».
- «الجرمان؟»
- «كلا.. بل قبائل (السلت).. إنها قبائل عجيبة حقًّا.. ونحن لا نعرف الكثير عنهم.. لكنّ كل حجر هنا وكل بركة ماء تداري سرًا عتيدًا من أسرارهم.. هل تسمعون عما يُقال بصدد هذه المستنقعات؟».
- «لا..».
نهض (أندرو) إلى المكتبة تتبعه نظرات الجالسين، وراح يتفقد الكتب فوق رفوفها.. ثم قال دون أن يدير ظهره:
- «ثمّة أسطورة تقول: إنك إذا غمرت جثة في مياه هذه المستنقعات؛ فإنها تعود للحياة بعد أسبوع!»
واستدار راسمًا على وجهه بسمة شيطانية:
- «بالطبع تعود ملوثة بالأوحال.. لكنّها تعود.. ألا ترون في هذا معجزة ما؟!».
.....!

* * *



وأحست (هيلين) بقشعريرة . . فهى ـ دون سواها ـ تعرف
حتمًا مدى صدق هذه العبارة الأخيرة . .

٤ - حكايات مشئومة..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات...

* * *

عندما قابل (أندرو) (هيلين) كانت في حضيض معنوياتها..
كانت قد انفصلت عن زوجها الأول لأنّه (لم يعد يحتمل روحها البليدة) على حد قوله..
وبعد شهر فقدت عملها كسكرتيرة في إحدى شركات الدعاية، وعندئذٍ لم يعد أمامها سوى أن تنهار.. امرأة في منتصف العمر بلا رجل.. بلا أطفال.. بلا مورد..
إن الإنسان الغربي وحيد.. وحيد إلى حد مروع..
ولهذا حين دخل (أندرو) حياتها بنعومة كورقة صفصاف تسري فوق مياه جدول: لم يكن لديها مخرج آخر سوى أن تهيم به حبًا، وكان هو رقيقًا لطيف المعشر.. وتزوجا.. ولأيام حسبت أنها لم تسقط من فوق مائدة القدر كما ظنت..
لكن شيئًا ما طرأ على حياتهما..
شيئًا لم يدر بخلدها من قبل..

* * *

صاحت (سارة) في دلال:
- «كفاك إثارة لرعبنا يا (أندرو)!».
ضحك (أندرو) حيث وقف بجوار المكتبة.. وقال في إصرار:
- «إنها لقصص حقيقيّة يا صغيرتي.. أعني أنّ هناك من يؤكد أنها تحدث...».
في ريبة تساءل (جون):
- «إذن أنت تأتي هنا لتلتذ باجترار هذه القصص وحيدًا جوار نيران المدفأة؟».
- «بالتأكيد.. أجلس أتأمل النيران.. وأتصور لو أنّ أحد هؤلاء الموتى الأحياء قد عاد الآن.. وهو يرفع يده الملوثة بالأوحال ليقرع بابي!.. عندئذٍ ماذا سيحدث؟.. هل أصرخ؟.. هل أجن؟».
- «هذا - لعمري - مزاج مفرط في (الماسوشية) يا صديقي إلى درجة أنه يحتاج دراسة ممحصة من محلل نفساني..»
- «لكنني أستمتع به حقًّا..».
ثم إن (أندرو) تناول من المكتبة صندوقًا صغيرًا.. صندوقًا من الخشب العتيق الذي تم تدعيم جوانبه برقائق مذهبة.. وقد أوصد برباط من الجلد المظفر المتأكل...

عاد به إلى مائدة الطعام حيث جلس الثلاثة الآخرون، ووضعه في مركز المائدة ليراه الجميع..
تساءلت (سارة) وهي تريح ذقنها على قبضتها:
- «ما هذا؟.. صندوق سجائر؟»
قال (أندرو) بنفس الابتسامة الغامضة:
- «لا أحد يضع السجائر في المكتبة إلا إذا كان مخبولًا»
ثم خلع عويناته وسلط نظراته النفاذة على الجالسين:
- «هذه عجيبة أخرى من عجائب هؤلاء (السلت).. صندوق الآلام.. المعادل لصندوق (بندورا) الشهير..»
- «(بندورا)؟»
- «نعم.. في الأساطير الإغريقية.. الصندوق المغلق الذي ظل يثير فضول حواء الأولى (بندورا).. إلى أن صار الأمر أقوى منها.. فتحته.. فإذا بروح الألم والمجاعة والفقر والمرض تخرج منه لتجتاح العالم الخارجي..»
- «وهذا الصندوق؟»
قال بصوت هامس:
- «هذا الصندوق انتقل من يد ليد.. آخر من امتلكه هو تاجر أسكتلندي عجوز.. قال لي وهو يحتضر: إن (شيطان الألم) حبيس في هذا الصندوق..، الملاحظ أن كل من فتح هذا الصندوق مات وهو يتلوى ألمًا والدم ينزف من أنفه وفمه..، وكان التاجر آخرهم..»
وابتلع ريقه.. وبعد هنيهة أضاف:
- «التحدي هنا هو: نحن لا نؤمن بالخرافات.. وكلنا مثقفون متحضرون.. فهل نفتح الصندوق!؟»
ساد الصمت الثقيل لدقائق..
تبادل الجالسون النظرات، ولم يقل أحد شيئًا..
كان الصندوق جائما بينهم كقنبلة تنتظر من يلمسها لتنفجر، ولدهشة (جون) أحسّ أن حاجزًا مكهربًا يحيط بالصندوق ويحول دون فتحهم إياه.. كلمات (أندرو) صارت لها قوة حاجز سميك من الزجاج... حاجز لا يمكن كسره..
- «إذن.. أحاول فتحه أنا!».
قالها (أندرو) ومد يده إلى الصندوق، وأزاح الرباط الجلدي المحيط به...

* * *

لماذا تغيرت يا (اندرو)؟
إن المرأة تفهم أن يكون الرجل وقحًا.. أو عصبيًا أو وغدًا.. أو أنانيًا.. أو بخيلًا.. أو كاذبًا..
لكنها لا تفهم أن يصير غير مبالٍ بها..
يعود للدار صامتًا.. يجلس أمام التليفزيون صامتًا.. يأكل صامتًا.. ينام صامتًا.. بل ويتكلم صامتًا إذا فهمت معنى هذا..، عيناه تتجاوزانها لتريا من خلالها.. بالنسبة له هي لوح زجاج.. والمرء لا

ينظر للوح زجاج أبدًا.. بل يخترقه ببصره إلى العالم الواسع وراءه..
لقد وضع ذلك الحائط بينهما وصار من العسير أن يزول...
وبرغم هذا لم ترَ منه كراهية ولا تقصيرًا.. هو يؤدي واجباته كآلة تفعل ما يُطلب منها دون حب ولا مقت.. فقط تؤديه..
وكان هذا يفوق قدرتها على التحمل..، كان يعود متأخرًا دون تفسير.. ويسافر (لمقتضيات العمل) أسبوعًا كل شهر.. ويعود لها حاملًا هدية.. التعبير الرخيص عن عاطفة لا وجود لها..
وأدركت أنه الملل..
لقد قال زوجها الأول: إن روحها بليدة.. من يدري!.. ربما كان محقًا فيما قال.. من العسير أن يكون زوجاها - بالصدفة البحتة - سريعي الملل...
قرأت كثيرًا من كتب الزواج، وحاولت أن تبدو وتكون أفضل، لكنّ الأمر كان أعمق وأخطر من بضعة مساحيق تضعها أو ثياب جديدة تبتاعها.. لقد كان هوائي التليفزيون يومًا في وضع حساس يسمح له بأن يكون على موجة الروحين معًا.. أمّا الآن فقد حركته الريح، ولم تعد أية عطور ولا ثياب قادرة على إعادته إلى سيرته الأولى...
متى عرفت أنه يتردد كثيرًا على هذا الكوخ؟
لا تدري بالضبط.. ربما كان ذلك حين عاد من السفر ووجدت عداد الكيلومترات في السيارة يشير إلى ذات بعد الكوخ مقسومًا على اثنين... وربما تلك الأوحال التي وجدتها على أحذيته عدة مرات كلما عاد.
خطر لها أنّ هناك امرأة أخرى..
بالتأكيد هو كذلك لأن القصة دائمًا هكذا..
ولكن من هي؟.. من هي؟

* * *

كان الصندوق قد انفتح..
ودون وجل امتدت يد (أندرو) داخله..
وحين خرجت؛ كانت مليئة بقطع (الشيكولاتة)..!
وتعالت صيحات المرح الضاحك.. وحتّى (هيلين) لم تستطع منع الابتسامة التي ارتسمت على ركن ثغرها.. فالدعابة كانت موفقة حقًّا.. وتم الإعداد لها بإتقان..
تناول كل منهم قطعة من الشيكولاتة راح في استمتاع يلوكها.. وتساءل (جون) في خبث:
- «شيكولاته (سلتية) من القرن الثاني عشر؟ هل أنت مطمئن إلى تاريخ الصلاحية؟!»
- «لا تنكر أنني خدعتكم جميعًا..»
نهضت الزوجتان لتقوما بواجبهما الأنثوي من جمع الأطباق وخلافه، أمّا (جون) فتمطى متثائبًا.. وأعلن أن وقت النوم قد حان فقد انتصف الليل..

تقع حجرتا النوم بالطابق العلوي من الكوخ، وإذ تمنى كل من الزوجين ليلة طيبة للزوج الآخر.. قال (أندرو) وهو يعاود الابتسام الخبيث:

- «حذار من أن يحلم أحدكم بالسلت!»

- «أنا لا أخاف إلا حين أكون بكامل لياقتي.. أمّا وأنا مرهق فمستحيل..».

ودخل (جون) و(سارة) حجرتهما.. ودخل (أندرو) و(هيلين) حجرتهما.. كان هناك فراش مرتفع عن الأرض ذو أربعة أعمدة.. ومدفأة صغيرة في ركن المكان.. ومرآة.. ومكتبة صغيرة.. ونافذة واربها (أندرو) قليلًا حتى لا يختنقا وهما نائمان..

وراح يشعل النار في المدفأة، على حين جلست (هيلين) على حافة الفراش تستبدل بثيابها ثياب النوم... لاهثة من البرد انسلت تحت الغطاء السميك؛ عالمة أن لحظات دامية ستمر قبل أن يدفأ الفراش وتدفأ قدماها.. أسنانها تصطك بردًا..

لكنها برغم الضوضاء الناجمة عن هذه الأسنان اللعينة، كانت قادرة على سماع حركة (أندرو) في الحجرة وهو ينزع ثيابه.. يرتدي منامته، ثم ينسل تحت الغطاء جوارها.. صوت المنظار يوضع على المقعد جوار الفراش..

ليلة أخرى تبدأ بالصمت وتنتهي به...

سألته مغمضة العينين والغطاء يكتم صوتها إلى حدٍ ما:

- «(أندي)؟».

- «هم م م؟».

- «لقد كنت تتردد على هذا الكوخ كثيرًا.. أليس كذلك؟».

- «وماذا يدعوك للاعتقاد بهذا؟».

- «الشيكولاتة.. كانت بحالة جيدة.. لا يمكن أن يكون عام قد انقضى عليها هنا..».

اهتز الغطاء بضحكته المكتومة.. وتقلب ليوليها ظهره.. وبعد دقائق غمغم:

- «ملاحظة جيدة.. لكنني لم أضع أية شيكولاتة في هذا الصندوق!.. إنها المرّة الأولى التي أفتحه فيها.. ولم أرد أن أثير هلعكم..!».

* * *

(سارة) و(جون) في حجرتهما...

يداعب (جون) شعيرات لحيته الشقراء (واضح إذن أنه يملك لحية شقراء) ويتأمل وجهه في المرآة..

في الصباح عرفت (هيلين) فحوى المحادثة التي دارت بين الزوجين همسًا على صوت وضوء نيران المدفأة..

قالت (سارة):

- «لا أدري.. إن العلاقة بين (أندرو) و(هيلين) ليست على ما يُرام..»

- «هذا واضح.. لم يتبادلا كلمة منذ بدء الرحلة..»



كان الصندوق قد انفتح ..
ودون وجل امتدت يد (أندرو) داخله ..

- «والسبب؟».
- «إن (أندرو) إنسان معقد يا (سارة).. طفولته المليئة بالحرمان والمعاناة جعلت منه مخلوقًا صعب المعاشرة.. صحيح أنه صديقي لكنه كذلك لبضع ساعات كل يوم.. وأنا لا أتصور أن أكون زوجته ليوم واحد..»

* * *

(هيلين) تعرف هذا عن زوجها..

بعد عام من الزواج تعرف أنه مازال يحاول أن يكون مرعبًا، لأن الرعب يهب المرء القدرة على التأثير في الآخرين... لأن الرعب هو القوة كما خيل له..

إن (أندرو). لم ينضج. بعد.. مازال طفلًا يكشر عن أنيابه في وجوه الأطفال الأصغر منه..، صحيح أنه كان يبدو ناضجًا حينما يكون مع الآخرين.. لكنه ذلك القناع الاجتماعي الذي نرتديه أكثر اليوم وننزعه حين نعود إلى ديارنا...

.ولهذا فهمت ما يعنيه بـ (الرعب) حين تحدث عنه هذه الليلة.. ولهذا - حين حاول إفزاعهم ـ لم ترَ أمامها سوى صبي سخيف يلوح بسحلية في وجه طفلة مذعورة.. كلما صرخت كلما ازداد تلذذًا..

ولأنه صبي سخيف؛ لم يستطع بعد. فهم الزواج.. الشيء الذي يرغم اثنين على تقاسم سقف واحد للأبد... يأكلان نفس الطعام ويشاهدان ذات البرامج ويحلمان ذات الأحلام.. كأكثر الرجال حسب هذا شيئًا بهيجًا.. وظن أنّ هذا هو ما يرغب فيه حقيقة، لكنه كان: كما قلنا ـ صبيًا سخيفًا لا يفهم كنه ما يريد.. وكان الزواج هو آخر ما يريد.....

ولكن.. هل حقًّا توجد امرأة أخرى؟..

من العسير أن تجيب على هذا السؤال.. فهي قد بحثت بعين أنثى خبيرة عن آثار امرأة أخرى فلم تجد.. وهي تعرف أن إخفاء آثار كهذه شبه مستحيل.. دائمًا ما يكون هناك أثر ما.. مثل رائحة عطر أو قلم أحمر الشفاه أو منديل أو علبة سجائر.. لكنّها لم تجد شيئًا كهذا حين نهضت خلسة بعد ما نام (أندرو).. وراحت تتفقد الحجرة بدقة..

وكان هناك كراسة على رف المكتبة.. فتحتها في حرص لترى ما بها.. فوجدته بخط زوجها..

العنوان يقول (الكلمات)..

إسم غريب!.. هل هو ديوان شعر؟ قلبت الصفحة لترى ما بعدها فوجدت رسومًا بدائية ساذجة تمثل رجالًا يصرخون، وقوارب، ونيرانًا، وذئابًا تعوي..

ووجدت تحت أحد الرسوم تاريخه (١٢/١٠/١٩٦٧) - الرؤيا الأولى - .. إذن هو يكذب بوضوح.. لقد جاء إلى هنا في شهر أكتوبر - منذ شهرين - ورسم هذا.. بالتأكيد لم يأت بالكراسة معه.

في صفحة تالية وجدت صورة فوتوغرافية (أبيض وأسود) لمستنقع كئيب المنظر.. بالتأكيد هو واحد من المستنقعات المجاورة..

ماذا يقول التعليق؟ (الظهور الخامس لإكليبوس).. التاريخ هو ٦/٨/١٩٦٧...

إنها تذكر هذا التاريخ.. ألم يقل لها: إنّه ذاهب إلى (لندن) لمقابلة بعض المقاولين؟ استغرق هذا أسبوعًا.. ولم يتصل بها هاتفيًا ولو مرة واحدة لأنّه كان هاهنا منهمكًا في دراسة (إكليبوس) هذا..

ولكن من هو (إكليبوس)؟

إن الصورة لا تظهر سوى مستنقع..

ولكنها ـ إذ نظرت للصورة بعناية أكثر ـ رأت في ركنها ظلًا مبهمًا لشيءٍ ما.. تعرفون طبعًا تلك الصور غير الواضحة بتاتًا التي يظهر فيها ما يفترض أنه طبق طائر أو وحش (لوخ نس) أو رجل الثلوج..

كل هذا يتم على ضوء اللهب المتراقص...

الصفحة التالية ترى فيها صورة عصفور ميت فردت أجنحته وبدا في حال مثير للشفقة..

في الصفحة التالية ترى عصفورًا يلتقط الحب من وعاء صغير.. إنّه ذات العصفور.. إذن هذه الصورة التقطت قبل موته..

لكن العصفور الحيّ كان متسخا بالأوحال..، والتعليق تحت الصورة يقول: (بعد دفنه في المستنقع بسبعة أيام)!.. يكفي هذا..

لا مزيد من هذا الرعب قبل النوم..

أغلقت الكراسة وعادت إلى الفراش مسرعة.. لكنّها حين نظرت نحو (أندرو) وجدت عينيه مفتوحتين...!

كان يرمقها في ثبات...

* * *

٥. عن (إكليبوس)..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا...

* * *

كان هذا هو اليوم الأول في المفكرة، وهو يوم طويل حقًّا كتبته (هيلين) في أربع صفحات كاملة.. فالمفكرة لم تكن من الطراز المقسم إلى تواريخ..

على أن اليوم الثاني والثالث كانا أكثر مرحًا...

فقد خرجت المجموعة للسير على الجليد وتفقدوا المكان: وتعاون الرجلان على اقتطاع شجيرة شربين صغيرة لتكون هي شجرة (الكريسماس)، ووضعاها بجوار المدفأة.. ثم تعاونت المرأتان على تزيينها بالأجراس والدمى الصغيرة والورق المفضض اللامع...

ولم يفت (سارة) أن تأتي من حقيبتها بدمية (بابا نويل) أو (سانتا كلوز) - بلحيته البيضاء وقلنسوته الحمراء، وتضعها في ركن مهم من قاعة المعيشة..

بعد هذا راحوا يلعبون الورق.. إن. لعبة الـ (جاك) ممتعة حقًّا.. ويقال: إن المرء يمكن أن يلعبها للأبد لو عاش في.سجن. دائم مع آخرين.

لم تحاول (هيلين) أن تسال زوجها عما رأته البارحة.. ولا عن كنه (الكلمات)، فقط انسحبت بضع دقائق لتصعد إلى غرفة النوم لتدون مذكرات اليوم السابق.. ومن المؤكد هنا أن زوجها لا يعرف عن هذه الهواية الشيء الكثير؛ وإلا ما استطاعت أن تتكلم عنه بهذه الحرية المطلقة..

من جديد شعرت بأناملها تدغدغها كي تتصفح (الكلمات) مرّة أخرى..

بيد مرتجفة تناولت الكراسة من فوق رف المكتبة، وعادت تقلب صفحاتها الملأى بالغموض...

فكان أن وجدت هذه العبارات:

مجموعة النداء الأولى:

أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس. ثم بيركادوس (٤).

«مجموعة النداء الثانية:

أشيوست ديمترا - إرسادوك

(في وجه القمر)

إينياس (تعمل وحدها، دون معين.)»

بعد هذا جاء التحذير من الجهر بهذه العبارات كما ذكرت آنفًا للقارئ.....

لم تفهم كنه هذا الكلام، وإن أدركت يقينًا أنه تعويذة تتعلق بقوّة ما من وراء الواقع.. وشعرت بتلك الرجفة تزحف من جذور شعرها حتى أسفل عنقها...

ما الذي يفكر فيه (أندرو)؟.. من هو حقًّا؟..

لا تعرف السبب.. لكنّها شرعت تنقل هذه العبارات إلى باطن غلاف مفكرتها.. كانت تأمل أنها ستعرضها على من يفهم في هذه الأمور عند عودتهم.. خبير في السحر.. أو خبير في (السلت).. أو خبير في شمال (أسكتلندا).. أو خبير مستنقعات.. لا تدري بالضبط.

* * *

مر اليوم الخامس والعشرون بسلام.. ومثله مر اليوم السادس والعشرون...
على أن لنا وقفة معينة مع اليوم السابع والعشرين.
كلا.. لا تتحفزوا يا إخوان.. لم يحدث ما يدعو للرعب.. إن هي إلا ملاحظة بسيطة..
لقد صحا (جون) فجر أمس متوترًا، وأيقظ (سارة) مؤكذا أنه سمع من يطرق باب الكوخ...
ولما لم يكن هناك بالمنطقة سواهم.. ولم يخلق بعد ذلك المخبول الذي يجرؤ على خوض منطقة المستنقعات وحيدًا في الظلام.. بدا الأمر غريبًا..
بعد ثوان سمعت (سارة) ذات الطرقات اللحوح.. وهي تقسم إنها كانت من شخص يستعمل مجمع قبضته في توجيه ضربات حانقة حاقدة إلى الباب..
وتأهب (جون) للنزول ليرى ماذا هنالك.. لكنّ (سارة) توسلت إليه أن يتجاهل الأمر ويعود للنوم.. ولم تكن بحاجة لإلحاح كثير.. لأن (جون) كان من الحكمة بحيث ارتخت قدماه تحته ولم يعد قادرًا على إجبارهما على حمله..

قال لها وهو يعود للنوم:
- «فلنفترض أننا لم نسمع شيئًا..»
- «يبدو أن (أندرو) لم يسمعه..»
- «أراهن على أنه فعل.. لكنه يتظاهر بالصمم مثلنا..».
- «ولو كان هذا عابر سبيل يوشك على التجمد؟»
- «إذن فليتوله الله بعنايته حتى تشرق الشمس..!»
- «قد يكون ضل الطريق...»
قال (جون) وهو يتثاءب:
- «لا أحب أن أجازف بفتح الباب ظنًا أنه عابر سبيل ثم يتضح أنه ليس كذلك!.. هل تذكرين، ما تعنيه.. الطرقات على الباب في قصة (و. يعقوب) الشهيرة (مخلب القرد)؟!»
- «لـ.. لا.. لم أقرأها..».
- «إذن.. أنصحك بقراءتها نهارًا!.»[1]

وعاد يواصل النوم...
في الصباح أخبر (أندرو) بما حدث.. فبدا على هذا الاهتمام، وخرج يتفحّص الباب الخارجي.. ثم إنّه نادى (جون)...
وفي اهتمام أشار إلى آثار وحل على الخشب... وتبادل وصاحبه نظرة.. نظرة لم يدر (جون) معناها..
قال في جديّة:
- «أحسنت ببقائك في الفراش.. فقد كان أحدهم!»
- «أحد من؟»
- «العائدين!.. إنهم يأتون عند الفجر من حين لآخر طالبين المأوى....»
في حنق مذعور صاح (جون):
- «(أندرو)!.. هلا كففت عن هذا الهراء.؟».
أبتسم (أندرو) في غموض.. وغمغم:
- «أنت حر في تصديقه أو عدم تصديقه.. فنحن في بلد ديموقراطي يا صديقي..»
ولقد انتهت القصة عند هذا الحد..
ألم أقل لكم: إنها مجرد ملاحظة بسيطة قد لا يكون ثمّة داع إلى ذكرها؟!

* * *

ويمر اليومان التاليان دون أحداث جديرة بالذكر..
وفي اليوم الثلاثين من (ديسمبر) وقف (جون) و(أندرو) أمام المكتبة وقد أمسك كل منهما قدحًا من القهوة يرشف ما به في استمتاع....



وتأهب (جون) للنزول ليرى ماذا هنالك . . لكن (سارة)
توسلت إليه أن يتجاهل الأمر ويعود للنوم . .

على كعوب الكتب يمرر (جون) طرف سبابته، وهو يتلو أسماءها بصوت عالٍ.. ثم توقف عند المجلد العتيق متآكل الأطراف.. وتساءل:

- «ما هو (إكليبوس) يا (أندرو)؟.. هل هي أشعار رعوية أو شيء من هذا القبيل؟».

أخرج (أندرو) المجلد من المكتبة.. كان مغطى بالغبار السميك مما يدل على قلة استعمال حقيقيّة..

فتحه.. ورأى (جون) أوراقًا مصفرة مهترئة متأكلة عليها رسوم تمثل شياطين.. شياطين القرون الوسطى بالذات هزيلة البدن بلحاها المدببة ووجوهها التيسية.. إن إرتباط الشيطان بالماعز كان عميقًا في وجدان رسامي القرون الوسطى..

كانت هناك رسوم لساعات.. وأبراج سماويّة تخرج منها صواعق.. وأشخاص يحترقون في النار بسعادة بالغة.. وأشياء لا تدري كنهها تفعل أمورًا لا تدري ماهي....

الخلاصة أنّ هذا ـ دون شك ـ كتاب سحر من القرون الوسطى.. وليس - بالتأكيد - جديرًا بوضعه في المكتبة.. إن مكانه الطبيعي هو متحف التاريخ البريطاني رفع (جون) عينًا متسائلة غير فاهمة نحو (أندرو)...

قال (أندرو) وهو يشير إلى رسوم الكتاب:

- «(إكليبوس) هو كيان شيطاني من خرافات القرن الثاني عشر الميلادي، ويقال: إن الإيمان به كان يبلغ مرتبة الدين في هذه الأصقاع..، ولا داعي للقول بأنه كان يسيطر على هذه المستنقعات التي نعيش فيها بالذات.. وكان القوم هاهنا يقدمون له القرابين الآدمية التي يغمرونها في المستنقعات، ثم ينادون هذا الـ (إكليبوس) عن طريق عبارات سحرية معينة.. وكان الافتراس يتم.. وبعده يكتسب ذوو الضحايا قوى غير محدودة.. طبعًا هي واحدة من الخرافات العديدة غير المتناهية التي تحاصر هذه المنطقة».

تساءل (جون) وهو يعيد الكتاب إلى موضعه:

- «(أندرو)؟»

- «هم م م؟»

- «من أين تجيء بكل هذا؟»

ضحك (أندرو) مراوغا:

- «إنها هوايتي يا (جون.).. لا أترك تاجر كتب قديمة.. ولا مزادًا يبيع صناديق موصدة.. ولا نصابًا يزعم أن لديه مخطوطات قديمة إلا وذهبت إليه وأنفقت نصف راتبي على ما عنده..».

- «وهل رأيت هذا الـ.. الشيطان الافتراضي؟»

- «بالطبع لا.. وإلا ما كنت هنا أثرثر.. إن اقتناء كتاب عن العنقاء لا يعني دائمًا أنك تؤمن بوجودها..».

* * *

كان هذا هو ما دار بين الصديقين، وفيما بعد عرضت (هيلين) ما قيل.. وأدركت أن (أندرو) يكذب.. حتمًا يكذب.. ألم تقرأ في مذكراته أو (كلماته) عبارة (الظهور الخامس لإكليبوس)؟..

وتعرف أنّ هذا تم يوم ٦/٨/١٩٦٧..؟
ولكن لماذا يكذب في هذا بالذات برغم أنه يسره بالتأكيد أن يستغل هذه النقطة لإثارة مزيد من رعب مر افقيه؟
إنها لن تفهم (أندرو) أبدًا.. بالتأكيد هو يزداد غموضًا يومًا بعد يوم.. والجديد هنا هو أنها لم تعد تميل إليه على الإطلاق.. بل هي في الواقع تمقته وتخشاه بشدة...
لكنّ ليس الوقت موائمًا لإظهار هذه العواطف الخاصّة أمام ضيفيها....

* * *

وحينما صحت من النوم في الواحدة صباحًا؛ عرفت أنها لن تجده جوارها في الفراش.. كيف عرفت؟..
هذا سهل.. كل النساء يجدن هذه الفنون التي تندرج تحت الحاسة السادسة والسابعة والثامنة..
من وعلى ضوء اللهب المتراقص في المدفأة؛ رأت مكانه في الفراش خاويًا..
أين ذهب؟.. هل لقضاء حاجة؟.. تدخلت حاستها التاسعة كي تنفي هذا.. إذن أين هو؟.. أحقًا لا تعلمين يا حمقاء؟.. بالتأكيد هو الآن في المستنقعات...!

* * *

٦ - مصيدة عيد الميلاد..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا...

* * *

اليوم هو عيد الميلاد..
حين ينتصف الليل يلفظ عام ١٩٦٧ أنفاسه الأخيرة، على حين تدوي صيحات ١٩٦٨ في غرفة الأطفال بمستشفى الأبدية.. صارت شجرة عيد الميلاد في أبهى صورة، وأضافت (سارة) بعض تماثيل صغيرة لتعطي انطباع المزود حيث ولد المسيح عليه السلام...
وعلى مقعد خشبي ينذر بالانهيار يقف (أندرو) عاكفًا على تثبيت بعض المسامير ليعلق فوقها خيطًا..، وبالطبع تتدلى الزينات من هذا الخيط...
الكل يعمل.. الكل يشارك.. الكل مرح..
ماعدا ـ تعرفون من - (سندريللا) الرقيقة الحزينة المتشككة الشهيرة بـ (هيلين)...
تجلس في الركن جوار المدفأة تتأمل أظفار يديها في شرود..

* * *

(جون) في المخزن وحيدًا:
يمسك البلطة ويهوي بها فوق قطع الخشب الموضوعة فوق جذع عالٍ متين.. رياضة مرهقة لكنّها جيدة.. إنها خير وسيلة لجلب الدفء في هذا الزمهرير.. لهذا يتمتع الحطابون بصحة هائلة..
هاك!.. تم تحويل قطعة الخشب هذه إلى قطع صغيرة...
والآن يحملها ليضعها في الركن.. يأتي بقطعة أخرى..
غريب هذا الشريط الجلدي الذي يبرز وراء الأخشاب.. متى رآه من قبل؟..
مد يده وجذبه إليه فوجده متعلقًا بشيء ما.. بصعوبة نجح في تحريره.. وجد أنه يد حقيبة.. حقيبة أنثويّة..
تناولها بشيء من حذر وعالج قفلها.. وجد بداخلها بعض أوراق مالية.. وبطاقة هوية.. ماذا تحويه هذه البطاقة؟..
فتاة تدعى (ساندرا بيكيت).. المهنة سكرتيرة ـ من (جلاسجو) - وهي في السادسة والعشرين من عمرها..
ابتسم في خبث.. إن وجود هذه الحقيبة هنا يعني أنّ هذا الكوخ لم يكن. ديرًا يعتزل فيه (أندرو) العالم.. وخير ما يفعله الآن هو أن يتجاهل الأمر كلية..

فليعد الحقيبة إلى مكانها.. وليبتلع أسئلته العديدة.. وليكن حكيمًا بالقدر الذي يسمح بإخفاء هذه البسمة العارفة من على شفتيه..
وكحطاب محترف بصق على كفيه.. وتناول البلطة وعاد يواصل عمله..

* * *

عند الظهيرة كانت (هيلين) قد وصلت إلى قرارها.

- «أريد العودة إلى داري!»

أثارت جملتها جوًا من الوجوم والدهشة.. حتى إن (سارة) كفت عن تزيين شجرة عيد الميلاد.. و(جون) توقف عن رمي الأخشاب في المدفأة واستدار نحوها وهو مازال جاثيًا على ركبتيه..

أما (أندرو) فتصلب والمطرقة في يده، وثلاثة مسامير بعد بين أسنانه.. وانبعثت من عينيه نظرة نارية:

- «(هيلين)!.. هل تمزحين؟»

نهضت في حنق، وركلت الأرض بقدمها كطفلة غضبى:

- «أنا لا أمزح.. أريد العودة لداري»

هبط من فوق المقعد.. ولفظ المسامير.. ثم نظر لها بحدة:

- «ما هذا السخف؟.. وفي ليلة الكريسماس التي جئنا خصيصًا من أجلها؟!»

وضعت (سارة) ذراعها برفق حول كتف صديقتها، كأنها تقول (دعونا.. فنحن النسوة يفهم بعضنا بعضًا) وسألتها بحنان:

- «هل ثمّة ما ضايقك هنا يا حبيبتي؟».

- «أريد أن أرحل وكفى...».

دنا منها (جون) بدوره ليقول شيئًا ما.. ولقد فاق هذا كل قدرة إضافية على التحمل.. فها هي ذي تلعب دور الطفلة العنيدة التي يحاول الجميع إقناعها بالود تارة.. وبالغلظة تارة..

وهنا لم تتحمل أكثر.. انفجرت في البكاء كالصنبور المكسور.. إنها تشعر بالخجل من بلاهتها.. جرت ودفنت وجهها بين راحيتها بينما (سارة) مازالت تلعب دور (فاهمة النساء) و(جون) يكور قبضته في وجه (أندرو) مازحًا:

- «هل أثار حفيظتك؟.. سألقنه درسًا قاسيًا».

أخيرًا تستجمع قدرتها على الكلام.. فتقول والعبرات تشوه كل ما تقول:

- «الأمر هو أنني لا أحب هذا الكوخ.. الشؤم يحيط به.. كل شيء غاررررييب هي ي ي ي!».

يتساءل (جون) في حيرة:

- «ماذا تقول؟»..

تقول (سارة) موضحة:

- «تقول: إن كل شيء غريب..»

وتعود (هيلين) للكلام:

- «أشعر أن كارثة ستحل بنا هنا.. أنا من ذلك واثقة.. إنني أرتجف هلعًا من كل جدار هنا.. وكل باب..»

وتهانفت من جديد:

- «أريد العودة إلى داري ي ي ي ي!».

نافد الصبر أوقفها (أندرو) بيده.. ودس يده الأخرى في جيبه.. وغمغم:

- «حسن.. تريدين هذا.. لك هذا..».



وخير ما يفعله الآن هو أن يتجاهل الأمر كلية .. فليُعد
الحقيبة إلى مكانها .. وليبتلع أسئلته العديدة ..

صاح (جون) غير مصدق:
- «(أندرو)!.. عم تتكلم؟.. إن العطلة لم تبدأ بعد.. ثم إننا غير مستعدين لقضاء العيد في ديارنا..».
- «أعرف هذا..»
وأردف وهو يضع قلنسوته المعلقة على المشجب فوق رأسه:
- «هي لا تريد الكوخ.. ليكن.. سأعود بها للدار.. ثم أرجع لكم.. هذا لن يستغرق وقتًا كثيرًا.. سأكون هاهنا قبل منتصف الليل.. وسأحضر المزيد من الشراب والأطعمة..»
هتفت (هيلين):
- «لكني أرغب في أن نعود جميعًا.. معًا!».
- «أنت حرة يا (هيلين) في البقاء أو العودة.. لكنك لست حرة في إفساد النزهة على ضيفينا.. وأعتقد أننا جميعًا راغبون في البقاء..».
هنا بدورها هتفت (سارة):
- «لن يكون للبقاء هنا طعم دون (هيلين).. إنني أفضل أن نرحل جميعًا..»
قال (جون) في ضيق:
- «ربما كان (أندرو) على حق.. إن الرحلة شاقة.. وقد فرغنا بصعوبة من إعداد هذا الكوخ...».
وهكذا....
تقرر أن ترحل (هيلين) وزوجها، على أن يعود هذا الأخير سريعًا لبدء الحفل.. كان الضيق يملأ الوجوه وبدا أن التهذيب هو الشيء الوحيد الذي يمنعهم من توجيه السباب إلى هذه (المصيبة) المسماة (هيلين)، والقادرة على إفساد كرنفال كامل من كرنفالات (أمريكا الجنوبيّة) بكل هذا الذعر الهستيري.
وفي أسف وقف (جون) و(سارة) يرمقان السيارة وهي تتحرك ببطء فوق الثلوج.. بداخلها (أندرو) خلف عجلة القيادة و(هيلين) جواره ترمق الجليد خارج النافذة، ولا تنبس ببنت شفة..
رفع (أندرو) ذراعه مودعًا.. فصاح (جون):
- «الليلة يا (أندي)!»
- «الليلة..»
- «لا تتأخر كثيرًا.. وابق حيًّا.. وإلا متنا متجمدين هنا!»
- «ادع الله أن أتذكركم..»
وغابت السيارة وراء منحدر الثلوج..

* * *

ومن بعيد يتبدى الجسر لهما..
جذب (أندرو) ذراع السرعات، فأوقف السيارة.. ثم فتح الباب.. وترجل ليتفقد الجسر كدأبه.. دنا منه.. وانحنى يتفحّص الأخشاب..

بعد هنيهة رأته (هيلين) يعود إلى السيارة، ونظرة جادة ترتسم خلف عويناته المنهكة..
قال لها دون أن ينظر إليها:
- «(هيلين).. أريد منك أن ترى هذا معي..»
نزلت من السيارة.. ومشت وراءه بحذر فوق الجليد.. بخار الماء يخرج من فيها كبالونات الكلام في القصص المصورة.. وكانت تلهث...
أخيرا ترى ما كان يعنيه...
كانت أخشاب الجسر مهشمة في مواضع عديدة.. بعضها لم يعد له وجود.. وبعضها تدلى ما بقي منه متعلقًا بجانب الجسر الفولاذي...
نظرت له غير قادرة على استيعاب ما يعنيه هذا:
- «من فعل ذلك؟»
- «بالتأكيد ليست أمي العجوز..»
- «ولـ.. لكنّ.. هذا يعني.....»
قال وهو ينهض من على ركبتيه:
- «نعم.. يعني أننا صرنا سجيني هذا الكوخ..!»
كانت عبارته الأخيرة مكتوبة في بالون كبير يوشك على الرحيل إلى بعيد.. إلى الغيوم.....

* * *

٧ - وكانت البداية..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه....

* * *

لنا الآن أن نتخيل الموقف كالآتي:

(هيلين) صعدت وثبًا إلى غرفتها دون أن تنطق كلمة واحدة، حيث ارتمت على الفراش بثيابها.. منبطحة على بطنها، راحت تدون كل الأحداث الأخيرة في مفكرتها التي هي بين أصابعي الآن.. بخط عجول يفتقر للنظام..

وياله من خط..!...

كل حرف فيه يضج بالهستيريا والهلع وخشية الغد.

(أندرو) في الطابق الأسفل يجلس على الأرض أمام المدفأة محاولًا شرح ما حدث للزوجين غير الفاهمين..

في غباء يصغي (جون) و(سارة) لخلاصة الموقف.. لقد تهدم الجسر - صلتهم الوحيدة بالعالم الخارجي. والفاعل مجهول.. لكنه - حتمًا - ليس الريح ولا الذئاب..

- «ومن يفعل شيئًا كهذا؟»

- «لا أدري...».

- «ظننت المنطقة معزولة حقًّا..»

- «هي كذلك للأسف..»

- «والحل؟.. لن نموت جوعًا هنا بهذه البساطة»

- «موت؟»

هتف (أندرو) بهذه الكلمة في شيء من الاستخفاف.. ثم ضحك ضحكة عصبية:

- «من تحدث عن الموت؟.. كل ما علينا هو عبور المستنقعات راجلين.. وسنجد القرية في الجانب الآخر!».

نظر له (جون) في غباء:

- «قلت: إن المستنقعات خطرة..»

- «لمن يجهلها نعم.. أمّا أنا فأعرف كل شبر فيها.. ولن نحتاج إلا إلى أربع ساعات أوست..».

تأمل (جون) النار المتراقصة شارد الذهن لبضع دقائق.. ثم قال وهو يشعل لفافة تبغ برغم كونه غير مدخن:



كانت أخشاب الجسر مهشمة فى مواضع عديدة ..

- «هذا لا يروق لي يا (أندرو).. أرى أن الحكمة تقضي بأن يحاول أحدنا ـ أو جميعنا - عبور الجسر على الأقدام.. ربما كان هذا عسيرًا.. لكنه ليس مستحيلًا مع استعمال الحبال.. وحين نصل إلى الجانب الآخر نقطع مسافة طويلة. لكنّها آمنة - حتى نصل إلى مكان مأهول..».

- «سخف!» ـ قال (أندرو) محنقًا - «لماذا نلجأ إلى المخاطرة مادام لدينا حل سهل تنعدم فيه درجة المخاطرة إلى صفر؟.. ثق بأنني أعرف ما أقول..»

هنا تدخلت (سارة):

- «على كل حال.. نحن لن نقدم على شيء الآن.. لن نتحرك إلا في ضوء النهار.. فلماذا لا نترك النقاش الآن ونحتفل معًا بالكريسماس كما أزمعنا؟»

- «يا له من احتفال!».

الواقع أن عقدة عتيقة بدأت تتحرك في نفس (جون) كي تسلبه الراحة واطمئنان البال.. عقدة الحصار.. وهي نوع من أنواع عقدة الأماكن المغلقة التي - كالعادة ـ يسميها الأطباء النفسيون اسمًا لاتينيًا متحذلقًا (كلوستروفوبيا).. لهذا ـ يمكننا الفهم - لم يكن (جون) يشعر بأي نوع من الارتياح وإن لم يصرح بهذا...

* * *

الآن يبدأ الاحتفال...

غريب هو الإنسان.. برغم هذا الجو الثقيل من الخطر الجاثم على الأنفاس؛ فإن النسيان بدأ يعابث النفوس.. وشيئًا فشيئًا بدأ جو من المرح...

كانت (هيلين) جالسة معهم؛ فقد صعدت لها (سارة) وأصرت على أن تشاركهم الاحتفال...

وجلست هذه الأولى واجمة ساهمة كأنها تشارك في مأتم صديق عزيز...

إلا أنها بدأت تبتسم أحيانًا.. ثم تبتسم كثيرًا.. فتضحك.. فتقهقه..

وبدأ الغناء الجماعي بطيئًا مترددًا.. ثم ازداد علوًا.. وازداد مرحًا..، وتدخلت الكؤوس التي جرعوها لتجعل كل ملحوظة سخيفة تبدو مضحكة جدًا إلى حد ذرف الدموع من العيون.

ودق (جون) على المائدة ليصاحب الإيقاع.. والواقع أنهم قد عملوا كل ما بوسعهم كي ينسوا عزلتهم الرهيبة.. والمستنقعات الجاثمة ككابوس ثقيل على بعد أمتار من مجلسهم هذا..

وفي منتصف الليل لثم كل زوج زوجته وتمنى لها عامًا جديدًا سعيدًا.. صادقًا أو غير صادق..

وهنا نهض (أندرو) ليقف كأنما يؤدي دورًا في مسرحيّة، وصاح بلسان ملتو قليلًا:

- «والآن.. فلنؤد التحية له..»

- «التحية لمن؟»

نظر للسقف.. وهتف:

- «لسيد هذه المستنقعات.. الذي نحن في ضيافته الآن.. والذي ينتظر طوال الوقت..»

ودون سابق إنذار راح يهتف بصوت جهوري:

- «أرتميس - كاسيس ـ هرملاكايوس - بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس!».

تبادل (جون) وزوجته نظرة ساخرة.. ما الذي يقوله هذا الأحمق؟ وانفجرا يضحكان..

- «(أندرو) يا عزيزي.. هل أصابك الخبال أخيرًا؟ أم تقمصتك روح عراف إغريقي؟»
لكنّ (هيلين) - التي لا يخفى عليك أنها قد أفرطت في الشراب - لم تحب كثيرًا ما تسمع.. وبدا لها مألوفًا إلى حدٍ ما...
هنا كان (أندرو) مازال يردد:
- «أشيوست ديمترا - إرسادوك»..
قالها وهو يدور بجذعه في الاتجاه الذي يفترض أن القمر بازغ فيه..
صاحت (هيلين) واهنة الأعصاب:
- «امـ.. امنعوه.. إنّه ي.. يناديه..».
- «ينادي من؟».
لم تستطع مواصلة الكلام، وراحت تضحك تلك الضحكة السخيفة الثملة.. ثم توسدت ذراعيها وغرقت في نعاس طويل عميق..
على حين واصل (أندرو) الكلام:
- «إينياس!..».
ووقف لحظة يتشمم الهواء.. ثم جلس منهكًا كأنما فرغ من جهد طويل مضن.. وبيد مرتجفة جرع بعض الشراب..
بعد ثانية تعالى صوت التصفيق من كفي الزوجين..
وابتسم (جون) قائلًا في مرح:
- «لقد راق لي كل هذا.. هل هو جزء من مسرحيّة لـ (سوفوكليس)؟».
- «لم تكن هذه لغة يونانية..»..
- «إذن ما هي؟».
- «لا أدري.. ربما هي لغة (السلت) القديمة..»
- «وماذا تعني؟»
- «ربما هي نوع من التحية لسيد المستنقع.. إنها تضفي إثارة غامضة على الجو.. ألا ترى هذا معي؟».
- «.....!»
وهنا تصلبت (سارة) واتسعت عيناها..
إن النساء - بطبعهن - قاتلات قصص محترفات، وهن بهذه الحركات الهستيريّة المفاجئة من نوع (أنصت!) يجدن تشتيت أية محادثة مهما كانت أهميتها..
ماذا سمعت إذن يا أخت (سارة)؟
- «خيل إليّ أنني سمعت صوتًا من ناحية المستنقعات!»
- «هذا محض خيال..»
- «عجبًا... أوشكت أن أقسم على هذا..»

* * *

حينما تثاءب الجميع بدا واضحًا أن نهاية الأمسية قد جاءت..
وكان على (أندرو) أن يحمل زوجته حملًا إلى الفراش في الطابق الثاني، لأن المسكينة بدت كأنما لا توجد عظمة واحدة متصلة مع أخرى في جسدها..
قبل أن يغلق باب الغرفة تمنى للزوجين (ستوكلي) ليلة هادئة، وعاما جديدًا سعيدًا..

* * *

غرق (جون) في نعاس عميق جوار (سارة)..
لكن - كما نتوقع - ظل ذلك الجزء الذي لا يهمد ولا ينام في عقله يعمل طوال الوقت..
كان هذا الشيء يحلل ويفند ويستخلص النتائج..
(إكليبوس) - التعويذة - الصندوق - قرعات على الباب - الجسد المحطم - المستنقعات - هناك من دخل الكوخ.
ثم الحقيبة في المخزن.. وفتاة اسمها (ساندرا)..
لكن لحظة.. الفتاة لا تترك حقيبتها أبدًا للذكرى وبها بطاقة هويتها.. كيف لم يخطر له هذا؟.. أي غباء؟..
لا تترك الفتاة حقيبتها أبدًا إلا للص حقائب.. أو فرارًا من خطر داهم...
وبالطبع..
تترك الفتاة حقيبتها في المكان الذي تموت فيه!..
.....

* * *

٨- لعبة الأهوال..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه.. ولا أتمنى أن أراه...

* * *

وحينما نزل (جون) إلى الطابق السفلى في الصباح؛ وجد أن (هيلين) هناك.. كانت قد استيقظت مبكرًا وجلست تدون بعض الكلمات في مفكرتها..

أثار دهشته أنها أفاقت بهذه السهولة من إعياء الأمس.

كما أثار دهشته أنه فعل نفس الشيء..، وتأمل وجهها..

كان شعرها منتثرًا والإرهاق محفورا على ملامحها.. وثمّة انتفاخان تحت عينيها..

- «أين (أندرو)؟.. أ.. صباح الخير أولًا».

- «صباح الخير.. مازال غافيًا..»

- «(سارة) كذلك..»

كان أمامها وعاء كبير يتصاعد البخار منه وقدح.. ولم يكن في حاجة لسؤالها عما يحويه الوعاء.. فالقهوة تنادي من يطلبونها دون كلمات.. وهو كان يعرف أنها الأمل الوحيد له في البقاء حيًا مع كل هذا الصداع.. مد يده وصب بعضها لنفسه وجرع جرعات متلاحقة..

كانت (هيلين) تمسك القلم بيدها اليمنى، بينما لفافة التبغ تلفظ آخر أنفاسها في يدها اليسرى، وقد أوشكت أن تحرق أصابعها.. وتناثر الرماد على المنضدة وفوق ثياب (هيلين).. فمد يده وانتزعها ورماها بعيدًا..

تبادلا النظرات دون كلمات لدقائق.. لكنه لم يفهم قط ما تعنيه بهذه النظرات.. ماذا تريد قوله؟..

بعد هنيهة غمغمت...

- «(جون).. أنا خائفة!»

- «أنا كذلك..»

ثم أردف وهو يرمقها في ثبات..

- «إن زوجك ليس على ما يرام..»

- «هذا هو بيت القصيد..»

وفي اللحظات التالية تبادل الاثنان خبراتهما.. حكى لها عن كتاب (إكليبوس) وعن (ساندرا) والطرقات الليلية..

وحكت له عن كتاب (الكلمات) والخروج الليلي غير المبرر لـ (أندرو).. والشيكولاتة التي يزعم أنه وجدها خطأ..

وعن.. وعن..
بعد دقائق سألها (جون) وهو يصب المزيد من القهوة:
- «ما الذي نستخلصه من كل هذا؟»
- «لا أدري...»
- «إن زوجك - أكررها - ليس على ما يرام.. إما أنه يعبث بنا بغرض إثارة الرعب السادي الأبله في نفوسنا (وأنا أعترف أنه نجح في ذلك كثيرًا).. وإما هو فعلًا يستخدمنا في إحياء تعويذة سحرية عتيقة!»
- «ولماذا الآن بالذات؟»
- «من يدري؟ كان هناك من سبقنا إلى هذا في هذا الكوخ بالتأكيد.. هل نسيت (ساندرا)؟ (ساندرا) هذه إما حية ترزق الآن (لكنّها ترتجف هلعًا).. وإما هي ميتة.. ميتة.. وهذه المستنقعات تسمح بكل شيء..».
حاولت سد فمه بيدها كي لا يتكلم أكثر..
- «(جون).. رحماك لا تثر هلعي..»
- «إن ما أعنيه من كل هذا هو أننا يجب أن نعود إلى ديارنا.. الآن.. وبالتأكيد عن طريق الجسر.. سيكون هذا عسيرًا لكنه ليس مستحيلًا..».
- «لن يقبل (أندرو)..»
- «يجب أن يفعل.. وإلا فنحن ثلاثة ضدّ واحد..»
إذا كان يحبّ المستنقعات فليقطعها وحيدًا..
ونهض في حماس:
- «سأصعد لأستعد أنا و(سارة).. وعليك أن تستعدي أنت بدورك.. سنترك متاعنا هنا فلن نأخذ معنا سوى الحبال.. ومحراكي النار الخاصين بالمدفأة..»
- «ليكن..»

* * *

والتقيا في الطابق الثاني وقد غادر كل منهما حجرته ملهوفا مذعورًا.. فما إن رأى الآخر حتى صاح:
- «(سارة) ليست في الفراش!»
- «و (أندرو) ليس في الفراش!»
- «هل فتشت المكان جيدًا؟»
- «لا توجد مخابئ كثيرة فيما أظن..»
لكنهما راح يفتشان جيدًا.. تفقدا كل ركن وكل موضع. في الكوخ وفتح المخزن وكل باب موصد.. لكنّ لا أثر لـ (سارة) ولا (أندرو)...
فقط حين خرجت (هيلين) من الكوخ رأت حبلًا سميكًا ينزلق من نافذة غرفة (جون) و(سارة) إلى أسفل.. وفي نهايته وجدت عقدة تدلّ على أن شيئًا كان متعلقًا به..

وعلى الجليد ترى آثار أقدام.. قدمين في الواقع لا أكثر..
ولو كان من يرى الأثر هنديًا متمكنًا من فنه لقال: إن صاحب الأثر كان يحمل شيئًا ثقيلًا على كتفه، وربما قال: إنّه يرتدي العوينات..
قال (جون) وهو يتأمل الآثار ويعابث لحيته:
- «الأمر واضح.. هو خطفها..!.. انتهز فرصة جلوسنا نتحدث بالطابق السفلي وربطها إلى جبل أدلى به من نافذة غرفة نومنا.. ثم هبط بدوره على ذات الحبل إلى أسفل.. وحملها مبتعدًا..»
- «وكيف لم تشعر (سارة)؟»
- «من يدري؟.. ربما خنقها أو افقدها الوعي.. وربما هو شيء دسه في شرابها أمس..، وأحسبه نهض من الفراش فلم يجدك.. وهبط في الدرج بحذر ليسمع طرفًا من محادثتنا.. عندئذٍ اتخذ قراره..»
- «ولماذا يفعل ذلك؟»
هزّ كتفيه في عصبية:
- «لا يمكن معرفة منطق المجانين.. وزوجك مجنون بلا شك.. ربما هي ذاهبة لملاقاة مصير (ساندرا).. وربما هو يريد أن يجبرنا على دخول المستنقعات..».
كان يتكلم وهو يمشي عائدًا إلى الكوخ.. ورأته (هيلين) يلف على ذراعه حبلًا.. ويمسك بالسلاح الوحيد المتاح هاهنا: محراك النار..
- «ودعيني أصارحك أنه لو كان يبغى (جر رجلنا) إلى المستنقع فقد نجح!.. أنا ذاهب إلى هناك!..».
ومد يده فتناول سكينًا كبيرًا من على المنضدة دسه في نطاقه.. وقال:
- «(هيلين).. ستغفرين لي ذبح زوجك العزيز أليس كذلك؟.. إننا جميعًا نرتكب حماقات..»
- «هـ.. هل.. ستـ.. تفعل ذلك؟»
- «لو كان قد آذى شعرة واحدة من رأسها.. والآن هل تؤثرين البقاء أم الذهاب معي؟»
تبقى في هذا الجحيم؟ ما أسخف السخف!
- «حتمًا سأذهب معك!»

* * *

في الخارج يتصاعد بخار الماء من الأفواه - من جديد - كبالونات الكلام في القصص المصورة..
تلهث (هيلين) وهي تنقل قدميها فوق الجليد الزلق على الأرض، وقد دست يديها في سترتها الجلدية المبطنة بالفراء.. ويدها اليسرى تعتصر مفكرتها في عصبية.. لقد صممت على أن تواكب الأحداث بدقة تامة كتابة..
اليوم هو أول أيام العام ١٩٦٨..
كيف نسيت ذلك؟.. لقد جرفتها الأحداث في تيارها، لكنّ العام الوليد يبتدئ بداية غير مشجعة..

وأمامها يمشي (جون) فاردًا قامته الفارعة (إذن قامته فارعة) وشعره الأشقر يتطاير في الهواء البارد.
ومن بعيد تنتظر المستنقعات..

* * *

اللعنة!.. إنها الرابعة بعد منتصف الليل يا رفاق! لم يذكرني أحدكم أن أخذ جرعة المضاد الحيوي في الثالثة كما طلبت منكم مرارًا.. يا لكم من قساة!..
لحظة حتى أملأ كوب الماء.. ها هي ذي (الكبسولة).. لماذا يسمون المضادات الحيوية هذه الأيام بهذه الأسماء العجيبة التي لا تعيها الذاكرة؟ في شبابي لم يكن هناك سوى (السلفا) و(البنسلين) و(الكلورامفنيكول).. و.. جلوب جلوب!..
بالشفاء يا (رفعت) يا أظرف شيوخ الأرض وأذكاهم..
والآن نواصل السرد.. فقط ذكروني أن الجرعة التالية هي في التاسعة صباحًا.. لن أسامحكم لو نسيتم.

* * *

أين كنا؟..
آه!.. (جون) و(هيلين) قد وصلا إلى المستنقعات..
تقول (هيلين) في عبارات مقتضبة: إن المستنقعات كانت كئيبة المنظر.. ممتدة إلى ما لا نهاية في ظل الأشجار العجوز المحيطة بها، وكانت هناك تجمعات جليدية خادعة تسبح على سطح المياه الآسنة.. مما يجعل محاولة السير أقرب إلى الانتحار..، وإن كانت أبخرة غاز (الميثان) منعقدة فوق المياه مما يدل على أنّ هناك حياة عضوية من نوع ما في هذا المكان الرهيب..
نظر لها (جون) في قلق.. وغمغم:
- «سيكون هذا عسيرًا..»
وبطرف لسانه الأحمر بلل شفته السفلى (إذن نحن نعلم أن لسانه أحمر).. وأردف:
- «تمشين خلفي إذن.. سأتحسس كل موطئ قدم بمحراك المدفأة.. واحرصي على عدم الانزلاق..»
- «وإذا جاء الليل؟»
غمغم في نفاد صبر:
- «سنعود.. ونكرر البحث غدًا...»
- «لكننا سنضل الطريق هنا.. إنها مصيدة حقيقيّة!»
أعاد تثبيت القفاز على كفه.. وقال في عصبية:
- «حقًّا لم أعد أعرف ما ينبغي وما لا ينبغي.. بمقدورك العودة لو أردت..»
- «هذا لن يكون..»

- «إذن.. الصمت الصمت!»

* * *

واستمرت المسيرة الحذرة فوق الأراضي الصلبة التي تفصل بين شبكة المستنقعات وبعضها..
إن الرؤية متعذرة على بعد عشرة أمتار بسبب البخار اللعين الذي يملأ المكان.. بخار أو ضباب لا يهم.
المهم أنه رديء..
وفجأة تصلب (جون)..
انحنى على الأرض والتقط شيئًا ما..
كان هذا الشيء كراسًا تلوث بالوحل والبلل.. لكنّ عنوانه ظل قابلًا للقراءة..
كان عنوانه هو (الكلمات)..

* * *

٩ - أسطورة رعب المستنقعات..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه ولا أتمنى أن أراه..، لكنه ملوث بالأوحال..

* * *

- «إذن مرّ (أندرو) هنا.. لكني لا أرى آثار قدميه..».

قالها (جون) وهو يتفحّص الجليد بعناية...

وبلمح البصر نظر إلى غصون الشجرة فوق رأسيهما.. لقد خطر له أنّ هذا قد يكون كمينًا من (أندرو).. لكنّ المذكور لم يكن هناك.. فأطلق (جون) زفرة..

قالت له (هيلين) متوسلة..

- «أريد الجلوس.. خمس دقائق لا أكثر..».

- «ليكن.. ما دمنا في الطريق الصحيح..».

جلست مريحة ظهرها إلى جذع الشجرة، وأشعلت لفافة تبغ.. ثم أخرجت مفكرتها وراحت تدون الأحداث الأخيرة بسرعة هستيرية..، قال في تهكم:

- «لم أر قبطان سفينة حريصًا كل هذا الحرص على تدوين مذكراته..»

كانت تضم فخذيها إلى صدرها حيث جلست، متخذة من ركبتيها منضدة تدون عليها.. ولم تصغ جيدًا إلى ما قال إلا حين فرغت من الكتابة..

عاد يسألها:

- «ما كل هذا الحرص على تدوين المذكرات؟»

- «لا أدري.. ربما هي رسالة أريد تركها لمن يجد جثتينا!».

- «أمّا هذا فلا.. إن المفكرة ستضيع للأبد في المستنقع ولن يجدها أحد..».

وانتظر أن تقول شيئًا.. لكنّها ظلت شاردة.. ثم غمغمت وهي تتأمل حلقات الدخان...

- «لماذا تغير هكذا؟»

- «من؟»

- «(أندرو) طبعًا..»

قال لها وهو يمد ساقيه أمامه...

- «الأمر واحد من اثنين.. إما أنه مريض نفسيًا تفاقم مرضه لسبب لا أدريه، وإما أنه ضحية نوع من الاستحواذ الشيطاني.. وهو شيء لا أستبعده وسط كل هذه التعاويذ واللعنات والسحر القديم..».

ثم نظر لها في تركيز.. وأضاف:



وفجأة تصلب (جون) . .

انحنى على الأرض والتقط شيئًا ما . .

- «لن يكون هناك فارق كبير في حالتنا هذه.. فأنا حين أقتل كلبًا هائجًا لا أهتم كثيرًا بمعرفة هل هو مسعور أم غاضب فقط..»

وأردف وهو ينهض:

- «والآن.. هيا بنا.. قبل أن تدمن مفاصلنا الراحة أو تتحول إلى لوحي تلج حيث نحن..»

معًا واصلا السير بين المستنقعات..

لا صوت هناك سوى صوت لهاثهما.. وخطواتهما المتعبة المتعثرة فوق الجليد الهش...

فجأة يتصلب جسد (هيلين) وتمسك بذراع (جون) في عصبية.. وتشير إلى المستنقع..

على الماء المتجمد يرى (جون) طرفًا من ثوب.. ثوب يعرفه جيدًا لأن (سارة) كانت نائمة به أمس!

- «يا للسماء!»

صرخ في هستيريا، واندفع نحو المستنقع..

لكن (هيلين) ظلت متشبثة بذراعه.. وهتفت مجدرة:

- «حذار يا (جون.)!.. ستهوي هناك..»

كان يعرف جيدًا أن السقوط في هذا المستنقع يعني النهاية، لأن الأوحال تنزلق تحت قدميك إلى ما لا نهاية، وتغدو محاولة الوقوف فيها مستحيلة..

إن للأوحال قوة تفريغ غير عادية، حتى لتشعر أن وحشًا عملاقًا يبتلعك إلى أحشائه.. ومهما تشبثت فلا جدوى..

حقًا يعرف كل هذا لكنّ ما العمل؟

هل يترك زوجته ـ أو جثتها ـ عائمة هكذا وسط الأوحال؟

أضف لهذا أن (سارة) شابة وهو لم يملها بعد.. يعني هذا أن فقدها مازال يمثل خسارة له..

وقف يحاول مد محراك المدفأة إلى أقصى امتداد له.. حتى تمكّن من لفّ طرف الثوب حول طرفه.. ثم راح يحاول جذب الثوب نحوهما..

كان الثوب خاليًا.. لا يدري أهذا من حسن حظه أم سوئه؟

لو كانت (سارة) بداخله لكانت جثة هامدة.. لكنّ معنى أنها خارجه هو أن شيئًا ما حدث لها..

قالت (هيلين) في توتر:

- «على الأقل هي مازالت حـ....»

صفعة هائلة انهالت على خدها.. فتجمدت الدموع على عينيها ولم تجد الكلمات لتتساءل عن السبب..

قال لها (جون) وعلى وجهه تعبير وحشي:

- «لو أنّ مكروهًا أصاب زوجتي فلسوف أفعل ما هو أسوأ من ذلك لزوجة (أندرو).. هل تفهمين ما أعنيه؟!»

لم ترد لأنهّا ظلت واقفة تداري وجهها..

حتى أنت يا (جون) صرت خطرًا داهمًا.. يا لك من أحمق!.. تحسب أن (أندرو) يهتم لحظة لو وجد جثتي مشنوقة في شجرة أو ممزقة إربًا.. إن الأمر لا يعنيه أبدًا..

دقائق عسيرة مرّت بهما، ثم قال (جون) بصوت مبحوح:

- «اغفري لي.. ما كنت أتحدث إلا كذبًا.. لقد فقدت التحكم في أعصابي تمامًا..»

ابتسمت بركن فمها الأيسر قائلة:
- «أوه.. أنا مثلك.. فلننس الماضي..»
لكنّها كانت تعرف أنها لن تنسى..
من الذي ابتكر الصفع؟ من العبقري الذي عرف أن مركز الكرامة يقع تشريحيًا تحت الخد؟ بحيث تشكل الصفعة ضربة مركزة إلى كرامة المرء؟
وتمنت أن تركله في مؤخرته لتشفي غليلها.. لكنّها لم تجرؤ على ذلك قط..، الموقف لا يسمح بالانتقام...
ومعًا يواصلان السير بين المستنقعات اللعينة..
لاهثًا قال (جون) وهو يتحسس مواطئ قدميه:
- «أعتقد أنني كونت فكرة جيدة عما ينتويه زوجك.. إن الرجل يؤمن بـ (إكليبوس) شيطان المستنقعات مثله مثل كل شيء آخر اعتقد (السلت) به وصدقه زوجك..، وكما قال لي: فإن القوة المطلقة تنبع من غمر الضحايا في المستنقع من أجل (إكليبوس).. وأحسب (أندرو) قد مارس هذا الطقس شبه الديني مرارًا.. والفتاة (ساندرا) هي دليل على أنّ هناك آخرين.. استدرجهم (أندرو) إلى المستنقعات وغمرهم فيها، لابد أنّ هناك نداء معينًا يخبر (إكليبوس) أن العشاء معد.. وأعتقد أنّ هذا هو سر العبارات الغامضة التي رددها البارحة فلم نفهمها..».
وبلل شفتيه بلسانه وأردف:
- «يبدو أن القرابين الفردية لم تكن مجدية.. هنا فكر (أندرو) في تضحية جماعية (دسمة) تتكون من زوجين وزوجته هو نفسه الخاصّة.. أعتقد إذن أنه تخلص من ـ أو ينوى التخلص من - (سارة).. وبعدها يجيء دورك فدوري.. هذا سهل وهين عليه.. فهو يجيد قواعد اللعبة.. نحن نعبث هاهنا وفقًا لشروطه وعلى أرضه..».
- «وعندئذٍ يتحرك (إكليبوس) هذا؟»
- «لا أعتقد في وجود (إكليبوس) لحظة.. إن (إكليبوس) هذا لا يمثل سوى نفسية زوجك المعقدة.. فقط في عقل (أندرو) توجد مستنقعات متشابكة يسيطر عليها مسخ جائع يطلب القرابين..»
هنا توقفت (هيلين) وللمرة الأولى لاحظت..
سألها وقد لاحظ أنها لم تعد تتبعه..
- «هل حدث شيء ما؟»
قالت بصوت متحشرج:
- «لقد زحف الليل..!»

* * *

ويمر الوقت..
ومع مروره تزداد صلابة وعناد هذا العدو الحاقد: الظلام.. إنّه لا يتعب ولا يترك ركنًا في المستنقعات إلا ويرمي عليه عباءته الزرقاء السميكة..

بعد دقائق ستتحول العباءة إلى اللون الأسود، وستصير الرؤية متعذرة... بل مستحيلة..

- «فلنرجع يا (جون)..»

- «لم يحن الوقت بعد يا صغيرة..»

- «إننا ننتحر.. ولا توجد مبررات كافية..»

كان يحتفظ في جيبه بكشاف صغير، أخرجه.. وأضاءه.. إضاءة لا بأس بها لكنّها غير كافية كمًا ولا كيفًا.. وهو أحمق إذا ظن لحظة أنه قادر على مسح المستنقعات بهذا الضوء الذي لا يكفي لفحص لوزتي طفل..

- «فلنعد يا (جون) أرجوك..»

- «إذا شئت تستطيعين العودة..!»

نظرت وراءها.. إلى كل هذا الظلام الرابض ككابوس تحت غصون الأشجار.. إلى كل الأميال التي اجتازاها منذ الصباح.. وأدركت أنها لن تعود أبدًا..

قشعريرة باردة سرت عبر عمودها الفقري.. على الأقل مع (جون) هي لا تعرف كيف ولا متى ستموت.. أمّا وحدها فهي تعرف أنها ستموت غرقًا في المستنقع بعد خمس دقائق، أو. هلعًا بعد ساعة..

.وواصلا المسير.....

كانت الخطوات قادمة على بعد عشرة أمتار..

سمعتها وسمعها (جون) في اللحظة ذاتها..

* * *

نظر لها نظرة ذات معنى، وإلى فمه رفع سبابته يأمرها بأن تصمت.. وأطفأ الكشاف ووضعه على الأرض الجليدية..

وعلى الأرض جلسا يترقبان..

كان المستنقع هادئًا بمنظره الخادع، يمتد إلى مسافة عشرين مترًا لو أنّ حاسة المسافات عندها صادقة..

وبرغم الظلام كان هناك ضوء فوسفوري خافت يغلف المكان.. هي ظاهرة طبيعية قرأت عنها ثم نسيت كل شيء.. التخمر أو الكهرباء الاستاتيكية لا تذكر بالضبط.. يومًا بعد يوم تدرك أنها لم تحتفظ بشيء مما تعلمته طوال حياتها سوى القراءة والكتابة..

لسوف تراجع هذا كله فيما بعد.. فيما بعد..

أما الآن فهي ترى من يمشي على الناحية الأخرى من المستنقع!

وتنظر إلى (جون) فتراه يرمق المشهد في انبهار.

برغم الظلام يمكنها أن تتبين حدود هذا الشيء أو الشخص الذي يمشي هناك في ثقة، كأنما التعثر في الأوحال أمر مستحيل الحدوث..

الشعر المنسدل على الظهر.. هذا القوام..

إنها (سارة)! من غيرها؟

* * *

١٠ - الفصل الختامي..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا.. بعد ما انتظر قرونًا.. إنني لا أرى وجهه ولا أتمنى أن أراه.. لكنه ملوث بالأوحال وله رائحة الموت ذاته..

* * *

صرخ (جون) في هستيريا:
- «(سارة)!»
ووثب على قدميه جاريًا نحو الفتاة..
لكن (هيلين) جذبته من ذراعه في حزم.. وهمست:
- «(جون).. لا تكن أحمق.. ستسقط في الأوحال»
قال بحماس مجنون:
- «لكنّها مازالت حية.. حية!»
همست من جديد في حزم:
- «لا أدري.. إن شيئًا معينًا في مظهرها لا يريحني.. هذه المشية المتصلبة و..... ثم لماذا لم ترد على ندائك؟»
- «ألم تفهمي بعد؟.. إنها مصدومة عصبيًا.. لقد أفزعها الوغد حتى الموت..»
- «(جون).. أنا لست مستريـ....»
لكنه كان قد انفلت من يدها، وركض نحو الفتاة..

* * *

للأسف توجد على هذه الصفحة بقعة كبيرة أزالت أكثر ما عليها من كتابة.. وهو عيب متكرر في المفكرة كلها..
لهذا من المتعذر على أن أعرف يقينًا وصف (هيلين) لما حدث بعد محاولة (جون) الخرقاء..
لكن يمكننا أن نؤكد ـ دون خطأ كبير - أن (جون) لقي حتفه أمام عيني (هيلين) المذعورتين..
كما يمكننا أن نؤكد أنه هلك غرقًا في المستنقع.. حين عبره في الظلام متخليًا عن حذره..
أما عن (سارة) وما فعلته بعدها، وأين ذهبت؟ فكل هذه أسئلة تستحيل الإجابة عنها..

* * *

يمكنني فقط أن أتخيّل الذعر الذي أصاب (هيلين).
بالتأكيد لم تحاول مد يد المساعدة لـ (جون) لأنهّا تعرف أنه سيجذبها معه إلى المستنقع، ولن يتخلى عنها أبدًا.. هكذا يفعل الغرقى في كل مكان وزمان..
بالتأكيد تناولت الكشاف الذي تركه على الأرض.. وهرعت تغادر المكان مولولة مرتجفة..
لا ألومها كثيرًا في الواقع وهي حبيسة المستنقعات المظلمة.. لا تملك الفرصة للتقدم ولا للتراجع.. ولا تعرف حتى كيف تعود لو كان الوقت نهارًا..
لقد هلك الرجل.. وكم كان مفيدًا لها.. هذه هي فائدة الرجال الوحيدة.. أنهم أقوى وأنّهم يستطيعون الشجار لفترة تسمح للنساء بالفرار...
والأدهى أنها تعلم جيدًا أن (أندرو) - الذي جن تمامًا - يمسح المستنقعات الآن بحثًا عنها.. ولسوف يجدها... حتمًا سيفعل..

* * *

لابد أنها جلست تحت الشجرة..
وعلى ضوء الكشاف الواهن، وبخط لا يكاد يُقرأ.. شرعت تدون الأحداث الأخيرة بسرعة وعصبية..
كانت هذه المرّة تدرك يقينًا أن النهاية دانية، وكانت بحاجة لترك شيء للعالم.. كي يعرف من يجدون جثتها ما حدث حقًّا..
لو كان الوقت صيفًا لقضت ليلتها حيث هي، وحاولت العودة في نور الصباح..
لكن هذا الزمهرير.. إن البقاء بلا حراك فيه لا يعني سوى الموت.. الموت حيث هي متحولة إلى تمثال ثلجي..
وهكذا عادت تتحسس طريقها..

* * *

كانت تتحسس طريقها..
ترمق الأرض الجليدية في تركيز غير عادي..
حين شعرت بذراع تتجه في عنف نحو وجهها..

* * *

يومًا ما قال لها (أندرو) في لحظة صفاء:
- «لقد عشت كثيرًا من الرعب في طفولتي.. وتمنيت أكثر من مرة أن أكبر بسرعة لأرعب الآخرين..»
قالت ضاحكة:

- «ظننتك تمنيت أن تكون مهندسًا.. أمّا عن رغبتك في أن تصير مرعبًا فهو ـ لعمري ـ طموح مبالغ فيه!..»
- «أنا أحب أن أخيف وأخاف..»
- «وأنا تزوجت هذا المخبول؟»
قال وهو يلثم أناملها:
- «المخبولون يعرفون كيف يحبون بصدق..»

* * *

ولم يكن الذراع سوى غصن شجرة أكثر انخفاضًا من المعتاد...
أجفلت وتراجعت للوراء.. ثم رفعت عينيها..
عندئذ لم تصدق ما تراه..
كان الكوخ ينتظرها على بعد أمتار معدودة!..

* * *

كيف حدث هذا؟ أية معجزة؟
أغلب الظن أنها دارت حول نفسها في أثناء مسيرتها على غير هدى.. وأنها وجدت طريقًا مختصرًا عاد بها إلى الكوخ..
الكوخ الذي بدا لها كواحة في صحراء جرداء.. كمقعد يقدم لمريض قلب في أثناء صعوده إلى ناطحة سحاب.. كأسير روماني بدين يُلقى إلى أسود طال بها الجوع والطوى..
المهم الآن أن تصل إليه..
المهم ألا تتعثر..
ها هو ذا يقترب..
عشر خطوات وتصل إليه.. وبداخله ينتظر الطعام والدفء والأمن.. أمّا زال هناك أمن في هذا العالم حقًّا؟
خمس خطوات..
الباب مازال مفتوحًا كما تركته في الصباح حين خرجت مع (جون).. كل ما عليها هو أن تدخل وتضغط زر الضوء..
خطوتان.. لقد دنت كثيرًا..
كان ذلك حين شعرت باليد الفولاذية تعتصر ساقها..

* * *

إنها التاسعة صباحًا!..

تصوروا أنني لم أنم بعد بسبب استغراقي في سرد هذه القصة لكم؟!.. كل هذا وأنا مريض، وقد حان وقت تناول كبسولة المضاد الحيوي.. جلوب جلوب!.. أشكركم من جديد على نسيان الموعد.. أنا الذي حرمت النوم على نفسي قبل أن أفرغ من قصتي هذه..

أين كنا؟..

آه... موضوع اليد الفولاذية.. هذا جميل..

* * *

حين فرغت من الصراخ والعويل؛ أمكنها أن تنحني جاثية على ركبتيها لترى ما هنالك..

وعندئذ رأت وجه (أندرو)..!.. زوجها!..

كان راقدًا فوق الجليد.. ووجهه أكثر شحوبًا من وجوه الموتى.. برغم كونها لم ترَ ميتًا في حياتها..

كان مغمض العينين.. لكنّ شفتيه كانتا تهتزان.. تقولان ما لا يمكن سماعه ولا فهمه...

كانت تخافه وتمقته الآن كأنه ثعبان ذو جرس.. لكنه زوجها مهما حدث..

ماذا دهاه؟.. ما الذي ألقى به ضحية واهنة بعد ما حسبته يبحث عنها ليقتلها؟.. من فعل به أي شيء بالضبط؟

على كل حال.. استجمعت قواها وراحت تجذبه إلى داخل الكوخ.. وعلى الأرض أراحت جسده..

أضاءت النور الكهربي.. فأمكنها أن ترى أنه غارق في الأوحال ورقائق الجليد.. يرتجف كورقة..

لم يبد لها مرعبًا إلى الحد الذي تصورته..

وراحت تمسح جبينه بأناملها محاولة إرغامه على فتح عينيه..

وقد كان..

اول ما قاله بصوت مبحوح وهو يرمقها بعينيه الحادتين:
- «(هيـ... هيلين).. أ.. أنت بخـ.. بخير..»
- «هل تأسف لهذا؟»
سعل كما يفعل المحتضرون.. وهمس:
- «سا.. سامحيني..»
- «هل حقًّا فعلت ما أظن أنك فعلته؟»
لم يرد.. فجذبته من ياقة سترته في خشونة جعلته يتأوه... وكررت سؤالها:
- «هل حقًّا فعلت ما أظن أنك فعلته؟»
- «(إكليبوس)!»
قالها بصوت كالفحيح وهو ينظر إلى السقف..
قالت بانفلات أعصاب حقيقي..
- «أنت تخرف! لا يوجد شيء كهذا سوى في عقلك..»
- «ر.. ربما.. لـ.. لكني لـ.. لن أعرف أبـ.. أبدًا!»
- «من فعل بك هذا؟»
سألته وهي تتفحص جسمه.. لم تكن هناك جروح واضحة ولا كسور.. ثم.. رأت ذلك الثقب بين طيات سترته ما بين الضلوع.. هناك من طعنه بجسم مدبب.. شيء يشبه الرمح الرفيع جدًّا..
قال وهو يغمض عينيه من جديد:
- «لقد قتلتني.. ي ي!»
- «من هي؟»
- «(سا.... سا....)»
وفرغت الحياة منه كما تفرغ البطارية في دمية أطفال فتكف عن الحركة والكلام...
وعرفت (هيلين) أن (سارة) حية.. وأنها قد استطاعت أن تدافع عن نفسها.. وأن تقتل قاتلها.....
ولكن أين (سارة) إذن؟
لماذا لم تظهر؟
إن آخر مرة رأتها فيها كانت وهي تعبر المستنقعات..
وكانت مختلفة في كل شيء.. لم ترها ولم تتبين ملامحها لكنّها هي حتمًا.. من غيرها؟

* * *

الثانية بعد منتصف الليل:
ليس كونك أرملة سيئًا إلى هذا الحد.. بل لعلك شاعرة بشيء من الراحة لذلك..
إن (أندرو) الآن جثة هامدة بالطابق السفلى ولن يؤذيك.. وأنت هنا آمنة مطمئنة وقد انتهى الكابوس..
لم يبق لك سوى أن تحاولى العودة فوق أخشاب الجسر مع أول ضوء للنهار..
وبخط مستقر ثابت كتبت (هيلين):



وعندئذ رأت وجه (أندرو) .. زوجها ! ..
كان راقدًا فوق الجليد .. ووجهه أكثر شحوبًا ..

«لا أدري.. لم أتصور في حياتي أن الوحدة يمكن أن تكون مبهجة إلى هذا الحد..، وللمرة الأولى أشعر بالراحة والاطمئنان في هذا الكوخ المقيت..»

«حتى وأنا أشعر بأن باب الكوخ ينفتح ببطء لم أعد أخاف شيئًا لأن القادم لن يكون سوى الريح أو (سارة)..

وحتى وأنا أسمع صو.....

.....

* * *

الخاتمة..

كان الفجر قد بزغ في شقّة (عزت)، وكان النعاس قد بدأ يتسلل إلى جفنيه عندما انتهت آخر أوراق المفكرة..

فأغلقتها.. ووضعتها في جيبي..

- «(عزت)..»

- «هم م م م!»

- «أنا عائد إلى شقتي.. شكرًا على كل شيء..»

حرّك يده بما معناه ألا داعي للشكر لأنّه لم يقم إلا بواجبه تجاه صديق مخبول..

وعدت لشقتى ففتحت الشرفة، واستنشقت هواء الفجر البكر.. هواء له رائحة.. ورائحته لها لون.. لا أدري كيف.. هواء لم يتلوث بعد.. ولم تغيره مصاعب الحياة ومشاقها..

فلم يتعلم الرياء ولا الكذب..

وقبل أن أنام (اليوم الجمعة لحسن الحظ) أعدت التفكير في هذه القصة..

أولًا: واضح أن (هيلين) لم تعش بعد كتابتها السطر الأخير.. وإلا أكملت آخر كلمة..

ثانيًا: من قتلها؟

ثالثًا: من قتل (أندرو)؟

رابعًا: هل (سارة) هي قاتلة (أندرو) و(هيلين)؟!

خامسًا: هل (إكليبوس) حقيقي؟

سادسًا: لماذا لم تستجب (سارة) للنداء عليها؟ ولماذا بدت مختلفة؟

سابعًا: من الذي استنقذ المفكرة؟

وهنا بدأت أتوتر..

تناولت الخطاب المرفق مع المفكرة.. وأعدت قراءته مرارًا فلم أن ما يريب..

الاسم: (س. ب) يشير إلى (سارة).. إذن (سارة) قد عادت إلى الكوخ وأنقذت المفكرة وأرسلتها لي.

وهي قاتلة (أندرو) وربما (هيلين).....

لكن لحظة.....

إن اسم (سارة) بالكامل هو (سارة ستوكلي).. (س. س).. وليس (س. ب)..

فمن هي (س. ب)؟

وبدأ شعر رأسي ينمو توطئة لأن يشيب..

دفنت رأسي في الوسادة وتلوت المعوذتين وآية الكرسي عازمًا أن أنام قبل أن أفكر في أفكار مجنونة..

صحيح أن (سارة) و(ساندرا) اسمان متشابهان.. وصحيح أن (ساندرا) تدعى (ساندرا بيكيت) أي (س.ب).. وصحيح أنها تملك كل الأسباب للانتقام من (أندرو) قاتلها ومن زوجته؛ إلا أنّ تصديق هذا مستحيل..

(أندرو) تحدث عن (العائدين) من المستنقع بعد منتصف الليل.. فهل (ساندرا) منهم؟

لم يكن هناك شيء يدعى (إكليبوس).. ولكن ربما كان هناك ما هو أشنع وأخطر..

يجب أن أنام!.. يجب.....

* * *

سأحاول أن أنسى هذه القصة وأعدم المفكرة اللعينة الملوثة بالأوحال.. ولكني قلق على (عزت) الذي تلا هذه المقاطع بصوت عالٍ..... ماذا سيحدث له؟

ومحاولًا النسيان أحكي لكم في المرّة القادمة قصة مسلية بلا رعب على الإطلاق..... مجرد مغامرة في أغوار النفس البشريّة..

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
١ -خطاب جديد..
٢ -الكوخ..
٣ -أحدهم كان هنا..
٤ -حكايات مشئومة..
٥ ـ عن (إكليبوس)..
٦ -مصيدة عيد الميلاد..
٧ -وكانت البداية..
٨-لعبة الأهوال..
٩ -أسطورة رعب المستنقعات..
١٠ -الفصل الختامي..
الخاتمة..

روايات
مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة رعب المستنقعات

الظلام والبرد والمستنقعات غير المتناهية .. أنت هناك .. لكن شيئًا آخر لا تدري كنهه يطاردك .. شيئًا تخشاه أكثر من المستنقعات والظلام .. ولهذا ستركض .. لن تكف عن الركض ..، ولن تدير رأسك للوراء .. لأنك لو فعلت ستراه ....!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة إيجور

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

قصة رعب خالدة، سلبت الكثيرين القدرة على النوم في أوائل هذا القرن.

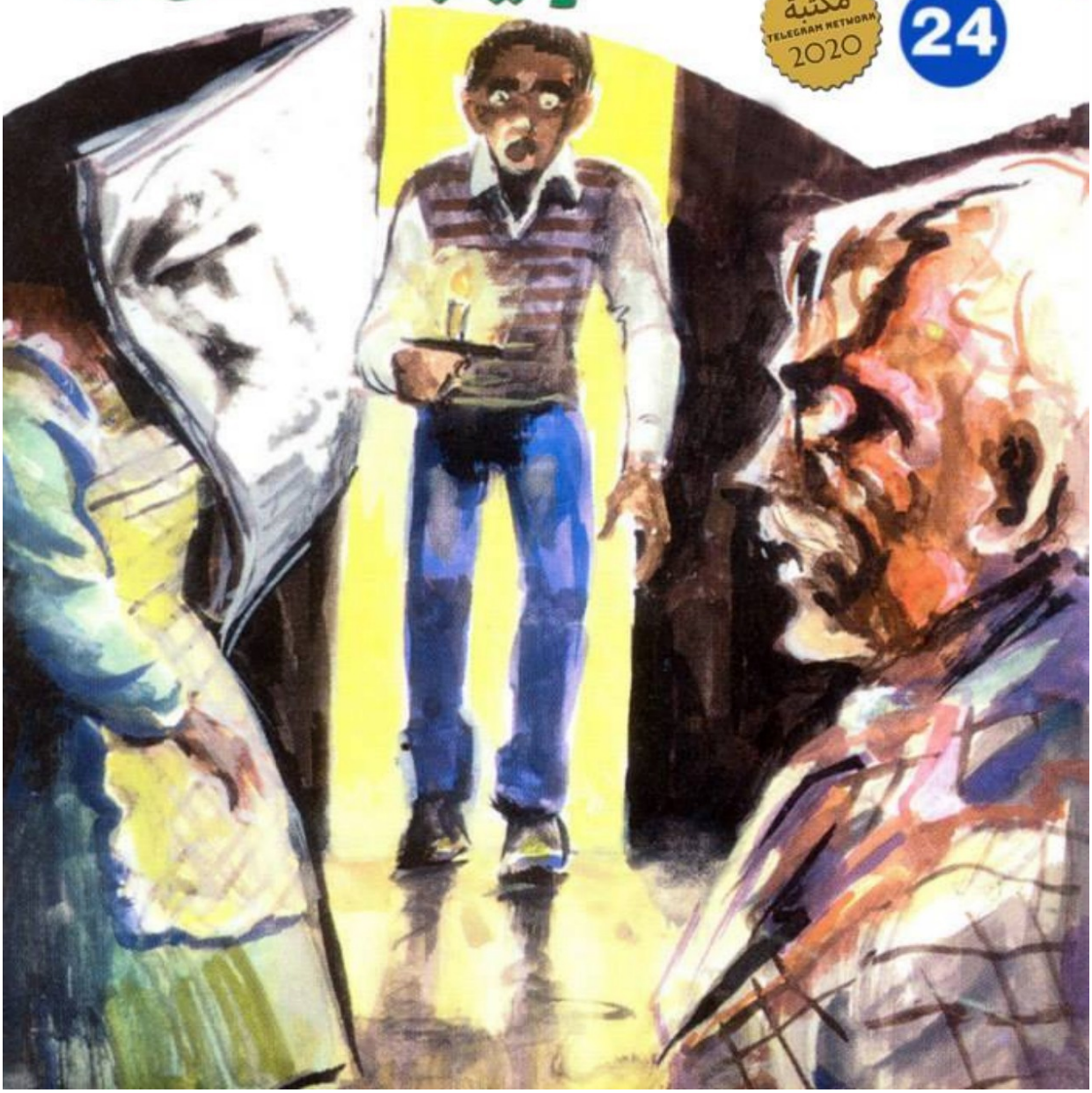
روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة إيجور

24

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

بالأمس قابلت د. (سامي)..

هل تذكرونه؟ إن من قرءوا (حلقة الرعب) منكم يذكرون جيدًا هذا الطبيب النفساني المتأنق وزوجته اللطيفة..

نعم هو ما زال حيًا.. بل هو حي أكثر من اللازم إذا صح هذا التعبير..

قابلته في النادي، وكان يرتدي (شورتًا) وفانلة ويمارس رياضة (الهرولة) - كما يسمونها هذه الأيام - وكان يجفف العرق بمنشفة على كتفه..

وتأملته في فضول.. ما زال اللعين وسيمًا كأنما خلق لفوره.. وما زال يحبّ الحياة كهرة صغيرة تغفو في الشمس...

- «(رفعت اسماعيل)! ألم يضموك إلى معرض المومياوات بعد؟»
- «(سامي فهيم)! رجل في سنك يرتدى الشورت؟»
- «إنني اليوم في السبعين من عمري، والفضل لرياضة الهرولة التي لم أكف عنها يومًا..»
- «وأنا في السبعين بمعجزة ربانية ولا أعرف كيف».
- «ما زلت تحكى قصصًا مرعبة للناس؟»
- «إن الرعب هو..... هو حياتي وسر وجودي ذاته.. ويبدو أنني تحولت إلى شبح أنا الآخر من كثرة ما عايشت ورأيت وسمعت..»

تأبط ذراعي في مودة، واقتادني إلى مائدة مستديرة في حديقة النادي؛ وطلب مني أن أشرب شيئًا.. طلبت فنجانًا من القهوة وطلب هو لنفسه - بالطبع - كوبًا من عصير الفاكهة.. ثم مال ليستند إلى قبضتيه بذقنه ويسألني في تؤدة:

- «هلا حكيت لي المزيد من حكاياتك هذه؟»

شعرت بأنه يسأل لمجرد المجاملة، غير راغب في هذا حقًّا.. لكنني ملتزم أمام قرائي الأعزاء.. لهذا سأحكى هذه القصة لهم.. ولهم وحدهم.....

مقدمة لما بعد المقدمة

أعود بكم الآن إلى عام ١٩٦٩..

تذكرون أنني - منذ العدد الحادي والعشرين - كففت عن إقحام نفسي في القصص، مكتفيًا بأن أحكي لكم كل خطاب يصلني من أحد هواة الرعب أو ضحاياه في أرجاء العالم...

في العدد الثاني والعشرين حكيت لكم كابوسًا يونانيًا واجهه أحد العلماء اليونانيين في (كريت).. لابد أن خوار (المينوتور) عبر طرقات (اللابيرنث) المظلمة ما زال يدوي في آذانكم....

في العدد الثالث والعشرين حكيت لكم عن رعب المستنقعات الإسكتلندي، ومأساة أربعة أشخاص سجنتهم الثلوج في كوخ قديم تلوكه العواصف.. كانت لـ (عزت) جاري حكاية قصيرة طريفة مع هذه المفكرة، لكني لن أحكي لكم ما حدث في هذه المرّة.. ربما فيما بعد.. فأنا اليوم بصدد أسطورة جديدة تمامًا..

في العدد الرابع والعشرين أنتقي خطابًا مسليًا.. هو أقرب إلى كراسة صغيرة الحجم كتبت بإنجليزية جيدة..

كانت هذه الكراسة في مظروف لصقت عليه طوابع تمثل تمثال الحرية الأمريكي وجواره حرفا U - S...

استنتجت - بذكائي المعهود - أنّ هذا الخطاب من الولايات المتحدة الأمريكية.. فلا يمكن أن يكون من (فنلندا) مثلًا..

وجالسًا في الصالة رحت أقلب الأوراق بحثًا عن كلمات مشئومة مثل (مصاصي دماء) أو (مذءوب) أو (زومبي) أو (مومياء) أو (لعنة) أو (لقد دبت الحياة في الجثة)!

فلم أجد لحسن الحظ...

هذا ـ إذن ـ خطاب خال من الرعب، لكنه يحوي الغرابة.. غرابة مثل غرابة الكاهن الأخير و (سالم وسلمى).. فالأمر إذن لا يستأهل قراءة المكتوب عند (عزت).. يمكنني أن أقرأه هنا في داري...

يبدأ الخطاب بداية ودية حقًّا:

«(مانهاتن) في ٣ - ٨- ١٩٩٩».

«مركز بحوث المخ».

«إيجور تاركوفسكي».

«سيدي الفاضل»:

«تابعت ـ بمزيد من شغف - صولاتك وجولاتك في عالم (الميتافيزيقا)، والآراء هنا في (مانهاتن) تتراوح بين مصدق ومكذب لك.. لكنك بالتأكيد تثير اهتمامًا لا بأس به، والمرء يستطيع أن يرفض البروفسور (إسماعيل) أو يقبله.. لكنه ـ حتمًا ـ لن يستطيع تجاهله..

وأنا أرى يا سيدي الفاضل أن خير ما تستطيع عمله هو أن تغدو أنت نفسك مركزًا لتجميع الخبرات الفائقة للطبيعة.. مرجعًا يسترشد به الناس، ويعرفون خبرات الآخرين..، لهذا قررت أن أكتب لك عن خبرتي في هذا الصدد.. ولا أبغي منك رأيًا، فالأمر أكبر من آراء العلماء مجتمعين.. بل أرجو أن تعيرني سمعك، وأن تضع هذا الخطاب تحت إمرة أي مهتم بأمور (ما وراء الطبيعة)..

والآن. وقد أطلت كلامي. أرجو أن أبدأ في سرد قصتي، وستكون قصة شائقة تروق لك.. لكنّها تبدأ منذ أعوام طوال...

تبدأ في (بولندا) في سني الحرب العالمية الثانية»

الجزء الأول

(وارسو) – ١٩٤٢

- ١ -

أطلق الجنرال (سيدلتز جابلر) سيلًا من الأوامر الألمانية بدت لمن لا يفهم الألمانية: كأنها مدفع رشاش من المدافع التي يحملها جنوده.. فيض من حروف الشين والخاء انفجر في جندي المراسلة الذي يمتطى الدراجة البخارية جواره.. فصاح هذا يبلغ الأوامر للآخرين..

ورفع أحد الضباط جهاز اللاسلكي ليبلغ الأمر إلى رتل المدرعات، الذي وقف ينتظر البدء في نفاد صبر حقيقي...

وفي تؤدة.. أدارت الدبابات مدافعها نحو صف المباني.. صرير البرج إذ يدور حول محوره.. وأنين الجنازير.. وحوش الدمار العملاقة تدير أعناقها نحو الفريسة.. ببطء... ببطء..

وهنا دوّت الصيحة التالية من الجنرال..

وكأنما بانتظار الانفجار شرعت المدافع تهدر.. مرات عديدة بلا توقف.. كأن أبواب الجحيم قد انفتحت.

الهواء نفسه يتذبذب من الصوت.. وحتّى الجنرال - بوقاره الآري العتيد - رفع كفيه المدسوستين في قفازين جلديين إلى أذنيه، ليمنع الصوت من أن يؤذيه أكثر..

رائحة الموت تعبق الجو..

وحين انتهى القصف كان صف المباني المتداعية في نهاية الشارع قد استحال إلى كتلة من النيران ينبعث منها دخان أسود كريه الرائحة...

في رضا رفع الجنرال منظاره المقرب إلى عينيه وتأمل كل هذا الخراب الذي أحدثه..

كانت مجموعة البيوت هذه نوعًا من الشوكة في حلق القوات النازية تحول بينها وبين ابتلاع (وارسو) دون ألم.. ويومًا فيومًا صار معروفًا لدى الجميع أن رجال المقاومة البولندية يعيشون فيها ويرسمون خططهم فيها.. ولم يعد مفر من هذا الحل الجذري..

وشرع جندي المراسلة يتأمل قائده خلسة في فضول.

كيف يفكر الجنرال؟ إن جندى المراسلة البسيط لم ير أشخاصًا كثيرين في حياته يقومون بتدمير حزام كامل من المباني، مما قد يؤدي إلى قتل عشرات الأبرياء.. اليوم أسعده الحظ بأن يرى واحدًا من هؤلاء (العظام) الخارقين للطبيعة.. ربما لهذا صار (سيدلتز جابلر) جنرالًا.. إن وجهه جامد كالصخر لا يحمل أي تعبير من الأسف أو السرور، أو الترقب.. وجهه يحمل كل كبرياء العسكرية النازية وقسوتها، ربما لهذا هو القائد.. ربما لهذا.....

راتا تا تا تا... بوم!.. را تا تا تا تا تا!

صوت طلقات من مدفع رشاش... هناك فئران لم تزل حية في هذا الجحر.. فئران مصرة على المقاومة.

التفت الجنرال إلى رتل الدبابات كي يبدأ التقدم..

وببطء راحت الوحوش تئن وهي تزحف على الأرض التي راح أسفلتها يتشقق من ثقل الجنازير...

اضرب فورًا.. اضرب في المكان الصحيح.. اضرب بكل ما لديك من قوة..

هذا هو شعار الجنرال الذي ينفذه حرفيًا الآن..
المدافع تهدر في كرات متتالية...
الدخان والتراب القادمان من المباني المنهارة المحترقة يزكمان الأنوف، ويجعلان الرؤية متعذرة حقًّا.
لكن الدبابات تواصل الزحف.. ووسط الضباب تبدو مثل ديناصورات عتيدة عادت للحياة..
ومن بين الأتربة لاحت أشباح رجال يحاولون الفرار أو الهجوم لا فارق...
إذ رفع الجنرال كفه آمرًا:
- «فليلتحم المشاة..»
وسرعان ما انطلق الجنود، ليغوصوا في بحر الدخان.. ودوى المزيد من الرصاص..
وارتجف جندى المراسلة، وتساءل: ترى كيف يكون مذاق الموت في الصباح الباكر؟ رائحة النهار الوليد ووجهك ملقى على أسفلت الطريق.. تشم دماء وتعرف أنها دماؤك.. ترمق أظفار يديك عالمًا أنك تفقد وعيك ببطء، وأنك لن تراها بعد اليوم.. بعد الآن.. تعرف أن صلتك بهذا الجسد تتلاشى.. وأن...
را تا تا تا تا تا!.. بوم!...
المزيد من القتل...

* * *

الظهيرة تعلن نهاية المأساة..
انقشع الغبار تقريبًا فلم يبق سوى بؤر محدودة من دخان أسود متناثرة هنا وهناك، وكان صف المباني قد زال من الوجود نهائيًا، على حين يقف صف من الجنود حاملين بنادقهم مصوبة نحو صف من المدنيين البولنديين، الذين وقفوا مبعثرة شعورهم ممزقة ثيابهم.
لم يتمكنوا من الفرار من دبابات الجنرال (جابلر) طوقت الشارع الخلفي أيضًا..
بعضهم مدنيون أبرياء.. وبعضهم - حتمًا - ثوار...
كيف يمكن التمييز بينهما؟ هذا عسير..
لكن الجنرال لا يمكن أن يتوقف لدى أمور تافهة كهذه.. إن البريء لن يضار كثيرًا لو عومل معاملة المذنب..
لهذا ترون هذا (المترليوز) الذي تم نصبه على عجل.. يمسك سلاحه جندي منبطح على بطنه، وجواره جندي آخر يعد له شريط الرصاص..
بعضهم فهم ما يحدث.. وبعضهم لم يشأ أن يفهم..
قال الجنرال في سأم وهو يضع معطفه على كتفيه ويشير لجندي المراسلة كي ينطلق بدراجته البخارية:
- «اقتلوهم.. وادفنوهم هنا!»
لم يصدّق جندي المراسلة أذنيه..
حتى وهو يسمع صوت الطلقات لم يصدّق..

حتى وهو يسمع الصرخات لم يصدّق..
حتى حين قرأ تفاصيل المذبحة في تحقيقات محاكمات (نورمبرج) بعد سنوات طوال؛ لم يصدّق..
إن تاريخ النازي في (بولندا) بالذات مليء بالمذابح.. ومليء بموضوع دفن القتلى حيث قتلوا..
لكن السماع عن الوحشية يختلف عن رؤيتها..
يختلف عن الجلوس على بعد متر من (الدينامو) الذي ولد كل هذه الوحشية.. وأمر بها..
في مقعده الجانبي يجلس الجنرال مسترخيًا مستقيم الظهر، وقد أنزل منظار الوقاية على عينيه...هادئ الضمير كطفل غسل يديه بعد التهام قطعة حلوى..
ولم يجرؤ الجندي على اختلاس النظر إليه، بينما محركات الدراجة البخارية تهدر في شوارع (وارسو)... فقد آمن الآن أنّ هناك شيئًا خارقًا للطبيعة في هذا الرجل.. إن هذا الذي فعله يفوق قدرات البشر..

* * *

حين انتهت الضوضاء وانصرف الجنود.. كانت (وارسو) كلها ترتجف خوفًا.. ترتجف غضبًا.. ترتجف ذهولًا..
وكانت هناك حفرة واسعة جوار الميدان الذي جرى فيه (العمل)، تم ردمها الآن على عجل.. لكنّ مغزاها لم يفت على أحد..
وفي توتر وحذر راح القوم يمشون بين الخرائب التي لم تزل ساخنة؛ يركلون الرماد هنا وهناك بحثًا عن شيء ما.. أي شيء..
أحدهم انتابته الحمية فراح يصرخ مرددًا هتافات ضدّ النازي.. وبعض السباب المشين حقًّا..
بينما تلك المرأة ذات المعطف و(الإيشارب) - والتي تراها في كل المذابح الخاصّة بأوربا الشرقية - تولول على صغارها أو زوجها أو أمها أو أبيها..
هنا صاح أحد الرجال يسكتها..
- «صمتًا يا (آنا) فإنني أسمع شيئًا ما..»
وقف أربعة رجال يرهفون السمع.. فقد خيل لهم جميعًا أنهم يسمعون ما هو أشبه ببكاء طفل...
هلوسة جماعية؟ لا.. إن هؤلاء الرجال ليسوا من طراز المهلوسين.. ثم إن الصوت واضح بالتأكيد.. من أين يجيء؟ من هنا؟ لا.. من هنا.. بل هو هنا حتمًا.
ثمة طفل حي تحت هذا الرماد الساخن!.. لا ندري كيف ولا من؟ المهم أن نخرجه من هنا حالًا قبل أن ينتهي هذا الصوت الوحيد الحي وسط الجحيم...
حاولوا بأظفارهم لكنّ الغبار كان ملتهبًا فلم يقدروا.. أحضر أحدهم رفشًا وراح يزيح به الغبار يمينًا ويسارًا..
أخيرا رأوا يدًا.. يد طفل مغموسة في الغبار.. لكنّها تتحرك.. وبعد دقائق أخرجوا رأسًا أشقر متسخًا يحاول أن يسعل.. وأخيرًا وقف الطفل على قدميه تحمله ثلاثة أذرع.. كان في أسوأ حال ممكن.. لكنه كان حيًّا.. تلك المعجزة التي لم يفهم أحدهم كيف تمت.

إلا أنهم لم يبالوا بما قد يكون في جسده من كسور ورضوض وشرعوا يتقاذفونه معانقين.. مثل العنقاء التي تولد في اللهيب يخرج هذا الصبي معلنًا لهم أن (بولندا) لم تمت..

كان إسم الصبي هو (إيجور)...

(إيجور تاركوفسكي)...

* * *

- ٢ -

برغم ولعه بالبصاق والسعال.. برغم رائحة الخمر الرخيصة التي تفوح من فيه طيلة الوقت خاصة حين يقهقه بصوت عالٍ.. برغم قلة نظافته والقمل الذي يزحف بين طيات ثيابه في حرية تامة؛ يمكن القول إن العم (أندريه) كان رجلًا طيبًا..

كانت له أسنان نخرة بعضها ولّى إلى الأبد، وبعضها ينتظر.. وكان له شارب كث أشيب يتسلل إلى داخل فمه كلما حاول الكلام، فكان يطرده بطرف لسانه.

لابد أنه طرد بعض الشعيرات قبل أن يقول لـ (إيجور):

-«(إيجور).. إن هذا البلد مليء بالفرص.. صدقني..»

كانا واقفين على ظهر السفينة العملاقة التي تمخر عباب الأطلنطي يرمقان المياه السرمدية، وكان (إيجور) الصغير يرتدي معطفًا جلديًا حال لونه واهترأ.. وقد دسّ يديه في جيبه بينما قلنسوة من الفراء تغطي رأسه الأشقر الصغير..

على وجهه علامات الألم وامارات الشقاء.. مريع هو الشقاء الذي يرتسم على وجوه الأطفال الذين رأوا أكثر مما يجب بالنسبة لعمرهم.. حكمة سابقة للأعوام على جبينهم.. وزهد في الوجود لم يحن وقته بعد..

أما العم (أندريه) فهو عاكف على تجرع سائل كريه من زجاجة صغيرة لا تفارق جيب معطفه..

وعلى ظهر السفينة تناثر اللاجئون.. رجال ونساء وأطفال أسلم بعضهم عينيه للنعاس.. وبعضهم وقف يرمق البحر بعين ذاهلة شاردة تهاب الغد وتمقت الحاضر....

طفل يولول فتلقفه أمّه ثديًا ضامرًا جافًا..، ورجل يميل على حاجز السفينة ليفرغ ما بمعدته من لا شيء في الواقع..

- «إن العالم مليء بالأوغاد أيها الصبي..»

يقولها العم وهو يضع كفه المعروقة على كتف الصبي:

- «هيه؟.. أنت لا تصدقني يا بن الشيطان؟.. أنا أعرف ذلك.. إن العم (أندريه) ليس ثملًا أبدًا.. هيه! دعني أشد أذنيك الصغيرتين حتى تحمرا.. حينما يقول لك العم (أندريا) إن العالم يعجّ بالأوغاد فهو يعني ما يقول.. إنهم - أولاد الخنازير - يظنون أنني لا أفيق من السُكر.. لكنني أخدعهم جميعًا.. ألاحظ.. وأحلل.. وأفهم كل شيء..»

- «ولكن يا عماه!»

- «ولا كلمة!.. خذ عندك هذا المجنون (هتلر) الذي قرر في لحظة أن يحرق (أوروبا) كلها.. ثم الخنزير (ستالين) الذي قرر أن يحالفه.. لقد اقتسم الغولان - النازي والروسي - (بولندا) العذراء البائسة.. (تفو)!.. إن الخمر الرديئة تجعلني أقيء أحيانًا.. لكنّ أفعال البشر تجعلني أقيء دائمًا!.. ولكن سترى يا (إيجور).. سترى.....»

ويهز إصبعه في وجه الصبي في إنذار:



وبعد دقائق أخرجوا رأسًا أشقر متسخًا يحاول أن يسعل ..

- «سترى أن (هتلر) لا يؤمن جانبه.. سرعان ما يستدير ليلتهم (ستالين) بدوره.. وعندئذٍ.. إن شاء الله تأخذني مصيبة إن لم تعم الدماء الأرض.. هيه!.. ويقولون إنني ثمل لا أفقه ما أقول.. بحق العذراء (مريم) لتعمن الدماء الأرض..»

ثم عاد يسعل ويبصق....

ويعود الصبي بعينيه إلى البحر...

* * *

اسمه (إيجور تاركوفسكي) بن (ميخائيل) المدرس بالمدرسة الإعدادية.. سنه اليوم - عام ١٩٤٢ - خمس سنوات..

بالطبع هو لا يعرف تفاصيل ما حدث، وإن كون صورة مبهمة عامّة عنه من ذكرياته، وثرثرة العم، وما قرأه بعد الحرب بأعوام...

فقط يعرف أنه كان طفلًا كأي طفل آخر.. يلهو ويستمتع بالتخريب وتهشيم الزهريات ودس الأجسام المعدنية في ثقوب الكهرباء.. وفي المساء كانت هناك امرأة لطيفة ما - هي أمّه حتمًا - تجلس على طرف الفراش (لتدندن) له أغنيات، تتحدّث عن الأرانب والغزلان والدببة سيئة الخلق..

وفي ذلك اليوم كانت أمّه تصرخ وتولول.. وراحت تردد دون انقطاع:

- «الدبابات!.. لقد حاصروا الحيّ..!»

لم يفهم كنه كلامها.. لكنه أطل برأسه الصغير من نافذة الطابق السادس ليرى الدبابات الجميلة تقف متراصة كالدمى بعرض الشارع.. صاح فرحًا.. ولم يفهم قط ما الذي يثير الرعب في مشهد بهذا السحر..

لكن الأم حملته على كتفها، وبيد عصبية جذبت أخته (ماريا) ذات السنوات العشر من يدها.. ثم عادت لتضع المكواة والساعة في كيس قماشي حملته بيدها الأخرى.. وهرعت تقتاد الطفلين فوق درجات السلم نازلين إلى الشارع..

وكان هناك مكبر صوت يردد بلغة بولندية رديئة:

- «إخلاء.. لا نريد أن..... الشارع..»

وبرغمها فقدت الأم التحكم في غازات بطنها.. وبعد ثانية أخرى أسندت رأسها إلى الحائط وأفرغت طعام الإفطار.. ثم هرعت إلى الشارع...

ورأى (إيجور) آخرين.. رجالًا ونساء يركضون في هلع.. وكان هناك رجل ذو شارب كث يحمل بندقية.. فرأى جارهم الأصلع (ليبسكي) يوقفه في عصبية صائحًا:

- «تخلص من هذه! إنك ستجلب علينا الدمار!»

يذكر (إيجور) الأزقة الخلفيّة وصفائح القمامة التي راحت الأم تبعثرها وهي تنشج وتولول....

ويذكر الجنود الذين وقفوا جوار دباباتهم شاهري أسلحتهم باتجاه الفارين عبر الأزقة..

من ثم صاح القوم في هلع:

- «هذه الجهة مغلقة!»

هنا بدأ الرعب يزحف إلى روح (إيجور).. بدأ يئن ثم انفجر في بكاء هائج متقطع وهو على كتف أمّه...

صاحت الأم وهي تعود أدراجها:

- «اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

لكنه ازداد بكاء على بكاء..

وهنا بدأ دوى المدافع.. الأرض ترتج وترتج معها قلوب القوم.. ورسم أكثرهم علامات الصليب.. نظرات حائرة شقية ترمق الأفق في توتر... و...

* * *

لماذا لم ينس قط ما حدث؟

من البديهي أن تكون العبارة التالية هي: ساد الظلام.. ولم أعد أعرف أين أنا ولا ما حدث حتى أخرجوني..

هنا مع (إيجور) يختلف الوضع..

فهو يذكر جيدًا كل قطعة قرميد هوت فوقه، ويذكر أين هوت.. والرضوض التي أحدثتها في جسده الصغير..، بل هو يذكر مصير كل ذرة غبار تطايرت من ذلك الجدار الذي انهار فوقه هو وأمه وأخته..

يذكر كيف ازدادت كثافة الصورة ببطء، ليصير السواد مطلقًا من حوله، وعندئذٍ انسحب آخر جزيء من الأكسجين.. وأحس أنه يختنق، وأنه عاجز عن الحركة تمامًا..

هل فقد الوعي؟ حتمًا حدث هذا.. لكنّ ذاكرته عن الحفرة والردم تشكل شريطًا واحدًا متصلًا خاليًا من (المونتاج)..، وهو يذكر جيدًا هدير. جنازير الدبابات على بعد أمتار من موضعه..

لماذا لم يمت؟ لا يدري.. إن التفسير الوحيد الذي وجده هو أن (أجله لم يحن بعد).. وهذا حق.. لكنّ أجل الآخرين كان محددًا.. الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم السبت ٢٠ أبريل عام ١٩٤٢.. ولم يتأخر الأجل ولم يتقدم..

أمّا هو.. فقد وجده الرجال وعادوا به حيًا يرزق...

* * *

عاش (إيجور) أيامًا عند عمّه (أندريه) الذي كان يقيم عند أطراف العاصمة المنكوبة..

كان الرجل عجوزًا غريب الأطوار، وكان من هؤلاء الشيوخ الذين أورثتهم الشيخوخة عصبية وسوء خلق.. فكان كثير السباب والشجار، ولم يكن يثير الشفقة بحال.. لكنه كان طيب القلب حقًّا.

ومنه تعلم (إيجور) درسه الأول في الحياة.. أن الأخيار ليسوا بالضرورة جميلي الخلقة يرتدون ثيابًا بيضاء وهالة الملائكة فوق رءوسهم.. وليس الأشرار دائمًا وحوشًا ذات أنياب يسيل الزبد من أشداقها ولا تتورع عن ركل القطط..

* * *

يذكر (إيجور) تلك الأيام الكابوسية.. وجحافل النازيين تمشي في الطرقات بخطوة الأوز، حين صار للقمر نفسه شكل الصليب المعقوف.. وحين صار صوت طلقات الرصاص في الشوارع البعيدة أمرًا مألوفًا.

وكان العم (أندريه) يزداد توترًا وعصبية، وما انفك يردد في كل يوم أن:

- «هؤلاء الخنازير القادمون من (الراين) سيذبحوننا.. (هيك)!.. سترى يا بن أخي.. سيصنعون ذخيرتهم من كرات عيوننا!»

ولهذا كان الهروب من (وارسو)..

من (بولندا) كلها...

- «إن في الغرب عالمًا جديدًا يا (إيجور).. عالمًا حرًا بعيدًا عن هذه المذابح.. وإن شاء الله تأخذني داهية إن لم يرحب بأمثالنا..»

وعلى ظهر السفينة المتجهة إلى الولايات المتحدة عبر الأطلنطى وقف (إيجور) ذو السنوات الخمس مع العم السكير، يودع مسقط رأسه الذي أخذه الآريون..

* * *

أيام كئيبة مرّت على ظهر السفينة التي تزاحم المهاجرون المجر والبولنديون فوقها في العراء..

كانوا يصطرعون على كسرة خبز أو جرعة ماء أو على فتاة يانعة لم يقتلها الجوع بعد.. دائمًا يصطرعون..

وكانت الطائرات (الميسير - شميت) تحلّق فوق رءوسهم في بداية الرحلة، فكان الرجال يهللون ويطلقون عبارات السباب.. لكنّ الطائرات لم تحاول مهاجمتهم لأن أمريكا لم تكن طرفًا في الحرب بعد، ولم يكن من مصلحة أحد أن يدعوها للدخول..

فيما بعد قلّت (الميسير ـ شميت).. وبدأت طائرات (سبيتفاير) و(ب ـ ١٧) تظهر في السماء..

كانت هذه هي النوارس التي تعلن دنوهم من الأرض.. من الساحل الأمريكي.

* * *

ومن بعيد - وسط الضباب وبين أسراب النوارس المرفرفة المتصايحة - بدا لعيني (إيجور) ذلك العملاق الهائل الذي يحمل الشعلة.. وعلى شفتي العملاق تلاعبت ابتسامة غامضة متعادلة حالمة لا تفسير لها.. مثل الابتسامة التي سيراها على شفتي (الموناليزا) بعد أعوام...

- «هذه هي الآنسة (حرية).. مس (ليبرتي) يا (إيجور).. وعلى قاعدتها كلمات تقول: إلى أيها المتعبون.. فأنا أحمل مشعل الحرية.. إنها تحرس الباب إلى العالم الجديد»

قالها العم وأنامله تتوتر على كتفي صغيره..

أما (إيجور) فقد شعر بالدموع تنساب على خديه، لا تأثرًا ولكن خوفًا من هذا الصنم العملاق الذي يوشك على الحركة..

(ملحوظة من د. (رفعت): فيما بعد قدم (يوسف شاهين) مشهدًا لا يُنسى في نهاية فيلم (إسكندرية ليه) حين دنت الكاميرا من وجه تمثال الحرية، لنجد أنه وجه غانية ملطخ بالأصباغ.. تغمز بعينها وتضحك ضحكة ماجنة..، يبدو أن (إيجور) كان على حق حين توقع - بحساسية الأطفال - أن أمريكا لن تكون هي الجنّة التي يتوقعها العم..).

والآن ها هو ذا (إيجور) المهاجر البولندي الصغير يدخل إلى الولايات المتحدة.. ليبدأ حياة جديدة مبهمة.

وبذا ينتهي الجزء الأول من قصتنا..

* * *



والآن ها هو ذا (إيجور) المهاجر البولندى الصغير يدخل
إلى الولايات المتحدة . .

الجزء الثانى (بالتويم و) - ١٩٤٧

- ٣ -

الآن تعالوا معي لنرى هؤلاء الصبية الجالسين في الصف يتابعون الدرس، أو يتظاهرون بذلك..
دعنا لا نتوقف كثيرًا عند هذين الشيطانين الصغيرين المشاغبين، وهذه الطفلة الشقراء بارعة الجمال، ولاعند الصغير الذي يبدو من أصل شرقي ببشرته الصفراء وعينية الضيقتين..
أريد منك أن ترى هذا الصبي.. دع الكاميرا تتوقف عنده قليلًا وتستعرض ملامحه.. إنّه هو (إيجور).. نعم...
لقد كبر.. إنّه في العاشرة من عمره الآن.. وهو يبدو في حال طيبة.. وثيابه كذلك مهندمة نظيفة.. لكنّ نظرة النضج السابق للأوان لم تبرح عينيه..
وكما قال أحد الأصدقاء لأبيه يومًا:
- «إن هذا الفتى لم يعش طفولة معذبة.. يبدو لي أنه لم يعش طفولة أصلًا!»
صبرًا.. هل قلت (أبيه)؟ نعم.. ألم أخبركم بعد؟ إن (إيجور) ابن بالتبني لزوجين أمريكيين تقدما لمشروع (تبني أطفال المهاجرين الشرقيين)، وذلك بالطبع بعد أن مات العم (أندريه) في مصحة لأمراض الصدر.. فقد كان البائس يعاني مرض الدرن.. وعلى كل حال لو لم يمت بالدرن لمات من تليف الكبد الكحولي.. ولو لم يمت بهذا لمات بالتيفوس من جراء القمل الذي يغمر جسده.. لقد كان العم العجوز مستودع أمراض.. وإنها لمعجزة أن يظل حيًا خمسة وخمسين عامًا كاملًا.
تقول المعلمة وهي تقف جوار لوح الكتابة:
- «.. وهكذا يا أطفال خضنا الحرب من أجل العالم الحر.. ولولاها لما كنا هنا الآن..»
ثم نظرت نظرة حازمة ثاقبة إلى الأطفال، وإن رسمت على شفتيها ابتسامة صناعية لطيفة:
- «والآن.. من يحبّ الحديث عن الحرب؟»
واتجهت عينا الصقر إلى إصبع صغير مرتجف لطفلة:
- «(كارولين).. حدثينا يا عزيزتي عن ذكرياتك»
نهضت الطفلة ذات الضفيرة الذهبية.. وبصوت مبحوح خجول قالت في تردد:
- «(هتلر) شرير.. بابا قال لي: إن (إيزنهاور) أنقذ حياتنا، وكل لعبنا التي كان الأطفال الألمان سيأخذونها ..»
- «برافو (كارولين)!.. والان من يحدثنا بعدها بنفس الفصاحة؟ آه! (إيجور).. قف يا عزيزي وحدثنا».
هنا حدث شيء ما...
تردد صوتها في ذهن (إيجور).. كأنها تتحدّث في طرقات قصر فارغ من الأثاث والسكان.. الصدى يجلجل في المكان وهي تقول في تهكم:
«هيا أيها البولندي القذر.. ماذا تعرف أنت عن أي شيء لتحدثنا عنه؟!»
منذ ثوان سمعها تقول بينما (كارولين) تتحدّث:
«يا للبلهاء الصغيرة!.. تبًّا لسخف الأطفال.. أية مهنة بائسة تلك التي اخترتها لأصغي لهذا الهراء؟»

كانت تنظر نحوه وعلى وجهها أعتى أمارات اللطف.. وقالت وهي تمد يديها نحوه:
- «(إيجور).. لا تخجل يا ملاكي..»
نهض ببطء وعيناه لا تفارقان عينيها..
كان يسمعها تردد:
«ما أغرب أنفه!.. رباه!.. كيف يحمل المرء أنفًا كهذا ويظل له الحق في الحياة؟!»
حين وقف (إيجور) كانت أذناه قد احمرتا كالطماطم من فرط الإهانات..
قال في عصبية بلغة إنجليزية جيدة:
- «أنا لست قذرا! وأنفي هو أنفي وحدي!»
بدا الذهول على المرأة، فلو كانت قد داست سلكًا كهربيًا عالى الفولت لما ارتسم هذا التعبير على سحنتها.
وتصايح الأطفال.. بعضهم ضحك في عصبية، وبعضهم راح يكيل التوبيخ لـ (إيجور)..
ثوان ثقيلة مضت.. ثم هتفت المعلمة بصوت مرتجف قليلًا:
- «سيكون عليك أن تبقى ساعتين بعد الدراسة.. وأن تكتب (سوف احترم المعلمة) مائتي مرة..»
تعالت الهمسات بين الأطفال، ولم يكن (إيجور) بحاجة لسماعها فهو يعرف ما سيقال بالحرف:
- «إنّه مخبول تمامًا»
- «كل هؤلاء الأوربيين معاتيه..»
- «لم تطلب منه أن يحضر أبويه.. فهو يتيم تمامًا بلا عائلة».
- «يقولون: إن (هتلر) ذبح أسرته..»
- «يا حرام.!.. لهذا جُن..»
سمع كل هذه الأحاديث بعقله وبأذنه لكنه لم يجد ما يُقال.. لهذا جلس شاعرًا بالحنق.. وتمنى لو أنّ أهل كل هؤلاء الصبية هلكوا تحت جنازير الدبابات، ليعرف الصبية في أي شيء يمزحون..

* * *

لم تكن هذه هي المرّة الأولى...
منذ أن جاء (إيجور) إلى أمريكا وهو يعرف أنه يملك القدرة على دخول عقول الآخرين..
لم يسأل نفسه قط عن سر حصوله على هذه الموهبة، بل هو لم يحسبها موهبة على الإطلاق.. حتى إنّه - بشكل ما ـ كان يحسب الناس جميعًا قادرين على هذا.. ولم يحاول أن يسأل.. لكنّ هذه الموهبة لم تكن اختيارية ولم تكن طوع بنانه، أحيانًا كان يجد أفكار من أمامه تلمع ساطعة واضحة في عقله هو.. وأحيانًا كان يعجز تمامًا عن معرفة ما يفكر فيه الآخرون..
وحين كانت هذه اللحظة الثمينة تأتي كان يسمع الأفكار في مكان ما من عقله بصوت صاحبها، وأحيانًا كان يرى خيالات يدرك جيدًا أنها ليست خيالاته هو..
كان هذا يثير حيرة الآخرين حين يفاجئهم بما يفكرون فيه قبل أن يقولوه..

وتدريجيًا أدرك (إيجور) أنّ هذا هو سرّه الخاص، وأن عليه ألا يصارح به أحدًا، وأطلق عليه اسم (الاختراق) ومعناه القدرة على اختراق أذهان الآخرين.. بالطبع ما كان لصبي العشر سنوات أن يعلم أنّ هناك اسمًا لهذه الظاهرة هو: (الإدراك الفائق للحس) أو (E.S.P[1]، وإن كانت موهبته هو بالذات تختلط بنوع آخر من الظواهر هو ظاهرة (التخاطر) أو (التيليباثي).. فهو قادر على أن يصل بأفكاره إلى الآخرين كما هو قادر على التلصص على أفكارهم...

المشكلة كما قلنا: إن هذا لم يكن خاضعًا لإرادته بحال، ولم تكن هناك وسيلة مضمونة للتحكم فيما يحدث..

كان يتجه بعينيه إلى الشخص موضع الفحص.. يركز عينيه على مؤخرة رأسه.. عندئذٍ إما أن يحدث (الشيء) وتبدأ الخواطر تتدفق إلى رأسه هو.. وإما لا يحدث شيء على الإطلاق.. عندئذٍ كان يُسمّى الاختراق (إظلامًا)..

وبرغم حداثة سنه؛ بدأ الصبي يعرف عن عالمنا ما يعرفه الحكماء في سن السبعين... إن عاشوا...

إن الناس أشرار أنانيون جشعون إلى حد لا يوصف.. ولا يكفون عن الكذب والنفاق والمكابرة.. وكلهم يكذب بجرأة ووقاحة لا تضاهى...

وزادت هذه الخبرة القاسية من عزلة الصبي وانطوائه وميله إلى الاستماع لا الكلام.. بوجهه الصارم الكئيب الذي هو أقرب إلى وجه عجوز عرف ورأى كل شيء..

* * *

ويعود (إيجور) إلى داره حاملًا حزام كتبه متدليًا حتى يكاد يلمس الأرض، ويلقاه كلبه العملاق من طراز (سان برنار) وهو يتواثب ويصدر أصواتًا مختلطة.. فيربت الصبي على ظهره الدافئ..

فقط مع هذا الكلب عرف (إيجور) معنى صدق العاطفة.. فالكلب لا يفكر بكلمات.. لكنّ (إيجور) كان ينجح أحيانًا في اختراقه، عندئذٍ كان يشعر بفيض من العواطف الصادقة: اللهفة - الفرح - الخوف - الاستمتاع.

وحين يخاف الكلب لم يكن يتظاهر بالشجاعة، وحين يفرح لم يكن يداري فرحته في كبرياء.. بل كان يتواثب في كل صوب مبصبصًا بذيله..

إن الحيوانات لا تظهر أبدًا عكس ما تبطن، وهذه نقطة في صالحها دون شك...

يدخل المطبخ ليجد أمه - بالتبني - عاكفة على تقطيع شيء ما بالسكين في إناء على الموقد، وهي - بالمناسبة - حسناء في الخامسة والثلاثين من العمر لكنّها غير ذات رحم.. ولهذا كان التبنى هو الحل الوحيد؛ كي تجد طفلًا تقول له:

- «(إيجور).. تأخرت كثيرًا اليوم.. هيه! ألم أقل لك ألا تدع الكلب يدخل معك إلى المطبخ؟ هلا غسلت يديك أولًا قبل أن تفتح الثلاجة؟ تبدو لي كأنما قادم أنت من منجم فحم من فورك.. من أين تأتي بهذه القذارة؟!».

لم يجب.. كان قد كف عن الإجابة منذ زمن.. دخل إلى الحمام فغسل يديه، ثم دخل إلى حجرته فنزع ثيابه وبدلها.. ونزل إلى الحديقة ليجد أباه - بالتبني - عاكفًا على إصلاح سيارة الأسرة وقد

تلوث وجهه ويداه بالشحم..

- «مرحبًا (إيجور).. سمعت أمك توبخك..»

- «هي دائمًا تفعل..»

- «لا تقل هذا ثانية.. أنت تعرف أنها توبخك: لأنهّا تحبك».

وفي أغوار ذهنه سمع (إيجور) صوت أبيه:

«يا للأحمق!.. ألا يكفيك ما أنفقه على طعامك وملبسك وأنت لست من صلبي؟.. لولانا لكنت تتسول الآن في حواري (وارسو)..، لولا هذه الحمقاء التي شعرت بحاجة ملحة للأمومة.. ولولا المعونة التي تقدمها الحكومة لنا؛ لفضلت أن أتركك لتلتهمك الفئران..!»

لم يكن هذا أسوأ شيء...

أحيانا كان يسمع صوت الأم تقول في ذهنها وهي تداعبه في لطف:

«يا لغرابة مظهره وطباعه!.. حيوان نادر.. هذا هو كل شيء.. إن هذا الصبي حيوان نادر جدير بالمشاهدة.. أنا لا أحبه أبدًا ولن أستطيع.. لكنني أقوم بواجبي نحوه تمامًا ولا أحد ينكر هذا، بل إنني أقدم له أعظم خدمة في التاريخ.. أقدم له أبوين أمريكيين.. فكيف يتذمر بعد هذا؟!»

أمّا عن رأي الزوجين في بعضهما، فحدث ولا حرج.. فالزوج يؤمن ببلاهة زوجته.. والزوجة تثق بشراسة زوجها وغبائه..

ولا يمنع هذا من خروجهما إلى حفلات (الكوكتيل) والمناسبات الاجتماعية حيث يقترح الزوج أنخابًا مبتكرة، ويتحدث عن أظرف شيء حدث له حين ذهب ليصطاد السمك في العام الماضي..

كان الصبي يتذكر ماضيًا مفعمًا بالحنان.. صوت الأم الهامس واللغة البولندية العذبة.. شوارع المدينة المرصوفة بالحجارة ودقات أجراس كنيسة بعيدة..

* * *

بعد كل هذا يأتي دور (بيل هاكمان)..

وياله من دور..!

* * *

- ٤ -

هناك رعاع في كل مكان، وهناك أوغاد..

وقد كان (بيل) هذا.....أ..... معذرة.. فأنا لا أعرف مُفرد (رعاع).. المهم أنه كان واحدًا من هؤلاء..

كان يكبره بعامين.. قوي البنيان.. شرسًا.. له تلك الشخصية الكاسحة المميزة للأشرار.. لماذا يكون الشر إيجابيًا دائمًا في حين يندر الخير الإيجابي؟!

شخص كهذا ـ برغم حداثة سنه ـ يغدو مركز تبلور لمن حوله.. أربعة أوغاد آخرين أضعف شخصيّة لكنّ أقرب إلى دناءة النفس يحيطونه دائمًا..

لهذه المجموعة هدف واحد في الحياة: جعل الأمور سيئة بالنسبة للضعاف.. التحرش بكل من يريد أن يترك وشأنه.. السخرية وهدم كل ما هو جميل وديع في الحياة..

كان كل من يرى (بيل) من الكبار يتوقع له مستقبلًا باهرًا كزعيم عصابة أو سفاح..

وكان (بيل) - حتمًا ـ يملك كل المؤهلات لذلك.. فهو أسوأ طلاب الصف، وأقلهم نيلًا للمديح والدرجات.. ولهذا جعل شغله الشاغل مضايقة من هم أكثر تفوقًا أو أدبًا أو أكثر أناقة..

لقد كان أبوه فقيرًا مشاغبًا سكيرًا، ولهذا كان (بيل) يشعر بالحساسية الربوية تجاه الأثرياء والمهذبين وكل من يبدو عليه أنه يعيش حياة أسرية هادئة..

يجذب ضفيرة (ماري) الجميلة المتأنقة.. ويمزق ألبوم (هنري) الذي يعكس سعادة عائلية.. ويركل (بول) لأنّه متفوق في الصف...

يفعل كل هذا ويضحك.. ويشعر بسعادة غامرة...

ومع هذا النوع من الشخصيات (السايكوباثية) - عدوة المجتمعات ـ لم تكن أية أساليب تربوية تجدى.. سواء اللين أو العنف.. كانت هناك طريقة واحدة هي ربط (بيل) وأمثاله إلى صاري سفينة في المحيط الهادي ثم نسف هذه السفينة بقنبلة نوويّة..

لكن أحدًا لم يجرؤ ـ طبعًا ـ على فعل ذلك..

والآن يا رفاق.. لكم أن تراهنوا على أن (بيل) وجد في (إيجور) الفريسة التي لم يحلم بها طيلة حياته..

إن (إيجور) مهذب متحفظ ضعيف متفوق في دراسته، ثم هو أجنبي يتيم الأبوين.. كل هذه أخطاء لا تغتفر ويجب أن يدفع ثمنها...

لن أتحدث هنا عن رمي الكتب على الأرض، ولا وضع السحالي في قذاله، ولا سكب الحبر على سرواله.. بل أتحدث عن تجربة البيت المسكون..

إن لهذا قصة طويلة دعوني أقصها عليكم الآن..

* * *

كانت البداية هي تحد.....

هو ذا (إيجور) عائد إلى داره بعد ساعات الدراسة، حين وجد صف الأوغاد إياهم يسد عليه الطريق..

فكر في الجري عائدًا.. لكنه لم يرد أن يسرهم بجعلهم يفهمون أنهم أثاروا هلعه...

لذا واصل السير حتى غدا على بعد بضعة سنتيمترات من (بيل) الذي وضع يديه في خاصرته، وراح يبتسم في جشع وخبث...

لم يكن من العسير على (إيجور) تخيل أنه سيقف يومًا ما بعد عشرين سنة يبتسم تلك الابتسامة وهو يسطو بالسلاح على بنك..

- «هيه.. يا أصفر!»

و(أصفر) هنا كناية عن الجبن.. لا عن اللون..

رفع (إيجور) عينين غاضبتين صامتتين نحو خصمه.. وحافظ على ثباته...

لكن يد (بيل) كانت أطول من لسانه.. ووجد (إيجور) نفسه يجذب من ياقة قميصه إلى أعلى ليرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات..

- «هيه يا أصفر.. هل تحاول أن تلعبها كالرجال؟».

شرع (إيجور) يحاول التملص.. وراح يسدّد بعض لكمات خرقاء لم تصل واحدة منها إلى وجه غريمه..

وراح الرعاع يقهقهون ساخرين.....

* * *

(راتا تا تا تا بوم!.. راتا تا تا تا تا بوم!).

الجنرال النازي ينظر في ساعته بفتور، وهو يرمق الدخان الأسود المتصاعد من المباني.. (هذه الجهة مغلقة!)..

(اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!).. (إخلاء.. إخلاء!)

(راتا تا تا تا تا! راتا تا تا تا تا!)

* * *

وأدناه (بيل) من وجهه ليتلامس الأنفان.. وبلهجة رصينة حاول أن يجعلها مرعبة غمغم:

- «ليكن معلومًا لديك أنني أمقت الملونين والبولنديين.. وكل أولاد الـ (.....)»

وهنا شعر (إيجور) بأنه يخترق ذهن الصبى.. أفكاره تدوي في ذهنه بوضوح غير عادي:

«يجب أن أحطمه... يجب.. لا يبدو سهل الكسر... لكنّ كرامتي تتوقف على تحطيمه.. يجب أن أجعله يولول كالفتيات».

شعر (إيجور) بامتنان لهذا الاختراق الأخير.. فقد أفاده كثيرًا، وعلم منه أن الصبي يهابه كما يهابه هو.. ليس (بيل) واثقًا من نفسه إلى الحد الذي يحاول أن يبدو به، لهذا استجميع قواه.. وكل ذرة في كيانه.. ووجه لكمة قوية مرعبة إلى محجر عين (بيل)..

«آي!.. لقد آلمتني كثيرًا أيها الخنزير؟»

لكنّ (بيل) لم يصرخ.. ألقاه أرضًا وتحسس عينه في تؤدة.. إن (بيل) يملك قدرة غير عادية على ضبط النفس دون شك برغم كل الصراخ الذي يسمعه (إيجور) في ذهنه...

أخيرًا استعاد (بيل) روعه.. فأخذ نفسًا عميقًا.. ثم نظر إلى الذئاب المحيطين به وهتف:

- «يا شباب.. قد جرؤ على ضربي.. تصوروا هذا! لقد جرؤ البولندي على ضرب (بيل هاكمان)!»

- «هووووه! فلنحرقه حرقًا!»

- «سنطعمه للصراصير!»

رفع (بيل) يده في وقار وهو يتحسس عينه:

- «لا.. لا.. إن البولندي ولد شجاع.. إنّه يملك أحشاء (كناية عن الشجاعة).. لهذا أرى أن نجربه.. معًا نأخذه إلى بيت آل (كيلي)..!»

- «مرحى ى ى ى!»

- «هوووووه!»

وهكذا يجد (إيجور) البائس نفسه مجرورا من ثيابه جرًا إلى بيت آل (كيلي).. البيت المهجور الذي يهابه الجميع في الجوار ويتحدثون عنه في تحفظ..

كان هناك بعض الكبار يمرون في الشارع ويرمقون ما يحدث.. لكنّ أحدهم لم يتدخل.. فقط كانوا يهزون رءوسهم في ضيق مغمغمين: (يا لشباب هذه الأيام).. أو.. (جيل ملعون)..



ووجد (إيجور) نفسه يُجذب من ياقة قميصه إلى أعلى
ليرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات ..

الواقع أن (إيجور) لم يكن ليطلب عونهم أبدًا، فكرامته تأبى الاستعانة بسلطة خارجية مهما كانت.. ولهذا لم يشك أفعال (بيل) لمدير المدرسة أو لأبويه قط.. لو فعل هذا لكف (بيل) عن مضايقته، لكنّ (إيجور) لن يعتبر نفسه منتصرًا.. إنها مشكلته وهو وحده المسئول عن حلها..

* * *

ويلوح البيت المشئوم لعيني (إيجور)..

الحديقة غير المعتنى بها منذ أعوام، والبوابة المغلقة بجنزير وقفل ثقيل ضخم..

ثم البيت نفسه الجاثم ككابوس عتيق وسط هذه الحديقة..

كانت النوافذ والأبواب موصدة بإحكام، وعلامات القدم تلوح على كل شيء.. فمنذ أن فر آخر ساكن للبيت وهو يصرخ في الساعة الثانية صباحًا؛ لم يعد أحد يجرؤ على استئجار البيت، وظل اسم الزوجين (كيلي) اللذين قتلا في هذا المكان منذ عشرين عامًا علامة على البيت..

(البيت يقترب أكثر فأكثر...)

كان هذا هو بائع اللبن الذي لاحظ أنّ هناك عددًا أكثر من اللازم من زجاجات اللبن على الباب، وهذا معناه أن الزوجين سافرا أو.....

(إن الليل يدنو سريعًا في هذا الوقت من العام..)..

الجيران غير مصدقين.. فالحقيقة التي يعرفها الجميع هي أن (هوارد كيلي) الزوج يعاني من التواء في مفصل الكاحل، ومن المستحيل أن يغادر الدار لمدّة أسبوعين أو أكثر..، ويتم إبلاغ شرطي الحيّ (جوناثان) الذي يجد من واجبه أن يحاول رفع نافذة المطبخ.. ثم يثب من خلالها إلى داخل الدار...

فماذا رأى وماذا وجد؟

(هلمّ يا أصفر.. إن البيت ينتظرك)..

قال المحققون: إن أداة القتل كانت فأسًا.. وإن الجاني قد تسلل إلى البيت من الباب الخلفي، ووجدته الزوجة أمامها في المطبخ.. ثم جاء دور الزوج الذي كان جالسًا جوار (الجرامافون) يصغي إلى أسطوانة صاخبة أو أي شيء آخر يحدث ضوضاء لا يسمع الصراخ معها..

إن الجاني لم يسرق شيئًا.. فهو إذن يندرج تحت قائمة هواة القتل.. أو أن سبب الجريمة كان شخصيًا.

المهم أن الملف قد أغلق إلى الأبد.. لكنّ البيت لم يغلق ملف القضية بعد...

(هل تستطيع فتح الباب يا (بيل)؟)

ومن يومها يرى الجميع أضواء غامضة تتحرك ليلًا.. ويسمعون أصواتًا وضحكات، وقد نجح البيت في طرد ثلاث أسر ظنت أنها لا تعبأ بكل هذا الهراء..

المجانين فقط يجسرون على دخول البيت.. المجانين والبولنديون المغلوبون على أمرهم...

والان هو ذا (بيل) يعالج القفل بمطواته، ثم يزيح الجنزير.. واضح أنه فعلها مرارًا..

ويدخل الجميع إلى الحديقة التي بدأ ضوء الغروب يغلفها باللون الأزرق الشاحب.. إنها مرعبة لكنّها لم تصر رهيبة بعد.. ستكون كذلك بعد ساعتين..، إن الأشخاص الحساسين مرهفي الحس

يخافون أكثر من سواهم.. هذا معروف...
و (إيجور) حساس مرهف الحس..
لهذا تنتظره ساعات مروعة....

* * *

- ٥ -

قال (بيل) وهو يشعل لفافة تبغ [إن الصبي في الثانية عشرة من عمره لكنه كما قلنا آنفًا مشروع سفاح]:

- «إليك قواعد اللعبة يا أصفر.. أنت وحدك داخل البيت حتى الصباح.. وبعدها نجيء لنحررك ونعترف بأن لك أحشاء...»

في تحد غمغم (إيجور) وهو يصلح من شأن ثيابه:

- «لن أقبل قواعدك.. وسأعود إلى داري..»

نفث (بيل) الدخان في وجهه، وناول اللفافة إلى ذئب من الواقفين حوله ليكملها.. ثم قال في سخرية:

- «ليكن يا أصفر.. كنت دومًا أقولها: إن البولنديين جبناء كفئران.. ستعود لدارك سالمًا.. لكنّ الناحية كلها ستعرف مدى جبنك غدًا..»

- «سأشكوكم لمدير المدرسة..»

- «ها..!» - قالها في ثقة - «لن تستطيع لأنك ستكون وقتها كالفتيات اللواتي ما إن يشد أحد ضفائرهن حتى يهرعن مولولات إلى أمهاتهن.. أنت لم تنحدر إلى هذا الدرك بعد.. لابد أن لديك بعض الرجولة تحت هذا المظهر الناعم الخامل..»

كان يقولها وأفكاره تدوي في ذهن (إيجور).

«لن يقبل.. أنا أعرف هذا.. إن هذا أقوى منه».

عندئذٍ - وعندئذٍ فقط - رفع (إيجور) رأسه في شمم.. وحرر ذراعه ممن يمسكونه، وقال:

- «كيف تدخل إلى هذا المكان؟»

* * *

الأمر سهل يا (إيجور).. إذ توجد نافذة خلفيّة واطئة تسرب الصدأ إلى مفاصلها، فلم تعد تنفتح إلا في وجود خمسة رجال أقوياء يتعاونون معًا.. ونحن خمسة.. سنفتح لك النافذة لتدخل منها لكننا سنرحل.. وسيكون عسيرًا بل مستحيلًا عليك أن تعيد فتحها.. لا داعي للقول إن كل الأبواب والنوافذ موصدة بإحكام من الخارج..

«هي هي هي هي!»

والآن خذ هذه الشمعة وعود الثقاب معك، بالطبع لن نترك لك طعامًا أو كتبًا تقرؤها، لأننا لا نتوقع أنه سيكون عندك وقت لأي شيء عدا الصراخ..

* * *

تسلق (إيجور) حاجز النافذة المغبر.. وشعر بخيوط العنكبوت تلف وجهه بشبكة محكمة، فراح يسعل ويبصق..

ومن خلفه سمع صوت النافذة تنغلق ببطء.. وبصعوبة.. وإصرار لا يتزحزح من عصابة (بيل)..

- «حظًا سعيدًا يا (إيجور)!»

- «لا تنظر وراءك فلربما كان المنظر مرعبًا!»

- «هي هي... لا تستسلم للنوم.. فالنائمون هدف سهل!»

جميع أنواع الضحكات الساخرة: (هي هي) و(ها هاه) و(نيا نياه) و(ياهاااااه) و(هو هو هو)...

لكن - وسط الضحكات - يسمع (إيجور) بوضوح أفكار أحدهم تردد في الظلام:

«*لقد وقع في الشرك.. عند منتصف الليل يأتى دورنا كما حدث مع ذلك المكسيكي في الشهر الماضي..*»

ظلام دامس في الداخل.. لكنّ صبرًا حتى تتعود عيناه.. فليس من الحكمة تبديد الشمعة من الآن..

لابد أنّ هذا موعد العشاء في داره، لابد أن أمّه تتساءل في حنق عن أين ذهب ذلك الوغد الصغير.. تتساءل في حنق لكنّ دون قلق حقيقي..

في الصباح ينال بعض صفعات وركلات..، لكنه لن يبوح بسر ليلته.. لقد وعد عصابة (بيل) بذلك..

كان واثقًا من عدم وجود شيء.. فهو لا يؤمن بالأشباح.. لكنه يهاب خياله الخصب حقًّا.. هذا الخيال هو عدوه الحقيقي...

وكان هذا الخيال قادرًا الآن على جعله يرى ألف شبح، ويشم ألف جثة متعفنة في أرجاء المكان..

لكنه - حين اعتادت عيناه الرؤية - أدرك حدود الأشياء، وعرف أنه يقف في غرفة كرار تناثر فيها غبار الأعوام ونسيج العناكب.. بمعجزة يتحول هذا الشبح الذي فتح ذراعيه إلى مشجب قائم.. ويتحول هذا الشيء الواقف ينتظره إلى صندوق قديم....

مشى في تؤدة بين

(صرير الأرضية هذا..!)

قطع الأثاث القديم المهملة، وثمّة فأر إنسل مذعورًا من أمامه..، وأخيرًا وصل إلى مقبض الباب فأداره.. المزيد من الصرير..، يوجد مكان متسع أمامه لكنه لا يدري كنهه.. ربما هو صالة أو...

(هل هذه حقًّا رائحة عطن عادية؟)

غرفة جلوس..، يبدو أن أوان إشعال الشمعة قد حان..، أين الثقاب؟، شريك! شريك! الشمعة تتوهج.. و..

«*أخيرًا.. رجل شجاع بعد هذه الأعوام!*»

من قال هذا؟!..

ثمة من يفكر ها هنا!.. لقد سمع الصوت واضحًا في ذهنه تمامًا.. ومعنى هذا أنّ هناك من يفكر في الحوار! ولكن من؟ لا يوجد أحد.. ثم.. ما معنى العبارة؟

للمرة الأولى بدأ يشعر بالذعر.. شعر رأسه تصلب.. وتحولت قدماه إلى عودين من المكرونة المسلوقة..

لكنه واصل التقدم عبر الصالة الواسعة، ثمّة من يقف وراءه! أدار رأسه فلم ير أحدًا..

واصل المسير ببطء.. ببطء.. لماذا لا يقبع ها هنا حتى الصباح وينتهي الأمر؟ لا يدري.. إن فضولًا جامحًا راح يحركه كي يتفقد البيت.. وليته ما فعل..

«إنّه صغير السن.. لكنه شجاع حتمًا..»

التفكير مرّة أخرى! تبًّا! هذه البقعة السوداء على الجدار تشبه ما يمكن أن يحدث لو أنّ هناك من سكب زجاجة حبر.. ولكن.. ألا تفهم معناها؟ إنها بقايا دماء.. بقايا المذبحة التي حدثت هنا منذ عشرين عامًا!

أحس بالقشعريرة.. الخوف الحيواني غير المبرر يتسرب إلى روحه، فراح يردد بالبولندية لنفسه:

«لن تخاف!.. لن تخاف!»

كان هذا حين بدأ صوت (الجرامافون) يتردد..

سمع المقطع الأول من أغنية قديمة تعود إلى عشرينات القرن، فوثب إلى الوراء مترين..

«لن تخاف!.. لن تخاف!»

نعم لن يخاف لأنّه خائف بالفعل..

إن الصوت قادم من القاعة التالية.. كالمسحور يمشي إلى هناك والشمعة ترتجف في يده فيرسل لهبها ظلالًا جهنمية في كل مكان..

وحين اجتاز الباب رأى جهاز (الجرامافون) العتيق على مكتب أكثر قدمًا، وقاعة هي أقرب إلى غرفة جلوس واسعة بها أثاث كثير مغطى بالملاءات المغبرة.

وكان (الجرامافون) يدور باعثًا أغنية خشنة الصوت.. لقد كانوا على حق!

يوجد شبح في هذا البيت..

لو لم يكن هناك شبح فمن هو هذا الكهل الذي يرتدي (روبًا).. ويجلس على الأريكة يدخن مسترخيًا؟!

* * *

لم يكن شبحًا ضبابيًا ككل الأشباح التي تحترم نفسها، بل كان تجسدًا ماديًا كاملًا.. لكنه لم يكن يترك ظلًا.. وحين تأمله (إيجور) جيدًا أدرك أن رأسه مهشّم.. وأن خصلات شعره قد اختطلت بالدماء المتجلطة..

لكن وجه الشبح كان حكيمًا هادئًا.. وكان يرمق (إيجور) بعينين شفافتين صادقتين..

وتنهد الصبي.. وانتظمت ضربات قلبه..

برغم كل شيء ليس الأمر مرعبًا إلى هذا الحد....

- «تقدم يا (إيجور) ولا تخش شيئًا.. إنني جالس ذات الجلسة أصغي لنفس الأسطوانة التي كنت أصغي لها حين... حين توفاني الله.. ومعذرة على عدم نهوضى لك لأن كاحلي يؤلمني كما تعلم».

صاح (إيجور) في هلع وهو يتقدم برغمه نحو الجالس:

- «هل.. هل تعرفني؟»

- «إن الأشباح تعرف أشياء كثيرة يا بني.. وكذلك أنت.. إن لك موهبة الشفافية.. لهذا يصير التفاهم بيننا ممكنًا.. لا كالآخرين!».

- «هل كان هناك آخرون؟»

- «كثيرون منهم.. لكننا نكتفي بإرعابهم حتى لا يزعجونا.. من الصعب أن يُحكم على المرء بالجلوس هكذا إلى يوم الدينونة، ثم يكون عليه أن يتحمل فضول الفضوليين وسفه السفهاء.. تكفي المرء مشكلة واحدة في حياته وبعد مماته.. لكنّ دعني أصارحك إنني أمقت الزحام!»

خطر لـ (إيجور) هنا ما قاله الكثيرون ممن رأوا الأشباح إن الأشباح تبدو حقيقيّة أكثر من اللازم، وليس لها هذا الحضور الطيفي الذي تظهر به في السينما..

وهنا ظهرت الزوجة...

قادمة من المطبخ كما هو واضح.. لأنهّا تلبس (المريولة) وتحمل المغرفة في يدها.. الظريف هنا هو أنها كانت بدون رأس! الرأس أطاره الفأس يومًا ما منذ عشرين عامًا.

- «هيه يا (هنري)!.. يبدو أن لديك ضيفًا ها هنا..»

- «ضيف غير عادي على العشاء يا (ماري).. نحن لا نرحب عادة بالضيوف لكنّ هذا الصبي يختلف.. إنّه شجاع وشفاف يا (ماري).. إنّه قادر على مساعدتنا..»

هتف (إيجور) في هلع وهو يتراجع خطوة إلى الوراء:

- «أساعدكم؟.. كـ.. كيف؟»

- «بالطبع يا (إيجور).. إن الأشباح مخيفة لكنّها لا تملك سوى القليل جدًّا مما تستطيع فعله.. إنها تكتفي بالظهور وإطلاق الصيحات.. ربما تحريك الأثاث.. لكنّها عاجزة عن فعل ما هو أكثر..، ونحن في مشكلة يا (إيجور).. لقد قتلنا.. وقتلنا بطريقة بشعة.. يبدو لي أنك تعرف الكثير عن الموت برغم سنوات العشر»

- «أعرف الكثير..»

صادقًا قالها (إيجور).. مطرقًا إلى الأرض قالها.

- «إن قانون الأشباح صارم يا بني.. ما دام قاتلنا حرًا طليقًا وحيًا فإن الراحة الأبدية ليست من حقنا.. وعلينا أن نجول في هذا البيت إلى يوم الدينونة..»

- «إذن.. قاتلكما ما زال حيًّا؟!»

قالت المرأة وخيط من الدماء ينساب من عنقها ليغرق الأرضية، و(أدرك (إيجور) هنا أنّ هذا يعود إلى تجدد الذكريات الأليمة. في ذاكرتها):

- «بالتأكيد.. إنّه سفاح مخبول يُدعى (جيروم سلفستر) وهو سائق شاحنة يتنقل باستمرار ما بين الولايات... إنّه لم يكف عن ممارسة القتل للتلذذ.. لكنه تعلم شيئًا: تعلم دفن ضحاياه حتى لا تجدهم الشرطة، وهناك أكثر من عشرين مفقودًا ومفقودة هو المسئول عن رحيلهم»



وحين تأمله (إيجور) جيدًا أدرك أن رأسه مهشم . .

جلس (إيجور) للمرة الأولى على إحدى الأرائك، غير مبال بطبقة الغبار التي تكسوها.. وقال وهو يتأمل لهب الشمعة المتراقص، مفكرًا في حقيقة أنه يجري هذا الحوار الودي مع شبحين لزوجين هلكا منذ عشرين عامًا:

- «ولماذا لم تحاولا الوصول إليه للانتقام.. ما دمتما تعرفانه وتعرفان مكانه؟»

انتهت الأسطوانة فانسابت الزوجة ببطء إلى مكان (الجرامافون) ووضعت واحدة جديدة.. ثم قالت بصوتها الذهني:

- «قلت لك: إن الأشباح تملك القليل مما تفعله.. وقد تعود (سلفستر) على أشباح ضحاياه حتى إنّه لم يعد يعبأ بها.. ولم تعد تخيفه..»

- «وأين هو الآن؟»

- «في (ألاباما).. إنّه في الخمسين من عمره.. لكنه بصحة جيدة، وهو يبحث الآن عن ضحية الفأس القادمة!»

- «وكيف لي أن أساعدكما؟»

- «سنقول لك كيف.....»

قال (إيجور) وهو يصغي لصوت الأغنية القديمة ينبعث من بوق (الجرامافون):

- «أنا لا أريد صفقة.. لكني أطلب منكما خدمة مقابل ما سأقدمه لكما..»

- «أي شيء؟»

- «إن عصابة الأوغاد التي قادتني إلى هنا عائدة عند منتصف الليل لغرض ما لا أدريه.. سيفعلون معي ما فعلوه مع المكسيكي الشهر الماضي.. هل كان هناك مكسيكي ها هنا؟»

دوى صوت الزوج في ذهن (إيجور):

- «آه.. لقد فعلوها ثلاث مرات.. إن هؤلاء الصبية لا يؤمنون بوجود الأشباح.. لهذا كانوا يقودون صبيًا منهم إلى هنا - مثل ذلك الصبي المكسيكي - ويدعونه يقضي ليلته وحيدًا.. وعند منتصف الليل يتسللون إلى داخل البيت لإرعابه.. وثق بأنهم ينجحون في ذلك!»

قالت الزوجة في إشفاق:

- «في المرّة الأخيرة قاموا بوضع جوال على رأس هذا البائس.. ثم علقوه إلى السقف بخطاف، وراحوا يضربونه على أصول فخديه.. والصبي يصرخ ويولول ظانًا أن الأشباح هي التي تضربه.. يا لها من قسوة..!»

أضاف الزوج:

- «في الصباح يطلقون سراحه، بعد أن يصيبه الذعر بنوع من الخبال.. في العادة يظل صامتًا فلا يعرف منه أحد أي شيء عن ليلته الرهيبة».

قال (إيجور) في غيظ وهو يتأمل الغرفة:

- «وأنتما؟.. ألا تتدخلان؟»

- «نحن لا نبالي بسخافات الصبية هذه.. نحن نهتم أكثر بالعائلات التي تحاول استئجار البيت.. أو المتسكعين الذين يتسللون إلى الداخل..»

- «لكنّ هذه قسوة!»

- «حين يطير رأسك بالفأس يا بني.. لا تصير هذه الأشياء قاسية جدًّا بالنسبة لك!»

قالتها الزوجة بلهجة لوم لم تغب عن (إيجور)..

قال (إيجور) وهو ينهض من على الأريكة، وقد بدأت الفكرة تختمر في ذهنه:

- «يا سيد ويا سيدة (كيلي).. أنا بحاجة إليكما لتأديب هؤلاء الأوغاد.. ستكون هذه هي الخدمة التي أريدها...»

وعلى شفتيه تلاعبت ابتسامة شيطانية..

* * *

- ٦ -

اضرب فورًا.. اضرب في المكان الصحيح.. اضرب بكل ما لديك من قوة..
هذا هو شعار الجنرال...
راتا تا تا تا... بوم!.. رابا تا تا تا... بوم!..
«بحق العذراء (مريم) لتعمن الدماء الأرض..»
«هذه الجهة مغلقة!»
«اخرس!.. إنك تثير أعصابي!.. اخرس!»

* * *

منتصف الليل:
أربعة أشباح تدنو من البيت، يحمل أولها كشافًا صغيرًا.. ويحمل الباقون بضع أكياس ملأى.. الأول هو (بيل) - طبعًا - الذي يتقدم المسيرة كأنه جنرال نازي يخترق شوارع قرية فرنسية محتلة.. إنّه ينوي إثارة هلع البولندي كما لم يحدث طيلة حياته.. سيجعله يبول في سرواله على حد قول (بيل) بلغته السوقية الفظة..
- «(بيل).. أنا خائف!»
- «صه أيها الأحمق.. كيف تخيف وأنت خائف؟»
- «إن.. إن المكان مظلم.. يخيّل إلى أن الأشجار حية تصغي لكلامنا..»
- «حقًّا؟ سأجعلها تحمر إذن من بذاءة كلامي!»
وبيد عصبية عالج قفل البوابة.. ودلف الأربعة إلى الداخل.. وعلى ضوء الكشاف اخترقوا الحديقة المظلمة حتى وصلوا إلى تلك الفتحة في جدار المطبخ التي اكتشفها (بيل)، والتي غطاها بلوح من خشب..
هكذا يتسللون إلى الدار دون إحداث جلبة..
قال (بيل) وهو ينزع سترته:
- «هل الملاءة معك يا (جو)؟»
- «نعم.. ورأس المذءوب»
- «والجمجمة مع من؟»
- «معي..»
قالها أحد الصبية وهو يلوك قطعة من العلكة في استهتار..
- «والضوء الأحمر والسلاسل مع (سام)..»
- «حتمًا!»
- «حسن.. وأنا معي العصي والحبال.. ليكن..»
ثم تأمل عصابته على ضوء الكشاف.. وغمغم في قسوة:

- «أريد أن تخرجوا أقذر وأقسى ما عندكم.. سيكون بابا (بيلي) فخورًا بكم جميعًا.. هيا!»

* * *

أضاءوا كشاف الضوء الأحمر.. ثم ارتدى (سام) - أطولهم قامة - الملاءة ليغطي جسده بالكامل.. وثبتوا الجمجمة فوق رأسه ولفوها بالملاءة ليبدو كأنه هيكل عظمي تحرر من أكفانه...

- «كيف أبدو؟»

- «مروعًا!»

وعلى ضوء الكشاف الذي يلقى ظلًا أحمر رهيبًا على الأشياء، بدأ (سام) يتقدم.

(صرير الأرضية هذا...!)

نحو غرفة الكرار التي - حتمًا - يقبع (إيجور) فيها يرتجف..، في نفس اللحظة وضع (بيل) قناع المذءوب الرهيب على رأسه..، وراح (جو) يحرك السلاسل محدثًا ذلك الصوت المعدني الكئيب الذي يزعمون أن الأشباح تحدثه..

لا شيء.. المنزل مظلم كالقبر.. صامت كالضريح.

تساءل ذو العلكة الذي حمل الكشاف في يده:

- «أين هو؟»

قال (بيل) في عصبية وقد صار صوته مكتومًا، من وراء قناع الذئب الذي يخنقه خنقًا:

- «فلنتفرق.. ليبحث كل في اتجاه.. وأرجوك أن تبصق هذه التي تلوكها حتى لا أهشم أسنانك!»

وبدأ الأوغاد يتفرقون...

غير ناسين - طبعًا- أن يطلقوا الكثير من الـ (هووه) والـ (ووووه) بصوت جنائزي مكتوم..

كان (بيل) هو أول من دخل غرفة المعيشة..

هناك رأى (إيجور) متكومًا جوار الشمعة على الأريكة، فبدا كقط تعس وحيد....

و من خلف قناع المذءوب ابتسم (بيل) ابتسامة شيطانية.. وتقدم بتؤدة نحو..

(رباه!.. إن هذا القناع يلهب الوجه بالعرق)

الجسد الممدد على الأريكة..

راح يتلوى.. ويحرك جسده بعصبية مصدرًا الأصوات التي يُفترض من المذءوب أن يصدرها...

سيكون مرعبًا على ضوء الشمعة القادم من أسفل.. الضوء منخفض المستوى يعطي تأثيرًا شيطانيًا.. الكل يعرف هذا..

وهنا رأي الرأس يرتفع ببطء.. كان مهشمًا تمامًا والدم المتجلط يغمره..

عندئذ أدرك - متأخرًا جدًّا - أنّ هذا ليس (إيجور).

* * *

(سام) يتحرك في ملاءته وهو يبصر طريقه مستعملًا الثقبين الموجودين أمام عينيه..
كان يستعمل كشافًا صغيرًا، لأن (توماس) حامل الكشاف الأحمر يبحث في مكان آخر..
لا يوجد أثر لهذا البولندي.. هذه هي غرفة المكتب لا أرى أحدًا.. فلنجرب غرفة أخرى..
وهنا رأى أمامه سيدة في منتصف العمر تسد الطريق عليه.. كانت ترتدي مريولة المطبخ.. لكنّ وجهها القسيم ينم عن طيبة ورقة لا شك فيهما..
أجفل ثم هدأ قليلًا وتراجع للوراء خطوة:
- «أنت أيها الشاب قد أفزعتني.. لماذا ترتدي هذه الثياب المخيفة؟»
استجمع كلماته ليغمغم في رهبة:
- «مـ... من أنت؟»
- «بل من أنت أنت؟ ومن أين جئت بهذه الجمجمة؟»
قال لها وهو ينزع الملاءة عن رأسه:
- «أنا (سام).. وهذه الجمجمة مجرد دعابة..»
ورفع الجمجمة من على رأسه ليقدمها لها..
(ثمّة شيء غير مريح في كل هذا.. من هذه المرأة)
هنا قالت المرأة في رقة وهي تقبض على خصلات شعرها:
- «حقًّا؟.. أنا مسرورة لذلك لأن هذا الرأس أيضًا مجرد دعابة..!»
قالتها وانتزعت رأسها من فوق كتفيها..

* * *

أما عن (جو) فهو يمشي محركًا السلاسل في يديه، وفي فمه كشاف صغير يتفقد به المكان..
إن هذا المكان مخيف حقًّا.. لا غرابة أن يرى الناس فيه أشباحًا من كل.... نووووووع!
حمدًا لله! ليس هذا شبحًا.. إنّه (سام).. يا له من تنكر متقن! إذن فالبولندي ليس في هذا القطاع..
ليت (بيل) ينسى الأمر برمته ويدعوهم إلى الرحيل.. دنا من (سام).. وتثاءب.. ثم قال بعدما نزع الكشاف من فمه:
- «إن منظرك مفزع بالفعل.. هل وجدت شيئًا؟»
لا رد...
-«(سام).. تكلّم.. أنا خائف بالفعل فلا تحاول زيادة رعـ...»
لا رد....
هنا تقدم من الملاءة وأزاح طرفيها ليرى ما بالداخل.. وبينما هو يفعل ذلك تذكر شيئًا.. شيئًا مخيفًا...
إن الملاءة التي جاءوا بها كانت نظيفة.. أمّا هذه فهي مغبرة ملأى بالقبع.. معنى هذا أن.....
تذكر هذا وهو يفتح الملاءة ليرى ما بداخلها على ضوء الكشاف.....

*
*
*



من خلف قناع المذءوب ابتسم (بيل) ابتسامة شيطانية ..
وتقدم بتؤدة نحو ..

الآن نجيء إلى (توماس) حامل الكشاف الأحمر الذي أعاد العلكة إلى فيه وراح يلوكها وهو يتفقد المكان في لا مبالاة.. كان يحبّ العلكة لأنها تعطيه طابعًا من الاستهتار.. والرعاع يجب أن يكونوا مستهترين..

حينما دلف إلى قاعة الجلوس كان مار آه يفوق الوصف...

كان زملاؤه (سام) و(بيل) و(جو) ممدين فوق الأرائك المغبرة، وقد بدوا أقرب للموت منهم للحياة...

دنا منهم مذعورًا، ليتفحصهم على ضوء الكشاف الأحمر؛ حين فوجئ بشخص يقف جواره.. جواره..

كان عجوزًا يرتدي الروب وقد تهشّم أكثر جمجمته، واختلط الشعر الأشيب بالدم المتجلط...

احتبس الصراخ في فمه، وانحشرت العلكة في حنجرته..

قال العجوز وهو يشير إلى الباب في صرامة، بصوت غير قادم من هذا العالم:

- «هؤلاء رفاقك على ما أظن.. غادروا بيتي حالًا.. ولا تعودوا ها هنا أبدًا!»

لم يدر الصبي ما يحدث..

يذكر أنه كان يركض نحو الباب جارًا (بيل) من ذراعه، وقد أراح رأس (جو) الأشعث على صدره، وأن (سام) كان يسير كالزومبي معدوم الإرادة نحو الباب الذي انفتح فجأة..

وابتلعهم الظلام.....

وأخيرا عاد الهدوء....

لا شيء سوى صوت ضحكات هستيرية تصاعدت من حلق (إيجور) وهو يخرج من مكمنه.. لقد لقنوا هؤلاء الأوغاد درسًا قاسيًا.. أقسى من اللازم في الواقع لأن دورية الشرطة ستجدهم بعد ساعتين يهيمون على وجوههم ذاهلين في شوارع الحيّ.. ولسوف يسفر استجوابهم عن فقدان ذاكرة جزئي، فلا أحد منهم يعرف أين كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون في هذه الساعة.

لقد نال كل من هؤلاء عقدة حياته التي ستبدل مجرى شخصيته إلى أن يموت، وبالتأكيد لم يبق واحد منهم كما هو بعد هذه التجربة..

لقد غزا وجوههم ذات التعبير المرير الكئيب الذي يغزو وجه (إيجور)....

تعبير من عاش أقسى تجاربه...

* * *

قال (إيجور) ضاحكًا:

- «لقد نالوا جزاءهم...»

قال الزوج وهو يعود لمجلسه:

- «والآن يا (إيجور) جاء دورك لمساعدتنا»

- «أنا مستعد..»

- «سيكون عليك أن تبلغ الشرطة باسم الرجل.. (جيروم سلفستر).. إنك لن تنساه.. أليس كذلك؟»

- «بلى..»

- «سنخبرك بأماكن دفن ضحاياه.. وستخبر الشرطة لاحظ أن لديهم بصمات لا يعرفون صاحبها..، وأنت ستخبرهم باسمه ومهنته والولاية التي يوجد بها الآن»

- «هذا ليس عسيرًا..»

كان الوداع حارًا، وقد أدرك (إيجور) أن الشبحين سيرحلان للأبد بمجرد أن يلقى (سلفستر) جزاءه..

لكنه لم ينس آخر كلمة قالها الزوج قبل الفراق:

- «إن موهبتك الإلهية يا (إيجور) تجعلك شفافًا كالماء.. يُمكنك أن تنفذ إلى الأرواح وإلى الأشباح..، إنها نعمة.. لكنّها سلاح خطر إلى أقصى درجة، ولسوف يجلب لك متاعب كثيرة آمل أن تنجح في اختراقها..».

كان الشبح صادقًا إلى حد كبير...

* * *

الجزء الثالث

(مانهاتن) - ١٩٥٢

- ٧ -

يا أيام المراهقة العزيزة...

ذلك الحنين الموجود إلى شيء لا تدري كنهة لكنك تحبه بعنف.. الحاجة إلى أن تحلّق بعيدًا.. بعيدًا إلى المكان السحري الذي تتفتح فيه زهور البرتقال، ويتم تفتيت الأقمار لصنع النجوم منها، حيث يبدأ قوس القزح، وتهاجر الطيور وزفرات المحبين، ذلك المكان الذي لم يُرسم على الخرائط بعد، والذي تنتظر فيه الإجابة على أسئلة أبدية مثل: أين تذهب الفصول؟ ومن هي الفتاة التي اختارها لك القدر؟ وإلى أين تحمل مياه الجدول أوراق (التيوليب) التي رمتها أناملك فيه؟

عندئذٍ تنظر إلى القمر وتتنهد، كأنك تستنشق أشعته الزرقاء الباردة إلى رئتيك.. وتغمغم:

- «رباه!.. إنني أكبر...!»..

* * *

(إيجور) اليوم في السادسة عشرة من عمره..

ستة أعوام كاملة قد مرّت عليه منذ أن كان في العاشرة من عمره، يثرثر مع الأشباح في دار (كيلي).

ستة أعوام منذ كتب لشرطة (ألاباما) يخبرهم بتفاصيل لا تصدق عن سائق شاحنات عجوز يدعى (جيروم).. لقد ملأت أنباء القضية الصحف، لكنّ أحدًا لم يعرف صاحب الخط الطفولي الذي سطر هذه الكلمات.

يا لها من ذكريات!

* * *

يومًا فيومًا كان (إيجور) يزداد سيطرة على مفاتيح قدرته على اختراق الأذهان...

وهو اليوم يعرف أنّ هذه الموهبة ليست قاصرة عليه وحده.. فهناك آخرون في هذا العالم يملكون هذه القدرة، ويعرف أن اسمها هو (الإدراك الفائق للحس)، وأن دراسات واسعة تجري على هذا الموضوع..

لكنه أدرك كذلك أن قدراته متشعبة.. فجزء منها هو قراءة الأفكار.. وجزء منها هو التخاطر أو (التليباثي).. وجزء منها هو (الوساطة) أو قابلية التخاطر مع الأشباح والأجسام غير الماديّة.. لقد جرب هذا الجزء بنجاح تام من قبل..

كالعادة كانت نعمة (إيجور) هي نقمته..

فإدراكه الفائق للحس جعله يزداد مقتًا للناس.. كل هذا الزيف والنفاق.. كل هذه الشراسة والوحشية..

كاد يؤمن أنه لا يوجد إنسان صادق في هذا العالم..، وكادن قد نزح مع أبويه إلى (مانهاتن) حيث التحق بالمدرسة الثانوية.. وفي مدينة كبيرة كهذه كانت النفوس أكثر تعقيدًا وغموضًا.. ولم يعد هناك شيء واحد واضح..

لكن هذا لم يمنعه من أن يشعر بلذة المراهقة الأليمة.. وأن يدرك أنه ـ برغم كل شيء ـ شاب عادي جدًّا طبيعي جدًّا..

أغاني (الروك أند رول) ـ اختراع الخمسينات الوليد ـ وحفلات المدرسة، وسباق السيارات بين الطلبة وبعضهم.. ومحاولة الظفر بموعد لاصطحاب فتاة إلى المرقص..

هذه هي قواعد المراهقة الأمريكية الصارمة...

وكان على (إيجور) أن يجاري هذه القواعد بحذافيرها..

* * *

هناك تفصيل صغير آخر يجب أن نذكره...

لقد حصل (إيجور) على كتيب صغير يتحدث عن محاكمات (نورمبرج) تلك المحاكمات التي أجريت بعد الحرب لقادة النازي.. وأدارها الحلفاء...

شرع يقلب الصفحات، وقد راحت الذكرى الأليمة تتردد في ذهنه...

جنرال (فون أونبرجر)... مذنب...

راتا تا تا تاه!

جنرال (هاينزفون شميدت).... مذنب...

(اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!).. راتا تا تا تاه!

جنرال (سيدلتز جابلر).. فار من الأحكام!

تصلب شعر رأسه...

إنه لن ينسى الاسم ماعاش.. لقد سمعه من العم (أندريه) مرارًا.. وظل يحاول تخيّله.. كيف يبدو هذا الرجل الذي أباد أسرته بالكامل؟ الذي دمر شارعهم وجيرانهم.. أحال الماضي والحاضر والمستقبل إلى كومة من الغبار الساخن.. والآن هو يرى صورة الرجل أمامه..

كان يبدو كأي رجل وسيم آخر في الأربعين من عمره.. شعر رأسه أشقر قصير.. وعلى ياقة سترته علامة (الصاعقة) وصليب (رومل) الخاص بالقوات البرية يزين صدره...

له عينان زرقاوان نفاذتان.. وتجعيدتان توحيان بقوّة الشكيمة على جانبي فمه.. الأرستقراطية الآرية كما يجب أن تكون.. حين يموت هذا الرجل سيموت وهو يبتسم في تعال..

ولكن كيف يمكن أن تصدق أنّ هذا الرجل سفاح..؟

كانت التهمة ضده تقول: إنّه ارتكب عددًا من جرائم الحرب ضدّ المدنيين في (وارسو) حين كان حاكمًا عسكريًا للمدينة.

يا للامبالاة! عدد من جرئم الحرب!.. لكنّ هذه الجرائم تتضمن القضاء على أسرتك وأصدقائك وجيرانك! ما أهون الموت حين يكون مجرد خبر في جريدة أو سطرًا في حكم محكمة!..

(ملحوظة من د. (رفعت): يذكرني هذا الموقف بقصة الأديب الألماني (إريك ماريا ريماك) المسماة (كل شيء هادئ في الجبهة الغربية).. حينما مات البطل في نهاية القصة برصاص القناصة؛ كان تقرير القيادة هو: كل شيء هادئ في الجبهة الغربية، أي أن واحدًا فقط مات مما لايُعد خسارة فادحة.. برغم أنّ هذا الواحد كان له أصدقاء وأهل وأحلام لم تتحقّق قط..)

المشكلة الأسوأ هي أنّ هذا الجنرال ما زال حيًا...

ما زال فارًّا ينعم بحريته!...

لماذا لم يقبضوا عليه؟ لماذا لم ينتقموا منه؟

كان يعرف الإجابة: لأنّه لم يرتكب مذابح ضدّ اليهود!

فقط هؤلاء الذين قتلوا اليهود هم الذين لاقوا جزاءهم.. وحوكموا.. بل وتم اغتيالهم ولو كانوا في أطراف الأرض أمّا (سيدلتز جابلر) فهو مجرد جنرال وديع (ارتكب عددًا من جرائم الحرب) التي سرعان ما تنسى...

وأحس (إيجور) بالمرارة....

ثم إنّه عمد إلى صورة الجنرال، فقصها من الكتيب.. وألصقها على الجدار كما يلصق المحب صورة حبيبته.

كان هذا الوجه هو أول وجه يراه حين يصحو وآخروجه يراه حين ينام، ولقد انعقدت بينه وبين صاحبه علاقة مُعقدة من الحب والبغض.. ذات العلاقة التي انعقدت بين جند (مونتجمري) وعدوهم (روميل) في الحرب العالمية الثانية.. كانوا يكرهون (روميل) ويعجبون به.. ويعلقون صوره في خزائنهم.. حتى إن (مونتجمري) القائد الإنجليزي اضطر إلى إجراء علاج نفسي لهم قبل خوض معركة (العلمين)..

(سيدلتز جابلر).. لسوف نلتقي..

أعدك بذلك إن كنت حيًّا...

* * *

لم يكن (إيجور) من الشباب المرموقين في المدرسة، أولئك الذين يصفهم التعبير الإنجليزي بـ (ذوي الشعبيّة).. فهو ضعيف الجسد لا يمارس الرياضة، ولم يكن ذا وسامة ملحوظة.

لكنه كان متفوقا في الدراسة إلى حد ملفت للأنظار، وهذا يعود طبقًا إلى موهبته الخاصّة..

فحين يقول المعلم وهو يبتسم بخبث:

- «سيكون الامتحان مفاجأة لكم..»

كان (إيجور) يسمع صوت الرجل يتردد في عقله بوضوح تام:

«ترى ماذا يفعلون حين أطرح سؤالًا عن ميكانيكا الكم عليهم؟»

وكان الامتحان يصل إلى عقله كاملًا، دعك بالطبع من أفكار المحيطين به في أثناء الامتحان ذاته..

لم يكن يعتبر هذا غشًا.. فهو لم يبذل جهدًا في معرفة ما لا يجب أن يعرفه.. كانت الأفكار تطرح نفسها طرحًا..

* * *

هناك شخص ما لكل شخص.. وكانت (جلاديس) هي الشخص المناسب لـ (إيجور).

الفتاة التي لم تنظر إلى عضلاته الواهنة، ولا أنفه غريب الشكل.. لكنّها نظرت إلى ذكائه وإلى عينيه الزرقاوين الشفافتين حتى إنها لترى روحه من خلالهما.

قالت لصديقتها يومًا وهي تحاورها:

- «إن هذا الحزن في عينيه هو ما يشدني إليه.. إنه بحاجة لشخص ما.. وأنا بحاجة إلى من يحتاج إليّ»

راحت تلاحقه بكل تلك الأساليب الرقيقة التي يمكن لمراهقة خجول أن تلاحق بها مراهقًا أكثر خجلًا..، وفي الصف كانت هي الوحيدة التي تتحمس لإجاباته.. وتضحك لدعاباته.. وتبدي تعاطفًا غير عادي مع زلاته.

كيف كانت (جلاديس) تبدو؟

لا أرى داعيًا لتضييع الوقت في وصف لون شعرها وعينيها وثيابها.. إلخ، فهذا لا يعني أحدًا سوى (إيجور).. المهم هو أنه كان معجبًا بها هو الآخر.. وكان لها عقل صاف كقطرة ندى.. عقل دخله كثيرًا، وشم فيه رائحة زهور (الجلاديس)..، وعرف أن صاحبته من البشر القلائل الذين هم في داخلهم أجمل من خارجهم...

الواقع أنها كانت أيامًا لا تنسى في حياة (إيجور).

حفلات المدرسة الصاخبة حيث يصطحب (جلاديس).. ويدوى صوت المطرب الرخيم مرددًا «دعنا نرقص (التويست) ثانية»، عندئذٍ كانت (جلاديس) تدور بعودها النحيل يمينًا ويسارًا.. وشعرها المعقوص يتبعها متأخرًا ثانيتين.. دائمًا متأخرًا ثانيتين.. وعلى وجهها البرىء الماكر قليلًا

- لا يدري كيف - ترتسم ضحكة من القلب..

عندئذٍ كان يشكر الله على أنه وجد في هذا العالم، الذي هو (أفضل العوالم المحتملة)..

وبمرور الوقت تلاشى وجه (سيدلتز جابلر) من أمام عينيه؛ فلا يرى سوى وجهها....

«هلموا.. دعنا نرقص (التويست) ثانية..

كما فعلنا الصيف الماضي...»

* * *

كم دام هذا الحلم؟

دام عامًا أو أكثر قليلًا.. ولماذا انتهى؟

انتهى لأن الربيع ينتهي دائمًا.. ومنذ بدء الخلقية..

كان هناك (هاري كارلسون).. جاء إلى المدرسة في الشهر الأخير قادمًا من ولاية أخرى....

(هاري) هذا يملك جمال الشياطين.. بالتأكيد تبدو الشياطين جميلة.. وإلا فكيف تجعل الناس يضلون طريقهم؟

كان فارع القامة عريض المنكبين.. يزن أرطالًا لا بأس بها، ويجيد قيادة سيارته الفاخرة بسرعة البرق، دعك من تفوقه في لعبة كرة القدم إلى الحد الذي جعل المدرسة كلها تبح من الصراخ.. (بالمناسبة: كرة القدم الأمريكية لا علاقة لها بما نعرفه نحن.. بل هي لعبة عنيفة جدًّا يتم ارتداء الدروع الواقية فيها واستعمال اليدين..، أمّا كرة القدم التي نعرفها فيطلقون عليها اسم (ساكر).. ولا يميلون إليها كثيرًا)..

كانت الفتيات جميعًا رهن إشارة (هاري)، وكل واحدة تتمنى أن يحبّها هي...

لكن - كما قلنا هناك شخص ما لكل شخص..

وكانت (جلاديس) هي الشخص المناسب لـ (هاري).

* * *



لكن ـ كما قلنا ـ هناك شخص ما لكل شخص ..

وكانت (جلاديس) هى الشخص المناسب لـ (هارى) ..

- ٨ -

حين استطاع (إيجور) أن يخترق ذهن (جلاديس)، لم يكن ما سمعه باعثًا على الاطمئنان..

«إن هذا الـ (هاري كارلسون) وسيم حقًّا.. وسيم وقوي ويعرف كيف يعالج أموره.. إن الفتاة لتشعر بالاطمئنان معه...»

ثم تنهدت تنهيدة عقليّة كادت تذيب خلايا مخ (إيجور):

«ليت (إيجور) يملك ربع مزاياه.. إن الرقة وحدها لا تكفي كي يصير الرجل رجلًا..»

وشاعرًا بالغصة في حلقه؛ حاول (إيجور) اختراق عقل (هاري) الذي كان جالسًا في الصف يرمق (جلاديس) في إصرار وتركيز.. دون أدنى متابعة لما يُقال من المعلم المتحمس...

ولم يكن ما سمعه مريحًا:

«لذيذة.. أليس كذلك؟!»

شعر (إيجور) بتعاسة بالغة.. لماذا اختارها هذا الوغد دون كل حسناوات الصف اللواتي يناسبنه تمامًا؟ إن الفتاة هشة ولا تحتمل هجمات هذا البطل المغوار.. إن ما بينها وبين (إيجور) هامس لم يجرؤ واحد منهما على تسميته حبًا بعد.. فلماذا هي بالذات دون غيرها؟! ولماذا (إيجور) دون سواه؟

وكانت الإجابة سهلة.. إذ سرعان ما أدرك (إيجور) أن الفتى يريد انتزاع (جلاديس) منه لمجرد أنها له.. كان من هؤلاء الذين يهمهم أن يحرموا الآخرين سعادتهم لمجرد التسلية..

بالإضافة إلى أن الفتى كان يحقد عليه لتفوقه، وهو الصراع المحتم بين سادة العضلات وسادة الأفكار.. كلاهما يمقت الآخر ويعتبره عدوه الطبيعي.. وفي كل صف دراسي يتكرر هذا الموقف: يتحرش أقوى الطلبة بأذكاهم..، كأنما القوى يقول للذكي: دعني أر ما صنعت بذكائك..

استطاع (إيجور) أن يعرف نهاية هذا التودد من (هاري)، ولسوف يتخلى عن (جلاديس) بمجرد أن تتخلى هي عن (إيجور)..

«إنها رقيقة لكنّها ليست طرازي حتمًا..»

وحدثت الكارثة..

صارت: (جلاديس) أقل شغفًا بكلام (إيجور) وأقل تركيزًا.. لم يعد يجدها على الهاتف حين يطلبها في الموعد اليومي.. وحين يمازحها لم تكن تظهر ما يدل على فهم دعاباته.. بل تعتبر هذا كلامًا عاديًا تنتظر نهايته..، وغدت أفكارها أكثر سوادًا:

«يا للبائس! كيف سيفهم؟ كيف سيتحمل؟ إنّه لن يجد مغفلة أخرى بعدي، وسيموت وحيدًا كالقملة..!».

والآن لم يعد الناس يرون (جلاديس) إلا مع (هاري).. يسير بجسده الرياضي جوارها، ويعاملها كإحدى أميرات القصص..، وكان سرور الأنوثة وكبرياؤها يجعلانها تبدو كبطة فخور، وهي تمشي جواره وتتجاهل الحسد في عيون البنات أترابها...

وعرف الجميع أن (إيجور) قد انتهى...

* * *

(إيجور) نفسه هو أول من عرف هذا؛ لأنّه اخترق العقلين وعرف كل شيء قبل أن يحدث شيء..

آثر أن يبتعد لكنه قرر أن يخوض مغامرة أخيرة يحاول بها إقناع (جلاديس).. اتصل بها هاتفيًا طالبًا اللقاء أمام دارها..

حاولت التنصل بفتور لكنه أصر..

- «من فضلك يا (جلاديس).. ستكون هذه آخر مرة..».

ووضع السماعة قبل أن تجد ردًا..

وبعد نصف ساعة وجدها واقفة أمام دارها، وقد دست يديها في جيبي سروالها وراحت تلوك قطعة من العلك، واستندت بكوعها إلى صندوق البريد لتبدو مسترخية.. لكنه رأى قلقها في ذهنها...

قال لها وهو يستند إلى الجانب الآخر من الصندوق:

- «(جلاديس).. أنت لم تعودي لي.. أليس كذلك؟»

في ضجر هتفت:

- «أوه! (إيجور).. لم يتغير شيء.. نحن صديقان.. وسنظل كذلك»

- «لم أردك صديقة..»

- «ستجد ألف (جلاديس) أفضل مني..»

اللفظة الخالدة التي تقولها النساء منذ ملايين السنين الرجال لا يملن إليهم.. لو كانت هناك (جلاديس) أخرى لما كانت هناك مشكلة.. لكنّ هناك واحدة فقط في العالم.. وقد ضاعت!

ابتلع ريقه وقرر أن يلقى ورقته الأخيرة:

- «(جلاديس).. إنّه ينوي أن ينهي علاقته بك، بمجرد أن تصيري طوع بنانه..»

- «هذا ما يُقال دومًا!»

- «أنا لا أتكهن.. أنا متأكد..!»

- «وما الذي يجعلك كذلك؟»

- «لأن.. لأنني أقرأ الأفكار.!»

كما هو متوقّع ضحكت في عصبية.. فهذا المعنى يمكن أن يُفهم بشكل مجازي.. ولم تبدُ على استعداد لتصديق حرف..، قال لها وهو يبلل شفتيه الجافتين بطرف لسانه:

- «منذ الطفولة وأنا أقرأ الأفكار ولا أدري كيف.. هل تريدين أن أقول لك ما يجول بذهنك الآن؟»

- «سيكون هذا مسليًا..»

- «تفكرين في المعنى التالي: إن فرصة أن يحبك فتى مثل (هاري) لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر، وأنت لن تدعيها تضيع من أجل بولندي عاطفي.. أليس كذلك؟»

نظرت له في دهشة للحظة.. ثم هزت رأسها:

- «هذا لا يحتاج إلى ذكاء كي تخمنه..»

- «حسن أنت الآن تعبثين في جيبك متسائلة عن كنه هذا الشيء المعدني الموجود بداخله.. هل هذا صواب؟»

مدت يدها بعد أن أخرجتها من جيبها.. وتأملت المفتاح الذي في كفها.. وغمغمت:

- «إنّه مفتاح (لورين).. لقد نسيته معي.. ولكن كيف خمنت؟»

- «لأنني أقرأ الأفكار.. هل نسيت؟!»

فتحت فمها لتتكلم.. لكنه بادرها بالكلام أولًا:

- «الآن ستقولين: أتوسل إليك يا (إيجور).. دعني وشأني.. أنا لم أعد طفلة.. ولم أعد أريدك بعد اليوم..، هل أصبت؟»

نظرت له في استسلام.. وتنهدت:

- «حسن.. ربما كنت تملك نوعًا من الحاسة السادسة.. أو أن وجهي مرآة لأفكاري أكثر مما ينبغي..، هذا لن يغير شيئًا من قراري: كُفّ عن ملاحقتي وانس الماضي.. أوكاي.؟»

تنهد هو أيضًا في استسلام:

- «لقد نلت حريتك...»

واستدار مبتعدًا....

هل هي الأمطار أم الدموع تلك التي تبلل خديه؟ ليس واثقًا.. فلا فارق هنالك.. سواء أكان هو من يبكي أم السماء...

* * *

- «لقد تخلى عنها!»

راتاتاتاتاه! «هذه الجهة مغلقة!».. جنرال (سيدلتز جابلر) فار من (نورنبرج).. «هيه يا أصفر.. إن البولنديين جبناء..»

ويستدير مدفع الدبابة ببطء نحوه...

راتاتاتاتاه! بوم!.. «اخرس»

- «إن (هاري) سريع الملل.. لم تعد تمثل له شيئًا»

- «هي ليست طرازه على كل حال...»

راتاتاتاتا!.. «اخرس.. إنك تثير أعصابى.. اخرس!»

بدأت الأقاويل تنتشر.. وراحت (جلاديس) تذبل.. سرى الشحوب إلى وجنتيها وصارت أكثر صمتًا وشرودًا.

اكتسبت ملامحها طابع الخبرة المروعة.. طابع من عرف قبل الأوان ما كان ينبغي ألا يعرفه...

ذات الطابع على وجه (إيجور)، وعصابة (بيل) بعد حادثة البيت المسكون إياها....

لقد تخلى عنها (هاري) سريعًا.. وبدون أن تهتز له شعرة..

وأدرك (إيجور) أسفًا أنها تحطمت إلى الأبد، وأنها تحتاج إلى عشر سنوات حتى تثق برجل آخر..

هذا إن كان لها أن تثق بأحد ثانية، عرف كذلك أنها لن تعود له أبدًا.. فكرامتها والشعور بالذنب يحجباتها عنه

بهذه السهولة والبساطة تحولت أحلى سني عمرها إلى أتعس وأظلم فترة تمر بها.... لقد ذبحها (هاري) ذبحًا..

راتاتاتاتا!..

«اقتلوهم وادفنوهم هنا!..».. «هذه الجهة مغلقة!».. بوم!!

* * *

(هاري كارلسون) الوسيم محطم القلوب يجلس في كافتريا المدرسة يمزح مع رفاقه، ويلتهمون ساندوتشات (الكلاب الساخنة) ويجرعون الكولا، ويثرثرون.. عن الفتيات قطعًا..

كان هذا حين مشى (إيجور) في هدوء إلى المائدة التي يجلس إليها.. لم يلاحظ أحد أنه تناول زجاجة (الكيتشاب) - الصلصة الحارة حتى لا يغضب المعربون - ورفعها.. وبكل إصرار أفرغها فوق رأس (هاري)، الذي لم يجد الوقت الكافي ليندهش...

ساد الصمت المكان...

وثب (هاري) وفمه ما زال مليئًا بالطعام، والشطيرة في يده، وقد تلوث رأسه ونصفه العلوي بالصلصة..

- «هل؟ هل جننت؟»

كان رأسي (إيجور) عند صدره.. كفه في حجم رأس (إيجور).. صفعة واحدة ستطيح بالأخير إلى الحائط....

لكنه تمالك نفسه..

جذبه من مجمع ياقتي سترته ليدنيه منه، وفي عينيه معنى القتل.. وقرب أنفه من وجهه وصاح:

- «أنا لا أريد ارتكاب جريمة!»

كان واضحًا معنى ما يقول، فهو قادر على إزالة (إيجور) من على ظهر البسيطة دون جهد...

قال (إيجور) في هدوء: ا
ـ «أنا أتحداك يا (هاري كارلسون).. يجب أن تدفع ثمن إيذائك لشخص معين يهمني أمره..»
بدا الذهول على وجه (هاري)..
ـ «تتـ.. تتحداني؟ هل تمزح؟»
ـ «بالعكس.. لقد أهنتك وعليك أن تقبل التحدي لحفظ كرامتك أمام الجميع!»
ـ «عم تتحدّث بالضبط؟!»
ثم نظر إلى من حوله.. وقهقه فتناثر الطعام من فمه:
- «يا شباب.. هذا الفتى يدعوني إلى المبارزة!»
- «هو وووووه!»
ـ «اقتله يا (هاري)!»

* * *

«يا شباب.. لقد جرؤ على ضربي.. تصوروا هذا! لقد جرؤ البولندي على ضرب (بيل هاكمان)!!»
راتاتاتاتاتا! بوم... راتاتاتاتات!.. بوم!

* * *

قال (هاري) وهو يسترخي في مقعده، ويجفف الصلصة من على شعره ووجهه بالمنشفة:
ـ «أية مبارزة؟ بالسلاح أم بقبضات اليد؟ أنت تعرف أنني قادر على سحقك دائمًا..»
قال (إيجور) بذات الهدوء:
ـ «إن معك حقًّا في هذا.. لهذا أقترح طريقة أخرى لتصفية الحساب تتيح تكافؤ الفرص.. إنها تعتمد على الشجاعة فحسب، الشجاعة ولا شيء آخر..»
ـ «سأكون الأفضل.. كالعادة!»
كان يسير مندفعًا نحو المصيدة التي نصبها له (إيجور)..
مصيدة الهلاك....

* * *

- ٩ -

اللقاء في معمل الكيمياء - بعد أسبوع:

شد ما يمقت (إيجور) (هاري)! ليس الأمر نابعًا من الغيرة بل هو نابع من كراهيته للقسوة.. القسوة في كل صورها.. إنّه يمقت (جابلر) لهذا كره (بيل) وشنأ (هاري).. إنهم جميعًا يملكون الملامح ذاتها.. ذات النظرات الباردة التي لا تعبأ بآلام الآخرين.. ذات الصلافة والإحساس بالقوة..

كان عليه أن يدمّر (سيدلتز جابلر)..

لهذا بدأ بتدمير (بيل).. والآن جاء دور (هاري).. كلها درجات سلم تقود إلى (جابلر)....

* * *

كان المكان مظلمًا فلم يجسر أحد على إضاءة النور الكهربائي.. لكنّ الكشافات كانت تؤدي الغرض...

كشاف في يد (إيجور) وكشاف في يد (هاري)، وكشاف في يد (إميل) صديق (هاري) والذي جاء كشاهد على ما سيتم.. وكان هناك رجل من أصل بولندي يُدعى (سوبار) دعاه (إيجور) كشاهد له..

كان (هاري) يبتسم بثقة لكنّ (إيجور) سمع أفكاره:

«رباه... ماذا جاء بي ها هنا؟.. إن المكان مخيف ليلًا!»

قال (إيجور) بعد ما انتهت واجبات التعارف:

- «كما قلنا آنفًا يا (هارى).. الطريقة الوحيدة للمبارزة بيننا هي الاعتماد على الشجاعة والحظّ.. الأولى هي المقياس الوحيد لرجولة الرجل.. والثاني يسميه البعض حظًا وأسميه أنا عناية السماء..»

- «اختصر..»

قالها (إميل) في نفاد صبر وهو يتأمل المكان في اهتمام...

ستكون كارثة لو عرفت الإدارة بأمر تسللهم إلى المعمل ليلًا.. إن (إيجور) هذا مخبول حقًّا، ولولا حماس (هاري) وإصراره على التحدي ما قبل (إميل) أن يأتي معه ها هنا..

قال (إيجور) في نفاد صبر وقد ضايقته أفكار (إميل):

- «إن ما سنقوم به حالًا لهو اختبار للشجاعة والحظّ معًا.. هات الزجاجتين يا (سوبار)..»

مد البولندي يده إلى جيب سترته، فأخرج قارورتين من النوع المستعمل في معامل الكيمياء.. ووضعهما على المائدة.. كانتا تلتمعان بشكل شرير في ضوء الكشافات..

قال (إيجور):

- «سنلعب الآن اللعبة القديمة الشهيرة: من يشرب السم؟.. إن واحدة من هاتين القارورتين لا تحوي سوى الماء.. والأخرى تحوي تركيزًا عاليًا جدًّا من سم (السيفين) الذي يستخدم كمبيد

حشري..، سيكون على كل منا أن يجرع زجاجته في نفس اللحظة تقريبًا أمام الشاهدين.. وعندئذٍ سيموت أحدنا.. وهو من يفتقر إلى الحظ!»

هتف (إميل) في حنق وهو يجذب ذراع صديقه:

- «يا للسماء!.. ويظن أننا سنشارك في هذا السيرك؟ هيا بنا يا (هاري) ودع هراءهما لهما..»

كان (هاري) مبلبل الفكر حين أضاف (إيجور):

- «وهنا يأتي دور الشجاعة.. إن من يرفض هذا الاختيار سيحكم على نفسه بالجبن، وتعرف كل المدرسة الثانوية أنه رعديد فر من التحدي ..»

هتف (هاري) وهو يرمق الزجاجتين:

- «لكنّ الشرطة.. الناجي لن يفلت من الشرطة»

- «بالعكس.. إن المراهقين ينتحرون لسبب أو لآخر.. أنا بسبب فشلي في الحب وأنت بسبب فشلك في الدراسة.. ستقول الشرطة إن المتوفى تسلل إلى المعمل وابتلع زجاجة (السيفين) بعيدًا عن الأنظار.. أمّا الباقون منا فسوف يلزمون الصمت.. لأنّهم قد تورطوا في الأمر بما يكفي..»

صاح (إميل) في عصبية:

- «هيا بنا يا (هاري).. دعك من هذا..»

ابتسم (إيجور) في ثقة ودس يديه في جيبه:

- «ليكن.. لو كنت مكانك يا (هاري) لما جازفت مع بولندي مجنون مثلي.. سأعود إلى داري وأنعم بعشاء دسم، لكني غدًا سأخبر كل مخلوق في الكون عن قصتنا الصغيرة..».

لو كان (هاري) أكبر بعشر سنوات لترك كل هذا.. لكنه كان في عنفوان الشباب حيث تغلى حمية الجاهلية وشهوة التحدي في الدماء، ويصير الموت نفسه مقبولًا حتى لا يتهم بالتراجع.. كان (إيجور) يعرف أنه سيقبل..

- «أيها القذر!.. إنك قد وضعتني في شرك لا مفر منه»

كانت هذه من (هاري) طبعًا..

هنا توقف (هارى) وابتلع ريقه وقال في ريبة:

- «وما الذي يضمن أنك لم تتلاعب بالقارورتين؟ يمكنك دومًا أن تضع علامة على القارورة المأمونة»

قال (إيجور):

- «ترى أن القارورتين متماثلتان في الحجم والشكل.. وعلى كل حال يُمكنك أن تختار قارورتك أنت أولًا فينتفي الشك..»

هتف (إميل) في عصبية للمرة الرابعة:

- «إذن ربما جعلك تختار القارورة السامة بالإيحاء»

- «كفاك سخفًا يا (إميل)..»

ثم إن (هاري) رفع رأسه وأخذ نفسًا عميقًا:

- «ليكن.. هيه!.. أنا أقبل التحدي لمجرد أن أعلمك أنني أفضل منك.. وليكونن الحظ في جانبي كما كان دائمًا..»

ابتسم (إيجور) في توجس:

- «هذه روح طيبة.. أعتقد أنك ـ على الأقل - رجل شجاع يملك أحشاءه..»

قال (إميل) في تعاسة وهو يتامل الزجاجتين:
- «لحظة.. إن رائحة (السيفين) مميزة بالتأكيد... ويستطيع من يشمها أن يتوقف في آخر لحظة..»
- «نقطة جيدة..» - قال (إيجور) - «ولهذا سيسد كل منا أنفه بالقطن قبل فتح قارورته..»
وأضاف وهو يتأمل العرق البارد على جبين (هارى):
- «يجب أن أصف لك ما ينتظر الضحيّة.. أولًا عرق غزير ينهمر على الجبين.. ثم القيء.. والإسهال.. بعدها تضيق الشعب الهوائية وتبطئ نبضات القلب، وتتسع الحدقتان.. ثم تبدأ تشنجات مريعة تنذر بالغيبوبة التي لا صحو منها..»
ابتلع (هاري) ريقه.. وغمغم في ضيق:
- «وفر معلوماتك لنفسك.. ولنبدأ..»
ومد يده ليختار قارورة..
«هذه؟ لا.. لا.. تبدو خبيثة الشكل.. ربما هذه؟ ولم لا تكون الأولى؟ فلتأخذني الشياطين إن لم تكن الثانية.. ولكن.. لحظة.. إن هناك قطرات جافة على هذه الزجاجة.. لابد أن زجاجة السم تم ملؤها بحذر باستعمال قمع.. أمّا زجاجة الماء فتم ملؤها من الصنبور.. هه؟ معنى وجود قطرات جافة أنّ هذه هي زجاجة الماء.. لابد أن الأمر كذلك!»
وفي ثقة اختار الزجاجة ذات الجدار الملوث..
تناول (إيجور) الزجاجة الأخرى في صمت جنائزي.
وفي تؤدة أخرج (سوبار) قطعًا صغيرة من القطن ليسد بها فتحتى أنف كل منهما..
وأمام عيني (إميل) المذهولتين رفع (سوبار) يده، معلنًا بإنجليزية رديئة:
- «حان الوقت.. اشربا!»

* * *

راتاتاتاتا!.. بوم!...
«اخرس.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

* * *

الآن يقف الفتيان يتبادلان النظرات، وقد أفرغ كل منهما قارورته في جوفه.. يرسم (هارى) ابتسامة واثقة على وجهه ويتأمل خصمه.. ترى من الذي سيمسك ببطنه ويموت الآن؟
بعد دقائق ثلاث قال (إيجور) في تؤدة:
- «لقد تعمدت رش قطرات من الماء على قارورة السم.. كنت أعلم أنك ستلاحظها!!»
«هيه؟ تعمد ذلك؟ هو بالتأكيد يمزح.. إذن أنا.. لا.. لا يمكن.. إنها دعابة ثقيلة منه.. ولكن ما هذا العرق الذي يغمر جبيني؟ أريد أن أ.. أقيء يء ء ىء..»
ظل (إيجور) يرمق (هاري) في ثبات وأردف:

- «أشكرك يا (هاري) على شجاعتك.. لكني أريد منى - مع سكرات الموت - أن تتذكر وتندم على كل دمعة سالت من عيني (جلاديس) أو عيني... أريد منك في الجحيم أن تذكر أنك حطمت حياتينا..»

وضحك في وحشية..

في اللحظة التي التوى فيها (هاري) على بطنه.. وفي ثوان أفرغ ما بأحشائه.. وعلى الأرض سال خيط من طرف سرواله لم يحتج أحد للتساؤل عن كنهه..

أمام عينيه الذابلتين المذهولتين رأى (سوبار) يخرج من جعبته كاميرا ذات فلاش يلتقط بها صورًا له.. كليك! كليك!

«المجنونان! إنهما يصوران لحظات مصرعى! هل هناك قسوة بهذه الدرجة حقًّا؟!»

وراحت شعب رئتيه تصدر ذلك الأزيز المتحشرج الذي (هواء!.. أريد هواء!)

أثار هلع (إميل) فصاح وهو يركض إلى الباب:

- «إسعاف!.. طبيب!.. إنّه يموت!»

قال (إيجور) للمحتضر وهو يجمع حاجياته المبعثرة في المكان، وينتزع قطعتي القطن من أنفه وأنف (هاري):

- «إن الأمريكان لخاسرون سيئون.. هو ذا صاحبك لم يقبل قواعد اللعبة كما رسمناها.. لن أعطلك كثيرًا يا صاحبي لأننا سنفر هاربين كما تعلم.. نلقاك في الجحيم!»

- «لا.. لا تتركاني.. إنني أووووع!»

هكذا صار المعمل بركة من القيء والإسهال..

وأمام عينيه الخابيتين وهو يهوي أرضًا؛ رأى (هاري) البولنديين يفران.. ولم ينسيا أن يلتقطا له صورة أخيرة....

* * *

في المساء التالي قال مدير المدرسة لزوجته:

- «لم أعد أفهم هؤلاء الشباب.. تصوري (هاري) هذا.. بطل رياضي بكامل لياقته يتسلل إلى المعمل ليلًا.. لماذا؟ لاحتساء زجاجة من الصودا.. والغريب أنه ملأ وصديقه الدنيا صراخًا.. وطلب الإسعاف ليجدوه قد تقيأ ما بمعدته كلها.. وأغرق المعمل بالإسهال؛ مؤكدًا أنه شرب زجاجة من (السيفين) السام..»

- «وماذا حدث؟»

- «لا شيء.. غسيل المعدة لم يجد سوى الصودا.. قال هراءً كثيرًا عن البولندي (إيجور) وعن مبارزة من أجل فتاة.. لا أفهم حرفًا من كل هذا..»

قالت وهي تطفئ المصباح بجوار فراشها:

- «إن الشباب هو الشباب.. وأنت؟ ألم تكن بهذا الخرق حين كنت في عمرهم؟»

- «ربما.. لكني لم أشرب الصودا في معمل مظلم قط..»

* * *

وجلس (إيجور) في نافذة داره يرمق الطريق.. ثمة طفلة على دراجة تحاول العبور..، وكلب صغير يبصبص بذيله.. وعصفور يدندن على غصن شجرة..

السلام...

هكذا خلق الله العالم ليبقي.. هكذا أراده الله أن يكون.. ويجب أن يظل كذلك حتى لو حرقنا الأشرار أحياء...

لقد انتهى (هاري) للأبد...

كل المدرسة تعرف قصته الآن.. ورأت صوره وهو يتلوى ويقيء لمجرد أنه شرب بعض الصودا التي حسبها سامة..

لكم ضحك رجال الإسعاف.. وضحك الأطباء.. ثم ضحك الطلبة حين بلغتهم القصة.. أي رعديد هذا!..

لكنهم لم يعرفوا أن (إيجور) هو من أوحى للفتى بكل هذا.. اخترق عقله وزرع فيه الإحساس بالغثيان.. ورغبة الإسهال والألم... والخوف..

حتى غدا كل شيء حقيقيًا مرئيًا....

كانت زجاجتا الصودا جيدتين.. لكنّ حين يمتزج الإيحاء بالترقب تصير قطرة الماء لها قوة الأحماض وخطرها..

لقد صار (هاري) هو مهرج الصف.. بعدما كان زعيمه..

ارتسم على وجهه ذلك التعبير.. تعبير من عاش أقسى الخبرات مبكرًا جدًّا، واعتزل الحياة الاجتماعية.. ولم يعد أحد يعبأ به...

لقد ذبل كما ذبلت (جلاديس) بسببه يومًا ما...



هكذا صار المعمل بركة من القيء والإسهال ..

والانتقام بعد هذا ـ الحق أقول ـ كان ضروريًا.. وكان (إيجور) عادلًا فلم يقتله برغم أنه يستحق ميتتين..

* * *

كان (إيجور) يكبر...
وغدًا يأتي دور (سيدلتز جابلر)..
سيسحقه كما سحق كل الأشرار في حياته، بعدما انتهى ذلك الطفل الوديع إلى الأبد..
فقط أين هو؟ وماذا يفعل الآن؟..
كيف سيكون الصراع بينهما؟
هذه هي نهاية الجزء الثالث من القصة، وفي الرواية القادمة نستمر مع (إيجور) في فترة نضجه ونعرف أكثر عن موهبته ونعرف كيف ظفر بها..، سنعرف أنّ هناك آخرين مثله ربما يفوقونه في الموهبة..، سيكون جزءًا شائقًا يصير فيه (إيجور) ضيفًا فائقًا للعادة في عالم... ما وراء الطبيعة.
د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

مقدمة لما بعد المقدمة

الجزء الأول (وارسو) -١٩٤٢

- ١ -

- ٢ -

الجزء الثاني (بالتيمور) -١٩٤٧

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

- ٦ -

الجزء الثالث (مانهاتن) -١٩٥٢

- ٧ -

- ٨ -

- ٩ -

روايات
مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة إيجور

إن (إيجور) يجيد الاختراق..
(إيجور) يسمعهم يفكرون.. (إيجور)
يعرف نواياهم.. (إيجور) يعرف كيف
يجتاز ردهات العقل البشري المعقدة دون
أن يضلّ طريقه .. من هو (إيجور) ؟
كيف صار هذا الشخص المخيف ؟
إن لهذا قصة طويلة تبدأ
كما يلي.....



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الجنرال العائد

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٢٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

Extrasensory perception

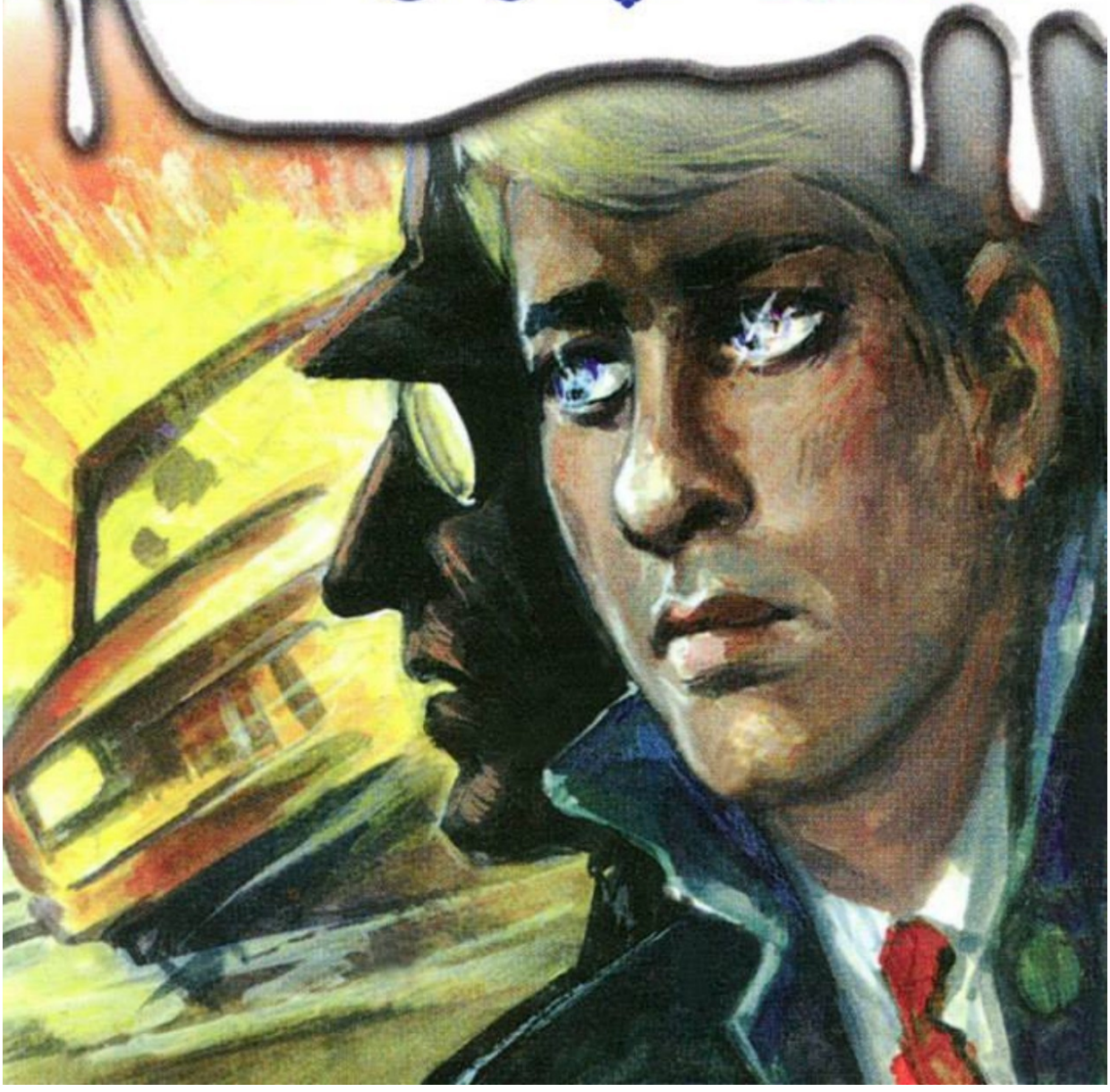
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة

25

ماوراء الطبيعة
الجنرال العائد



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

أنا د. (رفعت إسماعيل) الذي أفنى سبعين عامًا من عمره - تقريبًا - مع قصص الأشباح، جوار توابيت مصاصي الدماء الذين يصحون دائمًا حين لا تريد ذلك، ومع المذءوبين الذين يتحوّلون دائمًا حين لا تتوقع ذلك، ومع لعنات سحرة الماضي التي تطاردك دائمًا حين لا تنتظر ذلك..

يا لها من حياة حافلة تلك التي عشت...!

أرى ـ كما في كلّ مرّة ـ وجوهًا جديدة لم أسعد بلقائها بعد.. ويبدو أن منها وجوه من بلغوا سن القراءة فجأة.. ومنها وجوه من عادوا إلى القراءة فجأة.. ووجوه من كانوا يعتبرونني سخيفًا ثم عدلوا عن رأيهم فجأة...

المهم أن تزداد الوجوه من حولي لأن هذا يسعد قلبي الشيخ وألا تقل الوجوه الآن.... لحظة! هناك وجهان ليسا هنا هذه المرّة! ابحثوا عنهما من فضلكم فأنا أمقت أن أفقد واحدًا من قرائي.. ابحثوا بدقة..

آه!.. هاهما ذان.. أين كنتما أيها الشيطانان؟ لا تعابثا الشيخ (رفعت إسماعيل) ثانية، فهو في سن لا يتحمل الدعابات القاسية..

اليوم أحكي لكم قصة (المزييرة)...

ولكن.. لماذا أنتم غاضبون؟ تقولون إنني لم أستكمل قصة (إيجور) بعد؟ لكني أكملتها.. لم يحدث؟ حقًّا؟

معذرة.. لقد نسيت.. لكني في هذه المرّة لن أكرر ما حدث مع قصة (النافاراي)، فقد أثار هذا عاصفة من الحنق حولي لم تهدأ بعد.. سأحكي لكم باقي القصة (وهي ما زالت ساخنة) إن صح التعبير.. أين كنا قد وصلنا؟..

آه! تذكرت.. حكاية (إيجور) بعد ما نزح إلى (مانهاتن)، وأحب وأضاع حبّه.. ثم انتقامه المروع ممن سلبه حبيبته..

كان هذا في عام ١٩٥٣ حين كان (إيجور) في السادسة عشرة من عمره..

دعونا نواصل القصة إذن.. ولكن سأكتب قبلها صفحة أو اثنتين كي نتذكر ما حدث في الكتيب الأول.....

فلننعش ذاكرتنا!

مولود في (بولندا - وارسو) عام ١٩٣٧، وابن لأبوين بارين يعيشان حياة هادئة.. هذا هو (إيجور تاركوفسكي) بطل قصتنا..

النازي يستولي على (وارسو).. الجنرال السفاح (سيدلتز جابلر) يزيل قطاعًا كاملًا من المدينة من الوجود.. في وسط النيران، والصخب يفقد (إيجور) - ابن السنوات الخمس - أسرته ووعيه، ويتم إنقاذه من تحت الرماد الملتهب، قد صار إنسانًا جديدًا...

وينزح الصبي مع العم (أندريه) إلى العالم الجديد (أمريكا) فارين من (بولندا) التي تحولت إلى جحيم حقيقي، لكنّ (أندريه) السكير العجوز البائس لا يعيش في (أمريكا) كثيرًا لأنّه بلغ لحظة النهاية..

وهنا يجيء دور أبوين بالتبني يكفلان اليتيم البولندي الصغير، لكنّ دون حب حقيقي.. مجرد الحاجة إلى أن يكون لديهما طفل..

ويدرك (إيجور) أن القليلين جدًا يحبونه أو يرحبون به..

فهو يملك موهبة لا يدري كيف ظهرت فجأة.. إنّه قادر على اختراق أذهان الآخرين وسماع أفكارهم بوضوح تام.. لكنّ هذا يظل سرّه الذي لا يصارح به أحدًا...

وكالعادة يبدأ بعض الصبية في التحرش به.. فهو أجنبي ضعيف حساس هش، ويكون عقابهم له فريدًا: عليه دخول المنزل المسكون لآل (كيلي) وقضاء ليلة كاملة فيه..

ويقبل الصبي التحدي ويدخل البيت؛ ليفاجأ بأن أسرة (كيلي) ما زالت هناك في صورة شبحين يبحثان عن قاتلهما...

هكذا يتم التعاون بين (إيجور) وبينهما، هما يثيران الرعب في قلوب عصابة الصبية، وهو يتصل بالشرطة تقبض على قاتل الزوجين الذي مازال حيًا وحرًا.

وهنا ندرك حقيقة مهمّة.. أن كل الأشرار في العالم هم ـ بالنسبة لـ (إيجور) - صورة مكررة من الجنرال السفاح (جابلر)..

* * *

بعد أعوام ستة قابلنا (إيجور) طالبًا في المدرسة الثانوية، وقد بدأ الحب يتحرك في قلبه المراهق تجاه (جلاديس)...

لكن (جلاديس) تتبدل.. لأن هناك من يدعي (هاري كارلسون)، وهذا الـ (هاري) من الطراز الذي لا تستطيع فتاة أن تقاومه..

لكن (هاري) يملك مزية أخرى: إنّه نذل كبير.. وبمجرد أن يستوثق من أن الفتاة قد هامت به حبًا يتخلى عنها، غير مبال بأنه هشم روحها الحساسة للأبد..

يا للشقاء! يصمم (إيجور) على الانتقام ويدعو (هاري) إلى مبارزة من نوع خاص جدًا.. مبارزة بالسم..، ويوافق (هاري) الذي لم يرفض تحديًا في حياته كلها..

لكن (إيجور) يتلاعب به، ويتضح أن القارورتين خاليتان من السم، لكنّ قوة الإيحاء غير العادية لـ (إيجور) تجعل (هاري) يشعر بالسم يمزق أحشاءه ويملأ الدنيا صراخًا... ويغدو مهرج المدرسة وموضع سخريتها..

إن الشر والقسوة هما عدوا (إيجور).. وهو قادر دومًا على أن يرى في كل شرير قاس وجه عدوه (جابلر)..

ترى هل يلتقى الشتيتان؟..

هل يبدأ الصراع الذي انتظر كل هذه الأعوام؟..

من هنا يبدأ الجزء الرابع من قصتنا..

* * *

الجزء الرابع

(مانهاتن) - ١٩٦٠

- ١٠ -

أدار البروفسور (شلوفسكي) جهاز التسجيل، فانبعث الصوت الهادئ للبكرتين إذ تدوران بتؤدة.. ثم عبر الغرفة ليدير جهازًا آخر راح يبعث خلفيّة هادئة للمحادثة.. موسيقا رخيمة سماويّة..

سأل (إيجور) بالبولندية:

- «هل تحب (موتسارت)؟»

رد (إيجور) وهو يسترخي على الأريكة مغطيًا عينيه بظهر كفه:

- «أفضل (البيتلز).. وأرجو ألا تعتبر هذا دلالة على ضحالة ثقافتي..»

أشعل الرجل غليونه، وراح يُطلق الدخان في دفعات قصيرة متتالية.. ثم غمغم:

- «بف ف ف!.. بالعكس.. الموسيقا بالذات.. ف ف! لا تحتاج إلى أي تحيزات مسبقة ولا يمكن أن ترغم أذنك على أن تحب (موتسارت) لمجرد أنه (موتسارت) بف ف ف!»

لكنه لم يغير اللحن برغم كل هذا..

جلس على الأريكة مسترخيًا وهو يجذب الدخان في نهم.. وتساءل واضعًا ساقًا على ساق:

- «الآن ما هي تطورات حالة الصرع هذه؟»

قال (إيجور) وهو ينظر إلى السقف:

- «لا جديد.. إنها تحدث كل أسبوعين كما كانت في البداية.. هناك هذا التوجس والشعور بقدوم كارثة.. ثم.. ثم الشعور بأن ذراعي وقدمي تتحرران من سيطرتي..، ويتبدل العالم من حولي.. كل الأضواء تسطع أكثر من اللازم.. حتى الهمس يغدو عاليًا مرهقًا للسمع، ثم يسود الصمت.. صمت ثقيل كئيب أشبه بالصمت الذي ساد الكون بعد الطوفان.. والظلام.. الظلام البكر الأولى من قبل خلق الكون ذاته..».

- «وحين تفيق؟»

- «الصداع... كما في كلّ مرّة.. الصداع...»

كانا يتحدثان البولندية.. فكلاهما بولندي يقيم في الولايات المتحدة، وكلاهما يشعر بالراحة عند استعمال لغته الأصلية كأنما يجرب حذاء قديمًا مريحًا اعتادته قدماه ثم لفظه واستعمل حذاءً جديدًا ضيقًا..

قال البروفسور (شلوفسكي) وهو يتأمل (إيجور) مليًا:

- «(إيجور).. أنت الآن شاب ناضج في الثالثة والعشرين.. ويمكنك أن تفهم ما أقول، لقد رأيت تقرير المختص في الأمراض العصبية، وعرفت أن رسم المخ الخاص بك سليم تمامًا، كما أنّ أشعة المخ والدماغ طبيعية ولا غبار عليها، وهذا يعود بنا إلى ما قلته لك.. الهستيريا.. تفاعل الهروب من ضغوط خارجية لا مفر منها بالنسبة لك.. أعنى أن مرضك نفسي تمامًا وليس صرعًا على الإطلاق..»

همس (إيجور) وهو يعيد تغطية عينيه:

- «نفسي؟ ولماذا؟ لا توجد لديَّ مشاكل نفسية...»

قاطعه البروفسور في عصبية:

- «حينما يقول لي مريض إنّه فقد أباه وأمه في الحرب أمام عينيه، وهاجر من وطنه إلى وطن يمقته الجميع فيه، عندما يقول لي: إنّه دون مشاكل نفسية فإنني أتهمه بالسخف!»
- «ولكن.. لماذا الآن بالذات؟»
- «لأن الضغوط وصلت ذروتها الآن بالذات..»
وفي أعماق ذهنه سمع (إيجور) البروفسور يغمغم في نفاد صبر:
«هلمّ أيها الأحمق.. لن أقضي اليوم معك ها هنا.. أخرج ما بأعماق عقلك الباطن الخرب هذا.. ألق بكل القاذورات والقطط المتعفنة وأمعاء الخنزير على مائدتي.. ثم انصرف مستريحًا مطمئنًا إلى نظافة روحك..!»
قال (إيجور) وهو يجلس بعد وضع الرقاد الذي أرهقه:
- «لكي أخرج ما بروحي من قاذورات، يجب أولًا أن أعرف مكانها!»
- «هذا ما نحاول عمله الآن..»
وفي سرّه تساءل البروفسور:
«كيف عرف مصطلح القاذورات هذا؟ هووم.. صدفة غريبة حقًّا.. كأنما كان يصغي لأفكاري!»
لدهشته رأى (إيجور) يبتسم بسمة ذات معنى، رآه ينهض في تؤدة إلى جهاز التسجيل ليغلقه.. ثم يعود إلى الأريكة ليقول له وهو يبتسم ذات البسمة الغامضة:
- «هذا صحيح..»
- «ما هو الصحيح؟»
- «إنني أصغي لأفكارك حقًّا.. وهذه هي مأساتي..»

* * *

هذه المرّة قضيا ساعتين في الكلام...
كان البروفسور يعرف أن كل هذا ممكن؛ فهو على قدر من الثقافة والعلم جعلاه يقرأ الكثير من القصص المماثلة.. لكنه لم يتوقع قط أن يلقى أحد هؤلاء الذين سمع عنهم..، والمعجزة التي لا توصف.. معجزة أن تجد أدق أفكارك على لسان الآخرين بمجرد أن تفكر فيها...
- «كيف تسمع الأفكار؟ كيف تبدو لك؟»
تنهد (إيجور):
- «أسمعها كأنما صاحبها يتكلم في رواق واسع.. الصدى يتردد في كل مكان.. لكنّ صوته يكون مميزًا وواضحًا..»
- «والرؤى؟.. هل ترى صورًا معينة؟»
- «أحيانًا.. وأحيانًا ما أرى صور ذكريات تتتابع هناك كأنها في فيلم سينمائي قديم..»
ثم أردف بعد هنيهة صمت:
- «الآن ستقول لي: إن كل هذا غريب ومخيف يا (إيجور)!»
- «.....!»

- «هل تصدقني؟»

- «أصدقك.. عليّ اللعنة لو لم أفعل» - قالها في نفاد صبر - «لكني مذهول.. كما أصدق أنني سأموت.. لكنّ الذهول سيغمرني ساعة الاحتضار..»

بعد هنيهة قال البروفسور وهو يعيد إشعال غليونه:

- «طبعًا كل هذا سر بيننا.. بف ف ف! ما دمت قد أغلقت جهاز التسجيل.. لكنّ هذا الموضوع أكبر مني.. نحتاج إلى خبرة مختصة في علوم (الباراسيكولوجي).. نحتاج إلى آراء الفسيولوجيين وعلماء الأمراض العصبية.. ف ف ف!»

- «وهل تقترح أحدًا كبداية؟»

* * *

.. وهل يوجد غير د. (إدوارد مالكولم)؟

إن هذا الرجل ـ الذي هو شاب في الثلاثين من عمره في الواقع ـ لحُجة في علوم (القدرات الإنسانية الخارقة) أو ما يُسمّى في لغة العصر بـ (الإدراك الفائق للحواس)، له عدة مقالات كلاسيكية في (التخاطر)، كما أنه مهتم إلى حد كبير بالأحلام، وميكانزمات النوم، وقد أعد ـ بمعونة الجامعة ـ معملًا صغيرًا لدراسة هذه الظواهر.. صحيح أن رئيس الجامعة يريد نتائج ملموسة، ويعتبره نصابًا لا خلاق له يجيد تبديد المال فيما لا طائل من ورائه.. لكنّ (مالكولم) كان يمرر يده على رأسه مبعثرًا شعره الأحمر الناعم.. ويزيد عينيه الزرقاوين اتساعًا هاتفًا:

- «بروفسور (إريكسون).. إن هذا الحقل الذي أعمل فيه ما زال حقلًا رضيعًا.. نتائجه لا يمكن قياسها بالترمومتر.. أو جهاز الضغط.. أو رؤيتها على شاشة..»

فيقول (إريكسون) في غيظ وهو يتمنى خنقه:

- «إذن ماذا تريد؟»

- «هذا سهل.. أعطني الوقت والمال والرجال ولسوف أصنع لك التاريخ ها هنا.. لا تتعجلني.. إنما نحن في لحظة ميلاد العلم الذي سيكون هو العلم الوحيد في المستقبل..»

ثم يعقد كفيه كأنما يصلي.. ويهمس:

- «دع المولود يترعرع في هدوء.. أرجوك!»

- «تبًّا!»

والآن نعود إلى بطلنا (إيجور) الذي تردد على معمل (مالكولم) في الجامعة، بناء على توصية من بروفسور (شلوفسكي) أستاذ الأمراض النفسية بولندي الأصل..

لكم من اختبارات أليمة اجتازها (ايجور) حتى صدقوا أنه ليس نصابًا!..، مئات من رسوم الدماغ.. وآلاف من فحوص قاع العين.. حتى إن (إيجور) صار يتوقع في كل ثانية أن يهشموا رأسه بفأس، ثم يخرجوا مخه لفحصه عن كثب..

وكانوا يجلسون (إيجور) على مقعد شبيه بكرسي كهربائي، وقد تم ربط مئات الأقطاب إلى دماغه وقلبه وذراعه.. ولربما غرسوا إبرا دقيقة في عضلات فخذيه.. ثم يوقفون أمامه أربعة أو خمسة أشخاص ويطلبون منه أن يخمن أفكارهم...

وكان في الغالب ينجح...

إلى أن جاء اليوم الذي اصطحبه فيه د. (مالكولم) إلى مكتبه، وجلس خلفه واضعًا ساقًا على ساق ليقول له في مودة:

- «أهنئك يا مستر (تاركوفسكي).. أنت Esper حقيقي..!»

- «ماذا تعني؟»

- «أعني أنك من المتمتعين بالإدراك فائق الحس..»

هذا هو ما وجدوه؟ كل هذا الجهد وكل هذا المال المبدد، من أجل شيء يعرفه (إيجور) منذ أعوام طوال؟!

تساءل (إيجور) في ضيق:

- «وما سبب ذلك؟»



هذه المرة قضيا ساعتين فى الكلام .. كان البروفسور يعرف
أن كل هذا ممكن ؛ فهو على قدر من الثقافة والعلم ..

قال (مالكولم) وهو يتصفح ملفًا مكتنزًا بالأوراق:

- «الحق يا (إيجور) أنه ما من شيء مؤكد ها هنا.. إن كل من يملكون الإدراك الفائق للحواس يقولون: إنهم ولدوا هكذا..، أمّا أنت فإن لديك بداية قاطعة لموهبتك: يوم دُفنت تحت الانهيارات في الخامسة من عمرك..، وهذا يعني أن نقص الأوكسجين الواصل إلى الدماغ كان له دور أساسي في قدرتك هذه..، ثمّة مركز معين في مخك كان نائمًا ثم استيقظ حين نامت بقية المراكز..، كان عليه أن يبقيك حيًا وعرف أن المسئولية هي مسئوليته وحده، يمكن القول أنّ هذا المركز هو المسئول عن اختراق الأفكار كما تسميه، لأنّه قد استيقظ وسيظل حيًّا طيلة حياتك..»

قال (إيجور) وهو يعيد التفكير في هذه الحقائق، كان يعرف دومًا أنّ هذه هي البداية وأن هجوم النازي هو السبب الوحيد لما يعانيه:

- «وهذه النوبات التي تهاجمني الآن؟»

قال د. (مالكولم) وهو يفرد رسمًا للمخ:

- «إن هناك تزايدًا للموجة (دلتا) في رسم مخك الكهربي.. وهذا التزايد مطرد، لا يوجد ما يدل على ورم أو شيء مشابه في الدماغ، لهذا نقول بكل بساطة: إن هذا الجزء يحاول أن يسيطر عليك وأن يمسك بزمام الأمور، لكنّ عقلك الطبيعي يقاوم ويحاول استعادة السيطرة..»

- «لقد فقدتني بالفعل..»

تنحنح (مالكولم) وبحث عن كلمات أسهل:

- «يوجد طاغية في دماغك يحاول أن يحتل الدماغ كله.. لكنّ باقي دماغك يقاوم بعنف.. ومن ثم تحدث النوبات.. ألا تجد أن موهبتك تزداد قوة يومًا بعد يوم؟»

همس (إيجور) في ألم:

- «بلي.. في البدء كانت لحظات (الاختراق) غير اختيارية ونادرة.. ثم صارت اختيارية.. اليوم هي غير اختيارية من جديد لكنّها تحدث طيلة اليوم..»

قال (مالكولم) وهو يغلق الملف:

- «تلك هي مشكلتنا الصغيرة إذن.. تصوّر أنّ هناك عقلًا بشريًا لا يكف لحظة عن التنقل بين عقول الآخرين.. لا أفكار خاصة بك.. ستسمع ضوضاء طيلة اليوم لا تعرف إن كانت منك أم من الآخرين، ستسمع كل أفكار الناس التي لا تريد أن تعرفها، ستشعر بمقت غير عادي لهذا العالم.. شأنك شأن من يرى كل الناس عرايا طيلة الوقت.. إن هذا يثير الاشمئزاز.. لهذا يعاني الـ Espers من حالات قيء متكرر.. واكتئاب مزمن..»

ثم داعب بعض الزهور الموضوعة على مكتبه.. وأردف:

- «إنك ستفقد ذاتيك بالتدريج لتذوب في الزحام..»

في مرارة غمغم (إيجور):

- «إنك لا تكف عن إثارة بهجتي وآمالي..!»

- «هذا عملي.. سنحاول أن ندربك على نوع من (التغذية الرجعية) الحيوية[1].. وبالتالي تتعلم كيف تكبح جماح موهبتك هذه، كما أننا سنعمل جاهدين على تسهيل لقائك بزملاء يماثلونك في هذه الموهبة.. إنهم سيقدمون لك خبراتهم ويعلمونك كيف اجتازوا أسوأ لحظاتهم في هذا الصدد.. أمّا

الآن فلا شيء أقدمه لك أفضل من مستحضرات (البنزوديازبين) المهدئة.. إن النوم أو سكينة الدماغ هي ما تحتاجه الآن..»

سأله (إيجور) في قلق:

- «هل ما ينتظرني مخيف يا دكتور؟»

تحاشي (مالكولم) نظرته.. وغمغم:

- «لقد رأيت حالتين تمران بما تمر به... والنهاية كانت هي الجنون أو الانتحار هربًا من طوفان الأفكار هذا.. فهل تعتبر هذا شيئًا مخيفًا بما يكفي؟!»

.....!

* * *

الحق أنّ هذه الموهبة لم تكن وبالًا كلها...

إن (إيجور) ليغبط نفسه أحيانًا على امتلاكه لها.. من المفيد أن تقرأ خواطر الناس حين تكون موظفًا في مصرف...

خذ عندك هذا الرجل الوقور الذي يتقدم نحوك، وهو يصلح رباط عنقه الفاخر، ويضع حقيبته على (الكاونتر) أمامك في سأم كأنما تضايقه إجراءات المصارف الروتينية هذه.. وينظر إلى ساعته غير ناس أن يمط شفته في اشمئزاز.. تا.. لقد تأخرت كثيرًا جدًا عن موعدي المهم..، وتمر حسناء فيبتسم لها ابتسامة جانبية سريعة.. ثم يقف ليقول لك في هدوء وثقة:

- «أريد تبديل فئة أصغر بهذه الدولارات..»

ويضع رزمتين.. ثلاثًا.. عشرًا من الدولارات عالية الفئة على (الكاونتر) أمامك.. ويتلفت حوله في حذر ليريك أنه يهاب اللصوص.. وينتظر....

عندئذ تسمعه يتحدث في ردهة عقلك:

«أرجو ألا يشك في شيء هذا الأحمق.. إن التزوير متقن.. وأنا أثق بهذا.. المهم أن أبدو واثقًا من نفسي وألا أنصرف سريعًا بمجرد أن يتم الاستبدال.. سأتمهل.. أنظر إلى ساعتي.. أسأله عن عنوان شارع قريب..، أوشك على الانصراف ثم أعود إليه طالبًا استبدال ورقة نصف تالفة.. هذا هو الأسلوب الأمثل..»

عندئذٍ تقاوم الابتسامة الخبيثة التي توشك أن تتحول إلى قهقهة، وتبدأ العبث بأعصاب الرجل..

تمسك الأوراق وتتأملها في النور مليًا وأنت تعرف أنه يكاد يجن.. الهواء يحتبس في رئتيه..

«ماذا يفعل هذا المعتوه؟ إن الدولار ليست له علامة مائية! لا يمكن أن يعرف الحقيقة أبدًا..»

عندئذٍ تطلب منه أن يأذن لك بلحظة.. وتنهض تاركًا إياه يغلي كما لو كان جالسًا على مرجل مشتعل..

وتتأخر بالداخل بضع دقائق.. ثمم تعود له كي تواصل عد الدولارات وتتأمل كلًا منها في النور...

ثم.....

ينتهي أوان المزاح.. تقرع الجرس الصغير أمامك، ويرى هذا النصاب الزى الأزرق لرجل الأمن يتقدم نحوكما.. عندئذٍ يفقد وقاره ويتلاشى كل هذا الكبرياء...

«الشيطان!.. كيف عرفها؟.. لقد كان التزوير متقنًا ومن الدرجة الأولى..»

ويسألك رجل الأمن عما هنالك، فتقول في أدب وقور وأنت تشير إلى عميلك المتأنق:

- «لقد قدم لي هذا السيد دولارات مزيفة.. وأعتقد أننا جميعًا نحب أن نعرف مصدرها..»

عندئذٍ يرتخي جسد المتأنق تمامًا، ويتحول إلى فأر في مصيدة غارق في العرق البارد، ويتحول كبرياؤه إلى بالون فرغ من الهواء تمامًا.. ويقتاده الضابط إلى حيث يقودون الفئران التي لا تجد مهربًا..

نعم.. ليس الاختراق وبالًا على رأسك كله...

عندئذ يدعوك مدير البنك إلى مكتبه، ويهنئك على فراستك فهذه الدولارات مزيفة بإتقان غير عادي.. ويستحيل تمييزها إلا بوسائل تقنية معقدة.. ثم يسألك عن كيفيّة اكتشافها، فتقول في تواضع:

- «لا شيء يا سيدي.. فقط بدا الرجل متعجرفًا أكثر مما يحتمله الأمر.. حتى إنني.. حتى إنني كدت أقرأ أفكاره!»

* * *

وتمضي الوقت الممل في تأمل أنماط البشر الذين يدخلون ويخرجون من البنك، وتصغي لأفكارهم في خبث موقنًا في نفسك أن من يزعمون القدرة على الفراسة هم مغرورون حتمًا...

زحام من الأفكار وضجيج لا يصدّق، يحيط بك في كل ثانية، وبرغم هذا أكثر الناس صامتون..

هذه الحسناء تخطر في رشاقة قاصدة شباك الشيكات، تقول لنفسها في فحيح كفحيح الأفاعي:

«اللعنة على هذا العجوز!.. كلما فكرت أنني بعت شبابي من أجل المال.. من أجل هذه الشيكات المتعفنة التي أنتزعها منه كأنني أنتزع آخر ضرس في فمه.. هذه هي مشكلة الزواج ممن يكبرك سنًا..»

ترى هذا وتقارنه برقة ابتسامتها المصنوعة التي تنم عن حب بريء للكون كله، فتاة لها هذه الابتسامة إنما خلقت كي تلهو كالأرانب والغزلان.. كما في أفلام (ديزني) المتحركة..

لكن أفكارها تختلف بعض الشيء....

وها هو ذا رجل الأمن يرمقها في رزانة ويبتسم.. تسقط منها لفافة فيهرع ليعيدها لها.. تشكره.. فيهز رأسه برشاقة بمعنى: لا تشكريني فهكذا يتصرّف (الجنتلمان) دائمًا...

لكن أفكار هذا (الجنتلمان) تختلف كثيرًا.. أفكار غير قابلة للنشر تتعلق بهذه الحسناء..، الخلاصة أنه سيتحول معها إلى (مينوتور) كاسر يخور ويتصاعد البخار من منخريه....

أما هذا الرجل رث الثياب بادي الفقر فيمشي إلى الصراف؛ ليخرج من جيبه رزمة متسخة من أوراق العملة.. ويعطس عدة مرات، ويقف في ذل منتظرًا أن ينظر الرجل إليه لكنّ أفكاره ترسم صورة مختلفة:

«عشرون ألفًا..! إننا نتحرك بثقة نحو المليون الأول... ولعمري إنّه لشي يستحق أن يضحي المرء بكل هذه اللذات الصغيرة التي يحبّها الناس البلهاء..»

ويبتسم (إيجور) في ثقة.. الحق أنه لإنسان غير عادي.. إنسان متميز ومخيف..، لكنّ لو علم الناس بموهبته هذه لانكمشوا ولراحوا يتطيرون منه ويخشونه...

* * *

وهنا رأى (إيجور) ذلك الشاب الناحل الأسمر يتقدم من (لارا) الموظفة الحسناء.. يقف أمامها.. يتحدث معها في أدب ثم يبرز وريقة صغيرة يضعها أمام عينيها.. وجه (لارا) يمتقع وتبتلع ريقها..

تنظر حولها ثم تعيد قراءة الورقة.. الشاب يبدو أكثر عصبية وتوترًا.. ويناولها حقيبة سوداء كبيرة..

ماذا يحدث بالضبط؟..

مع (إيجور) بالذات لا توجد مشكلة في مطالعة الرسائل لأنّه يراها منقوشة كاملة في وعيه، كما يسمع كلماتها بصوت القارئ كما يحدث في السينما، ماذا تقول هذه الرسالة؟

«توجد تحت معطفي أربعة أصابع من الديناميت الموصل بشحنة كهربية.. وطرفا السلك بين أناملى الآن، عليك أن تملئي هذه الحقيبة بالدولارات عالية الفئة ذات الأوراق القديمة وإلا قمت بتلميس السلكين.. وعندئذٍ سيتلاشى المصرف من على الخريطة..! لا تحاولي الصراخ أو المقاومة.. فأنا يائس ولن أخسر شيئًا لو تحولت إلى كومة من الغبار!..»

كان الأسلوب متماسكًا والخط جميلًا دقيقًا... هذا الخط المميز لمرضى الاكتئاب أو المنغلقين على أنفسهم، ولم يمنع (إيجور) نفسه من الإعجاب بدقة هذا اللص.. إن اللص الذي لا ينسى وضع علامات الترقيم وعلامات التعجب وهو يسرق مصرفًا لهو لص غير عادي..

المهم الآن أن يتم عمل شيء..

(لارا) تهز رأسها الأشقر في إرهاق.. واضح إنها على وشك فقدان الوعي بعد ثانية أو أكثر ما لم تأخذ... ها اه!.. نفسين عميقين.. ثم تتنفس بسرعة.. العرق البارد على جبينها.. تبدو كأنها قد از دردت فأرًا...

إنها تدخل المكتب تاركة الفتى واضعًا يديه في جيب معطفه، وهو يتلفت حوله في قلق...

ثم تعود بعد دقائق مع المدير.. المستر (كوثبرت) البدين ذى الملامح الطفولية يهز كرشه الضخم ويبدو ممتقعًا..

يعيد (كوثبرت) قراءة الرسالة.. ثم ينظر نحو الفتى وعيناه تقولان: لا.. لكنّ الفتى يهز رأسه أن: نعم.. ويفتح زرين من معطفه..

يتبادل المدير الهمس مع (لارا) ثم يشير للحقيبة..

هنا يصيخ (إيجور) السمع إلى أفكار الفتى:

«ليتهمًا يصدقان!.. ليتهما!.. رباه!.. دعني لا أفشل هذه المرّة أيضًا!»

كانت الكاميرا التلفزيونية المعلقة مسلطة نحو الفتى.. ورآه (إيجور) ينظر لها في قلق.. إن كل شرطة الولايات المتحدة ستحصل على صورته بعد ربع ساعة من الآن..، وهذا يحمل معنى واضحًا: إن الفتى يخطط للهرب مهما كانت النتائج.. وحتّى لو لم يقنع المدير بنيته للانتحار.. بالتالي من المنطقي أن يكون مسلحًا.. فما هو سلاحه؟

أحسّ (إيجور) في ذهنه بملمس المسدس.. البارد الصارم الثقيل يرقد في جيب المعطف صامتًا ينتظر.. لكنه أدرك كذلك أن المسدس خال من الطلقات.. لم يكن الفتى راغبًا في التهور مهما كانت الأمور.. لأن عقوبة السارق أخف بمراحل من عقوبة القاتل..

وهكذا تقدم (إيجور) في ثقة يشق زحام العملاء.. حتى وقف عند الشباك بجوار الفتى.. توتر هذا الأخير لحظة.. لكنه افترض أن (إيجور) عميل آخر لا يدري ما يدور ها هنا..

مد (إيجور) يده فوضعها على كتف الفتى.. وهمس:

- «لا أدري لماذا لا أميل كثيرًا إلى رؤيتك هاهنا.. لربما غدت الأمور أفضل لو أنك غادرت البنك الآن!»

- «عم تتحدّث يا سيد؟»
وصاحت الفتاة في هستيريا ومعها مدير المصرف:
- «ابتعد يا (إيجور)!.. إنّه ملغم تمامًا!»
بنفس الهستيريا تقريبًا تراجع الفتى للوراء:
- «ابتعد عني!.. وإلا دفعتم الثمن غاليًا!»
لكنّ (إيجور) يمد يده ليفتح معطف الفتى عنوة..
ويقول أمام نظرات الواقفين الذاهلة:
- «ملغم بـ (الكرواسان)؟.. هذا حق!»
لقد ملأ الفتى سترته تحت المعطف باصابع (الكرواسان). المتلاصقة، التي تبدو من تحت المعطف كأنها شحنة ديناميت رهيبة..، وفي ثانية تحوّل هذا السفاح اليائس إلى مخبول يحبّ (الكرواسان) يقف غارقًا في العرق.. عرق الفشل.. عرق الخجل.. عرق الخوف..
لم يصدّق بينما رجال الأمن يتقدمون نحوه لينزعوا معطفه، ويفكوا هذا الحزام المضحك من حول خصره، وأحدهم يخرج المسدس الخالي من الذخيرة من جيبه.
لم يصدّق بينما (لارا) تولول وتبكي.. ثم تنكمش على نفسها مطلقة صرخات هستيرية واهنة على سبيل التغيير..
عندئذ عرف أنه لعب بورقته الأخيرة.. وفشل...

تقدم منه (إيجور) في تعاطف واضح، وأخرج من جيبه علبة تبغ... دسّ واحدة منها في فمه وأشعلها بينما ذلك الصوت المعدني الكئيب للأصفاد إذ تنغلق حول معصمه يتردد:

كليك... كليك...!

سأله (إيجور) وهو يشعل لفافة أخرى لنفسه:

- «لماذا تهورت يا (كارلو)؟.. إن (سيلفانا) كانت ستعود لك حتمًا.. إنها تحب بيتها وأطفالها ولم يكن ما حدث سوى زلة عابرة».

قال الفتى وهو يلوك اللفافة لأن يديه صارتا مقيدتين:

- «أردت أن يعرف الجميع من هو (كارلو برتيني).. لست أنا ذلك الجبان عديم الذكر الذي تقتحمه العين اقتحامًا.. أنت تعرف شعور المهاجر الإيطالي في بلدة كهذه.. إما أن يكون ممثلًا أو لصًا.. وعلى كل حال ستعرف (سيلفانا) أنها قد قارفت خـ....»

وهنا تصلب وأدار عينه نحو (إيجور)، فوجده قد رحل.. وبينما هو يمشي نحو عربة الشرطة لم يملك نفسه أن يتساءل في حيرة.. (لقد كان شارد الذهن فلم يثر ما حدث ذهوله).. من هو هذا الرجل؟.. كيف عرف مشكلته وعرف اسمه واسم (سيلفانا) زوجته التي رحلت؟!

إلا أنه - في الساعات التالية - لن يجد مزيدًا من الوقت للبحث عن إجابة.....

* * *

- ١٢ -

لماذا كان يميل إلى (لارا)؟..

كانت جميلة - هذا حق - لكنه ذلك الجمال البارد المميز لدمى واجهات المحلات، وبالتأكيد لم يكن جمالها من النوع الذي يروق له...

كانت رقيقة.. لكنه ذاق من الرقة ذلك المذاق الكريه حين تتحول إليَّ قسوة أو لا مبالاة.. وخبرته مع (جلاديس) كافية..

من الصعب معرفة السبب...

لكنه كان يرجح أن التفسير يعود إلى حبها له.. وإلى شعوره بالوحدة وحاجته إلى رفيقة درب.. أية رفيقة...

أضف لهذا - بالطبع - أنها كانت محدودة الذكاء، وأنها كانت تملك (أنظف) مخ اخترقه في حياته.. فهي تحبه هكذا.. دون تعقيدات أو ادعاءات.. وهي لا تظهر عكس ما تبطن.. ولا تملك طموحات شريرة شيطانية..، ولم تبد اهتمامًا بأنفه الكبير قط..

كانت مبهورة بشجاعته.. لكنه كان يعلم جيدًا أنه ليس شجاعًا.. إن مهاجمة رجل مسلح يأصابع (الكرواسان) ليست شجاعة طالما أنت تعرف ذلك..

كانت مبهورة بفراسته وحدة ذكائه.. لكنه كان يعلم أن فراسته هي قدرته على اختراق عقول الآخرين..

لم يكن يستحق انبهارها.. لكنّها - بالتأكيد - لا تستحق حبّه تمامًا.. إنّه يميل إليها كما يميل إلى كلبه.. لمجرد أنها (لطيفة المعشر).

وفيما عدا اللقاء في المصرف؛ كانا يخرجان بانتظام كل ليلة تقريبًا، حيث يصحبها من دارها - حيث ما زالت تعيش مع أبويها - في سيارته الصغيرة ليذهبا إلى أي مكان....

* * *

يجب هنا أن أذكر أن (إيجور) لم يعد يقيم مع أبويه.. فقد اقتني شقّة صغيرة نظيفة على بعد أمتار من المصرف الذي يعمل فيه..

والشقة لا تحوي من ذكريات الماضي سوى صورتين.. صورة لأبويه البولنديين.. وصورة للجنرال (جابلر).. الذي غدا رفيق حياته.. يراه أول شيء عند الاستيقاظ واخر شيء قبل النوم.. بل إنّه أحيانًا ما كان يثرثر معه. بالألمانية التي لا يفهم الجنرال سواها، والتي تعلمها (إيجور) خصيصًا من أجله...

واعتاد أن يحيية كلما رآه فاردًا ذراعه الأيمن عن آخره، هاتفًا بلهجة عسكرية صارمة: (هايل هتلر)!.. عندئذ كان يرى بسمة خبيثة تتلاعب على ثغر الجنرال....

أين أنت يا (جابلر)؟.. تراك مازلت حيًّا بعد هذه الأعوام؟

أنت قتلتني يومًا ما.. ولسوف أهيم كشبح - مثل الزوجين (كيلي) - إلى يوم الدينونة حتى تلقى عقابك أو تموت..

نعم يا (جابلر).. أنا شبحك الذي سيطاردك في كل ركن.. وراء كل منحني.. وخلف كل شجيرة.. وتحت كل فراش..، حتى في لحظة الاحتضار لن تأمن أن تجد أناملي تلتف حول عنقك لتجعل احتضارك ـ قدر الإمكان ـ أليما معذبًا....

أين أنت يا (جابلر)؟!

تدوي الصرخة النفسية المروعة عبر الغابات.. تحرك مياه الجداول وتسقط قطع الثلج من قمم الجبال.. وتفر من هولها قطعان الوعول.. تعبر المحيطات باحثة عن الوحيد الذي يملك الإجابة..

أين أنت يا (جابلر)؟!

* * *

كان معمل د. (مالكولم) يشبه سيركًا إلكترونيًا مسليًا إلى حد لا يوصف.. والرجل هو نفسه مزيج مثير من الدجالين والعلماء.. فلا يلومن أحد رئيس الجامعة على شكه في مصداقية هذا الرجل..

الآن تعال أقدم لك فئران التجارب الآدمية في هذا السيرك الإلكتروني،. هيا.. تقدم وصافحهم....

الأول هو (مايكل هاثاواي).. مدرس في الأربعين من عمره.. يعاني من حالة متقدمة من الإدراك الفائق للحواس.. وعلى حد قوله (الضجيج لا يرحمني لحظة واحدة)، وحتّى حين يحاول أن يغفو توقظه دومًا أحلام زوجته الحمقاء، فهي لا تحلم سوى بكلب أسود يحاول عضها من مؤخرتها!

ويقول (هاثاواي) في مرارة: أصحو من النوم عشر مرات ليلًا شاعرًا بأنياب الكلب تمزق مؤخرتي أنا، وقد نصحه البعض بأن يُطلق زوجته، ونصحه آخرون بأن يهشم رأسها لكنه لا يبدو متحمسًا للحلين.

الثاني هو (إيجور تاركوفسكي).. مهاجر بولندي اكتسب موهبة (الإدراك الفائق للحواس) في ظروف مبهمة، وهو إنسان صموت حساس إلى أقصى حد، الواقع أننا ـ قراء (ما وراء الطبيعة) - محظوظون للغاية إذ نعرف جيدًا ما يفكر ويحلم به (أبو الهول) هذا....

الثالث هو (جيمس ماكجافن).. كان ضابطًا بالجيش.. وهو من هؤلاء المتمتعين بقدرة (السايكو كاينزس).. وهي لفظة لاتينية تعني (التحريك عن بعد)..

كان (إيجور) قد سمع عن هذه القدرة لكنه لم يرها.. ولم يتخيلها قط.. حتى رأى هذا الـ (ماكجافن) ينحنى على المائدة ويقطب وجهه.. ويرتجف في مزيج من الألم والانبهار والنشوة.. وراحت ملامحه تتقلص.. واحتقن وجهه بالدم.. عندئذٍ رأى (إيجور) - مذهولًا ـ كوبًا من الماء يتحرك حركة عصبية قصيرة فوق المائدة.. كأنما هو مربوط بخيط إلى (ماكجافن) نفسه.. ثوان مضت مثقلة بالتوتر والجهد الذهني الذي يدنو كثيرًا من انفجار المخ.. ثم هوى الكوب من فوق المائدة ليتهشم إلى ألف قطعة..

وهمد (ماكجافن) وراح يلهث في نشوة الخلاص..

بدا الأمر بالنسبة لـ (إيجور) غريبًا لكنه مخيب للآمال.. كل هذا الجهد من أجل كوب.. وهو الذي حسب (السايكوكاينزس) قادرًا على رفع مدرعة عن الأرض ونقلها إلى أرض أخرى..، لكنّ (مالكولم) أخبره أنّ هذا ما يظنه العامة.. إن القدرة على تحريك بضعة كيلوجرامات عن بعد لأمر نادر جدًا ولا توجد سوى قلة من هؤلاء المحركين معظمهم محبوسون في معامل (لينجراد) الآن باعتبارهم سرًا حربيًا سوفيتيًا....

الآن ننتقل إلى الشخص الرابع..

إنه زنجي يدعى (جيف جولد سميث).. وهو بلا عمل.. نشأ في الأزقة وسينتهي إلى الأزقة لأن زنوج (مانهاتن) لا مستقبل لهم.. فهم إما عمال مصاعد أو راقصون أو لصوص.. ربما تحول سعداء الحظ منهم إلى (زومبي) لكنّ هذا لا يحدث عادة..

(جيف) يملك موهبة (التخاطر) أو (التليباثي)، ويستطيع أن ينقل أفكاره إلى الآخرين بسلاسة غير عادية.. للأسف أن أفكاره ليست رائعة إلى هذا الحد.. ومعظمها شتائم بذيئة تنتهي دومًا - كعادة الزنوج - بلفظة (يا رجل)..

الخامس هو (بيتر شندلر).. الاسم يوحي بأصل ألماني ففي الولايات المتحدة لا يوجد أمريكي أصيل سوى الهنود الحمر.. أمّا الباقون فنازحون من كل بقاع الأرض..

والأخ (شندلر) هذا يتمتع بموهبة خاصة في (الإدراك الفائق الحس).. فهو....

- «سلبي.. إنّه Esper سلبي..»

لم يفهم (إيجور) معنى السلبية هنا..، فقال (مالكولم) وهو يتأمل (شندلر) في إعجاب:

- «معنى هذا أنه غير قادر على اختراق عقول الآخرين.. لكنه في الوقت ذاته صاحب عقل مغلق.. لا أحد يستطيع اختراقه أو معرفة أفكاره..»

ثم هتف في (إيجور) متحديًا:

- «حاول أن تعرف فيم يفكر..»

نظر (إيجور) إلى وجه الألماني المبتسم عديم التعبير وحاول:

«.....»

إظلام.... حاول ثانية في إصرار:

«.....»

إظلام...

قال (مالكولم) في حنكة تدلّ على خبرة مخضرمة:

- «إن الـ Espers السلبيين صالحون دائمًا للاحتفاظ بالأسرار الكبرى، خاصة حين يكون عليهم التعامل مع آخرين إيجابيين مثلكم.. إن هذا الرجل أشبه برسالة كتبت بالحبر السري، ولا أحد يملك السائل المظهر في العالم كله..»

وفي ذهنه سمع (إيجور) من يتكلم في تهكم:

«اللعنة يا رجل!.. أية موهبة سلبية؟.. إن هذا الفرخ القذر لا يصلح إلا كدمية متعفنة!»

أدرك (إيجور) - وكذلك المدرس - شخصيّة القائل فورًا.. فنظر له وهمس مبتسمًا:

- «احتفظ بآرائك لنفسك يا (جيف)..»

- «ليكن يا رجل.. لكنّ لتحل عليّ اللعنة..»

* * *

ساد الظلام المعمل.. فيما عدا صوتًا غريبًا كأنه عواء أو نداء غامض يتخذ طابعًا لحنيًا، ينبعث من جهاز التسجيل الذي يدور ببطء...

قال د. (مالكولم) بصوت رخيم حاول أن يوحى بالاسترخاء:

- «هذه الموسيقا من اليابان... كهنة (زن) يتسعملونها للتركيز.. ويقال: إنها فعالة في ذلك»

وأضاء مصباحًا أزرق غمر المعمل بضوء شاعري غريب، كأنه ضوء القمر ذات ليلة صافية.... لكنّ الرؤية ظلت عسيرة بعض الشيء برغم هذا...

أردف (مالكولم) وهو يسير بين تلاميذه أو حيوانات تجاربه - أيهما أدق - وقد عقد كفيه خلف ظهره:

- «إن العقل البشري هو أشبه بالقصر ذي المائة غرفة كلها مواربة.. لكنّ هناك حجرة واحدة ممنوع علينا دخولها.. هل تعرفون لماذا؟.. لأنهّا تضم أقسى وأفحش ذكرياتنا.. الذكريات التي نداريها حتى عن أنفسنا لنظل آدميين..»

ثم توقف هنيهة ليداعب شعره الأحمر:

- «العلاج النفسي يحاول مجرد قرع هذا الباب والعبث بمفاتيحه، لكنه لا يفتحه.. التخدير ينجح أحيانًا في إلقاء نظرة من ثقب هذا الباب لكنه لا يفتحه.. نحن - الجالسين ها هنا - القادرون على فتح هذا الباب، ودخول الغرفة المغلقة لرؤية ما بها.. لكننا بحاجة إلى مران.. بحاجة إلى إدراك مفهوم الغرف جيدًا..»

هنا تذكر (إيجور) ما اعتاد أن يراه في لحظات الاختراق.. كان يسمع الصوت كأنما يتردد في رواق كبير مزدانًا بالصدى، وكان يرى هذا الرواق يمتد أمامه والأبواب على جانبيه..

إن (مالكولم) يعرف حقًّا ما الذي يتحدث عنه...

قال (مالكولم) وهو يواصل جولته المتئدة:

- «حتى هذه اللحظة نحن قادرون على معرفة الأفكار الحاضرة للناس.. لكننا نجهل تمامًا ما كانوا يفكرون فيه.. نجهل ذكرياتهم وخططهم المستقبلية.. لهذا نحاول أن نتدرب على فتح الأبواب وتفتيش الغرف..»

تساءل (هاثاواي) ومعه حق في تساؤله:

- «ولماذا نتعلم هذا؟.. نحن نريد الشفاء من موهبتنا أو تنظيمها.. لكننا غير راغبين في التجسس على الطبيعيين..»

- «نقطة جيدة..»

قالها (مالكولم) واتجه ليقف جوار (هاثاواي).. وأردف:

- «نحن لن نمارس خارج هذا المعمل ما تعلمناه داخله.. سنحاول أن نخترق عقول بعضنا البعض.. سنتعلم أكثر عن الغرفة التي تحوي هذه الموهبة.. سنصارعها.. سنرغمها على الخضوع لنا بدلًا من أن نخضع لها..، إن الحل لمشكلة كل منكم هو في عقله.. وهناك من سيفتح أبواب هذا العقل.. إننا نسمي هذا الأسلوب بـ (العلاج التبادلي).. هل هناك أسئلة؟»

ساد الصمت.. فقط تبادلوا النظرات.. وسمعوا في عقولهم سبة بذيئة من الزنجي (جيف) يتهم كل هذا بالسخف.. لكنّ أحدًا لم يعلق.. وأشار (مالكولم) إلى (هاثاواي) و(إيجور) كي يجلسا متقاربين.. ثم قال:

- «ابدأ الآن اختراق عقل كل منكما... تشبثا بنظرية أبواب القصر.. واستخدما كل ما عندكما من ذكاء للتجول فيه، وفتح المزاليج الموصدة.. استمتعا بوقتكما إذن!»

* * *

بدأ (إيجور) اختراق ذهن المدرس...
في البدء كانت هناك مجموعة من الأفكار السطحية.. والركام إذا صح التعبير.. راح (إيجور) ينقل قدميه بين الأفكار المتشابكة في حذر..
«هذا هو الاختبار..» «إنّه لن يستطيع أن..» «أسراري الخاصّة...» «هذه الموسيقا غريبة حقًّا...»..
حتى استطاع أن يصعد في الدرج قاصدًا الطابق الثاني.. صوت خطواته يدوي كطلقات الرصاص وسط السكون المخيّم على المكان...
أخيرًا رأى (إيجور) الرواق يمتد أمامه.. مظلمًا ضيقًا خافت الإضاءة.. الأبواب على جانبيه...
كأنها رؤيا من رؤى مهاجر تشيكي آخر جاء إلى أمريكا هو الأديب (كافكا) الذي تخصص في رسم هذه المشاهد الكابوسية المريعة، وكان (إيجور) يحبّ كتابات (كافكا).. لكنه لم يرغب قط في أن يعيشها..
كانت الأبواب مواربة.. وفي حذر خطا (إيجور) إلى الداخل ليفتش أول حجرة...
كانت غرفة أطفال... بها مهد.. ودمى.. وألعاب بسيطة تتحرك بالزنبرك..، وكانت هناك امرأة تعنى بمهد يرقد فيه طفل صغير يجأر بالبكاء كالمسعور..
- «هلمّ يا (ميكى)» ـ تقول المرأة ملاطفة - «أنا لا أحب الأطفال منحرفي المزاج..»
كان (مايكل هاثاواى) طفلًا.. المرأة قصيرة الشعر حولاء العينين قليلًا.. ليس ذلك الحول المشوه المنفر.. بل هو حول بسيط ساحر يوحي بأنها (تحملق) باهتمام فيما أمامها..، هو ذا (مايكل) يحبو.. (مايكل) آخر يتشاجر مع أصدقائه في الحضانة.. الحب الأول.. وجه طفلة شقراء ذات شعر مجعد ساحر.. مشاجرات مع رفاقه في الصف على حب (هيلين).. دموع.. كدمات.. ثياب ممزقة..
غادر (إيجور) الغرفة الأولى.. ومشى في الرواق بضع خطوات ثم فتح باب الغرفة الرابعة...
رائحة التبغ.. أنت تدخن يا (مايكل).. أنا أعرف هذا ولسوف أعاقبك شر عقاب، وجه (بيكي تاتشر) الرقيق الجميل.. مشاعر المراهقة الجامحة.. فيض من العواطف يغرق كل شيء.. صور لفتيات جميلات (يبدو أنه كان يحتفظ بهذه المجموعة في درج مكتبة).. ثم.. درجاتك تتدنى في المدرسة يا (مايكل).. أنت تنهار.. تذوب...
الغرفة التالية على اليسار.. الزوجة.. تقف في صرامة تنظر إلى (إيجور).. (غريب أنها كانت حولاء قليلًا مثل الأم).. شعرها معقوص مرفوع ملفوف في شبكة.. إنها السلطة الثانية في حياة (مايكل) بعد الأم.. ربما هي السلطة الوحيدة الآن..
«(مايكل)!.. أنت لم تعد أنت!»
الغرفة السادسة على اليمين:
هنا مجموعة من الطلبة الوقحين في قاعة درس.. أحدهم يجلس واضعًا قدميه على المنضدة.. انزل قدميك يا (جيم).. لن أفعل يا رجل.. دعني أو ما بوسعك عمله...
النظرة الوقحة وهو يلوك العلكة.. يجب عمل شيء.. يجب.. لابد من عقابه حالًا.....
دخل (إيجور) - مبهور الأنفاس ـ الغرفة السادسة على اليسار:
المياه في كل مكان.. إنني أغرق.. افعلوا شيئًا!. أرسلوا إشارة (ماي داي) للاستغاثة..



وكان يرى هذا الرواق يمتد أمامه والأبواب على جانبيه . .

هنا يبرز القبطان وسط المياه الثائرة.. الغليون لم يفارق فمه.. يقول لـ (مايكل) وهو يقذف إليه بطوق نجاة:

- «لا إشارات لاسلكية يا (مايكل).. إن اليابانيين قريبون.. علينا أن نظل صامتين حتى يجدنا رجالنا..»

أسماك القرش.. رباه!.. لا أريد أن أموت...!

وأخرجت سمكة قرش عملاقة رأسها من الباب لتلتهم (إيجور)؛ لكنه أغلق الباب في اللحظة الأخيرة....

وبأنفاس لاهثة فتح الباب السابع على اليسار.. فرأى غرفة جراحة بها فريق من الجراحين.. يلتفت أحدهم نجوه ليقول:

- «لا جدوى.. لابد أن يفقد ساقه!»

إذن فـ (مايكل) ذو ساق صناعية..؟.. هذا هو سبب العرج الذي لاحظه عليه منذ عرفه.. الدماء تملأ الحجرة.. ثم يرى (إيجور) ساقًا مقطوعة تنزف الدماء تتراقص في الهواء.. تتبعه في كل مكان...

الباب الثامن على اليسار موصد بالمفتاح.. لكنّ مفتاحه فيه.. يدير (إيجور) المفتاح بحذر.. ويوارب الباب فلا يرى سوى ظلام دامس.. وفجأة تنفتح أبواب الجحيم:

كل المخاوف الكامنة في نفس (مايكل هاثاواي) تخرج إلى الوجود.. كلاب سوداء هائجة تنبح.. نمور.. تنانين.. أفاع.. ثم يبرز وسط كل هذا رجل صارم يرمقه في اتهام (هل هو الأب؟) ثم تظهر الزوجة ملوحة بمغرفة هائلة الحجم.. يتبعها وحش مبهم هو كتلة من الشعر المخلوط بالدماء.. الهياكل العظمية المعلقة على جدران الغرفة تتحرك.. يتقدم الموت من الباب حاملًا منجله الذي يحصد به الرءوس.. ويمد يده العظمية نحو (إيجور):

- «نعم يا (مايكل).. أنا هو الموت.. أسوأ مخاوفك!»

يغلق (إيجور) الباب مرتجفًا.. ويهرع نحو باب آخر.. باب موصد لكنّ المفتاح في ثقبه مرّة أخرى.. يواربه.. وينظر..

بالداخل تقف أجمل فتاة رآها في حياته.. تمسك كتابًا.. تخلع عويناتها التي زادتها أناقة.. وتقول:

- «إن هذه العلاقة لن تستمر يا (مايكل).. إن لك زوجة وأطفالًا.. ومهما قلت فلن أرضى بأن أسلبهم إياك...»

- «لكني أحبك يا (مارلين)..»

- «أغلق الباب يا (مايكل).. من فضلك..»

- «لكنّ...»

بلهجة أكثر صرامة كررتها:

- «من فضلك!»

أغلق الباب وواصل رحلته في ردهات عقل (مايكل هاثاواي).. كل شيء هنا بالرائحة والملمس.. إن (مايكل) لم ينس شيئًا في حياته حتى معادلات الجبر وتعداد سكان (ماليزيا).. هو فقط لا يذكر أنه يذكر..

أخيرا وجد (إيجور) الباب الذي بحث عنه طويلًا.. الباب الخشبي العملاق الذي لا مفتاح له، وقد أحاطت به المزاليج...

هذا هو الباب الذي يقود إلى سر الأسرار.. إلى الكيان الذي يحاول (مايكل) نفسه أن ينساه.. الباب إلى عقله الباطن.. إلى أعمق أعماق ذاته....

حاول (إيجور) أن يفتح المزاليج لكنّها كانت محكمة الإغلاق صدئة بحكم أنها لم تمس منذ عقود طوال....

وقف أمام الباب يتأمله في بلاهة عاجزًا عن اتخاذ القرار الصحيح.. ثم راح يركله بقدمه.. ويضربه بكتفه.. صوت الضربات يتردد في طرقات العقل س ية، وكان يرتجف غيظًا وحنقًا...

لابد من سبيل لفتح هذا الباب اللعين...

الديناميت!.. لِمَ لا؟... سيعود إلى غرف الحرب إياها بحثًا عن قنبلة أو إصبع ديناميت.. ثم يعود ليفجر هذا الباب ويدخل الغرفة المحرمة.. إن هذا يبدو مسليًا.. ديناميت من ذكريات (مايكل) يفتح ثغرة إلى عقله الباطن.. لابد أن (فرويد) كان سيتمتع كثيرًا بهذا الموقف غير المألوف..

وهذا ركض (إيجور) إلى الحجرة السادسة على اليسار.. واندفع وسط المياه يبحث عن قنبلة أو ديناميت أو اي شيء يصلح.. كان هناك طوربيد ياباني قذفته طائرة على المدمرة الأمريكية.. لم ينفجر بعد لكنه ينتظر لمسة بسيطة...

حمله على ذراعيه وراح يركض نحو باب الغرفة الموصدة.. غريب أنه خفيف الوزن إلى هذا الحد... إنه فكرة.. والأفكار لا ثقل لها.. وعلى الأرض أنزله بحذر وترك محركاته تهدر مدحرجة إياه نحو الباب الموصد.. و.....

بووووووم..!

بكل صعوبة وجد الوقت كي يرتمي أرضًا.. في الوقت الذي اهتزّ فيه الممر بأكمله.. وتطايرت أشلاء الباب في كل مكان..

وحين هدأ الانفجار..

حين خبت النيران..

كان الدخان يغمر كل شيء.. لكنّ الغرفة كانت مفتوحة كقلب صديق.. تنتظر أن يدخل ليرى.....

وقد فعل.....

* * *

بعد ثانيتين خرج من الباب راكضًا....

وارتمى على جدار الممر الذي كانت رائحة الحريق تفوح منه، وراح يتقيأه المرّة تلو المرّة..... حتى لتوشك أحشاؤه على الخروج من فيه..

إن ما رآه داخل الغرفة كان مريعًا....

كان لا يُصدق.....

هل يوجد شيء بهذه القذارة في الكون كله؟.. هل هذا هو ما نداريه عن الآخرين وعن أنفسنا؟.. حسن فعلنا....

هذا هو العقل الباطن لمدرس وقور مهذب في الأربعين من عمره.. فكيف يكون العقل الباطن لـ (بيل) أو (هاري)؟

كيف يكون العقل الباطن لـ (سيدلتز جابلر)؟!..

حزينًا كاسف البال بدأ (إيجور) يتراجع ليخرج من ردهات عقل (مايكل هاثاواي).. لقد صار المكان مألوفًا.. ويمكنه أن يمشي فيه دون جهد في المرّات القادمة...

لكن.. غريبة هذه الرائحة العطنة التي تملأ المكان.. عجبًا! إن الجدران تتشقق ببطء.. صوت انهيار.. اللعنة!.. إن المكان ينهار كمبني عتيق تقوضت أساساته..

راح يجري مذعورًا حتى هبط إلى الطابق الأسفل حين سمع أعلى صوت سمعه في اللحظات الأخيرة.. لقد تهاوى البناء كله..

* * *

كان الضوء الأزرق يغمر المعمل كما كان..

إن (إيجور) لم يغمض جفنيه لحظة.. لكنه كان أعمى وعيناه مفتوحتان فلم يرَ ما طرأ من تبدل على وجه (مايكل)...

أما الآن فهو يرى بوضوح أن (مايكل) ما زال يرمقه متسع العينين.. وخيط من لعاب يسيل من شفتيه إلى صدره...

يرى بوضوح أن د. (مالكولم) يفحص الرجل في شيء من توتر وقلق.. ثم يرمقه وفي عينيه نظرة اتهام... ويسأله:

- «ماذا فعلت بالداخل؟»

- «ك... كنت أجول.. هـ.. هل.. د.. حدث شيء؟»

قال (مالكولم) وهو يواصل فحصه:

- «لقد فقد الرجل عقله.. للأبد!».

* * *

الجزء الخامس

(مانهاتن) - ١٩٦٢

- ١٤ -

النوبة من جديد...

سقط كوب الماء من يده، وقد راح النذير يدوي في عقله مرارًا.. النوبة قادمة!.. النوبة قادمة..!

يفقد توازنه ليهوى فوق الزجاج المهشم... دعه يمزق ويدمي كل جزء من لحمك فلا وقت لترف الـ.. الـ.. ماذا؟.. لقد نسى.. الانقباضات في كل موضع من الجسد...

يداه ـ وقد اتخذتا وضع المخالب ـ تمتدان إلى صدره، كي تمزقا طرفي المنامة عن جسده....

ثم صوت أنفاسه.. يسمعة عاليًا كإعصار، وصوت قطرات الماء التي تتدحرج من فوق المنضدة، صوت قيء ذبابة تقف على قالب من السكر.. صوت.....

ضوء الغرفة يتغير.. يتحول إلى شمس ساطعة مبهرة يعجز عن فتح عينيه من وهجها.. مئات الإبر تمزق قرنيته..

راتاتاتاتاه!.. بوم!.. «هذه الجهة مغلقة!»

«اخرس.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

برج الدبابة يدور في بطء مسلطًا مدفعها نحوه..

ثم.. إن النوبة تولى الآن.. الجذر قد بدأ.. ووعيه يزداد بروزًا فوق سطح الماء....

وأخيرا نهض.. مترنحًا مشى إلى حوض الغسيل وراح يتأمل وجهه الشاحب في مرآة الحمام.. راح يزيل شظايا الزجاج عن شعره... ويجفف العرق.. ويسعل..

وككل مرة يشعر أن قطارًا قد مر فوق جسده مرّتين...

* * *

الحقيقة هي أن النوبات تتزايد تدريجيًا..

واليوم تحدث مرة كل يومين..، تذكر كلمات د. (مالكولم) يوم قال له في مكتبه:

- «يوجد طاغية في دماغك يحاول أن يحتل الدماغ كله..»

الحق يا صديقي أنك تفقد شبابك بسرعة البرق...

لقد نال ـ ككل البشر- شمعة هي حياته، وقيل له أن يشعلها وينتظر حتى تذوب كلها ثم يلحق بالأبدية.. لكن شمعته ـ من سوء حظّه - تحترق بمعدل غير معقول.. تحترق من الطرفين...

عاد يتذكر ما قاله د. (مالكولم).

- «إن موهبتك خطيرة حقًّا.. لقد نجحت في فتح الباب المغلق في عقل (هاثاواي).. فجرته تفجيرًا بينما كان هو يتحسس طريقه عند مدخل عقلك، وحين خرجت محتويات الغرفة المغلقة إلى باقي عقله لم يتحملها.. جن على الفور..»

وابتسم (إيجور) في مرارة..

إن (هاثاواي) الآن نزيل فريد من نوعه في إحدى المصحات العقليّة.. يقول الأطباء لمن يزوره إنّه مصاب بالجنون الذهولي.. لكنهم عاجزون عن القول إنّه يعاني من انهيار في بنيان عقله.. لقد

فجر اللغم الياباني تركيب دماغه ولم يعد لديه ما يفقده..
أمّا عن د. (مالكولم) فقد كانت هذه هي نهاية تجاربه المثيرة في مجال (الباراسيكولوجي).. لقد انتهت تجربة الاختراق قبل أن تبدأ.. ونجح رئيس الجامعة في انتزاع المعمل منه..
- «إذا كنت تظنني سأستمر في هذه التجارب التي تفقد الناس عقولهم فأنت مخطئ..»
صحيح أن د. (مالكولم) لم يترك الجامعة، لكنه راح يبحث في مجالات أخرى جديدة: للخواص الفسيولوجية لوسطاء تحضير الأرواح..! موضوع آخر لا يمكن الإمساك به...
وعاد (إيجور) يتأمل وجهه في المرآة..
لقد تسبب في تدمير (هاثاواي) وإفناء مستقبله وأسرته.. لكنه لم يتعمد ذلك قط.. لا يمكن أن تلوم أحدًا على ما حدث حتى د. (مالكولم) ذاته، كيف يمكن مساعدة (هاثاواي)؟ لا أحد يعرف...
وكما قال (مالكولم) منذ عامين:
- «نحن نلعب في منطقة حساسة شديدة الانفجار.. لهذا أمركم جميعًا أن تكفوا عن العبث في عقول الآخرين..، أعترف أنني كنت مُغفلًا كبيرًا حين ظننت هذا مفيدًا.. سنستمر في علاجكم ومحاولة تهدئة الأعراض والتحكم فيها.. لكننا لن نحاول ألعابًا خطرة جديدة»
قالها وقدم إلى (إيجور) علبتين من (البنزوديازبين) المهدئ، الذي يعتمد عليه اعتمادًا تامًا للسيطرة على هياج عقله، وعلى نوبات الصرع الغامضة هذه.....
إن عامين لفترة طويلة حقًّا...

* * *

كان يحبّ اجتياز هذه الأزقة عندما يعود إلى داره ليلًا بعد ما يوصل (لارا) إلى دارها...
كان يترك سيارته في جراج قريب.. ثم يعود راجلًا عَبر الأزقة المظلمة يتأمل القطط التي تتصارع فوق صفائح القمامة، ويتعثر في رجل ثمل أسند ظهره إلى الحائط وراح يغط، يصغي لخطوات قدميه.. ويتلصص بأفكاره إلى ما خلف النوافذ المغلقة المضيئة.. «*(هاري).. أنت لا تنفق على بيتك مليمًا!*» «*اخرسي أيتها الشمطاء..!*» «*لقد نفدت الزجاجة!*» «*أين ابنتك المراهقة؟ إنها لم تعد حتى منتصف الليل..*»

كانت ابتسامة وحشية تغمر وجهه...
هذا هو العالم الجديد الذي كان العم (أندريه) يتحدث عنه.. لاشيء سوى الخواء النفسي والانهيار.. إن هذا العالم يحمل جذور فنائه من الداخل.. ولكن متى؟
هنا رأى ثلاثة ظلال تسد الطريق عليه...
في الضوء الخافت بدا يميز وجوههم.. كانوا زنوجًا مراهقين يرتدون قلنسوات صوفية وسترات جلدية ليبدوا رعاعًا..، وكان أحدهم يلوك لفافة تبغ في فمه.. ويلوح بمطواة رائعة الجمال في وجه (إيجور)...
وسمعه (إيجور) يقول بصوته الزنجي الذي يلوك الكلمات ويملأ بها فمه غليظ الشفتين:
- «هلمّ يا رجل.. هل تحمل نقودًا؟ (قالها بالتعبير العامي الأمريكي: هل معك عجين؟).. نحن جائعون ونريد شراء شطائر..»

سرقة بالإكراه!.. واحدة من المعالم السياحية المهمة لـ (مانهاتن)؟
تذكر (إيجور) كلمات (جيف) الزنجي في معمل الجامعة: الزنجي في (مانهاتن) لن يصير سوى عامل مصعد أو راقص أو لص.. ربما حالفه الحظ وتحول بعد موته إلى (زومبي).....
إنهم ضحايا.. لكنه ليس المسئول عن تعاستهم...
وهنا خطرت له فكرة: لم لا يحاول اختراق عقول هؤلاء الفتية؟.. إنّه لم يخسر شيئًا.. ربما لقنهم درسًا لن ينسوه أبدًا...
نظر في ثبات إلى عيني الفتى حامل المطواة و.....
هو ذا.. إنّه يجوب طرقات القصر بسرعة غير عادية.. لن يضيع وقته في فتح الأبواب لأنهّا لا تحوي سوى قاذورات.. هناك جدة زنجية شاب شعرها تنفجر في حنق.. زنجى سكير يترنح ويُطلق سبابًا بذيئًا: إنني عاطل.. كيف أطعمك وأنا لا أملك ثمن لفافة تبغ؟! الأم تمسك مكنسة وتنظف الردهة ثم تئن وتمسك ظهرها.. مئات من رجال الشرطة يقفزون من سياراتهم ملوحين بهراواتهم.. أنت أيها الزنجي.. هل معك مخدرات؟ هل كنت (تعدل الطاسة) مع رفات من القرود السود؟
ثم الباب.. الباب الموصد إياه الذي يقود إلى العقل الباطن لم يكن مغلقًا بإحكام.. مجرد رتاج صغير.. لأن هذا الفتى لا يملك أي احترام لنفسه ولم يعد لديه ما يداريه عنها.. إن أسرار عقله الباطن ليست أسرارًا إلى هذا الحد.. وهو يفعل كل ما يبغي فعله دون وازع من ضمير...
الغرفة عفنة الرائحة ملأى بالقذارة.. لكنّ (إيجور) راح يخرج محتوياتها ويبعثرها في كل صوب..
ثم إنّه راح يبتعد عن الغرفة.. يهبط في درجات السلم حتى خرج من القصر تمامًا..
وحين وقف بالخارج كان الزنجي ما زال يلوح بالمطواة.. لكنّ عيناه مفتوحتان بلا هدف.. فمه كذلك مفتوح بلا هدف واللعاب يسيل منه...
لاحظ زميلاه - في رعب - أنه ليس على ما يرام، فهزه أحدهما في عصبية.. وتساءل الآخر ملهوفًا:
- «(بيري).. ماذا دهاك يا رجل؟»
لكنّ (بيري) ظل صامتًا كالبرغوث...
ابتسم (إيجور) وقال للفتيين الزنجيين:
- «إنّه لن يعود لعالمنا عما قريب.. والآن يا شباب.. من التالي؟»
تراجع الفتيان في هلع حتى إن أحدهما أسقط صفيحة القمامة أرضًا.. وتحت حذائه انهرست علب الحليب الفارغة وقشور الموز وبقايا الصلصة..
وهتف وهو يرمق (إيجور):
- «بحق السماء.. من أنت يا رجل؟.. أنت الشيطان ذاته.. بالتأكيد أنت هو!»
وصاح الآخر واللعاب يتناثر من فيه:
- «هل ترى الدم الخارج من منخريه؟.. إنّه هو!»
دم؟ تحسس (إيجور) أنفه فوجد دماء طازجة هناك.. غريب هذا!.. إن الاختراق يزيد من ضغط الشعيرات الدموية في دماغه دون شك....
هنا كان الزنجيان قد جرا زميلهما جرًا.. ووليا الأدبار مبتعدين.. راقبهما (إيجور) شارد الذهن، ثم انحنى ليلتقط المطواة التي نسياها في فرارهما على أرض الزقاق..

ما إن أمسكها حتى سمع صوتًا يقول في ذهنه:

«هلمّ يا دمية.. ليست مطواة غالية الثمن.. هى قادرة على أن تقتل فيلًا وتجعلك ترى أحشاءه..»

كان يعرف الآن تفاصيل شراء هذه المطواة.. البائع هو وغد يدعى (شيكو).. وقد تم البيع يومًا ما منذ شهرين.. وهذه هي أول (عملية) تستعمل فيها...

هذا غريب!.. موهبة أخرى يعرفها عن نفسه...

نفسة التي تحولت إلى صندوق مفاجئات يبهره كل يوم...

* * *

- ١٥ -

طاخ طاخ طاخ!.. (حتى في الظلام)...
طاخ طاخ طاخ!.. (وأكثر.....)...
هذا ليس جزءًا من الحلم.. إنّه حق.. هناك من يقرع الباب في فظاظة.. طاخ طاخ!...
قرص المنبه الفوسفوري يلتمع في الظلام.. الثالثة صباحًا.. لا أحد يأتي في الثالثة صباحًا ويضرب الباب بدلًا من الجرس.. ويكون صديقًا آتيًا لغرض ودي...
أضاء الأباجورة.. ونهض يتلمس طريقه إلى الباب وهو يحكم غلق الروب حول خصره..، وخلف الباب وقف ينصت هنيهة إلى أفكار الواقفين بالخارج:
«*لابد أنه هنا.. ثمّة صوت حركة...*»
«*لن يقاوم.. فهو مسالم عادة.. ثم إن رؤيته للشارة كاف جدًّا..*»
شارة؟.. إن هناك أمرًا بوليسيًا يحيط بكل هذا.. ولكن لماذا؟.. مستحيل أن يكون ذلك بصدد عصابة السود إياها.. فلا أحد يعرف من هو ولا عنوانه.. إذن ماذا حدث؟
مد يدًا حذرة وعالج مزلاج الباب.. ليخاطب الواقف بالخارج من فوق سلسلة الأمان..
رأي وجهًا صارمًا مربعًا له ذقن مشقوقة، وأنف مشوه كأنف الملاكمين.. وجه رجل لا يمزح في العادة..، ورأى تحت ذقن الرجل شارة لم يتبين ما هي لكنّها تظهر النسر الأمريكي (الحكومي) إياه.. كان الرجل يظهر شارته له..
- «مستر (إيجور تاركوفسكي)؟»
- «أنا هو..»
بارتباك قالها.... كان يمقت الكيان الحكومي ويخشاه بطبعه..
- «أنا من مكتب الاستخبارات المركزي.. الـ (FBI).. هل تسمح لي ولزميلي بالدخول؟»
- «إنها الثالثة بعد منتصف الليل..»
- «إنّه أنسب وقت لما نريد مناقشتك فيه..»
قال الرجل الآخر الذي لم ير (إيجور) وجهه:
- «ثم إنك وحدك هاهنا.. نحن نعرف هذا..»
كان صوته وقورًا رصينًا.. بل يتظاهر بالوقار والرصانة ليبدو غاضبًا.. لكنّ (إيجور) عرف أنه يكذب.. لم يراقبه أحد لمعرفة ما إذا كان وحيدًا أم لا.... وعرف كذلك أنهما من الاستخبارات حقًّا....
لكنه - على العموم - أزاح سلسلة الأمان وسمح للرجلين بالدخول.. كانا متأنقين تلك الأناقة المبالغ فيها والتي لا تنجح في مداراة الشراسة والعضلات القوية.. أناقة (البودى جارد).. إنها أشبه شيء بشراء بدلة غالية الثمن لغوريللا...
قال الرجل الأول مربع الذقن وهو يتأمل الشقة:
- «إننا قد جئنا ها هنا لنقدم لك عرضًا لا يُمكنك رفضه.. وزملاؤنا يقومون بذات الشيء في أماكن أخرى..»



كان يعرف الآن تفاصيل شراء هذه المطواة ..

جلس (إيجور) واضعًا ساقًا على ساق.. لن يعرض عليهما شرابًا فالأمر لا يحتمل المجاملات.. لاحظ أن الرجل الثاني ذا الصوت الوقور قد أشعل لفافة تبغ دون أن تكون هناك مطفأة بجواره، فنهض ليضع جواره واحدة بطريقة تحمل شيئًا من اللوم...

وقال في تؤدة:

- «أكون شاكرًا لو دخلت في الموضوع دون مقدمات..»

- «لك أن تراهن على ذلك.. لقد قام مكتب الاستخبارات المركزي بعمل دراسة مفصلة عنك وعن تاريخ حياتك منذ جئت إلى (الولايات) عام ١٩٤٢ وحتّى اليوم..، ونحن نعرف أنك إنسان خارق للعادة يا مستر (تاركوفسكي).. ولا أشك لحظة في أنك تعرف ما نريد منك.. حتى قبل أن نتكلم..»

كان (إيجور) بالفعل قد فرغ من قراءة ذهنيهما..

إن الرجلين قد جاءا لتجنيده.. تجنيده ضمن سلاح جديد يعمل بالتنسيق مع (وكالة المخابرات المركزية).. هذا السلاح يعتمد على ذوي الإدراك الفائق للحواس..

لقد تم تجنيد رفاقه.. والمصدر متاح للجميع ألا وهو ملفات د. (مالكولم) الخاصّة بدراسة (الباراسيكولوجي)..

إن الفريق يضم الآن القادرين على قراءة الأفكار.. والقادرين على التخاطر.. ومن يحركون الأشياء عن بعد، لكنّ (إيجور) هو الطائر النادر ها هنا.. إنّه موهبة لا شك فيها ومكسب حقيقي للفريق..

وهم يريدونه...

الجنرال (فرايدمان) يريده...

قال (إيجور) في فتور وهو يسترخي للوراء:

- «ولماذا تريدون فريقًا كهذا؟!»

قال الرجل مربع الذقن في بساطة:

- «لأن السوفييت يملكون فريقًا مماثلًا..»

* * *

نعود بالقارئ إذن إلى هذه السنوات الصاخبة في بداية ستينات هذا القرن[2]..

كانت القوتان العظميان ـ الشرق والغرب - على غير وفاق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية... الاتحاد السوفييتي سيطر على أوروبا الشرقية بقبضة من حديد وانزوى وراء ما سمّاه (تشرشل) بـ (الستار الحديدي).. أمّا الولايات المتحدة الأمريكية فراحت تبشر بسلام أمريكي الطابع تسميه هي: (العالم الحر).

إلى هنا كانت الأمور مستقرة....

لكن الأوضاع دخلت منعطفًا مرعبًا في ٢ مايو ١٩٦٠.. منعطفًا كاد يودي بالعالم إلى الحرب النوويّة التي يرهبها الجميع..

سقطت قرب (كييف) طائرة أمريكية للاستطلاع والتجسس من طراز (ي - ٢)، بعد ما تمكنت الصواريخ السوفيتية من إصابتها.. ولسوء حظه نجا قائدها (فرانسيس باورز) من الهلاك لتستجوبه السلطات السوفيتية، وتعرف كل شيء عن حقيقة مهمته.. وتجد صورًا لمنشآت عسكرية قام بتصويرها من الجو...

وثار (خروشوف).. وقام العالم ولم يقعد.....

وحين التقى القطبان (إيزنهاور) و(خروشوف) في قمة (باريس) في ١٤ مايو (بعد الحادث بعشرة أيام)، ثار (خروشوف) ثورة عارمة ووجه إهانات مشينة لـ (إيزنهاور)، لكنّ هذا الأخير تلقى الإهانات ببرود.. وقال:

- «إن التجسس لهو من حقائق الحياة!»

وانتهى الأمر بتصعيد الموقف، أطلقت (روسيا) صاروخًا ضخمًا إلى الفضاء كتحد واضح للأمريكيين، وأعلن (جروميكو) وزير الخارجية أن الصواريخ النوويّة السوفيتية قادرة على الوصول إلى أي مكان في العالم....

وفي ٧ أغسطس من نفس العام ازداد الطين بلة حين وافق (فيدل كاسترو) على قبول صواريخ سوفيتية في (كوبا)..

إن (كوبا) هي على مرمى حجر من الولايات المتحدة.. وقبول صواريخ فيها يعني تهديد أمن أمريكا في مقتل..

لقد ظل نظام (كاسترو) الشيوعي المتعصب يشكل صداعًا للحكومة الأمريكية، وإن تورط المخابرات الأمريكية في عملية (خليج الخنازير) لمثال واضح لكراهية أمريكا لـ (كاسترو)..

وفي العام الحالي - ١٩٦٢ ـ حلقت طائرات التجسس الأمريكية فوق (كوبا)، ووجدت قواعد للصواريخ السوفيتية هناك..

وقد تعهدت (روسيا) بسحب هذه القواعد مقابل أن تتعهد (أمريكا) بعدم غزو (كوبا)، وبسحب قواعد صواريخها في (تركيا)..

هذه هي الصورة للموقف الدولي في ذلك الوقت، وهي صورة معتمة لها رائحة الموت ومنظر (عش الغراب) المميز للسحب النوويّة..

لكن العملاقين كانا يعرفان متى وأين يتوقفان..

أما (إيجور) فلم يكن يعرف....

* * *

نظر (إيجور) إلى الرجل مربع الذقن في تحد..

وسأله:

- «وماذا يرغمني على قبول هذا التجنيد؟»

قال الرجل وهو يبحث في جيوبه عن علبة تبغه:

- «لاشيء.. إن حرية القبول أو الرفض مكفولة..»

- «إذن أنا أرفض..»

كان الرجل قد وجد علبته، فأشعل لفافة تبغ بقداحة ذهبية.. ثم أخرج خيطًا دخانيًا من أنفه.. وقال:

- «إذن يمكننا الانصراف.. لكنّ دعني أذكرك بأنك بولندي وأنت تعرف معنى هذا.. يمكن للكثيرين في مكتبنا أن يتصوروا - وهذا خطأ طبعًا ـ أنك تدين بالولاء للاتحاد السوفييتي.. إن هذا يحدث كثيرًا.. وعندئذ.. ربما وجدوا لديهم أدلة تتهمك بالشيوعية..»

تصاعد الدم إلى رأس (إيجور):

- «أنت تهددني في داري متظاهرًا بالتفاهم..»

ـ «بل أقول لك ما قد يحدث..»

- «أنا ترعرعت في أمريكا، ونسيت كل شيء عن (بولندا)...»

قال الرجل الثاني وهو يدخن لفافة تبغه:

- «لا توجد حلول وسط هنا.. أنت لست معنا.. إذن أنت ضدنا..»

تثاءب (إيجور) ووقف يلملم أطراف الروب على جسده، ثم اتجه إلى باب الشقة ففتحه.. وقال ببرود:

- «إن حديثكما شائق أيها السيدان.. لكنكما تريان أن النعاس يمنعني من الاستمتاع الكامل به.. لهذا.. لو سمحتما.....»

أطفأ الرجل ذو الذقن المربع لفافته بدوره.. ثم نهض.. وعيناه لا تفارقان (إيجور) الواقف جوار الباب ينتظر..

وببسمة ذئبية غمغم:

- «إنك لا تدري ما سنقدمه لك يا سيدي..»

لكنّ (إيجور) عرف ما يعنيه.. سمع الكلمات واضحة تتردد في ذهنه.. وعلى الفور رفع عينه نحو الرجل.. وتساءل:

- «أنتما تعرفان مكانه؟»

- «نعم...!»

كانت الكلمات التي سمعها في عقله تقول بصوت وقور:

«نحن نملك أن نقودك إلى (سيدلتزجابلر)!»

* * *

- ١٦ -

- «إنك لن تقبل هذا يا (إيجور)..»
- «بل لن أقبل سوى هذا..»

كانت (لارا) واقفة في المطبخ تعد بعض القهوة والبسكويت لهما، وكان شعرها الأشقر منتثرًا في غير نظام على كتفيها.. لكنّ (إيجور) لم يرها أجمل من هذا في حياته..

قال لها وهو يخرج دورق اللبن من الثلاجة:

- «تصوري هذا..! منذ كنت في الخامسة من عمري وأنا انتظر لقاء هذا الرجل.. (سيدلتز جابلر).. الذي قضى على قومي وأذلهم.. الذي جعل أمي تركض حافية القدمين بثياب البيت في الطرقات.. وبرغم هذا لقت حتفها..»

- «أنت تبالغ.. لم يكن يفعل سوى ما أمروه به.. كان جنديًا..»
- «هراء!»

قالها في اشمئزاز.. وأردف:

- «إن الجندي يفعل ما يؤمر به.. لكني أشك في أمره إذا ما أظهر قدرًا زائدًا من الحماس لإرضاء ساديته الخاصّة.. وحين يقتل الجندي امرأة أو طفلًا لا أقول إن رؤساءه أمروه بذلك.. بل أعتبره سفاح حرب.. وحشًا آدميًا يجب أن يُباد..»

- «مضى ردح من الزمن على هذا..»
- «جرائم الحرب لا تسقط مع الزمن.. واليهود يطاردون جنرالات النازي حتى هذه اللحظة انتقامًا.. هل تعرفين لماذا نسي العالم (سيدلتز جابلر) هذا؟»
- «لماذا؟»
- «لأنّه لم يقتل يهوديًا.. ولو فعل لعرف هؤلاء كيف يقتصون منه..»

تنهدت (لارا) في استسلام.. وبدأت تصب القهوة زكية الرائحة في قدحين.. ثم سألته:

- «ألم تتلصص على أفكار رجلي المكتب الفيدرالي هذين؟»

كان قد صارح (لارا) بالحقيقة منذ شهور.. ولم تصدق حرفًا بالطبع برغم أنّ هذا يفسر لها الكثير من تصرفاته.. لكنّها راحت تجاريه في حديثه عن (الاختراق) هذا..

قال لها وهو يتناول قدحه:

- «لم يكونا يعرفان مكانه.. فهما ليسا حمقى.. لابد من سبيل للضغط على.. ولن يكون هناك ضغط إذا ما عرفت موضع الجنرال..»

- «إذن أنت ذاهب لتقابل....»

- «نعم.. جنرال (فرايدمان).. الآن ودون تأخير..»

ووضع القدح.. وتناول معطفه...

* * *

كان الجنرال (فرايدمان) رجلًا في منتصف العمر تلوح عليه أمارات النعمة والرضا عن النفس.. أميل للبدانة.. يرتدي ثيابًا مدنية أنيقة.. وله أظفار منسقة نظيفة لفتت نظر (إيجور) بشدة.. إن شخصًا يملك هذه الأظفار هو شخص لا يمكن العبث معه...

قال الجنرال وهو يصب قدحين من الشراب:

- «كن على سجيتك يا مستر (تاركوفسكي).. إن كوني جنرالا لا يعني شيئًا.. ليس هذا هو المكان العسكري الصارم الذي تتصوره.. إن جونا هنا أسرى بمعنى الكلمة..»

كان على حق.. فالمكان شديد الأناقة.. يوحي بالاسترخاء والمودة.. وكانت هناك نافذة كبيرة تشكل جدارًا بأكمله يستطيع (إيجور) منها أن يرى (مانهاتن) كلها.. وثمّة (أنتريه) مريح مزدحم بالطنافس.. ومكتبة على شكل كرة تتوسط الغرفة..

لكن المكان يعجّ بأجهزة التسجيل....

عرف (إيجور) هذا وأحس به على الفور...

كان ردّه بليغًا وعمليًا.. إذ نهض واتجه في هدوء إلى لوحة تمثل إحدى مذابح (ديلاكروا) الشهيرة، وانتزعها من مكانها، وبيد واثقة مزّق سلك وسماعة جهاز التنصت الموجود خلفها.. ورماهما أرضًا...

ثم مد يده إلى منفضة التبغ المعدنية، ورفع يده يبغى قذفها على عدسة الكاميرا المصوبة على المكان، والتي اتخذت شكل كشاف صغير..

- «توقف!»

قالها الجنرال في حزم.. ثم أردف متلطفًا:

- «إن كل هذه الأشياء من أموال دافعي الضرائب.. وهي ليست رخيصة الثمن..»

عاد (إيجور) إلى الجلوس وهو يرمق الجنرال في تحد.

ضحك الجنرال وناوله قدحًا من الشراب.. ثم قال:

- «أنت موهوب حقًّا.. موهوب.. قدرات غير عادية..»

جرع (إيجور) من قدحه.. وغمغم:



ـ « تصورى هذا .. ! منذ كنت فى الخامسة من عمرى
وأنا أنتظر لقاء هذا الرجل ..

- «ترى إذن يا سيدي أن الجو ليس أسريًا جدًّا.. فلا داعي لإضاعة الوقت في المجاملات.. أنا لا أرتاح لكم وأنتم لاتثقون في.. فلنتحدث في الأعمال الآن..»

- «هووم.. أنت رجل واقعي وهذا يسرني..»

قالها الجنرال وهو...

(لكنّ ذهنه خاوٍ تمامًا هو الآخر)

يشعل سيجارًا ويطفئ النور..

كانت هناك شاشة ما.. عليها رأي (إيجور) خريطة لجنوب الولايات المتحدة، وعليها راح الجنرال يشرح الموقف...

* * *

بعد ما فرغ الجنرال من شرح الأمور؛ قام يقرع جرس بجانبه.. وتحدث في جهاز (الديكتافون):

- «(صمويل).. هات باقي أعضاء الفريق..»

وبعد هنيهة.. رأى (إيجور) الباب ينفتح ويدلف منه أولئك الذين نسي كل شيء عنهم منذ عامين..

(جيف) الزنجي.. (شندلر) الألماني.. (ماكجافن).. د. (مالكولم).. كلهم من جديد وبالطبع لم يكن (هاثاواي) بينهم.. وكان معهم اثنان آخران يراهما للمرة الأولى....

صاح (جيف) ما إن رآه.. بصوته الزنجي الذي يضغط على المقاطع:

- «هيه يا رجل! مر وقت طويل.. أعطني خمسة يا جدع!»

[أعطني خمسة] هي الكناية الأمريكية عن المصافحة.. تتلو تلك مصافحة خشنة فظة أشبه بالمصارعة..

بعد العديد من المصافحات واللكمات، قال الجنرال:

- «كما ترى يا مستر (تاركوفسكي).. هذه هي مجموعة الـ Espers التي تعمل معنا، ولا أخفي سرًا إذا قلت: إنكم لن تلتقوا مرّة أخرى..»

نظر إليه (إيجور).. بعد قليل تساءل:

- «أين الجنرال؟»

- «آه!.. تعني جنرال (سيدلتز جابلر)؟.. نحن نعرف مكانه بدقة، لأننا نعرف أنه الطريقة الوحيدة لإقناعك.. إنّه في دولة ما.. عملاؤنا هناك يعرفون كل شيء عنه.. لكننا لن نخبرك به إلا حين نفرغ مما نريده منك.. إنها صفقة كأية صفقة أخرى.. ولا أحد يقبل دفع ثمن شيء حصل عليه فعلًا»

وابتلع ريقه مفكرًا.. ثم أردف:

- «بل نحن على استعداد لأن نسهل لك اغتياله لو أردت.. أو نصفيه جسديًا بمعرفتنا.. لكني أظن أنك تفضل القيام بهذا شخصيًا..»

- «هذا لطيف منك.. وماذا عن اختراق عقولكم لمعرفة مكانه؟»

ابتسم الجنرال فغدت عيناه أخبث وأضيق:

- «لو استطعت لفعلت.. لكنّ الحقيقة هي أنني ومن حولي لا نعرف شيئًا عن هذا.. عبثًا تحاول اختراق أذهاننا..، إن كل المعلومات عن الجنرال (جابلر) موجودة في ذهن (بيتر شندلر).. هو الوحيد الذي يعرف كل شيء عن مواطنه.. لكنّ عقل (بيتر) مستحيل الاختراق كما تعلم لأنّه Esper سلبي إلا أن (بيتر) سيخبرك بكل شيء في الوقت المناسب..»

يا لكم من أوغاد!.. لقد أحكمتم حصاري حقًّا..!

وقف الجنرال وسط أسراه يبتسم.. ثم رفع يده كأنه يعلن عن مفاجأة حفل.. وهتف:

- «الآن يا شباب.. مهمتنا هي الإجابة على السؤال التالي: هل توجد قواعد صواريخ ذات رءوس نوويّة في (كوبا) أم لا؟!»

* * *

في الأيام التالية حضر (إيجور) دورة مكثفة في اللغة الروسية ـ ما أعقدها لغة! ـ كي يفهم ما يفكر فيه الروس.. بالطبع هؤلاء يفكرون بالروسية، وكان اثنان من الفريق يحضران دورة مكثفة في اللغة الأسبانية...

بالطبع كانت الدورة مركزة حول مصطلحات مثل (صاروخ ـ نووي - بارجة ـ حلف شمال الأطلنطي ـ قواعد - تجسس).. حتى تمنى (إيجور) لو يعرف معنى كلمات (حب - زهور - شعر - غروب) بالروسية.. لكنّ أحدًا لم يعره اهتمامًا...

* * *

الهدف هو مقهى في (واشجتون) يتردد عليه بعض الرجال من أصل سوفييتي...

الرجل ذو الشارب الكث الأحمر هو مهندس من (كييف).. اسمه (أندريه إيزاكوف).. الحقيقة التي يعرفها الجميع هي أنه ضابط بالمخابرات السوفيتية: (كي - جي - بي) اسمه (إيفان زاروف).. وهو رجل ذو حيثية في عمله...

إنه لا يثير ضوضاء حوله، ولا يقابل أحدًا من العملاء، أمريكي الجنسيّة لأنّه يعلم أن وضعه محفوف بالشكوك..

نحن نراقبه منذ عام دون جدوى.. فالذئب حذر جدًّا.. يراقب كل شيء دون ردود أفعال.. لا يرسل خطابات ولا رسائل لاسلكية.. ولا يلتقي بأحد..

هذه المرّة لا نريد الإيقاع به..

نريدك أنت يا (إيجور) أن تخترق عقله.. وتعرف كل شيء عنه.. وكل خطة تختمر في ذهنه.. إنه يعرف الكثير حتمًا..

ونريد أن نعرف هذا الكثير..

نفذ...!

* * *

الجزء السادس

(واشنجتون) - ١٩٦٢

كعادته في الأسبوعين الأخيرين؛ راح (إيجور) يتردد ليلًا على مقهى (كارديف) ليتناول قدحًا أو اثنين من الشراب.. وبالطبع يختلس نظرة أو اثنتين نحو المائدة الصغيرة التي يجلس عليها (زاروف) يدخن... وقد وضع أمامه زجاجة من (الفودكا) وراح ينظر أمامه في ثبات..

لم يكن يتحدث أبدًا..

أحيانا كان أحد السوفييت المتأمركين يجلس معه إلى المائدة.. فلم يكونا يقولان شيئًا.. مجرد تعليقات سطحية على الشراب أو نوعية الموسيقا الدائرة...

لو كان هناك من يتنصت على كلامهما لوجد في نفسه خيبة أمل.. لكنّ (إيجور) يختلف.. إنّه يسرق الأفكار ذاتها من رأسيهما..

يتردد صوت الخطوات في الردهة، ويدوي صوت خشن غليظ النبرات يتحدث بالروسية:

«إن هذا المقهى كئيب للغاية.. سئمت رواده وشرابه وموسيقاه.. لكنّها التعليمات.. هذا هو مكان اللقاء.. سوف يضع (بوريس) الميكروفيلم تحت الكأس.. ثم ينصرف بدعوى أنه شرب كثيرًا.. بعد هذا ينتقل الميكروفيلم إلى جيبي.. لا أحد يمكن أن يلاحظ ما يدور مهما كان دقيقًا.. هيه! إن هذا الأشقر ذا الأنف الغريب يتردد على المقهى بانتظام مريب.. لا يبدو عميلًا أو جاسوسًا.. لكني لا أرتاح له..

لقد رأيت عينيه ترمقاني باهتمام أكثر من مرة.. إيه يابن الشيطان.. إنك لن تعرف شيئًا ولن تفهم شيئًا.. لن تفهم حتى أرسل الميكروفيلم إلى الخارج وراء طابع البريد الملصق على مظروف.. إن الخطاب مُرسل إلى (فرنسا) فلن يشك أحد في أمره.. ولا أحد يكلّف خاطره بانتزاع الطوابع من فوق المظاريف المرسلة إلى الخارج.. إن (ميخائيل بوكانوف) رجلنا في (فرنسا) ليس هينًا، ولكن.. أكاد أقسم أنّ هذا الفتى يراقبني! للمرة الثانية في دقيقة واحدة أرفع عيني فأرى عينيه تتفحصاني.. ولكن صبرًا.. ليس جديدًا أن يكون كل رجال المخابرات المركزية في إثري.. ولكن دعهم يميزون شيئًا مما أفعله.. هذه هي البراعة الحقيقية..»

كان هذا نصرًا في حد ذاته بالنسبة لـ (إيجور).. من الممكن في أية لحظة أن ينقض رجال الشرطة على المائدة ليجدوا (الميكروفيلم) تحت قاعدة الكأس، ويقبضوا على (زاروف)..

لكن (إيجور) كان يبحث عن شيء أكبر من مجرد جاسوس يتم القبض عليه.. كان يفتش في ذهن (زاروف) عن المزيد...

راحت الأفكار الثرية تتوالى.. يسمعها (إيجور) تدوي بالروسية في دهاليز القبو:

«حين نفرغ من هذا الموضوع: لن يكون هناك مجال للحديث عن صواريخنا ذات الرءوس النوويّة في (كوبا)..، إن (كاسترو) يعرف كيف يعالج الأمور عنده.. ثم إن خبراء التمويه السوفييت الذين يصلون هناك بعد غد سينجحون في خداع الاستطلاع الأمريكي تمامًا..»

هل هذا مهم؟

إذن اصغ إلى ما سيقال بعده:

«يجب الاتصال بـ (جون ديوي).. إن علاقاته في وزارة الدفاع ستتيح لنا المزيد من.. رباه! إنك لا تضم جنرالًا إلى عملائك كل يوم.. إنّه الصيد ثمين.. لكنّ الاتصال به ليس متاحًا إلا عن طريق (القناة السرية).. و... إن هذا الرجل مصر على مراقبتي.. دعه يفعل.. كم أن منظره غريب!.. لا يبدو لي أمريكيًا.. كأنه من شرق أوروبا.. يتظاهر بأنه لا يلاحظني.. يدفن وجهه في كأسه.. هذه حيل قديمة يا فتى لا تخدع رجل مخابرات مثلي..»

هل هذا كاف بصورة مرضية؟

خذ عندك المزيد من الأفكار:

«(أولجا).. ملاكي.. ماذا تعملين في (كييف) في هذه اللحظة؟ عامان كاملان لم أر فيهما وجهك الحزين الشفاف.. و.. هل عاد ذلك الوغد (سيرجي فلاسوف) يحوم حولك؟ ابن الـ.. أنا أعرف أنك لن.. ولكن الفراق قد يسبب الـ.... هل بدأت عواطفك تميل نحوه؟ لا يا (أولجا).. أنا أعرف أن..... سوف أحضرك لتعيشي هنا معي.. في (واشنجتون).. وعندئذ.. الويل كل الويل لـ (سيرجي فلاسوف) لو مس إصبعًا من.....»

هو ذا العميل السوفييتي قد بدأ يجنح للرقة.. يبدو أنّ هناك إنسانًا وراء مركز المعلومات الآدمي هذا..

وهنا رأى (إيجور) (بوريس بودونسكي) يدنو من المائدة..

كان يعرفه جيدًا.. فقد رآه مرارًا في الفترة الأخيرة.. كان أصلع الرأس عوّض صلعه بإطالة ما تبقى من شعره ليتهدل على كتفيه.. بنيًا ناعمًا، وكان يرتدي سويترًا جلديًا لامعًا ويلوك العلكة على سبيل (التأمرك)..

جلس - كالعادة - إلى مائدة (زاروف).. وحياه:

- «دوبرى فتشير تافاريتش»

- «دوبرى فتشير..»

طبعًا لا داعي للقول أنّ هذا معناه مساء الخير يا (رفيق) بالروسية..

- «سادي تيس..»

- «سباسيبا.. يا جالودين..»

- «بوتيلكوفينا؟»

- «دا.. دا.. سباسيبا..»

المحاورة التقليدية: اجلس.. شكرًا.. لكم أنا ظمآن.. هل لك في بعض الخمر..؟ نعم شكرًا.. نذكرها للمهتمين باللغة الروسية.

ثم بدأ الحوار الهامس من خلف شفتين شبه مطبقتين.. ودون أن تتلاقى النظرات (دعونا نسمعه مترجمًا):

- «لا أرتاح كثيرًا لهذا الأشقر هناك..»

- «هذا؟.. لقد رأيته في الأيام السابقة..»

- «أكثر من اللازم.. هذا هو ما أريد قوله..»

فكر (إيجور) في مغادرة المكان.. ثم رأى أنّ هذا يدعو إلى الشك أكثر.. فهو - من المفترض - لا يسمع ما يُقال بشأنه...

المهم ألا ينظر.. وليتابع الحوار والأفكار في اهتمام...

قال (زاروف) بذات الصوت الهامس:
- «لن تكون هناك (معاملات) حتى نعرف من هو..»
- «ليكن..»
- «نلتقي في...»
وعرف (إيجور) أن (زاروف) يخرج ورقة.. ورأى بعين ذهنه رسمًا كروكيًا يوشك أن يُرسم على الورق.. ما زال الرسم في عقل (زاروف) الذي يحاول ألا يتكلم قدر الإمكان.. وكالعادة سيلي هذا حرق الورقة التي عليها الرسم....

بحركة غريزية نظر (إيجور) من فوق كتفه إلى الورقة التي في يد (زاروف).. لم يكن لهذا معنى ولا داع.. فهو يعرف جيدًا محتوى الرسم قبل أن يرسم..

لكنه قابل عيني (زاروف) الحادتين ترمقانه في اهتمام...

وفي ذهنه سمع صوت السوفييني يتردد:

«هووم! هذا غريب!»

عاد (إيجور) إلى جلسته يتظاهر بأنه زبون عادي برىء.. لكنه أحسّ بأنه قارف خطأً فادحًا.. خطأ لم يدرك مداه إلا حين سمع (زاروف) يهمس لرفيقه:

- «هل لاحظت ما حدث؟»

- «لقد سمعنا!.. عرف أنني سأحدد لك موقع اللقاء!... كيف استطاع هذا؟»

- «ربما هناك مكبرات صوت تحت المائدة أو....»

- «حتمًا لا.. إنني حريص على تبديل المائدة في كلّ مرّة ومصباح جهاز (الكشف) لم يتألق.. أعتقد أنّ هذا الفتى... لا أدري.. كأنه يقرأ أفكارنا!»

- «(إيفان).. لا تكن سخيفًا..»

- «وأنت أغبى من مستنقع بما لا يقاس.. أقول (كأن).. وإن كنت لا أدري كيفيّة سماعه لهمسنا هذا.. حتى مع أدق وسائل (التكنولوجيا) يحتاج هو إلى وسيلة (استماع)..»

- «لا شك أنها مصادفة..»

- «أظن هذا...».

كانت هذه هي النقطة التي عادت فيها الدماء إلى (إيجور).. فاستراح بمرفقيه إلى المنضدة وتنهد تنهيدة الخلاص.. غير متوقّع أنّ هذا هو الخطأ الثاني..

من جديد ينظر له (إيفان) في شك ويقول لمحدثه:

- «هل رأيت هذا؟»

- «ماذا؟»

- «لقد بدا عليه الارتياح وتنهد مسرورًا حين أنهينا الحديث عنه.. إن هذا الرجل يسمعنا وأقسم على هذا بقبر أمي..»

- «ألا ترى أنك تبالغ؟»

- «بلى.. أنا أبالغ.. لهذا صرت ما أنا عليه.. لأنني أبالغ.. ولا أترك التفاصيل الدقيقة تمر..»

ومد يده إلى علبة تبغه.. فأخرج لفافة هشم (الفيلتر) الخاص بها، ودسها في مبسم فاخر كعادته.. ودس هذا الأخير بين شفتيه ووقف..

- «إلى أين أنت ذاهب؟»

- «لحظة.. أعود بعدها إليك..»

وفي ثقة مشي نحو المنضدة التي يجلس (إيجور) إليها.

* * *



فكر (إيجور) فى مغادرة المكان .. ثم رأى أن هذا
يدعو إلى الشك أكثر ..

راح (إيجور) كالمحموم يفتش في ذهن (إيفان) ليعرف ما ينوى هذا الأخير عمله.. لماذا يتجه نحو مائدته؟

وكان ما سمعه غير مطمئن بالمرة:

«يمكننا الانتهاء منه سريعًا دون مشاكل.. ضغطة على هذا (الفيلتر) من وراء ظهره، وتنطلق إبرة (السيانيد) لتستقر في عنقه.. سيموت دون ضوضاء.. ولن يعرف أحد أبدًا من فعل ذلك.. إن من أرسلوه سيعرفون.. لكنهم لن يستطيعوا إثبات شيء.. ضغطة واحدة يعرف بعدها مدى تقدم المخابرات السوفيتية.. هيا!»

أجفل (إيجور) ونهض من مقعده كمن داس سلكًا كهربيًا.. تراجع بضع خطوات للوراء ليصطدم بالعميل السوفييتي، وقد وقف يرمقه في ثبات وأسنانه تلوك المبسم في إصرار.. وعلى ثغره ابتسامة ذئب لو أنّ الذئاب تبتسم..

بلغة إنجليزية مهشمة قال له:

- «معذرة يا رفيق.. أرجو ألا أكون قد أفزعتك.. يبدو أن نوع التبغ الذي أستعمله لا يروق لك!»

دمدم (إيجور) ببضع كلمات، وعاد إلى الجلوس..

في حين مشى (إيفان) عائدًا إلى مائدته، حيث كان (بوريس) ينتظره وعلى وجهه علامات الغباء (أغبى من مستنقع) على حد قول (زاروف)..

جلس (زاروف) في تؤدة إلى المائدة.. وصب لنفسه بعض (الفودكا).. ثم قال بصوت غير خفيض لزميله:

- «تجربة مقنعة.. كنت على حق!»

- «في أي شيء..؟»

- «هذا الرجل يقرأ أفكارنا.. إنّه ليس إنسانًا عاديًا.. إنّه فائق للحواس.. Esper كما يقول الأمريكان!!»

.....!

* * *

- ١٨ -

قال (زاروف) لصديقه:

- «أردت أن أتأكد من شكوكي.. وضعت عقلي في حالة ذهنية خالصة؛ لأقنعه أنّ هذا المبسم البريء يحوي سهما سامًا.. والنتيجة هي ما رأيت أنت.. لقد وثب مذعورًا؛ ليتفادى السهم.. كأن هذا الأحمق يحسبنا من الغباء إلى حد قتلة هنا.. يبدو أنه يقرأ الكثير من الروايات الجاسوسية الرديئة حيث يقتل الناس بعضهم بأشياء تنطلق من السجائر طوال الوقت..»

ثم مط شفتيه مشمئزًا:

- «إنّه ليس محترفًا على الإطلاق..»

تساءل (بوريس) في حيرة:

- «وموضوع الـ Esper هذا؟»

- «هذا موضوع قديم يا عزيزي.. ولدينا في الـ (ك - جي - بي) العديد من قارئي الأفكار هؤلاء.. لهذا لا أجد الأمر غريبًا كما تجده أنت..»

ثم بصوت جاد هذه المرّة:

- «المهم الآن ألا تفكر في أي شيء.. لا تدعه ير شيئًا.. فكر في الأطفال.. في الرقص.. في الأرنبة (ماشنكا)..»

كان (إيجور) جالسًا في مقعده في أسوأ حال..

لقد كان أحمق.. والرجل كان عبقريًا إلى حد لا يصدّق.. والآن قد تورطت قدماه إلى حد مزرٍ في هذا المستنقع.. فلم يعد أمامه سوى مغادرة المقهى قبل أن تزداد الأمور سوءًا...

سيقول للجنرال: إنّه فشل.. لكنه يعرف ما يكفي لهذا اليوم.. هناك صواريخ نوويّة.. وهناك (جون ديوي) في البنتاجون يتعامل مع السوفييت سرًا.. دعك من أسلوب (الميكروفيلم) وراء طوابع البريد.

أليس هذا كافيًا؟..

بلى.. وضع ورقتين ماليتين تحت كأسه ونهض لينصرف.

ولم يفته وهو يتجه لباب المقهى أن يعرف أن (زاروف) يرمقه في اهتمام.. وأنه يفكر عمدًا:

«صبرًا يا صديقي.. ولسوف نلتقي ثانية.. فالحقيقة هي أنك تعرف الكثير.. تعرف أكثر مما يجب..»

ثم سمعه يهمس لـ (بوريس):

- «هل سيارتك بالخارج؟.. علينا تعقب هذا البرغوث إلى جحره.. هيا بنا سريعًا..»

* * *

الظلام في الخارج.. ومن بعيد تتناثر أضواء بعض الأندية الليلية.. رباه إن الطقس بارد.. والشارع خال تمامًا..

كان (إيجور) يلهث وهو يدسّ يديه في جيبي معطفه، ويخف السير نحو سيارته التي استأجرها منذ أسبوعين.. كان يعرف أن الرجلين يريدانه.. بل لم لا يقتلانه؟ إنهما لن يجدا مكانًا أنسب ولا ظروفًا أفضل..

لا لن يقتلاه.. إنّه يسمع الفكرة واضحة في ذهن (زاروف).. سيخطفانه لمعرفة من أرسله..

ومن ورائه ـ عند مدخل المقهى - رأى رجلين يخفان السير نحوه.. أحدهما أصلع الرأس بادي الضخامة..

بحت عن....

(أصابعي قد تجمدت!)

المفاتيح، وأولج مفتاح السيارة في الباب، ثم عالج (الكونتاكت).. لحظة ثقيلة مضت ولم يحدث شيء.. إنّه البرد.. المحرك يأبى أن يتحرك...

مرة ثانية..

(لن تكون هناك ثالثة)

عالج فيها المحرك.. و.. أخيرًا.. صوت الكروكروكرو المحبب ينبعث من السيارة.. الأنوار تضيء.. والوحش المعدني النائم يعود إلى الحياة واعدًا بحمايته..

ويبتعد عن مسرح الجريمة ـ الجريمة التي كانت ستحدث حتمًا ـ بسرعة لا بأس بها.. لكنه كان يرى ضوء سيارة الرجلين إذ تتحرك في إثره.. هذا طبيعي.. إن سيارات المطاردين لا تتعطل أبدًا.. سيارة الفرائس هي التي تتعطل دومًا..

الآن يندفع (إيجور) في شوارع (واشنجتون) وهو لا يبرح عينيه عن المرأة.. يرى فيها كشافي سيارة مطارديه يلتمعان في إصرار شرير..

إنهما لم يتركا له فرصة.. لم ينتظرا حتى يتصل برؤسائه.. وهو ليس بارعًا في القيادة إلى هذا الحد..

* * *

راتاتاتاتاه!.. بوم!...

«هذه الناحية مغلقة»..

«اخرس.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

راتاتاتاتاه!.. بوم!.. ثم ينزل الجنرال (جابر) نظارتية المقربتين عن عينيه....

* * *

المطاردة مستمرة...

لكنها لن تطول..

لابد من عربة (لوري) أو سكير مترنح أو امرأة تتعلم القيادة تعترض سيارتها طريقه؛ فيضطر إلى ضغط الفرامل.. وعندئذٍ...

لن تطول المطاردة....

إنه لكابوس.. كيف تبدل الوضع بهذه السرعة؟ خلال ربع ساعة صار هو الفريسة التي يطاردها الغولان..

وهنا بدأ يعيد التفكير....

لم يكون هو الفريسة؟ لماذا يفر؟

إن (بوريس) هو من يقود السيارة.. فلماذا لا تحاول اختراق عقله؟ إنك تملك السيطرة التامة على عقول الآخرين.. فلن يكون (بوريس) طفرة..

لكن.. المسافة..

هل تستطيع عمل ذلك مع بعد المسافة بينكما - حوالي عشرين مترًا؟ - لم تجرب من قبل.. لكنّ هذا جدير بالمحاولة...

راح (إيجور) يرسل أفكاره نحو السيارة التي خلفه..

اخترق رأس (بوريس) الأصلع فوجد نفسه في رواق ممتد.. بهو القصر المعتاد.. كانت هناك أصوات فرامل ومحركات سيارة.. وأفكار اللحظة:

«صبرًا.. يحاول أن يكون بارعًا.. إنّه يأخذ المنحنى.. الأحمق!.. إن طريقه مسدود.. لن يقهر (بوريس بودونسكي) أبدًا..»

ومن بعيد تتعالى أصوات رقصة (البولكا) الروسية، وأنغام على (البالالايكا).. وتسيل أقداح من (الفودكا) يليها تهشيم الأقداح نفسها على حاجز المدفأة...

(إيكاترينا)!.. يا لها من إنسانة قاسية فظة.. أنت أصلع وهذا ليس ذنبك.. إنها مؤامرة من الهرمونات والجينات... لكنّها لا ترحم.. تضرب على صلعتك وتقهقه ساخرة..

(ملحوظة من د. (رفعت): إحم!...)

حصار (ستالنجراد).. كنت شابًا غض الإهاب.. وكنت ترتدي الخوذة وترتجف.. الجليد في كل مكان وفوقه بقع الدم.. هل النازيون لا يقهرون حقًّا؟ بالتأكيد.. إن (هملر) يفطر بعشرة جنود روس كل صباح..، حين مات كل رجال الموقع وقفت وحدك رافعًا يديك تتوسل إلى الجندي الألماني:

- «باجالوستا.. باجالوستا تافاريشتش.. نت! نت!»

لكنه لم يفهم.. أشار إلى رأسه.. وغمغم:

- «إيش فرشتهه نيشت.. فاز زاجن زي؟»

وانطلقت الطلقات لتمزق كتفك.. لم تفهم ما قاله إلا بعد أيام.. ولم يفهم هو ما قلت قط[3]..

بعد الحرب.. العمل في جهاز (كي جي بي).. (ديمتري كالينين) وكل رجال الحزب.. ستكون عملينا في الولايات المتحدة يا (بوريس).. إنّه الموقع حساس.. كالعادة ستكون مُراقَبًا ولربما امتلأت غرفة نومك بأجهزة التنصت.. لكنك لن تظهر ما يثير الشك..

أخيرًا (إيجور) يقف أمام حجرة العقل الباطن الموصدة في عقل (بوريس بودونسكي)..

إنها مغلقة بإحكام بأفضل أنواع الأقفال الروسية.. لكنه كان يعرف ما يجب عمله..

كانت هناك دبابة (شيرمان) نارية تقف في الممر، وقد راح مدفعها يدور ببطء حول محوره... دبابة من أيام (ستالنجراد) تغطت جنازيرها بالجليد.. وفوق البرج برز (الجنرال) وقد غطى رأسه بفراء سميك..

كانت حية.. قادمة من أعمق ذكريات (بوريس)، وحينما رأى (الطوبجي) (إيجور) بدأ يعد المدفع للانطلاق.. ودار المدفع ليواجهه.. ثم.....

انطلقت القنبلة لتهشم الباب.. بووووم!

انفجار مروع اهتزّ له المكان.. وكان (إيجور) قد نجا.. لأن الأفكار ليس لها تأثير مادي..

لقد ملأ الدخان ردهات القصر.. صار الطريق مفتوحًا إلى النصر.. إلى قلب عقل (بوريس)...

ونظر (إيجور) إلى المرآة؛ ليرى ما يحدث في السيارة التي تقتفي أثره... لابد أن (بوريس) قد غاب عن الوعي الآن..

كانت تحيد عن الطريق.. يتعرج مسارها..

ثمة سيارة تعبر الطريق.. لكنّ سيارة السوفييت لم تنحرف ولم تبطئ من سرعتها.. و.....

التصادم!.. إنّه الجحيم بعينه...

السيارة تنقلب مرة.. مرّتين.. ثم تسكن وتشتعل النار فيها.. وظلام الليل يكتسب لون اللهب...

أدار (إيجور) مقود سيارته ليعود بها إلى مكان الحادث.. وأوقف المحرك وراح يرقب من زجاج السيارة الأمامي هذا المشهد المروع.. الحطام المحترق....

لقد غاب (بوريس) عن الوجود بينما هو يقود سيارته بسرعة ثمانين كيلومترًا في الساعة.. إن مجرد احتراق سيارته ليعد نوعًا من الرحمة السماويّة.. كان ينبغي أن تتحول السيارة إلى سحابة من الغبار...

هذا الشيء المبتل.. آه! إنها الدماء تسيل من منخرية كالعادة...

وشعر (إيجور) بغصة.. لقد انتهى إلى الأبد هذا العقل الباطن.. بذكرياته وأحلامه وأحزانه.. بعد أن كان هذا موجودًا مجسدًا منذ ثوان...

هنا سمع صوت سرينة عربة الشرطة...

رأى ثلاث سيارات شرطة تحيط بالمكان.. وأضواؤها تحيل المكان إلى مهرجان من الألوان الحمراء والزرقاء..

وسمع من يقول له:
- «هية!.. أنت يا سيد.. لابد أنك رأيت ما حدث..»
ابتلع (إيجور) ريقه وغادر مقعد السائق؛ ليواجه الشرطي..
وفي صوت مبحوح غمغم:
- «كان يقود بتهور غيرعادي.. لابد أنه كان ثملًا..»
قال الشرطي وهو يخرج مفكرة من جيب قميصه الأزرق:
- «نريد عنوانك ورقم الهاتف.. ربما احتجناك شاهدًا على هذا الحادث..»

* * *

عندما طلع النهار كان (إيجور) منهمكًا...
راح يحزم حقائبه في الفندق.. لقد انتهت اللعبة عند هذا الحد.. سيعود إلى (مانهاتن) اليوم ويقول للنجرال (فرايدمان) إنّه انتهى.. لقد قام بما يريدون منه.. وهذه اللعبة خطرة.. خطرة تحرق أنامل اللاعبين غير المحترفين..
ألم تحرق المحترفين أنفسهم حتى صاروا رمادًا؟!
إنها ليست لعبته.. وهو لم يحبّ قتل هذين السوفتيين.. لقد كانا مواطنين يعملان من أجل وطنهما.. إنهما (شهيدا حرب) مهما كان رأي الجنرال في هذا..
إن ما حدث أمس لهو.....
فرعات على الباب....
احتبس الهواء في صدره.. اتجه ببطء نحو الباب وأنصت السمع فلم يسمع شيئًا.. أنصت (الفكر) فعرف أنّ هناك ثلاثة رجال مسلحين...
وكانوا يفكرون بالروسية!

* * *

مرّت لحظات توتر ثقيلة.. بعدها سمع من يناديه على الجانب الآخر من الباب بإنجليزية غير خالصة:
- «جسبادين (تاركوفسكي).. أنت هنا.. أليس كذلك؟»
- «مـ.. من أنت؟»
لكنه كان قد عرف...
كان هذا هو (ديمتري كالينين) ومعه رجلان من السوفييت المقيمين في الولايات المتحدة.. (ديمتري كالينين) هو واحد من عتاة ثعالب المخابرات.. مثله مثل (زاروف)..
عرف (إيجور) كذلك أنهما لم يأتيا لقتله أو خطفه.. بل جاءا ليقدما إليه (عرضًا لا يمكن رفضه)...



أدار (إيجور) مقود سيارته ليعود بها إلى مكان الحادث . .

هذا غريب.. كيف عرفوا مكانه؟ وبهذه السرعة؟
المهم أنه فتح الباب..
لا يدري لماذا تذكر موقفًا سابقًا له مع رجلى المكتب الفيدرالي حين جاءا غير مدعوين إلى شقته في (مانهاتن).. لكنّ السوفييت يأتون نهارًا.. ليسوا كالأمريكان إذن..
فتح الباب ولا يدري لما فتحه...
كان يريد الانتهاء من كل هذا سريعًا....

* * *

إن (ديمتري كالنين) رجل قصير القامة بشوش الوجه وديع كالأطفال.. ومعه شابان شديدا الوسامة والأناقة هما أقرب إلى ابنين بارين له منهما إلى رجلي مخابرات..
قال (كالينين) وهو يتخذ مجلسًا:
- «نحن لن نعطلك كثيرًا يا (جسبادين تاركوفسكي).. أنت تعرف بالطبع عمل رجال المخابرات وقدرتهم على.....»
ثم نظر إلى الشابين متسائلًا..
كان كلاهما عاكفًا على مسح كل ركن من الحجرة بجهاز في يده بحثًا عن أجهزة تنصت.. وحين فرغا هزّ كلاهما رأسه أن الغرفة نظيفة فلا خطر هنالك..
عاد الرجل يواصل حديثه:
- «.. أنت لا تعرف أن (زاروف) لم يمت في الحادث.. فقط أصيب بعنف.. لكنه أخبرنا بكيفية إصابته.. هيه!.. اجلس يا (إليوشا) فأنت توتر أعصابي.. الحكاية يا (إيجور) هي أننا عرفنا كل شيء عنك من محضر الشرطة.. كنت هناك وقد عرفنا سيارتك.. وبالتالى وصلنا إلى هذا الفندق.. أنت غير محترف يا سيدي، لهذا لم تغير اسمك ولا بياناتك في المحضر.. وقد بدا لنا الأمر مألوفًا لأننا نعرف الكثير عنك.. هناك من يدعى (إدوارد مالكولم) يحتفظ بسجلات كاملة عن الموهوبين أمثالك.. هذه البيانات لدينا ونعرف كل شيء عن فريق الـ Espers الخاص بكم.. وكنا نفكر في تجنيد بعضكم.. ما رأيك؟ ليس عملًا رديئًا بالنسبة لعشر ساعات.. أليس كذلك؟»
في صدق غمغم، (إيجور):
- «بـ.. بلى..»
أردف (ديمتري كالينين) بنفس الرقة والتهذيب:
- «كان (بوريس بودونسكي) عضوًا نشطًا خدم الحزب بإخلاص.. لكنه قد مات.. ونحن - معشر السوفييت - قوم عمليون يا (إيجور).. لهذا جئت اطلب منك أن تكون عضونا الجديد.. صبرًا! لا تنفعل.. إن وضعك بالذات يا (إيجور) يجعل منك عضوًا فريدًا.. فأنت نفسك عميل للـ CIA»
ثم نظر إلى الرجلين متسائلًا:
- «من القائل: إن خير جاسوس لك هو الجاسوس عليك..؟ أتراه (خارين)؟!»
قال أحد الرجلين مصححًا:

- «(كالنشوف)..»
- «آه.. (كالنشوف) صديق (بيريا).. لهذا - ترى - يا (إيجور تاركوفسكي) أنك ستقدم لنا خدمة غير مسبوقة.. وكل ما عليك هو أن تقرأ أفكار زملائك.. ثم تنقلها لي بقدرتك على (التخاطر).. هذا سهل وخال من المجازفة..»

للمرة الأولى قال (إيجور) جملة كاملة وسط كل هذه الثرثرة التي غمرته كسيل:

- «وماذا يجبرني على خيانة وطني؟»
- «أولًا: أنت لست أمريكيًا.. أنت بولندي... أي من (لحمنا ودمنا).. أنت رجلنا بشكل ما.. والأمريكان لم يكفوا عن اعتبارك بولنديًا لحظة.. فلماذا لا تكون كذلك؟»

وغمغم في ثقة:

- «كل الملفات التي سهرت عليها البارحة تقول إن مشكلتك هي الاغتراب في المجتمع الأمريكي.. فلماذا تكابر؟»

ثم أردف وهو يخرج علبة تبغ من جيبه:

- «ثانيًا: لنكن عمليين.. أنا أعرف أنك تعاني من نوبات صرعية متكررة.. لقد صادفنا نوبات كثيرة كهذه مع ذوي الإدراك الفائق للحواس..، وقد تمكّن أطباؤنا من السيطرة عليها باستعمال عقار معين، ومن دون هذا العقار يؤسفني أنك تدنو من نهايتك بخطى حثيثة.. وعندما تموت سيقول الأمريكيون: خسارة..! لقد مات البولندي، ثم يعودون إلى حياتهم بـ (براجماتية) يحسدون عليها...»
- «أنت تكذب..»
- «يمكن طبعًا أن تعرف ما إذا كنت كاذبًا أم لا..»

وكانت هذه هي الحقيقة.. كان الرجل يقول الحقيقة.. إنهم يملكون هذا العقار الثمين حقًّا..

وكأنما شعر الرجل بأن (إيجور) قد تحقق من صدقه؛ عاد يقول في ثقة:

- «أمّا عن الشيء الأهم الذي أقدمه لك.. فهو أن رجالنا يعرفون على وجه اليقين مكان (سيدلتز جابلر)! الوثائق التي وجدناها في (برلين) تؤكد لنا مكانه.. ولا داعي لأن أقول: إن الأمريكان يخدعونك بتقنية السلحفاة والجزرة.. إنهم لا يعرفون شيئًا على الإطلاق..»

للمرة الثانية عرف (إيجور) مذهولًا أنّ هذه هي الحقيقة.. إن الجنرال (سيدلتز جابر) يعيش متخفيًا في (بوليفيا).. ولكن (كالينين) لا يعرف المزيد عنه..

قال (كالينين) وهو يخرج لفافة تبغ:

- «بالطبع لم أسمح لنفسي بمعرفة ما هو أكثر من رجالنا في (موسكو) لأنني لا أنوي أن أكشف لك السر إلا بعد ما تقدم لي دليل نشاطك.. إنّه نوع من.. من.....»
- «تقنية السلحفاة والجزرة..»

قالها (إيجور) في إحباط.. فهتف الرجل في حماس:

- «خاراشو!.. خاراشو!.. [حسن.. حسن].. أنت تفهمني جيدًا.. هكذا يعمل المرءوسون لرئيسهم.. وهكذا يطلب الرجال الزواج من النساء.. وهكذا يعمل جهاز المخابرات الجيد.. باني مابيتى؟ [هل تفهمني؟]. غير أن جزرتنا نحن جزرة حقيقيّة!»

عواصف كثيرة اجتاحت ذهن (إيجور) وهو يرمق هذا الرجل الودود اللعين.. إن عرضه مغرٍ إلى حد كبير.. لكنه ينسى بغباء أن وطن المرء هو حدود ديار أحبابه.. و(إيجور) يحبّ (لارا)..

الآن فقط يعرف هذا.. ثم إنّه يمقت الروس.. ألم يكونوا هم حلفاء (هتلر) في غزو (بولندا)؟...
ولكن.. إنهم يقدمون له رأس (سيدلتز جابلر) على طبق ذهبي..
هل يقبل؟ هل يأبى؟
ولو أبى.. هل يتركه هذان الشابان الوسيمان حيًا؟
ولو قبل.. كيف يمارس مهام عمله الجديد؟ وبأي وجه؟
كان لا يزال واقفًا جوار الباب...
تائهًا في مستنقعات ذاته.. حيث ضباب الحيرة وتماسيح الشك.. والحاجة إلى قرار....

* * *

في الجزء الثالث والأخير - إن شاء الله ولم أمت أنا (رفعت إسماعيل) الذي يروي لكم هذا - نعرف ما حدث.. ونشهد اللقاء الذي تأخر أكثر من اللازم بين الفتى وبين الجنرال...
لن أترككم تنتظرون كثيرًا؟

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

فلننعش ذاكرتنا!

الجزء الرابع (مانهاتن) - ١٩٦٠

- ١٠ -

- ١١ -

- ١٢ -

- ١٣ -

الجزء الخامس (مانهاتن) - ١٩٦٢

- ١٤ -

- ١٥ -

- ١٦ -

الجزء السادس (واشنجتون) - ١٩٦٢

- ١٧ -

- ١٨ -

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة الجنرال العائد

القدرة على اختراق عقول
الآخرين .. هذه معجزة ..
الحياة فى ضوضاء لا تنتهي من
الأفكار .. هذا كابوس ..
التورط في تروس آلة المخابرات
التي لا ترحم .. هذه كارثة ....
أن تكون أنت بالذات من
نتحدث عنه .. تلك مأساة !



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:
أسطورة المواجهة

Notes

[←1]

Biofeed - back

أحداث القصة خياليّة طبقًا.. لكنّ ما سنذكره هاهنا حقيقي تمامًا. [←2]

[←3]

«من فضلك يا رفيق.. لا!» «أنا لا أفهم.. ماذا تقول؟»

روايات مصرية للجيب

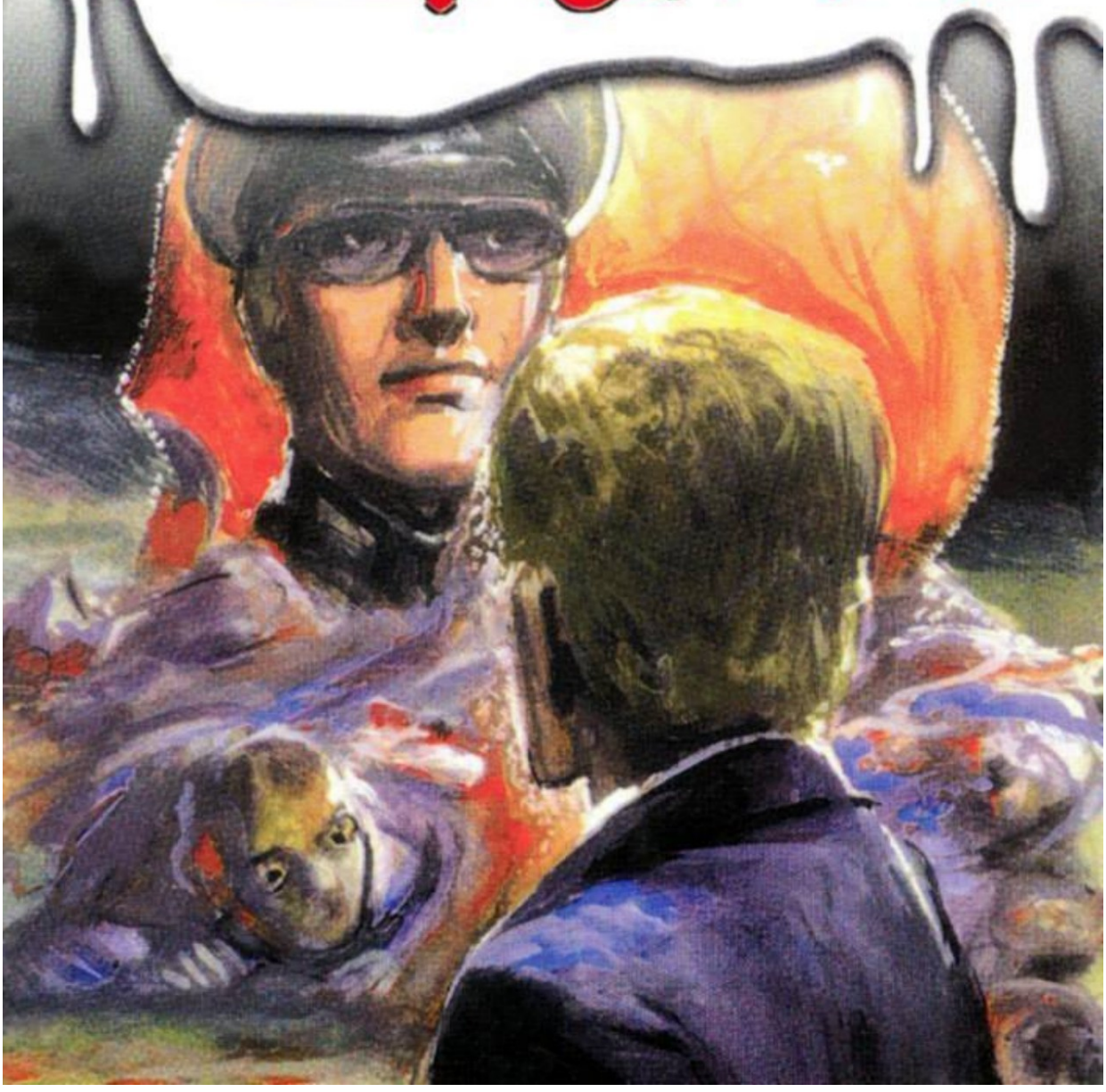
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

أسطورة

26

المواجهة

ماوراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

فلنتعش ذاكرتنا!

مولود في (بولندا - وارسو) عام ١٩٣٧، وابن لأبوين بارين يعيشان حياة هادئة.. هذا هو (إيجور تاركوفسكي) بطل قصتنا...

النازي يستولي على (وارسو).. الجنرال السفاح (سيدلتز جابلر) يزيل قطاعا كاملًا من المدينة من: الوجود.. في وسط النيران والصخب يفقد (إيجور) - ابن السنوات الخمس - أسرته ووعيه، ويتم إنقاذه من تحت الرماد الملتهب وقد صار إنسانًا جديدًا..

وينزح الصبي مع العم (أندريه) إلى العالم الجديد (أمريكا) فارين من (بولندا) التي تحولت جحيم حقيقي، لكنّ (أندريه) السكير العجوز البائس لا يعيش في (أمريكا) كثيرًا لأنّه بلغ لحظة النهاية...

وهنا يجيء دور أبوين بالتبني يكفلان اليتيم البولندي الصغير، لكنّ دون حب حقيقي.. مجرد الحاجة إلى أن يكون لديهما طفل.

ويدرك (إيجور) أن القليلين جدًّا يحبونه أو يرحبون به..

فهو يملك موهبة لا يدري كيف ظهرت فجأة.. قادر على اختراق أذهان الآخرين وسماع أفكارهم بوضوح تام.. لكنّ هذا يظل سرّه الذي لا يصارح به أحدًا..

وكالعادة يبدأ بعض الصبية في التحرش به.. فهو أجنبي ضعيف حساس هش..، ويكون عقابهم له فريدًا: عليه دخول المنزل المسكون لآل (كيلي) وقضاء ليلة كاملة فيه..

ويقبل الصبي التحدي ويدخل البيت ليفاجأ بأن أسرة (كيلي) مازالت هناك في صورة شبحين يبحثان. عن قاتلهما..

هكذا يتم التعاون بين (إيجور) وبينهما، هما يثيران الرعب في قلوب عصابة الصبية، وهو يتصل بالشرطة لتقبض على قاتل الزوجين الذي مازال حيًا وحرًا..

وهنا ندرك حقيقة هامة.. إن كل الأشرار في العالم هم - بالنسبة لـ (إيجور) - صورة مكررة من الجنرال السفاح (جابلر)..

* * *

بعد أعوام ستة قابلنا (إيجور) طالبًا في المدرسة الثانوية، وقد بدأ الحب يتحرك في قلب المراهق تجاه (جلاديس)..

لكن (جلاديس) تتبدل.. لأن هناك من يدعي (هاري كارلسون)، وهذا الـ (هاري) من الطراز الذي لا تستطيع فتاة أن تقاومه...

لكن (هاري) يملك مزية أخرى: إنّه نذل كبير.. وبمجرد أن يستوثق من أن الفتاة قد هامت به حبًا يتخلى عنها، غير مبال بأنه هشم روحها الحساسة للأبد..

يا للشقاء!.. يصمم (إيجور) على الانتقام ويدعو (هاري) إلى مبارزة من نوع خاص جدًا.. مبارزة بالسم، ويوافق (هاري) الذي لم يرفض تحديًا في حياته كلها..

لكن (إيجور) يتلاعب به، ويتضح أن القارورتين خاليتان من السم، لكنّ قوة الإيحاء غير العادية لـ (إيجور) تجعل (هاري) يشعر بالسم يمزق أحشاءه.. ويملأ الدنيا صراخًا.. ويغدو مهرج المدرسة وموضوع سخريتها..

إنه يرى في كل شرير قاس وجه عدوه (جابلر)..

ترى هل يلتقي الشتيتان؟

هل يبدأ الصراع الذي انتظر كل هذه الأعوام؟

* * *

وفي العام ١٩٦٠ يبدأ (إيجور) في المعاناة من نوبات صرعية متكررة، مصحوبة بقوّة ملحوظة في موهبته هذه.

ويطلب العون من مواطنه (شلوفسكي) لا يجد حلًا سوى عرضه على خبير الهراء الأول في (مانهاتن) وهو الدكتور (إدوارد مالكولم).. الذي يراه البعض عبقريًا ويراه البعض نصابًا أو معتوهًا..

ومع (مالكولم) يعرف (إيجور) أنه Esper.. الشخصية ذات الإدراك الفائق للحس إلى حد لا يُصدق.. كما يعرف أنه ليس الوحيد من نوعه..

هناك (هاثاواى) و(ماكجافن) الذي تحريك الأشياء عن بعد.. كما أنّ هناك (جيف جولد سميث) الزنجي الذي يملك ناصية التخاطر و(شندلر) الألماني الذي يملك موهبة سلبية من نوعها.. فلا أحد يقدر على قراءة أفكاره..

ولقد تعرفنا بعض النواحي المسلية لموهبة (إيجور) هذه.. مرة حينما استطاع أن يحبط مخططا لسرقة المصرف الذي يعمل فيه.. ومرة حينما اكتشف محاولة لترويج نقود مزورة..

عرفنا كذلك علاقته الباردة جدًا بـ (لارا) زميلته في المصرف التي لم يمل إليها إلا لأن عقلها (نظيف) تمامًا..

ثم رأينا التجربة المريعة التي دعاهم د. (مالكولم) للقيام بها، حين حاول تعليمهم المشي في طرقات العقل البشري، ومحاولة اقتحام الغرفة المحرمة للـ (أنا)..

وينجح (إيجور) في هذا نجاحًا باهرًا. فهو يقتحم عقل (هاثاواي) ويشاهده غرفة غرفة بما فيه من ذكريات، بعضها سار وبعضها مشين.. لكنّ محاولة فتح الغرفة المحرمة تنتهي نهاية مأساوية يُجن بعدها (هاثاواي) للأسف..

* * *

العام ١٩٦٢:

(إيجور) يخضع لضغط هو مزيج فريد من القهر والإغراء، كي يعمل مع المخابرات الأمريكية في فريق ممن يسمونهم الـ Espers.. ويكتشف (إيجور) أن أغلب زملائه من ذوي المواهب الفريدة هم أعضاء في هذا الفريق، والغرض هو إنشاء سلاح قذر جديد من نوعه يماثل ما لدى السوفييت في هذا الصدد..

الهدف: تحري وجود صواريخ نوويّة في (كوبا)..

وبعد دورة قصيرة تحت إمرة جنرال (فرايدمان) - أو هكذا ينادونه - ينطلق (إيجور) للتجسس الفكري على عميل المخابرات السوفييتية المدعو (إيفان زاروف).. والثمن هو معلومات عن الجنرال النازي (جابلر) يقدمها الأمريكان لـ (إيجور) متى رضوا عنه.. للأسف ليس (إيفان زاروف) بالخصم الهين..

إن هذا الثعلب يشعر بـ (إيجور).. ويفهم بالتدريج أن (إيجور) يتلصص على أفكاره.. فقارئو الأفكار ليسوا غريبين عليه..

وهكذا يجد (إيجور) نفسه مُطاردًا بوساطة ثعلبين سوفيتيين في سيارة مسرعة في شوارع (واشنجتون) المظلمة..

لا نجاة من هذا الموقف العسير إذن سوى بمحاولة اقتحام عقل سائق السيارة، وفتح غرفة العقل الباطن إياها..

وينجح (إيجور).. وتندفع السيارة المطاردة لتنقلب وتحترق تمامًا..

إلا أنه ـ في الصباح - يدرك أنه لم ينجح في الإفلات من قبضة الدب السوفييتي.. إذ يفاجأ بزيارة غير ودود على الإطلاق من (ديمتري كالينين)؛ ثعلب المخابرات الروسية في الولايات المتحدة، ومعه حارسان وسيمان يحاصران (إيجور) في غرفته.. ويصارح (كالينين) بطلنا أنهم الآن صاروا يعرفون كل شيء عنه.. ستعمل معنا يا (إيجور) والمقابل هو أن نقودك إلى (جابلر) خصمك اللدود..

وبسهولة يعرف (إيجور) أنهم صادقون..

هم يعرفون مكان (جابلر).. أحدهم يعرفه.. لكنه لا يجد في عقولهم المزيد من المعلومات...

الإغراء الثاني الذي يقدمونه له هو حياته.. النجاة من نوبات الصرع التي تحاصره والتي تقربة من حتفه يومًا فيومًا...

هذا هو الصراع.. وهو ليس بهين إذا ما تذكر أن (إيجور) لم يعتبر نفسه أمريكيًا في أية لحظة لكنه ـ كذلك ـ لا يعتبر نفسه سوفييتيًا..

هذه هي الأحداث التي سبقت بداية الجزء السابع من قصتنا، والتي أعد البعض بأن تكون بداية النهاية اقلبوا الصفحة الآن أو انظروا لليسار من فضلكم

* * *

الجزء السابع

(مانهاتن) - ١٩٦٣

- ١٩ -

الآن حين نحاول أن نرى (إيجور) نجد أنه في أسوأ حال ممكن.. إن حاله يتلخص في كلمة واحدة: الصراع..

اوليسهل علينا فهم جوانب هذا الصراع؛ نقول إن فلسفة وجود (إيجور) والسبب في حياته هو الانتقام.. لقد جاء إلى هذا العالم كي ينتقم من (سيدلتز جابلر).. فهو لا يملك أحلامًا أخرى ولا طموحات من أي نوع..

فقط النظرة المتوسلة المذعورة في عيني (جابلر)، وهو يمد كفيه إلى (إيجور) هاتفًا:

- «لا!.. لا تقتلني!.. لا تقـ.....»

ثم تنطلق الرصاصة.. أو ينغمد الخنجر.. أو ينفجر الديناميت.. أو يتناثر الحمض.. أو يشتعل عود الثقاب.. وتنتهي المأساة...

ويقف (إيجور) يرمق في تشف نهاية كل هذه الكبرياء التي ذهبت إلى الجحيم.. الجحيم الذي يضم كل الجنرالات حارقي المدن وقاتلي الأبرياء.....

آه!.. إن هذا لأجمل من أن يمكن تخيّله..

لهذا يمكننا أن نفهم كيف يعيش المرء ستة وعشرين عامًا من أجل حلم.. وحين يدنو هذا الحلم يكون عليه أن يقاوم، وأن يأبى وإلا كان مواطنًا أمريكيًا غير صالح..

* * *

كان الكابوس لا يني عن التكرار كل ليلة.. كان يرى نفسه في (بوليفيا) وقد وجد مكان خصمه القديم.. الخصم الذي لا يعرف (إيجور) ولم يسمع عنه قط..

فما إن يصل (إيجور) إلى بيت الجنرال حتى يجده قد مات.. هكذا!.. مات في سلام في فراشه كما يموت أطباء الأسنان ورسامو الخرائط ومدرسو الفلسفة.. مات في سلام وابتسامة هادئة آمنة على شفتيه..

لا!.. إن هذا لن يكون..

ينهض (إيجور) من نومه غارقًا في العرق.. يحاول التشبث بالملاءة.. إن الزمن يسابقه.. والجنرال - حتمًا - في السبعين من عمره أو أكبر.. معنى هذا أن الأمر لن يطول.. سيفلت الرجل للأبد من قبضة الانتقام.. وسيموت آمنًا غير عالم بوجود من لم ينس جرائمه بعد.....

* * *

حينما دلف إلى مكتب الجنرال (فرايدمان) كان حائرًا.. هل سيلقاه الرجل باللوم أم بالتهنئة؟ وفي عقل الرجل وجد الشعورين معًا متجاورين متلاصقين: الرضا والسخط..

قال الجنرال وهو يصافحه:

- «عودًا حميدًا يا (تاركوفسكي)... لقد أبليت بلاءً حسنًا في العاصمة.. ولقد قرأت تقريرك بكثير من شغف..»

- «شكرًا..»

جلس الجنرال في تؤدة.. وراح يتأمل أظافره المقلمة بعناية.. أظفار الرجل الذي لا يستحب المزاح معه.. وقال:

- «إلا أنني لا أرتاح لما حدث من ضوضاء.. مطاردة بالسيارات.. سيارة تنقلب.. مصرع (بودونسكي) وإصابة (زاروف).. لم أفهم كثيرًا ضرورة ما حدث.. ولا اعرف كيف يمكن لهذين الرجلين أن يخمنا كونك Esper أم لا.. كيف يمكن لأي مخلوق كان أن يحدس شيئًا كهذا؟»

بلل (إيجور) شفته الجافة.. وغمغم في فتور:

- «كان (زاروف) أذكى مما ينبغي.. هذه هي الحقيقة..»

- «لنقل إننا كنا أقل ذكاء مما ينبغي.. ثمّة خطأ في التكتيك الخاص بنا.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. ربما..»

تأمل الجنرال أوراق ملف على المنضدة أمامه.. وقلبها في شرود.. ثم غمغم:

- «ثمّة نقطة أثارت قلقي في تقريرك.. هي أنك تعتبر نفسك عميلًا محترفًا.. تقول إنّه مادام (زاروف) لم يمت فمعنى هذا أن المخابرات الروسية تعرف كل شيء عن استعانتنا بذوي القدرات الفائقة للحس.. وبالتالي لم يعد هناك معنى للاستعانة بك في عمليات أخرى لأنّهم يعرفونك.. أليس هذا معنى كلامك؟»

- «بلى..»

- «هل أعتبر هذا طلبًا للتقاعد المبكر؟»

- «قد نلتم ما تريدون وأكثر.. عرفتم حقيقة الصواريخ الكوبية وكل شيء عن وسيلة اتصال العملاء بالخارج.. وعملائهم الأمريكيين.. لم يعد لدي ما أضيفه.. وقد حان الآن وقت الوفاء بوعدكم..»

تأمله الجنرال هنيهة شارد الذهن..

لكن (إيجور) كان يعرف كل خاطرة تدور في هذا الذهن الجبار الذي لا تفوته شاردة ولا واردة..

لقد حان وقت الصدام.. وقت المزيد من الضغط..

قال الجنرال وهو يضيق عينيه محاولًا أن يبدو كثعلب (وهو أمر لا يستحق مجهودًا لأنّه واقع):

- «مستر (تاركوفسكي).. إن نشاط رجالنا لا ينتهي ببساطة لمجرد أنهم يشعرون بالملل.. أنا الذي يقرر كيفيّة تقاعدك ووقته.. وكون الروس يعرفونك يدعوك لأن تكون أكثر التصاقًا بنا؛ فليس من المستحب أن يكون المرء وحيدًا في مواجهة جهاز (كي - جي - بي) الرهيب، خاصة وهم يعرفون ما تعرفه الآن..»

- «كان في مقدورهم أن يمنعوني من الاتصال بك..»

- «المشكلة هي كونك سلاحًا خطيرًا.. لقد آذيتهم مرة.. ومن الممكن أن تؤذيهم مرات أخرى.. لو كنت مكانهم لحرصت على تدميرك في أقرب فرصة ممكنة..»

كيف لو عرف؟

كيف لو أدرك أن السبب الوحيد الذي جعلهم لا يقتلون (إيجور) هو ثقتهم بأنه تحت سيطرتهم؟

كيف لو تخيل أنه ـ في هذه اللحظة ـ صار عاريًا تمامًا أمام (إيجور)؟ قناع الغموض الصارم ينزاح كاشفًا عن أسرار مريعة في صميم الأمن الأمريكي..

«عملية (أوميجا).. الدالاي-لاما -... حرب باردة.. جنرال (سلفستر).. حلف بغداد.. الموقف في اليمن.. حكومة (عبد الناصر).. عملاؤنا في (الكرملين) في وضع حرج.. الصين.. فريق (هـ) وحكومة (كوستاريكا).. يجب أن.....»

الواقع أن (إيجور) خلال عشر دقائق صار يعرف من أسرار الأمن الأمريكي ما يفوق ما يعرفه الرئيس نفسه.. ولو أنه أزمع أن ينقل هذه المعلومات إلى السوفييت لاهتز ميزان القوى في العالم كله.. هكذا يتم التجسس.. دون دماء.. دون (ميكروفيلم).. دون حبر سرّي ولا رسائل مشفرة ولا شيء على الإطلاق..

إن جهاز المخابرات الأمريكي يشبه الأخطبوط المتغلغل في كل شيء.. وتحت كل حجر..

كان (إيجور) غارقًا في هذه الخواطر، حين سمع الجنرال يقول في تؤدة:

- «إنهم يراقبونك منذ عدت إلى (مانهاتن).. هل تعرف هذا؟»

ورفع (إيجور) عينًا مندهشة نحوه، فقال الرجل وهو يبتسم كأنه يقدم حفلًا ترفيهيًا:

- «يبدو أنك لا تعرف.. هم يراقبونك ونحن نراقبهم.. هل تدرك أنهم زرعوا بيتك بأجهزة التنصت؟»

وأمام عيني (إيجور) الخرساوين عاد يقول:

- «نعم.. منذ يومين بينما كنت أنت في السينما مع صديقتك الحسناء.. تسلل من يصلح أجهزة التدفئة إلى شقتك.. عالج الباب بأداة معه ودخل.. وقام باعمال مبهرة للغاية.. إن هؤلاء السوفييت ليسوا رديئين على الإطلاق..»

- «وكـ.. كيف عرفتم؟»

- «لأن رجلنا تسلل بعد خروج رجلهم بعشر دقائق..»

- «قمتم بتحويل شقتي إلى متنزه عام إذن.. وهل قمتم بتنظيفها؟»

ضحك الجنرال ضحكة مفتعلة.. وغمغم:

- «بالطبع لا.. لماذا نفعل؟ هم يراقبونك لأنّهم لا يعرفون عنك سوى قصة سمجة يحكيها (زاروف).. قصة تبدو إلى التخريف أو الهذيان أقرب.. لهذا يراقبونك.. ولسوف يجدون أنك لا تتكلم بصوت مسموع، ولا تجتمع بالمخابرات، ولا ترسل رسائل لاسلكية.. أنت إنسان وحيد صموت.. لهذا يناسبنا أكثر أن نتركهم يصغون إلى ما يحدث في شقتك..»

- «وهل يعرفون أنني هنا اليوم معك؟»

- «بالطبع لا.. إن وسيلة لقائنا محكمة تمامًا..»

كل هذه المعلومات هي تحصيل حاصل.. ف(إيجور) يعرف أن السوفييت يراقبونه ويعرف أنهم غرسوا أجهزة تنصت في شقته.. ويعرف أنهم يعرفون أمر لقائه بالجنرال..

فقط الجنرال لا يعرف...

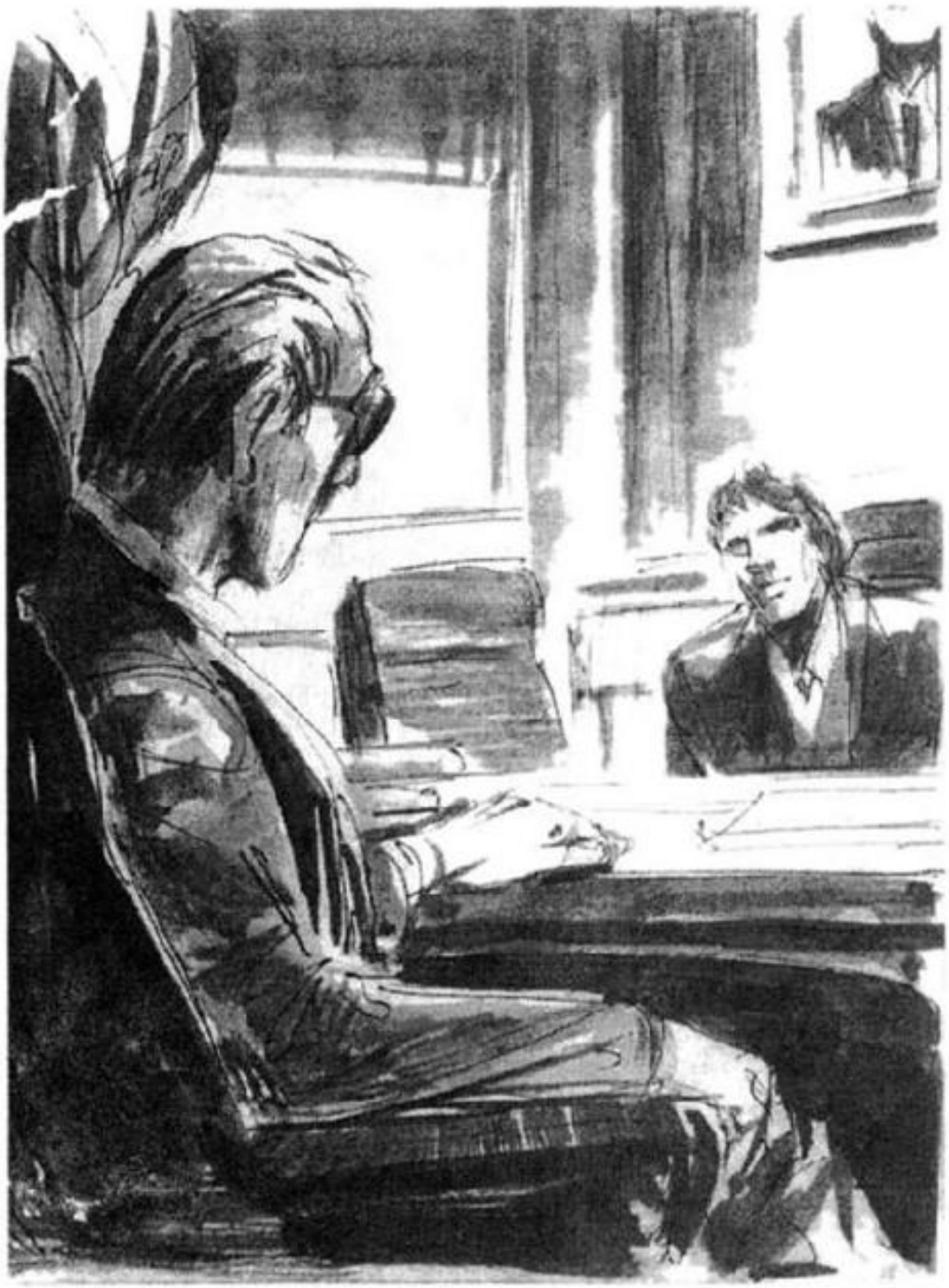
قال (إيجور) بعد برهة صمت:

- «حسن.. كيف تريد مني أن أحقق المزيد تحت هذه الرقابة اللصيقة؟»

قال الجنرال وهو يسترخي في مقعده:

- «هذا هين.. سنغير شكلك واسمك وعنوانك.. ستفر إلى مكان آخر بعيد عن قبضتهم.. عندها تبدأ من جديد، سنتبع معك برنامجًا شبيهًا ببرنامج (حماية الشهود) وإلا لن تعيش في سلام بقية حياتك..»

- «هذا يملؤني حبورًا..»



كيف لو تخيل أنه ـ فى هذه اللحظة ـ صار عاريًا تمامًا أمام
(إيجور) ؟ قناع الغموض الصارم !!

- «إن العمل معنا مُفعم بالمفاجآت السارة..»
قالها الجنرال وشبك أصابع يديه معلنا انتهاء المقابلة..

* * *

تبًا لها من مصيدة!
حين تدرك أن كل حركة من حركاتك يرصدها المجهر.. وأن كل همسة حب سكبتها في أذن (لارا) جوار قرطها المتدلي؛ هي الآن على عدة شرائط تسجيل في عدة إدارات المخابرات.. وأنّ هناك من يعكف على ترجمة هذه الهمسة إلى الروسية.. وهناك من يحلل ذبذباتها ومن يدرس شكل موجاتها.. وأن صورة (لارا) الحبيبة تحتل عدة ملفات كئيبة الشكل في مبنى (كي جي بي) الرهيب..
عندئذ تغدو الحياة أكثر جهامة!

* * *

في السابعة مساء بالضبط يقف (إيجور) وقد عقد كفيه خلف ظهره يتأمل واجهة أحد المحلات.. أضواء مبهرة تتألق هنا وهناك منعكسة على الدمى ذوات النظرات الشاخصة، وهي تقف في أوضاع أنيقة مدروسة مزهوة بما ترتديه..
لكن (إيجور) لا يتأمل الملبوسات في المحل.. لكنه يركز عينيه على جزء من الزجاج أكثر إظلامًا مما حوله... بالتالي صار مرآة لا بأس بها تريه الشارع خلفه بما فيه من مارة..
ترية الرجل الأشقر الذي دسّ يديه في جيبي معطفه، وراح يمشي في تؤدة متسكعًا بين واجهات المحلات.. حتى وقف بصورة طبيعية غير مريبة جوار (إيجور) أمام الواجهة ذاتها..
تأمل (إيجور) وجهه في الانعكاس.. إنّه هو.. (ستيفن بيركنز).. العميل المرتقب.. وهو ـ كما نرى ـ أمريكي جدًّا.. فالسوفييت ليسوا حمقى ليجعلوا كل عملائهم من السوفييت..
الآن سيتم اللقاء الفريد من نوعه.. أو كما قال (كالينين):
- «اثنان يقفان لثوان أمام واجهة محل للأزياء.. بعدها يفترقان.. من يصدّق أنه في غضون هذه الثواني يتدفق سيل من المعلومات من رأسك إلى رأسه؟ من يصدّق أن عملية تجسس مهولة تدور في هذا المكان وسط مئات المارَّة؟»
راح (إيجور) يتلصص بطرف عينيه..
هو ذا (بيركنز) يقترب.. يقترب..
ثم يسمع السؤال يتردد في ذهن الرجل:
- «بِمَ أبلغهم يا (تاركوفسكي)؟»
كان مخه معدًا تمامًا لاستقبال الرسالة.. كأنه فراش وثير يدعوك لأن تغفو فيه.. كل أبوابه مفتوحة تدعو (إيجور) إلى أن يترك ملفاته بداخل باب منها...

ابتلع (إيجور) ريقه وركز تفكيره ناقلًا الرسالة التالية إلى عقل الجاسوس الذي يقف جواره منتظرًا:

ـ «قل لهم إنني لم أعرف شيئًا بعد.. إنهم يكتمون خواطرهم عني وهم في ذلك لبارعون..»

لم تبد أية استجابة على وجه الرجل.. ولم يسمع (إيجور) أي صخب في أفكاره.. كأنما كان يتوقع هذا من البداية:

«المكان (ب).. الموعد (ب) إذن..»

وأدار وجهه مبتعدًا كأنما لم ير ما يستحق الاهتمام في هذه الواجهة، وبنفس الكيفية ابتعد (إيجور) في الاتجاه العكسي..

* * *

- ٢٠ -

قالت (لارا) وهي تتأبط ذراعه بقوّة أكثر.. وشفتاها ترتجفان من يرد المساء مما جعلها تنكمش في جانب معطفه كقط صغير:

- «ألن تختار مكانًا ذا أربعة جدران لنحتمي فيه؟ إنني أوشك على التحول إلى.. إلى.....»

وبحثت عن لفظة مناسبة فلم تجد.. بدت لها لفظة (تمثال جليدي) أو (بابا نويل ثلجي) مبتذلة وغير طريفة.. ولقد كانت مشكلة (لارا) طيلة حياتها أنها جميلة لكنّها مملة.. الجميع قالوا لها إن رأسها الجميل يحوي عقلًا خاويًا أو لا عقل على الإطلاق..

لكن (إيجور) كان قد بدأ يحبّها.. فهو قد سئم الأذكياء الذين ينتقون عباراتهم بعناية.. كل الناس المحيطين به الآن هم من الأذكياء الذين يخفون نواياهم - وربما أفكارهم - خلف عبارات منمقة أنيقة..

هو بحاجة إلى السذاجة.. إلى الحماقة.. إليَّ السخف.. إلى الآراء المطروقة المملة.. هو بحاجة إلى (لارا)..

قال لها وهو يحكم قبضته على ذراعها المرتجف:

- «نعم.. إن منزلي يعجّ بأجهزة اتصال الـ (CIA) والـ (KGB) والمكتب الثاني والموساد والسافاك والسكيوريتاتيا[1].. وربما الجشتابو أيضًا.. لو كان لـ (ترينداد) جهاز مخابرات فلابد أنه يتنصت على شقتي الآن!»

[ملحوظة د. (رفعت): لا أعرف كنه هذه (السكيوريتاتيا).. لقد نقلتها من الخطاب كما هي.. ولابد أنها شيء ما...]

قالت (لارا):

- «إذن أنت لا تثق سوى بالعراء..»

- «نعم.. المكان الوحيد الخالي من أجهزة التنصت...»

سألته وهي تلهث بردًا:

- «ماذا تنوي عمله؟»

- «لا شيء.. سألقاه في المكان (ب).. لقد وضع الى (كالينين) خطة زمنية مكانية للقاء عميلهم.. في كلّ مرّة يتغير المكان والزمن.. ليس طبيعيًا أن أقف كل يوم أمام واجهة ذات المحل في نفس الساعة.. إن هذا مريب حقًّا..»

قالت (لارا) في إشفاق:

- «إن ما ينقصك يا (إيجور) هو قارئ أفكار.. قارئ أفكار سوفييتي أو أمريكي يعرف ما يدور بخلدك.. عندئذٍ ستضيع تمامًا لأن الطرفين سيجدان في أفكارك ما يوحي بالخيانة..»

- «هذا صحيح.. لكنه لم يحدث لحسن الحظ.. إنني قادر على الإحساس بمن يحاولون اختراق عقلي.. ولم ألق بعد من يقدر على ذلك سوى (هاثاواي) المسكين..»

- «لكنّ لعبتك لن تدوم للأبد..»

- «هذا صحيح.. إلى أن أجد (جابلر)..»

تنهدت فتصاعد البخار كثيفًا من بين شفتيها، كأنما تدخن لفافة تبغ وهمية لا وجود لها.. وهمست:

- «مسكين أنت يا (إيجور)!»

- «لماذا؟..»

- «إن الرجال الذين تستحوذ عليهم فكرة واحدة هم دائمًا مساكين يدعون للشفقة..»

* * *

لم يدر متى اتخذ القرار ولا متى..

إنه لن يتعاون مع أي طرف من الطرفين.. سيفر إلى (بوليفيا) ليلقى الجنرال.. وبعدها لا يهم ما سيحدث.. إن الغرض الأساسي من حياته هو قتل (سيدلتز جابلر) بطريقة شنيعة.. وبمجرد أن يتم ذلك سينتهي الغرض.. مثله مثل ذكر النحلة الذي يموت بمجرد أن يفرغ من تلقيح الملكة.....

«راتا تاتاتاه!»

«هذه الناحية مغلقة..» «اخرس! إنك تثير أعصابي.. اخرس!».....

آختونج!.. آختونج ماين جنرال!.. بوم!!..

وبيد واثقة أمسك سماعة الهاتف ـ ليس من شقته طبعًا - وطلب رقمًا..

- «هاللو.. شركة المقاولات العالمية..»

قال بصوت رصين:

- «هل السيد (شندلر) موجود؟»

- «هو في مكتبه.. لحظة حتى أنهى التحـ...».

وررررررر!..

كان هو قد وضع سماعة الهاتف..، وغادر كابينة الاتصال.. ليوقف أول سيارة أجرة رآها أمامه، وبعد أن قطع مسافة لا بأس بها في شوارع (مانهاتن) طلب من السائق أن يتوقف ووثب من السيارة ليعبر الطريق.. ويوقف سيارة أجرة أخرى... وهكذا قام بركوب ثلاث سيارات محاولًا تضليل مطارديه الذين لا يعرف من هم.. المطاردين الافتراضيين..

وها هي ذي اللافتة تقول (شركة المقاولات العالمية)..

في إصرار يركب المصعد إلى الطابق الثالث، ويقول للسكرتيرة إنّه يريد أن يقابل مستر (شندلر).. فتسأله في أدب:

- «هل لديك موعد؟»

- «لا.. قولي له إن (إيجور تاركوفسكي) يرغب في لقائه.. إنّه لن يرفض..»

وتدخل السكرتيرة المكتب، ثم تعود بعد ثوان لتخبره أن الرئيس ينتظره.. فيدخل لاهث الأنفاس إلى المكتب..

وفي الداخل يجلس الألماني الأشقر ذو الوجه الجامد (بيتر شندلر) خلف مكتبه، يتأمل القادم في حيره..

- «مرحبًا يا (إيجور).. لم نرك منذ زمن..»

- «حتمًا..»
- «اجلس.. هل أقدم لك مشروبًا..؟»
- «لا..»
قال (شندلر) وهو يدور بمقعده الدوار يمينًا ويسارًا على محوره:
- «من المفترض أننا لن نلتقي أبدًا.. أو على الأقل لن نلتقي هنا.. تجدني مندهشًا..»
- «كان هذا أقوى مني..»
رفع (شندلر) عينين حذرتين لأعلى فوجد (إيجور) يرمقه في ثبات.. ثبات أشعره بعدم الراحة.. بعد هنيهة سأله (إيجور) وهو يسترخي في جلسته:
- «أين هو؟»
- «من هو؟»
- «(جابر).. (سيدلتز جالبر)..»
ابتسم (شندلر) في تهكم.. وداعب طرف المنديل الذي وضعه على المكتب أمامه.. وتساءل:
- «ألهذا أتيت؟ أنت تعرف أنني لن أجيب..»
- «بل ستفعل..»
- «لا أدري سر هذه الثقة الزائدة.. لكنك تعرف أنني كالقبر.. لا يمكن معرفة ما بداخله أبدًا..»
- «حتى لو فتحناه عنوة؟»
- «عنوة؟ عم تتحدّث؟»
كان يحدّق الآن في فوهة مسدس مسلط إلى جبهته.. لم يكن خبيرًا في أنواع السلاح لكنه عرف بسهولة مدى قبح واتساع الثقب الذي ستحدثه الطلقة في رأسه..
- «(إيجور)! هل فقدت رشدك؟!»
ابتسم (إيجور) وهو يحكم التصويب.. وهز رأسه أن نعم.. ثم قال وهو يثبت عينيه في عيني خصمه:
- «مادامت الأساليب النفسية لن تجدي معك.. فلا أجد سوى الأساليب العتيقة..»
قال (شندلر) وهو يحاول التظاهر بالثبات:
- «دعك من هذا السخف.. لاتكن طفلًا..»
- «لأكن طفلًا.. أنت تعرف ما أريد.. ولسوف أفعل أي شيء لأنتزعه منك.. إن حياتك ثمنها عنوان..»
- «ومن أدراك أنني أعرفه فعلًا؟ لماذا يخبرونني به من الأصل؟ لقد كان الجنرال (يبلف)..؟»
حقًّا هذا وارد..
(إيجور) كان يتوقع هذا ولا يستبعده.. لكنّها ورقته الوحيدة التي سيلعب بها.. ربما أحرزت له النصر وربما كانت سرابًا..

قال (إيجور) في ثبات:
- «لو كان الجنرال (يبلف) فأنت في مأزق يا صديقي.. لأنني لست مستعدًا لأصدق ذلك..»
- «وهل تظن أنك ستنجو من كل هذا؟»
رد (إيجور):
- «إنني في وضع لا يسمح لي بإيثار السلامة.. وحينما أضغط الزناد ويتناثر مخك على زجاج المكتب سيأتي رجال الشرطة.. ربما أعدموني وربما لا.. لكنك لن تكون هنا لتعرف»
مرّت هنيهة من الصمت تصادمت فيها الإرادتان..
بعد قليل أمسك (شندلر) القلم وراح يخط بعض كلمات على قطعة من الورق..
- «هاك العنوان.. لست واثقًا من صحته ولا من أي شيء.. كل ما أعرفه أن الجنرال ناولني ملفًا لم يقرأه، وطلب مني أن أدرس ما به ولا أطلعك على حرف واحد.. هذا هو العنوان الذي يقول العملاء الأمريكان إن (جابلر) يعيش فيه..»
- «اتله بصوت عالٍ..»
- «شارع (موليجان) - كانساس - البناية العاشرة..».
هذا غريب!.. هل الروس يكذبون أم الأمريكان يكذبون أم (شندلر) يكذب؟ من المستحيل التأكد من صدق أحد الأطراف وكذب الآخرين.. على كل حال هو ذا العنوان.. يمكنه أن يأخذه ويتأكد فيما بعد..
تناول القصاصة من (شندلر) فتأملها.. ثم طواها ودسها في جيب قميصه.. ونهض مبتسمًا.
قال (شندلر) في عصبية:
- «لا تنس أنك ستدفع ثمن هذا...»
غمغم (إيجور) وهو يضع المسدس على المكتب:
- «مشكلتك أنك - ككل الألمان - لا تفهم الدعابة.. إنها مجرد مزحة من صديق.. لقد دفعت مبلغًا من المال كي أشترى مسدس الصوت هذا.. والآن يسرني أن أهديه لك!»
وقبل أن يلفظ الألماني بحرف، أو يجد الوقت كي يغير ملامح وجهه من الذهول؛ كان (إيجور) قد غادر المكان.....

* * *

الآن يبدأ السباق مع الزمن..
كم من الوقت يحتاج إليه (شندلر) كي يدير قرص الهاتف.. يطلب الجنرال.. يخبره بما حدث.. يتحرك الجنرال بحثًا عن (إيجور)؟
دقائق.. ساعة.. ساعتين؟ يجب على (إيجور) أن يكون بعيدًا عن كل رقابة في هذه الأثناء..
دلف إلى إحدى كابينات الهاتف؛ وأغلقها وراءه..
ثم أخرج قصاصة الورق وأعاد تأملها..

لن يكون هذا عسيرًا.. لقد فعلها من قبل مرارًا.. فقط يركز تفكيره بعيدًا عن صخب الأحداث وصخب الطريق...

نعم.. ها هو ذا.. إنّه يرى وجه (شندلر) وهو يكتب هذه القصاصة بل ويسمع صوته..

ليس هذا فحسب.. إنّه يشعر بالروح التي كتب بها (شندلر) هذه الحروف.. لقد كان خائفًا.. كان صادقًا..

إذن لم يبق سوى طرفين أحدهما كاذب.. الجنرال (فرايدمان) ومن معه أو (كالينين)..

هل (جابلر) في (كانساس) أم (بوليفيا)؟

ربما كان كلاهما كاذبًا...

ربما كان الجنرال في بلد ثالث.. ربما كان في القبر...

لقد تعمد الأمريكان أن يجهلوا الحقيقة فلا يعرفها سوى (شندلر).. فهل الحقيقة التي يعرفها (شندلر) هي الحقيقة؟!

إن رأسك سينفجر يا (إيجور)..

* * *

في اللحظة التالية رأى مشهدًا لا يوصف..

لم يكن قد ابتعد كثيرًا عن مكتب المقاولات.. كان قادرًا على رؤيته على بعد خمسين مترًا من داخل كابينة الهاتف التي احتمى فيها...

رأى (شندلر) يظهر على باب البناية.. يهرع العبور الطريق ممتقع الوجه.. إن سيارته على الجانب الآخر من الطريق حيث الانتظار مسموح به.. وهو مكان من الأماكن النادرة التي تسمح بذلك في (مانهاتن)..

ومن اللحظة الأولى عرف (إيجور) ما سيحدث.. إن (شندلر) شارد الذهن.. والطريق خال يسمح بالإسراع للسيارات.. لا بد أنه أجرى مكالمة (هاتفية) طلب الجنرال فيها أن يوافيه حالًا.. لهذا هو لا يشعر بالخطر القادم..

لهذا هو لا يرى السيارة المنطلقة كسهم نحوه...

لهذا هو لا يدرك أنه قد مات.. حين طار جسده كالكرة في الهواء.. فلم يصرخ ولم يبد ذعرًا..

وبعد ربع ثانية تمدد على الأرض كجوال خال من الحياة ومن المشروعات المستقبلية..

لم يجد (إيجور) وقتًا ليقول أو يفعل أي شيء حين يموت إنسان أمام عينيك، وترى بنفسك تلك المعجزة التي تحول كائنًا يضج بالحركة والصخب إلى دمية انتهت بطاريتها؛ عندئذٍ تأتيك هذه الرجفة الغامضة التي لا علاج لها..

لكن وعيه سمح له بأن يدرك أن السيارة تبتعد في الأفق.. لقد فر القاتل.. قاتل العمد أو الصدفة.. لا أحد يعرف...

ومن بعيد تعالت ولولة سيارات الشرطة تنوح على شباب القتيل.. لابد أنّ هناك من رأى الحادث..

لهذا قرر (إيجور) أن وقت الفرار قد حان..

* * *

سيارة تنهب الطريق إلى المطار..

هل تكفي هذه القبعة والمنظار الأسود لتغيير شكلك؟ إن هذا لن يكفي لخداع الأمريكيين؛ لكنه قد يخدع السوفييت.. والسيارة ليست ملكك بل هي من وكالة لتأجير السيارات..

الحقيبة الصغيرة لا تحوي سوي منامتين وقميصين.. إن سروالك الجينز يصلح لكل الأغراض.

ثم دولاراتك.. مدخراتك طيلة سنوات عديدة هي ما تبقى بعد دفع ثمن التذكرة الباهظ إلى (لاباز)...

في حافظتك صورة قديمة بليت أطرافها تمثل جنرالا نازيًا فارًا.. وفي قلبك حقد يكفي أمة من الأشرار.. وفي عينيك تصميم.. تصميم (دليلة) على ذبح (شمشون).. كلا.. (دليلة) لم تذبح (شمشون).. دائما تخلط بينها وبين (سالومي).. و....

لا وقت لهذا السخف لأن موظف الجمارك يطالع أوراقك.. النظرة المتشككة المدققة.. الشك الذي يوشك أن يغدو يقينًا.. وفي ذهنه تسمع بوضوح:

«إنّه هو!.. حتمًا هو!».

لقد أبلغ الأوغاد المطار، ولن يمرّ وقت طويل حتى تعرف أنك ممنوع من السفر إلا بإذن من وكالة الاستخبارات والمكتب الفيدرالي والبنتاجون وربما زوج خالتك لو كان حيًّا..

الموظف يفتح فاه ليتكلم..

هنا سارع (إيجور) باقتحام ذهن الرجل...

«ستدعني أمر.. ستدعني أمر.. لاخطر هنالك!»

للحظة امتقع وجه الرجل.. تدلت شفته في بلاهة.. زاغت عيناه ثم أعاد الأوراق إلى (إيجور) وأفسح له الطريق.. سيمر وقت لا بأس به قبل أن يفطن الأمريكيون إلى أن (إيجور) قد توجه إلى المطار بهذه السرعة وهذا التصميم.. وسيمر وقت أطول قبل أن يتذكر هذا الموظف أن (إيجور) قدم له أوراقه لكنّ (شيئًا ما) حدث..

مريحة هي الطائرة.. مريحة فسيحة توحي بالاسترخاء..

الأمل في الفرار بعيدًا.. بعيدًا.. السحر الدائم للسفر بالطائرة.. الشعور بأنك تترك متاعبك وأحزانك على الأرض وتفر.. فقط فلتنطلق هذه الطائرة الحمقاء قبل أن تجيء المضيفة لتسأل عنك، وتصارحك بأنك يجب أن تنزل..

صوت الطيار يتمنى رحلة طيبة للجميع.. هدير المحركات المطمئن.. الممر الذي تراه من النافذة يولي هاربًا.. إلى جانب النافذة أولًا ثم يهبط لأسفل..

الأزرق العظيم غير المتناهي في كل مكان..

عندئذ تفك حزام المقعد.. وتتنهد..

وداعًا يا أمريكا..

* * *

هنا قد يتساءل القارئ لماذا (بوليفيا)؟ لربما كان الأمريكان محقين في كلامهم، ويكون الجنرال في (كانساس)..

الإجابة تتكون من شقين:

أولًا: (بوليفيا) تعنى الهرب بعيدًا عن كل هذا.. و (إيجور) كان في حاجة إلى الهرب..

ثانيًا: حين انتزع صورة الجنرال من الجدار هذا الصباح ليحملها معه، تحركت غريزته التي لا يمكن تسميتها لتقول له إن الجنرال ليس في الولايات المتحدة.. لم تقل له أين.. لهذا يتجه إلى (بوليفيا) بالاستبعاد..

ثالثًا: (يبدو أن الإجابة ليست من شقين فحسب) إن التقاليد تحتم أن يفر جنرالات النازي إلى أمريكا الجنوبيّة.. هذا هو القانون.. فلماذا يغيره (جابلر)؟..

الآن تحددت نهايتك يا (جابر)..

علينا أن نجدك فقط بين خمسة ملايين مواطن بوليفي حسب تعداد ١٩٦٣..!

هذا عسير.. لكنك - حتمًا - لن تفر أكثر من هذا..

* * *

الجزء الثامن

(لاباز) - ١٩٦٣

- ٢١ -

(لاباز) هي أعلى عاصمة في العالم.. معلومة هامة ربما تفيد أحدكم يومًا في أثناء حل الكلمات المتقاطعة، أو في برنامج مسابقات، أو حين يلقاه مذيع متحمس في الطريق ليقذف هذا السؤال في وجهه، بل هي تفيد كل هواة المعلومات السخيفة على غرار (أطول نهر)، (أعلى جبل)، (كم عمر نقار الخشب؟)، (متى ولد أبو الأسود الدؤلي؟)

لكنّ (إيجور) لم يعرف هذا حين مشى في شوارع (لاباز) لأنّه لم يكن يعرف حرفًا من الأسبانية..

معلومة أخرى: كل أمريكا الجنوبيّة تتحدّث الأسبانية عدا (البرازيل) التي تتحدّث البرتغالية..

* * *

لم يكن البحث عن فندق حقير مشكلة.. فالفنادق الحقيرة الملأى بالبق حق طبيعي من حقوق الإنسان.. المشكلة هي أن تشرح هذا السائق التاكسي الذي لا يفهم حرفًا من الإنجليزية..

بعد هذا تدخل الفندق الذي يحمل اسم (باراديسو) - الجنّة - لتصعد بحقيبتك اليتيمة إلى غرفتك.. نسيج العنكبوت في كل مكان ورائحة العطن.. وحشية الفراش التي تبرز منها شوارب متحركة لحشرات ما.. والمرأة المكسورة - دائمًا - والدورق المليء بالغبار..

كلها مفردات تبعث النشوة في روحك، على الأقل لن تكون هاهنا سماعات ولا أجهزة تنصت..

تفرد منشفة وجهك على الوسادة للتيقن من أن نسيج الوسادة القذر لن يلامس بشرتك.. وتستلقي على ظهرك.. فقط لأن هذا هو الوضع الوحيد الذي يبعد كل أجزاء جسدك عن الملاءة..

هذا هو قدرك مادمت لم تصر من أصحاب الملايين..

هل تغفو الآن؟ لا.. ليس بعد.. لابد أولًا من أن تخرج صورة الجنرال من حقيبتك وتعلقها على الجدار جوارك.. لابد من أن ترى وجهه بانتظام ولا تنساه.. يجب أن يظل عدوك ماثلًا أمامك طيلة الوقت..

ولا يدرى (إيجور) متى ولا كيف نام..

* * *

نوبة صرعية جديدة..!

أفاق من نومه وقد تذكر أن.. آي!.. النوبات الصرعية لم تـ.. تصبه منذ وقت طـ.. طويل.. آي!..

في البدء كان التصلب المريع يغمر كل عضلات جسده.. يجبره على أن يمدد طوله على الفراش.. ويمد كل أطرافه إلى آخرها..

لحظات يرى فيها الموت بعينه.. ثم تبدأ مرحلة الاهتزازات.. كل طرف من أطرافه يتحرك حركة ذاتيّة مستقلة بشعة كذيل سحلية مبتور هنالك فوق الغبار...

الاختلاف عن نوبات الصرع العادية يكمن في الوعي.. إنّه يظل محتفظًا بوعيه حتى اللحظة الأخيرة.. بل إن شفافية غير عادية تحركه.. شفافية يوشك معها أن ينفذ إلى قلب الكون جيث تنتظر الحقيقة..

وحين يفيق يشعر كأنه دمية عبث بها صبي مجنون.. رأسه في ناحية وساقه اليسرى معلقة من فخذه الأيمن.. وذراعه اليمنى تخرج من أمعائه..

يحتاج الأمر إلى ربع ساعة حتى يدرك من هو وأين هو.. نوبات قال (كالينين) إنها تقوده إلى القبر رويدًا.. الروس يزعمون أنهم يملكون الشفاء.. سحقا!...

إن (إيجور) لا يهاب الموت ولا يعبأ به.. إنّه:

(ذكر النحلة!)

مستعد للموت الآن.. لكنّ بشرط أن يموت (جابلر) قبله بربع ثانية..

* * *

كانت هناك حانة..
وكان الظمأ يحرق حلقه بعد نوبة الصرع الأخيرة.. لهذا دخل إلى القاعة المعتمة حيث تفوح رائحة العرق والتبغ الرخيص والخمر الأكثر رخصًا..
دوت ضحكة ماجنة - كصرخة سحلية جاءها المخاض - من أنثى تتظاهر بأنها مرحة.. على حين شق (إيجور) طريقه بين السكارى ليجلس إلى مائدة خالية..
وجاءتنه الساقية تلوك قطعة من العلك لتسأله باستهتار عما يشرب.. فطلب أن تحضر له زجاجة كالتي على المائدة المجاورة (بير فافوري) - من فضلك - وراح يرمق الجو الموبوء حوله..
كان هناك أمريكيان يلعبان الورق، وقد التف حشد من البوليفيين يرقبون في انبهار هذين الكائنين الغريبين.. كيف ينفقان المال بهذه السهولة.. وكيف تبدو ثيابهما أنيقة خالية من القاذورات والرقاع..
أمريكان هاهنا؟.. هووووم!.. هذا غريب..
لربما كان الابتعاد مستحبًا..
لكنّ جولة من (إيجور) في عقل الرجلين جعلته يدرك أنهما نظيفان.. مجرد مغامرين أمريكيين يجولان في حديقة الحيوانات هذه.. هما ليسا من رجال وكالة الاستخبارات المركزية..
أحضرت له الساقية زجاجة وكأسًا.. ثم تركته.. فراح يصب السائل الرغوي في الكأس.. ثم رفع الأخير لشفتيه حين سمع صوتًا يقول بأمريكية قحّة:
- «هيه يا رجل.. هل تفضل الشراب وحيدًا؟»
رفع عينًا متسائلة فوجد أحد الرجلين يرمقه في فضول.. وهنا فطن (إيجور) إلى أنه يبدو أجنبيًا حقًّا بشعره الأشقر وعينيه عديمتي اللون، وسط كل البوليفيين سمر الوجوه سود الشعور..
قال (إيجور) وهو يعيد الكأس إلى مكانه:
- «هل أنت أمريكي؟»
- «بولندي.. لكني أفهم الإنجليزية..»
- «إذن تعال لتجلس معنا.. لن تجد هنا من يجيد البولندية، فعليك أن تكتفي بمن يتحدثون الإنجليزية..»
وهكذا!
جذب (إيجور) مقعده وزجاجته واتجه إلى المائدة، ليجلس وسط النظرات الفضولية تحيط به من الجهات الست..
مد الأمريكي يده ليصافحه:
- «كيف حالك؟ (جون كالمان).. وهذا زميلي (جاري سيتون)..»
- «(إيجور تاركوفسكي)..»
كان الرجلان يمسكان بحفنتين من الأوراق.. أوراق اللعب..
وكان هناك رجل ثالث أسمر الوجه يمسك بحفنة ثالثة.. وعلى المنضدة تكومت الدولارات..
قال الأمريكي الأول وهو يشير إلى الرجل:
- «صاحبنا (بدرو) تاجر ثري.. لكنه مقامر رديء.. وهو لا يجيد سوى الخسارة..»



فى البدء كان التصلب المريع يغمر كل عضلات جسده .. يجبره
على أن يمدد طوله على الفراش .. ويمدّ كل أطرافه إلى آخرها ..

ابتسم (إيجور) وراح يرمق سير اللعب.. بالفعل (بدرو) مقامر رديء يخسر طيلة الوقت.. لكنّ سماع أفكار الجالسين لأكثر إثارة من متابعة اللعب.. صوت يصرخ في ردهات عقله بالإسبانية.. ثم صوتان أمريكيان واثقان..

«لقد وقع الخنزير في قبضتنا.. إن (كلارا) تلوك العلكة ست مرات ثم تتوقف.. (ستة)! تلعق بلسانها شفتها العليا.. (بنت)! تحك أنفها.. (آس)!..»

«(كلارا) تلوك العلكة عشر مرات ثم تتوقف.. (عشرة)! آه يا ملاكي.. هلمي! أعطينا كل ما عندك.. ضحكة جانبية.. إذن فلديه (ولد).. يبدو أنه ينوي استبقاء الآس إلى النهاية.. حسن.. لن تكون هناك مزايدات على هذا الدور.. إن (جاري) يعرف نفس الشيء الآن..»

كانت (كلارا) فتاة سمراء فقيرة تقف وراء (بدرو) وتبتسم ابتسامة بريئة.. وتلوك قطعة علك في لامبالاة.. كيف عرف أنها فقيرة؟ لا يدري.. ربما نحولها والأصباغ الرخيصة التي تلوث وجهها.. وثوبها العاري في محاولة بائسة للإغراء..

حتى دون قراءة أفكار عرف أنها فقيرة.. وأنها تلعب هذا الدور المقيت لأنهّا حقًّا بحاجة إلى الأوراق الخضراء التي سيجود بها السيدان الأمريكيان عليها فيما بعد.. حين تنتهي هذه المباراة..

كانت تداعب بأناملها شعر (بدرو).. وتلوك العلكة مرات متقطعة مدروسة.. تحك أنفها.. تسدل خصلة من شعرها.. تضحك.. رموز متفق عليها تقول كل شيء عن الورق في يد (بدرو) لخصميه.. وكانت طبيعية.. حقًّا طبيعية إلى حد مذهل..

لم يكن بإمكان أحد سوى قارئ أفكار - أن يخمن..

وهكذا انتهى الدور بهزيمة البوليفي..

كومة من الأوراق الخضراء تتكدس أمام الأمريكيين.

كان العرق يغمر عنق (جاري) ويبلل صدر قميصه وحت إبطيه، حين جرع كوبًا من الجعة.. وسرعان ما خرج الكوب من مسام جلده عرقًا جديدًا حين سأل (بدرو):

- «أظن أنك راغب في التوقف الآن يا (أميجو)[2]؟»

قال (بدرو) في عصبية.. وبإنجليزية رديئة جدًا:

- «بل أستمر يا (سنيور)..»

كان في عينيه ذلك الجنون المسعور.. الرغبة المحمومة في الاستمرار.. ذلك الذي وصفه العبقري الروسى (ستويفسكي) خير وصف في روايته (المقامر).. وكان من المستحيل أن يتوقف..

وهكذا بدأ توزيع الورق من جديد...

غمز (كالمان) بعينه تجاه (إيجور).. كان هو الأكثر مودة ولطفًا من الرجلين، لكنّ هذا لم يمنع (إيجور) من اعتبارهما وغدين يستحقان عقابًا..

وبدأ الدور التالي..

رأى (إيجور) عيني (بدرو) ترتفعان - ككل مرة - ليرمق الفتاة من فوق كتفه.. إن كل فتيات الحانات يتجسس على ورق لعب من يتظاهرن باللطف معه.. هذا معروف..

لكن الفتاة كانت واقفة في براءة أقرب إلى البلاهة.. وعيناها الزجاجيتان ترمقان الأوراق كما يمكن لبقرة أن ترمق أوراق اللعب..

هنا بدأ (إيجور) لعبته..

انساب إلى عقل الفتاة وراح يصب سيلًا من الأرقام الزائفة.. لم تعد الفتاة قادرة على تفسير ما تراه.. راحت تلوك العلكة مرات أقل أو أكثر.. تلعق شفتيها حين يكون المفروض أن تحك أنفها.. وتسدل شعرها حين يفترض أن ترفعه..

وكان ورق (بدرو) قويًا هذه المرّة[3]..

لكن (إيجور) جعل الفتاة تخبر الأمريكيين أنه ورق ضعيف جدًّا.. وهكذا راح الرجلان يرفعان قيمة الرهان.. يرفعان.. يرفعان..

وكما ارتفعت أحلامهما هوت من عل ليخسرا مبلغًا جسيمًا..

إن الحظ يتغير..

لو أن النظرات تقتل لتحولت الفتاة إلى غربال.. لكن النظرات لا تقتل لحسن الحظ.. وكذلك الأفكار!..

«ماذا أصاب هذه الكلبة؟.. هل تعبث بنا؟»

«لقد كان معه (آسان) ولم تقل شيئًا..»

وهكذا دارت عجلة الحظ، ومعها فصول المأساة..

وكان (إيجور) يتدخل في عقول الرجال.. يقنع (بدرو) بشيء ويقنع الرجلين بشيء آخر ويقنع الفتاة بشيء ثالث..

في النهاية جمع التاجر البوليفي مكسبه ودسه في جيبه.. ثم نهض في تؤدة..

هتف (جاري) في خشونة دون أن يبدل جلسته:

- «لحظة يا (أميجو).. إنك لن تنصرف هكذا.. لابد أن تعطينا فرصة لتعويض خسارتنا..».

قال التاجر وهو يغلق سترته:

- «سنيوري.. أنتما لا تجيدان سوى الخسارة.. ومن الرحمة بكما أن أرحل الآن.. عمتما مساء..»

وفي هدوء شقّ زحام المحيطين به متجهًا إلى الباب..

* * *

دبابة الجنرال تشق طريقها في شوارع (وارسو).. راتاتاتاتاه! «هذه الناحية مغلقة!»

«اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

راتاتاتاتاه!.. بووم!

* * *

حينما استعاد الأمريكيان قدرتهما على الكلام، دعاهما (إيجور) إلى قدح من الشراب لعلهما ينسيان مرارة تحول الصياد إلى فريسة.. وبطرف عينه رأى الفتاة تذوب في الزحام مبتعدة عن سخطهما..

أدرك أنهما سيشربان حتى الثمالة.. ثم يبحثان عنها ليوسعاها ضربًا.. من يدري؟ ربما يخنقانها.. إذن عليه أن ينسيهما خسارتهما بأي شكل..

وإن هي إلا بضعة أكؤس - كما يقول الشعراء - حتى التوى لسانا الرجلين، وانحلت عقدتهما..

قال (كالمان) لـ (إيجور) وهو يهرش رأسه كقرد:

- «لقد خسرنا الكثير من الأخضر أيها الشاب.. إن هذا الشعور قاس بالنسبة لنصابين مثلي أنا و(جاري)»

ثم ضحك إذ رأى تعبير وجه (إيجور):

- «هاهاهاه! نحن لا نخجل من ذلك.. نحن نصابان نكسب عيشنا من الغش في اللعب بمعونة تلك الغانية.. دائمًا تجدنا هنا نلعب مع أحد الحمقى.. نتركه يربح عدة أدوار ثم تنهال عليه الخسائر.. ولكن..... إن الحظ لغانية هو الآخر.. تارة معك وتارة ضدك.. ولا يعلم سبب ذلك سوى.. هي هي!»

ثم تأمل (إيجور) مليا.. وتساءل:

- «ولكن.. ماذا يفعل بولندي مثلك في هذا الركن التعس من العالم؟»

تأمله (إيجور) باحثًا عن إجابة.. ثم غمغم:

- «أبحث عن صديق..»

- «لن تجد أوروبيين هنا.. ربما وجدتهم في (سانتاكروث) أو (بوتوسي).. لكنّ ليس.. هنا.. هي هي!»

هنا لاحظ (إيجور) أن الأمريكي الآخر - (سيتون) - كان يرمقه صامتًا طيلة الوقت.. ولم يكن (إيجوز) يحبّ من يرمقه دون كلام.. إنسل إلى داخل عقله ليسمع أفكاره:

«إنّه يكذب!.. هذا مؤكد..!.. والأدهى من هذا أنه نحس!»

كان هذا طبيعيًا.. من المنطقي أن يعتبره الرجلان نحسًا..

وهنا انتفض (سيتون).. وثب من مقعده وشق الزحام بعضلاته القوية حتى وصل إلى هدفه..

وسمع (إيجور) صراخ فتاة.. ورأى - بين سحب الدخان - (كلارا) تتلوى وقد أمسك (سيتون) عضدها بقبضة قوية، وضغط على شفتيه بأسنانه ليدل على الجهد الذي يبذله كي يهشم ذراعها.. لم يحتج (إيجور) إلى استراق السمع.. فهو قادر على النفاذ إلى عقل (جاري) وعقل (كلارا) دون جهد.. كان (جاري) يتحدث الإنجليزية والفتاة كذلك..

- «أيتها الكلبة.. لقد خنتنا!.. لقد اشتراك (بدرو) هذا بسعر أعلى.. أليس كذلك؟»

صاحت الفتاة في ذعر:

- «نعم يا (سنيور).. أقسم لك إنني لا أدري ما دهاني..»

كان جمع من رواد الحانة يرمقون المشهد لا مبالين.. وقد أدركوا أن الأمريكي سيبطش بأول من يتدخل..

- «ماذا تعنين؟ هل تعرفين كم خسرنا بسبب حماقتك؟»

- «أقسم لك يا سنيور (سيتون)» - قالت وسط دموعها - «كأن شيئًا ما بلبل أفكاري.. شيئًا زحف على خلايا مخي وجعلني لا أرى ولا أفهم..»

هنا توقف الأمريكي عن إيذاء الفتاة.. وقف متصلبًا ونظر نحو (إيجور).. ثم أطرق إلى الأرض مفكرًا...

سمع (إيجور) أفكاره بوضوح:

«إن الفتاة لا تخرف تمامًا.. ثمّة شيء ما غير مفهوم حل بي، ودفعني إلى اتخاذ قرارات خاطئة في كلّ مرّة أردت أن أرمي فيها بورقة رابحة.. شيء ما جعلني أكثر تهورًا.. شيء ما سيطر على إرادتي.. إن هذا لعجيب!»

بعد قليل رآه (إيجور) يترك الفتاة الملتاعة.. يشق طريقه عائدًا إلى المائدة.. ينحني ليجذب (كالمان) من ذراعه:

- «هلمّ يا (جون).. فلننصرف من هنا..»

صاح (إيجور) و(جون) محتجين في نفس الوقت:

- «لكنّ.. الزجاجة لم...»

- «فيما بعد.. فيما بعد.. سنقبل دعوتك يا مستر (تاركوفسكي) على زجاجة أخرى.. ربما زجاجات.. عمت مساء»

ورآهما (إيجور) يبتعدان.. مترنحين قليلًا لكنهما واثقان من خطاهما..

وكان آخر ما رآه في ذهن (سيتون) غير مريح..

غير مريح على الإطلاق..

* * *

- ٢٢ -

كان غارقًا في العرق يتنفس بصعوبة.. إن البعوض - زززززز! - وافر العدد في هذا البلد.. زززززز!.. التنفس عسير حين تنام على ظهرك لكنّ.. زززززز!...لابد من هذا الوضع.. إن الوسادة تعجّ حتمًا بالبق.. وهو لا يريد أن يلامس خده موطئ أقدام تلك الحشـ.....

زززززز!.. نعم.. التنفس عسير.. ربما لأن (لاباز) عالية جدًّا عن مستوى البحر.. مستوى الأكسجين قليل.. زززززز!

إنه نائم.. بالتأكيد نائم.. لكنّ وعيه متيقظ بشدة.. والآن يسمع صوتًا يناديه:

- «(إيجور).. (إيجووووور)!»

كان مغلق العينين لكنه - بوضوح - رأى صاحب النداء.. وعرف أنّ هذا جزء من الحلم..

- «(شندلر).. هذا أنت؟ كيف وجدتني؟»

كان (شندلر) يقف بقميص ممزّق ملوث بالدماء، وقد تهشّم عنقه فسقط في إهمال إلى جانبه ليتدلى على الكتف الأيمن.. لكنه كان يتكلم.. وكان يبتسم:

- «(إيجور).. ليست هناك مستحيلات في عالم الأرواح.. إن شفافيتنا مطلقة.. وشفافيتك كذلك مطلقة.. هل نسيت لقاءك مع آل (كيلي) في ليلة الكوخ إياها؟ إن ذوى الإدراك الفائق للحس يتلقون إرسال الأرواح كأنهم جهاز مذياع جيد..»

حاول (إيجور) أن يبدو رقيقًا.. فهمس:

- «صدقني يا (بيتر).. أنا آسف لما حدث لك.. لم يكن في مقدوري أن أسدي لك العون..»

صاح (شندلر) في حنق:
- «لن تكون أكثر أسفًا مني.. لقد كانت حياتي جميلة وملأى بالفرص.. كان المستقبل كله في انتظار رجل الأعمال الوسيم الذكي.. وفجأة سرقوا كل هذا مني.. سرق الكون منى في لحظة سهو.. والآن.....»
وتهدج صوته قليلًا:
- «قد صار جسدي الوسيم هيكلًا عظميًا تعمره الديدان.. وصار وعيي شبحًا يجوب عوالم شفافة لا حدود لها.. (إيجور).. إنني غير معتاد على الحياة بهذه الطريقة.. أعني غير معتاد على (عدم الحياة) بهذه الطريقة..»
- «ستتعود يا (بيتر).. صدقني..»
ثم حاول أن يبدل الموضوع:
- «هل المخابرات السوفييتية هي المسئولة عن مصرعك؟»
ظهر الحزن على الوجه المتدلي.. وغمغم:
- «لا.. ولا المخابرات الأمريكية.. لم يكن أحد مسئولًا عما حدث.. كنت أرعن فحسب.. لحظة سهو جعلتني أعبّر الطريق دون أن ألاحظ السيارة القادمة.. تصوّر مدى تفاهة هذه الميتة.. مجرد غباء مني جعلني أنتهي..»
- «وهل أبلغت الجنرال (فرايدمان)؟»
- «لا.. لم أجد الوقت الكافي ولم أرد أن أتصل به من المكتب.. كنت أعبّر الطريق مسرعًا لأقصد الجنرال بسيارتي»
- «وماذا يقولون عن الحادث؟»
- «كل شيء مريب.. التوقيت.. شهادة السكرتيرة أن من يدعي (تاركوفسكي) طلب مقابلتي.. بعدها غادرت المكتب مسرعًا لتدهمنى سيارة.. ثم اختفاؤك.. يقول الأمريكيون إنك عملت مع المخابرات السوفييتية وأن وفاتي جريمة قتل تمت بعد استدراجك الى، وهم يعلمون بالطبع أنك في (بوليفيا)..»
أحسّ (إيجور) بأنه يوشك على الاختناق.. لم يكن لهواء (بوليفيا) دور في هذا الشعور هذه المرّة..
سأل (شندلر) في تردد:
- «و.. والسوفييت؟ ماذا عن (ديمتري كالينين)؟»
- «بالطبع هم لا يفهمون شيئًا على الإطلاق.. يحسبون قتل (شندلر) مؤامرة من المخابرات المركزية لسبب ما.. ربما لأنّه يعرف أكثر مما ينبغي.. لا أحد يعرف.. لكنهم يقينًا يعرفون أنك في (بوليفيا)!»
- «يا للكارثة!»
- «لا تقنط.. فهم لا يعرفون مكانك..».
مرت هنيهة صمت.. بعدها تساءل (إيجور):
- «والجنرال؟.. هل هو هنا؟»



كان مغلق العينين لكنه ـ بوضوح ـ رأى صاحب النداء . .
وعرف أن هذا جزء من الحلم ! . ـ (شندلر) ؟! . .

- «(فرايدمان)؟»
- «بل (جابر).. (سيدلتز جابلر)..»
ابتسامة مريرة على ثغر (شندلر).. ثم:
- «نعم هنا.. لقد كنت أعبث بك..»
- «لكنّ الورقة.. كنت صادقًا في كتابتها..»
- «لا تنس موهبتي في إخفاء مشاعري.. إن الأمريكيين يعرفون مكان الجنرال بدقة.. لكنك لم تلق قط من يعرفه سواي.. كانت هذه طريقتهم لتعتيم الأمور على موهبتك..»
ثم إن (شندلر) تنهد.. وأمال رأسه ليريحها على الكتف الآخر.. وقال في حياء:
- «والآن.. حان الوقت لإظهار حسن نواياي.. إن الجنرال (جابلر) هنا في (بوليفيا).. بالتحديد في قرية تدعى (سان راموس).. على حدود (بوليفيا) مع (بيرو).. على ضفاف بحيرة (تيتياكاكا).. وسط جبال الإنديز الوعرة..»
اتسعت أذنا (إيجور) إن صح هذا التعبير.. راح يصب كل هذه الأسماء في ذهنه.. لن ينساها.. مستحيل.....
- «بالطبع يعيش باسم مختلف..»
- «حتمًا.. إنّه يتظاهر بأنه عالم آثار يدرس حضارة (الإنكا).. ويزعم أنه دانماركي.. إن الفوارق: بين الألمان والدانماركيين غير واضحة لدى القرويين.. ثم إنّه يتحدث الإسبانية بطلاقة ومن العسير أن يجد من يمتحنه في اللغة الدانماركية..»
- «وكيف هرب من ألمانيا بعد الحرب؟»
- «لم يفر بعد الحرب.. ولكن في أثنائها.. فهو من المشاركين في (مؤامرة الجنرالات) التي كادت تغتال (هتلر)... ولو لم يفر من ألمانيا لمزقه (هتلر) إربًا وأطعمه للكلاب..»
- «تقريبًا نفس المصير الذي ينتظره على يدي..»
- «يُقال إنّه أحسن بمحاولة اعتقاله مبكرًا جدًا.. كأنه نوع من الحاسة السادسة أنقذه من هلاك محقق...»
راحت الرؤيا تتشوه بالتدريج.. الضباب يزحف من كل صوب ليحاصر صورة (شندلر) لكنّ (إيجور) ظل يسمع الصوت.. شعور غريب داهمه بأنه يريد ضبط الهوائي لتتحسن الصورة.. لكنّ لا يوجد في عقله هوائي.. ولو كان هناك فهو لا يعرف موضعه..
صاح (شندلر) محاولًا أن يقهر التشتت الذي يحدث:
- «الآن يا (إيجور) ينتهى لقاؤنا.. لكني سأعود مرارًا.. ثمّة أشياء يجب أن تعرفها قبل المواجهة.. لا تثق بالأجانب هنا بتاتًا.. لا تترك لأفكارك العنان.. فأنت لا تعرف ما إذا كان هناك Espers آخرون في (بوليفيا).. وداعًا يا (إيجور)!»
- «وداعًا يا (بيتر).. لا تدع الموت يحرمك من الأمل..!»
قالها وندم عليها كثيرًا.. تبدو مزحة ثقيلة بالنسبة الشخص ميت فعلًا.....
زززززز!.. البعوض يتزايد.. زززززز!.. حرّك يده.. هرس بعوضة وقفت على جبينه وقد تورطت أقدامها في بحيرة العرق..
زززززز!.. هذه المرّة رحل وعيه بعيدًا..

* * *

«أريد الوصول إلى بحيرة (تتياكاكا).. كيف يكون ذلك؟»

رفع موظف الفندق وجهه الكئيب عن الأوراق التي يطالعها.. وتأمل وجه (إيجور) هنيهة..

بعد صمت قال وهو يعود إلى دفتره:

- «بطائرة (تاكسي) يا سنيور.. إن المواصلات هنا نادرة والطرق وعرة.. لهذا نعتمد على الطائرات.. ستجد المطار في (كويدا دل مارا)..»

- «حسن.. أريد تسوية. حسابي هنا.. فأنا راحل..»

مرّة أخرى رفع الموظف عينيه ليتأمل (إيجور):

- «هناك كثيرون يسألون عنك.. كلهم يأتون ليتأكدوا من وجودك هاهنا.. ثم يرحلون دون تعليق!»

ارتفع الدم إلى وجه (إيجور):

- «حقًّا؟ إذن لا أريد منك ثرثرة بخصوص (تتياكاكا) هذه.. اعتبر أنني لم أسألك عن شيء..»

- «هذا شعارنا يا (سنيوري).. الصمت..»

لكنّ هذا لم يكن كافيًا..

كان (إيجور) يعرف أن الأحمق سيتكلم حين يرى أول ورقة بعشرة دولارات، أو حين يرى فوهة مسدس مسلط على رأسه.. لهذا وجد أن الحيطة تقضي أن يقتحم عقل الموظف.. ويطارد هذه المعلومة ليمزقها إربًا...

وقد كان الأمر سهلًا. ففي داخل عقل الرجل وجد لفظة (تتياكاكا)، فبعثرها يمينًا ويسارًا. ثم وجد مجموعة من الرجال ذوي المظهر المريب يتساءلون عن (إيجور).. استطاع أن يميز بينهم أحد الحارسين اللذين كانا مع (ديمتري كالينين).. كما عرف في واحد منهم (جاري سيتون) الأمريكي الذي كان يلعب الورق في الحانة في أول ليلة قضاها هنا..

هذا غريب..!

على كل حال غادر (إيجور) عقل الموظف، ليجد نفسه في الخارج يحدّق في العينين الشاردتين للرجل..

- «هل دهاك خطب ما؟»

انتبه الموظف مذعورًا من سباته فهز رأسه كأنما يطرد ذبابة.. وقال:

- «أ.. معذرة.. لحظة شرود يا سنيوري.. القدر.. أ...»

- «لا عليك.. إنني راحل الآن كما قلت لك..»

- «إلى أين يا (سنيوري)؟!»

ابتسم (إيجور) راضيًا عن نتيجة عمله.. وبغموض غمغم:

- «إلى.. إلى (أورورو)!»

* * *

لم يكن الطيار (ميشيل بارساد) في حالة تسمح بالمزاح، حين جلس في الكافتريا يرشف القهوة وقد أراح حذاءه ذا الرقبة على المقعد أمامه...

إن ما معه من نقود ينفد بسرعة، ولم يعد هؤلاء الحمقى يسافرون كما كان يحدث في الأيام الخوالي.. إن مهنة قائد طائرة (تاكسي) ليست مجزية على الإطلاق، خاصة حين تجد نفسك في هذا الركن من العالم من أجل لاشيء..

وتنهد.. رفع وجهه إلى السماء وغمغم:

- «رباه... أرسل لي واحدًا.. واحدًا فقط..»

ابتسم الساقي البدين (كيلفورد) ومضغ سيجاره بين ضروسه، وقال وهو يجفف المائدة بمنشفته:

- «ومن يكون هذا الأحمق؟»

لم يطل الوقت قبل أن يتلقى الرد على سؤاله.. إذ انفتح باب الكافتريا ودخلها (إيجور) حاملًا حقيبة كبيرة:

- «معذرة.. ولكن من صاحب الطائرة الواقفة بالخارج؟!»

* * *

محركات الطائرة العتيقة تهدر منذرة بتحولها إلى ألف قطعة.. الطائرة التي كتب على جناحها بخط كبير (مادلين)..

ومن بعيد تفتح مرتفعات (الإنديز) ذراعيها كاشفة عن أسرارها.. كل شيء يزداد وضوحًا.. والشمس تتألق في عيون الراكبين فتتقلص الأهداب وتغطي العيون غشاوة من الدموع..

يسأل (بارساد) زبونه قليل الكلام:

- «لا تبدو أمريكيًا ولا إنجليزيًا؟»

- «أنا من أوروبا الشرقية..»

- «وماذا تفعل هنا؟»

يتمنى (إيجور) أن يصارحه بأن هذا ليس من شأنه، ولكنّه لا يرى للغلظة داعيًا على الأقل حتى لا يثير المزيد من الشكوك..

فيقول بصوت عالٍ يحاول به أن يتغلب على هدير المحركات:

- «نفس ما تفعله أنت الفرنسي هنا..!»

- «تكسب رزقك؟»

- «نعم.. أنا أعمل. في عالم الآثار..»

ارتفع (بارساد) بالطائرة قليلًا.. وصاح:

- «آه!.. أعرف هذا النوع من العمل.. أنت لا تفعل شيئًا تقريبًا سوى الجلوس في الظل والصراخ في العمال كي يحفروا أكثر.. ثم تجد تمثالًا مهشمًا فتأخذه وتزيل التراب من عليه.. بعدها تغدو ثريًا وتتزوج من (أجاثا كرستي)!»

- «لماذا (أجاثا كرستي)؟»

- «كل علماء الآثار يتزوجون من (أجاثا كرستي).. هذه حقيقة واقعة.. صدقني! إنني رجل أعرف العالم.. رجل واسع الثقافة!»

ابتسم (إيجور) دون حيلة منه...

وراح يراقب الجبال الوعرة التي تركض تحت الطائرة، وقد سقط ظل الطائرة فوقها كنسر عملاق فارد جناحيه..

ومن بعيد يرى البحيرة.. ويرى القرية..

- «هذه هي (تتياكاكا) يا صديقي.. أعلى بحيرات العالم.. نصفها في (بيرو) ونصفها في (بوليفيا).. وها هي ذي قرية (سان راموس)... استعد للهبوط إذن..»..

- «هل يوجد مطار؟»

- «إنك تسأل أسئلة غريبة.. ما دخل المطار بالموضوع؟!»

- «حسبت أننا في طائرة..»

- «آهاه!.. كل هذه القرى يوجد بها فناء مدرسة أو ساحة كنيسة تسمح بهبوط الطائرات.. سترى!»

وعرف (إيجور) أنّ هناك بيتًا أبيض فاخرًا يتوسط أكواخ القرية الحقيرة ومبانيها المتهدمة.. عرف هذا بينما الطائرة تحوّم استعدادًا للهبوط..

عرف كذلك أن (جابلر) في هذا البيت..

لا شك في هذا.....

* * *

الجزء التاسع

(سان راموس) - ١٩٦٣

- ٢٣ -

إن العثور على من يتحدث الإنجليزية أو الألمانية أو الروسية أو البولندية عسير جدًا في جبال الإنديز.. هذا هو النحس الخاص بـ (إيجور).. برغم إجادته لأربع لغات إلا أنه يحتاج دومًا إلى اللغة الخامسة.. ولو كان يجيد الإسبانية لوجد الجنرال قد فر إلى الصين أو فولتا العليا..

كان هناك أدلاء في القرية.. وكان هؤلاء يتكلمون إنجليزية رديئة جدًا لكنّها مفهومة..

- «فندق... أريد أنا.. نوم في.. أميجو..»

هذه هي الطريقة المثلى ليفهمك من يتحدث إنجليزية رديئة.. عليك أن تستخدم إنجليزية أكثر رداءة..

وكان الجواب سريعًا:

- «فراش.. حانة.. (داماسوس)..»

وكان هذا الفتى سمسارًا يرتدي قبعة من القش، و(فانلة) داخلية ممزقة.. وقد اعتاد أن يتكلم وقد أحنى ظهره مداهنة ورياء.. ولربما خلع القبعة متظاهرًا بالأدب الجم...

وفي الحانة وجد (إيجور) عملاقًا أسمر هو (داماسوس)، له زوجة ناحلة سمراء تعلق صليبًا ضخمًا في عنقها.. وبمعاونة الدليل حصل على الفراش الوحيد في الحانة، وهو لم يكن أكثر سوءًا من الفراش الذي كان ينام فوقه في فندق (باراديسو) بالعاصمة.. بل كان عدد البق أقل لحسن الحظ...

وهكذا...

ما إن قام بتبديل ثيابه حتى غادر الغرفة.. وخرج إلى الشمس الساطعة بالخارج يتأمل قمم الجبال القصية..

كان هناك حشد كبير من أهالي القرية يحيطون به وفي عيونهم فضول من لايجد ما يشغله.. لابد أن قدومه هنا سيصير مناسبة قومية يتم التأريخ بها...

وعشرات الأطفال الحفاة ينادي بعضهم البعض صارخين حتى لا يفوتهم هذا الحدث الجسيم: غريب! تجاهل العيون الفضولية ونادي أحد الشباب الواقفين.. وأشار إلى الفيلا البيضاء التي تشكل نواة القرية.. ورسم في عينيه نظرة متسائلة..

هتف الشاب في حماس:

- «آه!.. إلي بروفسيوري.. إلي بروفسوري (فريدركس)».

ثم انطلق في شرح تفصيلي بالإسبانية لم يفهم منه (إيجور) حرفًا.. لكنه شقّ طريقه كالمفتون بين البشر المحيطين به قاصدًا الفيللا.. الفيللا التي يعرف إنها تحوي هدف حياته.. الحلم الذي انتظره عشرين عامًا أو أكثر....

حدسة يؤكد له أن البروفسور هو الجنرال (جابلر) بعينه.. أليس اسم (فريدركس) اسمًا دانماركيًا؟

وحده هو والجنرال في هذه القرية المنعزلة.. تصفية حساب الأعوام دون تدخل من أحد.. إن دهشة القوم وفضولهم يدلان على أن أحدًا لم يسبقه إلى هنا منذ زمن...

حتما سيلحق به الأمريكان والسوفييت.. لكنهم سيصلون بعد فوات الأوان.. وعندئذٍ لن يجدوا وسيلة للضغط عليه.. لأنّه حين يفرغ من الانتقام لن يهاب شيئًا...

* * *

كان هناك جرس..

وفي اللحظة التالية شعر بالغضب.. رأى صورته دون ألوان ومن وجهة نظر منخفضة.. كان قد اعتاد هذا المشهد وعرف أنه يرى نفسه من عيني حيوان.. كلب.. على وجه الخصوص ثلاثة كلاب (دوبرمان) تنبح من وراء البوابة واللعاب يتناثر من أشداقها..

ثم سمع من ينهر الكلاب، وجاء خادم أسمر ضخم الجثة صموت، كي يجذب الكلاب من أعناقها ليبعدها عن البوابة.. وسمع صوت جنازير.. ثم رأى وجه الخادم ينظر له متسائلًا..

قال في صوت هادئ:

- «إلي بروفسوري.. بيروفافوري..»

سأله الرجل عن شيء ما بالإسبانية.. فهز هذا رأسه كناية عن عدم الفهم.. ولم يطل الحديث لأن الرجل أولج مفتاحًا في البوابة.. وبعد قليل وجد (إيجور) نفسه يمشي في ممر طويل قاصدًا البيت الأبيض الأنيق الذي رآه من الطائرة...

قاعة انتظار فاخرة تزدان بقطع أثرية.. رماح.. سيوف.. خوذات إسبانية من عهد (كورتيز).. تماثيل (إنكاس).. دروع كان رجال (بيزارو) يرتدونها حين كان اسمهم (الآلهة البيض) وكانوا يحكمون أمريكا الجنوبيّة بالحديد والنار..

بعد قليل رأى (إيجور) من يهبط في الدرج قادمًا من الطابق العلوي.. كان يرتدي روبًا حريريًا قصيرًا من الطراز الذي يرتديه الأوغاد في السينما.. فوق القميص وربطة العنق...

كان وجهه في الظل.. لكنّ (إيجور) سمع صوته الرخيم يتحدث الإنجليزية:

- «مرحبًا بك يا سيدي.. إننا لا نرى ضيوفًا كثيرين في هذا البلد.. لهذا وصلتني أخبار وصولك قبل أن تمس عجلات الطائرة الأرض..»

وهنا دخل دائرة الضوء..

وأدرك (إيجور) أنه هو.. هو الجنرال (جابلر).. لن ينسى أبدًا هذه الملامح الجامدة والعينين الميتتين، اللتين تأملهما يوميًا قبل أن ينام ولمدّة خمسة عشر عامًا أو أكثر.



وعشرات الأطفال الحفاة ينادى بعضهم البعض صارخين
حتى لا يفوتهم الحدث الجسيم : غريب !! . .

.
كان قد شاخ حقًّا.. هو الآن في السبعين من عمره.. لكنه متين البنيان، وقد وضع على عينيه منظارًا ذا إطار من المعدن المذهب.. ودس في فمه غليونًا ليبدو كعالم ممن يُرسمون في القصص المصورة....
قال (إيجور) محاولًا انتزاع نفسه من
(راتاتاتاتاه! أختونج!)
فيضان الأفكار الذي
(هذه الجهة مغلقة!)
يحاصره، والذي لا يترك له
(أخرس.! أنت تثير أعصابي! اخرس!)
فرصة كي يجد ما يقول:
- «سيدي.. أنا عالم آثار من أصل...أ.. سويدي.. لكني ترعرعت في الولايات المتحدة.. حين جئت إلى هذه البقعة قيل لي إن هناك أستاذًا في الآثار ها هنا.. هو أنت.. تجدني لهذا مندهشًا.. إنها مصادفة أجمل من أن تكون حقيقية..»
نظرة مدققة في العينين الزرقاوين.. ثم:
- «حقًّا أيها الشاب.. إن المصادفات الجميلة لا تحدث أبدًا»
وساد الصمت هنيهة.. ثم تحرك الرجل ليجلس إلى إحدى الأرائك، ودعا (إيجور) إلى الجلوس.. وأعاد إشعال غليونه غير مبال بنظرات (إيجور.) الملهوفة التي تتفحص كل جزء في كيانه...
بهاتين اليدين أصدر الأمر للدبابات كي تنسف دارك.
بهذا الصوت الرخيم أمر رجاله أن يطلقوا الرصاص على أمك..
بهاتين العينين الباردتين تأمل جيرانك البولنديين وهم يموتون..
بهاتين القدمين مشى عائدًا ليركب في المقعد الجانبي للدراجة البخارية، تاركًا جنوده ينهون مهمتهم...
بهذا الـ.....
- «ما اسمك يا بني؟»
أفاق (إيجور) من شروده.. فهتف يجيب:
- «اسمي هو.. هو (سيورن).. (سيورن بيرمان).. لا بد أنك قرأت بعض الأوراق العلمية التي نشرتها..»
ابتسامة غامضة شاعت في وجه الرجل خلف دخان التبغ، وهو يقول في تؤدة:
- «بالطبع..!.. إن اسم. (بيرمان) لمن الأسماء المرموقة بين شباب الأثريين..»
تأمله (إيجور) في حيرة.. بالطبع لم ولن يوجد من يدعى (بيرمان) بين علماء الآثار.. كلا الرجلين نصاب لكنّ لماذا يجاريه الجنرال في كذبه؟ بالتأكيد هو يعابثه.. بالتأكيد نهو يرتاب في أمره.. لقد قضى الرجل أعوامًا طوالًا يختبئ في هذا الركن من العالم ينتظر أن يجده الحلفاء في أية لحظة كي يرغموه على دفع ثمن جرائم الحرب التي ارتكبها...
بالتأكيد هو يخشى الغرباء ويهابهم.. بالتأكيد هو وافق على لقاء (إيجور) كي يعرف ما وراءه.. إن جرائم الحرب لا تسقط بالتقادم، وهو خير من يعرف هذا.. يعرف ما حدث لزملائه في

محاكمات (نورمبرج) ويعرف أن (هيس) ما زال سجينًا لدى الحلفاء بعد كل هذه الأعوام، ويعرف أن اليهود لم يتركوا نازيًا حيًّا طليقًا.

كيف له أن يثق بغريب بعد هذا كله؟

جاء الخادم بصينية عليها إبريق شاي وأقداح وبعض السكر.. وبحركات متصلبة صب قدحًا وناوله لـ (إيجور).. وقدحًا آخر ناوله للجنرال..

هنا قرر (إيجور) أن الوقت قد حان كي ينهي هذه المأساة.. سيقتحم عقل الجنرال ويفجره الآن....

بدأ محاولة الاقتحام.. ها هي ذي البوابة التي علّمه د. (إدوارد مالكولم) أن يبحث عنها.. سيفتحها ويدلف إلى عقل الرجل..

لكن.. هذا غريب! إن كل محاولاته للاقتحام تبوء بالفشل.. ما زال الرجل جالسًا يرتشف الشاي في وقار دون أن ينظر إليه.. يلهث (إيجور).. يحاول من جديد...

وفجأة سمع صوت الجنرال يهتف بالألمانية في عقله هو:

«ماذا؟ إذن فالأمر هكذا؟ جاسوس أفكار! صبرًا يا صديقي.. لقد اقترفت خطأً جسيمًا حين حاولت اقتحام عرين الأسد.. والآن لقد أردت ذلك.. ليكن!!»

* * *



لكن . . هذا غريب ! إن كل محاولاته للاقتحام تبوء بالفشل . .
مازال الرجل جالسًا يرتشف الشاى فى وقار دون أن ينظر إليه . .

- ٢٤ -

لقد فهم الموقف متأخرًا...
لقد كان الجنرال هو نفسه esper! من نوع متفوق حقًّا.
لم يخطر هذا بباله قط لكنه حقيقي...
لقد عرف الرجل أنّ هناك من يحاول إختراق عقله، وبالتأكيد سمع خواطر (إيجور) من البداية.. لقد كان يعابثه كقط يتمطى جوار الفأر قبل أن يزدرده...

* * *

«يُقال إنّه أحسّ بمحاولة اعتقاله مبكرًا جدًّا.. كأنه نوع من الحاسة السادسة أنقذه من هلاك محقق»

* * *

«إن الـ espers كثيرون يا (إيجور).. أكثر مما تظن.. لأنّهم لا يعلنون عن أنفسهم..»

* * *

كان الجنرال بالداخل الآن!
شعر (إيجور) به داخل عقله هذه المرّة.. يمشي في ردهاته بحذائه ذي الكعب العالي محدثًا جلبة.. كان يتقدم بإصرار في الداخل وهو يزمجر بالألمانية:
«يا لك من غرير! تحاول اقتحام عقلي أنا؟ لقد فررت من جهاز الجشتابو إبّان الحرب.. ومن كل مخابرات الحلفاء بعدها.. والآن تريد أن تقتحم عقلي أنا؟ يبدو أننا سنمرح قليلًا يا فتى!»
وسمع (إيجور) صرير أبواب عقله تنفتح واحدًا بعد الآخر.. كل شيء ينكشف للرجل.. مذبحة (وارسو).. العم (أندريه).. عائلة (كيلي).. معركة المدرسة الثانوية مع (هاري كارلسون).. (لارا) تصرخ في خجل وتغطي ساقيها.. الجنرال (فرايدمان) يشعل سيجارًا آخر.. (هاثاواي) يفقد رشده.. المطاردة في شوارع (واشنجتون).. و(إيفان زاروف) و(بودونسكي).. (كالينين) يقدم عرضه.. سيارة مندفعة تحطم جسد (شندلر).. لعبة القمار في إحدى حانات (لاباز).. ثم طائرة (بارساد). الفرنسي تخرج من أحد الأبواب ومحركاتها تئن.. و.. كلاب الدوبرمان تنبح..
«ما كل هذا؟ يا لها من حياة حافلة! (إيجور).. أرى أنك قد عشت لهدف واحد طيلة حياتك هو تدميري.. لكنك لم تحسن تقدير خصمك.. إنها لمفاجأة غير سارة أن تجده يتمتع بذات موهبتك.. ربما يفوقها.. (إيجور).. إنني أتفوق عليك.. هل تشعر بهذا؟ أنت في قبضتي كهرة وليدة عمياء!»

هذا حق للأسف.. للمرة الأولى يشعر (إيجور) بالتدنيس الذي تحدثه عملية اختراق عقلك.. أخص وأدق ذكرياتك تغدو مشاعًا.. وفي ردهات عقلك المقدسة تسمع فحيح الصوت الجشع المتهكم والخطوات الواثقة العدوانية و.....

«ليس جديدًا عليّ أن السوفييت والأمريكان يعرفون مكاني... فأنا لم أعد أمثل خطرًا بالنسبة لهم، ولم يعد هناك من يهتم بأن يجدني.. لقد كفوا عن مضايقتي منذ زمن.. والآن.. حان الوقت كي..»

كان (إيجور) يعرف ما سيحدث..

الرجل يبحث عن الباب الذي يقود إلى عقله الباطن.. وعندئذ يدمره تدميرًا ويتهاوى بنيان عقل (إيجور) إلى الأبد.. يجن ويتحول إلى مسخ مثلما حدث لـ (هاثاواي) والزنجي و(بودونسكي).. الأسوأ هنا هو أن الجنرال كان يطّلع على هذه الأفكار أولًا بأولًا.

كان (إيجور) يفكر:

«سأقاوم.. إنّه لم يصل إلى عقلى الباطن بعد...»

عندئذٍ كان صوت الجنرال يتردد في عقله:

«لكني سأصل إليه.. بضع ثوان وأكون هناك.. صبرًا! إن هناك دبابات نازية عديدة في عقلك كلها كانت تحت قيادي.. أمر واحدة منها بأن تنسف باب عقلك الباطن.. وعندئذٍ تصير لي»

كان يتحدث بنفس الوقار والبرود؛ فلا تجد في كلامه أي نوع من التشفي أو الانفلات.. العسكري النازي الذي يتكلم ويتصرّف كآلة مازال حيًا بداخله.

«ولكن لحظة.. أريد أن أرى ما وراء هذا الباب...»

وشعر (إيجور) باليد الصلبة الصارمة تمسك بمقبض الباب في مكان ما من عقله.. لم يكن هو نفسه يعرف ما وراء الباب..

وفي اللحظة التالية سمع صوت الصرير.. وسمع صوت (شندلر)!..

كان الألماني ينتظر في هذه الغرفة طيلة الوقت، وأحس (إيجور) بشيء من التردد والارتباك في سلوك الجنرال.. قبضته تتخلى عن سيطرتها على عقل (إيجور) بعض الشيء..

«من.. من أنت؟»

«اسمي (بيتر شندلر).. ألماني مثلك يا سيدي الجنرال.. لا تحاول اقتحام عقلي فأنا مصمت لا يمكن اختراقي.. لا تحاول قتلي فأنا ميت بالفعل.. ألا ترى عنقى المهشم؟!»

وفي اللحظة التالية التحم (شندلر) مع الجنرال في صراع محموم داخل طرقات عقل (إيجور).. وسمع (إيجور) الأول يصيح به:

«(إيجور)!.. عليك بالفرار!.. ابتعد عن الفيلا.. فهو لن يتمكّن من السيطرة عليك إذا ما نأيت عنه.. أسرع! إنّه مشغول بي فلن يتمكّن من أن.....»

كان هذا صحيحًا...

استعاد (إيجور) سيطرته على وعيه ليجد الجنرال يجلس أمامه ساهمًا.. عيناه متسعتان وقدح الشاي مازال في يده.. لكنه كان يخوض حربًا عاتية مع الألماني الآخر..

إنها فرصتك الأخيرة يا (إيجور)..

غادر هذا المكان قبل أن يستعيد الجنرال قواه...

بحث (ايجور) حوله عن شيء يصلح لتهشيم رأس الجنرال.. أو ربما اكتفى بخنقه.. لكنه كان مبلبل التفكير تمامًا...

«لاتحاول يا (إيجور)... سيتمكن من السيطرة عليك قبل أن تفعل.. اركض! اركض كأن الجحيم يطاردك!»

وقد كان..

رمي (إيجور) قدح الشاي من يده، ووثب قاصدًا باب الفيللا.. راح يركض في الممر.. ومن خلفه سمع صوت النباح..

كلاب (الدوبرمان) طليقة في الحديقة إذن!

يرى صورته من الظهر ومن زاوية منخفضة.. هكذا تراه الكلاب الآن.. لا يوجد وقت كافٍ للوصول إلى البوابة..

واستدار (إيجور).. ركز عينيه في عيون الكلاب الغاضبة... اقتحم عقولها.. لم تكن هناك غرف ولا ردهات.. كانت هناك غابات ملأى بالحواس الأولية: الشهوة.. الغضب.. الجوع.. الرضا.. روائح من كل صنف تفعم المكان.. هذه هي ذكريات الكلاب الأساسية: الروائح.. راح يقتلع الأعشاب ويمزق الغصون ويحدث أكبر تلف ممكن..

وحين خرج من عقول الكلاب وجدها ترمقه في ذهول وقد تدلت ألسنتها للخارج، وأقعت على مؤخراتها.. هل أصابها الخبال؟ لا يدري حقًّا لكنه على الأقل قد ربح وقتًا....

وقتًا يكفيه لتسلق البوابة والقفز إلى الخارج.. دون أن يجد ساقه بين أنياب كلب ثائر....

وهكذا..

وجد نفسه خارج الفيللا وقد سقط على ركبتيه في الغبار..

استجمع قواه وراح يركض مبتعدًا عن هذا الموضع الرهيب..

* * *

لم يكن ثمّة مكان يقصده سوى الحانة...
صعد إلى الطابق العلوي.. وارتمى على الفراش يلهث.. كانت هناك نوبة صرعية قادمة...
ها هي ذي! التصلب يجتاح كل جزء من جسده.. ثم تبدأ الانتفاضات.. التقلصات.. الرجفة.. الرحمة! لا...
ووسط ضباب الرؤى رأى (شندلر) يقترب منه، وعلى وجهه تلك البسمة المريرة..
استجمع قواه.. وصاح في وهن:
- «(بيتر)! هأنذا! لن تعرف أبدًا مدى امتناني لك.. لقد أنقذتني... آه ه!»
قال (شندلر) بصوت رتيب:
- «يسرني أن أسدى لك ما بوسعي يا (إيجور).. إن أحدنا لم يتوقع أن يكون الجنرال قادرًا على الإدراك الفائق.. إنّه سيأتي من أجلك حتمًا.. لن يتركك حيًا بعد ما عرف مبلغ مقتك له.. وأرى أنك يجب أن تغادر القرية حالًا..»
- «هـ.. هذا لن يكون.. سأعود!»
- «إنّه أقوى منك بمراحل.. عرفنا الآن سبب فراره قبل أن يقبض عليه رجال (هتلر)..»
- «ليكن.. سأعود!»
- «إذن عليك أن تستعد له..»
ومضت فترة من الصمت بدا فيها أن (شندلر) يفكر بعمق.. بعدها قال في إعياء:
- «ثمّة حل لكنه خطر.. سأحاول أن أعطيك موهبتي السلبية.. عندها لن يتمكّن أحد من اختراق عقلك!»
- «و.. وماذا... تنـ.. تنتظر!»
- «لا تنس أنني ميت.. ربما كان هذا خطرًا على حياتك.. ثم إن عقلك لن يتحمل موهبة جديدة.. موهبته الأصلية توشك أن تؤدي به تحت نوبات الصرع هذه.. فماذا يحدث لو زاد موهبة أخرى؟»
- «سأتحمل المسئولية يا (بيتر).. فقط افعل!»
وشعر (إيجور) هنا بشيئين:
الشيء الأول: أن (شندلر) يجوب ردهات عقله بخطى متمهلة وهو يصدر جلبة معينة..
الشيء الثاني: هو أن أقفالًا عديدة توضع على كل أبواب ذهنه.. بل والباب الرئيسي الذي يقود إلى كل هذا.. وأدرك (إيجور) أنّ هذه الأقفال عسيرة الفتح.
قال (شندلر) وهو يواصل عمله:
- «تركت لك بابًا أو بابين حتى تستطيع تعرف نفسك.. والذكريات القريبة.. والآن قل لي: من هي (لارا)؟»
عبثًا بحث (إيجور) عن مغزى الاسم فلم يجد..
- «من هو (مالكولم)؟ ما اسم عملك؟»
لم يجب (إيجور) لأن هذه الأسئلة لا تعني أي شيء...
قال (شندلر) في هدوء:



واستدار (إيجور) .. ركّز عينيه فى عيون الكلاب الغاضبة ..

- «هذه نتيجة طبيعية.. فقدان ذاكرة محدود لأنك لا تملك المفتاح الذي يقود إلى هذه الذكريات.. هل فهمت؟ إن من يفقد الذاكرة إنما يفقد مفتاح أبواب عقله، وما دمت أنت عاجزًا عن فتحها فلا أحد سواك يملك ذلك..»

- «و.. وأنت؟ هل تعاني فقدان الذاكرة هذا؟»

- «لا.. لأني تعلّمت أن أجد المفتاح.. لكن لنا أعطيك مفتاحك إلا بعد أن تفرغ من المعركة..»

بدأت الرؤيا تزداد ضبابًا منذرة بالانتهاء...

وحين زالت الغيوم أخيرًا وجد (إيجور) نفسه وقد تمدد نصفه العلوي على الأرض، وقدماه على الفراش..

وكان هناك من يطرق باب الغرفة في إلحاح..

* * *

مشى إلى الباب مترنحًا شاعرًا إن رأسه يزن عشرة أطنان..

كان حذرًا.. ألصق أذنه بالباب ليصغي.. ثم تساءل:

- «من هناك؟»

كانت الإجابة قد وصلته منذ ثوان.. سمع أسئلة كثيرة بالإسبانية.. هذا إذن هو (داماسوس) صاحب الحانة قد جاء ليعرف سبب هذه الأصوات الكثيرة التي يسمعها.. لقد كانت نوبة الصرع صاخبة بالتأكيد هذه المرّة...

فتح الباب.. وتلقى الأسئلة العديدة بلا فهم.. مثّل بوجهه أنه كان غافيًا وأنه رأى كابوسًا...

عاد صاحب الحانة يقول مزيدًا من الكلام...

وأشار إلى الوراء.. أشار إلى شخص ما يقف خلفه..

وفي ضوء الممر الخافت لمح (إيجور) هذا الوجه.

كان هذا هو د. (مالكولم)....

* * *

لم يتبدل الرجل كثيرًا عما عرفه (إيجور) منذ ذلك العهد السحيق.. (أحقًا صار عام ١٩٦٠ سحيقًا؟).. معمل الجامعة ودراسات الباراسيكولوجي وتجربة (هاثاواي) المريرة...

لكن (إيجور) هو الذي تغير...

لقد نسى وجه (مالكولم) تمامًا....

أشرق وجه (مالكولم) وهو يدخل الغرفة.. ثم صافح (إيجور) في حرارة وأشار إلى (داماسوس) كي يتركهما ويوصد الباب..

- «(إيجور)!.. يا له من دهر!»

نظر له (إيجور) نظرة خاوية ولم يتكلم..

كان من الذكاء بحيث يفهم أنه يعرف الرجل جيدًا.. لكنه لم يظهر ما يدل على أنه يجهل من هو...

قال د. (مالكولم) وهو يسير إلى النافذة ليفتحها:

- «لقد تكبدت مشقة كبيرة كي ألحق بك ها هنا.. لكن الجنرال أصر على هذا.. لقد أتعبتنا كثيرًا يا (إيجور)..»

ثم عاد يرمق (إيجور) في مودة:

- «لقد تأكدنا من براءتك من حادث مصرع (شندلر).. وإن كنا نرجح أنك ضغطت عليه حتى باح بمكان (جابلر).. لا يهم.. إن الجنرال (فرايدمان) يقدم لك عرضًا... ستعود معي إلى الولايات على الفور.. ويقوم رجالنا هنا باغتيال جنرالك النازي في أية لحظة تقررها أنت.. فقط عليك أن تدفع حساب هذه الغرفة الحقيرة ونتجه معًا الآن إلى الطائرة التي ستحملنا إلى (لاباز).. لا نريد ضجة ولا ضوضاء..»

لم يفهم (إيجور) أكثر هذا الكلام.. لكنه فهم أن (مالكولم) يعمل مع من يهمهم عودة (إيجور) إلى الولايات المتحدة.. مستحيل! لقد صار الآن آلة قتل مبرمجة لا تريد سوى الدماء..

قال (إيجور) وهو يتأمل مشهد الغروب من النافذة:

- «لن أعود.. سأنتهي منه بنفسي..»

في عصبية صاح (مالكولم):

- «كف عن هذا السخف.. (إيجور).. أنت لن تربح أبدًا.. لن تلبث هذه القرية أن تغص بعملاء الـ (CIA) والـ (KGB).. هل تذكر الرجلين اللذين لعبت معهما الورق عشية وصولك إلى (لاباز)؟ لقد كانا هما بداية الخيط الذي أكد للسوفيت أنك في (بوليفيا).. فهما قد ارتابا في أمرك وأبلغا رجلًا يعرف مسئول المخابرات السوفيتية هنا.. إن الكل آتون من أجلك..»

ثم أردف وهو يخرج لفافة تبغ من جيبه:

- «إن لدينا في الولايات المتحدة حلًا لمشكلة نوبتك الصرعية هذه.. أرى أنك خارج من إحداها من فورك.. أليس كذلك؟ حسن.. يوجد من يدعي دكتور (إيرهارت).. وهو خبير في الجراحة النفسية.. يقوم باستئصال جزء من الفص الجبهي للمخ مما يقلل من آثار هذه الموهبة لدى المبتلين بها.. وهذا بالضرورة سيشفيك من الصرع.. هل تسمعني؟ لا أفهم سر هذه النظرة المتبلدة التي... لو كان كلامي لا يروق لك...»

تأمله (إيجور) في اهتمام.. إنّه يتابع كلام الرجل لكنه لا يفهم أي حرف مما يقول.. هو لا يملك خلفيّة تتيح له الفهم...

دنا منه (مالكولم) وأمسك بساعده:

- «(إيجور).. تبدو لي كما لو كنت في عالم آخر..»

لو كان (إيجور) يذكر الماضي في هذه اللحظات لتذكر أشياء كثيرة بخصوص (مالكولم).. لتذكر أن الرجل هو من أعلن سرّه للأمريكيين وهو من أخبر به الروس.. إن (مالكولم) عميل مزدوج ملوث.. ومن حسن حظه أن (إيجور) لا يكاد يعرفه الآن..

كان (مالكولم) يردد في حيرة:

- «أنت لا تذكر شيئًا يا (إيجور).. أليس كذا؟ لقد أوصدت أبواب عقلك كلها.. لابد أن حالتك ازدادت سوءًا مع موهبتك التي تفترس كل شيء هذه»

وجذبه بحزم أكبر من ساعده.. هاتفًا:
- «لم يعد ثمّة مجال للمناقشة.. هلمّ نرحل لصالحك.. وصالح أمريكا..»
في اللحظة التالية انفتح الباب...
رأى (إيجور) الجنرال (جابر) واقفًا وفي يده مسدس ـ ألماني الصنع بالتأكيد - وقد سدده إلى الرجلين...
تراجع (مالكولم) خطوة للوراء.. ونظر إلى (إيجور) وإلى الجنرال غير فاهم لما يحدث..
قال الجنرال (جابلر) في رصانة وهو يدسّ يده اليسرى في جيبه:
- «إن محادثتنا لم تنته بعد أيها الشاب..»
بدأ (مالكولم) يفهم فتساءل في هلع:
- «إذن.. هذا هو الجنرال (سيدلتز جابلر)؟»
- «بشحمه ولحمه» ـ قال الجنرال في كبرياء - «أنا لا أدري من أنت يا سيدي، لكنك ستدفع ثمن تواجدك هنا للأسف..»
صاح (إيجور) وهو يتقدم نحو الجنرال خطوة:
- «هيا إذن.. اضغط زنادك ولترحنا من وجهك الدميم..»
- «لالا..» ـ قال الجنرال كما لو سمع هرطقة مخيفة - «لا مزيد من الطلقات والدماء.. إن العملية أبسط من هذا.. سوف أترك اثنين من المخابيل.. ولا توجد مادة في القانون تدين من يسبب الخبال لسواه.. فضلًا عن أن إثبات هذا مستحيل..»
صاح (مالكولم) وهو يتراجع للوراء:
- «لا! إن حكومتي ستقدم لك أي عون تريد!»
لم يكن عالمًا بعد بمعنى كلام الجنرال.. ولو علم لأزداد رعبًا على رعب.. فهو - دون سواه - يعرف جيدًا كيف يكون تدمير الأذهان.. وكيف....
في اللحظة التالية راح (مالكولم) يرتجف.. كأن هناك من يقوم بهزه يمينًا ويسارًا بعنف غير عادي....
ثم.....

* * *

- ٢٥ -

صراخ آت من آبار الجحيم...

راح (مالكولم) يتلوى.. وراحت يده ترتجف باستمرار كأنما هي موصلة بتيار كهربائي عالي الفولت..

ارتجف (إيجور) وهو يدرك أنه يرى للمرة الأولى هذا النموذج الفريد للاختراق المدمر المليء بالحقد..

لقد وضع الجنرال كل ثقله وقوته في هذا الاختراق، كأنما ليفرغ من (مالكولم) أولًا قبل أن ينفرد بـ (إيجور)...

رأى (إيجور) الدم يتدفق غزيرًا من عيني (مالكولم).. ورأى عروق جبهته تنفر ثم تنفجر منها الدماء....

لن يبقى هاهنا ليرى هذه المذبحة...

وثب باتجاه الجنرال.. لكنّ هذا استدار نحوه بعينين يوشك الدم أن ينفجر منهما وسدد المسدس نحوه محذرًا.. رسالة دون كلمات لكنّها بليغة جدًّا..

هنا قرر (إيجور) أن يقتحم بدوره عقل (مالكولم) ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه....

وبدأ الاختراق....

أي خراب هذا! النيران والدخان الأسود في كل مكان.. كل الأبواب قد تم انتزاعها وحرقها..

كانت كل أسرار (مالكولم) مبعثرة هنا وهناك.. نساء يصرخن وقد احترقت شعورهن.. رئيس الجامعة (إريكسون) يتلوى على الأرض.. رجال المخابرات السوفييتية يلوحون بأسلحتهم.. و(ديمترمي كالينين) يصرخ في (إيجور):

- «ماذا جاء بك هنا؟ ارحل سريعًا! إن هذا العقل سينفجر حالًا...»

كانت هناك معامل محترقة.. وأطفال يئنون وسط سحب الدخان الأسود.. لكنّ (إيجور) شقّ طريقه وهو يسعل ويحجب عينيه حتى وصل إلى مكان غرفة العقل الباطن لم تكن هناك غرفة.. بل أطلال ينعب البوم فيها....

ورأى الجنرال (جابلر) يقف وسط هذا الصخب والصراخ، حاملًا قنبلة يدوية أخرى يوشك على إلقائها...

وثب (إيجور) على الجنرال ذي السبعين عامًا، فألقاه أرضًا وتدحرجت القنبلة إلى داخل الحجرة.. و...

بووووم!.....

فما إن انقشعت السحب حتى صاح الجنرال، وهو يقاوم قبضة (إيجور) الذي ارتمي فوقه بأعوامه الستة والعشرين:

- «يا لك من معتوه! لن تستطيع مقاومتي.. لن يلبث هذا الذهن أن ينفجر وعندئذٍ.. لن تستطيع الفرار في الوقت المناسب..»

- «لا يهم.. فأنت ستموت معي!»

- «أنت واهم يا صديقي...»
كان الدخان واللهب يحيل المكان جحيمًا.. ورأى (إيجور) امرأة تصرخ وهي تحمل طفلًا على كتفها.. أدرك دون جهد أنّ هذه هي أم (مالكولم) تحمل ابنها بعيدًا.....
راح يوجه اللكمة تلو اللكمة إلى وجه الجنرال.. وقف على قدميه، وركله في خاصرته.. ثم وثب في الهواء ليهوي بثقله على صدره.. فوق ضلوعه....
هكذا لا تجدي الرحمة مع الأفاعي...
لكن الجنرال لم يمت...!....

* * *

شعر (إيجور) بشيء يجتاح عقله..
شعر بأقدام متلصصة تزحف نحو ذهنه.. وسمع الجنرال يصيح بالألمانية:
- «كانت حماقة منك أن تتحداني يا فتى.. والآن سأخترق ذهنك هنا.. داخل ذهن هذا المعتوه!»
كان الجنرال راقدًا على الأرض تحت (إيجور).. الدم يغمر وجهه وقد تورمت كل عضلة فيه..
لكن عينيه ظلتا نشطتين سامتين...
سمع (إيجور) صوت عبث في الأقفال.. محاولة وفتح.. لكنّ بلا جدوى.. لأن (شندلر) كان قد استخدم أقفالًا لا يمكن اغتصابها مهما بلغ عنف المحاولة...
- «هذا غريب! إنني عاجز عن الدخول.. ماذا أصاب عقلك؟ لقد كان مفتوحًا لي كقرية بولندية إبّان الحرب.. أية حيلة قذرة قد.....»
لم يتركه (إيجور) يواصل المحاولة..
راح يكيل له اللكمة تلو اللكمة.. ثم وثب في الهواء ليعيد محاولة تهشيم ضلوعه... كراش!
- «لا جدوى يا فتى.. لا يمكن قتلى بهذه الأساليب.. إن جسدي المادي لم يمس وما زال يسدّد المسدس إليك.. أنت تقاتل الصورة التي ترمز إلى وعيي.. ألم تفهم هذا بعد؟!»
قالها الجنرال وعلى وجهه ابتسامة ذئب لو كانت الذئاب تبتسم..
وشعر (إيجور) بأصابع الجنرال الذهنية تعيد تحسس أبواب عقله الموصدة.. بابًا بعد باب.. ثم.....
- «عجبًا يا فتى.. هذا الباب مفتوح.. لماذا لم توصده هو الآخر؟ كل ما أحتاج إليه هو إدارة هذا المقبض.... و....»

هنا سمع (إيجور) صرخات المئات....
رأى جيشًا من البولنديين يخرج من الغرفة المواربة في ذكرياته.. الغرفة التي تعمد (شندلر) ألا يغلقها..
كانوا جميعًا من قومه.. رأى أمّه وخاله وجيرانه... كلهم يصرخون في غضب وقد امتلأت أجسادهم بالطلقات.. رآهم يغادرون الغرفة.. سمع الجنرال يستغيث متوسلًا:
- «لا.. أرجوكم! دعوني! لا أريد أن... يجب أن أغادر هذا العقل سريعًا..»
لكنّ القوم كانوا ثائرين، وقد أنساهم الحنق كل تعقل.. كان قاتلهم معهم الآن في مكان واحد.....
وعرف (إيجور) أن الجنرال لن يستطيع التخلص منهم مهما حاول.. مهما صاح.. مهما أطلق رصاص مسدّسه....
إنّه الانتقام.....
كان الجنرال يتداعى من تحته الآن.. وفي الوقت ذاته راحت الأحجار والغبار يتهاويان من السقف.. إن عقل (مالكولم) على وشك الانهيار التام...
سارع (إيجور) بالنهوض من فوق فريسته.. وانطلق يركض في الردهات.. بينما تتناثر حوله جثث ذكريات د. (مالكولم).. حبيبته.. أصدقائه.. معلميه.. كلها تحترق أو تهوى الأحجار فوقها...
فما إن غادر ذهن (مالكولم) حتى رأى غرفة الحانة من جديد... وكان كل شيء قد تغير.....

* * *

إلى الغرفة دلف اثنان..
أحدهما هو (جيمس ماكجافن) صديق (إيجور) القديم الذي يملك موهبة التحريك عن بعد.. والآخر لا يعرفه (إيجور)...
فما إن رأيا المشهد حتى دارى (ماكجافن) عينيه.. وهمس الآخر وهو لا يخفى رجفة اجتاحت جسده:
- «يا للسماء!»
في تؤدة مشي (إيجور) إلى الجنرال الذي مازال واقفًا ومسدّسه في يده.. لكنّ نظرته لم تعد تحمل معنى من أي نوع..
انتزع (إيجور) المسدس من يد الرجل فاهتز جسده.. كأنما هو مشجب انتزعت معطفك من فوقه...
كان اللعاب يسيل من فم الجنرال.. وسمعاه يغمغم بالألمانية ببضع كلمات لا معنى لها.. وبطريقة أقرب إلى غناء الأطفال حين يتعلمون الكلام.....
- «من هو؟ وماذا دهاه؟»
- «لقد ترك وعيه للأبد داخل عقل (مالكولم).. لم يتمكّن من الفرار في الوقت المناسب.. عطله البولنديون الثائرون!»
تبادل الرجلان النظرات.. هل جن الجميع هاهنا؟



راح يكيل له اللكمة تلو اللكمة .. ثم وثب في الهواء
ليعيد محاولة تهشيم ضلوعه .. كرااااش ! ..

لكنهما لم يجرؤا على التعليق أو السخرية وهما يريان ما حل بالدكتور (مالكولم).. سيظل هذا المشهد يطاردهما بقية حياتهما..

- «رأسه.. أين هو؟!»

- «انفجر!» - قال (إيجور) في هدوء وهو يدسّ المسدس في جيبه - «تناثر في كل موضع.. لقد كان هو آخر ضحايا الجنرال (سيدلتز جابلر) وأبشعهم طرًا..»

ثم رفع رأسه متسائلًا:

- «ولكن.. من أنتما؟»

- «أحقا لا تعرفني يا (إيجور)؟ أنسيت (ماكجافن)؟»

- «أنا.. لا....أ.....»

هنا سمع (إيجور) صوت (شندلر) يتردد في ردهات عقله:

«الآن يا (إيجور) وقد جن الجنرال للابد؛ يمكنني أن أعيد فتح أقفال عقلك.. الآن تعود ذكرياتك القصية كلها..»

صاح (إيجور) في ذهنه:

«شكرًا يا (بيتر).. لولاك لما تمكنت من ذلك.. لقد أسديت لي عونًا لا يمكن وصفه.. خاصة حين تركت باب البولنديين مواربًا في ذهني ليجده الجنرال»

«أردت أن يهلك بأيدي ضحاياه.. إن في هذا العدالة شعرية تروق لي..»

«وما هو مصيره الآن؟»

«أسود بالتأكيد! إنّه الآن مجرد نوع من الخضر.. إن مستقبلًا باهرًا ينتظره كعبيط قرية (سان راموس)»

كان (إيجور) يواصل المحادثة شاردًا، وقد اتسعت عيناه وسال العرق على جبينه..

قال (ماكجافن) وهو يُلقي بالملاءة على جثة (مالكولم):

- «لولا أنني أعرفك يا (إيجور) لحسبتك معتوهًا.. إنك ستشرح لنا كل شيء فيما بعد.. أمّا الآن فعلينا أن نغادر هذه الحانة حالًا..»

سأله (إيجور) وهو يجذب الجنرال من يده فينجذب له كدمية:

- «ماذا أتي بكما هنا؟»

- «جئنا مع (مالكولم) البائس.. أقدم لك (مارك هالبروك) الطيار الذي جلبنا من (لاباز).. كان قد تأخر في اللحاق بنا ومن ثم جئنا لنرى مادهاه..»

قال الطيار وهو يتأكد من سلامة مسدس كان في نطاقه:

- «إن القرية تعجّ بعملاء الـ (KGB).. وعلينا أن نخرجك منها بأسرع ما يمكن.. سنعود إلى الولايات المتحدة حالًا.. إن معنا جواز سفر مزورا لك باسم آخر..»

قال (إيجور) وهو يواصل جذب الجنرال العجوز الذاهل كأنما يراقصه في أرجاء الحجرة:

- «وهذا الجنرال و(مالكولم)؟»

- «مع الجنرال نحن لم نقارف إثمًا.. لقد جُن.. هذا شأنه.. أمّا عن (مالكولم) فإن تفسير انفجار عقله سيكون عسيرًا بعض الشيء لهذا سنتركه هنا.. ولسوف يقوم صاحب الحانة بإبلاغ السلطات حين نكون قد صرنا في مطار (لاباز)..»

نظر (ماكجافن) إلى (إيجور) مدققا.. ثم تساءل:

- «(إيجور).. هل ستعود معنا إلى الولايات دون ضوضاء؟»
تأمل (إيجور) وجه الجنرال الجامد.. وتنهد في رضا:
- «.. سأعود.!»

* * *

خاتمة

عاد (إيجور) مع الأمريكيين إلى الولايات المتحدة.
لم يعد يرى أمريكا سيئة إلى هذا الحد.. برغم كل الأعوام التي ظل يتمنى فيها ألا يراها أبدًا...
كان الجنرال (فرايدمان.) ينتظره..
كان حانقًا لكنه كان مستعدًا للفهم..
وقد قال له وهو يتأمل أظافره.. أظفار الرجل الذي لا يمكن التفاهم معه:
- «كنا على استعداد تام لتصديق تآمرك مع السوفييت، وتورطك في قتل (شندلر).. لكننا عرفنا أن (شندلر) قد توفي نتيجة حادث مؤسف، لكنك - برغم هذا - تصرفت بحماقة لا داعي لها.. وكدت تلقي بنفسك في فم الدب الروسي.. إن النوازع الشخصية لا مكان لها. في حياة العميل الجيد..»
في هدوء قال (إيجور):
- «أنا لست عميلًا جيدًا.. بل لست عميلًا على الإطلاق..»
تجاهل الجنرال هذا الرد المتحدي.. قال وهو يشعل سيجارًا غليظًا أفسد رائحة الهواء:
- «لا داعي للقول إنني كلفت (مالكولم) - رحمه الله - بأن يقتلك أو يخطفك لو أنك أبيت العودة.. لا أنوي ترك عميل خطر مثلك للسوفييت خاصة وأنت تعرف كل شيء عنا..»
- «هذا متوقّع منك يا سيدي..»
قال الجنرال وهو يسعل:
- «لقد.. كح كح!.. قرأت تقريرك العجيب عن مواجهة الجنرال.. عرفت كذلك أن (مالكولم) البائس كان عميلا مزدوجا.. كل هذا لا يصدّق.. لكني مسرور أنك قد نفذت انتقامك..»
ثم أردف في تؤدة:
- «لقد تخلصنا من (كالينين) و(زاروف) وأكثر أعضاء الـ (KGB) الذين تعرفهم.. تم طردهم باعتبارهم أشخاصًا غير مرغوب فيهم.. أو بلغة الدبلوماسية (بيرسونا نان جراتا).. إن هذا يسرك حتمًا..»
تثاءب (إيجور) ومد يده يعبث في نموذج للكرة الأرضية على المكتب أمامه، وقال:
- «لا!»
- «ولم لا؟»
- «سيرحل (كالينين) ليعود (سخالين).. ويرحل (زاروف) ليعود (كاربوف).. أنت تعرف هذا أفضل مني..»
- «والحل؟»
- «الحل هو أن أعود شخصًا طبيعيًا..»
- «كيف؟»
- «حدثني د. (مالكولم) عن الجراحة النفسية التي يقوم بها من يُدعى د. (إيرهارت).. قال إنها ستشفيني من الصرع ومن موهبتي هذه.. وعندئذٍ لن أشكل أهميّة للـ (KGB) ولن أشكل خطرًا

على الـ (CIA).. إن هذا الحل يرضى الجميع..»
وثبت عينيه في عيني الجنرال معلنًا تصميمه...
قال الجنرال دون أن يبعد عينيه:
- «غريب أنت يا (تاركوفسكي).. تتخلى عن موهبة كهذه يحلم الناس بها منذ فجر التاريخ؟ تعود إلى العامة العاجزين عن اختراق عقول ذويهم؟ لو أنني امتلكت موهبتك هذه لحكمت العالم..»
- «أنا لا أريد حكم العالم..»
قالها (إيجور) في هدوء.. وأردف:
- «إن هذه الموهبة لم تجلب لي السعادة يومًا في حياتي.. إننا بحاجة لأن يرى بعضنا البعض مغلفين بالادعاء.. بالرياء.. بالخصوصية..، أمّا أن نعيش وسط أناس عراة فهذا ليس ممتعًا.. ولن يجلب لك سوى الغثيان والاشمئزاز العميق..»
- «أنت تتفلسف!»
- «ربما.. إنني أنظر إلى موهبتي هذه نظرتي إلى أداة فرغت من استعمالها ولم تعد بى حاجة إليها.. بندقية في يد رجل مسالم أفرغها في صدر أعدائه ثم رماها في النهر، ونسى كل شيء عنها.. لقد منحني الله موهبتي هذه كي أثأر لقومي وهأنذا قد ثارت.. حان الوقت كي أنتهي منها..»
- «إذن أنت مُصر»
- «كل الإصرار...»
- «يوجد (جابلر) في كل زمان ومكان.. ولربما تجددت الحاجة إلى بندقيتك التي رميتها في النهر هذه..»
- «عندئذٍ سأحاربه مثل مئات - ملايين - الأشخاص العاديين.. أبطال كل يوم الذين يحاربون الشر دون موهبة خارقة.. ولا شيء سوى إيمانهم بالحرية.. بالجمال.. بالخير..»
تنهد الجنرال.. ومرت فترة من الصمت..
بعدها قال لـ (إيجور) متلطفًا:
- «لا أجد ما أقول سوى: هذا شأنك.. لقد قدمت لنا عونًا ثمينًا وانتهت أزمة الصواريخ الكوبية.. أنت مطلق الحرية الآن.. لقد انتهينا كذلك من تسوية أزمتك مع حكومة (بوليفيا).. واستعدنا جثمان الدكتور (مالكولم)..»
ثم تساءل وهو يطفئ سيجاره:
- «ماذا تنتوي عمله بعد هذا؟»
- «أعتقد أنني سأحل محل د. (مالكولم).. سأعكف على دراسة لغز العقل البشري بالتفصيل.. سألتحق بالجامعة..»

* * *

وقد كان.....

خاتمة أخرى أكثر إملالًا

مرحبًا يا رفاق!

د. (رفعت إسماعيل) يعود إليكم بعد أن أراحكم من ثرثرته ثلاثة كتب كاملة.. لقد تركتكم تمامًا تقرءون ما كتبه د. (إيجور تاركوفسكي) عن تجربته غير العادية مع الإدراك الفائق للحواس.. ولقد كان خطابًا طويلًا مرهقًا حقًّا...

كما هو واضح للجميع؛ صار (إيجور) خبيرًا في فسيولوجيا المخ وعلم الباراسيكولوجي، وهو إنجاز لا بأس به أبدًا في ستة أعوام بالنسبة لمن بدأ محاسبًا في مصرف دون دراسة جامعية..

عرفت كذلك أنه أجرى الجراحة إياها.. وعاد إنسانًا عاديًا جدًّا لا يشار له بالبنان.. هكذا أراد.. وهكذا صار...

هو الآن يعيش في (مانهاتن) مع عزيزته (لارا) وطفله الجميل (أندريه) - تخليدًا لذكرى عمّه السكير - يقضي نهاره في معامل بعلم النفس، وليله في مكتبة يدون للتاريخ قصصًا شائقة عن القدرات النفسية المذهلة..

إنني أقوم هنا بواجبي إذن.. فهو يريد مني أن أصير (قاعدة معلومات) آدمية عن كل ما هو منافٍ للمنطق.. كل ما هو (من وراء الطبيعة).. هذه هي قصته.. وفي المرّة القادمة أحكي قصة أخرى لراو آخر سواي...

أعدكم بهذه العطلة المريحة حتى الكتيب الثلاثين... بعد هذا يعود لكم (رفعت إسماعيل) بشخصة ليواصل كفاحه مع الأشباح والمذعوبين ومصاصي الدماء....

القصة القادمة تتحدّث عن أسطورة فريدة من نوعها تتحدّث عن.. أسطورتنا....!

لكن هذه قصة أخرى.

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

فلنتعش ذاكرتنا!

الجزء السابع (مانهاتن) -١٩٦٣

-١٩-

-٢٠-

الجزء الثامن (لاباز) -١٩٦٣

-٢١-

-٢٢-

الجزء التاسع (سان راموس) -١٩٦٣

-٢٣-

-٢٤-

-٢٥-

خاتمة

خاتمة أخرى أكثر إملالًا

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة المواجهة

كان (إيجور) يختلف عن الآخرين.. وكان له هدف في الحياة يختلف عن أي هدف آخر ، الهدف هو ألا يموت خصمه آمنًا.. ألا يموت وهو يدرك أن هناك من لم ينس بعد ، كان (إيجور) يختلف عن الآخرين.. وخصمه أيضًا كان يختلف..!



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:
أسطورتنا..!

Notes

[←1]

ملحوظة المؤلف: (السكيوريتاتيا) هي جهاز المخابرات الروماني..

[←2]

يا صديقي.

[←3]
ملحوظة: لما كان المؤلف جاهلًا بألعاب (البريدج) و(البوكر) فإنّه يرجو الصفح عما قد يكون في وصف اللعبة من أخطاء..

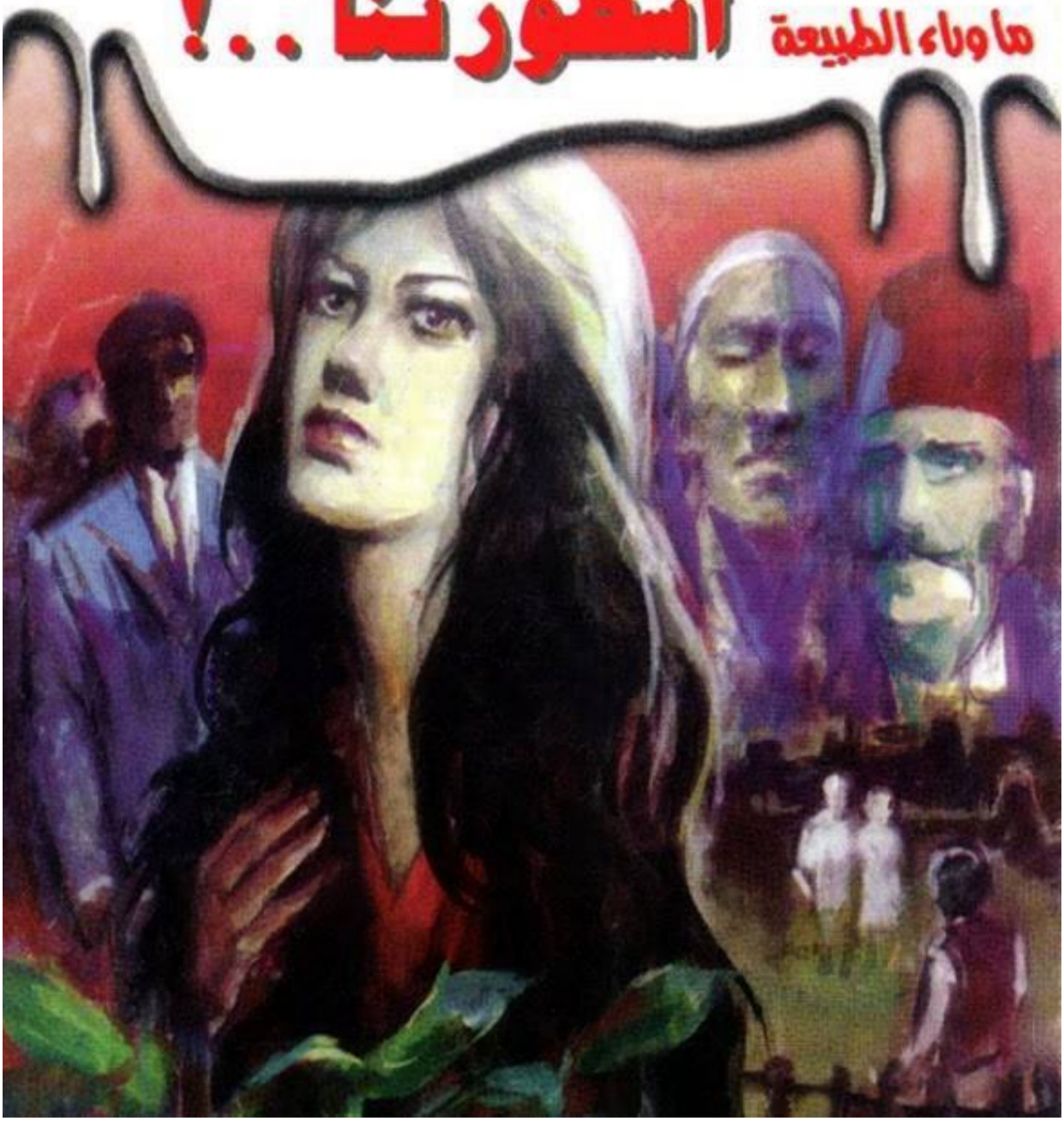
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

27

أسطورتنا..!

ماوراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

انتهيت من قراءة بعض الأوراق العلمية، وشعرت بـ (كاللو) العينين.. ذلك المرض لم يصفه أطباء العيون قط، لكني واثق من وجوده..

عيناي شبيهتان بقدمين مشتا أميالًا في حذاء ضيق.. وحين نزعت الحذاء - عويناتي - وجدتهما ملتهبتين منتفختين تنبضان ألمًا وإرهاقًا.. وقد تكون (كاللو) قبيح فوق كل منهما..

يسألني البعض: ألست متقاعدًا؟ لماذا ترهق نفسك بالدراسة إذن؟

أقول لهم - في كبرياء -: إننى تقاعدت لكنني لم أمت.. وأنا سأظل تلميذًا منبهرًا بالعلم حتى يحملونني إلى القبر..

إن الإنسان الميت هو الذي كف عن التعلم واكتساب الخبرات.. ولهذا ترون أننا محاطون بالموتى الأحياء طيلة الوقت، لكننا لا ندرك ذلك.. وأشنع المسوخ طرًا هو الميت الذي لا يبدو كذلك!

ما زلت طفلًا مفتونًا بكل هذا التقدم العلمي في الأعوام الأخيرة.. وكل هذه الطلاسم عن (الهندسة الوراثية) و(سلسلة البوليمريز) و(العلاج بالجينات) و(كاميرا جاما).. كل هذه الأسرار المقدسة التي لو سمع عنها (ماكس ليبمان) أو (لستر) لتحولا إلى قرويين ساذجين..

الآن دعوني أحك لكم قصة رهيبة جديدة..

إن السرد الكلامي يتعب اللسان، لكنه يرحم العينين..

اسمحوا لي بأن أطفئ الأضواء جميعًا، وأسترخي في مقعدي الأثير الوثير.. سأغلق عيني لأريحهما..

سأحكى لكم اليوم قصة أخرى لا دور لي فيها سوى السرد.. إنها لا تتحدّث عن أسطورة مصاص دماء.. ولا أسطورة مذءوب.. ولا أسطورة نبات قليل التهذيب.. ولا أسطورة وحش عائد من زمن سحيق ليجعل الحياة لا تطاق.. ولا....

إن هذه الأسطورة تختلف.....

إنها..... أسطورتنا.....

* * *

١ - أسرتنا..

حين انتهيت من صياغة قصة (إيجور تاركوفسكي) وجنراله النازي، شعرت براحة كبرى..

لقد كان الخطاب طويلًا حقًّا كُتب في مائة وعشرين ورقة كبيرة، وبخط صغير جدًا.. وأعتقد أن طوله عند الطباعة سيقترب من الأربعمائة صفحة.. وأنا أحسد هذا الـ (إيجور) على صبره وحماسه.. وأحسد نفسي أنا على مثابرتي في تهذيب الأسلوب بعد ترجمته طبعًا..

وهكذا استطعت أن أكوم الخطاب في (دوسيه) خاص لأغراض كهذه، ودفنته في درج مكتبي الأيسر السفلي الذي أفتحه كلما مرّت أربع وثلاثون سنة..

وبدأت التفتيش عن خطاب آخر مناسب..

تجاهلت - بالطبع - كل الخطابات عن (العفاريت في دورة المياه) و(التليفزيون المسكون) و(القط الذي يطير)..

تجاهلت كذلك كل الخطابات المتعلقة بالجان والمس.. أنا أومن بالجان، لأن القرآن الكريم ذكرهم بوضوح.. لكن الموضوع معقد ومليء بالاقاويل، ولا أريد التدخل فيه بالنفي أو التأييد حتى لا يُساء فهمي.. ويكفيني أن خبراتي مع الجان محدودة جدًا، فلست خير من يتحدث عنهم بالتأكيد...

آه ه! أخيرًا هذا الخطاب يصلح..

* * *

هذا الخطاب من مصر..

الخط على المظروف رديء نوعًا، وأنا أحب الخطوط الرديئة لأنها تشي بصدق وجداني.. وانفعالية لم تهذب بعد..

إن الخط الجميل يكشف عن إنسان يرشح أفكاره بدقة قبل أن تلامس الورق، ولربما أعجبت بسلوك وتهذيب لورد إنجليزي.. لكني - بالتأكيد - أفضل قضاء أمسيتي مع شاب مصرى عادي جدًا يتكلم حين يريد الكلام.. ويضحك حين يروق له الضحك..

المحافظة هي (.....)...

اسم المرسل هو: (هـ)..

(لست في حل من ذكر الأسماء كاملة مادمت أكتب لقارئ العربيّة)..

وعلى كل حال.. الخطاب طويل.. طويل جدًّا.. اقرب إلى كراس متوسط الحجم...

وبسهولة عرفت أن مرسلته أنثى.. أنثى متوسطة التعليم تخطئ في قواعد اللغة العربيّة كما يخطئ فيها الخواجة (جونسون) نفسه.. كما أنها تعاني مشكلة لا حل لها بالنسبة لحرفي (الذال) و(الزاي).. فتكتب (زنب) و(زالك).. وتكتب (رذين) و(ذاهي)...

أردت - فقط - أن أضعك في الصورة..

والآن.. تعال نطالع الخطاب معًا..

* * *

(عذيذي) د. (رفعت):
تحية طيبة و(بعض)..
(ملحوظة: سأبدأ التصحيح اللغوي الآن حتى لا أضايق القارئ).
طالعت بعض مغامراتك الشائقة في عالم الأشباح والأرواح، كما استمعت إلى حلقات من برنامجك الإذاعي [بعد منتصف الليل[1]]. وقد أحببت صوتك الوقور الرزين، وآراءك الهادئة في كل ما تسمعه عبر سلوك الهاتف..
الآن قررت أن آخذ رأيك في المشكلة التي أواجهها.. مشكلة لا حل لها للأسف لأنهّا حياتي ذاتها..
فلو كنت تملك حلًا؛ أرجو ان ترسله لي على العنوان المرفق.. أو كنت لا تملك فلا بأس..
كل ما أطلبه منك هو الثقة بهذه السطور، والسرية التامة.. فهذه الحقائق ليست للنشر في أية صورة مقرونة بأسماء أبطالها الحقيقيين..
لا بد أنك عرفت محافظتي من العنوان، وعرفت كذلك أنني أقيم في قرية صغيرة قريبة من المركز.. هي (.....)..
اسمها مضحك.. أليس كذلك؟ يقول البعض إنّه مستوحى من اسم فرعوني قديم.. ويقول آخرون إنّه تحوير لتسمية أطلقها الجنرال (مينو) بالفرنسية على موقع هذه القرية..
لا يهم.. المهم أنها موجودة.. وأننا نعيش فيها.. وأجرؤ على القول: إنني أحبها..

* * *

والآن دعني أعرفك أفراد أسرتي الصغيرة..
أولًا: أنا (هـ).. في السابعة والعشرين من عمري... آنسة.. حاصلة على دبلوم متوسط لكني لا أعمل..
من المعتاد هنا أن تقول كاتبة الخطاب: يقولون: «إنني حسناء».. لكنك في سن تسمح لك بالغفران للغرور البشري.. لا داعي للتواضع الزائف إذن.. أنا حسناء.. بل أنا أجمل شيء رأيته في حياتي..
لماذا لا تتزوج فتاة حسناء حتى السابعة والعشرين من عمرها، في قرية تسمى الفتاة عانسًا إذا لم تتزوج حتى سن العشرين؟!
هذا ما ستعرف سببه بعد صفحات عدة..
ثانيًا: أمي.. فلاحة عادية جدًا وبائسة.. لا يميزها شيء.. ويقال إنها ابنة خفير العزبة التي يملكها أبي، لكنّ أسئلة كهذه لا تطرح.. ولم يجسر أحدنا على سؤالها..
ثالثًا: أبي.. الثرى الريفي الذي سأم حياة المدينة وعاد إلى الجذور.. يملك عزبة مترامية في القرية، وعلى وجهه الذي زانته السنون بتجاعيد الخبرة.. ترى ملامح عز قديم لا شك فيها.. وترى

وسامة وملاحة لم تغمرها الأعوام بعد.. لقد انساب النهر القديم ليروي الفروع.. والوسامة القديمة وجدت فروعها في بناته..

يقال أيضًا: إن أبي كان متزوجًا من إحدى وصيفات الأميرة (فوزية).. وهو وضع اجتماعي كان يثير الحسد في مصر قبل الثورة.. ثم إن المرأة المتعالية شامخة الأنف فقدت صوابها مرة... قالت لأبي إنها أخطأت يوم تزوجت فلاحًا إبن فلاح..

صارحها أبي بأنه فخور بجذوره، وأنه يفضل أن يكون فلاحًا على أن يكون من سلالة لص هرب من (الأستانة) وجاء إلى مصر متظاهرًا بالأرستقراطية..

ثارت المرأة وأمسكت بكوب الماء - وكانا على مائدة الغداء - وقذفته في وجهه.. وكانت هذه آخر غلطة تقارفها في حقه..

يقال: إنّه أوسعها ركلًا وصفعًا.. ثم طلقها..

بعد هذا راح يفتش عن فلاحة طيبة تعرف حق زوجها وبيتها... أو - على حد قوله - أراد زوجة (من وراء الجاموسة)..

وكانت أمي هي الزوجة المناسبة.. ولم يكن مخطئًا تمامًا..

رابعًا: شقيقتي (س).. طالبة في كلية الآداب بالقاهرة.. في العادة تقيم في المدينة الجامعية أكثر أشهر الدراسة.. لكنّها الآن معنا في عطلة الصيف..

رأيي الخاص أن (س) أقل جمالًا مني بمراحل.. وهذا كاف لجعلها فاتنة!

خامسًا: شقيقتي (ن).. طالبة في المدرسة الإعدادية.. مراهقة جدًا.. لها كل مزايا وعيوب واهتمامات كل المراهقات الأخريات..

سادسًا: شقيقي (ي).. طفل في الثامنة من عمره.. شديد الذكاء والحيوية.. لكنه - كما هو واضح - (آخر العنقود) كما يقولون.. وبالتالي هو المدلل في الأسرة باعتباره ذكرًا.. وأصغرنا، وأنا أرجح أن تربيته خاطئة، وأنه سيشب سفاحًا أو مدمن مخدرات.. فكلهم يبدءون بذات الكيفية... لكنّ من في بيتنا يجرؤ على انتقاد أسلوب تربية (ي)؟!

أسرة تراها في كل مكان..

فما هو الغريب هنا؟

ما الشيء المفزع الذي يتسلل إلى أحلامك ليلًا، فيجعلك تصحو مذعورًا غارقًا في العرق البارد؟

سأحكى لك يا د. (رفعت)..

سأحكي لك أسطورتنا..

* * *

٢ - معارفنا..

ما كان لأبي أصدقاء كثيرون..
هذا متوقّع بالطبع.. أنت تفهم شعور أثرياء ما قبل الثورة هؤلاء الذين جاء التأميم ليأخذ منهم ما اعتبروه حقّهم الطبيعي.. وكان أبي منهم.. بعد هذا يكون نفور الأصحاب منه تدريجيًا.. ويدخل في طور التحول ما بين (اللامنتمي) إلى الثورة.. و(المتسلل) إليها.. على حد قول أديبنا العظيم (نجيب محفوظ)[2]..

ربما كان بوسعي أن أعد أصحابه على أصابع اليدين..

هناك الحاج (شعبان).. خفير العزبة.. ذلك العجوز الأشيب ذو الشارب الكث الذي يأتي دومًا في أوقات غير مناسبة - كالغداء والنوم - ليعطى أبي نقودًا، أو يعطيه أبي نقودًا.. وهما يتبادلان حديثًا هامسًا من أحاديث (الأعمال).. وعلى قدر علمي كان (شعبان) دائمًا هناك.. وسيظل..

هناك ـ كذلك ـ (عاصم بك).. وهو واحد من الأعيان السابقين، ما زال يعيش في الماضي حين كان يتنزه مع امرأته في (النمسا) كل صيف، ويقضي الشتاء في (سان مورتيز).. يرتدي دومًا حلة وردية اللون، في جيبها زهرة حمراء، وعلى رأسه طربوش أحمر فاقع اللون.. يصر على ارتدائه منذ أن أطار (أتاتورك) الطرابيش من فوق رءوس الأتراك جميعًا.. ويصر على أن عرى الرأس (قلة قيمة)..

و(عاصم بك) عجوز متصابٍ.. لا يفهم أن دورة الزمن قد أطاحت بشبابه وماله.. لهذا يرتدي تلكم الثياب المبهرجة.. ويضع - صدق أو لا تصدق - ماكياجًا كاملًا مكونًا من كريم الأساس والكحل وأحمر الشفاه.. لكن محاولته هذه تزيده قبحًا وإرعابًا.. كأنه مومياء وضعوا لها ماكياجًا لتبدو حية..

إن أبي لا يثق بهذا الرجل.. ويؤكد أنه كان وصمة على البشريّة في شبابه، فمع هذا الرجل لم تجد الثورة ما تصادره.. أضاع الأحمق كل شيء على النساء والشراب وموائد القمار التي يؤكد أنها خضراء دائمًا..

الخلاصة: من الممنوع على أية فتاة في الدار أن يظهر كعبها عندما يكون (عاصم بك) عندنا..
تصوّر أنه قد طلب يدي من أبي!
رآني مرة واحدة وأنا أناول صينية الشاي للخادمة الريفية.. وكان هذا كافيًا كي يصارح أبي بأنه يشعر بالوحدة، وأن الوقت قد حان ليجد من تونس وحدته..
في كياسة أفهمه أبى أن فارق السن يتجاوز الخمسين عامًا.. وأن حفيدته يمكن أن تنجبني بسهولة.. ثم بدأ يزداد غلظة وهو يقنع هذا المعتوه بأنه لو أصر على هذا فلن يرحب أبي به في الدار مرّة أخرى..
وهكذا أغلق شيخنا قلبه على حبّه الكسير!
الضيف الثالث من ضيوف أبي مهندس ري في الأربعين من عمره، يُدعى (محمود أبو طه)..
رجل مهذب متأنق في غير إفراط.. وإن كان له عيب خطير هو ولعه بالشعر..
والشعر الذي يحبه المهندس (محمود) ويكتبه ويقرؤه ـ كلما وجد من يسمع دون معارضة - هو شعر المناسبات السخيف.. وأنا لا أفهم السبب الذي يجعل إنسانًا ينفعل بـ (عيد الفلاح) أو (وفاة وكيل أول الوزارة) أو (عيد المحافظة)، إلى درجة كتابة قصيدة لا تقل عن ستين بيتًا.. كلها تنتهي بقافية الألف على غرار (إقبالا - آمالا - إجلالا) أو (شبابا - يبابا - مهابا)..
وكل أبياته محكمة لكنّها مسطحة خالية من أي شعور.. (كلام موزون مقفى) على حد تعريف الشعر في الكتب القديمة..
للمهندس (محمود) زوجة لطيفة هي (زينب).. امرأة متأنقة كزوجها لطيفة المعشر..
سرعان ما كانت تترك الرجال لمجلسهم، وتدخل إلى الغرفة التي نجتمع فيها نحن النسوة، أو تقف معنا في المطبخ تعاوننا في إعداد القهوة..
تلثم أمي على وجنتيها في اشتياق، وتداعبها مداعبات ذكية طريفة لا تفهمها أمي بالطبع.. فقط تبتسم كاشفة عن أسنانها المتساقطة وتهتف في مرح:
- «خطوة عزيزة يا (زينب) هانم!»
وتنطلق (زينب) هانم تقرص هذه... وتلطم هذه.. وتدغدغ هذه.. و....
- «لقد ازددت جمالًا على جمال يا بنت يا (هـ).. ترى أي شيء تطعمك أمك هذه المرأة الأريبة؟ وأنت يا (س)؟ لقد صرت نحيلة كالقلم الرصاص.. إنك تحرقين نفسك في الدراسة دون جدوى.. وفي النهاية ستتزوجين وتنسين كل هذا الهراء.. هيه! صدقيني.. ليس للمرأة سوى البيت.. لن تصيري (مي سلامة) مهما حاولت!»
فتقول لها (س) مصححة:
- «اسمها (مي زيادة) يا طانط.. (زيادة) لا (سلامة)..»
تقول مدام (زينب) وهي تلوح بيدها في استهتار:
- «قطيعة! (زيادة).. (سلامة).. لا فارق.. المهم هو ما نحصل عليه من سعادة في حياتنا.. إن الأمر.. اللعنة! إن زوجي يقرأ قصيدة جديدة بمناسبة عيد الحصاد.. سنعود إلى ديارنا مع الفجر.. تبًا!.. وأنت يا بنت يا (ن).. تزدادين جمالًا.. ترى هل بلغت مبلغ النساء بعد؟ هل أخبرتك الحاجة أم (هـ) بما سوف يطرأ عليك من.....؟»



إن أبى لا يثق بهذا الرجل . . ويؤكد أنه كان وصمة على البشرية فى شبابه . .

فتقاطعها أمي في حزم باسم:
- «حنانيك يا (زينب) هانم.. لا أريد أن أفتح عينيها على أمور كهذه.. إنها مجرد طفلة..»
وهنا نسمع صوت الزوج يناديها من قاعة الضيوف، فتسوي ثيابها في عجلة، وتلثمنا من جديد، وتعود إلى الثرثرة:
- «يا (زينب)!»
- «إن بعلي يناديني.. يا للأسف! كانت قصيدة قصيرة.. والآن أنا مضطرة إلى العودة.. سلام يا بنات... و....»
- «يا (زينب)!»
- «ألن تزورينا أبدًا يا أم (هـ)؟ وعدتني بهذه الزيارة منذ أعوام ولم تفي بها..»
ثم تنظر نحونا وهي تشير لأمي:
- «أمكن امرأة كسول!»
فأقول أنا مدافعة عنها:
- «إنها تضل الطريق لو أبعدتها ثلاث خطوات عن الدار.. فهي لا ترى الشارع أبدًا...»
- «يا (زينب)!»
- «اللعنة!» - تقول وهي تلثمنا للمرة الثالثة -: «على أن أنصرف الآن وإلا كان الطلاق حتميًا!»
ويغادر هذا الإعصار الصاخب الظريف مطبخنا، ونسمع عبارات اللوم من الزوج، وعبارات الاعتذار الحارة من الزوجة..
عندئذ تتنهد أمي.. وتغمغم:
- «بنت حلال حقًّا!»
وتدمع عيناها.. ولا تسألني عن السبب طبعًا.. إن كل أم في الريف دامعة العينين حين تبكي وحين تضحك.. يقتلها الحزن عن من ماتوا من أحبائها، ويقتلها القلق على من عاشوا من أبنائها.. إن الحزن هو شعيرة أساسية من شعائر الشخصية المصرية خاصة الأمهات.. وهن يشعرن بذنب كبير حين يسمحن للمرح بأن يتسلل إلى نفوسهن.. تعرف هذا من العبارة الخالدة اللواتي يختمن بها ضحكهن من القلب:
- «اللّهم اجعله خير!»
كأن الضحك ذنب يستحق عقابًا فادحًا..

* * *

يأتي بعد هذا د. (نجيب) من أصدقاء أبي.....
وهو رجل وقور جدًا.. صموت كقبر.. لكنه يصغى دون ملل إلى شكوى أبي التي لا تنتهي عن مشاكله مع النقرس أو التبول..
في مرة جرحت رأسي جرحًا بليغًا وأنا طفلة، وجاء د. (نجيب) حاملًا خيطًا أسود وإبرة.. و.... كان الألم لا يوصف.. لكني تحملت حتى لا أبدو تافهة في عين هذا الرجل الفخم..

كان يدخن الغليون باستمرار.. وكان أبي و(عاصم بك) يدخنان (النارجيلة).. وكان المهندس (محمود) يدخن لفافات التبغ.. لهذا كان لدارنا عبق معين لن أنساه ما حييت، ولا يفارق الغرف وقطع الأثاث إلا في عيدي الفطر والأضحى حين يتم تنظيف البيت كله.. وفتح النوافذ التي قلما تفتح..

عندئذ كنت ترى أمي و(أم شفيق) - الخادمة الريفية قوية العضلات كرجل - عاكفتين على الكنس وغسيل الأرضيات، بينما فتيات الدار يقمن بفك الستائر وغسل أغطية الأرائك..

لم يكن لدينا في الدار من خدم سوى (أم شفيق) و(هناء).. والأخيرة شابة نحيلة شاحبة كالحرباء، بلهاء قليلًا تعيش في عالم لا يصدّق من الأكاذيب التي تلفقها ببراعة غير عادية..

* * *

تسألني عن اقاربنا..

أقول: إنهم ليسوا كثيرين..

وهؤلاء - غير الكثيرين - يزوروننا لمامًا وغبًّا[3]..

هناك خالي (طه) وخالي (عزت).. وهناك عم لي يأتي كلما مرّت عشرة أعوام، وكل هؤلاء الأقارب يأتون لفترات لا تتجاوز نصف الساعة، وكلهم رسمي جدًا.. لا يمزح.. ولا يسأل عن أحوالنا، أشك في أن أحد هؤلاء يعرف أسماءنا بدقة.. كما أنني لا أذكر لقاء حدث بين أبي وخال لي.. أو أمي وعمي.. ولم أر أبناءهم قط....

* * *

أما عن صداقاتنا فإن لك أن تخمن أنها معدومة..

سنون طويلة قد مضت منذ كانت لي صديقة ما..

أمر عجيب.. لكنه - بالتأكيد - ليس مفزعًا..

فما هو السر الذي يجعل روايتي هذه جديرة بإثارة هلعك؟

أنا لم أفرغ بعد يا د. (رفعت)..

مازلت أحكي لك أسطورتنا..

* * *

٣ - معتقداتنا..

يقع منزلنا عند أطراف القرية..
ويشابه في تركيبه وأثاثه ونمط بنائه الشكل الذي اصطلح الناس على تسميته (دوارًا)..
المساحات الواسعة، وألواح الخشب التي تحمل السقف، والأثاث المتين المريح الذي يفتقر للأناقة، وقد تمزقت أجزاء من كسوة المقاعد وتم تغطيتها بسجادة الصلاة..
كل هذا يحمل طابعًا حميمًا محببًا دون شك..
وحين تغادر الدار تمر عبر فسحة تنتشر فيها أشجار الليمون والبرتقال، وثمّة كرمة عنب صغيرة.. ثم تعبر بوابة خشبية قديمة إلى أرض فضاء.. خلف هذه الأرض تقع مقابر القرية..

* * *

لماذا يخاف الناس المقابر؟
لم أستطع أن أفهم هذا قط..
لم أعرف في حياتي مكانًا أكثر أمنًا وسلامًا من مقابر قريتي.. أعرفها شبرًا شبرًا وأحفظ كل كتابة ساذجة بالطبشور على شواهدها.. وأعرف عدد المزروعات أمام كل قبر...
لقد أمضيت صباي الأول هاهنا، ألهو مع (س) و(ن)، ونلعب المساكة في هذا الفضاء العريض..
وها هنا رحت أراجع دروسي قبل امتحان السنة الإعدادية، وقد تناثرت الكتب حولي، ورحت أكرر بلا كلل تاريخ الدولة العثمانية وكيف كان (محمد علي) يلعب بالبيضة والحجر.. كل هذا وأنا أخشى أن يهبط الظلام على فلا أتمكن من مراجعة الكتاب كله.. رائحة زهور البرتقال قادمة من مكان ما، ور انحة الهواء الجاف، وأعراض الربيع التي تتحرك في روحي المراهقة فتلسعها بألف سوط..
عندئذ كنت أبكى دون سبب..
ولماذا ـ إذن - يخاف الناس المقابر؟

* * *

لكننا لم نذهب إلى المقابر قبل الظهيرة قط..
كنا لا نخاف الموتى.. لكننا نمقت البشر الأحياء كثيرًا.. وكلهم كانوا هناك في فترة الصباح قبل أن تعتلي الشمس متن الأفق..
كنت أعرف بعض الوجوه والأسماء..

فهذه (هند) وهذه (عفاف) وهذه (عواطف) وهؤلاء أمهاتهن.. بعضهن نصف فلاحات مثلنا.. وبعضهن فلاحات تمامًا مثل (أم شفيق)..

لكنهن كن يتحاشيننا بذات الأسلوب الذي نتحاشاهن به.. إن هي إلا هزة رأس عابرة منهن لنا.. وعبارة على غرار:

- «كيف حالك يا (هـ)؟ سلامنا للحاجة..»

لم نكن متعاليات.. لكنّ أبي علمنا أن الآخرين شر دائمًا.. وأنه كلما قل عدد معارفك كلما ازددته حرية وسلامًا ..

ربما كان لهذا جذور من صدمته بعد زيجته الأولى.. وبعد التأميم.. والنتيجة هي أننا نشأنا منغلقات كالقواقع.. تعلّمت في ثلاث مدارس، لكني لم أحظ بصديقة واحدة يمكن أن أدعوها صديقة.. كان هناك ذلك الانبهار الأولي بسحري وجمالي.. وتصمم إحداهن على تعرفي.. فلا تظفر مني سوى بالصمت والفتور...

الأسرة.. الأسرة.. هي الشيء الوحيد الجدير بالثقة والذي يستحق أن نعمل جميعًا من أجله..

هكذا ربينا.. وكذا نشأنا.. وهذا هو ما صرناه...

* * *

كانت أمي تؤمن بالسحر كثيرًا..

فهي من النسوة القرويات اللواتي لم ينلن أي تعليم.. وكل ثقافتهن تنحصر فيما سمعنه من جداتهن عن (خاتم سليمان) و(العمل) و(الأثر) و(العفاريت مشقوقي الأعين) و(طاقية الإخفاء).. وما إلى ذلك..

كانت ترى العفاريت في كل مكان.. وتؤمن أنهم معنا في كل ركن من الدار.. وأحيانًا كانت توجه التحية لهم..

فإذا جاء يوم الجمعة تصاعدت رائحة البخور.. ودوى صوت طقطقة الملح..

فإذا مرضت واحدة منا.. أشعلت أمي البخور وراحت ترقيها بعبارات غريبة جدًا معقدة على غرار:

- «يا فسخ يا فسخاني.. امنع عمل اليهودي والنوراني.. واللي له غرض تاني..!»

ثم تحرق عروسًا بدائية تصنعها من الورق، وتغرس في كل موضع من جسدها دبوسًا وهي تكرر عبارات الرقية المسجوعة..

حين ينتهي الاحتراق كنت تجد كتلة من الرماد الأسود لها شكل ما.. أي شكل عشوائي..

عندئذ تهتف أمي في انتصار إن الرماد اتخذ شكل (أم هند) أو (أم خديجة) أو أي أم أخرى من الجيران.. وتؤكد لنا وجهة نظرها:

- «هل ترون؟ ها هي ذي العينان.. والأنف المحدب.. والشعر المجعد.. إنها هي..»

الواقع أن إيمانها هذا كان يتكفل بجعلنا نرى ما تعنيه.. وتدريجيًا نجد أن الرماد هو بعينه (أم هند) أو (أم خديجة).. وهذا دليل لا يدحض على كونها هي من حسدت مريضتنا أو مريضنا..

أما أن يتثاءب الشخص في أثناء رقيه فهذا دليل آخر على كونه محسودًا..

* * *

في يوم من الأيام جاء صياد حاملًا سلة بها بعض الأسماك التي اصطادها من الترعة المجاورة..

كانت هناك بعض أسماك (القراميط) حية تتحرك وتتلوى.. وكانت أمي تتفحص السلة حين هتفت في هلع:

- «يا للكفرة.. أبناء الكفرة!»

والتقطت بكفها سمكة تتلوى.. ورفعتها في الضوء لترينا إياها..

كانت هناك كتابة على جلد السمكة بحبر لا يمكن إزالته.. ولما وجدتنا لم نفهم بعد، هتفت في جزع:

- «هذا عمل! من أنجس أنواع الأعمال وأبشعها.. الكتابة على جلد (القرموط).. لا يمكن العثور عليه أو فكه.. إن البائس الذي كتب هذا العمل من أجله لا يجد ساعة راحة واحدة..»

وبيد خبيرة وقسوة لم نعهدها فيها.. تناولت سكينًا عملاقًا وراحت تقطع السمكة إلى شرائح..

ثم ناولتها للبائع في تنهيدة خلاص:

- «سأنقدك ثمنها.. لكنّ عليك أن تلقى بها إلى الترعة من جديد..»

هزّ الرجل كتفه في لا مبالاة.. وحمل سلته وانصرف..

هذا هو المناخ الذي عودتنا أمي عليه، وقد يبدو كل هذا نوعًا من السخف والهراء؛ لكنه كان حميمًا وجزءًا لا ينفصل عن كيانها الطيب القدري.. لهذا أحببنا كل هذا لأنّه منها..

* * *

كان لا بد أن يطفو السؤال على سطح وجدان أمي..
لماذا لم أتزوج بعد برغم بلوغي السابعة والعشرين من العمر؟
بل ـ الأدهى ـ لماذا لم يتقدم لي أحد قط؟!
كانت تعرف الجواب.. كلنا كان يعرف الجواب..
لكنها ـ كالعادة ـ راحت تفتش في دياجير الطلاسم والأحجبة والأعمال المدفونة على عتبات البيوت..
بضع كلمات تبادلتها مع (أم شفيق).. ثم قامت المرأة بما طلب منها.. وجاءنا الشيخ (بسيوني) الذي يقطن على مرمى حجر من دارنا... وهو رجل أشيب معمم خبيث الرائحة والنظرات.. وأنا لا أمقت في العالم شيئًا مثل هؤلاء النصابين الذين يتظاهرون بالتدين؛ بينما هم يمارسون السحر الذي قرنه الإسلام بالكفر..
جاء الرجل وأشعل الكثير من البخور، وقرأ بعض قراءات زعم أنها باللغة السريانية..، ثم أعلن أنّ هناك (عملًا) مدفونًا في المقابر، وأن إحدى الجارات الحاقدات عليّ قد صنعته لي وأنّ هناك شروطا لاستخراجه..
صحت في أمي بعصبية:
ـ «ماما.. لن تصدقي هذا السخف!»
ـ «ش ش ش ش ش!»
إصبع سبابة على شفتيها ينذرني من التمادي في هرطقتي، وراحت تصيخ السمع لما يقوله هذا المشعوذ..
وحين عاد أبي إلى الدار، صارحته بما حدث اليوم..
كنت أعرف أنّ هذا سيثير إعصار حنقه على أمي.. لكني لم أرد أن يدور هذا الهراء في داره دون علمه.. وعلى الفور نادى أمي، وقد ارتسمت الشراسة على ملامحه.. ثم هتف محنقًا:
ـ «إذن أنت تسمحين لهؤلاء النصابين بدخول الدار في غيابي.. وتجعلينهم يعرفون من أسرارنا الخاصّة ما لا يرى نور الشمس.. ثم تثرثرين في كل صوب أن ابنتك صارت عانسًا.. إن هذا الرجل كافر يا امرأة.. كافر لأن (من نفث في عقدة فقد كفر)..»
بالطبع لم تفهم أمي معنى (النفث في العقد) برغم أنها تستعيذ بالله من (شر النفاثات في العقد) عدة مرات يوميًا..
كان الدرس قاسيًا مريرًا لكنه ضروري..
ومن يومها لم تعد أمي لهذا الحديث.. لكنى أعرف أنني أسبب لها مشكلة دائمة.. إن العانس القبيحة محتملة.. أمّا العانس الحسناء فأمر لا يمكن السكوت عليه..
المشكلة التالية كانت أختى (س) التي ستتخرج قريبًا.. ولن يطرق بابها عريس.. لماذا؟ كلنا يعرف السبب لكننا لا نعترف به لأنفسنا..
وأمي لا تعترف بكل الهراء المثقف عن استقلال المرأة ودورها البناء في المجتمع.. و... و... إن كل الغرض من وجود المرأة في الحياة عندها هو أن يتزوجها أحدهم.. وأن تلد وترضع وتربي نساء أخريات يتزوجهن آخرون.



والتقطت بكفها سمكة تتلوى . . ورفعتها فى الضوء
لترينا إياها . .

* * *

الحق يا د. (رفعت) أن لي جانبي العاطفي..
لم لا؟ ألست أنثى من لحم ودم؟
سأتجاوز عن خيالات المراهقة المبهمة التي تمزج حب الطبيعة.. بحب الحيوانات الصغيرة.. بحب الأغاني.. وتصنع من كل هذا كيانًا غامضًا بلا اسم أهيم به حبًّا..
كانت عاطفتي تجد متنفسًا لها في معاونة عنزة تلد.. أو وضع بضع هريرات وليدة في صندوق من الورق المقوى، والخروج بها إلى الشمس.. أو وضع زهرة في شعري..
والحقيقة أن صورة الرجل في ذهني كانت دومًا صورة أبي.. الأمر الذي كان عسيرًا أن أجده في أي فتى من سني..
ثم بدأت أنمو.. وافهم أنّ هناك رجالًا آخرين غير أبي.. ومن المفهوم أن من حقي أن أحصل على أي واحد منهم عريسًا في اللحظة التي أقرر فيها ذلك..
وكان في قريتنا عدد لا بأس به من الشبان المتعلمين وعلى قدر ما من الثراء.. ومنهم من هو جميل الصورة...
لكن واحدًا منهم لم يتقدم لي.. ولا تسأل عن السبب..
وعندما ظهر (ع) في حياتي؛ كنت قد بدأت أعد نفسى لرحلة الوحدة الأبدية دون رفيق درب ودون أطفال..
كان (ع) وجهًا جديدًا في قريتنا.. مدرسًا شابًا جاء من المركز لمدرسة القرية الابتدائية.. وكان يسافر يوميًا - إذ كانت رحلة الدقائق العشر إلى المركز تدخل في نطاق السفر - رافضًا عدة عروض للإقامة في القرية..
لم يكن متزوجًا، وكان لطيفًا مهذبًا، حرك حلم الزواج لدى كل بنات القرية الحاصلات على شهادة أقل من شهادته.. أو غير المتعلمات اللواتي تمنين لو كان يرغب في زوجة أمية..
دومًا كانت عدسة المجهر مسلطة عليه، وبدأت الفتيات يترددن أكثر من اللازم على المدرسة لاصطحاب أخوتهن.. وراحت الأمهات يزرن المدرسة ـ بحجة الاطمئنان على الأنجال - ليتفقدنه بنظرة ناقدة مدققة.. هل يصلح لابنتي فلانة؟
كان خجولًا.. وحين يحمر وجهه في هذه المواقف كانت كل أم تقرر أنه يصلح بالتأكيد لابنتها...
إن المدرستين الإعدادية والابتدائية متلاصقتان في قريتي.. وقد اعتدت أن أقصد الثانية في ميعاد الانصراف لأصطحب أخي (ي).. ثم أنتظر (ن) عند خروجها من الأولى.. ونعود معًا إلى الدار...
وكان ضروريًا أن يراني (ع).. وبالتالي يهيم بي حبًّا ولا ألومه كثيرًا على ذلك..
وحين قابلت اخى (ي) في ذلك اليوم عند مغادرته المدرسة؛ كان - كعادته ـ يرتدي المريولة القذرة التي مسح بها الأرض مسحًا.. وشعره ثائر مبعثر.. والجروح تملأ وجهه وساقيه.. وقد تمزقت يد حقيبته فتدلت الأخيرة على الأرض..

عندما ترى (ي) عندما يدخل المدرسة صباحًا ترى أحد أبناء الذوات المتأنقين.. لكنه لا يختلف عن أترابه ذوي (المخالي) عند مغادرته للمدرسة.. وهذا يسره لأنّه يلغي اختلافه عنهم.. ولأنه - كديدن من في مثل سنه - يعتبر الأناقة والنظافة علامتين على الأنوثة والتدليل.

قال لي (ي) ضاحكًا:

- «الأستاذ (ع) يسأل عنك!»

احمر وجهي - لأني شعرت بالدم يصفر في أذني - وتساءلت:

- «لماذا؟»

- «لا أدري...»

- «وماذا قلت له؟»

- «أجبت عن أسئلته طبعًا..»

لدغته.. واعتصرت أذنه بين إبهامي وسبابتي.. معلنة أنه ليس رجلًا، وأن المفترض ألا يفشي أسرار شقيقاته، ما دام هذا المعلم لا يمت لنا بصلة قربى...

لكني - بيني وبينك يا د. (رفعت) - لم أكن غاضبة إلى الحد الذي تظاهرت به...

* * *

سأوفر عليك الملل إذن، ولا أطيل في وصف محاولات المدرس الشاب لكسر حاجز الخجل والتحفظ كي يتقرب إليّ..

إن الأطفال والحيوانات هم أفضل ذرائع لكسر هذا الحاجز.. وكلتا الطبيعتين متوافرتان في (ي) الذي هو طفل وقرد صغير في نفس الوقت! وكان لا بد من تدرج الحوار بيننا حول (ي).. تحصيله الدراسي.. شيطنته.. إلخ.. إلخ...

وبعد ستة لقاءات كنا قد غدونا متعارفين..

لا أعني باللقاء ما تعنيه اللفظة.. إن هي إلا عشر دقائق وقت انصراف التلاميذ، وسط قطعانهم الثائرة، جوار بوابة المدرسة، ويتم الحوار هامسًا وسريعًا.. وكلانا ينظر إلى جهة أخرى كأنما يوشك على الرحيل..

هل ملت إليه؟

لا أدري حقًّا... إن اضطراب العواطف في بيئة منغلقة يدعوك إلى خداع نفسك سريعًا.. يكفيك وجود شخص مناسب تُركّب عليه هذا الحشد من العواطف الجاهزة المتراكمة في صدرك..

سرعان ما تظهر أغنيات (أم كلثوم).. وقصائد (ناجي).. والوردة الحمراء إياها.. كأنما كانت هذه الأشياء تنتظر ظهور الشخص المناسب في المكان المناسب، فلا تمهلك لحظة حتى تسأل نفسك: أتراني أحبه حقًّا؟

أنت ناضج يا د. (رفعت) ويمكنك فهمي دون عناء..

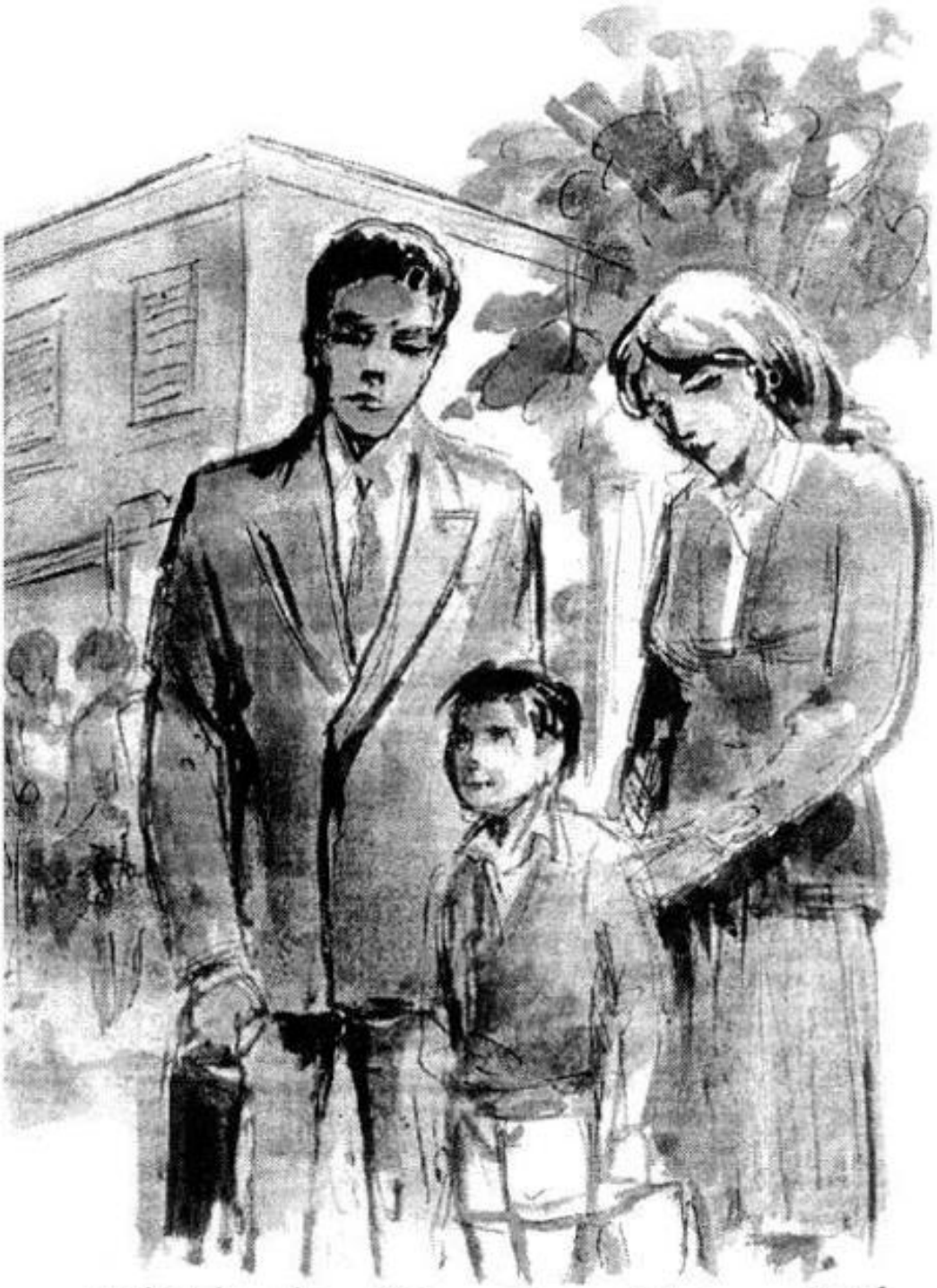
قال لي (ع) ذات مرة في لقاءاتنا المسروقة:

- «إن (ي) ولد ذكي.. لكنّ الأطفال يضايقونه..»

- «يضايقونه؟»

- «يسخرون منه.. كأن هناك سرًا ما يتعلق بأسرتكم.. وهم يهددون بإفشائه!»
قلت في ضيق:
- «لو كان هناك سر فأرجو أن يعلنوه..»
- «لم أقصد مضايقتك.. لكنّ هذا هو الانطباع الذي خلفوه لدي..»
وساد الصمت الثقيل هنيهة.. بعدها كرر أسفه..
كانت هذه هي مشكلتنا..
إننا نختلف عن الآخرين في أشياء كثيرة..
ومن هنا جاءت أسطورتنا.....

* * *



يكفيك وجود شخص مناسب تركب عليه هذا الحشد من
العواطف الجاهزة المتراكمة فى صدرك . .

٤ - صداقاتنا..

سوف أقص عليك الآن قصة طريفة عن شقيقتي (س)..
أنت تعرف أنها تقيم في القاهرة.. في مسكن للطالبات طيلة فترة الدراسة، حتى إذا جاءت العطلة عادت إلينا..
إن (س) أقل جمالًا مني وأقل ذكاء.. هذه حقيقة.. ربما هي طالبة في الجامعة.. لكنّ الشهادات لا تدلّ على الذكاء أكثر مما تدلّ المسبحة على الإيمان..
لكن (س) أكثر اندماجًا في المجتمع، وأكثر تقبلا لفكرة وجود الآخرين..

* * *

غرفتها مزدوجة في المسكن..
تقيم معها طالبة في كلية العلوم تدعي (نرمين)، وهي فتاة هادئة رزينة صموت..
وفي المساء كانت الفتاتان تجلسان. كل واحدة على فراشها ـ تدرسان وقد انتشرت كتبهما على الفراش، ولا بأس من تبادل بعض الأحاديث.. أو قيام واحدة منهما بمساعدة الأخرى على تصفيف شعرها..
في الحادية عشرة مساء يدق الباب..
وتدخل إلى الغرفة (هيام)...
(هيام) طالبة علوم في عامها النهائي.. جميلة إلى حد لا يصدّق - على حد قول (س) - تتمتع بروح دعابة هائلة..
وسرعان ما تخلع خفيها، وتثب إلى الفراش جوار (س).. ربما تدخل معها تحت الغطاء.. وتصرخ في مرح:
- «البرد قاتل.. إن حجرتكما أدفأ حجرة في هذا المنزل..»
وتنهض (نرمين) ضاحكة لتعد ثلاثة أكواب من الشاي الساخن.. ووجبة مرتجلة من الفول والبيض وأي شيء يتصادف وجوده في الحجرة، فلو وجدت حذاءً قديمًا لأضافته إلى الخليط..
لحظات من المرح لا يمكن أن يمرّ الليل بدونها.. ومن أجلها تنتظر (س) و(نرمين) نهاية اليوم في شوق
إن (هيام) تعاني من أن زميلتها في الحجرة ثقيلة الظل تفتقر لروح الدعابة.. وهي ـ تقول (هيام) - طالبة طب تثير هلعها بكل العظام التي تكدسها في الحجرة.. عظام بشريّة طبعًا..
- «إن طالبات الطب هؤلاء» ـ تقول (هيام) - «يفقدن أنوثتهن وشبابهن سريعًا.. يصعب عليّ أن أصدق أن شريكة حجرتي هي فتاة في ميعة الصبا.. بل هي أقرب إلى شيخ طيب القلب لا يكف عن تفحصي في حكمة من فوق إطار عويناته..»
وتتربع على الفراش لتحسو جرعة أخرى من الشاي وتقول:

- «ألن تأتيا إلى حجرتي أبدًا؟»
فتقول (نرمين) في استبشاع:
- «بعد كل هذا الوصف؟ مستحيل..»
ثم إن حجرتها في الطابق الثالث.. ومنذ أن أنشئ هذا المسكن والعلاقات على غير ما يرام بين طلبة الطابق الثاني وطلبة الطابق الثالث.. فهذا الأخير تعمره طالبات الطب المتحذلقات المغرورات قليلًا.. واللواتي يتضايقن لو لم تناديهن الأخريات بلقب (دكتورة)..
الخلاصة أنّ هذا الثالوث وجد في الصداقة ما ينسيه مرارة الغربة..

* * *

حادث تافه وقع في كلية العلوم التي تدرس فيها (هيام).. حادث لا أهميّة له لكنه صخرة تقع في بركة الملل اليومي محدثة دوائر ودوائر..
لقد طلق أحد الأساتذة هناك زوجته، ليتزوج من طالبة عنده تصغره بثلاثين عامًا..
وكان هذا الحادث شهيرًا في تلك الآونة، وتسرب خبره إلى كل الكليات تقريبًا.. وعرفته (نرمين) التي تدرس في كلية علوم أخرى.. وكان لا بد من الثرثرة والقيل والقال..
وحين جاءت (هيام) في تلك الليلة، سألتها (نرمين) وهي تعد الفول إياه:
- «كيف حال الفضائح عندكم؟»
هزت (هيام) كتفها في لا مبالاة:
- «كالمعتاد..»
- «أعني ماذا يقولون عن (م)؟»
و(م) هذه طبعًا هي الطالبة التي تزوجها أستاذها..
لكن (هيام) هزت كتفها من جديد في غير فهم.. وغمغمت:
- «(م) من؟»
- «(م) التي تزوجت من د. (ر)؟»
- «لا أعرف.. أعنى لم يصلني هذا الخبر.. هل تزوجته حقًّا؟!»
وضعت (نرمين) الملعقة في الكسرولة، ودفنت قبضتيها في خصرها واستدارت لتواجه (هيام):
- «إذن أنت الوحيدة في العالم التي لم تعرف هذا.. هل كنت نائمة في الكهف مع كلبك؟»
- «إن جهل المرء بالفضائح يزيده شرفًا.. وأنا لا أعبأ بهذا الهراء..»
تدخلت أختي (س) لتنهي المحادثة.. لكنّ (نرمين) ظلت غير مصدقة أن (هيام) تجهز كل شيء عن الموضوع.. والأستاذ (ر) أستاذ كيمياء.. أي أنه في نفس القسم الذي تدرس فيه (هيام).. وقد دفعتها هذه الدهشة إلى بعض الإجراءات الغريبة..
كانت تملك خبرة كيميائية لا بأس بها - برغم كونها في قسم الجيولوجيا - لذا أمسكت كتابها، وراحت تسال (هيام) عن بعض المعضلات الكيميائية - التي لم تستوعبها في دراستها.. لكنّ (هيام) أعلنت في إصرار أنها جاءت هاهنا لتمرح وتضحك.. ولم تأت لتدرس...

* * *

منتصف الليل بعد ما رحلت (هيام):

في الظلام تجلس الفتاتان مضجعتين كل على فراشها.. وصوت دقات المنبه الرتيبة.. تك تك تك تك!

بعد دقائق همست (نرمين) بصوت ناعس، دعاها إليه شعورها بأن الظلام يجسم الأصوات أكثر من اللازم:

- «(س).. هل نمت؟»

بصوت مماثل همست (س) وقد أغمضت عينيها:

- «لا.. ليس بعد..»

- «أنا أشك في أمر (هيام) هذه!»

مرّت هنيهة.. ثم فتحت (س) عينيها وتساءلت:

- «ماذا تعنين؟»

- «إنها تزعم أنها طالبة علوم.. ومن المستحيل ألا تسمع طالبة علوم يا...»

قاطعتها في سأم متثائبة:

- «هاآآه.... فلنقل إنها لا تحب الشائعات..»

- «ومعلوماتها في الكيمياء.. لا تزيد على معلومات طفل..»

- «وماذا في ذلك؟ إن شخصيّة مرحة كهذه قلما تدرس.. ثم ما الذي تعرفينه أنت عن (الجيولوجيا)؟»

- «لا زلت غير مستريحة..»

- «أرى أن النوم علاج نااااجع للعقول المريضة..»

ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق في الظلام...

وقبل أن تنام بدورها كانت قد أزمعت أمرًا..

* * *

كان أول ما فعلته (نرمين) في الصباح قبل مغادرة المسكن، هو أن تمر على مكتب المدير لتسأل عن (هيام أبو الفتوح)..، وكان الحماس شديدًا في الصباح.. لكنّ المدير أخبرها أنّ هناك (هيام) في الطابق الثالث تعيش في غرفة واحدة مع طالبة طب ذات عوينات..

لا بأس.. أراحها هذا قليلًا..

ذهبت إلى كليتها، وحضرت دروس الصباح كلها.. لكن قوانين المصادفة كانت تخبئ لها مفاجأة صغيرة: (عفاف)..

(عفاف) صديقتها وابنة مدينتها التي تقيم هي الأخرى في القاهرة.. والتي تدرس العلوم في كلية أخرى غير كليتها..

كانت (عفاف) في المكتبة تبحث عن مواد بحث طلبه منها أساتذتها، ولم تجد ما تريد في مكتبة كليتها..

وكان عناق.. فقبلات.. فأسئلة لا حصر لها..

- «في أي سنة أنت يا (عفاف)؟ إن الأمر قد اختلط عليّ.. فأنت من هواة الرسوب..»

هزت (عفاف) رأسها.. ولثمت ظهر كفها:

- «حمدا لله.. إنها السنة الأخيرة.. لقد قتلتني دراسة الكيمياء هذه.. قلت لأبي مرارًا إنني لا أصلح سوى للزواج و....»

هنا وجدت (نرمين) الفرصة السانحة:

- «هل تعرفين (هيام أبو الفتوح)؟»

قطبت (عفاف) جبينها محاولة التذكر:

- «(هيام)؟ هل هي زميلتنا؟»

- «بالطبع.. علوم قسم كيمياء.. في السنة النهائية..»

- «لا أعتقد.. ولكن..» - ثم بللت بلسانها شفتها السفلى - «لا.. لا توجد عندنا (هيام).. بالتأكيد.. إن دفعتنا صغيرة ومن الصعب أن...»

ثم أشرق وجهها، وواصلت الثرثرة:

- «ترى هل خطبت؟ ماذا عن المهندس الذي.....»

لكنّ ذهن (نرمين) تحول إلى خلية نحل فلم تسمع شيئًا..

* * *

إذن الفتاة مزيفة.. (هيام) ليست كما تزعم..

من هي؟ وكيف تسللت إلى مسكن الطالبات؟ وكيف ظلت تخدعها وتخدع (س) خمسة أشهر كاملة؟

ما هي الاستفادة التي تحصل عليها؟ لا بد من استفادة ما.. ربما كانت (هيام) رجلًا متنكرًا و! اقشعر بدنها للفكرة ثم طردتها سريعًا.. إن (هيام) ودون شك فتاة.. فتاة تخدعهما لغرض في نفسها..



ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق فى الظلام . .

ولكن ما هو؟

* * *

حين عادت إلى المسكن قبيل المغرب، صعدت إلى الطابق الثالث وسألت ساكنة الغرفة الأولى عن غرفة (هيام)..

أشارت لها إلى الباب الخامس.. فقرعته..

سمعت من الداخل من يدعوها لفتح الباب..

كانت هناك فتاتان وكثير جدًا من العظام البشريّة.. أما الأولى فكانت جالسة على مكتب معدني صغير تدرس في كتاب هائل الحجم.. كانت ترتدي العوينات وتبدو كعجوز طيب القلب..

إذن أنت طالبة الطب.. قالتها لنفسها وتأملت الفتاة الأخرى التي كانت تلف شعرها حول أسطوانات (الرولو) أمام المرأة..

سألتها الثانية في ارتياب:

- «هل تريدين شيئًا؟»

- «أبحث عن (هيام)..»

- «أنا (هيام).. وأنت؟»

قالت في ارتباك وهي تغلق الباب ببطء خارجة منه:

- «أبحث عن (هيام أبو الفتوح)..»

- «لا! توجد (هيام عبد المحسن) لو كانت تصلح!»

وهنا كان الباب قد انغلق.. وعادت (نرمين) تهبط في الدرج إلى غرفتها بالطابق الثاني..

إذن الفتاة (هيام) تعرف أمر هذه الغرفة.. ولهذا زعمت أنها تقطن فيها.. هذا يفسر ما قاله المدير عن وجود (هيام) في الطابق الثالث..

هنا تدخلت الصدفة من جديد في صورة العاملة العجوز البدينة، تلك المرأة التي يجثم الشحم على قلبها فلا تفعل شيئًا تقريبًا، لكنهم يبقونها في المسكن على سبيل التبرك.. اسمها (فاطمة) والطالبات ينادينها بـ (دادة فاطمة).. ويبدو أنها هاهنا منذ الأزل..

كانت المرأة عاكفة على صعود الدرج، تجر أمامها وخلفها قناطير مقنطرة من الدهن حتى كادت تلقى حتفها بسكتة قلبيّة.. فلمّا رأت (نرمين) هشت وبشت لها.. وراحت تلهث تعبيرًا عن المودة..

سألتها (نرمين) بعد تبادل التحيات:

- «هل تعرفين من تدعى (هيام أبو الفتوح) يا دادة؟»

واصلت المرأة اللهاث واستندت إلى (الترابزين).. وقالت:

- «لا يا بنيتي.. لا أحد هنا بهذا الاسم..»

ثم ـ بعد تفكير ـ أردفت:

ـ «كانت هناك واحدة بهذا الاسم منذ أعوام.. كانت جميلة كالقمر خفيفة الظل كالشربات.. طالبة علوم على ما أذكر.. إن السن يتقدم بي ولم أعد أتذكر ما أكلت على الغداء.. ثم داء السكري

هذا.....»
- «وأين هي الآن؟»
- «بالتأكيد هناك.. حيث لا يعود أحد..!»
- «ماذا تعنين؟»
مصمصت العجوز بشفتيها.. وغمغمت:
- «رحمها الله! لقد حملت جسدها الشاب بهاتين اليدين.. ولكن.. حين تكونين في عمرى يغدو الموت رفيقا يوميًا لا يثير رعبك.. لماذا شحبت هكذا يا بنيتي؟ اغفري لي هذا الحديث المقبض... ولكن.. لماذا تسألين عنها الآن بالذات؟!»

* * *

الآن عرفت يا (س) كل تفاصيل القصة..
كانت (نرمين) ترتجف كورقة.. وبدت قصتها مهشمة غير مترابطة، فلم تتضح أجزاؤها إلا مع السرد الثالث..
وظلت (س) تتأملها وهي تحكي دون تعليق... حتى إذا ما انتهت من الكلام قالت لها:
- «دعك من هذا الهراء.. إنها قصص تصلح لإفزاع الأطفال..»
- «حقًّا؟ ولماذا أوشك على الموت رعبًا؟»
- «لأنك تملكين عقل دجاجة يا ملاكي..»
هبت (نرمين) في عصبية.. وصاحت:
- «ربما.. لكني لن أنتظر ثانية واحدة بعد هذا.. سأملأ الدنيا ضجيجًا.. ولسوف أجلب المسئولين ليحققوا مع هذا الـ.. شيء..»
- «كوني عاقلة يا حمقاء.. إن هذا.....»
- «لن أنتظر حتى تدخل هذه الجثة الحية غرفتي!»
واتجهت للباب لتفتحه..
حين دوى صوت الطرقات الرقيقة على باب الحجرة..
طرقات تعرفان صاحبتها تمامًا.....

* * *

٥ - شقيقنا

والآن نترك الصديقتين في هذا المأزق غير المألوف.. كي نتعرف بشكل أفضل حياة أخي الصغير (ي) الذي ـ كما قلت لك ـ هو (ديك البرابر) و(آخر العنقود) في بيتنا العامر..

لم يتعلم (ي) بعد القواعد الصارمة لدارنا.. لكنه بدأ يفهم أننا نختلف عن الآخرين إلى حد معين..

كان يعرف أنّ هناك أشياء غير مألوفة تجري في دارنا... لكنه - بحكم سنه الصغير - كان عاجزًا عن فهمها..

وفي المساء حين يأتي أصدقاء أبيه، وتتصاعد روائح التبغ ودخان السجائر، ويدوي صوت ضحكات (عاصم بك) المتظرفة..

عندها كان يعرف أن (علاء) و(ناهد) قادمان..

وينادية الصوتان الرفيعان من وراء خصاص النافذة، فيهرع إلى أمّه طالبًا السماح له بالخروج:

- «سألعب مع (علاء) و(ناهد) في المقابر..»

تقول الأم وهي مشغولة في إعداد القهوة للضيوف:

- «هذا لن يكون دون أن تسأل اباك..»

فيتركها ويدخل ـ في كياسة ـ إلى قاعة الضيوف.. ويلتصق في حياء بأبيه الجالس يكمل حديثه مع المهندس (محمود).. ولا شعوريًا يطوق الأب خصره في لطف وهو يواصل الكلام...

يلفت المهندس (محمود) نظر الأب:

ـ «ماذا يريد هذا الرجل الصغير منك؟»

فيهمس (ي) بطلب الإذن في مسمع أبيه..

ـ «الوشوشة عيب.. كرر ما قلت بصوت عالٍ..»

- «أريد اللعب مع (علاء) و(ناهد) في المقابر..»

فينفجر (عاصم بك) ضاحكًا:

- «هل تسمعون؟ لقد ورث الطفل مزاج أبيه السوداوي! ابن حلال مصف! هي هي هي!»

فيحملق فيه الأب منذرا، ثم يشير للطفل آذنًا له بالخروج:

- «لكنّ - أرجوك - لا تتأخر أو تذهب بعيدًا..»

ويهرع الصبي مغادرًا الدار.. ليجد الطفلين اللذين من سنه ينتظران جوار الباب الخارجي..

وينطلق الجميع - دون كلمة تحية واحدة - إلى المقابر.. وبين الشواهد المظلمة يبدأ المرح.. هل يوجد مكان افضل للعب المساكة؟ هل يوجد مكان أفضل لقفز الحواجز؟

كان (علاء) مهذبًا.. وكانت (ناهد) ملاكًا رقيقًا يخاف كل شيء.. لكنّها لم تخش المقابر قط..

لم يحاول (ي) أن يسألهما عن عنوانهما.. عن مدرستهما.. عن أبيهما.. لكنه كان يحبهما دون تحفظ.. وكان من طبقة أثرياء الفلاحين التي تماثل طبقته، لذا لم يجد صعوبة في التعامل معهما..

يعرفان كل شيء عن المقابر.. ويعرفان أسماء سكانها واحدًا واحدًا.. لكنهما أنذراه مرارًا بالابتعاد عن الناحية الجنوبيّة - جوار شجرة التوت العملاقة - لأن العجوز (عباس) لا يحتمل ضوضاء الأطفال..

ذات مرة كاد الرجل يفتك بهم...

فهو عجوز خبيث المنظر، له عين انمحى سوادها فراحت تلتمع كلؤلؤة في الظلام، وقامته محنية، وأطرافه التي أكلها الروماتزم صارت أقرب إلى المخالب..

راح يركض وراءهم وهو يسب ويلعن.. ويقذفهم بالحصى.. حتى أفلتوا منه وكمنوا وراء شاهد قبر عملاق، يلهثون ويرتجفون..

من يومها لم يدنوا من شجرة التوت قط..

كان هناك خطر آخر ينغص لهوهم هو الكلاب السوداء العملاقة ـ المسعورة دومًا ـ التي ابتليت بها القرية، وحين تلقى أحدها كنت ترى عينين تلتمعان في الظلام منذرتين بالويل.. وتسمع هديرًا متوعدًا.. ثم.. تدرك فجأة أن ثيابك ممزقة وساقيك تنزفان.. وأن إحدى وعشرين حقنة في جدار البطن تنتظرك في مستشفى المركز..

لكن - الغريب ـ لم تهاجمة الكلاب قط طالما كان مع (ناهد) و(علاء).. ولهذا السبب كانا يوصلانه إلى باب الدار بعد ساعتين من اللّهو البريء.. ثم يطمئنان على دخوله ويعودان أدراجهما.. إلى بيتهما الذي يجهل كل شيء عنه...

وحين يعود للدار يجد الضيوف قد أوشكوا على الانصراف.. وتدس (زينب) هانم قطعة من الحلوى في يده، وتربت على رأسه.. عندها يدخل إلى الفراش لينضو ثيابه.. يرتدي منامته.. وينام...

* * *

أما المشاكل الحقيقية فهي في المدرسة..

إن الأطفال هم ملوك التعذيب في العالم.. وقد كان زملاؤه في الصف يمقتونه حقًّا.. وكانوا يجيدون التعبير عن هذا..

إنه مهندم أنيق الثياب.. وكتبه منسقة.. وحقيبة يده من الجلد..، في حين كانوا جميعًا يرتدون مريولات قذرة متسخة فوق سراويل مناماتهم.. وكان كل منهم يحمل كيسًا من القماش يدسّ فيه كتبه، وكتبهم - عندما تخرجها من الكيس - هي أقرب إلى (الكرنب) منها إلى الكتب؛ بأوراقها المجعدة المكرمشة الملتفة..

إذناه نظيفتان وأنف، خال من المخاط...

لهذا كان هو العدو الطبيعي لأترابه.. وكم من معارك دموية خاضها من أجل الانتقام لكرامته.. ولهذا نجد أنه ـ في نهاية اليوم - يصير واحدًا منهم في بعثرة الثياب واتساخها..

لم يكن هذا هو السبب الوحيد...

ثمة سبب آخر لا يعرفه حقًّا.. لكنه مهين للغاية.

ولكم من مرة حاول أحد أصدقائه إغاظته قائلًا:

ـ «يا ساكن بيت العفاريت!»
أو يقول واحد آخر مخرجًا لسانه، مستعملًا إحدى يديه كقبضة (الهاون) والأخرى كـ (الهاون) نفسه:
- «يا صديق الموتى!»
ولم يكن (ي) يفهم.. ولم يكن ينتظر حتى يفهم..
بل تنطلق قبضته كالقذيفة إلى أي مكان في مساحة سطح صديقه.. عينه.. أنفه.. رقبته.. بطنه...
ويلتحم الجسدان فوق التراب وسط التهليل والتصفير.. وغالبًا لا تحسم المعركة إلا بعصا تنهال عشوائيًا على جسديهما؛ ويمسك بها أستاذ مرهف الحس التربوي.
لكن (ي) ارتاح كثيرًا للأستاذ (ع)....
كان دائم التشجيع له.. دائم الاقتصاص له من معذبيه..
وحتّى في سنه الصغير لم يكن عسيرًا على (ي) أن يفهم أن (هـ) هي سبب هذا الاهتمام الزائد...
لم لا؟ إنّه يحبّ الأستاذ (ع).. فهو لطيف المعشر شديد الحياء.. ولن تخسر الأسرة كثيرًا لو أنه صار فردًا منها...
دعا الله في صلاته ـ التي تعلمها من أبيه ـ أن يتحقق هذا الحلم.. وصارحني مرارًا بذلك، فكنت أزجره في شيء من خشونة.. لكنى سررت في سرّي لأنّه يرى ما نراه....

* * *

في ذات يوم نادته أمي حيث كانت في المطبخ تعد القهوة. ـ دومًا هي تعد القهوة ـ للضيوف..
انتحت به ركنًا جوار الموقد.. وركعت على ركبتيها ليتمكّن من سماعها وهي تهمس.. وسالته:
- «هل أنت ذاهب إلى المقابر اليوم؟»
- «طبعًا.. حين يجئ (علاء) و(نا...)»
- «حسن.. أريد منك معروفًا..»
وتلفتت حولها بحذر.. ثم عادت تهمس له:
- «يوجد قبر بلا مزروعات أمامه.. أريد منك أن تنبش التربة التي حوله بحثًا عن كيس من المشمع.. كيس ملفوف حول أشياء ما.. هاته لي ولكن لا تفتحه.. هل سمعت؟ لا تفتحه.. احمله لي دون أسئلة ودون أن يشعر بك أحد»
- «حسن...»
قالها شاعرًا بأهميته..
وفي الحال جاء صديقاه.. فذهب معهما إلى المقابر كعادته..
وكان القبر المقصود هناك.. لم يكن الأمر عسيرًا.. وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقاب وجد ضالته، فدسها في جيبه وقلبه يخفق كالطبل..
وعاد إلى الدار فناول (الكنز) لأمه.. فلثمته شاكرة.. وملأت كفيه بحلوى النعناع من العلبة التي تضعها في (نملية) المطبخ.. العلبة العزيزة التي عليها صورة غزالة تتأمل الأفق، وتحمل اسم

الخواجة إياه....
رآها ـ والحلوى في فمه ـ تتأمل اللفافة.. ثم تغمغم في لوعة:
- «الكفرة أولاد الكفرة! إذن كان الشيخ (بسيوني) صادقًا.. وكنت على حق! هذا (عمل)..»
بعد هذا بأسبوع تقدم الأستاذ (ع) طالبًا يدي!

* * *

لا أريد هنا أن أبدو حاسمة يا د. (رفعت)..
قلت لك ما حدث، وأنا أعرف أن لقوانين المصادفة دورًا لا بأس به.. ثم إنني خير من يعرف الشيخ (بسيوني).. وأعرف أنه بالتأكيد هو من دسّ هذا (العمل) لي.. لكنّ يجده فيما بعد.. ويأخذ أجرًا لا بأس به مع الحلوان..
لكن.. تصوّر لحظة لو لم يكن (بسيونى) هو من دسّ هذا (العمل) لي.. إن هذا يعني أنّ هناك من يكرهني بجنون.. ويعني أنّ هناك سحرًا شيطانيًا فعالًا يفوق ما نتصوره..

* * *

(ع) يعرض إمكانياته وظروف أسرته في دقة، وباتزان يثير الإعجاب.. لقد كان شابًا رصينًا حقًّا....
أبي ينصت له واضعًا ساقًا على ساق.. كان مجاملًا حازمًا متحفظًا يشتري ولا يبيع كما ينبغي لأبي أن يكون...
(ي) يدخل الحجرة ويخرج منها متوترًا - كأنما هو العريس - وقد ارتسم الفخر على ملامحه.. فهو - ككل الأطفال - يحسب المعلم كائنًا ديناصوريًا أسطوريًا مكانه المدرسة، لا يغادرها ولا يزور ولا يُزار.. ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام.. وهو يشعر بأن له دورًا في جعل هذا الكائن الأسطوري يتنازل ويدخل دارهم....
تسأله أمي في همس مسموع:
- «هيه؟ ماذا يقولان؟»
- «يتحدثان..»
يقولها وهو يصعر خده لها في غرور.. ثم يتركها عائدًا إلى غرفة الضيوف وقد رسم سمات الخطورة على وجهه..
ونسمع صوت (ع) يكمل كلامه:
- «.. وهكذا ترى يا سيدي أننا أسرة طيبة.. أبي فعل كل شيء كي يجعلنا شرفاء محترمين.. لكنه لم يترك لنا مليمًا بعد وفاته.. كنا نعيش معه (من اليد إلى الفم).. وبعد رحيله كان عليّ أن التحق بمعهد متوسط لأنفق على إخوتي.. وأن أضحي بحلم الجامعة الذي كان سيجعلني مهندسًا كما تمنيت..»
لم يكن أبي راغبًا في معرفة الوضع المادي للفتى.. فثروته تسمح له بالإنفاق على أزواج بناته وأبنائهم وأحفادهم.. إن كل الآباء يزعمون أنهم (يشترون رجالًا) دون أن يعنوا ما يقولون حقًّا.. لكنّ أبي كان هو مشتري الرجال الوحيد والأخير في هذا العالم...
كان يهمه معدن الفتى...
ثم - وهذا الأهم - كان يبغي معرفة مدى تأقلم الفتى مع نمط حياتنا - الحياة التي يحاول جاهدًا أن يغدو فردًا فيها....
هل سيقبل حين يعرف أكثر؟



وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقاب وجد ضالته .

هل سيظل على حماسه العنيد حين يتكلم الآخرون؟
حين يعرف طرفًا من أسطورتنا؟

* * *

٦ - مخاوفنا..

حينما رحل الفتى ظل أبي جالسًا في مقعده الأثير بعض الوقت.. ثم أمر الخادمة أن تعد له (النارجيلة).. وأن تدعو سيدتها إلى القدوم إليه...

مسحت أمي يديها في المنشفة، وخرجت - هامسة بالدعاء - من المطبخ، لتجلس إلى جوار أبي جلستها الخائفة على طرف المقعد التي هي إلى الوقوف أقرب.

دقائق مرّت ولا شيء سوى قرقرة الماء في (النارجيلة)، ورائحة التبغ الزكية تفعم القاعة..

لقد ظل أبي متمسكًا بـ (النارجيلة) كآخر معالم الفخامة وأعتقد أنه كان يأخذ منها ما هو أكثر بالتأكيد من الدخان التركية التي كان يعيش فيها قبل الثورة.. كان يأخذ الوضع الاجتماعي إذا فهمت هذا التعبير...

قال لها بعد صمت طال:

- «عرفت ما دار بيننا بالتأكيد..»

- «سمعته - طال عمرك - من (ي)..»

- «ورأيك؟»

- «شاب ابن حلال.. ومؤدب.. ولا أرى ما يمنع من...».

- «المشكلة هي أنه لا يعرف..!»

قالها في عصبية جعلته يشرق بالدخان فيسعل.. ثم أردف:

- «كح كح! إن هذا الفتى أحمق.. ليس من البلدة.. ولم يسأل عنا.. ولم يخبر أحدًا بقراره هذا...»

- «إن النصيب حين يجيء.....»

- «بل هو غش وتدليس.. لو كان هذا الفتى راغبًا في الزواج من (هـ) فعليه أن يعرف الخلفيات كلها.. بعدها نتفاهم.. لا أريد أن يقول إنني خدعته فيما بعد...»

في جزع هتفت الأم:

- «لكنّ هذا يعني ألا يعود..»

- «هذا أشرف من الغش.. عانس شريفة هي خير من مطلقة أو زوجة معتوه..»

صمتت المرأة على مضض..

كانت تخدع نفسها منذ البداية.. وعلقت كل تعاسة ابنتها على شماعة السحر.. لكنّها تعرف من البداية أن السحر بريء من هذا.. وإن ابنتها لن تتزوج بسحر أو بدونه...

* * *

في المساء الأكثر توغلًا؛ جلست في حجرتي أمام المرأة أمشط شعري وأتأمل وجهي.. وجه الحوريّة الذي أهيم به حبًا...

جاءت (س) أختي وجلست جواري على حافة الفراش، وهي تقضم قطعة من أجاصة (كمثرى)؛ وظلت تتأملني برهة.. ثم قالت:

- «لم يأت الضيوف اليوم..»

- «لقد نهاهم أبي عن زيارته الليلة.. فهو يعرف بقدوم (ع)..»

في شرود قالت:

- «لو أنه رآهم فلن يلاحظ شيئًا غريبًا..»

- «لكنّ الأمور تتضح بعد حين.. هل نسيت ما حدث لـ (نرمين) في تلك الليلة في مسكن الطالبات؟ ما إن دخلت (هيام) البائسة من الباب حتى راحت (نرمين) تصرخ وتولول.. ووقفت على الفراش مرددة في هستيريا: (لا تلمسيني)! عندها لم تجد (هيام) بدًّا من الفرار.. فالاختفاء من حياتنا تمامًا..»

برغمي ابتسمت ابتسامة عصبية.. وسألتها:

- «وماذا حدث لـ (نرمين)؟»

- «عولجت لفترة من الانهيار العصبي.. الجميل في هذا أن أحدًا لم يصدّق حكايتها، خاصة أنني أنكرت كل شيء.. ثم إنها تركت المسكن نهائيًا.. فضلت السفر اليومي من وإلى بلدتها..»

- «كان حظًا سعيدًا..»

- «لكنه لن يتوافر دومًا.. إن (ع) سيعرف.. وعندئذ...»

رفعت خصلات الشعر من فوق جبيني.. وغمغمت في حيرة:

- «لعمري لا أفهم.. لماذا يمقت الناس الموتى؟!»

السؤال الخالد الذي يتردد في ذهني منذ الصبا...

لماذا يمقت الناس الموتى؟!

يبدو لي سؤالًا له لا نهائية الكون وغموضه..

لماذا يمقت الناس الموتى؟!

* * *

- «لأنّهم حمقى.. هذا هو كل شيء..»

قالتها أختي (ن) وهي تتقلب في الفراش.. كان أخي (ي) مازال ساهرًا يحملق في السقف حين هزّها لتصحو، وسألها عن السبب الذي يجعل الصبية يتحرشون به في المدرسة...

قال لها في حيرة:

- «يقولون إننا (بيت العفاريت)، وما إلى ذلك..»

- «هم أحرار فيما يقولون ما دمنا لسنا كذلك.. وعلى كل حال أنا لا أرى في العفاريت إهانة ما.. والآن.. نم.. نم!»

* * *

جاء المساء التالي..
وكانت هناك حركة غير طبيعية جهة المقابر.. المشاعل والكلوبات مرفوعة فوق الأعناق.. وجموع الفلاحين تزحف حول صندوق خشبي مغطى ببساط أخضر.. والغبار يتصاعد في الهواء.. فترسم عليه الأضواء ظلال القوم الذين يمشون الهوينى ضاربين الأرض بنعالهم ضربًا..
إن للمسيرات التي تحمل المشاعل تأثيرًا دراميًا رهيبًا.. ربما لم يستطع أحد فهمه والتعبير عنه مثلما استطاع المخرج (حسين كمال) في المشهد الختامي الضخم لفيلم (شيء من الخوف)..
وتدريجيًا بدا أن القرية كلها تمشي في هذه الجنازة، ربما باستثناء أبي الذي كان يتعالى على المناسبات الاجتماعية كلها...
لكن (هناء) خادمتنا البلهاء عادت لنا بالخبر اليقين، وكانت في دار أمها بالجهة الأخرى من البلد، جاءت تقول لنا إن الميت هو (عبد الصمد قريطم).. فلاح من أبناء القرية توفي في صراع بالمسدسات مع عصابة لصوص حاولوا سرقة الجمعية الزراعية.. واللصوص يعدون بإلباس رجال القرية طُرحًا في المرّة القادمة..
مع (هناء) يكون تفسير الأحداث سهلًا.. الخبر صحيح حتى عبارة (فلاح من أبناء القرية توفي).. أما ما يلي هذا فلا صحة له.. وهو وليد خيالها المريض الذي لا يكف عن الفبركة والتأليف..
وحين انتهت مراسم الدفن على ضوء (الكلوبات) ساد الهدوء المكان.. وإن لم يأت ضيوفنا في تلك الأمسية، وبالطبع لم يخرج (ي) للعب مع (علاء) و(ناهد)...

* * *

في الليلة التالية جاء الضيوف..
أولًا وصل المهندس (محمود) وامرأته، التي هرعت ـ كعادتها - إلى المطبخ لتبدا الثرثرة مع النسوة هناك...
ثم جاء د. (نجيب) صموتًا كعادته.. وعلى الفور تصاعدت رائحة تبغ الغليون السكرية قليلًا، والتي تعلن عن وجوده قبل أن يوجد...
بعدها وصل (عاصم بك) برائحته العطرية (الدسمة) التي تجثم على روحك كأنك التهمت طبقًا ضخمًا من الزبد وحدك....
كان هناك رجل نحيل مهذب يرتدي عوينات سميكة، ولا يكف عن الثرثرة في السياسة.. وجه جديد هو.. لكن (س) عرفت من مكانها في المطبخ أن اسمه (حامد).. وهو محام كما يبدو...
بعد قليل حضر رجل..
كان فلاحا يرتدي جلبابًا ممزقًا وحافي القدمين.. وقد بدا عليه الارتباك.. بالتأكيد لم يبد متناغمًا مع هذا الوسط...
سأله أبي في رفق:
ـ «من أنت يا أخي؟»
كان صوت الرجل خفيضًا مدغوم المقاطع وهو يجيب بلهجة ريفية:

- «أنا (عبد الصمد قريطم)..»
عاد أبي يسأله:
- «منذ متى؟»
- «أمس.. عصرًا..»
- «حادث؟»
- «نعم.. عند الساقية..»
- «إذن تعال وخذ مكانًا.. لابد أنك تشعر ببرد شديد.. هل تشرب شايًا؟»
- «أكون لك شاكرًا يا بك..»
رفع أبي عقيرته آمرًا بالشاي.. هنا تدخل (عاصم بك) في عصبية وهو يزيح مبسم (النارجيلة) جانبًا:
- «هذا غير لائق.. من المفهوم أننا لا نرحب بالفلاحين ها هنا.. وهذا الرجل فلاح.. يعني تملأ البراغيث ثيابه ولا يفهم سوى في الماشية.. وأنا أرفض أن ينضم إلى مجلسنا!»
كان الارتباك يغمر (عبد الصمد) فلم يجد كلمات يقولها.. وطقطق د. (نجيب) بلسانه لا تدري أمؤيدًا أم معارضًا.. أمّا أبي فقال في فتور:
- «(عاصم بك).. انا أرحب بالجميع هنا.. ولئن كان الفلاحون يجدون أن جلستنا هذه لا تريحهم ولا تناسبهم فهذا شأنهم.. لكني أقبل الجميع ولا أتعالى على أحد لأنني فلاح ابن فلاح..»
ثم باشمئزاز أردف:
- «أمّا زلت متعاليًا؟ عرفت الفارق بين حياة الزيف وحياة الحقيقة وما زلت متعاليًا؟ هل توجد موعظة بعد الموت؟»
قال (عاصم بك) في كبرياء:
- «منذ أربعين عامًا كنت أجلس مع دوق (ويلز) نتمازح.. والآن أنا مرغم على الجلوس مع (عبد الصمد قريطم)!»
- «لست مرغمًا على شيء..»
كانت (أم شفيق) قد جلبت الشاي للفلاح.. فتربع على البساط السميك يجرعه في عرفان..
قرر المهندس (محمود) أن يبدد جو التوتر الذي ساد المكان، فأخرج وريقة من جيبه.. وقال في مرح:
- «دعوني أتل عليكم قصيدتي الأخيرة.. كتبتها في مناسبة الذكرى الخامسة لوفاة السيد رئيس مجلس الإدارة:

ولّى الذي قد كان نبراسا
من بعده ساد الأسى الناسا[4]»

ثم توقف متلمظًا.. وقال باستمتاع:
- «السينات كثيرة في الشطر الثاني، مما يعطي الأسلوب جرسًا موسيقيًا محببًا.. إنّه نوع من الجناس الناقص..»
وعاد يواصل (معلقته) المقيتة هذه....
- «ولّى الذي ملك الجسارة والحجا

ولّى الذي ملأ الفؤاد حماسا»

هنا استدار أبي إلى الجالسين.. وقال دون أن يستأذن الرجل:
ـ «ثمّة عريس جاء يطلب يد (هـ)..»
- «مرحى!»
ـ «ألف مبروك!»
ـ «إنّه لخبر يستأهل قصيدة طويلة..»
قال أبي وهو يداعب شاربه الفخم شاردًا:
ـ «المشكلة هي أنه لا يعلم شيئًا..»
قال (عاصم بك):
- «ليس لديك ما تخفيه.. القرية كلها تعلم.. لابد أنه عرف كل شيء»
ـ «أؤكد لك أنه لا يعلم...»
قال د. (نجيب) في تؤدة وهو ينظف غليونه:
ـ «إذن لابد أن تصارحه.. بل يجب أن يلقانا ويستمع إلينا ونستمع إليه.. هذا من حقه..»
قال المهندس (محمود) متضايقًا قليلًا من بتر قصيدته:
- «هذا طبيعي.. مادمت تنوي أن يقيم في دارك بعد الزواج.. أظن أنّ هذا ما تنتويه..»
قال أبي في شرود:
- «نعم.. فهو لا يملك مسكنًا ولن يوفر واحدًا خلال أعوام..»
- «إذن عليك بمصارحته دون تردد..»
وساد الصمت..
لكن الصخب بدأ في عقل أبي..
غدًا يأتي الفتى مع شقيقته وأمه للتعارف؛ ولوضع النقاط على الحروف للمرة الأولى..، فكيف يمكن تدبير هذه المصارحة؟!

* * *

واصل القط المواء، فأحضرت له بعض اللبن الدافئ في إناء صغير ووضعته جواره...
لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته.. هل هو قط حي أم هو من ذات عينة ضيوفنا؟ إن التأكد من هذا مستحيل بالنسبة للحيوانات العجماء التي لا تستطيع التعبير عن نفسها..
أحيانا كانت حيلة الألم تجدي..
كنت أغرس دبوسًا في جسد الحيوان، فإذا صرخ عرفت أنه حي يرزق.. وإلا كان معنى هذا....
إن التجربة مرضية دون شك.. فقد انغرس الدبوس بكامله في عنق القط لكنه ظل يلعق اللبن غير مبالٍ بي.....
دخلت (س) الحجرة فوجدتني عاكفة على إطعام الكائن الصغير فركعت على ركبتها تمسح على عنقه.. وسألتني:
ـ «هل هو حقيقي؟»

- «تعنين: هل هو حي؟ بالطبع لا..»
ولثمت عنق القط في حنان.. وأردفت:
- «إنّه ليس القط.. بل هو شبحه!»
.....

* * *



لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته . . هل هو قط
حيّ أم هو من ذات عينة ضيوفنا ؟ . .

٧ - ضيوفنا..

في تمام السابعة مساء دق جرس الباب..

فتحته (أم شفيق) ليدخل منه (ع) وامرأة شابة بدينة هي شقيقته الكبرى (م).. ثم عجوز ضئيلة الجسد ترتدي ثيابًا لا بأس بأناقتها بالتأكيد هي أمّه...

دخلوا إلى قاعة الضيوف، فجلسوا.. وعرفنا أن معهم سيارة أجرة تنتظر بسائقها خارج الدار.. فهو لم يكن ليجد مواصلات إلى المركز حين تنتهي هذه الجلسة..

جاء أبي فصافحهم.. وسره ما بدا على الأخت والأم من ملامح الأصل الطيب والمودة البالغة.. أناس طيبون لا يملكون شروى نقير.. هكذا خطر له لكنّ هذا لم يمنعه من تكرار:

- «خطوة عزيزة يا حاجة!»

وكانت المرأة تملك عددًا هائلًا من الردود التي لم نسمع بها.. على غرار (أعز الله مقدارك)، (مؤاخذتك معك)، (أطال الله عمرك) ترد بها على كل عبارة مجاملة ببراعة منقطعة النظير...

أما الشقيقة فراحت تقلب عينيها في أرجاء القاعة، و(ع) ظل يرمق رقعة معينة من البساط في تركيز حتى كاد أن يثقبها.. وقد احمر وجهه كالطماطم..

بعد قليل دق جرس الباب...

وظهر وجه (عاصم بك).. ثم المهندس (محمود) ثم زوجته.. ثم د. (نجيب).. ثم (عبد الصمد).. ثم ذلك المحامي الحيي (حامد) وقد اتجه كل منهم ليصافح الجالسين، في حين يقوم أبي بالتعريف الموجز البليغ..

ترى هل لاحظ (ع) والمرأتان أن أيدي القادمين باردة كالثلج؟

ربما.. لكنّ المؤكد هنا أنهم لم يفهموا علاقة كل هؤلاء بالموضوع، موضوع شخصي كهذا.. وهم مجموعة غير متجانسة لا يوحى أفرادها بأنهم أقارب (هـ)...

قال أبي وهو يعود للجلوس:

- «هم أخوة أعزاء..»

قالت الأم:

- «أخوة السعد والهناء..»

مع هذه المرأة تشعر أنك تلعب لعبة تنس مع لاعب ماهر.. يجيد صد كل كراتك، كل عبارة تقال لها تملك هي ردًا جاهزًا عليها...

ثم إن أمي دخلت لتصافح المرأتين وتلثمهما.. وبإشارة جانبية من أبي انسحبت النسوة إلى الداخل.. على حين ظل الرجال جالسين يتبادلون النظرات....

قال أبي في رزانة:

- «إن الأستاذ (ع) شاب مهذب ينتظره مستقبل لا بأس به.. وقد جاء لطلب يد ابنتي (هـ)..»

لكنّ (ع) لم يكن ينظر نحو أبي..

كانت عيناه مثبتين على (عاصم بك).. (عاصم بك) الذي مد أصابعه في الفحم المشتعل في (النارجيلة).. ورفع - في هدوء - قطعة فحم ملتهبة.. وراح ينفخ فيها حتى تأجّجت نارها.. ثم أعادها بنفس الهدوء إلى مكانها..!

أبي يواصل الكلام:

- «عليكم.. إن (هـ) هي ابنتي وأنتم أعمامها جميعًا.. لهذا لم أرد لهذا الموقف أن يمرّ دون أن....»

عينا (ع) تتجهان لتتفحصا د. (نجيب) الذي أمسك بالسكين الذي نقطع به الفاكهة.. وراح - دون هوادة - يغرسه في فخذه مرارًا وتكرارًا.. كأنما يسلي نفسه في أثناء ملل الحديث!

احمرّ وجه (ع) وازداد توترًا.. جلس على طرف المقعد يقلب عينيه في القوم.. وعلى لسانه ألف سؤال..

وأبي مازال يتكلم:

- «.. تشاركوا فيه بالرأي السديد.. الذي....»

هنا تصلبت عينا (ع) على المهندس (محمود).. فرآه يمارس عملًا لا يمكن اعتباره لائقًا.. ولا يصدر عن شخص مهذب حي.. لكنه يمكن أن يصدر عن ميت دون لوم كثير...

كان (محمود) عاكفًا على لصق اللحم المتساقط من وجهه في مكانه... وقد بدا عليه الضيق لاضطراره لهذا العمل غير اللائق!

كان هذا كافيًا.. ووثب (ع) من مقعده ليتراجع بضع خطوات إلى الوراء.. ثم هتف في رعب وعيناه تتشبثان بمحجريهما بصعوبة:

- «هـ.. هذا.. أ.. أنتم لستم بشرًا..»

لم يبدّل أبي من جلسته.. وبنفس الرزانة والتؤدة قال:

- «أنصحك أن تهدأ قليلًا يا بني.. هذه هي الحقيقة.. إن هؤلا القوم ليسوا بشرًا.. أحياء!»

- «إ.. إذن هذا.. هذا يعني..»

- «نعم يعني..»

- «.. إنكم.. بسم الله الرحمن الرحيم!»

- «لم تقل إلا الصدق!»

تراجع الفتى للباب أكثر.. وأوشك على أن يولي الأدبار.. لكنّ إصبع أبي الحازم أوقفه في موضعه:

- «لحظة.. لو خرجت من هذا الباب فلن تدخل منه ثانية.. ثم إن تصرفك يعكس أنانية مفزعة.. هأنتذا تفر من بيت الأشباح دون أن تتساءل عما يحدث الآن لأمك وأختك!»

توقف الفتى.. ورفع يديه في توتر صائحًا:

- «هذا صحيح.. أمـ... أمي.. ماذا فـ.. فعلتم بها يا أنذال؟»

طقطق د. (نجيب) بلسانه معترضًا.. ولوح (عاصم بك) بالمنشة في ضيق.. أمّا المهندس (محمود) فقال في فتور:

- «تحشم يا فتى.. إن فرصتك في نيل رضانا تتضاءل بسرعة هائلة.. وأعتقد أنّ هذا اللسان البذيء لا يغري بالحوار..»

قال أبي مهدئًا النفوس:

- «صبرًا يا إخوان.. إن هذا الفتى مصدوم.. وكل شيء مباح لمن أفقده الرعب صوابه..»
ثم تناول مبسم (النارجيلة) ودسه في فمه.. وقال بعد أن سحب بضعة أنفاس:
- «أنا لست منهم يا (ع).. أنا شخص حي مثلك.. لكنى أستضيفهم في داري.. ولهذا قصة طويلة سأحكيها لك لو عدت إلى مقعدك.. أريد منك أن تكون رجلًا جديرًا برجولته..»
بخطى متثاقلة عاد (ع) إلى المقعد.. وجلس جلسة هي إلى الوقوف أقرب.. وتساءل في توتر:
- «أمي.. أختى.. هل هما؟»
رفع أبي كفه مطمئنًا:
- «بخير طبعًا.. هما مع زوجتي وبناتي وكلهن حيات طبيعيات.. نحن لا نطمئن إلى أن ترى النساء ما رأيته أنت.. فهن يفقدن الوعي ويولولن ويصبن بالجنون وكل مالا نتمنى حدوثه..»
دفن (ع) رأسه في كفيه.. واهتز قليلًا:
- «إذن كان ماقالوه عنكم صحيحًا!»
- «من قال؟»
- «زملائي أهل القرية.. و(فرّاش) المدرسة.. كلهم قالوا هذا لكني لم أصدق حرفًا.. أنا أومن بالعلم فحسب..»
- «ربما كان هناك علم يصف هذه الظواهر.. لكنه علم وليد لم يبلغ أشده بعد.. ليس العلم الوحيد هو (ثابت بلانك) وتكافؤ الصوديوم وتشريح الصرصور.. هناك علم يتحدث عما وراء الطبيعة لكنه لم يُقتن بعد.. وحتمًا لم يُكتب..»
ثم راح أبي يحكي قصته.. القصة التي خلقت أسطورتنا.
قال أبي وهو يناول (المبسم) لـ (عاصم بك):
- «في شبابي كنت أعبث وأصدقائي كثيرًا في هذه الأمور.. كنا معدومي الخبرة والمسئولية، لهذا رحنا نلهو حول الحدود الخطرة للحياة والموت.. اعتدنا تحضير الأرواح ولم نتعلم كيفيّة صرفها.. النتيجة هي أننا صرنا محاصرين.. وجُنّ اثنان من أصحابي وانتحر ثالث.. أمّا أنا فقد عقدت معهم صفقة.. سيكون عليّ وعلى من يأتي من ذريتي أن يقبل استضافة أشباح الموتى.. خاصة هؤلاء الذين ماتوا حديثًا ويشعرون بالغربة والحيرة في عالمهم الجديد... معي يشعرون بالدفء الإنساني ويشعرون لبعض الوقت بأنهم ما زالوا أحياء يرزقون..»
ووضع ساقًا على ساق وضم عباءته على كتفيه وأردف:
- «من يومهم والموتى - أو أشباحهم - جزء من عالمي.. بيتي مفتوح لهم عند مجيئهم ليلًا.. يمضون معي أيامًا.. شهورًا.. ثم يرحلون ويأتي آخرون غيرهم..، كل أبنائي تربوا وسط هؤلاء الزائرين الليليين.. لم يتعلم واحد من أبنائي أن يخاف منهم أو يسيء لهم بكلمة تجرح شعورهم (إن الأشباح شديدة الحساسية حقًّا).. وكل أبنائي يعلمون أن الأشباح ستزور بيوتهم حين يكبرون؛ لأن هذا هو قدرهم..»
وابتلع ريقه كأنما عادت إليه ذكرى أليمة:
- «لا أكتمك سرًا أنّ هذا هو سبب طلاقي من زوجتي الأولى.. لم تتحمل المرأة هؤلاء الزوار كل ليلة، وأوشكت على الجنون.. ثم إنني آليت أن أعيش طيلة عمري جوار المقابر لأن هذا أقرب مكان إلى أصدقائي.. ولم ترض المرأة بهذا وانفصلنا.. إن بناتي يعرفن قصة مختلفة عن طلاقنا لكنّ هذا هو السبب الوحيد.. والآن أنا متزوج من فلاحة طيبة.. فلاحة من طمى هذه الأرض التي

لا تعرف فارقًا بين حي وميت.. إن الريفيين ـ كأجدادهم الفراعنة ـ لا يرون في الموت سوى رحيل إلى أرض أخرى.. سفر.. ويتحدثون عن موتاهم كأنهم أحياء يرون ويسمعون كل شيء.. لهذا لم ترفض هذه المرأة الطيبة حياتي.. بعد فترة من الذعر صارت جزءًا من هذه الحياة.. وأنجبت لي أطفالًا علمتهم أنّ هذا هو الصواب ولا صواب غيره..»

ثم مال برأسه نحو (ع) وتساءل:

ـ «ما هو رأيك في كل هذا؟»

لا جواب من (ع)..

ـ «لم أرد خداعك.. كان من الممكن أن أطلب من ضيوفي عدم المجيء إلى هنا.. أو كنت أجعلهم يأتون ولكن لا يقدمون هذا العرض الشائق.. لكنى أردت أن أطلعك على البيت الذي طلبت الدخول فيه.. وأن أريك نمط الحياة الذي ينتظرك.. فهل مازلت راغبًا في (هـ) بعد ذلك؟»

صمت (ع).. لم يجرؤ على رفع رأسه ليرمق من حوله.. بعدما تأكد من كونهم أشباحًا..

كان لونه كلون الجثث.. والواقع أن من يدخن الحجرة كان سيخاله هو الشبح والأحياء هم من حوله.

هنيهة مرّت.. فبرهة.. ثم همس بصوت مبحوح:

ـ «أرجو أن تنادي لي أمي وأختي...»

صفق أبي بكفيه يأمر الخادم أن تدعو السيدتين، لأن الأستاذ (ع) يريد الانصراف..

وجاءت المرأتان والحبور يملأ اعطافهما.. فقد كان التعارف مع نساء الأسرة و(زينب) هانم ناجحًا تمامًا..

فلما رأته وجه الفتى الشاحب المتهالك آثرتا الصمت.. وقررتا أن تعرفا ما حدث ـ وهو غالبًا غير سار ـ في طريق العودة..

تمت المصافحات سريعًا.. واتجهوا إلى الباب، وهما تعدان بتكرار الزيارة مرارًا.. وأن البيت سيكون واحدًا إن شاء الله..

كان (ع) منهارًا تمامًا.. كدمية (ماريونيت) انقطعت خيوطها.. وقد سحبته المرأتان من الباب سحبًا ورأسه يترنح كأنما انقطعت العضلات التي ترفعه فوق العنق..

وحين انغلق الباب ساد الصمت...

بعدها قال د. (نجيب) في وقاره المعتاد:

ـ «لن يعود..»

قال أبي بنفس الوقار:

ـ «لم يساورني شك في هذا.. لكنه رجل شريف على كل حال..»

قال المهندس (محمود) في قلق:

ـ «ماذا لو ملأ الدنيا صخبًا.. وراح يثرثر بما رأى؟»

ـ «لن يتكلم.. وإذا تكلّم فما الذي سيضيفه إلى كل الأقاويل التي تملأ القرية؟! كل الناس تعرف أن الأشباح تزور بيتي.. والشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها..»

قال (عبد الصمد) حيث تربع على البساط يعبث في قدميه:

ـ «لقد أذيناك حقًّا يا بك..»

قال أبي في طلاقة:

- «لا تقل هذا.. أنا نفسي لم أعد أطيق الآخرين.. كل هذا الغرور والسخف.. أنتم فقط عرفتم الحقيقة ومدى ضآلة الإنسان.. لهذا أجد أن لديكم نضجًا هائلًا يناسبني..»

قال (عاصم بك) في لزوجة:

- «ما زلت أكرر عرضي..»

- «لا تعد لهذا السخف.. أزوج ابنتي البكر من شبح؟ وشبح ماجن متصاب مثلك؟ مستحيل..»

قال المهندس (محمود) وهو يخرج قصاصة ورق من جيبه:

- «يمكنني أن أسمعكم قصيدة لا بأس بها عن زواج الشيوخ من شابات..»

- «هل هي (الغراب - يا وقعة سودا - جوزوه أحلى يمامة؟)»

- «بل هي قصيدة عمودية بالفصحى.. أقول فيها:

زفوا الربيع إلى الشتاء فماتا

والدود من زهر المروج اقتاتا[5].

..... إلخ...»

ترى ماذا فعل (ع)؟

وماذا قال لأسرته بعد ما عرف أسطورتنا؟

.....

* * *

٨ - مصيرنا..

سائق عربة الأجرة (عباس) بشاربه الكث وسوالفه الطويلة، بدا غير مستريح لهذا البيت.. لهذا دخل سيارته وأغلق زجاجها عليه.. وأدار المذياع ليصغي لمحطة (أم كلثوم)..

وكما قال لـ (ع) فيما بعد يصف لحظات انتظاره بالخارج:

- «كلاب سوداء كبيرة كانت تأتي من كل صوب.. وتقف في مواجهة البيت تنبح.. كأنما هناك ما يثيرها..»

ثم اتسعت عيناه وأردف:

- «ثم جاء طفلان - ولد وبنت - مرّا بين الكلاب دون وجل.. بل إن الكلاب تراجعت حينما رأتهما.. و...»

ورأى نظرة عدم تصديق في عيني الأم.. فقال في حماس:

- «أقسم بالله هذا ما حدث.. أنت تعرف أنني أقلعت عن الحشيش والبوظة وكل صنف يغضب الله... ثم إن الطفلين وقفا جوار إحدى النوافذ، وراحا يناديان من يدعي (ي)..»

وأمسك عجلة القيادة بكلتا يديه.. وأردف:

- «لم يظهرا ما يدل على أنهما لاحظا وجودي.. لا أدري كيف..»

لكنّ (ع) كان يصدّق هذا...

يصدق ما هو أكثر وأفدح منه...

* * *

سألته الأم حيث جلست في المقعد الخلفي وراءه:

- «ماذا حدث؟ هل تشاجرتم؟»

قال لها وهو يرمق الظلام بالخارج، وأشباح الأشجار تتسابق على الجانبين:

- «دعك من هذه السيرة يا أماه.. لن أعود إلى هذه الدار ما حييت..»

تدخل السائق مشجعًا وهو يشعل لفافة تبغ:

- «خير ما صنعت يا أستاذ (ع).. سيجارة؟ لا... إن هذا البيت أثار القشعريرة في جسدي.. إن قلب المؤمن دليله، وأنا مؤمن ولله الحمد.. صحيح أنني كنت أتعاطي الحشيش لكني الآن لا أفعل.. أنا مؤمن.. وهذا البيت ليس مريحًا.. بالتأكيد ليس مريحًا..»

لم تعلق الأم.. وواصلت السؤال:

- «هل رأيت شيئًا ضايقك؟»

غمغم وهو يسند جبهته إلى زجاج النافذة البارد:

- «قلت لك أن تنسي هذا الموضوع..»

- «لا يوجد ما يستحيل إصلاحه..»

- «إلا هذا يا أماه.. إلا هذا..»

لاحت بيوت المركز من بعيد.. فراح يعبث في جيبه باحثًا عن النقود التي سينقد بها السائق..

خرجت من جيبه زهرة حمراء لم تذبل بعد.. ونسيها هناك..

كانت هناك في دار (هـ) مزهرية ملأى بزهو حمراء يانعة.. بالطبع.. ففي بيتهم تعود الزهور الذابلة إلى الحياة.. أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور.. كل شيء جائز.. والزمن ذاته يتجمد...

* * *

زهرة حمراء تلفظ أنفاسها على أسفلت الطريق الزراعي.
هل رآها أحدكم؟

* * *

لماذا يا (ع)؟ لماذا؟
كنت قد بدأت أهيم بك يا أحمق....

* * *

خبر سار أعلنه (عاصم بك) في الليلة التالية..
إنه قد صار مستعدًا للرحيل الآن.. ولن يعو للمجيء في الليالي المقبلة.. خبر سار لأنّه يعنى أن الرجل قد نضج وتقبل فكرة الموت.. وسارّ لأن (عاصم بك) كان ضيفًا مزعجًا يحمل عيوب الأحياء كلها.
لكنّ الفراق أليم دومًا..
ودموع حارة سالت من أبي وهو يعانق الرجل مودعًا.. كذا عانقه الآخرون في حرارة..
قال (عاصم بك) وهو يصلح من وضع طربوشه:
- «لقد عرفت أسعد أيام حي...أ... أسعد أيامي في هذا البيت.. وعرفت معنى الصداقة الحقّة.. إنكم تختلفون عن كل الأنذال الذين تخلوا عني في حياتي.. وتركوني أموت بالسكتة القلبيّة دون أن يستدعوا الطبيب.. كنت أمثل لهم عجوزًا لا نفع من ورائه..»
قال أبي محاولًا تغيير مجرى الحديث:
- «وأين ستقيم؟ في الخرائب؟»
- «بل في القبر ذاته.. فهو مريح جميل.. لعله أفخم قبور هذه القرية المنكودة.. وإن كنت أمقت رؤية العظام التي تحول جسدي إليها..»
- «كلنا ذلك الرجل يا عزيزي..»
وتعانقا من جديد.....
تساءل د. (نجيب) وهو ينظف غليونه:
- «ماذا عن ذلك الشاب (ع) الذي كان هنا بالأمس؟»
قال أبي وهو يريح يده على كتف (عاصم بك):
- «يقول (ي) إنّه تغيب عن المدرسة.. أعتقد أنه سيتغيب لفترة وبعدها يطلب نقله إلى قرية أخرى..»
- «هذا ليس مستغربًا..».
وفرغ الأصدقاء من الوداع..
واتجهوا نحو باب الدار ليعود كل منهم إلى مكانه.



أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور . . كل شيء جائز . .
والزمن ذاته يتجمد !

* * *

لكن (ع) عاد إلى المدرسة..

في ذلك اليوم كنت هناك واقفة كعهدي بانتظار (ي).. حين رأيت المدرس الشاب قادمًا نحوي يجر رجله في تردد.. وكان ينظر إلى الأرض عازمًا على أن يصطدم بي (بالصدفة)..

واصطدم بي فعلًا.. فرفع وجهًا باسمًا نحوي وهتف:

- «(هـ)؟ يا لها من مصادفة!»

تأملته في صمت ولم أقل شيئًا..

ما الذي يبتغيه بالضبط؟ هو لن يتزوجني كما هو واضح.. وبالتالي لم يعد هناك معنى للمجاملات.. إن عدم زواجك من امرأة ما، لهو أكبر إهانة يمكن وصفها.. وليس بعد ذلك بعد...

قال لي معاتبًا:

- «لم تخبريني..»

- «بم؟»

- «بما قاله أبوك؟»

- «لأنك لم تسألني.. ولست مطالبة بتعليق لافتة تقول إنني أستضيف الأشباح..»

مرّت برهة صمت.. بعدها غمغم (ع) في حيرة:

- «لم أعد أدري.. إنني أميل إليك كثيرًا لكنّ كل هذا كثير.. كثير جدًا.. إنّه يفوق الطبيعة ويفوق خبرات البشر.. وبعد كل هذا تجدينني جبانًا لأنني لا أقبله؟ مستحيل أن يقبله أحد!»

قلت في كبرياء وأنا أرمق الجهة الأخرى:

- «لم أطالبك بشيء ولم أطالب الآخرين بشيء.. أنت حر في قبول (تنزانيا) على خارطة العالم أو عدم قبولها.. فهذا لن يغير شيئًا.. (تنزانيا) موجودة بالفعل.. وستبقى كذلك...»

- «أردت أن أفسر لك فحسب..»

- «هذا مجهود لم يطلبه أحد..»

- «لقد أحببتك حقًّا..»

- «الجميع يحبونني ولا حيلة لي في هذا..»

هنا كان (ي) قد وصل.. وحيّا أستاذه في فتور...

فقبضت على كفه في حزم وابتعدنا...

* * *

ولكنني - حين عدت إلى داري - لم أعد أملك ذات الكبرياء المتوقد.. وخطر لي أنه قد يكون على شيء من صواب...

إن عالمي لغريب.. شاذ.. وليس ذنبه ألا يتمكّن من قبوله.. من قال إن الموتى الذين يزورون دارك ليلًا موضوع يحتمل المناقشة؟

إننا ـ في تماسكنا الأسري ـ قد ظلمنا العالم الخارجي كثيرًا.. وفرضنا عليه أن يعيش بمقاييسنا وإلا كان عالمًا رديئًا..
تمسّح القط في ساقي..
فأزحته عنى بشيء من اشمئزاز..
إن كل هذا يناقض الطبيعة.. لهذا هو منفر وغريب.
وفي المساء بدأت الدموع تبلل وسادتي للمرة الأولى..
وتذكرت قصة ماتت منذ أعوام...

* * *

مثلما جاءت (هيام) لتثرثر مع (س).. ومثلما يجيء (علاء) و(ناهد) ليلعبا مع (ي)؛ كانت (ريما) تأتي لدارنا ليلًا كي تدرس معي..
كانت (ريما) في سني ـ الثالثة عشرة وقتها - حزينة شاحبة لا تبتسم أبدًا.. وكان هذا يفزعني.. فالأطفال والمراهقون الذين لا يضحكون مرعبون دائمًا.
لكني - تأدبًا ـ لم أكن أظهر رعبًا.. وكنت أجلس جوارها على الفراش، ونضع كتب الرياضيات والجغرافيا والتاريخ كومة واحدة جوارنا.. الأدهى هو أن أبي كان يغلق الباب علينا كي لا يعطلنا شيء عن التحصيل! وحتّى لا أستطيع الفرار...
وكنت أتأمل عينيها الذابلتين.. وشحوبها..
وأتساءل عن سر اهتمامها بالتحصيل إلى هذا الحد؟ لم تكن مقبلة على امتحان بالتأكيد.. لكنّها تمارس كل عاداتها وهي حية مثلنا...
وكانت الفكرة تملؤني ذعرًا على ذعر....
الآن أسترجع الذعر ذاته، وأوقن أن حياتنا لم تكن طبيعية قط.. ولن تكون...
آه! لو أكون أخرى... لو أنفصل عن هذه الأسرة وأبدأ في مكان جديد سحيق خالٍ من الموتى وسيرتهم....
لكني لا أعرف لنفسى حياة أخرى.. ولا أناسًا أخرين..

* * *

اغفر لي لحظة الوهن هذه..
هأنذا أسترد قواي، وأعود إلى حبي والتحامي باسرتي..
إن من يأبى أن يكون منا لا يستحق أن يكون منا.

* * *

في المساء رحت أتأمل وجهي في المرأة...

يا للجمال الباهر ويا للسحر! لكنّ كل هذا بلا جدوى.. كزهرة بارعة الحسن تنمو فوق قمة جبل، فلا يراها أحد ولا ينتفع بها أحد، ثم تذبل وتموت..

كل هذه الحياة عبث طويل مرهق، ينتهي بأن أموت وأتردد في صورة شبح على دار (س) لأفزع زوجها لو صار لها زوج...

لن أعرف مذاق الأمومة.. ولن أدغدغ طفلًا رضيعًا أعرف أنه جاء من أحشائي أنا..

لن أراه وهو يكبر ويخطو خطوته الأولى على الأرض..

ولن أبحث له ـ في صرامة ـ عن زوجة تناسبني أنا لا هو..

وانفجرت في البكاء...

* * *

لا أريد الاعتراف بهذا...

أنا خجول من التصريح.. لكنى مرضت جدًا وهزلت في الأيام التالية.. وكأن جسدي يأبى أن يشارك إرادتي التحدي...

رحت أقيء مرارًا.. وأعاف الطعام..

وامتلأت حجرتي برائحة البخور.. ورقتني أمي عدة مرات، تثاءبت مللًا في إحداها مما جعلها توقن بأنني محسودة...

وسمح أبي لـ د. (نجيب) بأن يفحصني..

كان على أن أتحمل أنامله المثلوجة على بطني.. وأن أقاوم حقيقة أن من يكشف عليّ ليس حيًا...

لكن د. (نجيب) كان يجيد مهنته حقًّا.. عرفت هذا من أمي فيما بعد...

قال لأبي في قاعة الضيوف:

- «إن أعراضها ليست جسمانية.. إنها أعراض نفسية تمامًا.. أعراض اكتئاب تفاعلى حاد..»

- «سبحان الله! وتقيء وتهزل؟»

ـ «الاكتئاب هو سرطان النفس..»

تساءل أبي وهو يسترخي في مقعده:

ـ «والحل؟»

ـ «الاكتئاب التفاعلي لا يزول إلا بزوال السبب.. إن (هـ) تعاني رتابة الحياة وانغلاقها.. فلا أصدقاء لها.. والخطاب ينفرون من هذه الدار كما حدث مع المدعو (ع).. إن الحل يمكن في إبعادها من هنا.. أو - واسمح لي بهذا - تزويجها!»

صاح أبي في حنق:

- «تزويجها؟ هل تقول إن ابنتي؟!»

رفع د. (نجيب) يده مقاطعًا:

- «إنها سنة الحياة ودورتها البيولوجية التي حتمها الخالق.. لقد خلقها الله كي تتزوج وتعمر الأرض مع زوجها.. وليس لهذا علاقة بأساسها التربوي.. وحين نتحدى سنة الله هذه يكون المرض

النفسي أبسط ما نلقاه..».

حك أبي ذقنه مفكرًا:

- «كلام لا بأس به.. ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ هل أدور على الديار أطلب عريسا؟»

- «إن الفتى الذي تقدم لها منذ أيام مناسب للغاية.. وأحسبها متعلقة به إلى حدٍ ما برغم مكابرتها.. لم لا تحاول معه ثانية؟»

- «أحاول؟ وكرامتي؟ ماذا لو رفض؟»

- «إن الأمر يستحق المحاولة..»

هنا نهض (عبد الصمد) من مجلسه على البساط.. وقال في حماس:

- «دعه لي يا سيدي.. أنا أعرف كيف أقنعه!»

.....

* * *

٩ -أسطورتنا..

حدث هذا حين كان (ع) عائدًا من المدرسة...
كانت دروس الفترة المسائية قد انتهت: وقد بدأت الشمس تنحدر إلى الأفق لتغفو بعد يوم مرهق من العمل....
يمشي (ع) جوار الترعة قاصدًا موقف السيارات، حيث تحتشد تلك الأشياء المتهالكة من القرن الماضي.. سيارات كانت فاخرة في الأربعينات ثم أعطبها الزمن وفتتها.. لكنّها ظلت تتحرك..
بعربة من هذه وثلاثة قروش يعود إلى المركز يوميًا.. حيث يتناول وجبته الأساسية، ويصلي ويغفو في الفراش المتهالك إلى الصباح..
كان يومًا طويلًا أرهقه...
وفي الظلام لم تكن الرؤية واضحة لعينيه المتعبتين..
لكن هناك دومًا سيارة أخيرة تنتظر آخر الذاهبين إلى المركز.. بعدها تنعزل قريتنا عن العالم تمامًا..
الطريق صار محفورًا في ذهنه بعد كل المرّات التي قطعه فيها.. فهنا البقال (سليمان) يدخن الجوزة على دكة جوار محله.. وهنا الكلب العجوز يغفو على باب دار.. وهنا جذع النخلة المقطوع الذي وضعوه كجسر على ضفتي الترعة، والذي يلهو فوقه الصبية لا يهابون السقوط في الماء، ويسميه أهل القرية (القحف) كأنه معلم أثري من معالم قريتهم.. ثم عدد من الجاموس عائد من الحقل تتقدمه طفلة صغيرة ضامرة كالقملة حافية القدمين. سبحان الذي سخر هذه الوحوش لطفلة يمكن أن تتهشّم لو داسها حافر واحد....
ثم المنحنى جوار هذا البيت الطيني..
وتمر في حارة ضيقة تملؤها الكلاب.. لكنّ حذار من أن تدوس ذيل أحدها.. إنها على العموم مسالمة اعتادت وجوده....
و.....

* * *

كان العملاق يقف في الظلام...
في يده (نبوت) هائل الحجم يرفعه منذرًا..
وتردد الصوت العميق الرهيب يقول:
- «اذهب إلى البك واسترضه!»
وثب قلب الفتى إلى فمه.. وتساءل في حيرة:
- «مـ.. من أنت؟»
- «أنا واحد ممن أكرمهم البك.. لهذا أنا مدين له.. عليك أن تعود وتطلب يد (هـ) هانم!»

تراجع الفتى إلى الوراء.. وبهلع هتف:
- «إذن.. إذن أنت واحد من!»
دنا العملاق من دائرة النور الشاحب، فاستطاع (ع) أن يرى ملامحه إلى حدٍ ما..
لقد كان جالسًا على البساط في تلك الأمسية!
أطلق صيحة واستدار ليفر..
عندئذٍ شعر بشيء يحمله من ظهره.. وقدماه ترتفعان عن الأرض فراح يركل ويتملص..
- «عُد للبك واطلب يد ابنته.. وإلا....»
صرخ (ع) مستغيثًا:
- «هذا لن يكون..!»
- «لا تتمسك برأيك...»
- «لا!..»

في اللحظة التالية أدرك أنه يرتفع في الهواء.. وأنه يغوص في بئر عميقة مظلمة...
كان (الترانش) الذي تحشد فيه مياه المجاري - فالقرية ليس لها نظام صرف صحي - مفتوح بفعل فاعل في هذا الزقاق الضيق.. وبالتالي غدا خطرًا مريعًا على الغافلين..
لكن (ع) لم يدرك - وكيف يدرك؟ - إنّه هو بالذات يهوي في البئر المظلم كريه الرائحة....

* * *

مر يومان والقلق يعم الجميع...
كثيرون جاءوا يبحثون عن (ع).. وتم سؤال الجميع.. لكنّ أحدًا لم يدر بالإجابة..
كل الشواهد تقول إنّه غادر المدرسة مساءً كعادته.. لكن السائقين ينكرون جميعًا رؤيته ليلتها..
لقد رآه البقال العجوز وبادله التحية.. معنى هذا أنه فقد في مكان ما بين متجر البقالة وموقف العربات.
لكن البحث لم يسفر عن شيء.. يوجد (ترانش) منسي في هذا الزقاق لكنه مغلق من سنين.. وغطاؤه محكم يعجز رجلان قويان عن إزاحته.. إذن هو غرق في الترعة..
لكن البحث لم يسفر عن وجود جثته المتشمعة المنتفخة التي تمنى رجال الشرطة أن يجدوها لتنتهي القصة...
ابنك مفقود يا سيدتي.. خرج ولم يعد.. ولا نرى ما يمنع من أن تنشر صورته في الجرائد مع نداء إنساني..
انتحر؟ لا نظن.. حتى ولو فشل في الحب كما تقولين..
إن جثث المنتحرين لا تتبخر.. ولابد أن تجديها في مصرف.. أو جوار شجرة.. أو وسط المزروعات..
كلا.. لم ينتحر ابنك.. نرجح هنا أنه قد هرب.. فرّ إلى مكان ما لا يعرفه فيه أحد.. وبالطبع سيعود.. كلهم يعودون بعد حين...
فقط تجملي بالصبر والسلوان..

* * *

في الأمسية التالية في دارنا:
جاء ضيوف أبي الواحد تلو الآخر...
المهندس (محمود).. وزوجته.. المحامي.. (عبد الصمد).. د. (نجيب).
ثم جاء آخر الضيوف...
كان شابًا وادعًا يبدو الخجل على محياه..
فما إن رآه الجالسون حتى هبوا واقفين:
- «أنت؟!»



دنا العملاق من دائرة النور الشاحب ، فاستطاع (ع) أن
يرى ملامحه إلى حدّ ما . .

احمرت أذنا الفتى.. وهمس بصوت مبحوح:
- «نعم.. جئت أنضم لمجلسكم..»
تأمله أبي في شك.. وغمغم:
- «إن العالم كله يفتش عنك دون جدوى.. هن أنت واثق من كونك ميتًا؟»
لم يرد (ع).. مدّ أنامله إلى النار في الفحم.. والتقط جذوة وهشمها بأنامله في حركة درامية ذات معنى....
قال أبي وهو يعود للجلوس:
- «إذن أنت ميت.. ولكن متى وكيف؟»
رفع (ع) إصبعًا متهمًا وجّهه نحو (عبد الصمد).. وهتف:
- «قتلني هذا الرجل.. رماني في (ترانش) مفتوح..»
- «هذا هو السر! لهذا لم يجدوا جثتك قط! ولهذا أنت هنا.. لقد وجد لك (عبد الصمد) قبرًا دائمًا في القرية.. ولولا هذا لدفنت في المركز بعيدًا عنا.. لماذا فعلت هذا يا (عبد الصمد)؟»
حك الفلاح المذكور رأسه من تحت طاقيته.. وقال في شيء من حرج:
- «أردت أن أرغمه على المجيء إلى هنا يا بك..»
نظر أبي إلى (ع) وتساءل:
- «وهأنذا قد جئت.. هل تحس حقدًا على قاتلك؟»
قال (ع) في شرود:
- «لا أدري.. من الصعب أن يحقد ميت على ميت.. لكني فقدت شبابي ومستقبلي وأسرتي بضربة واحدة من شبح أحمق.. إن هذا يذهلني أكثر منه يحزنني..»
ثبت أبي عينيه في عيني (عبد الصمد):
- «هل لي أن أعرف لماذا فعلت ذلك؟»
- «لأني.. لأني أحبك يا بك!»
- «لعمري هذا وفاء نادر.. لكنك تجاوزت الحد.. تجاوزته وكان يجب أن تسألني أولًا..»
وأطرق إلى الأرض يتأملها:
- «كان يجب أن تسألني أولًا..»

* * *

ومن يومها صار (ع) ملكي...
إنه يأتي لنا في كل أمسية، فيجلس جوار (محمود).. ويصغي لأشعاره الرديئة.. ويتبادل النكات مع المحامي.
وأحيانًا يسمح له أبي بمغادرة الغرفة، لأقف معه في الردهة نتبادل كلمات خجلى كالتي كنا نتبادلها على باب المدرسة..
لقد نسي (عبد الصمد) تفصيلًا بسيطًا...
من المستحيل الآن أن أتزوج من (ع) لأنّه شبح وأنا حية..

وقد غدا الوضع أكثر تعقيدًا مما كان....
لكنه ها هنا.. جواري إلى الأبد.. ومعه أبي.. وكل الأعزاء الذين أنتمي إليهم..
لقد صار (ع) واحدًا من أسرتنا أخيرًا..
وهذا يكفيني ويثلج صدري...
ويومًا ما سأموت.. عندها أكون معه للأبد.. ونذهب لنمضي أمسيات دافئة عند أخي أو أختي...
هذه هي أسطورتنا يا د. (رفعت):
حكيتها لك بأمانة وصدق...
لا آمل أن أجد عندك حلًا لهذا الوضع المستحيل.. لكني أرجوك ألا تبخل عليّ به لو كان عندك.....

المخلصة (هـ)

* * *

خاتمة

مرحبًا.. أنا د. (رفعت) أعود إليكم لاستكمال التعليق على أحداث هذا الخطاب.. وهو - كالعادة - تعليق سخيف لا يضيف جديدًا..

لقد انتهت أسطورتهم..

وبالطبع لا أملك حلًا لمشكلة هذه الفتاة.. حتى لو ماتت فأنا أشك في إمكانية زواج الأشباح..

ثم إنها لا تريد الفرار من هذه البيئة.. إنها تمقتها لكنّها فخورة بها إلى حد غير عادي، وهذا واضح تمامًا...

إن القصية مقبضة دون شك.. وكابوسية.. ومشئومة.. لكنّها كانت تستحق أن أحكيها، ولا أدري ما إذا كنت تشاركني الرأي في هذا..

أما عن مصداقيتها فأمر يحتمل النقاش...

ربما أحاول يومًا ما العثور على هذه الفتاة أو الاتصال بها.. إن الجلوس مع أشباح في قاعة واحدة، وتبادل الآراء.. الأمر جدير بالتجربة.. برغم كونه مريعًا....

ومن يدري؟

لربما اشتريت لنفسي قبرًا في هذه القرية، حتى إذا مت كان من السهل عليّ أن ألحق بهذه الأسرة الكبيرة، وحتّى لا أشعر بالوحدة في قبري....

لقد انتهت أسطورتهم...

انتهت بشكل من أشكال الحب المستحيل، مع الاعتذار للأستاذ (رءوف وصفي) على استعمال عنوان إحدى مجموعاته القصصية...

إن الحب بين شبح وإنسان حي لأمر عسير إلى حدٍ ما.. ولا أتوقع له نجاحًا كبيرًا....

* * *

في القصة القادمة ندخل بعدًا آخر من أبعاد الفزع التي لا حصر لها.. سنتحدث عن آخر الليل.. ليس أوله ولا وسطه. بل الهزيع الأخير منه، حين ينذر الفجر بقرب نجاتك.. لكنه لا يأتي أبدًا...

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ -أسرتنا..

٢ -معارفنا..

٣ -معتقداتنا..

٤ -صداقاتنا..

٥ -شقيقنا

٦ -مخاوفنا..

٧ -ضيوفنا..

٨ -مصيرنا..

٩ -أسطورتنا..

خاتمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورتنا..!

الناس يتهامسون .. يقولون إن
بيتنا يختلف عن كل البيوت ..
عاداتنا تختلف عن كل العادات ..
ضيوفنا يختلفون عن كل الضيوف ..
الناس يتهامسون ويرتجفون ؛ يعلمون أن
لدينا سرًا صغيرًا .. وهذا السر يجعلنا
لا كالآخرين .. ولدينا أسطورة
تختلف عن كل الأساطير .. إنها
أسطورتنا ..!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
أسطورة آخر الليل

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

تعرفون المزيد عن هذا البرنامج في الكتب الثلاثين..

طبعًا لم تقل الفتاة هذا.. لكني أحاول توضيح كلامها المفكك [←2]

[←3]

على فترات متباعدة..

نعتذر على مستوى القصيدة. فهي من نظم المؤلف ذاته!

[←4]

[←5]

نكرر الأسف!

روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

28

أسطورة آخر الليل

ماوراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

أنا د. (رفعت إسماعيل).. سبق لي أن قدمت نفسي إليكم عددًا من المرّات يقرب من الثلاثين مرة.. تصوروا هذا!

ليس الأمر ناجمًا عن شكي في ذاكرتكم - لا سمح الله - لكنه لذوي الوجوه الطازجة الذين يجلسون على مائدتي للمرة الأولى.. وعساها ألا تكون الأخيرة!

ماذا أحكي لكم اليوم؟

سأضع أربع وريقات مطوية.. كتبت على إحداها (آخر الليل) وعلى الأخرى (المزييرة).. وعلي ثالثة (فرانكنشتاين).. وعلى رابعة (الدمية الشيطانية)..

هي ذي الأوراق وقد خلطتها بعناية..

أريد من أحدكم أن ينتقي ورقة منها.. لندع للحظ وحده أن يختار حكاية الليلة.. فكلها قصص متساوية في الجودة والطول...

هيا! لا تتردد هكذا.. فلسنا بصدد الاختيار بين الحياة أو الموت.. إن هي إلا قصة أخرى قد تنجح في إمتاعكم أو تفشل.. بعدها تقول: «هذا العجوز طريف حقًّا..».. ثم تعود لدارك ناسيًا الأمر برمته، وتمارس حياتك المعتادة..

هذه الورقة؟ حسن.. دعنا نر ما بها.. آه! (آخر الليل).. لا بأس.. فهي قصة شائقة إلى حدٍ ما، ولسوف تحبون سماعها..

إنها قصة أخرى من سلسلة القصص التي لم يكن لي دور فيها سوى السرد.. وأعتقد أنّ هذه القصص ستستمر حتى العدد الثلاثين.. بعدها أعود إليكم.. لا تبتئسوا!.. إن (رفعت إسماعيل) هو قدركم الذي لا مفر منه ما دمتم أحياء وما دام حيًا..

هلموا إذن إلى عالم آخر الليل..

* * *

١ - خطاب جديد..

هل تعرف هذا النوع من الأمسيات؟

لا أحد يطالبك بشيء.. لا أعمال.. لا واجبات اجتماعية.. لا مواعيد.. لا ضمير يؤنبك على إضاعة الوقت في كلام فارغ..

تجلس في الشرفة ترمق المدينة الناعسة التي أنهكها الكفاح، وتحسو قدحًا من الشاي، ومن المذياع ينبعث صوت (أم كلثوم) المفعم باللوعة يدغدغ كل آلامك (أعتقد أن أم كلثوم لا تسمع إلا ليلًا.. وعلى محطة يشوبها بعض التشويش الاستاتيكي)..

كان هذا هو العام ١٩٦٩ كما هي العادة..

أمسية شتوية باردة، وأنا الوحيد الذي يجلس في الشرفة في أمسيات الشتاء حيث ذلك المذاق الحزين للهواء المغسول..

أحب أن أظل مختلفًا عن الآخرين..

أحب ألا أكون (آخر)..

وفي قلب هذا المناخ الفريد من نوعه، أزمعت أن أقرأ خطابًا جديدًا من حشد الخطابات الذي انهال عليّ من جهات الأرض الأربع.. وبمجرد أن بدأت أنال قسطًا من الشهرة..

وهي شهرة لا تقدم لي مكسبًا ما.. لا تجعلني ثريًا.. لا تمنع رجال المرور من خراب بيتي بالمخالفات.. ولا تمنع بائع الخضر من غشي.. ولا تمنع جاري الأستاذ (زكريا) من توبيخي..

لكنها شهرة على كل حال.. ثم من قال لك: إنني أبغي شيئًا من أي نوع؟

الخطاب الذي أنا بصدد الكلام عنه خطاب من مصر.. وكالعادة هو خطاب دسم أكثر من اللازم.. كتب في مائة صفحة (فلوسكاب) بخط جميل دقيق.. وهذا يعني - تعرفون رأيي - أنه خطاب من شخص يعرف كيف يتحكم في نفسه.. شخص يجيد مداراة مشاعره.. ويمارس نوعًا من (البصاق الفكري)..

الناس في كتاباتهم يمارسون (القيء الفكري) أو (البصاق الفكري)... والنوع الأخير يمتاز بأنه إرادي.. ويمكن التحكم فيه..

ولكن دعنا من كل البصاق والقيء والإسهال، وتعال نطالع الخطاب معًا من البداية...

وكما تعودنا سأتدخل في لحظات بعينها لأعطي تفسيرًا ذكيًا لما يُقال.. وسأعود لكم بعد انتهاء الخطاب لأكتب تعليقًا حكيمًا يفسد كل لذة كانت في القصة..

نقطة أخرى: كما هي عادتي مع الخطابات التي كتبها عرب لن أذكر أسماء أصلية مكتفيًا بالترميز.. اتفقنا؟

القاهرة في ١٦ نوفمبر ١٩٦٩

عزيزي د. رفعت:

سمعت عنك الكثير، وسئمت هذه الصورة التي تحاول أن تبدو بها أمام الرأي العام.. لا أحب المدعين الذين يتظاهرون بالعلم والحكمة في أمور لا يمكن لأحد أن يزعم إلمامه بها.. ماذا تعرف أنت عن عالم ما وراء الطبيعة حتى تنصب نفسك حكمًا على أموره كما تفعل في هذا السخف الذي تقدمه تحت اسم (بعد منتصف الليل)؟

لقد رأيت صورتك.. وأعتقد أنك أكثر ذكاء مما توحي به ملامحك، لكنك أقل ذكاء مما توحي به كلماتك للأسف..

إن كل إنسان يتضح ويعرف كيف يقول (في الواقع)؛ يحسب أنه صار حكيمًا يلجأ إليه الحائرون طالبي الرأي الصائب..

سأضرب لك مثالًا على جهلك يا طبيبي المسكين..

ماذا تعرف عن الجاثوم؟

* * *

٢ - مجرد كابوس آخر..

الجاثوم:(Incubus) روح شريرة يُفترض أنها تنام فوق الأشخاص في أثناء نومهم، كابوس، شخص يثير الرعب ككابوس.

[قاموس وبستر الشامل]

* * *

عزيزي د. (رفعت)..

هذا هو ما تقوله المعاجم اللغويّة عن الجاثوم.. وعلى قدر علمي فإن الجاثوم هو جزء من معتقدات العقل الغربي، فلا مجال له في تراث المتحدثين بالعربية.. وإن كان يمكن فهم جذور هذا المعتقد بسهولة.. فالكابوس يجيئنا ونحن نيام - على ظهورنا غالبًا - بمعدة ممتلئة تضغط على الحجاب الحاجز، وتشعرنا بالاختناق.. فنئن في نومنا، وتحتشد حبات العرق على جبيننا...

ثم نصحو صارخين فنقول اللفظة الشهيرة:

- «شعرت كان ثقلًا يجثم على صدري..»

وأمامي - وأنا أكتب هذه السطور - لوحة من القرن السابع عشر، تمثل امرأة نائمة على ظهرها، والألم على ملامحها.. بينما يجثم كائن شيطاني في حجم القرد الصغير على صدرها.. وعيناه تشعان شرًا..

اللوحة مرسومة بالحبر الأسود ولا ألوان فيها.. مما يعطيها كلها طابعًا مقبضًا كئيبًا.. ولا شك عندي في أنها محاولة بارعة لتلخيص ما تعنيه لفظة (جاثوم)..

إن الكوابيس مريعة..

وأشنع ما فيها هو أننا نكون عاجزين فيها عن اتخاذ رد فعل صائب.. فلا سيطرة لنا إطلاقًا على شخوصنا في الأحلام، لكننا نحتفظ بخوفنا عليهم وقلقنا من أجلهم...

* * *

الآن دعنا نقم بالتعارف الذي تأخر بعض الوقت..

الاسم: (هـ)..

السن: ثلاثون عامًا أو نيف وثلاثون..

المهنة: مدرس رياضيات..

الحالة الاجتماعية: متزوج لكني لم أنجب بعد..

سمات خاصة: لا شيء يميزني. فليس في وجهي قبح مميّز ولا جمال مميّز.. إن وجهي من تلك الوجوه التي هي غطاء للجمجمة لا أكثر.. كما إنك لا تستطيع تذكره أبدًا إذا لم أكن أمامك..

لكني - ولا فخر - أعتبر نفسي أذكى شخص عرفته.. ويضايقني كل هذا الحشد من الأغبياء الذين عليّ التعامل معهم؛ منذ أن أدير وجهي لمرآة الحلاقة في الصباح.. وحتّى أراها من جديد في المساء حين أغسل أسناني..

إنني أعرف كل ما سيُقال أمامي منذ أن يُذكر أول حرفين من الجملة.. وأتنبأ بنهاية النكتة قبل أن تنتهي.. وأعرف مصير كل علاقة ما إن تبدأ.. لهذا وجدت في الرياضيات الحل الأمثل للسعادة.. ووجدت في المعادلات سلام روحي السرمدي كما قالها (برتراند راسل) من قبل..

العنوان: (.....) - القاهرة.

والآن أنت تعرف على ما تعرفه أمي وزوجتي.. وما يعرفه خير صديق لي (إن كان هناك حقًّا شيء كهذا)..

يمكنني إذن أن أتحدث في شأن قصتي..

* * *

آخر الليل.. آخر الليل..!

والنعاس شراك عنكبوت تتخبط فيها كذبابة غير راغبة في الإفلات.. ودفء الفراش الجميل.. ربما صحوت شاعرًا بتلك الحاجة الحارقة تمزق مثانتك فتهرع - ثملًا مترنحًا - إلى الحمام.. ثم تعود إلى الفراش لتندس تحت الأغطية شاعرًا بأن الحلم لم ينته بعد، ويمكن استكماله دون جهد..

نظرة عابرة إلى أرقام المنبه الفوسفورية وسط السواد المتجانس المريح؛ تخبرك أنها الرابعة صباحًا.. وصوت الـ (تك تك) الرتيب المطمئن يخبرك أن دورة الزمن مستمرة بثقة.. وأن حركة الأفلاك منتظمة.. وأن الغد قد جاء.. فلا تقلق.. لا تقلق!

وفي الحلم تقال أشياء وتحدث أشياء..

هأنذا.. إنني أقف في العراء وسط الرياح.. والقصر المهجور أمامي.. هذا المشهد يتكرر كثيرًا.. أم لعلها المرّة الأولى؟ في الأحلام يغدو مستحيلًا أن تجزم بالحقيقة..

شيء ما في مشهد القصر يقول لي: ألا أدخل.. يقول لي: أن أفر كأنما الجحيم ورائي..

لكنك تعرف ما يحدث في الكوابيس.. لابد أن يحدث المحظور.. ولا قدرة لك بتاتًا على التحكم في سلوك أبطال الكابوس..

افتح عيني لحظة لأرى ظلام الحجرة، والحدود الخارجية لزوجتى النائمة تغط على بعد سنتيمترات.. أعرف أنّ هذا حلم.. لكنّ الصباح ما زال بعيدًا وأنا لن أصحو قبل الثامنة.. فلأستمتع إذن بهذه المغامرة مادمت سأصحو لأجد أنني في الفراش الدافئ تحت الأغطية كما أنا..

وأغمض عيني من جديد...

أرقى درجات القصر وأزيح الباب الخشبي العملاق.. من المنطقي أن يحدث صريرًا لكنه لا يفعل..

في الداخل يكسو الغبار والعنكبوت كل شيء.. لكنني أتقدم في إصرار، وقد بدا عليّ كأنني أعرف ما أريد بالضبط..

هناك حجرة.. حجرة في نهاية الرواق الذي أمشي فيه.. كل شيء يقول لي ألا داعي لفتح بابها.. لكن شخصي في الحلم يتقدم.. يتقدم.. ثمّة مفتاح في الباب.. مفتاح غريب الشكل عملاق يمتلئ بتلك الزخارف التي تمثل الماضي.. الماضي الذي كان الناس يملكون فيه الوقت والبال الرائق لعمل هذه المنمنمات..

أولج المفتاح في القفل، وأشعر بعناده وثقله.. لكنه يستجيب في النهاية.. وينفتح الباب بصرير طويل هذه المرّة...

كان ينتظرني بالداخل..

من قرون طوال كان ها هنا.. ولم يضايقه أحد.. لكني كنت الأول.. وبالتأكيد سأكون أول آدمي يراه منذ قرون.. لكنه سيكون آخر مخلوق أراه في حياتي..

كيف كان يبدو؟ لا أذكر بالتأكيد.. فقد كان المناخ ضبابيًا غريبًا.. والأحلام تكتفي بالانطباع العام غالبًا دون ذكر تفاصيل.

فقط كان غاضبًا وكنت أنا في حالة يرثى لها من الهلع..

ركضت نحو الباب.. آه! هذا هو ما يتكرر في الكوابيس دومًا.. إن قدمي تزنان أطنانًا، وحركاتي بطيئة غبية تثير استفزاز من يرى المشهد.. حتى الصراخ عسير يخرج واهنًا من حلقي لا يكاد يسمع..

بصعوبة عبرت الباب، وأدرت المفتاح في القفل ودسسته في جيبي، ثم رحت أركض - بالسرعة البطيئة - محاولًا الفرار من هذا المكان المشئوم..

باب القصر.. لم تبق سوى بضعة أمتار و.. الشمعدان الفضي.. الستار الممزق.. لوحة جدارية مغبرة تظهر فارسًا يغرس رمحه في صدر أسد.. العناكب و.. قلبي يكاد أن يتوقف.. الـ..

لكن الشيء كان ينتظرني.. ويقطع على الطريق..

كيف خرج من محبسه؟ لا أفهم.. ربما كان هناك باب خلفي أو.. هل يوجد منطق للكوابيس؟ إنّه هنا وكفى..

من المستحيل أن أفر منه بهذه الانعكاسات البطيئة..

إذن أصرخ.. وفي هذه المرّة نجحت الصرخة في مغادرة حلقي..

الغووووو.....

* * *

... ووووووث!!

ثم هذا المشهد التقليدي: أنا أصحو من النوم صارخًا.. وزوجتي تنهض مذعورة تتساءل عما هنالك..

وبعد ثوان أدرك أنني في الفراش، وألا وحوش هنالك تنوي التهامي.. وأسمعها تبسمل.. وتهرع - في الظلام - إلى المطبخ.. ثم تعود لي حاملة كوبًا من الماء..

ألهث وأمسح العرق عن جبيني.. وأفتح زرًا من أزرار منامتي كي أتيح للسعة البرد أن توقظني.. وأغمغم بالعبارة الشهيرة:

- «كان كابوسًا مريعًا.. كأن أحدًا كان يجثم على صدري..»

- «اللّهم اجعله خيرًا..»

- «رأيت أن...»

رفعت يدها في حزم - كأية زوجة مصرية بنت مصرية - تمنعني من الاسترسال، قائلة في لهجة لا تناقش:

- «صه! لا تحكه وإلا تحقق..»

فابتلعت ريقي وتدثرت تحت الغطاء، وجسدي كله ما زال يرتجف من فعل الكابوس.. رائحة الغبار في القصر ما زالت في أنفي، وملمس المفتاح البارد ونسيج العنكبوت على ذراعي..

- «تصبح على خير..»

- «هم م م م!»

قلتها وعدت أذوب في عالم الظلام، حيث الفارق بين الموتى والأحياء هو ذبذبة في رسم المخ الكهربائي.. إن النوم هو بروفة ممتعة للموت. موت يمكن العودة منه دون جهد.. وهذا هو ما يعطيه جاذبية كجاذبية مشاهدة أفلام الرعب، أو ركوب القطار الأفعواني في مدينة الملاهي..

لكني لم أر القصر ثانية في هذه الليلة..

* * *

في الثامنة صباحًا نهضت من النوم، وقمت بالأعمال التقليدية التي تصاحب الاستيقاظ.. ثم شرعت أحلق ذقني أمام المرآة.. إن المدرس يجب أن يكون حليق الوجه مهما كانت حالته النفسية.. قليل هم المحظوظون الذين يسمح لهم بترك ذقونهم غير حليقة حين يشعرون بإرهاق أو اكتئاب.

كنت أتفقد سمات وجهي.. وأستعيد الشعور بأنني لم أر قط كابوسًا أشد وضوحًا من هذا، حتى ليوشك أن يكون رؤيا..

في غرفتي انتزعت الجزء العلوي من منامتي، توطئة لارتداء ثياب الشارع.. حين سمعت صوتًا معدنيًا غريبًا..

لقد سقط شيء من جيب السترة..

انحنيت باحثًا عنه فوجدته..



لكن الشيء كان ينتظرني . . ويقطع عليّ الطريق . .
كيف خرج من محبسه ؟

كان مفتاحًا معدنيًا مليئًا بالزخارف.. يعود إلى الماضي الذي كان الناس يملكون فيه الوقت والبال اللذين يسمحان بعمل هذه المنمنمات!

* * *

٣ - أسطورة آخر الليل..

عزيزي (رفعت):

لك أن تتصور ما دهاني من حيرة، وما أصاب توازني من خلل بعد هذا الاكتشاف المدهش..

في البدء استجوبت زوجتي واستجوبت ذاكرتي بشأن هذا المفتاح، فكان الجواب اليقين هو أن أحدنا لم يره قط.. أنا رأيته في مكان ما.. وأنت تعرف مثلي أين كان هذا المكان..

لكنني لجأت إلى المنطق العلمي الصارم لأبرر الموقف: أنا نمت بهذا المفتاح الذي وجدته في مكان ما... وفي أثناء النوم تحسست أناملي جيبي.. فشعرت به.. وتكفل عقلي الباطن بإدماج هذا المؤثر الحسي في الحلم.. كلنا مررنا بأحاسيس مماثلة من قبل.. ورنين جرس المنبه غالبًا ما يقتحم الحلم ليغدو رنين جرس باب أو شيئًا من هذا القبيل.. والمحير في هذا أن الحلم قد يبدأ بالرنين.. ثم يكون طويلًا جدًّا.. ونصحو لندرك أن المنبه يرن.. فتصيبنا الحيرة.. إذن فهذا الحلم الذي حسبناه طويلًا كالدهر لم يستغرق سوى عشر ثوان أو أقل[1]..

المشكلة هنا هي أنني لا أعرف متى ولا كيف وضعت هذا المفتاح العجيب في جيبي..

لكن هذا التفسير مُحتّم حتى لا أجن..

* * *

في المدرسة أيقن الجميع أنني لا أبدو على ما يرام.

إن المدرس لشبيه بممثل المسرح الذي يتوقع منه الجميع انفصالًا تامًا عن مشاعره الداخلية.. يجب أن يكون دومًا منتعشًا نشطًا مفعمًا بالبشر حتى لو كان نومه متقطعًا مفعمًا بالكوابيس...

الحق أقول إن أدائي كان مخيبًا للأمل..

وفي غرفة المدرسين وجدت مجلة طبية نسيها أحدهم، وإن كان قد وضع خطوطًا حمراء تحت سطور مقالة تتحدّث عن مشاكل الغازات وصعوبات التبرز.. وهذا يدلك على أنه رجل يفتقر إلى الشاعرية في قراءاته..

لكنّ ما أثار انتباهي هو مقالة في ذات المجلة تتحدّث عن علم صيني المنشأ هو علم (الأونيرومانسي)[2]..

وهذا العلم ـ باختصار مخل - هو علم معرفة الأمراض الحادثة في الجسم عن طريق الأحلام التي يراها صاحب هذا الجسم..

وطبقا لعلم (الأونيرومانسي) يمكن تحديد القوائم التالية:

- الأشباح والعفاريت والنار والدخان: تشير لمرض القلب..
- الحروب والجنود والبحار الهائجة: تشير لمرض الرئتين.
- الغرق واللعب في الماء: تشير لأمراض الكلى.

• الحفلات والولائم: تشير لمرض الطحال
• الغابات والجبال والمزارع: تشير لمرض الكبد.
• أحلام دموية: نزف المخ.
• شلالات: تشير للأنيميا (فقر الدم).

أثار هذا شغفي.. يمكن بسهولة إثبات أنّ هذا العلم محض هراء.. لأنني أحلم بالولائم طيلة حياتي وما زال طحالي بخير حال.. لكنّ شوق المرء العارم إلى المجهول يجعله يقبل أن يقرأ سطورًا كهذه، ويحاول تبين بعض الصواب فيها...

طبقًا لهذا أنا أعاني مرضًا عضالًا في القلب.. ألم أر شبحًا مريعًا في حلمي؟

فإذا تركنا الصينيين بعلومهم شديدة التعقيد وجدنا الأخ (فرويد) بتفسيراته القائمة على الغرائز المكبوتة، والإمام (ابن سيرين) الذي يستلهم الدين في تفسيراته..

كلهم حاولوا.. لكنّ أحدًا لم يقدم تفسيرًا لوجود هذا المفتاح في جيبي بعد انتهاء الكابوس...

* * *

وحين عدت لداري تناولت الغداء الدسم المكون من الأرز والخضر واللحم المحلى بالدهن..، ثم أعلنت لزوجتى أنني داخل الفراش لأغفو قليلًا..

- «لكنّ هذا غير صحي.. إن الإنجليز يقولون..»

قلت لها في ملل:

- «أعرف.. أعرف.. بعد العشاء نم قليلًا.. وبعد الغداء امش ميلًا.. لكنّ المرحومة أمي كانت تقول: اتغدى واتمدى.. وهي بالتأكيد تعرف ما يناسب ابنها خيرًا من الإنجليز..»

لكني كنت أزمع أمرًا آخر..

فنوم العصر بعد غداء دسم هو الطريقة المثلى للإصابة بالكوابيس.. وأنا كنت بحاجة إلى أن أعرف أكثر.. أن أخوض الكابوس من جديد أو أستكمله..

لكن النتيجة سلبية: هأنذا أفيق من النوم وقد بدأ الغسق يغزو الحجرة، ورائحة عطرية لا أدري كنهها تفعم الهواء.. ربما هي رائحة مبيد حشري رشته زوجتي لخنقي..

لكني لم أحلم بقصر الأمس.. ولم ألق ذلك المخلوق..

وفي الخامسة عصرًا يبدأ توافد الطلبة الذين جاءوا للدرس الخصوصي.. نعم.. فأنا مدرس... تقول لي: إن هذه ظاهرة غير صحية وما إلى ذلك.. فأقول لك إنني بشر بحاجة إلى أن أنفق لأعيش.. وراتبي ينتهي بعد ثلاثة أيام من صرفه لي.. ثم إن هذا لم يجعلني أقصر لحظة في أداء واجبي في المدرسة.. هؤلاء الطلبة راغبون في الاستزادة وأنا قادر على الزيادة.. فما هي المشكلة إذن؟

حول المائدة الطويلة في غرفة الطعام يجلسون ويتهامسون...

ثم أدخل أنا مرتديًا الروب وتحت إبطي الكتب فيصمتون.. وأبدأ في الكلام...

تحليل القوة إلى مركبتين.. عجلة الجاذبية.. المسقط العمودي.. المنحنى التفاضلي.. لوغاريتم العدد (ع س) يرفع لأس ١٢..

مع ضربات حاسمة سريعة على اللوح بقطعة من الطبشور.. هذا اللوح قمت بصنعه بنفسي وجعلت له حاملًا يسمح بنقله..

أونيرومانسي.. والمراهقون يحلمون كثيرًا.. بالنسبة لهم ما زال للهواء رائحة.. وللعطور معنى.. ولليل قصة..

الجذر التكعيبي للعدد (هـ).. إثبات نظرية (فيثاغورس).. لغة الأرقام لا تكذب ولا تقبل حلولًا وسيطة.. إنها الإحكام ذاته.. ليتهم يفهمون بوجوههم الحالمة، وشواربهم نصف النامية، وأصواتهم نصف الخشنة..

ويمر الوقت..

وجوه تتبدل.. وجوه ناعمة طويلة الشعر ترتدي الفساتين..

ووجوه خشنة نصف حليقة..

وتستمر المسرحية.. تستمر حتى العاشرة مساء.. فأنا كما ترى يا د. (رفعت) إنسان مشغول وناجح في عمله..

فلا أملك الوقت مثلك كي أتساءل عن أسرار الطبيعة وما وراءها..

وحين ينصرف آخر تلميذ من غرفة الدرس هذه؛ أكون قد تحولت إلى نفاية عقل.. وتحشرج الصوت في حلقي..

أخرج إلى امرأتي لأجدها عاكفة على إعداد العشاء في المطبخ..

تقول لي وهي تهرس الفول بشوكة صغيرة:

- «نحن بحاجة إلى تغيير.. هذه الحياة المملة ذات الوتيرة الواحدة تقتلنا ببطء..»

فأقول وأنا أخرج زجاجة الماء من الثلاجة لأجرع منها:

- «لا حيلة لنا.. هذا هو مصدر رزقنا الأساسي والوحيد.. وليس من حق العناكب أن تسأم البقاء في بيوتها بانتظار الذباب..»

- «أبقى وحيدة طيلة النهار والليل..»

- «الوحدة خير من الفاقة.. وعلى كل حال أنا لا أتركك وحيدة كى أذهب إلى دور اللّهو.. إنني لا أحب ما أقوم به كثيرًا..»

تقول وهي تسكب الزيت على الفول:

- «أنا بحاجة إلى عمل.. إلى وظيفة..»

- «أنت بحاجة إلى طفل..»

فتهدأ قليلًا.. وتدفن وجهها فيما تقوم به...

وهى حيلة لا بأس بها أمارسها معها كثيرًا.. التظاهر بأنها قد جرحت كبريائي.. فأنا لا أنجب.. وهي تعلم ذلك.. ولأنها رقيقة فإنها تتجنب أي تلميح إلى هذا الموضوع.. لهذا أجدها وسيلة فعالة في أية مشاجرة أن أعلن لها أن مشكلتها هي الحاجة إلى الأمومة.. من ثم تغير الموضوع فورًا وتكفّ عن لجاجتها..

لقد عرضت عليها الانفصال مرارًا لكنّها بكرم نفسي غير مفتعل تأبى ذلك.. وأنا أمقت أن يضحي أحد بعود ثقاب من أجلي.. لهذا لم تسعدني تضحيتها هذه.. بل وجعلتني غير كثير الميل إليها..

إننا لا نحب لقاء دائنينا أربعًا وعشرين ساعة كل يوم.. وزوجتي دائنة.. دائنة من طراز خاص لا يمكن تحمله..

* * *

تك.. تك تك.. تك.. تك تك!

هوذا حارس الزمن يمرّ على ممتلكاته.. يتأكد من أن الأفلاك تدور بانتظام وأن الغد قد بدأ.. وأن الوطاويط والبوم قد عادت إلى ديارها على حين تستعد العصافير والقطط للاستيقاظ..

إنه آخر الليل..

أشعر بهذا وأحسه.. وأعرف أنني نائم أحلم..

هذه هي الأحلام المتجلية Lucid dreams كما يسمونها.. وهي الأحلام التي يعرف النائم في أثنائها أنه يحلم.. وهي أرقى أنواع الأحلام وأكثرها قابلية للتفسير..

الغوووووث!

كنت أواصل الصراخ.. وأمامي ذلك الشيء الذي لا أتبين ملامحه لكني أخشاه كثيرًا.. وأدركت أنه ذات الموضع الذي انتهى عنده الحلم السابق.. أم تراني أحلم للمرة الأولى وأتخيل أنّ هذا تكملة لحلم قديم؟ لست واثقًا..

لكني أركض..

أركض إلى أين؟

لا يهم.. هناك رواق طويل إلى اليمين تكتسي جدرانه بالطحالب وله رائحة عفنة مقيتة.. على الحائط مشاعل بها لهب.. أحدهم أشعلها ولا أدري من هو حقًّا..

أركض في الممر غير متبين نهايته الغارقة في الظلام.. وأنظر للوراء فأرى هذا الشيء عند طرف الممر قادمًا نحوي بتؤدة.. وباستمرار!

من الخطأ الفادح أن ينظر المرء للوراء حين يكون مطاردًا.. فهكذا يتعثر.. هكذا يتخبط.. هكذا ينتابه الهلع..

لكن نهاية الممر غارقة في الظلام أمامي..

ماذا لو كان مسدودًا؟

لا أدري ما سيحدث وقتها.. رحت أئن.. وفيما بعد قالت زوجتي إنها سمعت صوت أنيني وأنا نائم...

ماذا لو كان مسدودًا؟

أنا الآن في الظلام الدامس.. لكنى أسمع صوت الشيء قادمًا.. إنّه لا يزأر كأي وحش محترم.. بل هو يصدر هديرًا منتظمًا كهدير الثلاجة.. حتمًا هذا هو صوت الثلاجة في مسمعي، وقد وجد له عقلى الباطن مكانًا في الكابوس.. تمامًا كما يفعل مع صوت المنبه والهاتف..

كان هناك مشعل على الجدار الحجري جواري.. مشعل يلفظ أنفاسه الأخيرة لسبب مجهول.. فوثبت لأنزعه من مكانه.. ورفعته عاليًا فتأجج اللهب واضطرم..

وعلى الضوء الخافت الذهبي المحيط به أدركت أنني كنت على حق...

إن الممر مسدود حقًّا!

* * *

٤ - الطبيب وعرين الموتى..

وقفت وظهري للحائط ورفعت المشعل عاليًا..
كان بوسعي أن أرى الشيء وهو يدنو مني.. بتؤدة وثقة.. لم لا وأنا الآن فأر في مصيدة؟
لم يكن أمامي سوى القتال بالشعلة.. صوبتها إلى ما أعتقد أنه وجهه، وأطلقت صرخة عالية..
ولكن.. ألم تكن تلك صرخة حمل يلمس نصل السكين عنقه؟
لاااااا...

* * *

.. آاااااه!
وثبت من فوق وسادتي أكافح من أجل الهواء.. وكالعادة كانت زوجتى جاهزة بالأدعية وعبارات التهدئة.. كفها البارد على جبيني يعيدني إلى الواقع ويمنحني شعورًا بالسكينة..
- «كابوس آخر! يجب ألا تتناول في العشاء سوى الزبادي»
لكنني كنت عاجزًا عن الكلام...
لو تكلمت لقلت لها إنها حمقاء ككل البشر ذوي القياس الخاطئ.. لو كان للطعام دور في هذه الكوابيس لزارتني بعد الغداء الذي تعمدت أن يكون دسمًا.. إذن - بهذه التجربة البسيطة - يمكن القول: إن الكابوس لا علاقة له بما آكل ولا بوضع نومي..
هذا الكابوس له علاقة بآخر الليل..
كادت تنهض لتحضر لي كوب الماء الأبدي، لكني أبقيتها في الفراش بإشارة من يدي ونهضت لأحضره لنفسي...
تألق مصباح المطبخ (النيون) المتقطع يحدث في ذهني ما يحدثه الضوء المماثل لمرضى الصرع.. وأسترجع تفاصيل الكابوس الذي ما زال ساخنًا متوهجًا..
عدت إلى الفراش وأنا أسمع أصداء قرآن الفجر تتردد من مسجد بعيد.. ورجل يمشي في الشارع يتحدث بصوت عالٍ إلى آخر.. كأنما ليس في الكون سواهما..
هنا وجدت زوجتي قد أضاءت الأباجورة.. وكانت جالسة فوق الفراش على ركبتيها تتفحص شيئًا ما..
سألتها وأنا لم أسترد وعيي بعد، كأن نسيج عنكبوت يغلف ذهني:
- «ماذا هنالك؟ لا أظن أنني فعلتها!»
قالت وهي ترفع الشيء الذي كانت تتفحصه:
- «ما هذا؟ لقد أتلف الملاءة تمامًا...»



وعلى الضوء الخافت الذهبى المحيط به أدركت أننى كنت
على حق . . إن الممر مسدود حقًا !

ونظرت إلى يدها.. كان هذا ـ لمن يجهل الأمر - أقرب إلى مقبض خشبي اسودّ طرفه.. لكنه بالنسبة إليّ كان مألوفًا تمامًا..
كان هذا مشعلًا منطفئًا، وقد لوث الملاءة بالسناج إلى حد مروع!

* * *

- «(ع).. أنا خائف..»
كنت نائمًا على ظهري في الفراش أرمق ستار الظلام المعلق في الهواء.. وأرتجف.. ومن عيني سالت عبرتان لم أستطع منعهما..
قالت في رفق وهي ترمق الظلام جواري:
- «هذا غريب.. لكنه لا يعني شيئًا..»
- «إن ما أجهله يثير رعبي حتى لو كان غير خطر..»
وحكيت لها في الظلام بصوت أثار شجني شخصيًا؛ كيف أنني في صباي وجدت حشرة مسالمة لا خطر منها، لكني كنت أجهلها وبدت لي غريبة جدًا.. حتى إنني ملأت الكون صراخًا وعويلًا..
قالت لي بذات الحنان:
- «أنت رجل علمي واسع الذكاء.. وستجد لهذا كله تفسيرًا..»
كان حنانها قد بدأ يؤثر فيّ حقًّا.. إننا دومًا أطفالهن.. خرجنا من أرحامهن.. وهن وحدهن يعرفن كيف يزلن خوفنا من الظلام.. إننا أقوى منهن وأشجع منهن لكنهن يعرفن كيف يحمينا..
قلت لها وأنا أتنهد وأغلق عيني:
- «غدًا سأذهب لأرى طبيبًا نفسيًا..»

* * *

عيادته في شارع (شريف)..
لابد أنك تعرفه.. دكتور (م.ن) الأستاذ في ذات الكلية التي تعمل أنت فيها يا د. (رفعت).. لكنّ لا تحاول سؤاله عني لأنّه رجل يحترم مهنته ولا يفشي أسرار مرضاه أبدًا..
جلست وزوجتي في العيادة الخاوية متوترين.. ورحت أشعل لفافة تبغ تلو الأخرى.. أنا أثق بالطبيب النفسي الذي خلت عيادته من المرضى.. فهو رجل سيعطيني ما أريد من وقت.. رجل يملك الوقت الكافي للقراءة والتأمل واكتساب الحكمة..
نظرت في ساعتي.. ما زال الوقت كافيًا للكشف، فالعودة إلى الدار ونيل قسط من الراحة قبل ميعاد الدرس الخصوصي..
وابتسمت حين لمحت الذعر على وجه زوجتي.. إنها تحسب عيادة الطبيب النفسي ملأى بجراثيم الجنون.. وتتوقع - في أية لحظة ـ أن يقتحم المكان مخبول يلوح بسكين وهو لا يرتدي سروالًا..
دعانا الممرض العجوز المتثاقل إلى الدخول.. فنهضنا لنلقى الكاهن الأعظم في محرابه..

كان شيخًا فانيًا ـ كما تعرف عنه ـ لكنّ له عيني صقر.. وهو يكتفي بتأملك من فوق الإطار العلوي لنظارته، ولا تقول شيئًا تقريبًا... سوى عبارات من طراز (خيرًا؟ ثم ماذا؟ وبعد؟)

ويخط عبارات في دفتر صغير أمامه..

حكيت له قصتي بعبارات مختصرة ملول.. بينما عينا امرأتي المرعوبتان ترمقان كل لفظة تخرج من فمي.. يبدو أن كلماتي تخرج في بالونات كما يحدث في قصص الأطفال الهزلية..

أخيرًا جاء دوره ليسألني:

- «هل من عادتك أن تمشي في أثناء النوم؟»

مشي في أثناء النوم؟ لم يخطر لي هذا قط.. الحق أنّ هذا حدث مرارًا.. لكني بهذا أقدم له الحل النهائي للمشكلة.. ومن العسير أن يتخلى هو عن هذا التفسير الذي ألقي له كطوق نجاة.. قلت في كياسة:

- «الواقع أن...»

- «نعم أم لا؟»

- «نعم.. لكنّها ليست عادة.. أعني.. مرة أو مرّتين ذهبت إلى المطبخ.. وجدتني زوجتي هنالك أفعل أشياء ما.. لكني لا أذكر عنها حرفًا في الصباح..»

في انتصار أضافت زوجتي:

- «ومرة فتح جهاز التلفزيون وراح بعينين لا تريان يراقب الشاشة الخاوية بعد انتهاء الإرسال..»

بدأ الاهتمام في عيني الصقر.. وتساءل:

- «ومنذ متى بدأ هذا؟»

- «منذ أن عرف أن...»

وصمتت بعد ما أدركت أنها تكلمت كثيرًا.. فسألها كمحقق بارع لا يترك خيطًا أمسكه:

- «عرف ماذا؟»

أطرقت بوجهها غير راغبة في مواصلة الكلام، فبادرت أنا بالإجابة عن سؤاله قائلًا في تحد وقح:

- «منذ أن عرفت أنني لا أنجب..»

- «آه ه ه ه!»

والتمعت نظرة فرويدية نهمة في عينيه.. فقلت أنا محاولًا أن أمنعه من الاسترسال في الاستقراء:

- «أعرف ما ستقول.. ستقول إن عقلي الباطن يحاول الخروج من الكبت الذي يسببه إحساسي بالنقص.. لهذا أمشي في أثناء النوم وأضع أشياء في الفراش.. إن المفتاح والمشعل لرمزان فرويديان قويان.. لكنّ دعني أؤكد لك أن الأمر ليس كما تحسبه.. أنا لم أمش في أثناء نومي.. وزوجتي تدرك ذلك..»

قال وعينا الصقر لا تبارحان وجهي:

- «أنت مثقف يا سيدي.. ومشكلة المثقفين هي أنهم لا يمنحون ثقتهم للطبيب النفسي.. إنهم يحسبون أنهم يعلمون قواعد اللعبة جيدًا.. وهذا سيؤثر دون شك على فعالية العلاج.. إن القاعدة الأولى في أي علاج هو أن يهاب المريض طبيبه بعض الشيء.. وهذا لن يكون الحال معك..

خاصة وأنت تبدي نوعًا ما من العدائية نحوي.. برغم أنك صاحب فكرة المجيء هنا على ما أظن ولم تكن (المدام) هي صاحبتها؟»

قلت في كياسة:

- «هذا حق.. لكني كنت دائمًا أعادي طبيب العيون وطبيب الأسنان.. وأعاملهما كخصمين يحاولان هدمي...»

وضع راحتيه على المكتب، وتنهد في ارتياح، ومال إلى الأمام قائلًا:

- «حسن.. الآن نحن نفهم بعضنا خير فهم.. فلنتكلم بصراحة إذن: ما هو دليلك على أنك لا تمشي في أثناء النوم؟»

- «وما هو دليلك على أنني أمشي؟»

- «لأن هذا هو ناموس الكون.. الأشياء لا تغادر الأحلام لتظهر في فراشنا.. كما أنّ الأفيال لا تطير والدم لا يتحول إلى ماء..»

نظرت له في حيرة.. وعجزت عن إضافة كلمة أخرى..

* * *

قمنا بتجربة عملية كما نصحنا د. (م.ن)...

في هذا المساء قامت زوجتي بتغيير ملاءة الفراش وغطائها.. وتأكدت من عدم وجود أية أجسام غريبة هنالك.. قامت كذلك بتفتيش جيوب منامتي للتأكّد من أنني لا أضع شيئًا فيها...

وخضعت أنا في إذعان لهذا التفتيش المهين، فقد كنت أريد أن أعرف حقيقة ما يحدث لذاتي..

أما الإجراء الأكثر أهميّة فهو أنها جلبت مقعدين ثقلين وضعتهما إلى جانب الفراش؛ ليعوقا حركتي قدر الإمكان لو أنني نهضت ليلًا..

أعرف أنني لن أنام.. الترقب سيبقيني يقظًا.. لهذا ابتلعت قرصين من (الفاليوم) لأنام برغم أنفي..

يمكنني أن أجبرها على البقاء متيقظة لتراقبني.. لكنك تعرف آخر الليل.. حين يتسلل النعاس إلى أقوى الجفون لينهكها ويجعلها تزن أطنانًا..

وهكذا حين أطفأت ضوء الأباجورة؛ كنت قد بدأت أحلم وعيناي مفتوحتان.. إرهاق اليوم مع فعل المهدئ..

كل هذا له أ.. ك.. بـ.. ر.. أ.. ل..

* * *

لاااااااه..!

ودفنت المشعل في وجه الشيء.. لكنه لم يصرخ.. المريع أنه لم يصرخ.. فقط سمعت صوت الاحتراق الشبيه بـ.. بماذا؟

لا وقت للبحث عن تشبيه بليغ.. فلأهرب..

ولكن لأين؟

ثمة كوة صغيرة مستديرة جواري.. كيف لم أرها من قبل؟ إلام تقودني يا ترى؟ لا يهم.. إنها ستبعدني عن هذا الشيء وكفى..

وفي ثوان كنت قد حشرت نفسي فيها وعبرتها..

لم تكن هناك هاوية كما توقعت.. بل كان هناك منحدر وعر يوشك أن يصير قائم الزاوية مع الأرض..

وهكذا ـ تعرف هذا الشعور. راحت قدماي تركضان على غير إرادة مني، وبسرعة لا تصدق نحو قاع المنحدر.. لكني ظللت أقف عليهما..

ولمحت عيني مشاعل غريبة الشكل على جدران المكان.. مشاعل هي جماجم آدمية وضعت شموع في محاجرها...

ما هذا المكان؟

كنت قد استقررت على قدمي، واستطعت أخيرًا أن أعرف أين أنا.. كنت في قاع المنحدر.. في قاعة تشبه المحراب.. وكانت هناك عظام آدمية متناثرة هنا وهناك..

وبدأت أفهم أين أنا من بعض السمات الواضحة..

إن هذا هو وكر (نكرومانسر).. (نكرومانسي) محترف[3].. أنا أعرف هذه الأمور من قراءاتي.. ولكن في أي عصر عاش هذا الشيطان؟ هل الوحش هنا وهناك.. والذي هاجمني في الطابق العلوي هو (البودى جارد) الخاص به؟

ولم تطل أسئلتي للأسف.. وليتها طالت..

كان (النكرومانسر) واقفًا ـ كسحرة القصص القديمة ـ أمام مرجل يتصاعد منه البخار، وقد ارتدى عباءة تنسدل على وجهه فلم أتبين ملامحه جيدًا، وقد سرني هذا..

سمعت صوته البارد الرهيب يقول لي:

ـ «هلمّ ادن مني..»

وكأنني تحت تأثير التنويم المغنطيسي دنوت منه في حذر..

قال وهو يقلب ما في المرجل بعصا خشبية:

ـ «أنت قد دنوت من النار أكثر من اللازم.. ولسوف ينالك من أذاها ما لا ترغب..»

خطر لي هنا ما قاله علماء النفس عن أن الأحلام الملونة تدلّ على اضطراب نفسي.. أنا أعيش حلمًا ملونًا رائع التلوين.. وبالتالى هذا دليل أكيد على اضطراب النفسي..

قال (النكرومانسر) وهو يشير إلى ما وراء ظهري:

ـ «لهذا سلطت عليك (الجاثوم).. (الجاثوم) القادم من كوابيس الموتى ليجعل ليلك جحيمًا ونهارك رعبًا..»

وهنا نظرت إلى الوراء لأرى ذلك الشيء الذي طاردني في الكوابيس كلها.. وهو يتقدم منى ببطء شديد واثق..

قال الرجل وهو يواصل تقليب ما في المرجل:
ـ «إن موعدك معه هو آخر الليل.. آخر الليل حين تحين ساعة الذئب.. عندها ستتمنى لو لم تكن حيًّا..»
تراجعت إلى الوراء وأنا

(ما الذي يغلي في هذا المرجل؟!)

أتحسب لموضع قدمي.. الكائن أمامي الآن وصاحبه خلفي.. وأنا لا أطيق مجرد لمس أحدهما.. إن ما سأقوم به الآن هو عمل أخرق لكنه

(رباه!.. ألن أصحو من هذا الكابوس؟)

ضروري حتمًا..
وبركلة واحدة ضربت المرجل فانقلب على الرجل الواقف خلفه..
هذه المرّة لم تكن تلك صرختي..

* * *

٥ -أعصابي..!

لقد صرخ الرجل وداري عينيه بكفيه..
وكنت من اللحظة الأولى أرتجف هلعًا من نتيجة ما فعلت.. ولسوف يكون انتقامه رهيبًا لو ظل حيًّا..
انحنيت إلى الأرض فالتقطت عظمة آدمية كانت هناك.. وبأعنف وأعتى ما بوسعي هويت على رأسه.. هل كان هذا هو صوت تهشّم العظام أم تهشّم جمجمته؟
لكنني - قبل أن أتبين الأمر - شعرت بيدى المسخ الذي عرفت أنه يدعى الجاثوم.. شعرت بها تلتف حول عنقي..
في هذه المرّة لن يكون الفرار ممكنًا..
النجدااااا..

* * *

آاااه!
وكان المشهد مختصرًا في هذه المرّة..
زوجتى أضاءت الأباجورة.. ولم تبادر بتهدئتي أو تقل شيئًا.. فقط جلست في الفراش ترمقني بعينين متسائلتين تقولان: هل حدث هذه الليلة أيضًا؟
لم أرد، ورحت أعب الهواء بجرعات كبيرة.. ثم مددت يدي تحت الملاءة وأخرجت عظمة أدمية.. عظمة ساعد بدا عليها القدم.. وقد شرخت في منتصفها!
كان هذا هو الجواب الذي أرادته..

* * *

استيقظت في الصباح مشوشًا مختلط التفكير..
وقد تكفل المهدئ الذي تناولته بزيادة الأمر سوءًا..
تأملت وجهي في المرأة فوجدت عينين حمراوين أسفل كل منهما انتفاخ شبيه بقرية السقاء.. انتفاخ كالذي تداري فيه أنثى الكانجارو أطفالها..
- «ثدييات كيسية!»
قلتها بصوت مسموع.. ورحت أضحك وقد راقت لي المزحة.. ها ها! وظلت زوجتي ترمق ضحكي بعينين خرساوين..
قلت لها وأنا أرتدي ثيابي:

- «احتفظي بالعظمة مع المفتاح والمشعل.. بعد شهر واحد سيكون عندك معرض كامل.. ومن يدري؟ ربما جلبت لك السيارة التي تحلمين بها من كابوس مماثل!»

وأرحت رأسي على خزانة الثياب الثانية واحدة.. ثم فتحت عيني فوجدت زوجتي تناديني في إلحاح، وقد عادت من الحمام تجفف وجهها بمنشفة:

- «هل نمت وأنت واقف؟ إن ربع ساعة قد مضى عليك في هذا الوضع!»

- «حقًّا؟ لم أغب سوى ثانية..»

لكنّ الساعة قالت لي إنها صادقة.. وهكذا وجدت الحل الوحيد المتاح لي ألا وهو أن أنزع ثيابي وأعود للفراش.. وأستسلم لقبضة (الفاليوم)..

- «لكنّ.. المدرسة؟»

- «إجازة عارضـ..... هم م م م م!»

وكان نوما هادئًا بلا (جاثوم) صحوت منه على صوت أذان الظهر من المسجد المجاور للبيت..

* * *

تكررت مواجهات في آخر الليل مع الجاثوم..

دائمًا أنا في ذلك القصر المرعب أفر بين حجراته، بينما ذلك الشيء المقيت يطاردني، ولا يضل طريقه أبدًا معلنًا عن وعي (طبوغرافي) مدهش.. وكان دومًا هناك في أسوأ لحظة ممكنة ليسد عليّ الطريق، بينما أنا أتحرك هذه الحركة البطيئة المتثاقلة المميزة للكوابيس.. وينتهي الكابوس بصرخة مريعة..

ولم يكن العثور على شيء من الحلم في فراشي أمرًا محتومًا.. ففي مرات عديدة صحوت من النوم لأجد ألا شيء هنالك.. وهذا يوحي بواقعية ما يحدث.. فالحياة بطبعها غير منتظمة ولا تحترم عاداتها.. ولو كان عثوري على شيء من مخلفات الحلم أمرًا معتادًا؛ لبدا لي هذا غريبًا مريبًا..

لن أقول هنا إنني تبدلت في الأيام الأخيرة..

أنا بطبعي عصبي نافد الصبر أشعر أن الحياة أبطأ من اللازم.. والناس أكثر غباء من اللازم...

لكنني في الأيام الأخيرة صرت قنبلة زمنية سريعة الانفجار.. وصرت أتشاجر لأتفه سبب... وقمت بعقاب الطلاب في المدرسة مرارًا على أخطاء أقول ـ بكل أمانة ـ إنها هينة..

وفي المنزل لم أعد أطيق هذه المخلوقة التي لا تملك سوى التضحية من أجلي.. وبدت لي كئيبة ومملّة إلى حد لا يوصف..

كنت أخشى الليل إذا دنا وأحاول اجتنابه، لكني أمارس مهنة لا ترحم.. والنوم ليلًا جزء أساسي من عملي.. فهناك المدرسة صباحًا والدروس الخصوصية ظهرًا.. فمتى أنام إذن إن لم يكن ليلًا؟

لكني فعلتها..

جربت السهر عدة ليال متواصلة، وللسهر طرق عديدة أبسطها القراءة وضبط المنبه ليوقظك في الثالثة صباحًا.. وقد تتعقد أساليب السهر إلى درجة الخروج بعد منتصف الليل.. والجلوس في أحد مقاهي (الحسين) التي لا تنام.. واحتساء جالونات من القهوة..

ماذا يبقى من جهازك العصبي بعد كل هذا؟

كنت أخشى تكرار التجربة.. فهى كريهة بكل مقاييسها، ثم إنني أصحو من النوم شاعرًا بإنهاك عضلي عصبي كأنني كنت أصارع هذا الجاثوم حقًّا لا خيالًا..

ولقد لفتت زوجتى نظري مرارًا إلى كدمات في أكثر من موضع من جسدي عند الاستيقاظ، وهو ما يسميه العامة (ضربات ملائكة) كأن الملائكة تكيل لك الضربات في أثناء نومك؛ فكنت أرد عليها بأن هذا ليس من شأنها وأنها تخرف..

الخلاصة أن أخلاقي صارت - واسمحوا لي بالتعبير- (زي الزفت)..

وفي المرآة بدا لي وجهي كوجه خريج سجون ومسجل خطر.. أو كوجه شيطان زنيم قادم حالًا من سقر ليملأ الأرض جورًا..

رباه! كانت أيامًا شديدة الوطء..

ثم بلغ الأمر ذروته أو - كما يقول أجدادنا العرب - بلغ السيل الزبى في تلك الليلة..

ليلة من ليالي شهر مارس هي..

* * *

كنت جالسًا في واحد من المقاهي التي لا تنام، أرشف قدحًا رابعًا من القهوة، وأطالع جريدة الغد.. أعني جريدة اليوم فنحن في الرابعة والنصف صباحًا، وكان المقهى شبه خاو فيما عدا حشدًا من الشباب التف حول مائدة يتابع مباراة (نرد) حامية بين اثنين منهما..

عناوين الجريدة تتحدّث عن (عبد الناصر) في الجبهة، ومناورات حرب الاستنزاف، ومشكلات (جونسون) الرئيس الأمريكي في فيتنام...

وهنا أعتقد أنني غفوت ثانية أو أكثر..

لم أسترخ ولم أستلق.. بل هو شيء شبيه بغيبوبة تسرب بخارها إلى يافوخي لثوان.. ثم لم أعد أعرف أنني هنا..

(آخر الليل حين تحين ساعة الذئب).. ساعة الذئب هي تلك الساعة من الليل حين يغدو النائم في أضعف حالاته وأوهاها.. ويصير معرضًا لأي إيعاز أو مس شيطاني..

كنت ـ كالعادة ـ أحاول الفرار من ذلك الكائن المريع.. قمت بتسديد ركلة إلى ما أظن أنه مقتله.. المكان هو ذلك القبو المفزع حيث تمارس طقوس استجواب الموتى..

لم نبارحه بعد منذ خمس (حلقات) كاملة..

ليلة أمس تمكنت أصابع (النكرومانسر) المحتضرة من الإطباق على كاحلي، حيث تمدد على الأرض بلا حراك..

اليوم أركله في وجهه وأتملص من قبضته.. ثم أهرع نحو درجات سلم عتيق متهدم.. وأنا

(كيف لم أره من قبل؟)

أتحاشى النظر إلى الوراء..

كانت الدرجات تقود إلى باب موارب.. وأنت تعرف الرعب الكامن وراء هذه الأبواب الموارية في الكوابيس...

لكن ما ينتظرني في القبو لا يحتمل الانتظار..

وهكذا أهرع لأفتح الباب الثقيل ذا الصرير بيد منهكة.. وأخطو إلى الداخل خطوة..
تبًا! إن ما أراه هو كهف متسع يمتد إلى ما لا نهاية تدلى من سقفه الصخري عدد من الهياكل العظمية.. يبدو أنها كانت لبشر تم شنقهم وتركوا على الحبال منذ دهر..
أما ما كنت أقف عليه فهو بروز حجري يطل على هاوية.. الهاوية ملأى بسائل أحمر يفور منذرًا بالويل.. ويتصاعد منها دخان خانق.. إنها حمم.. (لافا) كما يقول الجيولوجيون!
إذن لا مفر من هذه الناحية.. ما بين الأرض التي صهرتها النيران والسقف المزين بثريات آدمية..
لا بد من العودة.. لا بد...
ولكن الشيء كان قد وصل إلى الباب، وسده بجسده العملاق.. ثم راح يزحف نحوي!
هل أتراجع إلى الوراء؟ لا مفر أمامي.. ولكن ماذا عن الهاوية السحيقة التي تنتظرني؟
رحت أئن.. أئن.. وأتراجع.. و.... يا أستاذ!

* * *

ضربة عنيفة على كتفي.. ففتحت عيني..
كان هذا هو (القهوجي) الذي وقف ويداه في جيبي مريولته المتسخة ولفافة التبغ إياها يدسها وراء أذنه..
- «يا أستاذ! لا تنم! هذا ليس فندقًا!»
نظرت له غير مدرك لما يحدث، وقد شعرت لوهلة أنّ هذا جزء من الكابوس.. أضف لهذا الذعر الذي انتابني حين شعرت بأنني لست في فراشي.. بل أنا جالس في مكان عام بارد لا أعرف ما هو..
- «أنت لا تطلب مشاريب منذ ساعة..»
هنا عاد وعيي إليّ.. ومعه فار الدم في رأسي.. فصحت:
- «وهذه القهوة؟ رابع قدح اشربه هذه الليلة.. ثم ما الخطأ في أن أنام في المقهى؟ أنا لست في دار الأوبرا على ما أظن..»
كان سمجًا.. وقال كلامًا كثيرًا عن (الأفندية المتشردين) وعن زبائن آخر الليل الذين هم - بالصدفة - زبائن آخر زمن.. وكيف أنهم أسفل خلق الله طرًّا، وأن من تخلى الناس عنه ولفظته الشوارع يحسب المقهى مأوى لأمثاله و...
هنا لم أرد.. أو - على الأقل - لم أرد بالكلام..
وثبت لأنشب مخالبي في عنقه، ووجهت خمس أو ست صفعات إلى خديه الضامرين، أعقبتها بتطويحه على الأرض، ثم شرعت أوجه ركلات عشوائية إلى ضلوعه.. حتى بدا أنني لن أتوقف حتى تقوم الساعة أو يموت أحدنا..
وفي النهاية كان أولاد الحلال - الذين يذخر بهم العالم - قد أبعدوني عنه، وامتلأ المكان هرجا ومرنا.. وصحا النائمون.. ورأيت دماء تغرق الأرض سالت من أنف القهوجي وفمه وأسنانه وأذنه...

وجاء صاحب القهوة (المعلم) يحاول الفتك بي، لكنّ أولاد الحلال ـ الذين هم في كل مكان ـ ابعدوه عني..

وكانت مشكلة خاصة حين ظهر رجل شرطة.. وكان هناك محضر تعد لي.. ومحاولات صلح... و... و...

وحين انتهي كل هذا كان ميعاد المدرسة قد حان!

* * *

في المدرسة كانت عصبيتي موضوع الساعة..
وكيف لي أن أعرف أن أخا زوجتي اختار هذا اليوم بالذات كى يأتي للحديث معي في موضوع معين؟
هو موظف ذو حيثية في عمله، ومعتد بنفسه.. وأنا أمقت المعتدين بأنفسهم لأنّهم يكشفون عن ضيق أفق غير عادي.. أنا لا أعتد بنفسي إلا لو كنت عبقريًا من عينة (نيوتن) أو (أينشتاين) أو (غاندي).. ومن الطريف هنا أن هؤلاء كانوا هم التواضع ذاته..
أما الأسوأ فيما يتعلق بشقيق زوجتي؛ فهو أنه يعاني حالة مزمنة من التدخل السافر في حياتنا.. على أساس أن تدخله ضروري.. وأنه لو لم يفعل العذبت أخته وجوعتها وأحرقتها بملعقة ساخنة..
في الماضي كان هذا يثير أعصابى..
أما اليوم بالذات فهو قمين بأن يثير جنوني..
قال لي حيث جلس في غرفة المدرسين يجرع المشروب الذي طلبته له:
- «إن حالك يثير القلق حقًّا.. ومنذ أسبوع كامل لم تبت، في دارك.. كنت تعود في السادسة صباحًا..»
- «أنت متابع نهم للأخبار..»
قال في وقار وهو يتجشأ من فعل (الصودا):
- «عصبيتك تزداد والكل يعرف هذا..»
ثم بدأ يلعب دور (الزميل) المتفهم.. قائلًا:
- «لو كان هناك ما يضايقك من (ع) فلتخبرني.. أنا وأنت رجلان يمكننا أن نفهم بعضنا.. انس قرابتي لها واجعل مني صديقك..»
قلت له في سأم وأنا أرشف القهوة:
- «لا مشكلة منها.. إنني أمر بحال نفسية سيئة لا أكثر..»
قال بلهجة العليم ببواطن الأمور:
- «أعلم هذا.. وأعلم أنك زرت طبيبًا نفسيًا وهذا يثير قلقي.. ثم إن ذقنك غير حليقة وثيابك غير مهندمة.. كأنك كنت تتصارع طيلة الليل.. رباه! لشد ما تغيرت.. لا تخف عني شيئًا.. إنّه الحشيش.. أليس كذلك؟ إن هذه العلامات لا تفوتني.. ربما الخمر؟ هذا يصدمنى فيك.. أنت الذي كان مثال الاستقامة والتدين.. إنك تنحدر.. الكل يعلم هذا، لكنك عنيد.. عنيد جدًا تأبى العون.. واسمح الى.....»
هنا شعرت بالبخار الأسود يتصاعد إلى عيني:
- «هل حكت لك عن الأشياء التي أجدها في الفراش؟»
- «أية أشياء؟ تقول: إنك مضطرب نفسيًا وتمشي في أثناء النوم.. وأكثر من هذا..»
- «تبًّا لكما معًا!»
وبالطبع يا د. (رفعت) لك أن تتخيل ما تلا هذا الموقف؛ وكل الصراخ الذي تصاعد من حنجرتينا... فهذه العبارة الأخيرة هي من (العبارات الخاتمة).. أي تلك التي يستحيل الاعتذار بعدها أو التراجع عنها..



وثبت لأنشب مخالبى فى عنقه ، ووجهت خمس أو ست صفعات إلى خدية الضامرين . .

وبعد ها لا تعود الحياة أبدًا كما كانت..

كان هناك عديد من المدرسي ن يحاولون إنهاء الموقف.

. وكان هناك حشد من الطلبة وقفوا حول الباب يرمقون المشهد في شغف؛ وكلهم أمل في أن يحدث ما هو أسوأ..

وانص رف وقد احتقن وجهه، وتطاير

اللعاب من فيه، وراح يردد في هستيريا:
- «لكني سأعرف كيف أربيك! قسمًا سوف أعرف كيف أربيك! ولكن صبرًا! إن لي صلات.. ولئن لم.....»
- «أغلق هذا المجرور الذي ينبعث منه العفن!»
قلتها صارخًا.. وأوشكت أن أثب عليه لولا من أمسك بي..
وبعد ما ساد الهدوء المكان أخيرًا، وبعد ما سيق الطلبة الواقفون إلى فصولهم تحت تهديد العصى، كما يفض الإنجليز مظاهرة سلمية في الهند أيام (غاندي)، عندئذٍ فقط سمعت من يقول لي إن الناظر يريدني في مكتبه.. ليس للحديث عن الفن التأثيري طبعًا..
وعندئذ فقط عرفت ما يقودني إليه ذلك الجاثوم..

* * *

كانت الدار خاوية تمامًا..
وعلى ماندة الطعام كانت هناك وجبة باردة مُعدة.. ورسالة بها كلام فارغ مملوء بالأخطاء النحوية والإملائية والبلاغية..
لقد رحلت زوجتي.. بالتأكيد علمت ما حدث في المدرسة.. وبالتأكيد هي ستقيم في دار أبيها حتى أذهب صاغرًا لأعدها بأنني لن أحلم مرّة أخرى بالكوابيس...
عجيبات هؤلاء النساء! إنهن يفتقرن للمنطقية في كل شيء.. هي بالذات تعرف ما يجري في عقلي هذه الأيام، وتعرف أنني قد زرت الطبيب النفسي مرارًا.. وبرغم هذا كله تجد أن سلوك غريب إلى درجة الهجر..
لكني أعرف سذاجتها وطيبتها، وأعرف أنّ هذه القرارات الحازمة ليست من ديدنها.. بل هناك من أملاها عليها إملاء...
على كل حال هي قامت بآخر واجب نحوي.. كعادتها في حب الاستشهاد والظهور بمظهر الضحايا.. أعدت لي غدائي.. وبعين الخيال أراها تردد طيلة اليوم في مجلس أسرتها:
- «إنني لم انس غداءه حتى في أحلك اللحظات»
إذن لأستمتعن بهذه التضحية خير استمتاع.. فأنا لا أتخلى عن شيء دفعت ثمنه مقدمًا.. ثم إنني لست من البلهاء الذين يفقدون شهيتهم حين تسوء الأمور..
فما ذنب المعدة في كل هذا؟

* * *

انصرف آخر طالب من داري..
فجلست ألتهم العشاء.. وأتابع شاشة التلفزيون بذهن مشتت.. كان الفراش يدعوني وأنا لم أذق النوم أمس...
لكني أهابه.. أهابه كثيرًا..

إن هذا الفراش مسرح ستؤدى عليه بعد ساعات مسرحيّة شديدة البشاعة والهول..
أعرف أنني سأبدأ الكابوس بتلك اللحظة الرهيبة..
أنا واقف على حافة الهاوية أحاول التماسك، بينما الجاثوم يدنو منى متمهلًا.. ولا بد أن أسقط..
هنا خطرت بذهني فكرة لا بأس بها..
إذا كانت الماديات تسافر من داخل الكابوس إلى عالمنا، فلم لا يحدث العكس؟
لقد كان الشاعر الإنجليزى اللورد (بايرون) ينام بمسدس - كان اسمه وقتها غدارة - تحت وسادته؛ كي يقاتل من يزوره في المنام من مسوخ..
لماذا لا أفعل ذات الشيء؟
ليست لديَّ غدّارة.. لكنّ عندي ما هو خير منها أو مثلها..
وابتسمت في خبث...

* * *

٦ - دعنا نفر بعيدًا..

أعترف بأنني أشعر بالخوف..
إنني لم أكن وحيدًا في حياتي قط.. ولقد تركت بيت أسرتي المزدحم إلى هذا البيت مباشرة فلم أمر بوحدة أو عزوبة..
لهذا يثير هلعي أن أنام.. وحدي أنام في الظلام فريسة سهلة.. لا أدري ما يحدث في الردهة المظلمة، ولا ما يحدث في غرفة الصالون الموصدة دومًا..
وعندما تحين (ساعة الذئب) لا يعلم سوى الله ما قد يحدث لي...

* * *

وأخيرا انتصرت الفسيولوجيا..
غبت في الظلام المقدس.. الظلام الذي كنا نراه في أرحام أمهاتنا.. وبدأت الرؤى..
مرة أو مرّتين صحوت من النوم لأتأمل قرص المنبه الفوسفوري في الظلام، وأنظر إلى جانب الفراش الذي كانت (ع) تنام فيه.. شاعرًا أنها مازالت هناك وأن أنفاسها تتردد..
إن من بترت أطرافهم يعانون لفترة طويلة الشعور الوهمي بها.. ويحركون أصابع لا وجود لها.. ويشعرون بملمس أشياء لم يلمسوها.. وهو ما يسميه الجراحون باسم (الطرف الشبح)..
هكذا بترت (ع) من حياتي.. لكنّها ـ بشكل ما ـ ما زالت هنا..
آخر الليل يدنو..
وحين بدأ الحلم التالي عرفت أن ميعادي مع الجاثوم قد حان.. وهأنذا أقف في ذات الموضع على حافة الهاوية، مترددًا بين الوثب في الحمم أو انتظار الشيء المريع القادم من ورائي..
وهنا تذكرت...
هذه المرّة لست أعزل.. بل أنا مسلح بسلاح قاتل حقًّا..
كان هذا هو المنشار الكهربي الذي وضعته في الفراش جوار (الكومود) قبل النوم، وأوصلته بالقابس...
والآن - في المنام - أراني أمسك به وأشغله..
فروووووووم!
القرص المسنون القاتل يتحرك باحثًا عن شيء يبتره..
كان الوحش أمامي.. جسدًا مليئًا بنقاط الضعف..
وكنت أنا في وضع يسمح لي بكل شيء..
وهكذا دار القرص دورته، وانغرس في اللحم.. وسمعت صوتًا غاضبًا شبيهًا بهدير دراجة بخارية..

في اللحظة التالية وثبت جانبًا حين انقض على الشيء الذي جن جنونه...
سمعته يحاول استعادة توازنه، ثم هوى دون إنذار إلى الهاوية.. ولم يكن عندي ما يكفي من وقت كى أتملى مشهد السقوط، لأنني كنت أوشك على أن أفقد التوازن أنا الآخر..
ولحسن الحظ أن المنشار انزلق لينغرس إلى منتصفه في الصخر، مما جعل منه وتدًا أتشبث به بكلتا يدي..
وحين استعدت توازني نظرت إلى أسفل.. للأسف!
لم يكن قد غرق في الحمم.. بل هو متشبث بالحافة وهو يرمقني في كراهية بعينين حمراوين..
يجب أن أتراجع.. يجب أن....
هنا شعرت باليد المخلبية المريعة ترتفع لتقبض على كاحلى!
وأدركت أنه يجذبني من أسفل نحو الحافة..

* * *

كنت أئن.. أئن..
وحين صحوت من الكابوس مبللًا بالعرق البارد.. أرتجف كورقة؛ أدركت أن الجاثوم وضعني مرّة أخرى في مأزق..
يجب انتظار حلقة غد لمعرفة ما حدث..
أضأت الأباجورة وملت على (الكومود) بحثًا عن المنشار الكهربي.. لكنه لم يكن هناك!
هذا طبيعي.. ألم أتركه مغروسًا في الجدار الحجري داخل الكابوس!
وضحكت في هستيريا..
يجب أن أستعيده غدًا لأن ثمنه باهظ.. ولأنه أكثر قيمة من كل الهراء الذي حصلت عليه من كوابيس سابقة..
أما الآن وقد انتهى الكابوس فلا أرى ما يمنع من أن أنام نوما هادئًا مطمئنًا.. ومن يدري؟ لعلى أحلم بالزهور أو الغزلان أو البحار الجنوبيّة هذه المرّة..

* * *

سألته وأنا راقد على الأريكة أتأمل المدفأة تتوهج بذلك اللون الأحمر الغامض:
- «هل استحققت لقب (مجنون) بعد؟»
قال د. (م.ن) بصوته الرتيب المريح للسمع:
- «لا أظن هذا.. فيما مضى كان الجنون هو ما يسمون به حالتك.. ثم جاء علم النفس ليطلق عليها أسماء جميلة غامضة مثل (عصاب) و(وساوس) و(ضلالات)..»
قلت له وأنا أغطي وجهي بكفي:
- «لكنّ زوجتى رأت ما رأيت..»
- «لكنّها ليست هنا كي تؤكد أو تنفي..»
- «أنت لا تثق بكلامي إذن..»
- «بل لا أثق بعقلك.. لكنك صادق فيما تعتقده..»
ثم - بعد هنيهة صمت - تساءل:
- «هل فقدت عملك بعد المشادة إياها؟»
- «لا.. ليس إلى هذا الحد.. كانت لديَّ (روشتات) عدة منك تثبت أنني أتلقى علاجًا نفسيًا.. وقد جعل هذا الناظر مذعورًا مني.. لم يجسر على اتخاذ رد فعل ما.. نصحني بأن آخذ إجازة..»
قال د. (م.ن) وهو يخط شيئًا على الورق:
- «تريد رأيي؟ أعتقد أنّ هذا سيكون مناسبًا..»
- «لكنّ حياتي.. وعملي.....»
- «إن حياتك رتيبة ومملّة أكثر من اللازم.. كثور - واسمح لي - مربوط في ساقية.. أعتقد أنّ هذا الضغط قد أحرق مصباح جهازك العصبي..»
- «والحل؟»



سمعته يحاول استعادة توازنه ، ثم هوى دون إنذار إلى الهاوية . .

- «الحل هو الفرار بعيدًا.. بعيدًا..»
- «والدروس الخصوصية... و...؟»
- «لو لم تفر فأنت حتمًا فاقد ما هو أكثر من بضعة جنيهات تأخذها من الآباء..»
تنهدت في استسلام ولم أجد ما يُقال... الفرار...
حتمًا.. ولكن إلى أين؟
أنا ـ بطبعي - عاجز عن الاسترخاء.. ولست من هؤلاء القوم الذين (يتنزهون).. لا بد من هم ما، يطاردني طيلة الوقت وإلا ما عددت نفسي حيًّا..
سأسافر.. ولكن إلى أين؟

* * *

فرغت من تصحيح الكراسات جميعًا..
سيكون هذا آخر عمل أقوم به في المدرسة قبل بدء إجازتي.. ومددت يدي لأطفئ النور الكهربي.. ثم تقلبت في الفراش وتدثرت بالغطاء..
أستطيع أن أظل ساهرًا.. لكني لا أعرف جدوى ذلك.. فالجاثوم إن لم يأت هذه الليلة آت غدًا أو بعد غد..
وحينما جاء آخر الليل؛ سمعت من بعيد صوت ديك يصيح.. ديك يعاني عطبًا في ساعته البيولوجية حتمًا..
وبدأ الكابوس من حيث انتهى..
مخالب الكائن تقبض على كاحلي تحاول أن تجذبني إلى الهاوية.. وأنا أحاول أن أصرخ دون جدوى..
تشبثت أناملي بالصخور الملساء..
وهنا وجدت المنشار الكهربي في يدي..
ولم يكن هناك خيار.. أدرت الأداة القاتلة وبيد مرتجفة هويت بها على معصم المخلوق..
وعلى الفور دوّت الصرخة.. وتردد صداها في الهاوية..
ومن الطرف المبتور تصاعد دخان أزرق.. وانتثر سائل لزج مقزز أخضر اللون ليلوث كل شيء..
لكن اليد الأخرى ظلت ممسكة بالحافة الصخرية..
من ثم أزمعت أن أبترها هي الأخرى، وأتخلص للأبد من هذا المسخ، الذي ستبتلعه الحمم بعد ثوان...
ركعت على ركبتي.. وتأملت الوجه المقزز الذي يرمقني في إصرار.. وبحذر بدأت أحاول الوصول إلى يده السليمة..
لكني شعرت عندها بيد أخرى توضع على كتفي..
نظرت للوراء، فوجدت النكرومانسر ـ الذي نسيت أمره تمامًا ـ يقف خلفي.. وقد رأيته من تلك الزاوية المنخفضة التي يستعملونها في السينما للدلالة على السيطرة أو التملك..

قال لي بصوت رتيب لا انفعال فيه:
- «تشجع..!»
وكان هذا آخر ما سمعت..
لأنني شعرت بأنني أهوي من حالق نحو الهاوية..
صرخاتي تدور في الأرجاء.. والحقيقة المروعة تقتلني: لا توجد أرض تحت قدمي..

* * *

انتفضت رعبًا.. وصحوت من النوم صارخًا كالعادة:
- «لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا.. إن ما أنا فيه هو الكابوس الحقيقي الذي لا مفر منه سوى بالانتحار - وهذا مستحيل - أو الجنون - وهذا ليس بيدي - لأن أحدًا لا يملك معاونتي..»
كان المنشار الكهربي على الأرض جوار الفراش...
لا بأس.. على الأقل لم أخسر كل شيء..
وكان ألم ممض، يمزق كاحلي.. لماذا؟
الإجابة واضحة.. لأن آثار مخالب الوحش ظاهرة على جلد الكاحل بوضوح تام...
وثمة شيء أكثر أهميّة..
هل حدست ما هو؟

* * *

٧ . البجعة الوحيدة..

جالسًا جوار نافذة القطار رحت أتسلى بمطالعة مجلة سخيفة، وأتأمل شريط الحقول الذي يزحف كثعبان طويل أخضر..

ثلاثة أسابيع في الإسكندرية.. سيكون هذا علاجًا ناجعًا لتوتري وعصبيتي.. أضف لهذا تلك المغامرة غير المسبوقة لي: ألا يكون أمامي موعد ما أو مشكلة ما.. ألا يثير هذا الشغف؟

اعتذرت للطلبة، وأبلغت زوجتي - من خلال وسيط - بسفري، وحزمت حقائبي.. ليس لي أحد في الإسكندرية، لهذا سأقيم في (بنسيون) صغير تديره عجوز يونانية شمطاء.. إن لهذا مذاقًا ممتعًا كمذاق قصص (نجيب محفوظ).. ولن أدهش كثيرًا لو رأيت (حسني علام) جالسًا في البهو يرشف القهوة[4].

والحق أنني ما كدت أبرح القطار حتى بدأت أشم في الجو هذا العبق المميز لهواء البحر..

شعرت أن الاسترخاء قد بدأ يداعب روحي.. ومخاوفي تزول كما يزول الوحل عن ثوب غمرته في البحر الأبيض المتوسط ثلاثة أسابيع..

* * *

وفي ضوء النهار، وعلى صوت الأمواج التي ترسل لي شذرات من بللها كأنما تلثم خدي على استحياء؛ بدا لي ما مررت به كابوسًا ثقيلًا لكنه لا يمت بصلة للواقع..

إنني حي.. وهذا نصر في حد ذاته..

إنني لم أفقد زوجتي ولا عملي.. كل ما هناك هو أنني أمر بفترة ابتعاد صحي عنهما.. وحين أعود سأكون أفضل وأقوى..

كانت لافتة (البنسيون) أمامي.. وأنا لن أذكر اسمه ولا مكانه، لكني أقول لك إن له اسمًا يونانيًا موحيًا..

وكانت مدام (إيريني) بانتظاري حين دخلت المكان.. حيث جلس نفر من النزلاء يقرءون او يشاهدون جهاز التلفزيون.. وكلهم لحسن الحظ طراز من الشيوخ المهذبين الوقورين قليلي الكلام...

)ملحوظة د. (رفعت):

عرفت (البنسيون) الذي يتحدث عنه! فمن المصادفة أنه ذات المكان الذي كنت أقضي فيه ليالي الجمعة قبل عودتي للقاهرة، وذلك حين كنت خطيب (هويدا).. أذكر المكان وأذكر مدام (إيريني) التي تزعم أنها من سلالة ملوك.. ولكن.. كم من أعوام مضت من حينها!(

نعود لكلام الأستاذ (هـ)..

ما إن استقررت في غرفتي.. وتخلصت حقائبي من أحمالها؛ حتى ارتديت ثيابًا خفيفة.. صحيح أن الشتاء لم ينته بعد لكنّ الجو دافئ إلى حد كبير..

وخرجت أجول في المدينة الحسناء، أشعر تحت قدمي بملمس قدمي (كليوباترا) الدقيقتين، وصندل (الإسكندر) الثقيل، وخفي (محمد كريم) إذ خرج ليواجه جند الصاري عسكر (بونابرطة).

وكانت البداية في كافتيريا صغيرة تحمل اسم (بورصة الـ...).. حيث جلست أرشف القهوة وأدخن وأتأمل المارَّة..

كنت أفكر دون انقطاع..

أتراني مجنونًا حقًّا؟ أترى كل ما مررت به من تفاصيل كان تلفيقًا من ذهن مكدود وطفولة معقدة؟

مستحيل.. أنا أعرف نفسي... وأعرف أنني لم أن بعد.. ولكن كل المجانين يزعمون أنهم يعرفون أنفسهم مثلي..

حسن.. لنقل بقوانين الاحتمالات إنني قد أكون مجنونًا بنسبة ٥٠٪ فماذا بيدي أن أفعل؟!

* * *

مرت ثلاث ساعات على..

وبدأت أدرك في هلع أنني أشعر بالملل! بعد ثلاث ساعات كنت قد قمت بكل ما يمكن أن يقوم به رجل وحيد.. ولم يعد سوى فراغ محبط مرهق.. وبدأت أفهم حقيقة أن ثلاثة أسابيع هي وقت طويل جدًا بالنسبة لإنسان وحيد..

إن عبء هذه الأسابيع يجثم كالصخرة على روحي..

سأظل أمشي في الشوارع، وأرتاد كل المقاهي، وأرشف كل شيء بدءًا بعصير الليمون وانتهاء بالقهوة السادة، وأدخن حتى أصاب بسرطان الرئة.. ثم ماذا بعد هذا؟

إن السينما حل لا بأس به حاليًا..

ستمر عليّ ثلاث ساعات أخرى أقضيها في حلم.. ثم أعود إلى (البنسيون) لألتهم عشائي وأنام.. وبذا ينتهي اليوم الأول من فترة سجن الاسترخاء هذه..

كانت هناك سينما في الشارع تعرض تحفة (كاكويانيس) التي سماها هو (يوم طفت الأسماك ميتة)، وسماها الموزع (الرقص على الهيدروجين).. وأنا رجل أعشق الدقة والتحديد لهذا أمقت الفنون جميعًا لأن الخيال هو محورها.. لكنّ هذا الفيلم يستحق بالتأكيد...

وهكذا.. جلست في مقعدي أتابع أحداث القصة المسلية التي قد تحدث عاجلًا أو آجلًا.. وفاجأت نفسي أضحك أكثر من مرة من كوميديا الموقف الراقية، عندها فهمت سحر السينما.. إن مشكلاتي في عملي ومع زوجتي ومع حالتي النفسية تتوارى بعيدًا.. بعيدًا.. ولم يعد يعنيني في الحياة سوى قضية الصاروخ الهيدروجيني الغارق على ساحل جزيرة يونانية غافلة..

في مرة ضحكت وارتكزت على جانبي المقعد، فاصطدمت كفي بكف من يجلس إلى جواري.. غمغمت بعبارة اعتذار ونظرت نحوه..

الواقع أنني نظرت نحوها.. لأنهّا كانت فتاة.. فتاة ترتدي العوينات وتعقص شعرها، وقد انعكس ضياء الشاشة على زجاج عويناتها فبدا كأنما يضيء هو ذاته.

لم أستطع تمييز ما هو أكثر، لأن الضوء لم يسمح بأكثر..

كانت وحيدة.. لأن المقعد المجاور لها كان خاليًا.. وتعجبت من كوني لم ألحظها من قبل..
قلت لها مواصلًا اعتذاري:
- «معذرة.. فأنا حين أضحك لا أتمالك نفسي..»
قالت بصوت مشع كعويناتها:
- «هذا غريب.. لا أرى ما يضحك هنا.. إن القصة محزنة حقًّا!»
- «إنّه كل هذا الحمق الذي يتصرّف به أهل الجزيرة.. الحمق يثير ضحكي دائمًا.. إن الفيلم يسخر من كل هذا..»
- «إنهم ليسوا حمقى.. إنهم بسطاء..»
وعادت تتابع الأحداث.
أما أنا فقد شدتني البساطة - دون حمق - التي تكلمت بها مع غريب مثلي.. كأنها تعرفني من زمن.. وبرغم هذا لا تبدو متحررة أو وقحة.. كأنها تناقش زوجها أو أخاها بلا أي غرض سوى المناقشة في حد ذاتها.. إن هذا الأسلوب يحير الرجل الشرقي الذي لا يتوقع من الفتاة إلا أنّ تكون شديدة الحياء أو شديدة المجون، ولا يفهم أي أسلوب آخر في التعامل..
ولكن - لن أطيل عليك - مضينا نشاهد الفيلم ما، ومع الوقت تبادلنا الكثير من التعليقات والآراء..
وللمرة الأولى وجدتني قد نسيت تمامًا أنها أنثى.. إنها صديق مثقف ذكي يجلس إلى جواري في السينما، وينعش روحي بآرائه الشائقة غير النمطية.. التي لا تفسد ما نراه على الشاشة..
وحين صرخ القوم في وسط الكرنفال:
- «إن الأسماك تطفو ميتة!»
وحين راح مكبر الصوت يردد بلا انقطاع:
- «انتبهوا!»
قالت لي وهي تخلع عويناتها لتضعها في حافظتها:
- «هذه هي نهاية الفيلم.. (كاكويانس) يحذر العالم الغافل من خطر التلوث النووي.. والآن هيا بنا نرحل قبل أن يبدأ الزحام..»
سألتها وأنا أنهض وأفسح لها الطريق كي تتقدمني:
- «هل رأيت الفيلم من قبل؟»
- «ست مرات!»
ومشينا صامتين نحو المخرج المضيء نحاول ألا تتعثر أقدامنا في الظلام.. وعندما غمرنا النور أخيرًا استطعت أن أرى وجهها...
لم تكن جميلة على الإطلاق بل هي أقرب إلى القبح.. لكنّ شيئًا ما ساحرًا في وجهها يجعلك تحب النظر إليها مرارًا..، وكانت هشة نحيلة كقضيب من زجاج، وبدت لي ثيابها بسيطة أنيقة محتشمة.. إنها (بنت ناس) بالمعنى الشائع للكلمة..
قلت لها في تهذيب:
- «انا (هـ).. مدرس من القاهرة..»
ابتسامة خافتة على وجهها وهي تقول بصوت مشع:
- «(إيناس).. مدرسة من الإسكندرية!»

يا لها من مصادفة! حسبتها من المهتمات بالفلسفة أو الأدب.. أو من خريجات الفنون أو معهد السينما..

- «وماذا تدرّسين إذن؟»

- «أقوم بتدريس الرسم لطالبات المرحلة الإعدادية..»

- «آه.. هذا يفسر كل شيء..»

- «لا يفسر.. أنت تعرف مقرر الرسم وتعرف ألا علاقة له بالفن بتاتًا.. تصميم مفرش.. بطاقة معايدة.. عروس المولد.. عيد الأم.. كلها مواضيع وضعها موجهون يمقتون الفن ويحاولون جعل الطلبة يمقتونه بالمثل..»

لا أدري متى ولا كيف جلسنا في الكافتيريا نتحدث عن كل شيء.. إن هذه التفاصيل لا تهم أحدًا سواي.. ولو كان لي أن ألخص الموقف في سطور لقلت لك: إنني تعرفت فتاة في السينما.. وقمت بدعوتها إلى قدح من الشاي..

إن التفسير الخلقي الصارم يقول: إن هذه فتاة مستهترة، تقبل أن يدعوها إلى الشاي رجل لم تره إلا منذ ساعة..، لكني ـ أؤكد لك ـ لم أر فيها شيئًا كهذا.. كانت مهذبة بسيطة عفوية.. فيها (طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد) و(ورقة تكاد يرف الورد منها في الصخرة الجلمود) على رأي الشاعر التونسي العظيم (أبو القاسم الشابي).. وأنا رجل غير شاعري يا د. (رفعت).. بل أنا أمقت الشعر مقتًا.. لهذا صدّق ما أقول دون جدال..

كانت (إيناس) في الثلاثين من عمرها.. مطلقة.. ليس عن عيب فيها، بل في ذلك الذي تزوجها وهو أنه:

- «.. مستهتر.. لا يعرف قيمة البيت ولا الأسرة..»

وبعد ما استعادت حريتها، صممت على أن تعيش الحياة التي تريدها هي لا التي يختارها لها أهلها.. وكان أول شرط لها في هذه الحياة هو أن تخلو من الرجال.. لأن...

- «الرجال يفسدون كل شيء.. ولا يحترمون حرية المرأة.. ولا يتركون لها فرصة الاستمتاع بالفنون، لأنّهم يعتقدون أنها لا تحب الفن عن أصالة بل ادعاء..»

أعترف لك يا د. (رفعت) أنني أنا ذاتي من هذا الطراز الذي تتحدّث عنه.. وأؤمن أن المرأة لا تدرس في الجامعة إلا لتتزوج جامعيًا.. ولا تعزف على البيانو إلا أملًا في الظفر بعريس يحبّ الموسيقا.

لكن (إيناس) قررت أن تكون مستقلة.. وهي اليوم تعيش في شقّة بالإسكندرية مع ثلاث من صديقاتها.. بعضهن مدرسات وبعضهن موظفات.. ومن هذا تستنتج أنها ليست اسكندرانية أساسًا....

- «وماذا عن أهلك؟»

- «حاولوا كثيرًا.. وكانوا في غاية الحنق.. ثم بدءوا يفهمون أنني لا أفعل ما يخالف عقائدي وتربيتي.. كما أنهم شعروا بالذنب لأنّهم دمروا حياتي فيما سبق دون جريرة مني... لهذا تركوني.. لكنّ تحت رقابة صارمة.. إن أخي يزورني ثلاث مرات كل أسبوع.. وكذا أمي كل شهر..»

سألتها وأنا أرشف ما بقي في قدحي:

- «إذن أنا لا أدخل في قائمة الرجال؟»

احمر وجهها قليلًا وقالت:

- «لا.. بالطبع.. فقط تبدو مختلفًا عن الآخرين.. ثم إن الرجل الذي يشاهد فيلم (الرقص على الهيدروجين) بهذا الانفعال، حتى لا يشعر بوجود فتاة وحيدة بجواره لهو رجل يختلف..»

وحين انصرفنا كنا قد صرنا صديقين حقًّا..

ونظرت نحوها وفي عيني سؤال صامت: هل هناك مرّة أخرى؟

لكني لم أجرؤ على الكلام حتى لا تحسبني (كالآخرين)...

قالت هي في بساطة وقد قرأت أفكاري:

- «بالطبع يمكن أن نلتقي هنا غدًا.. لكني أحذرك..»

والتمعت نظرة شرسة إلى حدٍ ما في عينيها:

- «لا تحاول أن تحدثني عن سهرك وسهادك في حبي.. أو أي ضرب من هذا الكلام الفارغ.. وإلا لن تراني ثانية..»

- «هذا وعد...»

* * *

كانت الحادية عشرة مساء حين عدت إلى (البنسيون)..

كانت غرفتي مريحة منسقة بها رائحة عطرية خفيفة.. وكانت دافئة كقدمى رضيع في حضن أمّه...



لا أدرى متى ولا كيف جلسنا فى الكافتيريا نتحدّث عن
كل شىء . . أن هذه التفاصيل لا تهم أحدًا سواى . .

سأغفو هذه الليلة كخلد الماء - لو كان هذا الحيوان يغفو - ولن أرى أية كوابيس.. فأنا خال من التوتر.. خال من العصبية.. خال من أحزان الأمس وإرهاق اليوم ومخاوف الغد.

مددت يدي إلى الكتاب الذي قررت أن يكون معي في سفري، وهو كتاب (تفسير الأحلام) للعالم العظيم (سيجموند فرويد).. واستلقيت في الفراش أطالع هذا العمل شديد التعقيد والذي لا يمكن التحقق منه أبدًا.. فقد يكون عبقريًا وقد يكون نوعًا من القياس الخاطئ المبالغ فيه..

يرى (فرويد) أن الأحلام ليست لها قدرة تنبؤية ما.. بل يرى أنها هي التعبير عن عقلنا الباطن الذي يتحرر في وقت النوم، فيبدأ في الإفصاح عن نفسه وعن رغباته المكبوحة المكبوتة..

لكن رقابة من نوع ما تسيطر على هذه العملية.. ولهذا تظهر الأشياء بشكل رمزي.. والشطرة الأولى من بيت الشعر تقال في الحلم للدلالة على الشطرة الثانية.. وتحريف الألفاظ والأرقام للبعد عن معناها يتم على نطاق واسع...

قد ترى في الحلم تنويعًا على شيء رأيته وعمرك خمسة أعوام.. مع مكان رأيته اليوم فقط... مع عبارة سمعتها من عامين من بائع في السوق، وكل هذا يُراد به معنى ما.. لا تجرؤ على مصارحة نفسك به..

إنه كتاب رهيب.. يخوض بك عبر كهوف لم يرتدها إنسان من قبل.. هي كهوف ذاتك، التي هي أكثر غموضًا ورهبة من أى كهوف في أصقاع (سيبريا) أو صحارى إفريقيا أو جبال (الهيملايا)..

لكن الكتاب - بعد مراجعة سريعة له - لم يقدم لي إجابة السؤال الذي كنت أريده.. لم يحدثني عن (الجاثوم)..

غدًا أقرأ فصولًا من كتاب (ابن سيرين) علّه يقدم الى الحل...

قبل أن أطفئ الضوء نهضت إلى حقيبتي..

أخرجت منها كيسًا ورقيًا غلفته بإحكام وقمت بربطه بحبل...

جئت معي بهذا الكيس من القاهرة، فقط لأتأكد من عدم جنوني.. وهذا الكيس يحوي شيئًا أكثر أهميّة من بعض الفطير أو الكعك أو ما إلى ذلك مما يحمله مسافر معه..

إنه يحوي يدًا مبتورة..

يد الكائن التي قطعتها في حلم البارحة...

* * *

٨ - هل هو حق؟

نعم.. هذه هي الحقيقة..
إذا أنت لم تصدقها يا د. (رفعت) فهذه مشكلتك أنت.. إن شمس منتصف الليل ستظل تظهر في (النرويج) سواء صدقت هذا أم لم تصدقه..
لقد انتهى الكابوس السابق بأثر مادي أكيد، هو انطباق يد (الجاثوم) حول كاحلي.. وحين أفقت من النوم كانت اليد هناك.. وجدتها في مكان ما بين الأغطية وأنا أحاول العودة للنوم..
طبعًا لا تسل عن الذعر الذي أصابني، ولا التقزز الذي دهاني.. فكل هذه أشياء مفروغ منها...
لكني على الأقل أملك الآن دليلًا ماديًا:. أثرًا لا يمكن الحصول عليه بالمشي في أثناء النوم.. وأنا ـ إذن - لا أهذي..
لكنني - كذلك ـ كنت أعقل من أن أعرض كشفي على الملأ.. فإن أحدًا لن يجد ما يثير شغفه في كف مخلبية يكسوها الشعر، أزعم أنا أني عدت بها من كابوس مرعب..
قمت بلفها بعناية في كيس من المشمع، ثم في كيس ورقي.. وحملتها معي في حقائبي عازمًا على الاستفادة منها بشكل ما....
الآن فقط أتذكر حقيقة وجود هذا الأثر المفزع معي..

* * *

وكان نومًا موصدًا ثقيلا خاليًا من الأحلام...
أحيانًا أستيقظ ـ كدأب من ينامون في مكان غريب - متوقّعًا أنني سأرى الكومود على يساري، والمنبه فوقه، والباب عند قدمي، ثم كنت أفقد توازني اللحظة وأنسى أين أنا، ثم أستعيد بديهتي وأتمتم بدعاء النوم، وأغيب من جديد في السحابة السوداء...
وهكذا لم أدر أنه آخر الليل، إلا حين سمعت صراخي..
الحمم تقترب مني بسرعة مذهلة، ولا أرض تحت قدمي...
ومن فوق رأسي أرى النكرومانسر واقفًا على الحافة يرمقني في شغف.. وأرى الكائن المعلق بيد واحدة من الحافة..
وأمد ذراعي إلى جانبي.. بكل نداء الغريزة التي أورثها إياه أجداد كانوا لا يجدون مأوى سوى غصون الأشجار..
إن قلبي سيتوقف ها هنا حتمًا.....
وهنا أشعر بغصن الشجرة. لا أدري من أين جاء - يتعلق بسترتي.. وأجد أنني أتدلي في الهواء الحار كأرنب معلق من قذاله....
ثمة فتحة يكتنفها السواد إلى جواري..

إنه كهف فغر فاه بانتظار فرائسه الآدمية..
إن الهاوية من تحتي.. والوحشين فوق رأسي..
لن يكون هذا الكهف أسوأ احتمال إذن...
وأتلوى بعنف حتى أنجح في حشر جسدي داخل الفتحة...
إن الظلام دامس.. دامس.. ظلام بكر لم تتلوث عذريته بالضوء من قبل.. ربما منذ بدء الخليقة...
إن هذا القصر العجيب.. كأنه بني فوق مجموعة كهوف كاملة.. فلأدخل.. ولا أفكر في الثعابين ولا الحفر ولا الانهيارات..
تبًّا للظلام! إنني من هذا الطراز العجيب من البشر الذين يختنقون في الظلام، كأنما يجثم اللون الأسود على صدورهم..
ثمة شيء في هذا الموضع كأنه

(رباه! إن هذه الأرض لينة تمامًا!)

مقبض مثبت في الصخر..
هل أجذبه؟ لم لا؟
وجذبته.. عندها حدث شيء لم أتبينه جيدًا..
لكني وجدت نفسي في الشمس.. في العراء..
كان هناك حقل قمح يمتد أمام نظري إلى ما لا نهاية، له ذلك اللون الأصفر الوحشي المميز للوحات الهولندي (فان جوخ)..
وكنت أركض.. أركض..
هذه المرّة كانت سرعتى أكثر من المعتاد.. كنت أخف مما أنا عليه بكثير، كأنني في مرحلة

(صوت المحرك هذا!)

انعدام الوزن.. و....
وحين نظرت للوراء؛ رأيت الجاثوم يعدو تجاهي! كيف نجا؟ بالتأكيد بنفس الكيفية التي غادرت أنا بها الكهف.. وهو على بعد خمسين مترًا مني...
انا أعدو.. وهو يعدو....
من الغريب أن سرعته كانت بطيئة جدًا تتناسب مع حجمه.. لكنه كان يقطع مسافات لا قبل لي بها..
والفجوة بيننا تضيق.. وتضيق..
.. زدت السرعة أكثر فـ

(ألا يوجد فلاحون هنا؟)

زاد السرعة أكثر..
وهنا تعثرت فهويت منكفئًا على وجهي بين عيدان القمح..
وعرفت أنّ هناك ما أمسك كاحلي.. مما جعلني أتعثر...
ونظرت لأرى ما هو؟ فوجدتها يدًا.. يا مشعرة مخلبية كانت قابعة بانتظاري بين السوق، كي تعرقلني...

إنها يد الجاثوم.. وهي تحاول تعطيلي إلى أن يلحق بي صاحبها..
مستحيل أن أنتظر.. لا!
بم تتشبث هذه اليد المبتورة كي تقبض على كاحلى كفخ لصيد الدببة؟
إنها لا تملك ما تمسك به؟
لكنها عنيدة حقًّا.. ثابتة في الأرض حقًّا.. متى خرجت من كيسها؟ ولماذا جاءت إلى الحلم؟
لا وقت للتساؤل لأن..
لاااااااه!

* * *

اااااه!

وكان أول ما فعلته حين صحوت من الكابوس هو أن كشفت الغطاء كي أرى كاحلي.. لم تكن اليد هناك..

وثبت إلى حقيبتي في الظلام، فاصطدم إصبعي بشيء خشبي كاد معه الألم يفقدني صوابي..، وحين أضأت النور الكهربي وجدت أن اللفافة التي تحوي اليد ليست ها هنا...

إذن.. كان الشيء معي داخل الكابوس، ونسيته هناك.. لابد أنه تخلى عن كاحلي في لحظة الإنتقال...

عدت لإغلاق النور، وفي الظلام رحت أتأمل موقفي..

للمرة الأولى يخرج حلمي إلى الشمس والنور.. وإن لم يك أقل إر عابًا مما كان في الظلام...

من المفهوم أنني قد فررت من القصر إياه - بطريقة ما - ورحت أركض في الحقول بينما الشيء ورائي..

ماذا سيحدث غدًا؟ لا أدري حقًّا.. إن أسلوب التشويق إلى الحلقة القادمة هذا يثير أعصابي.. ذلك الأسلوب الذي يدعوه صناع الدراما بأسلوب (التعلق بالحافة) أو Cliff-hanger..

ودخلت إلى الحمام الصغير الملحق بالحجرة.. كانت هناك مرآة تأكل طلاؤها البراق بفعل الزمن تعلو الحوض..

غسلت وجهي وتأملت انعكاسه في اهتمام...

نعم هذا حق.. لقد زحف الشيب على خصلات كثيرة من شعري الذي كان فاحمًا.. لقد أحرق الهول سواد رأسي إن صح تعبير بلاغي كهذا..

والجديد هنا هو أنني فقدت الأثر الوحيد الذي يؤكد لي أنني لا أهذي...

* * *

ابتعت كتاب (تفسير الاحلام) من إحدى دور كتب التراث، وفي الكافتريا إياها رحت أرشف عصير الليمون البارد، وأقرأ هذا العمل المرهق الذي أخرجه (ابن سيرين).. وقد سرني أنه أقرب إلى معجم تبحث فيه عن ضالتك، فلا تضطر لقراءة كتاب كامل حافل بـ (العصابات) و(النكوصات) و(الكبت) كما هو الحال مع (فرويد)..

وقد وجدت التالى:

- من رأى أن الشيطان يتبعه فإن له عدوًا يخدعه ويغريه وينقص من عمله.
- دخول القلعة يدل على الرزق والنسك في الدين.

ثم عشرات التفسيرات لكل جزء من الحلم يستحيل أن تتسق لتكون تفسيرًا واحدًا متجانسًا.. إن الأمر أعسر مما ظننت..

إنني أعرف جيدًا أن ما أمر به هو عرض فريد لا يمكن أن أجد له جوابًا في أي كتاب..

كان هذا حين وصلت (إيناس)، فأخفيت الكتاب بين طيات جريدة أحملها فأنا لا أريد أسئلة فضولية ترهقني بها...



بِمَ تتشبث هذه اليد المبتورة كى تقبض على كاحلى كفخ
لصيد الدببة ؟

* * *

خمسة أيام مضت على تعرفي (إيناس)...
وفي كلّ مرّة كنت أشعر أكثر أنني لا أجرؤ على التفكير في الحياة بدونها.. وبعد عشرة أيام سيكون الفراق محتومًا.. عندئذٍ سأتذكر قول الشاعر العربي:
عجبت حين تركتها كيف لم أمت...
وكيف انثنت بعد الفراق يدي معي!

عجبًا لي! إنني رجل متزوج ناضج لكني أفكر كالمراهقين..
لكنني أستطيع القول إن سر تعلقي بها هو حاجتي إلى صديق.. وقد كانت (إيناس) صديقًا طيبًا ذكيًا.. صحيح أنه صديق طويل الشعر ويلبس الحذاء ذا الكعب ويضع عطر (الفام شيك).. لكنه لا يزيد على صديق أعتز بصداقته..
قالت لي صديقتي (إيناس) بلهجة من يقرر أمرًا منتهيًا:
- «إن (مها) تدعونا إلى رحلة ريفية غدًا..»
- «(مها)؟»
- «نعم.. صديقة تعمل بالتدريس معي.. وهي تدعونا إلى يوم كامل في العزبة التي تملكها الأسرة جوار الإسكندرية..»
قلت لها في سأم وأنا أستدعى النادل بإشارة من يدي:
- «وما دخلي بهذا؟ إنها تدعو صديقاتها.. وأنا ليس لي صفة رسمية من أي نوع..»
ضحكت ضحكتها الهادئة التي تعلن أن ما تقوله ليس هراء.. وقالت:
- «لا أحد يحدد لي أو لك صفتك الرسمية أو عدمها.. أنت إنسان مهذب محترم يهمني أمره.. لهذا دعوتك.. وهي لن ترفض.. ثم إنك لن تكون الرجل الوحيد.. هناك ثلاثة مدرسين آخرين مما يجعل الرحلة ذات طابع رسمي تربوي لا بأس به..»
تنهدت وقلت لها:
- «لا بأس.. سأقبل لأنني لا أعرف شيئًا آخر أفعله.. ولا أريد أن أفتقدك يومًا كاملًا..»
نظرة تحذير في عينيها:
- «هأنتذا تحاول أن تلعب دور المغازل.. لقد أنذرتك!»
تداركت نفسي على الفور:
- «لا.. إنها مُجاملة لا أكثر ولا أقل.. مُجاملة..»

* * *

وفي سيارة الأجرة التي تحركت بالمجموعة؛ أمكنني أن أحدد أنماط الموجودين دون عناء.. وهم جميعًا - كالعادة - أغبياء باستثناء (إيناس) التي تملك وجه فتاة وعقل رجل وقلب شيخ..

إلى جوار السائق جلست أنا وشاب متظرف يدعى (محيي)، لا يكف عن إلقاء الدعابات السخيفة التي يضحك منها أكثر من الآخرين، كأنه يسمعها للمرة الأولى.. وهو خطيب الفتاة التي تجلس ورائي.. واسمها (غادة).. وهي جديرة به حقًا..

يوجد زوجان: موجه بالتربية والتعليم يدعى (سيد الشمندوري) ومعه زوجته الحامل في شهرها السابع وهي مدرسة تدعى (هويدا عبد المنعم)!

(ملحوظة: د. (رفعت):

أخيرًا خبر عن (هويدا)! حسبتها ماتت أو هاجرت.. يبدو أنها اندمجت تمامًا في عالمها الجديد بعد عام من الزواج.. آمل ألا يعرف (هـ) هذا أنها كانت خطيبتي يومًا...)

من ضمن الركاب أيضًا (مها) - صاحبة الدعوة - وهي حسناء في التاسعة والعشرين من عمرها، ومعها خطيبها (عبد الرحيم).. ويمكن القول إنهما اكثر الموجودين قابلية للاستلطاف.. ويمكن ابتلاعها دون جهد كثير..

المزروعات تتسابق على جانبي السيارة ونحن نقصد ذلك المكان الذي سنقضي فيه يومنا.. مجموعة متعارفة متجانسة فيما عداي أنا.. لهذا لم يوجه لي أحد كلمة طيلة الطريق.. وسمعت بضع همسات عن شخصي ومن يكون بالضبط..

أراهن على أنه سيكون (أطول يوم في التاريخ) مع كل هذا الملل...

والحق أنه كان كذلك..

ولكن لأسباب أخرى ليس الملل من بينها!

* * *

٩ - عزبة ما..

لن أذكر لك اسم العزبة.. لكنّها قريبة من (أبو حمص) إلى حد كبير.. ولقد وصلنا هناك عند الظهر.. فترجلنا..

شرعت (مها) تقودنا إلى دار أبيها، وهي تثرثر دون انقطاع عن كل شيء.. منذ جاء أبوها إلى هذا المكان وابتاع عددًا متزايدًا من الفدادين.. وراح ينميها بجهده وعرقه...

طبعًا لم يفُتها أن تهاجم التأميم الذي قلص ثروتهم إلى حد مروع.. وكيف انكمشت ممتلكات الأسرة إلى هذه العزبة الصغيرة، وما حولها من فدادين لا تكاد تكفي لأعباء الحياة، خاصة أن مال الأرض هو مال مجمد لا يمكن الاستفادة منه إلا بعد عناء..

تدخل أحد المدافعين عن الثورة وراح يناقشها - في كثير من الحدة - حول حق أبيها في أرضه هذه، وعن الاشتراكية.. و.. و...

لكني كنت شاردًا في خواطري الخاصّة..

إن حقل القمح الذي نمر بجواره هذا يبدو مألوفًا.. حقل كأنما رسمته ريشة (فان جوخ) منذ دقائق..

* * *

وسمعت صوت (إيناس) تصيح في انبهار:

- «(مها)! لم أدر قط أنكم بهذا الثراء..»

كانت تشير إلى دار الأسرة.. لا لم تكن هذه دارًا تلك الواقفة أمامنا في فخر تستمتع بضوء الشمس الشتوية..

كانت قصرًا..

قصرًا فخمًا من طابقين تم بناؤه باستمتاع وحب، بأيدي بنائي الماضي الذين عشقوا عملهم واتقوا ربهم، فجاء قطعة من الفن الرفيع.. خليقة بأن تكون قصرًا لأحد بارونات النمسا أو سادة انجلترا الإقطاعيين...

شهقات الانبهار تتصاعد من الصدور.. وثمّة شعور عام غمرنا بأن (مها) تملك بالتأكيد ما هو أكثر من (ما يكفي لأعباء الحياة).. إن هذه الفتاة تتصنع الفقر كما هو واضح..

ومع هذا الشعور مازجنا شعور عدائي انتصرنا عليه سريعًا.. إذا لم يحجم التأميم أملاك هذه الأسرة فماذا يحجم إذن؟!

أما أنا فكنت في أسوأ حال من الحيرة والتشتت..

هذا القصر.. هذا القصر اللعين..

أكاد أقسم إنّه هو!

* * *

كانت ركبتاي موشكتين على التخاذل... والعرق البارد يبلل موضع شاربي، مع ميل للغثيان غير هين..

الحق أنني شعرت لهنيهة بقرب الإغماء..

ثم تمالكت نفسي ووقفت كرجل أصافح والد (مها).. رجل ضخم الجثة كث الشارب أشيبه.. فيه ذلك الاعتداد التركي بالنفس - وأنا أمقت المعتدين بأنفسهم كما قلت - حتى توقعت أن يصيح فجأة فينا (أوغلي كلاب)! ثم يجلدنا بالسوط ويربطنا إلى جذوع النخيل..

رجل كهذا - حتمًا - لم يصنع ثروته بالعرق.. بل هو من هؤلاء المحظوظين الذين وهبهم الحظ هديته العظمى: الميراث... إن (مها) تخدعنا على القصر.. الأرجح.. تحاول أن تجمع إلى ثراء أسرتها نبل المحتد والعصامية - وهي صفة مستحبة بعد الثورة - والعلم.. وإلا فلماذا تصر على أن تكون مدرسة؟

دعنا من هذه الخواطر إذن وتعال معي ندخل القصر..

درجات السلم ثم الباب الخشبي العملاق الذي ينفتح دون صرير.. برغم انك تتوقع ذلك...

هل يذكرك هذا بشيء ما؟؟

* * *

رواق طويل نمشي فيه مع الثرى الريفي..

نظرات تجمع الانبهار بالحسد في العيون.. و(إيناس) تهمس في أذني:

- «كأننا في أحد أفلام (فاتن حمامة) القديمة.. لن أندهش كثيرًا لو رأيت (عماد حمدى) خارجًا من أحد الأبواب..»

- «وأنا كذلك.. أخشى أن يستحيل المشهد (أبيض وأسود) في أية ثانية!»

ومن جديد ينبض فؤادي في هلع..

الشمعدان الفضي.. الستار الأحمر سليم غير ممزّق.. لكنه هو ولوحة جدارية مغبرة عليها فارس يغرس رمحه في قلب أسد..

ثم ذلك الرواق الطويل.. في نهايته الحجرة.. الحجرة التي دعوت الله ألا تكون هناك...

هل هذا كابوس آخر أعيشه؟

ربما أصحو الآن لأجد نفسي في الفراش.. وعندها تكون هذه الرحلة أكذوبة لا أكثر من نسج خيالي..

من يدري؟ ربما (إيناس) نفسها أكذوبة.. جزء من حلم كبير أراه وأنا في فراشي بالقاهرة بعد عشاء دسم...

من يدري؟ ربما حياتي كلها حلم.. حلم يراه طفل يغفو على صدر أمّه بعد رضعة دافئة...

إن من الأحلام ما يبدو أكثر واقعية من الواقع ذاته.. وليست كلها متجلية من النوع الذي يعرف معه الحالم أنه يحلم...

ولكن.. كيف أتأكد؟ أنا أشعر بكل شيء وأسمع كل شيء..
أملك الإحساس بأطرافي ورأسي..
حتى حين لدغت ساعدي بعنف شعرت بالألم يحرق أعصابي..
هذا حق...
بالتأكيد هو حق...

* * *

جلسوا في الصالون الكبير - طراز (لويس السادس عشر) - يتنالون الشاي والمرطبات.. وقال الأب وهو يتوكأ على عصاه ذات المقبض الأبنوسي المنحوت على شكل رأس أسد:
- «ستكونون ضيوفنا لمدّة نصف ساعة.. بعدها أنتم أحرار.. لن نثقل عليكم بصحبتنا.. تنقلوا في البيت كما ترومون.. وافعلوا ما تبغون في العزبة..»
ثم أشار إلى ابنته (مها) التي كانت تموت فخرًا.. وأردف:
- «إن (مها) ستريكم كل شيء.. يمكن لمن يرغب أن يصطاد السمك من الترعة.. أو يستمتع بركوب الخيل.. وعندما تجيء الرابعة عصرًا سأنتظركم في القاعة لتتناولوا غذاء أعددته لكم.. وهو معبر بدقة عن الكرم (البحراوي)..»
كانت هذه هي الكلمة النهائية من (الزعيم)..
فنهضنا شاكرين كرمه.. وغادرنا المكان..
لم أستطع أن أحب هذا الرجل برغم لطفه.. برغم تطفلي المخجل على داره.. فقد دعتني (إيناس) لأن (مها) - التي لم ترني قط - قد دعتها.. ولو كنت إنسانًا ذا شعور تقليدي لانتحرت خجلًا..
تفرق القوم في أرجاء القصر، وراحوا يتفقدون كل شيء.. لابد أن (لجنة المصادرة) الثورية لم تفعل ما فعلوه بتحف هذا القصر، حين جاءت هنا منذ أكثر من عشرة أعوام...
بوقاحة يتأملون ويقلبون كل شيء.. بل تجاسر أحدهم - زوج (هويدا) هذه - وزحف تحت إحدى الموائد ليدرس تكوينها، كأنما هو ميكانيكي يفحص سيارة..
كنت أصبو إلى الانفراد..
والانفراد هو ما قمت به...

* * *

بخطى ثابتة مشيت إلى الباب الموصد في نهاية الممر..
بحثت في جيبي حتى وجدته.. فهو لم يفارقني يومًا...
كان ما أريد هو مفتاح غريب الشكل يمتلئ بتلك الزخارف.. حين كان الناس يملكون الوقت والبال الرائق لعمل منمنمات كهذه..
ونظرت للوراء في حذر.. ثم أولجت المفتاح قي ثقبه..

إنه يدور! عنيد ثقيل لكنه يستجيب..
كما في ذلك الكابوس تمامًا...
فماذا سأجده في هذه الحجرة إذن؟!
.....

* * *



ونظرت للوراء فى حذر . . ثم أولجت المفتاح فى ثقبه . . إنه
يدور ! عنيد ثقيل لكنه يستجيب . .

١٠ - أين أنا؟

ظلام دامس بالداخل..

لكني كنت أذكر أن الكابوس بدأ بالظلام كذلك، ثم إن الظلام انقشع واستطعت أن أرى الشيء بانتظاري..

وقفت في الظلام أنتظر أن يحدث الشيء ذاته، كان ذلك حين سمعت صوت جلبة..

فهرعت إلى خارج الحجرة، وأولجت المفتاح في القفل كي أغلقها.. فأنا على كل حال لم أكن راغبًا في أن أحبس نفسي بداخلها..

هنا سمعت صوت (إيناس) تقول:

- «أين ذهبت؟ إننا نتفقد المكان بكل حقد المطحونين!»

ارتبكت.. ولم أجد ما يكفي من الوقت إلا لأدس المفتاح في جيبي، ثم ألتفت إليها مبهور الأنفاس وأنا أسند ظهري إلى الباب..

قالت لي في دهشة:

- «ماذا دهاك؟ تبدو موشكًا على فقدان الوعي..»

- «هذا صحيح.. إنّه الجو الخانق كما تعلمين»

قالت مشيرة إلى الجمع الواقف في المدخل:

- «إذن تعال.. لا تبق هنا.. إننا ذاهبون لنرى هذه العزبة.. هل تحسن صيد السمك أو ركوب الخيل؟»

- «إنني أفعل كل شيء في الأحلام.. أمّا في الواقع فلم أجرب بعد..»

- «إذن... هلمّ...»

إن هذه الحمقاء - وهذا واضح - لا تزمع أن تتركني وشأني ثانية واحدة.. فلن تسمح لي بتفقد الغرفة خلسة..

ولن تسمح لي - وتلك مصيبة - بإعادة غلقها..

أشعر أن شرًا مستطيرًا يكمن في هذه الغرفة.. ومن الخبال أن أفتح بابها ثم لا أغلقه بإحكام بعد ذلك..

ولكن.. كيف تفعل ذلك؟ كيف تفسر؟

* * *

في الخارج؛ حيث غمرت شمس الشتاء البهيجة المكان.. فبدت كقبلة الكون على جبين الطبيعة المدللة..

شمس الشتاء التي تتخلل العظام حتى النخاع فتذيب الجليد.. وتشع الحرارة من ثيابك كفراء هريرة ناعسة...

(سيد الشمندوري) يركب حمارًا طفلًا وقد بدا عليه الفخار والسرور.. بينما امرأته (هويدا) تهرول إلى جواره، وهي تمسك ببطنها المنتفخ حافية القدمين، تطلق ضحكة بلهاء تلو ضحكة بلهاء..

وإلى جوارهما يركض فلاح صغير السن والحجم، يضرب كفل الحمار ضربًا رفيقًا بعصاه، ويتساءل عن شأن هؤلاء الحمقى القادمين من (الإسكندرية) كى يركبوا حمارًا..

أما (مها) وخطيبها (عبد الرحيم) فراحا يحاولان (تسلق) ظهر حصان أبيض بارع الجمال.. وكعادة الرجال يتظاهر (عبد الرحيم) بأنه فارس أبًا عن جد.. وأنه ولد ومن تحته حصان مطهم..

يجيء دور (محيي) و(غادة) اللذين ذهبا إلى الماء ليطعما الأسماك، ولتطلق الفتاة صرخات الذعر الهستيريّة كلما أمسكت دودة بين أناملها لتضعها في الشص.. وهو شيء يتكرر كل خمس دقائق..

أما أنا و(إيناس) فسرنا الهوينى جوار شط الترعة، صامتين كالأسماك نتأمل الطحالب الخضراء العائمة فوق المياه.. ونرنو إلى فقاقيع الماء القادمة من القاع.. ألأسماك هي أم لضفادع؟

لا أدري حقًّا.. لكني لم أحب كثيرًا نظرات الفلاحين الفضولية ـ والساخرة قليلًا ـ إلينا..

بعد هنيهة قلت لـ (إيناس) دون أن أنظر إليها:

ـ «لقد رأيت هذا المكان من قبل..»

قذفت هي بحجر في الماء، وراحت ترمق الدوامة المتسعة من حوله، ثم تنهدت ولم ترد..

قلت لها مؤكدًا:

ـ «ليس الأمر كما تظنين.. هذا القصر محفور في داخلي..»

ابتسمت وقالت دون حماس:

- «هذا يحدث..»

ـ «إنّه يزور أحلامي بكل تفاصيله..»

قالت وهي تقذف حجرًا آخر:

- «إنها ظاهرة (ديجا ـ فو) الشهيرة..»

ـ «(ديجا) ماذا؟»

- «(ديجا ـ فو).. ألا تعرف الفرنسية؟ (شوهد من قبل).. حين ترى إنسانًا فتحسب أنك رأيته من قبل وأنت لم تره قط.. أو تزور مكانًا يملؤك اليقين أنك زرته برغم كونك لم تزره قط..»

- «إنك واسعة العلم.. وماذا تعني هذه الظاهرة؟»

مطت شفتيها في استهتار وقالت:

ـ «لا شيء.. يقولون إن الدم يتأخر في الوصول إلى فصك الصدغي الأيمن.. وعندما يصل إليه يكون ما يراه هو ذكرى بالنسبة إلى الفص الصدغي الأيسر.. إن التفسير معقد.. لكننى فهمت منه هذا الذي أقوله لك..»

- «تعنين أنني لم أر هذه العزبة قط؟»

ـ «حتمًا.. إنها دعابة فسيولوجية ثقيلة.. ولكن الناس يرفضون هذا التفسير المحبط.. لأن كل إنسان يحبّ أن يجد في نفسه نوعًا من شفافية الأولياء..»

أنا أرفض هذا التفسير لحالتي..
أنا بالتأكيد رأيت هذا المكان مرارًا..
ثم إنني أملك دليلًا ماديًا لا يناقش.. بل عشرات الأدلّة التي وجدتها في فراشي في كل ليلة سوداء صحوت فيها من كابوس...
ولكن ما معنى هذا كله؟
ـ «أنت تجيد الركوب حقًّا يا (سيدو)!»
كان هذا هو صوت (هويدا) التي تركض بجنينها جوار الحمار، وتدلل زوجها البدين بهذا الاسم.. ما هي الإجادة في ركوب حمار رضيع ارتفاعه عن الأرض أقل من متر؟
كيف وجدت هذه الفتاة من يتزوجها؟ وبأية معجزة؟!

* * *

كان الغداء حافلًا بحق...
إن كتب تاريخ الحمام والبط والأوز ستخلد هذا اليوم، باعتباره يوم المذبحة.. كما نخلد نحن تاريخ قنبلة (هيروشيما)[5]
ولما كنت أنا محرومًا من طعام البيت منذ فترة كأنها دهر؛ فقد قاتلت كالأبطال في حومة الوغى..
وجاء وقت انتهاء هذا المهشد الجهنمي، وكنا جالسين على الأرض حول الأطباق وآنية الطعام في القاعة الكبرى..
فلما فرغنا من احتساء الشاي جاء خادم ريفي يدعونا إلى غسيل الأيدي..
وتزاحمنا صفًا أمام الحمام كل ينتظر دوره، وقد أبعد يديه الملوثتين عن خصره، وراح يلوك بقايا الطعام الشهي التي علقت بأسنانه.
ثمة شعور بالرضا عن الحياة يغمر الجميع..
وكانت هذه هي فرصتي..
تراجعت إلى الوراء قليلًا.. وفي خفة الحملان ـ الحملان البدينة طبعًا ـ مشيت إلى المدخل.. ولم يكن هناك من يراني..
إن ما أريده هو الباب..
الباب الخشبي الذي لم أجد الوقت كي أوصده بالمفتاح..
لكني ـ حين وقفت أمامه ـ أيقنت أنني تأخرت بعض الشيء..
لقد كان الباب مواربًا...

* * *

بلمحة من عيني رأيت الرواق المظلم إلى اليمين..

الرواق الذي كنت أعرف جيدًا أنه مسدود.. وأن مشاعل منطفئة كثيرة معلقة على جداره الذي ازدان بالطحلب والعفن.. كل هذا لم أره.. لكنى أيقنت بوجوده..

هل أفعل؟

لِمَ لا..؟

ومن جيبي أخرجت قداحة، وأشعلتها..

نعم.. هذا حق.. إن الممر يمتد لمسافة ثلاثين مترًا ثم ينتهي بجدار.. وجانبا الممر مغطيان بالعفن والطحالب..

أما الأكثر إثارة فهو أن كوة صغيرة مستديرة توجد في نهايته..

إن هذا مثير..

مثير إلى درجة الرعب..

* * *

مشيت إلى نهاية الممر..

كان الفضول يقتلني..

وبيد مرتجفة أخرجت

(هل هناك من يتحرك ورائي؟)

قداحتي.. وأدخلت يدي بها في الكوة..

حاولت أن أتبين شيئًا..

لكني على الأقل لمحت المنحدر الوعر الذي يقود إلى أسفل..

ولم أستطع أن أقاوم أكثر.. لم يكن هناك من يراني وبالتأكيد لن يفتقدني أحد.. لماذا لا أكرر الحلم بحذافيره إذن؟

اجتزت الكوة بصعوبة - إنني أقل بدانة في الحلم - ورحت أتدحرج فوق المنحدر، محاولًا ألا أفقد توازني..

وفي النهاية وجدت أنني أقف في القبو - ذات القبو المريع الذي قابلت فيه (النكرومانسر) في الكابوس...

لم يكن هناك (نكرومانسر)...

ولم يكن هناك ما يدل على أن طقوسًا تمارس في هذا المكان.. هذا متوقّع.. فأمور كهذه هي من صميم عمل الكوابيس ولا مجال لها هنا.. كفاني بالمكان رعبًا..

أزمعت العودة.. ويعلم الله وحده كيف سأتمكن من تسلق هذا المنحدر ومغادرة المكان..

هنا اصطدمت ساقي بشيء معدني..

ولم أحتج لأن انحني كي أعرف ما هو..

إن ضوء القداحة كاف جدًا لأرى القدر المقلوب على جانبه، والذي كان (النكرومانسر) يمارس فيه شيئًا ما في الكابوس...

أنا من قلب هذا القدر...

ومعنى هذا أنني كنت هنا حقًّا....

* * *

خاتمة الجزء الأول

مازلت إذن مع خطاب (هـ) الذي يستطرد قائلًا:
كانت الحيرة تغمرني يا د. (رفعت).. وصرت عاجزًا تمامًا عن تمييز الحلم من الحقيقة..
تسلقت المنحدر بصعوبة بالغة.. وحشرت جسدي في الكوة.. لكنّ نصفي السفلي ظل في القبو لأن أردافي ممتلئة إلى حدٍ ما بفعل كثرة الجلوس...
كان لابد من أن أجذب أكثر وأحرك جسدي يمينًا ويسارًا كسدادة زجاجة من فللين تحاول انتزاعها..
وهنا شعرت - ولك أن تدرك مدى هلعي - بمن يحاول جذبي إلى القبو ثانية!
قبضتان قويتان أطبقتا على كاحلي، مع جذب إلى الوراء دون هوادة.. أصدرت أنة وفتحت ذراعي عن آخرهما لتعملا كحاجز يمنع جسدي من المرور...
ثم تحررت قدمي اليمنى.. وهي غلطة شنعاء ممن يمسك بي لأنني أتميز بقدرة لا بأس بها على الركل..
وكانت الركلة قوية حقًّا، من كيان إنسان لا يمقت شيئًا في العالم سوى أن يرى وجه الممسك به...
عندها تخلت اليد اليسرى عن الكاحل الأيسر.. وبأقصى ما استطعت قذفت نفسي خارجًا من الكوة..
وعبرت حقًّا في هذه المرّة...
والآن هأنذا أتكوم في الظلام عند طرف الرواق أسفل الكوة.. أرتجف.. وأتساءل: هل حقًّا مررت بما مررت به؟
ونهضت عائدًا إلى الباقين.. الصحبة الآدمية...

* * *

وفي شرفة الدار وقفت أرمق الحقول الممتدة أمامي.. الحقول التي رسمتها فرشاة (فان جوخ) منذ ثوان...
وتساءلت..
أنا لا أومن بتناسخ الأرواح.. فمن المستحيل أن أكون قد عشت في هذا القصر من قبل كأمير أو باشا قديم..
أتكون هي عادة الجوال الليلي أو المشي في أثناء النوم؟ أحتاج إلى قدر غيرعادي من الحماسة كي أغادر فراشي في القاهرة وأركب إلى (أبوحمص)، ثم أستقل مواصلة أخرى إلى هذه العزبة، لأجول في أقبية هذا القصر وأواجه ما به من مسوخ..

لو كان هذا صحيحًا لاحتجت إلى ثماني ساعات كل ليلة في هذا السفر المرهق..
أم أنني عشت في هذا القصر يومًا ما في زمن سحيق، ونسيت كل شيء عن هذا؟
ومن هوهذا الجاثوم؟ ولماذا لا ألقاه إلا في آخر الليل؟ ومن الذي فتح باب الحجرة التي لم أحسن غلقها بالمفتاح؟
أيكون هو الجاثوم وقد حررته بحماقتي؟
وما هو لغز (مها) وأبيها؟ ولماذا قصرهما بالذات؟

* * *

هل تملك إجابات يا د. (رفعت)؟
بالطبع لا.. لأنك تجهل كل شيء عن دنيا ما وراء الطبيعة.. فقط لم تكف عن الثرثرة يومًا عن مصاصي دمائك ومذءوبيك وكهنتك الحانقين طيلة الوقت.. لكنك لا تصلح لحل المشاكل أبدًا..
في الصفحات القادمة أدعوك أيها الساذج إلى خبرة جديدة لم تخضها قط.. أنا خضتها بدلًا منك..
وعندها عرفت إجابات أسئلة لم تخطر ببالي قط.

[تم الجزء الأول]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
١ -خطاب جديد..
٢ -مجرد كابوس آخر..
٣ -أسطورة آخر الليل..
٤ -الطبيب وعرين الموتى..
٥ -أعصابي..!
٦ -دعنا نفر بعيدًا..
٧ -البجعة الوحيدة..
٨ -هل هو حق؟
٩ -عزبة ما..
١٠ -أين أنا؟
خاتمة الجزء الأول

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة آخر الليل

اليوم نُقَدّم لكم موضوعًا مُسليًا إلى حدّ ما : الكوابيس التي تترك في فراشك أثرًا ماديًا مؤكدًا .. مشعلاً – على سبيل المثال – أو مفتاحًا أو يداً مبتورة...، وهذه الظاهرة لا تحدث إلا آخر الليل حين يظل النهار بمنأى عنك .. لكنك تتعلق بالأمل في أن يجيء سريعًا!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
أسطورة الجاثوم

Notes

[←1]

يُسمّى (فرويد) هذا الضرب من الأحلام باسم (أحلام المنبه).

Oneiromancy وهو علم حقيقي يعترف به الصينيون [←2]

[←3]
النكرومانسي: ضرب من السحر الأسود قائم على استجواب جثث الموتى، والنكرومانسر هو من يمارس هذ العمل الشنيع..

يعني رواية (ميرامار) لـ (نجيب محفوظ). [←4]

[←5]

٦ أغسطس عام ١٩٤٥.. بالمناسبة لا أكثر!

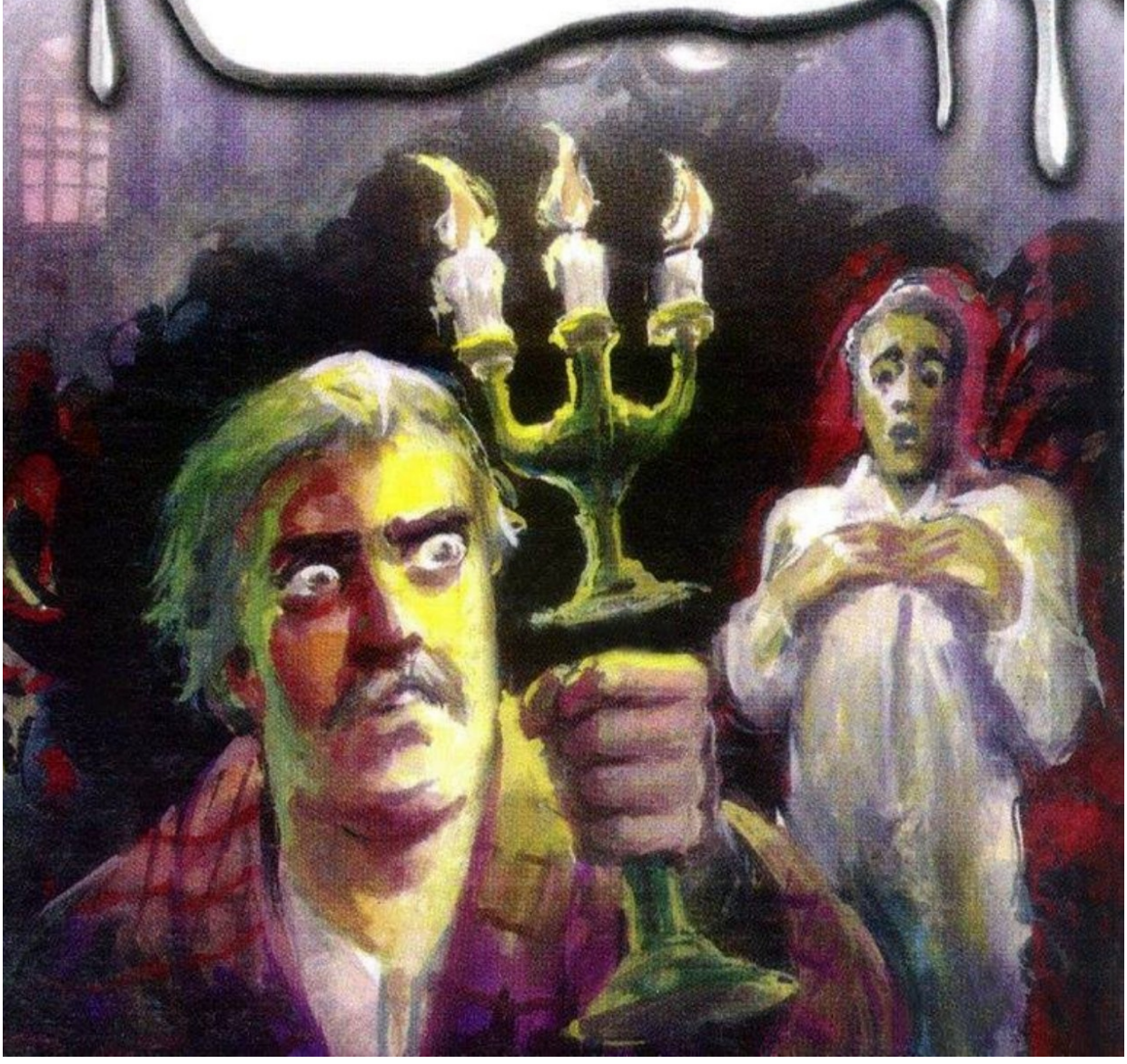
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

29

أسطورة الجاثوم

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

الآن وقد جاء المساء، وأوت الشمس منهكة إلى فراشها بانتظار يوم جديد يكون عليها فيه أن تبدّد الخوف وتنشر الأمل والدفء في النفوس...

الآن فقط يمكننا أن نستكمل القصة التي بدأناها في الكتيب السابق والتي سنقرأ ملخصًا رديئًا لها في الصفحات القليلة القادمة، كما هي عادتي في القصص عديدة الأجزاء...

وأنا أتعشم أن يكون ملخصًا رديئًا حقًّا، لأن المقياس الصحيح للعمل الأدبي الجيد هو ألا يمكن تلخيصه.. فلو استطعت تلخيص رواية ما، في بضعة سطور، لكان هذا دليلًا على رداءتها، واندراجها تحت ما يُسمّى بالقصة الخبرية، وهي أحط أنواع القصص..

ولكن دعونا من عالم النقد الأدبي قليلًا.. ولنعد إلى سياق قصتنا التي أتعشم ألا تكونوا قد أضعتم جزءها الأول.. إن عادة وضع الكتاب فوق جهاز التليفزيون لعادة ذميمة نهيتكم عنها مرارًا دون جدوى.. فالكتاب يضيع دائمًا بهذه الطريقة ولا تجده أبدًا..

سأستكمل خطاب (هـ) الطويل هذا...

بعد ذلك تنتهي سلسلة الأعداد التي تتحدّث عن تجارب الآخرين، وأعود لكم أنا (رفعت إسماعيل) من جديد، آملًا في أن يكون بينكم واحد - مجرد واحد - قد افتقدني..

إن العرب يقولون (زر غبًّا تزدد حبًا).. أي زر الناس على فترات متباعدة كي يحبوك ولا يملوك..

وهذا هو ما أفعله الآن....

ستبدأ قصة الجاثوم فخذوا مقاعدكم.. اربطوا الأحزمة.. وكفوا عن التدخين.. ولا بأس بشهيق عميق لمزيد من الاسترخاء...

إن مطار ما وراء الطبيعة ينتظر طائرتنا في شغف..

* * *

١ - محتوى الكتاب الذي أضعتموه..

هذا خطاب جديد من شخص يدعى (هـ).. وهو مدرس في الثلاثين من عمره... متزوج ولم ينجب.. مصري الجنسيّة..

من السطور الأولى ندرك أنه شخص هجومي مستفز نوعًا، ويصب سيلًا عدوانيًا على أم رأسي دون سبب..

ويزعم (هـ) أن ذكاءه هو السبب الذي جعله يمقت الآخرين ويمل غباءهم.. وأنا لست ذكيًا، لكني أفهم ما يتكلم عنه..

و ومشكلته فريدة من نوعها حقًّا..

المشكلة هي سلسلة من الكوابيس تطارده في آخر الليل، أو ـ كما قال هو ـ في ساعة الذئب، أي الساعة التي يكون المرء فيها في أوهن حالاته البدنية والعقليّة..

الكوابيس تدور كلها حول مطاردة في قصر بينه وبين كائن مريع لا يستطيع وصفه بدقة...

لكن الكابوس ينتهي في لحظة المواجهة الأخيرة.. وينهض صارخًا من النوم، ليجد في كلّ مرّة جسمًا من مخلفات الكابوس في فراشه.. مشعلًا أو مفتاحًا أو قطعة عظم..

بدأ (هـ) يشعر بأنه يُقاد إلى الجنون، ويستشير أحد أطباء النفس - وهو الدكتور (م.ن) ذائع الصيت - لكنّ الطبيب يجد أن ما يعانيه (هـ) هو داء المشي في أثناء النوم، كنتيجة حتمية لعجزه عن الإنجاب، وهو الرأي الذي يجده (هـ) سخيفًا..

ويجري (هـ) تجربة رصينة للتأكّد من أنّه حقًّا لا يمشي في أثناء النوم..

فيضع المقاعد حول الفراش، ويستوثق من أنّه لا يحمل معه إلى الفراش أجسامًا ما..

لكن التجربة تتكرر، ويصحو من النوم ليجد عظمة - من الكابوس - جواره في الفراش...

إن الكابوس قد بدأ يتخذ منعطفًا خطرًا؛ ألا وهو المواجهة بين (هـ) و(النكرومانسر)... أي الشخص الذي يمزق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم..

وبالتدريج راحت الكوابيس الليلية المتكررة تؤثر على (هـ) الذي ازداد عصبية وتوترًا، وصار أكثر قابلية للشجار، سواء في المقهى الذي يحاول قضاء الليل ساهرًا فيه حتى لا ينام ثانية، أو في العمل، أو مع شقيق زوجته الذي يحاول التدخل السافر في حياته..

لقد تخلت الزوجة عنه خشية على نفسها من كل هذا الخبال..

ولم يعد أمامه سوى المزيد من الكوابيس...

مطاردات بينه وبين الوحش - عرفنا أن اسمه الجاثوم - تقود إلى حافة هاوية تتدلى من سقفها عشرات الهياكل العظمية، وفي قاعها تلتهب الحمم، ويحاول (هـ) الدفاع عن نفسه بأن يصحب معه منشارا كهربيًا في الحلم.. وبهذا يتمكّن من بتر يد الجاثوم التي تمسك بكاحله..

وفيما بعد نعرف أن (هـ) وجديد الجاثوم في فراشه حين صحا صباحًا!

* * *

إن تغيير المكان قد يكون حلًا ناجحًا للعلاج..

ويرتحل (هـ) في إجازة قصيرة إلى الإسكندرية إسكندرية الشتاء باهرة الحسن - ليقيم في بنسيون مدام (إيريني) اليونانية العجوز..

ويدخل السينما ليرى فيلمًا يسلي به وحدته التي بدأت تنهشه بأنيابها، فيتعرّف بالصدفة فتاة تدعى (إيناس) تجلس بجواره...

كلا.. هي ليست حسناء.. لكنّها لطيفة المعشر مثقفة متحضرة إلى حد كبير.. تثير فيه الإحساس بصديق لا بأنثى..

مدرسة هي من الإسكندرية.. مطلقة.. في الثلاثين من عمرها، وقد خرجت من تجربة فاشلة وقد أزمعت أن تكون أقوى وأصلد.. وهي تعيش مع ثلاث فتيات في شقّة بالإسكندرية بعيدًا عن أسرتها، وإن احتفظت بتقاليدها وتربيتها..

لقد تبدلت حياة (هـ).. إن أيامًا باسمة تنتظره ها هنا..

لكن الكوابيس لم تتوقف.. وهو ذا يرى حشدًا من المطاردات بينه وبين الجاثوم خارج القصر هذه المرّة.. ومطاردات في حقول القمح، تنتهي في كلّ مرّة بمأزق لا فكاك منه.

وهنا تجيء (إيناس) بعرض خاص.. رحلة إلى عزبة تمتلكها صديقة ثرية لها، تدعى (مها)... والرحلة تضم (إيناس) و(هـ) و(محيي) الشاب المتظرف وخطيبته (غادة).. و(سيد الشمندورى) وزوجته (هويدا) - خطيبتي السابقة - و(مها) وخطيبها (عبد الرحيم)..

ويقبل (هـ) لأنّه لا يجد شيئًا أفضل يفعله..

إن العزبة جميلة حقًّا.. وبها قصر جدير بالملوك..

لكن الحقيقة المروعة التي تصدم (هـ) هي أنّ هذا هو القصر الذي يراه في كوابيس كل ليلة.. وحقول القمح هذه هي ذات الحقول!

الشمعدان الفضي.. اللوحة الجدارية.. الستار الأحمر..

ويحاول (هـ) فتح الباب المغلق الذي فتحه في كوابيسه، لكنه لا يجد فرصة للانفراد أبدًا... ويضطر لترك الباب مغلقًا لكنّ قفله مفتوح، وثمّة ما يدعوه للشعور بأن شيئًا ما غادر الحجرة.. شيئًا لا يجب المرء أن يراه أبدًا..

كان الكل يمرحون في العزبة.. حين حاول (هـ) أن يجرب الرواق المظلم إلى اليمين... فالكوة التي في نهايته - الكوة التي تقود إلى وكر (النكرومانسر) - ويجتازها..

ثمة ما يوحي بأن (النكرومانسر) كان هنا حقًّا..

ويحاول (هـ) الخروج من الكوة، لكنه يشعر بأن قبضة قوية تمسك كاحله!

وبعد صراع عنيف يعبر الفجوة... ويفر عائدًا إلى رفاقه...

وينهى (هـ) الجزء الأول بتساؤلات ميتافزيقية مريرة:

- هل هو حقًّا يمشي في أثناء النوم، وزار هذا القصر مرارًا وهو غاف؟
- هل عاش في هذا القصر يومًا في الماضي، ثم نسي أمره؟
- ما هو الجاثوم؟
- لماذا انفتح باب الحجرة التي لم يحسن غلقها؟
- لماذا هذا القصر بالذات؟

من المفترض أننا سنعرف الجواب في هذا الجزء بالذات، وإلا كان كل هذا مستفزًا..
دعنا نكمل الخطاب معًا إذن...

* * *

٢ - فلتمر الساعات..

كنت أرتجف رعبًا..
أرتجف توجسًا..
أرتجف اشمئزازًا...
وشعرت بحيرة غير عادية.. مرة أوقن أن ما أمر به هو كابوس آخر لن يلبث أن يوقظني منه رنين المنبه، ومرة أستدرك نفسي وأقول: إن هذا حقيقي تمامًا.. فأنا لم أعبّر بعد الثغرة الفاصلة ما بين الوهم والحقيقة..
أنا لا أحب هذا المكان..
وسأكون أكثر رضا لو غادرته على الفور...
لكني مكثت فيه لم أبرحه، لأني مرتبط بالآخرين.. ولأني كالإنسان الذي رأى عقربًا للمرة الأولى في حياته.. وبرغم الإحساس بالخطر الداهم، لم يستطع أن يفر مبتعدًا عن هذه الأعجوبة.. إن الفضول يخنقه كي يتعلم أكثر.. الجوع السرمدي إلى الحكمة..
إن الحقيقة التي لم تبرح ذهني، هي أنني رأيت كل تفاصيل هذا المكان في كوابيسي السابقة..

* * *

كان ضوء الغروب يغمر الموجودات بتلك المسحة الزرقاء الباردة غامرة الحزن، وقد وقفت أرمق هذا مبلبل الفكر..
حين دنت (إيناس) لتقف إلى جواري.. واحترمت صمتي برهة... ثم لم تلبث أن تساءلت، وهي ترنو لما أرنو إليه:
- «هل أحببت زوجتك؟»
سؤال غريب.. وإجابة أغرب بالتأكيد...
قلت لها في كياسة:
- «لا أدري.. قليلون هم الرجال الذين يتساءلون عما إذا كانوا يحبون زوجاتهم.. إنهن موجودات وهذا كاف.. ولا يمكنني أن أرى زوجتي دون أن يحاصرها نسيج من ذكريات الكفاح المشترك والحزن المشترك..»
- «أنت تتحدّث عن التعود والألفة.. لا عن الحب..»
قلت في ملل:
- «ربما.. لكني - دون فلسفة لا طائل منها - أحب وجودها بقربي.. ولا أشعر بارتياح كثير لرحيلها..»
- «وأنا؟»

- «أنت؟ أنت صديقتي!»

هنا سمعنا من يناديا للعشاء....

وكما حدث في الغداء؛ سيخلد تاريخ هذا اليوم لدى نحل العسل.. ولدى الأبقار الحلوب.. ولدى الدجاج البياض.. باعتباره يوم التضحية الكبرى...

كان (سيد الشمندوري) يكدس الطعام بين شدقيه دون كلل ولا توقف.. وتكونت بطيختان صغيرتان حيث كان خداه.. حتى إنني رحت أتساءل في هلع: متى وكيف سيبتلع كل هذا؟

أما الأب ـ الثرى الريفي عدو التأميم ـ فقد جلس يبتسم ابتسامة فخورًا، وهو يجيل عينيه بين تلك الحيتان، التي تطعم من طعامه وتشرب من شرابه..

لقمة أو اثنتان ـ لا أكثر ـ مد يده بوقار ليمسحهما في طبق البيض المقلي، ثم يرفعهما إلى فمه.. ويحرك شفتيه في تؤدة..

ثم إنّه تنحنح، وقال بذات الوقار وهو يضم عباءته على جسده:

- «لقد أسعدتمونا.. وكنت أرجو أن تظلوا معنا هذه الليلة.. لكني بمشاغلكم عليم.. لهذا لن أثقل عليكم..»

ونظر نظرة ذات معنى إلى سائق سيارة الأجرة الذي كان يلتهم الطعام معنا.. فسارع هذا يفتح قطعة كبيرة من فطيرة ويدس فيها بعض البيض والجبن، ثم يطويها على شكل شطيرة.. وينهض كي يعد العربة...

مالت (إيناس) على مسمعي لتهمس:

ـ «كان ككل يوم في حياتك.. واحتفظت أنت بكآبتك العتيدة.. فلم تأكل ولم تمرح.. ماذا دهاك؟»

قلت لها وأنا أتنهد بعمق:

ـ «إن ذلك الشعور.. الشعور بأن المكان مألوف.. لن أتخلص منه أبدًا ما لم أبتعد..»

ولم أصارحها بأن المكان ليس مألوفًا فحسب..

بل هو المكان ذاته بكل تفاصيله!

* * *

غريبًا كمتسول في الأوبرا.. كئيبًا كالخريف.. شارد الذهن كـ (أحمد شوقي) وهو يتلقى إلهام قصائده في (كرمة بن هانئ)، هكذا اتخذت موضعي في السيارة جوار السائق..

كان يلهث متثاقل الأنفاس من فرط ضغط بطنه الممتلئ على حجابه الحاجز.. وتجشأ، فأفعمت أنفي للحظة أبخرة الفطير (المشلتت) والجبن القديم...

واهتزت العربة إذ تكدس الباقون فيها في نفس المقاعد السابقة تقريبًا.. وأطلق أحدهم دعابة سخيفة، ضحك عليها أضعاف ضحك من سمعوها...

وظهر شبح الأب ومعه خادمان.. مدثرين في الظلام، وهو يرفع يده مودعًا..

عندها أغمضت عيني.. وهمست في سرّي:

- «وداعًا أيها (الجاثوم).. لربما التقينا كثيرًا فيما بعد.. لكنّ هذا اللقاء سيكون دائمًا في الحلم.. ولسوف يظل من حقي أن أصحو صارخًا أرتجف، فأنجو منك..»

كررررررروووه! كررررراك! كرررروه!
المحرك اللعين يأبى أن يستجيب..
كررررووه! كررررررره!
جذب السائق شهيقًا عميقًا، وأطلق سبة صغيرة - وهي طريقة ناجحة لجعل المحرك يعمل - ثم واصل محاولة بعث الحياة في الوحش الحديدي النائم.. لكنّ لا...
- «(ننزل نزق؟)»
سأله (محيي) متظرفًا حيث جلس على يميني.. لكن السائق حاول من جديد إيلاج المفتاح دون جدوى ولم يرد...
غادر مقعده متثاقلًا، وفتح الغطاء الأمامي وراح يعبث هنا وهناك.. وأنا لا أفهم حرفًا في ميكانيكا السيارات.. ولهذا لا أعرف سوى أنه سيعلن بعد الفحص أن العيب في (الكبالن) أو (الفيوز) أو (الدفرانس) أو (الحنجهور).. أي شيء.. المهم أن السيارة لن تتحرك..
كنت أدرك هذا منذ اللحظة الأولى.. وأنتظره...
إن القصر يريدني هذه الليلة!
لقد سمعت نداءه... وشعرت به في كل عظمة من عظامي، وكل عصب من أعصابى..
أنا الرهينة التي يريد القصر الاحتفاظ بها، مقابل إطلاق سراح الباقين. إن لقاءنا اليوم هو لقاء صديقين قديمين.. ولن ينتهي بهذه البساطة أبدًا...
وسمعت السائق يحدث مضيفنا.. ويشوح بيده.. ويشير إلى المحرك.. بالتأكيد يفسر له سبب عطب (الدفرانس) أو (الكبالن) أو (الحنجهور) أو أي شيء يعتقد أنه فسد..
لا تضيعوا الوقت يا سادة.. إن سبب عطل السيارة هو (الجاثوم) ولا شيء سواه!
وسمعت أطرافًا من الحديث.. تحملها أنسام الليل إلى مسمعي..
- «(الراديانور).. لم أعلم أن.....»
- «سيارة أخرى.....»
- «لا يوجد.. إصلاح.. ميكانيكي.. القطار يمرّ من هنا.. السابعة صباحًا.. آخر قطار قد.....»
- «مبيت.. الحل الأوحد..»
مبيت؟! يا للنهار الأسود! مبيت؟!
هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟
نظرت نحوهم في ذعر، وأدركت أن الأمر حقيقي.. هناك قضيب قطار يمرّ جوار العزبة، ويتوقف القطار ذاته لثوان تكفي لتسلقه من دون رصيف، لكنّ هذا القطار لم يعد هنالك.. لن يمرّ قبل السابعة صباحًا...
ورأيت الآخرين يغادرون السيارة، وقد بدا الذعر على الفتيات... وهتفت (غادة) في هستيريا، وهي تكور قبضتيها على خديها، فيما يشبه (اللطم):
- «مستحيل أن نبيت هنا.. إن (بابي) سيجن هلعًا!»
تأملتها في حنق.. من المستحيل أن يكون لهذه الفتاة (بابي) ولا (بابا).. لا يمكن أن يكون لديها أكثر من (أبويا)..
وهنا تدخلت (إيناس) بهلع مماثل:
- «إن هذا ببساطة مستحيل.. لابد أنّ هناك حلًا..»

- «هناك حل..» ـ قال السائق وهو يسترخي على مقدمة السيارة:
- «وهو أن تمشوا في الظلام عبر الحقول المقفرة، قاصدين (أبو حمص).. إن الكلاب هنا ليست شرسة إلى هذا الحد.. فهي تكتفى بعضك في مؤخرتك دون أن تقتلك..»
قالت (مها) التي كانت أكثرنا هدوءًا. فهي تتحدّث عن المبيت في دار أبيها:
- «تعقلن يا بنات ولا داعي للبلاهة.. إن هي إلا ليلة تمر بالطول أو بالعرض.. وفي الصباح الباكر يعود الجميع.. إن قصر أبي مليء بالحجرات، وكلها مفروشة صالحة للمبيت..»
صاحت (غادة) بنفس الهستيريا:
- «إن (بابي) سيذبحني لو بت خارج الدار ليلة واحدة.. إننا صعايدة ولا نمزح في هذه الأمور..»
تأملتها في مزيد من الغيظ.. من هو (بابي) الصعيدي الذي يسمح لابنته بالخروج في نزهة مع فتاها بعيدًا عن رقابته؟ لو كان يعلم فتلك مصيبة.. أو كان لا يعلم فهي كارثة.. لست متزمتا لكني أمقت الادعاء.. إما أن تتحمل قرارها في شجاعة مثل (إيناس)، أو تظل في كنف (بابي) ولا تتظاهر بالتحرر..
صاحت (مها) في صرامة معاتبة صديقتها:
- «نحن قوم محترمون، يا (غادة).. ولسوف يفهم أبوك هذا فورًا..»
وهكذا.. أدركت في هلع أننا حقًّا سنبيت ها هنا..
يمكنني ألا أفعل.. يمكنني أن أصر على العودة راجلًا إلى (أبو حمص).. لكنّ منظر الحقول المظلمة وأد هذا القرار في مهده.. ثم إن هذه الحقول صالحة تمامًا لكابوس جديد.. أركض فيه و(الجاثوم) في إثري..
العرق البارد يبلل جبينى، وأمعائي تتقلص على ما فيها من لحم طيور وبيض وجبن وسمن..
صوت الأب يقول في وقار:
- «إن الهاتف هاهنا.. الهاتف الوحيد في العزبة....»
- «حمدًا لله! يمكننا أن....»
- «لكنه معطل منذ أسبوع!»
لو كان هذا الهاتف الأحمق سليمًا؛ لاقترحت على الآخرين أن نستدعى أية سيارة.. ولو كانت سيارة بوليس النجدة، أو الإسعاف، أو نقل الموتى.. المهم أن نعود إلى الإسكندرية الليلة..
لا أريد المبيت في مصيدة الفئران هذه..
وبخطوات جنائزية متثاقلة عدنا إلى القصر..
القصر الذي يضحك في تشف وهو يرمقني.. ولسان حاله يقول لي: أرأيت؟ لا مفر هنالك.. أنت لي!
كانت (غادة) تنشج في إنهاك؛ فطوقها (محيي) بذراعه متظاهرًا بالفروسية أمّا (هويدا) وزوجها (الشمندوري) فقد بدا عليهما السرور.. فهما معًا.. والتجربة جديدة.. فما المشكلة إذن؟ صحيح أنها قالت شيئًا عن أمها العجوز.. لكنه طمأنها إلى أن شقيقتها (سهام) ستعني بها..
وعند المدخل توقفنا....
قالت لي (إيناس) في رفق وقد فهمت ما يدور بخلدي:
- «تشجع.. كل هذه أوهام..»

- «هل.. هل أنت واثقة؟»
- «ألم نتحدث عن ظاهرة (ديجا - فو)؟»
- «بلى.. ولكن.....»

ودون أن أكمل عبارتي؛ دلفت إلى الداخل..

كان كل شيء طبيعيًا ولا يثير أي مخاوف في النفس..

ربما باستثناء ملحوظة واحدة.. كانت (إيناس) هي من لفت نظري إليها.. وسرعان ما فطنت إلى أنها محقة...

لماذا انغلق الباب ورائي ما إن دخلت القصر؟

تقولون إنني جذبته خلفي؟ كلا.. لم أفعل.....

أقسم بالله إنني لم أفعل!

* * *



وبخطوات جنائزية متثاقلة عدنا إلى القصر . .
القصر الذى يضحك فى تشفّ وهو يرمقنى . .

٣ - ليلة لا أكثر..

كانت أمسية أسود من كل ليالي (النابغة الذبياني)[1].. صحيح أن العاديات لم يفرشن لي هراسًا به يُعلى فراشي ويُقشب.. لكنّ أبا (مها) تكفل بهذا الدور، بحديثه الممل الذي لا يتعب أبدًا عن أمجاد أسرته.. وتاريخها العريق..

كان هناك شطرنج قديم تأكلت حواف رقعته؛ واستعاضوا عن الرخ الأسود (الطابية) فيه بعلبة ثقاب.. جلس (عبد الرحيم) و(محيي) يلعبان به على الأريكة..

على حين راحت (مها) تعرض صور الأسرة على النساء.. (هويدا) و(إيناس) و(غادة).. وهي صور في ألبوم ثمين تحمل جميعًا ذلك اللون الأخضر الزيتوني المميز لصور الماضي.. وبها مجموعة غير عادية من الشوارب التي تقف عليها الصقور والطرابيش، ونساء يرتدين الدانتيللا يتظاهرن بالرومانسية والخضوع التام لأزواجهن..

ومن آن لآخر يدور علينا الخادم النوبي بأقداح الشاي والقهوة.. ويعيد إشعال (النارجيلة) لسيده..

ومن جهاز (الفونوغراف) تصاعدت أغنية تركية، من تلك الأغاني التي تحسبها في البداية أغنية عربية يتم سماعها بالعكس!

إن هذا الرجل يبالغ حقًّا...

و(مها) ما زالت تتكلم:

- «.. أمّا هذا فهو جدي الأكبر.. (عبد الحميد باشا).. الذي نزح من (الآستانة) إلى مصر.. وأزمع أن يقيم بها أبدًا، فرارًا من الوالي العثماني الذي لم يكن ميالًا إليه..»

سألتها (إيناس) دون اهتمام حقيقي:

- «إذن هو من أنشأ هذا القصر الفخيم؟»

- «كلا.. لقد اشتراه من صاحبه.. وصاحبه كان قدا استولى عليه بعد مذبحة المماليك..»

- «صاحب القصر الأول كان مملوكيًا؟»

- «نعم.. الأمير (كتخدا طومان).. يُقال إن (محمد علي) ذبحه بيده.. فرصاص الجند لم يكف لقتله..»

سألتها (غادة) وقد بدت منبهرة بكل هذه (العراقة):

- «وكيف تحفظين كل هذا؟»

قالت (مها) في فخر، وهي تغلق الألبوم وتضمه لصدرها:

- «إنّه التاريخ.. تاريخ السادة الذين حكموا هذا البلد..»

هنا تصاعد الدم إلى رأسي.. أنت تعرف ضيق خلقي منذ أن ابتليت بهذه الكوابيس.. فتدخلت في المناقشة:

- «لقد ظل هذا البلد قرونًا يعاني حكم هؤلاء السادة، وحكم كل بائع دخان في (الآستانة) جاء ها هنا ليجلد الفلاحين بالسياط.. الفلاحين الذين هم جدودي.. الحفاة العراة الجائعون...»

صاحت (إيناس) في حرج محاولة إخراسي:
- «(هـ)؟ لا تأخذ الأمور بعصبية..»
صحت أنا وقد صار إسكاتي معجزة:
- «أنا لا أملك جدًا اسمه (كتخدا) ولا (طومان) ولا (مراد أغا).. لقد كان أجدادي هم (شلاطة) و(زينهم) و(بيومي).. أراهن على أنهم ماتوا جميعًا جلدًا بالسياط.. وإنني لفخور بهذا..»
نظرة نارية اندلعت من عيني الأب.. لكنه تمالك أعصابه..
وبصوت ثلجي تساءل:
- «هل الأستاذ (هـ) إشتراكي إلى هذا الحد؟»
- «لا أدري.. كل ما أعرفه هو أنني لست تركيًا.. وقد توفي أبي الموظف في السكة الحديدية، وفي جيبه جنيهان هما ميراثي..»
ساد الصمت لبرهة.. وعرفت أنني سكبت دلوًا من الماء البارد فوق نيران السهرة..
ومالت (إيناس) لتهمس في أذني:
- «هل لابد أن تحتد هكذا؟ لقد أحرجتني كثيرًا.. ولم يطالبك أحد بالدفاع عن الفلاح المصري أو إثبات انتمائك للشعب...»
كانت على حق.. فهززت رأسي في قنوط وغمغمت:
- «الواقع انني لست على ما يرام.. متى يسمحون لنا بالنوم؟»
تطوعت هي بسؤال الأب الذي جلس ساهمًا، يتمنى أن يطردني، لكنّ أدب الضيافة يمنعه..
- «أين سننام يا سيدي؟»
بدا كأنما أفاق من كابوس.. فقال في عجلة:
- «آه! هذا حق.. إن منتصف الليل قد دنا... وأنتم سوف تسافرون بأول قطار.. إن (حسني) سيقودكم إلى غرفكم..»
وجاء الخادم العجوز يقودنا إلى الطابق الثاني من القصر، بعد ما تمنينا أمسية طيبة لمضيفنا..
تحاشيت النظر إليه.. كما تحاشيت النظر إلى الباب إياه.. والرواق الذي تعرفونه جيدًا..
ستنام (هويدا) و(الشمندوري) في أول غرفة بما أنهما زوجان.. وتنام (إيناس) و(غادة) في الحجرة الثانية.. (مها) ستنام في غرفتها القديمة.. أما (محيي) و(عبد الرحيم) فينامان في حجرة ثالثة.. يا سلام! ولماذا أبيت أنا وحدي؟
الإجابة معروفة.. لأن (محيي) و(عبد الرحيم) زميلا عمل ويرتاحان لبعضهما.. وكلاهما راغب في المبيت مع الآخر..
أما أنا فهما يلقياني للمرة الأولى.. ثم إنني لم أكن ودودًا طيلة اليوم، وأبديت عصبية بالغة جعلت الجميع لا يرحب بالبقاء معي طويلًا.. كما أنهما ـ حتمًا ـ لا يرحبان بي شريكًا ثالثًا في حجرة النوم..
مرّة أخرى سأقضي ليلة (نابغية) محترمة.. فلو كان (النابغة) يعرفني؛ لاعتبر نفسه نزيلًا مرفهًا في فندق من ذي الخمسة النجوم..
والآن دعني أصف الحجرة لك يا د. (رفعت)..
يمكنني أن أقلد (بلزاك) فأصف لك كل رسم على الجدار، وكل خدش في الأثاث.. ويمكنني أن أقلد (جرييه) فأقول لك إنها حجرة وكفى.. لكني سأكون وسطًا بين الاثنين..

هي حجرة مرعبة...
حجرة صالحة تمامًا لإحياء أجواء الرعب القوطي الغابرة..
الباب يحدث صريرًا مرعبًا، وكل الأبواب في قصص الرعب تحدث صريرًا.. كأن اختراع (التزييت) لم يصل إليها بعد..
أرضية الغرفة من الخشب العتيق المسوس الذي يحدث صريرًا بدوره، ويجسم صوت خطواتك.. وهذا سيئ...
الأسوأ من هذا هو السرير ذو الأعمدة العالية النحاسية، والذي يُمكنك أن تقسم إنّه شهد وفاة عدد لا بأس به من الأجداد.. وهو محاط بستائر حريريّة تتحرك حتى تكاد تقسم إن هناك من سينهض من الفراش حالًا.. وهذا سيئ جدًّا..
الأسوأ من هذا أن النافذة موصدة.. لكنّ خصاصها قد بليت وتساقط معظمها.. ومن خلالها ترى سجادة سواداء حالكة هي الليل.. الليل الملتصق بالنافذة.. وبصعوبة تنجح في إغلاق الزجاج لتمنع الريح الباردة من تجميدك... وهذا سيئ للغاية...
الأسوأ من هذا هو المرآة العتيقة التي تساقط طلاؤها.. والتي تحتل جدارًا كاملًا يستحيل معه أن تصدق أنّ هذه مرآة.. وطوال الوقت ترى - بطرف عينك - من يتحرك في ركن الغرفة.. فتجفل.. وسرعان ما تدرك أنّ هذا انعكاسك لا أكثر... وهذا سيئ بما لا يقاس...
الأسوأ من هذا كله هو تمثال يعلو رف المدفأة.. تمثال مخيف، يذكرني بصور أصنام الجاهلية (يغوث) و(يعوق) و(نسرا) التي نراها في الأفلام الإسلامية.. تمثال لا يمت للفن ولا للجمال بصلة.. ولا أجد نفعًا له، سوى أن يكون حقًّا وثنًا عبده أحدهم في هذه الحجرة المشئومة يومًا ما.. وهذا سيئ إلى حد فلكي.. إنّه السوء نفسه..
هل أنت معي الآن في الحجرة؟
هل تستطيع تصوّر الموقف جيدًا؟
إذن لنبدأ الأمسية معًا...

* * *

لو حاولنا أن نجمع خيوط القصة في قبضة واحدة؛ لأمكننا أن نتجاوز دور الراوي الذي يعيش الأحداث، لنأخذ دور الراوي الذي يسردها - غير مشارك فيها - من موقع علوي.. يجعله يرى ويعرف كل شيء.. وهكذا يمكنني أن أصف لك بضعة مشاهد لم أرها.. لكني الآن أستطيع أن أصفها كما حدثت....
المشهد الأول: (إيناس) و(غادة) في حجرتهما..
(غادة) كفت عن الولولة وبدأت تتحدّث عن الرجال.. فهذا ظريف وهذا مهذب.. لكنهم - جميعًا - لا يقارنون بخطيبها (محيي) ذي القلب الذهبي والدعابة الحاضرة..
لابد أن (إيناس) كتمت ضحكتها.. أنا أعرف هذا التعبير على وجهها وأحبه كثيرًا..
ولابد أن (غادة) بدأت تتكلم عني..

لابد أنها سألت (إيناس) عن (كنهي).. عن سر عصبيتي البالغة وعدم اندماجي مع الحمقى الآخرين..

قالت لها (إيناس) إنني عصبي لكنّ قلبي طيب..

ولابد أن (غادة) سألتها عن جدوى كل هذا.. عن جدوى مصادقة رجل متزوج لا ينوى تطليق امرأته.. أليست هذه مضيعة للوقت؟ وماذا عن سمعتك يا حبيبتي؟ صداقة؟ لا توجد صداقة بين ذكر وأنثى.. وإن وجدت فهي كصداقة الأسد والحمار الوحشي.. جديرة بأن تعرض كفقرة في السيرك القومي..

ثم راحت تلك الثرثارة تتفقد الحجرة، وتقلب حشية السرير مرددة عبارات الحسد لـ (مها) على ثراء أهلها.. وذهبت إلى ركن النافذة تتفحص الستائر وخامتها بعين ناقدة جديرة بخبير مُثمن.. ومصمصت شفتيها تحسرًا...

وحين خلعت حزامها لم تجد مكانًا أفضل لتعليقه سوى.. سوى هذا التمثال القبيح الموضوع على رف المدفأة...

- «هؤلاء الأثرياء.. لهم ذوق غريب أحيانًا!»

* * *

المشهد الثاني: (هويدا) وزوجها في حجرتهما..

يمكن القول دون جهد إن (هويدا) كانت في أسعد حالاتها.. وراحت تصف كم أن كل شيء رائع، وإن كانت تضايقت نوعًا من زوجها حين مد يده لـ (غادة) كي يعينها على مغادرة القارب، بعد النزهة النهرية التي قاموا بها..

- «لكنّها ضريبة الرجولة يا (هويدا).. الإتيكيت..»

- «دع هذه الضريبة لخطيبها كي يدفعها بدلًا منك..»

ومشت نحو المدفأة العتيقة تتأملها في انبهار.. وتوقفت عيناها عند التمثال المريع الموضوع فوقها.. فقالت مجفلة:

- «بسم الله الرحمن الرحيم.. كأنه من عالم المنحوس (رفعت إسما.....)!»

- «عالم من؟»

- «لا.. لا شيء.. تذكرت حكاية قديمة..»

وأشرق وجهها وهي تنظر إليه محاولة جعله ينسى.

* * *

المشهد الثالث: الشابان (محيي) و(عبد الرحيم) في حجرتهما..

يتحدث (محيي) عن (غادة) في إفراط، وهو يدخن ويتأمل سقف الحجرة في هيام.. ومن حين لآخر يتوقف ويدندن لحنًا لإحدى أغنيات (عبد الحليم حافظ) وقد رسم علامات العذاب على وجهه:

- «بتلوموني ليه؟ إم م م م.. بتلوموني ليه؟ إرررررم!»

ثم ينسى الغناء ويواصل الكلام عنها.. وبعد دقائق:

- «أول مرة.. أول مراااة!»

سأله (عبد الرحيم) وهو يفك رباط عنقه:

- «أنت تحبها حقًّا؟»

- «جدًّا.. جدًّا.. كما تحب أنت (مها)..»

غمغم (عبد الرحيم) وهو يحل أزرار قميصه.. ويتأمل وجهه في المرأة:

- «أنا لا أدري إن كنت أحبها أم لا.. إن هذا التراث العاطفي الذي نحمله جميعًا يجعلنا ملهوفين على الحب.. فما إن نلقي إنسانة تصلح قليلًا حتى نملأ الدنيا صراخًا وغناءً وشعرًا.. ولا نترك لأنفسنا فرصة كي نتريث ونسأل أنفسنا عن أي شيء..»

- «إن (مها) جديرة بأن تحب..»

- «نعم.. مع كل هذا الثراء.. إن من لا يحبّها هو مغفل أو مخبول.. لكني اليوم أشعر باهتزاز مريع في ثقتي بنفسي..»

- «الثقة بالنفس تأتي من كونها تميل إليك..»

- «هراء!»

قالها في عصبية، وقذف قميصه على طرف الفراش.. ثم استطرد:

- «ماذا أقدم لها؟ ماذا أملك؟ اليوم فقط شعرت بأنني تورطت في لعبة كنت أجهل قواعدها.. وها هي ذي الفتاة بسيطة الطبع والملمس التي عرفتها، تكشف عن وجهها، فإذا هو وجه الأرستقراطية التركية.. بارع الحسن.. المتعالي.. المستفز..»

ثم جلس على طرف الفراش.. وغمغم في مرارة:

- «إنني أتضاءل!»

كان هذا الحديث يدور بالتأكيد في تلك اللحظات التي تسبق النوم.. ولم يكن أحد الشابين يعرف أنه في دهاليز هذا القصر يتحرك الشيء الذي سيحدد مصير حب كل منهما...

يا للسخف! كيف لو عرفا تفاهة ما يتكلمان عنه!

لكنهما كانا يعرفان شيئًا واحدًا على وجه اليقين: إن هذا التمثال الموضوع على رف المدفأة كريه جدًا.. ولا يثير أي ارتياح في النفس ولم يعرفا سببًا لهذا.....

* * *

المشهد الرابع: (مها) في حجرتها القديمة.. تجول في أرجائها وتتحسس الستائر في افتتان.. على شفتيها ابتسامة غامضة..



ومشت نحو المدفأة العتيقة تتأملها فى انبهار ..
وتوقفت عيناها عند التمثال المربع الموضوع فوقها ..

تنظر إلى ساعتها وتغمغم هامسة:
- «مازال الوقت مبكرًا جدًّا..»
ثم تطفئ الضوء الكهربي، وتنسل إلى الفراش...

* * *

المشهد الخامس: ثمّة باب في الطابق الأرضي.. باب موصد يقود إلى ما يشبه الكرار القديم المنسي..
لو دققت النظر أكثر، واعتدت الظلام؛ لعرفت أن مقبض الباب يدور ببطء.. ولا يحدث الصرير المعتاد....
إن الباب ينفتح.. ولكن ليسمح بمرور أي شيء؟!

* * *

٤ - إنّه يحيا!

في حجرتي أتسلى بقراءة مجلة مصورة، ابتعتها صباح اليوم - أم هو الأمس - من الإسكندرية، ولم أجد الوقت الكافي لقراءتها:

لن أستطيع النوم.. ولن ألتمس له الأسباب.. إن هي إلا ليلة تمر طولًا أو عرضًا..

إنني أهاب النوم في مكان غريب.. أكره أن يأتي الخطر المبهم ليجدني راقدًا معدوم الحيلة غير مدرك لوجوده..

وأنا أكره هذا القصر.. وأعرف أنه يكرهني بالمثل....

* * *

نهضت من جديد لأتأمل التمثال ـ شبيه (يعوق) - الموضوع على رف المدفأة، واستعدت من جديد الشعور بأنه مألوف لي.. هذا الشكل قد مر بي من قبل.. لكنّ أين؟

وهنا جاء الجواب سريعًا..

إنه (الجاثوم) ذاته!

بالتأكيد هو.. لقد كانت كوابيسي مبهمة دائمًا.. ولم أستطع قط تمييز ملامح (الجاثوم).. لكنني كنت أعرف أنه هو..

أما الآن فأتذكر هذه الملامح.. ولا شك لدي في هذا..

تمثال (جاثوم) في غرفة النوم؟ هذا غريب.. معنى هذا أنني لست واهمًا.. هذا القصر يحوي التفسير الكامل لكل ما مر بي..

أمسكت بالتمثال كمن يمسك أفعى.. كان ثقيلًا كالكابوس.. وكان من خامة حجرية لابد أنها (الشست)، وإن كانت معلوماتي الجيولوجية هي معلومات طالب في المدرسة الإعدادية..

وفوق قاعدته رأيت حروف لاتينية محفورة:

Incubus - R.J. Simpson

1803

بالتأكيد هو المثال الذي صنعه.. وبالتأكيد في عام ١٨٠٣م.. إنّه لأثر حقيقي إذن.. عمره يتجاوز قرنًا ونصفًا..

لكن الفضول حركني أكثر.. فأنا لا أهوى التماثيل.. على الأقل تلك المصنوعة من حجر (الشست)...

رفعت ذراعي وهويت بالتمثال على الأرض، ليتهشم إلى ١٦٤٧ قطعة.. أحدث ضوضاء لكنّها لم تغادر حجرتي حتمًا..

كان التمثال مصمتًا تقريبًا من الداخل.. لكنّ هناك تجويفًا صغيرًا في منطقة الصدر.. تجويفًا يسمح بدخول قطعة من النحاس تشبه الشريحة.. وحين أمسكت بالقطعة - وقلبي يرتجف ـ قرأت عليها كتابة باللغة اللاتينية.. مزيجًا من حروف (الواو) و(السين) على غرار (كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس)...
وبالطبع لم أفهم حرفًا...
لكن الأمر كله كان له مذاق مريع أعوذ بالله منه.. هذا الجو الشيطاني الأسود المتهجم...

* * *

الـ Incubus - هذا الكائن الافتراضي - يميل لمهاجمة النساء، ويجعلهن يعشن كوابيس مريعة.. أمّا الـ Succubus فمعادله الأنثوي.. ويتخذ صورة أنثى تهاجم الرجال وهم نائمون.. فتجثم فوق صدورهم.. وتجعلهم يرون أشنع الكوابيس طرًا..

* * *

الواحدة صباحًا.. مازال الصباح بعيدًا..

* * *

الواحدة والربع صباحًا.. مازال الصباح بعيدًا..

* * *

الواحدة والنصف صباحًا.. مازال الصباح بعيدًا..

* * *

الثانية إلا.. هه؟! هل سمعت هذا الصوت؟
صوت طويل رفيع متحشرج.. لا يمكن إلا أنّ يكون صراخًا.. صرخة امرأة على وجه اليقين.. والأسوأ أنها قادمة من ذات الطابق..
هرعت أفتح باب الحجرة.. أزيح المزلاج.. واختلست نظرة إلى الوراء فرأيت من يفر مبتعدًا.. لكن.. إنها صورتي في المرآة اللعينة!
فتحت الباب بمنامتي حافي القدمين..
وكان الرواق خارج الغرفة يعجّ بالبشر.. الجميع غادر حجرته ليرى ما يحدث.. (إيناس).. (عبد الرحيم).. (سعيد).. (هويدا).. (غادة).. الرجل يفركون عيونهم، والنساء يضممن أراوبهن على

أجسادهن، وعيونهن ترسم علامات استفهام مريعة..
ومن مكان ما برز الأب.. ضخمًا مهيبًا صارمًا حتى في جلباب النوم.. ونظر لنا بعينين لا تريان.. وقال للأحد:
- «الصرخة من غرفة (مها)!»
ثم اخترق صفوفنا قاصدًا بابًا في نهاية الرواق.. وقرع الخشب بحزم عدة مرات.. وبصوت آمر هتف:
- «(مها)! افتحي الباب..»
لا جواب..
- «(مها)! ماذا حدث؟»
لا جواب..
نظر نحونا بصرامة.. أشار إلى (عبد الرحيم) و(محيي) ليقتربا.. وقال في خطورة:
- «إنها توصد الباب من الداخل.. هلما اكسراه!»
ولم يجد الشابان وقتًا ليناقشا الأمر.. بل تراجعا إلى الوراء ثم اندفعا بكتفيهما القويتين.. و.. طاخ! لم يجد الباب هو الآخر وقتًا ليفهم.. لقد انفتح وتهشم المصراع وتدلى من الجانب، وغاب الشابان داخل الغرفة ليسقطا على الأرض بالتأكيد..
لكن الأب لم ينتظر.. خطا فوق جسديهما قاصدًا الفراش...
وتوقفنا نحن الرجال حياء خارج الحجرة، أمّا النسوة فهرعن يخطون فوق جسدي (عبد الرحيم) و(محيي) ليرين ما هناك..
مرت هنيهة.. ثم برز الأب بوجه مغلق ليذبنا بذراعيه بعيدًا:
- «لا شيء هنالك يا شباب.. لقد رأت كابوسًا.. عودوا لنومكم..»
وخرج (عبد الرحيم) و(محيي)، وتأخرت النساء قليلًا بالداخل..
بعد قليل خرجت (إيناس) من الحجرة.. وكنت أنتظرها على أحر من الجمر.. فما إن رأتني حتى هتفت في انبهار:
- «هذا غريب! لم أتصور أنك تخلع بذلتك حتى في أثناء النوم.. لا تبدو لي متحضرًا على الإطلاق بمنامتك..»
في سأم أجبتها:
- «كذلك أنت لا تبدين فاتنة جدًا بهذا الشعر المنكوش.. ولكن دعينا من هذا الهراء.. ما الذي يحدث بالداخل؟»
قالت لي إنهم وجدوا (مها) في الفراش...
كانت منبطحة على وجهها ترتجف.. ومن فمها المدفون في الوسادة تصاعد صوت نشيج..
مدت (إيناس) يدها إلى شعرها، وأجبرتها على الالتفات فالنهوض.. لكنّ الفتاة كانت في حال هستيرية غير معقولة..
- «إن النساء هن الهستيريا ذاتها..» - قالت (إيناس) في امتعاض - «.. وكلمة (هستيريا) نفسها مشتقة من كلمة (رحم) اللاتينية..»
قلت لها وقد نفد صبري:
- «.. أعرف أنك عبقرية.. ولكن أكملي القصة أرجوك..»

- «لا شيء.. قالت (مها) إنها رأت كابوسًا.. كان هناك شيء يخنقها ويمنع الهواء من دخول رئتيها.. وحين فتحت عينيها وجدت كائنًا مريعًا يجثم على صدرها.. إنها القصة التقليدية.. ما كان لها أن تلتهم كل هذه الأطنان من الفطير (المشلتت) في العشاء...»

- «و.. وهل هي بخير؟»

- «طبعًا.. ما إن صرخت حتى انتهى الكابوس.. لكنها ظلت تردد دون كلل: التمثال! التمثال! إن هذا (هـ)؟ هل أنت على ما يرام؟ لماذا شحب وجهك هكذا؟ هل أنت على وشك أن تقيء؟ ماذا دهاك؟»

* * *

وهكذا انفض الجمع..

ووضع الأب ذراعه يطوق كتف ابنته المرتجف؛ فقد اعتزم أن تمضي الليل معه في حجرته.. لن يطالبها أحد بأن تنام وحدها هذه الليلة..

كم أحسدها! لابد أنها استعادت ذكريات الطفولة الباسمة.. حين كنا ننهض صارخين في الظلام، فنجد من يعانقنا.. ويهدئ من روعنا بكلمات هامسة حانية.. ويلثم جبيننا بشفتين دافئتين.. ثم يحملنا لننام معه.. كيف يمكن أن تؤذينا كل شياطين الكون بعد هذا؟!

كم أحتاج أنا الرجل الناضج إلى من يفعل معي ذات الشيء!

لكن زمن تلقي الحنان قد ولّى.. على أن أعاني كل شيء وحدي.. على أن أقف وحيدًا في العواصف كجدار.. بل ـ تصوّر هذا ـ أنا مطالب بأن أعطي الحنان والحماية للآخرين!

حنين جارف نحو زوجتى تحرك في أعماقي حين عدت لحجرتي.. فهى - على الأقل - آخر من منحني هذا الحنان النفيس..

كنت قد نسيتها تمامًا.. حتى وجهها صرت أجد بعض المشقة في استرجاعه على الفور...

جلست في الحجرة، وأعدت تفقدها.. بالتأكيد كل شيء سليم وفي موضعه.. والنافذة موصدة قدر الإمكان، والمصراع مغلق. فلتزأر العاصفة إذن.. فلتزأر العاصفة..

غدًا أطلب الزواج من (إيناس).. فإن قبلت كان طلاق بيني وبين زوجتي.. هذا هو الحل الأوحد... أنا أكره الخداع.. كمدرس رياضيات أعرف أن س + س لا تساوي إلا ٢س.. وأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين.. وزوجتي تخلت عني...

(إيناس) لن تقبل امرأة أخرى في حياتي.. ولكن هل توافق حقًّا؟ النوم يحاول التسلل إلى عيني دون استئذان.. يقول كلامًا فارغًا ظاهره الصدق.. يقول إن الليل توغل.. يقول إنّه كان يومًا شاقًا.. يقول إن الكابوس لن يعاودني..

لكن لا..

لا تحاول خداعي.. لا تحاول إلقاء ذرات رملك السحرية في عيني..

لن أنام.. كل شيء سليم وفي موضعه.. يوجد خطأ ما في هذه العبارة.. هئ هئ! جنيه كامل لمن يجد أربعة أخطاء مع (علي فايق زغلول) هي هي! كل شيء سليم وفي موضعه..

يوجد خطأ ما.. هل حزرت ما هو؟

ولكن.. يا للمصيبة! لقد فهمت!!

* * *

٥ - لا أحب هذا..

ملحوظة من د. (رفعت إسماعيل):
أكره التدخل في سياق القصة؛ لكني أرجح أن ما أدركه (هـ) هو أن التمثال بحال طيبة! ألم يهشمه منذ قليل؟ ثم بعد هذا وجد الحجرة على ما يرام من ناحية الترتيب..
إن هذا يفوق قدرة المرء على التجلد دون ريب..

* * *

عند هذه النقطة وثبت كالضفدع من الفراش.. هرعت نحو رف المدفأة حيث تربع ذلك التمثال القبيح يرمقني في ثبات مزعج! لم يعد بوسعي أن أزعم أن الصدفة هي ما يتوارى في دهاليز هذا القصر.. لقد هشمت التمثال بنفسي منذ نصف ساعة.. ووجدت النقش النحاسي إياه؛ والآن هو ذا سليم تمامًا كقلب رضيع..
هل أهشمة من جديد؟ لا.. سيكون هذا مملًا.. عدت إلى الفراش تحوطني الأعمدة النحاسية كشواهد القبور...
اصبر يا (هـ).. اصبر.. إنها ليلة ككل ليلة.. لن يستطيع الشيء أن يؤذيك ما دمت لن تغفو.. وما دمت لن تغادر الحجرة..
مشكلة أبطال قصص الرعب هي أنهم يتصرفون بتهور مستفز.. يصرّون - دون سبب واضح - على نزول القبو المليء بتوابيت مصاصي الدماء ليلًا.. ويصرون - برغم نذر الخطر - على ارتياد الغابة المظلمة وحدهم...
سأكون أنا أذكى منهم، وسأقبع في فراشي كمريض الدرن..
إنها الثانية والربع صباحًا...

* * *

أستعير مرّة أخرى أسلوب الراوي الغائب.. الراوي على القدرة الذي يرى ويسمع كل شيء..
تعال ندخل معًا إلى حجرة الفتاتين (إيناس) و(غادة).. إنهما نائمتان في الفراش... كلا.. ليستا نائمتين..
إن (غادة) راقدة على ظهرها وقد عقدت ذراعيها خلف مؤخرة رأسها.. وقد راحت تتأمل الظلام شاخصة البصر.. وهي تثرثر بذلك الصوت الهامس المنهك المغري بالنعاس..
بالتأكيد تتحدّث عن (محيي)..

على حين ترقد (إيناس) على جنبها معطية ظهرها لصديقتها.. وقد سبقها النعاس وإن برمجت نفسها على إعطاء ردود متباعدة مدروسة على شكل همهمات، توحي لصاحبتها أنها تتابعها بشغف:

- «هم م! هم؟ هم م؟.. م م م!.. هم م؟»

كان الفراش مريحًا، واليوم طويلًا مرهقًا.. والدفء سلطان له القلب.. لهذا لم تقاوم طويلًا..

وبعد قليل تسلل النعاس إلى عيني جهاز الراديو المسمى (غادة)، فنامت بدورها..

كم من الوقت نامت (إيناس)؟ لا تدري حقًّا.. لكنها استيقظت على صوت الخطوات على أرض الحجرة الخشبية..

رفعت رأسها في خمول.. وتفقدت الهواء الأسود الذي يسود المكان.. لا شيء يتحرك.. إن الضوء الخافت القادم من الرواق يسمح بتبين حدود الأشياء..

عادت تدفن رأسها في الوسادة، وغابت عن الوجود لحظات، ثم سمعت صوت الأنين.. صوت امرأة تكافح من أجل التنفس.. يخالطه صوت بكاء يائس...

أدارت وجهها نحو (غادة) فرأتها نائمة على ظهرها كما كانت.. وذراعاها معقودتان تحت رأسها..

لكنّ ظلًا كبيرًا كان يعلو جسدها.. ظلًا لم تتبين (إيناس) كنهه، لكنه لم يكن ذا شكل آدمي.. كان شيء ما يجثم فوق صدر (غادة) في هذه اللحظة!

مرت ثوان من محاولة فهم الموقف.. ثم البحث عن الصوت... فالصراخ.. الصراخ الذي يمكنه إيقاظ قتلى حرب (قادش) جميعًا..

* * *

وتكرر مشهد النهوض.. فالركض.. فالاحتشاد في الردهة..

وحين ظهر الأب هذه المرّة كان في يده مسدس ألماني ضخم.. وكان أحد الخفراء يهرع وراءه ملوحًا ببندقيته العتيقة..

لم نحتج إلى اقتحام الحجرة مرّة أخرى؛ لأن الباب كان مفتوحًا.. ومنه برزت (إيناس) وعلى وجهها أعتى إمارات الهلع..

صاحت وعيناها توشكان على الانفصال:

- «لقد فر! ألم تروه؟»

وأشارت إلى الطرف الآخر من الرواق.. كان الخفير عمليًا جدًّا.. لم ينتظر ليسألها أسئلة سخيفة.. ما دامت تقول إنّه (فر) فهو شخص ما.. لص غالبًا..

وفي عينه المتسعة التمعت نظرة (حكومية) صارمة.. وارتجف شاربه الكث، وهو يركض في الاتجاه الذي أشارت إليه..

سألتها وأنا أمنع نفسي من احتضانها:

- «من هو؟ هل أنتما بخير..»

- «بخير.. بخير!» - وأخذت شهيقًا عميقًا - «.. كان يحاول خنق (غادة) في أثناء نومها.. لم يبد لي بشريًا.. لكنه الظلام..» - شهيق عميق آخر - «.. الظلام.. و.. حين صرخت انطلق كالبرق نحو باب الحجرة.. فتحها.. و... و....»

سألها (محيي) وهو يرتجف بدوره:

- «و.. و(غادة)؟»

- «بـ.. بخير.. إنها تبكي.. ظنت أنها رأت كابوسًا.. و...»

صاح متظاهرًا بالغضب، وهو يلوح بقبضته حيث توارى الخفير:

- «الوغد! لسوف أجده وأمزقه..»

لكنّ لسان حاله كان يرجونا ألا نتركه لحظة.. ولم أجد ما يمنع من مداعبته مداعبة قاسية.. فأشرت إلى الاتجاه المعني قائلًا:

- «اذهب من هنا! كن حذرًا.. لا تتهور فتقحم نفسك في جريمة قتل!»

لم يستطع أن يرفض.. فانطلق يركض في الاتجاه المقصود بساقين كعودين مسلوقين من المكرونة..

على حين دخل الأب الحجرة وتفقدها..

وفي هذه المرّة دخلنا معه لأن الأمر يتجاوز الحياء.. ولئن كان لا حياء في العلم فأنا أضيف أنه لا حياء في الرعب..

راح - بوجه صارم خطر - يتفقد أرجاء الغرفة.. ركع تحت الفراش.. انحنى ليتأمل المدفأة..

- «لا أفهم..» - قال شاردًا - «.. من أين دخل هذا الوغد؟»

قال (عبد الرحيم) وهو يستوثق من غلق النافذة:

- «من المدفأة حتمًا..»

داعب الأب شاربه مفكرًا.. وغمغم:

- «المدفأة مسدودة.. إنها مجرد ديكور..»

قالت (هويدا) وهي تشير إلى الفراش:

- «بالتأكيد كان كامنًا من البداية تحت الفراش..»

قال زوجها مؤمنًا وهو يرفع سروال منامته، الذي كاد الركض يسقطه:

- «.. من البداية.. أو ربما دخل حينما صرخت (مها)..»

- «هذا وارد.. فلم يُعنَ أحد بإغلاق حجرته..»

غمغم الأب متجهمًا وهو يتأمل السقف:

- «المشكلة هي: كيف مر من هؤلاء الكسالى الذين يحرسون القصر؟ وكيف صعد إلى هنا؟ إنني أتساءل عما إذا كان واحدًا منهم.. إن هذا وارد...»

قالت (إيناس) وهي ترفع يدها معترضة:

- «أكرر لكم.. لم يبد لي بشريًا على الإطلاق!»

- «ها نحن اولاء نعود للكلام الذي لا يجدي فتيلًا..»

قال (عبد الرحيم) محاولًا أن يعيد جو التعقل إلى الموجودين:

- «على كل حال.. لقد كررنا الخطأ ذاته.. وعلينا أن نتأكد الآن قبل دخول غرفنا أن أحدًا لا يختبئ تحت الفراش أو في المدفأة!»

- «هذا حق.. لقد نسينا واجب الحذر ثانية..»
ثم تصلب وغمغم في شرود:
- «نسينا شيئًا آخر.. لكني لا أذكر ما هو..»
هنا دوّت الصرخة الأنثوية المريعة من بعيد...
- «يا للهول! لقد نسيناها!»
- «(مها)!»
- «تركتها نائمة في الفراش منهكة.. وباب الغرفة مفتوح!»
وكما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة؛ رأيتهم يركضون نحو مصدر الصرخة.. وقد تحولت أقدامهم إلى عجلات من فرط سرعتها..
لكنني لست أحمق كالآخرين..
لن نقضي الليل كله في تكرار الخطأ ذاته..
سأبقى أنا هنا لحماية (غادة) حتى يعودوا لي..
ونهضت من فوق طرف الفراش لأمشي نحو المرآة العملاقة وأتأمل صورتي فيها..
إنهم يتساءلون عن مصدر قدوم الجاثوم..
ما هي المشكلة؟ إن التجسدات الخوارقية لا تخضع لحدود الجدران..
لقد جاء الجاثوم عبر الجدار.. أو عبر لجين المرأة.. أو تجسد في هواء الحجرة دون مشاكل..
الآن أنا واثق من هذا..
لكنهم لا يعلمون.. يظنون كل هذا خاضعًا للمنطق..

* * *

وسمعت صوتهم عائدين؛ فوقفت على باب الحجرة أنتظر معرفة هذا الكابوس الجديد الذي عاشته (مها)..
لكنهم كانوا أكثر هدوءًا.. وسمعت (عبد الرحيم) يردد:
- «فأر! كل هذا الصراخ من أجل فأر!»
قال الأب وهو يطوق كتفي ابنته بذراعه:
- «لقد كان باب الغرفة مفتوحًا.. وفجأة وجدت الفأر جوار رأسها على الوسادة.. إنها تجربة مروعة..»
قال (سيد الشمندوري) متظرفًا:
- «إن المرأة تخشى الفأر بنفس القدر الذي يخشى به الرجل المرأة!»
غمغم (عبد الرحيم) في سأم:
- «يا لها من ليلة! ليتها تنتهي..»
- «حتمًا ستنتهي..»
وتحرك الجمع يتفقد كل حجرة من الحجرات.. هذه غرفة الفتاتين.. لا شيء تحت الفراش أو في المدفأة.. هذه غرفة الزوجين.. سليمة تمامًا.. هذه غرفة الشابين.. لا بأس.. ثم غرفتي.. كل شيء

مطمئن..
وسرعان ما انفتحت الأبواب وانغلقت.. ودوى صوت أربعة مزاليج توصد...

* * *

كدت أعود لأتربع فوق الفراش، لولا أن سمعت صوت قدمين تهرولان في الخارج..
صوت محادثة.. أميز منها صوت (محيي) وصوت الأب الذي كان على باب حجرتي لم يبرحه بعد..
ثمّة شيء مقلق في نبرة الكلام...
اتجهت إلى الباب.. وفتحته..
كان (محيي) متجهم الوجه ممتقعه.. والأب يرمقه في ارتياب وعدم تصديق.. عندها رأياني..
قال الأب متحاشيًا النظر إليّ كأنه لم ينس غضبه بعد:
- «تعال معنا لنرى هذا..»
كان الكلام موجهًا لي.. لكنه خال من أدوات النداء.. خال من البدلات بعد (هذا).. كناية عن اشمئزازه مني.. وعدم رغبته في إظهار أدنى قدر من الود تجاهي، حتى لو أملته قواعد اللغة..
سرت معهما لأرى (هذا).. ولم أنس ـ على سبيل الروتين ـ أن أغلق باب حجرتي ورائي..
كانا يهبطان في الدرج قاصدين الطابق السفلي.. لا بد ـ إذن ـ أن نهاية الرواق تقود إلى درج خلفي.. يقود بدوره إلى الطابق السفلي..
وتحاشيت النظر إلى الباب الشهير في القاعة الكبرى.. لم أحاول أن أرى ما إذا كان مواربًا أم لا..
فجأة سألت الأب (ولا أدري لماذا خطر لي السؤال):
- «ماذا يوجد تحت هذا القصر؟»
قال وهو يواصل السير خلف (محيي):
- «لا شيء.. شبكة ممرات معقدة جدًا.. إن المماليك الذين بنوه يومًا ما كانوا راغبين في وجود مخارج طوارئ عديدة..»
وكانت هناك غرفة قديمة.. غرفة كرار أو شيء من هذا القبيل.. الظلام يغمر هذا الركن من القاعة..
لكني رأيت شيئًا.. وانحنى الأب على ركبتيه يتفحّص ما وجده..
- «ما رأيك؟»
- «متل رأيك...»
مدّ إصبعه وغمسه في الدم.. وتفحصه:
- «إنّه طري.. بالتأكيد تم هذا في الدقائق الماضية.. رباه! ما أكبرها بقعة! وها هي ذي بندقيته.. إن (بسطويسي) لا يترك بندقيته أبدًا.. فهي جزء من شرفه.. أقسم إن مكروهًا قد حدث..»
قال (محيي) معترضًا:
- «لم نسمع صراخًا ولا طلقات.. ما كان هذا ليتم في صمت..»

- «ربما أن الأحمق جرح نفسه، وترك كل شيء ليجد ما يضمد به هذا الجرح..»

قلت أنا وقد استجمعت خيوط القصة:

- «كنا سنجد خيط الدم يتجه إلى القاعة.. أمّا هنا.. فإنني أرى الخيط يدخل الحجرة.. ليتوارى وراء الباب..»

كان ما قلته واضحًا..

- «ماذا يوجد ها هنا؟»

- «غرفة كرار.. إنها سلّة مهملات القصر..»

قالها وتعمد أن يلفظ (سلّة المهملات) بالفرنسية (بوبيل)، لأن لسانه يعف عن ذكر لفظة بذيئة كهذه..

قلت له وأنا أضغط على زر مفتاح النور الذي ينير هذا الجزء:

- «سنجد جثة (بسطويسي) بالداخل!»

- «فأل الله ولا فألك! أقتلت الرجل بهذه السرعة؟!»

لم أرد.. إنما أشرت لهما كي يتراجعا للوراء..

ومددت يدًا مرتجفة إلى مقبض الباب..

* * *

٦ .المزيد منه...

ولكن.. دعونا من هذا الموقف.. فهو يبدو خاليًا من التشويق في رأيي..
إن تتابع (فتح حجرة مظلمة بداخلها خطر مريع) لهو من أقدم التتابعات في قصص الرعب.. ولربما أثار هذا ملل القراء..
لنترك (هـ) الآن في محاولته لمعرفة ما يجري في الحجرة..
لنترك الخفير المختفي.. والأب المتوجس.. و(محيي) المذعور..
وتعالوا نتلصص على حجرة (هويدا) وزوجها..

* * *

لن يكون النوم سهلًا.. فـ (هويدا) ترتجف كورقة..
وفيما بعد عرف (هـ) أن لها خبرة مروعة مع لعنة الفراعنة، جلبها عليها خطيبها الأحمق السابق.. ولن تنسى أبدًا يوم وقفت مشدوهة في حجرتها الموصدة ترمق شيئًا ما يحاول فتح خصاص النافذة ليدخل!
تقول إن العسل والبصل أنقذاها منه.. لا بد أنّ هناك قصة مسلية بخصوص هذا الموضوع.. لكنّ الوقت لا يسمح بالاستقصاء..
(هويدا) ترتجف كورقة..
أما زوجها فقد أدار ظهره لها، وراح يغط في نعاس لذيذ، يقطعه من وقت لآخر بأن يلوك شفتيه متلمظًا.. وهي علامة الاستمتاع بالنوم كما نعلم..
تأملته في غل..
ليس مناسبًا ليكون فارس أحلام.. لكنه زوج وزوج يحبّها..، كان خطيبها السابق شديد القبح - كما حكت لي (إيناس) - لكنه كان يتمتع بمركز علمي مرموق، وكان واسع الخيال[2]..
لماذا فقدته؟ لم تعد تذكر الآن... لقد كان يحبّها بجنون.. لكنّ (إرادة النكد) حق لا ريب فيه مثل (إرادة الفشل) و(إرادة الموت).. و(إرادة النكد) هي الشيء السحري الذي يدفع المرء لإفساد سعادته حين يكون سعيدًا.. ويدفع محبين متفاهمين إلى الشجار دون سبب أو لسبب لا يذكر..
أمها تفسر هذا بوجود (عمل شرير).. لكنّ خطيبها السابق هو من حدثها عن (إرادة النكد) هذه.. وقال لها إن لذة التعذب هي ما يدفع المرء لاختلاق (النكد) اختلاقًا..
الحق أنه علمها الكثير.. وبعد رحيله فقدت أكثر ثقافتها.. وعادت بيضاء العقل من غير سوء..
لكن (سيد الشمندوري) يختلف.. إنّه مرح جدًا محدود الثقافة يفتقر إلى الذكاء.. كله رضا عن نفسه وعن الكون.. باختصار هو زوج مثالي لمن تريد زوجًا لا أستاذ فلسفة..
أخيرا كفت عن الارتجاف..

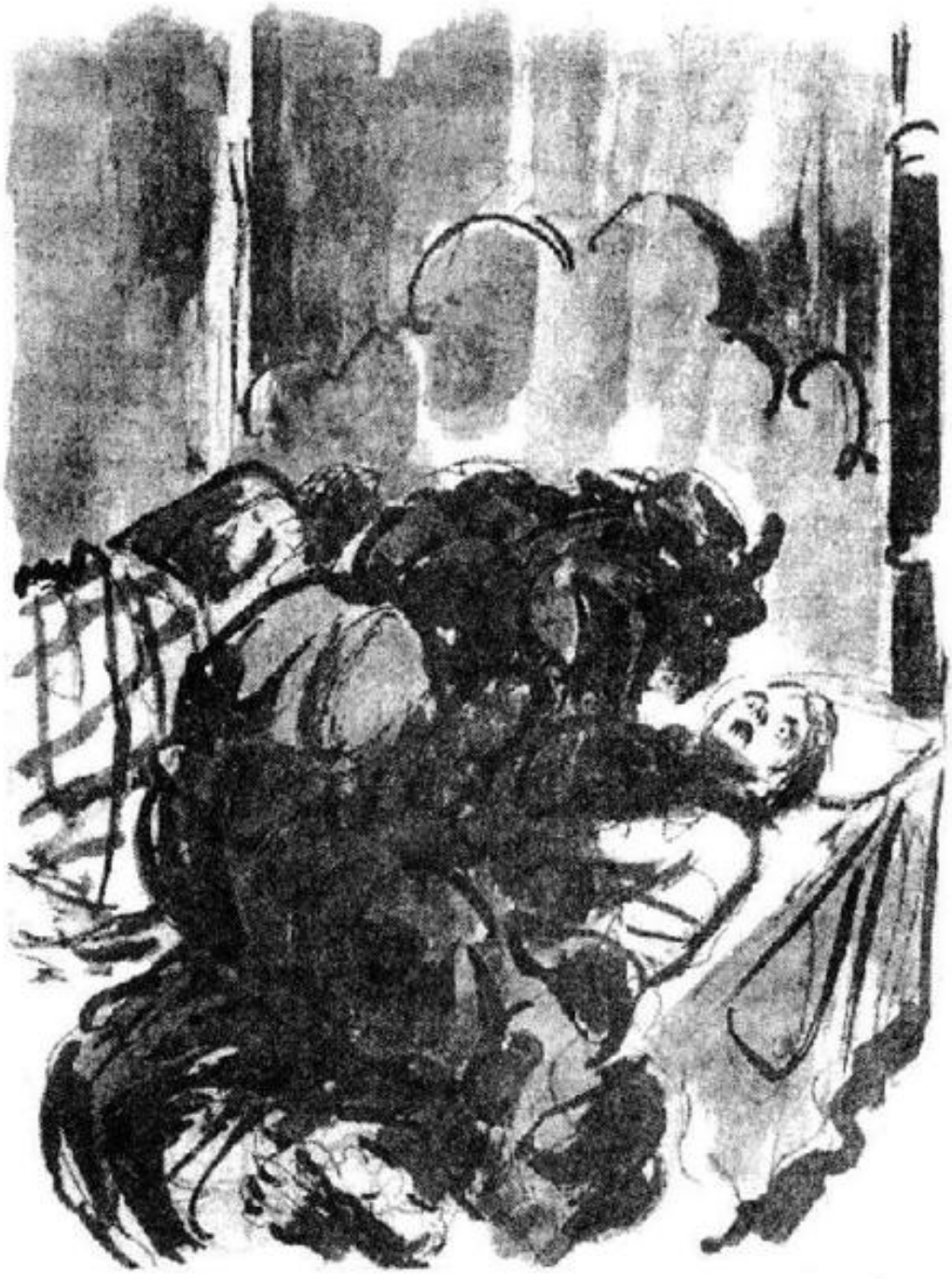
راحت تتأمل الحجرة في فضول.. حجرة جميلة حقًّا وفاخرة.. لكنّها تثير هلعًا ما في قلبها..
متى يأتي الصباح؟ رفعت رأسها إلى أعلى تتأمل السقف المظلم.. النجفة العملاقة الفاخرة التي تكفي (بللورة) واحدة منها لإفلاس زوجها.. نجفة ملفوفة بإحكام في قماش (الكريتون) لمنع الغبار من إتلافها.. وإن تدلى مصباح صغير منها يكفي لإضاءة الحجرة.. و...
هذه البقعة السوداء العملاقة في السقف..
لماذا لم ترها من قبل؟ أتراه الماء يتسرب من حمام علوي؟ لا.. إن هذه البقعة.....
بقعة لها سمك! بقعة لها أطراف! بقعة تتحرك!
كلا.. ليست هذه بقعة سوداء.. لقد جعلها الظلام تخطئ التمييز..
إنها شيء حي! جسم عملاق يلتصق بالسقف كالبورص..
إنه هو! بالتأكيد هو!
كان فوق رأسيهما طيلة الوقت فلم يرياه..
والآن.. هذا الشيء يهوي من السقف.. يهوي فوقها هي بالتحديد...
وها هو ذا يجثم فوق أنفاسها فلا تقدر على الصراخ..

* * *

أخيرا دوّت الصرخة..
لكنها صرخة رجل هذه المرّة..
واندفعنا كالمجانين من كل صوب قاصدين الغرفة التي سمعنا الصوت منها.. وعرفنا دون لأي أنها غرفة (الشمندوري) وزوجته..
طرقنا الباب مرارًا.. وكدنا نهشمه...
وفي النهاية انفتح عن وجه (الشمندوري).. الوجه الحازم المذعور.. والعرق يغمر جبينه...
- «ماذا حدث؟»
- «إنّه هو! لقد كان متشبثًا بالسقف!»
- «عم تتحدّث؟ عن بورص؟»
- «بل عن الشيء الذي رأته الفتاتان.. لقد صحوت من النوم لأجده يحاول خنق زوجتى!»
كدنا ندخل الغرفة.. لكنه سد الباب في إصرار بكتفه:
- «لا داعي.. إن زوجتي بالداخل.. والشيء ليس هنا.. لقد.. لقد هشم خصاص النافذة وفر منها..»

* * *

لم يعد هناك داع لأن يبقى أحد نائمًا في القصر..
اجتمعنا جميعًا في إحدى قاعات الجلوس بالطابق الثاني، وصحا الخدم، وأضيئت الأنوار جميعًا، وارتدى أكثرنا ثياب الخروج..
قال (الشمندوري) وهو يحكم غلق روبه الصوفي حول جسده:
- «لا يُمكنك أبدًا معرفة كنة هذا الشيء.. إنّه أسود ويظهر في الظلام الدامس.. لكنّ يمكن القول إن له أطرافًا ورأسًا.. ربما هو أقرب إلى قرد عملاق.. لا أدري بالضبط..»
ارتجفت (إيناس) وهتفت وهي تجرع الشاي من قدحها:
- «أنا أيضًا ظفرت بذات الانطباع.. إنّه ضخم.. لكنه لا يتحرك بهذا البطء المتوقع من حجمه..»
كنت جالسًا جوار الأب.. فرأيته ينظر لي نظرة ذات معنى، ثم يميل برأسه ليهمس في أذني:
- «لا داعي لأن تخبرهم بما وجدناه في الكرار!»
قلت هامسًا وأنا أرمق شحمة أذنه الحمراء التي تشي بالصحة:
- «ربما كان من الحكمة أن يعرفوا ما ينتظرهم..»
- «لا داعي.. في الصباح سأنهي الأمر مع المركز.. فلا تثر هلعهم..»
سأل (عبد الرحيم) الأب، وهو يشعل لفافة تبغ (واضح أن الرعب العام جعله ينسى أنه كان يتحاشى التدخين أمام من سيصبح حماه):
- «هل هذا الشيء يظهر كثيرًا في القصر؟»
- «بل هي المرّة الأولى..»



وها هو ذا يجثم فوق أنفاسها فلا تقدر على الصراخ ..

- «ولماذا اختار هذه الليلة بالذات ليظهر؟»
- «هذا ما نحاول معرفته..»
كان الأب يعامل (عبد الرحيم) بتحفظ هو إلى (القرف) أقرب.. وأدركت من اللحظة الأولى أن الأب غير موافق على أن تتزوج ابنته هذا (الفلاح الخرسيس النرسيس).. لكنّ الفتاة متمسكة بفتاها.. والفتى ليس سيئًا إلى هذا الحد، ومن عائلة محترمة..
ربما هو أرقى (خرسيس نرسيس) يمكن العثور عليه اليوم.. ولو انتظر الأب حتى يتقدم والي (الآستانة) للزواج من ابنته فلربما طال انتظاره نوعًا!
قال الأب بلهجة تقريرية وهو يجول بعينية القويتين في الحاضرين:
- «لقد جاء (الشيء) مع القادمين.. فهل من بينكم من يعرف عنه معلومة ما؟»
لم يرد أحد.. وتظاهرت أنا بالعثور على جسم غريب في قدح الشاي.. إلى أن قال الأب بذات اللهجة:
- «حسن.. إن الحكمة تقضي بأن نقضي السويعات الباقية من الليل هنا.. ودون أن ينام أحد..»
- «الرأي ما قلت..»
ثم إن (محيي) قرر أن يدلي بدلوه في الحديث.. وهذا النوع من البشر لا يحتمل أن يتهم بالصمت أو أنه لا يملك ما يُقال:
- «من المؤكد لنا جميعًا أنّ هذا الشيء ليس لصًا.. بل هو ليس بشريًا أساسيًا..»
همهم الجميع موافقين.. فأردف في تردد:
- «هل تبحث عنه في الخارج؟»
- «كلا..» - قال الأب في حزم - «.. فالظلام مازال دامسًا والرؤية متعذرة.. وأنا لا أريد ضحايا آخرين..»
ووضع على المنضدة أمامه مسدّسه الألماني العملاق، ليكون في متناول يده.. ولاحظت (مها) أن (محيي) يضع على الأريكة بندقية خفير عتيقة.. عرفت ـ دون شك ـ أنها بندقية (بسطويسي).. ورفعت عينين متسائلتين نحو أبيها.. فبادلها نظرة مسكتة جعلتها لا تلقى أسئلة..
بعد قليل عاد ثلاثة من الخدم، وقال كبيرهم العجوز في أدب:.
- «كل شيء تمام يا سيدي.. القصر محكم الإغلاق..»
- «والحجرة التي كان بها الأستاذ (سيد)؟»
- «أحكمنا غلق النافذة والباب»
- «لا بأس.. والآن ليحضر الجميع كي يجلسوا هنا معنا..»
وبدأت الجلسة الطويلة..
الثالثة والنصف صبادًا..
ها نحن أولاء نقترب من (ساعة الذئب).. أشنع ساعات الليل.. لكنّ ماذا يمكن أن يحدث ونحن محتشدون هاهنا؟
أتراك تعرف ساعة الذئب يا د. (رفعت)؟ بالطبع لا.. وبرغم هذا تسمح لنفسك بالحديث عن عالم ما وراء الطبيعة والأشباح؛ كأنك عالم العلماء وفيلسوف الفلاسفة..
في ساعة الذئب يصير المرء في أوهن حالاته.. الأزمات الربوية تزداد.. النوبات القلبيّة تكثر.. وفي هذه الساعة تبدأ غيبوبة نقص السكر.. ويغدو الجسد الإنساني هشًا مباحًا لأي اعتداء مادي أو

معنوي أو شيطاني..
دعانا الأب لصلاة الفجر.. فنهضنا.. ولم يرغب أحدنا في الانفراد وقت الوضوء، لهذا توضأنا جميعًا في ذات الوقت في حمام جانبي أنيق.. وعلى سجادة فاخرة مكتنزة وقفنا نصلي..
كانت فرصة ذهبية لأن بيننا من كاد يجن رغبة في دخول الحمام لكنه كان يخشى الذهاب وحده.. ويخجل من طلب من يرافقه إلى هناك..
بعد لحظات أنقطع التيار الكهربي!
أطلقت النساء صرخة رعب.. وبعد ثوان رأينا اللهب يتألق من عود ثقاب أشعله (عبد الرحيم).. فبدت الوجوه حوله كوجوه أشباح..
وبصوت رزين قال الأب:
- «لا مشاكل.. هذا يحدث كثيرًا.. هات الشمعدان يا (سليمان)..»
أحضر (سليمان) الشمعدان الفضي إياه.. وكان (عبد الرحيم) قد أشعل عود ثقابه الثالث.. فراح يمرّ به على الشموع حتى أضاءت جميعًا..
- «هات (الكلوب) كذلك..»
وجاء (الكلوب) وأشاع ضوءًا لا بأس به مع صوته المحبب للنفس.. حتى ذكرني بباعة البطيخ الساهرين للصباح جواره...
- «اذهبا لتريا ماكينة النور.. لعلها قد توقفت»
قالها الأب لخادمين.. ثم استرخى في جلسته، وراح يتأمل وجوهنا التي جعلها هذا الجو الدرامي وجوه الموتى..
مرت هنيهة من الصمت...
لا شيء سوى دقات الساعة الثمينة المعلقة في مكان مميّز من القاعة.. تلك الساعات التي لا يعلقونها إلا لإثارة الهلع في الأفئدة، وإحداث جو من الترقب الذي لا يحتمل..
فجأة سمعنا صرختين مرعبتين متحشرجتين قادمتين من الخارج.. وثبنا جميعًا كالبراغيث في الهواء.. إلا الأب الذي بقي محتفظًا بوقار جلسته.. ورفع يده في حزم ليمنعنا من الحركة:
- «ابقوا حيث أنتم!..»
- «لكنّ هذا الصراخ..»
- «بالتأكيد صراخهما - صراخ الخادمين - كنت أتوقعه وأنتظره..»
- «لكنّ ما معناه؟»
- «لقد ظفر بهما!»
- «يا للهول! إذن هو.....»
- «نعم.. إنّه يحاصر القصر من الداخل والخارج.. وأراهن على أنه هو المسئول عن انقطاع الكهرباء..»
ومط عنقه للأمام.. وفي خطورة أردف:
- «إنّه ينوي إنهاء الأمر هذه الليلة!»

* * *

٧ - الجاثوم..

هل ما زلت معي يا د. (رفعت)؟

الظلام الدامس يعم القصر، وضوءا الكلوب مع الشمعدان يحاولان تبديد هذا الديجور...

بينما تسعة أشخاص يجلسون في قاعة الجلوس الواسعة، بأثاثها الفخم الذي يشي بعراقة الماضي.. لن أدهش لحظة لو قيل لي إن (بونابرت) تمدد على هذه الأريكة يبكي هزيمته في (واترلو)..

التسعة يملؤهم الرعب.. بينهم اثنان فقط يعلمان على وجه اليقين معنى ما يحدث.. أنا.. والأب الذي بدأت أتوجس منه...

تساءل (عبد الرحيم) في عدم فهم:

- «من الذي تتحدّث عنه؟»

- «الجاثوم!»

انتفضت من مقعدي.. فلا أحد سواء يعرف بوجود الجاثوم.. ثم إن الإسم نفسه محاولة غير شائعة لترجمة لفظة Incubus اللاتينية.. ولو لم ألق الجاثوم مرارًا في كوابيسي، لما علمت بوجود هذا الاسم...

إن هذا الأب يعرف الكثير حقًّا....

لم يظهر أحد علامة دهشة أو حيرة أكثر..

فقال الأب وهو يصب بعض الشاي في قدحه:

- «قبل أن نناقش المصير دعوني أحك لكم قصة مسلية.. القصة حدثت في القرون الوسطى في (أرمينيا)..»

وأشار إلى (مها) كي تدنو لتجلس على الأريكة بجواره، وطوقها بذراعه ليشعرها بالأمان.. كان جو الرعب السائد قد أزال الكثير من الشكليات الحساسية.. فهأنذا جالس جوار (إيناس) وقد تعانقت كفانا.. كفها الباردة ترتجف كهر رضيع في كفي.. (محيي) كذلك جلس جوار (غادة) وأمسك بكفيها معًا..

قال الأب بتؤدة، وهو يرشف الشاي من قدحه، ممسكًا القدح والطبق ككتلة واحدة بيمناه:

- «... كان هناك رجل يدعى (إسماعيلوف).. رزقه الله بطفل جميل سمّاه (ناصير)..، ولقد مضت الحياة بشكلٍ جيّد حتى جاءت هجمة المغول على سهول آسيا الوسطى.. وكان أن سقط الطفل في الأسر.. لم يكن آسره رجلًا رديئًا.. ولم يبعه عبدًا على الفور.. بل علّمه الكثير من الأشياء.. ومن ضمنها علّمه فنًا كاد أن يندثر.. فنًا من فنون المغول القديمة.. من الصعب وصفه.. لكنّ يمكن القول إنّه لون من السحر الأسود.. سحر أسود قائم على تمزيق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم.. إنهم يسمون هذا الفن Necromancy لكني لا أعرف كيف أترجمه للعربية إلا بعبارة (تمزيق الموتى)..»

للمرة الأولى تدخلت في المحادثة.. وهتفت:
- «هو كذلك.. (نكرو + مانسي).. باللاتينية..»
كان الكلام مألوفًا لي.. وعرفت أن اللغز الذي أنا بصدده قد بدأ يتضح.. سأعرف سر عذابي طيلة الشهور الماضية..

واصل الأب سرد قصته للوجوه الممتقعة حوله:

- «حين يمتص الساحر عيني الميت يرى كل ما رآه.. وحين يمزق لسانه يتعلم لغته.. وإذ يلتهم مخه يعرف كل ما عرفه..»

- «يا للبشاعة!»

قالتها (غادة) وهي تداري وجهها في كتف (محيي)، الذي قال في ضيق وهو يربّت على شعرها:

- «ما لزوم هذا الكلام الآن؟ ألا يوجد موضوع أكثر تسلـ..؟»

- «اصبر يا أستاذ (محيي).. لا تقاطعني.. أردت القول إن (النكرومانسي) - إذ يمزق مئات الجثث من كل البلدان - يتعلم كل شيء، ويزداد حكمة.. يعرف مواضع الكنوز المدفونة.. وأسرار الأمم الغابرة.. وخبايا القلوب.. الخلاصة - لأكون موجزًا - هي أن الطفل صار شابًا يافعًا.. وخبيرًا في فنون (النكرومانسي).. كان هذا حين بيع - بعد وفاة سيده - إلى تاجر باعه في مصر.. وسرعان ما انضم الصبي إلى طبقة المماليك.. المحاربين القادمين من وسط آسيا ليتم تعليمهم فنون السيف.. وتربيتهم تربية صحية دقيقة؛ من ثم يغدون جنودًا أقوياء مهيئين للقتال.. وكان سهلًا أن تتكون منهم طبقة خاصة تحكم الشعب المصري على استعلاء.. صحيح أن (قطز) و(بيبرس) كانا مملوكين، إلا أنّ أكثر هذه الطبقة كان وبالًا على الشعب المصري، وقد استطاع (نابليون) و(محمد علي) أن يقضيا على هذه الطبقة تمامًا فلم تقم لها قائمة[3]..»

وأردف قائلًا:

- «نعود إلى صبينا الذي جاء إلى مصر حيث تعلم أسرار القتال والسيف، ولم يكن يتحدث العربيّة، لكنه حاول تعلمها..، ولم يكف عن ممارسة (النكرومانسي) الذي علّمه كثيرًا من أسرار الفراعنة والرومان..»

«كبر الفتى وصار مملوكًا تقليديًا.. وكان العامة يسموّنه (ناصر).. لكنه اتخذ لنفسه اسمًا يليق به هو (عز الدين طومان).. وأبلى بلاءً حسنًا في القتال وبدأ يزداد ثراء.. ثم تزوج.. وابتاع بيتًا فاخرًا في الوجه البحري، وامتلك بضعة فدادين لا بأس بها أبدًا.. ولم ينس أن يعلم ابنه الأكبر ذلك الفن الرهيب (النكرومانسي)... هذا الابن الأكبر هو من صار جد (كتخدا طومان)..»

«كان (كتخدا طومان) رجلًا شريرًا غليظ القلب.. وكان يكره الفلاحين، والفلاحون يهابونه.. ولم يكف عن ممارسة (النكرومانسي) في أقبية داره حيث كان يكدّس الجثث ويستجوبها..، وكان هناك سر يثير شغفه بشدة هو الكابوس الحيّ: الجاثوم.. لقد تعلم السر من مومياء كاهن فرعوني من كهنة (أمنمحات).. وطبقًا لهذا السر يُمكنك أن ترسل وحشًا مريعًا إلى أعدائك ليجثم فوق صدورهم في أثناء نومهم ويخنقهم..»

«ويمكننا القول إن (طومان) قد نجح في تحقيق غرضه.. إن كل أعدائه ماتوا وهم نيام... لقد حرر الجاثوم من أسره وجعله عبدًا خاضعًا له.. حارسًا شخصيًا لا يقهر ولا يرتشي..»

«وفي اليوم الذي رزق فيه بطفله الأول (جمال الدين) - (جمازتدين) كما كانوا سيسمونه في (أرمينيا) - تلقى دعوة إلى العشاء في قلعة (محمد علي).. وكان حشد من المماليك مدعوًا إلى هناك[4].. حسن.. لا داعي لسرد القصة.. فمذبحة القلعة معروفة لكل طالب في الصف الإعدادي..



لكن يمكن القول إنه لون من السحر الأسود . .
سحر أسود قائم على تمزيق جثث الموتى لمعرفة أسرارهم . .

ولا داعي لأن أقول إن (طومان) تلقى ثلاثين طلقة ولم يمت.. فحمله الجند إلى الوالي الذي ذبحه بسكين الفاكهة.. وهكذا تنتهي القصة.. وبيت (طومان) الفاخر سقط في يد العثمانيين الذين باعوه لجدي النازح من (الآستانة)..»

وصمت هنيهة.. ثم رفع إصبعين من كفه ليشير إليهما:

- «هنا يبرز سؤالان مهمان: ماذا حدث لزوجة (طومان) وولده؟ وأين ذهب الجاثوم؟ إن ما لديَّ من وثائق يقول إن الزوجة فرت إلى الصعيد وتزوجت هناك.. وذابت في زحام المصريين.. والولد كبر وتزوج.. وفيما بعد نزح ابنه إلى القاهرة.. وهو بالمناسبة يجهل كل شيء عن تاريخ أسرته..»

هنا تساءلت (هويدا) في هلع:

- «هل تعني أنّ هذا (النك..).. (النكرو....)»

- «(النكرومانسي)..»

- «هل تعني أنه كان يمارس هاهنا؟»

- «حتمًا.. في الأقبية السفلى.. إن هناك دلائل تشير إلى هذا..»

- «أ.. ألا يثير هذا ذعرك؟»

- «ولمه؟ هذا قصر جدودي... وأعتقد أن قرنين من الزمن كافيان لتطهيره.. لا بد أنّ هناك فظائع جرت على كل شبر من الأرض التي نمشي فوقها.. لكننا لا نعلم أو نتظاهر بعدم العلم..»

ثم مط عنقه إلى الأمام، فبدا في ضوء الشموع كثعبان عجوز يتلصص، وتساءل:

- «هل من أسئلة؟ لا؟ حسن.. والآن دعونا نر صورة زيتية قديمة لـ (كتخدا طومان).. إنها في ألبوم صوري..»

وأشار إلى (مها) فنهضت تحضر ذلك الألبوم القديم الذي كانت تتفاخر به في بداية الأمسية..

- «شكرًا يا (مها).. والآن اقتربوا أكثر لتروا ما أعنيه..»

زحفنا دانين منه كالأرانب التي تمط أنوفها متشممة أقدام غريب.. وعلى ضوء الشموع المتراقص تبينا صورة تمثل أحد لابسي العمامة كثي اللحية.. صورة رجل غير مصري وغير عربي عمومًا.. أقرب إلى الصور التي نراها لـ (محمد علي) في كتب التاريخ المدرسية..

كانت نسخة فوتوغرافية لصورة زيتية، وإن كانت الصورة الفوتوغرافية ذاتها عتيقة جدًا؛ تنتمي الزمن كانت الكاميرا تسمى فيه (الفوتوغرافيا)... وكانت فكرة الاستعاضة عن ألواح الزجاج بفيلم من (السليولويد) هي نوع من الهرطقة الفكرية..

- «هل ترون هذا الوجه؟»

ثم مد إصبعًا يداري به العمامة.. وإصبعًا يداري به اللحية..

- «هل الشبه أقرب هكذا؟»

قالها المجتمعون وقد حاولوا التركيز قدر جهدهم.. ومالت (غادة) برأسها زاوية قائمة محاولة أن ترى أفضل...

قال الأب دون أن يقنط:

- «أما زال الأمر عسيرًا؟ إن العرق دساس.. هذا مؤكد.. ألا تميزون هذا الأنف.. وهذين الحاجبين؟.. ألا تميزون هذا الثغر الصارم؟»

قال (الشمندوري) في ملل:

- «ليكن.. ماذا تريد قوله؟»

- «أريد أن أقول أن (كتخدا طومان) هو الجد الأكبر لواحد من الجالسين هنا.. واحد عاد لقصر جده بعد أعوام طوال، وهو لا يعرف شيئًا عنه.. واحد يتشدق بأجداده الفلاحين ولا يعرف أن جده وافد على هذه الأرض من (أرمينيا).. واحد يعرف الآن أنني أتحدث عنه.. وقد فهم كل شيء قبلكم..»

والتقت ثمانية أزواج من العيون على وجهي..

وسمعت الأب يتساءل في تؤدة:

- «أليس كذلك يا أستاذ (هـ)؟»

* * *

٨ - التفسير..

اعتادوا أن يسموا مصر (البوتقة التي ذاب فيها الوافدون عليها.. وانصهروا).. أمّا أنا فأعتبرها خلاطًا للعصير.. أنت تضع في الخلاط السكر والماء والليمون.. فتحصل على سائل يُدعى (الليمونادة).. وحين تتفحص قطرة من (الليمونادة) يستحيل عليك أن تعرف ما إذا كان أصلها سكرًا أم ليمونًا أم ماءً..

كيف كان لي أن أعرف أنني ممن ذابوا في البوتقة.. وداروا في الخلاط وسط دواماته المجنونة؟!

* * *

كان على أن أتكلم.. فقلت باستخفاف:

- «كل هذا جميل... لكنه قائم على الحدس ويستحيل إثباته.. إن الشبه بيني وبين الصورة لا يزيد على الشبه بيني وبين (سعاد حسني)..»

قالت (إيناس) بلهجة التعقل:

- «الواقع أن الصورة تشبهك حقًّا يا (هـ).. تشبهك كثيرًا..»

- «وحتّى لو كان هذا صحيحًا.. فما جدواه هاهنا؟»

قال الأب وهو ينحي ألبوم الصور جانبًا:

- «هذا هو بيت القصيد.. الحفيد الحيّ لـ (كتخدا طومان) هاهنا.. وفي ذات الليلة تحدث أشياء غير عادية.. إن كل هذا يشير إلى شيء مؤكد.. إن القصر ينتظرك...»

قلت في عصبية وقد اتخذت برغمي موقف المدافع عن نفسه:

- «ولماذا ينتظرني؟»

- «يا له من سؤال!! للانتقام طبعًا! إن جدك حرر الجاثوم من معقله وجعله عبدًا خاضعًا له.. بعد كل هذه الأعوام ظل الجاثوم هائمًا كشبح.. عاجزًا عن العودة إلى حيث جاء.. عاجزًا عن الفعل.. كان بحاجة إلى قدومك كي يفنيك.. وبعدها يغدو حرًا!»

- «ومن قال لك هذا الكلام الفارغ؟»

حك أرنبة أنفه في إنهاك.. وقال:

- «الجاثوم قال لي!»

- «هل هو معتاد السهر هنا معك؟»

قال وهو يضع ساقًا على ساق:

- «ليس بهذا المعنى الحرفي.. أنت تعرف مثلما أعرف أن الجاثوم كائن مزيج من الحلم والحقيقة.. إن الكوابيس هي مملكته الصارمة التي يعرف كل شبر فيها.. وقد رأيت في الكابوس كل

شيء.. كل شيء.. ووجدتني تحت ضغط نفسي هائل يرغمني على أن..»
ثم نظر إلى (مها) المحتمية به كعصفور جريح.. وأردف:
- «على أن أدعو أصدقاء (مها) إلى قصري!»
نهضت واقفًا.. وأشرت إليه في عصبية:
- «إذن أنت جزء من هذا الفخ.. لم تكن هذه دعوة بل كانت كمينًا!»
- «هو ما تقول.. كمين.. لكني كنت مرغمًا عليه.. لست أنت (المسيح) ولست أنا (يهوذا).. فلا تندمج في هذه المسرحية.. ثم إن هناك آخرين زارهم الجاثوم ودعاهم إلى اقتيادك ها هنا..»
ونظر برفق إلى (مها).. وسألها:
- «أليس كذلك يا (مها)؟»
قالت (مها) وهي ترتجف:
- «بلى.. أمرني في المنام أن أدعو (إيناس) وصديقها!»
التفت الأب إلى (إيناس) وسألها كأنما يؤدي دورًا مرسومًا:
- «وأنت يا (إيناس)؟»
قالت (إيناس) محاولة تحاشي نظراتي:
- «نعم.. لا أدري حقًّا ما دهاني.. شعرت بحاجة ملحة إلى دخول السينما لمشاهدة فيلم (الرقص على الهيدروجين).. لست معتادة الحديث مع الغرباء لكني وجدت نفسي أثرثر مع الجالس جواري!»
صحت في هلع وأنا أضرب الأرض بقدمي:
- «حتى أنت يا (إيناس)؟ حتى أنت؟!»
- «إهدأ يا (هـ).. لا يوجد (يهوذا) بيننا كما قلنا لك.. كنا جميعًا نتحرك دون أن نعرف لماذا نفعل ذلك..»
ثم أردفت وهي مصرة على تحاشى نظراتي:
- «ثم.. ألم يجل بخاطرك أن الطبيب النفسي زاره في المنام من يدعوه إلى أن ينصحك بالسفر للإسكندرية؟»
وأضاف الأب وهو يثبت عينيه في:
- «لقد قمت بفحص السيارة بنفسي.. ووجدت جزءًا مهمًا تم إتلافه عمدًا في الموتور.. أظن أن السائق رأى شيئًا ما في الحلم ليلة أمس!»
- «... وماكينة النور.. إن المصادفات لا تحدث بهذا السخاء»
صرخت في جنون وأنا على وشك التحول إلى مجذوب حقيقي:
- «إلى هذا الحد؟ مستحيل! إن هذا كابوس... بل هو أسوأ من أي كابوس رأيته..»
وهرعت لأمسك بمعصم (إيناس) في قسوة، لكنّها لم تبد مقاومة:
- «إذن لم يكن هذا حبًا؟»
قالت متهانفة والدمع يغمر وجهها:
- «إلا هذا.. لقد أحببتك حقًّا والله على هذا شهيد..»
هتف الأب بصرامة:
- «لا داعي للغلظة يا (طومان)!»

(طومان)؟ أنا (طومان)؟ يصعب عليّ ابتلاع هذا الاسم..
أردف الأب:
- «لم يكن هناك من يبغي الإضرار بك.. كل واحد فينا وجد نفسه مدفوعًا لعمل صغير بريء.. لكنّ هذه الأعمال الصغيرة البريئة احتشدت في نسيج واحد كبير.. هو اقتيادك إلى الفخ بكامل إرادتك..»
- «حقًّا.. إن هذا الوغد يخطط جيدًا!»
- «والآن.. هذا القصر كله تحت سيطرة الجاثوم.. أنتم جميعًا رأيتم تمثاله على رف مدفأة كل منكم.. لم أستطع أنا ولا سواي الخلاص من هذه التماثيل.. إن لها لخاصية غير عادية.. ما إن تهشمها حتى تعيد تشكيل نفسها.. وقد نحتها فنان إنجليزي يُدعى (سمبسون) لمالك القصر منذ أعوام طوال، تخليدًا للرعب الذي يحكم هذا المكان..»
بعد برهة من الوقت لم تعد ساقاي تتحملان.. كان كل هذا يفوق تحمل جهاز العصبي.. فجلست على الأريكة.. ثمّة رجفة لا أستطيع إيقافها في ركبتي اليسرى.. أمسكتها بمجمع كفي كي أسكتها..
وبصوت مبحوح تساءلت:
- «لماذا أنا بالذات؟»
- «لماذا أي شيء؟»
- «لـ.. لماذا اختارني؟ لم يمرّ جدّ من أجدادي بتجربة كهذه..»
- «لأنك لا تنجب.. ولن تنجب.. وهذا معناه أنك آخر سلالة (طومان) على وجه الأرض.. إنها فرصته الأخيرة للانتقام قبل أن تموت ميتة عادية باسمة لو كان هناك شيء كهذا..»
رفعت عيني إلى الوجوه الثمانية المحملقة فيّ.. وتساءلت:
- «حسن.. والآن ما هو المطلوب مني؟»

* * *

قال الأب:
- «لا يوجد شيء مطلوب منك.. إن (الجاثوم) يريدك أنت.. أمّا نحن فمجموعة من المتفرجين بلا دور.. وجودنا جوارك خطر داهم علينا.. أمّا ابتعادنا عنك فآمن لأن (الجاثوم) يبحث عنك وحدك.. سنرحل الآن.. نخرج إلى العراء ونتحسس طريقنا باحثين عن دار فلاح يقبل استضافتنا.. إن النهار قريب.. وليس من العسير أن نظل أحياء حتى يتبين الخيط الأبيض من الأسود..
«لكنك لن تتبعنا يا (هـ).. ستبقى هاهنا.. ولسوف يبقى (الجاثوم) معك لأنّه لا يعبأ بنا.. لو حاولت أن تأتي معنا بالقوة سأمنعك بمسدسي.. ولن أتورع عن تفجير رأسك.. هل أبدو مازحًا؟
«القصر قصرك.. وهذه ليست مجاملة.. إنّه بيت جدك المملوك الذي شيد كل حجر فيه.. كل غرفة هنا تخصك.. يُمكنك فتحها أو غلقها.. لديك مخزون كبير من المشروبات والمأكولات.. فلا تدع الحياء يقتلك جوعًا أو ظمأً..
«استخدم عقلك.. وحاول أن تسترجع من خلايا مخك القديمة أسرار جدودك.. وكيف كان المملوك الأرميني يستطيع السيطرة على وحش كهذا..»

ثم التفت إلى المجموعة المحيطة به.. وهتف:
- «هيا يا أبنائي! ولسوف نعود هاهنا مساء غد..»
كانت هناك بعض الغوغائية.. فقد راح (الشمندوري) وزوجته يعترضان في عصبية.. وقالت (هويدا):
- «لن نتركه هنا.. إنّه منا..»
وقال زوجها:
- «هذا حق.. القصة كلها خرافة..»
قال الأب في حزم، وهو يتجه إلى الباب بتؤدة والشمعدان في يده:
- «كما تريدان.. من شاء البقاء فليبق.. لا إرغام هنا..»
ووراءه مشي (عبد الرحيم) و(مها) و(محيي).. بقعة اللهب ترسم أربعة ظلال عملاقة مبتعدة على الأرض..
تبادلت (هويدا) وزوجها النظرات.. ثم - دون كلمة أخرى - تخليا عن شجاعتهما.. فهرعا يلحقان بالموكب المبتعد..
كانت (إيناس) جالسة جوار (الكلوب) المتأجج.. ومازالت كفها اليمنى على خدها، وقد جفت الدموع لكنّها تركت أخاديد من الملح على وجنتيها..
نظرت لوجهها الذي أظلم نصفه والتهب نصفه.. وسألتها:
- «وأنت؟ ألن تلحقى بهم؟»
- «.....»
- «إن اجتماعهم قوة..»
عيناها صارتا ذهبيتين تمامًا في اللهب.. وقالت في تراخ:
- «لا.. أنا باقية معك..»
- «إن الخطر سيكون جسيمًا.. خطرًا يفوق الوصف..»
- «الخطر الذي يفوق الوصف هو أن أسمع صراخك.. وأنا آمنة على بعد نصف كيلومتر من هنا..»
نهضت متثاقلًا لأجلس جوارها..
أنفاسي تتلاحق متقطعة قصيرة.. وشعرت بأناملها تتحسس وجهي..
- «أنت تبكي يا حبيبي؟»
- «نـ.. نعم.. أنا.. أنا خائف.. خائف من الظلام!»
وانفجرت باكيًا..
لا أدري ما قالته لي ولا ما فعلته.. كل ما أذكره أنني تحولت إلى طفل كبير تهدهده أمّه وتخبره أن الغد أفضل..
وحين انتهت عاصفة الدمع كنت قد صرت أقوى..
قالت لي وهي تمسك كفي في حزم:
- «هلمّ.. لا شيء يرغمنا على البقاء هنا سوى كلام هذا الإقطاعي المخبول.. فلنغادر المكان..»
- «لكنّ الـ.. الجاثوم.....»
- «لو كان حقيقة فهو سيجدنا في جميع الحالات.. سواء هنا أو في طريق الهروب..»

- «(إيناس)..»
- «نعم..»
- «أنا أحبك..»
- «وأنا شرحه.. لكنّ الوقت غير مناسب لتمثيل فيلم (الشموع السوداء).. وبالمناسبة لم أر مشهد حب على ضوء (كلوب) في حياتي..»
- «هل تتزوجينني؟»

قالت في مرح عصبي وهي تتحاشي عيني:

- «اسمع.. أنت الآن مضطرب نفسيًا.. وقراراتك ليست قراراتك.. فيما بعد حين تتحسن الأمور يمكننا أن نناقش هذا..»
- «أنا لا أنجب..»
- «لم أطلب تقريرًا صحيًا عنك.. هلمّ نغادر المكان قبل فوات الأوان.. ليت النهار يأتي..»
- «إن ليل الشتاء طويل كمعلقات الجاهلية..»

وحملت الكلوب في يدي.. وتشبثت هي بذراعي الأيسر.. ورحنا في تؤدة نمشي.. بقعة من الضوء تبحث عن مخرج..

ولم نشأ أن ننظر إلى الوراء.. إلى حيث كنا جالسين...

آخر أحفاد (كتخدا طومان) يحاول الفرار بأي ثمن من قصر أجداده..

.....

* * *



وحمَلْت الكلوب فى يدى . وتشبثت هى بذراعى الأيسر . .

٩ - في المصيدة..

هي ذي المسيرة الكئيبة تتجه في بطء جنائزي إلى الدرج...
خطوة تتلوها خطوة..
ومن عل ترى الطابق الأول يتلاعب بالظلال.. كأن كل جماد فيه قد تحرر وظفر بحياة خاصة به..
حرارة (الكلوب) تحرق جانب وجهي الأيمن، والبرد يلسع جانبه الآخر.. واليد المرتجفة لـ (إيناس) تزيد الأمور سوءًا ولا تحسنها..
هو ذا الطابق الأول..
كل شيء كما كان.. لم يتبدل شيء.. فهنا جلسنا والتهمنا غداءنا وعشاءنا وثرثرنا..
لكن الباب الذي رأيته في الكوابيس مرارًا كان هناك.. وكان مواربًا..
في صوت مبحوح قلت لـ (إيناس) وأنا أشير اليه:
- «هذا الباب..»
خرج صوتي عاليًا برغمي.. لماذا تعلو الأصوات في الظلمة إلى هذا الحد حتى لتثير هلعك أنت المتكلم؟
لهذا خفضت من طبقة صوتي قليلًا.. وقلت:
- «هذا الباب.. فتحته في الحلم فرأيت الجاثوم ينتظرني وبدأت المطاردات الرهيبة.. كان خطئي أنني فعلت.. والبارحة.. هل هي البارحة؟»
وأصابني ذلك الارتباك الذي يحدث حين تظل ساهرًا يومًا كاملًا.. فتتذكر أحداث النهار شاعرًا بأنها بالتأكيد حدثت في ذات اليوم.. ثم تتذكر أن الليل قد انتصف وأنّ هذا حدث أمس..
واصلت الكلام متغلبًا على هذا الخلل البيولوجي:
- «... البارحة.. دفعني الفضول لمحاولة فتح هذا الباب من جديد في الواقع.. لكنكم جئتم.. فتركته.. وبعد قليل وجدته مواربًا.. كأن شيئًا ما كان ينتظر حتى أفتح له..»
تساءلت (إيناس) وهي تواصل السير المتمهل:
- «ولكن هذا الـ.. الجاثوم كان يزورك قبل أن تجيء هاهنا بوقت طويل... أي أنه كان يملك حرية الانتقال.. فلماذا تظن أنك حررته؟»
- «حررت وجوده المادي.. وكان قبل هذا حرًا على المستوى المعنوي.. فكان يزورني آخر الليل.. ويجعلني أعيش كوابيس مريعة معه.. ثم يرحل تاركًا في فراشي تذكارًا يملؤني فرقًا، ويخلخل علاقتي بالواقع.. لكنه الآن قد تحرر ماديًا.. صار في عالمي حقًا.. وهو يريدني.. بكل خلية في جسده لو كان في جسده خلايا.»
ثم بللت شفتي الجافة بلساني.. وهمست:

- «مازلت أتوقع أن أصحو صارخًا لأجد نفسي في فراشي.. وأدرك أنها حلقة جديدة من سلسلة الكوابيس إياها..»

- «كم أتوق لهذا.. لكنّ للأسف.. كل شيء يبدو حقيقيًا.. لا داعي لأن نتعلق بأمل واه كهذا..»

كنا قد وصلنا إلى الباب...

وعلى ضوء (الكلوب) حاولت فتحه عدة مرات لكنه لم يستجب.. كان موصدًا بإحكام.. قلت في حنق:

- «لقد حبسنا أبو (مها) هاهنا.. ذلك الوغد!»

قالت وهي تشير إلى المزاليج المغلقة:

- «لا تظلم الرجل.. تامل! الباب مغلق من الداخل!»

أزحت المزاليج جانبًا - وعددها أربعة - ثم حاولت فتح المقبض من جديد دون جدوى..

- «بالتأكيد هو موصد بالمفتاح كذلك.. إننا حبيسان هنا..»

ثم غمغمت من بين أسناني:

- «لا أحب هذا..»

كانت هناك نافذة في جزء من القاعة، لكنّها كأي نافذة طابق أرضي كانت مسدودة بالقضبان الحديدية..

قلت لها بعد تفكير:

- «سنصعد إلى أعلى حيث النوافذ غير مدعمة.. ثم نهبط إلى أسفل متعلقين بحبل أو شيء من هذا القبيل..»

- «هذا جميل.. ظننتك تدرس الرياضيات لا الألعاب الرياضية..»

- «أنا كذلك.. لكنّ لو كان لديك حل آخر فلا تبخلي به..»

وفي خطا حثيثة عدنا أدراجنا..

صعدنا في الدرج إلى الطابق الثاني.. وكانت الغرف كلها مفتوحة مباحة بعدما هجرها أصحابها..

غرفة الفتاتين: (إيناس) و(غادة) ستكون مناسبة حتمًا..

ودخلنا.. ومشيت إلى النافذة ففتحتها ليدخل هواء الليل البارد المرجف.. ومعه دخل الظلام الأخير.. الظلام المنهك المميز لآخر الليل.. ثمّة ديك يصيح في مكان ما من العزبة..

سألتني (إيناس) وهي تمسك (الكلوب):

- «ألا ترى أنه من الحكمة أن نتريث؟ لعل الفجر يسبقه؟»

- «لا أظن..»

ونظرت خارج النافذة عبر طبقات الظلام الكثيفة..

نعم.. هناك ماسورة صرف تهبط بمحاذاة النافذة.. لن يكون الأمر عسيرًا.. فقط لو أنّ أبي علمني (الهجامة) وسرقة المنازل بدلًا من إعدادي لأكون مدرسًا محترمًا..

لكن كل شيء كان يقول لي أن أحاول..

شيء ما قال لي: إن مصير السقوط من عل ليس أسوأ مما ينتظرني هنا لو لم أحاول..

ولكن (إيناس)..!

لن أتركها وحيدة في الغرفة.. ولن أجعلها تهبط قبلي لأستمتع برؤيتها تصرخ وهي تسقط من عل، لتتهشم إلى ألف شلو..

قرأت أفكاري فقالت وهي ترفع (الكلوب):

- «أنا سأكون بخير.. إنّه يريدك أنت.. وربما كان ابتعادك عنى هو الضمان الوحيد لسلامتي..»

كلام معقول ولا ريب.. أو هكذا خيل إلى وقتها..

إنني غدوت كنافخ الكير - في الحديث الشريف - الذي لا بد أن يؤذي من معه بلهبه أو ريحه الكريهة..

تعلقت بحافة النافذة ووضعت قدمي على إطارها..

- «كـ.. كن حذرًا!»

لكنّ نظرة حازمة من عيني أخرستها... أنا أعرف كيف تتكفل هستيريا النساء بإفساد الأمر بالنسبة للرجال.. كل ما أحتاج إليه هو صرخة غير متوقعة كي تفلت يداي وينتهي كل شيء..

وكأنما تداركت خطأها.. عادت تصلح ما كان:

- «ليكن.. ليكن.. هيا.. والله معك..»

أنا الآن خارج النافذة.. أمد يدي ببطء.. ببطء إلى ماسورة الصرف.. وأخطو بضع خطوات جانبية..

أمّا (إيناس) فأخرجت جذعها بالكامل من النافذة، والكلوب في نهاية ذراعها محاولة جعل الرؤية متاحة لي.. سيكون التمسك بالماسورة ممكنًا.. لكنني - بعد أن أهبط أربعة أمتار - سأغرق في الظلام الدامس.. وعليّ أن أتحرك مهتديًا بالجاذبية الأرضية لا أكثر..

أخيرًا أمسكتها.. باردة كالثلج، رطبة كبطن ضفدع، زلقة كأرضية الحارة التي نشأت فيها.. لكني أمسكتها.. لففت ذراعي وساقئ حولها وشرعت أهبط..

قلبي يرتجف في ضلوعي.. لكني أشعر بكعب حذائي يلمس هذا البروز الواصل بين أجزاء الماسورة، وهو يصلح كمحطة ارتكاز..

أستجمع أنفاسي وأواصل الانحدار لأسفل..

ومن أعلى يبرز لي وجه (إيناس) والمشعل في يدها.. كشمس تطمئن على سلامتي.. وجهها يصغر.. ويصغر.. ثم.....

سمعتها تصرخ!

كانت تنظر إلى الوراء.. إلى داخل الحجرة وتصرخ كأن هناك من ينتزع كبدها حية..

وإلى جوار رأسي طار جسم مشتعل ما لبث أن هوى.. ليتهشم على الأرض.. وتنتثر منه النيران.. وتلتهم بعض الأعشاب..

لقد سقط (الكلوب) من يدها حين.. حين داهمها من الخلف..

وهأنذا معلق وحدي في الظلام الدامس.. أصرخ:

- «(إيناااااس)!»

أصرخ حتى تنزف الشرايين في ملتحمتي.. وتنفجر أوردة عنقي.. وتتمزق أوتار حنجرتي:

- «(إيناااااس)!»

محرومًا من الرؤية.. محرومًا من الأرض الثابتة.. محرومًا من المعرفة.. لقد حدث شيء مريع هناك.. لكنّ ما هو؟

- «(إيناااااااااااااااااس)!»

كانت هذه آخر صرخة في رصيد حنجرتي.. بعد هذا صارت في حاجة إلى قرض كي تستطيع إصدار صرخات أخرى..

بعدها تخلت يداي عن الماسورة.. لم يعد ثمّة مبرر لاستمرار إرادة الحياة في السيطرة.. وقلت لنفسي إن هناك احتمالًا لا باس به أن اهلك.. لكنّ الاحتمال الأكثر إرعابًا أن أظل حيًا مهشّم الأوصال بانتظار الشيء..

الخيار غير متاح..

للحظات استمر في السقوط.. ثم هأنذا ملقى على الأرض فوق كومة من الأعشاب الجافة.. لم أمت ولم أتهشم.. يبدو أنني كنت قد دنوت جدًا من الأرض - مترين أو أكثر قليلًا - حين صرخت (إيناس)..

ونهضت.. ثمّة رقعة من الأعشاب الجافة تشتعل جواري ورائحة الكيروسين تتصاعد منها.. مددت يدي إلى عصا خشبية وجدتها هناك.. ولففت حزمة من العشب الجاف حول طرفها.. ثم دفنتها في النيران أقتبس منها جذوة..

هذا المشعل يكفيني إذن..

ومترنحًا لاهثًا رحت أدور حول القصر.. لا بد من مدخل.. لا بد...

إن عقلي الباطن يقول لي كلامًا مثيرًا.. كلامًا عن غطاء معدني في الأرض له مقبض وتكسوه الطحالب والأعشاب.. كأنه غطاء مجرور منسي.. وعقلي الباطن لا يكذب.. إنّه سمع بعض خلايا مخي تهمس بهذا السر.. خلايا تحمل صبغيات مملوكي من (أرمينيا) اسمه (كتخدا طومان)...

إن القصر قصري.. ولا بد أنني أعرف كل ركن فيه.. فقط لا أعرف أنني أعرف...

* * *

«استخدم عقلك.. وحاول أن تسترجع من خلايا مخك القديمة أسرار جدودك..»

* * *

هي ذي الفتحة.. حتمًا لم يرها أحد من قبل.. ربما من مارس ١٨١١ عندما حدثت المذبحة.. ترى هل تستجيب؟

الغطاء ثقيل.. هه! هه! وضعت المشعل مستندًا للجدار.. ورحت أجذب المقبض بكلتا يدي.. هاهو ذا!

ترى هل استعملت هذا المدخل في أحلامي؟ لا أذكر.. لقد حلمت مائة حلم، استعملت فيها مائة مخرج ومدخل سرّي، لأفر من مائة خطر..

توجد درجات في جانب النفق.. بالتأكيد...

سأهبط فيها حاملًا المشعل..

إن هي إلا ثوان وأصير في قلب قصر أجدادي.. في قلب السر ذاته.. ولسوف يجدني الجاثوم حتمًا.. وعندها.....

* * *

هذه المرّة لم يعد الخوف يحركني بل الغضب..
هذا الجاثوم الأحمق المتعصب الذي جاء ليفسد حياتي، ويعكر عملي وحياتى الأسرية وحبي وكل شيء.. لماذا؟ لأية جريرة؟
لأن جدي كان ساحرًا شريرًا.. وماذنبي أنا؟ أنا الذي أخشى أن أقرأ كتابًا عن السحر لمجرد الفضول.. (لا تزر وازرة وزر أخرى).. هذا هو منطق الدين المحكم القويم.. لكنّ الجاثوم لا يعرف المنطق.. إنّه الشر والحقد مجسدين...
لماذا أدفع الثمن؟ لماذا تتعذب تلك الفتاة البائسة؟
الإجابة على هذه الأسئلة تفعمني غضبًا ورغبة في التدمير..

* * *

كنت في القاعة الواسعة إياها..
القاعة التي كنت أصلها متدحرجًا فوق المنحدر، بعد عبوري للكوة.. وكان بوسعي الآن أن أرى القدر المقلوب إياه.. وحوله العظام المتناثرة.. إن هذا هو عرين (النكرومانسي)..
كانت هناك منضدة حجرية عريضة.. لا أذكر أنني رأيتها من قبل.. ورأيت معلقًا فوقها خطافين.. خطافًا يتدلى منه منشار ضخم.. وخطافًا يتدلى منه فأس وسكين عملاقة...
وعلى ضوء المشعل رأيت
(يجب أن أجد مشعلًا آخر قبل أن...)

ثلاثة أجسام ممدودة فوق المنضدة الحجرية، التي لم تكن في الواقع سوى
(.. ينطفئ هذا.. وعندها أغدو أعمى..)

منضدة تشريح بدائية.. وميزت جسدي رجلين ممزقين.. خادمين على وجه الدقة.. وجسد امرأة.. فتاة على وجه الدقة.. (إيناس) إذا توخينا الحرص الشديد..
- «هاااه هاه هاه هاه!»
اهتزّ القبو كله بصدى ضحكاتي الهستيريّة..
- «آهاه هاه هاه هاه! هاه هاه هاه هاااا»!
الجاثوم يؤدي عمله جيدًا.. يستعيد الأيام الخالية.. هاه هاه! إنّه يقول لي: ستعود الساعات الحلوة من جديد! هأنذا قد أعددت الجثث - حصيلة الليلة - كي تمارس عليها ألاعيب (النكرومانسي).. لقد كنت أفعل هذا لجدك.. ولا أرى ما يمنع من أن أفعله معك.. صحيح أنني أكرهك.. صحيح أنني سأبطش بك.. لكني ملتزم بأداء واجبي قبل كل شيء..
صحت في حنق بأعلى صوتي:
- «وأين الخفير أيها الغبي؟»
الخفير؟ الخفير لم يتبق منه شيء.. أنت رأيته في غرفة الكرار.. هل نسيت؟ للحظة حسبته ثمرة طماطم وحسبت أنني مكلف بتحويله إلى صلصة.. كان هذا خطأ.. كنت متحمسًا كما تعلم..
هاه هاااااه هاه!



الغطاء ثقيل . . هه ! هه ! وضعت المشعل مستنداً للجدار . .
ورحت أجذب المقبض بكلتا يدىّ . . ها هو ذا !

وهنا توقفت عن الجنون..
شعرت بشيء يتحرك خلفي فاستدرت..
كان الجاثوم قادمًا نحوي..
إنها المرّة الأولى التي أراه فيها وأنا متيقظ..
فكيف أصفه لك؟
كان.. كالجاثوم في كل شيء..

* * *

١٠ - أنا والجاثوم...

ربما كانوا صادقين حين وصفوه بقرد عملاق.. وأنا صادق حين رأيته شبيهًا بأصنام الجاهلية الأولى.. فهو شيء بلا ملامح.. كتلة من السواد المبهم... لكن له ما يشبه قدمين يمشي عليهما.. وما يشبه يدين يلوح بهما متوعدًا..

ولم يكن له صوت.. بل هو يئز كمحرك الثلاجة كما عرفته دائمًا..

أما عن حجمه.. فهو متغير.. تارة يتضخم - حين يثور - ليملأ المكان.. وتارة يضمر حتى يصير ارتفاعه ثلاثة أمتار لا أكثر..

كان ابن الظلام وجزءًا منه..

لهذا لم يكن ضوء المشعل يصل إليه أبدًا.. دائمًا هو في الركن المظلم من المكان.. يتشكل حسب الظل..

كان كابوسًا حيًّا..

كان هو قاتل (إيناس)..

كان هو المسئول عن جنوني وتفكك بيتي..

كان المسئول عن مبيتي في المقهى كل ليلة..

كان هو من يدسّ المشاعل والعظام في فراشي..

كان هو من جعل آخر الليل أسوأ ساعاتي..

كان هو.... الجاثوم..

* * *

مددت يدي إلى جيبي.. كانت الرقاقة النحاسية هناك.. الرقاقة التي وجدتها في التمثال والتي حفرها السيد (سمبسون) يومًا ما عام ١٨٠٣.. ماذا فيها؟ لا أدري.. لكنه يستحق المحاولة..

لا أذكر الكلمات اللاتينية.. لكنّها كانت شيئًا كهذا:

«كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس»

قرأتها بصوت عالٍ.. وأعدت قراءتها مرارًا..

فماذا حدث؟

رأيت الشيء يهدأ ويبتعد قليلًا..

إذن فهذه الكلمات نوع من التعويذة.. تعويذة ترغم الشيء على عدم إيذاء سكان القصر.. لهذا هي مدفونة في كل تمثال في كل حجرة هنا.. صحيح أنه هاجم بعضنا، لكنّ ربما كان هذا لأن التعويذة لم تكن في تماثيلهم.. من يدري؟ ربما أبقى (كتخدا طومان) بعض الغرف دون تعاويذ لينام أعداؤه فيها.. ويفتك بهم الجاثوم..

هذا ممكن جدًا..

لماذا لم يهاجمني الجاثوم أو يهاجم الأب أو يهاجم الشابين؟ لأن تماثيل غرفاتنا كانت تحوي التعويذة اللاتينية..

تقدمت خطوتين للأمام..

واختلست نظرة إلى جثمان (إيناس)..

كان هذا الجسد يفيض بالحياة منذ ربع ساعة أو أكثر قليلًا.. وكان يهيم بي حبًا.. والآن فرغت الحياة منه كلعبة أطفال تلفت بطاريتها.. لماذا؟ لماذا؟ ولأي غرض عبثي فعل ذلك؟

- «لماذا أيها الوغد؟»

وهويت بالمشعل على أطرافه.. فتراجع..

- «لماذا أيها الشيطان؟»

ودفنت المشعل في مكان الوجه.. وشممت الشياط المميز..

- «لماذا يا كتلة الشر القذرة؟»

الوحش القادم من كتب السحر المغولية - لو كان للمغول كتب - يتراجع إلى الوراء.. لكن ليحسن الوثبة بالتأكيد...

كان الباب ورائي.. الباب الذي يقود إلى الهاوية، التي تلتهب الحمم في قاعها.. أتراها موجودة هنا أيضًا؟ هذا مستحيل جيولوجيًا على قدر علمي.. لسنا في منطقة بركانية.. لكنّ هذا الباب يفضي إلى شيء ما.. ويمكن أن أجعله ينزلق عبره ليهوى إلى ما لا نهاية...

إنها الحيلة المعروفة: أقف على حافة الهاوية وأغرية بالانقضاض، ثم أتنحى جانبًا ليسقط هو من عَلٍ..

هرعت إلى الباب والمشعل في يدي..
فتحته.. لكنه لم يكن سوى خزانة كتب.. ثلاثة كتب غليظة تساقطت على الأرض.. وبعض عظام متآكلة نخرة.. وشموع.. ورائحة عطن لا يمكن وصفها..
كان هذا حين ثار الشيء من جديد.. وقرر أن يهجم..
وثبت إلى الوراء.. ورحت أناوره عبر المساحة الواسعة.. وأنا أدرك أن اللعبة
(لا توجد فئران هنا.. هذا غير معتاد!)

لن تطول كثيرًا.. هذا الشطرنج قليل الخانات حقًّا..
ولم أجد سبيلًا لإطالة الوقت سوى الإمساك برقيقة النحاس من جديد، وبصوت جهوري هتفت:
- «كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس!»
من كان هذا كافيًا لتقليل حماس الشيء قليلًا..
وعاد من جديد يجول في ظلال القبو.. كأنما يستجمع قواه من أجل الهجمة التالية.....
من المستحيل قتله.. ولو حدثت المعجزة وفررت هنا فهو حر.. ولسوف يجدني حيثما كنت من خلال كوابيسي....
يجب إنهاء الأمر هنا.. وحالًا....
تمددت على الأرض في استسلام جوار الجدار الرطب.. أغمضت عيني.. لن يكون عليه سوى أن يجثم فوق أنفاسي حتى أختنق.. سأتخيل أنني طفل رضيع نسيت أمّه الوسادة فوق رأسه الدقيق..
وهنا وجدت أحد الكتب جواري..
أحد الكتب التي سقطت من الخزانة..
كانت صفحاته مفتوحة.. صفحات من الرق (شيء ما حدثني أنه جلد الموتى المدبوغ) وقد امتلأ بكتابة لا عهد لي بها..
إنه كتاب سحر.. أقسم على هذا...
والرسوم التي فيه.. رسوم أقرب لكتب التشريح الصينية الغابرة.. والتي نراها كلما تحدث أحدهم عن الإبر الصينية..
إنه يشرح فنون (النكرومانسي).. هذا مؤكد....
وهنا التمعت الفكرة في ذهني...
ماذا لو أننا - على سبيل التجربة - أضرمنا النار في هذه الكتب اللعينة؟ إن المشعل جواري..
ليس عليّ سوى أن أقربه من الصفحات....
هو ذا دخان أخضر كريه الرائحة ينبعث منها، والصفحات تتجعد.. رائحة الشواء التي تؤكد لي من جديد أنّ هذا جلد بشري مدبوغ لا صفحات ورقية..
ومددت يدي لألقي في اللهيب بكتاب ثان.. فثالث...
دع هذا القبح ينته بأي ثمن...
ونظرت إلى الوارء في تشف لأرمق الجاثوم..
لكنه لم يبدُ قلقًا بشكل خاص.. وهذا ما أثار قلقي أنا..



الوحش القادم من كتب السحر المغولية . . لو كان للمغول كتب . . يتراجع إلى الوراء . .

نظرت إلى الوراء من جديد، فوجدت مشهدًا لا يسهل نسيانه.. لقد عادت الكتب لحالتها الأولى دون أية مشاكل! لا ورقة واحدة محترقة.. ولا ذرة رماد تلوث أية صفحة..

الأمر واضح ولا يتطلب عالمًا في الفيزياء النوويّة.. هذا الكتاب اللعين باق للأبد.. لا توجد طريقة لتدميره..

ومن الواضح أن الجاثوم باق معه....

* * *

الخاتمة كما حكاها (هـ)

ونظرت إلى الوراء.. إلى الظلال التي ذاب الجاثوم فيها، لكنه ظل هناك مصدرًا لذلك الأزيز الرهيب الرتيب..

اتجهت من جديد إلى الخزانة التي كانت الكتب فيها.. ثمة شيء ليس على ما يرام في هذا الجدار.. إن فيه مقبضًا نُحت في الصخر كمقبض الباب.. أي أن ظهر الخزانة هو ذاته باب.. باب يفضي إلى ماذا؟

الجاثوم يتحرك من جديد...

* * *

كاستوس كوربوس إنكيوبوس نكرومانسوس..

* * *

الجنود يطلقون الرصاص.. صوت الدويّ يصم الآذان.. والكل يحاول الفرار.. لكنّ الأبواب مغلقة.. مغلقة... خاننا (محمد علي) إذن!

تصطدم الطلقات بالقرميد والحجارة، فيتناثر الغبار في كل مكان.. وأجساد عديدة تهوي تحت الأقدام...

رصاصة! آي! رصاصة! آي..

مملوكي يحاول التعلق بالبوابة.. عملاق هو.. ضخم كدب.. لكنّ جسده يتلوى ألمًا وتتخلى يداه عن التشبث.. ويسقط فوق رفاقه..

رصاصة! إنك تموت.. كلا.. لن يكون هذا.. ليس بهذه البساطة.. إن (كتخدا طومان) لن يموت بهذه الطريقة ولا طريقة أخرى..

* * *

بعد ما رددت العبارة من جديد؛ تراجع الجاثوم للوراء بضع خطوات.. كان ذهني ينبض في جنون.. أحداث المذبحة وصهيل الخيل، وقراع سيوف المماليك وهم يلوحون بها محاولين تحطيم البوابة.. كل هذا في ذهني الآن.. أنا قرأت عن المذبحة مرارًا.. لكني لم أتوغل فيها إلى هذا الحد قط..

وفي ذعر أدركت أنني لست من يفكر الآن..

إنها خلايا (طومان) الحية في مخي تفكر!
فتحت الباب الجداري في مشقة.. وقبل أن أبدأ العمل كنت أعرف جيدًا أن ما وراء الباب هاوية سحيقة مظلمة.. الهاوية التي رأيتها في نومي مرارًا..
دلفت عبر فرجة الباب إلى الخارج.. كان هناك إفريز واهٍ جوار الجدار.. لكني استطعت أن أثبت قدمي عليه.. ثم فردت ذراعي لأجعل منهما ممصات كممصات العناكب كي يزداد جسدي التصاقًا بالجدار..
ورحت ـ في عسر ـ أبتعد عن فتحة الباب، ووجهي يحتك بالحائط الرطب عطن الرائحة.. والهاوية تفتح فاها في نهم تحت قدمي.....
لن يلبث الجاثوم أن يلحق بي..
لكنه يملك جسدًا ضخمًا غبيًا.. وبالتأكيد لن يتوقف في الوقت المناسب مثلي..

* * *

كان المكان مخيفًا.. مخيفًا حتى بالنسبة لي... أنا (كتخدا طومان)..
ورحت ـ في هلع ـ أتأمل جسد الفلاح المسجّى على المنضدة الحجرية، في ضوء المشاعل الخافت..
لكن أبي قال وهو يرتدي عباءته السوداء.. ويسدلها على وجهه:
ـ «هذا هو سرنا يا بني.. وسر قوتنا.. السر الذي تعلمناه من المغول.. وبه امتلكنا حكمة الدهر كله...»
قلت وانا ارتجف:
ـ «مـ.. ما هو هذا السر؟»
ـ «إنّه السر الذي يعلمك أسرار الموتى جميعًا.. كل ما سمعوه ستسمعه.. كل ما قالوه ستقوله.. كل ما شموه ستشمه.. كل ما أكلوه ستذوقه.. كل ما فكروا فيه ستعرفه..»
ومد يده يتناول سكينًا غريبة الشكل.. ويدنو من الجثة قائلًا:
ـ «والآن سأريك كيف!»

* * *

وشعرت بالجسد الضخم يدنو من فرجة الباب..
للحظة توارى ضوء المشعل القادم من الخارج.. وتعالى صوت الأزيز.. ثم...
تعالى الأزيز أكثر فأكثر..
وحدث ما توقعته تمامًا.. هوى الجسد من أعلى.. لم أر شيئًا بفضل الظلام.. لكني شعرت بتفريغ الهواء الهائل يوشك أن يجذبني معه لأسفل..
ومرت خمس دقائق كاملة ـ أم لعلي حسبتها كذلك ـ ثم علا صوت اصطدام الجسد الهائل بقاع الهاوية..

بعدها ساد الصمت والظلام...
وتنهدت الصعداء.. لقد ولّى الجاثوم إلى غير رجعة.. وعدت حرًا..
حرًا؟

* * *

كم من ليلة قضيتها جوار أبي.. أمسك الكتب التي تحكي تفاصيل هذا العلم الرهيب.. وأردد عبارات السحر المكتوبة بلسان مغولي قديم... لم يكن المغول يكتبون؛ لكنّ سحرتهم كانوا يدونون طقوسهم بدقة..
أمّا أبي فكان يواصل مهمته الرهيبة..
وجاء اليوم الذي ناولني فيه السكين، وطلب مني أن أبدأ..
و.. بدأت.....

* * *

حين عدت ـ في حذر ـ إلى الباب لأجتازه عائدًا إلى القبو.. كان لي عقلان.. عقلي الحاضر.. عقل (هـ) الذي يعي اللحظة بكل دقائقها.. وعقل (طومان) وعقل أبيه وعقل جده..
عقل يفكر بمعايير الطائرات والصواريخ والتلفزيون.. وعقل يفكر بمعايير الجياد والسيوف والوالي والعمامة والعباءة.. وكلاهما يقظ يواجه الأمور في تنبه تام...
لكني تخلصت من الجاثوم اللعين.. لم يعد أمامي سوى.. لحظة!
كان الوغد واقفًا هناك بانتظاري!
داخل القبو.. هو ذاته.. بضخامته.. بصوت أزيزه الرتيب..
إنه كابوس!
لِمَ لا؟ أليس الجاثوم كابوسًا ماديًا؟
إنه لم يمت حين سقط في الهاوية.. بل وعاد من حيث لا أدري إلى ذات المكان.. شيء طبيعي جدًا.. أليس جاثومًا؟ أليس خارقًا لكل ما اتفق عليه علماء الفيزياء والجغرافيا؟

* * *

ـ «الجاثوم ـ أي بني ـ هو خادمك المطيع، وهو من يعد للأمر عدته، ويخنق أعداءك وهم نيام.. فلا تهبه..»
ثم هزّ أبي إصبعًا منذرًا في وجهي.. وقال:
ـ «إن فن استجواب الموتى فرض على كل من سمع عنه.. لا يُمكنك الرفض ولا التنصل من الآن فصاعدًا.. وإلا وجدك الجاثوم وأفناك في نومك مثلما أفنى مئات من قبلك..»
ووضع يده على كتفي.. لم أر عينيه وراء الرداء لكني شعرت بهما:

ـ «لا تتوان لحظة عن توريث هذا الفن لأبنائك وأبناء أبنائك..».
كان الجاثوم يتحرك في ركن القاعة المظلم.. وعرفت أن القبول هو اختياري الوحيد..

* * *

نعم.. القبول هو اختياري الوحيد..
الآن فقط أعرف أن السبيل الوحيد للخلاص من الجاثوم هو أن أكون في صفه.. وأن أفي بالعهد الذي قطعه جدي منذ دهور..
عندئذ يعود الجاثوم خادمي.. وأسحق أعدائي جميعًا..
وفي هذه اللحظة تذكرت كل شيء عن فن (النكرومانسي).. فجأة لم يعد الأمر غامضًا.. كأنني كنت أمارسه أمس فحسب..
مددت يدي للكتاب الأول وبحثت عن صفحة الطقوس..

* * *

هو ذا المشعل يرمي ظلاله على القبو.. صوتي الرتيب يتردد في أرجاء المكان.. وأزيز الجاثوم في الظل يتردد معلنًا عن رضاه التام...
واتجهت إلى جثة (إيناس).. ورفعت السكين..
الخطوة الأولى هي أن.....

* * *

إنه الفجر....
لقد انتهت ساعة الذئب...
كنت أنا قد تخلصت من آخر الأشلاء.. رميتها في الهاوية ثم أغلقت الباب وحشرت الكتب حشرًا في طيات ثيابي.. إن العظام الآن في هاوية في قاع قبو في قاع قصر.. لن يجدها أحد أبدًا..
ومررت جوار الجاثوم دون أن أنظر له.. وغادرت القبو...
والغريب أن الحياة لم تعد بهذا الغموض السابق..
إن لي هدفًا.. ولي خطة محددة لمواجهة الغد..
كل ما أريده هو بيت منعزل.. بيت له قبو.. بيت يصلح لممارسة (النكرومانسي).. الفن الذي تعلمته منذ ساعة، وأتقنته كأنما أمارسه منذ عشر سنوات.. منذ عشرة قرون.. منذ خلق الكون..
وماذا عن موتي؟ من يرث هذا الفن بعدي؟ من يرث الجاثوم؟ من يدري؟ إنني أنقب في تاريخ الأمم كلها.. ويومًا ما ستعلمني جثة ما طريقة للتغلب على العقم.. طريقة لكي يكون لي إبن يتعلم مني كل شيء.. كل شيء..

فقط على أن أواجه أسئلة الشرطة عن (إيناس).. وعن كل ما حدث في تلك الليلة.. لن يكون هذا صعبًا.. فوالد (مها) لن يتكلم.. لن يتكلم أحد.. لأن أحدًا لن يصدّق.. وسيتم اعتبار (إيناس) واحدة أخرى من اللواتي خرجن ولم يعدن.. وكذا نفس الشيء بخصوص الخدم..

ان مستقبلًا باهرًا ينتظرني..

صدقني يا دكتور (رفعت).....

* * *

خاتمة

د. رفعت اسماعيل

كان الأجدر أن أسمّي هذه الأسطورة باسم (أسطورة ساعة الذئب) - وهو اسم جميل يغري باستعماله يومًا ما - لكني لم أرد أن يحسبها القراء أسطورة أخرى عن المذءوبين.....

أعتقد أنها أسطورة مرعبة حقًا.. ولا أخال القارئ يقدر على قول إنها خالية من الرعب.. على الأقل لن يقولها بضمير مستريح تمامًا..

إن أسطورة الجاثوم لتترك غصة في الحلق.. خاصة بعد هزيمة بطلها وخضوعه لقدره الشيطاني، ووفاة (إيناس) الباسلة..

ثم الحقيقة المفزعة: حقيقة أن الجاثوم ما زال في هذا العالم.. بل هو - غالبًا - في مصر في هذه اللحظة..

من العسير أن نجد (هـ).. فهو بالتأكيد يعيش وحيدًا في بيت منعزل، والجيران يجدونه غريب الأطوار.. لكنهم لا يتصورون لحظة حقيقة ما يحدث في قبو هذا المنزل ليلًا..

كم من أعدائه ماتوا نيامًا إثر كابوس حاد؟ كم من الجثث اختفت من المقابر دون تفسير؟ لا أحد يدري..

إن الشر قد يمتد أثره إلى ما بعد وفاتك.. وحتّى أحفادك يدفعون ثمن الآلام التي اقترفتها أنت.. لأنّهم يرثون جريمتك..

ما هو الدرس المستفاد من هذه الحكاية؟

لا أدري.. أنا لا أومن بأن القصة يجب أن تحوي في طياتها موعظة ما.. وإلا كان المقال أكثر فعالية..

لكن - ما دمتم تصرون - سأحاول:

١ - لا تكن مطمئنًا إلى أجدادك.. فلربما كان أحدهم من (أرمينيا)!

٢ - إن (النكرومانسي) هواية سيئة..

٣- لا تصادق الفتاة الحسناء التي تجلس بجوارك في السينما..

٤ - لا تقبل دعوة إلى يوم في الريف إذا كان لك جد مملوكي!

٥ - ليست كل قصة تحوي دروسًا مستفادة..

ومن نافل القول أن أضيف هاهنا، أنني أفكر أحيانًا في إمكانية أن يرسل لي الأخ (هـ) جاثومه في منامي كي يمنعني من الثرثرة.. أليس هذا متوقّعًا؟

والآن يمكننا ترك الجاثوم في قبوه، وغلق هذا الكتاب.. لنتحدث الآن عن حلقة الرعب الثالثة..

إن (شريف السعدني) مذيع ذكي وعلى قدر غير عادي من الحيوية، والدليل على هذا أنه اختارني بالذات لأكون موضوع برنامجه الليلي الرهيب (بعد منتصف الليل)..

بعد منتصف الليل تحدث أشياء مريبة حقًّا.. لا تتكتم الأمر.. ارفع سماعة الهاتف واطلب رقمنا.. واحك كل شيء..
ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ -محتوى الكتاب الذي أضعتموه..

٢ -فلتمر الساعات..

٣ -ليلة لا أكثر..

٤ -إنّه يحيا!

٥ -لا أحب هذا..

٦ ـ المزيد منه...

٧ -الجاثوم..

٨ -التفسير..

٩ -في المصيدة..

١٠ -أنا والجاثوم...

الخاتمة كما حكاها (هـ)

خـــاتـمــة د. رفعت اسماعيل

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة الجاثوم

إنه نداء عَبْر الأجيال .. عبر الأزمان .. عبر الآباد .. يدعوك إلى أن تكون هنا .. والكابوس الذي كانت أوصالك ترتجف منه صار حقًا .. إنها قصة شنيعة عن الكوابيس ، وهواة تعذيب الموتى ، والبقاء وحيدًا في قصر فسيح مظلم يجول فيه كيان مريع .. إنها قصة عن الخوف حين يصير ملكا ..!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:

أسطورة بعد منتصف الليل

Notes

[←1] الشاعر الجاهلي الى قضى ليالي سوداء خوفًا من بطش (النعمان) به.. فصارت (الليلة النابغية) مضرب المثل في الأرق

[←2]

لحسن الحظ لم يعرف (هـ) بعد من هو خطيب (هويدا) السابق!

[←3]

يقتضي العرفان بالجميل أن نذكر أن المماليك هم من هزموا (هولاكو)، وسحقوا الصليبين، وأسروا (لويس التاسع).. وتركوا طابعًا لا يمحى في عمران القاهرة بما فيه الأزهر.

[←4]

١ مارس ١٨١١ م

روايات مصرية للجيب

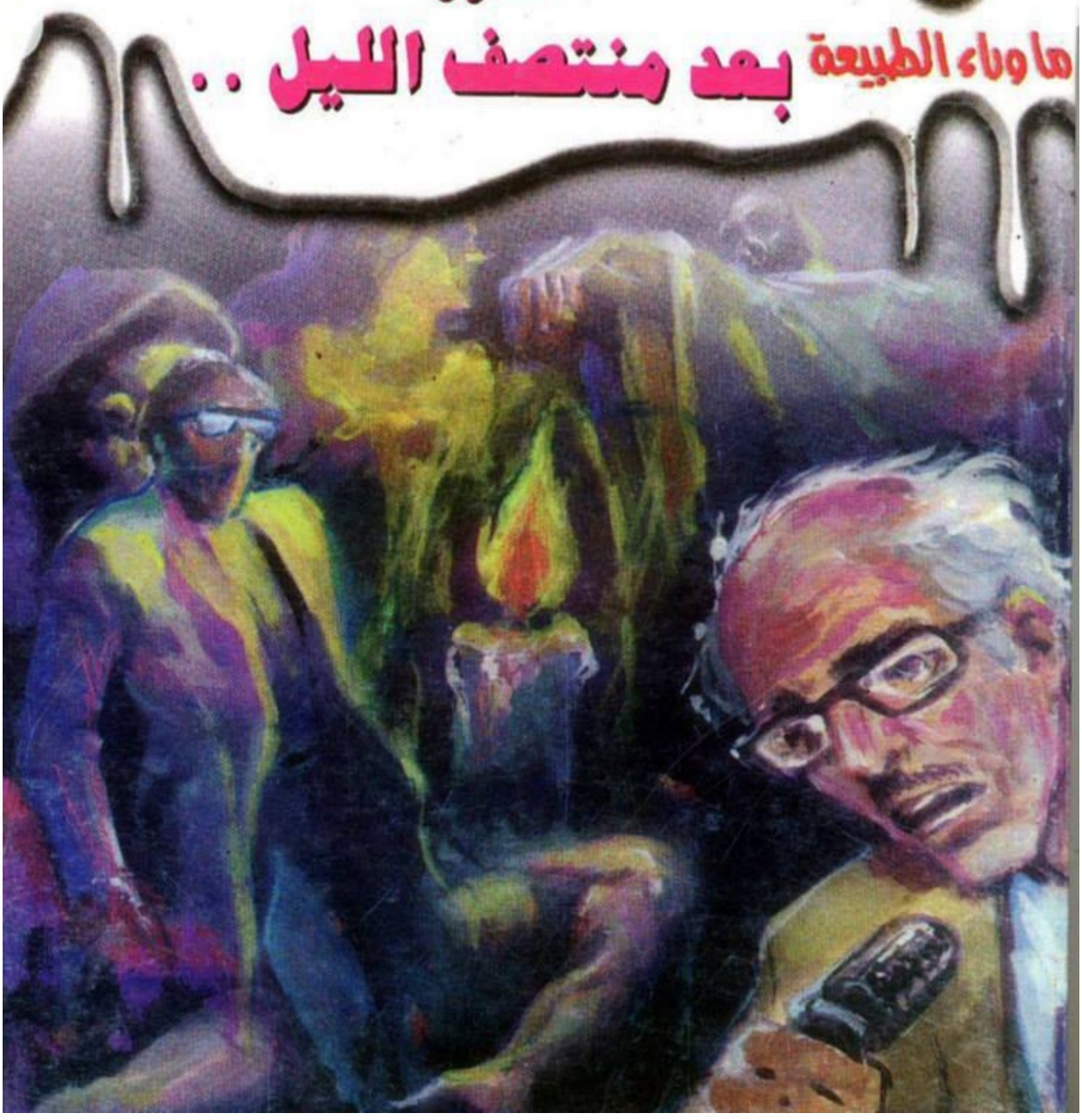
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

30

أسطورة

هاوية الطبيعة

بعد منتصف الليل ..



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة..

فرغت من مطالعة بعض مجلات أمراض الدم التي جاءتني بالبريد اليوم.. لشد ما يهرول الطب بخطوات مذهلة! إن التوقف عن الاطلاع يومًا واحدًا يعني أن يسبقك الآخرون بعام كامل..

مرة أخرى تسألونني عن جدوى الدراسة العجوز على المعاش، يحيا وحيدًا ويخطو إلى القبر بخطوات تماثل خطوات الطب.. إن لم تكن أسرع..

أقول إنني أحترم العلم حقًّا.. والميت الحق عندي هو من كف عن التعلم.. إن دنو الموت يضايقني حقًا لأنني لن أعرف أبدًا هل توصل (مونتانييه) الفرنسي إلى إيجاد مصل (الإيدز) أم لا؟ وهل صار لقاح البلهارسيا صالحًا للاستخدام التجاري؟ وهل يمكنهم تقسيم الكبد المزروع إلى ستة أجزاء تناسب ستة مرضى؟

أنتم - بعون الله - ستعرفون.. أمّا أنا فاحتمالات ذلك واهية جدًا.. لهذا أكتفي بأن أعرف آخر شيء عرفوه... حتى آخر دقيقة قبل موتي..

الآن حان وقت الثرثرة....

لقد أرحتكم مني - إلى حدٍ ما ـ ثمانية أعداد كاملة.. منذ أن زأر (المينوتور) في متاهته.. وحتّى هلك (الجاثوم) في مخبئه..

البعض لم يحبّ هذه الإجازة.. والبعض أحبها..

لكني - كما قلت مرارًا - أزور غبًا لأزداد حبًّا.. وخير لي أن يُقال لماذا لا يكتب؟ من أن يُقال: لماذا يكتب؟

سأعود لكم من جديد.. وعسى أن يكون قرارًا صائبًا..

لكني سأكرر موضوع الخطابات هذا كلما تراكمت عندي..

إن الجدّة والتشويق هما غرض السلسلة، ولا دخل الشخص معين بهذا الغرض.. وإلا لصار اسم السلسلة (مذكرات رفعت) أو (أبو الرفاع يحدثكم)....

القصة القادمة هي عدد خاص جدًا.. إن حلقة الرعب الثالثة توشك على البدء.. فهل جميعكم هنا؟

لا بأس.. في هذه المرّة لن أحكي شيئًا.. بل سأستعمل شريط تسجيل قديمًا عندي.. يعود إلى العام ١٩٦٩ و١٩٧٠

ومعًا سنستمع إلى حلقات مختارة من برنامجكم..

(بعد منتصف الليل)...

الصفحات التالية هي تفريغ لحلقات مختارة من البرنامج الإذاعي (بعد منتصف الليل)، الذي كان يُذاع في الواحدة صباحًا أسبوعيًا، ونال شعبيّة كبيرة في عامي ١٩٦٩ و١٩٧٠، ثم منعت الرقابة إذاعته بسبب تأثيره السلبي على نفسية الأطفال.

مقدمة البرنامج الثابتة

صوت صرير باب ينفتح ببطء..

ثم صرخة امرأة..

بعدها تبدأ موسيقا فاخرة متوجسة..

ويدوي صوت المذيع هادرًا بلهجة منذرة:

بعد منتصف الليل

عزيزي المستمع..

هل لديك خبرة مخيفة بعالم ما وراء الطبيعة؟ هل هناك خطر معين يطاردك؟ هل ترى أشياء مريبة لا يمكن تفسيرها؟ لاتتردد.. ارفع سماعة الهاتف واطلب رقمنا فورًا.. سنصغي إليك.. ونحاول حل مشكلتك وإزالة مخاوفك.. مع ضيفنا الدكتور (رفعت إسماعيل)..

عزيزي المستمع.. أنت لست وحدك!

(تتعالى الموسيقا من جديد.. ويبدأ ذكر أسماء الفنيين).

تقديم: شريف السعدني

الهندسة الإذاعية: أسامة نجم.

إخراج: جلال القصاص.

(أخيرًا تخفت الموسيقا وتبدأ الحلقة)...

* * *

بـعـد منتصــف الليــل

(صوت ضحكة.. ثم صوت [شششش!] يمنع صاحب الضحكة من الاسترسال).

شريف:

أعزائي المستمعين.. يسعدني أن ألتقي معكم في هذه الساعة المبكرة من صباح الجمعة.. أعرف أن أكثركم يقاوم النعاس الآن إن لم يكن قد نام فعلًا.. لكني أعدكم بأنكم ستفتحون عيونكم إلى أقصى اتساع لها.. فهذا البرنامج يتحدث عن كل ما هو غريب وغير مألوف.. وله مزية أخرى مهمّة هي أنكم أنتم من يصنعون الإثارة والطرافة.. إن قصصكم هي وقود آلة الرعب التي لن تكف عن العمل من الآن فصاعدًا..

يسرني أن أقدم لكم ضيفًا دائمًا لهذا البرنامج.. د. (رفعت إسماعيل) الذي بدأ يحرز شهرة لا بأس بها بعد ما كتب وقيل عن خبراته في عالم ما وراء الطبيعة.. مرحبًا بك يا دكتور..

رفعت:

مرحبًا بك يا (شريف)..

شريف:

أرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك بالسهر إلى هذه الساعة؟

رفعت:

إنني وطواط آدمي لا ينتعش إلا ليلًا.. والليل على كل حال مناسب تمامًا لما ننوي التحدّث عنه.. ثم إن له مزية أخرى.. من المؤكد أن الأطفال جميعًا قد ناموا...

شريف:

بعضهم لم يفعل..

رفعت:

هذا البعض لا يمكن إفزاعه على كل حال.. فهو مرعب بما يكفي..

شريف:

(يضحك في مجاملة).. هاها! يقولون يا دكتور إنك لا تترك سرًا غامضًا أو مرعبًا إلا وتقحم نفسك فيه إقحامًا.

رفعت:

أعترف بأنني لا أتعمد البحث عن المتاعب.. يقول الشاعر الألماني (فلهلم بوشه): لا أحد يشتري الفئران.. الفئران تهرع من تلقاء نفسها إلى دارك!

لقد حاولت دومًا أن أكون شخصًا عاديًا كالآخرين لكني فشلت.. أعتقد أنني مصاب بنوع خاص من النحس..

شريف:

وهل حقًّا تعتبر نفسك هادمًا للأساطير؟

رفعت:

لا أظن.. كنت أعتبر نفسي كذلك يومًا ما.. ثم بدأت أوقن أنني لا أعرف شيئًا عن أي شيء.. إن الحياة غامضة حقًّا.. والتجريب هو المقياس الوحيد لمعرفة كنه أسطورة ما.. لكني..

شريف (مقاطعًا):

حتى لو كانت الأسطورة؟

رفعت (في ضيق):

لا تقاطعني.. لكني لم أصادف حتى اليوم أسطورة تصطدم بالدين وتثبت صحتها.. قد تصطدم بالعلم وهذا يحتمل الجدال.. لكنّها لا تصطدم بالدين أبدًا إلا واتضح أنها أكذوبة...

شريف:

ما هو في رأيك الهدف المرتقب من برنامجنا هذا؟

رفعت:

لا هدف سوى أن أحصل أنا على مكافأة حضوري هنا.. وتحصل أنت على راتبك.. إنّه هدف لا بأس به أبدًا.. لكنّ - إذا حاولنا أن نتناسى الماديات ـ فإنّه يوجد هدف مرموق في حد ذاته هو أن نشعر بالرعب..

شريف:

هلا أوضحت لنا هذه النقطة بشكل مفصل؟ ما هي جدوى أن نخاف؟

رفعت:

يقول مخرج أفلام رعب شهير: إننا نحب أن نجرب أسوأ الأشياء على الإطلاق.. حتى إذا انتهى العرض شعرنا بسرور عارم لأننا مازلنا أحياء وبصحة جيدة.. فهذا يشعرنا بالتفوق وقدرتنا على الاستمرار...

شريف:

أعترف بأنها نظرية عسيرة التصور...

رفعت:

يسمون المبدأ كله باسم Catharsis أو (تطهير).. فانت حين ترى الرعب تغسل من مخاوفك الداخلية الكامنة.. والأمر على كل حال لا يخلو من صدق.. فكل الأطفال يعشقون قصص (الغولة) وثرثرة الأمهات عن (العاو).. أفلام الرعب تحقق أعلى الإيرادات.. وبيت الأشباح في مدينة الملاهي مكتظ دائمًا.. بل إنني أرى هذا الميل في أشياء بسيطة.. في زحام المتزاحمين حول حادث سيارة.. وفي كل من المتجمهرين نزعة ماسوشية خفية لتعذيب النفس برؤية مشهد الضحايا المشوهين.. بعدها يعود كل منهم إلى داره وقد تم تطهيره[1]!

شريف:

وهل تختلف ميول الجمهور حسب المتغيرات الاجتماعية؟

رفعت:

يقال إن خوف أمريكا من الغزو الشيوعي في الخمسينات ـ الفترة التي يسمونها بـ (المكارثية) - أدت لانتشار قصص الغزو الخارجي والاستحواذ الشيطاني وتيمة (هل أمك هي أمك حقًّا؟).. إنها تيمة شهيرة ومفزعة.. والمعنى واضح: هل يأتي يوم يتحول فيه جيرانك وأهلك إلى شيوعيين؟

شريف:

هل تعني أن صناع هذه القصص كانوا يريدون قول هذا؟

رفعت:

لا بالطبع.. لقد قالوا هذا دون أن يعنوه.. لقد تحركوا لا شعوريًا في تيار الوجدان المحرك للمجتمع.. وقدموا أعمالًا فنية تكلمت تلقائيًا.. إن الشيوعيين خطر داهم على المجتمع الأمريكي.. لكنهم - وهذا المخيف - يبدون مثلنا بالضبط....

شريف:

هل ثمّة أمثلة أخرى؟

رفعت:

يقولون ـ مثلًا ـ إن قصص مصاصي الدماء تنتشر حين يسود الرخاء والاستقرار الاجتماعي.. في حين تسود قصص (الزومبي) و(المذوءبين) في فترات القلاقل والتضخم والثورات.. إن مصاصي الدماء في القصص يكونون متأنقين أثرياء وراقين إلى حد كبير.. أمّا المذءوب فهو رمز للطبقة العاملة المطحونة.. وكذلك الزومبي هو في وضع اجتماعي أكثر سوءًا...

قصص الأشباح تزدهر كلما ازداد الواقع ضيقًا وبؤسًا.. فهي وسيلة لا بأس بها للفرار من الواقع..

شريف:

هل الرعب هو فقط مصاصو الدماء والمذءوبون والأشباح والبيوت المسكونة؟

رفعت:

بالطبع لا.. إن الخيال الإنساني وغد لا يهمد أبدًا.. وحيث يوجد خيال يوجد خوف.. والرعب يبدأ معنا منذ ميلادنا.. هل تذكر جولة المعلم بين الصفوف في المدرسة الابتدائية ليختار طلبة عشوائيين، يسألهم سؤالًا عسيرًا؟ العصا في يده.. وخطواته تدنو منك.. وأنت تحاول ألا تنظر نحوه حتى لا يراك.. إنّه يدنو.. قلبك يوشك على التوقف.. وفجأة تشعر بيده الغليظة على كتفك.. وصوته الصارم يقول: والآن لنر ما سيجيب به هذا الحمار!!

شريف:

يا للهول يا د.(رفعت)! إنك قد أعدت لي الرعب من جديد!

رفعت:

هكذا ترى أن الرعب ليس هو بالضرورة المومياوات العائدة للحياة..

شريف:

أنا أتحدث عن الرعب الميتافيزيقي أساسًا..

رفعت:

حتى هذا الرعب له أبواب لا تنتهي.. أبسطها ما تشعر به حين تعود لدارك ـ وأنت تعيش وحيدًا ـ لتجد أن جهاز التلفزيون مفتوح أنت تعرف جيدًا أنك أغلقته قبل خروجك! عندها تشعر بهذه الرجفة الغامضة.. وتغمغم في قلق: ثمّة شيء ما يحدث هنا!

شريف (في قلق):

الواقع أنني مستمتع بهذا الحديث.. لكننا بانتظار المكالمة الهاتفية الأولى.. ولا أدري لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟ إن المستمعين لم يألفوا البرنامج بعد، لكنهم سيتسابقون بعد قليل على

الاتصال.. ثق بهذا...

رفعت (في استرخاء):

أنا لست قلقًا.. مادمت سأنال أجري في جميع الظروف..

شريف:

دعني أسألك يا د. (رفعت).. يقولون إنك إنسان ملول حقًّا.. وتكره الإصغاء إلى ثرثرة الناس.. فكيف قبلت أن تأتي معي ها هنا؟

رفعت (يضحك):

أنا كما قلت.. لكني وجدت فيك أشياء كثيرة أفتقر إليها يا (شريف).. فأنت شاب ووسيم.. ولامع.. إنك ذلك الشاب الذي كنا نراه مرسومًا في كتب القراءة القديمة، بنظافته وشعره المصفف وأظفاره المقلمة وجلوسه معتدل الظهر على (القمطرة).. ثم إنك متحمس.. وأنا لا أفهم كيف يتحمس الناس لأي شيء.. لهذا كان أقوى مني أن أرفض عرضك.. فأنت مخلوق جدير بدراسته كخلد الماء وذبابة (تسي تسي)..

شريف:

لا أدري أهذا مديح أم سباب أقاضيك عليه.. لكنى أشكرك على كل حال.. بالمناسبة: ما هي (القمطرة)؟

رفعت:

يبدو أنه المكتب.. كانت كتب القراءة القديمة تحتم أن (تضع الحُلة فوق المشجب) و(تضع القرطاس فوق القمطرة).. ثم (تتبلغ ببعض الخشنكان).. أي تأكل البسكويت!

شريف:

لا أدري.. هل ستكون الحلقة الأولى كلها حوارًا بيننا؟ إنني أنتظر المكالمة الأولى بفارغ الصبر، وأعتقد أنها لن تأتي اليوم.. ربما....

(صوت رنين الجرس المُلِح).

لحسن الحظ! الحمد لله على أنّ هناك واحدًا ساهرًا في الجمهورية.. آلوه؟

صوت فظ:

لقد فعلتها!

شريف:

فعلت ماذا بالضبط؟

الصوت:

كل ما أمرت به! كان صراخهم شنيعًا لكني لم أرحمهم!

شريف لـ (رفعت):

تبدو بداية طيبة حقًّا.. مارأيك؟

رفعت (في ملل):

إنني لشديد الحماس.. لكني لا أعرف كيف أظهر حماسي..

شريف:

هلًا عرفنا من المتكلم من فضلك؟

الصوت:

كيف؟ ألا تعرفني يا (جودة)؟

شريف في (امتعاض):

(جودة)؟

الصوت:

أنا الحاج (ششماوي).. لقد كسبت القضية.. ولن أتنازل عن حقي مهما حدث.. كما أمرتني بالضبط.. إن الحلوان عندي.. فقطعة الأرض هذه....

شريف:

لحظة.. لحظة.. يا حاج (ششماوي)! الرقم خطأ.. هذا رقم الإذاعة.. إننا.....

الحاج:

معذرة.. فصوتك هو صوت (جودة) بالضبط.. كليك!

شريف (في خيبة أمل):

ظننت أننا سنبدأ العمل.. ليست قضايا الأراضي ملائمة لهذا البرنامج.

رفعت:

كل يبكي على ليلاه.. وبالتأكيد يتساءل الرجل عن سر بقاء هذا المجنون ساهرًا بعد منتصف الليل مادام ليس هو (جودة)..

(رنين الهاتف من جديد)..

شريف:

عسى الا يكون هو من جديد... آلو.. برنامج (بعد منتصف الليل).. هل تريد سرد مشكلتك للدكتور (رفعت إسماعيل)؟

صوت طفل:

أمس جاءت طانط (ناني) عندنا.. وكان (ميدو) معها!

شريف (في رقة مصطنعة):

من تريد يا صغيري؟

الطفل:

لقد سرق (ميدو) مسدسي.. لكني ركلته في مؤخرته..

شريف:

آلو! ضع السماعة حالًا أيها الطفل المتشـ..... يا صغيري العزيز!

صوت امرأة:

معذرة يا أستاذ.. عيب يا (زيزو)! معذرة يا أستاذ.. فابني لا يأكل إلا إذا تركت له الهاتف ليعاكس من يريد.. ويختار أرقامًا عشوائية!

شريف:

لا عليك.. إنّه يملك حاسة إعلامية لا بأس بها... (كليك)..

رفعت:

ربما كان تركه ليموت جوعًا حلًا أكثر إغراء.. إن بعض الأطفال يكونون مرعبين أكثر من كل ما ننوي الكلام عنه...

شريف (في ضيق):

مكالمتان خاطئتان! إن هذا يفوق قوانين المصادفة..

رفعت:

لا شيء يتم بسهولة معي أبدًا.. ولعل كوني أتوقع الأسوأ دائمًا قد جعل الحياة بالنسبة لي حشدًا من المفاجآت السارة! فالأمور لم تكن بهذا السوء الذي حسبتها به قط..

(رنين جرس الهاتف)..

شريف (متوجسا):

هذه المرّة.. هذه المرّة.. لو لم يكن مستمعًا فلسوف تنهار أعصابي.. آلو! من يتحدث؟

صوت امرأة:

أنا (نهلة).. أليس هذا برنامج (بعد منتصف الليل)؟

شريف (يتنهد):

بالتأكيد يا سيدتي..

نهلة:

أحاول الاتصال منذ عشر دقائق كاملة دون جدوى..

شريف:

كانت هناك مكالمتان قبلك كما تعلمين.. لا بد أن المذياع جوارك؟

نهلة:

للأسف لا.. هل د. (رفعت) معك؟ أخبرني البواب أنه هنا..

شريف:

حتمًا.. إنّه يسمع ما تقولين..

نهلة:

قل له إنّه نسي صنبور الماء مفتوحًا، وأغرقت المياه شقته! لقد اضطررنا إلى تهشيم باب الشقة.. أنا زوجة الأستاذ (زكريا) ساكن الشقة السفلى.. كليك!

شريف (في نفاد صبر):

هل ترى أن تذهب لتنقذ سجادة الصالون؟

رفعت:

لا داعي.. لقد فات الأوان.. وهم قد اقتحموا الشقة لإغلاق الصنبور.. فلا فائدة من إفساد البرنامج...

شريف:

يخيل إلى أنه قد فسد بالفعل.. إن النحـ....

(رنين جرس الهاتف)..

آلو! من معي؟

صوت امرأة:

هل هذا هو برنامج (بعد منتصف الليل)؟

شريف:

حتمًا يا سيدتي.. هل لي أن أعرف من أنت؟

المرأة:

لا أنوي الإفصاح عن ذلك.. إن اسمي لا يعني أحدًا سواي.. وعلى كل حال يمكنني أن أحكي قصتي مباشرة...

شريف:

كلى آذان مصغية.. وضيفنا كذلك....

المرأة:

حسن.. تبدأ القصة كما يلي....

* * *



الحلقة الأولى

الزوج الذى عاد

تحكيها : مجهولة الاسم

الحلقة الأولى
(الزوج الذي عاد)

تحكيها مجهولة الاسم

«لقد ارتكبنا خطأ جسيمًا يا سيدتي.. خطأ من النوع الذي لا يكفي الندم لإصلاحه.. خطأ لا يكفي إغلاق نوافذنا وأبوابنا ليلًا كي نتفادى عواقبه!»

المرأة:

أصارحك القول يا أستاذ (شريف) إنني خائفة..

شريف:

أرجو أن تتجاهلي وجودي وتوجهي الحديث إلى د.(رفعت) مباشرة.

المرأة:

حسن.. أنا خائفة يا د. (رفعت).. إنّه ذلك الخوف الذي لا يوجد مصدر عقلاني له.. فحينما تخشى الفئران تربي قطًا.. وحينما تخشى اللصوص تغلق نوافذك أو ترخص مسدسًا.. لكنّ حينما يكون خوفك غير ذي وجود مادي يكون اجتنابه شبه مستحيل..

رفعت:

أفهم تمامًا ما تقولين يا سيدتي.. إن الخوف من الغد مثلًا لا حل له..

المرأة:

هكذا أنت تفهمني.. والآن أحدثك عن نفسي بشكل أفضل.. أنا امرأة في الأربعين من عمري حاصلة على شهادة متوسطة.. ومتزوجة منذ عشر سنوات.. لكني لم أرزق أطفالًا..

رفعت:

يبدو لي أسلوبك في الكلام مثقفًا.. إنك تعرفين جيدًا ما تتحدثين عنه..

المرأة:

لأنني علمت نفسي بنفسي.. ولا تنس أن (العقاد) لم تكن معه شهادات سوى الابتدائية.. إن التعليم يختلف كثيرًا عن الثقافة.. والذكاء يختلف كثيرًا عن كليهما..

لقد تزوجت في الثلاثين من عمري.. كان عليّ أن أعني بأمي وشقيقاتي...

إنها تلك القصة المكررة دائمًا: الأم العجوز لا تكف عن نصح ابنتها بالزواج (لكي أطمئن عليك يا بنيتي قبل أن أموت).. والفتاة تقول في إباء وشمم ممزوجين بلذة استشهاد لا شك فيها:

(لا أريد الزواج يا أمي.. فلا ينقصني شيء).. لكنها تعرف أن أمها تعرف أنها لا تعني ما تقول..

وأنها قلقة.. وأنها تشعر بشمعة العمر إذ تحترق..

إن البنات لا يقلقن على تأخر زواجهن بسبب حاجة فسيولوجية معينة أو خوفهن من العنوسة أو شوقهن للأمومة.. أعتقد أنهن يقلقن لسبب واحد يا د. (رفعت).. هو رؤيتهن لصديقاتهن يتزوجن واحدة تلو الأخرى..

هل تعرف ذلك الشعور الممض؟ لحظة استلام بطاقتك من السجل المدني أو استعادة كراستك في المدرسة الابتدائية؟ الصوت ينادي واحدة تلو الأخرى.. الكل يسترد أوراقه.. تدريجيًا تجد نفسك واقفًا وحدك بانتظار من يناديك بدورك.. ذلك القلق الرهيب والشعور بأنك قد سقطت سهوًا من فوق مائدة الحظ.. وأن أحدًا لن يبحث عنك تحتها!

هل تفهمني؟ لكم من حفل زفاف حضرت! وكم من صديقة فارقت.. كأنني أشيع جنازتها وأعود منهكة من قبرها.. لكنّ عزائي الوحيد كان دائمًا هو أنني اخترت ذلك بمحض إرادتي..

وفي الصباح كنت أعمل سكرتيرة براتب ضئيل في مكتب حكومي.. حيث لا أفعل أي شيء ولا أنال أي أجر على هذا (اللاشيء)..

وفي المساء كان البيت ولا شيء سواه.. أعمال البيت والمذاكرة لأخوتي.. و(قزقزة) اللب على الأريكة أمام شاشة التلفزيون جوار أمي...

وغدًا يوم آخر... ليس أكثر مللًا ولا أقل..

ثم ظهر الحاج (صبحي)..

إن الاسم مزيف طبعًا..

رجل في الخمسين من عمره طبعًا.. تاجر يكسب كثيرًا دون أن يكلفه الأمر سوى بعض المكالمات الهاتفية والشجار بصوت عالٍ.. ويبدو أنه بدأ حياته مع هؤلاء الذين يزايدون في المزادات دون نية شراء حقيقيّة.. ومن ثم يبادر الخصوم إلى دفع حلوان له كي يتركهم وشأنهم... أردت أن أقول لك إنّه قادر على المتاجرة بكل شيء وأي شيء..

رآني الحاج ـ الذي لم يتزوج بعد لانهماكه في الإثراء ـ في أثناء زيارته لمكتبنا الحكومي.. هنا يجب أن أعترف لك يا د.(رفعت) بأنني لست قبيحة.. إنني من النوع الذي يصفونه في إعلانات الزواج بـ (سمراء ملفوفة القوام حاصلة على مؤهل متوسط، وتقدس الحياة الزوجية)..

رفعت:

أعرف هذا السخف.. ولا أدري كيف يكتب رجل محترم عن نفسه أنه (أبيض اللون مثقف)؟!

المرأة:

كان لا بد أن يقع الرجل في هواي.. كلهم يفعلون هذا ثم يحجمون.. كانوا في البداية يحجمون لأنّهم يعرفون أنني سأرفض.. ثم صاروا يحجمون لأنّهم لا يعرفون سر عدم زواج فتاة لا بأس بها حتى سن الثلاثين.. لكنّ الحاج كان يعرف ما يريد بالضبط...

ولم ألبث أن وجدته في صالون دارنا المتواضع.. ولم يكن سيئًا إلى هذا الحد.. فهو لا يرتدي جلبابًا أو يبصق على السجادة على الأقل.. كما أنه لم يكن يستعمل السباب أكثر من اللازم.. لم يكن يبدو كفرسان الأحلام طبعًا.. ولم يكن يركب حصانًا أبيض لكنه يركب سيارة فاخرة.. ثم.. أنت تعرف كيف تتم أمور كهذه.. يسموّنه (النصيب).. وأنا لا أجد اسمًا أفضل للحظة تخلي الفتاة عن إصرارها على الرفض.. لا بد من لحظة ما.. ولا بد من شخص ما يكون موجودًا في هذه اللحظة.. هذا هو نصيب الفتاة..

شريف:

معذرة على مقاطعتي إياك.. لكنّ لو كنت تظنين هذا برنامج (رسالة)[2] الخاص بالمشكلات الاجتماعية فنحن.....

رفعت:

دعها تتكلم يا (شريف).. إنها تضعنا في الجو.. ولا أعتقد أنك ستجد من يبدأ مكالمته قائلًا: إن هناك مصاص دماء في حمام شقتي..

المرأة:

ربما أطلت الكلام.. وإنني لأعتذر.. المهم أننا تزوجنا.. وأننا عشنا حياة لا بأس بها أبدًا.. لم يبخل بشيء وبر بوعده في رعاية إخوتي ووالدتي.. فقط لم يرزقنا الله بأطفال..

وككل رجل شرقي أبى كبرياؤه أن يسمح له بإجراء الفحوص اللازمة، وكنت أنا الضحيّة التي يمكن إرغامها على إجراء كل شيء عرفه الطب ولم يعرفه.. صرت فأر تجارب لا يمرّ على يوم دون إجراء نفخ أنابيب أو أشعة على الرحم أو.. أو....

بدأ يتحدث عن الزواج من جديد.. بدأ يتحدث عن قطار العمر الذي يجري دون طفل يحمل اسمه (كأنه اسم طارق بن زياد).. بدا يتحدث عن حاجة المرء إلى ابن يقف إلى جواره في شيخوخته ليتهمه بالعقوق...

وكانت أمي هناك...

وبالطبع كانت لنا زيارات عدة إلى ألعن مجموعة من النصابين ذوي (السر الباتع) إياهم.. كلهم ملتحون يجلسون في قاعة يفعم البخور هواءها.. وكلهم يتحدثون عن (عمل) مدفون على عتبة داري أو في حشية فراشي أو في مقبرة ما.. مبالغ طائلة حصلوا عليها مني دون جدوى..

وبدأ نفور زوجي يزداد.. مأمورياته وصفقاته التي تستدعي السفر تتزايد ولم أكن بحاجة لذكاء كبير كي أعرف أنه ـ غالبًا ـ قد تزوج..

ماذا أفعل؟ لا شيء... إن البكاء صامتة في دورة المياه لهو العلاج الحاسم للمقهورين وغير القادرين على الإيذاء أو اتخاذ رد فعل إيجابي.. وعلى كل حال لم يغير معاملته الماديّة الشريفة لي..

ثم جاء اليوم الموعود...

رفعت:

يبدو أن القصة ستبدأ هنا..

المرأة:

كنت أعرف أنه يمرّ بمشاكل ماديّة طاحنة.. يبدو أن مشاكله الأسرية قد جعلت حاسة الكسب عنده أقل رهافة.. وقد خسر كثيرًا جدًا في فترة قصيرة حتى إنني سمعته ينهنه في دورة المياه ذات ليلة.. فعلمت أنّ هذه الدورة تحولت إلى نوعٍ من (حائط المبكى) لكل أفراد الدار..

كان عصاميًا.. ولأنه عصامي كان ينفر من مصارحة امرأته بشيء.. ولم يكن يطلب رأي أحد أو عون أحد.. لم يكن يثق سوى برأيه هو...

وبعد أسبوع واحد سافر إلى الإسكندرية..

كان هذا هو اليوم الأخير له على ظهر الأرض..

لم يجدوه في أي مكان.. كانت بذلته على الرمال.. وقال أكثر من شاهد أنهم رأوا رجلًا يجتاز المياه في الظلام برغم الأمواج العاتية.. واجتاز البراميل غير عابئ بصرخات المنذرين.. بعدها لم يروه ثانية.. وعاد لي أحدهم بالبذلة.. و.. (تهانف).. إهئ!

رفعت:

أ.. حسن.. هل ترين أن نرجئ المكالمة إلى أن؟ إن دموع الأنثى هذه....

المرأة (تسترد أنفاسها):

لا.. لا.. لا داعي.. لقد وجدوا خطابًا في جيب البذلة يخبرهم من هو ويقول: إغفري لي يا (....) فقد فاضت بي الديون.. أعلم أنني أترك لك عبئًا مهولًا أعانك الله عليه.. اتصلى بالمحامي وهو سيخرجك من هذه الورطة..

وبعد ما تلقّيت العزاء واكتشفت أنني أبدو فاتنة في الثياب السوداء؛ وبعدما عدت إلى بيت أمي ـ كالعملة الزائفة ـ اتصلت بالمحامي، وكان رأيه قاطعًا بخصوص بيع منزل زوجي.. لكنّ المشكلة

كانت أكبر مما تصورت.. فأملاك زوجي لا يمكن حصرها.. ومن المستحيل أن أعرف ما آل إليّ بالوراثة وما آل لزوجته الأخرى إن وجدت..

وقضيت والمحامي ساعات سوداء ننقب في أوراق زوجي الفقيد، وفي مكتبه بوسط المدينة..

إن عقلي غير معد لأشياء كهذه.. ولم أتصور قط أن كل هذه العقود وكل الشروط الجزائية وكراسات الشروط يمكن أن توجد في مكان واحد.. وعليّ أنا بالذات أن أجد دربي وسط كل هذا..

لهذا تحولت إلى طفلة مذعورة ترمق بابا المحامي في لهفة وانبهار.. إن الرجل الذي يفهم هذه الأشياء لهو رجل قادر على كل شيء..

لكن المحامي لم يكن كُلّي القدرة كما ظننت..

قال لي متعبًا وهو ينزع عويناته:

- «لا شيء.. إن أهم الأوراق غير موجود هنا..»

- «والحل؟»

- «هل تعرفين له مقرًا آخر؟»

- «لا.. إلا إذا...»

وفكرت في زوجته الأخرى لو كانت هناك واحدة..

ربما كانت الأوراق عندها.. ولكن أين هي؟ ومن هي؟ لماذا لم تظهر حتى هذه اللحظة؟

ظللت أبحث شهورًا عن بصيص من نور دون جدوى.. زرت قريته ونمت في غرفته لأفتشها بدقة.. ليس الأمر طمعًا مني.. بل هو محاولة للفرار من الديون التي كبلني بها والتي لم يكف ثمن المنزل لسدادها.. كل ما وجدته لدى زوجي لا يكفي لسداد ربع ديونه...

واسقط في يدي..

لماذا لم يكتب كل شيء بالتفصيل في رسالة الانتحار هذه؟

شريف:

واضح أنه كان يحسب المحامي يعرف..

المرأة:

الله أعلم.. وربما هو يعابثني على سبيل دعابة قاسية أخيرة.. ربما كان في قبره بأعماق البحر يضحك هازئًا مني..

المهم أن المحامي جاءني بعد شهرين وقدم لي فكرة غير عادية..

رفعت:

تحضير الأرواح طبعًا!

المرأة:

كـ... كيف عرفت؟

رفعت:

القصة هكذا دائمًا!

المرأة:

إنك لشخص مخيف..

رفعت:

بل الحياة هي النمطية أكثر من اللازم.. لنعد لموضوعنا..

المرأة:

كان المحامي يعرف رجلًا من جمعية الأرواح المصرية.. قال لي إنّه موثوق به ويجيد عمله.. وإنه شخصيًا جربه في استحضار روح أبيه.. هل تؤمن بتحضير الأرواح يا د. (رفعت)؟

رفعت:

لا أدري.. كانت لي ثلاث تجارب فاشلة، واحدة منها مع نصاب يهودي.. لا أزعم أنني أنفي الموضوع أو أؤكده.. فنحن لا نعرف عن الروح سوى أقل من القليل.. أقول فقط إنني لم أر تجربة ناجحة قط.. إن النصابين في هذا المجال لم يتركوا مكانًا للصادقين.. لكني أعتقد أنك لست جديدة على مناخ السحر والسحرة هذا..

المرأة:

إن ما تقوله يخيب أملي.. كنت أحسبك مررت بألف تجربة على الأقل تعرف معها الحقيقة كاملة...

رفعت:

إن الروح من أمر ربي ولن يغير رأيي ولا رأيك هذه الحقيقة.. والآن هلا أكملت القصة؟ ربما كان لي رأي في آخرها..

المرأة:

كما قلت أنت: لقد اعتدت هذه الأجواء فلم أخشها كثيرًا.. صحيح أنني لا أجد سوى نصابين.. لكنّ تحضير الأرواح له جو راقٍ يختلف كثيرًا عن جو (الأعمال)، و(الهدهد المصاب بالبواسير)، و(شمهورش) المزواج الذي يهيم بكل حسناء تكثر من تأمل نفسها في المرآة..

ذهبت والمحامي بناء على ميعاد مسبق إلى منزل الدكتور (عدلي) في الهرم.. وهو رجل متأنق راق يوحي بالثقة.. تأملني في اهتمام وسألني عما أريده من الروح التي أطلبها.. فقلت له - بين مكذبة ومكذبة - إنني أبغي سؤال روح زوجي عن موضع أوراقه..

قال دكتور (عدلي) - وهو يداعب حبيبات مسبحة من العقيق - إنّه يمرّ بتجارب عديدة مماثلة.. فالموتى - للأسف - ينسون دومًا إن يضعوا أوراقهم في مكان ظاهر قبل الموت.. ثم سألني:

- «كيف مات الفقيد؟»

- «مات منتحرًا.. لم يكن هذا بسببي!»

قطب جبينه في شرود.. وتساءل وهو يداعب المسبحة:

- «هذا سيئ.. هل أنت مستعدة لتحمل تبعات تحضير روحه؟»

- «تبعات؟»

- «طبعًا.. إن أرواح المنتحرين تكون قلقة شرسة.. وأحيانًا تصر على البقاء.. ولو كنت كاذبة بصدد أنك لم تكوني سبب انتحاره فلسوف نعرف هذا بسهولة!»

- «حسن أنا مستعدة»

وعرفت أن تحضير الأرواح يتم بعدة طرق.. أشهرها أسلوب لوحة الحروف الأبجدية التي يتحرك فوقها كوب مقلوب... ويسمونها لوحة (الويجا).. ثم هناك طريقة الوسيط الذي يتكلم بلسان الفقيد ويرد على الأسئلة.. وطريقة الزجاج الأسود.. وطريقة السلة.. ومشكلة طريقة السلة هي أنها سهلة إلى حد يجعل الكثيرين يجربونها في بيوتهم.. الأمر الذي يرى د. (عدلي) أنه شبيه بمخاطرة تحضير قنبلة نوويّة في مطبخ الدار..

وكان الدكتور (عدلي) عاتبًا على الأستاذ (أنيس منصور) الذي كتب طريقة السلة بتفاصيلها في أحد كتبه[3]، مما جعل الكثيرين يجربونها في ديارهم جاهلين ما ينتظرهم من خطر مريع..

وكان رأى د. (عدلي) هو أن أسلوب الوسيط هو الأمثل.. فهو يجعل الروح والمتلقي على اتصال مباشر.. هل لدي اعتراض؟ لا؟ إذن لنبدأ الآن.. وقد كان.. وفي مساء الثلاثاء ٢٣ سبتمبر بدأت التجربة..

أظلمت الأضواء فيما عدا ضوءًا أحمر خافتًا.. وأدار أسطوانة هادئة الموسيقا.. وأشعل عودًا من البخور جعل الضوء الأحمر نفسه ذا رائحة...

وجلسنا - نحن الثلاثة - حول منضدة صغيرة...

وراح د. (عدلي) يتلو بعض الآيات القرآنية.. ثم أغمض عينيه.. وهمس مرددًا اسم زوجي مرارًا.. بعدها ساد الصمت..

كان ينتظر قدوم الروح..

(شريف) (في حماس):

ألم تشعري بالذعر؟

المرأة:

إن الجو المقبض يحرك الخيال.. لكني كنت واثقة أن شيئًا لن يحدث.. ولو حدث فهو خدعة.. مثلما يحدث دائمًا.. شريط تسجيل.. كلام من البطن.. شخص مختف في المكان يتكلم.. أي شيء..

رفعت:

لاتقولي إنك وجدت شيئًا من هذا...

المرأة:

بتاتًا.. يبدو لي الرجل صادقًا.. لقد فشل على كل حال! ولو كان نصابًا لكان نجاحه في تحضير الروح مؤكدًا..

رفعت:

ماذا تقولين؟ فشل؟! لم أتوقع هذا..

المرأة:

هذا ما حدث.. لقد مر وقت طويل علينا.. هو يهوم رأسه يمينًا ويسارًا في حركة تشبه النوم..

رفعت:

يسمونها الـ (ترانس)...

المرأة:

أيًا كان اسمها.. رأيت وجهه يتقلص.. العرق يحتشد على جبهته.. عيناه انفتحتا لكنّ حدقتيه لم تكون هناك.. كانتا في مكان ما أعلى محجريه..

أي أنني رأيت عينين بيضاوين تحدقان فيّ بإصرار..

ثم إنّه صرخ من بين أسنانه.. وقال: إن الروح تأبى أن تستجيب لي.. إنها ذائبة في الأثير.. أو شيء من هذا القبيل..

رفعت:

كلهم يقولون هذا..

المرأة:

كان الأمر واضحًا بما يكفي.. ورحت أتأهب للنهوض، حين سمعت صوت مقعد يتحرك في طرف الغرفة.. مقعد يتحرك وحده..

عندها استرخي جسد د. (عدلي).. لم يسترخ تمامًا لكنه كف عن التشنج على الأقل.. وبصوت عميق متحشرج ناداني باسمي....

شريف:

أي أن الاتصال قد تم...

المرأة:

هذا هو ما حاول إقناعي به.. لا أدري هل تفهمني أم لا.. لقد كان الصوت عامًا جدًا.. شائعًا للغاية.. الصوت الذي يمكن أن يصدر من أي حاج تجاوز العقد السادس من العمر.. يمكن أن يكون هو صوت زوجي الراحل ويمكن ألا يكون.. هذه مسألة تحتمل القولين...

رفعت:

ومحتوى كلامه.. ألم يدلك على شيء؟

المرأة:

قال لي إنّه لا يفهم سر استدعائي له.. فقلت له إنني أريد أوراق ممتلكاته..

قال لي إنّه يكرهني وإنه لا يرغب حقًّا في أن يخبرني بشيء.. ثم أضاف أنه مضطرب نفسيًا لأنّه وافد جديد على عالم الأرواح.. وبالتالي لا يبغي مزيدًا من الكلام...

وانتهت الجلسة فوجدت د. (عدلي) يعتدل.. ويعود تدريجيًا إلى طبيعته.. راح يجفف عرقه.. ويحل ربطة عنقه.. وأضاء الأنوار...

ثم قال: إنها أصعب تجربة اتصال يقوم بها في حياته.. لقد كان هناك شيء ما غير مفهوم يعوق الأمر.. كأن هناك من يعيده إلى الأرض باستمرار كلما حاول الابتعاد عنها..

ثم سألني: هل عرفت ما تريدين؟

قلت له: لا..

قال لي: كنت أتوقع هذا.. فالمنتحرون لا يتميزون بالمودة ولا لطف المعشر..

سأله المحامي عما إذا كان هناك ما يمكن عمله..

قال الرجل: علينا أن نكرر الجلسة مرارًا.. فلربما يلين الفقيد...

لم أجرؤ على مصارحته برأيي فيه.. إن النصابين هم أكثر الناس إيحاء بالثقة بالتأكيد.. وإلا فكيف ينجحون في عملهم؟

شريف:

وهل كررت المحاولة كما طلب؟

المرأة:

بالطبع لا.. إنّه يطلب خمسين جنيهًا في كل جلسة.. وهو ثمن أفضل الموت ولقاء زوجي مباشرة على دفعه.. لكنّ القصة لم تنته بعد..

بعد هذه الجلسة الفاشلة بثلاثة أيام كنت في بيت أمي.. كنت جالسة على الأريكة (أقزقز) اللب كدأبي أمام التلفزيون.. وكانت أمي غافية ـ ككل المسنين - جواري.. بينما نام إخوتي..

لابد أن منتصف الليل قد اقترب..

أنت تعرف يا د. (رفعت) هذا الشعور الغريب الذي ينتاب العصبيين.. الشعور بأن هناك من يراقبك.. تشعر به يتركز هناك في مؤخرة رأسك.. ويدفعك دفعًا إلى الالتفات.. وكان عليّ أن ألتفت إلى الوراء.. إلى الردهة التي تمتد أمام باب المطبخ...

عندها رأيت - لربع ثانية - رجلًا يرتدي منامة زرقاء، وهو يدلف إلى المطبخ ليتوارى عن عيني داخله!

في عصبية هززت أمي لتصحو وشعر رأسي ينتصب هلعًا:

- «ماما.. هناك شخص ما بالمطبخ!»

- «أحقًا! بسم الله الرحمن الرحيم!»

- «أقسم على هذا..»

- «و.. وماذا نفعل... ننادي الجيران؟»

لكنّ جزءًا من عقلي كان يردد باستمرار: أنت واهمة.. أنت ترين أشياء لا وجود لها ككل النساء.. لهذا قررت أن أرى بنفسي أولًا..

كانت سكين المطبخ على المائدة جواري.. لهذا تناولتها.. أنا لا أعرف كيف أقتل إنسانًا بسكين لكني تظاهرت أمام نفسي بأنني أعرف...

دخلت إلى المطبخ بخطوات حذرة.. ووالدتي ورائي.. وقبل أن أضغط زر الضوء الكهربائي عرفت أنني سأراه...

رفعت:

عمن تتحدثين بالضبط؟

المرأة:

زوجي طبعًا! أنا لا أتحدث عن فأر.. في البداية رأيت جسده المظلم واقفًا أمام الموقد.. ثم أضات النور فرأيت تفاصيله التي لن أنساها أبدًا.. رأسه الأصلع المحمر قليلًا بفعل الشمس.. وشعره الأشيب على جانبي رأسه.. وشاربه الكث الأحمر كصلعته.. ومنامته الزرقاء المميزة.. والعرق الأبدي على جبهته.. كان ينظر لي دون أن يدير وجهه نحوي..

لا أدري كيف أعبّر عن...



رفعت:

تريدين القول إنّه كان في وضع (ثلاثة أرباع خلفي) كما يقول المصورون..

المرأة:

تبًّا لمصطلحاتك هذه! لم يكن الوضع يسمح بعمل دراسة عن جماليات الكادر.. كان هناك فحسب.. وكان يتأملني في صمت ولوم..

فتحت فمي لأصرخ.. لكنه لم يعد هناك.. لم يعد أمامي سوى المطبخ الخاوي البائس.. وعرفت عندها أن أمي رأت ذات الشيء معي!

ولك أن تتخيل الآن كيف قضينا ليلتنا.. قضيناها متلاصقتين نقرأ القرآن ونرتجف ونتساءل عن سر هذا..

شريف:

هل انتهت القصة عند هذا الحد؟

المرأة:

بل كانت البداية.. البداية لتواجد مكثف له في كل مكان.. في الحمام.. في الصالة.. عند مدخل الشقة.. في غرفة النوم..

دائمًا هو هناك بمنامته الزرقاء ونظرة اللوم في عينيه الحمراوين.. ودائمًا لا يقول شيئًا تقريبًا.. وفي كلّ مرّة يختفي بذات الكيفية الدرامية...

كان يترك لنا الكثير من الهلع والصراخ والجنون..

وطلبنا آراء الكثيرين ممن يفهمون في هذه الأمور.. لكنهم كانوا هم الجهل مجسمًا أو الادعاء مجسمًا أو النصب مجسمًا..

إن أكثر الاقتراحات احترامًا كان أن نترك المنزل... ولكن إلى أين؟ لقد بعت شقته منذ زمن..

رفعت:

أفهم هذا.. إن هجر البيوت المسكونة لنوع من الترف لايصلح إلا للأثرياء.. أمّا هنا فالتأقلم هو الحل الوحيد...

المرأة:

ثم من قال إنّه لن يقتفي أثري حيثما ذهبت؟ لقد أحال حياتنا جحيمًا.. والأسوأ هو أنني ظللت عاجزة عن فهم سر متابعته لي.. لماذا هذا الوقت بالذات؟ ولماذا يرمقني بهذا اللوم؟ أنا لم أوذه في شيء.. أم أنه ليس من حقي أن أتألم لأنّه أذاني مرارًا؟

شريف:

لعلها تجربة تحضير الأرواح إياها؟ لعل د. (عدلي) لم يتمكّن من صرف الروح؟

المرأة:

ذهبت إليه واقترحت عليه شيئًا كهذا.. لكنه قال إنّه عاجز تمامًا عن تفسير الأمر.. وقال إننا يمكن أن نقوم بمحاولة جديدة لتحضير الروح.. بعدها يمكن أن نسأل الحاج عن سبب نقمته على...

وكانت التجربة الثانية مقنعة نوعًا....

لقد تحرك المقعد في مرحلة مبكرة.. وهذا يعني تواجد الروح في الغرفة.. وقد سألت الوسيط حين ناداني باسمي:

- «لماذا تطاردني يا حاج؟»

- «إنّه الانتقام!»

قالها بصوت وأسلوب قريب جدًّا من زوجي الراحل...

سألته وأنا أرتجف:

- «لماذا؟»

- «لأنك غبية حمقاء.. أغبى من رأيت في حياتي.. لقد كان كل شيء على ما يرام لي لكنك أصررت في غباء على...»

- «على ماذا؟»

- «على أن تعلمي!»

لم أفهم ما يريد قوله.. فسألته السؤال الذي كان يؤرقني كامرأة:

- «هل أنت متزوج من أخرى؟»

مرت هنيهة من الصمت.. ثم قال في هدوء:

- «لم أكن قبلها.. لكني بعدها فعلت!»

- «بعد.. بعد ماذا؟»

قال في غموض:

- «إن اللبنانيات يتمتعن بسحر غريب!»

ثم بلهجة عاتية الاتهام:

- «وأنت أفسدت كل شيء.. كل شيء!»

حاولت أن أستفهم أكثر لكنّ الوسيط أفاق من غيبوبته.. وعرفت وقتها أن الهدنة مع الروح قد انتهت.. ستعود الحرب سجالًا بيننا..

رفعت:

هل أنت تتحدثين من دارك الآن؟

المرأة:

نعم.. أنا جالسة في الصالة كعادتي.. أنتظر ميعاد الظهور اليومي.. لن يلبث أن يعبر الصالة بتؤدة أمامي.. أو يفتح باب الحمام ليخرج منه.. أو أراه واقفًا من وراء كتفي وهو يرمقني بذات النظرة.. إنّه كابوس لا يمكن الخلاص منه أبدًا..

رفعت:

وهل انتهت القصة عند هذا الحد؟

المرأة:

نعم.. لقد كانت الجلسة الأخيرة أمس فحسب.. وقد انغلقت كل الأبواب أمامي فلم يعد هناك سواك يا د. (رفعت).. هل يُمكنك أن تفتح لي ثغرة من النور؟

رفعت:

لا أدري هل أستطيع أم لا.. لكنّ هذه القصة تذكرني بخبر قرأته في الجرائد منذ شهر أو أكثر.. ربما في الأسبوع الأخير من سبتمبر.. متى قلت إنك قمت بجلسة التحضير الأولى؟

المرأة:

الثلاثاء.. ٢٣ سبتمبر.. لن أنسى هذا التاريخ أبدًا..

رفعت:

حسن.. الخبر كان عن وفاة مصري مجهول الشخصية في (بيروت).. وجدوه ميتًا في فندق واتضح أن بيانات هويته مزورة.. كانت هناك صورة للمتوفي.. صورة لن أنساها لأنّها تشبه صديقي الدكتور (محمد شاهين) - أطال الله عمره - إلى حد كبير.. رأس أصلع وشارب كث وشعر أشيب ثائر على جانبي الرأس.. هل يذكرك هذا الوصف بشيء؟

المرأة:

لا أعتقد..

رفعت (بغيظ):

ألم تذكري هذه الصفات منذ ثلاث دقائق حين وصفت زوجك؟!

المرأة:

أه! لكنّ زوجي مات قبل هذا التاريخ بشهور...

رفعت:

هذا هو بيت القصيد.. والآن أفسحي خيالك وصدرك لما سأقول.. زوجك يمرّ بضائقة مالية لكنه تاجر بارع راضٍ عن نفسه.. تاجر غير مثقف لا يمكن أن يشعر بالاكتئاب.. الثقافة والاكتئاب والانتحار أشياء من عالم واحد.. وزوجك لا ينتمي لهذا العالم بالتأكيد.. إنه ليس ممن ينتحرون تحت أية ظروف..

لم يجد أحد جثة زوجك.. أوراقه المهمة مختفية.. ماذا نجد في كل هذا؟ نجد أنه قد فر بعيدًا عن مسئولياته ودائنيه بعد ما أقنع الجميع بانتحاره...

إلى أين ذهب؟ لقد تحدث - وهو شبح - عن (لبنان).. كل الفارين يهربون إلى لبنان ولا أدري لذلك سببًا.. يمكننا القول دون خطأ كبير إنّه فر إلى (بيروت) ليبدأ حياة جديدة.. ومعه بالتأكيد ما يلزم لبدء تجارة جديدة ناجحة.. ألم تقولي إنّه يتاجر بكل وأي شيء؟

المرأة:

بلى.. ولكن هذا عسير التصديق.. و.. وجلسة تحضير الأرواح؟

رفعت:

ألم تفهمي بعد؟ أنت حين ذهبت لبيت د. (عدلي) مع المحامي لم تعرفي ما ستقومين به.. لقد وجد الرجل عسرًا شديدًا في استحضار الروح في البداية.. لم يجدها.. ثم بعد قليل جاءت الروح وكانت مرتبكة مذعورة...

ما معنى هذا؟

معناه ببساطة أنكم قمتم بتحضير روح شخص مازال حيًّا!

شريف:

يا للهول!

المرأة:

هذا.. هذا جنون!

رفعت:

ربما.. لكنّ ما حدث بعد ذلك يستحق وقفة.. ففي أحد فنادق (بيروت) هوى رجل في العقد السادس من عمره ميتًا دون سبب واضح.. إن النوبات القلبيّة تفسير جاهز مناسب دائمًا.. لكنهم لو تأكدوا من لحظة الوفاة لوجدوا أنها في مساء اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر!

لقد انتزعتم روح الرجل منه لتسألوها عن مكان الأوراق.. ولن يدهشني أن يكون الرجل حاقدًا عليك لأسباب واضحة!

المرأة:

يا للهول! تعنى أنه كان حيًا لحظتها؟

رفعت:

كان.. في بداية الجلسة.. لكنه لم يعد كذلك في نهايتها.. لقد ارتكبتم خطأً جسيمًا يا سيدتي.. خطأً من النوع الذي لا يكفي الندم لإصلاحه... خطأً لا يكفي إغلاق نوافذنا وأبوابنا ليلًا كي نتفادى عواقبه!

شريف:

هل أنت واثق من هذه النظرية يا د. (رفعت)؟

رفعت:

هذا يتوقف على صدق المعطيات التي بين يدي...

المرأة:

و.. وماذا عساي أن أفعل؟!.. إن هـ.. هذا مخيف...

رفعت:

يمكنك استشارة د. (عدلي).. فهو المسئول عن وضعك في ورطة كهذه..

المرأة (في هلع):

د. (رفعت)! الغوث! أنا لم.... إنّه أمامي الآن!

رفعت:

زوجك؟ هل عاد؟

المرأة:

نعم.. نعم.. إنّه يقف أمامي.. يرمقني بتلك النظرة الثابتة التي... ابتعد عني يا (عباس).. أنا لست مسئولة عن شيء.. الخطأ خطؤك أنت!

رفعت:

لا أدري هل أنت تهلوسين أم لا.. لكني أنصحك بعدم البقاء وحيدة...

(صوت صراخ.. أشياء تنقلب):

إنها متمسكة بسماعة الهاتف.. هذا الإصرار يروق لي حقًّا!

(شريف) (في رعب):

هل يوجد ما يمكننا عمله؟

رفعت:

معلوماتي أن الأشباح لا تؤذي سوى المعنويات.. إن هذا الرجل يقودها إلى الجنون ببطء.. وهذا هو كل ما يقدر عليه.. لو تمالكت أعصابها قليلًا فقد...

المرأة:

د. (رفعت)! افعل شيئًا آآ.. إنّه لا يريد الرحيل... بل هو يدنو مني باستمرار وهو يشير إليّ بإصبعه.. إنّه يتهمني! لا أريد أن.. آه! الشرفة! إنّه يريد أن أتجه إلى الشرفة.. لا بد أنّ هناك ما يثير اهتمامه هناك.. هاها: لم لا؟ لا بد أن المنظر رائع من هناك!

رفعت:

لا تتهوري يا... عليك بإيقاظ أسرتك! إنّه يريد أن يغريك بالـ...

المرأة (في هستيريا):

ماذا بوسعك أن تفعل؟ أنت لست أنا.. هاها! ماذا بوسع أي واحد أن يفعل؟ هيهي! الشرفة! نعم.. أنا أتوق لاستنشاق هواء المساء.. وداعًا يا د. (رفعت).. لقد كانت معرفتك ممتعة حقًّا!

رفعت:

أرجوك لا! لا تفعلي! إنّه..... (كليك!)... لقد وضعت السماعة!

شريف:

هل.. هل تعتقد أنها ستفعلها؟

(رفعت) (في أسى):

أنا لا أعتقد.. أنا واثق.. إن مخايل الذعر الحيواني الذي يستحيل التعقل معه واضحة تمامًا.. ومن يدري؟ ربما هي تشعر بعقدة ذنب معينة...

شريف:

تعني تحضيرها لروحه؟

رفعت:

بل قبل ذلك.. من يدري؟ ربما لم تكن الديون وحدها هي سبب فرار الرجل.. إن أمثاله يهوون المواجهة وربما دخول السجن.. فهم يعتبرون السجن جزءًا لا يتجزأ من تجربتهم...

شريف:

إذن هي كاذبة بصدد معاملته لها؟

رفعت:

إننا لا نرى سوى أخطاء الآخرين.. كما أننا حين نقود السيارة لا نرى كشافاتنا أبدًا بل كشافات السيارات الأخرى.. وقد تعلّمت أن كل من يحكي مشكلة يضع نفسه في صورة الحمل المجني عليه عديم الأخطاء.. وبالتالي أعتقد أنها لم تكن حملًا إلى هذا الحد مع الذئب الذي هو زوجها.. إنها قادرة على تحطيم حياته وإشعاره بفارق السن بينهما وعجزه عن الإنجاب.. وحين فر منها ومن مسئولياته ظلت هي تفتش عن أمواله في نهم إلى حد تحضير روحه لتخبرها...

لقد تلقت درسًا قاسيًا على يد الزوج الذي عاد...

* * *



الحلقة الثانية

حكاية من المشرحة

يحكيها : د. عصام عبد القادر

الحلقة الثانية
(حكاية من المشرحة)

يحكيها: د. عصام عبد القادر

«في قاعة مظلمة تفوح فيها رائحة (الفورمول).. وعلى منضدة من مناضدها؛ يرقد ذلك الرجل وعيناه لا تفارقان وجهي.. أينما ذهبت.. شرقًا أو غربًا.. شمالًا أو جنوبًا..».

المقـدمــة

شريف:

ها نحن أولاء يا سادة نجتمع للقاء الرعب الأسبوعي مع د. (رفعت إسماعيل).. أرجو أن تكونوا ساهرين جوار أجهزة المذياع، وأن تتأكدوا من أن الأطفال قد ناموا.. لقد كانت حلقة الأسبوع الماضي الخاصّة بمصاصة الدماء في مدرسة البنات شائقة حقًّا[4].. لقد تلقّيت عشرات المكالمات تبدي إعجابها بها ـ الحلقة ـ ولكن الجميع ينسى أن نجاح هذا البرنامج لا يعود لنا.. بل لكم.. أنتم من تمدون...

رفعت (في ملل):

(أنتم من تمدون آلة الرعب بقصصكم لتعمل ولا تتوقف أبدًا).. اختصر يا (شريف).. اختصر.. لقد كررت هذه العبارة عشر مرات منذ الحلقة الأولى..

شريف (لا يخفى غيظه):

لكنها الحقيقة..

رفعت:

إن كون الشمس تأتي من الشرق لا يعني أن تذكر هذا طيلة اليوم.. وعلى كل حال نحن نثرثر بانتظار المكالمة الأولى.. هل قرأت ما نشر بالصحف أمس عن انتحار أرملة في (العباسية) بعد مرض نفسي طويل؟

شريف:

هل تعتقد أنها بطلة أولى حلقاتنا؟ لكنّ شهرين قد...

رفعت:

بالتأكيد لم تفعلها في تلك الليلة.. لكنّها فعلتها أول من أمس.. لم يختلف الأمر كثيرًا. الخبر يقول إنها زوجة تاجر انتحر بدوره منذ فترة بسبب الإفلاس.. وأنها لم تنجب.. وإنّها كانت تعيش في بيت أسرتها... لا توجد أرامل كثيرات بذات الصفات على ما أظن..

شريف:

ولماذا وكيف ظلت حية هذين الشهرين؟

رفعت:

لقد قاومت.. لكنّ حدودها تنتهي عند هذه النقطة... يا لها من مأساة...

(رنين الهاتف)..

يبدو أنّ هذا هو زبون الليلة...

شريف:

آلو؟ برنامج (بعد منتصف الليل).. هل لي أن أتعرف المتحدث؟

صوت شاب:

كيف حالك يا أستاذ (شريف)؟ أنا د. (عصام عبد القادر).. طالب بالسنة الرابعة من كلية الطب...

رفعت:

إنها عادة طلاب الطب العتيدة.. ما إن يخطو أحدهم إلى داخل الكلية بعد إنهاء دراسته الثانوية حتى يصر على تسمية نفسه (دكتور).. على كل حال.. مرحبًا بك يا دكتور.. لعلك واحد من تلاميذي؟

د. عصام:

بالواقع لا.. أنا من كلية أخرى....

شريف:

هلا بدأت السرد من فضلك؟

عصام:

إنها قصة تعود إلى السنة الأولى من كلية الطب. هل تذكر هذه السنوات يا د. (رفعت)؟ هذه النشوة والرهبة والفخر الداخلي.. وشعورك بأن الحياة قد اختارتك أنت دون سواك كي تخبر أسرارها.. إنّه ذلك الانبهار المجنون بلفظة جديدة ذات مذاق لاتيني حريف.. حينما تكف البطن عن أن تكون بطنًا وتتحول إلى Abdomen... وتتكلم بتلك اللغة الركيكة التي يستعملها طلبة الطب التي تمزج بين العربيّة واللاتينية.. وتتشدق بها في كل مكان حتى في الحافلة.. حاسبًا أن الناس يرنون لك في إعجاب..

رفعت (في سأم):

أفهم كل هذا.. صدقني..

عصام:

بالطبع كانت المشرحة هي المكان ذو الثقل الأعظم في نظرتنا للأمور.. فهي أول ما يثب لذهن الناس حين تتكلم عن دراسة الطب.. كنا نرمق اللافتة القديمة التي كتب عليها (المشرحة) في شوق وخوف.. هناك يكمن الموت بكل غموضه ورهبته.. وهناك الأجساد البشريّة التي تنتظره أن نفتحها لنعرف سر الحياة.. كل واحد فينا كان يعتقد أنه سيعرف كل شيء بمجرد أن يمد يده إلى الجثة.. وبغرور الشباب لم يسأل نفسه عن سر فشل كل من شرحوا الإنسان - من عهد (فيز اليوس) حتى اليوم - في اكتشاف سر الحياة.. إن الأمر يختلف معك.. لأنك هو أنت...

وجاء اليوم الموعود....

دخلنا القاعة الرطبة في رهبة.. كانت هناك فتيات معنا.. لكنّ أكثرهن تراجعن إلى الوراء بضع خطوات وقد تقلصت وجوههن في اشمئزاز..

رائحة (الفورمول) تعبق الجو.. وهي ألعن رائحة يمكن شمها.. وتأثيرها على العينين والأنف يوشك أن يكون قاتلًا لمن لم يعتدها...

وعلى مناضد متراصة متلاصقة رأيناها...

تلك الأشياء الرهيبة التي تجمدت في الأوضاع التي هلكت بها..

بدافع من كبرياء نواصل التقدم.. اللعنة على أول من يتراجع..

وناظرين إلى تلك الأشياء بدأنا - رويدًا - نفقد خشيتنا الأولى.. إن هذه الجثث تكاد لاتمت إلى الأحياء بشيء.. لقد جعلها (الفورمول) أقرب إلى تماثيل خشبية غامقة اللون يصعب أن تصدق أنها آدمية.. تماثيل هائلة الحجم من الصلصال البني..

وفارقنا ذعرنا.. وبدأنا نتخذ مقاعدنا ونتزاحم حول المناضد.. وقد تطوع أكثرنا حماسًا ورغبة في لفت الأنظار بأن يكون هو قائد المجموعة الصغيرة حول المنضدة.. وتناثرت كتب (كننجهام) هنا وهناك.. وبرزت المباضع.. ودوت المصطلحات اللاتينية التي اصطكها (فيساليوس)..

وعرفنا أن اختبارنا الأول قد تم بسلام...

شريف:

إنك لتثير خيبة أملي يا د. (عصام).. فلم أتصور الأمر بهذه السهولة..

رفعت:

كل الأشياء تبدو من الداخل أتفه مما هي في الخارج....

عصام:

لكني لم أنته بعد.. لم أنتظر منتصف الليل لكي أخبركم بمدى شجاعتي.. إن القصة أكثر تعقيدًا كما سترون بعد قليل... يجب هنا أن أحكي لكم ما حدث قبل تجربة المشرحة بعام أو أقل قليلًا.. وكل ما أرجوه ألا تلوموني بأكثر مما أستحق.. فأنا بشر...

كان هذا في إحدى ليالي الشتاء...

ربما كان الليل قد انتصف أو لم يحدث بعد... لا يهم...

كنت عائدًا من سهرة في دار أحد أصدقائي.. كان الوقت متأخرًا والليل باردًا إلى درجة لا تصدق.. وكنت أجد السير في الأزقة المظلمة لاها من الزمهرير.. وبخار الماء يحيطنى بهالة من الضباب جعل زجاج عويناتي كأنه مصنفر.. وبيد مرتجفة أضم طرفي الـ (بول أوفر) الذي أرتديه على صدري طالبًا بعض الدفء..

عابر سبيل اصطدمت به في الظلام...

لم يكن الموقف يستحق الاهتمام؛ وكان من الممكن أن يمرّ ببساطة.. لكنه سبّني بفظاظة.. وقال شيئًا ما عن الحيوانات العمياء..

حاولت أن أنهي الموقف محافظًا على كرامتي.. لكنه كان يسعى للشجار.. ربما كان غاضبًا حقًّا أو يبغي التحرش.. لا أدري..

كل ما هناك هو أننا اشتبكنا بالكلمات ثم باللكمات.. كان قويًا.. لكنّ عويناتي لا تعني أبدًا أنني فريسة سهلة.. فأنا كتلة من العضلات.. ثم إنني ألعب دور الحليم في كل أطوار حياتي.. فإذا غضبت..

لا أدري كم لكمة وجهت إلى أنفه وفكه وأسفل بطنه.. كل ما أذكره هو أنه تهاوى على ركبتيه.. ثم سقط أرضًا...

وحين عاد إليّ رشدي، انحنيت - وقد استحال غضبي فرقًا - لأتفحص جسده الممدد هناك.. لم يكن يتحرك.. إن الظلام دامس لكنه لا يتنفس.. لا أسمعه يتنفس.... هل هو....؟

رفعت:

بالطبع فررت دون كلمة واحدة..

عصام:

طبعًا.. استولى الذعر على فؤادي.. وانطلقت في الأزقة لا ألوي على شيء... الدموع تغمر وجهي والشعور بأنني فقدت أثمن ما في حياتي.. لقد فعلت ما لايمكن أن تظل حياتي بعده كما كانت قبله..

المهم أنني عدت إلى داري ولم أخبر أحدًا بحرف.. لكنّ وجه الرجل ظل يطاردني..

عيناه الحادتان.. شاربه المنمق الجميل.. شعر رأسه الفاحم.. الشامة الكبيرة على خده الأيسر.. نظرة التحدي الوقح العدوانية..

وفي الصباح والصباح التالي رحت أطالع الصحف في نهم بحثًا عن خبر ما عن العثور عليه.. شهر كامل.. عام كامل لم أكف فيه عن البحث.. لا شيء.. لهذا معنى واحد: الرجل لم يمت.. إنّه حي يرزق.. لكنه قطعًا سيكف عن التحرش بعابري السبيل...

وبدأت أنسى الأمر تدريجيًا.. لكنه بالتأكيد زارني في أحلامي مرارًا.. كنت أراه تارة برأس مهشّم.. وتارة ببطن مبقور.. فأنا لا أعرف كيف مات إن كان قد مات حقًّا...

وجاءت لحظة مواجهة المشرحة التي بدأت بها قصتي..

كنت جالسًا وسط زملائي أتامل صفحات كتاب (كننجهام) البراقة.. وأصغي لما يقول قائد المجموعة بصوته الرفيع المبحوح..

كان يشرح الساق.. لهذا لم أحاول قط - ولم أرغب - أن أرى وجه الجثة التي يتم الشرح عليها.. كنت متبلد الشعور بشكل غير عادي.. فلم تطف بخيالى تلك الخواطر المألوفة عن الموت والحياة.. كنت أشعر أنّ هذه الجثة مجرد جهاز تالف نفتحه لنرى كيف كان يعمل.. ولا شيء سوى الحظ يمنعني أنا من أن أكون الجثة ويكون المتوفي هو طالب الطب..

لكن طالبة حمقاء قالت شيئًا ما عن الرأس المصاب للفقيد.. فرفعت عيني في خمول وتأملت ما تتكلم عنه.. ثم عدت أتابع الشرح وأتفحص عضلات الساق..

مهلًا! لقد أثار شيء ما اهتمامي في هذا الوجه...

عدت بعيني إلى أعلى.. كان هناك رأس... لقد صبغه (الفورمول) بلون الصلصال القاتم لكنّ ليس عسيرًا أن تدرك أن المتوفى ذو شارب.. ذو شعر أسود فاحم.. وشامة على الخد الأيمن.. عيناه مفتوحتان تقولان إنّه كان ذا نظرات حادة شرسة..

وكان الرأس مهشّمًا عند الفود الأيمن..

- «معذرة!»

في أدب أزحت الجالسين حولي.. واتجهت متثاقلًا إلى النافذة.. كنت في حاجة إلى هواء نقي..

شريف:

هل تعني أنه هو ذات الرجل؟

عصام:

بالتأكيد هو.. لقد أسميته (العابر) في خواطري الخاصّة..

شريف:

لكن كيف؟ لا بد أن أهله استردوا جثته..

رفعت:

ليس دائمًا.. لو لم يكن يحمل أوراقًا وقت وفاته.. ولو لم يتعرفه أحد.. عندها يُعتبر ناقص الأهلية وينقل إلى مشرحة كلية الطب.. إن الاحتمال وارد للأسف..

عصام:

لم أكن أعرف هذا.. كان تأثير رؤيتي وجهه أقرب إلى تأثير المشي فوق كابل من كابلات الجهد العالي.. ولا بد أنكم تفهمون سبب ذلك..

(رفعت) (كمن تذكر شيئًا):

لحظة يا دكتور.. هل (عصام) هو اسمك الحقيقي؟

عصام:

بالطبع.. ولماذا تسأل من جديد؟

رفعت:

أحاول استنتاج نهاية القصة.. فلو كنت قتلته حقًّا لما ذكرت اسمك الحقيقي...

عصام:

وما يدريك؟ لعلى أعترف طلبًا للعقاب وتخففًا من سر أضناني؟ على كل حال لن أخبرك بنهاية القصة إلا حينما تحين نهاية القصة.. يقولون إنك سريع الملل يا د. (رفعت).. وعجول جدًا.. يبدو أنهم على حق..

رفعت:

إذن.. أكمل كلامك...

عصام:

لك أن تتصور مدى هلعي ورعبي.. لم أنم ليلتها ولا في الليالى التالية.. كنت هناك.. في قاعة مظلمة تفوح فيها رائحة (الفورمول).. وعلى منضدة من مناضدها يرقد ذلك الرجل.. وعيناه لا تفارقان وجهي.. أينما ذهبت.. شرقًا أو غربًا.. شمالًا أو جنوبًا..

دائما يرنو لي بتلك النظرة الحادة وعيناه لا تطرفان.. تقولان بصوت عالٍ برغم كونه غير مسموع: أنت قتلتني!

لن أحكي لك عن المرّات العديدة التي اقتحم فيها حجرة نومي ليوقظني من النوم.. وفي كلّ مرّة كنت أملأ الكون صراخًا.. ثم أهدأ.. وأعرف أنه لم يأت قط.. إنّه مازال ينتظرني هناك...

رفعت:

لا أتوقع أنك صرت من المتفوقين في علم التشريح؟

(عصام) (في سخرية مريرة):

من يتحدث عن التشريح؟ إنني لم أضع قدمًا في المشرحة لمدّة ستة أشهر كاملة.. وكنت أقضي ساعات الدرس في الكافتريا.. أدخن وأرمق السقف.. وأتعرف الفتيات لأحدثهن عن النظام المحكم المسيطر على هذا الكون..

رفعت:

لكن المشكلة قد انتهت سريعًا دون شك.. فالجثث لا تظل جثثًا..

عصام:

هذا حق.. فمع مرور الوقت يغدو التعرف مستحيلًا.. وتستحيل الجثة إلى قطع متناثرة في كل صوب..

كانت نهاية العام الدراسي قد دنت.. وجرؤت على دخول المشرحة فلم أر إلا أشلاء على كل منضدة.. فهذه ذراع تمزقت أوتارها.. وهذا قلب شقوه بالطول.. وتلك رئة.. وهذا شريان أورطي ملقىً كخرطوم قديم على منضدة التف حولها الطلاب متكالبين؛ كأكلة لحوم البشر حول (ليفنجستون) رحمه الله[5].

لم يعد (العابر) هنا.. وانتهت متاعبي..

رفعت:

سؤال يتعلق بالأخلاق.. لماذا لم تبلغ الشرطة بمخاوفك؟

عصام:

لم أكن واثقًا مما يحدث.. فهناك احتمال ألا يكون نفس الرجل.. وإذا كان هو فلربما لست المسئول عن وفاته.. ثم إن شخصًا حساسًا مثلي يمقت الشرطة ويهابها بالتأكيد.. سمه الجبن أو الهرب من المسئولية لو أردت.. لكني لم أفعل....

رحت جاهدًا أحاول اللحاق بما فاتني.. وحشرت في رأسي - كمن يحشر الثياب في زكيبة - مئات من أسماء العضلات والشرايين والأعصاب.. لكني كنت أصطدم بأشياء غير معتادة حقًّا...

فحينما كنت أدرس تشريح الرأس كنت أبحث جاهدًا عن رأس يصلح.. وأسأل العامل ـ مع نفحة مالية مناسبة لشراء الدخان - عن رأس في حالة معقولة..

(وكل عمال المشارح يخفون أشياء كهذه لمن يدفع ثمن الدخان لهم من الطلبة)..

عندها كان الرجل يهز رأسه في فهم.. ويخرج لي من الثلاجة رأسًا له شعر فاحم وشامة على خدها.. وله نظرة حادة!

اتفقت مع زميل لي على أن يقوم بتشريح الرأس ليغير معالمه تمامًا.. لكني عندما أدرس تشريح الساعد كنت أجد ساعدًا له شعر فاحم كث..

ولا يصعب عليّ استنتاج صاحبه..

لقد تضاعفت المشكلة.. فبعد ما كنت أهاب شيئًا واحدًا غدوت أهاب عشرات الأشياء المبعثرة هنا وهناك..

دعاني بعض الأصدقاء إلى جلسة في دار أحدهم.. وكان الهدف هو دراسة تشريح المخ.. وبالطبع يتم التدريس على مخ ابتاعه أحدهم من عامل المشرحة النهم إلى الدخان دائمًا.. كلهم يفعل هذا..

فما إن جلست وأخرجوا المخ من كيس بلاستيكي صغير؛ حتى أدركت أنّ هناك تهتكًا واضحًا في الفص الصدغي الأيمن..

- «لا بد أنّ هناك من ضربه على هذا الفص فقتله!»

قالها أحدهم وهو يمصمص شفتيه حسرة على ضياع ماله في عينة فاسدة كهذه.. أمّا أنا فقد وصلتني الرسالة كاملة..

واعتذرت لهم وغادرت المكان...

شريف:

الخلاصة أنه جعل حياتك جحيمًا...

عصام:

كنت أقضي اليوم حائرًا ما بين التفكير في هجر الكلية.. أو تسليم نفسي للشرطة.. أو الانتحار.. لقد كان انتقام (العابر) كاملًا محكمًا..

ثم.. أذكر تاريخ ذلك اليوم جيدًا...

كنت في المشرحة أعوض ما فاتني.. وكان الوقت عصرًا وهو وقت هادئ مناسب جدًّا للتحصيل.. إن العامل يبقى المكان مفتوحًا إذا أنت راعيت حاجته للدخان...

رفعت:

كل هذه الأموال الطائلة من أجل الدخان! حتى لو كان يدخن سيجار (هافانا) فلا أحسبه بحاجة إلى هذا المال...

عصام:

لا أدري كيف مر الوقت.. لكنى أفقت من تركيزي لأدرك ـ فجأة ـ أنني وحيد جدًا.. والمكان صامت جدًا.. والضوء قد بدأ يخفت حتى ليدخل في دائرة الظلام...

انتابني القلق.. لم لا؟ إن شيئًا ما غير مريح في كل هذا..

واتجهت إلى الباب وناديت العامل مرة أو مرّتين فلم يرد...

امتدت يدي في قلق إلى المقبض.. جربت فتحه.. عندها أدركت أن حدسي كان صائبًا.. لقد سجنت ها هنا!

لا بد أن العامل كان شارد الذهن.. أو ذهب ليبتاع بعض الدخان.. المهم أنه أوصد الباب بالمفتاح..

وهأنذا وحدي في هذا المكان المريع بانتظار الظلام!

إنّه لموقف رهيب نوعًا بالنسبة لأي طالب آخر. أما أنا فلست كالآخرين.. أنا أعرف ما يوجد في هذا المكان جيدًا...

لقد سنحت له الفرصة أخيرًا ولن يتركها...

وقف شعر رأسي حينما سمعت صفيرًا.. ثم صريرًا..

ثمة ما يتحرك في هذه القاعة..

نهضت كالملهوف وضغطت زر الضوء.. الضوء الحكومي الشاحب ينبعث ملولًا من مصباح واهن معلق في السقف..

كانت المناضد كما رأيتها صباحًا وعليها الأشلاء.. من المستحيل تبين ما كان يخص (العابر) منها وما لم يكن له..

هنا حدثت الطامة الكبرى....

لقد انقطع التيار الكهربي..

وكان الظلام قد توغل إلى حد جعل الرؤية مرهقة بالفعل.. لكنّ الهلع الذي استبد بي جعلني أرى آلاف الأشياء في هذا الظلام...

رأيت ذراعًا مخلبية تتحرك على الأرض صوبي..

رأيت عينين حادتين ترمقاني في حقد وتحد..

رأيت شاربًا أسود يتحرك ذاتيًا على الجدار..

انتهى التعقل وجاء وقت الجنون.

ودون كلمة ولا صرخة اندفعت نحو النافذة...

كانت المشرحة في الطابق الثاني لكني لم أبال..

وثبت من النافذة وثبة حصان جموح.. ونجحت الأشجار في تخفيف سقطتي.. لكني هويت على ركبتي فكدت ـ أو ربما فعلت ـ أهشمها.. وبرغم الألم رحت أركض لاهثًا.. مغمغما بكلمات لا معنى لها.. مترنحًا.. قاصدًا الباب الرئيسي للكلية.. وفؤادي يخفق كجناح عصفور طنان..

ورحت أركض في الشوارع المظلمة أرمق أضواء السيارات الباهرة وأقول كلمات لا أفهم ما أعنيه بها..

الخلاصة أنني جننت...

رحت أجتاز الأزقة المظلمة نحو داري.. وأنا أرى الرجل في كل صوب من حولي.. واسمعه يقهقه في وحشية من ذعري..

هنا اصطدمت بعابر سبيل في الظلام...

كدت أواصل طريقي لكنه سبّني في فظاظة.. وقال شيئًا ما عن الحيوانات العمياء.. فتوقفت ونظرت إليه مشدوهًا...

الشعر الفاحم... الشارب.. النظرة الوقحة.. الشامة على الخد الـ.. الأيسر لا الأيمن.. إنّه هو! لا لم يمت...



وعندها تأكد لي أن اختلافًا كبيرًا يوجد ما بينه وبين (العابر) في المشرحة.. إنها ذات الصفات لكنّها لا تعني تشابه الرجلين.. لقد اعتدت شكل (عابر) المشرحة حتى نسيت وجه الآخر تمامًا.. وبشكل ما أقنعت نفسي بأنهما لذات الرجل.. لكني الآن أدرك خطئي.. إن الرجل الذي تشاجرت معه وأوقعته هو الماثل أمامي الآن.. ومن الواضح أنه لم يمت.. أما من رأيته في المشرحة ونغص حياتي عامًا كاملًا فهو مجرد شاب آخر له شارب وعينان حادتان...

هنا لمحت نظرة تذكر في عين الرجل.. وبشك هتف:

- «أنت! هل التقينا من قبل؟»

قلت كاذبًا:

- «لا...»

وأدرت وجهي مبتعدًا..

- «انتظر!»

صاح بي.. لكنى أطلقت لساق العنان..

لا أريد صدامًا مع هذا الرجل بالذات..

هو يريد الانتقام من الجرح الذي أصبته به يومًا.. لكنه لا يدري أنه قد نال هذا الانتقام بالفعل.. وأنه ـ لعام كامل ـ جعلني على حافة الجنون.. بل إنني لم أدن من الانتحار هذا الدنو قط...

وهكذا انتهت هذه القصة.. ولا أدري ما تعليقك عليها يا د. (رفعت)..

شريف:

نحن شاكرون لإسهامك يا د. (عصام).. ويمكننا الآن أن نسمع د. (رفعت).

رفعت:

لا يوجد ما يُقال.. فهي قصة نموذج لـ (الرعب الموجه في اتجاه خطأ).. ثم إنها ترينا كيف أن عقدة الذنب تستحوذ على العقل الباطن فتجعله يرى ما لا وجود له.. ولم يجد العقل الباطن هنا سوى المشرحة مكانًا للجثث.. عندئذٍ لا بد أن تظهر جثة من تظن أنك قاتله.. إنها ألاعيب (الأنا العليا) العتيدة...

شريف:

وما الذي نتعلمه منها؟

رفعت:

أكره لي أعناق القصص للحصول على مغزى ما.. ربما كان المغزى هنا هو: (إن كان لك شارب مثل شاربي فليس معنى هذا أننا نفس الشخص).. أو: (لاتقتل عابري السبيل في الأزقة ليلًا لأنّهم يعودون دائمًا).. أو: (إن عاملي المشرحة جميعًا يختفون في الوقت غير المناسب).. هل هذا كاف؟

عصام:

ثمة إضافة أخيرة عرفتها مؤخرًا.. يتحدث سكان الأزقة التي كنت أجتازها عن شبح شاب ذي شارب أسود.. وشامة على خده.. يقولون إنّه يقطع الطريق على من يعبرون الزقاق ليلًا....

رفعت:

حقًا؟

عصام:

يقولون إن هناك من قتله في هذا المكان منذ أعوام!

رفعت:

إنها لمصادفة طريفة حقًّا....

عصام:

ألا ترى شيئًا غريبًا في الموضوع؟

رفعت:

بلى.. أن الأشباح ذوات الشوارب قد ازداد عددها مؤخرًا....

شريف:

هل تعني أنه نفس الشخص؟

عصام:

هل ترى رأيًا آخر؟

رفعت:

يريد القول إن (العابر) قد مات حقًّا.. وإنه في تلك الليلة اصطدم بشبحه.. وفي كلا الحالتين - الصواب أو الخطأ - لا يوجد شيء من الصحة لمخاوف المشرحة.. إنني أنصحك يا دكتور نصيحة واحدة.. انس الموضوع برمته.. وتغلب على ولعلك الشديد بالمشي في الأزقة ليلًا.. هذا هو كل شيء.. إن حياتك تنتظرك ولا داعي لإضاعتها في تساؤلات لا جدوى منها.. وإلا فعليك أن تتوجه لأقرب قسم شرطة لتخبرهم بما تظن أنك فعلته منذ أعوام...

بالمناسبة.. أعتقد أن اسمك ليس (عصام) حقًّا... الآن تأكدت من هذا.. وإلا لوجدت كل شرطة المدينة في دارك بعد عشر دقائق..

عصام:

أنت محق.. ليس اسمي (عصام)..

رفعت:

إذن عمت مساء يا من لست (عصام)..

الفتى:

عمت مساء سيدي.. وشكرًا على إنصاتك....

* * *



الحلقة الثالثة

فكرة غير عادية

يحكيها : م. محمد عثمان

الحلقة الثالثة
(فكرة غير عادية)

يحكيها: م. محمد عثمان

«توجد طريقة واحدة لتقتل شخصًا يغلق الحمام على نفسه من الداخل.. إن هذا سهل جدًّا.. كما أنّ معرفة القاتل ليست مستحيلة..»

المقـدمــة

شريف:

صباح الخير سيداتي سادتي.. (شريف السعدني) يحدثكم على الهواء مباشرة من ستوديو (٨).. ومعي هاهنا د. (رفعت إسماعيل) الذي سيستمع معي إلى حكاياتكم ويناقشها ويقترح حلولًا لها.. (صوت أوراق).. جاءني خطاب من (ع.م.ع) يقول فيه إنّه يمقت الكلام في الهاتف ويرغب في أن نحل مشكلته المقروءة لا المسموعة.. وقد فعلنا ذلك.. فليتفضل د. (رفعت) بالإجابة..

رفعت:

لا تفعل يا (ع.م.ع).. أرجوك ألا تفعل... هذا هو ردي!

شريف:

ألن تشرح مشكلته للمستمعين؟

رفعت:

إنه لا يهوى الثرثرة وأنا كذلك.. وعلى كل حال إذا كان يريد حلًا لمشكلته فقد وصله هذا الحل كاملًا غير منقوص.. لا أعتقد أنه من هواة الشهرة...

شريف (في ضيق):

لكن المقصود من هذا البرنامج هو....

رفعت:

ليكن.. إن (ع.م.ع) يعتقد أن ثلاجته ألمانية الصنع مسكونة! هذا يحدث كثيرًا جدًا مع الثلاجات المصنوعة في ألمانيا - لا بد أنها روح البارون (لودفيج) أو أرشيدوق النمسا - لهذا نصحته ألا يحتفظ بها.. إن الثلاجات المصنوعة في مصر لا بأس بها وغير مسكونة غالبًا.. هل هذا كاف يا (شريف)؟

شريف:

ولكن هذا سخيـ....

(رنين الهاتف)..

آلو.. هنا برنامج (بعد منتصف الليل).. من معي؟

صوت رجل في منتصف العمر:

أنا (محمد عثمان).. مهندس من القاهرة.. متزوج وأب لطفلين... هل د. (رفعت) معك هاهنا؟

رفعت:

بالتأكيد يا سيدي.. فلا شيء يقدر على إزالتي من الوجود عدا الموت..

محمد:

أنا الآن وحدي في الدار.. إن زوجتي والأطفال عند حماتي... يبدو أنها واحدة من تلك المشاجرات العائلية التي تحدث دومًا ولا تنتهي بالطلاق أبدًا..

رفعت:

أفهم ما تعنيه.. إن الطلاق شيء درامي جدًا.. وعنيف جدًا.. إن من يطلقون شركاء حياتهم شجعان جدًا أو حمقى جدًّا.. أي أنهم يختلفون عني وعنك..

محمد:

لا أفهم تعبيراتك الملتفة هذه.. كل ما أعرفه أنها تطلق على الآن نعوتًا مشينة.. فلا بد أنها تسمع ما نقول حالًا.. لكنّ هذا ليس هو سبب اتصالي.. فالنساء دومًا غاضبات يرين أن أزواجهنّ حمقى على طول الخط.. لا عليك.

سأحكي لك يا د. (رفعت) حكاية عن مسابقة في مجلة..

رفعت:

غريب! لا أقابل قصصًا كثيرة تبدأ بمسابقات في مجلات...

محمد:

مجلة تافهة هي.. تحوي بابًا على غرار (فكر واربح) أو (للأذكياء فقط).. المهم أنّ هذه المجلة التعسة وقعت في يدي منذ ثلاثة أشهر.. ورحت أقلب صفحاتها.. إليَّ أن وجدت هذا الباب وفيه وجدت هذه المعضلة الذهنية:

المفتش (سراج) - هذا يدلك على أن للمعضلة أصلًا أجنبيًا - هو رجل شرطة ذكي لا يفوته شيء.. يتم استدعاؤه إلى مسرح جريمة قتل في ذلك اليوم الممطر.. هل أنت معي؟ حسن...

القتيل كان في الحمام.. وقد قلقت زوجته عندما عادت للدار فلم تجده.. وقرعت باب الحمام الموصد من الداخل فلم يرد عليها.. استعانت بالبواب واستطاعا أن يقتحما الباب.. وكان هذا كافيًا

لتنطلق في الصراخ فلا تهمد أبدًا كصفارة إنذار الغارات...

هو ذا زوجها المحاسب الذي أتم عامه الأربعين منذ أيام، ممددًا في حوض الاستحمام وقد غاب أنفه تحت الماء تمامًا.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى (قومسيون) طبي لمعرفة إن الرجل ميت...

وجاء رجال الشرطة وقالوا إن الحادث نجم عن نوبة قلبيّة أو إغماءة أو اصطدام الرأس بالبانيو.. المهم أنّ هذا أدى إلى غرق المحاسب.. إن هذه الأشياء تحدث دائمًا.. ولا تستدعي سوى الحزن فنسيان الموضوع...

وحتى هذه اللحظة يظل اسمه (المتوفى) لا (القتيل)..

وهنا يصل عمنا الكبير المفتش (سراج) ليرى ـ كالعادة ـ ما لم يره الأغبياء الآخرون.. ويزيد الأمور تعقيدًا..

فهو يلاحظ آثار مقاومة في جسد المتوفي. ويلاحظ أن المنشفة ملقاة في ركن، وقطعة الصابون في ركن.. وأن الفوضى التي تجتاح الحمام توحي بوجود صراع.. هنا ـ ككل مفتشي القصص ـ يشعل سيجاره في حنكة.. ويضيق عينيه مفكرًا.. لماذا ومع من تشاجر المتوفى؟ هناك من تعمد أن يغرقه في حوض الحمام.. وبالتالي يمكننا يا سادة أن نتحدث عن المتوفى باعتباره (القتيل) ونعتبر ما حدث جريمة قتل..

هنا يفغر الكل أفواههم في غباء.. ويقول أحدهم:

ـ «لكنّ هذا مستحيل يا سيدي المفتش.. لقد كان الحمام موصدًا من الداخل.. ثم إنّه لا توجد نوافذ فيه.. هذا يجعل دخول شخص آخر مستحيلًا.. ولو حدث لوجدنا الباب مفتوحًا..»

هنا يقول المفتش في ثقة وهو يتأمل وجوه الواقفين:

ـ «بالعكس.. توجد طريقة واحدة لقتل شخص وحيد يغلق الحمام على نفسه من الداخل، إن هذا سهل جدًا.. كما أنّ معرفة القاتل ليست مستحيلة»

وهنا توجه المجلة سؤالين إلى القراء:

(أ) كيف تمت الجريمة؟

(ب) من هو القاتل؟

عزيزي القارئ.. أرسل لنا الحل مع عنوانك لتفوز بجائزة قيمة هي ساعة يد[6] الحل ينشر بعد أربعة أعداد...

رفعت:

بالنسبة للشق الثاني من السؤال أعرف أن الزوجة.. هي القاتل

شريف (بانبهار):

كيف عرفت؟

رفعت:

لا توجد شخصيّة سواها في القصة!

محمد:

دعنا من هذا الشق.. إن أي طفل يمكنه إدراك ذلك.. لكنّ الشق الأول هو المشكلة الحقيقية..

وكنت وقتها بحاجة إلى تحد عقلي.. وقبل هذا كنت أريد ساعة يد محترمة.. لهذا قضيت الليل بطوله أراجع فقرات اللغز.. وأبحث عن الحل بين الحروف..

رفعت:

في هذا النوع من القصص يكون هناك شيء ما متعلق بالأمطار أحد الأبطال غير مبتل.. أو يتعلق بالمقعد الذي تغير موضعه.. أو....

محمد:

لا شيء من هذا.. لقد توقعت هذا كله وبحثت عنه.. لكنّ لا جدوى.. وفي الصباح رأت زوجتي احمرار عيني والخطوط المتشابكة التي رسمتها في ورقة، فظنت أنني جننت أو أخطط لسرقة بنك..

لكنى واصلت رسم أشكال تخطيطية للموقف.. وعندما جاء المساء دخلت الحمام وأحكمت إغلاقه على نفسي.. توجد نافذة لكنّها مستحيلة الفتح لحسن الحظ.. ورحت - جالسًا على طرف حوض الاستحمام - أفكر في الوسيلة التي يستطيع بها أحدهم الدخول إليّ في هذا السجن..

رفعت:

لا يوجد حل على ما أظن.. ما لم تكن الرجل الخفي أو كتلة من الطاقة.

محمد:

بالعكس.. كان هناك حل.. وقد وصلت إليه في الساعات الأولى من الصباح.. ودهشت لغفلتي السابقة.. إن الحل أبسط مما توقعت.. لكنه حل عبقري.. وعلى الفور رحت أخط إجابتي على ورقة وضعتها في مظروف وأرسلتها إلى المجلة.. ورحت أنتظر اسمي بين الفائزين في الأعداد القادمة..

رفعت:

لا بد أنّ هذا حدث مادمت تعرف أننا في الواحدة صباحًا.. لقد نلت الساعة إذن!

محمد:

كلا.. صدر عددان من هذه المجلة المنحوسة ثم توقف صدورها لأسباب اقتصادية تتعلق بسعر الورق وانخفاض معدل الإعلانات.. إلخ...

ثم دارت بي الحياة، وبدأت في المشاجرات مع زوجتي، وحضور جلسات الصلح مع أسرتها، ولم تكن أعمالى على ما يرام، وأصيب أحد أطفالي بحمى شوكية كاد يقضي بسببها لولا عناية الله..

كل هذا كان كافيًا لكي أنسى الموضوع بكل تفاصيله...

إن مشاكل الحياة غيلان تلتهم كل طيور الإبداع أو الترف الفكري في عقلك.. يقولون إن معاناة الفنانين تجعلهم يخلقون فنًا أصيلًا.. لا أظن.. ما كان (باخ) ليقدم لنا رائعة من روائعه لو أنّ زوجته سليطة اللسان وابنه في شبه غيبوبة مخية.. أردت القول إن لغز الحمام هذا تراجع إلى مؤخرة اهتماماتي.. تراجع تمامًا...

ثم.. حدث ما أعاده إلى ذهني بقوّة..

كان هناك خبر في صفحة الحوادث بإحدى الصحف يقول.. ولكن.. دعني أقرأه عليك وقل لي ما تستخلصه منه (صوت حفيف أوراق)..

«تغرق في الحمام إثر أزمة قلبيّة..»

«كتب فلان الفلاني: توفيت زوجة في الثلاثين من عمرها في أثناء استحمامها، كانت المتوفاة قد أوصدت باب الحمام عليها من الداخل وبدأت في أخذ حمامها اليومي، حين سمع زوجها (فلان) صرختها، فتعاون مع الجيران على اقتحام باب الحمام، حيث تبين لهم أن الزوجة قد غرقت في البانيو، وانتقل إلى مكان الحادث كن من العقيد (فلان) والنقيب (فلان)، ويرجح رجال الشرطة أن السيدة قد أصيبت بأزمة قلبيّة جعلت رأسها يسقط تحت مستوى الماء، ولم تتمكّن من الاستغاثة لأن الحمام كان موصدًا عليها»

ما رأيك في هذا؟

رفعت:

لا ينقص الأمر سوى مفتشك (سراج) هذا...

شريف:

هل تعني أن المصادفة قد لعبت دورًا؟

رفعت:

ربما.. فالناس يموتون في البانيو منذ اخترعه الرومان وحتّى اليوم.. وسوف يظلون يموتون فيه حتى تقوم الساعة.. إن هذا ليس دليلًا على شيء..

محمد:

أنا أيضًا قلت ذلك لنفسي.. لكنّ اسم زوج الفقيدة بدا لي مألوفًا..

مألوف إلى حد غريب..

وسرت القشعريرة في جسدي حين تذكرت أين قرأته.. إنّه سكرتير تحرير تلك المجلة التي أفلست! إن هذا يجعل الفرصة شبه معدومة في أن يكون ما حدث صدفة...

رفعت:

لحظة.. هل تظن أنه قد؟

محمد:

حتمًا.. على كل حال.. بحثت عن اسمه في دليل الهاتف.. وعرفت أنه يعمل حاليًا في دار نشر كبيرة.. وقررت أن أذهب لأراه هناك.. فالفضول كان جامحًا لدي كي أفهم اللغز...

رفعت:

لحظة.. لم تقل لنا حل لغز المجلة بعد..

محمد:

لا تسخر مني حين أقول إنني كنت قد نسيته تمامًا.. نعم.. هذا ممكن.. لقد وجدت الحل بعد إرهاق عقلي كبير وبعد منتصف الليل.. ثم إنني غرقت في المشاكل بعد ذلك.. دعك من أنني أرسلت الخطاب بمجرد استيقاظ من النوم فلم أعد قراءته.. لقد كان الحل عبقريًا سهلًا ممتنعًا.. وباءت كل محاولاتي بالفشل كي أجده بعد ما ضاع مني.. كانت لحظة إلهام كإلهام الشعراء سرعان ما تفنى وتذوب..

شريف:

لنعد لقصتنا..

محمد:

طلبت مقابلة الرجل ودخلت مكتبًا فاخرًا يجلس خلفه ثور آدمي ذو خوار.. وكان يرتدي ربطة عنق سوداء على سبيل الحداد فهو أرمل (متماسك).. أرمل حديث العهد بالترمل..

صافحته وعرفته نفسي.. وعزيته على فقدان زوجته.. بدا مندهشًا لإلمامي بدقائق حياته وهو لم يرني قط..

ذكرته بالمجلة التي كان سكرتير تحريرها، وبأني كنت من قرائة شديدي النهم.. فأبدى سرورًا.. وقال إن توقف صدور المجلة خسارة فادحة.. لكنه سعيد بعمله في دار النشر هذه التي تلقفت خبراته ونشاطه قبل أن يحاول الآخرون..

ثم إنني دخلت في الموضوع مباشرة...

سألته عن مسابقة الحمام التي نشرتها مجلته قبل إفلاسها بأسبوعين.. قلت له إنني حللت اللغز وأرسلته لهم...

بدا كمن يتذكر.. ثم ضحك متهكمًا لتفاهة اهتماماتي.. وقال:

- «الأمر كله كان دعابة.. لغز وجدته في مجلة أمريكية فقمت بتعريبه ونشره بعد تحويل المفتش (إيلري كوين) إلى (سراج)..»

- «والحل الصائب له؟»

قال بنفس الابتسامة الودود:

- «لا أعرفه! لم تنشر المجلة الأمريكية حلًا.. ولم أكن أعتمد على شيء سوى على رسائل القراء.. فمن يقدم حلًا يقنعني يفز..»

ثم تنهد.. وقال:

- «على كل حال.. لم يتسع الوقت لنشر الحلول.. ولم يصلني سوى ثلاث خطابات أو أكثر قليلًا.. ولا بد أنها جميعًا تحوي حلولًا غبية»

- «حلي لم يكن غبيًا.. ولو سمحت لي بإحضار خطابي....»

قال في سأم وقد أدرك أنني لن أقدم له سوى الثرثرة:

- «لم تعد هناك خطابات.. لقد أحرقنا الأوراق قبل أن نغادر مقر المجلة للأبد.. إنها صفحة قد زالت من حياتنا.. وهاك صفحة جديدة»

ثم ابتسم ونظر لي نظرة مناشدة أن أرحل فقد طال الوقت..

وافترقنا صديقين على ما أظن.. لكني لن أنسى إحساسي بنظرته الثاقبة في مؤخرة عنقي حين أدرت ظهري له..

رفعت:

أه! ذلك الخوف العديد من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم...

محمد:

هو ما تقول.. لقد كان يظهر عكس ما يبطن حتمًا..

بعد هذا بدأت المطاردة....

مطاردة في شارعي.. في عملي.. في الحافلة.. دائمًا أجد ذلك الثور الآدمي يحاول أن يتظاهر بعدم رؤيتي.. لكنه يراقبني من بعيد.. من وراء عامود نور أو صفحات جريدة أو كتف عجوز يقف أمامه في الحافلة.. عيناه تنمان عن شر بهيمي..

وحين تلتقي عينانا كان يعود لارتداء قناع المودة البشوش.. فيضحك في رقة - لو كانت الثيران تضحك في رقة - ويقول لي كم أن الحياة حبلى بالمصادفات.. و. (مصير الحيّ يتلاقى)..

رفعت:

لابد أن العبارة الأخيرة كانت تجمد الدم في عروقك..

محمد:

حتمًا.. فهي تحمل من التهديد قدر ما تحمل من الانبهار بالمصادفات..

شريف:

وكيف عرف عنوانك؟

محمد:

هل نسيت أن عنواني مدون في خطاب المسابقة؟

رفعت:

إذن فلنرتب أفكارنا.. أنت تعتقد أن الرجل قرأ خطابك؟

محمد:

بالتأكيد.. وراقت له الفكرة التي حللت بها المعضلة..

رفعت:

بالتالي قرر استعمالها مع زوجته لأن الشرطة لن تفكر لحظة في كون الحادث اغتيالًا.. من يدري؟ ربما نشر اللغز في المجلة طالبًا اقتراحات القراء بخصوص الأسلوب الأمثل لقتل زوجته..

محمد:

وربما فكر في الأمر بعد قراءة خطابي.. إن النتيجة واحدة هي أن الزوجة قد قلت بأسلوب من ابتكاري..

رفعت:

ذلك الأسلوب الذي لا تذكر منه حرفًا..

محمد:

نعم.. ولهذا يملك الرجل كل الأسباب التي تدفعه إلى الخلاص مني أو إسكاتي، وأراهن على أنه يراقبني بحثًا عن فرصة..

رفعت:

لماذا لم تقابل رجال الشرطة؟

محمد:

فعلت وحياتك.. ذهبت إلى مديرية الأمن وحكيت لهم شكوكي.. لكني بدوت بالنسبة لهم مخبولًا أو مبتذلًا.. فما هي علاقتي بطرفي الحادث؟ وما هي مصلحتى في الإبلاغ وأنا لا أعرف مجرد اسم الزوجة؟ ثم كيف يمكن قتل شخص في غرفة موصدة من الداخل؟! قلت لهم إنني وجدت الحل..

قالوا لي أن أثبت لهم كيف يتم هذا...

هنا ازداد موقفي سوءًا لأني اعترفت لهم بأنني نسيت.. لكن بدا لهم كلامي سخيفًا ومبتذلًا! ونصحوني بالكف عن هذا الهراء قبل أن تتحول النصيحة إلى عقاب قانوني صارم...

وزاد الأمر سوءًا أنني حين هبطت في درج مديرية الأمن، لمحت على الرصيف المقابل ثورًا ذا خوار يتظاهر بأنه يمشي مصادفة ـ لو كانت الثيران تمشي مصادفة ـ في هذا الشارع بالذات..

لقد رآني!

والمعادلة السهلة تتضح في ذهن الثور تدريجيًا:

أنا صاحب الحل + خبر موت الزوجة + سؤال عن الخطاب + مديرية الأمن + كارثة!

كارثة يمكن تلافيها بشيء من الجهد الجاد.. والدم طبعًا!

رفعت:

الحل الوحيد هو إثبات كلامك لنا ولرجال الشرطة..

محمد:

وهذه هي كارثة الكوارث.. لقد سهرت ليلتين أو ثلاثًا في داري أحاول العثور على حل دون جدوى..

كان من حسن حظي أن زوجتي رحلت مع الطفلين غضبي كعادتها.. هي تحسب أنها بهذا تحرمني من نعمة وجودها، في حين أنها تقدم لي أغلى نفائس العالم: الهدوء.

وهكذا ـ وحيدًا في الدار ـ أحكمت غلق الأبواب، ورحت أعيد التفكير في حل لهذه المعضلة..

المحاسب غارق في بانيو الحمام.. الباب موصد من الداخل.. لا توجد نوافذ.. كيف يمكن الوصول إلى هذا الرجل؟



رفعت:

ربما لو كان الحمام مغلقًا بكالون (لاتش) يفتح بمفتاح من الخارج..

شريف:

لا أحد يغلق باب الحمام بكالون (لاتش).. كل الناس تستعمل المزلاج.. أفكر في احتمال وجود باب سرّي للدخول والخروج..

رفعت:

حتى في قصور (آل مديتشي) المشهورين بالمؤامرات؛ لم يخطر لعبقري سواك أن يصنع بابًا سرّيًا للحمام....

شريف:

المواد المنوّمة! لم لا؟ يدسّ في شرابك مادة منومة لا تعمل إلا بعد دخولك الحمام فتغفو ويسقط رأسك تحت الماء..

رفعت:

فكرة لا بأس بها.. لكنّ توقيت هذا مستحيل.. فهناك من يدخلون الحمام فور احتساء كوب العصير.. ومنهم من يتلكأ بحثًا عن منشفة أو (باشكير).. أو لمجرد مقته للاستحمام.. ثم إن الطب الشرعي قادر بسهولة على تحديد أمور كهذه..

محمد (في عصبية):

اصمتا! إنكما توتران أفكاري.. كل هذا هراء وبعيد عن الحل الحقيقي.. إنني أحاول الدخول في عالم القصة.. لهذا أحدثكما من الحمام!

رفعت:

الحمام؟ كل هذه المكالمة؟

محمد:

لم لا؟ إن الهاتف مع ها هنا.. وقد أحكمت غلق الباب بالمزلاج من الداخل.. ولا توجد سوى نافذة واحدة موصدة بإحكام.. البانيو ممتلئ بالماء.. كما أرجو لو تساعداني في حل هذا اللغز..

رفعت:

لا بد أن منظرك يشبه الأفلام الأمريكية القديمة.. فكل بطلات الإغراء كن يتحدثان هاتفيًا بينما هن في البانيو متدثرات بفقاقيع الصابون.. يالـ (هوليوود) هذه!

محمد:

أحاول أن أحرك القشرة الرمادية التي تخنق أفكاري.. أحاول.. أحاول.. الباب.. النافذة.. الباب..

رفعت:

قل لي يا (باشمهندس).. ألا ترى أن بقاءك وحدك خطر في هذه الأيام.. إذا افترضنا جدلًا أن قاتل زوجته يحاول إسكات شاهده الوحيد؟

محمد:

بلى.. بلى.. لكني بحاجة إلى التركيز.. كف عن الكلام قليلًا.

شريف:

هذا أول متكلم يطالب الجميع بالصمت هاهنا..

محمد:

الباب.. النافذة... الـ... (صوت صرير).. هل... هل تسمعان هذا؟ يبدو أن توتري يجعلنى أسمع أصواتًا غير مألوفة.. و.. (رفعت)! إنّه قادم! لقد استطاع التسلل إنّه يتحرك.. خلف.. خلف هذا الستار.

ثم.. لقد تذكرت! تذكرت الحل للمعضلة! لقد دخل بذات الأسلوب.. هيه! ابتعد عني! لآآآآآه!

رفعت (صوت صخب وعراك من الهاتف):

ثمّة ما يحدث هنا.. هل تظن أن؟ آلو! آلو!

(صوت ماء ينسكب.. حشرجة مختنق يحاول التنفس).

لقد هاجمه! دخل بالأسلوب ذاته إلى حيث اختبأ (محمد)..

لقد وضع هذا الأخير نفسه في وضع مثالي للقتل.. وبالطريقة التي ابتكرها!

شريف:

هل هل يمكننا عمل شيء؟

رفعت:

لا أدري إن مصدر المكالمة.... آلو!

(سكون تام.. ثم يضع أحدهم السماعة ليغلق الخط)..

لقد انتهى كل شيء.. وأظن أن الثور ذا الخوار نفسه هو من أعاد السماعة لمكانها وغادر المنزل كما جاء..

شريف:

هذا شنيع! لقد سمعنا أحداث مصرع المهندس بكل تفاصيلها..

رفعت:

على كل حال لقد مات بعد ما أشبع فضوله.. لقد تذكر.. أمّا نحن فلسوف نحترق بنيران الفضول طيلة حياتنا، ما لم ننس هذه القصة في أسرع وقت....

* * *



الحلقة الرابعة

الشقة رقم (9)

يحكيها : مجهول الاسم

الحلقة الرابعة
(الشقة رقم "٩")

يحكيها: مجهول الاسم

«لكنهم - جميعًا - لم يتكلموا.. ربما نظر أحدهم لك بعينين زائغتين وقال شيئًا ما عن (الشقة الدنسة).. ثم يصمت نهائيًا..

وكان هذا هو السؤال الذي أرقني دومًا..

ماذا يحدث في الشقة رقم (٩) عندما يحل الظلام؟»

المقـدمــة

شريف:

من جديد سيداتي سادتي نجلس جوار المذياع وأجهزة الهاتف.. لننعم بحلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. إن نجاح هذا البرنامج يعود لكم أنتم.. فأنتم تمدون آلة الرعب بالوقود الذي يجعلها تعمل فلا تتوقف أبدًا..

رفعت (يتنهد):

أعوذ بالله من الحمق!

شريف:

معنا هنا ضيفنا د. (رفعت إسماعيل).. إنّه يدمدم بعبارات غامضة لا أسمعها لكني أتوقع أنها تعبر عن الترقب.. الترقب الملهوف لقصتنا التالية..

(رنين الهاتف)..

هالو! (شريف السعدني) هنا.. من يتحدث؟

صوت فتاة:

مساء الخيغ! أنا (شيغين).. هل دكتوغ (غفعت) يسمعني؟

رفعت:

أنا أسمعك يا (شيرين).. وأرجو أن تسامحيني على نطقى الخاطئ للحروف..

شيرين:

كنت أعيد سؤالك يا دكتوغ.. لماذا لم تتزوج كط حتى الآن؟ هل أنت معكد أو شيء من هذا الكبيل؟

رفعت:

لو ترجمنا سؤالك عن لغته الفرنسية لقلنا إنك تتساءلين عن سر عدم زواجي.. وهل أنا معقد أم لا؟ لا أدري يا (شيرين).. أعتقد أنني لست معقدًا.. والدليل هو: هل تقبلين الزواج منى الآن؟

شيرين:

هكذا فوغًا؟

رفعت:

فوغًا يا (شيغين)..

شيرين:

لكن.. بسغاحة.. أنت لا تعغفني..

رفعت:

هذا سبب كاف لأعرفك أكثر.. ثم إن لديَّ ضعفًا تجاه الفتيات ذوات اللثغة..

شيرين:

لا.. لا! أنت أسلع وشكلك مغعب.. لقد كنت أمزح لا أكثغ.. باي باي!

رفعت:

وأنا كذلك أمزح يا (شيغين).. باي باي!

شريف:

لقد أحسنت التصرف حقًّا.. لقد كانت تحاول التسلية..

رفعت (في رضا):

لقد أثرت هلعها.. فهي لم تتوقع أن أكون متحمسًا إلى هذا الحد.. ولكني - برغم كل شيء - لا أجد نفسي مرعبًا إلى الدرجة التي تصفها..

(رنين الهاتف)...

شريف:

آلو! من معي؟

صوت رزين خافت:

لا داعي للأسماء.. فليس هذا ناديًا للمراسلة على ما أظن.. إن عندي حكاية لا بأس بها لهذا البرنامج... فهل تسمعونها؟

شريف:

حتما.. ولكن أتمنى لو رفعت صوتك قليلًا..

الصوت:

لا أستطيع.. لدي أسبابي.. أنا أتحدث من الشقة رقم (٩) المبنى رقم (٢٠٣) في شارع.. لا. لن أقول الشارع...

رفعت:

لا أستطيع أن أجد سببًا مقنعًا يمنع ساكني الشقة (٩) في مبنى (٢٠٣) من رفع أصواتهم عند الكلام في الهاتف..

الصوت (يضحك في عصبية):

لأنني متسلل يا حضرة الطبيب العبقري... متسلل.. فليس هذا بيتي.

رفعت:

ولماذا تسللت أيها المتسلل الغامض؟

الصوت:

ثمة أسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا بالتجربة وسرد القصة كلها.. لقد ولدت في هذا الشارع يا د. (رفعت) وأعرف كل حجر فيه.. وكل خط بالطبشور على جدرانه..

ومنذ نعومة أظفاري وأنا أعرف أن الشقة رقم (٩) محرمة على الناس.. وأن بواب العمارة يقرأ آية الكرسي بشفتين مرتجفتين حين يصعد أو يهبط مارًّا أمام بابها.. وأن اطفال العمارة ممنوعون من اللعب أمام هذا الباب.. إنّه لتحريم يسمو إلى مرتبة القداسة الدينية.. وعقاب الطفل الذي يخالف ذلك قريبة جدًا من الإعدام...

رفعت:

أعرف.. كان هناك في المنصورة بيت (الخضراوي).. وكان يعامل معاملة شبيهة بهذه.. إن هذه الأماكن تتحول إلى (تابو) مقدس دائمًا..

الصوت:

إن السماسرة يحذرون الباحثين عن مسكن من هذه الشقة، مضحين بفرصة لا بأس بها للكسب.. صبي الكواء يأبى الصعود إلى الطوابق التي تعلوها.. أمّا من يسكنون تحتها مباشرة فلا يكفون عن الشكوى من أصوات الصراخ التي تنبعث من داخلها.. والمطاردات التي لا تنتهي بين أشخاص لا تدري من هم...

رفعت:

لا بد أنّ هناك حادث انتحار أو قتل تم في هذه الشقة منذ أعوام.. فالقصة هكذا دائمًا..

الصوت:

بل هي قصة أكثر تعقيدًا.. لقد كان هناك ـ في عام ١٩٤٦ - شاب يدعى (يوسف إسحق).. وهو صراف يهودي يعمل في أحد البنوك.. يقولون إنّه كان مهذبًا جدًا.. وديعًا جدًا.. ويعيش في هذه الشقة بالذات.. ولم يكن متزوجًا..

كان بعض الأصدقاء يزورونه من وقت لآخر.. ولم يكن أحد الجيران يشك في أمره بشكل خاص.. ففي تلك الأيام لم تكن حرب ٤٨ قد نشبت بعد.. والمصريون معروفون بالتسامح الديني، فلم يكن لديهم عداوة خاصة تجاه اليهود.. كل ما هنالك هو أن الفتى بخيل أكثر من اللازم، معقوف الأنف أكثر من اللازم.. فيما عدا ذلك لا يوجد ما يريب بشأنه... لكن واحدة من الجيران لاحظت ملاحظة صائبة..

هناك من يزورون الفتى بمعدل ضيف في الشهر أو أكثر.. كلهم يصعدون إلى شقته.. فلماذا لا تراهم ينزلون منها؟!

لكن الجميع نسي هذا السؤال بعد حين.. فالعمارة كبيرة ولا تقع في حي شعبي.. بالتالي يغدو أمر من يصعد ومن يهبط ومن يزور من.. أمرًا يستحيل الإمساك به...

لكن الأمر افتضح ذات يوم.. وكان مهولًا مريعًا...

لقد أمسك أحد مخبري المديرية بالفتى عند المقطم..

وكان يحاول الخلاص من كيس قماشي كبير.. لقد كان يقود سيارته (الأوبل) السوداء إلى هذا المكان المنعزل ليتخلص من أحماله..

فتح المخبر الكيس بحثًا عن مخدرات فلم يجد لسوء الحظ.. كانت في الكيس أطراف آدمية..

رفعت:

أراهن على أن (يوسف) هذا وجد صعوبة في تفسير موقفه.. إن تفسير وجود أجزاء بشريّة في حقيبتك عسير دائمًا..

الصوت:

بالضبط.. إن استنتاجاتك تتسم بالعبقرية ياد. (رفعت)...

رفعت:

وماذا حدث بعد هذا؟

الصوت:

كانت قضية مدوية.. لقد اتضح لرجال الشرطة أن (يوسف) هذا كان يستدرج من يعرفهم إلى شقته.. ويقوم بتخديرهم.. ثم يعكف على استنزاف دمانهم بمدية خاصة...

شريف (في هلع):

يا للهول! يستنزف الدماء؟ لمه؟

رفعت:

إنه يهودي.. فلن أندهش كثيرًا لذلك.. كانت هناك قصة مريعة في القرن الماضي عن يهود (حارة اليهود) الذين كانوا يختطفون الأطفال - مسلمين كانوا أو مسيحيين - ليصفوا دماءهم.. ثم يقومون بمزج قطرات من هذه الدماء في الفطير الذي يلتهمونه في أعيادهم الدينية... لا بد لهم من هذه البركة...

شريف:

و.. وهل الديانة اليهودية بهذه القسوة؟

رفعت:

ليست الديانة اليهودية بل ما صنعوه هم منها.. إن كتاب (التلمود) يضم العجب العجاب.. وفي جميع الأحوال لم يكتشف سر جرائمهم هذه إلا حين قرروا تجديد قائمة الطعام بصنف جديد... مبشر مسيحي فرنسي هو الأب (توما) الذي أحدث اختفاؤه ضوضاء عامّة.. وفي هذه المرّة تم القبض على مرتكبي هذه البشاعات.. لكنّ من يضمن ألا يعودوا إلى العمل ذاته من جديد في أي وقت؟ إنهم يعتبرون ذلك واجبًا دينيًا[7]..

شريف:

وهل كان (يوسف) مندرجًا تحت هذه القائمة؟

الصوت:

بالطبع.. لقد كان لديه في الشقة رقم (٩) كل ما يلزم لممارسة هذه الهواية المسلية.. واعترف بالتفصيل.. وتم إعدامه شنقًا بعد محاكمة حاولت ضبط نفسها.. ووسط ارتياح كبير من الرأي العام..

رفعت:

ومن يومها ظهر الشبح في الشقة رقم (٩)..

الصوت:

بالطبع.. المزيد من استنتاجاتك العبقرية هاهنا!

رفعت:

ولكن شبح من؟ شبح السفاح اليهودى أم ضحاياه؟

الصوت:

أغلب المخمنين يقولون إن هناك عدة أشباح في الشقة.. شبح السفاح وشبح ضحاياه.. ولهذا تدور هاهنا مطاردات لا تنتهي طيلة الوقت.. يقول قاطنو الشقة السفلية إن هناك قطرات دماء تنضح من سقف شقتهم ليلًا.. لكني أعتقد أن في هذا مبالغة لا بأس بها..

رفعت:

جميل! وأنت تتحدّث من هذه الشقة الآن؟!

الصوت:

طبعًا.. الشقة رقم (٩) ذاتها..

رفعت:

وهل بها جهاز هاتف؟ حسبتها شقّة مهجورة..

الصوت:

جرت محاولات عدة لسكنى هذه الشقة من أشخاص حسبوا أنهم لا يبالون بهذا الهراء.. لكنهم كانوا يهجرونها دومًا بعد شهور.. آخرهم مدرس قام بتركيب جهاز الهاتف.. ثم غادر الشقة.. وهو مواظب على دفع فاتورة الهاتف وإيجار الشقة إلى أن يجد مسكنًا آخر ينقل الهاتف إليه..

رفعت:

شقة مسكونة مريحة حقًّا! بالمناسبة.. ماذا قال ساكنو الشقة عما يحدث فيها؟ لا بد أنهم رأوا ما يخيف..

الصوت:

لم يقل أحدهم شيئًا! الصمت.. الصمت الرهيب.. وهذا هو أفظع ما في الأمر.. فلو أنهم راحوا يثرثرون عن أشباح تعبر الصالة ليلًا أو تحرك قطع الأثاث لبدا هذا معقولًا وتقليديًا..

لكنهم - جميعًا - لم يتكلموا.. ربما نظر أحدهم لك بعينين زائغتين وقال شيئًا ما عن (الشقة الدنسة).. ثم يصمت نهائيًا..

وكان هذا هو السؤال الذي أرقني دومًا..

ماذا يحدث في الشقة رقم (٩) عندما يحل الظلام؟

رفعت:

وكيف تسللت إلى المكان؟

الصوت:

هذا هو سرّي الخاص الذي أرفض ذكر اسمي بسببه.. إن الأمر مزيج من الحيلة والذكاء مع قدر لا بأس به من خيانة الأمانة!

رفعت:

لا بد أنك تتحدّث عن سرقة المفتاح من البواب.. أو.....

الصوت:

لا داعي للاستنتاجات.. إنني هنا وكفى.. والشقة مغلقة عليّ وحدي..

شريف (في حماس):

إنها لحلقة مثيرة حقًّا.. هو ذا مراسلنا يا سادة يتحدث لنا من قلب الشقة رقم (٩) حيث لا يجرؤ مخلوق عاقل على التواجد وحيدًا.. ولسوف يجعلنا نرى ما يراه ونسمع ما يسمعه.. إنها لفرصة نادرة! هل لنا أن نعرف سر اهتمامك بالاتصال؟

الصوت:

بالطبع طلبًا للسلوى وأن أشعر بأنني لست وحيدًا في هذا المكان.. ثم إنني أمقت أن أضيع عليكم الاستمتاع بفرصة كهذه..

رفعت:

يبدو لي أنك شخص قوي الأعصاب إلى حد غير عادي..

الصوت:

لأنني لا أومن بوجود عالم غير مكون من ذرات كاربون وهيدروجين.. أو بوجود شيء غير قابل للرؤية والسمع والشم والإحساس.. إنني مادي جدًا إذا راق لكم هذا الوصف..

رفعت:

كنت أعتنق هذا الرأي منذ أعوام.. لكني شفيت! وعلى كل حال أنت لا ترى الأشعة تحت الحمراء.. ولا تسمع الترددات فوق الصوتية.. ولا تشم غاز الهيدروجين.. لكنّها أشياء موجودة..

الصوت:

الحديث عن الأشباح يختلف.. لكني على كل حال جئت بعقل منفتح تمامًا.. ولئن رأيت شبحًا الان فلسوف أقسم لك بأني حمار كبير...

شريف:

دعنا من هذا.. ولتحدثنا عن الشقة كما تراها..

الصوت:

لا أرى الكثير مما يمكن وصفه.. فهي شقّة من الشقق لها مزايا وعيوب كل شقّة أخرى.. لا توجد وطاويط كثيرة ولا نسيج عنكبوت إذا كان هذا ما تصبو إليه..

إنني جالس في الظلام - حتى لا يراني أحد من الجيران.. إن أضواء الشقق الموصدة تحدث مشاكل دائمًا - أستعين فقط بكشاف صغير أحطته بأسطوانة من الورق المقوى.. أنت تعرف طريقة المقاومة الفرنسية هذه لإرسال الإشارات إلى طائرات الحلفاء، دون بعثرة ضوء يراه النازيون.. إنهم يفعلونها دائمًا بنجاح ساحق...

شريف:

إذن صف لنا هذه الشقة العادية جدًا..

الصوت:

توجد صالة ضيقة جدًا.. تقود إلى حجرة جانبية وهي التي أجلس فيها الآن.. لم يعد هناك أثاث طبعًا سوى هذا الهاتف.. وهو موضوع على الأرض وعليه سحابة كثيفة من الغبار...

هناك غرفتان أخريان يبدو أنهما مخصصتان للنوم.. وهناك حمام يبدو أنه كان مخصصًا للطقوس إياها..

أنا جالس على الأرض فوق خرقة من القماش كانت هناك.. معي - إلى جانب الكشاف - مسدس ألماني من مخلفات الحرب، ولفافة بها بعض الشطائر، وجهاز مذياع صغير أتابع به برنامجكم..

وبالمناسبة.. برغم ثقتي بنفسي لم أستطع أن أمنع نفسي من الجلوس وظهري إلى الجدار...

رفعت:

أفهم هذا.. كما أجذب أنا الملاءة ليلًا لأداري عروق رقبتي برغم ثقتي من أن مصاصي الدماء لا وجود لهم..

الصوت:

إن للرعب ملكوتًا غريزيًا يجبرنا على أن..... لحظة! أسمع صوت قطرات ماء قادمة من الحمام! سأترككم لحظة كي أرى ما هناك..

شريف (في توتر):

إلزم الحذر أرجوك.. إنني..



الصوت:

سأعود حالًا.. (صوت وضع السماعة على الأرض.. صوت خطوات..)

شريف (بعد دقيقة):

إن هذا الانتظار يحطم الأعصاب.. ترى ماذا سيجد؟

رفعت:

لا أدري.. لكنّ صنابير الحمام تتلف سواء في وجود أشباح أم عدمها...

(تمر دقيقة أخرى)..

أعتقد أنه تأخر فعلًا..

(صوت الخطوات من جديد)..

الصوت:

لا شيء.. إن الصنبور يحتاج إلى (جلدة)..

رفعت (يتنهد):

دعني أصارحك أنك رجل شجاع حقًّا.. هذا بالطبع لو لم تكن تتلاعب بنا وكل هذه تمثيلية تؤديها تحت ملاءة فراشك..

الصوت (في حدة):

لو كنت تشك في هذا دعني أنه المكالمة حالًا..

رفعت:

بل أصدقك.. إن صوتك وصوت الهواء حولك والصدى يقولون إنك صادق.. أرجو أن تستمر من فضلك..

الصوت:

إنني في هذه اللحظة بالذات - أسمع أنينًا.. كأن هناك من يتثاءب في حجرة النوم.. هل تسمعه معي؟

رفعت:

لا أدري.. لا.. إن حساسية الهاتف كما تعلم..

الصوت:

سأذهب لألقي نظرة..

رفعت:

لكن.. لا تتأخر.. (صوت وضع السماعة على الأرض والخطوات).. أرجوك.. (يقول موجهًا الكلام لـ (شريف))..** لو أنّ هناك جهاز هاتف لا يحتاج الأسلاك!**

شريف:

هذا نوع من الخيال العلمي.. دعنا ننتظر عودته..

(صوت خطوات.. ثم شهقة)..

هيه! ماذا يحدث عندك يا أستاذ.. يا أستاذ (متسلل)؟

الصوت (في توتر):

هـ.. هناك.. لا.. لا شيء في غرفة النوم.. لكنّ هنا.. هناك من فتح لفافة الشطائر وقضم بعضها!

شريف:

أواثق من هذا؟

الصوت:

كل الثقة! أنا لم آكل لقمة واحدة منها.. إن هناك من يعابثني هنا.. هذا يفوق كل منطق.. (رفعت)! أنا خائف!

رفعت:

لا ألومك كثيرًا.. ربما فضلت أن تغادر الشقة الآن؟

الصوت:

لا.. لا.. إن وجود فئران هاهنا أمر وارد.. صحيح أن الفئران لا تقضم بهذا الانتظام كل هذا الحجم من الخبز.. لكنه تفسير لا بأس به.. ألا ترى هذا؟ سأعاود الجلوس والانتظار..

رفعت:

إن الأشباح الجائعة لا تبعث الراحة في النفس عمومًا..

الصوت:

لن أعلق لأنني أسمع صوت خطوات.. و... (همسًا).. (رفعت)! إنني أراه الآن.. إنّه يعبر الصالة أمامي خارجًا من غرفة النوم..

رفعت:

من هو؟

الصوت (هامسًا):

شبح رجل في الأربعين من عمره يرتدي منامة خضراء.. أراه على.. على ضوء خافت ينبعث منه شخصيًا! إنّه يضيء كأرقام الساعة في الظلام... إنه.. إنّه يمشي بتؤدة متجهًا إلى الحـ.. الحمام!

(رفعت)! أنا خائف! أنا أحمق كبير!

رفعت:

.. إذن - وقد أثبتّ وجود أذنين كبيرتين - يُمكنك الفرار...

الصوت (هامسًا):

لا أستطيع عبور الصالة.. سيراني! ولكن.. ها هو ذا يدخل الحمام.. أعتقد أنه لم يرني قط.. صوت مياه.. إنّه يفعل شيئًا ما بالداخل.. ثم.. هو ذا عائد إلى غرفة النوم.. لقد اطفأت الكشاف.. الظلام دامس إلا من ضوء الرجل الخاص.. إنّه يرمق غرفة الهاتف في ريبة.. لو دنا مني فلسوف....

حمدًا لله! إنّه يواصل مسيرته..

لقد اختفى عن عيني أخيرًا..

رفعت:

أشباح هذا البيت غريبة حقًّا.. بعضها جائع وبعضها مصاب بسلس البول..

شريف:

هذا طبيعي.. فهم يمارسون حياتهم كما كانت.. واضح أن ذا المنامة الخضراء هو (يوسف إسحاق) ذاته..

الصوت:

من جديد يسود الصمت.. سأنير الكشاف من جديد...

الشقة خالية تمامًا.. سأحاول الآن أن أقوم بجولة تفقدية.. سأرى ما يوجد في غرفة النوم هذه!

شريف:

لا تفعل! لقد أثبتّ ما تريد.. حاول الآن إثبات سرعتك في الركض..

الصوت:

لا.. لا بد من أن.. لكنّ لحظة! هذه المرّة توجد فتاة شابة حسناء.. إنها في السادسة عشرة من عمرها أو أكثر قليلًا.. ترتدى قميص نوم أسود.. إنها تعبر الصالة.. بل هي تتجه إلى.. إلى الغرفة التي أنا فيها!

رفعت:

لا بد أنها من ضحايا السفاح.. هلا حاولت أن.....؟

(صوت صرخة أنثى)..

هيه؟ ماذا يحدث عندك؟

صوت فتاة:

بابا! ماما! تعاليا حالًا (يبتعد الصوت)..

الصوت:

حسن.. لقد فرت مني.. والآن يا دكتور (رفعت) حان وقت الوداع.. لقد استمتعت بالحديث معك.. وأعدك أن أكرر التجربة مرارًا..

رفعت:

ما هو اسمك يا سيدي؟

الصوت:

اسمي هو.. (يوسف)!

(صوت ضجيج.. أشخاص يتحدثون في صوت واحد)..

صوت الفتاة:

هو ذا! أقسم إنني وضعت السماعة بنفسي قبل النوم.. وها هي ذي مرفوعة وموضوعة جوار الهاتف!

(صوت رجل):

إذن لم تكوني أنت في حجرة الجلوس! لقد رأيت الضوء وحسبتك تحدثين (نرمين) كعادتك ليلًا.. بل سمعت صوتًا..

(صوت امرأة):

إذن هو (بسم الله الرحمن الرحيم) كما قالوا لنا! إن الشقة مسكونة!

الرجل (غاضبًا):

اصمتي ولا تكوني بلهاء.. الأشباح لا تتسلى بالكلام في الهاتف ليلًا..

الفتاة:

لكن.. هناك شخصًا ما على الطرف الآخر من الخط!

الرجل في حزم:

آلو!

رفعت:

د. (رفعت إسماعيل) يا سيدي.. مساء الخير!

الرجل:

مساء الهباب! من أقحمك على الهاتف؟

رفعت:

إن لدى بعض الاستنتاجات.. لكنّ قل لي أولًا: هل ترتدي منامة خضراء؟

الرجل:

أتعاكس في ساعة كهذه يا وقح؟

رفعت:

إن أساليب المعاكسة الهاتفية متعددة.. لكنّها لا تتضمن أن أرفع السماعة من عندك بالتأكيد.. هذا أسلوب فذ للمعاكسة.. قل لي: منذ متى جئت إلى هذه الشقة؟

الرجل:

منذ أسبوع.. لماذا تسأل؟

رفعت:

لأنني أثرثر منذ ساعة مع من يُدعى (يوسف).. وقد جعلني أعتقد أنه هو الضحيّة وأنتم الأشباح.. تصبحون على خير يا سيدي.. (يضع السماعة)..

شريف:

هل.. هل تعتقد؟

رفعت:

بالطبع.. لقد عرفت أشباحًا كثيرة مصابة بالملل وترغب في المزاح القاسي مع البشر.. وأعتقد أن ساكن الشقة رقم (٩) الجديد لن يظل بها طويلًا.. لقد كنا نحدث (يوسف إسحاق) ذاته!

شريف:

والشطائر.. والكشاف.. والشقة الخالية من الأثاث.. والمسدس؟

رفعت:

كذب.. ألاعيب لا أكثر.. لقد كان في كلامه شيئان أثارا انتباهي للحظة ثم نسيت الأمر.. لقد تحدث عن المقاومة الفرنسية للنازيين باعتبارها ذكرى قريبة جدًا (وما زالت تحدث).. ثم هو يتحدث عن مسدس ألماني من مخلفات الحرب.. كيف يحصل شاب مصري في عام ١٩٦٩ على مسدس ألماني من عام ١٩٤٣؟ إن الشبح ما زال يعيش بعقلية عام ١٩٤٦ الذي شنق فيه!

شريف:

إذن تسلل أثناء نوم الأسرة إلى الهاتف ليتصل بنا..

رفعت:

أعتقد هذا.. وأعتقد أيضًا أن حياة الأسرة ستكون مفعمة بالمفاجآت طالما أقامت فترة أطول في الشقة رقم (٩) هذه..

* * *



الحلقة الخامسة

قُل لى يا (أونكل)

تحكيها : نهال فاروق

الحلقة الخامسة
(قُلْ لي يا "أونكل")

تحكيها: نهال فاروق

«إن وجود تمثال للشيطان ـ والعياذ بالله ـ في مكتبك لأمر جدير بإثارة الريبة في حالتك النفسية والعقائدية».

المقـدمــة

شريف:

مساء الخير.. أو ـ للدقة الجغرافية ـ صباح الخير.. إن مذيعكم (شريف السعدني) معكم على الهواء مباشرة.. لنبدأ برنامجكم المفضّل (بعد منتصف الليل).. والبرنامج كما تعرفون قائم على تلقي مكالماتكم التي تحكي قصصًا مثيرة أو مرعبة..

رفعت:

إن قصصكم هي وقود آلة الرعب التي لن تتوقف أبدًا..

شريف (في عتاب):

هذه كلمتي المفضلة..

رفعت:

أرحت نفسي من سماعها للمرة المليون.. إن الوقوف خلف المدفع يختلف كثيرًا عن الوقوف أمامه... وأن تثير أنت ملل الآخرين لخير من أن يثيروا هم مللك.. و.. (رنين الهاتف)...

شريف:

آلو! هل لي أن أتشرف بمعرفة المتحدث؟

صوت غليظ:

أنا (عباس).. لقد استمعت إلى الحلقة السابقة من البرنامج وبدت لي سخيفة.. أنتم تستخفون بعقول المستمعين..

شريف:

أكرر مرّة أخرى أن المستمعين هم صانعو الحلقة لا نحن.. لكني لا أفهم ما لم يرق لك بالضبط..

عباس:

موضوع الرجل الذي يحاصره الذباب حيثما ذهب.. تقولون إنها لعنة معينة جعلته لا يجد لحظة راحة واحدة[8]..

أنا شخصيًا محاط بحشد هائل من الذباب.. دون أن أرى في هذا ما يستحق التهليل والتحليل..

رفعت:

لا يصعب عليّ استنتاج مشاكلك مع مياه الحمام.. على كل حال أعدك بألا نستخف بعقول المستمعين ثانية..

(رنين الهاتف من جديد)..

شريف:

مرحبًا.. (شريف السعدني) يتحدث.. من معي؟

صوت طفلة:

أنا (نهال) يا أونكل (شريف).. (نهال فاروق)..

شريف:

أرجو ألا يكون اتصالك جزءًا من طقوس العشاء..

نهال:

لا أفهم.. أنا في السابعة من عمري.. في الصف الثاني.. ما معنى (طقوس)؟ إن أبلة (مها) لم تعطها لنا في المدرسة..

شريف:

لا عليك.. هل أنت وحدك؟

نهال:

بابا نائم.. وماما سافرت..

شريف:

سافرت؟ إلى أين؟

نهال:

لا أدري.. مرضت طويلًا ثم لم تعد إلى البيت.. بابا يقول إنها سافرت**!** لم أرها منذ عام.. (مايسة) تقول إنها ماتت.. أنا لا أدري كيف يموت الناس.. ربما مثل ما حدث للكتكوت الذي ابتاعه بابا من السوق لي.. فجأة لم يعد يأكل ولا يشرب ولا يزقزق.. صار نائمًا طيلة الوقت.. بعدها قال بابا إن الكتكوت قد مات.. ودفناه في الحديقة في علبة شاي قديمة..

شريف:

وهل حزنت عليه؟

نهال:

قليلًا.. لم يكن مسليًا جدًا.. لكنّ ماما كانت طيبة وتغني لي قبل النوم..

شريف:

لكن ماما سافرت ولم.....

(هنا نظرت له نظرة جعلته يسكت.. لا داعي للاسترسال في الخداع المزري لهذه البائسة الصغيرة.. إن الصمت هو خير سياسة)..

لماذا اتصلت وحدك يا (نهال)؟ ماذا أبقاك ساهرة إلى هذه الساعة؟

نهال:

أنا.. أنا خائفة يا أونكل..

رفعت لـ (شريف):

هذا هو بيت القصيد.. إن خوف الأطفال يخفي دائمًا أتفه الأسباب أو أشنعها..

نهال:

هل أحكي القصة من أولها؟

شريف:

طبعًا.. طبعًا.. خذي راحتك..

نهال:

بابا يعمل في الآثار.. إنّه يبحث عن آثار هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون في مصر زمان.. وقد أخذنا كثيرًا إلى المتحف المصري وإلى الأقصر وأسوان.. رأينا هناك تماثيل كبيرة جدًا.. وأخذنا إلى السيرك في العام الماضي حيث رأينا الأسود..

رفعت (في حنان):

هكذا الأطفال.. أفكارهم خيول جامحة لا تثبت على درب واحد.. كنت تتحدثين عن آثار قدماء المصريين يا حلوة.. لسنا في السيرك هنا..

نهال:

نعم.. نعم.. الآثار.. كان بابا يحضر إلى البيت كثيرًا من الأشياء.. أشياء حلوة.. تماثيل.. أوراق صفراء ملفوفة.. وفي مرة أحضر يد فتاة قديمة.. لم يرني إياها.. لكني دخلت مكتبه لألعب ووجدتها في الدرج.. يد سوداء قبيحة خفت منها كثيرًا.. لكنّ بابا قال لي إنها لا تؤذي..

رفعت:

والدك يحضر معه ما يجده من آثار؟!

نهال:

نعم.. ثم يأتي عمو (صليحة).. ويشتريها منه.. إنه يأتي دائمًا ليلًا.. وهو يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة!

رفعت:

والدك يبيع الآثار لـ (عمو صليحة) هذا!

نهال:

نعم.. نعم.. (تبتلع ريقها من فرط الحماس).. وبابا يشتري لنا الأكل وأشياء حلوة كثيرة بهذا المال!

رفعت:

إن الأطفال لا يحفظون سرًا.. الآن أنا متأكد من أن أباها نائم في عمق..

نهال:

وفي يوم من الأيام أحضر بابا لنا تمثالًا صغيرًا لست.. تمثالًا وجده وهو يحفر..

شريف:

(ست)؟ تعنين امرأة؟

رفعت:

بل (ست) إله الشر عند الفراعنة وعدو (أوزيريس) اللدود.. إن حفظ الاسم ليس عسيرًا على الأطفال يا (شريف)..

نهال:

كان التمثال مخيفًا.. لكنّ بابا ظل يتأمله طيلة الليل.. كلما صحوت وذهبت إلى الحمام أجده جالسًا في الصالة ينظر للتمثال بنفس الطريقة..

ماما لاحظت ذلك.. وقالت لي (هذا التمثال ملعون).. لم أفهم ما تعنيه يا أونكل (رفعت).. لكن هذا هو ما قالته..

في الصباح قال بابا نفس الكلام.. لكنه لم يرم التمثال أو يبيعه.. بل وضعه على المكتب.. ومن يومها وهو هناك..

رفعت:

هذا شائق.. يبدو أن التمثال مس شيئًا ما في أعماقه.

شريف:

لكن (ست) لا وجود له.. إنّه مجرد إله وثني.

رفعت:

بعض المفكرين يرون أن (ست) محاولة وثنية متخلفة للتعبير عن الشيطان.. إن وجود تمثال للشيطان ـ والعياذ بالله ـ في مكتبك لأمر جدير بإثارة الريبة في حالتك النفسية والعقائدية..

نهال (محنقة):

هل ستتكلمان.. أم تتركاني أتكلم؟

شريف:

بل سنخرس يا (نهال).. تأكدي من هذا..

نهال:

بعد أسبوع من حصول بابا على تمثال (ست) جاءنا عمو (صليحة) ليلًا.. دخلت لهما بالشاي الذي أعدته ماما.. كانا يتشاجران بصوت عالٍ - بابا وعمو - ولم يلاحظا دخولي الحجرة.. مثلًا كان بابا يقول له (أنت لص! ما زلت مدينًا لي بألف جنيه).. وعمو (صليحة) يقول (عليا الطلاج لن تتقاضى مني مليمًا أحمر)...

شريف (بحذر):

هل تعرفين معنى (عليا الطلاج) هذه؟

نهال:

لا.. سمعتها مرة في السينما.. يبدو أنها قسم ما.. المهم أنهما كانا يقولان كلامًا كثيرًا من هذا النوع.. كان بابا غضبان جدًّا.. ولم يشرب عمو (صليحة) الشاي.. بل نهض وقال (أنت المسئول يا فاروج بيه)..

هنا رأيت بابا ينظر له.. ينظر له نظرة مخيفة.. رأيت لون (النني) في عين بابا قد صار أحمر.. أقسم لك يا أونكل.. (عليا الطلاج) كان أحمر!

رفعت (في ضيق):

هذا هو أثر السينما وعدم انتقاء الكبار لألفاظهم أمام الأطفال.. (نهال).. هذه الكلمة سيئة وبذيئة جدًّا.. أفهمت؟



نـهال:

حسن.. المهم أنني خفت من بابا كثيرًا.. يبدو أن عمو (صليحة) أيضًا قد خاف لأني رأيته يرتعش.. يرجع للوراء.. ثم يترك الدار سريعًا.

ثم.. ثم ظل بابا جالسًا وقد غطى وجهه.. كان يرتجف.. وأفزعني كثيرًا.. فجأة سمعنا صوت فرملة من الشارع..

كان هناك ناس كثيرون.. وبابا منعني من الخروج.. لكني سمعته يقول لماما بعد ما عاد من الخارج إن عمو (صليحة) داسته عربة..

لقد مات كتكوتي الصغير.. في هذه الليلة لم أنم قل لي يا أونكل.. هل سيضعونه في علبة شاي ويدفنونه في الحديقة هو الآخر؟

رفعت:

لا يا (نهال).. فلا توجد علبة شاي تناسب حجمه.. للأسف..

نهال:

بعد هذا جاء دور عمو (فرج) الجنايني..

شريف:

آخرون؟ هذا مريب حقًّا..

نهال:

كنت أحبه كثيرًا.. كان يعطيني الخرطوم لأروي الزرع بدلًا منه.. وفي مرة اصطاد يعسوبًا وربط ذيله بخيط.. وجعلني أمسكه..

وجدته يتشاجر مع بابا.. يبدو أن بابا طلب منه شيئًا ولم يفعله.. هنا لمحت بابا ينظر له ذات النظرة.. كان (النني) أحمر في عينه.. وراح عمو (فرج) يرتجف...

في المساء جاء الطبيب وقال إن عمو (فرج) مريض جدًا.. في اليوم التالي لم يعد موجودًا.. قالت ماما إنّه سافر..

رفعت:

وماذا فعل والدك؟

نهال:

لا شيء.. أحضر تمثالًا آخر لامرأة ترضع طفلًا ووضعه جوار تمثال (ست).. لكنه ظل يجلس أمام (ست) كثيرًا جدًا..

رفعت:

(إيزيس) وابنها (حورس).. لقد ظن (فاروق) بيه أن (إيزيس) قد تملك القدرة على مقاومة شر (ست).. كما ظن الفراعنة قديمًا.. لكني أتساءل: لماذا لم يتخلص من التمثال؟

شريف:

لقد استحوذ على روحه تمامًا.. هذا واضح.. وبعد هذا يا (نهال)؟

نـهال:

بعد هذا تشاجر بابا مع جارنا.. يبدو أن طانط (سمية) قد جعلت خادمها يُلقي القمامة في حديقتنا.. ونجح الجيران في مصالحتهما..

لكن عمو (صبري) - جارنا - مات في حريق كبير في الليلة ذاتها.. كانت النار تتصاعد من بيتهم... وجاءت عربة المطافئ بلونها الأحمر الجميل.. أنا أحب عربة المطافئ.. لكني كنت خائفة من النار..

رفعت:

ألم تقل أمك شيئًا؟

نـهال:

صحوت من النوم لأجدها تقول لأبي إنها مندهشة أو شيء من هذا القبيل.. قال لها بابا إنّه لا يعرف السبب.. لكنه يعتقد أن (اللى يجي عليه مايكسبش)..

رفعت:

وهل كان والدك معكم حين حدث الحريق؟

نـهال:

طبعًا.. كنا نتفرج على فيلم مضحك جدًا في التلفزيون.. لكنّ بابا كان شاردًا.. وأكثر من مرة غطى وجهه بيده..

بعد هذا تشاجر أبي مع ضابط مرور.. وسمعت بعدها أن الضابط مات ببطنه.. إنّه ذلك الشيء الذي ينفجر..

رفعت:

الزائدة الدوديّة! لا يمكن اتهام أحد هذه المرّة.. لكني ألاحظ إن أباك كثير الشجار حقًّا؟

نـهال:

ماما تقول إن بابا (دمه حامي)..

لكني رحت أسألها: لماذا يموت أو يسافر كل واحد يتشاجر مع بابا؟

قالت لي (اللى ييجي على بابا مايكسبش)..

لكنها تشاجرت معه هي أيضًا!

رفعت:

حقًا؟ أكان هذا منذ عام تقريبًا؟

نهال:

نعم.. صحوت عند منتصف الليل على صوت الصراخ، كانت أمي تقول كلامًا مثل (لقد أفسدت حياتنا) و(تخلص منه أرجوك).. وبابا يقول لها (أنت جاهلة) و(أبعد كل هذا التعب؟)..

مشيت حافية لأسمع أكثر..

ومررت أمام باب غرفة المكتب المفتوحة.. عندما.....

شريف:

آه ه ه! ومـ.. ماذا رأيت؟

نهال:

كان التمثال يضيء بضوء أحمر.. ضوء يخرج من العينين.. مثل اللعبة التي تعمل بحجارة البطارية عندي.. لعبة دب تضيء عيناه وأنفه.. ويمشي وهو يدق طبلًا..

في نفس الوقت سمعت ماما تصرخ:

- «(فاروق).. لماذا تنظر لي هكذا؟ (فاروق)! ماذا أصاب عينيك؟»

وبعدها انطفأت عينا التمثال..

وجريت أنا خائفة إلى الفراش.. فغطيت وجهي وأنا أرتجف..

رفعت:

لـ (شريف): هذا الجزء يفسر كل شيء.. إن التمثال هو المعادل الموضوعي للأب.. وهو يرسل إشارة الشر إليه في لحظات الغضب..

لـ (نهال): بعد هذا مرضت أمك طبعًا؟

نهال:

في الصباح لم تنهض من الفراش.. ولم تعد لنا الإفطار مع دادة (سعدية).. وقال بابا إنها مريضة.. وجاءت خالتي (زهيرة) لتأخذني لدارها حيث ألعب مع (مايسة) و(مجدي)..

بعد أسبوعين عدت للبيت حيث أخبرني بابا أن ماما مسافرة.. ومن يومها وأنا أعيش مع بابا وحدنا..

أنا أحبه كثيرًا.. لكني خائفة منه ومن التمثال.. وخائفة من أن يتشاجر معي وتحمر عيناه...

رفعت:

لهذا نهضت من النوم وجئت تتصلين بنا.. كيف عرفت الرقم؟

نهال:

بابا كان يريد أن يكلمك! وجدت النمرة جوار الهاتف..

والآن قل لي يا أونكل.. ماذا أفعل؟

رفعت لـ (شريف):

يمكننا الآن فهم القصة.. إن تمثال (ست) قد أصاب الرجل بلعنة خاصة جدًا: إن من يثير غضبه يحكم على نفسه بالموت.. ونظرته شبيهة بعلامة (الليزر) الحمراء التي يصوبون بها على الهدف في البنادق الحديثة..

والآن اسمعي ما أقول يا (نهال) ونفذيه حرفيًا.. هل أنت خائفة من الخروج إلى الحديقة الآن؟

نهال (بعد صمت محرج):

نعم؟ أنا خائفة.. لا.. لا.. لست خائفة!

رفعت:

هذا جيد.. الخطر لا يكمن في الحديقة بل في هذا البيت الذي تتكلمين منه.. قولى لي.. هل عندك علبة صغيرة؟ أي علبة؟

نهال:

نعم.. نعم.. عندي علبة كبيرة كنت أضع فيها دميتي..

رفعت:

حسن.. ستدخلين إلى المكتب الآن.. وتضعين تمثال (ست) مع التمثال الآخر - تمثال الأم - في ذات العلبة.. بعد هذا تخرجين إلى الحديقة.. وتدفنين العلبة كما فعلت بالكتكوت.. مفهوم؟

نهال (في تردد):

لكن.. لكنّ.. الظلام.....

رفعت:

الظلام ليس مخيفًا.. المخيف هو ما ينتظرك لو لم تفعلي ما أقول..

شريف:

ماذا تحاول عمله بالضبط؟

رفعت:

لا أدري هل تنجح أم لا.. إن (إيزيس) هي عدو (ست) الدائم.. (إيزيس) هي الجمال والأمومة والخصوبة والحنان.. ربما لو دفناها مع (س) كانت قادرة على إبطال شره..

شريف:

كلام نظري أكثر من اللازم..

رفعت:

هيا يا (نهال).. تحركي..

نهال (مذعورة):

لا وقت يا أونكل.. لقد استيقظ بابا! قل لي يا أونكل: ماذا أفعل؟

صوت غليظ يمسك السماعة:

آلو! لقد كنت أتنصت لسماع ما تقوله (نهال) يا دكتور (رفعت).. عرفت أنها تحدثك.. وأنها جعلت من أبيها وحشًا كاسرًا مرة.. وضحية للسحر الأسود مرّة أخرى.. هذه الفتاة تهرف يا د. (رفعت).. تهرف.. ولسوف أعرف كيف أربيها!

نهال (في هلع):

لاااه! إنني أقول الصدق يا أونكل! (صوت نزاع على سماعة الهاتف).. بابا! لا تنظر لي هكذا! ماذا دها عينيك؟

رفعت (صارخًا):

(نهال)! افعلي كما قلت! اركضي إلى المكتب حالًا..

نهال:

سأفعل.. سأفعل! (صوت خطوات تركض)..

الأب (صوته يبتعد):

أيتها اللعينة! سأعرف كيف.....

(صوت مطاردة، صراخ، أبواب تنغلق)..

شريف:

ليتني أعرف ما يدور هناك...

رفعت:

إن أسلوب الهاتف هذا يشعرني بالعجز.. لا أذكر كم مرة سمعت صوت جريمة قتل وأنا لا أدري كيف أتصرف...

الأب (لاهثًا):

لقد فرت المجنونة إلى الحديقة ومعها تمثال فرعوني كان على مكتبي.. لن أجدها في هذا الظلام.. هلا فسرت لي ما يحدث هنا؟

رفعت:

أعتقد ـ بعد هذه المكالمة ـ أنك الأجدر بالتفسير..

الأب:

تفسير ماذا بالضبط؟

رفعت:

مصرع (صليحة).. ومصرع الجنايني (فرج).. وجارك الذي تشاجرت معه.. ورجل المرور... وزوجتك..

الأب:

أولًا: زوجتي تعاني من السرطان منذ عامين.. إنها نهاية محتومة..

ثانيًا: الجنايني أصيب بأزمة قلبيّة وهذا مسموح به كما أظن..

ثالثًا: جاري أحمق حاول إحراق القمامة في حديقته ولم يدر أن الريح تتحرك في اتجاه داره.. أمّا عن رجل المرور فلا أعرف عنه شيئًا.. ومن العسير أن أتشاجر مع رجل مرور عمومًا..

رفعت:

لماذا؟

الأب:

لأنني لا أملك سيارة.. هذا من حقي على ما أظن..

رفعت:

وماذا عن تاجر الآثار (صليحة) هذا؟

الأب:

لماذا أتعامل مع تاجر آثار وأنا محام؟!

رفعت (مذهولًا):

محام؟ محام؟ لكنّها قالت.....

الأب:

نعم محام يا سيدي.. هو ذا عنواني (يذكر العنوان) ورقم هاتفي (يذكر الرقم).. يُمكنك أن تتصل بهذا الرقم للتحقق من المعلومة التي أؤكدها.. إن لي صديقًا يدعى (صليحة).. لكنه حي يرزق حتى هذه اللحظة..

رفعت:

وتمثال (ست) هذا؟

الأب:

لدي تمثال فرعوني في مكتبي ابتعته من (خان الخليلي).. ولا أدري من يمثل.. إن التماثيل الفرعونية كلها تتشابه..

شريف:

لكن (نهال) حكت قصة معقدة جدًا عن لعنة (ست) التي أصابتك، وجعلت لك نظرة مهلكة لكل من يثير غضبك..

الأب:

هذه هي مشكلة الطفلة.. إنها تعيش في عالم خيالي دائم.. وتخلط بين الحقيقة والخيال.. إنها لا تثق بي.. وتؤمن بأنني أحاول الفتك بها.. يقول الطبيب النفساني إن هذا ناجم عن مشاجرتي الأخيرة مع أمها والتي تلاها تدهور الأم مباشرة.. ثم إرسالها لتعيش عند خالتها.. وحين عادت كانت الأم قد ماتت - رحمها الله - وقيل لـ (نهال) إنها قد سافرت.. كل هذا جعل (نهال) تعتقد أنني خصمها.. وأنني سبب فقدها للأم.

ثم إن (نهال) تملك هواية تلفيق أحداث لم تكن، ولها موهبة قصصية غير عادية.. وذكاء يفوق عمرها بمراحل...

لقد داعبت الجميع مداعبة قاسية.. خدعتكم وأساءت إلى سمعتي.. لكنّ الحقائق لا تخرج من أفواه الأطفال دائمًا.. أنا كرجل قانون أعرف هذا....

رفعت:

الحق أنّ هذا وضع محير يا أستاذ (فاروق).. كلامك يحتمل الصواب تمامًا.. وكلامها يحتمل الصواب تمامًا.. من العسير معرفة الحقيقة..

على كل حال.. أشكرك.. وأرجو أن تعاود البحث في الحديقة عنها.. وحاول ألا يؤذيها شيء في الأيام القادمة، وإلا تأكدنا من صواب قصتها.. (يضع السماعة)..

شريف:

ما رأيك في كل هذا؟

رفعت:

لحظة.. ليس قبل أن أطلب الرقم الذي ذكره.. لقد دونته هنا.. (يدير قرص الهاتف.. صوت رنين متصل)..

شريف:

لا أحد هنالك..

رفعت:

هذا دليل كاف على صدقه.. من الطبيعى أنه يبحث عنها في الحديقة الآن.. ولو كان الرقم زائفًا لرد علينا شخص متذمر أو امرأة مذعورة إثر الاستيقاظ من النوم.. وعلى كل حال يمكننا التأكد من العنوان غدًا...

شريف:

ألاعيب الأطفال هذه!

رفعت:

لن نكف عن التعلم طيلة حياتنا.. وفي كل لحظة ندرك أننا مازلنا سهلي الخداع كالأطفال.. لكنني أؤمن بأن هذا البيت يحوي مأساة إنسانية حقيقيّة آمل أن يعالجها الأطباء..

نعم نحن لن نكف عن التعلم وارتكاب الحماقات، حتى تحين ساعتنا وندفن في صناديق شاي كبيرة تحت تراب الحديقة..

* * *



الحلقة السادسة

الحـــافلـــة

يحكيها : عباس الدكروري

الحلقة السادسة
(الحافلة)

يحكيها: عباس الدكروري

«لا شيء على الإطلاق.. الشارع المقفر المظلم في ضوء واهن لعمود نور واحد نسيت البلدية أن تهشّم مصباحه.. لا شيء.. لا فتاة.. لا رجل..»

المقـدمــة

شريف:

صباح الخير أعزائي.. هو ذا (شريف السعدني) معكم في الساعات الأولى من يوم الجمعة.. ونحن بانتظار قصتنا التالية التي أرجو ألا تقل جودة عن قصة الأسبوع الماضي..

رفعت:

هذا ما أرجوه.. وأتعشم أن تخلو من مصاصي الدماء والمذءوبين والقبور المفتوحة لأن هذا قد صار مملًا..

شريف:

إن هذه هي مفردات الرعب يا د. (رفعت)..

رفعت:

بالعكس.. هذه هي مفردات الرعب لدى القصص المصورة ومجلة (د. س. كوميكس).. لكنّ الرعب عالم لا ينتهي.. وكما قلت لك في أول حلقة إن الرجفة التي تشعر بها حين تجد جهاز التلفزيون يعمل وحده، لتعادل أي رعب تحدثه الوطاويط والموميأوات الحية.. ثم إن هناك بعد الرعب النفسي.. حين تشعر بانك عاجز عن معرفة ذاتك.. شيء ما في داخلك يتغير ولا تدري كنهه..

(رنين الهاتف)..

شريف:

آلو! من المتكلم؟

صوت قلق:

أشعر أنني عاجز عن معرفة ذاتي.. شيء ما في داخلي يتغير.. ولا أدري كنهه!

رفعت:

يا لها من مصادفة! إنّه يمزح إذن؟

شريف:

لا أظن.. ما كان ليملك رد فعل بهذه السرعة.. من أنت يا سيدي؟

الصوت:

أنا.. أنا..... (يغلق السماعة)..

شريف:

لقد أنهى المكالمة.. دعابة ثقيلة هي حقًّا..

رفعت:

الحق أنه اتصل بنا أسرع من اللازم كما تقول.. وإنني لأتساءل..... (رنين الهاتف)..

شريف:

آلو.. هل أنت الأخ الذي يتغير داخله؟

صوت غليظ:

عم تتحدّث؟ أنا (عباس الدكروري)..

شريف (متداركًا):

مرحبا بك في برنامجنا يا أخ (عباس).. يُمكنك أن تحكي مشكلتك..

عباس:

أنا.. أنا محصل التذاكر في حافلة.. لن أذكر رقمها ولا الخط الذي أعمل عليه.. لا أريدهم أن يعرفوا من أنا.....

شريف:

تفكير حويط لولا أنك ذكرت اسمك الكامل..

عباس:

بالطبع هو اسم مستعار.. ظننتك نبيهًا متعلمًا لتحدس ذلك..

رفعت:

(عباس الدكروري)! اسم معقد جدًا كي يتم ابتكاره.. إنك تملك موهبة أدبية لا شك فيها يا أخ (عباس)..

عباس:

كان هذا هو اسم (صول) عرفته في الجيش.. وهو ما تبادر إلى ذهني قبل الاتصال.. المهم.. دعنا من هذا الكلام الفارغ..

قلت لكما إننى محصل تذاكر.. وقد فرغت من عملي منذ ساعتين.. لقد حكيت مشكلتي للجميع لكنّ لا أحد يهتم بها ولا أحد يصدّق..

لهذا أردت أن أجرب هذا البرنامج...

أتحدث إليكما من هاتف البقال الذي أسهر معه حتى الفجر.. إنّه صديقي الوحيد.. ومحله تحت داري مباشرة.. لكنه ليس جواري الآن ليسمع حرفًا مما أقول.. (صوت قرقرة).. لا أستطيع النوم مالم آخذ كرسيًا من المعسل معه.. (صوت قرقرة)..

رفعت:

جميل منك أن تبدأ بوصف الظروف البيئية.. لكني أقترح أن تدخل في الموضوع مباشرة..

عباس:

(سعال).. كح كح! توه توه! صبرك عليّ! كح كح! كنت أقول إنني محصل.. محصل ماذا؟

رفعت:

تذاكر.. على خط لن تذكره..

عباس:

الله ينور عليك.. (صوت قرقرة).. بدأ كل شيء من شهر.. لا بل من شهرين.. كنت أعمل في وردية المساء.. وأنا أحب العمل مساء لأنّه أكثر راحة.. الازدحام قليل.. وضغط العمل معقول جدًا.. ثم إن زبائن الليل أكثر هدوءًا وأقل عصبية، وأكاد أعرفهم واحدًا واحدًا.. فهم يتكررون أكثر الوقت..

صعدت تلك الفتاة إلى الحافلة، ومدت يدها بورقة نقد تطلب تذكرة.. كنت جالسًا في مقعد المحصل نصف غاف.. لكني رأيت أمامي أجمل وجه رأيته في حياتي.. أية تقاطيع! أية عينين! صحيح أنها كانت نحيلة ـ وأنا أحب البدينات ـ وصحيح أنها ترتدي السواد.. لكنّها كانت أجمل الجميلات حقًّا..

وجلست جوار النافذة على مقربة مني.. وراحت تتامل الشوارع في شرود.. ثم مدت يدها إلى حقيبتها فأخرجت شطيرة راحت تقضم منها وتواصل النظر من النافذة..

لم ترفع عينها قط.. ولم تدر بنظرها في المكان.. (صوت قرقرة).. صدقني.. والله على ما أقول شهيد..

بعد ثلاث محطات صعد هو.....

جدار آدمي يرتدي جلبابًا أزرق.. في عينيه حول بسيط.. ناولني ثمن التذكرة ثم مشى بين المقاعد.. توقعت أنه (نطع) وأنه سيجلس جوار الفتاة الوحيدة ليضايقها.. لكنه مشى إلى مقعد خال على بعد صفين منها وجلس.. وراح ينظر خارج النافذة..

عدت أختلس النظر إلى الفتاة، فوجدتها قد تغيرت كثيرًا.. لم تعد تنظر خارج النافذة.. بل هي تنظر إلى الرجل في رعب.. وحياتك لم أر رعبًا كهذا في حياتي.. لقد كفت عن ازدراد الشطيرة.. ثم كومت ما بقي منها في ورقة جريدة وأعادتها لحقيبتها..

كانت خائفة حقًّا.. ورحت أسأل نفسي: ترى يا بنت الناس لماذا أنت خائفة هكذا؟ أتراه لص حقائب يطاردك؟ أتراه ممن يهاجمون النساء وانت فارة منه؟ أتراه زوجًا يحاول استردادك بعد الطلاق أم خطيبًا غيورًا؟ أم ماذا؟

ثم قلت لنفسي: لا تتدخل فيما لا يعنيك يا (فؤاد).. ربما الفتاة لصة يطاردها هذا المخبر.. لم لا؟ هذا الجسد العملاق لا بد أن يكون لمخبر.. (صوت قرقرة)..

في المحطة التالية لم ينزل أحد.. وصعد شاب رقيع مراهق من أولاد هذه الأيام.. وطبعًا لم يجد الوغد مكانًا للجلوس سوى المقعد الشاغر جوار الفتاة.. وراح يبتسم ويتمحك محاولًا تعرفها.. بيني وبينك.. أنا لا أطيق المسخرة.. لهذا أمرته في حزم وعيني تطق شررًا أن يجد لنفسه مقعدًا آخر.. قال لي في رقاعة إنّه قطع تذكرة ومن حقه أن يجلس حيث يشاء.. فأطلقت عليه سيلًا من السباب لن أذكره هنا لأننا على الهواء.. المهم أنه قام ووجهه كالطماطم عاجزًا عن غلق (جاعورتي) التي انفتحت..

رفعت:

متى ستبدأ القصة يا أخ (فؤاد)؟

عباس (سيصير اسمه [فؤاد] من الآن):

كـ.. كيف عرفت اسمي؟

رفعت:

هذه مهنتي.. أن أعرف أشياء تحاول إخفاءها.. والآن هلًا بدأت سرد المشكلة؟

فؤاد:

ليكن.. غريب أن تعرف اسمي وأنا لم أقله.. ما علينا.. أين كنا؟ آه.. حين زجرت الولد الرقيع الخنفس.. يبدو أنّ هذا جعل الفتاة تعتقد أنني قادر على حمايتها..

رأيتها ـ للمرة الأولى ـ تنظر في اتجاهي..

ثم نهضت محاولة ألا تفقد توازنها بينما الحافلة تتحرك، وجلست على المقعد المجاور لي تمامًا.. وقالت كلامًا كثيرًا..

أعني أنني لم أفهم حرفًا في البداية لأن صوتها كان خفيضًا جدًّا.. ثم بدأت أفهم أنها تطالبني بحمايتها من ذي الجلباب الأزرق.. كان ضمن ما قالته هو أنه يريد قتلها.. وأنه يقتفي أثرها عبر شوارع المدينة منذ ثلاث ساعات.. وأنها حاولت الفرار أو أن تفقده عبر المواصلات لكنه كان يجدها دائمًا..

طبعًا ـ (صوت قرقرة) ـ سألتها عن السبب الذي يجعل ذلك (النطع) يرغب في قتلها.. لكنّها قالت إنها لا تدري..

كح كح! وأنت تعرف بالضبط أن آخر شيء يمكن للرجل أن يرفضه، هو تقديم العون لفتاة حسناء تستغيث به.. ساعتها يمكنه أن يحرك الجبال أو يشرب النيل كله.. وكان في مقدوري وقتها أن أمزق هذا الرجل تمزيقًا.. لكنّ المشكلة هي أنه حتى هذه اللحظة كان جالسًا مهذبًا وفي حاله، يتسلى بمراقبة الشارع..

إذن فلأطلب من السائق أن يتجه إلى قسم الشرطة.. لكن الفتاة توسلت إلى ألا أفعل..

إذن ما هو المطلوب مني بالضبط؟

لا شيء.. كل ما تريده هو أن أظل بجوارها حتى نهاية الخط.. فقد يسبقها الرجل بالنزول أو يشعر بأنها ليست وحيدة..

ثم خطرت لي فكرة أفضل..

قلت لها أن تنزل في المحطة التالية.. وتعود لدارها بالمواصلات. عرفت أنها من (السيدة زينب) ـ وأنا سأتأكد من أن الرجل لن يهبط وراءها.. وقلت لنفسي إنها لو كانت صادقة سيتحرك الرجل مستعدًا للنزول بمجرد أن تصل هي إلى الباب..

وبعد ثوان توقفت الحافلة فأشرت لها كي تهبط...

فما إن وصلت إلى درجات السلم حتى رأيت الرجل يتأهب للنهوض.. مشيت نحوه.. وصحت فيه:

ـ «أين تذكرتك يا هذا؟ ألم أطلبها منك؟»

وأطلقت صفارتي كي تتحرك الحافلة قبل أن يجد ردًا...

أرغى الرجل وأزبد وهتف يصيح بالسائق:

ـ «انتظر! إن هذه محطتي..» ـ ثم صاح في وجهي ـ «هل تتعاطى شيئًا؟ ها هي ذي تذكرتي.. هل أفقأ بها عينيك؟»

كانت الحافلة قد تحركت مسافة معقولة مبتعدة عن الفتاة.. لهذا لم أر ما يمنع من ممارسة هوايتي في الصراخ والجعجعة.. ورحت أهدد الرجل بالويل إن لم يحسن لهجته معي..

وراح راكبو الحافلة القلائل الذين لم يروا فيما حدث ما يستحق كل هذا الصراخ؛ يهدئون النفوس.. كان الرجل قويًا حقًّا وشديد المراس ولولا حماسي لما جرؤت على التشاجر معه..

ومرت محطتان ونحن غارقان في المجادلة وتبادل الاتهامات.. ثم إنّه توقف عن الصراخ وتمنى لنا خراب بيوتنا جميعًا، وقال إننا جعلناه ينسى أن ينزل في محطته..

وعند المحطة التالية نزل وهو ينعتنا بنعوت كريهة..

وتحركنا مبتعدين لنغيب في الظلام.....

وكانت هذه هي الليلة الأولى!

شريف:

أولى؟ إذن هناك ليلة ثانية وثالثة؟

فؤاد:

وعاشرة إذا أردت.. ففي الليلة الثانية تكررت القصة بحذافيرها.. صعدت الفتاة ولم يبد عليها بتاتًا أنها تعرفني.. وحينما مدت يدها الخالية من الخواتم لتأخذ تذكرتها، قلت لها في فخر:

- «صاحبك لم يستطع الخلاص مني البارحة..»

نظرت إلى في حيرة غير فاهمة.. وتساءلت:

- «أفندم؟!»

ثم تناولت تذكرتها واتجهت لمقعدها جوار النافذة، لتخرج الشطيرة من حقيبتها وتبدأ في تأمل الشارع.. بعد قليل صعد ذو الجلباب الأزرق.. وجلس جلسته السابقة.. ظننت أنه سيتشاجر، لكنه تصرف بوقار غريب.. وقدرت أنه ينوي بدء صفحة جديدة معي.. لكني لم أفهم.. هل هو مستمر في مطاردة الفتاة؟

إذن لماذا لم تطلب مني العون؟

ثم قلت لنفسي: إن النساء جميعًا مخبولات.. كلهن ناقصات عقل ودين.. ولا يمكن فهم ما يفكرن فيه ولا لماذا يفعلن ما يفعلن.. هن أنفسهن لا يعلمن سبب ما يقمن به...

رفعت:

إن آراءك لن تروق لقيادات الحركة النسائية.. لكني أرى فيها شيئًا من الصواب.. أكمل قصتك..

فؤاد:

المهم أن كل شيء تكرر..

رفعت:

كل شيء؟

فؤاد:

كل شيء والله على ما أقول شهيد.. صحيح أنها لم تطلب عوني.. لكنّها ظلت تنظر إلى الرجل في ذعر وكفت عن قضم الشطيرة.. ثم.. حين تحركت الحافلة أو أنذرت بالتحرك في إحدى المحطات؛ هرعت هي إلى الباب وصاحت في السائق: أنا نازلة! وقبل أن تتوقف الحافلة تمامًا كانت قد هبطت منها وذابت في الظلام...

أما الرجل فهرع إلى باب الحافلة الذي كان قد انغلق فعلًا.. وراح يهيب بالسائق أن يفتح الباب.. لكن السائق كان قد ابتعد بما يكفي.. وفي المحطة التالية هبط الرجل وهو يسبنا بنعوت عدة.. هي الشيء الوحيد الذي تغير في الموقف كله..

(صوت قرقرة).. كوح كوح تفو!

رفعت:

طبعًا ظللت تضرب كفًا بكف..

فؤاد:

قلت لنفسي إن الوغد قد أجاد توقع تحركاتها.. لكنها فرت منه مرّة أخرى..

شريف:

والمرة الثالثة؟

فؤاد:

تكرر كل شيء.. وكاد الجنون يصيبني.. هل هما يتلاعبان بي؟ هل هما يمثلان دورًا ما في (السيما)؟ أنا أعرف هؤلاء الناس ممثلي (السيما).. إنهم يفعلون أي شيء في أي مكان ويغضبون إذا ما أبديت دهشتك.. لكني لم أجد (كمرة) في الجوار..

على كل حال لم أستطع أن أفعل أو أقول شيئًا.. فكلاهما لم يقارف خطأ ما.. ما لي أنا وكل هذا؟

لكن - والله على ما أقول شهيد - كان الرجل أكثر يقظة.. لقد جلس جوار الباب متحفزًا وعيناه على الفتاة.. وأدركت أنه سيسبقها بسهولة لو أنها قررت الفرار..

كان الحل بسيطًا.. لهذا صحت ونحن ندنو من المحطة إياها:

- «افتح ورا يا (بيومي)!»

وانفتح الباب الخلفي فأشرت لها كي تهبط منه.. ولم تكذب خبرًا.. أمّا هو فلم يتوقع هذه الخيانة.. نهض محاولًا اللحاق بها.. لكنّ...

- «اقفل ورا يا (بيومي)!»

وقد كان.. ودخل الرجل في شجار مرير معي.. إن الوغد سليط اللسان ويتمتع بقاموس شتائم غير مسبوق..

كان قد فاض بي.. لهذا أعلنت له أنني أشك في أنه يتحرش بهذه الأنثى البائسة مهيضة الجناح.. وأنني أعرف أنه يعرف أنّ هذا المشهد يتكرر منذ ثلاثة أيام..

ثم إنني قلت له إنني لن أسمح له بركوب هذه الحافلة ثانية.. فصاح في غل:

- «بأي حق؟ هل أنت مدير الهيئة؟ وزير المواصلات؟»

- «لا دخل للحقوق هنا.. أنا أستعمل شريعة الغاب..»

وهذا هو ما حدث بالضبط.....

في الليلة التالية صعدت الفتاة كالعادة وراحت تلتهم شطيرتها.. حاولت أن أخبرها بما كان، لكنّها لم تبد على علم بشيء..

كل ليلة تشعرني بأنني أراها لأول مرة.. وتتصرف بتحفظ كأنني وغد يضايقها أو أتحدث مع الشخص الخطأ..

ثم دنت المحطة التي ينتظر الرجل فيها.. وكان نفس الوضع المألوف لي كل ليلة.. وبيني وبينك قلت لنفسي: لو كان الوغدان يريدان أن أجن فأنا كفيل بإصابة بلد كامل بالجنون..

ثم صحت في السائق أن يستمر دون توقف..

ولمحت الرجل يركض وراء الحافلة محتجًا.. ثم ذاب في الظلام.. وقلت لنفسي: إن الفتاة لو كانت تعابثني لبدت عليها الدهشة.. لكنّها ظلت حيث هي تنظر خارج النافذة في شرود.. وتلوك ما بفمها من طعام حتى تستغرق كل لقمة دهورًا.. كأنها.. كح كح!

كح كح! يا (عبده)! يا (عبده)!

(صوت غير واضح)..

هات حجرًا آخر..

رفعت:

يبدو أننا سنزيد من استهلاكك من (المعسل) هذه الليلة..

فؤاد:

لا عليك.. إن (عبده) القهوجي يقدم ألعن أنواع الدخان لنا.. يُقال إنّه يجفف الصراصير ويطحنها ويقدمها لنا، لكني أرى في هذا مديحًا لا يستحقه.. أين كنا؟ آه.. عندما تركت الرجل واقفًا على المحطة..

جاءت الليلة التالية وتكرر كل شيء..

لكن الرجل لم يظهر في محطته ولا أي محطة أخرى..

وتجاوزنا المحطة المعتادة التي تنزل فيها الفتاة هاربة.. وبعدها بثلاث محطات جاءت محطة مظلمة في منطقة مقطوعة من الخط.. وهنا رأيتها تتهيأ للنزول..

ما الذي يدعو فتاة تعيش في (السيدة زينب) إلى النزول في هذه المحطة - لن أذكر اسمها - وحيدة وفي هذا الوقت المتأخر؟

لا أدري.. لكني لم أتساءل كثيرًا.. هي حرة تمامًا في اختيار محطتها.. لكنى حين نظرت من النافذة رأيت رجلًا عريضًا يرتدي جلبابًا أزرق ويقف في ثقة بانتظار من ينزل!

هنا صحت في السائق أن يستمر دون توقف.. وبرغم احتجاجات الركاب القلائل الذين لم يفهموا سر تحكمي هذا.. كيف لا أسمح لها بالنزول ولا للرجل بالصعود؟

لكنّ الفتاة كانت قد رأت ما رأته.. وعلى وجهها الجميل تلاعبت بسمة خافتة.. بسمة عرفان بالجميل..

لكني لم أتوقع أكثر.. غدًا تصعد إلى الحافلة وكأنها لم ترني قط.. لقد أنقذتها مرارًا، لكنّها في كلّ مرّة تبدو كأنها نسيت كل شيء..

رفعت:

وما الذي يدعوها إلى ركوب ذات الحافلة كل ليلة؟ لماذا لا تطلب من قريب لها أن يحميها؟

فؤاد:

علمي علمك.. أنا أحكي ما حدث دون نقص ولا زيادة..

شريف:

والليلة التالية؟

فؤاد:

لعدة ليال تكرر هذا الموقف بحذافيره.. وتعدل الفتاة عن النزول ويعجز الرجل عن الصعود.. وبعدها ـ عند نهاية الخط ـ تهبط هي بعد أن تقول لي (ميرسي).. وتغيب في الظلام...

ثم إن الرجل قام بخطوة جديدة.. في إحدى الليالي لم أجد الرجل على المحطة.. وتهيأت الفتاة للنزول.. وتحركت الحافلة مبتعدة عدة خطوات بينما أنا أرمق الفتاة من زجاج النافذة الخلفي.. هنا رأيت سيارة أجرة تتوقف ورأيت جلبابًا أزرق ضخمًا يخرج منها لينقد السائق ماله!

لقد لعبها ببراعة! هذه المرّة ركب سيارة أجرة ومشى وراء الحافلة بانتظار هبوط الفتاة.. فما إن هبطت حتى ترجل هو.. وها هو ذا قد صار وحيدًا معها في هذه المحطة المنعزلة..

(صوت قرقرة)..

هنا ـ والله على ما أقول شهيد ـ غلى الدم في عروقي.. أنا قد تربيت في الحارة ولا أملك ذرة من التهذيب... فقط يتظاهر الإنسان بشيء من الخلق كي لا يُطرد من وظيفته.. ولا يعجبني الحال المائل بحال.. لهذا صحت في السائق أن يتوقف..

وجذبت المفتاح الإنجليزي الثقيل الذي نضعه تحت (المانفستو) ووثبت من الحافلة.. وعيناي تتقدان شررًا..

الليلة سأبيت أنا في التخشيبة ويبيت الرجل فوق منضدة التشريح..

لمست قدماي الأرض ـ وسط صيحات الاستفسار من السائق والركاب ـ ورحت أسابق الريح، راكضًا إلى حيث كان الرجل يمشي في همة وراء الفتاة التي لم تدر بوجوده.. وأنا أتأمل المفتاح الثقيل في قبضتي..

نويت أن أفتح رأسه أولًا، ثم أفهم وجهة نظره..

وهنا حدث شيء غريب حين رفعت عيني..

رفعت:

لم تجدهما..

فؤاد:

كيف عرفت؟

رفعت:

القصة هكذا دائمًا..

فؤاد:

هذا هو ما وجدت - والله على ما أقول شهيد - حين وصلت لمكانهما.. لا شيء على الإطلاق.. الشارع المقفر المظلم في ضوء واهن لعمود نور واحد نسيت البلدية أن تهشّم مصباحه.. لا شيء.. لا فتاة.. لا رجل.. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي لعب فيها الفأر في عبي..

عدت للحافلة وأنا أبسمل وأحوقل.. وصعدت أمام العيون المرتابة في حالتي العقليّة..

رحت أردد في حيرة: ألم تروهما؟ ألم تروهما؟

وخلصت بعد قليل إلى أن الجميع رأى الفتاة.. لم أكن أخرف.. لكنّ أحدًا لم ير الرجل ربما لأن أحدًا لم ينظر خارج النوافذ..

لكنهما تلاشيا.. ذابا..

وكانت هذه هي نهاية عهدي بالعمل ليلًا..

لقد توسلت إلى رئيس الحركة والملاحظ كي يتم نقلي إلى خط آخر.. وفي ضوء النهار.. وكذبت مئات الأكاذيب لأبرر..

أنت تفهمني يا د. (رفعت).. أنا لا أهاب أي شيء له لحم ودم وقلب ينبض.. لكني أموت في جلدي من كل ما لا أفهمه...

ومضت الحياة على نحو هادئ (صوت قرقرة).. فيما عدا المتاعب التقليدية لدى كل محصل يعمل في فترات الذروة.. وعلى خط كثيف أصلًا مليء بالمتشاجرين والمتزاحمين والهاربين من دفع ثمن التذكرة والمدعين.. لكنّ هذا هو عملي.. وذلك رزقي.. المهم أنني أفهم ما يدور حولي..

ولكني سمعت في مكتب المفتش ما أدار رأسي.. فزميلي هو الآخر يشكو من أشياء مريبة تحدث في أثناء عمله ليلًا.

أشياء تتعلق برجل ذي جلباب أزرق وفتاة شابة ترتدي السواد.. وهنا تدخل السائق العجوز عم (سعد)، وهو بالنسبة للهيئة كتمثال (رمسيس الثاني) لميدان المحطة.. أقدم شيء وعلامة مميزة لا يمكن تصوّر الهيئة بدونها...

إن عم (سعد) على المعاش لكنه يعمل في شيء ما لا أدري ما هو.. دائمًا هو هناك منهمك في كتابة أوراق أو التدخين أو.. هو أول من يحضر صباحًا وآخر من ينصرف.. يبدو أنه لا يتقبل حقيقة أنه صار بلا عمل.. والكل يتقبل وجوده على كل حال.. فلا أحد يجرؤ على طرده أو سؤاله عن سبب وجوده معنا..

قال لنا عم (سعد) وهو يبصق - ومعنى هذا أن كلامه مهم - إن كثيرين ممن عملوا على هذا الخط ليلًا طيلة السنوات العشر الماضية، صادفوا ذات الموقف.. قال لنا إن هناك فتاة قتلت في

إحدى المحطات منذ أعوام.. يبدو أن زوجها أرسل من يقتلها لسبب لا أدريه.. منذ متى كف الأزواج عن قتل زوجاتهم؟ إنهم يفعلون هذا طيلة الوقت.. المهم أن القاتل جرها وراء جدار وخنقها بحبل ليفي، وسمع الضجة أحد الحراس الليليين فهرع ليرى، رأى المنظر ورأى القاتل ذا الجلباب الأزرق يحاول الفرار.. كان رد فعله سريعًا وأطلق رصاصة من مسدّسه الحكومي.. وسرعان ما تكوم القاتل على بعد أمتار من ضحيته..



فيما بعد انهار الزوج واعترف بأنه استأجر الرجل ليفعلها..

(صوت قرقرة)..

رفعت:

ومن يومها ومشهد المطاردة يتكرر في حافلات الهيئة.. كل ليلة في ذات الوقت تقريبًا..

فؤاد:

عليك نور.. واضح أنّ هذا هو ما حدث بالضبط يومها.. يقولون إن روح القتيل والقاتل لا تهمدان أبدًا.. أعوذ بالله.. لقد اقشعر جلدي..

رفعت:

بعض الأشباح تمارس ألعابًا من هذا النوع.. يسمونها (البولترجايشت) Poltergeist.. وهو لفظ ألماني معناه الحرفي (الأشباح التي تدق).. ويبدو أن هذين الاثنين يتسليان بتكرار ما حدث

يومها..

فؤاد:

لا أفهم ما ترطن به.. أنا أمقت أسلوب الأفندية هذا حين يسمون كل شيء واضح باسم يستحيل فهمه..

رفعت:

لا عليك.. أنت محق.. فالرطانة هي داء المثقفين.. يسمون حلاوة اللسان (ديماجوجية) والفقراء (بروليتاريا)، ويسمون النفعي (براجماتي).. دعنا من الرطانة وقل لي ما استنتجته..

فؤاد:

لم أستنتج شيئًا.. فقط قررت أنا واثنان من رفاقي - عيال جدعان حقًّا - أن نركب الحافلة معًا هذه الليلة لنرى ما يحدث بالضبط.. وقد كان..

جلسنا مع المحصل - وهو ولد من (العتبة) له قلب أسد - ورحنا نثرثر ونتكلم.. وهنا دنت المحطة إياها..

وفي صمت رأينا الفتاة تصعد إلى الحافلة وتدفع ثمن تذكرتها، ثم تجلس في مقعدها المختار جوار النافذة.. وتخرج شطيرتها إياها..

بعد دقائق صعد الجدار ذو الجلباب الأزرق وجلس على مقربة منا.. وكالعادة لم يبد عليه أنه لاحظ وجود الفتاة..

وهنا هزّ المحصل يدي.. كان يشير إلى جيب جلباب الرجل حيث جلس.. لماذا يحمل الإنسان حبلًا غليظًا من الليف في جيبه هو من الضخامة بحيث يتدلى طرفه خارج الجيب؟

شريف:

هل شعرتم بخوف؟

فؤاد:

بالعكس.. لا شيء على الإطلاق يثير الخوف في مظهرهما.. مجرد شخصين عاديين تمامًا.. حتى إنني شككت في الموضوع كله..

إن هي إلا دقائق حتى توقفنا أمام المحطة التي اعتادت الفتاة النزول فيها.. فما إن نزلت حتى تبعها الرجل.. بالطبع لم يتدخل أحدنا هذه المرّة حتى نرى ما سيحدث..

وعلى الفور انسللنا - نحن الثلاثة - وراء الرجل والفتاة، ورحنا نقفو أثرهما على مسافة معقولة..

تواريا وراء جدار عند نهاية الممشى (صوت قرقرة) فأسرعنا نهرول لنرى ما يحدث فلا يفوتنا شيء..

وأمام عيوننا المذعورة رأينا الرجل يحيط عنقها بالحبل، ولمحناها تحاول المقاومة.. عندها نسينا من نواجه بالضبط واندفعنا صارخين محاولين منعه..

وهنا وجدنا الشيء ذاته..

لا شيء سوى شارع خاو يتألق بصعوبة تحت انعكاس مصابيح واهنة لا جدوى منها...

لقد تلاشت الرؤيا.. ذابت كأن لم تكن...

وعندها - فقط - تملكنا الذعر.. وعدنا نتخبط إلى بيوتنا..

رفعت:

حسن.. تلك هي الحقيقة إذن.. وهل من جديد في القصة؟

فؤاد:

لا شيء.. كنت أريد رأيك..

رفعت:

هل تتكرر هذه القصة حتى اليوم؟

فؤاد:

ليس دائمًا.. وعلى كل حال لقد تعلم راكبو وسائقو هذا الخط أن يتجاهلوا أى فتاة ترتدي السواء يطاردها رجل ذو جلباب أزرق.. فمن الواضح أنهم لا يؤذون أحدًا.. تلك (الأشباح التي تدق) على حد كلامك.. كح كح!

شريف:

لكنهم يثيرون الرعب.. وهذا كاف جدًا لجعلهم مؤذين.. إنهم يخالفون نواميس الحياة التي نعرفها.. وهذا يكفي لجعلي أقشعر..

فؤاد:

ما يثير الغيظ هو أن أحدًا لا يصدقك.. كلما حكيت القصة لواحد راح ينظر لك كأنك أبله..

رفعت:

ليس من رأى كمن سمع.. وأنا نفسي لن أصدق ما تقول حتى أراه..

فؤاد:

والآن إلى اللقاء.. لقد صدعت رأسك بقصتي هذه.. (يضع السماعة)..

رفعت:

لا عليك.. يبدو أنها نهاية الحلقة يا (شريف).. (رنين الهاتف)..

شريف:

لحظة! آلو! برنامج (بعد منتصف الليل)..

صوت امرأة:

أنا (فاتن).. ربة بيت.. أعود بالحافلة إلى داري مساء بعد زيارة أمي.. هناك فتاة تركب معي يريبني أمرها.. فتاة ترتدي السواد وتلتهم الشطائر.. ثم يصعد إلى الحافلة رجل يرتدي جلبابًا أزرق.. و.....

* * *



الحلقة السابعة

بس بس.. ناو..!

تحكيها : مها شوقي

الحلقة السابعة
(بس بس.. ناو..!)

تحكيها: مها شوقي

«أي ذعر شعر به اللص البائس وهو يرى قطة آدمية.. تنقض عليه من بين أشجار الحديقة لتمزقه.. وتجره نحو البوابة وهي تزوم وتزمجر؟»

المقـدمــة

شريف:

صباح الخير.. ها هو ذا برنامجكم الممتع (بعد منتصف الليل).. هل أنتم جالسون جوار أجهزة الهاتف؟ حسن.. أديروا القرص.. واطلبوا رقمنا.. إن صاحب الحظ السعيد الذي سيسبق الآخرين هو وقود آلة الرعب لهذه الليلة..

رفعت:

صاحب الحظ السعيد الذي سيجد حرارة في جهاز الهاتف

شريف:

ترى عم سيحدثنا؟ عن جني يتربص به؟ عن قبر مفتوح؟ عن شبح يجول في منزله؟

رفعت:

عن امتحانات الثانوية العامة التي صارت على الأبواب؟

شريف:

كلها أشياء مخيفة.. لهذا هي جذابة شائقة..

(رنين الهاتف)..

آلو؟ من يتحدث؟

صوت فتاة رقيق:

أنا (مها شوقي).. أظن أنّ هذا برنامج (بعد منتصف الليل)..

شريف:

لو كان جهاز المذياع مفتوحًا يا (مها) فأنت تسمعين صوتك خارجًا منه.. وإنها لتجربة غريبة حقًّا.. تتحدثين في الهاتف فينبعث صوتك من المذياع!

مها:

أنا أحب برنامجكم وأحب (رفعت إسماعيل) غريب الأطوار الملول الساخر من كل شيء.. إنّه يذكرني بالشاعر (ابن لنكك) الذي سخر من كل شيء حتى نفسه.. وبرغم كل شيء أراه جميلًا..

رفعت:

هذا يسرني يا.. آنسة؟

مها:

نعم..

رفعت:

هذا يسرني يا آنسة (مها).. إنك تقولين ذات الأشياء التي أقولها عن نفسي، والتي لا يراها أحد في شخصي.. أتعشم أن يكون وجهك في جمال بيانك.. إن المرأة الوحيدة التي أبدت إعجابها بي كانت المرحومة أمي.. وكانت تعاني ضمورًا في شبكية العين..

مها:

إن موضوع الجمال هو سبب كل ما حدث..

دعني أقدم نفسي أولًا.. أنا (مها شوقي).. طالبة في كلية الآداب.. لست من النوع الذي يُمكنك وصفه بالقبح مهما تجنيت.. لكني ـ كذلك ـ لست (صوفيا لورين).. أحيانًا أكون عملية إيجابية جدًا..

وأحيانا أشعر بأنني هشة تعسة وأنني J'ai Bessoin de Tenderess..

رفعت:

ما.. ماذا قلت؟ إن لغتي الفرنسية.....

شريف:

تقول إنها بحاجة إلى الحنان.. أرجوك استخدام العربيّة يا مها..

مها:

ليكن.. باردون.. إن حالتي المالية لا بأس بها.. فعندي سيارة خاصة بي.. ولدى أثواب بعدد أيام السنة.. وأبي يملك كل شيء ويعرف كيف يحقق الأشياء الباقية.. لكنى تعسة يا د. (رفعت).. تعسة..

كنت أشعر بالفراغ.. ولم يعد النادي قادرًا على إسعادي.. قرأت كثيرًا جدًا بالعربية والفرنسية، لكني فقدت القدرة على الاستمتاع.. فهي مجرد كلمات يخدعوننا بها متظاهرين بأنهم يفهمون

الحياة..

إنها المرارة.. إنّه الألم.. إنّه القنوط..

رفعت:

أفهم ما تقولين.. أحيانًا يخيّل إلى أن الاستمتاع بالحياة يعتمد على غدة معينة في جسدنا.. فلو انتزعت أو فشلت لما صار شيء قادرًا على إسعادنا.. لا بد أن (هيمنجواي) أديب أمريكا العظيم شعر بشيء كهذا وهو يضع ماسورة البندقية بين شفتيه، ويضغط الزناد بإصبع قدمه.. لقد فعلها في ذروة مجده وانتصاره..

مها:

هناك من يسميه الفراغ.. ربما.. لكني لن أتردى إلى هاوية الابتذال لأقول لك: (المال لا يجلب السعادة).. كلا.. هو يجلبها ولكن لنفوس مستعدة لأن ترضى به...

شريف:

هلا تحدثنا عن قصتك غير العادية ونسينا هذه الدهاليز النفسية؟

مها:

نعم.. نعم.. كنت أحاول أن أوضح أن من يمرّ بحالي يكون على استعداد كي يخوض أغرب التجارب... لمجرد التجديد...

بدأ الأمر حين حدّثتني صديقاتي عن مدام (ليليان).. بعضهن قلن للأخريات، وبدأ عدد من يعرفن الأمر يتزايد.. ثم دعتني إحداهن لزيارتها..

إن مدام (ليليان) تسكن في فيللا من طابق واحد في أحد الأحياء الراقية بالقاهرة.. ليكن (الزمالك) أو (المعادي) أو (جاردن سيتى).. لا يهم.. امرأة من أصل أرمني هي تعيش وحدها بعد وفاة زوجها..

كنا هناك في الثامنة مساء.. وكان هناك كلبان شرسان مربوطان بالسلاسل، وخادم نوبي عجوز.. قادنا إلى الباب..

وفي داخل الفيللا كانت هناك قاعة فسيحة ملأى بالطنافس المبعثرة على الأرض.. ورائحة بخور تعبق الجو.. مع إضاءة حمراء كتلك التي لا تتخيل مساكن الجن إلا بها..

أما الغريب في الموضوع فهو عشرات ـ هل أقول مئات؟ ـ القطط تلهو أو تغفو هنا وهناك.. كل قطة تتصور شكلها أو رأيتها في دائرة معارف يمكن أن تراها هناك.. وكلها مكتنزة تشي بالصحة وحسن التغذية..

أما مدام (ليليان) نفسها فامرأة فاتنة.. صحيح أنها في الأربعين من عمرها لكنّها في أفضل حالاتها، كتفاحة في ذروة النضج قبل أن تذبل وتتجعد، كانت فارعة القامة ذات عينين زرقاوين شديدتي الجمال، وثمّة خصلة من الشعر الأبيض في مقدمة رأسها وسط الخصلات السوداء، لا أدري هل هي صناعية أم لا..

وكانت ترتدي روبًا احمر أنيقًا..

وعلى كتفها الأيمن كانت تنعس هرة إيرانية (ملظلظة) بشدة.. كتلة من الدهن المغطى بفراء أبيض نظيف..

كانت هناك أشياء غريبة كثيرة خطفت بصري..

صور عملاقة للقطط على الجدران.. قطط محنطة وقفت متخذة أوضاع القنص.. تماثيل فرعونية للربتين (سخمت) و(باستت) بما في منظرهما من صلة بالقطط..

صديقاتي حدثنني عن هذا كله لكني لم أتصوره قط..

كانت هناك ست فتيات يعرفن المكان جيدًا، وقد اتخذت كل منهن مجلسها على إحدى الطنافس، وأمسكت هرة غافية تداعب فراءها في حنان..

أما مدام (ليليان) فقد قالت لي في لطف:

- «أوه.. انشانتيه.. هل أنت (مها)؟»

كان في لكنتها طابع أجنبي محبب للنفس..

- «نعم هي..»

قالت وهي تقودني إلى إحدى الطنافس:

- «قطة جميلة هي أنت يا (مها).. تعالي لتجلسي مع أخواتك الهرر..»

مجاملة رقيقة.. وخطر لي هنا أن المرأة - هي نفسها - أقرب إلى قطة آدمية.. كل شيء فيها (قططي) بشكل أو بآخر..

رفعت:

إن التشابه بين المرأة والقطة قديم حقًّا.. وهناك من أضاف إلى هذا فوجد تشابهًا كبيرًا بين الرجل والكلب!

شريف:

هذا يضايقك حتمًا.. فأنت رجل لا كلب..

رفعت:

بالعكس.. كانوا يتحدثون عن إخلاص الرجل وثباته وشجاعته وصبره.. أمّا المرأة فيتحدثون عن نعومتها وتقلبها وشراستها أحيانًا.. وميلها للكسل.. وحرصها على مظهرها..

مها:

يصعب عليّ دومًا أن أتخيّل وجود قط ذكر أو كلبة أنثى.. ما علينا.. المهم أن مدام (ليليان) جعلتني اجلس.. ثم دارت امامنا وجلست.. وراحت تقول وهي تداعب قطتها:

- «إن كل فتاة هي قطة في أعماقها.. وما نحن بصدده وما نقوم به يتركز في أن نشعر بـ (قططيتنا).. إن القط هو أسعد كائنات الله.. فهو جميل مستقل بشخصيته.. يعرف كيف يستمتع بالحياة.. إنّه ليس مهددًا بالذبح كالأرنب ولا مكلفًا بالسهر في الشارع البارد يعوي كالكلب.. ولا هو كريه وحيد كالأفعى.. ولا هو مهدد بطلقة تنهي حياته كالعصفور..

إن القط كائن رائع.. قوامه الاسترخاء وعماده الثقة بالنفس.. ودعمه الوحيد في الحياة هو حبنا له..

تقول الأغنية الفرنسية: أحبوا الحياة كما يحبّها القط الصغير..

ويقول (شكسبير) في (كما تحبها): أنظر إلى الهريرة وقد أفعمها المرح.. إذ تتريض في الشمس المتألقة..»

(بالطبع قالت هذه الاقتباسات بأصولها الإنجليزية والفرنسية)..

رفعت:

هل أنت واثقة أنّ هذه المرأة ما كانت تبشر بنوع من عبادة القطط؟

مها:

شككت في هذا.. قلت لنفسي: هي ذي يا (مها) جمعية سرية أخرى تمارس عقيدة حمقاء.. ولن يمرّ شهر حتى يحتل خبر القبض على أفرادها ـ بوساطة أمن الدولة ـ مكانًا بارزًافي صفحة الحوادث..

لكن كلام المرأة راق لي..

كانت تدعونا إلى أن نقلد القط ولا تدعونا لعبادته والعياذ بالله..

بل إنها قالت صراحة إن الفراعنة في بحثهم المتخبط عن سر الخلق، عبدوا القط في صورة الربة (باستت) التي ما زال معبدها في الزقازيق الحالية.. لكن هذا هراء..

ثم سألتنا: لماذا يقول الناس إن القط له سبعة أرواح؟ لماذا يقر القط حين ينام؟ لماذا يتشاءم الناس من القط الأسود؟ لماذا تتبدل عين القط كدورة القمر؟

كلها أسئلة بلا جواب..

كلها تقول إن القط كائن غير عادي.. والناس يحبونه بقدر ما يخشونه.. فهو يجمع شراسة النمر ووداعة اليمامة ورشاقة الغزال..

ثم بدأ الحفل.. وياله من حفل! حفل جدير بالقط (توم) حقًّا..

كانت هناك أطباق اللحم.. كثير من اللحم..

رفعت:

هذا غريب! كل هؤلاء المتأملين نباتيون في العادة.. وهل أنت واثقة من أنّه لم يكن لحم فئران؟!

مها (متقززة):

يع ع ع ع! لا تمزح في هذا يا د. (رفعت)! كان لحمًا بقريًا.. ومعه كثير من السمك.. ودارت كئوس اللبن البارد.. أنا لا أحب اللبن، لكنّ هذه المرأة استطاعت أن تجعلني أحبه..

كانت تقول طيلة الوقت:

- «هيا يا بنات.. إن القط يعتمد على هذه المواد ليغدو ذلك الكائن الرائع.. لم لا نحاول أن نستخلص منها أروع ما فيها؟ لم لا نمنح أنفسنا الفرصة؟»

تقول هذا وتصدر صوتًا ناعمًا هادئًا من حلقها.. ثم تتكور حول نفسها على الأرض.. ولا أبالغ إذا قلت إنها تموء في رضا...

الأخريات أيضًا لم يكن على ما يرام.. كن بدورهن يصدرن أصواتًا غير طبيعية، ويتكورن حول أنفسهن..

وبعد قليل وجدت أنني أحذو حذوهن..

رفعت:

لا يبدو جوًا صحيًا مريحًا للنفس..

مها:

بتاتًا.. لكني اندمجت فيه.. مثلما نندمج في حفلات الزار ونجدها فرصة طيبة لإخراج النزعات الدفينة..

نفس الشيء حدث يومها.. وبعضنا غرق في بكاء هستيري.. وبعضنا راح يرتجف كالورقة.. هل تعرف مكانًا آخر في العالم يُمكنك فيه أن تصرخ وتضرب الأرض بقدميك.. أو تنفجر ضحكًا؟

رفعت:

لا أعرف سوى المصحة النفسية.. الحق أنّ هذه المرأة القط قد كانت طبيبًا نفسيًا بارعًا..

مها:

كل شيء كان غريبًا جميلًا جديدًا.. وحين افترقنا ـ في نهاية الأمسية ـ عرفت أنني سأعود..

قالت لي على الباب وهي تلثم خدي:

ـ «أوصيك بنظافة الجسد.. فهكذا تفعل الهرة الطيبة، أوصيك باستعمال هذا الدهان ليجعل لك عبق الهرة، أوصيك بشرب الحليب ثلاث مرات يوميًا، يُمكنك إحضار من تشائين من صديقاتك لكنّ لا رجال..»

وتركتها وعقلي يدور.. هي ذي تجربة مثيرة حقًّا يمكن أن تعزيني عن كل هذا الفراغ الذي أعيش فيه..

وفي اليوم التالي ابتعت قطة بارعة الجمال من أحد محال الحيوانات الأليفة في (الزمالك).. لقد آليت أن أمنح وقتًا أكثر لمعرفة هذا الكائن الساحر..

سألت أترابي عن هذه المرأة وماذا تريد...

قلن لي إن هذه المرأة ـ بعد موت زوجها ـ عاشت مع قططها، لا تحلم بشيء سوى أن يتحدث العالم ويفكر ويحلم بالقطط..

ربما هي مخبولة.. هذا واضح تمامًا.. لكنّ المخابيل قد يتمتعون بقوّة نفسية غير معقولة تؤثر فيمن حولهم.. وتريحهم...

شريف:

وهل استعملت الدهان إياه؟

مها:

طبعًا.. بحذر شديد في البداية.. ثم وجدت أنه يجعل بشرتي أنعم.. مع مسحة من صفاء نفسي عطر.. واعتدت استعماله..

وحين ذهبت هناك للمرة التالية: طلبت منا في أدب أن ندفع مبلغًا رمزيًا تحتاج إليه لإطعام قططها..

شريف:

آها! إذن عملية النصب تتضح..

مها:

لا أظن.. إن عشرة جنيهات تدفعها فتاة ثرية مثلي أربع مرات شهريًا ليست بالأمر المؤذي.. ثم إنها لم ترغمنا على شيء..

كانت تضع صندوقًا أمامنا وتتركنا وشأننا.. فمن شاءت الدفع فيها وإلا فلا لوم عليها..

رفعت:

وهل كان برنامجكن ثابتًا في كلّ مرّة؟

مها:

لا.. أحيانًا كنا نرى أفلامًا ملونة تعرضها بجهاز عرض صغير.. نرى فيها قططًا تتوالد وتلهو وتصطاد الفئران.. أحيانًا كنا نتأمل صورًا للقطط.. وأحيانًا كانت تدعونا للتأمل ككل مدربي (اليوجا) المحترفين.. ولقد تزايدت مشاعري الإيجابية وازددت ثقة بنفسي.. وازدادت حواسي رهافة..

رفعت:

ومتى شعرت أن الأمور ليست على ما يرام؟

مها:

ومن قال إنني شعرت بشيء كهذا؟

رفعت:

لابد أنّ هناك سببًا لاتصالك عدا شعورك بالهناء الروحي..

مها:

لا أدري متى بدأ هذا.. ربما بعد شهرين أو أكثر من تعرفي مدام (ليليان).. المهم أنني لاحظت رهافة غير عادية في حواسي.. صرت أسمع صوت خطوة النملة كما يقولون.. أسمع همسات الناس وضوضاءهم وصوت أنفاسهم الثقيلة..

لكم ضايقني هذا! صرت أصحو من نومي بسهولة غير عادية فأتمطع وأنهض.. لمجرد أن ورقة شجر قد سقطت من فوق غصنها في الحديقة.. قلت لنفسي إنني متوترة لا أكثر..

بعد هذا مررت بتجربة أثارت قلقي..

في تلك الليلة نهضت من نومي قلقة.. وأردت أن أرتب الأشياء التي عليّ أن أقوم بها في الكلية غدًا..

أمسكت بالورقة والقلم وكتبت ما ينبغي أن أقوم به.. ثم عدت إلى الفراش ونمت...

في الصباح أيقظتني أمي من النوم وقالت إنني أصدر صوتًا غريبًا بحنجرتي وأنا نائمة.

على مائدة الإفطار رحت أعب الحليب.. وألتهم الجبن والبيض بنهم لا أدري لماذا صرت أمقت الحلوى الطحينية والفول؟!

سألني أبي وهو يطالع الجريدة:

- «ماذا فعلت عندما انقطع التيار الكهربي أمس؟»

- «هـ.. هل انقطع التيار؟»

- «بالطبع يا (مها).. من العاشرة مساء حتى الفجر.. ألم تشعري بهذا؟»

- «يـ.. يبدو أنني نمت مبكرًا فعلًا..»

كنت حقًّا قد دخلت فراشي في تمام التاسعة.. لكنّ.. كيف لم ألحظ؟ كيف نهضت في الظلام الدامس وكتبت ما كتبت؟!

هناك تفسير واحد.. هو أنني صرت أرى ليلًا!

رفعت:

وهل سرك هذا؟

مها:

حتمًا لا.. إن قدرات الإنسان المحدودة هي التي تجعله إنسانًا.. ولو تبدل شيء منها فهذا مخيف أكثر منه سارًا.. تصوّر أنك جرحت إصبعك فلم ينزف دم.. هل يسرك هذا؟

رفعت:

هذا حق.. حتى الألم هو تعبير عن إنسانيتنا وصحتنا.. لو أنك لامست النار ولم تصرخ ولم تحس بألم، لكان هذا دليلًا على إصابتك بالجذام أو زهري الجهاز العصبي..

مها:

لقد أصابني الهلع.. وهرعت إلى مدام (ليليان) أسألها..

بدا السرور على وجهها وقالت:

- «هذا هو الطريق السديد يا ملاكي.. إنك تتعلمين من القطط بسرعة كبيرة.. لقد صرت مرهفة الحس خارقة القدرات.. لقد كان كل هذا موجودًا من البداية لكنك غطيته بغبار إنسانيتك.. اليوم زال الغبار.. وعاد كل شيء براقًا جميلًا كما خلقه الله.. أنت جديرة بأن تُحسدي..»

رفعت:

طبعًا لا أظنك من السذاجة بحيث تجهلين أن الدهان يحوي شيئًا..

مها:

للأسف لم يخطر هذا ببالي قط.. إن الأمر كله يبدو سخيفًا غير قابل للتصديق..

ولقد سألت صديقاتي عن أعراض مماثلة لكنهن سخرن مني جميعًا.. لكني لا أكتمك يا د. (رفعت) أنني لاحظت لديهن رهافة حواس غير عادية.. ذات مرة صرخت إحداهن في المحاضرة، إنها تشم رائحة حريق.. وحدث هرج ومرج.. وغادر البعض المدرج..

فيما بعد عرفنا أن أحدهم أحرق ورقة في الفناء.. أي على بعد مائة متر من مكاننا تقريبًا...

وكان بوسع واحدة منا أن تعرف نوع الطعام الذي يعده مطعم المدينة الجامعية، وهي على بعد نصف كيلومتر منه..

في هذه المرّة اتجهت إلى فيللا مدام (ليليان) في حزم.. كنت أريد أن أعرف تفسيرها..

كانت متحفظة باردة وهي تداعب قطتها المفضلة.. ثم قالت في كياسة إنها قدمت لنا هدية ثمينة يعجز عقلنا القاصر عن فهمها..

- «لماذا تظنين بشرتي لم تشخ ولم تتجعد؟ لماذا أنا مرحة أعرف كيف أستمتع بحياتي؟ لأنني عرفت كيف أحيا كقطة.. أفكر كقطة وأنام كقطة وآكل كقطة..»

ودون اكتراث قالت لي إنها تنتمي إلى جيل عريق من كاهنات (باستت) قطة الفراعنة المقدسة.. لقد توارثت أسرتها هذا الفن جيلًا بعد جيل حتى بعد رحيل بعض الأجداد إلى (أرمينيا).. ومفتاح هذا الفن يكمن في الدهان المقدس الذي ينقل صفات القطط إلى الإنسان...

كاهنات (باستت) عرفن كيف يصنعنه.. ولم يدون السر على ورق قط بل تناقلنه لفظًا...

ثم قالت لي بذات المرح إن الدهان سيظل يعمل عليّ.. سواء أردت أم لم أرد.. توقفت عن استعماله أم واظبت..

صحت فيها إنني سأبلغ الشرطة..

ضحكت وقالت:

ـ «هذا شأنك يا قطتي.. ماذا سيجد البوليس عندي؟ وما هي فرصتك في أن يصدقوك؟ دعك من عدم وجود شهود.. يجب أن تمنحي ذاتك لـ (باستت)... هذا هو الخلاص الوحيد..»

تركتها حائرة لا أدري ما أصنع ولا ما أقول..

شريف:

لم تبلغي أهلك بما حدث؟

مها:

أبلغهم بماذا؟ بأن هناك امرأة تهوى القطط؟ وهي كاهنة من كهنة (بوباسطي)؟ ظننتك أكثر واقعية يا أستاذ (شريف)..

على كل حال لم يكن الأمر بهذا السوء..

لقد تمكنت من سماع لصين ينويان اختطاف حقيبتي في أثناء خروجي من الكلية.. كانا يتهامسان على بعد خمسين مترًا، لكني سمعت كل شيء.. ووضعتها تحت إبطي في الوقت المناسب ورجعت أدراجي..

تمكنت من إيقاف أكثر من حريق قبل أن يتفاقم..

لكن الأمر صار لا يطاق مع موضوع الفئران!

رفعت:

فئران؟ هل تعنين؟

مها:

نعم.. ذيول فئران في درج مكتبي.. لا أدري كيف ولا متى.. مستحيل أن أرى فأرًا في يقظتي دون أن يغشى على.. لكني لا أدري ما حدث وأنا نائمة! د.(رفعت).. أعتقد أنني أصطاد الفئران في الحديقة ليلًا بينما أهلى نيام!!

رفعت:

يا للهول! أنت لا تمزحين يا (مها)..

مها:

حتمًا لا.. إنني أفعل في غفلتى أشياء غير مفهومة.. ذات مرة شرد ذهني وأنا أمشي في الحديقة وحين أفقت وجدت أنني قد اصطدت ثلاث فراشات ويعسوبًا.. بضربة واحدة.. وبانعكاس حركي لا يصدر إلا عن قطة.

(تتنهد).. بعد هذا جاء موضوع اللص..

لا بد أنه تسلل إلى حديقتنا ليلًا.. لا بد أنه أحمق.. لا بد أنه أحدث جلبة ما.. لا أدري كيف مات.. لقد وجوه رجال الشرطة ميتًا على بعد خطوات من بوابة الدار.. كان ممزقًا بفظاعة.. آثار أظفار وأنياب.. وجهه يكتسي بقناع الرعب.. وقال الطب الشرعي إنّه لم يمت بجراحه بل مات بالصدمة العصبية.. لقد رأى ما يخيف..

لقد بحثوا كثيرًا عن كلب مسعور أو ذئب يجول في المنطقة دون جدوى.. أبي يقول إنها العناية الإلهية.. لا جدال في ذلك.. لكنّ هناك عنصرًا آخر لا يفهمه أحد..

نسيت أن أقول لك إن كلبنا لم يفعل ذلك.. لقد مات كلبنا المسكين (ركس) مسمومًا بيد أثيمة قبل الحادث بشهرين..

إن كراهيتي للكلاب تتزايد يومًا بعد يوم.. لكني لا أصدق أن أفعلها..

د. (رفعت).. هل حقًّا تظن أنني (مقطوطة)؟!

رفعت:

(مقطوطة)! على وزن (مذءوبة).. تعبير جيد يا (مها).. لو كانت قصتك صادقة فالأمور لا تأخذ منحى آخر..

أي ذعر شعر به اللص البائس وهو يرى قطة آدمية تنقض عليه من بين أشجار الحديقة لتمزقه.. وتجره نحو البوابة وهي تزوم وتزمجر؟!

بالمناسبة يا (مها)... أظن أن اسمك ليس (مها) كما هي العادة في هذا البرنامج.. إن هذا يجلب متاعب هائلة لك..

مها:

بالطبع.. لكنّ اسمي قريب جدًا من هذا..

رفعت:

ليكن يا (مهيتاب).. ماذا حدث بعدها؟

مها:

لا تتذاك عليّ.. ودعني أكمل قصتي..

كنت أقول إن حالة التحول القططي هذه تحدث دون أن أشعر بها حين يجن الليل.. وأخشى ما أخشاه هو أن أوذي أحدًا دون أن أدري.. هل تنصحني بعلاج نفسي؟

رفعت:

أقترح أن ألقاك أولًا يا من ليست (مها) ولا (مهيتاب)..

شريف:

لا أظن أنها فعلت ما فعلته.. كيف لم تلوث الدماء ثيابها؟

رفعت:

هكذا القطط.. تلعق فراءها ومخالبها بعد الافتراس لتعود أنظف مما كانت.. بالمناسبة.. أرى أنك لم تتحولي بعد برغم أنها الثانية صباحًا..

مها:

لا أدري.. عسى هذا لا يحدث أبدًا.. د. (رفعت).. إنني مذعورة.. مذعورة حقًّا وأريد أن تساعدني Je suis un autre يا د. (رفعت)[9]!

رفعت:

الله يعلم كيف.. لكني سأحاول.. ألقاك في مكتبي بالكلية غدًا إن شاء الله.. هل تريدين شيئًا آخر؟

مها:

لحظة.. (صوت قرعات على الباب).. إن هذا.....

صوت امراة:

(مُهرة).. هل تسمعين المذياع الآن؟ ثمّة فتاة صوتها كصوتك تحكي مشكلة مضحكة.. (مُهرة).. ما كل هذا الظلام؟ ولكن الهاتف معك.. من تحدثين؟ يا للهول! ماذا دها عينيك؟ إنهما تتوهجان.. (مهرة)! إذن فأنت التي نسمعها الآن في المذياع!!

(مُهرة)! لاااااه!

* * *



الحلقة الثامنة

من أنا ؟

يحكيها : رفعت إسماعيل

الحلقة الثامنة
(من أنا؟)

يحكيها: رفعت إسماعيل

«ما هو الدليل على كينونتي؟ ما الذي يجعلني أنا؟»

المقـدمــة

شريف:

حلقة جديدة من برنامجكم (بعد منتصف الليل).. (شريف السعدني) معكم وضيفكم الدائم د. (رفعت إسماعيل).. أرجو أن تكونوا قد تأكدتم من أن الأطفال قد ناموا وأن نافذة الحمام مغلقة..

رفعت:

وأن الباب موصد بإحكام.. وأن تكونوا قد تفقدتم خزانة الثياب وألقيتم نظرة تحت الفراش.. فالأشياء التي لا تريدون أن تأتي تكون هناك دائمًا..

شريف:

لا تثر ذعرهم يا د. (رفعت)..

رفعت:

كل أطفال أوروبا وأمريكا يتحدثون عن (رجل الخزانة).. فكل طفل هناك يذكر شعوره حين نام وحيدًا في حجرته للمرة الأولى، وراح يرمق خزانة الثياب في جزع متوقّعًا أنّ هناك من ينتظر فيها..

شريف:

وصلتني مكالمات هاتفية عديدة بخصوص حلقة الأسبوع الماضي.. يقولون إن تحول إنسان إلى ذئب عندما يكتمل القمر أمر سخيف.. وإن هذا البرنامج هو فريسة سهلة لمجموعة من مؤلفي القصص والكاذبين وهواة التمثيل..

رفعت:

لا أدري.. أنا لم ألق مذءوبًا حقيقيًا حتى اليوم..

شريف:

لكن الذنب ليس ذنبنا.. فنحن نفترض الصدق في كل من يتصل بنا.. والمستمع هو من يمد آلة الرعب بوقود القصص حتى تعمل ولا تتوقف أبدًا..

رفعت:

للمرة المليون! إن لك مزية مهمّة يا (شريف) هي الإصرار.. مع عجز تام عن الشعور بالحماقة..

شريف:

أشكرك..

رفعت:

إن الذين لا يخشون أن يبدوا سمجين لهم قوم جديرون بالاحترام.. ولهم الأرض بما عليها ومن عليها..

(رنين الهاتف)..

هو ذا زبون الليلة..

شريف:

آلو.. هنا برنامج (بعد منتصف الليل).. من يتحدث؟

صوت رزين:

هل الكهل (رفعت إسماعيل) معك؟

شريف (مندهشًا):

يبدو لي الصوت مألوفًا.. إن د. (رفعت) معي.. لكننا نحافظ على الكلفة يا سيدي ونحرص على الألقاب.. فهلا تجنبت النعوت التي تدنو من الإهانة؟

الصوت:

أليس كهلًا؟ ولكنك قوى الملاحظ يا أستاذ (شريف).. إن نبرات الصوت واضحة تمامًا.. قل شيئًا يا د. (رفعت)..

رفعت:

ماذا أقول؟ إن بلاغتك تكفي شعبًا من البكم ليشفى للأبد..

شريف:

ذات الصوت! أنتما تملكان ذات الصوت بذات المقاطع! من أنت يا سيدي؟

الصوت:

أنا د. (رفعت إسماعيل)!

شريف:

ونفس الاسم أيضًا؟ إنها لمصادفة!

الصوت «سنسميه (رفعت إسماعيل) تمييزًا له عني»:

بل أنا هو.. أنا مجموع الصفات والعلامات والطباع التي اصطلح على تسميتها (رفعت إسماعيل)..

رفعت:

هذا مثير! إن المرء لا يتلقى مكالمة من نفسه كل يوم.. وماذا أكون أنا إذن يا د. (رفعت إسماعيل)؟

رفعت إسماعيل:

لا أدري.. كل ما أعرفه هو أنني (رفعت إسماعيل)..

شريف:

لحظة.. إن اسم (رفعت إسماعيل) شائع حقًّا.. ومهنة الطبيب شائعة تمامًا.. إن الأمر مصادفة طريفة لا أكثر ولا أقل..

رفعت إسماعيل:

حسن.. لنقل من أنا.. لنعرف ما أعنيه بالضبط..

أنا د. (رفعت إسماعيل) ابن قرية (كفر بدر) بمحافظة الشرقية.. توفي أبي في الصغر ورحلت مع خالي إلى المنصورة.. ثم درست الطب في (القاهرة).. وسافرت في بعثة دكتوراه إلى (أسكتلندا).. وعدت من هناك لأنشئ وحدة أمراض الدم بالكلية..

شريف:

هذا تاريخ سهل يعرفه كل من يعرف د. (رفعت إسماعيل)..

رفعت إسماعيل:

لي أخ يدعى (رضا) متزوج من امرأة متسلطة تدعى (نجاة)، وأخت تدعى (رئيفة) زوجها يدعى (طلعت).. أعز أصدقائي في الإسكندرية ويُدعى (عادل).. وقد خطبت شقيقة زوجته (هويدا) لفترة.. ولي جار يدعى (عزت) - مثّال - وسر فشل علاقتي مع الأنثى هو انعدام ثقتي بقدرتي على

أن أتحمل شريكًا لحياتي.. دعك من حب متغلغل في نفسي لفتاة إنجليزية تدعى (ماجي).. هل هذا كاف أم أتحدث عن الكاهن الأخير (هن - تشو - كان) الذي..

رفعت (في عصبية):

كفى!

شريف:

هل هذا الكلام صحيح يا د. (رفعت)؟

رفعت (متوترًا):

للأسف صحيح.. وبعضه لا يدري به أحد سواي.. إنه جزء من أعمق أعماق ذاتي.. إنني.. إنني.. لا أدري حقًّا.. هـ.. هذا الرجل يعرفني كنفسي!

رفعت إسماعيل:

لأنني أنت يا د. (رفعت)! هذا كلام واضح..

شريف:

ما هو الشيء الواضح هنا؟ أنت مجرد هاوٍ لتقليد الأصوات يا سيدي تحاول التسلية..

رفعت إسماعيل:

حسن.. إن فصيلة دمى (B).. ولدى قرحة مزمنة وربو شعبي وضيق في الشريان التاجي الأمامي بسبب الإفراط في التدخين.. ولدي وحمة حمراء في جدار البطن.. و.....

رفعت (مستسلمًا):

الأمر واضح.. هذه الصورة الشمولية لا يعرفها أحد من معارفي وأقاربي.. كل واحد منهم يعرف جزءًا صغيرًا منها.. إن أخي لا يعرف حكاية شرياني التاجي.. بينما (عزت) جاري لا يعرف اسم أخي ولا اسم زوجته.. ولا أحد يعرف (ماجي) سوى (عادل).. لكنّ (عادل) لا يعرف شيئًا عن الكاهن الأخير[10]..

شريف:

ومعنى هذا؟

رفعت:

معناه أن المتكلم هو (رفعت إسماعيل) حقًّا..

شريف:

ومن تكون أنت إذن؟

رفعت:

سؤال غريب! أنا (رفعت إسماعيل) طبعًا..

شريف:

هل لك أخ توءم متماثل؟

رفعت:

لا أخ لي سوى (رضا).. وعلى كل حال لا أحد يُسمّى التوائم بنفس الاسم..

شريف:

إذن.. ما معنى ما يحدث؟

رفعت:

لا أدري.. ربما كان د. (رفعت إسماعيل) هذا كريمًا بما يكفي كي يفسر لنا معنى هذا كله..

رفعت إسماعيل:

الأجدر بك أنت أن تقدم هذا التفسير لي.. فهأنذا جالس في داري أستمع إلى المذياع ثم أجد من يتحدث باسمي وصوتي.. تجدني في غاية الدهشة..

شريف:

لكن لحظة.. أنا واثق من أن من أمامي هو د. (رفعت إسماعيل) بشحمه ولحمه ـ إن كان يملك شيئًا غير العظام - ولن أصدق أنه نصاب.. لقد تقابلنا مرارًا.. وهو من يرد على الهاتف حين أطلبه.. وهو من توجد صورته في بطاقته الشخصية.. إذن هذا هو من اصطلح القوم على تسميته د. (رفعت إسماعيل)..

رفعت إسماعيل:

هذه ـ لعمري - قضية فلسفية مهمّة: ما هو الدليل على كينونتي؟ ما الذي يجعلني أنا؟ هناك (رفعت) يعرفه المستمعون.. وواحد يعرفه طلبته.. وواحد يعرفه أصدقاؤه.. وواحد يعرفه هو نفسه.. فمن بين كل هؤلاء هو العجوز (رفعت إسماعيل)؟!

رفعت:

أنا كل هؤلاء معًا.. على كل حال لا يوجد سوى حل واحد لهذا الإشكال.. هو أن نلتقي..

رفعت إسماعيل:

مستحيل..

رفعت:

آها! هو ذا التراجع.. إذن أنت مجرد نصاب عبقري..

رفعت إسماعيل:

لا أعني هذا.. الأمر - ببساطة - هو أن لقاءنا مستحيل.. لأننا نفس الشخص.. لكننا جانبان منفصلان متناقضان..

رفعت:

هل تعني أننا شخصيّة مزدوجة؟ ربما كنت أحمل بذور الجنون في روحي.. لكنّ - مهما بلغ الجنون من تفاقم ـ لم ير العلم الشخصية الأخرى تغادر الجسد لتعمل مستقلة.. إنّه أمر شبيه بأن يغادر أنفك وجهك ليتنزه ثم يعود إليه!

رفعت إسماعيل:

هذا هو المفترض.. لكنّ ـ في ظروف غير مفهومة ـ لم نعد ذات الشخص..

شريف:

لا أفهم كل هذا الجدل الميتافيزيقي.. إن هذا المزاح.....

رفعت:

لحظة يا (شريف). أستطيع فهم ما يريد هذا المعتوه قوله.. إن كلًّا منا ليس شخصًا واحدًا.. أحيانًا أنت قاس شرير كالشيطان.. وأحيانًا أنت رقيق كملاك.. أحيانًا أنت واهن كطفلة رضيعة.. وأحيانًا أنت أقوى من (طرزان)...

وفي كل لحظة من حياتك تلعب إحدى هذه الشخصيات الدور الأكبر.. وفي ظروف معينة ـ كالتي يزعمها هذا الأخ ـ قد تتحرر شخصيّة من الشخصيات العديدة لتمارس حياة مستقلة..

رفعت إسماعيل:

تماما كما تقول.. لست غبيًا جدًّا يا د. (رفعت)..

شريف:

إذن فهذا الأخ يمثل الجانب الإيجابي المندفع الوقح قليلًا في شخصيتك يا د. (رفعت).. لكنّ كل هذا عسير على التصديق..

رفعت:

بالطبع.. لهذا أرجح أنّ هذا الرجل نصاب يجيد تقليد الأصوات.. وأقترح إنهاء المكالمة حالًا..

رفعت إسماعيل:

مازلت تكابر.. ألم تقل منذ ثوان إنّه من المستحيل أن أعرف كل هذا عنك؟



رفعت:

إن الشخص الذي يعرف (رضا) و(عزت) و(ماجي) و(عادل) لقادر على تجميع محاور حياتي واستنباط قصة كاملة..

رفعت إسماعيل:

ومن هو هذا الشخص الذي يعرف كل هؤلاء؟

رفعت:

حسن.. لنفترض أنك محق.. فماذا تريد يا سيد (رفعت)؟ لا أظن أنك تعشق الثرثرة..

رفعت إسماعيل:

لا أريد سوى وضع الأمور في نصابها.. ليس (رفعت إسماعيل) الذي يلتقي به البرنامج هو (رفعت إسماعيل) الوحيد...

رفعت:

حسن.. لنرتب أفكارنا.. يمكن أن أفترض أنك قريبي؟

رفعت إسماعيل:

بالطبع لا..

رفعت:

ذات مرة حدث شيء مماثل مع كهنة (الفودو) في (الكاريبي)، وقد استطاعوا الحصول على صورة مجسدة إكتوبلازمية لي من عويناتي التي حصلوا عليها.. نسخة متقنة مني...

رفعت إسماعيل:

لا أدري أهذا ممكن أم لا.. لكنه ليس الحال هنا..

رفعت:

هل أنت من شعب الأطياف؟ (آشتا) آخر؟ أو ربما أنت آت من عالم مواز كالذي تحدث عنه (سالم) و(سلمى) يومًا ما؟ ربما أنت نسختي على ذلك الكوكب.. أو أنت نسخة جينية (كلون) صنعها، أحدهم من إحدى خلايا جسدي.. إن كتاب الخيال العلمي قد قتلوا هذا الموضوع كتابة..

رفعت إسماعيل:

لماذا تخلط الأمور؟ لقد استعرضت كل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة.. والمعقولة والشاذة.. لماذا لا يكون الحل الوحيد هو أنني أنت؟

رفعت:

دعك من الفلسفة.. وقل لي.. ربما أنت توءم سيامي كان في جسدي وانتزعوه مني في الصغر ليغدو شخصًا آخر كامل النمو.. ويشبهني في كل شيء..

رفعت إسماعيل:

أنت إنسان غريب التفكير حقًا.. قلت لك حلًا بسيطًا..

رفعت:

حسن.. أشكرك على إبلاغك لي أنني اثنان ولست واحدًا.. هل يمكننا إذن إنهاء هذا السخف؟!

رفعت إسماعيل:

حسن.. أقترح أن نحل هذا الإشكال بطريقة متحضرة.. واحد فينا فقط يملك الحق في الحياة.. فالحياة لا تتسع لاثنين (رفعت إسماعيل) على ما أظن..

رفعت:

لم لا؟ إن شقتي واسعة.. وطعامي وفير..

رفعت إسماعيل:

هذا هو الإشكال الحق.. فأنا أرى أنّ هذه شقتي وطعامي أنا.. ولا أحب المزاحمة.. ثم من منا يملك الحق في العمل والحب والحياة عمومًا؟ لو أننا أردنا الزواج من (ماجي) مثلًا.. فمن هو الذي سيتزوجها بالضبط؟

رفعت:

أرى وجهة نظرك..

رفعت إسماعيل:

لهذا كله سأحرص على أن أجعلك تراني وتواجهني.. سيكون موعدنا غدًا في داري - أو دارك كما تشاء - ولحظتها ستدرك ما أعنيه حين تحدّثت عن كوننا ذات الشخص..

شريف (في عصبية):

لكنّ كل هذا هراء.. إن حديثكما يوشك أن يكون حديث معتوهين في مصحة أمراض عقليّة.

رفعت:

ربما.. لكني لا أبذل أي جهد في هذا الهراء.. هذا الأخ هو من اتصل وهو المطالب بإثبات صدق ما يزعم.. ثم هو قد قال منذ ثوان إنّه لا يستطيع مواجهتي لأنّه أنا.. الآن يؤكد أن المواجهة ممكنة.. وأنا أحب المتناقضين لأنّهم يشعرونني بقوّة مركزي...

رفعت إسماعيل:

سنتحدث عن القوة حين نلتقي.. لكنّ لتعلم أنني لا أمزح.. إن لقاءنا سيكون نوعًا من المبارزة تنتهي بانتهاء وجود أحدنا.. ويخلو المكان للآخر تمامًا.. وبهذا أسعد.. ولهذا قلبي يطرب..

رفعت:

هل أحضر شهودي ومسدسي إذن؟

رفعت إسماعيل:

ليس هذا محتومًا.. هناك أنواع عديدة من المبارزات، ولسوف ترى كيف تكون مبارزتنا هذه.. هادئة لكنّها فعالة..

رفعت:

حسن.. سأعد لك غداءً شهيًا.. إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم كما تعلم..

رفعت إسماعيل:

بل أنا من سيعد الغداء.. أنسيت أنها داري أنا؟ والآن وداعًا أيها الشيخ.. (يضع السماعة)..

رفعت:

وداعًا.. وبالمناسبة.. أنا كهل ولست شيخًا بعد..

شريف:

هل ستفسر لنا الآن معنى كل هذا؟

رفعت:

لو كان لدي تفسير لقلته.. لكنى غدًا أعرف كل شيء.. لكنّ هل لاحظت عبارة (به أسعد، وله قلبي يطرب) في كلامه؟ عبارة غريبة التركيب حقًّا.. وقد سمعتها من شخص واحد فقط كان يقرأ أوراق (التاروت).. وكان يدعى د. (لوسيفر)..

كان د. (لوسيفر) قارئ أفكار محترفًا.. أعترف له بهذا.. لكنه كان كذلك شيطانًا زنيمًا.. وأعتقد أنه كان يمقتني حقًا..

شريف:

هل تعتقد أنه هو من..؟

رفعت:

لا أدري.. لكنّ د. (لوسيفر) هو الوحيد الذي يستطيع معرفة كل ما أعرفه عن نفسي.. وإنني لأتساءل.....

شريف:

هل ستحكي لنا ما سيحدث غدًا؟

رفعت:

بالتأكيد.. هذا بالطبع لو ظللت أنا أنا.. من المستحيل معرفة من يجيء لكم في المرّة القادمة.. ربما أنا وربما (رفعت إسماعيل) هذا..

ومن الواضح من الكلام أن تمييزنا مستحيل..

شريف:

إن كل هذا يصيبني بالدوار..

رفعت:

أنا كذلك.. لكنّ عزائي الوحيد هو أنني سأعرف الجواب غدًا..

شريف:

أما نحن فسنعرفه في الحلقة القادمة..

رفعت:

ولربما ظل سرًا إلى الأبد.. من يدري؟!

* * *

خاتمة

يقدمها: د. رفعت إسماعيل

وبعد.. لقد وصل الشريط إلى نهايته، ولم يعد هناك سوى صوت دوران القرص بعد ما خمدت الأصوات الأخرى...

هذه هي نهاية حلقة الرعب الثالثة..

وقد سمعنا فيها ـ وربما استمتعنا كذلك ـ بعض الحلقات المختارة من هذا البرنامج، الذي أعتقد أنه كان جيدًا.. لكنه توقف لأسباب يطول شرحها... ليس شخصي من بينها لحسن الحظ..

إن لدي كثيرًا من حلقات هذا البرنامج - حوالى سبعين حلقة - ربما أقدمها لكم يومًا ما، لو شعرت بأنكم احببتموها حقًّا..

لقد حاولت تنويع الحلقات التي اخترتها لكم هذه الليلة.. فتجنبت قصص مصاصي الدماء والمذءوبين والموتى الأحياء..

قدمت لكم تنويعات على: تحضير الأرواح.. أكاذيب الأطفال.. السحر الأسود.. أشباح الضحايا العائدة لتملأ الحياة تعقيدًا.. بل والتشويق البوليسي الخالي من الميتافيزيقا...

ستكون المجموعة التالية من الحلقات مختلفة في موضوعاتها.. بعضها أفضل من حلقات اليوم وبعضها أسوأ بالطبع.. لكنّها جديدة تمامًا..

لا أدري متى أقدمها.. لكنّها بالتأكيد لن تكون الحلقة الرابعة منعًا للإملال.. وحرصًا على تغيير القالب في كلّ مرّة..

تسألونني عما فعلته مع (رفعت إسماعيل) الآخر..

يا له من سؤال! بالطبع تلاقينا وكانت لنا قصة لا بأس بها.. لكني سأقدمها لكم في كتيب منفصل هو (أسطورة رفعت إسماعيل).. ونلتقي به - بعون الله - في الكتيب الثاني والثلاثين..

وماذا عن حلقة الرعب التالية؟

لم أعرف بعد كيف ستكون.. لكنّها بالتأكيد مسلية وجديدة.. بها عدد لا بأس به من الأشباح والكهنة الحانقين.. والصناديق المغلقة على سر مريع.. والفتيات اللواتي تغطي القشور سيقانهن.. والأطفال الباكين الذين تعرف بعد قليل أنهم ماتوا منذ أعوام...

والقبور المفتوحة.. والمومياوات التي تنوي خراب بيت من يعبث بأكفانها..

إن جعبة (رفعت إسماعيل) لا تفرغ أبدًا..

(رفعت إسماعيل) الذي يعتبره البعض معتوهًا.. ويعتبره البعض نصابًا.. لكنّ الجميع يرونه مسليًا..

كل هذا وأكثر تلقونه في حلقة الرعب الرابعة..

ولكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مـقـدمـة ..

بعـد منتصـف الليـل

الحلقة الأولى (الزوج الذي عاد)

الحلقة الثانية (حكاية من المشرحة)

الحلقة الثالثة (فكرة غير عادية)

الحلقة الرابعة (الشقة رقم "٩")

الحلقة الخامسة (قُلْ لي يا "أونكل")

الحلقة السادسة (الحافلة)

الحلقة السابعة (بس بس..ناو..!)

الحلقة الثامنة (من أنا؟)

خـاتمـة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة بعد منتصف الليل..

نحن ننتظرك .. لو أن صديقك يتحول إلى مسخ فلا تتردد .. واتصل بنا ..، لو أنك ترى ضوءًا مريبًا فى دار جيرانك الذين هاجروا منذ أعوام .. فاتصل بنا ..، لو تحرك شىء ما فى قبو دارك ليلا .. فاتصل بنا ..، لو تبدّل وجهك فى المرآة إلى وجه آخر تعرفه .. فاتصل بنا .. صحيح أن الوقت متأخر .. لكن لا تتردد .. نحن بانتظارك ساهرون ...



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
أسطورتها..!

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
٨٩٠٨٤٨٨٠٠٠ - ٢٨٣٨٨٨٤ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

راجع الكتيب العاشر (حلقة الرعب) حيث مناقشة أكثر تفصيلًا عن عشق الرعب..

برنامج (رسالة) هو الجد الشرعي لبرنامج (أريد حلًا) الحالي..

[←2]

[←3]

[←4]

أرجو ألا ينسى القارئ أن ترتيب الحلقات هنا يختلف عن الترتيب الذي أذيعت به..

[←5]
ليس مؤكدًا أنّ هذا كان مصير المستكشف الإنجليزي الشهير (ليفنجستون)، والذي اختفى في مجاهل إفريقيا وهو يبحث عن منابع النيل..

[←6]
كان هذا النوع من الجوائز سائدًا في الستينات، قبل أن تصير جوائز اليوم من عينة السيارات والشقق والجنيهات الذهبية..

[←7]

حقيقة..

تقرءونها بالتفصيل في (أسطورة ملك الذباب)..

[←8]

أنا أخرى.. وهو مقطع شهير للشاعر الفرنسي (رامبو).. [←9]

[←10]

في هذا الوقت لم يكن (رفعت) قد نشر أية قصة له من التي يعرفها قراؤنا..

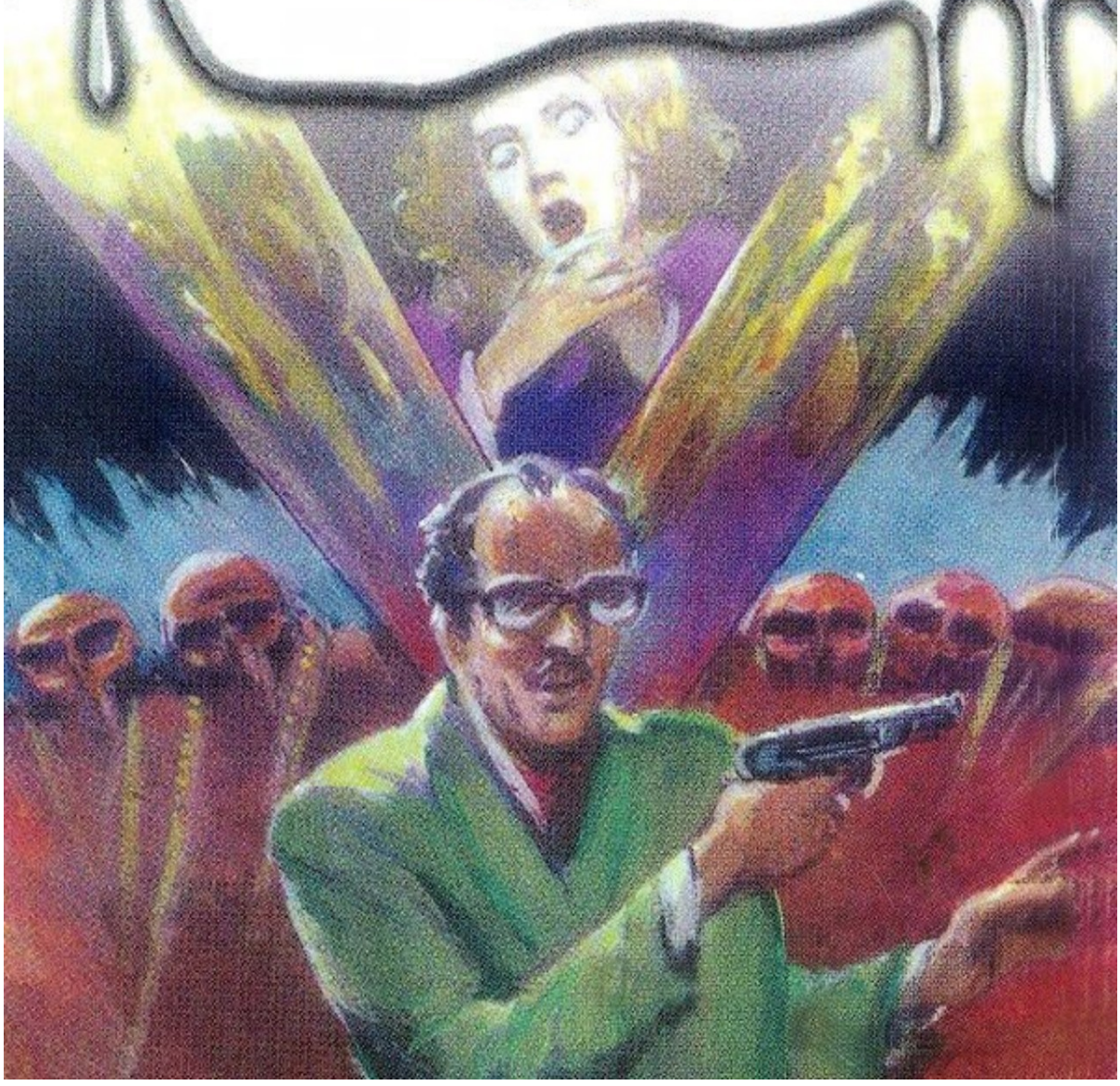
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

31

أسطورتها..!

هاوية الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

لقاء جديد لنا.. العجوز (رفعت إسماعيل) بقصصه الكئيبة، وأصدقائه الشباب بعيونهم المتسعة وفضولهم النهم إلى كل جديد...

لقد جلسنا ثلاثين مرة نصغي لقصص.. ونرى صورًا.. ونستمع إلى شرائط تسجيل.. وفي كلّ مرّة كان هدفنا هو الاستمتاع.. الاستمتاع النظيف بلا تنازلات.. ضحكنا مرارًا.. وبكينا مرارًا.. وارتعبنا مرارًا.. لكننا - وهذا هو المهم - أحببنا هذه اللحظات..

والآن دعونا نبدأ قصة أخرى..

يبدو أنني - بعد حلقة الرعب الثالثة - قد نلت قسطًا لا بأس به من الراحة.. راحة تجعل مفاصلك تتصلب.. وتجعل عقلك كقدمين فارقتا الحذاء بعد يوم شاق.. إنهما تنتفخان.. تنبضان.. ثم يغدو من المستحيل إعادتهما للحذاء بعد ذلك..

حسن.. سأحاول أن أحشر عقلي في حذاء القصص مهما كلفني الأمر..

أين كنا توقفنا؟

عند العام ١٩٦٩ بعد قصة عدو الشمس، وهذين الكائنين القادمين من عالم الأطياف..

يعود الزمن إلى دورته التقليدية.. وأعود أنا لألملم ذكرياتي مع وجه فارقته طويلًا، لكنه لم يتزحزح عن عرش أحلامي قط..

إنها لا تشيخ أبدًا كأنما خلقت من فورها..

إنها تملك الجديد دائمًا..

إنها تعرف كل شيء عنى ربما أكثر مني....

إنها الأم الأبدية.. والصديقة الأبدية.. والأخت الأبدية..

إنها الحب الذي لا ينتظر حتى نُسمّيه حبًّا لأنّه هنالك دائمًا..

إنها دائمًا أخرى.. ودائمًا هي.. فكيف؟!

تلك هي.. أسطورتها...

* * *

١ - إنها قادمة!

أسطورتها أنها هي..

* * *

إنه أكتوبر..

يوجد ألف سبب يدعوني لكراهية الربيع.. آخرها أنه ينذر بمرض شاعري الاسم لا نجده في فصل آخر: الرمد الربيعي.

لهذا أحب الخريف.. ولو تغاضينا عن حقيقة أنه لا يوجد رمد خريفي؛ يمكننا القول بأنه الفصل الوحيد الذي له مذاق الحزن المرهف.. والرقة الشفافة.. ذلك المذاق الذي لا نجده في فصل آخر.

في ذلك الصباح لم يكن لديَّ ما أفعله.. كنت في إجازة قصيرة، وقد قرأت كومة الخطابات التي وجدتها في بريدي.. ربما باستثناء خطابين أو ثلاثة..

لهذا قررت أن أعني بالشقة قليلًا.. لأحولها من عرين خرتيت ـ لو كان للخرتيت عرين ـ إلى شيء صالح للاستعمال الآدمي..

هناك امرأة في الخمسين من عمرها تأتي لشقتي مرّتين أسبوعيًا لتنظفها.. اسمها (أم أحمد) أو (أم حسن) أو أم شيء ما.. المهم أنها شمطاء.. وأنها تسرق السمن من البَرطمان.. ثم ـ الأسوأ ـ لا تأتي بانتظام.. أحيانًا تتغيب عني شهرًا.. لكنّها على كل حال لا تموت أبدًا..

يصر (عزت) على تسميتها (مدبرة المنزل).. وهو اسم يليق بلورد (ماونتباتن) لكنه لا يليق بـ (أم حسن) بالتأكيد.. وعلى كل حال لا يجب أن ننسى أن (عزت) هو من أوجدها لي.. وهي تسرق السمن من شقته مثلما تفعل معي..

لم تأت أم (عوض) هذه.. فهل أترك شقتي وحالها؟

بالتأكيد لا.. شرعت أمسح البلاط وأغسل الملاءات، وأبعثر الغبار بشكل متجانس بحيث لا يحتشد في موضع بعينه...

كذلك أشعلت الموقد فطهوت بعض الباذنجان، وغليت اللبن أعني أنني وضعته ليغلي..

وهنا أعود فأقول: إن اللبن سائل ملهم.. ألا ترى هذا معي؟ ما إن تضعه على النار حتى تتداعى ذكرياتك.. وتخطر لك آلاف الأفكار العبقرية.. وتتذكر مواعيد لم تف بها.. ومكالمات هاتفية لم تجرها.. المهم أن كل شيء يدعوك لنسيان اللبن الذي على الموقد.. وتفيق لرشدك لتجد البركان الأبيض يثور بحممه.. وتدرك أنك تأخرت ثانيتين مصيريتين... لكني سآخذ حذري هذه المرّة...

دعنا من كل هذا.. ولننتقل إلى الجزء المهم في الموضوع...

قلت إنني وجدت خطابين في بريدي بقيا من كومة الخطابات التي قرأتها.. وكان أحدهما بخط أنيق أعرفه جيدًا.. أمّا الآخر فكان بالإنجليزية.. ولم احتج إلى كثير ذكاء كي أتذكر اليد التي كتبت

هذا الخط.. إنّه خط (ماجي)!
سقط قلبي في قدمي.. وشعرت بقشعريرة تجتاح جسدي..
خمسة أعوام كاملة يا (ماجي).. لم أعرف عنك شيئًا على الإطلاق..
. كنت هناك دائمًا لكنّ دون أن أراك أو أسمعك..
و.. وفتحت الخطاب....
«إنفرنسشاير في ١٢/٩/١٩٦٩
عزيزي رفعت:
سرني أن أعرف أنك بخير.. وأنك مازلت تلعب دور صائد الخزعبلات الذي يُفترض أنك تلعبه.. أرسلت هذا الخطاب إلى عنوان عملك وعنوان دارك آملة في أنك لم تغير كلا العنوانين.. أعتقد أن كليهما صحيح.. فأنت لست من النوع الذي يستقيل من مهنته.. أو يثرى فجأة فيبتاع دارًا جديدةً..
ما أردت قوله هو أنني أعد لك مفاجأة رهيبة لكنّها لن تقضي عليك.. أنا قادمة إلى مصر في زيارة سريعة يوم ٢٤/١٠/٦٩.. أرجو أن تتصل بي لتعرف رقم الرحلة وموعد وصولها، فأنا لا أعرف رقم هاتفك..
حتى نلتقي احتفظ بنفسك حيًا.. أعتقد أنني أستحق مجاملة بسيطة كهذه.
بإخلاص: ماجى ماكيلوب»

ونظرت غريزيًا إلى نتيجة الحائط...
إنه ١٩ أكتوبر.. أي أن (ماجي) ستكون هنا بعد خمسة أيام..
ابتلعت بعض (النتروجلسرين) كي لا أموت.. إن أغنية (أم كلثوم) الرائعة (أغدًا ألقاك؟) تعبر خير تعبير عن الموقف.. وكيف يتحول الشوق إلى رهبة.. وإلى رعب يفوق رعب كل المذءوبين مجتمعين..
وهنا حدثت الكارثة.. رائحة اللبن المحترق تفعم أنفي.. لقد سال فأغرق الموقد ولم يعد باقيًا منه في الإناء ما يكفي لإشباع قطة..
ألم أقل لكم إنّه سائل ملهم سخي بالأفكار؟
تركت كل هذا وارتديت ثيابي واتجهت إلى (السنترال)، وانتظرت دهرًا حتى جاءت مكالمتي مع (انفرنسشاير)..
كان هذا هو صوتها.. يتسرب عبر سلوك الهاتف وعواصف الكهرباء الإستاتيكية.. لكنه هو.. هو..
- «(ماجي).. أنا..»
- «لا تطل الكلام يا مسكين فأنا أعرف سعر المكالمات.. سأصل يوم ٢٤/١٠ في السادسة مساء..
على الرحلة رقم (....) هذا كل شيء.. وداعًا!»
وانتهت المكالمة.....
مازالت عملية جدًا هذه الفتاة..

* * *

كان على أن أقوم بعدة أشياء في وقت واحد:

(أ) توجهت إلى فندق (....) فحجزت غرفة باسمها.. إن العبء المادي لساحق على كاهلي.. لكن ليس بالمال وحده يحيا الإنسان..

(ب) ذهبت لأبتاع بذلة أنيقة وربطة عنق وقميصين.. أعرف أن البذلة الزرقاء ما زالت تؤدي عملها وتجعلني فاتنًا.. لكنّها بدأت تبلى قليلًا.. ألا ترى هذا معي؟ ثم إنني كنت أرتديها في زيارة (إسكتلندا) إياها منذ خمسة أعوام...

(ج) ذهبت إلى الحلاق ليهذب لي الشعر الثائر المتبقي على جانبي جمجمتي.. ولا بأس بحلاقة ذقني عنده... رحت ـ في تعاسة ـ أرمق هذا الوجه المريع الذي يرمقني بتعاسة مماثلة من جانب المرآة الآخر.. لا شك أن الوقت أضيق من إجراء جراحة تجميل.. أو زرع شعر..

ولكن لماذا أقلق؟ (ماجي) قالتها يومًا:

- «إن المرأة تحب رجلها ليس لأنّه أقوى الرجال ولا أوسمهم. ولا أغناهم بل لأنّه هو.. هل تفهم هذا؟ لأنه هو بضعفه وقوته.. بهزاله وربوه وضيق شرايين التاجية..»

يا سلام! ما أبدعك يا (ماجي) أيتها الفيلسوفة الجميلة.. هذا هو نوع الآراء الذي يروق لي..

من الغريب - صدق أو لا تصدق ـ أنني حين فكرت في هذا شعرت أنني أجمل.. وجهي في المرآة صار أكثر قسامة.. يبدو أن (إيليا أبو ماضي) كان على حق.. ويبدو أن القبح هو شعورك بالقبح فعلًا..

(د) ولا باس طبعًا من إعداد جولة سياحية لا بأس بها.. الأهرام.. المتحف المصري.. الإسكندرية.. كلا.. ميزانيتي لا تحتمل (الأقصر) و(أسوان) أرجوك.. فلنتظاهر أمام (ماجي) أنهما غير موجودتين.. أو أنني لم أسمع عنهما قط..

لكني لم أكف عن التساؤل بينما أعد كل هذا..

لماذا هي آتية؟ لماذا بدا خطابها مقتضبًا وحديثها متحفظًا؟

هل كل شيء على ما يرام حقًّا؟

لقد مات أبوها ـ السير (جيمس ماكيلوب) - منذ عامين.. قرأت الخبر في إحدى دوريات أمراض الدم.. وعرفت بعدها أنني لن أرى أستاذي العظيم أشيب الشعر كث الحاجبين طويل السالفين أبدًا.. الرجل المهذب الأرستقراطي الذي يفيض كبرياءً وعلمًا..

حاولت الاتصال بهم مرّتين.. وأرسلت خطابًا لا أدري إن كان قد وصل أم لا.. ثم نسيت الأمر تمامًا.. بالتأكيد (ماجي) أيضًا قد صارت أفضل..

هل تزوجت؟

معلوماتي تقول إن هذا لم يحدث.. يبدو أن خطبتها قد فشلت لأسباب لا تتعلق بحسدي وحزني.. وهذا يعني ببساطة أنها وحيدة مثلي.. وحيدة كسمكة (المقاتل السيامي) أو كأفعى في قبو قصر...

آمال مجنونة تتواثب في صدري...

إن الغد يحمل وعودًا كثيرة..

* * *

- «ولد يا (إسماعيل).. لماذا دققت جرس الأستاذ (عزت)؟ أنت تعرف أنه ينام حتى الظهر يوميًا؟»

تقولها مدام (ماجي) بلهجتها العربيّة المبعثرة.، وهي تقف بمريولة المطبخ على الباب.. ودموع ومخاط البصل الذي كانت تقشره يغطى وجهها.. فيقول لها (إسماعيل) الصغير وهو يزيح خصلات شعره الأشقر عن وجهه:

- «لأن شكله مخيف يا مامي.. أحيانًا أحسبه آكل بشر..»

- «لا عليك.. أبوك نفسه ظن ذات الشيء يومًا ما.. تعال هنا..»

ابنة السير (جيمس ماكيلوب) تقشر الكوسة وتخرط البصل، بانتظار عودة زوجها المحبوب (رفعت إسماعيل) من العمل..

و .....

* * *

وأفيق من أحلام اليقظة.. ربما بفعل هذه البعوضة التي لسعت قفاي.. فأعود إلى وعيي وإلى تساؤلاتي..

لماذا ـ بحق السماء - قررت أن تزور مصر فجأة؟!

ولم أكن أعرف بالطبع أن زيارتها تحمل لي أيامًا رهيبة..

أيامًا جديرة بأن أحكيها لكم....

* * *

٢ - إنها هنا!

أسطورتها أنها تتبدل في كل ثانية كالشلال..

* * *

وفي المطار وقفت محاولًا منع نفسي من الفرار كالأرانب..
في البدء لمحت العربة التي يعلوها تل من الحقائب.. ثم لمحت شعرًا أشقر ثائرًا وعوينات سوداء.. ثم بدأت أدرك أنني أرى فتاة هشة رقيقة يمكنها أن تمشي فوق العشب دون أن تثني منه عودًا واحدًا..
واحدة فقط في العالم ينطبق عليها هذا الوصف..
هرعت مرتعبًا لأعاونها.. لكنّها قالت في لهجة رسمية متعجلة وهي تواصل دفع عربتها:
- «هاي (رفعت)! هل سيارتك قريبة؟»
توليت لاهثًا دفع العربة، وأشرت لها إلى اتجاه ما..
- «كـ.. كيف حالك يا (ماجي)؟»
- «بخير يا (رفعت).. بخير..»
واستقرت جواري في السيارة...
ما أغرب السنين! كلما لاقيت (ماجي) شعرت بأنني أبدأ من جديد.. فها هي ذي سائحة شقراء أخرى لا تمت لي بصلة.. متحفظة قليلًا.. باردة إلى حد كبير.. هل هذه ذات الفتاة التي توسلت إليَّ كي أبقى معها، حين وقفنا ذلك اليوم في قصر أبيها أنتظر الرحيل معه إلى (إدنبرة)؟
لحظات من الصمت وهي ترمق معالم طريق المطار من النافذة..

هنا أدركت أن جزءًا لا بأس به من برودها ناجم عن هذا الاختراع المقيت: المنظار الأسود.. فهو يصلح لضابط يريد أن يرهب اللصوص.. لكنه لا يناسب صديقًا يرمق صديقه...

- «(ماجي).. هلا خلعت هذه؟ إنها تجعلك سمجة قليلًا»

نظرت لي هنيهة ثم مدت يديها إلى وجهها لتنزعها..

عندها عرفت أنني ظلمتها..

لم تكن ترتديها على سبيل (الألاطة) إن جاز لي التعبير..

كانت ترتديها لأن مقلتيها حمراوان بلون الدم..

* * *

مر النادل قرب مائدتنا، فرفعت يدي في أناقة كي يأتي.. لكنه لم يفعل.. طرقعت بإبهامي وسبابتي فلم يستجب..

هذه هي مشكلتي الدائمة.. إنهم لا يعبئون بمناداتي إياهم أبدًا.. أصدرت وسوسة من بين أسناني فاستدار في ضيق.. وجاء إليّ:

- «ماذا تريد؟»

- «كوبًا من الليمون.. لا فليكن كوبين..»

- «حسن.. لكنّ تذكر أنني لست قطة لتناديني بـ (بس بس) هذه!»

وانصرف تاركًا أذني محمرتين خجلًا.. ولم تلحظ (ماجي) الموقف لحسن الحظ لأنهّا كانت تفتح وتغلق منظارها مرارًا شاردة الذهن..

سألتها بعد برهة:

- «هل هو (إيوان فريزر)؟»

نظرت لي بعينين توشكان على الإمطار من جديد.. وغمغمت:

- «نعم.. كان دائمًا حولي يحاول أن يثبت لي أنني أحتاج إليه.. وفي النهاية قبلت خطبته.. لكنّ انطباعنا الأول عن الناس يكون صادقًا غالبًا.. إن (فريزر) مهرج كبير يبهرك في أول لحظة ثم لا تلبث أن تجده خاويًا ونذلًا.. وكان لا بد أن ننفصل..»

- «لم أتصور لحظة أنه هو..»

- «ولا أنا.. لكنّ الوحدة والخوف من الغد يجعلان المرء يقارف أمورًا غريبة..»

ثم جاء الليمون.. فجرعت جرعة كبيرة من كوبها.. وأعادته إلى المنضدة فأحدث قرقعة عالية.. وأردفت:

- «كنت غارقة في أبحاثي.. وفي لحظة توفي والدي وصرت وحيدة جدًا.. وبالطبع لم يتفضل السيد (رفعت) بالاتصال بي أو مراسلتي طيلة هذه السنين..»

للمرة الثانية احمرّت أذناي.. وقلت مبررًا:

- «كان خطابك الأخير جافًا.. قلت إنك خُطِبت.. وشعرت أنّ هذا يعني ألا مكان لي في حياتك بصورة مهذبة.. إلى جانب أنني شعرت أنك تتشفين بشكل ما.. لا أظن أنك تلومينني على هذا..»

- «قلت إنك ستذكرني أبدًا..»



ثم بدأت أدرك أننى أراها فتاة هشة رقيقة يمكنها أن تمشى فوق
العشب دون أن تثنى منه عوداً واحداً . .

- «وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى.....»

وهنا انهمر المطر من عينيها من جديد...

عزيزتي (ماجي).. لقد اعتدت أن تكوني أنت الطرف الأقوى الذي يعرف ما ينبغي عمله.. إن روحك مثقلة بالأحزان والحيرة الآن.. وهذا يجعلني في حالة عجز وارتباك.. حين يُطالب الآخِذ أن يعطى تتملكه الرهبة.. منذ متى تطلب الشمس منا الدفء؟!

وعدت أتأملها..

ذات الشعر الأشقر الذهبي.. ذات العينين الزرقاوين الواسعتين.. لكنّ شيئًا ما لم يعد كما هو.. ولا أعني بذلك أثر السنين. فالزمان يكتفي بالنسبة لـ (ماجي) بحمايتها.. بإزالة الغبار عنها.. وربما بعد ثلاثين سنة يمكن أن تبدو كامرأة في الأربعين من عمرها.. ربما....

بعد هنيهة سألتني:

- «هلا رحلنا؟»

أخرجت ورقة عملة دسستها تحت الكوب.. ونهضت:

- «الحق معك.. لا بد أن السفر قد أنهكك..»

وفي عفوية تأبطت ذراعي ونحن نغادر المكان.. شعرت بحنان غامر يغرق روحي.. ما زال بوسعي أن أمنح هذه الشمس الكاسفة بعض الدفء..

- «هل سأقيم في شقتك؟»

ابتسمت في سخرية.. وقلت:

- «نحن في مصر لا (إدنبرة) لقد حجزت لك غرفة في فندق..»

- «ومتى أراك ثانية؟»

أعطيتها رقم الهاتف.. ووعدتها أن أمر لأخذها في العاشرة صباحًا بعد ما تقضى ليلة مريحة.. وغدًا ربما تكون أفضل حالًا..

وفي بهو الفندق قالت لي وهي تداعب مفتاح غرفتها بأناملها:

- «لا تتأخر يا (رفعت).. فأنا بحاجة إليك..»

لن أتأخر يا (ماجي).. يُمكنك أن تراهني على ذلك..

* * *

الأهرام تتوهج في ضوء شمس الخريف ساحرة الجمال..

حولنا يحوم المترجمون وأولئك الفتية بخيولهم وجمالهم..

- «جمل يا أستاذ؟ حصان يا أستاذ؟»

شعرها يتوهج في الشمس هو الآخر كالذهب.. وقد احمر خداها انفعالًا وإرهاقًا وسرورًا.. ابتلعت ريقي وغمغمت: (سبحان الله!).. ورحت ألهث فوق الطريق الوعر المنحدر إياه..

سألتني في حماس وهي ترفع الكاميرا إلى عينيها:

- «أين (الكرنك) يا (رفعت)؟ أريد أن أراه!»

أعوذ بالله! ما الذي ذكرها بما كنت أحاول ألا أذكرها به؟ إن نشرات السياح هذه تثرثر أكثر من اللازم..

- «(الكرنك) من الصعب زيارته الآن.. إن السد العالي كما تعلمين..»
- «كنت أظن أن معبد (فيلة) هو الذي....»
- «بل (الكرنك).. صدقيني.. من المستحيل أن نزور (الكرنك) لأسباب قوية»
وهكذا استرحت من هذه السيرة... لكنّها عادت تتحدّث عن (الرامسيوم) وعن أديرة الصحراء.. مشكلة مصر هي أنها تعجّ بالآثار حقًّا.. ومن المستحيل أن تتحمل ميزانيتك رؤية كل هذا، ما لم تكن مليونيرًا أو مرشدًا سياحيًا..
المهم أن اليوم مر بسلام والحمد لله..
وجلسنا نرمق الشمس الغاربة كأنه مشهد من فيلم عربي سخيف.. لم أنس لحظة أنني لا أبدو كفرسان الأحلام.. لكنّ من يملك إبداء هذا الرأي مادمنا سعيدين أنا وهي؟
سألتني عن أحوالي طيلة هذه الأعوام.. فحكيت لها عن.. عن (هويدا).. وعن كل الأهوال التي عشتها منذ حاصر (الزومبي) سيارتنا إلى أن غادر (آشتا) منزلي.. وهي تستمع بين مصدق ومكذب.. ثم قالت وهي ترمق الشمس:
- «سمعت عما حدث لـ (تابيثا) وزوجها..»
- «حاولا أن يخدعاني بقصة ملفقة عن رأس (ميدوسا).. لكني لم أكن سهل الهضم..»
قالت وقد صارت الشمس قرمزية تمامًا:
- «كانت شيطانة موهوبة.. فليرحم الرب روحها!»
اتسعت عيناي دهشة.. ودنوت منها أكثر لأحسن الإصغاء:
- «ماذا قلت؟»
- «ليرحم الله روحها..»
تلمست أصابعي إطار عويناتي.. وسألتها في حيرة:
- «هـ.. هل أعدمها اليونانيون؟»
- «لا.. بالطبع.. لقد ماتت في السجن..»
ماتت؟ غريب هذا.. لكنّ الشباب يموتون كالكبار.. لا غرابة في هذا..
- «هـ.. هل كانت مريضة!»
- «بالطبع لا يا (رفعت).. (تابيثا) كانت بصحة جيدة تمامًا.. لقد وجدوها مقتولة في زنزانتها.. يبدو أنّ هناك من يهوى فصل الرءوس عن الأعناق وقد وجدها مناسبة لهذه الهواية!»
- «يا للهول! من هو؟»
هزت رأسها.. كانت الشمس قد صارت زرقاء داكنة.. وثمّة نجمة تلتمع في الأفق الشرقي معلنة ملكوت الظلام...
قالت (ماجي) بصوتها الهادئ:
- «لا أحد يعرف.. هذا هو اللغز الذي جعلني أفر من (داندي).. بل وأفرّ من (أوروبا) كلها.. إنني أحاول إنقاذ عنقي الخاص.»
الآن صار وجهها بقعة زرقاء لا تبين ملامحها لكني أتصورها..
- «(ماجي).. هل تعنين أنك في خطر؟»
- «نعم يا (رفعت).. خطر داهم..»
الآن لم تعد هناك شمس ولا شفق..

فقط ظلام كئيب..
ظلام ينذر بالويل..

* * *

٣ - حكاية غريبة بعض الشيء..

أسطورتها أنها في غموض الليل..

* * *

في هذه المرّة جلسنا في أحد المقاهي السياحية في حي الحسين.. المقهى دافئ من الداخل بعبق برائحة (التمباك) العطرة.. وثمّة شيء ناعس في الجو يغريك بأن تغمض عينيك وتنام...

هناك مطرب يضع ساقًا على ساق، وقد أراح العود على فخذه، وراح بصوت مشروخ بعض الشيء يدندن أغنية لـ (أم كلثوم):

- «الليل وسماه.. ونجومة وقمره..»

نظرت (ماجي) إليه ورشفت جرعة من الشيكولاتة الساخنة.. وسألتني وهي تلعق شفتها العليا:

- «ماذا يقول؟»

- «يتحدث عن الليل والقمر وأشياء من هذا القبيل.. إن الترجمة تفسد الأمر برمته.. فأم كلثوم مزيج خاص لا يفهمه سوى عربي.. مثلها مثل صوت الشيخ (رفعت) قبل الإفطار في (رمضان).. وصوت التكبير صباح العيد.. ومذاق الشاي بالنعناع في الحقل عند الغروب..»

نظرت لي غير فاهمة.. لكنّها تبذل جهدًا لا بأس به كي تفهم.. سألتها وأنا أرشف القهوة:

- «والآن ما هو الخطر الذي تتحدثين عنه؟»

قالت وهي تدفن وجهها في قدحها:

- «لم تكن (تابيثا) هي أول من مات.. ولن تكون الأخيرة..»

- «ماذا يدعوك للظن؟»

- «إنها تلك المكالمات الهاتفية.. لقد بدأت بعد وفاة أبي.. كنت أحيا وحدي في قصر الأسرة في (إنفرنسشاير).. الوريثة الأخيرة وآخر سلالة (ماكيلوب).. إن من سوء الطالع أنّ هذه الأسرة العريقة التي تعود إلى عصر (ماكبث) تنتهي بي أنا.. ولن يحمل أحد على الأرض اسم (ماكيلوب) من بعدي..

أنت تعرف أن القصر واسع ومخيف.. وقد فعلت الوحشة مفعولها في حالتي النفسية.. فصرت أغادر القصر أكثر الوقت.. أو أقيم في غرفتي لا أبرحها.. إن (جراهام) رئيس الخدم يعرف كيف يدير الأمور بحنكة.. ومعه مسز (أوركهارت) مدبرة القصر وهي إنسانة كريمة المنشأ.. لكني لم أستطع قط أن أشعر براحة معهما..

كان هناك حل واحد هو أن أتزوج.. لكنّ الأمر لا يتم بالضغط على زر.. ثم إنني لو أردت مائة زوج على شاكلة (فريزر) لوجدت.. فالكل يحلم بميراث أسرة (ماكيلوب) الأسطوري الذي هبط

على الوريثة البلهاء.. إن العثور على زوج ليس نذلًا وليس لصًا وليس مدعيًا وليس رقيقًا وليس مغرورًا الأمر عسير بعض الشيء في هذا العالم».

- «أنا أعرف واحدًا!».

قلتها في سرور وقلبي يخفق.. لكنّها لم تعر كلامي اهتمامًا وأردفت:

- «.. هكذا مضت حياتي.. كنت أراسل أصدقائي القدامي.. وكونت صداقات جديدة.. ربما أهمها مع مهندس يُدعى (أندرو).. (أندرو ماكفرسن)»

- «كل الإسكتلنديين اسمهم (أندرو).. ولا أدري كيف تعرفونهم من بعض؟»

- «كما نحسب نحن الغربيين أن كل العرب اسمهم (محمد).. إنّه اسم شائع لا أكثر.. إن (أندرو) رجل طيب المعشر ومهذب.. لكنه لا يرغب في الزواج... على الأقل مني.. هناك طبيب يُدعى (ويليام) وعارضة أزياء اسمها (إلستري).. وهي مجموعة لا بأس بها.. لكنّ اليوم ينتهي على كل حال ولا بد أن تعود إلى قصرك الخاوي العامر بالأشباح.. لتنام في فراشك البارد وتقرأ قصة لـ (ديكنز) حتى يغلبك النوم، ويسقط الكتاب من يدك»

ما زال صوت المطرب يتموج في أرجاء المقهى:

- «والهوا.. آه منه الهوا!»

كل هذا كأنه حلم.. أحقًا هي معي هنا في عالمي الخاص؟ أشياء كثيرة أريد قولها لكنّها تبخرت.. عواطف كبيض في كيس ورقي.. هشم بعضه بعضًا.. فلم يبق من عواطفي إلا مزيج لا أفهم ما هو...

و(ماجي) عملية جدًا تواصل الكلام بذات النغمة التقريرية:

- «كانت حياة هادئة على كل حال.. لكنّ...».

* * *

«يا من هي أرق من نسمة المساء.. أنت جمعت جمال ألف نجمة!».

(كرستوفر مارلو)

* * *

«تعطر أيها العطر بلمس يديها!».

(الرافعي)

* * *

«شكرًا لحبك فهو مروحة.. وطاووس.. ونعناع.. وماء..

وغمامة وردية مرّت مصادفة..

بخط الاستواء!».

(نزار قباني)

* * *

«هي الشمس مسكنها في السماء

فعز الفؤاد عزاءً جميلًا

فلن تستطيع.....»

* * *

- «(رفعت)! أنت لا تصغي إليّ!».

أعادتني صيحتها المحتجة إلى عالمنا هذا.. فرفعت عيني في حرج.. إنها لا تعرف أن المشكلة هي أنني أصغيت لها أكثر من اللازم.. إلى الحد الذي لم أعد أستوعب معه حرفًا مما تقول...

- «لا.. أنا معك.. أحيانًا يحسبني الناس شارد الذهن».

- «.. ويكونون على حق! كنت أقول لك إنني تلقّيت المكالمة الأولى في الحادية عشر مساء أحد أيام (مايو).. لا أذكر النص حرفيًا لكنه كان صوت رجل.. رجل يتحدث بنبرة عادية مهذبة، لا بذلك الصوت المبحوح الخشن الذي يتحدث به من يعاكسون بالهاتف، متظاهرين بأنهم مرعبون.. كان يقول بلهجة عادية جدًّا: إنهم سبعة.. لا ثامن لهم.. تعرفين عن أولهم في اليوم السابع».

ورشفت رشفة من قدحها.. هنا سألتها في حيرة:

- «كلام غريب.. هل تفهمين حرفًا من هذا الكلام؟»

جففت بقايا الشيكولاتة بمنديل ورقي، وقالت:

- «وقتها لم أفهم.. كان كلامًا مقفىً كالشعر.. ورأيت أنها دعابة سخيفة.. إن العالم مليء بالحمقى كما تعلم..

بعد هذا بأسبوع - أي في اليوم السابع - وجدوا جثة (جون مكارثر) وراء مقود سيارته.. وكان هناك خرطوم يقود الغازات الخارجة من العادم إلى داخل زجاج السيارة الموصد بإحكام بقطع من القماش.. إنها تلك الطريقة القديمة للإعدام بأول أكسيد الكربون.. كثيرون ينتحرون بهذه الكيفية.. لكنّ وضع الجثة وطريقة سد ثغرات العربة تدلّ على أن الحادث جريمة قتل.. جريمة تمت بعد تخديره طبعًا».

صحت بصوت مبحوح:

- «هـ.. هل تتحدثين عن (مكارثر) زميلنا في الجامعة؟».

- «من سواه؟» - وابتسمت في مرارة - «هذا الشاب الوسيم الذي كان يملأ الدنيا مرحًا وحبورًا.. لقد مات ببساطة.. ولم يعد كائنًا».

- «و.. والمشتبه فيه؟».

- «لا أحد.. لا بصمات.. لا أثر لشيءٍ وحيد العين..».

ثم إنها توقفت وراحت تتأمل المكان حولها.. وأشارت كطفلة منبهرة إلى (نارجيلة) تركية فاخرة الشكل.. وسألتني:

- «لماذا لا تدخن هذه؟!».

كدت أضرب كفًا بكف.. هذه هي (ماجي) ذات الألف اهتمام.. تتحدّث عن الموت ثم عن (النارجيلة) بذات الحماس.. قلت لها:

- «إنها وسيلة معقدة جدًا للانتحار بالدخان.. السجائر تؤدي الغرض ببساطة أكثر..».

- «أرجوك.. اطلب واحدة..».

ليكن يا (ماجي) هانم.. لن يكون هذا أغرب طلب أقوم به لك.. وجاءت (النارجيلة) فرحت أسحب منها أنفاسًا متتابعة أمام عينيها المبهورتين.. ثم نفثت سحابة الدخان.. ووضعت المبسم جانبًا كأنما أقول لها: هل استرحت الآن؟ أكملي القصة إذن..

قالت (ماجي):

- «مرّت فترة حزن لا بأس بها.. ثم عادت الحياة إلى دورتها.. وبالطبع لم أجد شيئًا مريبًا يربط بين ما حدث وبين المكالمة.. لكني تلقّيت بعد هذا مكالمة هاتفية مماثلة..

قال لي المتحدث الرزين: إنهم ستة لا سابع لهم.. تعرفين ثانيهم بعد ستة أيام!

طبعًا رحت أصرخ وأتساءل.. وأطلقت عشرات من (من المتحدث؟).. و(كف عن هذا السخف).. لكنه كان قد أنهى المكالمة..

وبعد ستة أيام وجدوا جثة (هيلين بلاكلي).. لقد...».
- «يا إله السموات! أتعنين (هيلين بلاكلي) التي...؟».
- «نعم.. (هيلين بلاكلي) صديقتنا.. التي تدرس المحاماة...».
- «لكنّ.. هذا...».
- «نعم.. كانت إنسانة سيئة.. لكنى لو تمنيت أن يحترق كل السيئين الذين قابلتهم في حياتي لتحول العالم إلى موقد كبير! لم أكن أحب لها أن تتحول إلى الجثة المتفحمة التي وجدوها.. ثم إن الحبال التي قيدتها تدلّ على أنها كانت حية حين...».
شعرت برغبة في القيء فرفعت كفي كي تتوقف..
بعد هنيهة استعدت أنفاسي.. فعدت أسألها:
- «..أ.. أين وجدوها؟».
- «في حوش خردة قرب (جرامبيان).. لقد كان خاتمها هو الذي جعلني أتعرفها..».
قلت لها وأنا أتناول مبسم (النارجيلة) من جديد:
- «هل تعنين أن كل هؤلاء الضحايا من شلة الجامعة؟ شلتنا؟».
- «هذا هو ما يمكن استنتاجه عند هذه النقطة.. لكني كنت أكثر حمقًا مما أظن.. فلم أربط هذه الحادثة بالمكالمتين السابقتين...
ثم جاءت المكالمة الثالثة بعد شهر...».
- «خمسة لا سادس لهم.. تعرفين ثالثهم بعد خمسة أيام..»..
- «هو ما تقول.. وعند هذا الحد كان لابد لي أن أتحرك.. اتصلت بـ (سكوتلانديارد) وأخبرتهم بكل شكوكي.. لم يكن عندهم ما هو أفضل من مراقبة جهاز الهاتف الخاص بي.. قلت لهم أن يراقبوا أفراد الشلة لكنّ الأمر بدا لهم سخيفًا.. لقد تفرقت شلتنا في كل مكان.. فما هو الدليل المقنع الذي يبرر تبديد أموال دافعي الضرائب من أجل وهم كهذا؟».
ناديت النادل - دون وسوسة - كي يحضر لها كوبًا من العصير.. ثم سألتها وأنا أضع المبسم جانبًا:
- «وبالطبع لم يكن وهمًا.. من مات بعدها؟»
- «لم يمت أحد.. إلا أنني قرأت في (التيمز) خبرًا قصيرًا عن موت (تابيثا) في سجنها باليونان.. لقد أوشك الأمر على أن يسبب أزمة دبلوماسية.. فما دام هؤلاء اليونانيون لا يعرفون كيف يحمون الإنجليز في سجونهم؛ فمن الأفضل أن يعيدوهم إلى (بريطانيا)..».
- «إنها نعرة بناة الإمبراطورية هذه.. إذا كنت سأذبح فليكن هذا بسكين إنجليزية لا بسكين من سكاكين القارة..»..
- «بعد هذا...».
وراحت شفتها السفلى ترتجف.. وراحت تتنفس سريعًا..
أدركت أنها على وشك الإصابة بانهيار عصبي.. لا بد أن كل هذا كثير على فتاة وحيدة رقيقة مثلها.. لزمت الصمت حتى تعود لحالتها الطبيعية.. والمطرب ما زال يترنم:
- «تعالى تعالى.. بعد سنة مش قبل سنة..».



وجاءت (النارجيلة) فرحت أسحب منها أنفاسًا متتابعة أمام عينيها المبهورتين . .

أخيرا عادت (تتوا جد). . فقالت وهي تمرر أصابعها عبر خصلات شعرها: - «بعد هذا جاءت المكالمة الثالثة.. الثالثة؟ لا.. الرابعة.. كانت تقول ذات الكلا

م.. أربعة بلا خامس.. سأعرف الرابع بعد أربعة أيام..»..
- «جميل حرصه على أسلوب المتوالية العددية.. إنني أحب هؤلاء السفاحين المنظمين.. ومن الرابع؟ هل هو (ألفريد)؟ أرجو ألا يكون (رتشارد ماكنزي)..»
- «كان هو (ألفرد) حقًّا.. مات غرقًا في حمام السباحة في داره.. توجد عصا خشبية طويلة جوار الحمام.. واضح أنها الوسيلة التي تم استعمالها لإرغامه على البقاء تحت الماء..».
- «يا للبشاعة! لماذا لا يُطلق عليهم الرصاص وينتهي الأمر؟ ثم هل توصل رجال الشرطة إلى مصدر المكالمة؟ بالطبع لا.. إن الحمقى فقط هم من لا يتصلون من هاتف عمومي ليهددوا ضحاياهم...».
- «أنت تعرف الإجابة.. على كل حال بدأ رجال (سكوتلانديارد) يهتمون حين قلت لهم إن الضحيّة الخامسة لن تخرج عني أو عن (رتشارد ماكنزي) أو (إليزابث)..
وحين تلقّيت المكالمة الخامسة: ثلاثة لا رابع لهم.. تعرفين عن الخامس بعد ثلاثة أيام.. عندها تحرك رجال (سكوتلانديارد) المرعبون.. إنهم يعرفون كيف يجعلون حياتك جحيمًا.. استجوابات... استجوابات.. وشرطي خارج غرفة نومك وفي مدخل دارك، ثم مراقبة صارمة لكل المذكورين (إليزابث) و(ماكنزي).. كلا.. لم يكن (ماكنزي) موجودًا لأنّه كان في اليابان يجري صفقات تجارية معينة..
على كل حال لقد وجده اليابانيون مشنوقًا في غرفته.. كلا.. لم ينتحر لأن آثار المقاومة كانت واضحة لأي أعمى.. إن سفاحنا لهو سفاح غير عادي.. سفاح يلاحق ضحيته عبر البحار ويظفر بها في الوقت الذي يحدده هو..».
- «وبعد هذا ماتت (إليزابث) طبعًا؟».
- «لا.. لم تمت.. لأن رجال الشرطة قد جعلوها تنتقل إلى (ليفربول).. وهي تحت حراسة مشددة حقًّا.. ثم إن الرجل لم يتصل بي.. يقول خبراء (سكوتلانديارد) إن هذا الطراز من السفاحين يؤدون مهمتهم طبقًا لطقوس خاصة أقرب إلى الطقوس الدينية.. لا بد من الاتصال بي وإلا فلن تتم الجريمة.. هكذا قال لي البروفسور (كنجزفيلد) وهو خبير في هذه الأشياء القذرة.. واقترح رجال (سكوتلانديارد) على أن أذهب بعيدًا إلى حيث لا يجدني ذلك الوغد.. نصحوني كذلك ألا أرد على الهاتف إلى أن أسافر..».
- «لهذا فكرت في مصر.. وفي (رفعت) الكهل...».
مدت يدها لتلمس يدي.. عود ريحان فوق صخرة هرمة..
- «أنت آخر من أثق به في العالم يا (رفعت).. ألا تفهم هذا؟ أنت جزء من روحي ذاتها.. إن حالة (بارانويا) مخيفة تنتابني.. لم أعد أثق بأحد.. (جراهام).. مسز (أوركهارت).. أحدهم سيقتلني.. أحد الخدم.. (إلستري).. (ويليام).. (أندرو).. ماذا أعرف عن أي واحد منهم؟ واحد فقط أعرف أنه أحبني حقًّا.. أعرف أنه يقبل الموت كي لا أموت..».
- «بل ويقبله كي لا تصابي بالزكام..».
قلتها صادقًا.. قلتها كأنها زفرة تغادر روحي إلى النجوم..
قالت ممتنة:
- «أعرف هذا.. وكنت أنت أول من فكرت فيه حين اقترحوا على السفر.. لم أكن أملك وسيلة سوى الخطابات للأسف.. لكني كنت أعرف أنك سترد عليّ سريعًا.. قبل أن... يتصل..»..

قلت لها وأنا أحاول التحكم في رجفة يدي:
- «هل تعتقدين أنك السادسة؟».
- «في (سكوتلانديارد) دار السؤال ذاته.. وقد رجحوا أنني السابعة ما دمت أتلقى هذه المكالمات ولم يتلقها سواي.. إذن لا بد أن تنتهي السلسلة بي.. إن (إليزابث) هي الضحيّة السادسة حتمًا..»
وصوت المطرب ما زال يتردد، وهو يطوح رأسه يمينًا ويسارًا:
- «إزاي إزاي.. أوصفلك يا حبيبي إزاي؟
قبل ما حبك كنت إزاي يا حبيبي؟».
نظرت له (ماجي).. ثم سألتني بشكل عابر:
- «ماذا يقول الان؟».
- «يقول إنّه لا يعرف كيف يصف لحبيبته حاله قبل لقائها..».
- «هذا الوقت كان يكفيني لسماع عشر ألبومات لفريق (البيتلز)..».
- «هذا هو الشرق فلا تحاولي فهمه... أنت لن تحبي (أم كلثوم) إلا حين تصيرين عربية لحمًا ودمًا.. والآن فلنعد لسفاحك هذا.. من المؤكد طبعًا أنه سيقتل (إليزابث) بالرصاص أو برميها من عل..»..
- «قالوها أيضًا في (سكوتلانديارد).. إن القاتل لا يكرر أساليبه... وقد استعمل الخنق بالغاز.. الحرق.. قطع الرقبة.. الشنق.. الغرق.. إذن لم يبق له من وسائل سوى الرصاص والسقوط من أعلى.. هناك السم طبعًا لكنّ مزاجه السادي لا يوحي بأسلوب رقيق كهذا..».
هنا انفجرت ضحكًا.. فسألتني في غيظ:
- «ما المضحك في كل هذا؟».
- «أضحك من موقفنا.. حقًّا إنني لنحس! بعد كل هذه الأعوام نلتقي في مكان شاعري نصغي لغناء (أم كلثوم).. فعم يكون كلامنا؟ عن الذبح والحرق والخنق! مستحيل أن يعيش (رفعت اسماعيل) حياة طبيعية هادئة.. لقد صار هذا من نواميس الكون..».
- «هذا حق.. لقد صرت أنا قصتك الجديدة..»..
ثم شردت عيناها وهي ترمق المطرب.. وهمست:
- «ترى كيف ينتهي كل هذا؟ وهل تعود حياتي كما كانت؟».
لم أجب احترامًا لشرودها..
والمطرب يترنم وقد بلغ به الانسجام مداه:
- «هو العمر فيه كام ليلة.
زي الليلة؟ زي الليلة؟».

* * *

٤ - إنّه هنا!

أسطورتها أنها تثق بي...

* * *

أغنية د. (رفعت إسماعيل)

أنا لست قويًا كأبطال الإغريق..
أنا لا أطير..
ولن أدخل مشاجرة مع رجل آخر مهما كان ضعيفًا..
إلا وقد تهشّم وجهي..
. ومع ذلك تحبينني؟

* * *

لست عداءً ولا ملاكمًا..
لست موسيقارًا أسكب ألحان حبي في أنغام..
يسمعها الناس ويتساءلون: من هي تلك المحظوظة؟
لن تري صورتي في كل الصحف مقرونة بالمديح.
لتقولي لصاحباتك: هوذا رجلي...
ومع ذلك تحبينني؟

* * *

حتى في عالم الطب..
أنا لست (ماكس ليبمان) ولا (ويليام أوسلر)..
إن الأشياء التي أعجز عن عملها لتملأ عشرة جلدات ضخمة..
أنا لن أنقذك من الغرق لأني لا أعرف السباحة..
لكني سألقي بنفسي في الماء لأغرق قبلك..
أنا لن أصارع أسدًا...
لكني سأموت بأنيابه قبل أن يلمسك..
ومع ذلك تحبينني؟

* * *

غريبة أنت.. وذوقك أغرب..
لن أفهمك أبدًا..
لكني سعيد وفخور..
وهذا هو كل ما أستطيع قوله الآن..

* * *

أيام مرّت كأنها الحلم..
كنت سعيدًا كثعبان فرغ من التهام فأره الصحراوي.. أو طفل في متجر حلوى..
في الصباح نرى شيئًا جديدًا.. لا يهم ما هو.. لكنه جديد.. أعيد اكتشاف سحر النيل والهرم والمتحف المصري والإسكندرية والناس..
لا بد أنه أسبوع كامل قد مضى علينا..
وفي تلك الليلة أوصلتها إلى الفندق.. قالت وهي تداعب مفتاحها:
- «عمت مساء يا (رفعت).. لا تتأخر غدًا..».
ككل ليلة تقولها.. وككل ليلة أعدها..
وأعود إلى داري سعيدًا.. يشتمني سائقو السيارات الأخرى وأنا سعيد.. يدون شرطيو المرور رقم سيارتي وأنا سعيد.. تؤلمني ساقاي وأنا سعيد.. يمكنني فهم شعور (جين كيللى) وهو يغني تحت المطر؛ حينما نظر له الشرطى شزرًا فلم يجد تفسيرًا سوى: إنني فقط أرقص وأغني في المطر!
وحين دخلت الدار؛ أعددت لنفسي قدحًا من الشاي..
وجلست أدون ما حدث طيلة اليوم بالتفصيل.. لا أريد أن أنسى حرفًا من كل هذا..
هنا دق جرس الهاتف...
منذ أيام كف جهاز الهاتف عن أن يكون وسيلة لملاحقتي بالكوارث في عقر داري.. إن (ماجي) تستخدمه كثيرًا لتثرثر قبل أن تنام.. لتقول لي إنها سعيدة، وإنها ممتنة لي.. ولتوصيني أن أنام جيدًا.. وأن أشرب (التليو) لأهدئ أعصابي الثائرة دومًا..
رفعت السماعة أنتظر سماع البلابل تغرد..
كانت البلابل هناك.. لكنّها لم تغرد.. كانت تعوي في جنون:
- «(رفعت)! لقد اتصل بي!».
- «مساء الخير يا (ماجي).. قلت لك أن مندوب شركة السياحة سوف...».
- «أنا أتحدث عنه.. عنه!».
- «ماذا؟ المتحدث الرزين إياه؟».
- «نعم! قال لي: إثنان لا ثالث لهما.. تعرفين عن السادس بعد يومين!».
أحسست بالخطر.. وجف قلبي.. تصلبت شعيرات شاربي لأني لا أملك شعر رأس.... كيف؟ هل هو؟
- «(ماجي).. هل أنت واثقة مما تقولين؟».

- «مثلما أعرف أنني أنا.. (رفعت).. إنه قريب مني جدًّا!».
جلست متهالكًا على مقعدي.. الأمر يتجاوز قدراتي على التفسير..
- «هل هناك من يعرف أنك في هذا الفندق؟».
- «لا أحد سواي وسواك.. ثم إن المكالمة لم تأت من (انجلترا).. إنها من (القاهرة).. لقد تأكدت من هذا بنفسي..».
- «إذن هو قد جاء خلفك..».
ثم استجمعت قواي.. فقلت لها بصوت متعقل:
- «دعينا نناقش الأمر في الصباح.. إن شيئًا لن يحدث قبل يومين.. لم لا تحاولين النوم الآن؟».
أطلقت سبة إنجليزية لا أعرف معناها الدقيق..

وصاحت:
- «بحق السماء.. أتحسب أنني قادرة على النوم بعد هذا؟».
- «إن أقراص (الفاليوم) صالحة تمامًا.. وإن لم تجد فهناك السم.. لكني غير متحمس له لأسباب يطول شرحها...».
- «تبًّا لك!».
ووضعت السماعة في عصبية.. يبدو أنني بالغت في المزاح قليلًا.. ليس من الأمور المستحبة أن تعرف أن سفاحًا يحوم حولك ويعرف رقم هاتفك.. كان على أن أقدّر هذا..
المهم.. نهضت لأضع قرصًا من (النتروجلسرين) تحت لساني.. يبدو أن إمداد الدم لعضلة قلبي لا تناسبه أخبار كهذه...
إنه هنا! يعلم الله كيف ومتى جاء إلى مصر..
لكن خطرًا داهمًا يهدد حياة (ماجي) بعد يومين..
خطر بنسبة خمسين بالمائة...
ما زال من الممكن أن يكون الكلام مخصصًا لـ (إليزابيث)...
وفي قرارة نفسي تمنيت أن يكون ذلك صحيحًا..

* * *

في الصباح قابلتها.. وكانت - كما تتوقع - أسوأ حال..
- «(رفعت).. إنّه خلفي! يعلم أنني جئت هاهنا.. ويعلم الفندق الذي أقيم فيه.. ويعرف رقم غرفتي!».
كنا جالسين في (السنترال) بانتظار مكالمتها إلى (إنجلترا)..
- «يجب أن يعرفوا أنه اتصل.. وأن يضاعفوا الحراسة على (إليزابيث) البائسة.. من يدري؟».
أردت أن أطمئنها على (إليزابيث) بحماقتي المعهودة.. فقلت:
- «مادام يتصل من مصر.. فمن المؤكد أنك أنت القادمة لا (إليزابيث).. يُمكنك الاطمئنان إذن!».
- «صحيح.. شيء مطمئن.. أشكرك..».
هنا جاءت المكالمة - بعد دهر كالعادة - فهرعت إلى الكابينة.. وفتحت لي لأدخل معها.. وبيد مرتجفة تناولت السماعة.
انطلقت في الكلام بإنجليزيتها الصميمة حتى إن ربع ما تقول كان يفوتني.. حين يتحدث الإنجليز إلى سواهم يتعمدون إظهار مقاطع الكلام والضغط على الحروف.. لكنّ حين يتحدثون فيما بينهم يلتهمون نصف الحروف باعتبارها شيئًا يؤكل...
فهمت أنها تطلب المفتش (جيرهارد) في الإدارة.. تخبره بأنها تلقت المكالمة السادسة.. تصمت.. تهمهم.. تقطب.. أرمقها في اهتمام.. لا أدري حتى اليوم إن كانت جميلة أم لا.. المهم أنني أهيم بكل ملمح من ملامحها.. وكل تجعيدة على جانبي فمها.. وهي تتابع المحادثة باهتمام..



رفعت السماعة أنتظر سماع البلابل تغرد . . كانت البلابل هناك . . لكنها لم تغرد . . كانت تعوى فى جنون :

ـ (رفعت) ! . .

سمعتها تملي رقم هاتفي.. ثم تقول للمتحدث مرارًا:
- «آها.. إذن هو كذلك؟».
ثم ودع المتحدث.. ووضعت السماعة.. ولم تنظر لي..
- «هيا بنا..»..
وغادرنا الكابينة إلى الهواء البارد بالخارج..
عطست مرّتين.. ثم سألتها وأنا أتمخط في عناية:
- «هل من جديد؟».
قالت وهي تخف السير وقد دسّت يديها في جيبي معطفها:
- «أنباء مهمّة جدًّا.. إن أحد أصدقائي - (أندرو) بالذات - قد غادر المملكة منذ أيام.. من المصادفات الغريبة أنه قرر فجأة أن يستمتع بشمس مصر في الشتاء!».
قلت لها بغباء وقد استيقظ حسي السياحي:
- «لم لا؟ إن جو مصر المشمس في هذه الفترة بالذات لهو...».
نظرت لي في حنق.. ثم قالت ضاغطة على كلماتها:
- «(رفعت).. أحقًا لا ترى ما يريب في هذا؟ هناك من يعرفني وهو موجود في مصر الآن.. يمكن القول دون تردد إنّه هو (أندرو ماكفرسن) نفسه..».
- «معنى هذا أنه هو قاتلك المتسلسل؟».
- «لا أعرف سوى حقيقة واحدة.. لا يوجد في (مصر) كلها من يعرف كل شيء عني سواك و(ماكفرسن) هذا..».
- «وهل هو يعرف أنك في مصر؟».
- «لا أحد يعرف.. قلت لرفاقي والخدم إنني ذاهبة إلى (سان موريتز) للتزلج.. إن الموسم لم يحل بعد لكنهم لم يلاحظوا..».
- «على كل حال يمكن اكتشاف الحقيقة بسهولة..»
- «قال لي المفتش أن آخذ حذري.. أو أعود إلى المملكة فورًا.. لكني - برغم هذا - أشعر بالأمان هنا أكثر..»..
وجلست في السيارة جواري.. فأدرت مفتاح (الكونتاكت) باحثًا عن سؤال جديد.. ماذا كنت أريد قوله؟ آه!
- «هل (أندرو) هذا مخبول أو لديه من الأسباب ما يدعوه لقتل شلتك واحدًا واحدًا؟»
قالت وهي تدير مقبض الزجاج بجوارها:
- «إنّه إنسان متزن جدًّا.. ودود جدًّا.. لكني لم أعد أثق بأحد على الإطلاق.. كل السفاحين متزنون ودودون.. وكلما اعتقل البوليس أحدهم ضرب الناس كفًا بكف: لم نتصور قط أنه سفاح.. لقد كان متزنًا ودودًا بارًا بوالديه إلى أقصى حد..».
تذكرت هنا عبارة (عادل) الرائعة، حين كان على وشك القبض على سفاح الإسكندرية في قصة آكل البشر.. لقد قال لي:
- «إن السفاح ليس شخصًا منكوش الشعر، يجري في الشوارع شاهرًا سكينًا واللعاب يسيل من شدقيه!».
لم أنس هذه العبارة قط..

ولكن.. هل القضية بهذا الوضوح حقًّا؟

* * *

افترقنا في المساء..

عدت إلى شقتي.. لا داعي للاعتراف بأن زيارة (ماجي) لمصر قد فسدت تمامًا.. لقد عكر الخطر الداني كل أمل في أن تنعم بزيارتها..

جلست في الصالة، وأحضرت ورقة وقلمًا ورحت كديدني أدون النقاط المهمة في هذه القضية.. أحيانًا يُولد التفسير على الورق.. وأحيانًا يزداد الأمر تعقيدًا.. المهم دائمًا هو أنني أعرف على وجه اليقين ما ذلك الذي أعرفه:

١ - توجد جرائم قتل متعددة.. إن ذكائي يؤكد هذا.

٢ ـ من الواضح أن مرتكبها (قاتل متسلسل) أو ما يسموّنه Serial Killer

٣ ـ من المحتم أن ينفذ سبع جرائم أتم خمسًا منها بنجاح تام.. ربما كان ولعه بأسلوب المتوالية العددية لعبة استمدها من قصص (أجاثا كرستي).. وربما كانت هذه رسالة ما.. لا أدري..

٤ ـ القاتل يعرف السبعة.. كلهم شلة واحدة في جامعة (داندي).. منهم من كان يدرس الهندسة، ومنهم من درس الأدب أو الفيزياء.. هل هو ثامن الشلة؟

٥ - (أندرو ماكفرسن) صديق (ماجي) في (مصر) الآن.. إن هذا مريب حقًّا.. فهل كان في (اليونان) حين ماتت (تابيثا) وكان في (اليابان) حين مات (ماكنزي)؟ إن إخفاء هذا مستحيل..

٦ ـ ولو كان هو (أندرو).. فما علاقته بالشلة المنكوبة؟

٧ - وهو السؤال الأهم: هل (ماجي) تعرف أكثر مما قالت لي؟ لقد كان هذا دأبها دومًا.. إنها ممن يمارسون الكلام بالقطارة..

٨- وهو السؤال خارق الأهميّة: من الذي سيموت غدًا؟ (إليزابيث) أم (ماجي)؟

على الأقل أنا أعرف إجابة هذا السؤال..

توجهت إلى غرفة النوم.. رفعت حشية الفراش وأخرجت المسدس الذي لم أستعمله منذ زمن.. متى أطلقت آخر رصاصة منه؟ على (العساس)؟ ربما.. لكنها ليست الأخيرة..

القوة المطمئنة للمعدن الأسود البارد في يدي..

أنا أعرف أن (ماجي) لن تقتل غدًا..

* * *

٥ - فلينته اليوم سريعًا..

أسطورتها.. أنها استعمرت وجداني دون مشاة ولا مدافع أسطول..

* * *

ليلة سوداء قضيتها.. أسود من لحية (راسبوتين) وعباءة (دراكيولا).. ورحت أحلم.. أحلم أحلامًا صبيانية للأسف كاد جبيني يندي لها خجلًا..

هي ذي (ماجي) في الأدغال تسقط في الماء صارخة.. تمساح وغد يخرج من القاع فاتحًا فكيه الرهيبين.. عندئذٍ يثب (رفعت) العظيم عاري الصدر ملوحًا بخنجره.. ويصارع التمساح ويمسكه من ذيله.. ثم يعقده ويلقى به بعيدًا..، (ماجي) خطفها النازيون إلى قلعة النسور.. (رفعت) العظيم يهشم الباب بقدمه.. ويدخل حاملًا (مترليوز) عملاقًا.. النازيون يتطايرون في كل صوب والدماء تتناثر.. (ماجي) تنظر لي في انبهار وقد فهمت أخيرًا أنني الرجل الذي يصلح لها..

يدها الحالمة تداعب صلعتي.. و..... جرس الإنذار يدق!

رنين المنبه.. يا للعنة! إنّه اليوم الموعود..

هرعت إلى الفندق.. وأخبرتها بالهاتف إنني أنتظرها في الاستقبال.. هكذا أفعل صباح كل يوم..

بعد برهة جاءت.. وأدركت من شعرها المشوش وانتفاخات جفنيها أن ليلتها لم تكن أسعد حالًا..

وأن معنوياتها (زفت).. لم تقل هذا بالضبط لكنّها ذكرت لفظة إنجليزية مماثلة لها نفس الرنين!

- «ما هو برنامجنا اليوم؟»

سألتني وهي ترشف القهوة.. فأجبتها وأنا أتصفح الجريدة:

- «برنامجنا هو البحث عن مكان لا يمكن فيه ذبحك، أو إغراقك أو رميك بالرصاص ببندقية تلسكوبية، أو إلقاؤك من عل...»

- «وأين هذا المكان؟» ـ بسخرية سألتني - «في القبر؟»

- «عندي ما هو أشبه بالقبر.. شقتي.. ستمضين اليوم عندي.. وغدًا يوم آخر..»

- «لا بأس.. كنت سأقترح عليك شيئًا كهذا..»

وانطلقنا بالسيارة إلى الدقي..

كنت قد قدمت عرضي.. لكني ظللت أتساءل عن الطريقة العبقرية التي أستطيع أن أصعد بها إلى شقتي دون أن يخرب الجيران بيتي..

لقد كادوا يخربون بيتي حين استضفت (هن - تشو ـ كان) وهو كاهن من التبت.. فماذا سيفعلون حين أستضيف حسناء من (إسكتلندا)؟

على كل حال لن يكون الزحام شديدًا.. إنها الحادية عشرة صباحًا، ولن يقابلني سوى صبي الكواء على الأكثر..

تذكرت (براكسا) حسناء المقبرة.. وارتجفت..

عند مدخل البناية لم يكن البواب موجودًا.. فهو يتسلى بالعمل مناديًا للسيارات على سبيل تحسين الدخل.. ولا تجده أبدًا إلا أول الشهر حين يتقاضى راتبه الشهري..

وصعدنا إلى الشقة دون مشاكل..

فتحت لها الباب وراحت تتشمم الجو في فضول، وكفاها لم تفارقا جيبي معطفها.. قالت في هدوء دون تعبير معين:

- «إذن أنت تعيش هنا؟»

- «لا تخافي.. لقد تخلصت من الوطاويط والثعابين أمس..»

كنت أتكلم وأنا آتي بحركات أشبه بحركات الحواة.. أداري بنطال المنامة الملقى على هذا المقعد... أركل هذا الحذاء بعيدًا.. أغطى بالمفرش بقعة الشاي هذه.. أين أنت يا أم (عوض)؟!

قالت (ماجي) في خبث وهي تتأمل المكان:

- «الآن صدقت أنه لا توجد امرأة في حياتك!»

- «تعنين أنه لا توجد روائح عطرية أو...»

- «بل أعني أنه ما من امرأة تتحمل هذه الفوضى.. لقد رأيت مقالب قمامة أكثر نظامًا وجمالًا من هذا البيت!»

- «أشكرك..» قلتها في كبرياء - «.. وعلى كل حال.. هناك امرأة في حياتي..»

- «حقًّا؟!»

- «نعم.. واسمها (أم عوض) أو (أم سعد) - لا أدري بالضبط - وليس ذنبي أن زوجها ضربها على رأسها بزجاجة الزيت، وحلف عليها بالطلاق ألا تغادر الدار ثانية.. يبدو أنها رفضت أن تعطيه النقود التي كسبتها من العمل ليشتري بها حشيشًا!».

- «فهمت..»

قالتها دون أن تفهم شيئًا بالطبع.. ونزعت معطفها وجلست على الأريكة للحظة لم أدر ما ينبغي عمله.. فالأمر كله أشبه بحلم..

قلت لها إنني سأتغيب بعض الوقت، وفتحت لها جهاز التلفزيون.. لأكتشف أنه لا يوجد إرسال صباحي في عام ١٩٦٩..، أحضرت لها كومة من الكتب الإنجليزية وأكداسًا من الصور الفوتوغرافية..

نزلت للشارع فابتعت وجبة جاهزة لشخصين.. وبيضًا وخبزًا للعشاء.. و.. ليتني أعرف كيف يدعو الناس بعضهم البعض..

عدت للبيت.. فلم أجدها في الصالة.. دخلت حجرة المكتب فوجدتها جالسة تتصفح بعض المراجع الطبية.. منها كتاب (تشامبرلين) القديم الذي كان معي في (إسكتلندا)..

ولم يفتها بالطبع أن ترى على كل هوامش الكتاب ذلك الوجه الرقيق أشقر الشعر؛ الذي لم أكن أستطيع أن أطالع الصفحة دون أن أرسمه على الهامش..

- «هذه.. أنا؟»

قالتها في رقة.. قالتها في ثقة.. قالتها في امتنان...

- «ومن سواك؟»

كانت هناك أبيات شعر لـ (شيلي).. ومقاطع من أغنيات عاطفيّة.. ومناديل ورقية تخلصت هي منها لكني احتفظت بها بين دفتي الكتاب.

نظرت لي بعينها الزرقاء الصافية.. وهمست:

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستكون لي للأبد؟»

- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتى.....»

تررررررن!

جرس الباب! منذ خمسة عشر عامًا وأنا أحاول إتمام الجملة الأخيرة.. ولا بد في كلّ مرّة أن يبرز لي وحش (لوخ نس) أو شبح السير (ماكيلوب) أو يدق جرس الباب.. أنا نفسي أتمنى معرفة ما سأقوله بعدها..

تركتها في غرفة المكتب وهرعت إلى الباب.. وقبل أن أمد يدي للمقبض تحسست يدي المسدس.. فمن يدري؟

* * *



قالت (ماجى) فى خبث وهى تتأمل المكان :

ـ الآن صدقت أنه لا توجد امرأة فى حياتك ! . .

- «(ماجي)! انحرفي يمينًا!»
لاااااااااه
ولكن الموسيقا كانت تغطي على أصوات الصراخ..

* * *

كان القادم هو (عزت)..
(عزت) في الثانية عشرة ظهرًا؟ هذا غريب..
كان بكامل ثيابه، وهو يلتهم قطعة من البسكويت المملح..
فما إن رآني حتى هتف في مرح:
- «صباح الخير يا (رفعت)..»
- «صباح الخير.. إن استيقاظك مبكرًا اليوم لهو ظاهرة كونيّة..»
قال وهو يكوّم غلاف البسكويت، ويرميه في صندوق قمامتي:
- «ليس بيدي.. لقد أيقظني من النوم ذلك (الخواجة) صديقك.. قلت له إنّه من المستحيل أن تكون في الشقة.. لكنّ...»
غمرتني الدهشة، فقاطعته مستعيدًا ما قال:
- «ماذا؟ (خواجة)؟ صديقي؟ ماذا قال؟»
- «لا شيء.. كان يتحدث العربيّة الرديئة جدًا على غرار الخواجة (بيجو).. قال إنّه يريدك لأنّه صديقك.. أشرت له على شقتك وأنا أوشك على ضربه لأنني لم أنم بما يكفي.. دق الجرس مرارًا... وقرع الباب مرارًا.. ثم عاد يائسًا وترك لك هذا الخطاب..»
وناولني مظروفًا مفتوحًا به ورقة مطوية..
- «وكيف كان يبدو؟»
- «لا أدري.. يبدو من النوع الذي لا يُقهر بسهولة وإن تظاهر بالعكس.. وهو يجيد ادعاء القنوط لكنه متفائل!»
صعد الدم إلى رأسي.. فصحت وأنا أوشك على الإصابة بنوبة قلبيّة:
- «يا لك من.....! أنا لم أطلب تحليله النفسي أو اختبار فراستك.. أريد معرفة هل هو طويل. أم قصير؟ بشارب أم لا؟»
بدا الذكاء على وجهه الكالح.. وفكر قليلًا ثم قال:
- «لا أدري.. إنّه رجل أجنبي.. كلهم يتشابهون.. كان حليق الوجه.. هل هذا كاف؟»
- «حسن.. شكرًا يا (عزت).. لن أدعوك للدخول إذ تبدو متعجلًا..»
- «نعم.. إنني أحلم برؤية (القاهرة) نهارًا!»
وهكذا أغلقت الباب، وقد تحول رأسي إلى محرك قطار.. ما معنى قدوم رجل أجنبي إلى داري يسأل عني؟
على كل حال يمكنني أن أقرأ الورقة..
ورقة أنيقة هي.. كتب عليها بخط مهندم وبالإنجليزية:

- «لقد اقتربنا جدًا!»
كنت أتوقع شيئًا كهذا..
إن التهديد واضح وصريح.. وقادر على الوصول إلى داري..
عدت إلى (ماجي) في حجرة المكتب.. كانت عاكفة على تقليب صفحات كتاب (تشامبرلين) إياه.. غافلة بالطبع عن فحوى رنين الجرس..
هل أخبرها؟ لا داعي.. لن يضيف قلقها شيئًا..
لكن (ماجي) ذكية إلى حد مخيف كما تعرفونها دائمًا.. لقد قرأت القصة كاملة على ملامح وجهي.. وسألتني:
- «هناك خبر مفزع.. أليس كذلك؟»
- «بلى.. قد تكون دعابة..»
- «الدعابات لا تظهر في يوم كهذا.. هلمّ.. أتحفني..»
قدمت لها الورقة فقرأتها بعناية.. ثم سألتني عن صاحبها.. فأخبرتها.. سألتني عن سماته.. فقلت لها:
- «رجل يجيد ادعاء القنوط لكنه متفائل..»
- «أتمزح؟»
- «هذا هو كل ما رآه (عزت) جاري فيه.. إن (عزت) يتمتع بفراسة غير مسبوقة.. على كل حال هو حليق الوجه.. هل (أندرو ماكفرسن) حليق الوجه؟»
- «.. حليق؟» - قالتها في شرود وهي تغلق الكتاب وتعيده إلى موضعه في المكتبة - «.. هووم؟! غريب.. إن (أندرو) ملتح.. على كل حال يمكن دائمًا حلق اللحى..»
- «وقد لا يكون هو..»
وما معنى هذا كله؟
معناه أنّ هذا الشخص بارع جدًا.. ربما تتبع سيارتي.. وربما راقبني أنا و(ماجي) أيامًا.. إنّه يعرف علاقتي بها جيدًا.. فحينما ترك رسالته هذه لم تكن (ماجي) في شقتي..
كان يريد مني أن أبلغها بهذا كله..

* * *

وتمر الساعات متوترة..
متى ينتهي هذا اليوم المقيت؟
هل ينتهي في الثانية عشرة مساء بتوقيت (القاهرة) أم بتوقيت (مالاجاش)؟ وهل تكفي حمايتي لـ (ماجي) كي تجعله يعدل عن المحاولة؟ ربما سيحاول.. وعندئذ يكون من واجبي أن أكون أكثر حذرًا... وربما لن يحاول.. سيؤجل الموعد إلى الغد.. محاولة صغيرة للغش في اللعب.. لم لا؟ إنّه هو الذي يمسك المفاتيح في يده..
فهل ستظل (ماجي) مهددة هكذا للأبد؟
كنا جالسين في الصالة نشاهد التلفزيون..

برنامج أطفال سخيف عن البطة (بط بط) والكلب (بوبي) والقطة (بسبس).. دمى بدائية سخيفة.. حوار ممل.. لكننا كنا متوترين عصبيًا حتى رحنا نتابع هذا الهراء في شغف..

ثم رحنا نضحك.. نضحك....

ونظرت إلى الساعة.. إنها الثامنة مساء.

لم نكن قد تناولنا طعام الغداء.. فقدنا شهيتنا.. كما لم أوجه لها عبارة رقيقة واحدة.. من يملك البال الرائق للرومانسية وسط هذا التوتر المنذر؟

كانت جالسة القرفصاء فوق الأريكة تتابع برنامج التلفزيون الذي لا تفهم منه حرفًا.. قطة صغيرة تحتاج إلى حماية أي كائن حتى لو كان هذا الكائن هو (رفعت اسماعيل)..

التاسعة مساء.....

مذيعة مملة تسأل ضيفًا أكثر إملالًا:

- «هل تعتقد سعادتك أن العمل فضيلة وعبادة؟»

يقول لها وهو يسترخي في كرسيه، وكرشه يزداد تكورًا:

- «إن رأيي الخاص الذي قد لا يوافقني عليه الكثيرون هو أن العمل فضيلة وعبادة.. أقولها بصراحة وأمانة..»

سألتني (ماجي) وهي تقرض أظافرها:

- «عم يتكلمون؟»

قلت لها في خجل:

- «يتكلمون عن.. عن المستقبل النووي لـ (مصر)!»

ثم نهضت لأعد بعض الشاي.. كلا.. لن أسلق البيض الآن.. يجب أن يكون هناك ما أفعله في العاشرة مساء وإلا جننت..

هل الأبواب مغلقة كلها؟ بالتأكيد...

باب الشرفة مغلق.. والنافذة مغلقة.. وباب الشقة..

وهنا خطر لي خاطر مروع..

هل يكون القاتل معنا في الشقة؟

لِمَ لا؟ ربما تسلل إليها في الصباح بعد ما تأكد من عدم وجودنا بها.. وهو الآن ينتظر.. ربما وراء ستارة غرفة النوم أو تحت الفراش أو تحت مائدة الطعام!

ربما كان معنا طيلة الوقت ونحن لا.....

هنا ساد الظلام الشقة..

وسمعت (ماجي) تصرخ.....

* * *

٦. التوتر..

أسطورتها.. أنها قطعة من الشعر.. قطعة من التاريخ..

* * *

كان لهب الموقد تحت براد الشاي كافيًا كي أرى ما حولي..
مددت يدي إلى الشمعة التي أضعها دومًا على رخامة المطبخ... وأشعلتها.. وهرعت إلى الصالة لأرى..
ومن جيب بذلتي أخرجت المسدس البارد..
على الضوء الشاحب المتراقص الواعد بالظلال، رأيتها.. كانت واقفة على الأريكة وقد أحاطت وجهها بمرفقيها.. ونظرة هلع في عينيها وهي تنظر إليّ.. هل رأيتم من قبل التماع ضوء الشمعة في عينين زرقاوين؟ إنّه مرعب!
قلت لها مطمئنًا:
- «لا.. لا بأس.. إن هذا يحدث كثيـ...»
ثم فطنت إلى أنها ليست خائفة فحسب.. بل هي خائفة مني! عيناها لا تفارقان المسدس في يدي.. إنها تراه للمرة الأولى هنا.. ويبدو أنها شيئًا ما...
- «لا.. لا تقتلني!»
نظرت إلى المسدس في بغباء.. وغمغمت:
- «آه! أنت تظنين أنني هو يا (ماجي)؟ وأنني كنت ألعب لعبة بارعة صبورًا لأجعلك تقعين في الشرك؟»
- «أنـ... أنت قطعت التيار الكهربي!»

قلت لها في أسي وأنا أضع المسدس على الأريكة جوارها:
ـ «هذا هو ما لا أطيق.. لقد دخلت في دائرة شكوكك.. ولن يجدي أي اعتذار منك لتبرير موقفك.. حسبت أن ما بيننا أقوى من (البارانويا).. لكني كنت مخطئًا..»
وأدرت لها ظهري قائلًا في اشمئزاز وأنا عائد إلى المطبخ:
ـ «حسن.. هذا هو كل شيء.. خذي المسدس وتولي الدفاع عن نفسك أو قتلي.. لا يهم..»
كان هذا كافيًا.....
سمعت صوتها المرتجف يناديني:
ـ «(رفعت)! عُد..»
تظاهرت بأنني غير مهتم...
ـ «(رفعت)! خذ مسدسك وعُد لتحميني!»
واصلت سيرى للمطبخ..
ـ «(رفعت)! عليك اللعنة! يا عصا المكنسة الصلعاء.. أيها الثعبان الذي يتظاهر بأنه سحلية!»
كان هذا كافيًا.. انفجارها هذا كاف لتهدئتها..
وعدت لها وجلسنا على ضوء الشمعة المتراقص.. شعرت برأسها الصغير يغوص في صدري ويهتز بالبكاء.. يهتز..
ـ «آ.. إسفة!»
لم أقل شيئًا.. إن لها الحق كل الحق فيما قالته وحسبته..
ـ «(رفعت).. للأبد؟»
ـ «ماذا؟»
ـ «هل ستظل معي للأبد؟»
ـ «.. وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى....»
وفجأة هبّت بحركة درامية.. وصاحت..
ـ «صه! أنصت! ثمّة حركة في غرفة المكتب!»
وأنا يا رفاق أعرف النساء إلى حدٍ ما.. على الأقل أعرف هذه الإنذارات الهستيريّة التي يقطعن بها القصص.. لهذا لم أهتم كثيرًا بما تقول..
لكني تذكرت الخاطر الذي جاءني في المطبخ منذ ثوان...
من الأفضل أن نتحقّق بنفسنا..
نهضت معها.. أمسكت بيدها ـ لو تركتها حيث هي لماتت ذعرًا ـ ورحنا نشق طريقنا عبر أدغال الشقة..
أنت تعرف رقصة الظل هذه.. حين يغدو وراء كل ركن سفاح ينتظر.. وخلف كل باب شبح متربص.. وتحت كل مائدة مسخ مترقب.. قصة (الغرفة الحمراء) لـ (هـ. ج. ويلز) خالدة حقًّا.. وتناسب: كل كارهي الظلال مثلي..
لكن لا شيء.....
صوت غريب آتٍ من المطبخ.....



ثم فطنت إلى أنها ليست خائفة فحسب . . بل هى خائفة
منى ! عيناها لا تفارقان المسدس فى يدى . .

دخلت المطبخ و(ماجي) ورائي، متخذًا وضع رجال العمليات الخاصّة الذين نراهم في الأفلام الأمريكية.. ظهري للحائط.. فوهة المسدس الأعلى.. ثم أثب إلى الداخل مثبتًا المسدس بكلتا يدي (لو أنّ المرحومة أمي رأتني لقتلها الفرح).. و(ماجي) ترفع الشمعة لأعلى..

كان الصوت هو صوت براد الشاي الذي جف ما به من ماء...

أعدت ملأه من جديد.. ثم بحثت حتى وجدت كشافًا صغيرًا.. ورحت به أواصل البحث عن سفاحنا المختفي إياه..

- «ولكن لماذا انقطع التيار الكهربي؟»

- «يا ملاكي.. إن عدم انقطاع التيار الكهربي هو المثير للقلق.. حاولي أن تنسي نظرية المؤامرة هذه بعض الوقت..»

كنا قد انتهينا من البحث.. لا شيء.. لا يوجد في الشقة سوانا.. والخوف طبعًا.. رجل وامرأة.. وثالثهما الخوف.....

* * *

جلسنا نشرب الشاي في الظلام..

الصمت واللهاث.. لا أكثر.....

ثم.. طاق طاق طاق!

اتسعت عينا (ماجي) في هلع.. ليتها تكف عن الذعر قليلًا.. إن منظر ذعرها لمخيف.. هذا أحدهم يقرع الباب في إصرار...

تصلب جسدي أنا الآخر.. وتحسست المسدس..

- «(رفعت).. لا تفتح! هل ستفتح؟»

همست وأنا أعود لاسترخائي:

- «يا سلام! وهل أنا مجنون؟ إن من يأتي ليزورني في الحادية عشرة مساء، وفي هذا الظلام الدامس، لن يخرج عن كونه قاتلًا أو لصًا أو شخصًا يبلغني بكارثة.. كلها أسباب لا تغريني بفتح الباب..»

وابتسمت قائلًا وأنا أرشف الشاي:

- «أنا هنا وأنت هنا.. وأبي وأمي ماتا ولن أقلق عليهما ثانية.. يعني هذا أن العالم الخارجي لا يعنيني في شيء.. فلتزأر العاصفة كما يقول (بوذا)..»

هنا عادت القرعات أقوى.. طاق طاق طاق!.

إنه مُصِرّ!

ينوي ألا ينصرف قبل أن يحطم جهازنا العصبي.

طاق طاق طاق!

ثم صوت فتاة متحشرج:

- «د. (رفعت).. أرجوك.. هل أنت هنا؟»

فتاة؟ من هي؟

- «أنا (نجلاء) ابنة الأستاذ (زكريا).. أرجوك.. لو كنت هنا افتح لي!»

(نجلاء) على الباب؟ وفي حالة هستيرية؟ لا بد أن أباها قد مات.. أو هو عاكف على الموت بنجاح تام..

كدت أنهض لأستوثق من الأمر، لكنّ يد (ماجي) تشبثت بي:

- «لا.. لا تذهب.. إنها خدعة!»

نعم.. أنا كذلك ميال إلى كونها خدعة ما.. فقصص الحمقى الذين فتحوا الأبواب وما كان ينبغي أن يفتحوها تفعم ذهني..

لكن الصوت يواصل النداء:

- «د. (رفعت)! أرجوك.. إن أبي لا ينطق.. أرجوك...»

هنا صار الأمر أقوى من قدرتي على التحمل... فنهضت..

بالطبع لا أريد أن أترك (ماجي) في الظلام وحيدة.. لكني سأجد عذرًا لا بأس به في تفسير وجودها في شقتي.. لهذا أنا مضطر..

- «هـ.. هل ستتركني؟».

- «إن الرجل يموت يا (ماجي).. سأرى ما هنالك ثم أعود لك.. لن يستغرق الأمر دقائق..»

- «أنت أحمق..»

- «ربما.. لكني طبيب كذلك.. طبيب أحمق إذا أردت.. ولا أجد مخرجًا من هذا العيب الخلقي..»

وحملت حقيبتي - تركت المسدس لـ (ماجي) طبعًا - ولحقت بـ (نجلاء) التي وقفت على بابي مشعثة مولولة باكية منهارة مهزوزة ممتقعة.. الخ.. كانت تحمل مصباحًا صغيرًا.. وسألتني في رعب:

- «لِمَ لم ترد على مادمت هنا؟»

- «كنت نائمًا أو شبه نائم.. هيا بنا....»

* * *

على ضوء الشموع والمصابيح يغدو الأمر أقرب إلى الكوابيس...

لكن الحالة حالة نزف مخي.. يمكن لكل طفل تمييزها.. لا يوجد ما يمكن عمله في المنزل سوى شيء واحد فقط.. لا بد من نقله إلى المستشفى لأن حالته أخطر مما ظننت..

وجوه نسائية مذعورة تحيطني في ضوء الشموع.. والأسئلة الغبية المعتادة:

- «هل هي حالة خطرة؟ هل سيُشفى؟ لنحاول علاجه في الدار.. لم لا؟ هل السبب هو أكله القنبيط على الغداء؟»

فقط الزوجة كانت أذكى من سواها... هرعت إلى الهاتف وطلبت الإسعاف.. ثم قالت لي مناشدة:

- «طبعًا ستكون معنا هناك يا د. (رفعت)؟!»

- «ط.. طبعًا!»

- «نحن لن نعطلك.. أليس كذلك؟!»

- «نـ.. نعم!»

طبعًا لا جدوى من أن أقنعهم أن قدومي معهم لن يفيد بشيء.. لكنه التعاطف.. لابد من إظهاره والويل لك إن تنصلت من الأمر بأعذار لن تقبل..

ولكن (ماجي).. لا بد من إبلاغ هذه البائسة.. هل آخذها معي؟ مستحيل هل أناديها لتمضي الساعات الباقية هنا؟ مستحيل.. إذن لا مفر من الذهاب معهم.. ولآمل أن تستقر الأوضاع سريعًا....

* * *

استغرق الأمر ساعتين لحسن الحظ..

ساعتين حتى استقر الرجل في أحد أسرة العناية المركزة، وقاموا بتركيب (المانيتول) وحقن (اللازكس) وكل ما من شأنه أن ينزع المياه من حوض (الأمازون) ذاته...

يبدو أنه سيعيش.. سيمر بأيام كئيبة في البدء.. ثم يتحسن تدريجيًا.

والآن حان وقت الفرار.. والانتقال من دور د.(كوخ) إلى دور (شيرلوك هولمز).. فهناك آنسة مهددة بالقتل في داري..

عدت إلى الدار بعد نصف ساعة أخرى..

كان التيار الكهربائي قد عاد كضيف طال الشوق اليه..

صعدت إلى شقتي وفتحت الباب..

كان جهاز التلفزيون يعمل عارضًا فيلم السهرة الأمريكي.. وكانت بقايا الشمعة قد تلاشت تمامًا وتحولت إلى عجينة بلا معالم.. وكان قدحا الشاي الفارغان على المنضدة.. مع تفاصيل أخرى من التي لا تلاحظها في الظلام...

لكن (موكلتي الحسناء) لم تكن هناك...

تلاشت (ماجي) تمامًا من المشهد..

هرعت ـ وقلبي يخفق ـ أبحث عنها في الحجرات كلها..

ليست هنا.. ولا هنا.. هل تكون قد؟

أخيرا وجدتها في حجرة المكتب.. كانت جالسة على البساط.. وقد تدلت سماعة الهاتف جوارها تتأرجح..

كانت دامعة العينين ذاهلة.. تنظر إلى قدميها في إصرار..

جلست على البساط جوارها، وسألتها في رفق عن.....

- «لقد اتصل بي!»

- «من؟ الرجل إياه؟!»

- «نعم... قال لي: واحد ولا ثاني له.. تعرفين عن السابع بعد يوم! وأغلق الخط قبل أن أقول كلمة واحدة..»

نظرت لها في ذهول:

- «ولكن هذا معناه.....»

ـ «معناه أنني لم أكن الضحيّة السادسة.. ومعناه أنه يعرف يقينًا أنني هنا!»

* * *

٧. الضحيّة السابعة..

أسطورتها.. أنها أذكى النساء..

* * *

توجهنا معًا في الصباح لنتصل بإنجلترا..
لا داعي لإهانة ذكاء القارئ بقول إننا لم ننم لحظة تلك الليلة.. ظللنا جالسين على الأرائك نتبادل النظرات الحيرى.. بضع دقائق يغفو فيها أحدنا ثم يصحو مذعورًا.. فيغمغم شيئًا.. ويعتدل في جلسته من جديد.. وقد بدا لنا ضوء الفجر بشرى بالخلاص..
هذا هو حظي.. ليلة كاملة مع (ماجي) في مكان واحد.. لكنّها من أسود ليالي حياتي وأقساها..
دخلت كابينة الهاتف وراحت تتكلم.. أمّا أنا فاسندت رأسي إلى الزجاج ونمت قليلًا وأنا واقف.. ولم أدر أنني فعلت ذلك..
لم أصحُ إلا حين شعرت بها تجذب معصمي برفق..
- «هيا بنا..»
وأردفت وهي تتقدمني إلى باب الخروج:
- «أنت مرهق حقًّا يا مسكين..»
- «أنت كذلك.. لكنك تجيدين إخفاء ضعفك..»
قالت وهي تركب السيارة إلى جواري:
- «اتصلت بالمفتش (جيرهارد).. أخبرته بما دار في المكالمة الهاتفية الأخيرة.. أخبرني بخبر كنت أتوقعه..»
قلت لها وأنا أنقل ذراع السرعات:
- «(اليزابيث) قد ماتت أمس..»
ابتسمت في خبث.. وقالت:
- «بل (ماري كلفورد).. هل تذكرها؟ إن (ماري) جديرة بأن تكون من شلتي.. لقد نسيناها تمامًا.. لكنّها كانت جزءًا أساسيًا من مجموعتنا.. بل إن (اليزابيث) كانت زميلة لنا أكثر منها صديقة.. هكذا.. إن القاتل يعرف شلتي خيرًا مني..»
سألتها وأنا أحاول ألا تلتقي عينانا:
- «وكيف قتلت؟ بالرصاص أم رميًا من حالق؟»
- «صعقًا بالكهرباء.. سلكان عاريان في بانيو الحمام المليء.. وهي فيه طبعًا.. إن الوغد لا ينقصه الخيال..»
ثم اتسعت عيناها ذعرًا ونظرت لي.. وهتفت:

- «هل تدرك معنى ذلك؟ لقد كان القاتل في انجلترا معها.. إذن من هو الذي يلاحقني هنا بالمكالمات الهاتفية ورسائل التهديد؟ إن (أندرو) يملك الآن حجة غياب لا بأس بها.. لا يمكن لأية محكمة أن تدينه بقتل (ماري)..»

- «ماذا تريدين قوله؟»

- «ما فهمته أنت.. إن القاتل يصل إلى ضحيته في الوقت الذي يريده وبالكيفية التي يريدها.. يصل إليها في اليابان أو انجلترا أو اليونان أو مصر.. يتواجد في بلدين في الوقت ذاته.. إن قاتلًا بهذه الصفات لا يمكن أن يكون من عالمنا.. إنّه صياد كوني إذا صح التعبير!»

وأسندت جبهتها إلى راحتها.. وهمست:

- «واليوم أكون أنا خاتمة هذا المسلسل الرهيب!»

* * *

كان قراري سريعًا....

قمت ببعض حركات مناورة لأضلل من يمكن أن يتبعنا بسيارة.. وحين تأكدت أن أحدًا ليس في أثري - على الأقل من البشر - ملأت خزان السيارة بنزينًا.. وانطلقت في اتجاه الخروج من القاهرة..

إن شقتي قد صارت معروفة لكل قتلة العالم كما يبدو.. إذن تبقى قريتي (كفر بدر) هي أنسب مكان أداري فيه (ماجي)..

إن الأوضاع تنعكس....

منذ أعوام خرجت من (كفر بدر) لأخبئ في شقتي كاهنًا من التبت اسمه (هن - تشو - كان).. واليوم أفعل العكس تمامًا لأداري في قريتي حسناء إسكتلندية بائسة اسمها (ماجي ماكيلوب)..

إن الطريق طويل مرهق..

لكن (ماجي) لم تتكلم..

لم أستطع أن أصارحها بأنني أشكر الظروف التي جعلتني ملاذها الأوحد في العالم... للمرة الأولى تحتاج إليّ (ماجي) بقدر ما احتجت إليها طيلة حياتي..

لقد أفسدت (ماجي) حياتي تمامًا.. صورتها تطاردني كلما بدأت مشروع زواج أو خطبة.. وكنت أحاول أن أتحرر من إسارها لكنّها كانت تملك كل حواسي وأفكاري.. عندها كان كل شيء يتحطم..

أجرؤ على القول إن (ماجي) هي سبب سخريتي اللاذعة وسرعة مللي.. لأنني لا أجد ذكاءها وتجددها في الكون من حولي، إن (ماجي) هي سبب كآبتي وتوحدي.. وسبب شرودي وتوتري..

كان علماء النفس يقولون دومًا إن ارتباط الطفل الزائد بأمه؛ يسبب فشله في أية علاقات مع الجنس الآخر حين يكبر.. وقد كانت (ماجي) أمًا لي.. أمًا وأختا وصديقةً وحبيبةً.. وغدا من المستحيلات أن أجد سواها.. لأنّه لا توجد سوى واحدة فقط..

إن (ماجي) هي الداء والدواء معًا...

وها هي ذي الآن بحاجة إليّ.. بل هي في أعمق أعماق عالمي.. رأت شقتي.. وتوشك أن ترى أختي وأخي وقريتي..

كل هذا حلم.. حلم جميل.. حتى لو صحوت منه على صوت طلقات الرصاص... فموت (ماجي) لا يقلقني لأني ـ حتمًا ـ سأموت قبلها..

أعرف هذا وأومن به.....

قالت لي وهي ترمق الطريق:

- «فيم تفكر؟»

قلت وأنا أنظر لها بجانب عيني:

- «أفكر في أنه لا يفصلني عن السعادة سوى اثنين وثلاثين سنتيمترًا!»

مدت يدها وقاست المسافة الفاصلة بيننا.. وغمغمت:

- «بل أربعين سنتيمترًا.. إن حساباتك خاطئة دومًا..»

هكذا فهمت دعابتي وردت عليها بهذه السرعة النوويّة..

يا ملاكي الصغير..

لن أحتمل أن يحدث لك شيء.. لن أحتمل...

* * *

هو ذا بيتنا الطيني بالقرية....

نزلت من السيارة، وتجاهلت بعض النسوة اللواتي جلسن أمام ديارهن ينقين الأرز ويتأملننى في فضول..

- «(رئيفة)!»

صحت مناديًا أختي.. وانحنيت ألثم الأطفال الذين التفوا حولي.. فأنا خالهم.. خالهم الذي نسى للأسف أن يجلب لهم شيئًا.. لم يكن الوقت ولا المزاج يسمحان به.....

- «خالي جاء يا أمّه!»

ورأيت (رئيفة) الحبيبة برقتها وجمالها تهرع نحوي لتعانقني.. لثمت يدي فلثمت يديها. يدها الطيبة التي رائحتها مزيج من العجين والثوم والبصل والسمن واللبن الرائب.. رائحة داري.. رائحة الحب..

- «لم تقل لي.. إن (طلعت)...»

- «لا عليك.. إنني لست وحدي.. مع فتاة إنجليزية.. ضيفة.. أعني أنها بحاجة إلى حماية و...»

إن تفسير الأمر معقد جدًا.. ورأيت (رئيفة) تحاول أن تفهم.. لكنّها لم تستطع.. لم أكن أنوي البقاء مع (ماجي) في القرية حتى لا يكثر القيل والقال.. كنت أعرف أن (رئيفة) ستحسن العناية بها وحمايتها.. وما لم يكن القاتل من عالم آخر ـ كما بدأت أشك ـ فمن المستحيل على إنسان أن يعرف أن (ماجي) هنا...

- «(رفعت).. هل هي تلك (الخواجاية) التي كنت تنوي الزواج منها؟ لقد بكت أمي أيامها دمًا بدلًا من الدموع.. أرجوك يا (رفعت).. إن بنات بلدك أولى بك..»

يا لك من ساذجة رقيقة! لثمت خدها وقلت:
- «لا شيء مما تظنين.. كل ما هنالك أنها أمانة أتمنى لو حافظت عليها ثلاثة أو أربعة أيام..»
ثم إنني تركتها واقفة حيث هي، وخرجت من الدار لأحضر (ماجي) من السيارة..
لكنها كانت قد غادرت السيارة بالفعل..
وقفت تتأمل أسرة من البط تلهو حول بقعة من الماء الآسن.. وكان البط يرمقها في دهشة عاجزًا عن فهم سر فضول هذه السائحة الشقراء..
وحول (ماجي) رأيت مظاهرة صغيرة.. قوامها الأطفال وعمادها النسوة الفضوليات بأعينهن اللواتي تقطر سمًا وكراهية لا مبرر لهما.. وراح الأطفال يرددون في إيقاع لا بأس به:
- «(الخواجاية) أهيه! (الخواجاية) أهيه!»
وراح غيرهم يتقاطر من الأزقة المجاورة.. وحتّى ذلك الفتى الذي كان مارًا مسرعًا على حماره، توقف وترجل ليرى هذا السيرك عن كثب، ولم أكن أنا في حاجة إلى هذا الاستعراض..
جررتها من ذراعها.. وهي تداعب الأطفال بحركات مضحكة من وجهها.. جررتها إلى داخل الدار.. وواربت الباب الثقيل..
- «(رفعت).. إنهم ظرفاء حقًّا!»
- «إنهم يعتبرونك عرضًا من عروض السيرك.. الرجل الفيل.. المرأة التمساح.. الفتاة الإسكتلندية الشقراء.. ولو أنني تقاضيت قرشًا من كل إنسان يراك لصرت ثريًا..»
ووقفت أمام (رئيفة).. امرأتان متقاربتا السن.. لكنهما من ثقافتين متباعدتين تمامًا..
- «(ماجي) هذه (رئيفة) أختي»
قلتها بالإنجليزية..
- «(رئيفة).. هذه هي (ماجي)..»
قلتها بالعربية؟
- «(ماجي)؟»
سألتني (رئيفة) مستوثقة وهي تجفف يديها في خرقة.. وتتأمل ثياب (ماجي) في انبهار..
أخبرتها أن الاسم هو (ماجي)..
- «والنبي حلوة!»
ومدت يدها تصافحها.. ولثمتها على خديها.. (ماجي) تبدو مندهشة لأسلوب التحية هذا.. لكنّها تقبلته في تواضع..
سألتني (رئيفة) وهي تقودنا إلى الداخل:
- «وكيف سأكلمها؟»
- «كل لبيب بالإشارة يفهم يا (رئيفة).. إنها ذكية وكذلك أنت.. ثم إن ابنتك (أحلام) في الصف الثالث الإعدادي.. يمكنها أن تفهم الكثير وتقول لها الكثير..»
- «ليكن..»
وصمتت هنيهة تبحث عن المعضلة التالية.. ثم سألتني:
- «وأين تقيم؟»
- «يا له من سؤال! حجرتي طبعًا.. لقد تركتها منذ زمن طويل وأعتقد أن البراغيث لم تعد تقيم في الفراش أكثر بعد رحيلي... ثم إنها ستسعد بكل ما تراه هنا.. تأكدي من هذا...»

ثم أرجو ألا تضعي الكثير من السمن في الطعام يا (رئيفة) حتى لا يفتك بها الإسهال.. سأعود بعد ثلاثة أيام على الأكثر.. هل تريدين شيئًا آخر؟ آه! هاك ما يلزم من مال لاستضافتها.. هيه! ألن تأخذيه؟

كانت ترمق يدي الممدودة بحفنة أوراق مالية في حياء.. وغمغمت وهي تدير وجهها:

- «عيب يا (رفعت) يا أخي.. خيرك سابق..»

دسست النقود في يدها قصرًا، قائلًا بنفاد صبر:

- «لا وقت للشهامة يا (رئيفة).. إن صلة الرحم لا ترغمك على استضافة الإسكتلنديات المذعورات.. المهم أنني لن أوصيك.. لا تدعيها ترغب في شيء أو تشته شيئًا.. وسلامي لـ (طلعت)..»

ونظرت لـ (ماجي).. نظرة سريعة لكنّها تقول كل شيء..

- «سأعود بعد ثلاثة أيام أو أقل..»

- «للأبد؟»

- «ماذا؟»

- «ستظل تحبني للأبد؟»

- «.. وحتّى تحترق النجوم.. وحتّى....»

كاد الدمع يغلبني فهرعت لأركب سيارتي، عائدًا إلى القاهرة....

* * *

عدت إلى شقتي أخيرًا....

كانت السادسة مساء حين أولجت المفتاح في الباب..

مازال عطرها يفعم المكان.. والكتب التي كانت تطالعها مفتوحة على صفحات متناثرة...

لم أصدق أن كل هذا حقيقي.. إنني أعيش أروع أيام حياتي وأفظعها! أليس هذا غريبًا؟

على كل حال لم يبق لي سوى أن أبقي أصابعي متقاطعة - كما يقول الإنجليز - وأن أنتظر الليل.. لعل اليوم ينتهي في سلام...

قد ينتهي اليوم بمصرع (إليزابيث).. لكنه لن ينتهي بمصرع (ماجي).. من العسير نوعًا أن يجدها القاتل ما لم يكن شبحًا....

قررت أن أبدأ بإعادة الكتب إلى مكانها.. والأقداح التي....

عجبًا.. كان هناك قدحان على هذه المنضدة اتسخا ببقايا الشاي.. الآن يوجد قدح واحد متسخ.. والآخر به ماء.. بقايا ماء..

(ماجي) لم تفعل هذا.. كانت تنهض إلى المطبخ لتشرب مباشرة من زجاجة في الثلاجة..

يوجد عقب لفافة تبغ غير مألوفة لي.. أراه مدفونًا في منفضة الرماد هذه وأعرف أنني لست صاحبه ولا (ماجي)..

لفافة تبغ لها شريط ذهبي أنيق...

أحدهم كان هنا...

أحدهم دخن لفافة تبغ.. وبحث عن كوب يشرب فيه الماء فلم يجد لأن الأكواب صنف منقرض في شقتي.. وهذا اضطره أن يغسل أحد قدحي الشاي ليشرب منه..

أحدهم كان هنا...

كان هنا؟ ربما مازال هنا.....

ثمة دلائل ترجح الاحتمال الأخير بالنسبة لي.....

إن رماد لفافة التبغ ما زال دافئًا!

* * *

٨ - السقوط.. السباك وأشياء أخرى!

أسطورتها.. أنها لا تشيخ أبدًا..

* * *

هذه المرّة لن ألعب دور رجل العمليات الخاصّة في فيلم أمريكي رديء.. إن في هذه الشقة قاتلًا ينتظر.. صحيح أن المسدس معي.. لكنك تحتاج كي تقتل إلى ما هو أهم من أداة للقتل.. تحتاج إلى إرادة القتل..

أنا لم أطلق الرصاص قط على شخص ينظر في عيني.. ولا أعتقد أنني سأفعل.. ولولا الخطر الداهم الذي أحاط بـ (ماجي)؛ لما كنت قد فجرت زجاجة الحمض الحارق في وجه (أنفريد) عند بحيرة (لوخ نس)..

إذن يبقى حل واحد صائب...

التراجع ببطء إلى الباب.. فتحه... الخروج إلى السلم.. الصراخ أو استدعاء الشرطة.. المهم ألا أكون وحيدًا...

ببطء تراجعت إلى الباب، وأنا أنظر يمينًا ويسارًا..

هل يأتي من ردهة المطبخ؟ أم يخرج من وراء الأريكة؟ أم يثب من باب غرفة النوم الموصدة؟

هل سيبدأ إطلاق الرصاص.. أو يقول شيئًا ما على غرار: لقد وقعت!؟ هل سيعطيني فرصة كي أفتح الباب؟

لا يوجد ما يوحي بالحركة.. هل أنا مخطئ؟

لا.. حاستي تقول إنّه هنا.. وتقول لي كذلك: أرجوك أن تسرع بالفرار.. بحق كل غال لديك حاول أن تسرع!

لكنّ الركض سيصيبني بالهلع..

لا أريد أن أفقد تعقلي..

ها هي ذي يدي على (الكالون).. أفتحه.. يالك من صاحب لعين! الباب مفتوح الآن..

دلفت إلى الردهة المظلمة خارج الباب، وأغلقته في تؤدة.. ثم.. عليّ الآن أن أصرخ أو أركض إلى الشارع..

لكن.. لماذا لا أغلق الباب بالمفتاح من الخارج، وأترك المفتاح في ثقبه؟ إن هذا سيعطله حتمًا..

من الصعب على هذا الدخيل أن يهرب من الشرفة أو النافذة.. ليس أمامه سوى الباب.. ولسوف يجعله هذا في مأزق حقيقي.. هي هي!.

وانحنيت على ثقب الباب أدفن مفتاحي فيه.. حين..

* * *

يا للهول!.
ذراعان قويتان تحملانني من تحت إبطي.. وصوت لهاث..
سقط المسدس على الأرض.. وغاب في الظلام...
لقد.. لقد كان هناك.. خارج الشقة لا داخلها.. بانتظار فراري المذعور.. وهأنذا قد وقعت في الشرك..
حاولت التملص لكنه كان قويًا حقًّا..
إنه يقودني إلى (الترابزين).. وقبل أن أفهم وجدت جذعي كله يتدلى فوق الحاجز.. مع محاولات مستميتة لإلقائي من عل..
رأيت عويناتي تهوى من فوق.. استغرقت دهورًا حتى لمست بئر السلم وسمعت صوت تهشمها..
يده تعالج ساقي محاولة رفعها..
لكني لست من هذا النوع الذي يتخلى عن أي شيء في يده.. أمسك ياقة سترته بمخالبي.. وأنشبت أظفاري في ذراعه..
كان تقلصًا كالتصلب الرمي في الجثث.. لا يمكن التغلب عليه إلا بقطع يدي.. وسمعت الرجل يسب ويلهث بالإنجليزية.. كيف يلهث الناس بالإنجليزية؟ لا أدري.. ولا وقت لديَّ كي....
أفسّر!
تماسك يا (رفعت).. لا تفقد الوعي.. لن يتمكّن منك طالما أنت بكامل وعيك.. لا تغب عن الوعي...
شعرت به يضربني على رأسي بقبضته محاولًا جعلي أفقد صوابي.. انحنيت مبتعدًا عن قبضته.. ورحت أصرخ بصوت مبحوح:
- «(عزاات)! النجدة.. فليأت أحدكم!»
يا للظلام المقيت! إنني..
لحظة ضعف واهية.. لكنّها كانت كافية جدًّا...
وحين تخلت يدي عن ثيابه.. شعرت بأنني أفقد توازني.. وأن ما تحت قدمي هو الخواء.. الخواء لا أكثر..
لقد استطاع أن يلقيني من حالق!
حتى وأنا أسقط لم أتخل عن عادتي في الملاحظة..
خطر لي أن أفلام السينما تخرف حين تظهر شخصًا يهوى من أعلى، وهو يملأ الدنيا صراخًا ويحرك يديه في كل اتجاه..
بالنسبة لي كان غرابة ما أراه كافيًا كي أظل صامتًا.. وأهوى كجلمود صخر خطة السيل من عل..
و.. فقدت الوعي طبعًا.. لقد حان الوقت لهذا..

* * *

كانت هناك ضوضاء غير عادية، ويد باردة على معصمي تحاول قياس النبض.. والضوء.. كل هذا الضوء..

يقول الرجل ذو العوينات والشعر الأشيب:

- «إنّه بخير... لقد عاد النبض منتظمًا..»

ويقول الشاب الوسيم الذي يرتدي الثياب الرسمية:

- «هل رأيت من قذفك من أعلى؟»

ويقول جارى اللواء (محمد حليم) ويداه في جيبي الروب الصوفي:

- «لا بأس عليك.. أنت مدين لنا بنجاتك..»

وبدأت افهم..

كان اللواء (حليم) عاكفًا على استبدال مواسير الماء في شقته.. لهذا ترك السباك عشر مواسير تطل نهاياتها حرة من فوق (الترابزين).. ولم يخطر بباله أنّ هناك من يمكن أن يسقط في بئر السلم بعد نصف ساعة.. كان بوسع أطراف المواسير هذه أن تعمل في جسدي ما تعمله الرماح في خيول المغول.. لكنها أنقذتني لأنهّا اشتبكت في سترتي.. وصرت معلقًا منها كالأرنب..

هنا بلغت الضوضاء ذروتها، وغادر السكان شققهم ليروا.. ليروا الكهل (رفعت إسماعيل) معلقًا من قفاه في بئر السلم غائبًا عن الوعي... لقد كان منظرًا مهينًا حقًّا.. ربما كنت أفضل الموت عليه..

الأهم هو أنهم رأوا من يثب الدرجات وثبًا في الطابق السفلي ليغادر البناية.. ولم يكن لدى أحدهم الوقت لمطاردته...

تمكن السباك ببراعة من ربط جسدي بالحبال... وجذبني مع صبيه إلى مرفأ الأمان.. لابد أن المشهد كان شائقًا..

لشد ما أمقت جذب الانتباه، أو لفت الأنظار! كانت أمنيتي الدائمة هي الموت دون ضوضاء على فراشي.. فلا أحب أن يتحول موتي إلى استعراض من استعراضات (برودواي) يراقبه كل من هب ودب.. ولا بأس من اصطحاب الأطفال، وقزقزة اللب والفول السوداني..

شكرت الجميع على حسن أدائهم...

وقلت لمحقق الشرطة.. إنني لا أعرف.. (لا أعرف) هذه كانت إجابتي على سبعة أسئلة أو أكثر..

سألني في حنق وقد فاض به:

- «إذن أنت تعتقد أن الرجل رماك من أعلى السلم لأنّه يحبّ ذلك؟»

قلت له وأنا أحاول النهوض:

- «إن للناس هوايات غريبة.. وعلى كل حال هو أدرى بالسبب..»

- «حسن.. لكننا نريدك غدًا يا دكتور لنستأنف هذه المحادثة.. إذا كانت حالتك تسمح طبعًا..»

وصعدت إلى شقتي.. ولم أنس بالطبع أن أجعل رجال الشرطة يفتشونها بعناية أولًا.. ثم أغلقت بابي بإحكام وأوصدت المزلاج..

كنت في حالة يرثي لها.. بذلتي تمزقت.. بذلتي التي اشتريتها خصيصًا للقاء (ماجي).. ومنظاري تهشّم.. يعني هذا غرامة مالية لا بأس بها هذا بالطبع لو استطعت الوصول إلى محل



يالللهول ! . . ذراعان قويتان تحملاننى من تحت إبطى . .
وصوت لهاث ! . .

المناظير..
إن أجلي لم يحن بعد.. هذا هو كل شيء....
أجلى لم يحن بعد.. لسوء حظ القاتل.....
نزعت ثيابي.. ارتميت على الأريكة.. رحت ألهث والمشهد يتوالى أمام عيني مرارًا.. نهضت.. تناولت قرص (النتروجلسرين) إياه..
أين مسدسي؟ لقد سقط مني عند الباب حين.. لا جدوى من البحث عنه طبعًا.. فلا بد أن رجال الشرطة وجدوه.. أو وجده القاتل.. لا يهم.. لن أغادر الشقة مرّة أخرى....
وعادت خواطري تتدفق...
لقد قارفت خطأ مميتًا.. افترضت أن سلسلة القتل تتعلق بشلة (ماجي).. ونسيت أنني من شلة (ماجي)!
افترضت أن القاتل يريد الإنجليز فقط.. ونسيت أننا لو أحصينا سبعة من أصدقاء (ماجي) فلا بد أن أكون منهم.. ولو أحصينا خمسة فأنا منهم.. ولو أحصينا واحدًا فأنا هو!
كُنت أنا السابع..
لهذا تسلل الرجل إلى داري.. وعرف رقم هاتفي.. وترك لي إنذارًا.. لكني حسبت كل هذا موجهًا إلى (ماجي)..
الآن يمكنني أن أطمئن وأقر عينًا..
أنا السابع.. فلا خطر على صغيرتي الشقراء الهشة..
لكن اليوم لم ينته بعد.. إنها العاشرة مساء.
فهل يجرؤ الرجل على إعادة المحاولة؟ هل يقدر؟ لا أظن..
المهم الآن أن أتصل بـ (كفر بدر) لأخبر (ماجي).. ولكن كيف؟ إن الاتصال بالقرية يستغرق وقتًا ومجهودًا يفوقان ما أبذله لو مشيت على قدمي إلى القرية لأبلغ رسالتي شفويًا..
عدت أسترخي في جلستي وحاولت ترتيب أفكاري..
من هو القاتل؟ مستحيل أن أعرف ذلك.. لكنه قادر على التواجد في مصر وإنجلترا في وقت واحد.. أي إنّه إنسان فريد من نوعه وموهوب دون شك.. كنت أفكر وأنا أبحث عن العوينات الاحتياطية التي أحتفظ بها.. ها هي ذي..
أنا من شلة (ماجي).. فما الذي فعلته هذه الشلة ويوجب القتل؟ ولماذا تمحور القتل حول (ماجي)؟ يريد القاتل حرمانها ممن تحب - فهل يرى أنها حرمته ممن يحبّ؟
ثمة ذكرى معينة غير واضحة تتردد في ذهني..
ما هي؟ كأنك تحاول استرجاع لحن أغنية نسيتها تمامًا.. كلما حاولت استرجاعها زارك لحن أغنية أخرى..
اسكتلندا.. شلتنا.. كان هذا منذ خمسة عشر عامًا..
ما الذي حدث وقتها؟
وهنا بدأت أتذكر..
هرعت إلى المطبخ، ورحت أجول فيه.. أحاول أن أشحذ خلايا مخي..
وبدأت الرؤى تتداعى..

* * *

٩ - عندما أخطأنا..

أسطورتها.. أن لها رائحة الكون..

* * *

ليلة الكريسماس...
كنا جميعًا هناك في (إدنبرة).. أنا و(ماجي) و(تابيثا) و(هيلين) و(ريتشارد) و(جون) و(ألفرد) و(ماري)..
راحوا يرددون أغنيات عيد الميلاد.. (تابيثا) بوجهها القبيح الشبيه بوجه كلاب (البولدوج) تبعثر دعاباتها المرحة هنا وهناك.. (هلين) ثقيلة الظل ترمق ما يحدث في سخرية صامتة.. (جون) يتابع دعاباتنا بوجه صاف وسيم ملىء بالرقة..
كان بعضهم ثملًا.. لكني رفضت في تهذيب أن أشاركهم لهوهم... إن عصير الليمون مشروب لا بأس به أبدًا.. و(ماجي) كذلك لم تشاركهم الشراب ويبدو أننا جلسنا جوار المدفأة بعض الوقت..
قالت لي وشعرها يلتهب بلون النيران:
- «للأبد؟»
- «ماذا؟»
- «ستبقى معي للأبد؟»
- «.. وحتّى تحترق النجم كلها.. وحتّى...»
كان (جون) يدرس الطب مثلي.. (ماجي) و(ماري) تدرسان الفيزياء.. الحق أنني لا أذكر دراسة (هيلين) و(تابيثا) جيدًا..
كانت مجموعة متباينة من العسير أن تفهم تجانسها... لكنّ (ماجي) هي من عرفني بهم ووجدت أنهم لا بأس بهم.. على الأقل كضريبة لا بد من دفعها كلما قابلت (ماجي)..
وبرغم مقتي للضوضاء والصخب؛ بدت لي الليلة غير عادية..
كنت أفضل أن أدخل فراشي لأندس تحت الأغطية الثقيلة، وأرتدي قلنسوتي الصوفية.. وأقرأ قليلًا ثم أنام كالدب..
لكن وجود (ماجي) كان يعني أن أغير خططي كلها...
كان الليل قد انتصف...
هنا صاح (ريتشارد) بلسان ملتو قليلًا:
- «هلموا نقم برحلة في السيارة.. إن الليل مازال طفلًا..»
وتصاعدت الصيحات أن هيا بنا.. هيا بنا....

كانت سيارة (ماجي) بانتظارنا في الخارج.. وسط الأنوار المتألقة لأشجار أعياد الميلاد كانت تقف.. وقد ألصقت (ماجي) عليها بالقطن والورق المزركش صورة نصف مجسمة لـ (بابا نويل) أو (سانتا كلوز) كما يسموّنه هنا..

ولا أدري كيف احتشدنا داخل السيارة نحن الستة جوار (ماجي) التي جلست وراء عجلة القيادة.. ذكرني هذا بعربات الأجرة بين المحافظات في مصر بركابها السبعة...

صاح (ألفرد) بلسان أكثر التواء:

- «ولماذا لا أقود أنا؟»

في حزم قالت (ماجي) وهي تحاول تسخين المحرك:

- «لأنهّا سيارتي يا (ألفرد).. ولأنك لا تعي ما تقول..»

كنت جالسًا جوار النافذة الأماميّة، وفي الوسط كانت (هيلين).. على حين احتشد الخمسة الآخرون في المقعد الخلفي، يصخبون ويحدثون ضوضاء كافية لإيقاظ مقابر (الغفير) كلها....

وانطلقت السيارة تئن بحملها....

- «فلنذهب إلى (جودفري)!»

- «إلى (جودفري).. إلى (جودفري)!»

سألت (ماجي) همسًا وأنا أميل خلف رأس (هيلين):

- «ما هو (جودفري) هذا؟»

قالت في لا مبالاة وهي تتابع الطريق بعينيها:

- «إنّه مكان يذهبون إليه!».

ثم نظرت إلى ساعتها في قلق.. وغمغمت:

- «إنها الواحدة إلا الثلث... سيقتلني أبي حتمًا.. سأدور بهؤلاء المخابيل دورة واحدة ثم أعود بهم..»

لكنّ الكلام سهل.....

الجليد يتساقط ببطء.. قطع من القطن الأبيض تلقيها السماء على جراح البشريّة.. ثم يزداد كثافة..

يبدو أن الطريق يتحول ببطء إلى اللون الأبيض الزلق...

شعرت بانبهار غير عادي.. كأنه حلم جميل.. السيارة الدافئة والبرد القارص بالخارج.. والظلام.. وكل شيء يختلف عما عرفته عن الكون..

إن الكون شبيه بـ (ماجي).. في كل لحظة يتضح أنه يملك شيئًا لم تكن تعرفه عنه.. دائمًا يملك أسرارًا لا يكشف عنها إلا في لحظة غير متوقعة..

الرؤية تغدو أكثر عسرًا..

الصخب يتعالى من المقعد الخلفي، و(هيلين) تقول شيئًا ما....

وهنا لمحنا الضوء..

الضوء المبهر الساطع قادمًا نحونا كشمس مخبولة..

فرملة عنيفة من (ماجي) قذفت بنا جميعًا للأمام... ثم محاولة لتعديل الاتجاه إلى اليسار..

لكن هذا مستحيل..

الوهج المبهر قادم من كل صوب نحونا..

- «(ماجي)! انحرفي يمينًا!»
لاااااااه!
لكنّ الموسيقا كانت تغطي على أصوات الصراخ..
صوت الفرامل المجنون.. تغوص سيارتنا في الثلج على جانب الطريق.. وتشق طريقها والصراخ وصوت الغناء المنبعث من الراديو:
«هلمي يا صغيرتي.. يمكننا أن نرقص (الروك)!»
الأشجار تتسابق في لهفة متنافسة على تحطيمنا..
«حين ترقصين (الروك).. أشعر بالجنون!»
(ماجي) تتحكم في السرعات والفرملة كما يتحكم (أبوللو) في عربة الشمس..
«(الروك) يا صغيرتي.. (الروك)!»
وأخيرًا تهمد العجلات، وتقف السيارة كوحش منهك يلتقط أنفاسه بعد صراع مرير..
- «اللعنة!» - يقولها (جون) - «كان قريبًا جدًّا..»
- «لا بد أن السائق الآخر مخمور..»
وترجلنا من السيارة.. وعلى الوهج الذي يضئ المنطقة عرفنا بوضوح أن السيارة الأخرى تحترق..
كانت مقلوبة.. النار تلتهمها في شراهة والدخان الأسود يتصاعد لعنان السماء.... شعلة من نوع خاص تضيء الظلام..
- «فلننقذ من بقي حيًّا!»
قالت (ماجي) في حزم وهي تشيح بوجهها:
- «لا داعي.. إن الانفجار آت لا ريب.. هكذا يحدث دائمًا في السينما..»
لكنّ شيئًا لم ينفجر.. ودنوت من كتلة الحديد المحترقة مع (ألفرد).. وتمكنا من فتح الباب الخلفي، ونجحنا في إخراج طفلين يولولان كانا في المقعد الخلفي.. لكنّ الجالسين في المقعد الأمامي كانا بعيدين عن متناول أيدينا.. ثم إن أي طفل كان يستطيع معرفة أنهما ماتا....
- «يا لها من مأساة!»
كانا توءمين جميلين.. قدرت أنهما في العاشرة من العمر.. وكانا يرتجفان ويبكيان.. لكننا أبعدناهما عن مسرح المأساة..
بعد قليل جاءت عربة الشرطة... جرى تحقيق سريع.. لم ينس الضابط أن يجعل (ماجي) تسير على خط رسمه على الأرض وذراعاها مفرودان.. كان يريد التأكد من أنها ليست مخمورة.. ولم تكن...
شهود العيان الذين كانوا وراءنا أجمعوا على أن السائق كان يسير في الطريق المعاكس بسرعة جنونية.. واحد آخر من ضحايا الخمر على الطرق السريعة..
اسمه (نورمان ماكليود).. محاسب.. له زوجة وثلاثة أطفال.. طبعًا لا داعي للقول إن زوجته وطفلته ماتتا معه..
لقد كانت مأساة.. لكنّ لم يكن لنا ذنب فيها...
وأجري التحقيق.. وسألوا كل وحدًا منا عن ظروف الحادث.. ثم انتهى الأمر.. فلم يبق منه سوى ذكرى قاسية ظلت تزور (ماجي) عامًا كاملًا.. وجعلتها تبتلع عشرات من أقراص

(الفاليوم)..
انتهى الأمر...
لكننا ارتكبنا جميعًا خطأ جسيمًا..
لم يحاول أحدنا معرفة مصير التوءمين.. أين ذهبا؟ ماذا فعلا وماذا ظنا بنا؟
لو أنهما حيان اليوم.. فمعنى هذا أنهما شابان ناضجان..
شابان حُرما ممن أحبّا.....
شابان يعرفان المتسبب في هذا الحرمان....

* * *

لماذا لم يخطر لنا هذا الخاطر من قبل؟
لأننا لم نعتبر أننا مذنبون لحظة واحدة.. لكنّ من قال إن التوءمين اعتبرانا غير مذنبين حقًّا؟
إنها فكرة لا بأس بها.. لكنّها تحتاج إلى برهان...
يسهل على (سكوتلانديارد) معرفة مكان التوءمين الآن.. وبعدها سيكون كل شيء سلسًا كقطعة من الكعك..
يجب أن أتصل بـ (ماجي) فورًا....
هنا دق جرس الباب....
دق قلبي بذات الإيقاع.. كلا.. لن أفتح.. لكنّ لا مانع من التأكد من شخص القادم..
- «من؟»
قلتها بصوت بوليسي وأنا أقف وراء الباب..
وسمعت الصوت المألوف:
- «هذا أنا يا (رفعت)..»
- «(عزت)؟ ماذا تريد؟»
- «إنني قد وجدت مسدسك.. هلا فتحت الباب؟»
- «حسن.. لحظة واحدة..»
ومددت يدي إلى المزلاج أفتحه.. إن وجود المسدس معي يسرني حقًّا..
وكان هذا عملًا أحمق بالطبع..

* * *

١٠ - كشف الأوراق...

أسطورتها.. أنها تملك مفاتيح روحي

* * *

فتحت الباب لأرى وجه (عزت) الممتقع المألوف.. وكدت أقول شيئًا.. لكنّ جسدًا ضخمًا ظهر على المسرح فجأة.. وكان يحمل مسدسًا في يده..

أدركت أنه كان يقف بعيدًا بانتظار لحظة انفتاح الباب..

ورأيت المسدس مصوبًا إليّ قبل أن أرى حامله وقال قائل بالعربية:

- «لحظة يا سيدي.. لا تحاول غلق الباب!»

لن أغلقه طبعًا.. فمن الممكن دائمًا اختراقه بطلقة.. كما أنني لن أترك (عزت) وحيدًا في هذا الموقف..

ورأيت الرجل يقتاد (عزت) إلى الداخل.. ثم يتبعه ويوصد الباب خلفه بإحكام..

قال (عزت) في إحباط وهو ينظر إلى الأرض:

- «لقد أرغمني يا (رفعت).. هددني بالمسدس كي أقرع بابك وأقول ما أقول..»

- «لا عليك يا (عزت).. إنّه أسلوب اقتحام الحصون العتيد.. أسلوب حصان طروادة... لكني معجب بإجادة هذا الوغد للعربية..»

ثم أشرت إلى الأرائك أدعوهما للجلوس:

- «تفضلا بالجلوس.. لا تقلق يا مستر (ماكليود).. إن تأخير قتلي نصف ساعة لن يضر بعدالتك الشعرية هذه!»

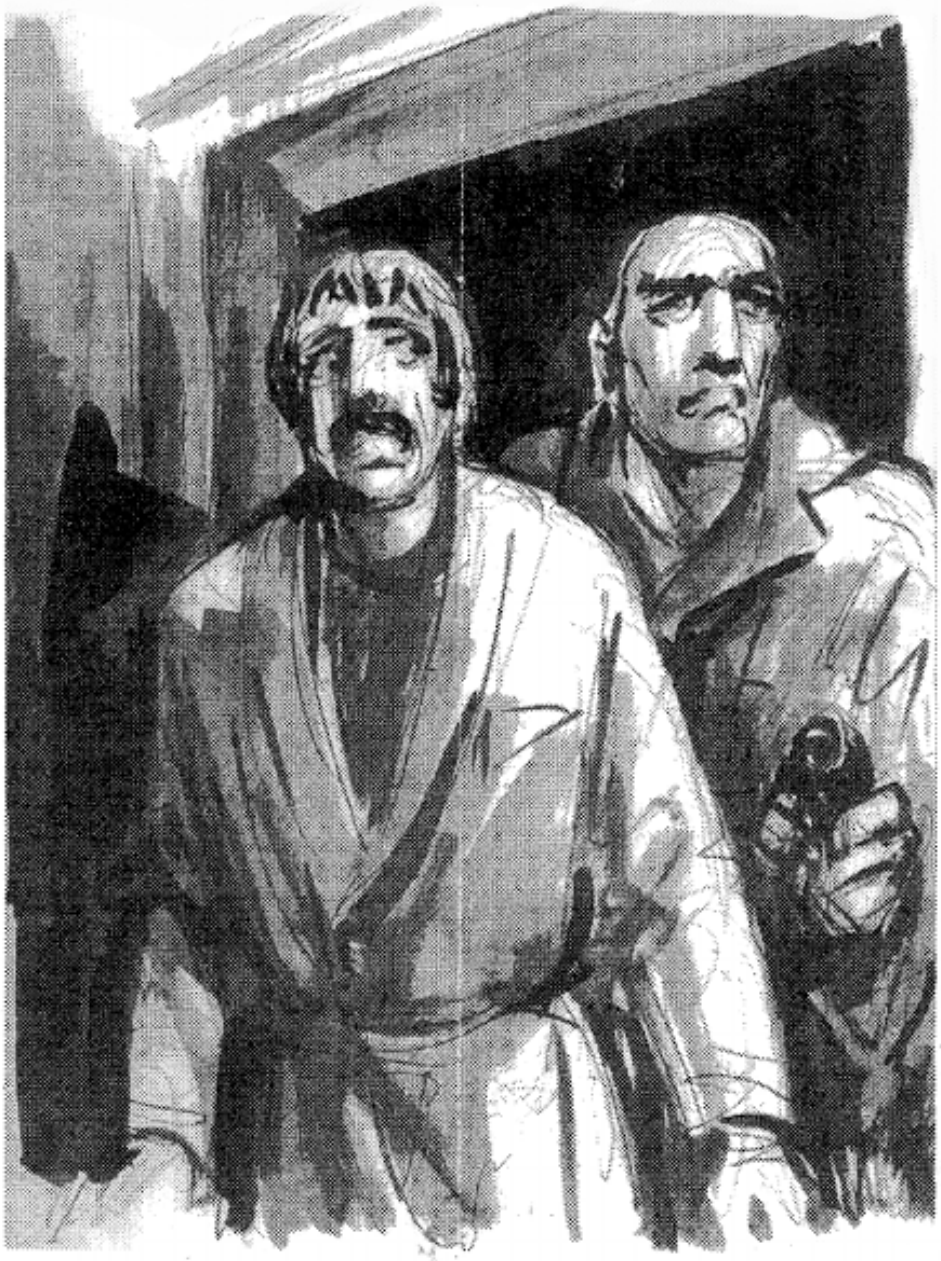
امتقع وجهه.. ونظر لي مدهوشًا..

لقد كنت على حق.. تأكدت الآن فقط من صحة نظريتي.. ولكم أكره أن أكون محقًا في كلّ مرّة لكنّ هذا هو قدري!

- «هـ.. هل تعرفني؟»
- «طبعًا.. إن (سكوتلانديارد) تعرف كل شيء عما حدث...»
وللمرة الأولى تأملته.. كان وسيمًا له ملامح رجولية قوية.. شعر رأسه حليق على خلاف الموضة الشائعة.. متين البنيان.. يوحي بأنه في العقد الرابع من العمر لا الثالث كما هو مفترض..
وفي يده مسدسي الذي سيجيد استعماله بالتأكيد... فهو يملك الرغبة والهواية.
قلت له وأنا أفكر في سبيل لكسب الوقت:
- «كيف عرفت أنني لم أمت؟»
- «رأيتك وأنت تهوى وتشتبك في المواسير.. لم يكن لديَّ وقت كاف لإسقاطك.. لهذا عدت..»
- «يبدو لي أنك مصمم على إنهاء الأمر اليوم..»
نظر إلى ساعة الحائط.. ثم لساعته.. وغمغم:
- «حقًّا.. أمامنا ثلث ساعة بعده نغدو - عمليًا - في الغد.»
هنا صاح (عزت) متوسلًا وهو ينهض من الأريكة:
- «هلا شرح لي أحد ما يحدث هنا؟ يبدو أنكما متعارفان تمامًا.. إذن اسمحا لي بالانصراف..»
- «اجلس يا سيدي..»
قالها الرجل في رزانة.. لكنّ معنى العبارة واضح جدًا.. فلم يجد (عزت) سوى الجلوس وهو (يبرطم) بكلمات غير مسموعة..
كان صوت الرجل رخيمًا مهذبًا.. وكانت لغته العربيّة رديئة حقًّا من ناحية النطق.. لكنّها ممتازة من حيث انتقاء الكلمات وترابط الجمل..
- «يُمكنك استعمال الإنجليزية لو أردت..»
- «أفضل العربيّة.. فهي تجعل من محادثتنا تدريبًا شائقًا..»
- «وأين تعلمتها؟ لابد أنك قضيت فترة لا بأس بها في بلد عربي..»
- «بالتأكيد..»
قالها في غير اكتراث وهو يعالج ترباس المسدس... ثم أردف وهو يتأملنا:
- «لنبدأ إذن!»

* * *

قلت له في حنق بالإنجليزية:
- «لحظة! من أبسط حقوق المقتول أن يعرف لم قتل.. من الطبيعي أن تثرثر قليلًا وتتشفي فينا.. أمّا إن تقتلنا هكذا دون كلمة فهذا لايبدو لي إنسانيًا..»
ابتسم ابتسامة مدهوشة كأنما يتساءل: أى مخبول هذا.. ثم هزّ رأسه قائلًا:
- «هلمّ.. اسال عم تريد..»
كنت أدرك أن حياتنا تتوقف على كياستي في اللحظات القادمة..
لست من هذا الطراز هادئ الأعصاب أمام الخطر.. لكني كنت أعرف ما يطمئنني بصدد هذه اللحظات..



وكدت أقول شيئًا . . لكن جسدًا ضخمًا ظهر على المسرح
فجأة . . وكان يحمل مسدسًا فى يده . .

قلت له وأنا أتجه للمطبخ:
- «هل لي في إعداد بعض الشاي؟ إنك لم تقتلني لذلك..»
صوب المسدس نحوي في حيرة.. وغمغم:
- «لا.. اجلس حيث أنت!»
- «لا تكن طفلًا.. إنك الأقوى هنا.. فالعب دور (الجنتلمان) حتى النهاية..»
قلتها وأنا أضيء المطبخ.. وأملأ براد الماء.
لم يجد ما يقول.. بدا له أنه من السخف أن يكون عصبيًا إلى هذا الحد.. من ثم أشار إلى (عزت) كي يتجه للمطبخ.. ووقف على الباب - على مسافة مأمونة - يراقبنا في أثناء إعداد الشاي دون أن تطرف عيناه..
هتف (عزت) في عصبية، وقد بدأ (الكورتيزون) يهبط في دمه:
- «شاي في هذا الوقت؟ لقد جننت تمامًا يا (رفعت)! ألا بد من أن تدخل القبر بمعدة ملأى بالشاي؟»
وراح يولول في هستيريا.. لكنى واصلت ما بدأته..
قلت للرجل الممسك بمسدّسه:
- «حسن.. سأبدأ من البداية.. أنت أحد التوءمين (ماكليود).. لقد خسرت والديك وأختك في ذلك الحادث المرير ليلة (الكريسماس).. لا أدري ما حدث بعدها.. ربما أرسلوكما لأحد الملاجئ.. ربما تولت أمركما إحدى الجارات.. المهم أنكما كبرتما معًا دون أسرة..
لا أدري لماذا انتظرتما كل هذه السنين.. ربما حتى تصل (ماجي) إلى سن والدكما حين مات.. وربما حتى تمكنتما من جمع المعلومات عنا.. المهم أنه قسم مقدس أقسمتماه.. كنتما تؤمنان أننا حفنة من الشباب المستهتر الذي أفرط في الشراب، وانطلق بسيارة مجنونة ليدمر كيان أسرة..أ.. هل لك في بعض الشاي؟ بالطبع لا.. إنهم يلعبون هذه اللعبة دائمًا ويدسون سمًا للمهدد.. شاي يا (عزت)؟ بالطبع لا.. إن معدتك لا تتحمل الكلمة ذاتها..
كنت اقول إن إيمانكما باننا سبب تعاستكما لم يتزحزح.. كانت له ذات منزلة العقيدة الدينية.. ولا بد أنك أقسمت ذات ليلة أنت وأخوك على الانتقام..
كيف عرفتما ما عرفتماه؟ ربما من سجلّات الشرطة.. ربما صار أحدكما شرطيًا أو موظف إحصاء.. المهم أنكما قرأتما محضر الحادث، وعرفتما أسماء ركاب السيارة.. وأن قائدتها تدعى (ماجي ماكيلوب).. هي التي صدمت سيارة أبيكما. وهي التي رفضت أن تتفقد الحطام المحترق.. ولو لم أخف أنا و(ألفرد) لانقاذكما لكنتما طعمًا للنيران..
إذن المطلوب جعل (ماجي) تتعذب.. يجب أن ترى كل من تحب يرحلون بعيدًا.. يجب أن تظل قلقة خائفة.. لا تدري هل يكون دورها بين السبعة أم لا..
كان مصرع (جون مكارثر) سهلًا.. لعبة غاز العادم يمكن تنفيذها ببساطة (هيلين بلاكلي) أيضًا ماتت محترقة ولم تكن هذه مشكلة.. المشكلة الحقيقية هي موت (تابيثا) في اليونان في سجنها.. ربما رشوتما الحراس.. ربما اتفقتما مع سجينة أخرى معها في ذات السجن..
بعد هذا مات (آلفرد).. كنتما مخطئين في قتله.. فهو منقذكما.. لكنه مات ببساطة في حوض السباحة.. ثم مات (ماكنزي) في اليابان مشنوقًا لا بد أن أحدكما لحق به هناك.. واضح أن الوالد قد ترك لكما ثروة لا بأس بها..

ثم جاء دور (ماري).. اللعبة الحقيقية كانت هنا في مصر.. فأحدكما عرف أن (ماجي) فرت إلى مصر.. ولحق بها هنا.. بينما بقي الآخر في انجلترا ليقتل (ماري).. هذا أعطانا انطباعًا بتواجد القاتل في كل مكان..

كان من السهل أن يعرف عنواني.. لا بد أنها كانت صدمة رائعة أن يجد أن ضحيته السابعة - أنا - موجودة مع (ماجي) في مكان واحد.. ولكن كيف عرفتم رقم هاتفي؟»

ابتسم في هدوء وهو يرقب براد الشاي.. وغمغم:

- «خمّن!»

- «لقد أخبرت (ماجي) (سكوتلانديارد) به.. لو كان أخوك شرطيًا كما افترضنا آنفًا فمن السهل عليه أن يعرف الرقم، ويبلغك به في مصر.. هكذا كانت كل تحركات (ماجي) تحت الرصد.. ربما باستثناء المكان الذي أخفيتها فيه الآن..

ولكن عندي سؤالًا بسيطًا:

لماذا لم تحرماها من أبيها السير (ماكيلوب)؟»

- «كان العجوز على رأس القائمة.. لكنه مات قبل بدء التنفيذ..»

- «مفهوم.. مفهوم.. إن (ماجي) مقطوعة من شجرة كما يقول المصريون.. وما دامت لا تملك أسرة فلا بأس بتدمير أصدقائها.. إن العدالة الشعرية تقضي بإبادة كل من كانوا في السيارة في تلك الليلة..

أراهن على أنكما لم تصدق المحضر الذي يبرئنا قط.. حسبتما أنّ هذا نتيجة لثراء ونفوذ أبيها.. الابنة تلهو بسيارتها ثملة، والأب يسدّد الفواتير ويشتري الضمائر... أليس كذلك؟»

ونظرت له في تحد وقلت:

- «أنتما تعرفان أن أباكما هو المخطئ.. هو الذي قاد السيارة بأسرته وهو ثمل لايفقه ما يقول.. لكنّها المكابرة..»

قال بلهجة منذرة من بين أسنانه:

- «اخرس»

- «ليس هذا كل شيء.. أنت أحمق كذلك.. جئت الليلة كي تنال مني وانتظرتني طويلًا بعد اقتحام الشقة.. كانت خطتك هي إلقائي من أعلى لهذا لم تحمل مسدسنًا معك..

لكن عثورك على مسدسي جعلك تقرر تغيير أسلوب القتل..

لكنك أحمق - كما قلت - فلم تحاول التأكد من وجود طلقات بالمسدس قبل أن تهددني به؟»

صاح في جنون وهو يمد يده لمظروف الطلقات:

- «يا للشيطان! أنت تمزح!»

- «ليس هذا فحسب..» - قلتها وأنا أدير ظهري له - «... أنا اكتشفت ذلك بنفسي عندما عدت للشقة.. لكني افترضت أن المسدس الفارغ يثير الرعب الذي يحدثه المسدس المليء.. ثم إنك تركتني أعد الشاي.. وهذه حماقة لا توصف لأن....»

كان يحاول تفحص المسدس، وكان هذا ما أريده.. لحظة فقدان للتركيز كانت كافية كي أقذف ما في البراد من ماء مغلي في وجهه مباشرة.. كانت إصابة موفقة.. وأصدر صراخًا كصراخ أسد يذبحونه في أحد مطاعم ألمانيا التي تقدم الأسود (لو كان هذا صحيحًا)...

وهنا صحت في (عزت) وأنا أركض إلى الباب:

- «هلمّ يا (عزت)! فلنفر!»

لم يكذب (عزت) خبرًا.. أمّا أنا فوجدت من واجبي أن أقوم بعمل أخير على سبيل المجاملة.. التقطت يد الهاون التي أضعها فوق رخامة المطبخ، وهويت بها على يافوخ الرجل.. الرجل الذي لم يعد يرى..

كليك! كليك! كليك!

رصاصات وهمية لا حصر لها تنطلق من يده المتقلصة على الزناد..

رصاصات كان المفترض أن تمزقني إربًا..

لكنه لم يسقط أرضًا.. ورأيت أن كل هذا كاف جدًا.. فهرعت إلى الصالة خرجت إلى السلم.. وأغلقت الباب خلفي.. لحسن الحظ أن المفاتيح في جيبي.. أحكمت إغلاق الباب من الخارج ورحت أتعثر عبر درجات السلم.. كان الجيران جميعًا يقفون خارج شققهم.. لقد كان صراخ (عزت) كافيًا لاختراق حاجز الضوء ذاته.. وسمعت من يقول إنّه أبلغ الشرطة.. قابلني (عزت) لاهثًا.. فعانقني وقال ولعابه يغمر وجهي:

- «مناورة رائعة.. كنت أعرف أن المسدس محشو لكنك خدعته!»

- «بالعكس يا (عزت).. المسدس فارغ بالفعل.. ما كنت لأجد الأعصاب التي تسمح لي بهذه المناورة لو لم أعرف أنه لا قتل هنالك.. وعلى كل حال أنت مدين لشرود ذهني بحياتك!»

كلام كثير قيل حتى حضر رجال الشرطة أخيرًا..

سألني الضابط الوسيم إياه وهو يصعد في الدرج مارا بنا:

- «تبدو لي مصممًا على الموت الليلة.. هل أنت واثق أنه نفس الشخص؟»

- «لا أدري.. لكنّها ستكون مصادفة غير عادية لو قرر اثنان قتلي في ليلة واحدة..»

وانتظرنا.. انتظرنا سماع صوت المعركة وهبوط رجال الشرطة بأسيرهم، مكبلًا يقاوم كثور برّي.. ويتوعدنا بالثبور...

لكننا لم نسمع شيئًا.. لا شيء على الإطلاق..

وبعد دقائق رأينا رأس الضابط يطل من أعلى ويتساءل:

- «هل تعلمان ما يوجد في الشقة؟ لا شيء على الإطلاق! لكننا وجدنا رسالة كتبها لكما.. كتبها بالإنجليزية.. يقول إنّه (نورمان ماكليود) الأب ذاته.. فما معنى هذا؟ يا لك من طفل! إنك ترتجف كمن رأي شبحًا!»

* * *

الخاتمة

حين عدت للقرية: كان بيتنا هو أول مكان قصدته..

قابلت (رئيفة) على الباب فعانقتها.. وقلت لها إنني جئت لأخذ (ماجي) قالت لي وهي تصحبني إلى الداخل:

- «أوكاى OK! ولكن لا بد أن تتناول الغداء معنا..»

أصابني الذهول.. ودخلت وراءها متوجسًا..

كانت (ماجي) - ابنة السير (ماكيلوب) - ترتدي منديلًا بـ (أوية)، وجلبابًا من جلابيب (رئيفة).. لا بأس بهذا.. لكنّ الأسوأ لم يأت بعد....

الأسوأ هو أنها كانت جالسة على مقعد صغير، وقد أراحت فخذها على عنق أوزة.. وراحت تدس الحبوب في فمها..

أشرق وجهها حين رأتني.. وهتفت في مرح:

- «مرحبًا بك.. صبرًا.. فقد انتهيت من (تزغيط) هذه الأوزة!»

(تزغيط)؟ قالتها بالعربية طبعًا وسط عبارتها الإنجليزية.. ثم إنها رفعت الأوزة من تحت جناحيها كأي فلاحة محترفة، وأطلقت سراحها.. وإليّ خفت ماسحة يديها في جلبابها.. فقلت لها:

- «أراك قد تأقلمت كثيرًا..»

- «جدًّا! لقد أحببت كل شيء هنا.. إنّه العلاج النفسي الذي لم أجده في كل عيادات شارع (هارلي)..»

ثم نظرت إلى (رئيفة) وسألتها بعربية رديئة جدًا:

- «هل... الخبز.. جيد؟»

نظرت لي (رئيفة) بدورها.. وابتسمت في فخر وقالت مفسرة:

- «لقد أتقنت الخبيز تمامًا.. وهي تمضي ساعاتها أمام الفرن، وتحاول تعلم كل شيء.. بنت بلد حقيقيّة..»

قلت لـ (ماجي) وأنا أكتم ضحكتي:

- «يبدو أنك قابلة للإفساد بسهولة..»

- «هن كذلك تعلمن منى الكثير..»

انتحيت بها جانبًا، ورحت أحكي لها ما حدث بالتفصيل...

اتسعت عيناها وراحت تصغي.. وشيئًا فشيئًا بدأت تفقد مرحها.. لقد كان ما أقول غريبًا إلى حد لا يصدّق..

قلت لها نظريتي بخصوص التوءمين، فقالت وهي تبتسم بمرارة:

- «هذا غير وارد.. فالتوءمان ماتا بعد أعوام في أحد الملاجئ.. يبدو أنهما كانا مصابين بمرض خلقي ما..»

- «كنت تعرفين هذا؟»
- «بالطبع.. إنني لم أنس ضحاياي قط!»
عدت أواصل سرد قصتي إلى نهايتها..
قالت لي في شيء من الراحة بعد أن انتهيت:
- «هكذا.. هذا هو ما توقعته..»
- «توقعت أن الأب يطاردك؟»
- «لِمَ لا؟ إن نظرية التوءمين المنتقمين لا بأس بها.. لكنّها مفتعلة.. لا أحد يستطيع العثور على سبعة أشخاص بعد كل هذا الزمن، ويفتك بهم بهذا النظام وهذه الدقة.. هذا يحدث في الروايات البوليسية.. لكنه عسير جدًا في الواقع.. كنت أشعر أن الأمر خاضع لقوي ميتافزيقية معينة.. وكنت على حق..»
- «(ماجي).. هل تعتقدين حقًّا أن شبح الأب عاد بعد كل هذه الأعوام ليقتل من تحبين؟ وينتقم منك لتدمير أسرته بأكملها؟!»
مطت شفتها السفلى في تفكير.. ثم غمغمت:
- «بالتأكيد..»
- «ولماذا انتظر كل هذا؟»
- «حتى أكون أنا في ذات السن التي مات فيها.. وعلى كل حال لقد كان انتقامًا بارعًا.. كاد يوصلني إلى الجنون ولا مراء..»
ثم باشمئزاز أضافت:
- «إنّه عنيد.. يأبى الاعتراف بالحق..»
قررت أن أسألها السؤال الذي كنت أهاب التلفظ به:
- «هل سيواصل مهمته؟»
- «لا أعتقد.. وآمل أن أكون محقة.. معظم الأشباح تكف عن الإزعاج بمجرد أن يعرف الآخرون هويتها وسر إزعاجها.. وهو قد أنهى انتقامه... في الغالب اكتفي بما فعله معك، لأنك رجل طيب مثابر.. ثم هو - حتمًا - يعرف أنك أنقذت ابنيه من الحطام المحترق..»
- «(ألفرد) فعلها.. لكنّ هذا لم يشفع له..»
- «ثمّة نظرية تقول إن (ألفرد) فقد وعيه في حمام السباحة وكان هذا سبب غرقه.. من يدري؟ ربما لم يغرقه الشبح واكتفي بالظهور أمامه، وكان هذا كافيًا ليفقد وعيه ويغرق..»
- «وددت لو أتكلم بذات الثقة..»
نظرت لي بعينيها الزرقاوين الصافيتين.. وهمست:
- «إن حسي الداخلي لا يخطئ.. لقد عاودتني الطمأنينة من جديد.. ومعنى هذا أن الكابوس قد انتهي.. (نورمان ماكليود) لن يعود..»
ثم نهضت وجذبت ذراعي هاتفة في مرح:
- «هلمّ لنر ما قمت به في الدار؟»
وقالت كلمة (الدار) بالعربية كما ينطقها المصريون..

* * *

كنا واقفين في المطار بانتظار رحلتها..
لم أصدق لحظة واحدة أنها عاشت معي في عالمي كل هذه الأيام.. ولم أصدق ـ بالأحرى ـ أن كل هذا سينتهي من جديد..
كنت أغالب دموعي.. لكنّ زجاج عويناتي اكتسى بضباب كضباب (لندن) في يوم خريفي كئيب..
- «(رفعت).. لا تكن طفلًا..»
قلت لها وأنا أتمخط:
- «ألن تغيري قرارك؟»
- «نعم.. قلت لك أن أجمل ما في علاقتنا هو أننا متباعدان، ومن عالمين مختلفين.. ومهما امتد الزمن يعرف كل منا أن الآخر يحبه حقًا.. يحترمه حقًّا.. يقبل الموت من أجله حقًّا.. إن زواجنا يعني المخاطرة بهذه الصلة الروحية الرائعة، التي قد تتحول إلى لعنات متبادلة..»
- «ولكن...»
- «صدقني..» ـ قالت وهي تمسك بيدي مشجعة ـ «.. إن ما يجعل القمر جميلًا هو كونه بعيدًا.. فلو دنونا منه لوجدناه مليئًا بالحفر والتجاعيد كوجه مجدور.. أنت لا تعرف عيوبي.. لكني لن أدعك تقترب إلى حد رؤيتها..»
- «تعرفين عيوبي كلها..»
- «أعرفها.. لكنّها حتمًا أكثر مما أظن..»
ثم وضعت منظارها الأسود لتعود إلى ذات الشخصية الغامضة المغلقة:
- «ومهما طال الزمن فسيعرف كل منا أن الآخر يحمل له ذات العاطفة وذات الذكريات.. أنا لن أسمح لك بأن تملني أبدًا..»
وشكرتني على ما فعلته من أجلها في هذه الزيارة..
وسمعنا مكبر الصوت ينادي ركاب الرحلة فتهيأت للرحيل.. ولم تنس أن تسألني وهي تلف حمالة حقيبتها على كتفها:
- «للأبد؟»
- «ماذا؟»
- «ستكون ملكي للأبد؟»
- «وحتّى تحترق النجوم كلها.. وحتّى.....»
لكني لم أكمل العبارة الأخيرة كالعادة..
كنت أبكي كطفل تركته أمّه وحيدًا في الدار..

* * *

انتهت هذه القصة..
وحسبت أنني سأمر بفترة هدوء لا بأس بها..

لكني كنت كالعادة واهمًا.. وكان هناك (رفعت إسماعيل) آخر يتحين الفرصة كي يعلن عن وجوده.....

ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
١ -إنها قادمة!
٢ -إنها هنا!
٣ -حكاية غريبة بعض الشيء..
٤ -إنّه هنا!
٥ -فلينته اليوم سريعًا..
٦ ـ التوتر..
٧ ـ الضحيّة السابعة..
٨ -السقوط..السباك وأشياء أخرى!
٩ -عندما أخطأنا..
١٠ -كشف الأوراق...
الخاتمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورتها..!

أسطورتها أنها تعود دومًا فى وقت لا تتوقعه ، لتواجهك بكارثة ليست فى الحسبان ، وتطلب حلا ليس فى إمكانك، لتدرك بعدها أنك فى مأزق مخيف، وأنها جاءت معها بقاتل خارق للعادة .. أسطورتها أنها تعرف أنك لن تستطيع التملص ، ولا انتحال الأعذار !



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
أسطورة رفعت

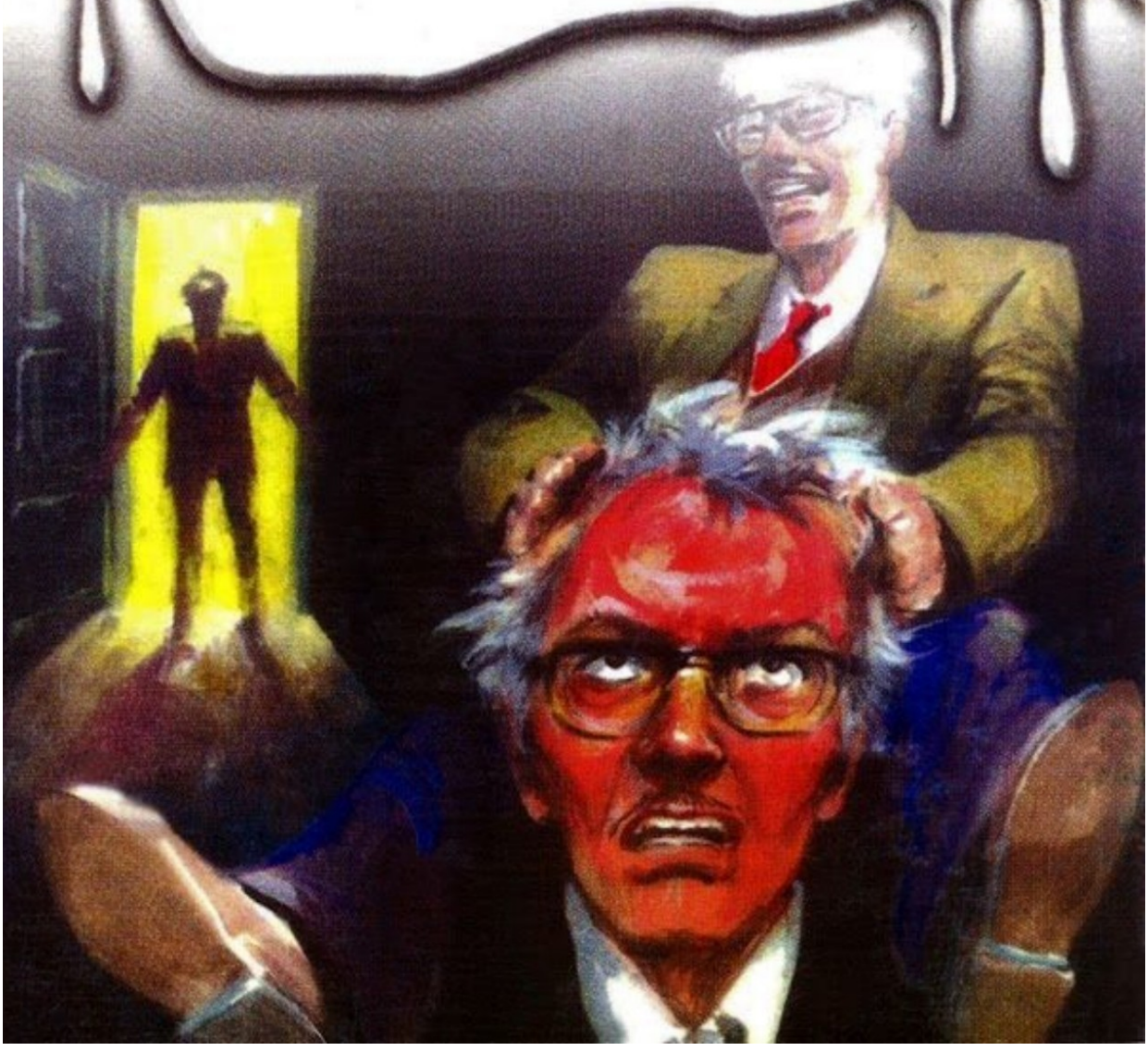
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

32

ماوراء الطبيعة

أسطورة رفعت !



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

قال (كراكوس) وهو يشعل عود الثقاب.. ويدنيه من الدمية:

- «إن هناك أشياء مرعبة في هذا العالم يا زميلي.. لكنهم يقولون - وهم على حق - إن ما لا تعرفه لن يؤذيك..»

قلت له وأنا أرقب اللهب يتوهج في القماش:

- «هذا خطأ.. إن ما أعرفه هو ما لن يؤذيني..»

ورحت أرمق ضوء الشموع يتوهج في محاجر الجماجم السبع.. وشعرت بقلق غريب.. إن هذه الدمية تشبهني إلى حد غير عادي..

فلا توجد دمى كثيرة صلعاء ناحلة ترتدي العوينات، ويبدو عليها السقم...

قال (كراكوس) وأنيابة تلتمع بين شفتيه المتأكلتين:

- «يقولون إنك رأيت كثيرًا جدًا في سني عمرك السبعين..»

- «أكثر من أسماك المحيط..»

ورحت أرمق الدمية التي تتوهج باللهب رويدًا:

ربما ـ برغم كل شيء ـ لم تكن هذه الدمية تمثلني.. ولو كانت تمثلني ربما هي ليست (فتيش) حقيقيًا.. آمل هذا وأتمناه...

قال (كراكوس) - كأنما لا يلاحظ توتري - وهو يطفئ العود:

- «إن أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه هو نفسه!»

قلت مؤمنًا على كلامه:

- «أنا قابلت نفسي في عام ١٩٧٠.. وكانت لهذا قصة غريبة.. اسمح لي أن أحكيها لك..»

وفي سرى تمنيت أن يكفي الوقت الباقي لي لذلك....

سأحكي القصة لـ (كراكوس).. وستسمعونها معه..

أعتقد أنكم ستحبونها.. أو - على الأقل - لن تثير مالكم...

هذا لو استطعت أن أكملها حقًّا!

* * *

١ - لقاء مع نفسي!!

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا لن تكون مبالغة مني لو ابتعت زجاجتي مياه غازية، وقطعتين من (الجاتوه) استعدادًا للقاء كهذا!

* * *

أعتقد أن ما سيحدث ليس غريبًا على أكثركم..

إن من قرءوا منكم (بعد منتصف الليل) - وأرجو أن يكونوا كثيرين - يذكرون بلا شك تلك المكالمة الهاتفية التي تلقيتها على الهواء في الإذاعة..

إنها مكالمة طريفة بعض الشيء.. فصاحبها يتكلم بصوتي.. وله اسمي نفسه..

ويستعرض أخص ذكرياتي التي يعرفها جميعًا..

لاحظوا أنه لا أحد يعرف ما تعرفون أنتم.. فالأحداث جرت عام ١٩٧٠، وأنا لم أمسك القلم لأكتب ذكرياتي إلا عام ١٩٩٢.

لهذا بدا لي الأمر غريبًا.. لا يمكن تفسيره بمزحة أو معاكسة هاتفية.. وكان البتّ في الأمر مستحيلًا وقتها..

لهذا اقترح المذيع (شريف السعدني) - وهو شاب لامع إلى درجة لا تطاق - أن يتم لقاء بيننا.. وقررت أن يتم اللقاء في شقتي..

إن الذي اتصل بي يزعم أنه هو (رفعت إسماعيل) الحقيقي.. وهو أمر أرحب به فقط لو قال لي من أكون أنا؟ لا أحب أن ينتزع مني أحد هويتي ليتركني بلا هوية.. ثم إنّه لا يوجد حافز قوي لدى أي إنسان كي يتقمص شخصيتي.. فأنا لا أملك ثروة ولا نفوذًا.. فقط أملك جعبة هائلة من المتاعب والعيوب والذكريات الرهيبة..

فمن يريد مشاركتي في كيس الأفاعي هذا؟

هذا هو الموقف الذي بدأت به القصة..

ولكن كيف عساها تنتهي؟

* * *

في شقتي العامرة..

الساعة تقترب من السابعة مساء..

هأنذا أعد الاستعدادات الأخيرة لاستقبال ضيفي..

لو كان هو أنا حقًّا فمن السهل أن أرحب به كما ينبغي.. فأنا أعرف ما أحب.. أدير أسطوانة لـ (عبد الوهاب) في قصيدة قديمة، وأضع علبة تبغ على المنضدة أمامه، وأعد أكواب الشاي ـ هو لا يحبّ الأقداح مثلي - والقهوة ولا بأس بزجاجة (كولا).. إنها رباعية اللون الأسود التي يتحدث عنها أطباء القلب: الشاي - القهوة ـ الكولا - الدخان.. والتي يندر ألا يحبّها مرضى الشرايين التاجية، وتقودهم إلى القبر أو العناية المركزة أيهما أسرع..

كل شيء جاهز.. أكواب الشاي والأقداح مغسولة ومقلوبة على (رخامة) المطبخ.. والبراد ملىء ومستعد للعمل.. والمياه الغازية في الثلاجة..

ولا بأس بعود من البخور يزيل رائحة شقتي الخانقة...

لماذا احتفي به إلى هذا الحد؟ سؤال سخيف..

لأنه أنا.. هذا مفهوم وواضح تمامًا..

كنت أدرك من البداية أن الأمر سيكون خارقًا للعادة.. سيكون شيئًا من عالم ما وراء الطبيعة.. أدركت هذا وتمنيته...

ودعوت الله ألا يسفر انتظاري عن أمر مبتذل، كأن تكون مزحة سخيفة أو حيلة نصاب.. ولو أنّ هذا مستبعد لأن كل مزحة لها حدود لا تستطيع تجاوزها...

وهذا هو ما جعلني أؤمن بأن ما ينتظرني هو حدث جلل.. حدث يستحق أن أحتفل به بالاحترام والوقار الضروريين..

* * *

وهكذا رحت أطالع بعض المجلات، وأنتظر أن يدق جرس بابي...

ذهني كان فرسًا جموحًا يأبى أن تضع فوقه سرج التركيز.. فكلما حاولت أن أروضه ليفهم ما يقرأ، كان يفر مني.. ويركل.. ويصهل.. ويرمح في سهول الشرود الإنساني حيث تتناثر أشجار التساؤلات:

كيف؟ من؟ لماذا؟

هل يمكن أن ألقى نفسي حقًّا؟

إن هناك تقسيمات متعددة لا أستطيع التفكير في خير منها.. وكعادتي في ترتيب أفكاري أمسكت بالورقة والقلم وبدأت التدوين حتى لا تفلت الأفكار مني:

١ - فرضية الجنون: هي أفضل الفرضيات ها هنا.. إنني قرأت الكثير من روايات (دستويفسكي) الرهيبة التي تغوص حتى العنق في مستنقع النفس البشريّة.. يوجد موقف خالد متكرر فيها هو أن يلقى البطل نفسه! يجلس معها ويتحاور معها.. ويكون هذا هو بداية الجنون أو نهايته..

إذن الاحتمال الأول هو أنني مجنون...

كان هذا سيحل المشكلة بأسرها، لكنّ عيب هذه الفرضية هو أن (شريف) - وكل من سمع حلقة البرنامج إياها - استمع معي إلى هذا الـ (رفعت) وهو يحاورني ويتحداني ويستعرض ذكرياتي..

ربما تصورت أنا ذلك؟ يسهل سؤال (شريف) وسماع تسجيل الحلقة على كل حال.. هذه الفرضية قابلة للتمحيص إذن...

٢ ـ الفرضية الثانية هي فرضية النسخة الجينية: أي أنّ هناك نسخة جينية لي أنا بالذات.. تمشي على الأرض وتتكلم وتمزح..

كان هذا حلمًا دائمًا لدى كتاب الخيال العلمي.. لكنه لم يتحقق ـ أو يوشك على ذلك ـ إلا في التسعينات.. لهذا بدا لي هذا الفرض مستبعدًا تمامًا وقتها..

برغم أنني قرأت كتابًا كاملًا عن (الإيوجينيا) وعرفت أنّ هذا ممكن في المستقبل..

٣ ـ فرضية التوءم: فرضية سخيفة.. فأنا لا أعرف الى توءمًا.. وأمي ـ طيب الله ثراها ـ لم تقل لي إن هناك واحدًا..

وحتى لو فرضنا تجاوزًا أن لي توءمًا؛ فما كان ليعرف كل شيء عن حياتي ما دام قد ظل بعيدًا عنى كل هذه السنين..

٤ ـ فرضية التوءم السيامي، توءم كان ملتصقا بجسدي.. ونموت أنا بينما تضاءل هو.. وانفصل عني.. لكنه مصمم على الانتقام...

إنها فكرة مرعبة قابلت مثلها بعد ذلك بأعوام.. فذكروني كي أحكيها لكم[1] كما أنّ هناك فيلمًا يحمل اسم (قضية السلة) له ذات الحبكة..

لكني أعتقد أنني كنت أعرف لو انفصل جزء من لحمي في أية فترة من حياتي.. ألا ترون هذا معي؟

٥ ـ فرضية المزحة: وهي مزحة عسيرة حقًّا تم ترتيبها بين معارفي جميعًا.. حيث جلسوا.. وكتبوا تاريخ حياتي كما رآه كل منهم.. ثم انتخبوا خبيرًا في تقليد الأصوات ليتصل بي مداعبًا.. ويسبب حيرتي.. هذا عسير حقًّا.. فالناس لا يمزحون بهذا الجهد المعقد...

٦ ـ فرضية (شيء ما): وهي أكثر الفرضيات قبولًا لديَّ.. بهذا يمكن تفسير أي لغز من ألغاز الكون..

شيء ما تسبب في إرباكي.. شيء ما يحمل كل صفاتي ويعرف كل أسراري ويؤكد أنه أنا.. شيء ما سيزورني في شقتي بعد قليل...

ما هو هذا الـ (شيء ما)؟

لو عرفت لأعطيته اسمًا ذا دلالة...

سأحاول هنا أن أتجنب نظرية (القرين) لما فيها من أشواك.. وأتجنب نظرية أن قارئ أفكار ـ مثل د.(لوسيفر) يتسلى بإغاظتي... لأن هذا يمكن نفيه بسهولة بمجرد لقائي به..

وهكذا ـ وأنا أزيح الورقة جانبًا ـ رأيت أن الحل الأمثل هو سياسة: انتظر لترى.. ورحت أتأمل عقارب الساعة في توتر..

* * *

إنها العاشرة مساء..

للأسف.. ليس سهلًا أن يلقى المرء نفسه.. سأحاول ألا أموت حسرة على قطعتي (الجاتوه) اللتين اشتريتهما اليوم، وسأضطر إلى العشاء بهما..

هنا دق جرس الهاتف..

هرعت لأرفع السماعة متوقّعًا كدأبي مصيبة ما.. هنا سمعت صوتي الوقور المميز يتكلم:

- «آلو.. د. (رفعت)؟»

قلت في غضب:

- «هأنذا أيها النصاب!»

طقطق بلسانه محذرًا.. وقال بذات الوقار:

- «أنت تخرج عن اتزانك!»

- «بعد كل هذا الانتظار تتهمني بأنني خرجت عن اتزاني؟ إنني غاضب..»

- «لكل منا ظروفه..»

وأردف في تؤدة:

- «إن هناك مشاكل معينة لدي هاهنا في العمل.. لا أدري متى تنتهي.. اقترح أن نجعل الميعاد مفتوحًا..»

- «آها! إذن هو التراجع!»

- «يُمكنك أن تقنع نفسك بذلك إلى أن نلتقي..»

وقبل أن أجد ردًا لاذعًا كان قد وضع السماعة..

إنه نفس أسلوبي في المشادات: لتكن لك الكلمة الأخيرة دائمًا قبل أن يجد خصمك الرد المناسب.. إن هذا سيقتله غيظًا...

وقد قتلني غيظًا بالفعل..

* * *



هرعت لأرفع السماعة متوقعًا كدأبى مصيبة
ما .. هنا سمعت صوتى الوقور المميز يتكلم ..

٢ - أشياء مريبة ها هنا..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بخيبة أمل ساحقة..

* * *

ومرت الليلة في سلام...

لم تكن هناك أحداث سوى ذلك الكابوس المقيت الذي ألقى فيه مئات النسخ مني، وكلهم غاضبون لسبب لا أدريه، لحظتها خطر لي أن اختفائي لن يشكل كارثة ما دام هناك المئات مني، ومرارًا صرخت: أنا الوحيد! أنا الأصل! لكنّ ما معنى هذا ما دام الجميع يقولون نفس الشيء عن أنفسهم؟

في الصباح استعددت للذهاب إلى المستشفى، وقد بدت لي ليلة أمس شيئًا باهتًا سحيقًا كنقش رسمه الأشوريون على جدار...

حييت البواب، وأدرت محرك السيارة الواقفة أمام البناية.. كروو كروو!

ثمّة مشكلة ما.. إن السيارة من طراز عتيق حقًّا لكنّها لم تنته بعد..

نظرة إلى مؤشر الوقود جعلتني أدرك أن الخزان خاو أو يكاد..

كيف؟ لقد كان به ما يكفي أمس.. أنا متأكد من ذلك.. هناك من يسرق البنزين من سيارتي أو يسرق السيارة ذاتها ليتنزه بها..

ناديت البواب.. وهو بالمناسبة شديد الكبرياء حاد جدًا يعاملنا - نحن سكان العمارة - باحتقار لا مبرر له، ولسان حاله يقول: لست خادمًا لأبيكم إن الزمن الأغبر هو ما جعلكم تصدرون الأوامر لي..

جاءني متململًا مشمئزًا، ويداه في جيبي جلبابه..

فسألته في أدب معلنًا عن خجلي من وقاحتي:

- «أ.. (عبد الله).. هل رأيت أحدًا يتحرك بهذه السيارة؟»

أطلق زفرة ضيق.. وقال:

- «سبحان الله! لا أحد سواك..»

- «ولم ترَ أحدًا يدنو منها؟»

- «سبحان الله! لا أحد.. منذ ركنتها ها هنا مساء أمس..»

- «لحظة.. تعني ظهر أمس..»

- «بل مساء أمس.. التاسعة مساء.. سبحان الله يا بك! لقد صار النسيان دأبك هذه الأيام.. وبعد هذا غادرت العمارة راجلًا.. ويبدو أنك قضيت ليلتك في الخارج..»

- «أنا بت في الخارج؟»

عاد ينفخ في ازدراء.. وقال وهو يدير جسده في اتجاه الباب:
- «سبحان الله! أنت قلت هذا..»
- «وأين بت إذن؟»
- «هذا ليس عملي... الله أعلم بما يفعله كل من هؤلاء السكان ليلًا!»
وجدت أنني لن أظفر منه سوى بمزيد من التذمر ونفخ الهواء، فصرفته.. وأنا أمرر كلماته مرارًا على جهاز التحليل الموضوع في مخي..
وقدت السيارة إلى أقرب محطة بنزين، وأنا أتساءل عن كنه هذا الذي قال... إنّه ذكي - برغم ضيق صدره - ويمكن الثقة بأن الأمر لم يختلط عليه أو يتشابه.. أمثاله يدسون أنوفهم في كل شيء.. وفضوليون جدًّا.. ولو سطا لص على العمارة فسيكون هذا البواب شاهدًا دقيقًا جدًا لدى الشرطة وسيحدد ملامح اللص بدقة فوتوغرافية مذهلة..
لكني بدأت أنسى الأمر مع الساعات الأولى من اليوم..

* * *

وفي المستشفى بدأت جولة المرور مع ذلك الطبيب المقيم الذي نسيت اسمه، ولكن له أذنين حمراوين كالدم، وهو عصبي كقاتل جالس على الكرسي الكهربائي في (متشيجان)..
سألته عن الأحوال فقال، وهو ينظر لممرضة تمزح مع صديقتها:
- «كل شيء على ما يرام.. إن حالة هبوط القلب قد تحسنت كثيرًا.. لقد فعلت كما طلبت بالضبط..»
- «عظيم!»
لا ليس عظيمًا على الإطلاق.. لأنني لم أطلب منه أي شيء بخصوص أية حالة أساسًا.. دعك من كونها حالة هبوط قلب.. لهذا سألته والفأر (يلعب في عبي) كما يقولون:
- «ماذا أعطيتها؟»
- «كما طلبت تمامًا!»
قالها في فخر وهو يتقدمني إلى العنبر...
لم يفسر الأحمق شيئًا.. ولم أجرؤ على سؤاله..
ودخلنا لنرى أمامنا ألعن حالة فقر دم رأيتها في حياتي.. امرأة في الثلاثين من عمرها، صفراء كالموز، تجاهد كي تلتقط أنفاسها.. والتشخيص واضح دون جهد كبير.. هبوط في القلب ناتج عن فقر دم رهيب...
دنوت من المرأة وسألتها في شك:
- «هل أنت متأكدة من أنك تحسنت؟!»
لو كانت أسوأ من هذا أمس، فمن المؤكد أنها كانت ميتة.. فلا يوجد أسوأ مما أراه أمامي.. لكنّها قالت وهي تلهث:
- «حمدًا لله! أشكرك على رعايتك.. لـ.. لي...»
قال الفتى في حماس وهو يربّت على ذراعها:

- «لو لم يمرّ د. (رفعت) ها هنا مصادفة في العاشرة مساء؛ لكان من العسير أن ننقذك..»
حقًّا.. يا لي من عبقري شهم! المشكلة الوحيدة هي أنني لم أغادر داري طيلة أمس.. أتراني جننت؟ أنا واثق من أنني كنت جالسًا في شقتي انتظر ذلك الـ (رفعت إسماعيل) الذي لم يأت..
فهل أكون فعلتها دون علمي؟
قالت المرأة كأنما تزيد حيرتي:
- «حفظه الله.. لقد ظل جواري ساعتين كاملتين..»
قال الفتى بدوره:
- «كان لديه موعد في التاسعة لكنه - مشكورًا - قرر إلغاء الموعد هاتفيًا ليظل بجوارك!»
وانهمرت عبارات المديح لي.. وأنا أشعر بأن رأسي يتحول إلى مستشفى مجانين كلهم يصرخون ويصخبون في آن واحد..
هاتفيًا؟ (هو) اتصل بي أمس وقال إنّه لن يستطيع الحضور بسبب ظروف العمل.. أي عمل؟ كان ها هنا ينقذ حياة هذه المريضة.. وهو جهد استحق عليه الثناء.. واستحق غيظي..
من هو هذا المدعي؟ ماذا يريد بالضبط؟ وما الذي يحاول قوله؟ وهل من الممكن الخلط بيني وبينه إلى هذا الحد؟
مستحيل..
يوجد احتمال واحد هو أنني جننت.. وأنني أفعل أشياء لا أدري ما هي.. هذا يحدث كثيرًا جدًا ولن يكون غريبًا أن يحدث لي.. لست ممن لا يتصورون أن يجنوا.. كل إنسان قابل للجنون.. ولا أحد معصوم..
وكذا يمكن - دون جهد كبير - أن أتصور نفسي ها هنا في المستشفي، أنقذ هذه المرأة البائسة من توقف قلبها، بينما عقلي الباطن هناك في داري يتخيل أنه ينتظر شبيهًا له..
تبًّا.. إن حالتي سيئة حقًّا!

* * *

وقد ازداد الأمر سوءًا حين دخلت قاعة الدرس...
كان هناك عدد محدود - حوالي ثلاثين - من الطلبة، يجلسون في تعاسة بانتظار تعذيبي لهم بساعتين من الملل.. وفي مؤخرة القاعة كان هناك طالبان يثرثران وقد غطى كل منهما فاه بكفه حتى لا ألاحظه.. وهو مشهد وجدت ألا داعي لأن أعلق عليه.. كما كانت هناك طالبتان تتبادلان كتابة أشياء في دفتر المحاضرات، ثم تناولها كل منهما لصاحبتها.. إنها نوع من المحادثة المكتوبة لا يمكن ألا ألاحظها..
كلها أساليب عتيقة جدًا طالما لجأنا إليها في صبانا.. وأكره أن أعلن احتجاجي عليها لمجرد أنني من يقف وراء المدفع هذه المرّة..
وعلى لوح الكتابة العتيق الذي تشقق خشبة، كتبت بقطعة الطبشور وبخط عريض (الأورام اللمفاوية).. وهنا سمعت همهمة....
نظرت لهم في تساؤل.. فبادلوني النظر في حيرة..

- «هل ثمّة مشكلة ما؟»
لم يقل أحدهم شيئًا.. فبدأت أتكلم بعدما سكنت الهمهمة:
- «اليوم نتحدث عن نوع من الأورام التي تصيب الخلايا اللمفاوية.. ونحن مدينون بأكثر ما نعرفه عن هذا الموضوع للعالم (هودجكين) الذي.....»
هنا تعالت الهمهمة من جديد.. لا أفهم.. هل فيما أقول شيء بذيء لاسمح الله؟! أم أن.....؟
هنا نهض أحد الطلاب مستجمعًا شجاعته الأدبية ليقول..
- «سيدي.. لقد شرحت لنا الموضوع ذاته أمس!»
- «أنا؟ أمس؟»
- «نعم.. حتى موضوع أننا مدينون لـ (هودجكين) و.... كل شيء»
ورأيتهم يتبادلون النظرات الباسمة..
فيما بعد قال (علاء) - أحدهم - إن الأمر بدا لهم كأنه شريط سينمائي يُعاد تشغيله من جديد.. ذات الوقفات والسكنات.. والخط ذاته.. وكان رأيهم هو أنني أحفظ الموضوع كما يحفظه طالب في حصة المحفوظات.. وبالطبع لم يتخيلوا أن الموضوع لم يكن حاضرًا في ذهني.. وأنني كنت أرتبه وأنا أتكلم.. أي أنني لم أكن استقررت بعد على ما سأقول..
لم آت يرد فعل معين، بل مسحت لوح الكتابة بقطعة من القطن.. وكتبت عنوانًا آخر بخط عريض.. وبدأت أتكلم...
هذه المرّة لم يصدر أحدهم همهمة..

* * *

في داري - بعد كل هذه الأحداث - قررت أن أغفو قليلًا.. فلربما إذا صحوت من النوم وجدت أن كل هذه هلاوس من عقل مرهق.
وتهيأت للنوم حين دق جرس الهاتف...
هرعت حافي القدمين لأرد.. يجب منع المصيبة القادمة التي يدق الهاتف منذرًا بها.. فلا بد من واحدة كما تعلمون..
سمعت صوتًا أنثويًا ذكريًا يقول:
- «هاللوا! د. (رفعت)؟»
- «أعتقد أنه أنا وإلا فبيتي مسكون..»
- «أنا (كاميليا)!»
وهنا استعدت الاسم الذي نسيته لفترة طويلة.. ربما منذ الكتيب الحادي والعشرين..
إن القارئ يذكر - دون شك - د. (كاميليا) أستاذ الفلسفة، التي حاول د. (محمد شاهين) أن يجعلني أتزوجها، ونمت بيننا صداقة لا بأس بها.. إلى أن اتضح لي أنها ليست (كاميليا) لكنه مخلوق طيفي يلعب دورها ببراعة..
لقد سادت المودة بيني وبين (كاميليا) بعد هذا اللقاء.. وانتهى سوء التفاهم بيننا.. وكانت بيننا مكالمات هاتفية طويلة تحدثنا فيها عن كل شيء يمكن أن يتحدث فيه رجلان...

لماذا تبتسم بخبث؟ بالطبع لم نتحدث فيما تفكر فيه.. فهي أنضج وأنا أحكم - أو أغبي - من أن أقع في الحب.. ولو فعلنا لبدا الأمر سخيفًا....

إن (كاميليا) هي صديق راجح العقل.. وتملك كل مزايا الرجولة النفسية ولن أقول الشكلية حتى لا يتهموني بالوقاحة...

قلت لها وأنا اتثاءب:

- «يسرني أن أسمع صوتك يا كاااآآآآه.. ميليا..»

ثم أضفت في حذر:

- «منذ متى كففت عن النوم عصرًا؟»

قالت في رزانة جعلتني أوقن أن شيئًا ما في الطريق:

- «لم أستطع النوم.. إن الأفكار تصطرع في ذهني.. والسبب أنت!»

- «أنا؟»

لو كانت تتصل بي عصرًا فتحرمني من نوم القيلولة، لتصارحني بأنها تميل لي، فمن المؤكد أنها فقدت قطاعًا لا بأس به من عقلها.. ولكن دعنا نر....

قالت بنفس الصوت الرزين:

- «طبعًا.. لقد بلبل عرضك أفكاري!»

- «أي عرض؟»

- «لا تتغاب يا (رفعت).. طبعًا عرضك الخاص بالزواج مني!»

* * *

٣ - وأشياء مريبة هناك..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. ولهذا تجدني ميالًا إلى نظرية الجنون لأسباب يطول شرحها...

* * *

هرب الدم من يافوخي.. ويمكن القول - عمليًا - إنني بدأت أمر بأعراض الصدمة كما تصفها الكتب الطبية: الدوار.. ضربات القلب السريعة.. العرق البارد.. ثم ذلك الشعور المقيت بأن الحياة تنسحب منى...

لكني وجدت صوتًا واهنًا استطعت أن أجبره على سؤالها:

- «أنا طلبت... الزواج؟»

تنهدت كأنما تجد الأمر سيئًا.. وقالت:

- «أمس.. في الواحدة صباحًا.. هل نسيت؟»

هنا وجدت من الحكمة ألا أشعرها بشيء غير عادي.. فسألتها بعسر:

- «و... وما رايك؟»

- «ما زلت حائرة..»

وأردفت بعد برهة:

- «كنت بالنسبة لي دومًا مجرد صديق ذكي.. ومن العسير أن أفكر فيك من وجهة نظر أخرى.. أنت تفهم قصدي.. أليس كذلك؟»

- «بلى.. بلى!»

- «لكني أحاول!»

هنا ارتجف قلبي هلعًا..

أتراها ترفض وتحاول ألا تجرح - كما تتوهم - مشاعري؟ أم هي فعلًا تحاول؟ أم هي قبلت وتنتظر مني مزيدًا من التوسل؟

قلت لها وأنا أرى بقعة سوداء تتضخم أمام عيني:

- «حاولي يا (كاميليا).. حاولي!»

- «هذا عسير كما تعلم!»

- «أعلم.. ولكن حاولي..»

فكرت قليلًا.. ثم قالت كأنما تكلّم نفسها:

- «لم أكن قط كالفتيات الأخريات.. كنت دومًا جادة صارمة.. ولم أتزوج لأني لا أريد أن أفقد عقلي وسط أواني المطبخ ورائحة السمن.. لكني - لو قررت أن أتخذ فارس أحلام لي - لكان بالتأكيد يختلف عنك..»

هذا هو ما خطر لي كثيرًا..
إن فارس الأحلام الأصلع النحيل الذي يسعل طيلة الوقت، ليبدو غريبًا حقًّا حتى بالنسبة لسكان (المشتري) إن كان له سكان..
أنا كذلك تختلف فتاة أحلامي كثيرًا عن (كاميليا).. لكني لن أصارحها بذلك.. سأحاول تفادي هذا الموقف المحرج بكياسة وحكمة..
قلت لها بصوت العاشق الجريح:
- «أرجوك أن تحاولي يا (كاميليا).. سأعطيك فرصة..»
وتثاءبت واعدًا نفسي بنومة مريحة تزيل إرهاقي الذهني.. فقط فلتنته هذه المكالمة بأسرع ما يمكن.. وأردفت وبرودة البلاط تقتل قدمي العاريتين:
- «لا تقولي ردك الآن.. وداعًا..»
- «وداعًا..»
قالتها في عدم رضا.. كانت تريد توسلًا حارًا ورجاءً.. وربما تهديدًا لها بأن أقتلها وانتحر إذا رفضت.. هذا هو ما يرضى كبرياء أنوثتها.. أمّا أن أتكلم بهذا الأسلوب العقلاني البارد فأمر أقرب للإهانة....
وضعت السماعة.. وهرعت لأندس تحت أغطية فراشي...
ألن أحاول فهم ما سمعت؟ فيما بعد.. فيما بعد.. حينما أصحو من النوم مرتب الذهن، سأفكر مليًا - وأنا أرشف قدحًا من القهوة - في كل هذا..

* * *

في المساء دق جرس الباب حاملًا لي مصيبة جديدة..
فتحته لأجد (عزت) - بوجهه الكئيب المكفهر الترابي - يقف على الباب، وقد رسم على سحنته ابتسامة رقيقة (أعوذ بالله)..
كان يحمل في يده شيئًا ما ملفوفًا في قطعة من الورق، وتم ربطه بحبل..
وقال لي في مودة وهو يتراجع للوراء خطوة:
- «مرحبًا (رفعت).. عسى ألا أكون قد أزعجتك..»
- «أنا لا أجد أي إزعاج في أن يقرع أحدهم جرس بابي عند منتصف الليل.. هذا من حقه كما تعرف..»
- «وعلى العموم لن أطيل عليك..»
ووجدته يضع لفافته المرعبة في يدي.. ويقول وهو يبتعد:
- «هذا هو ما طلبته مني.. إنّه أقل ما يجب تجاهك..»
ثم تقلص وجهه في تواضع أبله.. وأردف:
- «الحق أنني لم أتوقع أنك تفهم في الفنون إلى هذا الحد...»
هنا بدا الأمر واضحًا لي..

لا داعي لمزيد من الأسئلة (أنا) زرته أمس مساء وقضيت معه ساعة أو ساعتين.. ولا بد أنني أبديت انبهارًا شديدًا بأحد تماثيله المرعبة، وطلبت منه أن يهديه لي.. كل هذا واضح ولا داعي للاستفسار عنه..

عدت لشقتي ووضعت اللفافة على مائدة الطعام، وقطعت الحبل بسكين الفاكهة.. وكان التمثال ينتظرني.. تمثال يمثل سحلية فشلت في التظاهر بأنها بطيخة.. أو جزرة مصابة بسرطان البنكرياس.. يبدو أن الأخ (عزت) بدأ يتجه إلى النحت الحديث.. وقد جعلني هذا أدرك للمرة الأولى مدى جمال وعبقرية تماثيله القديمة..

إن هناك من يسخر مني.. من المستحيل أن يروق هذا التمثال لإنسان عاقل..

* * *

وهكذا ـ لكم أن تراهنوا ـ جلست أتأمل التمثال وأفكّر في معنى كل هذا..
يمكنني رسم خط سير لا بأس به لهذا الـ (رفعت إسماعيل) الموجود في كل مكان.. إنّه نشيط جدًا.. نشيط إلى حد مرعب...
لقد قاد سيارتي.. ثم قضى بعض الوقت (عزت)، واختار هذا التمثال.. ثم ذهب إلى المستشفى وأنقذ حياة مريضة، وحاضر الطلبة عن سرطان اللمف.. وأيًا ما كانت شخصيّة هذا النصاب فهو يفهم جيدًا في أمراض الدم..
ليس هذا فحسب..
بل إنّه اتصل بالدكتورة (كاميليا) وطلب يدها نيابة عني!
لقد قضى الوغد يومًا حافلًا مليئًا بالإنجازات، بينما أنا غارق حتى أذني في حسابات معقدة، وحيرة غبية..
والغريب انه يمارس كل هذا بعيدًا عن بيتي.. يجري الاتصالات الهاتفية، ويحاضر ويعالج ويعجب بالفن الحديث.. كل هذا في وقت لا أتوقعه فيه..
أمس كان المفترض أن أحاضر الطلبة.. لكني اعتذرت.. وهكذا خلا المكان له كي يحاضرهم هو.. ويعتذر عن الاعتذار...
ولم يكن مفترضًا أن أمر على المستشفى ليلًا.. لكنه فعلها هو.. وقام بما قام به.. وعرف أنني لن أزور (عزت) لأني سانتظر في شقتي.. وهكذا زار هو (عزت) وقضى معه ساعة ممتعة.. ممتعة لـ (عزت) طبعًا..
من هو؟ من هو؟

* * *

حتى هذه اللحظة كان دور الرجل لا يزيد على أداء بعض المجاملات عني.. وهو أمر يسرني أنا الذي لا أطيق المجاملة..
لكنني بدأت أشعر بخطورة الأمر حين توجهت إلى البنك صباحًا، لأنهي ورطة ماديّة مزمنة يعرفها كل من يتقاضى راتبه أول الشهر مثلي..
هنا بدت الدهشة على وجه الصراف، وكان هذا كافيًا جدًا لأعرف أنني قد مررت بالبنك أمس وقمت بسحب ألف جنيه.. والتوقيع هو توقيعي ذاته بالطبع.. كلا.. لا داعي لإثارة جلبة.. أريد مبلغًا آخر من فضلك..
وغادرت البنك مخدر الأعصاب..
إن الأمر أخطر مما ظننت.. فما دام يتعلق بالنقود ـ الشيء الوحيد القادر على أن يؤلمني ـ فلم يعد تجاهله ممكنًا.. إن ألف جنيه لمبلغ فادح في عام ١٩٧٠.
ماذا ينوي هذا النصاب عمله بمالي؟ وهل يستمر في خرابي على ذات الوتيرة إلى الأبد؟ أين هو؟ ولماذا هو مختف حتى هذه اللحظة؟

*
*
*



وكان التمثال ينتظرنى .. تمثال يمثل سحلية فشلت فى التظاهر بأنها بطيخة ..

في طريق العودة عرجت على الجزار أبتاع لحمًا.. لست أكولًا لكنّ قطعة لحم من حين لآخر قد تنعش روحي.. ألست من رأيي؟

كان الرجل يقضي ساعات فراغه في عد المال.. وتكديسه في الدرج، والتلويح بتلك السكين هائلة الحجم، والحديث عن الرضا بالقليل.. فهذا هو المقسوم لنا..

قال لي حين رآني أتامل اللحم المعلق في رهبة:

ـ «حمدًا لله على السلامة يا دكتور! أرجو أن تكون (قطعية) الأمس قد راقت لك!»

نظرت له في غباء..

ثم فهمت على الفور.. فلم أحتج إلى مزيد من الأسئلة..

حييته شاكرًا على روعة ذوقه، وهممت بالانصراف، لكنه استوقفني في أدب وهو يلوح بالسكين:

ـ «لم أتقاض ثمنها بعد.. وعدتني بالدفع غدًا!»

ثم فرك يديه في ترقب متلذذ:

ـ «وها نحن أولاء في الغد!»

لا جدوى من محاولة التظاهر بالحيرة أو عدم الفهم..

نقدته ماله، وأنا أتمنى لو تحولت نظراتي إلى (مترليوز) يثقب جسده.. وجسد كل من أراه في هذه اللحظة.

وانطلقت بالسيارة وقد فقدت شهيتي للطعام نهائيًا..

* * *

لكن اللحم كان في ثلاجتي!

قطعة كبيرة حمراء تستقر هناك، وقد اقتطع منها جزء صغير.. وأدركت ـ حين نظرت إلى حوض المطبخ ـ أنّ هناك من طهى بعض الطعام في آنيتي..

لقد تناول أحدهم الطعام في شقتي ظهر اليوم، ربما منذ نصف ساعة لا أكثر.. إن الموقد ما زال دافئًا.. كما أنه ليس من هواة غسل الأطباق كما هو واضح..

رحت أبحث في كل أرجاء الشقة عن متسلل لكني لم أجد..

لقد فرغ من تناول طعامه وغادر المكان.. قبل وصولي بأقل من ساعة...

على أن بحثي الدءوب استطاع أن يجذ رزمة من الأوراق المالية ـ أقل من ألف جنيه ـ على (الكومود) جوار فراشي..

هذا هو المبلغ الذي سحبه من البنك.. وذاك هو اللحم الذي اشتراه من الجزار أمس.. إنّه ليس لصًا.. ولا يتلاعب بي..

كل ما هنالك مشكلة صغيرة جدًا.. إنّه يعتقد أنه أنا!

* * *

٤ - جنون..

حقًا لا يلقى المرء نفسه كل يوم.. لكنّ ليت ذلك ممكن لأخبره برأيي الحقيقي في هذا السخف..

* * *

قال د. (محمد إبراهيم) وهو يشعل غليونًا ويسترخي في مقعده:

- «منذ أن دعوتني إلى (كفر بدر) لأفحص أخاك (رضا) - موضوع النداهة إياه - لم نلتق ثانية.. ظننتك تعادي الطب النفسي..»

قلت وأنا أرمق سقف الغرفة:

- «الحق أنني لا أثق بالطب النفسي البتة.. أعتبره نوعًا من الفلسفة الراقية.. إنّه ضرب من الطب لا يُسمع بالمسماع، ولا يُرى تحت المجهر، ولا يُقاس بالترمومتر.. والقياس فيه مستحيل..»

- «أشكرك لصراحتك.. لكنّ الطب النفسي له مقاييسه..»

- «هل يُمكنك أن تذكر لي عدد الشرايين التي تغذي (الأنا)؟ ما هو الفارق بين أشعة المخ في حالة الاكتئاب التفاعلي والاكتئاب الداخلي؟ ما هو تحليل الدم الذي يثبت إصابة المريض بـ (البارانويا)؟»

ابتسم.. وراح ينفخ في غليونه بضع نفخات ملأت الغرفة بالضباب.. ثم قال:

- «ما دمت تؤمن بتفاهتنا إلى هذا الحد.. فلماذا تلجأ إلينا؟»

- «لأنكم - على الأقل - تعرفون الجنون حين ترونه..»

راح يمارس أعمالًا معقدة في الغليون.. وهذه مشكلة تدخين الغليون الدائمة.. إنّه يتطلب جهدًا أكثر مما يتطلبه محرك سيارة قديم.. وكل من يمسكون به يقضون الوقت في أعمال عديدة ليس التدخين من بينها..

ثم قال بعد ما انتهت معاناته:

- «أنا لا أراك مجنونًا يا د. رفعت).. والوساوس لا تعني الجنون بالضرورة.. وإلا لما عاد في الكون عاقل..»

- «أهي وساوس أم ضلالات؟»

- «إنها الاثنان معًا.. لكنك تعرف أنّ هذا وهم.. وتجاهد كي تتخلص منه.. هكذا يمكنني أن أساعدك..»

سألته وأنا انظر إلى السقف من جديد:

- «هل يمكن أن تكون لي شخصيّة أخرى؟»

- «لا أرى ما يمنع..»

- «دون أن أعلم أنا بذلك؟»

- «هكذا القصة دائمًا..»
ثم أخرج أداة لتسليك الغليون، وعشرة أنواع من الإبر والمطارق والأسلاك وراح يواصل كفاحه مع الغليون.. قبل أن يضيف:
- «أنت هادئ متحفظ ميال للوحدة.. وعقلك الباطن لا يحبّ هذا.. لهذا تحرر جزء من عقلك اسمه (رفعت إسماعيل).. هذا الجزء نشط متوثب إيجابي يفعل كل ما لا تجرؤ على عمله..»
- «نعم.. يطلب يد امرأة.. ويشتري عشرة كيلوجرامات من اللحم مرة واحدة.. ويعجب بتمثال قبيح لدى جاري..»
ثم عدت أسأله، وقد بدأ التفسير لا يروق لي:
- «لحظة.. وهذا الجزء يتصل بي هاتفيًا؟»
- «هنا قد تكون واهمًا..»
- «لقد سمع كثيرون صوته عبر موجات الأثير..»
- «هنا قد يكون هناك من يداعبك دعابة قاسية..»
ثم نفخ في الغليون نفختين.. وسحب سحبتين من الدخان.. ثم عاد يسكب التبغ في مطفأة أمامه، ويحاول ملأه من جديد بالطباق.. وقال بلهجة مسرحيّة:
- «(رفعت) يا صديقي العجوز.. إن من يوقع توقيعك ويملك مفاتيح دارك ويبدو مثلك، حتى أمام أدنى معارفك.. لا يمكن أن يكون شخصًا آخر.. إنّه أنت يا عزيزي.. أنت!»
- «أنت!»
وراح يسلك الغليون بأداة تشبه دودة الأرض.. وقال دون أن ينظر لي:
- «هاك! حاول أن تغير المكان قليلًا.. اتبع النصيحة القديمة.. اترك القاهرة العجوز بمشاكلها التي لا تنتهي واذهب إلى.. إلى الإسكندرية مثلًا.. هناك مؤتمر لأمراض الأعصاب بعد أسبوع.. ولسوف يُعقد هناك.. ويمكنك أن تدون اسمك فيه..»
- «لكني طبيب امراض دم.. ولا...»
- «لنقل إنك متحمس للعلم مهما كانت فروعه..»
نظرت له هنيهة.. وللمرة الأولى لم أجد الفكرة سخيفة..
عدت أسأله:
- «وأترك شقتي ها هنا لذلك النصاب؟»
- «لا يوجد نصابون.. لا يوجد سوى عقلك الباطن.. وأولى خطوات العلاج هي أن تعرف ذلك..»
شكرته ونهضت لأنصرف.. لكنه كان منهمكًا مع الغليون فلم ير يدي الممدودة كي يصافحها.. قلت له في أدب:
- «أ.. هل تريد رأيي؟»
- «هه؟»
- «اقترح أن تتخلص من هذا الغليون قبل أن تصاب بجنون ذهولي.. أو اكتئاب ضموري... أو أي اسم من هذه الأسماء التي لا تنتهي!»

* * *

الليلة أسافر إلى الإسكندرية.
سأقضي أسبوعًا في (بنسيون) كذلك الذي كنت أمضى فيه ليلتي عندما كانت (هويدا) خطيبتي.. بعد هذا يمكنني أن أقرر حضور المؤتمر من عدمه.. إن المؤتمر ذريعة مناسبة أقنع بها نفسي بأنني لم أهرب من القاهرة..
لم تكن هناك مشاكل بصدد طلب إجازة، لأنني وجدت أنّ هناك من طلبها بالفعل! بالطبع هو (أنا).. وهكذا وفر على عناء الإجراءات الإدارية..
ثم شرعت أحزم حقيبتي..
لقد ترك الوغد أبوابًا كثيرة مفتوحة في دنياي.. ومنها باب (كاميليا) وسواه.. ليس بوسعي أن أغلق تلكم الأبواب الآن.. لهذا سأتركها كما هي وأفر بضعة أيام.. وعندما أعود قد أكون مت أو مات هو أو مات الجميع...

* * *

ولكني - حين بدأت في إعداد حقائبي - وجدت أن عددًا لا بأس به من قطع الثياب ليس موجودًا..
البذلة كحلية اللون على سبيل المثال ـ وأنتم تعرفون حبي لها ـ ليست هنا والقميص السماوي.. وربطة العنق الرمادية.. وبعض - إحم ـ بعض الثياب الخاصّة.. كلها لم يعد لها وجود هنا..
حتى ماكينة حلاقتي، وفرشاة الشعر الناعمة التي أرتب بها الشعر المبعثر على جانبي جمجمتي.. ومعجون الأسنان...
ليس الأمر مزاحًا إذن...
إن هذا (الآخر) يزمع القيام بإجازة طويلة أيضًا.. ولن يدهشني في شيء أن تكون الإسكندرية هي وجهته.. ربما سبقني إلى هناك..
متى يجيء ومتى يرحل؟ وكيف لا يتصادف أن أضبطه متلبسا أبدًا؟ الإجابة واضحة جدًا: لأنك جننت يا عزيزي (رفعت).. جننت.. وهذا الآخر ليس سوى أنت في صورة لا تدركها..
كنت أخاف دومًا رواية د.(جيكل) ومستر (هايد).. لأن المسخ الذي يثير الذعر في نفسي حقًّا هو أنا.. أنا الذي لا أعرفه.. والذي يفعل أشياء ويقول كلمات لا يمكن أن أفعلها أو أقولها.. ثم لا يصدّق أحد أنه ليس أنا.. بل هو..
آههههه! إنني قد جننت.. أو دنوت من ذلك جدًا..

* * *

كان رفيقًا بي فترك سيارتي.. لم يأخذها لحسن الحظ...
أمامي رحلة قيادة مرهقة.. لكني أحبها.. إنها تذكرني بأيام خطبة (هويدا).. أيام البراءة الأولى حين كنت أحسب من حقي أن أحب.. وأن أتلهف على أي شيء في هذا العالم...



عدت أسأله :

ـ « وأترك شقتى ها هنا لذلك النصاب ؟»

* * *

وفي الثانية عشرة مساء دخلت إلى المدينة الحسناء.. كانت موشكة على النوم لكنّها فتحت عينيها المنهكتين وعرفتني.. فابتسمت وراح عنها النعاس:

- «(رفعت) أيها العجوز! يا له من دهر!»

- «أعلم ذلك.. وأعتذر عنه.. لكنك تحملين لي ذكريات سعيدة إلى حد أنها شديدة القسوة..»

- «لا عليك.. حاول أن تنام قليلًا وبعد هذا نتحدث..»

- «شكرًا.. هل ما زال بنسيون (السعادة) موجودًا؟»

- «بالتأكيد.. يُمكنك المبيت فيه ما لم تكن الذكريات هناك أكثر من اللازم..»

وهنا تذكرت شيئًا.. فسألت شوارع المدينة:

- «بالمناسبة.. هل رأيت من يشبهني اليوم؟»

- «يشبهك؟ من هذا التعس؟ إن واحدًا فقط يكفي العالم...»

- «هذا هو رأيي..»

وكما أخبرتني (الإسكندرية)؛ وجدت البنسيون كما هو، بذلك المصباح الخافت جوار مدخله.. واللافتة التي يمكن قراءتها بكثير من العسر.. ووجدت الخادم ذاته يفتح لي الباب ويتذكرني على الفور....

بعد كل هذه الأعوام؟

قال وهو يضحك.. ويفرك النعاس عن عينيه:

- «أعوام؟ أنا أتحدث عن مرورك هنا ساعة أذان العشاء.. اليوم.. هل نسيت؟ كنت مترددًا بشأن الإقامة هنا.. يبدو أنك لم تجد فندقًا به غرفة خالية.. إن هذا يحدث..»

التزمت الصمت.. وقطبت جبيني..

حتى هنا أجد الشخص ذاته.. وكالعادة سبقني ببضع ساعات.. إن الأمر لم يعد قابلًا لتفسيره بدعابة أو مؤامرة أو حتى الجنون... فما تفسيره إذن؟

أخرجت بطاقتي الشخصية.. ودفعت حساب ثم أخذت مفتاح الغرفة واتجهت إليها بخطوات من يألف الدار...

وأغلقت باب الحجرة عليّ.. ثم رحت أجول في الحجرة أتأمل أثاثها الرخيص النظيف.. إن نظافة هذا البنسيون هي أهم ما جذبني إليه.. نظافة لها رائحة الغسيل الذي جمعته من على الحبل في يوم مشمس..

لكني لم أكن أنظر إلى شيء بعينه.. كنت أدعو الله في سري..

رباه! لا تدعني أفقد عقلي....

إنني لفي مأزق مخيف..

* * *

٥ - موقف محرج..

كنت أقول إذن إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لأن المرّة الأولى هي الأخيرة غالبًا.. وبعدها يجد نفسه في المصحة العقليّة..

* * *

في الصباح عرجت على مطعم فتناولت وجبة إفطار لا بأس بها، وعند الظهيرة اتجهت بسيارتي إلى مديرية الأمن، لأطلب لقاء (عادل).. لقد صار عقيدًا منذ فترة، وهو ما يفسر الشك الذي عوملت به أولًا.. فالاحترام الذي عوملت به بعد ذلك، حينما طلب أن يوصلوني إليه..

وصعدت في الدرج وسط هذا الجو البوليسي الذي تتوتر له أعصابي.. حتى وصلت إلى مكتبه.. طرقت الباب قبل أن يسألني الجندي الواقف على الباب عن غايتي، فسمعت صوت (عادل) الجهوري يدعوني للدخول....

كان وسيمًا كعهدي به، وإن ازدادت الشعيرات البيضاء في فودية.. وكان يرتدي ثيابًا مدنية.. القميص وربطة العنق دون سترة كما يفعلون جميعًا..

فما إن رآني حتى نهض واقفًا.. وصرخ وهو يفتح ذراعيه:

- «(رفعت)! إذن حل الخراب بالمدينة!»

تعانقنا.. وأشار بطرف إلى الجندي الذي كان يحاول اللحاق بي محتجًا.. ثم سألني عما أشرب.. فطلبت فنجانًا من القهوة.. أشار للجندي كي يجلبه لي..

لم يكن على علم بقدومي.. لكنه كان ودودًا جدًا.. أنا أعرف أن (عادل) يحبني حقًّا.. حتى برغم ما كان من موضوع (هويدا) شقيقة زوجته.. صداقة الصبا هي أمتن أنواع الصداقة وأخلصها.. ومن العسير أن تتزحزح، لأنهّا صداقة روحين لا مجال فيها للماديات ولا النفاق ولا المصالح المشتركة..

سألني وهو يجلس جواري على مقعد أمام المكتب:

- «لماذا عدت؟ هل تبحث عن شبح جديد؟»

- «بل أنا هارب.. هارب من نفسي.. بالمعنى الحرفي للكلمة!»

انفجر يضحك كدأبه في الضحك من أعمق أعماقه.. وقال:

- «كلنا يهرب من نفسه.. هل نسيت فلسفتك السقيمة؟»

- «لا مجاز هنا.. الهرب من النفس هو الهرب من النفس.. قلت لك إن هذا هو المعنى الحرفي..»

عاد يضحك وضربني على ظهري ضربة فجرت شرياني الرئوي.. وقال:

- «إن فهم هذا كله قد يكون مسليًا.. لكنّ لا وقت لدي لذلك..»

ونظر في ساعته.. ثم قال بلهجة لا تناقش:

- «لا ارتباطات لديك طبعًا.. ستتناول طعام الغداء في داري.. صه! لا تقل المزيد! انتهى!»

ورفع سماعة الهاتف وأدار القرص.. قبل أن أتمكن من الاعتراض، وسمعته يقول - لـ (سهام) طبعًا - إنني مدعو على الغداء.. وأننا قادمان بعد نصف ساعة.. ثم وضع السماعة واتسعت ابتسامته أكثر..

صحت في ذعر:

- «لكني لن أقابل (سهام) بعد ما.....»

تقلص وجهة معبرًا عن تفاهة ما أريد قوله:

- «كل هذه الأشياء قسمة ونصيب.. لقد مر دهر على هذا الموضوع.. و(هويدا) سعيدة الآن مع زوجها.. إن آخر شيء تعتذر عنه يا (رفعت) هو عدم الزواج من فتاة ما.. لأن أحدًا لايعتذر عن خدمة عظيمة كهذه!»

لم أفهم عبارته الملتفة أولًا.. ثم فهمتها فاحمرّ وجهي.. يريد القول إن أفضل معروف قدمته لـ (هويدا) هو أنني لم أتزوجها.. لهذا أستحق كل ترحاب وتكريم!

- «شكرًا..»

وأحضر لي بعض مجلات الشرطة إياها، وطلب منى أن أتسلى بها على حين يفرغ مما بين يديه من أوراق.. وأشعل لفافة تبغ وانهمك في العمل..

رحت اتصفح المجلات ـ التي هي أقرب للنشرات الدورية ـ في غير اكتراث.. إلى أن وقعت عيناي على اسمي.. بالتأكيد اسمي.. وكان الموضوع عن التبرع بالدم وكيف أنه عمل جليل.. ويبدو أن كاتب المقال طلب رأيي باعتباره من المختصين بالموضوع.. غريب!

رحت أقرأ السطور بعين زائغة:

وقال د. (رفعت إسماعيل) - ويرى د. (رفعت إسماعيل) - ويقترح د. (رفعت إسماعيل)... إلخ...

ها هي ذي أشياء قلتها.. وآراء أعلنتها.. لكني - والله يعلم ـ لم أفعل قط.. إن تاريخ المجلة يشير إلى هذا الشهر.. الشهر الذي بدأ فيه الكابوس...

أحسست بالرجفة تعاودني.. ورفعت رأسي أتأمل (عادل)..

هل أصارحه؟ لن يفهم.. ولو فهم فلن يجد ما يفعله.. إن الوضع كله غريب غريب.. ولكن أية مصادفة هذه؟

رفع وجهه قوى التقاطيع عن الأوراق ولمح المجلة في يدي.. فقال باسمًا:

- «آه! وجدت مقالتك؟ نسيت أن أهنئك عليها.. إن الرائد (عماد) هو أخ صغير لي.. وأنا الذي رشحتك كي يستعين بك في هذا المقال.. إنّه أديب أكثر من كونه رجل شرطة..»

رفعت إصبعًا مهتزًا.. وأشرت إلى الكلام المكتوب وقلت:

- «أ.. أين أجروا هذا الحديث؟»

- «هل نسيت بهذه السرعة؟ لقد اتصل بك (عماد) هاتفيًا في دارك وكتب ما تقول.. ألم يرسل لك عددًا من هذه المجلة؟»

- «نعم.. إنها مفاجاة سارة حقًّا..»

وكدت أبكي غيظًا وكمدًا...

إن هذا (الآخر) يزداد نشاطًا وشهرة يومًا بعد يوم.. إنّه يتوسع في كل يوم ويلتهم جزءًا جديدًا من عالمي.. حتى أوشك أنا أن أغدو ظلًا له..

من هو (رفعت) الحقيقي؟ بالتأكيد هو.. ما دام الأكثر حيوية وسرعة..

هنا كان (عادل) قد انتهى من أوراقه.. أو قرر إرجاء ما تبقى منها لغد.. ورأيته يتناول سترته ليرتديها.. ويقول متجهًا إلى الباب:

- «هيا بنا..»

* * *

كانت (سهام) فاترة..

أرضى هذا غروري إلى حد كبير، فهى - على الأقل ـ قد خيبت ظن (عادل) ولم تلثم يدي شاكرة على عدم زواجي من أختها..

كان الطعام قد أعد على عجل لأنهّا لم تتوقع قدومي.. بعض (المكرونة) والبطاطس المحمرة ودجاجة لم تنضج تمامًا، لأنهّا أخرجت من الثلاجة منذ ساعة واحدة..

ولأن (سهام) فاترة؛ لم تصدع رأسي - لحسن الحظ - بالطقوس المعهودة لدى البيت المصري.. على غرار (نحن لا نترك طعامًا في أطباقنا) أو (لن نلح عليك فأنت صاحب الدار) أو (دعنا نر ما إذا كنت بخيلًا)..

كان الأكل صامتًا.. لهذا أحببته..

ومن حين لآخر كان (عادل) يحاول تبديد الجو الفاتر بمزحة سخيفة أو مزحتين، فكنت ابتسم ابتسامة متكلفة، واختلس نظرة إلى (سهام) لأجدها لا تبدي أي انفعال من أي نوع..

وجاء (أشرف) ابنهما ـ هو الآن في العاشرة من العمر - ليقول شيئًا.. لكنّ أمّه زجرته بعنف.. وأمرته أن يعتكف في حجرته...

انصرف الطفل حائرًا.. فأنا بمثابة عمّه.. ولا يوجد ما يبرر أن.....

إنها شرسة إلى حد مبالغ فيه.. ثم لماذا لا يشاركنا الطفل الطعام؟ ولماذا تدفن وجهها في طبقها وكأنها أقسمت ألا تلتقي عينانا؟

الخلاصة أن الغداء كان فشلًا كاملًا..

وشعرت بجبل من الجليد يعلو شيئًا فشيئًا، حتى ليوشك على خنقي وراءه..

ورحت أبتلع المكرونة كأننى ألقي بها في صفيحة قمامة، متعجلًا لإنهاء هذه الجلسة المؤلمة....

(سهام) تبالغ.. تبالغ أكثر من اللازم...

لو كانت (هويدا) مخطوبة لـ (أغا خان) ثم فسخت خطبتها لبدا الأمر مفهومًا.. لكني لا أرى في فقداني ما يدعو لهذا الغضب المتعصب..

* * *

انتهينا من الطعام...

هنا دق جرس الهاتف، فنهض (عادل) ليرد، وهو يقول شيئًا عن الأعباء التي توشك على قتله..
ظللت و(سهام) على مائدة الطعام شبه الخاوية، والصمت يجلس معنا كصديق حميم..
أداعب عظمة فخذ الدجاجة بطرف السكين، باحثًا عن كلمة يمكن قولها.. ورابع المستحيلات هو أن تجد موضوعًا صالحًا للكلام حين تبحث عن واحد..
أخيرا سألتها مبتسمًا:
- «ألا تنويان أن تهديا (أشرف) أخًا أو أختًا؟»
ساد الصمت هنيهة وهي تقلب المكرونة في طبقها شاردة.. ثم همست:
- «ربنا يسهل..»
قالتها متنهدة، كأنما تضع مزيدًا من الجليد فوق الجبل بيننا..
عدت أقول بعد قليل:
- «إن عشرة أعوام لفترة أطول من اللازم بين طفل وآخر..»
- «هذا ليس من شأنك!»
كان هذا أقوى مما تصورت...
صفعة معنوية هوت فوق خذي فاحمرّ.. ورحت أتأمل عظمة الدجاجة في طبقي باهتمام أشد.. حاولت أن.. أعتذر.. فقلت:
- «لم أقل هذا سوى دعابة لكما.. لم أعن ما قلته..»
- «أما انا فاعني ما قلته!»
هنا فاض بي.. فلو لم أكن في دارها لهشمت رأسها على الحائط.. ثم تسليت بعد الشرايين التي تغذي مخها.. لكني تماسكت.. وقلت كـ (جنتلمان) يجد كل هذا غريبًا:
- «(سهام).. أنا لا أفهم ما..»
- «مدام (سهام) من فضلك!»
- «حسن.. أنا لا أجد سببًا لهذه المعاملة غير المقبولة.. إن أية خطبة هي مجرد اختبار.. قد ننجح فيه وقد نفشل.. وليس من الحكمة أن نكابر فتكون زيجة تعسة.. إن فسخ الخطبة أبسط من الطلاق على ما أظن..»
- «عم تتحدّث بالضبط؟»
قالتها واتسعت عيناها في وحشية... العينان العسليتان اللتان تتوهجان بالنار عند الغضب..
ومالت على المائدة.. وبصوت كالفحيح قالت:
- «إذا كنت استقبلتك في داري ثانية، فذلك إكرامًا لـ (عادل).. ولأنني أعرف أنه يمكن أن يجن ويرتكب جريمة.. ولكن لا تتصور لحظة أنني أفعل ذلك من أجلك.. ولهذا فقط لن أخبره بما فعلت!»
- «فعلت؟ أنا لم أفعل لـ (هويدا) شيئًا!»
ازدادت عيناها توحشًا.. وصار وجهها أقبح وهي تهمس:
- «أنا لا أتحدث عن (هويدا).. أتحدث عما قلته لي صباح اليوم!».

* * *

٦ - أخيرًا نلتقي!

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا قد تتصرف هذه النفس بكامل حريتها، ودون رقابة.. وهذا قد يكون خطرًا.. خطرًا أكثر مما تظن..

* * *

- «أنا قلت لك ماذا؟» اندفعت الصرخة من حلقي.. ويبدو أنني وقفت.. أو أنني وضعت ركبتي على المائدة.. لا أعرف حقًّا ما فعلته.. لكنه كان مجنونًا..

قالت همسًا وهي تضع سبابتها أمام شفتيها المضمومتين:

- «صه! لا فضائح من فضلك.. يكفيك ما كان صباح اليوم!»

عدت أسألها مستعملًا (أوكتافًا) أقل في صوتي:

- «أنا قلت ماذا؟»

مطت شفتيها، في اشمئزاز.. وغمغمت:

- «ما كان لك - أيها الحقير - ان تستغل غياب صديقك عن داره.. وتأتي لزوجته كي تصارحها بحبك.. أبعد كل هذه الصداقة؟ أبعد كل هذه الثقة؟»

كانت تكرهني حقًّا.. تحتقرني حقًّا..

وشعرت أنني أتلاشى تمامًا.. لن تفهم شيئًا ولن تصدق شيئًا.. لقد أحيط بي حقًّا ولم تعد الكلمات تجدي..

هنا - غارقًا في مجرور أفكاري مقيت الرائحة - سمعت (عادل) عائدًا..

لقد أنهى مكالمته.. كان يقول أشياء وأشياء....

- «قلت لك إنها مهنة تقصف العمر».. عساه لم يسمع.. عساه لن يعرف.. «كلهم لا يجدون سواي كي..».. والخطيئة المرتسمة على وجهي تعلن للكون كله أنني حقًّا فعلتها.. «.. لقد قتل زوجته لأنهّا عايرته بفقره..».. كيف أفسر شيئًا كهذا لا أصدقه أنا نفسي؟ «.. ثم سلم نفسه.. ويقول..».. الصديق الخائن.. لكني لم أخن.. فعلها الوغد.. و.. «الساطور.. دماء...».. لم يعد البقاء ممكنًا هنا.. «الجيران سمعوا صراخها..».. هذا البيت محرم عليّ إلى يوم الدين.. لكنّ هل محرم عليه (هو)؟

ووثبت على قدمي المتخاذلتين.. وبصوت كالتوسل صحت:

- «خذني معك!»

- «لا تكن سخيفًا.. نحن لم نجلس معًا بعد.. ثم إنك لم تحتس الشاي..»

بصوت كالبكاء:

- «خذني معك يا (عادل)!»

قال في لطف:
- «لن أتأخر.. ستنتظرني هنا.. إن (سهام) بمثابة أختك ولن يضير في شيء أن..»
- «خذني معك!»
نظر لها في حيرة.. ثم لي.. ثم لها.. وهز كتفيه باستسلام:
- «ليكن.. طالما تصر على ذلك.. لكننا سنعود..»
واتجهنا إلى الباب، ولم أستطع أن ألتفت إلى الوراء لأشكر (سهام) على حسن ضيافتها.. أعرف أنني لن أضع قدمي في هذا البيت الحبيب أبدًا..
وفي السيارة ظللت صامتًا أرمق الشوارع بعينين من زجاج..
(عادل) يتكلم.. يتكلم.. ثم سمعته يقول بنبرة عالية ليجذب انتباهي:
- «(رفعت)! ما بالك؟ تبدو كمن رأى شبحًا.. بل تبدو شبحًا أنت نفسك!»
ثم أردف وهو يدسّ لفافة تبغ في فمه:
- «ربما لم تكن (سهام) ودودًا كما يجب.. لكني أعرف أنك واسع التفكير.. ونحن لن نفهم النساء أبدًا.. هل تعرف السبب؟»
فلمّا لم أرد.. أجاب على السؤال بنفسه:
- «لأننا لسنا نساء! نياهاهاهاه! حلوة! أليس كذلك؟»
كان هذا هو ما أحتاج إليه كي أبكي.. انفجرت ماسورة عواطفي وأحزاني كي تغرق الميادين وتعطل المرور في مدينة الواقع.. وسمعت (عادل) يتساءل في لهفة عما حدث.. أتراها (سهام)؟ اللعينة! لا بد أن لسانها الشبيه بذيل الأفعى قد.... (رفعت)! بسم الله الرحمن الرحيم! هل نتوقف؟ هل أحضر لك بعض الماء؟
كنا قد وصلنا إلى (مديرية الأمن)، حيث تركت سيارتي.. ففتحت باب سيارته وخرجت متثاقلًا.. وبصوت لم آلفه همست وأنا أنحنى على نافذته:
- «اسمح لي... أريد أن أنفرد بنفسي قليلًا..»
- «لكنك لا تبدو في حالة تسمح بـ.....»
- «أنا بخير.. فقط أنا مرهق.. مرهق..»
وابتعدت دون أن أترك له فرصة الاستزادة..

* * *

كان الشاطئ خاليًا تقريبًا من الناس...
في ذلك الوقت لم يكن (العجمي). بالازدحام الذي تعرفه، ولم يكن الوقت وقت اصطياف على كل حال..
لهذا مشيت.. مشيت..
يداي في جيبي بنطالي.. والريح تصفر في أذني كأنما قوقعة عملاقة ملتصقة بها.. ورذاذ البحر يبلل زجاج عويناتي.. ويملأ فمي بمذاق مالح..
رمال.. رمال.. يبعثرها حذائي يمينًا ويسارًا..

وخواطر لا تنتهي..
نظرت إلى البحر.. وقلت له: هأنتذا أيها البحر بأسرارك الغريبة، ترمقنا منذ ملايين السنين.. وتخفي في أعماقك الكنوز والجثث و.....
ثم وجدت أنني لا أتأمل.. بل أمثل أنني أتأمل.. وأردد ذات ما يقوله كل من يقرر أن يكتب عن البحر.. الواقع أنني لا أجد في البحر ما يثير أبدًا..
مجرد صفحة غبية مملة من المياه.. مثلها مثل ترعة قريتي.. الفارق الوحيد هو أنني لا أرى الضفة الأخرى..
ونظرت إلى الأمام لأتجنب سخف الأمواج..
كان هناك رجل يقف في الماء الضحل، وقد ثنى طرفي بنطاله.. وغمر قدميه العاريتين حتى الساقين في الزبد.. وكان منحنيًا على الماء يتفحّص شيئًا ما، بدا لي شيء مألوف في مظهره..
دنوت منه أكثر..
كان نحيلًا كعود خلة.. أصلع ككوكب المشتري.. يرتدي بذلة كحلية اللون وقد تطايرت في الريح ربطة عنق رماديّة.. وعلى أنفه عوينات سميكة..
وكان يضع تحت إبطه حذاءين مألوفي الشكل لي..
أنا أعرف هذا الكهل.. ولكن أين؟
شعر بوجودي - وقد صرت على بعد مترين منه - فرفع رأسه، وتلاقت عينانا.. فابتسم.. لقد عرفني كذلك..
لقد رأيت وجهه مرارًا.. أين؟ أين؟ في مرآتي؟! في صوري الشخصية؟ في عقلي الباطن..
وهنا بدأت أفهم..
لقد جاء الفهم بطيئًا.. لكنّ جاء شاملًا قاسيًا مروعًا..
إنه هو!
إنه أنا!

* * *

ظللنا لفترة لا بأس بها نتبادل النظرات.. إن كلام (أينشتاين) عن الدقيقة التي تمر فوق موقد مشتعل فتبدو كساعة.. والساعة التي تمر مع حسناء فتبدو كدقيقة؛ هذا الكلام لا يعني شيئًا ها هنا.. فأنا لم أتعذب بلقاء هذا الرجل.. لكنّ دهرًا كاملًا مر علينا ونحن صامتان...
أخيرًا وجدت الكلمات:
- «أنت؟»
بنفس صوتي.. قال:
- «وأنت؟»
- «إنني لم أتصورك بهذا القبح! قرد أصلع يرتدي بذلة كحلية اللون.. بذلتى أيها اللص!»
وقبل أن يجد ردًا.. كنت قد أطلقت العنان لغضبي..

اندفعت قبضتى في لكمة عنيفة إلى أنفه.. أكاد أقسم إنني سمعت العظام تتهشم.. إنّه ضعيف مثلي.. لكني حانق.. وهذا ما يجعلني أتفوق عليه..

واندفعت قدمي في ركلة شرسة لساقه.. فأطلق صرخة ألم.. وراح يتواثب كاللقلق على ساق واحدة.. سقطت عويناته على الرمال.. فلم أتردد في سحقها تحت حذائي..

ثم وثبت لأدفن رأسي الصلبة في بطنه.. وهنا سقط على الأرض، وسقطت فوقه.. أعتصر عنقه بين أصابعي وأضغط..

أنا لا أستطيع إيذاء دجاجة.. ولماذا أؤذيها؟ لكني - بالتأكيد - قادر على سحق أفعى حينما أجن.. حينما أنزع عن روحي أصفاد التحضر وقيود الخوف والوقار.. سأقتله الآن.. لن أنتظر حتى أسمع تفسيراته..

كان يحاول أن يتكلم.. لكنّ الكلام مستحيل حينما تضغط يد مجنونة على حنجرتك..

وأخيرًا نجح في انتزاع عويناتي.. وشعرت به يحاول غرس إصبعين في عيني.. لهذا أبعدت وجهي إلى آخر مدى ممكن...

هنا كان (الأدرينالين) قد ملأ دمي.. وشعرت بأن قلبي قد صار أسرع من اللازم.. أسرع مما تحتمل شراييه المجهدة..

لحظة وهن مرّت بي.. لكنّها كانت كافية..

وعلى طريقة المصارعين نجح في أن يعتليني بدوره..

لكنه لم يحاول خنقي ولم يوجه لكمات لي.. كان يمسك بمعصمي.. ويردد مرارًا وهو يلهث:

- «صبرًا! هيه! قلبك أيها الغبي! إنّه سيتوقف!»

لكني لم أكن مستعدًا للتعقل.. رفعت ركبتي معًا وضربته في مؤخرة رأسه.. ثم نهضت لأعتليه من جديد.. ورحت أوجه لكمات مجنونة إلى وجهه..

هذه من أجل البنك.. بوم! هذه من أجل (كاميليا).. بوم! هذه من أجل اللحم.. بوم! وهذه.. هذه من أجل (سهام).. بوم بوم! أقوى بكثير.. أمّا هذه.. فـ... بوم! من أجل بذلتي الكحلية..

كان صلبًا أو أنا أضعف مما ينبغي.. هذه اللكمات لو كان صاحبها رجلًا عاديًا لأمكنها قتل فيل.. لكني لست رجلًا عاديًا.. إن قوتي تعادل قوة دجاجة مصابة بضمور العضلات..

والوغد ما زال يحاول الكلام...

كان الغضب أقوى من عضلاتي.. لهذا انحنيت وفعلت الشيء الوحيد الممكن.. عضضته في ساقه عضة جعلته يصرخ.. يصرخ ليثير ذهولهم في (إيطاليا)..

والتحمنا في صراع فوق الرمال..

لا بد أن منظرنا بدا غريبًا.. نوعًا من مصارعة الديوك.. لم تطل كثيرًا..

وفي النهاية جاءت الأمواج لتغمر جسدينا.. جسدينا الراقدين فوق الرمال وقد قتلهما الإنهاك والانفعال..

وحين انحسر الموج كنت قد هدأت نوعًا..

ورحت أكافح لأعب الهواء في صدري.. وأحاول النهوض جالسًا.. أمّا هو فظل راقدًا على ظهره يلهث.. وصدره يعلو ويهبط...

في النهاية استطاع أن يقول:

- «أنت.. شرس.. حقًّا!»

قلت وأنا أبصق الماء المالح من فمي:

- «وأنت صلب حقًّا.. كان المفترض أن تكون في جهنم الآن..»

قال وهو ينظر إلى السماء:



سقط على الأرض ، وسقطت فوقه .. أعتصر عنقه بين أصابعى وأضغط ..

- «إننا متعادلان في القوة.. فلا أمل في أن يفوز أحدنا.. كما في الشطرنج حين ينتهي الدور (باطة)..»

ونهض.. وأردف وهو يحاول الاتزان:

- «ثم إنني أطول منك نفسًا لأنني.. أقلعت عن التدخين منذ خمسة أعوام.. هلمّ ساعدني على النهوض..»

مددت له يدي فالتقطها... ونهض..

على حين مشيت إلى الماء لأغسل عويناتي ثم أضعها على أنفي.. ورحت أتأمله عبر قطرات الماء التي تبلل الزجاج..

إنه أنا.. دون زيادة ولا نقصان..

حسن.. مرحبًا بك يا (دستويفسكي) يا أستاذ الجنون.. هو ذا المشهد الذي طالما وصفته في رواياتك.. لقاء البطل مع نفسه.. الرواية تدنو من نهايتها..

سألت الرجل وأنا أنفض الرمل المبتل عن ثيابي:

- «والآن كفانا مزاحًا..»

- «هذا حق.. إن المزيد من المزاح سيقتلنا..»

- «قل لي من أنت..»

نظر لي وضيق عينيه.. ثم قال في ثبات:

- «أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)..»

- «يا سلام.. ومن أنا إذن؟»

- «هذه مشكلتك.. لا بد أنك شخص ما..»

قلت في غضب:

- «اسمع يا صاح.. أنت تعرف أنني أعرف أنك تعرف أنني (رفعت إسماعيل) فكف عن هذه التمثيلية..»

قال وهو يمط شفتيه في سخرية:

- «تمثيلية؟ أحقًا تأمل في هذا؟ أنت رجل يا.. يا (رفعت).. لهذا أناشدك بالله أن تقول لي: هل حقًّا يمكن لتشابهنا أن يكون مصادفة؟»

قلت وأنا أدير الاحتمالات الرياضية في ذهني:

- «هذا عسير لكنه ليس مستحيلًا.. إن الرجال نحيلي القوام ذوي العوينات صلع الرءوس يتشابهون... ثم إن الشارب يجعل الرجال جميعًا يحملون ذات الطابع..»

- «نعم.. ونفس الندبة في الكوع الأيسر!»

قالها وهو ينزع سترة البذلة.. ثم يطوي كم قميصه ليريني ما يتحدث عنه.. وكان صادقًا..

قليلون يعرفون بأمر هذه الندبة.. الكسر الذي حدث حين سقطت من فوق الأرجوحة.. كان ذلك في بيت خالي في (المنصورة).. سن العاشرة؟

الألم.. الجبس.. كسر لم يلتحم جيدًا.. ندبة..

فتحت فمي ومددت إصبعي داخله.. هنا صاح قبل أن أسأله:

- «تتحدّث عن الحشو الذي سقط في الضرس الثاني.. هو ذا! يُمكنك أن تراه وتتحسسه إذا لم تخش أن أعض إصبعك!»

- «أنا أشمئز من محتويات فمك!»
- «عسير على المرء أن يشمئز من فمه الخاص.. وأنت تدرك جيدًا أننا ذات الشخص..»
- «وتريد مني أن أصدق هذا؟»
- «تصديقك أو عدم تصديقك لن يضير الحقيقة.. إن الشمس تشرق من الشرق.. وعاصمة (النرويج) هي (هلسنكي).. أردت أو لم ترد..»

هذا صحيح.. حتى تعبيراتي الأثيرة يستعملها بذات الأسلوب..

لكن هناك تفسيرًا لكل هذا..

وواجبه أن يقدم لي هذا التفسير..

وهنا تذكرت خطأً صغيرًا ارتكبه وهو يتكلم.. فقلت مصححًا:

- «آ.. بالمناسبة.. عاصمة (النرويج) ليست (هلسنكي).. بل هي (أوسلو)!»

* * *

٧ - المكاشفة..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا يجب اعتبارها حادثة غير عادية.. حادثة يجب التوقف عندها بعض الوقت..

* * *

قال في إصرار:

- «بل (أوسلو) عاصمة (فنلندا).. ودعك من دقتك الجغرافية هذه.. فالوقت ليس وقتها..»

قلت وأنا أواصل تنفيض ثيابي:

- «كما أرى.. لست وقحًا فحسب.. بل أنت جاهل أيضًا..»

ثم أردف:

- «لم لا نذهب إلى أي مكان لنتكلم كالمتحضرين؟»

قال في سأم:

- «لن يكون هذا مناسبًا.. إن تشابهنا لمريب ويلفت الأنظار أكثر من اللازم.. لتكن لقاءاتنا كلها هنا في هذا الموضع المنعزل..»

سألته وأنا أثبت عيني في عينيه محاولًا أن أسبر غوره:

- «والآن.. من أنت؟»

- «لقد صار هذا مملًا.. أنا (رفعت إسماعيل)... ولكن من بُعد آخر!»

فتحت فمي غير فاهم.. الكلام له مذاق من قصص الخيال العلمي.. لكني لا أفهم ما يعنيه حقًّا..

قال في تؤدة وهو يتأمل البحر:

- «هل عندك فكرة عن الموضوع؟»

- «لا!»

- «حسن.. أنت تعرف أن ضخامة حجم الكون غير المتناهية قد جعلت مجرات عديدة تمر بذات الظروف التي مرّت بها هذه المجرة.. وفي هذه المجرات شموس.. وحول كل شمس كواكب ربما مر أحدها بذات ظروف الأرض.. وهكذا يوجد ألف (رفعت إسماعيل) في الكون في هذه اللحظة!»

نظرت إليه مذهولًا:

- «أنت تتحدّث عن العوالم الموازية[2]!»

- «هو ما تقول.. انا نسختك القادمة من عالم مواز آخر.. أنا أعرف أنك ستفهم ما أقول لأن ذكاءك هو نفس ذكائي.. وكل ما نحبه واحد.. وكل ما نكرهه واحد..»

كان الأمر مذهلًا.. لكني مرغم على تصديقه.. كل الملابسات تحملني على تصديقه.. إما هذا وإما الاعتراف بأنني مجنون..

هأنذا واقف على الشاطئ مع نسخة أخرى مني.. أتحدث معه عن نظرية من نظريات الخيال العلمي عسيرة التصديق.. إذن هو الجنون ذاته!

عدت أسأله:

- «ومن أين جئت؟ من وعاء الدب الأكبر؟»

مط شفتيه وقال وهو ينظر للسماء:

- «إن شرح هذا عسير.. لكننا - في عالمي - نسمي كوكبنا (الأرض) مثلكم.. وتقدمنا العلمي لا بأس به.. لهذا نصدق أشياء كهذه..»

- «وهل جئت هاهنا في طبق طائر؟»

- «بل عن طريق مدفع طاقة.. لا يمكن تحقيق هذه الأسفار ما لم تتخلص من جزيئاتك.. وإلا تحولت إلى رماد كوني.. نحن نحول الجزيئات إلى طاقة تعبر الكون بمربع سرعة الضوء، ثم يُعاد تجميعها عند الوصول إلى هدفها..»

- «هذه المدافع متوافرة عندكم؟ إذن لماذا لا أرى مئات النسخ لكل معارفي؟ إن هذا النوع من السياحة مثير كما تعلم؟»

قال وهو ينحني ليلتقط بقايا عويناته المهشمة:

- «من قال إنها متوافرة؟ يوجد مدفع واحد في اليابان.. وقد قاموا بانتقاء سبعة أشخاص من جنسيات مختلفة ليقوموا باختبار سبعة كواكب في أبعاد أخرى.. إن (رفعت) في كوكبنا وكوكبكم لمن المهتمين بخوارق الطبيعة.. وقد صارت شهرته لا بأس بها في هذا الصدد.. لهذا وقع الاختيار عليّ كي أكون أحد هؤلاء السبعة المحظوظين.. وهأنذا هنا أقف مع نسختي مبرهنًا على صحة الافتراضات العلمية الخاصّة بالعالم الموازي..»

- «وكيف وجدتني؟»

ابتسم في تؤدة.. وقال:

- «يا له من سؤال! إنني أعيش في العنوان ذاته.. وفي جيبي ذات مفتاح الشقة ومفتاح السيارة.. أحيانًا يصعب عليّ أن أصدق أنني في كوكب آخر.. كل شيء يسير كما تركته في عالمي..»

فكرت هنيهة.. ثم قلت وقد تذكرت:

- «وطبعًا (هلسنكي) هي عاصمة (النرويج) عندكم..»

قال في دهشة:

- «طبعًا.. أليست كذلك عندكم؟ آه.. فهمت.. لا بد من بعض الاختلافات بين الكوكبين.. فمثلًا أنا أكثر صحة وإيجابية منك..»

يا للجنون! كل هذا غريب.. لكني ميال إلى تصديقه بالتأكيد..

عدت أسأله ورذاذ البحر المالح يداعب وجهي:

- «وأين تقيم هاهنا؟ لم نلتق في شقتي قط..»

- «اخترت أحد الفنادق.. فلم يكن الصراع بيننا مرغوبًا فيه في وقت مبكر..»

- «لكنك تدخل وتخرج من شقتي كأنها ملكك..»

- «إنها ملكي!» - قال ضاغطًا على كلماته - «حاول أن تفكر جيدًا في الموضوع من ناحية أخلاقية تجد انني امارس حقي الطبيعي في التعامل مع ممتلكاتي.. كل من هو (رفعت إسماعيل) المولود في (كفر بدر) في يوليو ١٩٢٤ له حق التعامل مع هذه الشقة..»

- «... واللحم يا وغد!»
- «إن ثلاجتك خاوية.. ولست راغبًا في الموت جوعًا..»
- «... و(كاميليا) يا لعين!»
- «إنها زوجة لا بأس بها.. وأرى أنها مناسبة لي..»
- «... و(سهام) يا حقير!»
ابتسم وقال في بساطة:
- «أمّا هذه فمجرد وسيلة لجعل حياتك لا تطاق!»
- «لا أفهم..»
جذب يدي في رفق كما نجذب يد طفل.. وقال:
- «تعال نتمشي على الشاطئ قليلًا.. لا جدوى من قضاء العمر هاهنا..»
وتأبط فردتي حذائه، وإلى جواري مشي عاري القدمين، يتسلى بمداعبة الأمواج لقدميه.. فتارة تتسخان بالرمال.. وتارة تنظفان..
قال لي:
- «كما قلت لك هناك اختلافات ما بين الكوكبين.. اختلافات صغيرة لكنّ لها تبعات هائلة.. كلانا كان مخطوبًا لـ (هويدا) أو خاطبًا لها.. لا أدري بالضبط.. لكنك تشاجرت معها وأنهيت الأمر.. أمّا أنا فكان احتمالي أقوى منك.. وتسامحي أشد.. لهذا نجحت في إصلاح الأمور.. وتزوجتها..»
في ذهول نظرت له:
- «أنت تزوجت (هويدا)؟»
- «نعم.. ولّى منها طفل اسمه (ناجي)!»
مررت الاسم على لساني مجرمًا مذاقه.. وغمغمت:
- «(ناجي رفعت اسماعيل).. ليس اسمًا موسيقيًا.. يبدو لي ملفقًا!»
- «ربما.. في البدء.. لكنّ سرعان ما تعتاده حين يتعلق الأمر بكائن حي يلعب ويكبر أمامك..»
نظرت له في دهشة من جديد..
إذن فهذا الأخ فأر تجارب يمكن أن أعرف منه بالكامل ما كان سيحدث لو تزوجت (هويدا).. إن لعبة (ماذا إذا؟) أو (what if) تثير شغفي دومًا..
ماذا إذا عاش (هتلر) واحتل العالم؟ ماذا إذا لم يأخذني خالي للحياة معه في (المنصورة)؟ ماذا إذا وصلت إشارة (عجلون) إلى (مصر)، وخرجت طائراتنا للتصدي للطائرات الإسرائيلية في ٥ يونيو ١٩٦٧؟
قلت له وأنا أشعر بأنه ليس مقيتًا إلى هذا الحد:
- «وكيف كان الزواج منها؟»
- «ماذا تتوقع؟ إن (هويدا) من الفتيات الرقيقات الحالمات..... حتى تجد زوجًا.. عندها لا يعود لديها وقت لهذه الترهات.. أنت تعود من عناء العمل لتجد امرأة شرسة منكوشة الشعر، لم تبدل قميص نومها منذ أسبوع برغم كل بقع الزيت عليه، ولا يسرها سوى انخفاض سعر الطماطم.. ولا يضايقها سوى ارتفاعه.. وليس عندها ما يهمك.. وليس عندك ما يهمها لأن كل ما تتحدّث أنت عنه سخف.. مجرد هلاوس من دماغ فارغ مترف!»
سرّني ما قال.. إذن أنا لم أخسر الكثير حقًّا عدت أسأله:

- «وماذا عن (كاميليا)؟»
قال لي وهو يبتسم في إنهاك:
- «إننا أرقى منكم علميًا بعض الشيء.. لهذا قمنا بتطوير حاسب الى قادر على دراسة احتمالات المستقبل.. أنت تعطيه المعطيات وهو يصل إلى النتائج، يقدمها لك في صورة فيلم متكامل على الشاشة.. ويبدو - من وجهة نظر الحاسب الآلي - أن (كاميليا) ستكون زوجة لا بأس بها.. إنها بحاجة إلى بيت وأطفال.. عندها ستكف عن التحذلق.. لن تكون أستاذًا للفلسفة في دارها.. بل ستكون أمًا.. أمًا فاضلة..»
قلت وأنا أداري ضحكة خبيثة:
- «لهذا أنت هنا.. لقد فررت من كوكب بأكمله كي تتجنب (هويدا) المزعجة وتتزوج (كاميليا) الوفية.. أليس كذلك؟»
لم يضحك.. وبجدية كاملة قال:
- «... لقد قلتها.. إن هذا هو أهم سبب يرغبني في الحياة ها هنا..»
ثم ارتسمت على وجهه مخايل شيطان يحلم..
- «إن حياتك هنا ملأى بالفرص التي لم تقتنصها ولن تفعل.. لأنك أكثر جبنًا مني.. أمّا أنا فقد جربت كل شيء في عالمي وفشلت فيه.. لكني أعرف الصواب وأستطيع أن أفعله هاهنا.. إنك قادر على إعطائي فرصة نادرة: فرصة البدء من جديد.. أنت لم تبدّد حسابك في البنك بعد.. لم تبع نصيبك في الأرض التي ورثتها عن أمك بعد.. لم تتزوج (هويدا) ولم تطرد (كاميليا) من حياتك بعد..
حتى برنامجك الإذاعي الذي بدأ يعطيك قسطًا من الشهرة؛ لم تمنعه الرقابة بعد... إن المكان شاغر لـ (رفعت إسماعيل) آخر يعرف ما يفعله!»
ثم التقط أنفاسه.. وفي إرهاق قال:
- «لهذا جئت لأخذ مكانك هاهنا!»

* * *

٨ - كوكب لا يسع اثنين..

كلنا يعرف أن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لكنّ صراعات مروعة قد تنجم عن هذا اللقاء إذا حدث..

* * *

- «يا للسخرية! وتظن أنني سأتركك تأخذ مكاني؟»

قال في نفاد صبر:

- «بالطبع لن تفعلها إلا مجبرًا.. وأنا أعرف كيف أجبرك.. هذا الكوكب لا يسع اثنين يا عزيزي (رفعت).. وعليك أن تفهم هذا بالحسنى.. وتعود بدلًا مني إلى كوكبي حين يأتي ميعاد العودة.. فالحياة هناك تناسب إنسانًا رخوًا سلبيًا مثلك..»

- «أنت مجنون!»

- «ربما.. لكني قادر على جعل الحياة لا تطاق بالنسبة لك هنا.. أنت تعرف أنني قد زرت (سهام) في شقتها صباح اليوم.. بالطبع رحبت بي وأكرمت وفادتي.. هنا فتحت الموضوع الشائك الذي جئت من أجله: أنا أحبها.. وأريدها أن تتخلى عن (عادل) من أجلي.. بالطبع فقدت البائسة تعقلها وانهالت عليّ لومًا وتقريعًا، وطردتني من المنزل دون رحمة.. بعد هذا جاء (رفعت اسماعيل) البريء الذي لا يعلم شيئًا عما حدث؛ ليزور (عادل) ويأتي معه للغداء.. أية وقاحة هذه! أية سفالة! تصوّر مئات المواقف المماثلة!»

صعد الدم إلى رأسي حتى غدا العالم أحمر كعرف ديك.. وصحت:

- «أيها اللعين! لماذا فعلت هذا؟»

- «الجواب معروف.. لأجعل هذا الكوكب لا يُطاق بالنسبة لك.. سيكون الفرار إلى عالم مواز - أو إلى القبر - هو الحل الأخير في جعبتك!»

- «لكنه سيكون عالمًا مستحيلًا بالنسبة لك أيضًا!»

- «هذه مشكلتي.. إنني شخص ناضج يعرف كيف يتولى أموره..»

كنا قد وصلنا إلى نهاية الشاطئ، حيث مجموعة من الصخور كساها الطحلب.. وكنت قد وصلت إلى سؤالي الأخير:

- «وماذا إذا رفضت؟»

التقت عيناه بعيني.. وقال في هدوء:

- «لن يكون لي بديل عن قتلك!»

* * *



ثم التقط أنفاسه . . وفى إرهاق قال :

ـ « لهذا جئت لأخذ مكانك ها هنا ! »

مبلبل الأفكار عدت إلى البنسيون.. حزمت حقائبي وتهيأت للرحيل..
يجب أن أعود إلى (القاهرة) اليوم.. الآن.. قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.. فأنا عليم بما يستطيع هذا الوغد أن يحدثه من ضرر..
دفعت إيجار اليوم.. وهرعت إلى سيارتي..
وراحت معالم (الإسكندرية) تهرب مني إلى الوراء..
من أدراني أنه لن يبقى في (الإسكندرية)، ليواصل إفساد حياتي؟ لكني وجدت أنه قادر على إحداث ضرر بالغ في (القاهرة).. أمّا هنا فليس لي سوى (عادل)، وأم (هويدا) العجوز التي أستبعد أن يخنقها تاركًا بصماتي على أكواب الماء في شقتها..
إنه لموقف عصيب!
يوجد شخص آخر يشبهني، وله بصماتي، وهو مصمم على إفساد سمعتي!
ولا يحدث هذا إلا لي.....
(كفر الدوار).. (إيتاي البارود)..
ماذا قال؟ قال إن عليّ لو قبلت عرضه أن أقف في مكان معين فوق سطح داري.. المكان الذي يلمسه ظل هوائي التلفزيون في السابعة صباحًا يوم الجمعة القادم ـ أي بعد أسبوع ـ وعندها ستهبط الطلقة التالية من مدفع الطاقة إياه.. عندها تبدأ عملية الاسترداد..
وماذا لو لم يقف أحدنا فوق السطح؟
عندها يُرزق العالم باثنين (رفعت اسماعيل) للأبد.. وهو أمر غير مقبول.. لهذا سيكون على أحدنا أن يقتل وعلى الآخر أن يُقتل..
(كفر الزيات).. (طنطا)..
ولماذا أقبل أن أترك عالمي من أجل وغد مدّع؟ لماذا لا يرحل هو؟
إن الإيذاء لعبة لإثنين.. لكنه لن يترك هذا العالم قابلًا للحياة فيه بعد رحيله.. هذه هي المشكلة..
(بركة السبع).. (بنها)..
صبرًا أيها القادم من عالم فيه (هلسنكي) عاصمة (النرويج)! لسوف أدبرك.. وستعرف أنني لست سهل الهضم..
(القاهرة).. العجوز المنهكة:.
عرجت على أول (سنترال) وجدته، وقد خطر لي خاطر مزعج..
أدرت قرص الهاتف طالبًا مديرية الأمن في (الإسكندرية).. وانتظرت في توتر حتى سمعت صوت (عادل) يسألني عما هناك..
- «(رفعت)؟ أبهذه السرعة؟»
ابتلعت ريقي.. وسألته بدوري:
- «لم أقل لك إنني مسافر.. كيف عرفت؟»
- «كنت عندي منذ ساعة.. هل نسيت؟ أنت تتكلم من (القاهرة) طبعًا.. يبدو هذا مثيرًا.. أرجو أن تتمكّن من اللحاق بموعدك..»
- «أي موعد؟»
نفد صبره.. فقال في خشونة:

- «موعدك مع ذلك الدائن.. الخمسمائة جنيه التي اقترضتها مني.. أتراك نسيت أم أنك تلعب بي؟ لا تبدو لي على ما يرام يا (رفعت)!»

وابتلعت ريقي من جديد.. فعلها اللعين.. ولم تعد جدوى من محاولة الإنكار.. لهذا قلت لـ (عادل) كمن يتذكر:

- «آه! آه! عفوًا فأنا أنسي سريعًا هذه الأيام.. لا تقلق بصدد مالك يا (عادل).. سيكون عندك بعد أسبوع..»

- «لا عليك.. وإلا فما نفع الأصدقاء؟ على كل حال قد سررت حين عرفت أن الديون هي سبب شرودك وغرابة أطوارك.. ولكني أصارحك يا (رفعت) بدهشتي من أستاذ جامعة في هذه السن؛ ولا يملك خمسمائة جنيه في وقت الطوارئ.. إن التبذير لم يكن.....»

لا أجد الوقت مناسبًا لهذا الهراء..

لذا صحت فيه في غلظة:

- «(عادل).. اسمعني.. إياك أن تسدي لي أي خدمات مالية، أو تصدق أي حرف أقوله لك، أو تسمح لي بزيارة دارك لمدّة أسبوعين من الآن.. هل تفهمني؟»

- «طلب غريب حقًّا.. هل أنت..؟»

- «لا وقت للشرح.. وداعًا!»..

ووضعت السماعة..

ها هي ذي أولى خسائري.. كل الناس تشك في حالتي العصبية حاليًا..

ولا ألومهم على ذلك أبدًا.

ثم هرعت إلى سيارتي فاستقالتها إلى داري..

* * *

أحضرت المفك وعالجت قفل الباب، ثم استبدلت بقلبه ذلك القلب الذي ابتعته من (الإسكندرية).. وهكذا لن يدخل الشقة سواي..

لقد تأخرت هذه الخطوة كثيرًا.. ربما لأنني كنت أحسبني مخبولًا لا أكثر.. أمّا الآن فأنا أعرف أن العدو هنا.. وقريب جدًا..

ثم رفعت سماعة الهاتف، وأدرت بضعة أرقام على القرص..

صوت أنثوي ذكرى يتساءل عن المتكلم:

- «أنا (رفعت) يا (كاميليا)..»

- «مرحبًا (رفعت).. اتصلت بك أمس لأقول إنني - بعد عدة تحفظات وشروط - على استعداد لأن أقب.....»

سارعت بمقاطعتها قبل أن يخرج حرف (اللام) القاتل من فمها:

- «نعم.. أعرف أنك مترددة يا (كاميليا).. وأنا لن أثقل عليك..»

وابتلعت أكبر قدر من الهواء لأتمكن من التلفظ بالتالي:

- «يبدو أنني وضعتك في مأزق حرج.. صداقتي أم حبي؟ لن أضايقك أكثر من هذا.. صداقتك تعني لي كل شيء.. ويمكنني أن أتحمل الحرمان من حبك ما دمت ستكونين صديقتي.. حسن.. اعتبري أنني لم أقدم عرضًا!»

كنت أتكلم وأنا أعتصر السماعة كالثعبان في يا له من موقف! يا له من موقف!

قالت لي في تردد:

- «لكني لم أقل ذلك.. ربما كانت هناك فرصـ.....»

- «لا يا (كاميليا).. أنا لن أثقل عليك مرّة أخرى.. فأنا أعرف حدودي.. وقد حسبت للحظة أن النجوم قبضتي من موقف من حقي.. لكنّ كنت أحمق ديدني..»

لقد لعبت الدور كأعظم ممثل شكسبيري..

أعرف أنها لا تفهم.. أعرف أنها تشعر بالإهانة.. أعرف أنها تعتبرني حمارًا أو مهرجًا سخيفًا.. أعرف أنني بالغت في تقليل شأني..

لكني مرغم.. يجب أن أقطع هذا الجسر على الوغد الآخر..

سمعتها تقول في خيبة أمل تداريها:

- «حسن.. كما تشاء.. والآن وداعًا..»

- «وداعًا!»

ووضعت السماعة..

رجل يعرض الزواج على امرأة ويتوسل لها.. ثم يعتذر عن عرضه حين توشك هي على القبول! أي نذل هذا.. ومن أية مباءة جاء؟

المهم أنني - بجراحة دامية ـ نجحت في قطع ذيول هذا الموضوع الشائك.. وهأنذا قد فقدت اسمًا جديدًا في لائحة أصدقائي..

هل سيتصل بها؟ هل يكرر العرض؟

هذا جائز.. لكنّ كبرياء الأنوثة عاتية حقًّا... وهناك احتمال ٩٩,٩٩ ٪ أن تغلق السماعة بمجرد سماع صوته..

ماذا بقي لي من أعمال مهمّة؟

هرعت إلى البنك.. وطلبت تغيير توقيعي.. ها هي ذي مشكلة جديدة تم حلّها..

ثم اتجهت إلى الجزار - اللحام حتى لا أستفز المجمع اللغوي ـ وأخبرته برسالة غريبة بعض الشيء: لا تبع لي لحمًا لمدّة أسبوعين.. حتى لو بدا لك أنني أموت جوعًا!

رجل ثالث يحسبني جننت.....

لن تكون هناك مشاكل في الجامعة لأن إجازتي لم تنته بعد..

هل نسيت شيئًا؟

طبعًا نسيت!

* * *

٩ - ثغرات.. ثغرات..

يقولون إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لكنّ عليك أن تتذكر كل ما كنت تفعله كروتين قبل هذا اللقاء..

* * *

أول الغيث قطرة..

وقطرتي كانت مع رنين الهاتف اللحوح المزعج.. رفعت السماعة وأنا أتمنى أن يكون المتكلم أمامي لأخنقه..

كان هذا صوت (رضا) أخي يتحدث من (كفر بدر).. فصحت:

- «مرحبًا (رضا).. هل ماتت زوجتك؟ سيؤسفني هذا كثيرًا..»

لكنه لم يكن ذا مزاج للمزاح.. وسمعته يقول بصوت متجهم:

- «لماذا لم تقل لي إنك تريد بيع القيراطين؟»

قيراطين؟ هناك خطا ما..

- «من قال هذا الكلام الفارغ؟»

- «(عبد المنصف).. ألم تزره منذ يومين وتطلب منه أن يجد مشتريًا على وجه السرعة؟ هذه أشياء غير مفهومة يا (رفعت).. من العار أن أعرف هذا من الغرباء.. ثم إنني مستعد للشراء إذا أردت بيعًا.. أنت تعرف هذا جيدًا وبرغم ذلك.. وبرغم ذلك.....»

آه! فهمت سر اختفاء (رفعت إسماعيل) الآخر عني منذ عدت إلى (القاهرة).. كان هناك في (كفر بدر) يبيع القيراطين اللذين أملكهما.. وطبعًا لن يصدّق (رضا).. حرفًا من تفسيري للأمر..

- «حسن يا (رضا)... اذهب لـ (عبد المنصف) وقل له إنني تراجعت... لن أبيع.. وأمنحك صلاحية مطلقة لمنع أي محاولة للبيع!»

- «لكنّ.. أتراك مريضًا يا أخي؟»

- «افعل ما قلت يا (رضا) أرجوك..»

وأنهيت المكالمة..

هو ذا شبيهي يتصرّف بأسلوبه المعتاد.. الضرب تحت الحزام.. ولا شك أنه ذهب إلى البنك ليسحب كل مدخراتي، لكنه اصطدم بتغيير التوقيع.. لا أعرف كيف تخلص من هذا الموقف.. لكنه راح يحاول لعبة جديدة في (كفر بدر)..

إن السيطرة على أفعاله شبيهة بالسيطرة على قطيع من الخراف الهائجة.. كلما سيطرت على عشرة منها فر اثنان.. طارد الاثنين تجد أن العشرة قد فرت بدورها..

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه..

كان هذا هو الحاج (عرفة) صاحب المنزل.. وهو تاجر خردة واسع الثراء.. لكنّ كبر السن أورثه ضيق خلق وجهامة.. ولم يكن من المعتاد أن يزور شقتي إلا في المصائب حييته.. لكنه لم يكن ودودًا.. دعوته للدخول فلم يبد على استعداد..

- «خيرًا يا حاج؟»

سعل مرارًا.. وبصق.. وراح يهز عصاه في عصبية مرددًا:

- «من أين يجيء الخير؟ من أين يجيء؟ أبعد كل هذا العمر والعشرة تحرر ضدى محضرًا في المخفر؟ لم؟ ولم تراع هذه الشيبة؟»

كان التفسير واضحًا.. مأزق جديد من المآزق التي صارت إيقاع حياتي في الآونة الأخيرة..

- «بعد كل هذا العمر تشكوني لأن مصباح السلم مكسور؟»

إذن مصباح السلم مكسور.. هذا جديد عليّ.. وطبعًا قام شبيهي بعمل ما يلزم لتدمير العلاقة بيني وبين صاحب الدار للأبد..

رحت أعتذر للشيخ عاجزًا عن إيجاد تفسير مقنع..

وفي النهاية وعدته بالتنازل عن المحضر.. لكنّ هذا لم يكن عذرًا كافيًا.. فالمحضر لا يهم.. المهم هي الروح الخسيسة الشريرة التي أملت علي ما فعلت..

وانصرف غاضبًا.. وأنا أبحث عن شيء أقوله..

* * *

ثالث قطرات الغيث..

* * *

عند البقال.. وقفت أنتظر دوري.. ثم تقدمت إلى النضد الرخامي الذي تعلوه شظايا الجبن الرومي... وبقايا الخل.. والزيت..

- «هل يوجد عندكم جبن دمياطى جيد؟»

كانت الحسناء الواقفة جواري تحدجني بعينين متهمتين..

ثم ازدادت عيناها اتساعًا..

نظرت لها في غباء.. أنا لم أرها من قبل..

ثم تذكرت أن كل شيء ممكن في هذه الآونة..

هذه الفتاة تعرفني.. وقد آذيتها أذىً كبيرًا في وقت ما.. هذا أكيد...

رأيتها تجذب وحشًا مفتول العضلات من ذراعه.. وكان يقف جوارها منهمكًا في تذوق قطعة من الجبن ناوله البقال إياها ليجربها..

نظر لي بدوره وفي عينيه نظرة تنذر بحش الرقاب..

وسمعتها تقول له:

- «(ميمي)! هذا هو الوقح الذي عاكسني أمس!»

نظرة حش الرقاب صارت نظرة فتح كروش... وهو يرمقني مذهولًا ويقول:

- «هذا؟ (خيال المقاتة) هذا؟»

- «أقسم لك.. قال عبارة غزل ثم أرسل قبلة في الهواء، وانصرف!»

هنا ازداد الأخ (ميمي) هياجًا.. وتكورت العضلات في ذراعيه وصدره.. ورأيته يتقدم مني وهو يزأر كالنمر.. الجبن يتساقط من شفتيه مع اللعاب.. لم أنتظر لأقدم تفسيرات أو أسئلة.. أنا أعرف أنّ هذا حدث.. أعرف أنّ هذه هي الحقيقة..

وقبل أن أفهم أنا نفسي ما يحدث، أطلقت ساقي للريح.. إنني خفيف الوزن على كل حال.. لكن منظري بدا لي مهينًا.. مهينًا إلى حد لا يوصف..

بعد كل هذه السنين... أنا د. (رفعت إسماعيل) يهرب كأرنب.. ومتهم بمعاكسة امرأة!

ولو أمسكني هذا الأخ (ميمي) لتناثرت كرامتي مع دمائي في كل أرجاء الشارع.. تدوس عليها الكلاب وأحذية العابثين..

وحين ابتعدت بمسافة كافية؛ أرحت ظهري إلى جدار.. ورحت ألهث.. وعيناي تدمعان قهرًا...

ورحت أردد دون كلل: سوف أقتله! سوف أقتله!

* * *

وتحت باب شقتي وجدت ورقة دسّها أحدهم لي.. تقول:
- «اهرب بجلدك! أنا أعرف كيف أتوافق مع هذا الجحيم.. أمّا أنت فلا..»
لم يكن ثمّة داع للتوقيع.. لأن الخط خطي ذاته..

* * *

ثم انهمر الغيث..
صار مألوفًا أن يتهمني كل الناس بأشياء لم أعملها..
جاري - المهندس الشاب - جاءني ومعه طفلته الصغيرة.. كانت تنتحب في حرارة وفي يدها دمية مكسورة..
تقول الطفلة إنني قابلتها على السلم، فانتزعت منها الدمية وهشمتها بضربها في الحائط مرارًا.. ثم صفعت الطفلة وانصرفت.. فما هو دفاعي؟!
أقسم بالله إنني لم أفعل..
وبعد جدل عويص وتلويح بالأيدي، يحاول الرجل إقناع نفسه أن الطفلة تكذب أو تتوهم.. أمّا أنا فأعرف أن كل حرف قالته صدق..
ثم يجيء البواب ومعه صديقان له.. ليلومني على السبّة التي أطلقتها عليه.. لم أفعل.. أقسم بالله لم أفعل..
وينتهي الموقف على تراضٍ غير ذى أساس..

* * *

لم أفعل.. أقسم بالله لم أفعل..

* * *

بعد يومين في هذا الجحيم كنت قد حزمت أمري..
سأقتل (رفعت إسماعيل) دون شفقة!

* * *

١٠ - ألعاب القتل..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم... لهذا يحتاج إلى ما هو أكثر من الحظ كي يقتل هذه النفس دون أن يموت هو نفسه!

* * *

أراكم مندهشين!

هو ذا العجوز المسالم (رفعت إسماعيل) الذي اعتاد أن يبيت مظلومًا لا ظالمًا؛ يتحدث عن القتل في تصميم حاقد..

خذوا الموقف من الناحية الأخلاقية..

أولًا: أنا لن أقتل سوى نفسي.. لكنه وضع فريد لن يكون من السهل أن تعتبره انتحارًا، لأننى سأظل حيًا بعد هذا..

ثانيًا: إن قتل الأفاعي السامة ليس جريمة، وقد أثبت هذا الـ (رفعت).. أنه أشد أذى من كل الأفاعي المقرنة وذات الجرس.. ثم إن أحدًا لن يساعدني سواي.. لا جدوى من أن أشكوه إلى الشرطة..

ثالثًا: لو أنك صادفت طبقًا طائرًا ونزل منه كائن مغطى بالحراشف، وله لسان مشقوق وثلاث أعين... عندها يُمكنك أن تقتله.. من الناحية الأخلاقية لن يتهمك أحد بأنك قاتل آثم.. قوانين الأخلاق لا تتضمن تلك الكائنات الشنيعة القادمة من عوالم أخرى.. وهذا الـ (رفعت) كائن قادم من عالم آخر..

صحيح أنه يبدو بشريًا.. صحيح أنه مثلي ومثلك.. لكن القاعدة لا تتحمل أية استثناءات..

هذا عن الناحية الأخلاقية..

من الناحية الأمنية لن تكون هناك مشكلة.. فهذا الـ (رفعت) لا وجود له.. وطالما أنا حي أرزق فلا جريمة هنالك..

يبقى الآن التدبير العملي لهذه الجريمة..

١ - يجب أن يكون قتلًا سهلًا لا يحتاج إلى مجهود عضلي..

٢ - يجب أن تختفي جثته تمامًا.. كأنما لم يوجد

٣ - يجب أن أكون حذرًا.. لأنّه - بالتأكيد - يتوقع هذا.. ولأنه يحمل مسدسًا طبعًا ما دام نسخة أخرى مني...

الآن - بوصفي قاتلًا مرتب الذهن - غدا من واجبي أن أضع الطرق المختلفة للقتل على الورق، مع اختيار أفضلها وأنسبها..

١ ـ القتل بالخنق.. الشنق.. العنف الجسدي: بالتأكيد لا يصلح.. فنحن متعادلان في القوة.. بل كفته أرجح قليلًا.. وهذا يعني أنه قادر على سحقي متى شاء..
٢ ـ القتل رميًا بالرصاص: حل لا بأس به، ولا يحتاج إلى قوة جسدية.. لكنّ تبقى مشكلة صوت الرصاصة.. لا أملك كاتمًا للصوت ولا أعرف من أين أبتاع واحدًا..
(ربما لو استطعت تدبير لقاء في الصحراء لغدا هذا ممكنًا)..
٣ ـ القتل رميًا من عل: يحتاج إلى صراع عنيف.. ولربما كان هو الطرف الأقوى فيه.. ثم إن هذا القتل تتخلف عنه جثة.. والجثة ستثير أسئلة كثيرة.. خاصة أنها ستكون ملقاة في عرض الطريق..
٤ ـ القتل بالسم: حل رائع.. وغير خطر.. فقط يحتاج إلى جلسة صافية بيننا في مكان منعزل..
وهكذا استقر رأيي على القتل بالسم..
واتجهت إلى صيدلية داري، فاخترت بعض عقاقير القلب الفعالة.. إن أقراص (الديجيتالا) مناسبة جدًا.. يكفي أن أطحن منها ثلاثين قرصًا بقاعدة الكوب.. ثم أضعها في وريقة صغيرة.. وأدس المسحوق في جيبي بانتظار اللحظة المناسبة..
وهكذا رحت أمضي الساعات استعدادًا لمهمتي الخاصّة هذه..

* * *

إنه يريد أن يطردني من وجودي.. يحتل عالمي.. لهذا صارت الحرب هي المخرج الوحيد لي.. ولتكونن حربًا ضروسًا لا تذر..

* * *

أين هذا الوغد؟ لماذا لا يتصل بي؟

* * *

في اليوم التالي لم تكن هناك مضايقات كثيرة..
فقط استدعوني إلى المخفر.. وهناك رأيت د. (رشدي) جالسًا ينتظر..
كان د.(رشدي) زميلًا لي في الكلية.. وكان متوترًا دومًا كذيل حية ذات جرس.. وله شعر أشيب ناعم ينساب على جبينه كلما حاول رفعة لأعلى.. ووراء عويناته تطل نظرة اتهام دائمة...
كانت بيننا منافسة طال أمدها.. فهو من نفس صفي الدراسي قديمًا.. وكلانا يحاول أن يسبق الآخر بخطوة ليريه كم هو أحمق..
وفي الآونة الأخيرة ما بيننا عدم استلطاف متبادل، كان يتحول أحيانًا إلى تراشق بالاتهامات.. فأنا أعتقد ـ وأؤمن ـ أنه سرق إحدى أوراقي البحثية ونشرها باسمه.. أمّا هو فيؤمن أنني المسئول عن اختفاء عيناته المعملية من ثلاجة المستشفى.. وهذا كلام فارغ طبعًا..

كنا لا نطيق بعضنا.. لكننا حافظنا دومًا على روح التحضر بيننا.. ولولاها لهشم كل منا رأس الآخر على أقرب جدار...

كان جالسًا مع مأمور القسم يجرع بعض المياه الغازية من زجاجة، وحين رآني أشاح بوجهه بعيدًا وازداد توترًا.....

دعانى مأمور القسم للجلوس.. ثم قال في تحفظ:

- «معذرة يا د. (رفعت).. إنّه سوء تفاهم سيتم حله سريعًا..»

سوء تفاهم؟ ماذا حدث في هذه المرّة؟!

قال المأمور بنفس اللهجة المهذبة:

- «يبدو أنّ هناك من يستغل اسمك، ويداعب د.(رشدي) مداعبات قاسية.. لكننا واثقون أنّ هذا لم ولن يحدث بين أستاذي جامعة راقيين مثلكما!»

هنا صاح (رشدي) في هستيريا:

- «إنّه هو! الخط خطه والتوقيع توقيعه!»

نظر له المأمور كي يصمت.. ثم عاد يسألني بنفس الابتسامة المهذبة:

- «هل عندك فكرة عن هذا الخطاب؟»

مددت يدي لأتناول المظروف من يده.. وفتحته متوجسًا..

كان يفتقر إلى التهذيب.. هذا هو أقل ما أستطيع وصفه به.. ولما كان نصه غير قابل للنشر فإنني أرجو إعفائي من تلاوته عليكم.. لكنه - على كل حال - يحوي قدرًا لا بأس به من التهديد.. وعددًا محترمًا من نعوت (الحمار) و(الخنزير) و(اللص) و(المعتوه)..

كان الخطاب يهدد (رشدي) بقطع أذنيه إذا لم يكف عن سرقة بحوث العلمية.. وطبعًا كان الخط خطي دون حاجة لخبير خطوط، وكان مذيلًا بتوقيعى وباسمي.

مفاجأة جديدة يقدمها لي ذلك الـ (رفعت إسماعيل)..

رفعت الخطاب في يدي.. وقلت بلهجة من يجد كل هذا سخيفًا:

- «طبعًا لا داعي لإضاعة الوقت في مناقشة هذا الاتهام.. إن من يكتب خطابًا كهذا لا يوقعه باسمه أيضًا..»

نظر المأمور إلى د.(رشدي) وابتسم.. وهز يده.. كأنما يقول له: أرأيت؟ إن هذا منطقي جدًّا..

لكن د. (رشدي) هتف في عصبية وتعصب:

- «إن (رفعت) ذكي جدًا.. لقد وقع الخطاب كي يبعد الشك عن نفسه.. كان يعرف أننا سنقول ذات الشيء!»

قلت أنا محنقًا (وقد زاد من حنقي أنني أعرف أن كلامي كذب):

- «ولماذا أرسل خطاب تهديد؟ يمكنني دومًا أن أقول لك ما أريد بلساني.. لست مراهقًا يخشى أن يصارح ابنة الجيران بحبه، فيكتب لها خطابًا..»

قال المأمور بلهجته المهذبة الميالة إلى تهدئة الأمور:

- «أنا كذلك أرى أنّ هذا غير منطقي.. هناك من يلعب لعبة قاسية كي يوقع البغضاء بينكما..»

هتف (رشدي) وهو يزيح الخصلات البيضاء عن جبهته:

- «خبير خطوط! أنا أطالب بعرض هذا الخطاب على خبير خطوط.. عندها سيعرف الجميع أنّ هذا هو خط (رفعت إسماعيل)!»

آه ه ه! هذا هو ما أخشاه.. أنا أعرف جيدًا أن الخط خطي..
لكني تظاهرت بقوّة موقفي.. وباستخفاف قلت:
- «خبير خطوط! لمَ لا؟ وقارئ كف كذلك.. إن الخط يشبه خطي يا د. (رشدي).. لكنه ليس خطي.. هل هذا واضح؟ هناك من تعمد تقليد خطي ليحكم خداع شخص مثلك..»
صاح الرجل في عصبية بالغة وهو يشير إلى:
- «هل تسمع يا سيدي ما يقول؟ أنا أطالب بحمايتي من هذا الرجل.. فهو مجنون تمامًا.. مجنون ولا يتحكم لحظة في نفسه..»
ظل المأمور جالسًا ينقل عينيه بين وجهينا.. نظراته تقول بوضوح: تالله ما أغرب هؤلاء الأطباء! إنهم يجنون جميعًا في النهاية...
بعد هنيهة قال:
- «يمكنني تصعيد الأمر وعرضه على النيابة.. لكني لست ميالًا إلى هذا... فلسنا بصدد مشاجرة بالمطاوي (قرن الغزال) في مقهى.. بل هو خلاف بين عالمين.. لهذا أسألك يا د.(رشدي) أن تتناسى الأمر..»
ثم نظر لي.. وقال بلهجة مناشدة:
- «وأسألك أن تعتذر له يا د. (رفعت)!»
هنا (أخذتني العزة بالإثم) فواصلت تمثيل دوري..
- «أنا؟ أعتذر له؟ أعتذر عن أي شيء؟ أنا لم أكتب هذا الخطاب.. وعليه أن يعي ذلك... وإلا فليفعل ما يروق له..»
- «أرجو ألا تزيد الأمور تعقيدًا..»
ثم نظر إلى د. (رشدي) مناشدًا من جديد:
- «هلمّ.. تنازل عن شكواك.. الأمر ليس بهذا السوء..»
بعد دقائق وجدنا أننا أنهكنا الرجل أكثر من اللازم.. وكان الوقت قد صار مناسبًا لي كي أعتذر لا عن كتابة الخطاب.. بل عن ما سببته للرجل من صداع.. وقبل (رشدي) أن يتنازل بدوره..
وهكذا انتهت هذه الجلسة المرهقة..
وانصرفت و(رشدي) عدوين يتمنيان الدمار البعضهما..
ضربة أخرى تحت الحزام من شبيهي.. وهي ليست الأخيرة.. إن الغيث ينهمر بغزارة.. يمكنه أن يفعل كل شيء: خطابات غرامية للجارات المتزوجات.. خطابات تهديد للجيران.. خطابات تحوي السباب لزملائي في العمل.. منشورات تهدد أمن الدولة يعلقها في كل مكان..
وفي جميع الأحوال يستطيع خبير الخطوط أن يؤكد ويقسم على أنّ هذا هو خطي..
سوف أقتله.. لا أجد حلًا أكثر رقة..

* * *

١١ . التسلل..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. لهذا ربما احتاج إلى البحث عن هذه النفس في كل مكان مطروق..

* * *

ولكن أين هو الآن؟
ما دام لا يبحث عنى فعليّ أن أبحث عنه..
إن يوم الجمعة يقترب.. وبعده سيكون عليّ أن أتحمل وجوده معي للأبد.. لكنه لن يحاول تعكير حياتي وقتها.. بل سيحاول إنهاءها!
لقد تجاوزنا مرحلة (المقالب) إلى مرحلة القتل..
على أن أجده سريعًا.. لكنّ أين؟

* * *

هو قال إنّه يقيم في فندق...
يمكننا هنا أن نستغل التشابه الشديد في طباعنا، لنتوصل إلى هذا الفندق.. هو فندق من النوع الذي يناسبني.. نظيف.. صغير.. ثم هو فندق رخيص الثمن.. لأن إمكاناته الماديّة محدودة..
أضف لهذا أنه فندق دان من بيتي.. ما دام الرجل يحوم حول منطقة سكني بهذا الإفراط.. وهو لا يملك سيارة.. ولا يستعمل سيارتي في المعتاد..
وهكذا ـ وعلى طريقة (هولمز) الشهيرة ـ أمكنني أن أركز شكوكي في ستة فنادق.. كلها تتمتع بالشروط الثلاثة..
ورحت أجول بينها بالسيارة.. بعدما أعددت بعض احتياطات ضروريّة..
دخلت فندقين لأسأل عن (رفعت إسماعيل).. وهو سؤال غريب طبعًا لو اتضح أن الرجل يقيم في أحدهما.. (رفعت) يسأل عن (رفعت).. سيجن موظف الاستقبال حتمًا..
لكن الفندق الثالث أراحنى من عناء السؤال.. كان اسمه (فندق المهراجا).. وهو اسم غريب لا يبعث الطمأنينة في النفس...
فما إن دخلت إلى ردهة المكان، حتى وجدت موظف الاستقبال يمد يده ـ دون أن ينظر لي ـ ليلتقط مفتاحًا من اللوحة خلفه، ويناوله لي دون اكتراث.. ثم يعود لمطالعة الجريدة التي أمامه..
فهمت! هذا هو الفندق المقصود.. والموظف يحسبني أنا (رفعت إسماعيل) غير عالم ـ الأحمق ـ أنني (رفعت إسماعيل)!

للأسف فاتني أن أعرف رقم الحجرة.. فاللوحة بها عدة مفاتيح ناقصة.. لهذا استجمعت شجاعتي وسألته أسخف سؤال ممكن:

- «معذرة! غرفة رقم.....؟»

ارتفع حاجباه في دهشة.. ونظر لي هنيهة ثم قال:

- «رقم ستة وخمسين! هل نسيت يا دكتور؟»

حاولت أن أبرر موقفي بشرود الذهن.. حكيت له عن الأديب (تشسترتون) الذي وقف في طابور البنك حتى وصل إلى الصراف... عندها أدرك أنه نسى اسمه! والتفت إلى الواقفين يسألهم: هل يعرف أحد اسمي من فضلكم[3]؟

ابتسم الموظف ابتسامة باهتة.. إن هذه النكات الإنجليزية لا تناسب موظفي الاستقبال كما هو واضح..

على كل حال لقد عرفت ما أريد..

وتهيأت للانصراف حين تذكرت.. تذكرت أنني نسيت الرقم من جديد! تبًّا لعقلي الفارغ المتخاذل! لقد أنستني حكاية (تشسترتون) الرقم بعد دقيقة من سماعه.. لهذا التفت إلى الموظف من جديد:

- «سامحني على وهن ذاكرتي.. قلت لي ما هو الرقم؟»

نظرة حيرة تبدت في عينيه.. أتراني أسخر منه؟ في النهاية قال نافد الصبر:

- «ستة وخمسون! إنّه مكتوب على المفتاح على كل حال!»

- «شكرًا..»

وصعدت في الدرج.. لا بد أن الغرفة السادسة والخمسين في الطابق الثاني.. ووجدت أرقام الخمسينات على الأبواب أمامي.. فسرت معها حتى وصلت إلى الغرفة المطلوبة..

ليس (رفعت) هنا حتمًا ما دام مفتاحه مع موظف الاستقبال.. فدخل دون وجل.. كليك! انفتح الباب عن وكر الأفعى..

ودون تردد خطوت إلى الداخل..

* * *

لم تكن الغرفة آية في النظام والنظافة..

هذا طبيعي.. أليس هو (أنا) آخر؟ ثم إن عاملة الفندق لا تنظف الغرفة إلا مرة واحدة في الصباح..

رحت أتأمل أشياءه في فضول نهم...

أكوام من الجريدة التي أقرؤها دون سواها.. ثيابي التي سرقها مني في كل موضع..

لا أعتقد أنه سيحتفظ بمالي هنا..

وجوار الفراش وجدت علبة مميزة.. علبة أقراص (النتروجلسرين) إياها.. فهو مثلي يشكو من ضيق الشرايين التاجية في سن مبكرة نسبيًا..

كان المقلب الأول في ذهني تمامًا، وقد استعددت له منذ وقت مبكر..

مددت يدي إلى جيبي وأخرجت علبة أقراص (الإفدرين).. ثم إنني أفرغت محتويات علبة (النتروجلسرين) في جيبي.. وملأت العلبة بـ (الإفدرين)..

إنها مفاجأة غير سارة لمرضى القلب عمومًا.. سيشعر بألم في صدره، ويحاول أن يخفف منه بقرص (نتروجلسرين).. عندئذٍ يؤدي (الإفدرين) عمله ويزداد العبء على القلب أكثر فأكثر.. ربما يؤدي إلى الوفاة أيضًا..

الوفاة؟

عندها توقفت.. تصلبت أطرافي:. ثم - لا شعوريًا - مددت يدي لأفرغ العلبة من (الإفدرين).. إن القتل أصعب مما توقعت.. خاصة حين يكون قتلًا خسيسًا مخادعًا كهذا.. على كل حال إن علبة (نتروجلسرين) فارغة لأفضل وأقل ضررًا من علبة ملأى بسم زعاف..

قررت أن أمرح قليلًا على طريقته..

وهكذا قمت بإتلاف بعض الأشياء في الحجرة.. وخدشت الجدران بقلمي.. ومزقت حشية الفراش..، أتمنى أن أرى وجهه حين تطالبه إدارة الفندق بثمن هذه الإصلاحات.. إن فندق (المهراجا) هذا لا يقبل الشيكات طبعًا.. وبالطبع يحتفظ ببعض البلطجية لإقناع الرافضين من أي نوع..

* * *

تأهبت للانصراف حين سمعت صخبًا خارج الغرفة..

أرهفت السمع.. فتبينت صوتى الوقور يتكلم بالخارج.. والصوت الآخر كان موظف الاستقبال.. لقد وقعت في الشرك!

كان موظف الاستقبال يكرر في حماس:

- «أقسم إنك أخذت المفتاح وصعدت لحجرتك منذ دقائق..»

وكان (رفعت) يقول في إصرار:

- «وهأنذا أمامك! فهل وثبت من النافذة وعدت لأدخل من الباب؟»

- «أستغفر الله العظيم!»

- «لن نظل هنا طيلة اليوم.. هل معك مفتاح آخر؟»

- «بالطبع.. لكنّ..» - ثم في استسلام - «أستغفر الله العظيم!»

لم يكن هناك مفر من الاختباء..

وراء الستائر؟ لا.. إنّه مكان أبله لا يناسب سوى أبطال مسرحيات (شكسبير).. تحت الفراش؟ سيكون في هذا (بهدلة) لا بأس بها.. لكنه الحل الوحيد...

وهكذا شرعت أزحف تحت الفراش، ومددت جسدي.. يا له من جسد ملىء بالعظام لم يخلق للنوم على الأرض!

وهنا سمعت صوت المفتاح يدور في الباب..

- «يا الله! ماذا أصاب الغرفة يا سيـ...؟»

- «لا عليك.. خذ هذا.. سنتفاهم فيما بعد..»

- «لكنّ.....»

وعرفت - من مكاني - أن جنيهًا قد استقر في جيب الموظف ليخرس.. ثم سمعت صوت الباب بنغلق...

لقد صار (رفعت) وحده هنا الآن..



لم تكن الغرفة آية فى النظام والنظافة .. هذا طبيعى ..
أليس هو (أنا) آخر ؟

سمعته يصدر عبارات ذهول أو ضيق.. ثم غمغم:
- «فعلها اللعين!»
كان يتأمل الخراب الذي قمت به.. ثم سمعت خطواته تدنو أكثر فأكثر.. حبست أنفاسي.. شعرت به يجلس على الفراش فوقي.. الملة تئن..
ثم سمعته يقول بصوت هادئ:
- «هلمّ يا د. (رفعت).. اخرج! أنت لن تظل هاهنا ليوم الدين!»
واصلت الصمت.. فشعرت بيده تتحسس الملاءة.. وارتفع طرفها.. وعاد يكرر إلحافه بذات الصوت الهادئ:
- «هلمّ.. أنا أعرف أنك هنا... لا تجبرني على الإنحناء..»
هنا لم أعد واجدًا نفعًا من البقاء في هذا القبر؛ فأخرجت جسدي بكثير من العناء.. وجلست القرفصاء على الأرض أنفض الغبار عن ثيابي.. بينما جلس هو فوق الفراش يتأملني كأنما أنا شيء معتاد في عالمه..
سألته وأنا أنهض:
- «كيف عرفت؟»
بلا مبالاة قال:
- «أنا أعرف أنك صعدت ولم تهبط.. إذن أنت في الغرفة.. ولا يوجد مكان للاختباء بالغرفة سوى تحت الفراش.. إن الاختباء وراء الستائر لا يناسب سوي أبطال مسرحيات (شكسبير)!»
حقًّا هو يفكر مثلي بدقة تامة..
عاد يسألني دون أن ينظر إلي:
- «هل جئت لتقتلني؟»
- «ربما خطر لي هذا..»
- «... وجبنت.. أليس كذلك؟ أمّا أنا فلن أجبن عن هذا.. لكنّ لا تخف.. لن أقتلك هاهنا لأن التخلص من جثتك مشكلة.. وعلى كل حال.. ما زلت أعتقد أنك سترجح جانب العقل.. ما زال يوم (الجمعة) ينتظرنا..»
ثم تأمل فوضى الحجرة حوله.. وقال دون أن يبدو لوم في كلامه:
- «أنت تضرب تحت الحزام..»
- «مثلك! والبادئ أظلم..»
ضحك من قلبه حتى غرق في نوبة سعال.. ثم سألني:
- «كح كح! هل ستكون هناك يوم (الجمعة)؟»
- «لا تعتمد على هذا..»
ونهضت وسويت ثيابي.. واتجهت إلى الباب..
قال لي مذكرًا:
- «موظف الاستقبال سيطلب المفتاح منك..»
- «سأعطيه إياه.. إنّه معي.. هل نسيت؟»
- «وكيف أخرج أنا؟»
- «تلك مشكلتك!»

وغادرت الحجرة دون تردد.. ولم أنظر للوراء..
ونظر لي موظف الاستقبال نظرة لن أنساها أبدًا.. فأنا إنسان مجنون تمامًا لا يكف عن الدخول والخروج، واستبدال بذلته.. دونما تفسير واضح..
تجاهلت نظرته، وغادرت الفندق..

* * *

إن يوم (الجمعة) قادم بسرعة جنونية..
إنّه منتصف ليلة (الخميس)!

* * *

١٢ - لحظة الحقيقة..

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. وهذا من حسن حظه..

* * *

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه..
كانت الإضاءة خافتة بسبب المصباح المكسور إياه.. لكن الضوء الخارج من شقتي كان كافيًا لأعرف من القادم..
كان هو.. وقد بدا جادًا صارمًا.....
قلت له في ثبات:
- «من قال إنني سأدعك تدخل شقتي؟»
ـ «أنا أعرف أنك ستفعل.. فأنت تريد معرفة سر قدومي..»
كان صادقًا.. لكني سألته:
- «جئت لقتلي طبعًا؟»
- «أنت أذكى من هذا.. أنا لا أريد جثثًا تشبهني تسبب تساؤلات عديدة..»
ثم تساءل حالمًا:
- «متى يخترعون وسيلة للقتل تزيل جثة القتيل من الوجود؟ إننا بحاجة إلى مدفع (ليزر) يحول المقتول إلى بخار..»
ـ «إن الرفاهية التي يقدمها العلم لن تقف عند حد..»
ثم سمحت له بالدخول..
ما أقبحني! لو كان هذا الشيء حقًّا نسخة مني، فإنني لا أجد سببًا يجعل حسناء كـ (ماجي) تتعلق بي.. أو فتاة عادية كـ (هويدا) تقبل بي عريسًا.. لا بد أنني ظريف أو رائع إلى حد مذهل.. بحيث تغطي جاذبية روحي على هذا القبح المريع..
قال لي وهو يسترخي على الأريكة:
- «الحق أنني بدأت أرتاح لك يا (رفعت).. يؤسفني أن لقاءنا يوشك على الانتهاء..»
ـ «أنت صادق في هذا.. أحدنا ذاهب إلى الجحيم.. ولن يكون أنا!»
تنهد.. وقال وهو يفك رباطي حذائه:
- «إن الخلاص من نفسك لأمر عسير..»
ابتلعت ريقي.. وقلت له وأنا أتحاشى نظراته:
ـ «دعنا نغادر الشقة.. سأدعوك إلى كوب من العصير في مكان جيد..»
ابتسم. وتربع على الأريكة قائلًا.

- «ولسوف تدس لي مسحوق (الديجتالا) في العصير.. ثم تلقي بجثتي في الصحراء.. أليس كذلك؟! حذار! فأنا أفكر بنفس طريقتك.. ولا يسهل خداعي..»

أسقط في يدي.. فسألته:

- «إذن لماذا أنت هنا الآن؟»

- «أردت أن أعاود إقناعك.. فما أدعوك إليه ليس بهذه البشاعة..»

- «هذا عالمي.. وهذه حياتي.. ولا أنوي التخلي عن أي شيء منهما..»

قال وهو يمد يده في سترته:

- «أنا أعرض عليك حلًا جذريًا..»

وفي بلاهة رحت أرمق المسدس المصوب إلى رأسي.. مسدسي أو نسخته إذا أردنا الدقة.. وتصلب جسدي كله:

- «لا تكن سخيفًا.. أنت لن تطلق عليّ الرصاص!»

- «لم لا؟»

- «قلت إنك لا تريد جثثًا تشبهك..»

- «هذا حق.. لكنّ أحدًا لن يجد جثثًا..»

- «سيسمع الجيران الطلقة..»

- «عندما أفتح الباب لهم، وأقول إنني بخير وأن المسدس انطلق بينما كنت أنظفه؛ عندها سيعودون إلى بيوتهم مغمغمين: يا للمجنون! ثم ينسون كل شيء.. بعدها أحمل جثتك إلى السطح ليتم التبادل..»

كان مخي يعمل كسيارة سباق..

هذا كلام منطقي.. ومن الغريب أنني لم أفكر فيه عندما سمحت له بالدخول..

عدت أسأله:

- «ولماذا لا تفعل ذلك الآن؟»

- «لأني آمل في أن تفعلها حيًّا.. لست شغوفًا بقتل من يشبهني إلى هذا الحد.. لكني بالتأكيد سأضغط الزناد إذا استمررت في عنادك..»

نظرت إلى ساعتي..

إنها الرابعة صباحًا.. ما زالت ثلاث ساعات تفضلنا عن الموعد المنتظر..

وعلى أن أخدع هذا الوغد قبل فوات الأوان...

ومرت الدقائق بطيئة مملة..

يبدو أنني جلست على الأريكة بعض الوقت فغبت عن الوعي.. ثم عدت لصوابي.. وتأملته.. كان جالسًا يقاوم النعاس بدوره.. والمسدس في يده..

أغمضت عيني من جديد.. وفتحتها فوجدته قد أغمض عينيه تمامًا..

هل أثب عليه لأنتزع المسدس؟

إنها مخاطرة.. ماذا لو كان حافز الخطر عنده قويًا.. وفتح عينيه وأنا على بعد مترين منه؟ سيضغط الزناد بدون تفكير.. و.....

وعاد النعاس يهزمني من جديد...

لكني كنت أعرف أن حرب النعاس سجال بيننا.. وأنه يصحو حين أنام أنا.. والعكس صحيح..

وبدأ الضوء النظيف المنتعش يتسلل إلى الشقة..
صياح الديكة من مكان ما.. وصوت الطيور تتشاجر على لقمة العيش..
ونظرت إلى الساعة.. إنها السادسة صباحًا..
وصاحبنا قد نام تمامًا.. لكنّ المسدس لم يفارق يده..
أدركت أن عليّ أن أتحرك سريعًا.. فتوتره لن يجعله ينام أكثر..

* * *

وثبت وثبة واحدة إلى باب الشقة.. ففتحته..
وخرجت منه.. ثم أغلقته خلفي..
وهرعت أصعد في الدرجات إلى سطح البناية، درجتين فدرجتين..
لحسن الحظ لا أحد يصحو مبكرًا يوم (الجمعة)..
فليس هناك من يسألني أسئلة مريبة.. ليس هناك سواي..
فتحت الباب الخشبي ذا الصرير.. وخرجت إلى الفضاء الفسيح..
هو ذا هوائى التلفزيون الخاص بي..
الشمس محتجبة.. لكني أعرف الشرق والغرب.. ويمكنني تخمين أنّ هذا هو الموضع الذي سيلمسه ظل الهوائي بعد دقائق..
ألقيت قطعة قرميد في المكان المذكور...
ثم هرعت إلى الهوائي.. فجاهدت حتى انتزعته من مكانه.. كان مثبتًا إلى السور ببعض الحبال لم أجد مشقة في قطعها..
ثم حملته إلى موضع بعيد.. وأحكمت ربطه هناك..
لم يأت شبيهي بعد..
يحتاج إلى بضع ثوان كي يفيق.. ويهرع إلى الباب.. ثم يبحث عني في الطوابق السفلى لأنّه يتوقع أنني هربت إلى الشارع..
بعد هذا سيفطن إلى أنني لم أبرح البناية بعد.. وسيبدأ في البحث عني من أسفل لأعلى.. حتى يصل إلى السطح..
ونظرت لساعتي.. ربع ساعة.. عشر دقائق على الموعد...
أشرقت الشمس.. ورأيت ظل الهوائي ـ في موضعه الجديد ـ يرتسم على أرض السطح.. إنها السابعة إلا دقيقتين..
هنا انفتح الباب..
ورأيت (رفعت) يدخل شاهرًا مسدّسه..
كان شرسًا.. نظرة الغضب الوحشية في عينيه.. وإحساسه بأنه قد خدع بشكل ما.. ولو لم يكن يخشى تأثير الموت على انتقال الجزيئات؛ لأفرغ رصاصة في جسدي فورًا.. لكنه كان يخشى أن يفسد شيئًا ما بقتلي..
قال لي بصوت لم يفارقه النعاس تمامًا:
ـ «كانت محاولة حمقاء.. والآن تحرك.. فقد حان الموعد!»
قلت وأنا أتراجع للوراء:
ـ «لن أفعل!»
ـ «اسمع.. لم يعد الوقت يسمح بالمزاح.. هيا!»
قالها وازداد عصبية.. للمرة الأولى لا يبدو واثقًا من نفسه إلى هذا الحد.. وتقدم نحوي.. ببطء.. ببطء..
بدأت أتراجع بدوري إلى البقعة المحددة.. حيث سقط ظل الهوائي..



وصاحبنا قد نام تمامًا .. لكن المسدس لم يفارق يده ..

خطواته تقوده نحو قطعة القرميد..
إنها السابعة تمامًا..
توقف لحظة.. نظر حوله.. فتراجعت إلى الوراء أكثر.. صار الظل فوق صدري..
انتظر هنيهة.. ثم نظر للسماء.. وغمغم في شك:
- «غريب! لم يحدث شيء..»
- «لعلها فوارق التوقيت بين الكوكبين..»
- «كلا.. إن الموعد في السابعة بتوقيتكم هنا..»
وعاد ينظر حوله.. ثم غمغم في شك أكبر، وهو يركل قطعة القرميد:
- «لحظة! هل قمت بتحريك الهوائي من موضعه؟!»
والتمع الفهم في عينيه:
- «أنت حركت الهوائي من موضعه!»
وهنا شعرت أن الهواء مشحون كأنما عاصفة رعدية تدنو.. وفي اللحظة التالية رأيت جسده يتحول إلى لون أزرق باهت.. ثم بدأت ظلال سوداء تزحف لتغزو اللون الأزرق.. وازداد اللون شحوبًا..
لقد صار جسده شفافًا تمامًا.. ثم.. لم يعد هناك شيء..
اختفى (رفعت إسماعيل) من أمام عيني..
اختفى من الوجود في ثانية واحدة..
لقد كان الاسترداد ناجحًا ودقيقًا.. وعاد الرجل إلى عالمه مرغمًا..
ولحسن الحظ لم يفهم الجزء الأخير بعد فوات الأوان..

* * *

إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.....
شكرا لله...!

* * *

الخاتمة

هذا هو كل ما أستطيع قوله عن هذه القصة..
أشبه شيء هي بهلوسة في عقل أضناه المخدر أو الإدمان.. لكنّها حقيقة واقعة..
ولقد احتجت إلى جهود كونيّة، كي أصلح كل الخراب الذي تركه الوغد في عالمي قبل أن يرحل..
تحججت لدى البعض بإرهاق أعصابي.. أو بحيرتي.. أو بمرضى النفسي.. أو بخرقي وغبائي.. المهم أنني خسرت كثيرين لم يقبلوا مبرراتي..
ولطالما دعوت الله ألا يعود ذلك المأفون إلى عالمي.. وإن كنت أستبعد عودته، فاجتياز العوالم الموازية ليس حقًّا من حقوق الإنسان يمارسه متى شاء.. ثم إنني أعتقد أن لدى الرجل مشاكل جمة في عالمه.. مشاكل أعقد مما حكاه لي.. ربما هو متورط في جريمة ما أو مأزق ما.. هذا هو المبرر الوحيد لحماسة الشديد كي يجعلني أعود بدلًا منه...
على كل حال لم يجل بخاطري قط أنني قد أكون مرعبًا إلى هذا الحد..
إن المرء لا يلقى نفسه كل يوم.. ومن الأفضل النواميس الطبيعة ألا يحدث هذا أبدًا..

* * *

والآن - بعد هذه المغامرة القصيرة - يمكننا العودة إلى روتين الحياة المعهود..
وسأبدأ بتقديم قصة أخرى عن اثنين من عالم مواز آخر..
(سالم وسلمى).. هل نسيتموهما؟
إن لديَّ قصة جيدة قاما بها هي (أرض المغول).. وهي تتحدّث عن عالم لم يظهر فيه (قطز).. ما هي النتيجة؟ النتيجة هي عالم يحكمة المغول بأكمله بقبضة لا تلين.. ووحشية غير مسبوقة..
ولكن هذه قصة أخرى..

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم *الإيداع*: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

١ -لقاء مع نفسي!!

٢ -أشياء مريبة ها هنا..

٣ -وأشياء مريبة هناك..

٤ -جنون..

٥ -موقف محرج..

٦ -أخيرًا نلتقي!

٧ -المكاشفة..

٨ -كوكب لا يسع اثنين..

٩ -ثغرات..ثغرات..

١٠ -ألعاب القتل..

١١ -التسلل..

١٢ -لحظة الحقيقة..

الخاتمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة رفعت

هناك مسوخ ومسوخ .. مسوخ تزأر فى الغابات المظلمة .. ومسوخ تنتظر فى أعماق المحيط .. ومسوخ تفتح أبواب المقابر ليلا .. ومسوخ تفتح عيونها في ظلام معمل ما .. لكن أشنع مسخ يمكن للمرء أن يلقاه .. هو نفسه!



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:
أسطورة أرض المغول

Notes

[←1]

أعتقد أن اسمها سيكون (أسطورة الآخر) ما لم أشعر وقتها بأن الاسم سخيف ومتحذلق!

فيما بعد عرفت قصة (سالم وسلمى) بتفصيل أكثر.. وصار الأمر مألوفًا لي.. [←2]

[←3]

حقيقة..

روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

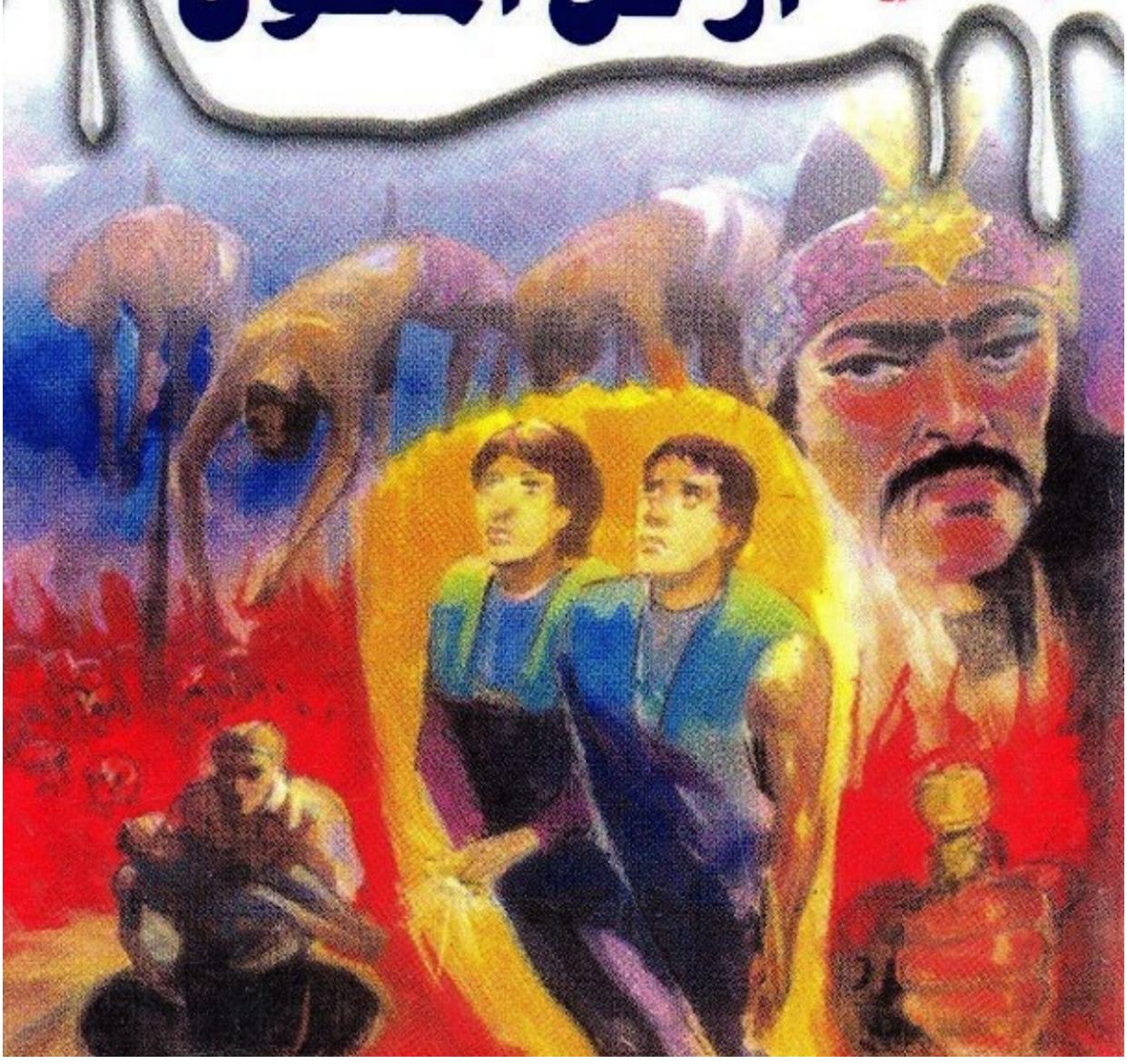


33

أسطورة

أرض المغول

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

مرحبًا بكم...

الآن - وقد حانت الساعة السابعة - يمكننا أن نبدأ جلسة أخرى مع الشيخ (رفعت إسماعيل)، الذي كان بودنا لو اعتبرناه شبيهًا بـ (شهرزاد)، لولا سعاله المزعج وتجاعيده وصلعته البراقة ونحوله الذي لا يُصدق..

(شهرزاد) كانت مضطرة لأن تحكى قصصًا مسلية للأبد؛ حتى لا يطير الأخ (شهريار) رأسها الجميل..

و (رفعت) مضطر لأن يحكى قصصًا يحاول أن تكون مسلية؛ حتى يجد سببًا واحدًا لاستمراره في الحياة بعد الستين.

انتهى وقود (شهرزاد) من الحكايات بعد ألف ليلة وليلة.. فمتى ينتهي وقود (رفعت إسماعيل) العجوز؟ بعد قصة؟ بعد خمسين؟ بعد مائة؟

مازال في جعبتي الكثير على كل حال.. وفي الغالب سأقضي نحبي وأنا أتكلم..

سألني كثيرون منكم عما حدث لـ (عزت) بعد قراءة التعاويذ الاسكتلندية (في رعب المستنقعات).. وسألني آخرون عن مصير (هاري) والدمية في (حكايات التاروت)..

هذه هي مشكلتي.. إنني أترك - في زحفي للأمام - جيوبًا مطوقة لا تنتهي.. وعلى أن أعود لأقضي عليها.. هكذا تقضى استراتيجية (ليدل هارت)..

سأعود لهذين الجيبين وجيوب أخرى كثيرة في الكتيبات القادمة..

وهأنذا أعود لجيب قديم منسي.. (سالم وسلمى).. لقد أرسلا لي عدة مغامرات من مغامراتهما العجيبة في أبعاد أخرى.. وكنت قد وعدتكم بأن أقدم لكم (أرض المغول).. وهو وعد تأخرت في الوفاء به خمسة وعشرين كتيبًا.. وبضعة أعوام.. لكني لن أنتظر أكثر..

في الصفحات القادمة أترك للأخ (سالم) الصفحات تمامًا.. وأعدكم بأن أعود في نهاية الكتيب لأقدم رأيًا سخيفًا لا لزوم له على الإطلاق كعادتي..

إذن اقلبوا الصفحة أو انظروا لليسار..

وهلموا إلى (أرض المغول)..

* * *

مقدمة أخرى

اعتاد (رفعت إسماعيل) العجوز أن يقدم لكم في أول صفحتين أو ثلاث من قصصه، ملخصًا سريعًا للأجزاء السابقة.. وغالبًا ما يكتبه تحت عنوان (فلننعش ذاكرتنا) أو أي عنوان سخيف آخر..

والحق أنني أجد في هذا نوعًا من التعنت، يفترض أن القارئ له ذاكرة متطايرة لا تصمد فيها التفاصيل.. ولهذا لن أضايقكم بملخص من هذا النوع، أو - على الأقل - بهذا الطول المفرط..

أنا (سالم شحاته).. وزوجتي (سلمى شحاته).. ونحن نسختان كاملتا التشابه.. لكنّ هذا لا يعود إلى تجارب الاستنساخ - التي يتحدث عنها الجميع - لكنّ يعود إلى أننا من عالمين متشابهين في مجرتين مختلفتين..

و(سلمى) هي التي تملك جهاز (ناقل الجزيئات) الذي ينقلها باستمرار وسط أبعاد أخرى.. ومن قرأ الكتيب الثامن يعرف أننا غادرنا الكوكب (٣٢٢ - ب - ٣) هاربين بجلدنا من عصابة كادت تفتك بنا..

هذا كاف جدًّا.. ويمكننا أن نبدأ السرد دون تعقيدات.. أنتم الآن تعرفون قواعد اللعبة.. فلماذا لا تنطلق صفارة بدء اللعب؟!.

* * *

١ - أين نحن؟

تم التجسد في قبو مظلم رطب عطن الرائحة متسخ مهجور..

برغم هذا كنا قادرين على أن يرى بعضنا البعض.. وأدركت أننا نبدأ مغامرتنا في هذا العالم الجديد في أسوأ حال من البعثرة و(البهدلة).. فالدماء تسيل من شفتي ومن أنفي.. وقد فقدت فردة حذاء، بينما شعر (سلمى) قد تحول إلى حزمة من الكتان... وأنفها أحمر كأنف إسكافي ثمل من أبطال (تشيكوف)..

- «هل أنت بخير؟»

وهو سؤال سخيف لأننا نشعر بذات الأشياء ما، بنفس الطريقة... ومعنى أن كل عظمة من عظامي مهشمة، هو أنها ليست أفضل حالًا..

- «لقد فررنا في الوقت المناسب..»

- «دقيقة أخرى كانت ستحولنا إلى لحم مفروم..»

ثم إنها جلست متكئة على ذراعيها المفرودتين.. وسألتني:

- «قبو آخر؟»

- «هذا واضح.. إنّه بدروم وكر العصابة في هذا الكوكب.. وبالطبع يقع خارج (حلوان) هذا الكوكب..»

وللأسف كان ضغطها على الأرقام عشوائيًا في (ناقل الجزيئات)، لذا صار من المستحيل أن نعرف رقم هذا الكوكب.. على كل حال لن يحدث هذا فارقًا كبيرًا.. إنها أرض أخرى وكفى.. أرض تشبه أرضنا هذه في أكثر الأشياء وتختلف عنها في أشياء معينة لها أثر لا يُصدق..

ونهضنا متثاقلين.. وبالطبع نزعت فردة حذائي الباقية طلبًا للتماثل.. ثم اتجهنا إلى مخرج القبو.. كان الظلام دامسًا لكنّ (سلمى) ألقت ملاحظة عابرة:

- «يبدو أنّ هذه أرض بلا فئران..»

تفكرت في كلامها حينًا.. حقًّا لم نر فأرًا واحدًا في هذا القبو.. لكنّ لا معنى لهذه الملحوظة:

- «لا يوجد فأر هنا.. لكني لم أر في حياتي الفئران تقف لاستقبالي بلافتات الترحيب في كل مكان أزوره... لنقل إن هذا قبو نظيف..»

تشممت الهواء وقد تقلص وجهها.. وقالت:

- «بالعكس.. العطن في كل مكان.. والقاذورات.. لو لم يوجد فأر هنا فلا فئران في هذه الأرض أساسًا..»

وبدأنا نرقى في درجات السلم المتصدعة ذات الصرير..

يوجد باب في أعلى الدرج.. لكنه موارب لحسن الحظ..

حبسنا أنفاسنا.. ومددت يدي إلى المقبض لأزيد مجال الرؤية حينما سمعنا أنّة.. أنّة صادرة من خلفنا لا من أمامنا..

لقد كان هناك أحد في القبو معنا! تبًّا لهذا الكلام.

- «هل سمعت؟»

هزت رأسها أن نعم.. وازدادت التصاقًا بي..

هنا لمحنا شيئًا يتوهج في ركن القبو البعيد.. شيئًا أقرب إلى عود ثقاب يتحرك ليعانق فتيل شمعة.. ثم غدا الضوء واضحًا.. واستطعنا أن نرى امرأة..

كانت راقدة فوق قطع من الخرق تم حشدها كيفما اتفق لتكون فراشًا بدائيًا.. وجوارها دورق ماء مكسور وشمعة وسكين..

أما عن المرأة نفسها فلم تكن تثير الذعر لأنهّا مخيفة.. بل لأنهّا مذعورة أكثر منا.. إنّه ذلك النوع من الخوف الذي يجعل العينين تجحظان والشفتين تتقلصان.. ويغدو المرء معه مرعبًا أكثر من أي شبح..

وأدركنا - برغم هلعنا - أنها شقراء زرقاء العينين.. وأنها مريضة.. ربما هي تحتضر.. ودون أن نعرف سببًا لذلك رحنا ننزل في الدرج، متشابكى اليدين، مسحورين عاجزين عن الرحيل دون أن نفهم...

وسمعناها تقول شيئًا بصوت مبحوح جاف..

- «بل.. يز.. دون كيـ.. ل.. مي!»

احتجنا إلى بعض الوقت كي نفهم أنها تتكلم الإنجليزية.. وأنها تقول لنا ألا نقتلها من فضلنا.. لا بأس.. إنها مذعورة مثلنا.. هذا يجعلنا أدنى إلى التفاهم...

ولكن ما سرها؟ من وضعها هاهنا؟ هل هي مخطوفة؟

دنوت منها.. وركعت جوارها أكثر لأفهم وأسمع..

ومن عينيها فهمت أنها تدنو من الجنون أو جنت فعلًا.. مددت يدي كي أربَت على ذراعها مترفقًا.. لكن (سلمى) صاحت في حزم:

- «(سالم)! لا تفعل!»

التفت لها غير فاهم.. فقالت بنفس الحزم:

- «ابتعد عنها! قف هنا بجواري..»

تراجعت.. ووقفت حيث طلبت.. إن (سلمى) أحكم مني وأسرع تفكيرًا.. ربما لفارق السن بيننا.. لهذا عرفت أن لديها سببًا مقنعًا..

قالت وهي تشير لأسفل:

- «هل ترى؟ يوجد خراج ضخم في خن فخذها..»

كان الغطاء منحسرًا عن رجل المرأة.. واستطعت أن أرى ما تقول (سلمى).. يبدو لي هذا المشهد مألوفًا.. ولكن أين؟ أين؟ فأوضحت لي الأمر:

- «خراج في خن الفخذ.. وحمى.. وفئران لا وجود لها.. بالتأكيد ماتت كلها.. إن خبرتي الطبية معدومة لكنّ كل هذا يشير إلى.. الطاعون[1]!»

هبطت على الكلمة كصاعقة كهربائية.. فتراجعت للوراء..

كانت المرأة تحاول جاهدة الوصول لنا للتمسك بقدمي.. لهذا واصلت التراجع في ذعر.. فلنغادر هذا القبو حالًا يا (سلمى)..

ووثبنا على درجات السلم درجتين في الوثبة.. حتى وصلنا إلى الباب..
وهذه المرّة غادرنا القبو وأوصدناه وراءنا..
ثم وقفنا على الجانب الآخر نستجمع أنفاسنا..

* * *

- «طاعون؟ ما معنى هذا؟»
قلت لها وأنا أنفض ثيابي من براغيث وهمية ملأتها:
- «واضح أنّ هذه الأرض تعاني وباء الطاعون.. وهذا يعني أن الإغراء شديد كي نضغط على مجموعة أخرى من الأزرار..»
- «لحظة.. كيف تضمن أننا لم نلتقط العدوى بعد؟»
- «بـ.. بهذه السرعة؟»
- «طبعًا.. برغوث واحد يثب من ثيابها إلى ثيابنا.. وهذا معناه أن ننقل العدوى إلى كوكب آخر بريء!»
كدت أصاب بجلطة دماغية من الغيظ.. وصحت فيها:
- «يا سلام! ونبقى هنا بانتظار مزيد من البراغيث؟ فلننفض ثيابنا ونفر من هنا فرارنا من الأسد..»
- «اصبر يا (سالم).. لا بد من أن نفهم أولًا..»
وللمرة الأولى رفعنا عيوننا نتأمل المكان الذي نحن فيه..

* * *

كان البيت متواضعًا.. متواضعًا وضيقا كجحر فأر...
لكن أسلوب التأثيث.. والتقويم المعلق على الحائط.. وصورة مُطرب (الروك) الملصقة على الباب..
كل هذا كان يشي بأننا لسنا في بيت مصري ولا عربي.. نحن في بلد ما أجنبي..
وبالتأكيد كانت المصادفة هي ما جعلنا نتجسد في قبو مماثل للقبو الذي بدأنا رحلتنا منه.. ولكن أين نحن حقًّا؟
- «فريز! دون موف!»
واستدرنا في ذعر نحو مصدر الصوت..
كانت هناك فوهة بندقية عتيقة مصوبة إلينا.. والبندقية تحملها عجوز شمطاء لم يبق جزء في وجهها إلا وداست عليه دبابات الزمن.. وتأكد ظني أننا في بلد ناطق بالإنجليزية.. (إنجلترا) أو (أمريكا) أو (أستراليا) أو.....
بدأ الجزء اللغوي في عقلي يعمل.. وبدأت أسترجع اللغة الإنجليزية التي لم أستعملها منذ دراستي الجامعية.. حتى لكأني أرى ترجمة (أنيس عبيد) على صدر العجوز التي توجه البندقية لنا

عازمة على تفجير رأسينا..
- «من أنتما؟»
- «نحن.. نحن صديقان.. لقد جئنا بطريق الخطأ..»
ضيقت العجوز عينين لا تريان.. ودنت منا أكثر.. ثم غمغمت:
- «لا يبدو لي أنكما منهم.. ما هذه الملامح المتشابهة؟ هل أنتما توءمان؟ توءمان أجنبيان! ماذا أتي بكما إلى (أمريكا)؟ من أين؟»
كانت الإجابة هي - بالترتيب. نعم.. لا ندري.. (مصر)..
وعند هذا الجزء كانت قد دنت منا أكثر من اللازم.. وتخلت عن حذرها.. لهذا لم أر ما يؤذي في أن أنتزع ماسورة البندقية من يدها بقوّة، وأضع ساقي في طريقها في أثناء اندفاعها.. لتسقط على الأرض ككومة العظام وقد فقدت سلاحها..
هرعت (سلمى) لتعينها على النهوض.. وهي تعاتبني:
- «حرام يا (سالم)! ألا ترى أنها خائفة لا أكثر؟»
- «لو ضغطت على الزناد.. فلن يهمني ما إذا كانت خائفة أم لا وهي تقتلني.. إن الحالة النفسية القابلي لا تعزيني كثيرًا كما تعلمين.. ثم من أدراك أنّ هذه المرأة غير مصابة بالطاعون؟»
لكنّها ساعدت المرأة المرتجفة على النهوض.. فأجلستها على أريكة متداعية.. بينما اتجهت أنا لأعلق البندقية على مسمار صدئ يبرز من الحائط.. وعدت لأجلس شاعرًا بأن البراغيث تملأ ثيابي..
متهانفة تساءلت العجوز:
- «إذن لم تجيئا لقتلها؟»
- «قتل من؟»
- «(كارول - آن).. إن أوامر (أوجوتاي) صارمة..»
- «آه.. فهمت!»
لقد اتضح كل شيء: إن (أوجوتاي) الصارم قد أمر بقتل (كارول - آن).. هذا سهل.. ولكن من (أوجوتاي)؟ ولماذا يريد قتل (كارول - آن)؟
- «هل (كارول - آن) هي الموجودة بالقبو؟»
- «نعم.. هي ابنتي الوحيدة..»
- «وهل رآها الأطباء؟»
تقلص وجه العجوز.. وجحظت عيناها لتثير الرعب في نفسينا.. وقالت:
- «طبعًا لا.. لو أنهم عرفوا أنه الطاعون فلن..»
ثم ازدادت حيرة.. وفي ذهول سألتنا:
- «ألا تعرفان كل هذا؟ قانون (بيدرا).. كل مرضى الطاعون يُحرقون أحياء مع المنزل الذي وجدوا فيه..»
قالت لها (سلمى) في صبر بانجليزيتها العرجاء:
- «لنقل إننا سائحان حديثًا المجيء هاهنا.. هل لهذا تخبئينها في القبو؟»
- «طبعًا.. فالنار هي العلاج الوحيد الذي يعرفه الأطباء للطاعون..»
فكرت (سلمى) قليلًا.. وراحت تبلل شفتها السفلى بطرف لسانها ثم سألت المرأة:

- «أين نحن بالضبط؟»
- «ومن أنتما بالضبط؟»
قالتها بسؤال مماثل وهي تنقل بيننا عينين جاهزتين للأسوأ..
قلت لها وأنا أتحاشي عينيها:
- «هذه قصة طويلة ولن تصدقي منها حرفًا على أي حال.. فلنبدأ بالإجابة على سؤالنا نحن.. ما هو هذا المكان؟»
- «أنتما في (نيويورك)..»
تبادلت النظرات مع (سلمى).. لقد ابتعدنا كثيرًا عن (مصر) إذن.. ولم نجرؤ على سؤالها عن أي زمن هذا حتى لا تظن المرأة بنا الظنون..
لكن التقويم المعلق على الحائط كان يشير إلى ديسمبر ١٩٩٢..
هنا قالت (سلمى) وهي تتخلل بأناملها خصلات شعرها:
- «هل تتوقعين مقدم رجال هذا الـ.. الـ (أوجوتاي) هنا؟»
- «عرباتهم تذرع الحيّ منذ الصباح.. وأنا هنا جاهزة للأسوأ..»
ولم أدرك كم أن المثل القائل (اللي يخاف من العفريت يطلع له) صادق، إلا حين سمعت طرقات عنيفة على الباب.. طرقات بوليسية.. طرقات قوة غاشمة تعرف أن من حقها أن تتواجد حيثما تريد.. متى تريد...
هبت المرأة واقفة.. ونظرت إلينا.. وصاحت:
- «إنهم قد جاءوا!»
- «من هم؟»
- «الشرطة طبعًا.. كنت أعرف أنّ هذا سيحدث.. والآن.....»
- «افتحي الباب!»
دوى الصوت خارج الباب بنبرة غليظة لا تدلّ على اللطف..
- «هل تحملان بطاقات عبودية؟»
بطاقات عبودية؟ يا له من اسم! بالطبع لا نحمل.. ولا نريد أن نتشرف بحمل بطاقات لها هذا الاسم الرهيب..
الطرقات تزداد عنفًا.. واضح أنهم سيهشمون الباب سريعًا..
هتفت المرأة وهي تتجه إلى البندقية المعلقة:
- «لو لم تكن معكما بطاقات، فعليكما بالهرب.. إنهم يعدمون في الحال كل من لا يملكها.. هاك! النافذة الخلفيّة.. ستقودكما إلى الزقاق.. هيا!»
- «افتحي الباب!»
جذبت (سلمى) من معصمها نحو مخرج الهرب.. لكني لم أنس أن أنتزع البندقية من يد العجوز.. وقلت لها في رفق:
- «هذا سيجعل النتائج وخيمة بالنسبة لك!»
باحتجاج هتفت، وهي تتشبث بالماسورة:
- «وخيمة أو غير وخيمة.. لن أدعهم يحرقون ابنتي وأنا حية..»

كان الوقت أضيق من أن يضيع في الجدال.. (دبشك) البنادق ينهال على خشب الباب، الذي يدهشني أنه أمتن مما ظننت..

قالت (سلمى) بالعربية:

- «دعها يا (سالم).. إنها معركتها وعليها أن تخوضها..»

أمّا نحن فلنهرب..

وحين ساعدت (سلمى) على وضع قدميها على إطار النافذة، سمعت خشب الباب يتهشم...

لهذا وضعت قدمي بدوري ووثبت..

كانت النافذة في الطابق الأرضي، لهذا سقطنا سقطة هينة وسط علب الطعام الفارغة وأكياس القمامة.. والقطط التي تبحث عن فئران لن تجدها..

رائحة الزقاق عفنة جدًّا.. والأرض مغطاة بطبقة من مياه المجاري..

ومن داخل الدار سمعنا المرأة تصرخ:

- «لا.. لا أحد يقتلها.. لا أحد..»

ثم طلقة رصاص واحدة خرقاء.. تلاها سيل من الطلقات، من بنادق آلية كأنه يحفر نفقًا في أعصابنا.. وشممنا رائحة البارود الطازج..

بعد ثوان شممنا رائحة الدخان.. ورائحة الخشب المحترق.. لقد بدءوا حرق البيت بمن فيه كما قالت المرأة لنا منذ دقائق..

شعرت بتقلص في معدتي.. لكنّ هذا لم يمنعني من أن أهمس لـ (سلمى):

- «لقد رأينا ما يكفي.. والآن اختاري كوكبًا آخر أرجوك..»

* * *

٢ - أرض المغول..

خرجنا من الزقاق لنجتاز عدة شوارع متقاطعة بلا عابر سبيل..
وكان منظرنا لا يُوصف في أرقى لغة إلا بأنه مثير للريب.. فتاة مبعثرة الشعر، ورجل أنفه يدمي وحافي القدمين.. والأدهى أنهما متشابهان تمامًا..
بالطبع لم تقبل (سلمى) أن تترك الكوكب لعدة أسباب:
١ - ربما كنا نحمل الطاعون معنا الآن.. وهذا يعني تلويث عالم آخر بريء..
٢ - أين روح المغامرة لدي؟ لماذا لا ننتظر بعض الوقت لنعرف المزيد؟ لو اتبعنا هذا الأسلوب فإننا سننهي كل احتمالات الجهاز (ناقل الجزيئات)، دون أن نقضي في أي كوكب أكثر من ربع ساعة...
٣ - إن الهرب متاح دومًا حين تسوء الأمور أكثر من اللازم..
٤ - لا معنى لدخول عالم آخر بذات المظهر المشوش.. على الأقل يجب أن نبدو في مظهر أكثر احترامًا..
كانت حججها مقنعة فيما عدا الحجة الأولى طبعًا..
وهكذا واصلنا رحلتنا دونما سبب سوى انتظار أن تسوء الأمور..

* * *

كان الطقس باردًا.. باردًا إلى حد أن أفكاري تجمدت قبل قدمي الحافيتين.. ولم تكن الثياب التي علينا مناسبة لهذا الصقيع..
نبتاع ثيابًا أثقل؟ لا يمكن.. لأننا لا نحمل دولارات ولا نحمل مالًا في الأساس.. يبدو أنها ورطة لا خلاص منها...
وعند الناصية سمعنا من يأمرنا بالتوقف..
لهجة انجليزية رديئة لكنّها كافية لتفزعنا...
واستدرنا ببطء لنرى رجلًا قصير القامة يرتدي ثيابًا حمراء.. واضح أنه زي رسمي ما.. وعلى رأسه خوذة سوداء.. وفي يده بندقية آلية من النوع الذي يُحمل بيد واحدة كالمسدس.
أما عن ملامح وجهه فتستأهل وقفة.. إن عينيه ضيقتان مشقوقتان شقًا جانبيًا.. ووجهه مزيج من الصفرة والسمرة.. وشاربه طويل مفتول ينساب على جانبي فمه.. والوجه - ككل - يعكس شراسة لا تسر النفوس...
الحق أنه يبدو كالمغول لو أنّ المغول لديهم رجال شرطة..
ورأيناه يشير لنا كي ندنو منه..
دنونا ونحن نجر قدمينا.. بينما هو يرمقنا بثبات من عينيه الناريتين..
- «بطاقات العبودية.. بسرعة!»



لكنى لم أنس أن أنزع البندقية من يد العجوز ...

* * *

إنهم يعدمون في الحال كل من لا يملكها.. هاك! النافذة الخلفيّة..

* * *

مددت يدي إلى جيبي بحثًا عن بطاقتي الشخصية لعلها تصلح هنا.. وهنا توتر الرجل وبلهجة منذرة هتف:

- «ببطء!»

أخيرًا تنهدت معلنًا عن استسلامي.. ورسمت ابتسامة رياضية مرحة على وجهي وقلت (إنني أعرف كيف أجتاز هذه المشاكل بدبلوماسية):

- «الواقع أننا نسيناها في البيت يا زميل.. ولكن.. لو أنك سمحت لنا أن..»

- «قفا أمام الجدار!»

- «إن السفارة المصرية قد تفسر الأمر لو....»

- «أمام الجدار!»

وتراجعنا ببطء.. ولحسن الحظ لم يخطر ببالنا أن الرجل سيقوم بإعدامنا.. فالأمور لا تجرى بهذه البساطة أبدًا.. لهذا تراجعنا كما طلب.. وألصقنا ظهرينا بالحائط.. لكني لم أحب كثيرًا الطريقة التي عالج بها شيئًا في مؤخرة بندقيته ثم رفعها نحونا..

- «(سالم).. ماذا سيفعل بالضبط؟»

- «لا تقلقي.. إنّه سيقتادنا إلى المخفر طبعًا..»

وبوجه صلب كالرخام هتف الشرطي:

- «بناء على تعليمات (أوجوتاي - خان) وقانون (بيدرا) رقم ١٧ - هـ؛ سيتم إعدامكما في الحال استنادًا للتفويض الممنوح لي!»

- «إنّه يمزح.. لا تظهري ذعرًا حتى لا تنعشي قلبه!»

- «أنا غير مذعورة.. فما زلت لا أفهم..»

بوم!

طلقة واحدة مختصرة جدًا.. كل هذا المدفع من أجل طلقة تافهة كهذه؟ لكننا رأينا الشرطي يترنح ثم يسقط على وجهه.. وبين لوحي كتفه رأينا ثقبًا أحمر ينز دمًا...

وعرفنا أن أحدهم أطلق عليه الرصاص من الخلف..

كانا رجلين. برزا لنا من وراء صندوق قمامة كبير.. أحدهما أبيض أشقر الشعر قد عقص شعره على هيئة ذيل حصان.. أمّا الآخر فزنجي قد ضفر خصلات شعره المجعد في ملايين الضفائر الصغيرة، كما يفعل في عالمي المطرب (بول مارلى)، أو الحسناء (بود بريك).. هل تفهم ما أعنيه؟

وكانا يرتديان سويترين جلديين فوق كنزات ثقيلة.. وفي يدي كل منهما قفازان.. هذا هو ما استطعت رؤيته في الثانية الأولى..

في الثانية الثانية رأيتهما يهرعان إلى جثة الشرطي.. ويحركات منظمة لا تردد فيها ولا ارتجال، رأيت الأشقر ينزع عن الرجل ثيابه.. والزنجي ينزع البندقية وهو يتلفت حوله في حذر.. ثم.....

- «هلمّ يا رجل! هناك من سمع هذه الطلقة حتمًا!»

وهرعنا كالأرانب المذعورة إلى زقاق.. فزقاق أضيق.. ثم إن الزنجي تلفت حوله في حذر.. وركع على ركبته ليرفع الغطاء عن فتحة مجرور.. ودعانا كي نهبط فيه بسرعة.. لكنني بلا حذاء!

هبط الأشقر أولًا وعلى كتفه ثياب الشرطي.. ثم (سلمى).. فأنا.. فالزنجي الذي تأكد من غلق الفتحة..

ونزلنا بعض درجات محفورة في الجدار.. ثم تقدمنا - ومياه المجاري تصل لسيقاننا - في ممرات مظلمة، لا نتبين طريقنا إلا في ضوء مشعل صغير يحمله الزنجي.. ولم تكن هناك فئران لحسن الحظ.. كالعادة..

وأخيرا كان هناك شيء صخري مرتفع يشبه المنصة إلى حدٍ ما، أمكننا أن نتسلقه كي نجلس فوقه، بعيدين عن المياه المتعفنة من تحتنا..

أخرج الأشقر شمعة من ثيابه.. وأشعل فتيلها.. ثم ثبتها في الصخر بقطرات ذائبة منها.. وعندها فقط عدنا إلى التنفس...

والغيظ يلتمع في عينيه الصفراوين هتف الزنجي بلهجة فظة:

- «أنتما أغبي حمارين يمكن العثور عليهما! لا أدري كيف يعيش الحمقى إلى هذه السن برغم كون الاحتمالات كلها ضدهم..»

صعد الدم بدوره إلى رأسي.. وقلت:

- «سيدي... إذا كنت قد أنقذتنا فأنا لك شاكر.. لكن هذا لا يعني أن تهيننا دون سبب.. وإلا يُمكنك إعادتنا إلى الزقاق وإعادة الشرطي إلى الحياة.. وانس الموضوع تمامًا..»

قال الأشقر باسمًا وهو يحاول تخفيف الجو:

- «لا عليكما.. إن (تومي) لا يجيد انتقاء عباراته.. لكنه طيب القلب كجدة عجوز.. أنتما من (الخاسرين).. أليس كذلك؟»

تبادلت و(سلمى) نظرة.. هل من الحمق أن أنكر أنني من (الخاسرين) وأخبرهما بالحقيقة؟ لا حيلة أمامي.. من يدري؟ لربما طالباني بإبراز بطاقة الخاسرين ليتأكدوا من شخصيتي..

- «نعم.. لسنا منهم.. نحن مصريان.. و....»

- «مصريان؟»

قالها الزنجي في ذهول.. ثم واصل ثورته..

- «مصريان.. وتمشيان في (سنترال بارك) ليلًا؟ إن المغول لا يطيقون العرب، ويقتلونهم قبل أن يتمكّن أحدهم من لفظ (الراء) في كلمة (عربي).. ألم أقل لكما إنكما أحمقان؟»

ابتلعت ريقي وكتمت عنهما أفكاري.. طاعون ومغول و(خاسرون).. ما هذا العالم بالضبط؟

- «وكيف وصلتما إلى (نيويورك)؟»

هنا وفّر علينا الأشقر عناء البحث عن إجابة.. وقال:

- «بالطبع جاءا مع (أبو فراس).. إن الجرثومة لا تستطيع العبور من الحدود كما تعلم... من حسن حظكما أننا كنا هناك بالمصادفة، ورأينا المغولي على وشك إعدامكما.. يجب ألا تظهرا في الطرقات قبل أن نستخرج لكما بطاقات عبودية مزورة.. أي تصرف غير هذا هو انتحار..»

قالت (سلمى) وهي تنتقى كلماتها بعسر:

- «لقد قتلوا عجوزًا وابنتها.. لأن الأخيرة مصابة بالطاعون..»

قال الزنجي في تهكم:

- «مرحبًا بكما في (نيويورك).. هذا المشهد يتكرر عشرين أو ثلاثين مرة كل يوم.. وهي طريقة فعالة حقًّا لأن الوباء بدأ ينحسر..»

- «ألا يوجد نوع من الأمصال أو المضادات الحيوية أو....؟»

- «هذه الأشياء للأولاد الأثرياء فقط.. إن موت خمسين أو ستين ألفًا من الرعاع لن يضايق المغول في شيء.. وهكذا يجدون للطاعون فائدة مزدوجة: القضاء على الفئران.. القضاء على الرعاع الذين تشبه حياتهم الفئران..»

- «وأنتم؟ كيف تحمون أنفسكم؟»

- «إن (أبو فراس) قد استطاع تهريب مائة جرعة من مصل (هافكين).. وقد أجريت قرعة لمعرفة من سينجون منا.. أمّا الباقون فهم يكتفون بمقاومة البراغيث وتنظيف ثيابهم جيدًا..»

- «إن (أبو فراس) وكل رجال منظمة (فتح).. يمكن الاعتماد عليهم..»

تبادلت و(سلمى) نظرة عابرة.. هو ذا الخلط المألوف بين العوالم يحدث ثانية.. ففي هذا العالم تكافح منظمة (فتح) والأمريكيون من أجل القضاء على المغول.. من الواضح أن هذين الرجلين يمثلان نوعًا من الثوار.. من المتمردين على سلطة قاهرة شمولية يمثلها المغول...

بالنسبة لـ (سلمى) كذلك بدا الأمر غريبًا وإن كان الأسباب مختلفة.. ففي عالمها لا توجد قوة قاهرة سوى العرب أو ما تسميه (أ. ع. م)..

قال الأشقر وهو يجمع ثياب الشرطي ويدسها في كيس:

- «والآن نأخذكما إلى مقر الخاسرين.. هناك أشياء كثيرة يجب ترتيبها قبل أن تجازفا بالظهور في الشوارع..»

ودعانا إلى أن نتبعه..

* * *

٣ - أسئلة.. أسئلة..

لن أحكي هنا عن شبكة الممرات شديدة التعقيد التي رحنا نمشي خلالها وسط المجاري... إن هؤلاء القوم يحفظون المجاري كما تحفظ أنت خطوط كفك.. ومن الواضح أنهم لا يغادرونها إلا لمامًا.. ليقتلوا شرطيًا أو يفجروا عربة شرطة.. أو يكتبوا بعض عبارات السباب ضدّ المغول على جدار، مستعملين علبة (سبراى) وقطعة من خشب (الأركت) المفرغة.. ثم يعودون إلى المجاري من جديد...

أما عن مقرهم الرئيسي في (نيويورك) فيقع تحت (سنترال بارك).. ويشبه كهفًا عملاقًا دعمت جدرانه بألواح الخشب.. وتتدلى المصابيح الواهنة من سطحه..

ويوجد عدد هائل من حقائب النوم على الأرض.. يتناثر عليها رجال منهكون، منهم من ينظف سلاحه، أو يقوم بربط الأسلاك في عبوة ناسفة، أو يكتفي بعضهم بالنوم.. وثمّة مدفأة كهربية تحاول جاهدة أن تجعل المكان رحبًا..

وكانت هناك أربع أو خمس فتيات لا بأس بجمالهن، لكنّ وجوههن اكتست بطبقة مريعة من الصرامة والجديّة.. ربما التوحش.. وهن يعملن كما يعمل الرجال ويتحملن ما يتحملون.. ويبصقن كما يبصقون...

بالإضافة لهذا توجد بعض المنشورات ملصقة على الجدار، وورشة خراطة لتصنيع أسلحة بدائية، وبعض صناديق الديناميت التي لم تبذل أية محاولة لتفادي شرها كأنها تحوي بعض البسكويت..

قال الأشقر الذي عرفنا أن اسمه (كالاهان)، بعد ما التقط لنا صورة:

- «سيتم إعداد بطاقتي عبودية لكما.. لكنّ هذا يحتاج إلى بعض الوقت..»

ومن فراشه الأرضي نهض عملاق زنجي أصلع.. كأنه ديناصور يفيق من سبات طويل.. كان عارى الجذع يكشف عن أضخم مجموعة من العضلات اللامعة بالعرق رأيتها في حياتي.

تقدم نحونا وهو يزمجر من منخرية الواسعين، حتى ظننت أنّ هذا مشهد من فيلم (كينج كونج).. ثم قال بصوت لا يقل رقة عن مظهره:

- «من هذان يا (كالاهان)؟»

- «إنهما مصريان يا (ماك - جورج)..»

- «ومن قال إنهما ليسا جاسوسين لعينين؟»

- «إن شرطيًا مغوليًا كان على وشك إعدامهما منذ ساعتين...»

تأملنا في شك بعض الوقت، حتى كدت أصرخ وأعترف.. أعترف بأي شيء؟! لست واثقًا في الحقيقة..

ثم إنّه غمغم من بين أسنانه:

- «حسن.. لكنّ كن حذرًا.. ولو رأيت ما يريب قل لي فحسب!»

وعاد يكوم جسده الضخم على الحشية..



قال الأشقر وهو يجمع ثياب الشرطى ويدسها فى كيس !

ـ « والآن نأخذكما إلى مقر الخاسرين . .

عاد (كالاهان) يطلب منا أن نستريح بعض الوقت، إلى أن يفرغوا من تزوير البطاقتين لنا.. وجلب لنا بعض الشطائر، وعلب مياه غازية اسمها (منغوليا) وطعمها ليس أفضل من اسمها!

- «الآن حان الوقت..»

قلتها لـ (سلمى) همسًا، وكانت تفهم تمامًا ما أريد قوله.. حان الوقت للهرب من هذا العالم.. فقد رأينا ما يكفي... إن بدء المغامرة في عالم يصطرع فيه المغول مع الثوار، ويُقتل العرب قبل لفظ حرف (الراء)؛ لهو دليل كاف على نهايتها.. وكانت موافقة تمامًا هذه المرّة..

جلست على حشية، وأخرجت (ناقل الجزيئات).. بينما أمسكت يدها اليسرى في حرص.. لا أريد أن أتركها ترحل لأعيش أنا هاهنا مدى الحياة..

ها هي ذي تضغط عشوائيًا.. (٢٠٠ - د -....)..

في اللحظة التالية وجدت نفسي في ركن القاعة، وثلاث فوهات مدافع مدفونة في عنقي.. و(سلمى) تقف في الركن الآخر تقول شيئًا ما.. بينما العملاق الزنجي يتفحّص الجهاز في ريبة..

- «قلت لكم إنهما جاسوسان... لكنكم تظاهرتم بالعبقرية..»

قالت فتاة شقراء، صوتها كصوت رجل مصاب بسرطان الحنجرة:

- «ربما هما انتحاريان.. يحاولان تفجير شحنة من الديناميت..»

- «أو هو جهاز إرسال يبلغ مكائنا للشرطة..»

مرّة أخرى يتكرر هذا الموقف السخيف..

قلت محاولًا أن أجد مسافة تتحرك فيها حنجرتي:

- «لا هذا ولا ذاك.. هذه آلة حاسبة لا أكثر ولا أقل..»

تفحصها العملاق بضع دقائق.. وداعب بعض الأزرار فيها ليتأمل الحروف على شاشتها..

* * *

من القائل: لو أنك أعطيت قردًا آلة كاتبة، وتركته يعبث مليون سنة.. لربما وجدت أنه قد كتب قصيدة لـ (شكسبير)؟

* * *

لحسن الحظ لم يحدث هذا.. لم يكن قردًا ولم يُمنح مليون سنة يجرب فيها.. فقط جرب الأزرار مرّتين.. ثم هزّ رأسه:

- «إنها أقرب إلى مفكرة إلكترونية.. على كل حال سأبقيها معي!»

هتفت الفتاة وهي تسلك أسنانها بطرف خنجر..

- «وماذا لو كانت جهازًا لاقتفاء الأثر؟»

- «لا يوجد جهاز اقتفاء أثر مزود بمفاتيح رقمية.. وكذلك القنابل..»

ثم دسّ الجهاز في حزامه.. وعاد يرمقنا في شك.. فحولنا عينينا عنه..

نحن محبوسان هنا إلى أن يقرر إعطاءنا الجهاز، أو أتحول أنا إلى (أرنولد شوارزنجر) أو - على الأقل - (الشحات مبروك).. كي أثب لأوجه له لكمتين يفقد وعيه بعدهما.. وانتزع الجهاز من

حزامه.
بدأ الجمع يتفرق.. وبدا أنهم نسوا أمرنا مؤقتًا..
فعدت و(سلمى) إلى افتراش الحشية، وفي رأسينا من الخواطر السوداء ما لا داعي لذكره..
- «لم يكن هذا خطئي..»
قالتها ردًا على اللوم الذي وجهته لها في سرّي..
كانت هناك بعض الكتب متراصة على رف من المعدن الذي لا يصدأ.. وكانت على بعد ذراعين مني، فمددت يدي ومررت إصبعي على الهوامش: دائرة المعارف البريطانية - تاريخ العالم - أساليب حرب العصابات...
انتزعت كتاب (تاريخ العالم) من موضعه، ورحت أقلب في صفحاته النظيفة ناصعة البياض (فلا أحدًا يقرأ هنا على الأرجح)..

* * *

(سيف الدين قطز).. (الظاهر بيبرس).. موقعة (عين جالوت)..
لا شيء.. هووور! هذا غريب..

* * *

تدني (سلمى) رأسها الصغير من رأسي، وتصغي لترجمتي لما هو مدون بالإنجليزية في مجلد (تاريخ العالم):

الأبطال

في عام واحد بتقويمنا العظيم، وعام ١١٦٢ ميلادية بتقويم النصارى، ولد مرشدنا وقائدنا العظيم (تيموجين خان) الذي سمي بعد ذلك باسم (جنكيزخان) أى سيد الحكام[2]..
كان الخان العظيم يؤمن بالدم، ويؤمن بأن رجولة الرجال لا تنضج إلا على وهج النيران ونصال السيوف..
وفي الثالثة عشرة من عمره استطاع أن يقود جيوشنا، ويوحد قبائلنا التي أنهكتها الصراعات والحروب الأهلية..
انظر أيها العالم! انظري أيتها الشعوب السقيمة.. أيها اليهود والنصارى والمسلمون... هي ذي قوات الخان التي لا تهاب الموت، سنابك خيولها تنهب الوديان والفلوات.. وصرخات محاربيها الأشداء تصم آذان الشعوب التي أوهنها السلام...
ها نحن أولاء نتّجه إلى (الصين).. لقد سمانا الصينيون باسم (شعب الخنازير).. وبنوا لنا سور الصين العظيم حاسبين أنهم بهذا يردون أمواج غزواتنا..
لكن الخان العظيم استطاع أن يقتحم السور، ويحتل (الصين)، وينال بلاد (الترك) بكل بكواتها وسلاطينها المتخمين.. وينال (روسيا)...

وتوفي الخان في عام ٦٥ من تاريخنا و١٢٢٧ بتقويم النصارى.. وتلاه ابنه (أوجوتاي خان) الذي واصل فتوح أبية العظمى، بجنده الذين يقاتلون كالأبالسة، ويلتهمون اللحم النيء، ولا يستحمون أبدًا لأنّهم طاهرون..

ثم جاء (باتوخان) ليواصل الفتوح.. ودانت لنا (بولندا) و(ألمانيا)...

ثم انطلق (هولاكو) العظيم ليظفر ببلاد العرب كلها.. ويحتل (أوروبا) التي لم ترَ الهول منذ عهد (أتيلا) ملك الهون[3]..

في القرون التالية، استطاع جندنا العظام أن يفتحوا أكثر (إفريقيا) و(آسيا).. وتمكّن فاتحنا العظيم (أميرجى خان) من عبور الأطلنطي فوجد هناك شعبًا من الهنود الحمر.. واستطاع أن يحتل بلادهم، ويرسل لها جيشًا من المغول وألوفًا من عبيدنا البيض الأوروبيين.. وصار اسمها (أمريكا) تيمنًا بحروف اسمه...

لقد تفرغ رجالنا العظام للحرب.. بينما تفرغ عبيدنا الصفر والحمر والسود والبيض للزراعة والاختراع من أجل منفعة أمة المغول العظيمة..

وكذا تمكّن عبد إيطالي من اختراع اللاسلكي.. وعبد أمريكي من اختراع الكهرباء.. وعبد ألماني من اكتشاف القنبلة الذرية.. وعبد فرنسي من اختراع آلة العرض السينمائية التي ترى الناس أمجادنا.. وغزا العبيد الروس الفضاء، لكننا ظللنا هاهنا ننتظر حتى يلقوا هناك شعوبًا تستحق أن نغزوها ونعمل فيها الذبح والتقتيل...

المجد للمغول! فهم الأقوى والأشجع والأذكي..

ومنذ عهود فرساننا العظام الذين تركوا الشمس وراء ظهورهم، وراحوا بجيادهم ينهبون الأرض نهبًا، تاركين وراءهم خطًا من الدخان الأسود واللهب..

حتى فرساننا العظام الذين ألقوا قنابلهم النوويّة فوق (موسكو) من طائراتهم الـ (خان - ١٩).. نجد أن روح المغول لم تتغير.. وما زالوا بنفوس متوثبة يقاتلون في كل مكان.. ويشربون لبن الفرس المختمر في جماجم أعدائهم بعد كل نصر..

فإن لم يجدوا حروبًا على الأرض، أرسلوا المكوكات الفضائية تبحث في الفضاء البعيد عن دماء يسفكونها..

المجد للمغول! والويل كل الويل لمن يجرؤ على مقاومة إرادتهم السامية، التي هي إرادة الكون ذاته...

* * *

أنهيت قراءة هذا الجزء من الكتاب.. ووجدت أنه يحوي - عدا ذلك ـ آلاف الأسماء للحروب التي تنتهي كلها بـ (حرق القرى وذبح الرجال ودفن الأطفال وبقر بطون الحوامل).. تاريخ طويل يبدأ من القرن الثاني عشر وحتّى القرن العشرين.. وآلاف (الخانات) العظام الذين لا يكفون عن حرق أعدائهم أحياء..

والمثير هنا أن الكتاب كان دراسيًا.. وكان موجهًا لتلاميذ الصف الرابع الأولي.. أتمنى أن أرى وجه الصبي الذي سيفرغ من قراءة كتاب كهذا.. لا بد أنه سيقضي بقية حياته في مستشفى الأمراض العقليّة، مصابًا بالعته الذهولي..

تبادلت و(سلمى) نظرة واضحة المعنى..
لقد اخترنا أسوأ عالم ممكن.. كما هو ظاهر لكل ذي عينين..

* * *

سألتني همسًا:
- «ماذا تستنتج من كل هذا؟»
قلت لها وأنا أتأكد من أن أحدًا لا يراقبنا:
- «الأمر واضح.. هذا العالم يحكمه المغول بألعن حكم عسكري ممكن.. ومن الواضح - كذلك - أن الثورات لم تنجح ضدهم.. بدليل أنهم يتمتعون بسيطرة كاملة بعد ثمانية قرون..»
- «لكنّ كل أقطار العالم تحتفظ بأسمائها التي نعرفها..»
- «حقًّا.. لكنّها ليست بلدانًا مستقلة.. إنها أقرب إلى الولايات أو المحافظات التي يسيطر عليها حاكم واحد.. لست واثقًا مما إذا كان (أوجوتاي) هذا حاكم (العالم) أم حاكم (الولايات المتحدة).. لكنه مرعب بما يكفي على كل حال..»
عادت تسألني كأنني حكيم الأزمان:
- «وما سر الاختلاف الذي جعلهم يسيطرون على الأرض؟»
ابتسمت.. فلم أتصور أنها لم تلحظ..
- «لأنّه لا يوجد (قطز) في هذا العالم.. ألم تفهمني بعد؟»

* * *

٤ - فلنذب وسط الزحام..

- «لا أفهم..»
قلت لها في صبر:
- «الأمر واضح.. لقد كان (سيف الدين قطز) ثالث ملوك دولة المماليك البحرية..»
- «بحرية؟»
- «يسمونها هكذا.. ولا أعرف السبب[4].. وحين هاجم التتار بقيادة (كتبغا) غزة، تعاون مع مملوكي آخرهو (بيبرس البندقداري) لمحاربتهم... لقد تمكّن (قطز) من مطاردة التتار حتى نهر العاصي.. ثم تمت الموقعة الشهيرة المسماة (عين جالوت) ما بين (بيسان) و(نابلس).. حين صاح صيحته الشهيرة (واإسلاماه!).. وانتصر على جحافهلم المروعة... لقد خلّد (على أحمد باكثير) هذه المعركة في روايته (واإسلاماه).. هل عندكم مثله؟»
- «لا.. فشأن التتار لم يكن ذا بال في عالمي..»
- «حسن.. يرى كثيرون من المؤرخين أن (عين جالوت) هي نقطة التحول في تاريخ التتار.. ودون غرور أو مبالغة يمكن القول إن (قطز) قد استطاع أن ينقذ العالم إلى حدٍ ما..»
قطبت وجهها غير مصدقة.. وغمغمت:
- «إلى هذه الدرجة؟!»
- «كما أنّ معركة (واترلو) قد أنهت أمجاد وحش يُدعى (بونابرت)، و(ستالينجراد) قد حطمت أحلام مخبول يُدعى (هتلر).. ولو لم تكن (ستالينجراد) لكان النازيون يحكمون عالمي الآن..»
هنا ـ وكان الحديث قد استغرقنا ـ دنا منا الفتى الأشقر ذو الضفيرة، الذي عرفنا أن اسمه (كالاهان)، فجلس القرفصاء جوارنا... وابتسم.. ثم ناولنا بطاقتين مغلفتين رهيبتي الشكل.. وقال:
- «مرحبًا بكما في (نيويورك)..»
أمسكت البطاقة الأولى.. وكانت عليها صورتي أبتسم ببلاهة.. والبيانات تقول إننى (لوتشيو أماريللو)... عامل بناء.. مكسيكي..
أما بطاقة (سلمى) فتقول إنها (ماريا أماريللو).. خادمة.. مكسيكية..
أولًا: لم اخترت لنا الجنسيّة المكسيكية؟
- «لأنهّا تسمح بأن تكون أسمر البشرة ذا ملامح عربية.. لقد رأيت فرنسيين يبدون كاليابانيين.. وأمريكيين يبدون كالأفارقة.. فلن يجد المغول شيئًا مريبًا في ملامح وجهيكما..»
ثانيًا: لماذا اخترت لنا مهنًا يدوية بائسة؟ لم لا أكون طبيبًا وهي رسامة؟
- «لأن هذا هو نوع المهن التي يمكن لمهاجر مكسيكي أن يجيدها.. كنت سأختار لك مهنة عامل مجاري.. ولها مهنة راقصة.. لكنكما لا تبدوان لي من أهل ذلك!»
وأضاف في تفلسف:
- «وعلى كل حال.. لا توجد مهنة يدوية بائسة.. أنت تعمل إذن أنت محترم..»

تاليًا: ما سر تشابه اسمينا؟ هل تعني أننا زوج وزوجة؟

- «لا.. إن تشابه وجهيكما مريب.. لذا أؤثر أن تكونا توءمين غير متماثلين.. فالأزواج قلما يتشابهون على هذا النحو إلا بعد ثلاثين عامًا من الحياة الهانئة.. ولا توجد حياة هانئة في هذه الأرض..»

لقد أقنعتنا يا أخ (كالاهان)...

بعد هذا مد يده لنا بحفنة من الدولارات غريبة المظهر.. كلها تحمل وجه (جنكيزخان) بدلًا من (جورج واشنجتون).. مع شعار (دماء.. دماء) بدلًا من شعار (بالله نؤمن) الشهير..

- «دولارات مغولية.. مزورة بالطبع.. لكنّ اكتشافها شبه مستحيل..»

وناولنا كيسين يحوي كل منهما مجموعة من الثياب.. وحذاءين لحسن الحظ وطلب منا أن ننتحي جانبًا لنرتديها..

سألته وأنا أحمل ثيابي وأنهض:

- «لكننا لا نعرف حرفًا من الأسبانية..»

- «كذلك المغول.. فلو ضبطك أحدهم اكتف بترديد أية كلمات تنتهي بحرف (الواو) أو (الياء).. ولا تنس أن تضع يديك على صدرك وتلوح بهما طيلة الوقت.. ومن آن لآخر قل (سنيوري).. فهذا كاف..»

ثم هتف بلغة أسبانية مزيفة يمكنها خداع الحمقى جميعًا:

- «سنيوري داسفيدا ماتريو سوكيري ماريا!»

- «ما معنى هذا؟»

- «لا معنى له.. لكنه جيد كما ترى..»

- «وما هو برنامج حياتنا بعد ترك هذا المكان؟»

ابتسم.. وقال وهو يبصق ويداري البصقة بحذائه:

- «لا شيء.. عليكما البقاء حيين أطول وقت ممكن!»

* * *

بطاقة عبودية

اسم العبد: لوتشيو أماريللو كاريداس.
السن: ٣٠ سنة.
المهنة: عامل بناء.
الولاية: المكسيك.
تاريخ القدوم إلى نيويورك: بيلاس - ٨٢٦ (أكتوبر ١٩٩٣)
عيوب: إسهال - غازات بطن - قدم مسطحة.
شخصيته: خنوع - جبان - متردد - أحمق - إمعة.
صحت في احتجاج بعد ما قرأت بطاقتي بعناية:
- «كل هذه السلبيات؟ ولماذا لم تضفها في خانة العيوب؟»
قال (كالاهان) وهو يرتب سترتي كي تبدو أكثر اهمالًا:
- «بل هي مزاياك.. الخنوع الجبان الأحمق هو العبد المفضّل عند المغول.. أمّا عن عيوبك فهم لا يريدون سوى الجسدية منها.. وعلى كل حال بطاقة عبوديتي أنا تقول إنني: خنزير - دنيء - نذل - معتوه..»
صافحته في حرارة.. وحييت الباقين.. وإن لم أستطع كثيرًا أن أحب (ماك - جورج) الذي يضع في جيبه أثمن ما أملك..
- «شكرًا يا (كالاهان).. فلولاك....»
- «لا عليك.. إنها تعليمات (أبو فراس) الصارمة... علينا العناية بالعرب بالذات، وتوفير سبل الراحة والتنكر لهم..»
ورحنا نعبر شبكة المجاري المعقدة..
همست (سلمي) في أذني:
- «والجهاز؟»
- «وماذا عن جهازنا يا (كالاهان)؟»
قال وهو يتحسس مواضع خطواته، مستعينًا بمشعل صغير:
- «سيبقى مع (ماك - جورج) لفترة حتى يعرف كنهه.. وعلى كل حال لا تقلقا.. فهو في أمان...»
ثم توقف وأشار بالمشعل إلى أعلى.. كان النور يدخل من طاقة معدنية في سقف المكان..
- «ستصعدان من هنا إلى شارع جانبي.. تأكدا من غلق الفتحة ثم عيشا حياتيكما.. يوجد فندق رخيص على بعد خطوات.. كما أنّ هناك مكتب توظيف على الناصية.. والآن وداعًا..»
وراح ينتظرنا حتى تسلقنا الدرجات المعدنية، التي توصلنا إلى غطاء المجرور.. أزحتها بيدي.. ورفعت جسدي حتى خرجت من الفتحة، ثم مددت يدي أعين (سلمى) على الخروج، وسرعان ما ابتلعتنا المدينة المنهكة العجوز...

* * *



بعد هذا مدّ يده لنا بحفنة من الدولارات غريبة المظهر .
كلها تحمل وجه (چنكيز خان) ..

كان الجليد ينهمر في رقة.. وبدأ الشارع يتخذ لونًا أبيض حزينًا كأحلام ملاك، وقد بدأت أشجار عيد الميلاد تتناثر في الطرقات.. وأمام أبواب المحلات.. وبعض دُمى حزينة لـ (سانتا كلوز) - بابا (نويل) كما نُسمّيه - تقف على استحياء وراء واجهات المتاجر.. ومرت جوارنا عربة تشبه عربات المطافئ بسرعة جنونية..

على ظهرها وقف رجال ذوو ملامح مغولية، يرتدون معاطف جلدية حمراء، وقد ثبت كل منهم خزانًا على ظهره.. خزانًا يشبه قاذفات اللهب التي نراها في السينما..

كانت ملامحهم صارمة تشي بالشر.. لابل تشي بما هو أقسى وأبرد من الشر.. وعرفت أنّ هذه فرقة إبادة مرضى الطاعون، ذاهبة لحرق بيت آخر في الناحية.. أتمنى لهم التوفيق!

فما إن ابتعدت السيارة حتى همست (سلمى) وهي تتأبط ذراعي، ويدها ترتجف في عصبية حول ساعدي:

- «لقد صرت أكثر اقتناعًا بمغادرة هذا العالم.. نحن لن نترك جهازنا مع هؤلاء المتمردين لمجرد أنهم أقوى وأكثر عددًا.. كان يجب أن تصر على استرداد الجهاز..»

- «الإصرار كان سيجعلهم يرتابون أكثر.. ويصممون على فتحه لمعرفة ما به...»

- «ولكن كيف نسترده؟»

- «سنعود لهم بعد يوم قائلين إننا بحاجة إليه.. وسيكونون هم قد تأكدوا من أنّه ليس قنبلة أو جهاز تصنت..»

بدا عليها عدم الاقتناع.. لكنّ ما كان بوسعها أن تجد حلًا اخر..

لافتات في كل مكان عليها صورة واحدة لوجه مغولي شرس يحاول أن يرسم ضحكة مشرقة على ثغره، وتحتها تعليقات من نوع (تذكر أن أوجوتاي في كل مكان) و(أوجوتاي صديقك حين تخضع له.. وعدوك حين تعصاه).. و(لا نريد مزيدًا من دمائكم.. فساعدونا)..

وفي كل ناصية يقف رجل شرطة مغولي بثيابه الحمراء المميزة، يرمق المارَّة في شك ويده على مدفعه الرشاش الشبيه بالمسدس...

واستوقفنا واحد.. وطلب منا بطاقات العبودية.. فناولتها إياه وقلبي يخفق كالطبل... تفحصها وتفحصنا.. ثم تفحصها فتفحصها.. ثم عاد يتفحصنا ويتفحصها.. ثم سمح لنا بالانصراف وقد بدت عليه خيبة الأمل.

على الأقل البطاقات تؤدي عملها كما يجب...

قرحتى بدأت تصحو وآلام لا تطاق تمزقني، لا بد أن قرحة (سلمى) تفعل نفس الشيء.. إنّه التوتر الدائم والجو البوليسي المرهق للأعصاب..

صوت طلقات رصاص من الشارع المجاور...

ثم سمعنا صراخًا.. ورأينا اثنين من المغول يجران جثة مزقها الرصاص، ليلقيا بها في عرض الطريق فوق الثلج.. ثم يعودان إلى جولتهما..

وتجمع المارَّة حول الجثة.. المفزع ها هنا هو أن الأمر بدا روتينيًا لا يثير الذعر في نفس أحد سوانا.. إن هذا يحدث كل يوم كما هو واضح...

وسمعنا الناس يقولون عبارات عديدة:

- «مسكين!»

- «يبدو أنه ياباني أو صيني..»
- «الأحمق لم يحمل بطاقة عبودية..»
- «لقد أعدماه فورًا..»

ابتعدنا ونحن نقاوم رغبة عارمة في الركض كالأرانب.. وأقدامنا لينة ترتجف كأعواد المكرونة المسلوقة..

ومن بعيد نلمح لافتة (فندق).. فنهرع إلى هناك..

كان متوسط النظافة لكنه ليس حظيرة أبقار على كل حال.. وكان موظف الاستقبال يضع عوينات سيمكة ويقف تحت صورة هائلة الحجم للزميل (أوجوتاي).. رحب بنا.. ثم تفحص بطاقتينا.. ومد أنامله يضغط على أزرار جهاز (كمبيوتر) على المنضدة.. وقطب جبينه إذ نظر إلى الشاشة..

سألته (سلمى) في قلق وهي تمد رأسها محاولة معرفة ما هنالك:

- «هل ثمّة مشكلة ما؟»
- «كلا يا سيدتي... إنّه إجراء روتيني حسب قانون (بيدرا).. يجب إخطار الشرطة بكل صاحب جنسيّة أجنبيّة يطلب مسكنًا..»

وابتسم ابتسامة مفتعلة..

فشكرناه.. واقتادنا خادم آسيوي إلى غرفتنا بالطابق الثالث.. وهي غرفة لا بأس بها.. نظيفة نوعًا، خالية من البراغيث..

اتجهت (سلمى) إلى النافذة، فأزاحت ستائرها جانبًا، ووقفت ترمق الشارع.. على حين نقدت الخادم بعض قطع العملة.. وأحسنت غلق الباب.. ثم عدت لأجدها ما زالت هناك عند النافذة.

قالت دون أن تلتفت:

- «(سالم).. سيبلغون رجال الشرطة عنا!»

هززت رأسي في حيرة:

- «طبعًا يا ملاكي.. هو قال هذا.. إنّه قانون (بيدرا)..»
- «لا أعني بلاغا روتينيًا.. بل سيبلغ الشرطة أننا مثيران للشك.. ولن تلبث عرباتهم أن تصل إلى هنا خلال ثلاث دقائق..»
- «وما الذي يدعوك إلى افتراض الأسوأ؟»
- «كانت نظراته مريبة.. وفي زجاج عويناته رأيت انعكاس شاشة الكمبيوتر.. لقد كان عليها رسمان لا بأس بهما لوجهينا...!»

* * *

٥ - فلنذب وسط الزحام..
(من جديد)

كان علينا التفكير السريع، واتخاذ قرار خلال دقيقة..
سألتها وأنا أثب على قدمي:
- «صـ... صورتنا؟ وكيف حصلوا عليها؟»
- «ربما لم تكن صورتنا.. ربما هي صورة رجل وامرأة آخرين.. لكنّ المؤكد أنهم يبحثون عنهما جاهدين، وقد عمموا الصورة في كل مكان كي يبلغ أحدهم عن صاحبيها..»
- «ولكن من؟»
قالت وهي تذرع الغرفة جيئة وذهابًا:
- «من يدري؟ ربما لم يمت الشرطي.. أو كان هناك شهود، استطاعوا أن يحددوا ملامحنا بالاستعانة برسامي الشرطة.. وربما كان هناك خونة بين المتمردين وقد أبلغوا عنا..»
قلت لها:
- «استبعد الاحتمال الأخير.. وإلا لكانت صورتنا الفوتوغرافية عند الشرطة.. بلا أي داع للاستعانة بصورة مرسومة.. والآن.. هل نهرب؟»
- «طبعًا..»
صورة الجثة التي مزقها الرصاص على قارعة الطريق لا تفارق ذهني...
يوجد حل واحد للفرار.. هو أن نفر بسرعة.. بسرعة تفوق كل توقعات هؤلاء القوم.. فلا أحد يفر من فندق دخله منذ خمس دقائق..
وقد خطرت الفكرة لنا في ذات اللحظة.. فانطلقنا لا نلوي على شيء..
ثم وثبنا درجات السلم ثلاثًا ثلاثًا.. وكالرصاصة انطلقنا أمام عيني الموظف الذي كان يتكلم في الهاتف فلم يجد وقتًا كافيًا ليرانا..
واصطدمنا بثلاثة رجال يدلفون من الباب.. فلم يجدوا وقتًا للاحتجاج..
وتعثرت امرأة داست (سلمى) على حذائها..
وبعد ثانيتين كنا في الشارع المزدحم من جديد..
فلو أن المغول يملكون شيئًا من الخيال، لبحثوا عن سحابتين من البخار الأبيض تخرجان من رئاتنا.. ونحن نلهث كقاطرة....
وأشارت (سلمى) في ثقة إلى المشهد الذي تتوقعه..
سيارة شرطة حمراء اللون تتوقف أمام مدخل الفندق.. ليخرج منها ستة رجال من المغول يحملون أسلحة تكفي لاحتلال (موسكو) لو أرادوا.. وهم يركضون كالذئاب المسعورة إلى الداخل..
ابتعدنا أكثر فأكثر نادمين على أننا لا نملك طاقية الإخفاء..

معنى هذا أن الطرقات غير آمنة بالمرة.. وبطاقات العبودية لن تحمينا إن لم تؤذنا.. فكل شرطة (نيويورك) تعرف اسمينا المستعارين الآن..

الحل الوحيد هو أن نرجع إلى (الخاسرين)، ونخبرهم أننا في مأزق.. وأننا سنموت ما لم يعيدوا لنا الجهاز..

ولكن.. أي مجرور بالضبط يقود لهم؟

قالت (سلمى) وهي تنظر إلى الوراء:

- «كان هناك شارع جانبي يقود إلى الشارع الذي فيه الفندق.. وعلى ناصيته متجر (بيتزا) صغير.. والشارع نفسه شبه مهجور..»

- «هذا جميل.. وماذا عن شبكة المجاري المرعبة؟»

- «أعتقد أنني عددت المنحنيات.. ثم إننا سنصرخ منادين (كالاهان)..»

لا بد أن آذان هؤلاء القوم مرهفة..

لكن الوقت غير مناسب بالطبع..

لا بد من الانتظار حتى يجن الليل من جديد...

* * *

إن دور السينما مناسبة دائمًا للاختباء..

كانت خطانا قد قادتنا إلى حي مليء بالملاهي والمسارح ودور السينما.. وأنا لم أر (نيويورك) من قبل.. لكني أعرف أن حيًا بهذه الصفات لا يمكن سوى أن يكون حي (برودواي)..

الأضواء الملونة الزاهية تتوهج في كل مكان.. والموسيقا تتسرب في الهواء كعطر قوي..

وكانت هناك عدة دور سينما تعرض أفلامًا أمريكية، ميزت بعضها.. لكني وجدت دارين تعرضان أفلامًا لها أسماء منغولية.. وكتبت اسماؤها بحروفهم الشبيهة بديدان تتلوى..

- «ما رأيك؟»

- «أخشى أن تكون هذه الدار للمغول فقط..»

لكني وجدت أسرًا عادية تدخل.. أمريكيون يتأبطون أذرع فتياتهم ويدخلون.. لمَ لا؟ تعالي نر نوع الفن الذي يقدمه هؤلاء الرعاة..

واتجهت إلى شبّاك التذاكر، وطلبت من العاملة الشقراء أن تعطيني تذكرتين.. وأخرجت ورقة بعشرة دولارات.. لكنّها بدت مندهشة..

وببرود قالت وقد أدركت أنني أجنبي:

- «لا نقود.. الأفلام المغولية مجانية!»

ولما رأت البلاهة على وجهي، قالت في سأم:

- «إنّه الغزو الإعلامي يا صغيري!»

وتقدمت مع (سلمى) إلى الداخل لنمر وسط حشد من موظفي السينما يقفون على الصفين.. إذن ما أهميّة التذاكر؟ ما دام الدخول متاحًا لكل من هب ودب؟ لكنهم تفحصوا تذكرتينا مرارًا...

وفي النهاية جلسنا في القاعة المظلمة المكيفة - مكيفة بالتدفئة طبعًا - وكان عدد الجلوس قليلًا... يبدو أن الأفلام المغولية غير محبوبة لهذا الحد..

همست (سلمى) وهي تنظر حولها:

- «لهذا التذاكر مجانية..»

قلت لها هامسًا:

- «لا أحد يرغب في مشاهدة فيلم صنعه قاهروه.. فالدكتاتورية لا تجيد صنع الأفلام.. وقد حدث أن صنع الروس فيلمًا عظيمًا اسمه (المدرعة بوتمكين) المخرج اسمه (إيزنشتاين).. وظل (هتلر) طوال الحرب العالمية الثانية يصرخ في مخرجية ووزير دعايته، كي يصنعوا له فيلمًا مماثلًا له هذا التأثير في النفوس.. لكنهم عجزوا عن ذلك.. لأن الدكتاتورية ـ كما قلت لك - لا تجيد خلق الفنون..»

وانطلق شعاع الضوء يرتمي على الشاشة الفضية.. وهنا رأينا صورة لوجهين: وجه رجل ووجه امرأة... تم رسمهما باللون الأسود.. وقد كتب تحتها:

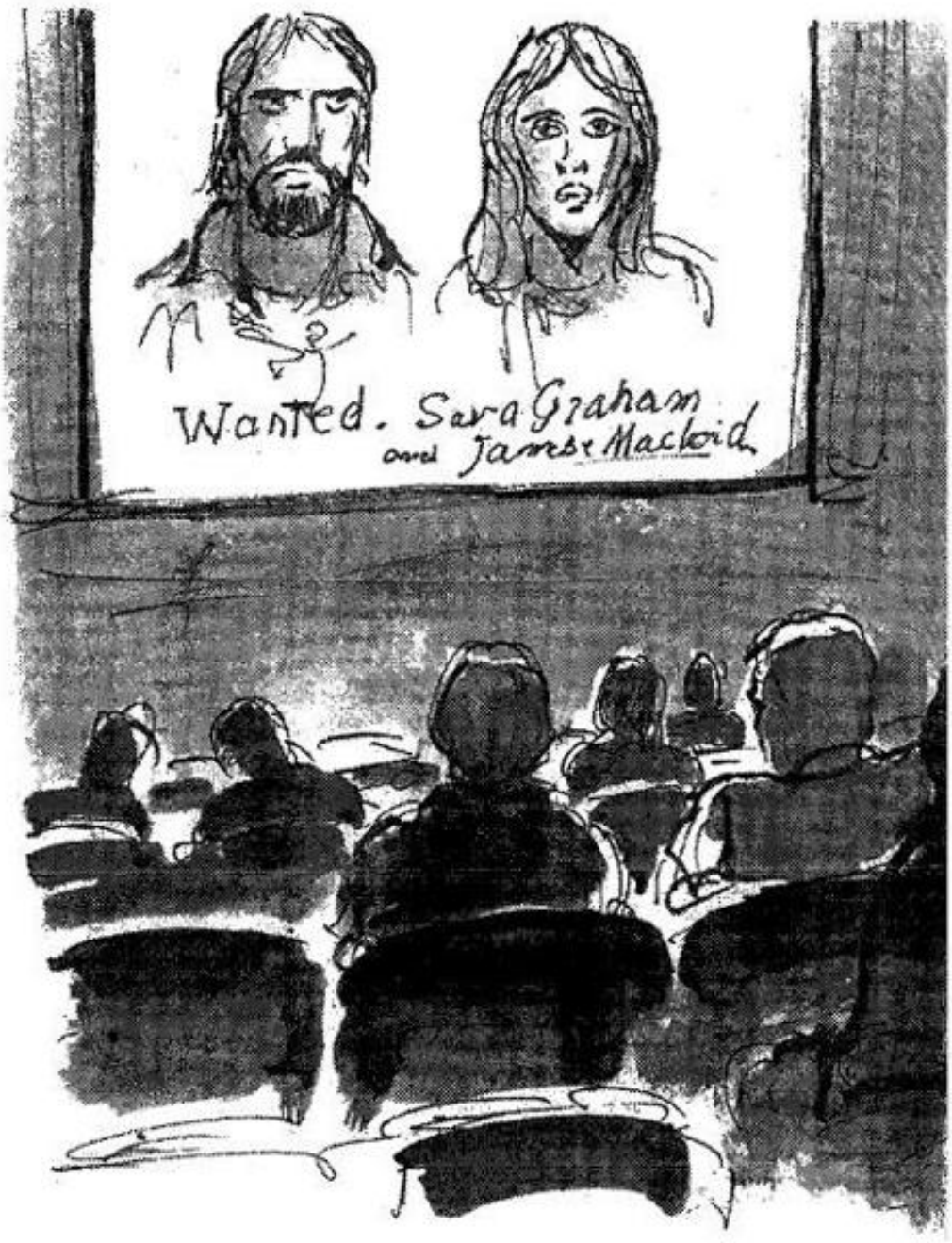
- «مطلوب القبض على (ساره جراهام) و(جيمس ماكلويد) - التهمة هي السخرية من النظام - اطلب رقم الهاتف 990.. كل من يتستر عليهما يعاقب بالإعدام الفوري وغرامة مائة ألف دولار!»

ثم اختفت الصورة وبدأ عرض الفيلم..

ملت على (سلمى).. وسألتها همسًا:
- «هل هذان هما الوجهان اللذان رأيتهما على الشاشة؟»
- «أظن هذا.. إذن لم يكن البحث جاريًا عنا!»
وتنهدت في ارتياح.. لقد تم تعميم صورة هذين البائسين في كل مكان.. وعلى كل شاشات (الكمبيوتر) والتلفزيون والسينما.. ومن الواضح أنهم سيجدونهما.. حتمًا سيفعلون..
سألتها:.
- «هل نخاطر بالعودة إلى الفندق هذا المساء؟»
- «لا.. سنخاطر بالعودة إلى المجاري باحثين عن جهازنا..»
ثم همست وهي ترتجف:
- «لو لم نكن نحن اليوم على هذه الشاشة.. فسنكون هناك غدًا!»
هنا دوى صوت من مكبر صوت يقول بحزم:
- «العبد والعبدة الجالسان في المقعدين رقم (٥٤) و(٥٥)! ممنوع الكلام نهائيًا في أثناء عرض الفيلم التثقيفي!»
تبادلنا النظرات في هلع.. إذن هم يسمعوننا! هل فهموا ما نقول؟ لا أظن.. مستحيل أن يستعدوا بمترجم للعربية تحسبًا لدخول أحدنا دار السينما..
ولكن.. ربما عرفوا أننا نتحدث العربيّة! من السهل أن تعرف الاسبانية والعربيّة والألمانية والعبرية والفرنسية حين تسمعها، حتى ولو لم تفهم منها حرفًا واحدًا.. فهل يعرفون الآن أننا عربيان؟

* * *

حاولت التركيز في أحداث الفيلم..
كان مترجمًا إلى الإنجليزية لحسن حظي أو سوئه.. فقد كان أسوأ فيلم رأيته في حياتي باستثناء بعض أفلام مخرجنا الأستاذ (...)..
الفيلم يدور حول أسرة أمريكية متدينة طيبة.. لكن لها ابنًا وغدًا شريرًا زنيمًا.. هذا الوغد يدخن المخدرات ويلهو مع الفتيات.. ثم يحرق سيارة شرطة مغولية.. الأب العجوز الطيب ينصح الفتى مرارًا بأن يتعقل ويهتدي إلى الصواب.. لكنّ الفتى الفاسد يتمادى في غيه.. وينتهي الأمر بأن تهاجم الشرطة المغولية البيت..
هنا يتمهل الفيلم ليرينا عملية سلخ جلد الأب العجوز حيًا.. وحرق الأم.. وتمزيق أوصال الأخت.. حتى توشك الدماء أن تسيل من على الشاشة لتغرقنا نحن المشاهدين...
ثم يقول قائد المغول الفتى الأرعن: «هذا هو ماجنيته على أهلك.. إن طاعة المغول - يا أحمق - هي من طاعة الرب..»
ثم يلقى الفتى عقابًا لا داعي لوصفه حتى لا أرهق أعصاب القارئ.. وينتهي الفيلم بالمغول يعاملون المواطنين المسالمين في تهذيب ورقة..



وهنا رأينا صورة لوجهين : وجه رجل ووجه إمرأة . .

هنا سمعت (سلمى) تتحشرج استعدادًا للقيء.. إن معدتها لم تتحمل كل هذا الدم الذي ابتلعته على الشاشة..

- «لا تفعلي يا (سلمى)! تماسكى يا حمقاء!»

لكنّها لم تستطع.. وأفرغت معدتها محدثة ضوضاء لا بأس بها..

هنا دوي الصوت من المكبر يقول:

- «العبدة في المقعد (٥٥)! هل هناك ما لم يرق لك في الفيلم؟»

يا للكارثة!

وقفت صائحًا أخاطب لا أحد:

- «إنها.. إنها التهمت طعامًا فاسدًا في مطعم.. هذا كل شيء..»

قلتها بالإنجليزية طبعًا..

هنا دوي الصوت من جديد:

- «نريد اسم المطعم! فصاحبه يجب أن يُجلد!»

يا للمصيبة! انهم لا يتركون أية تفاصيل.. عدت أصيح:

- «نسيت اسمه إنّه في (بروكلين).. لا توجد مشكلة»

- «إن صحة العبيد لمن صميم أمن النظام.. حاول أن تتذكر!»

- «حقًّا لا أستطيع.. كانت عربية مقانق عابرة!»

ساد الصمت برهة.. ثم قال الصوت:

- «حسن.. اجلس يا عبد.. سنبدأ الأسئلة حالًا!»

أسئلة؟ ما هو الموضوع؟ ماذا يريدون؟

- «المقعد رقم (١١٨).. ما اسم الصبي الرقيع في الفيلم؟!»

هنا نهض كهل وقور الشكل من المقعد (١١٨).. وفي تردد قال:

- «اسمه (جيمي)؟»

- «الإجابة خطأ! ستتلقى عشر جلدات حالًا!»

وتقدم شرطي يرتدي زيًا أحمر، ويحمل سوطًا، كي يقتاد الكهل إلى باب خلفي.. وسمعنا صوت الصراخ وصوت ضربات السوط!

همست في أذن (سلمى) مذهولًا:

- «يا نهار أسود!»

هنا دوى الصوت:

- «المقعد رقم (٢٠).. من هو مخرج الفيلم؟ ومن مصوره؟»

نهضت شابة حسناء من مقعدها.. وبثقة صاحت:

- «المخرج هو المغولي العظيم (كيشنجا) والمصور هو المغولي العبقري (نيسابو)..»

- «أحسنت! واستطعت الفوز بحقنة من لقاح الطاعون!»

هللت الفتاة في حماس.. وهرعت إلى الباب الخلفي..

فهمت! هذا هو المبرر الوحيد الذي يغري الناس بدخول السينما:

أملهم في جرعة من لقاح الطاعون تحميهم من الموت.. ولو خسروا فلن يكون الأمر أسوأ من بعض جلدات..

وهم ـ المغول ـ يرغبون في التأكد من أن الناس رأوا الفيلم كاملًا.. فلم يشردوا ولم يثرثروا في أثناء العرض... لهذا يعقدون هذا الامتحان بعد العرض للتأكّد من أن الرسالة (التثقيفية) قد بلغت الناس كاملة..

المشكلة هي أنني ظللت شارد الذهن طيلة عرض الفيلم.. فلم أر سوى خطّته العامة..

هنا دوي الصوت من جديد:

ـ «المقعد (٤٥)!»

ارتجفت ساقاي... واستعدت الشعور القديم الذي تركته ورائي في المدرسة الابتدائية، حين كنت أسمع اسمي يناديني به معلم الحساب!

ورفعت رأسي لأسمع الصوت يسألني:

ـ «ما هو رقم سيارة الشرطة التي أحرقها الصبي الرقيع في الفيلم؟!».

بدا مظهري كأكثر التلاميذ فشلًا وغباء.. وأنا أبحث في ذهني عن معلومة أعرف أنه لا وجود لها أصلًا..

هنا سمعت صوتًا هامسًا يفح من خلفي (وكان رفيعًا ناعمًا):

- «(١١٧ ـ ب) يا أحمق!»

ودون أن أنظر خلفي، التقطت الكرة وصحت:

- «(١١٧ ـ ب)! رقمها كان (١١٧ ـ ب)!»

هنا حدث شيء غريب....

* * *

٦ - هل هو الأمل؟

في هذه المرّة لم يكن هناك لقاح ولا جلد...
لقد تقدم رجل الشرطة الأحمر إياه عبر الصالة، حتى وصل لموضعي ثم انحنى ليرمقني في حدة.. وأخرج مفكرة صغيرة..
وبإنجليزية بشعة سألني:
- «أين بطاقة عبوديتك؟»
مددت يدًا مرتجفة وقدمتها له.. لا بد أن الأمر يتعلق بالذبح هذه المرّة.. ورأيته يدون ما فيها في مفكرته.. ثم أعادها لي وعاد يسأل:
- «أين تقيم الآن؟»
- «فندق (العبيد السعداء).. غرفة ٢١٨..»
أعاد المفكرة إلى جيبه وقال:
- «سنتصل بك!»
وانصرف تاركًا إياي في حيرة لا تصدق.. و (سلمى) مثلي..
ودوي صوت صفارة عميقة، فنهض المشاهدون.. إذن لا بد أن الامتحان قد انتهى.. نهضت مع (سلمى) وأنا أقسم في سرّي ألا أدخل دور السينما بعد اليوم حتى لو لم تكن مغولية..
وشممنا هواء الشارع البارد.. وداست أقدامنا على الثلج فشعرنا براحة غامرة.. دسست كفي في جيبي سترتي، بينما أحكمت (سلمى) لف كوفيتها على عنقها.. وسألتني:
- «ما معنى هذا؟»
- «لا أدري..»
هنا سمعت من يقول بالعربية بصوت خافت:
- «معناه أنك تصلح لتكون بصاصًا لهم!»
التفت في دهشة.. لأرى رجلًا في منتصف العمر له شعر فاحم السواد وشارب كث ناعم.. يرتدي معطفًا رماديًا، ويمسك بيده يد صبي في العاشرة من عمره.. ويشبهه إلى حدٍ ما..
وعندها عرفت سر اللهجة التي لفظ بها الرجل عبارته... فمظهره يوحي بأنه من الشام.. أو ربما أبعد.. ربما هو تركي يتكلم العربيّة...
تظاهرت بالغباء.. ونظرت له في عدم فهم.. لكنه قال:
- «لا تحاول التمثيل.. أعرف أنك عربي.. ربما مصري كذلك.. ولا تخش مني فأنا مثلك أحمل بطاقة تقول إنني هندى..»
ومد يده ليصافحني.. كان قويًا موحيًا بالثقة..
قال باسمًا:

- «أنا تركي أدعى (قاسم).. وهذا هو ابني (سيف) وكنت قد دخلت معه السينما أملًا في الفوز بجرعة من لقاح الطاعون له.. هلمّ صافح عمك يا بني..»

مد لي الصبي الجميل ذو العينين الذكيتين يده مصافحًا.. وابتسم برقة..

قال الرجل:

- «والآن.. هيا نجد مكانًا هادئًا نتكلم فيه.. فليس من المستحب أن نقف ها هنا نتكلم بالعربية.. وإلا كان من الأفضل لو علقنا لافتة تعلن جنسيتنا»

ومشينا نحن الأربعة حتى وجدنا متنزهًا شبه خال من الناس..

كانت هناك أشجار يكسوها الجليد.. ومقاعد متناثرة.. فاخترنا أحدها وجلسنا.. وأشار الرجل للصبي كي يبتعد ليلهو قليلًا.. ثم قال وهو يخرج لفافة تبغ من علبته ويشعلها، بينما الليل يغلف المكان:

- «إن (سيف) هو منقذك الخفي الذي تكلّم في ظلام السينما.. إنّه جم الذكاء ذو ذاكرة فوتوغرافية. ولا أعتقد أن أحدًا كان يستطيع تذكر رقم السيارة سواه..»

سألته وأنا أنحني للأمام كي لا أترك كلمة تفلت منه:

- «لماذا أخذوا بطاقتي؟ وما معنى كلامك؟»

ابتسم بثقة.. وقال:

- «لقد انبهروا بقوّة ملاحظتك.. ووجدوا أنك تصلح جاسوسًا لهم وهو شرف - لو تعلمون - كبير.. سيتيح لك هذا مزايا مدنية أكثر:

راتب مرتفع - حصة تموينية أعلى - لقاح الطاعون والدرن.. إلخ.. ولن يكون عليك سوى إبلاغهم بكل ما يريب..»

- «مثل!»

- «مثل رجل شرطة يضع حذاءين مدنيين.. مثل رجل يزعم أنه هندي - على غراري - ويلتهم شطيرة من اللحم البقري.. مثل ياباني لا ينحني عندما يحييك.. مثل انتفاخ وراء سترة مدني يوحي بوجود سلاح..»

- «وإذا رفضت؟»

- «لا ترفض ولا تقبل.. أنت حر.. كل ما يُمكنك زعمه هو أنك لم ترَ ما يريب.. المشكلة الوحيدة هنا هي أنهم سيبحثون عنك!»

- «يبحثون عني!»

- «طبعًا..»

ونفث دخان التبغ في الهواء.. وأضاف:

- «سيبحث (أوجوتاي) في ذاكرته الإلكترونية عن أي معلومات تشير إلى دخولك البلاد فلن يجد.. عندها ستدق الطبول!»

هنا تكلمت (سلمى) للمرة الأولى:

- «(أوجاتاي) هو جهاز حاسوب؟»

- «تعنين (كمبيوتر)؟ طبعًا.. إنّه الحاكم العام للولايات.. إن الصورة التي ترينها جوار أسمه لا تعني شيئًا.. هي مجرد محاولة لجعله شيئًا ملموسًا للعامة.. أمّا العالم فيسيطر عليه (كمبيوتر)

عملاق اسمه (هولاكو).. وما زلت أرى أنكما في مأزق.. كان عليكما التصرف بحذر أكثر ما دامت بطاقتكما مزورتين..»

ورحنا نتأمل المرج المغطى بالجليد.. وفي ذهن كل منا من الأفكار السوداء ما يكفيه.. لم نكن في خطر حين دخلنا دار السينما وان حسبنا ذلك.. أمّا الآن فنحن في خطر لا شك فيه.. وقد صارت العودة إلى الفندق مجازفة حقيقيّة..

وهنا تذكرت الفيلم السخيف فقلت للرجل:

- «تبًّا لها من دعاية فجة! ما الذي يدعو هؤلاء الوحوش لمحاولة تقديم فيلم سينمائي؟ ظننتهم لا يبالون بالتأثير الإعلامي..»

- «هم كذلك.. لكنّ المستعمر يحتاج دومًا إلى هذا التأثير.. فهم - مهما بلغ عددهم - لا يستطيعون امتلاك عدد كاف لاحتلال العالم والسيطرة عليه.. لا بد من إرهاب الناس وغسل عقولهم.. والسينما والتلفزيون يقدمان هذه الخدمة بشكلٍ جيّد.. والمشكلة هي أنهم محاربون وليسوا فنانين!»

عدت اسأله:

- «وماذا جاء بك إلى هنا؟»

- «هربًا مما هو أسوأ.. إنهم يقومون بحملة إبادة شرسة في غرب وجنوب آسيا.. جئت إلى هنا حيث لا يتوقعون أن يروا عربًا أو مسلمين.. وقد ساعدني (أبو فراس) على التسلل..»

سألته (سلمى) وهي تطوق عنق الصبي بذراعيها:

- «ما سر تعصبهم المجنون ضدّ المسلمين والعرب عامّة؟»

تنهد.. وألقى ببقايا لفافة التبغ بعيدًا.. وقال:

- «لقد قام الكمبيوتر العملاق (هولاكو) بحسابات معقدة، وإجراءات (سيبرنية) لا يمكن وضعها.. في النهاية افترض أن الخطر الذي يهدد إمبراطورية المغول سيكون خطرًا إسلاميًا.. وربما عربيًا..

النتيجة: صار على المغول أن يتأكدوا من إفناء كل ما هو إسلامي أو عربي.. والعرب المسيحيون يلقون معاملة لا تقل سوءًا على كل حال.. فهم عرب قبل كل شيء...»

تبادلت و(سلمى) نظرة فهم...

لم يكن الكمبيوتر مخطئًا على الإطلاق.. ومن الواضح أن مصممه عبقري..

- «هل المغول هم من صمموه؟»

- «بالطبع لا.. فهم لا يجيدون سوى حرق المدن.. لقد صنعه اليابانيون لهم تحت تهديد السلاح.. واليوم يوجد الكمبيوتر (هولاكو) في عاصمة المغول في (سيبيريا) فوق قمم الثلوج.. ومن هناك يرى ويسمع ويعرف كل ما يجري في العالم..»

كان الصبي قد ابتعد كثيرًا.. فصاح الرجل يهيب به أن يعود إلينا.. لكنّ الطفل كان يلهو فوق الجليد.. يلهو بحركات أقرب إلى رياضة (الكونج - فو).. وقد أبدى رشاقة وخفة غير مألوفتين..

قلت للتركي:

- «صبي جميل ذكي..»

في فخر غمغم:

- «بل ويجيد استخدام (الكمبيوتر).. ويجيد أكثر الرياضات.. إنني لأتساءل عما سيكونه بعد عشرين عامًا.. من يدري؟ ربما لن يعيش لهذا الحد!»

طقطقت بلساني.. وأصدرت (سلمى) آهة استنكار.. وقالت:
- «أعوذ بالله! لم هذا التشاؤم؟»
قال وقد اكتسى وجهه بقناع من الجهامة:
- «في عالم كهذا يغدو كل شيء ممكنًا.. لقد رأيت مصرع أمّه بعيني..»
- «آسفة...»
- «لو مات - وهو وحيدي - لكانت نهاية أسرة (قطز) كلها!»
(قطز)؟!
وتبادلت و(سلمى) نظرات الذهول...

* * *

٧ - الغارة..

ارتجفت.. لكني حاولت التماسك وسألته:
- «هل (سيف).. هو (سيف الدين)؟»
ابتسم ساخرًا وقال:
- «طبعًا.. أنتم العرب أدرى بذلك..»
- «أي أن اسمه هو (سيف الدين قطز)؟»
- «طبعًا.. لكنّ اسمه في بطاقة العبودية هو (رام سادجاهي).. من (بومباي).. هندوسي الديانة..»
ثم نهض معلنًا رغبته في الانصراف..
وقال لنا وهو يمسك بيد الصبي، ويشير لنا إلى الشارع القصي:
- «ستتجهان إلى هناك.. إن الظلام قد توغل بما يكفي.. يوجد هناك متجر للحيوانات الأليفة.. اسألا عن (جيمي) وقولا له إنكما من طرف (قطز).. سيدبر لكما سبيل الاختفاء...»
ولوح بيده مودعًا:
- «أراكما على خير..»
وابتعد بالصبي.. والظلام يغلفهما حتى لم نر منهما سوى علامتي تعجب غير متماثلتي الطول، تبتعدان في بطء عن عيوننا الحيرى...
همست (سلمى) وهي ترمقهما:
- «إنّه هو!»
- «حتمًا هو...»
- «إنها صفات قائد.. ذكي سريع الملاحظة رياضي الجسد..»
- «والمغول لا يعرفون...»
- «إنهم لا يستطيعون التنبؤ.. ولن يفعلوا كما فعل فرعون (مصر) حين ارتقب ظهور سيدنا (موسى)..»
- «حسن.. هذا العالم يسير في الطريق الصحيح..»
- «حقًّا...»
ونهضنا متجهين إلى متجر الحيوانات الأليفة..

* * *

بالإضافة إلى القطط والكلاب والسلاحف - وهي أشياء معتادة جدًا ـ كان هناك ببر حديث السن وسحلية (إجوانا)..

برز لنا شاب يحلق رأسه بأسلوب (البانك) الشهير.. وقال لنا حين رأى دهشتنا:
- «لا يثير هذا دهشة أحد منا.. فالسادة المغول يحبون هذه الحيوانات لأنهّا تذكرهم بموطنهم.. هل لي أن أقدم لكما خدمة؟»
كانت (سلمى) مشغولة في تأمل القطط الصغيرة التي تهيم بها حبًا، بينما قلت وأنا أتحاشى نظرات السحلية المزعجة في قفصها الزجاجي:
- «نبحث عن (جيمي)..»
- «أنا هو...»
- «جئنا من طرف (قطز)..»
تلفت حوله في ذعر حين سمع الاسم.. ثم ابتلع ريقه وصاح:
- «بحق السماء! لا داعي لإذاعة هذا في المذياع.. تعاليا!»
وهرع إلى باب خلفي ففتحه لنا.. وكدسنا بالداخل.. ثم تلفت حوله من جديد وهرع ينضم لنا في مخزن خبيث الرائحة سائلًا:
- «ماذا هناك؟»
- «مخبأ.. إنهم يبحثون عنا..»
- «هل أنتما من (الخاسرين)؟»
- «نريد الاتصال بهم..»
- «مائتا دولار!»
تبادلت و(سلمى) نظرات الارتباك.. كنت أظن الوغد ثوريًا فاتضح أنه مجرد تاجر في سلع ممنوعة.. ثم من أين لي بالمال؟
قال مبتسمًا:
- «لا تقلق.. فأنا أقبل الدولارات المزيفة! مائتا دولار مزيف أو خمسون دولارا أصيلًا..»
- «لا بأس...»
كان (الخاسرون) قد أعطونا زهاء ألف دولار.. ولا ننوي البقاء حتى تنفد.. فلن أعمل عامل بناء في أرض المغول هذه أبدًا..

* * *

نحن الآن في شقّة (جيمي) الواقعة خلف المحل..
كانت حقًّا شقّة ثائر متمرد.. وشقة تاجر سوق سوداء.. وشيقة لص.. وشقة عزب يحرق شمعة حياته من طرفيها..
زجاجات في كل مكان.. بقايا طعام.. صناديق ملأى بسلع ممنوعة.. جوارب مكورة في كل صوب.. أحمر شفاه.. أعقاب سجائر..
وفي ركن الصالة كان هناك أكبر جهاز تلفزيون رأيته في حياتي.. ربما هو ٢٠٠ بوصة لو كان هناك شيء كهذا..
- «مرحبًا بكما.. الليلة تبيتان هنا.. وغدًا يراكما (الخاسرون)..»
وكان قد ابتاع بعض (البيتزا) بالأنشوجة.. فوضع شريحة أمام كل منا ثم صب لي كأسًا من (الهباب) إياه.. لكني رفضت..
فتح جهاز التلفزيون ليسلينا..
وعلى الشاشة العملاقة رأينا مشهدًا مهولًا..
كانت طائرات غريبة الشكل - لا بد أنها (خان - ١٩) - تحلّق في تشكيلات متوالية فوق مدينة لم أميزها جيدًا..
- «هذه (طهران)..»
قالها (جيمي) مفسرًا وأراح ساقية على أريكة قرب مجلسه..
وعلى الشاشة راحت الطائرات سربًا وراء سرب تلقى عبواتها الحارقة وقذائفها على المدينة، التي استحالت كتلة من اللهب والدخان الأسود..
ثم تقدمت طائرة هائلة الحجم وحدها.. لتلقي بقنبلة غريبة الشكل بدورها.. عندها تصاعدت سحابة عش الغراب الشهيرة، المميزة للانفجار النووي..
قال (جيمي) باستمتاع كمن يرى فيلمًا مسليًا:
- «هذه قنبلة (زيترو).. لقد ألقوا عشرًا منها على آسيا الشهر الماضي..»
هنا سألته (سلمى) سؤالًا غير معتاد كدأبها:
- «من يلتقط هذه الصور؟»
- «الألمان طبعًا! فالمغول لا يغامرون بإرسال مصورين مغول إلى هذا الجحيم.. لهذا لديهم فريق تصوير من العبيد الألمان..»
سألته بدوري:
- «وماذا فعل الايرانيون؟ هل هي ثورة يقمعها المغول؟»
نظر لي وضحك حتى سال الدمع من عينيه:
- «ماذا بك؟ تبدو كأنك من عالم آخر.. بالطبع لم يفعل الإيرانيون شيئًا.. إنها حملة إبادة وكفى.. مثلما تقوم أنت بتطهير مطبخك من الصراصير لا أكثر.. إن المغول يعتبرون كل شعب آخر نوعًا من الحشرات لا لزوم لوجوده أصلًا..»
وعلى الشاشة ظهر الجرحى والأسرى.. وهم طبعًا من البلاد المتاخمة لـ (طهران).. كانوا في أسوأ حال والحق يُقال...

وعلى الشاشة بدت مذيعة مغولية ربع حسناء.. تقول بلغة إنجليزية جيدة:

- «وهكذا تمكّن فرساننا الأبطال بخيولهم النفاثة من إزالة (طهران) من على وجه الأرض! ترى أين يكونون غدًا؟ في (إسلام آباد)؟ في (القاهرة)؟ في (دكا)؟ لا أحد يدري... »

وتعالت موسيقا



وهرع ينضم لنا فى مخزن خبيث الرائحة سائلاً :
ـ « ماذا هناك ؟ »

فاخرة ربما هي افتتاحية السيوف لـ (خاتشاتوريان)..
ثم ظهرت صورة لموكب طويل يحمل أفراده الهدايا.. وقد بدا عليهم الانكسار والذل.. وتعالى صوت المذيعة يقول:
- «ها هي ذي وفود الأمم تقدم هداياها إلى قائد جيش المغول العظيم.. وكلهم خضوع وانكسار..»
هنا دوى صوت مغنية (آبا) تغني: الفائز يأخذ كل شيء..
إخراج جيد مؤثر لا أظن المغول قادرين عليه..
فلا بد أنهم استعانوا بمخرج إيطالي عبقري ليصنع لهم هذا...
سألت (سلمى) مضيفنا:
- «هل التلفزيون لا يقدم إلا هذا السخف؟»
- «أحيانًا يقدم منوعات مغولية.. أو أفلامًا.. لكنّ هذا نادر..»
- «إذن فلننعم بالصمت..»
وأطفأ جهاز التلفزيون.. ثم دعانا إلى النوم، وقال إن لديه أريكة تصلح فراشًا.. ولسوف يستعملها للنوم تاركًا فراشه لنا.. وفي الصباح يمكننا أن نلحق بالخاسرين الذين سيزورون لنا بطاقتي عبودية جديدة..
والأهم ها هنا اننا سنحاول استرداد جهازنا من (ماك - جورج) هذا.. وعندئذٍ يكون الفرار.. الفرار الجميل..
- «مساؤك حليب..»
قالتها لي (سلمى) همسًا في الظلام.. وكنت قد فشلت تمامًا في تعليمها أن تقول (مساء الخير) مثلنا.. فمن العبث أن أقول لها أين الصواب.. فلا صواب هنالك والأمور كلها نسبية بين العوالم.. لذا قلت:
- «مساؤك حليب..»
ونمت بقلب مثقل..

* * *

دخلنا شبكة المجاري من جديد.. وعبر ممرات أكثر تعقيدًا قادنا (جيمي) إلى المكان الذي كنا فيه في البداية..
ومن جديد رأينا الثوار يفعلون ذات الأشياء.. وما زال بعضهم نائمًا حتى العاشرة صباحًا وقد بدا عليه إرهاق مريع.. إنهم ليسوا كسالي بل وطاويط.. يقضون ليلتهم في عمليات التخريب واقتناص المغول، ثم يعودون ليأكلوا وجبة خفيفة، وينامو حتى الظهر..
كان (كالاهان) عاكفًا على تنظيف بندقية آلية سرقها من الشرطة، حين رآنا.. فنظر لنا نظرة عابرة وواصل ما يقوم به، وهو يقول:
- «المصريان؟ مرحبًا.. هل أبليتما بلاءً حسنًا؟»
تولى (جيمي) الرد:

- «إن الشرطة تقلب الأحجار كلها بحثًا عنهما!»
- «بهذه السرعة؟»
وهنا ظهر الغول الآدمي (متاك - جورج) وهو يصدر خوار الثيران، ويلتهم فخذ خنزير على سبيل الإفطار.. فما إن رآنا حتى تكدر مزاجه..
صاحت (سلمى) في كياسة:
- «مرحبًا يا سيد (ماك - جورج).. أمّا وقد تأكدت من سلامة طويتنا أرجو أن تعيد لي الجهاز..»
اتسعت عيناه فبدا صفارهما واضحًا.. وقال:
- «أي جهاز؟»
- «الجهاز الذي أخذته منا بقوّة العضلات منذ يومين..»
بصق على الأرض.. وقال وهو يقضم شريحة أخرى:
- «آه! ذلك الجهاز القذر؟ إنّه ليس معي!»
- «وأين هو؟»
- «عند (لارى هولدن) أو (الجميل) كما نُسمّيه.. إنّه يحبّ هذه الأشياء..»
- «وأين (لاري هولدن)؟»
- «إنّه لم يعد بعد.. لقد ذهب أمس لتفجير مركز الاتصالات، ويبدو أن المغول قد التهموه حيًّا! والآن كفى ثرثرة فأنتم تفسدون عملية الهضم!»
تبادلت و(سلمى) نظرات ذاهلة..
كنت أعرف أن شيئًا كهذا سيحدث.. لكنّ ما كان بوسعي منعه.. لهذا لم يعد يعنيني أي شيء سوى التعبير عن حنقي الشديد...
صحت في غل:
- «أنت برميل مليء بالأوحال!»
- «هه؟»
وتدلت شفته السفلى في غباء.. قطعة لحم تساقطت من فيه وهو لا يصدّق أن أحدًا يشتمه.. لا بد أنّ هذا لم يحدث منذ ثلاثين عامًا..
عدت أقول وأنا أحاول تذكر الشتائم الإنجليزية التي كنت أسمعها بكثرة في الأفلام في عالمى:
- «أنت أحمق! كيس من القاذورات.. لا أكثر!»
هنا بدأ يفهم.. فتقدم نحوي.. وانحنى مترًا كي يقرب رأسه من رأسي..
ثم وجدت نفسي أطير إلى الحائط لأصدمه.. وأنفي لا ينزف لأن أوعيته الدموية تهشمت مع عظامه...
وطار ستة من الرجال كي يتعلقوا بالرجل محاولين تهدئته، مرددين عبارات على غرار (خليك كبير) و(امسحها في..)..
أما هو فراح يزمجر.. لم يكن يسب أو يلعن.. بل يُطلق زمجرة دب ثائر.. واللعاب يتطاير من شدقيه..
ساعدتني (سلمى) على النهوض. وكان وجهي قد تحول إلى قطعة من (الهامبورجر) المصنوع في المنزل.. لكنني كنت مستعدًا للتمادي..

وبدأ الثور يهدأ.. لكنه ظل يصوب إلى نظرات نارية نوويّة..
صاحت (سلمى) وهي تحاول إصلاح شفتي الممزقة:
- «هل جننت؟ كل هذا من لكمة واحدة وجهها لك.. وبرغم هذا تريد المزيد؟»
- «لقد استفزني الوغـ.. الوغد.. وكان عليه أن يتـ.. يتقي شر الحليم إذا غضب.. ضب.. ضب!»
لقد صار علينا أن نبقى ها هنا للأبد!
يا لحماقتك يا (سلمى)، ويا لديكتاتوريتك! لو لم تتمسكي برأيك لكنا الآن بعيدًا في عالم آخر ربما هو إلى الجنّة أقرب..
يجب أن نجد (لاري هولدن) حالًا...

* * *

٨ - أنقذوه!

من الحمق أن أفترض أنّ هذا الحشد من الثوار لا يضم جاسوسين أو أكثر من جواسيس المغول..

الأمر سهل ويقيني.. لكنه يبدو عسير التصديق حين ترى هذه الوجوه الجادة المصممة على الانتقام.. من الصعب أن أتصور هذه الفتاة التي امتلأ وجهها بالتجاعيد والمقت، وهي تعالج شحنة ديناميت.. من الصعب أن أتصور أنها تمثل دورًا محبوكًا.. ومن العسير أن أتصور هذا عن الوحش (ماك - جورج) أو (كالاهان) الودود.. كلهم يبدون صادقين كالصدق ذاته..

لكني أعرف ذلك الآن جيدًا.. وكان يجب أن أصدقه..

* * *

حينما برز لنا من النفق رجل له شعر ناعم وشارب كث.. وكان يحمل بين ذراعيه جسدًا صغيرًا يلفه بمعطفه..

عندها عرفت أنّ هذا هو (قاسم) التركي.. وأدركت من وجهه أنّ هناك كارثة ما.. كارثة لا جدال حولها..

كان ملهوفًا.. لكنه تقدم وسط الرجال المندهشين، وأرقد الصبي على إحدى الحشايا المتناثرة.. ثم ركع جواره وقال:

- «إنّه محموم.. يهذي منذ ساعات..»

يا لعاطفة الأب!

لقد هوت به من عليائه التي كان فيها شديد الثقة والكبرياء إلى حضيض الانهيار النفسي والمعنوي.. كأنه يفتش عن قدم إنسان يلثمها مقابل أن يعود ابنه سالمًا..

قال (جيمي) مفسرًا للمجتمعين:

- «هذا (قاسم).. أو (سارو سمادهي) حسب بطاقة العبودية..»

- «نعلم..»

وجثا أحدهم على ركبتيه جوار الصبي.. وتحسس عنقه.. وشفتيه اللتين غطتهما قشرة بيضاء لزجة.. وقال:

- «التشخيص واضح يا (قاسم).. وأنت تعرفه كما نعرفه!»

اتسعت عينا الأب.. وتلفت حوله كأنه يبعد اتهامًا مريرًا:

- «لا! إن (سيف) نظيف جدًّا.. ولن يُصاب بالـ.. بالـ..»

- «إن برغوثًا واحدًا يكفي كما تعلم..»

قال (ماك جورج) بصوته الغليظ:

- «نحن لن نسمح ببقاء حالة طاعون دملي ها هنا!»
صاح الأب في توحش وعيناه تدمعان كما:
- «لكنّ إذا عدت به لداري سيموت بالطاعون.. أو بنيران فرقة التطهير المغولية.. وهو.. هو لا يطيق الحر!»
وسال الدمع ليغرق خديه.. لكنّ (ماك - جورج) قال:
- «هذا قدرك.. إن مصلحة المجموع أهم من مصلحة الفرد..»
- «لن أفعل!»
- «لا مجال للاختيار..»
- «أيها الدب الفظ! أنا أستطيع أن....»
واندفع ليضرب العملاق الزنجي.. وهو خطأ يتكرر كثيرًا هذه الأيام.. وبعيني رأيت كيف كنت أحمق ضعيفًا عندما فعلت الشيء ذاته منذ ساعات.. إن مهاجمة الدب الأشهب بيدك العارية يجعلك لا تدري ما يحدث لك حقًّا..
وراحت (سلمى) تجفف الدماء عن وجه الرجل وثيابه..
بينما مشيت أنا لأقف أمام (ماك - جورج).. لقد صار هذا الفتى مصدر كدر دائم لي.. وكان عليّ أن أتكلم..
قلت لهم بصوت متحشرج:
- «اسمعوا يا حمقى.. لن أدخل في التفاصيل.. لكني أقول لكم إن هذا الصبي المريض.. هذا الغلام المحتضر.. هو أملكم الأخير في الخلاص من المغول! لقد تأخر في الظهور سبعة قرون كاملة، لهذا سيطر المغول عليكم.. لكنه قد ظهور الآن.. وهو الذي سيكسر شوكة هؤلاء الرعاة المفترسين.. لكنكم - بغباء - تتركونه يموت..»
اتسعت العيون تلتمع بنظرات عدم التصديق.. بل الاستعداد لتمزيقي..
وسمعت من يقول:
- «ها! إنها نبوءات العرافين إذن! من أنت يا فتى؟ (إيليا)؟»
- «لا تصغوا لهذا الهراء!»
قلت بنبرة أقوى:
- «أنا أعرف ما أقول فلا تنتظروا حتى يموت الصبي وتزعموا أنني كاذب.. إنني أؤكد بكل أمانة أن من سينقذ هذا العالم يُدعى (قطز).. (سيف الدين قطز).. ولا أعرف واحدًا آخر بهذا الاسم سوى الصبي..»
- «والدليل؟»
- «لا دليل سوى كلامي.. لكنّ كمبيوتر المغول - ماذا كان اسمه؟ - قد استنتج شيئًا مماثلًا.. لهذا تعليمات المغول تقضي بإبادة العرب والمسلمين عن بكرة أبيهم.. وغارة (طهران) التي وقعت أمس تقول إنني صادق..»
ورفعت أصبعي السبابة مؤكدًا:
- «حسابات التنبؤ المستقبلية للكمبيوتر تقول إن الخطر القادم عربي أو مسلم.. وانا - بمصادري التي لن أعلن عنها - أقول إن الخطر القادم هو صبي من أصل تركي يدعى (سيف الدين قطز).. فهل مازلتم مصرين على الإنكار؟»

تبادلوا النظرات.. واضح أن الشك بدأ يغزو نفوسهم...
وقال (كالاهان) وهو يتأمل الصبي:
ـ «لماذا لاتحاول إنقاذه يا (ماك - جورج)؟ من الخسارة أن يموت ملاك صغير كهذا..»
ظل الثور الأسود صامتًا يفكر..
ثم ـ بعد برهة - أشار بيده إلى ممر جانبي.. وغمغم:
- «ليكن.. لكنّ احرص على عزله عن الآخرين...»
وحمل الأب ابنه إلى المكان المقصود..
كانت هناك حشية على الأرض.. ومصباح (كيروسين).. ولا شيء آخر سوى رائحة المجاري القوية..
شمرت (سلمى) عن ذراعيها.. وصاحت:
- «سأعني به.. أعرف أنني أستطيع العناية به...»
وقمنا بتجريد الصبي من ثيابه، وأحرقناها بعناية.. ثم تخلصنا من ثيابنا أيضًا وارتدينا ثيابًا نظيفة، ووضعت (سلمى) قناعًا صغيرًا على أنفها.. وراحت تضع الكمادات للصبي مستعملة دلوًا مليئًا بثلج مجروش من الشارع..

- «نحن بحاجة إلى مخفضات حرارة.. وبعض (الستربتوماسين)..»
سألتها في دهشة:
- «من أين تعرفين ما ينبغي عمله؟»
- «إنك تقرأ هذه الأشياء أحيانًا..»
المشكلة هي أن الدواء لا يُصرف في هذا العالم إلا بتذكرة طبية... ولا يمكن الحصول على واحدة إلا في وجود طبيب.. والطبيب سيبلغ فرق الحرق وإلا احترق هو شخصيًا..
قال (كالاهان) وقد بدا الأمر يثير اهتمامه:
- «إن (أبو فراس) قد جلب لنا بعض المعونات الطبية.. ربما وجدنا بينها ما يصلح..»
واقتاد (سلمى) إلى ثلاثة صناديق متراصة ملأى بالأدوية.. ولم تكن الأسماء التجارية معروفة لنا لكننا رحنا نتهجى الحروف حتى وجدنا كلمة (ستربتوماسين).. وبعملية حسابية بسيطة عرفنا الجرعة الملائمة للصبي..
كان المسكين يهذي.. وقد تحشرج صوته، فلم نعد نفهم شيئًا مما يقول.. وحين عرت (سلمى) خن فخذه وجدنا العلامة المشئومة إياها..
الخراج الساخن الأحمر الثائر..
- «ثمّة فرصة لا بأس بها في أن ينجح فتح الخراج في إنقاذه..»
- «وكيف تعرفين هذا؟»
- «قرأت عندكم تاريخ الحملة الفرنسية في (عكا).. وعرفت ما كان أطباء (نابليون) يفعلونه لإنقاذ مرضى الطاعون الفرنسيين..»
- «والعدوى؟»
- «لن تحدث.. لقد قطع (ديجنت) طبيب الحملة الفرنسية فخذه بمبضع ملوث بصديد من جندي فرنسي يحتضر.. ولم يحدث له شيء..»
وطلبت خنجرًا.. فكان عندها خمسة منها..
وسرعان ما بدأت تمارس مهمتها البشعة..
رباه! لقد كانت (سلمى) ثابتة الجنان حقًّا..

* * *

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، دخلت (المستشفى) الصغير الذي أوجدته لنا.. فوجدتها تواصل وضع الكمادات.. بينما أبو الصبي يحاول إقناعه بتجرع بعض الحليب..
- «كيف الحال؟»
ابتسمت.. وكانت عيناها حمراوين بلون الدم إرهاقًا.. وأرخت قناعها:
- «الحرارة تنخفض.. لكنّ الخطر لم يتزحزح..»
لكنّ وجه الصبي كان أقل احتقانًا...

وعرفت أننا - حتى هذه اللحظة - قد بدأنا نربح معركتنا المرتجلة مع الموت.. ونربحها بماذا؟ بوسائل تثير ضحك أي طبيب في أحقر وحدة ريفية معدومة الإمكانيات ..

الخطر لم يتزحزح.. لكنه لم يعد واثقًا من نفسه إلى هذا الحد...

* * *



وراحت تضع الكمادات للصبى مستعملة دلوًا مليئًا بثلج مجروش من الشارع ..

ليلة الكريسما

س...

خرجنا من المجاري لنلقي نظرة على المدينة.. فأنا لم أر (الكريسماس) في بلد أجنبي قط.. ومن الغريب أنني أراه حين أراه في بلد أجنبي في كوكب آخر.. ووسط طغيان المغول.. وخطر الطاعون..

رأيت ذلك الطابع الساحر الحزين للجليد والبرد وأغاني عيد الميلاد، والأضواء التي تلتمع متلألئة بمئات الألوان، فوق الأشجار التي كساها الثلج.. والمزود بأبقاره وخرافه.. وتماثيل العذراء ووليدها..

كان العبيد يحاولون أن يستمتعوا بحياتهم، ناسين - أو متناسين - الطاعون والمغول وصوت الطلقات التي تدور في الأحياء الخلفيّة..

لكن المغول ما كانوا ليتركوا لحظات كهذه...

كان التلفزيون ينقل باستمرار المذابح التي يقومون بها في دول الشرق الأوسط.. ثم - في السابعة مساء - أعلنت المذيعة بوقار عن الانتقال إلى (مقبرة الجدود) لنقل طقوس (عيد المومياء)...

- «عيد المومياء؟»

- «طبعًا.. لقد اختاروا أن يكون هذا العيد ليلة الكريسماس لإفساد متعة المحتفلين في كل مكان..»

وكانت مقبرة الجدود مبهجة حقًّا..

مومياوات معلقة من خطاطيف في كل صوب وعلى كل جدار.. وقد راحت الكاميرا تجول بينهم مع تنوية عن اسم كل مومياء نراها.. والأمجاد التي قامت بها...

كنا نشاهد هذه السهرة الممتعة في وكر (الخاسرين) تحت الأرض، وبالطبع لم أجرؤ على إظهار دهشتي أو تقززي لأن ما يدور كان روتينيًا بالنسبة للجالسين جميعًا..

وبعين لا تصدق رأيت المغول يسكبون الكيروسين على ثلاث أو أربع مومياوات.. ثم يشعلون فيها النار..

وراحت الجذوة الرهيبة تزداد توهجًا.. والضوء الأصفر المقيت يغمر الوجوه... فيما المغول ينشدون بصوت رهيب أنشودة ما.. لا بد أنها نوع من الحنين لأمجاد الماضي...

قال (كالاهان) ويده على ذقنه.. وقد أحسّ بحاجة إلى التعليق:

- «إن الأوغاد يقدسون النار حقًّا.. وهم بهذا يمنحون التكريم الأعظم لأجدادهم...»

ثم ابتسم بخبث.. وأردف:

- «لكنّ الحرق ينتهي بنبوءة دائمًا.. دعنا نسمع ما يُقال..»

لم تعد معالم المومياوات ظاهرة.. فقد تحولت إلى نوعٍ من الفحم الأسود.. والدخان يزداد كثافة..

- «تبًا! يا له من حفل منوعات!»

وإذا بمغولي أشيب اللحية، يرتدي ثيابًا تقليدية كالتي ارتداها المغول يومًا وهم يفارقون ثلوج (منغوليا)، يتقدم في تؤدة نحو المومياوات المحترقة.. وينحني.. ويصغي..

هنا دوى صوت رهيب يقول أشياء لا أعرف كنهها..

ورفع الكاهن - لا بد أنه كاهن - عقيرته يردد ذات الكلام...

وهنا بدأ المرح.. الصياح.. آلاف المغول يرقصون حول المومياوات المحترقة.. يلوحون بالسيوف.. يجرعون الخمر حتى الامتلاء..

بينما نحن نرمق كل هذا في غيظ غبي.. أو غباء مغتاظ..

التفت أحد الثوار إلى (كالاهان) يسأله:

- «ما رأيك؟»

- «الأمر واضح..»

وتنهد في استسلام...

سألته - وقد أدركت أنه يجيد اللغة المنغولية - عما هنالك.. فقال:

- «لقد تعلّمت الأوراح.. قالت لهم إن الخطر الذي يهدد أمة المغول مريض الآن تحت الأرض.. في إحدى مدن (أمريكا).. وأنه حتمًا ميت.. فلا خوف على المحاربين الشجعان..»

وهنا سمعت صرخة (سلمى).....

صرخة لم يسمعها سواي.....

* * *

٩ - أحدهم بيننا..

هرعت إلى المستشفى المرتجل متوقّعًا أنني سأجد الصبي ينظر للسقف بعينين لا تريان، و(سلمى) تولول، والأب فاقد الوعي أو يولول بدوره...

حمدا لله لم أر شيئًا من هذا..

فقط كانت (سلمى) واقفة في منتصف القاعة، ويدها اليمنى في خاصرتها، ويدها اليسرى تمسك بزجاجة حقن، وعلى وجهها تعبير اتهام لا يمكن وصفه.. وحين رأتني ارتفع حاجب الشك الأيسر وقالت:

- «(سالم).. لقد كنت موشكة على إعطاء الصبي حقة المضاد الحيوي، حين اكتشفت أنها تحوي هذا الشيء!»

تقدمت في خطوات مترددة، وأمسكت بزجاجة الـ (ستربتوماسين) التي في يدها.. وتأملتها في نور المصباح..

كان الأمر أخطر - إلى حدٍ ما - من انتهاء تاريخ الصلاحية.. لقد تم إلصاق ورقة مزيفة على الزجاجة التي يعلم الله وحده ما تحتويه..

قلت لها وأنا ألقي بالزجاجة في أحد الأركان:

- «خطأ قاتل.. ولا بد أنّ هناك من عبث بهذه المعونات.. إن هذه الأشياء تحدث..»

قالت بنفس صيغة الاتهام:

- «تحدث كثيرًا جدًّا.. لأنني وجدت ذات التلاعب في زجاجة مخفض الحرارة أمس.. ثم اكتشفت أن مسحوق اللبن الذي كنت أقدمه له لا يذوب في الماء جيدًا.. وقد أجريت تجربة صغيرة على متطوع رضى بأن يذوق بضعة ملليجرامات من المسحوق.. مجرد جزء صغير من طرف الملعقة.. وكانت النتيجة حاسمة..»

عندها عرفت سر هذه الكتلة من الثياب المكومة في ركن القاعة.. لقد كان هذا هو (قاسم) - المتطوع - الذي تمدد على الأرض، غارقًا في القيء والأنين.. لقد لمحته بطرف عيني ولم أدر ما هو..

كان حيًّا لكنه يتألم إلى حد يجعله يتمنى لو لم يكن...

تساءلت في غباء:

- «وما معنى هذا؟»

- «معناه أنّ هناك من يحاول جاهدًا الخلاص من (قطز) الصغير.. وبالتالي هو عميل للمغول..»

جلست على الأرض محاولًا أن استجمع أعصابي.. وقلت:

- «ولكن لماذا؟»

ردّت وهي تتناول زجاجة حقن جديدة وتتأكد من مظهرها:

- «لأنك كنت مقنعًا في خطبتك البليغة.. ويبدو أنّ هناك من اقتنع بها أكثر من سواه..»
- «لا أعتقد هذا.. فالمغول - لو علموا مقر الثوار - لقادرون على اقتحام المكان وحرقه قبل أن يرتد إليك طرفك.. ويمكنهم التخلص من الصبي وأبي الصبي وأجداده، دون حاجة إلى هذه الألاعيب التي تنم عن ضعف وجبن..»

قالت وهي تملأ المحقن:

- «بالعكس.. إن عميلهم هنا يجعلهم على علم تام بأسماء الثوار وتحركاتهم.. فهم يمارسون ما يقوم به رجال المخابرات حين يتركون جاسوسًا (تحت السيطرة).. فيتمتع بحريته كاملة لأن حريته تقدم لهم من المعلومات ما هو أكثر قيمه من القبض عليه.. ولا بد أن عميلنا الهمام قد تلقى أمرًا بالخلاص من الصبي على سبيل الاحتياط..»

- «وبالطبع لو مات الصبي فالطاعون هو المتهم الوحيد..»

قالت وهي تفرغ المحقن في فخذ المريض:

- «أو أكون أنا السبب لأنني جاهلة بالطب..»

هنا قلت وقد تذكرت شيئًا:

- «لقد فاتك منذ ثوان احتفال المغول بحرق المومياوات على شاشة التلفزيون.. كانت هناك نبوءة بصدد هذا الصبي..»

- «بالطبع هي نبوءة صادقة جدًا.. لأنهّا تقرير مخابرات وليست نبوءة.. وهذا يعطى مصداقية لكهنتهم النصابين..»

غطيت وجهي بيدي.. وهمست:

- «رباه! أنا خائف!»

هرعت لتجلس جواري على الأرض وطوقت عنقي بساعدها..

- «خائف يا حبيبي الصغير؟»

- «إنني لا أحتمل جو الأخطار والمؤامرات هذا.. فأنا رقيق الإحساس.. ربما جبان كذلك..»

- «كلا.. لست جبانًا.. فقط أنت لا تخجل من الاعتراف بالخوف..»

كانت رقتها تغمرني..

وتذكرت - في زحام الهموم - أنني أحبها كثيرًا.. فقط لم أجد وقتًا كافيًا للتعبير عن ذلك أو لاستعادته...

وهناك إذ جلسنا على الأرض نرمق جسد الصبي النائم - والذي بدأ يتحسن بشكل واضح - كان السؤال الذي يؤرقنا هو..

من هو؟ من هو؟

* * *

بالطبع هو (ماك - جورج) الدب الأسود الفظ..

قالت (سلمى) باسمة:

- «لا أظن.. أنت تكرهه مثلى لكنّ ذكاءه المحدود لا يتيح له أن يلعب دور العميل.. إنني أفكر في آخر واحد يمكن التفكير فيه.. (كالاهان).. إن الأشخاص شديدي المودة يكونون هم الجناة دومًا في القصص البوليسية التي على غرار (من فعلها؟)..»
- «وماذا عن (جيمي) النصاب؟»
- «وماذا عن باقي الثوار؟ إن الاحتمالات كثيرة جدًا.. لكنّ يجب أن نثق بواحد..»
- «أنا أعرف!»
كان هذا هو الأب التركي الذي تحامل على نفسه ليجلس.. وهز رأسه ليتخلص من الدوار المزعج.. وراح يجفف ما على وجهه من عرق، وما على شفتيه من قيء...
قالت (سلمى) في سرور:
- «يسرني أنك لم تمت بعد..»
قال وهو غير مستعد للرد على دعابتها:
- «(أبو فراس).. سنذهب إليه.. إنّه يعرف ما يجب عمله..»
- «ولكن.....»
- «البقاء هنا لا يعني سوى موت الصبي.. في هذه المرّة لن يكون الطاعون هو السبب...»
وراح يجمع زجاجات الدواء المبعثرة والسرنجات في كيس بلاستيكي.. ثم طلب مني أن أحمل الصبي لأنّه لا يقدر على ذلك.. أنا؟ أحمل بين ذراعي مريض طاعون؟ إن الرجل يبالغ حقًّا..
همست (سلمى) وقد فهمت ما يدور بخلدي:
- «هلمّ.. لقد فعلها (بونابرت) مع مريض طاعون في (عكا).. ولم يكن هناك علاج للمرض وقتها..»
- «يا سلام! لقد فعلها (بونابرت) كي يزيل مخاوف الأطباء من المرض ويضرب لهم مثلًا شجاعًا.. وربما فعلها تظاهرًا كي يتحدث عنه التاريخ بإعجاب.. لكن ماذا أحاول إثباته أنا؟»
تنهدت في صبر.. وقالت:
- «(سالم)! احمل الصبي!»
وعلى كل حال فعلت ما طلبته مني حرفيًا...
وفي هذه المرّة لم نخرج إلى القاعة الرئيسية حيث الثوار، بل قادنا الأب إلى ممر جانبي متعرج مظلم.. ورحنا نركض لاهثين.. ومياه المجاري تتناثر تحت أقدامنا..
طراش ش! دوي هذا الصوت أكثر من مرة حين كان أحدنا يتعثر أو يوشك على ذلك.. لكننا واصلنا ركضنا هاربين من المكان...
وحينما فتح غطاء المجرور؛ لم نكن نعرف أهذا ليل أم نهار.. فكل الأوقات تتشابه تحت الأرض..
لكننا لمحنا اللون الأسود.. والأضواء الخافتة القصية، فعرفنا أننا ليلًا..
بل في منتصف الليل على وجه الدقة..
الجليد يغطى الأرض.. ومن بعيد تسمع أناشيد الكريسماس.. وتسمع جلبة المحتفلين.. لكننا هنا نحاول أن نعيد غطاء المجرور إلى مكانه، ونهيل الثلج عليه ليبدو غير مختلف عما حوله..
واجتزنا بضعة أزقة من تلك التي لم نر سواها في (نيويورك)..
وعند قارعة الطريق رأينا الشرطى المغولي..

وكان يشير نحونا بفوهة بندقيته الآلية.. وسمعناه يهتف:
- «تعالوا!»

* * *

في رعب تقدمنا.. لكنّ الأب كان أكثرنا جرأة..
رأيته يدنو من الشرطي.. ينحني ليدني فمه من أذنه ويهمس بشيء ما.. هنا ابتسم الشرطي وتأملنا قليلًا..
ثم - بعربية واضحة - سمعته يقول:
- «مرحبًا بكما.. أنتما في أمان الآن!»
هتفت (سلمى) في ذهول:
- «أنت؟»
- «نعم أنا (أبو فراس).. إن نوبة حراستى هنا دائمًا.. والجميع يعرف أين يجدني..»
قلت أنا منبهرًا:
- «تنكر متقن حقًّا!»
- «إنّه كذلك.. ولا يكلّف كثيرًا سوى إطالة شاربيك، وإجراء جراحة تجميل لجعل عينيك مشدودتين ضيقتين.. لم يستطع أحد أن يشك في على مدى خمسة أعوام..»
ثم دعانا إلى وكره.. وهو بيت صغير من القرميد الأحمر على بعد مائة متر من المكان الذي قابلناه فيه..
أوقد النار في مدفأة صغيرة، وأعد لنا بعض الشاي، ثم مسح بيده على جبين الصبي.. وقال:
- «أرى أنه يتحسن.. ما اسمه؟»
- «(سيف)..»
ولم أرد أن أوضح أكثر.. فمن يدري؟
قال الأب:
- «نريد تهريبه خارج البلاد باسم مستعار.. نريد بلدا آمنًا يترعرع فيه في سلام.. ربما (نيوزلندا) أو (أستراليا)..»
- «هل لي أن أعرف السبب؟!»
صمت الأب مفكرًا.. ومن الواضح أنه قرر أن يخفي أوراقه لأسباب مشابهة لأسبابي.. لم يعد من الممكن الثقة بأحد في هذا العالم...
هنا نظر (أبو فراس) لي و(سلمى).. وقال:
- «والآن هل لي أن أتشرف باسمكما.. وكيف دخلتما البلاد؟»
قال الأب وهو يرشف الشاي:
- «كيف لا تعرفهما يا (أبو فراس)؟ ما من عربي يدخل البلاد من دون عونك»
- «لهذا أسأل.. ربما أنسى الأسماء لكني لا أنسى الوجوه..»
وابتسم ابتسامة قاسية.. وأردف:
- «وعليهما أن يثبتا لي أنهما ليسا جاسوسين للمغول..»

* * *

١٠ - الفرار..

في هذه المرّة كان لا بد من أن نحكى كل شيء بالتفصيل..
بدا الأمر لـ (أبو فراس) كإحدى قصص الخيال العلمي.. وفي الغالب لم يصدّق حرفًا.. لكنه افترض كذلك أننا معتوهان ولسنا جاسوسين لدى المغول..

* * *

وحينما وصلت بقصتي إلى الدواء المغشوش بدا الاهتمام على وجهه، الذي تمكّن جراحو التجميل من جعله وجهًا مغوليًا شرسًا..
وقال وقد بدأ يفهم:
- «لا بد من وجود جاسوس.. هذا طبيعي.. لكني الآن أعرف من هو.. إنّه (كالاهان) طبعًا.. فهو الوحيد الذي يتعامل مع صناديق المعونات الطبية والألبان.. ثم إنّه ضالع في تدبير كل خطة فاشلة قام بها (الخاسرون).. عندما يتجه خمسة منهم لتفجير مخزن سلاح، ويجدون المغول بانتظارهم.. من صاحب الخُطة؟ (ستيفن) و(كالاهان).. عندما نخطط لنسف (أوجوتاي) ونجد المغول قد نقلوا كابلاته.. من صاحب الخُطة؟ (ماك - جورج) و(كالاهان)..»
قلت مفسرًا:
- «أي أن (كالاهان) هو المضاعف المشترك الأصغر في كل هذا..»
- «لكنّ إثبات هذا عسير في مهنة خطرة بطبيعتها.. أنتما الآن تقدمان لي برهانًا لا يحتمل الخطأ..»
ثم نظر إلى الصبي وقال:
- «سنقوم بترحيله إلى مصر بمجرد مايستعيد قدرته على المشي..»
صحت في احتجاج:
- «مصر؟ إن البلاد العربيّة كلها غير آمنة في هذه الفترة.. فالمغول يتوقعون الخطر منها..»
قال في ثقة:
- «سنعرف كيف نخفيه هناك بين الفلاحين أو سواهم.. لا بد من أن يترعرع (قطز) في مصر إذا كانت النبوءة صادقة.. وبهذا لن نترك احتمالًا للفشل...»،
وقلت له وقد تذكرت مشكلتنا الخاصّة:
- «ثمّة نقطة أخرى.. إن جهاز نقل الجزيئات الآن في حوزة واحد من الخاسرين يُدعى (لاري هولدن).. وقد ذهب في مهمّة لم يعد منها حتى الآن.. فهل عندك فكرة عن؟»
- «إن (لاري) قد خرج لنسف مركز اتصالات الـ (إيثرنت) الخاص بالمغول.. والخطة من تدبير (كالاهان).. أعتقد أنه سيلاقي مفاجأة غير سارة إن كان لي أن أعتمد على حدسي.. إن

العثور على جهازكما شبه مستحيل.. لكنّ عندي أملًا واهيًا..»
ثم نظر إلى الأب.. وسأله:
- «هل هناك جثث جديدة في (سنترال بارك)؟»
- «يبدو أنّ هناك اثنتين..»
قال لي وهو يحشو مسدسًا ويدسه في حزامه.. ويتأكد من وجود الرشاش والقنابل اليدوية:
- «إن المغول يعلقون قتلاهم في (سنترال بارك) كالذبائح.. ويمنعون دفنهم.. نحتاج إلى حظ غير عادي كي نجد (لاري) هناك، ونجد الجهاز في جيبه.. فلنأمل أن المغول لم يفتشوا جثته..»
قال الأب مؤمنًا:
- «ولنأمل أن طلقاتهم لم تهشّم الجهاز!»
بدا لي الأمل واهيًا كأمل أن تمزق طلقة رصاص قلبك وتبقى حيًا.. لكني تمسكت به على كل حال..
- «هيا بنا...»
وحمل الأب صغيره بين ذراعيه.. وأمسكت بـ (سلمى) من ذراعها.. واتجهنا نحو باب المخبأ.. كانت هناك دراجة بخارية خاصة بـ (أبو فراس) من دراجات الشرطة.. لكننا صرنا مضطرين للمشي..
سألته ونحن نخترق الشوارع الخلفيّة لاهثين:
- «ما هي خطتك لتهريب الصبي؟»
قال وهو يتلفت حوله في حذر:
- «هناك طيار روسي يدعى (أنطون إيزاروفيتش) هو الذي يتولى هذه الأمور.. فالروس هم الذين اخترعوا دفاعات الرادار للمغول، وهم الذين اخترعوا طائرات قادرة على اختراق هذه الدفاعات! لقد قدموا للمغول السجن، وقدموا للثوار المفتاح! لذا أستطيع الدخول والخروج بحرية تامة..»
- «أنت رائع يا (أبو فراس)!»
- «هذا صحيح.. أنا (بابا نويل) العرب ها هنا.. وكلهم يعرفون أنني سأنقذهم من أي خطر..»
- «نحن مدينون لك..»
قال وهو يلهث في ركضه وقد سبقني ببضعة أمتار:
- «أنا كذلك مدين لكم.. فأنا في الخامسة والأربعين من عمري، وقد صار الكفاح مهنة مرهقة لي... عشرون عامًا أركض في الشوارع الخلفيّة، وأهرب السلاح، وأطلق النار على المغول.. ثم...»
ثم التفت للوراء والتمعت عيناه.. وأردف:
- «ثم جئتما لتقولا لي إن هناك أملًا.. بعدما ظننت أنه لا أمل هنالك، وأن المغول باقون حتى تقوم الساعة.. من يدري؟ ربما لو عشت عشرة أعوام أخرى لصرت من قادة (قطز).. لربما وقفت بجانبه في تلك المعركة.. قلتم لي ما اسمها؟»
- «(عين جالوت.....»
- «(عين جا.....»
ولم يكمل حروف الكلمة.. لأن الليل استحال نهارًا..

ورأينا عشرات الكشافات مصوبة نحونا من كل الاتجاهات.. كأن الشموس قد تحالفت علينا..
ودوت طلقات الرصاص كالسيل المنهمر.. بصعوبة عرفت أنّ هذا هو صوت الرصاص، وأنّ هذه الطلقات موجهة نحونا.. فقد بدا الأمر كحلم ملون غريب..
- «اللعنة!»
قالها وألقي بقنبلة انتزعها من حزامه.. وراح يركض نحو الجدار المجاور لنا.. فهرعنا نركض وراءه.. وشعرت بألم حاد في كعب حذائي، لا.. بل في كعب قدمي.. لكني لم أكف عن الركض...
وحين نظرت لحظة إلى الوراء رأيت المكان قد استحال إلى ضباب كثيف عجزت الكشافات عن اختراقه..
كانت قنبلة دخان..
وتوارينا في الفراغ ما بين بنايتين.. فراغ ضيق لكنه يسمح له بإطلاق الرصاص بغزارة ولا يسمح لمحاصرينا بالدنو.. لكنه مصيدة فئران لعينة لا يمكن البقاء فيها أكثر من دقائق..
وسمعته يقول وهو يشهر بندقيته الآلية:
- «إنّه (كالإهان).. لقد أبلغهم بمقري.. اللعنة! إنهم يخشوننا حقًّا، وقد دفعهم الخوف إلى التخلي عن مراقبتهم الحذرة..»
ثم نظر إلى الأب المذعور وقال له بلهجة لا تقبل المناقشة:
- «ستذهب إلى (جيمي).. هو يعرف أين يقودك.. ولسوف يقوم (إيزاروفيتش) بالفرار بك هذه الليلة..»
وداعب وجه الصبي السقيم بسبابته.. وقال:
- «وداعًا أيها القائد (قطز).. لا ترفق بهم.. واذكرني بالخير في كتب التاريخ التي ستصف مجدك.. يجب أن تدمر الكمبيوتر (هولاكو) في (سيبيريا) قبل أن تقارع جيوش (كتبغا) في (عين جالوت) لا تنس هذا!»
ثم نظر لي و(سلمى) وهتف بذات اللهجة:
- «أمّا أنتما فتذهبان إلى (سنترال بارك) وحدكما.. وإن لم تجدا الجهاز فاذهبا إلى (جيمي) طالبين العون.. وداعًا! وخذا هذا معكما..»
هتفت (سلمى) وهي ترمق المسدس الذي في قبضتي:
- «سنبقى معك!»
- «هل تمزحان؟ لا بد من أن أغطى هروبكما بستار من النيران.. ثم إنهم سيحضرون قاذفات اللهب حالًا.. وهي كفيلة بتحويل هذا المكان إلى سقر.. أسرعا!»
واندفعنا نركض بين البنايتين قاصدين الجهة الأخرى غير المحاصرة.. ونحن لا نزال نسمع صيحته: (أسرعوا)..
بعدها انطلق وابل من النيران من بندقيته الآلية..

* * *

لم يكن هناك سوى الظلام عند نهاية الفراغ بين البنايتين..

رحنا نركض في المساحة الخالية المكشوفة، ولحسن الحظ كانت هناك سيارتا أجرة تقفان بعيدًا، وقد وقف سائقاها خارجًا يثرثران ويدخنان..

وعلى الفور وثب الأب وابنه في واحدة، ووثبت و(سلمى) في الأخرى.. ونظر السائقان لنا في دهشة.. ثمّة اتجه كل منهما إلى سيارته...

أخرجت رأسي من النافذة ولوحت للأب..

ربما لن يرى أحدنا الآخر، لكني أعرف أنه سيذكرنا طويلًا جدًّا كما سنذكره.. هذا إن بقي أحدنا حيًّا..

هتف الأب بالإنجليزية:

- «سننجح.. اطمئن علينا.. المشكلة الحقيقية هي مشكلتكما!»

ثم أردف بالعربية والسيارة تتحرك (حتى لا يفهم السائق كلامه):

- «لا تتوقفا أبدًا حين ترونهم.. فهم لن ينذروكما أو يقبضوا عليكما أو يستجوبوكما.. بل سيطلقون الرصاص على الفور!»

وتحركت السيارة بعيدًا عن عيوننا...

وهنا رأينا لسان النار يخرج من الشق الذي كنا فيه بين البنايتين وعرفنا أن (أبو فراس) كان صادقًا...

رحمه الله.. لقد كان رجلًا شجاعًا!

- «(سنترال بارك) بأقصى سرعة..»

قلتها للسائق الزنجي.. فسألني بأسلوب الزنوج المميز في الكلام:

- «هل عندك مشاكل مع المغول يا رجل؟ أنا لا أريد مشاكل!»

- «لا تقلق.. فقط تحرك سريعًا..»

وانطلق السائق ينهب الشوارع نهبًا.. الشوارع المظلمة الكئيبة التي كساها الجليد.. وعلى الرغم مني خرجت أنّة من بين أسناني..

- «هل أُصبت؟»

- «نعم.. في كعبي.. ولكن لا داعي للهستيريا.. الأشياء المهمة أولًا..»

وهنا لمحنا الأضواء من ورائنا.. ودوت سرينة عربات الشرطة تولول منذرة بهلاكنا التام وموتنا الزؤام...

قال الزنجي وهو يرمق المرأة:

- «اللعنة يا رجل! أنتما هاربان! سأتوقف!»

- «لا يا غبي.. فهم لا يتناقشون..»

- «وأنا لا أريد مشاكل لعينة.. إنهم يعرفون رقم سيارتي الآن!»

وأدار المقود ليقف إلى جانب الطريق..

وداس الفرملة.. عندها جذبت يد (سلمى) وفتحت الباب الجانبي ووثبنا منه.. وأطلقنا ساقينا للريح..

كان هناك زقاق ضيق.. فاندفعنا نجري فيه.. واخترنا أول منعطف لليسار ثم ثاني منعطف لليسار..

* * *

إنهم لن ينذروكما أو يقبضوا عليكما أو يستجوبوكما.. بل سيطلقون الرصاص على الفور...

* * *

(سنترال بارك)..
الحديقة الأسطورية تغفو في الظلام وقد أشعرها الجليد ببرد شديد..
إنها مكان غير مأمون في عالمي.. يؤمه اللصوص وتجار المخدرات، ولا يمكن المشي فيه ليلًا إلا بمطواة مفتوحة..
لكنها ـ في عالم القهر هذا ـ مكان مأمون.. من الغريب أن البلطجية في هذا العالم وجدوا أنفسهم مرغمين على لعب دور الثوار..
الخطر الوحيد هنا يأتي من الشرطة.. لا من أعدائها!
كنا نركض لاهثين...
البخار يتصاعد من ثغرينا.. وآذاننا تصفر...
ثمة إحساس يغمرني بأن هذه هي نهاية الفيلم...
ترى هل يكون المخرج من التقليديين فينهى فيلمه نهاية سعيدة، أم يكون ثائرًا من تلاميذ الواقعية الإيطالية فينهي الفيلم بموتنا شر ميتة؟
إنني أفضل المخرج الثاني حين أذهب للسينما..
لكني في الحياة أفضل بالتأكيد المخرج الأول..
هه! هه! المزيد من البخار...
وهناك ـ على ضوء مصابيح الصوديوم الخافت ـ استطعت أن أرى الأجساد المعلقة.. كل جسد معلق على عمود إضاءة..

* * *

ودنونا بحذر من مشهد الهول هذا..
كانت ستة أجساد.. اثنان منها بلا رأس..
وقد تدلت الأجساد بحبال غليظة ربطت إلى السيقان.. وفي الضوء الخافت كان بوسعنا أن نرى الثقوب الدامية في الأجساد.. في الرءوس.. في الأعناق.. في العيون...
مدت (سلمى) عنقها إلى الأمام وشهقت..
ثم إنها أفرغت معدتها.. وعندها استطاعت أن تتنفس..
- «يا للهول!»
كان هناك جسدان انتفخا وفاحت رائحة العفن منهما.. يمكننا إذن أن نستثنيهما.. فالأجساد لا تتعفن بهذه السرعة في الشتاء.. و(لاري هولدن) ـ لو كان قد مات ـ لا يمكن أن يكون قد مضى

عليه أكثر من يومين.. وكانت هاتان هما الجثتان عديمتا الرأس..
بقيت أربعة أجساد..
اتجهت إلى العمود الأول.. ورحت أتسلق المعدن البارد ببطء شديد وتأملت الوجه الغائب في سر الأسرار...
كان أقبح من رأيت في حياتي..
مددت جسدي محاولًا الوصول إلى جيبه.. لكنه كان بعيدًا عن متناول يدي.. رحت أحاول مرارًا..
هنا صاحت (سلمى) وهي تنظر لأعلى نحوى:
- «(سالم).. لا تضيع وقتك.. اختر أكثر الجثث وسامة فلا بد أنه هو! ألم يقولوا إن كنيته هي (الجميل)؟!»
حقًّا يا (سلمى).. أنت ذكية حقًا...
ورحت ـ وقد عدت إلى الأرض ـ أفتش عن أكثر الجثث جمالًا..
يا لها من مهمّة سخيفة! إن الجثث كلها تتشابه.. قناع الموت يشوه الوجوه كلها، أكانت لـ(مارلين مونرو) أو أحدب (النوتردام).. كان هناك فتى أشقر الشعر أزرق العينين.. ربما هو وسيم كذلك..
وفي هذه المرّة كان تصرفي إيجابيا.. أخرجت المسدس وأحكمت التصويب على الحبل الغليظ و.. بوم!
ووم! ووم! ووم! راح الصدى يردد الطاقة عشرات المرّات، وعلى الأرض تمددت جثة الفتى والجليد يتناثر حولها..
- «هل جننت يا (سالم)؟»
- «هذه هي الطريقة الوحيدة لفحص الجيوب..»
- «لكنّ الموتى سيسمعوننا!»
- «إن المغول آتون هنا على كل حال.. فسائق سيارة الأجرة قد أخبرهم بكل شيء حتى اسم زوج خالته..»
كنت أتكلم وأنا أبحث في الجيوب ملهوفًا.. الدم المتجمد يلوث يدي، وشعور حقير بأنني سارق جثث..
لكني تغلبت على تقززي وواصلت البحث..
لا شيء..
ونهضت باحثًا عن عمود آخر عليه جثة حسنة المظهر..
كانت جثة شاب أسود الشعر.. ويبدو أنه لاقي عناءً كبيرًا في الموت فأتعبوه وأتعبهم...
بوم! سقطت الجثة وسط الثلوج.. ورحت أنقب في جيوبها...
لا شيء...
وهنا خطرت لي فكرة.. لم لا يكون الـ.....
وهنا رأينا الطائرة قادمة....

* * *

إنهم لن ينذروكما.. أو يقبضوا عليكما.. أو يستجوبوكما.. بل سيطلقون الرصاص على الفور...

* * *

راتاتاتاتاتاه!

ورأيت خطًا من طاقات الرصاص يرتسم على الجليد في اتجاهنا.. ومرّ الخط على بعد مترين منا.. ولمحت وجه (سلمى) يلتمع في ضوء الكشاف القوي وهي تصرخ، بينما الجليد يتناثر في كل صوب..

وحين ابتعدت الطائرة لتقوم بدورة أخرى، استطعت أن أعرف أنها طائرة عمودية.. وأن (مترليوز) هائل الحجم يخرج من بابها..

- «(سالم)! فلنهرب!»

نعم.. هذا حق.. ولكن لأين؟

ورأيتها ترجع لتعيد الكرة.. فأمرت (سلمى) بالاحتماء خلف عمود.. وصوبت المسدس في دقة.. وكتمت أنفاسي..

إن الطائرة دانية جدًا.. سأكون أحمق لو لم أصبها.. سأكون أحمق لو لم أرسلها إلى جهنم..

وفي اللحظة التالية أطلقت الرصاص مرّتين..

ولم تنفجر الطائرة.. لكني رأيت شيئًا يهوى منها كجوال ثقيل.. وسمعت صرخة مكتومة ورأيت الجليد يتصاعد كسحابة من طبشور...

لقد سقط القناص....

دارت الطائرة دورة أخيرة ثم ابتعدت...

طبعًا لتحضر المزيد من الطائرات وعربات الشرطة وقاذفات اللهب.. يجب استغلال الثواني الباقية لنا...

عندي فكرة لا بأس بها..

إنهم يسمون (لاري هولدن) باسم (الجميل)..

قد تكون هذه دعابة فظة من التي يمارسها الرعاع أحيانًا.. بل نمارسها نحن حين نسمي طفلًا بائسًا فقيرًا باسم (البرنس).. أو نطلق على المصاب باللعثمة لقب (الفصيح)...

ربما كان (لاري هولدن) هذا قبيحًا جدًا.. وكانوا يتهكمون عليه..

ومن أقبح من صاحب الجثة الأولى؟

اتجهت نحو العمود وأطلقت طلقة واحدة - ربما هي الأخيرة فلم أعد أذكر - ورأيت جثته تهوي فوق الثلوج..

صاحت (سلمى) محتجة:

- «لكنّ.. لكنه قبيح!»

لكني رحت أفتش جيوبه بعناية.. لحسن الحظ أن الطلقة التي قتلته كانت في رأسه.. لكنّ.. لا يوجد جهاز! لا يوجد شيء!

هنا شعرت بشيء بارز في أسفل بطنه.. شيء حشره هو بين جدار البطن وبين حزامه...

دعوت الله ألا يكون هذا مسدسًا.. ألا يكون مليون دولار من دولارات المغول.. ألا يكون أي شيء سوى.....

وبعد لحظة خرج جهاز ناقل الجزيئات في يدي!
كان سليمًا كالكمان..
وبدا لي أروع شيء رأيته في حياتي...
- «(سلمي)! إنّه هنا!»
- «حمدًا لله!»
ودوى هدير محركات طائرات المغول وسيارات المغول.. وسمعنا طلقاتهم تمزق الهواء من حولنا...
جريت كما لم أجر من قبل (إن كعبي يقتلني)..
وجرت (سلمى) كما لم تجر من قبل.. وتلامس جسدانا...
تشبثت بذراعها.. وتركتها تضغط الأزرار، بينما الكشافات تسلط علينا من كل صوب.. ودنت طائرتان منا أكثر فأكثر...
٥٢٠ - ج - ٧٧..
اضغطي زر الإدخال يا (سلمى) بسرعة..
طلقة مرّت على بعد متر منا واصطدمت بالثلوج..
لن يتخاذل الجهاز.. أعرف أنه لن يتخاذل.. فلا وقت للمزاح ها هنا..
هيا...!
وتلاشت أرض المغول من حولنا.
ومن جديد اختلطت جزيئاتنا بجزيئات الكون ذاته..
ولم يعد هناك قبل ولا بعد....

* * *

خاتمة

مرحبًا.. أنا د. (رفعت إسماعيل) يعود لكم..

لقد فرغت من مطالعة خطاب (سالم) ووجدته مسليًا بحق.. ربما هو بشع إلى حدٍ ما.. ينبو عن الذوق أحيانًا.. مقبض دائمًا.. لكنه مسل...

أنا ـ عن نفسي ـ أمقت المومياوات المشتعلة، والجثث مقطوعة الرأس، والطاعون بخراريجه الملأى بالصديد...

لكن البعض يحبون هذه الأشياء.. وإنني لن أفهمهم أبدًا..

يقولون إن مخرج الرعب الشهير (جون كاربنتر) قد تشاجر مع أحد المنتجين، وطالبه الأخير بإعادة إخراج أحد أفلامه، ليضيف له مزيدًا من الدماء والأطراف المبتورة (حتى لا يخيب أمل الشباب)!

لا بد أنّ هذا المنتج كان سيحب قصة (أرض المغول) كثيرًا..

لكني - برغم هذا - أجدها قصة جيدة عن القمع الوحشي.. ومحاولة الثورة ضدّ طغيان أعمى.. وخبال أحلام السيطرة لدى كل (ديكتاتور) رأته أرضنا التعسة هذه..

إن الشعوب لا تموت.. والامل لا يفنى..

وبعد.....

كانت هذه هي القصة الثانية لـ (سالم وسلمى)، والتي تأخرت دهرًا حتى قدمتها لكم.. وثمّة قصة ثالثة - ربما تروق لكم - سأقدمها قريبًا جدًا هي (أسطورة أرض العظايا).. وقصة رابعة هي (أسطورة أرض الظلام).. وهي آخر ما لدي حاليًا من قصصهما...

والآن نعود لعالمي اللطيف الرقيق..

سأحدثكم عن مصاصي الدماء!

إننا لم نتحدث عنهم من فترة طويلة جدًا.. وإنني لمندهش لأنني أهملت هذه القصة المحببة لدي كل هذا الوقت..

إن الشاحبين يختلفون عن الآخرين، لهذا يفضلون الوحدة.. ربما كان جارك منهم، لكنك لن تعرف ذلك أبدًا..

لكن إذا انقلبت الآية ووجدت نفسك وحيدًا في مجتمع من الشاحبين.... عندئذٍ.....

ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
مقدمة أخرى
١ -أين نحن؟
٢ -أرض المغول..
٣ -أسئلة..أسئلة..
٤ -فلنذب وسط الزحام..
٥ -فلنذب وسط الزحام.. (من جديد)
٦ -هل هو الأمل؟
٧ -الغارة..
٨ -أنقذوه!
٩ -أحدهم بيننا..
١٠ -الفرار..
خاتمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة أرض المغول

في أرض المغول يغدو الغد ضربًا من أحلام اليقظة .. في أرض المغول يصير الموت نشاطًا يوميًا على قارعة الطريق لا يثير اهتمام أحد .. في أرض المغول لا توجد سوى لعبة واحدة هي البقاء حيًا ، ورياضة واحدة هي الهرب ، وأمنية واحدة .. هي أن تطيش الرصاصة القادمة بعيدًا عنك!



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ ٢٨٣٥٥٥٤ ٢٥٨٦١٩٢
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:
أسطورة الشاحبين

Notes

[←1]

وباء الطاعون: يبدأ بموت الفئران.. من ثم تغادر البراغيث أجسادها لتغزو أجساد البشر..

[←2]

كل المعلومات التالية حقيقيّة.

[←3]

كل المعلومات التالية غير حقيقيّة.

[←4]

يُقال إن السبب هو أنهم استقروا في جزيرة (الروضة) وسط النيل.

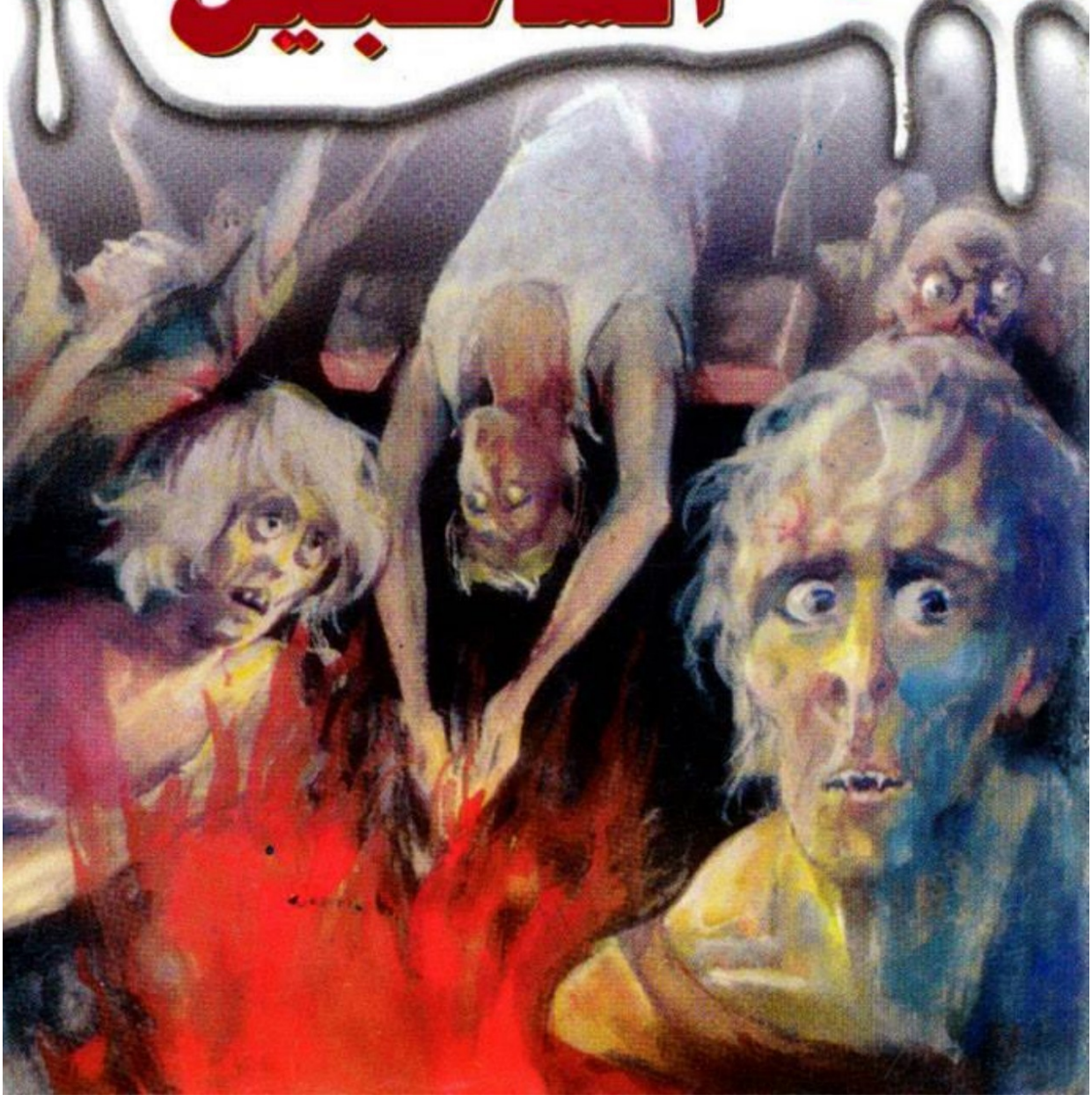
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

34

أسطورة الشاحبين

هاوية الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

في ضوء المشعل استطعت أن أرى الحقيقة..

لقد رأيت كثيرًا من الجثث الممددة في توابيت من الخشب الثمين، والمبطنة بالحرير.. ورأيت الدم على شفاه بعض تلك الجثث.. ورأيت البشرة الشاحبة والنابين البارزين..

رأيت ما يكفي من الجثث في حياتي كي أعرف مصاص الدماء حين أراه.. ولا أستطيع أن أفخر بأنني غرست أوتادًا كثيرة في صدور هؤلاء، لكني بالتأكيد أستطيع أن أفعل هذا بنجاح..

لشد ما تبدل د. (وينسلو)!

إنه الآن (غير ميت).. وهي كلمة لا تعني أبدًا أنه حي.. لكي تفهم الفارق الباهت بين (حي) و(غير ميت) يجب أن تكون مصاص دماء..

وقال لي (مايكل) بصوت مبحوح:

ـ «هل تغرس الوتد؟»

نظرت له وابتلعت ريقي..

كلما حسبت أنني أعرف كل شيء عن مصاصي الدماء؛ كلما أدركت مبلغ سذاجتي..

لقد كان تعاملي مع تلكم المخلوقات الطيفية سلسلة لا تنتهي من الأغلاط الفادحة، ولا أقول الفاحشة.. حماقات لا أول لها ولا آخر..

وتذكرت قصة الشاحبين..

وارتجف الوتد في يدي..

أحقا لم أحكها لكم بعد؟

غريب!

إذن هلموا أحكها لكم بسرعة وقبل أن ينهض مصاص الدماء من غفوته.. وقبل أن ينادي المنادون يعلنون ملكوت الظلام...

كانت القصة كما يلي..

* * *

تمهيد

د. رفعت إسماعيل

ساد تعبير (مصاصي دماء هامر) بين مشاهدي أفلام الرعب، بسبب أفلام شركة (هامر) البريطانية التي قدمت لنا أهم أفلامهم.. وفيها يبدو مصاصو الدماء فاغري الأفواه عن أنيابهم، يرتدون عباءات سوداء مبطنة بالأحمر، ولهم لون شاحب مخيف.. وكلهم يموتون عند رؤية ضوء الشمس والصلبان وعند شمّ رائحة الثوم..

كل هذا جميل.. لكنه غير صحيح على الإطلاق!

* * *

(رومانيا) من جديد؟

تسألون لماذا (رومانيا) من جديد؟

سؤال غريب وإجابة أغرب حتمًا.. أنا لم أر (رومانيا) منذ عشر سنوات تقريبًا.. ولي فيها صديق حميم هو (جوستاف نيكولسكو) الصحفي الروماني الشاب شديد الذكاء والمرح... كما أنّ لي فيها قصة رهيبة مع المذءوب.. إنني أحبها لأنهّا أول قصة حكيتها لكم..

إن (رومانيا) بلد غريب تختلط فيه التأثيرات الأوروبية والتركية واليونانية، وبه أساطير يشيب لهولها الولدان كما يقولون..

إن ما نُسمّيه نحن (رومانيا) لهو خليط من أقاليم عدة مثل: (داتشيا) - أو (داخيا) - و(والاشيا) و(الكربات) و(مولدافيا).. وبالطبع (ترانسلفانيا) الرهيبة التي صارت مزارًا سياحيًا للسياح الراغبين في رؤية قصر (فلاد المخوزق) كما يسمونه[1]، وذلك لأنّه كان يهوى التهام طعامه وهو ينعم برؤية أعدائه الأتراك فوق الخوازيق.. وقد أطلق عليه الأهالي اسم (دراكيولا).. أي (الشيطاني)..

ويقال إن (دراكيولا) مشتقة من لفظة (دراجول) أي (التنين) لأن هذا هو شعاره الإقطاعي..

تقول الأساطير الرومانية إن (جانب النجوم) هو عالم مواز لنا، يمرح فيه مصاصو الدماء والمذءوبون... لكن هذا العالم - كأي شيء في الواقع - مثقوب.. وهذا الثقب يسمح بمرور مصاص دماء أو مذءوب من آن لآخر؟

وتسألون لماذا (رومانيا) من جديد؟

لأنني أنا (رفعت إسماعيل).. ومن المستحيل أن أظل بمنأى عن هذا الموضع أكثر من عشرة أعوام...

* * *

كما يقولون في القصص: بدأ كل شيء بخطاب وصلني من (جوستاف نيكولسكو)..

لم تنقطع المراسلات بيننا لحظة طيلة هذه السنين، وقد صار (جوستاف) رئيسًا لتحرير مجلة نسائية متوسطة الشهرة، ويبدو أن الرفيق (شاوشيسكو) كان راضيًا عنه..

إن (جوستاف) يجيد التحايل وإخفاء ارائه السياسية المناهضة للشيوعية.. والدليل على ذكائه أنهم لم يعدموه بعد..

كان الخطاب مليئًا بالمودة والظرف.. وإن لم ينس سؤاله السمج عما إذا كنت تزوجت بعد.. ألن ينسى الناس هذا الموضوع أبدًا؟!

سأتجاهل بعض الفقرات الخاصّة أو الخاصّة جدًا.. أو التي لا أريد أن يعرفها سواي والروماني.. ثم أقدم لكم هذه الفقرة:

«(رفعت).. إن مجلتي عاكفة على تقديم سلسلة من التحقيقات عن الظواهر الميتافيزيقية.. ذلك الهراء الذي تهواه أنت، والذي يروق للنساء كثيرًا.. فالنساء مولعات بالشموع التي تتحرك، وشبح الكونتيسة الذي يعبر الردهة في الواحدة صباحًا.. وكلما كان الأمر مريعًا كلما كان هذا أفضل..»

«لديَّ حشد من الخيوط يمكن البدء بأي منها.. لكني لم أرد أن أبدأ دون أن تكون معي ها هنا..»

«إنني أذكر العمل الرائع الذي قمنا به ها هنا منذ أعوام في (كرايوفسكا) مع المذءوب إياه.. وأعتقد أنّ هذا بعينه هو ما أريد أن تشاركني فيه..»

(قمت بحذف باقي الفقرة لأن بها مزاحًا سمجًا)..

«العرض هو البساطة ذاتها: ستصلك تذكرة طائرة ومعها ترتيب كامل للإقامة لمدّة شهر..»

«عندما تقبل سيأتي دور التفاصيل..»

«فكر جيدًا.. إنها سياحة مجانية لا تتاح لكثيرين.. أما أنا فسوف أربح رأيك الصائب وخبراتك.. ثم إن الرومان ينغمسون أكثر في الأحداث إذا لم يكن بطلها رومانيا.. فألحان عازف المزمار في القرية المجاورة أعذب من ألحان عازفنا..»

هذا التعبير الأخير هو طريقة رومانية لقول (الشيخ البعيد سرّه باتع) أو (زامر الحي لا يطرب)..

كان العرض مغريًا..

إن إجازتي دانية.. وأنا لم أسافر للخارج منذ زمن..

لم لا؟ بالتأكيد أنا لا أهوى تربية العناكب في داري.. لكن منظر خيوط العنكبوت، وطبقة الغبار على الأثاث لدى عودتي من الخارج، لتبعثان حنينًا قويًا في روحي..

وهكذا...

بعد أسبوعين كنت جالسًا في الطائرة أنتظر لحظة الهبوط في مطار (بوخارست)..

وأخذت شهيقًا عميقًا، وقذفت بقطعة من اللادن في فمي، كي لا تنفجر أذناي..

حان وقت الاسترخاء.. أو العمل الشبيه بالاسترخاء..

وللمرة التريليون كنت ساذجًا.. ساذجًا...

* * *

في المطار تعرفته بصعوبة... كان قد امتلأ ووضع العوينات وبدا أكثر أناقة.. (رجل في منتصف العمر تلوح عليه آثار النعمة) كما يقولون في الروايات.. وقد دفع ضريبة النجاح من شعر رأسه المتساقط..

وحين تعرفته صحت معتذرًا وأنا ألثم خده كعادتنا وعادتهم:

- «(جوستاف)! إنك تزداد بهاء.. لم أتعرفك لأني حسبتك نهارًا مشمسًا!»

وهو تعبير مسروق من (مارك توين) لكنه أسعده كثيرًا فرد المجاملة:

- «وأنا لم أتعرفك لأني حسبتك مصيبة..»
- «هذا لطف منك..»
- «ألم تمت بعد؟»
- «كما أنّ الشيوعيين لم يشنقوك بعد.. إنها لمعجزة..»

ودس يديه في جيبي معطفه الثمين الذي تعلوه ياقة مبطنة بـ (الاستراخان) - أو هكذا أحسبه - وقال في فخر:

- «الأمور على ما يرام.. يبدو أنني أزداد فهمًا للحياة..»

وخرجنا من المطار دون إجراءات جمركية تقريبًا.. ومع مزيد من الاحترام، برغم أن كل مفتشي الجمارك في الكون يكرهونني بشكل خاص كأنني زعيم (المافيا) الهارب، أو ملك تجارة (الهيروئين) في العالم...

وفي سيارته الـ (زاباروجيتس) الفاخرة، أشعل لنفسه سيجارًا عملاقًا وقال وهو يمسك المقود بيد واحدة:

- «ستقيم في فندق (بلويستي).. وهو فندق فاخر..»

- «هذا يسرني.. فقد سئمت الأكواخ الملاي بالبراغيث..»

ثم إنّه راح يسألني عن آخر أخباري..

قلت له إن الأمور على ما يرام.. فلم أك راغبًا في أن أسكب فوق رأسه كل هذا الخليط من أوراق (التاروت)، وكهنة التبت، والدمى المسحورة، والعوالم الموازية.. إلى آخر هذا الهراء..

ثم إنني سألته:

- «هلا تكلمنا في الأعمال؟»

- «الأعمال؟ آه! دائمًا الأعمال.. انتظر حتى نصل إلى الفندق وهناك أعرض عليك ما لديَّ من خواطر..»

* * *

جلس على الأريكة الوثيرة في حجرتي، ومد يده إلى جيبه ليخرج بعض الأوراق.. وكما توقعت، نزع عويناته ليبعد الأوراق بعيدًا إلى أبعد نقطة من مجال بصره.. إنّه قد تقدم في العمر وبدأ يُصاب بطول النظر.. منتصف العمر.. سن النجاح الاجتماعي وطول النظر وتضخم البروستاتا والنوبات القلبيّة..»

قال لي وهو يتأمل الأوراق:

- «هي ذي بعض الخواطر كتبتها لك.. لن أثقل عليك، فأنت مرهق بعد رحلة الطائرة.. لذا سأتركها لك.. على أن تتصل بي حين تشعر بانك تميل إلى موضوع معين..»

ونهض ليضع قبعته على رأسه معلنًا انتهاء اللقاء..

ما إن انصرف حتى طوحت بفردتي حذائي، وانتزعت تلك المشنقة التي يسمونها ربطة العنق، وخلعت سترتي ثم ارتميت في الفراش كجثة غارقة.. وكان الفضول أقوى مني، فمددت يدي إلى الأوراق أتصفحها بسرعة.. وكانت - حقًّا - حفنة من الخواطر:

١ - المقبرة المفتوحة دائمًا في مدفن (كلوج)...

٢ - في (مامايا) على البحر الأسود.. يسمعون الغناء ليلًا.. يبدو أنها حكاية شبيهة بـ (لورالاي) لدى الألمان.. (عرائس بحر؟).

٣ - شاب له القدرة على السفر عبر الأزمان (أو هكذا يزعم).. يقول إنّه كان محاربًا من الفرنجة.. وكان غازيًا تركيًا.. المشكلة هي أنه يملك أدلة قوية حقًّا..

٤ - عالم يزعم أنه يعرف مكان تابوت العهد المذكور في التوراة.. لكنه لن يفصح عنه إلا مقابل بضعة ملايين من (اللايات).. لا أحد يعبأ به لكنه موضوع مثير حقًّا..

٥ - إشاعات عن فرقة من النازيين ما زالت حية بعد الحرب.. وتجول بين القرى ليلًا.. يُقال إنهم دفنوا في أثناء غارة للحلفاء وأن ما نراه هو أشباحهم...

٦ - صيدلي في (بوكوفينا) يزعم أن القرية كلها تثير ريبته.. لكنه لا يستطيع إثبات كلامه..

٧- معتوه في (كونستاتا) يتصل بشكل منتظم بسكان (زحل).. وهم كالعادة ينوون غزو الأرض.. كل هذا جميل، لكنّ عنده سبيكة من معدن يقسم الجيولوجيون بقبور أمهاتهم إنّه غير أرضي..

كانت كل نقطة مكتوبة في ورقة بعينها بخط جميل.. وقد أثار كل هذا شغفي.. لكنّ سني لا تسمح لي بالبحث عن الأفكار المفزعة أو التي توحي بمتاعب قادمة لا ريب فيها...

مثلًا بالنسبة للقبر المفتوح.. أنا لا أحب القبور المفتوحة كثيرًا كما تعلمون.. أمّا عن (لورالاي) فأعتقد أنها كلام فارغ كالعادة..

المسافر عبر الأزمان يذكرني بـ (هن - تشو - كان)... وأعتقد أن كاهنًا أخيرًا واحدًا يكفي المرء طيلة حياته..

موضوع (تابوت العهد) محبب لدى اليهود، وأوشك أن أشم رائحة عبرانية واضحة في الموضوع.. رائحة تجعلني أتراجع..

النازيون مرعبون بما يكفي وهم أحياء.. فكيف بأشباحهم؟

أما معتوه (كونستاتا) فمن المؤكد أنه معتوه..

إذن يبقى أمامنا أخونا الصيدلي الروماني المرتاب..

طبعًا لن يسفر الأمر إلا عن حالة (بارانويا) متقدمة، من طراز (إنهم يكرهونني).. وهذا يناسبني..

وأخيرا غلبني النعاس فنمت حيث أنا، والأوراق في يدي.. وحين صحوت كان ضوء النهار يفعم الحجرة..

طلبت رقم الهاتف الذي أعطانيه (جوستاف).. فسمعت صوت سكرتيرة تسأل بالرومانية عن شيء ما.. غالبًا تسأل من أنا؟

وأخيرًا سمعت صوت (جوستاف) المرح يسألني:

- «هيه؟ علام استقررت؟»

قلت وانا اتثاءب:

- «هاااه.. على الصيدلي المرتاب..»

- «غريب! حسبتك متحمسًا لفرقة النازيين الجوالة..»

- «لم تعد صحتي تتحمل الأشباح النازية يا (جوستاف)..»

ضحك طويلًا ضحكته المجلجلة الرنانة.. ثم قال:

- «ليكن.. أعد حاجياتك لأننا راحلان إلى (بوكوفينا)..»

- «هل ستصحبني؟ ظننت مشغولياتك..»

- «إن إجازتي تبدأ بعد يومين.. وأعتقد أن (بوكوفينا) مكان مناسب لقضاء وقت طيب.. ومنها إلى قرية (هالماجيو)..»
- «والتفاصيل؟»
- «ستعرف كل شيء في الطريق.. كل شيء..»..

* * *

حكاية الصيدلي المرتاب

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال الصيدلي (يوليان بودسكو):
بالتأكيد توجد أمور غريبة في (هالماجيو)..
توجد أشياء معينة من التي لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلًا، حينما تتأكد من أن الأطفال قد ناموا، وحينما تستوثق من أن أبوابك موصدة، وأن الكلب لا ينبح في الجرن لأنّه يشعر بشيء غريب..
أمس صارحت القس الأب (كونستانتين) بهواجسي، فهز رأسه الأشيب عدة مرات، ولم ينصحني سوى بإغلاق بابي ليلًا.. والصلاة..
وهأنذا أوصدت بابي.. وأحضرت الكتاب المقدس ورحت أقرأ منه، داعيًا الرب أن يأتي الصباح سريعًا..

* * *

ربما بدأ كل شيء في (مايو) الماضي..
ربما بدأ قبل هذا لكني لست واثقًا من شيء.
إن (الكسندر) صبي ذكي لكنه شيطان صغير، من النوع الذي لا يكف عن جذب ذيول القطط وتهشيم زجاج الجيران..
إنه أشقر الشعر له وجه ملوث بالحلوى والطين.. وله سنان ناقصتان تجعلانه يبدو كشيطان زنيم..
لكن القرية كلها كانت تحب (الكسندر).. حتى وهم يشكون لأبيه (مازورسكو) تهشيمه لزجاج النافذة، أو قذفه أبناءهم بالوحل، أو سرقة تفاحة، أو ثقب إطار الدراجة التي تركها أحدهم أمام بابه.. حتى وهم يشكون لأبيه كانوا يحبونه..
وفي صباح (مايو) المذكور قابلته وهو عائد من القرية.. جاء متجرى ليطلب بعض حلوى النعناع..
- «كل هذه الحلوى ستفسد أسنانك يا (ألكسندر).. ولسوف تغدو بلا أسنان كالعلقة...»
قلتها له وأنا أفتح المرطبان وأعد أقراص النعناع، ثم أضعها له في قرطاس ورقي كبير..
قال لي وهو يمتص قرصه الأول:
- «النعناع لا يتلف الأسنان.. هل لديك ماء بارد؟»
فالصباح كما قلت لك صباح من شهر (مايو).. حيث القيظ يجثم على الأنفاس، والطبيعة كلها تبدو ككلب لاهث يرقد في الظل مخرجًا لسانه في استرحام..

أحضرت له كوبًا من الماء من الدورق الذي يسبح فيه مكعبان من الثلج - ما أحلى الماء البارد بعد حلوى النعناع! - سمعته يشهق من النشوة الحارقة التي غمرت حلقه.. وقال في صوت مبحوح:

- «هآآآآآه! ما أجمله!»

ووضع الكوب على (الكاونتر) أمامي..

وتوقعت أن ينصرف.. لكنه بدا حائرًا قليلًا.. كان يريد قول شيء لكنه لا يجد الكلمات المناسبة..

- «هل ثمّة ما تريد قوله؟»

راح يرمق الأرفف التي تعجّ بالأدوية.. ثم سألني:

- «هل أنت تفهم في جميع الأمراض؟»

هززت كتفي في عدم اكتراث:

- «لست طبيبًا.. لكني أعرف أشياء كثيرة..»

عاد يسألني وهو يهرب بعينية من نظراتي:

- «ما معنى أن يكون الواحد شاحبًا؟»

- «أشياء كثيرة.. مثلًا حين تهشّم الأكواب الملونة التي تعتز بها أمك تصير شاحبًا.. حين تنزف دمًا كثيرًا تصير شاحبًا.. حين تصاب بالأنيميا تصير شاحبًا..»

- «ما هي (الأمنيا)؟»

هنا تذكرت أن أباه جعله يترك المدرسة منذ زمن كي يعاونه في متجره.. لم أجد تعريفًا مناسبًا لـ (الأنيميا) فقلت له:

- «هي فقر الدم.. حين يكون دمك قليلًا..»

عاد يسألني:

- «وهل عندك علاج لهذه (الأمنيا)؟»

- «هل تريد علاج أحد معين؟»

هزّ رأسه.. ثم عاد يسألني بإلحاح:

- «هل عندك علاج معين لها؟»

مددت يدي إلى الرف فتناولت علبة من أقراص الحديد، ووضعتها أمامه.. فتأملها في شغف.. لكني لم أدعة يأخذها.. وقلت:

- «لن تأخذها ما لم تقل لمن؟»

ابتلع ريقه للحظة.. ثم قال بعد تردد:

- «لأبي..»

- «أبوك شاحب الوجه؟»

- «نعم.. ويخيفني كثيرًا..»

هنا تذكرت أنني لم أر الأب (مازورسكو) منذ أسابيع.. إن متجره مغلق لكنه قد عودنا على ألا نقلق حين نرى شيئًا كهذا..

فهو سكير.. ونوبات سكره تتكرر كل أربعة أشهر أو ثلاثة.. عندها يغرق في نوبة من البكاء والضحك، ثم ينهال على امرأته ضربًا ويركل ابنه مرّتين.. ثم يظل في الفراش لمدّة أسبوع.. بعدها



قلتها له وأنا أفتح المرطبان وأعدّ أقراص النعناع ،
ثم أضعها له فى قرطاس ورقى كبير ..

يعود كل شيء إلى حالته الأصلية..
- «و يخيفك؟ لا أفهم..»
بدت الحيرة في عينيه الخضراوين.. وقال بارتباك (كأنه لم يرد أن يتكلم بهذه الكثرة):
- «نعم.. يجلس وحيدًا في غرفة مقفلة.. والكلام كله من وراء الباب.. لكني رأيت وجهه.. وكان شاحبًا.. شاحبًا كليمونة..»
- «وأمك.. ألم تسألها؟»
- «هي أيضًا لا تفهم.. تقول إن أبي مريض جدًا..»
- «ودكتور (ميخائيل).. ألم يزر البيت؟»
- «نعم.. فأبي يرفض أن يراه الأطباء..»
- «وهل يخرج أبوك أحيانًا؟»
- «لا.. إنّه جالس في هذه الحجرة طيلة الوقت. لا يستحم ولا يبدل ثيابه حتى صارت رائحة الحجرة شنيعة.. أمي تحضر له الطعام.. ووعاء يقضي فيه حاجته.. وتأخذ الوعاء صباح كل يوم لتفرغه وتنظفه..»
شعرت بالهلع.. من المستحيل أن يختلق الصبي قصة كهذه.. مستحيل.. إن شيئًا ليس على ما يرام يحدث في هذا البيت.
ماذا أصاب التاجر الروماني البسيط؟
سمعت أنّ هذه الأشياء تحدث لمرضى الاكتئاب.. كما أنها تحدث لمرضى الجذام الذين لا يحبون أن يراهم الناس يتآكلون.. كما أنّ مرضى الضمور Consumption كانوا يفعلون شيئًا كهذا فيما مضى.. قبل أن نعرف أن الـ Consumption هو الدرن.. ونعرف أن له علاجًا..
قلت للصغير في حماس:
- «سآتي معك الآن لنرى أباك..»
- «لن يحبّ هذا يا دكتور.. فهو..»
- «لا مجال للمناقشة.. لحظة حتى أغلق المتجر..»

* * *

كان المشوار مرهقًا في الحر.. فأنا بدين كخنزير لا أملك أية لياقة بدنية.. وقد راح العرق يغمر جسدي ويبلل حاجبي وينساب على عيني حارقًا لاذعًا..
إن دار (الكسندر) جميلة حقًّا.. ويقال إن الأب بناها من أرباح القمار في شبابه.. ويبدو - إن كان هذا صوابًا - أن دارًا ساحرة كهذه يمكن الحصول عليها من شيء كريه كالقمار..
قرعنا الباب ففتحت لنا (ماريا) الباب..
وهي - في الخمسين من عمرها - تبدو كأنها في الثمانين.. كنا نتصور أن فرصتها للإنجاب قد فاتت، لكنّها فاجأتنا بصبي أشقر جميل هو (ألكسندر)..
ما إن رأتني حتى اتسعت عيناها ذعرًا.. لقد فهمت سر مجيئي.. فقلت لها:
- «هل (فيتور) في غرفته؟»

ابتلعت ريقها ولم تقل شيئًا.. فقط أفسحت لي طريق الدخول وهي ترمق الصبي بنظرة لا تحتاج إلى مترجم.. نظرة من نوع (هكذا ـ إذن ـ أيها ـ القرد ـ الصغير)..

ودخلت إلى الدار.

حقا كان الصبي محقًا.. إن رائحة البيت لا تطاق..

هي ذي غرفة موصدة.. المرأة تقف جواري وترمقني بوجهها المجعد الشبيه بتفاحة ذابلة، وتقول:

ـ «هو هنا.. حاول الا تلح على رؤيته.. إنّه ضيق الخلق..»

مددت يدًا مترددة وقرعت الباب..

فسمعت من يزمجر بالداخل..

قلت في صوت مبحوح:

- «(فيتور).. هل ثمّة مشكلة؟»

عاد الصوت يزمجر:

ـ «من المتكلم؟»

ـ «أنا الصيدلي.. أنا (بودسكو).. صديقك..»

قال بصوت كخوار الثور:

ـ «انصرف يا (يوليان).. أنا لن أفتح الباب..»

- «هل ثمّة مشكلة؟»

ـ «قلت لك انصرف...»

نظرت للمرأة.. ولم أحتج إلى سؤالها.. إن الباب موصد من الداخل بالتأكيد، وهو لا يفتحه إلا وقت الطعام...

إنه يمارس كل ما يفعله المسجون الانفرادي ولكن بكامل إرادته.. قرعت الباب مرّتين ثم أدركت أنه لن يفتحه أبدًا..

نظرت للمراة في حيرة وسالتها:

- «لماذا لم تخبرى أحدًا؟»

- «إنني أهاب جبروته.. فهو يعد بالتهام حنجرتي لو فعلت..»

- «ليس التهام الحنجرة متاحًا لكل من يريد.. لماذا لم تبلغي الشرطة أو تستعيني بجارين قويين يهشمان الباب؟»

ـ «لا أريد أن يؤذيه أحد..»

تنهدت في صبر.. وقلت:

ـ «الأمر الآن يختلف.. فهو يعرف أنني أعرف..»

- «ومعنى ذلك؟»

ـ «معناه أنه سيلتهم حنجرتك إذا كان صادقًا!»

بدا عليها الرعب كأنما تشعر بالفعل بأسنان زوجها الغليظة على حنجرتها.. وقالت في ارتباك:

- «والعمل؟»

ـ «علينا اقتحام الباب ومعرفة ما دهاه..»

ولم أتركها تفكر كثيرًا..

هرعت خارج الدار، وطرقت باب الجيران طالبًا عون (تيبور) عامل البناء الذي يملك أكبر نراعين رايتهما في حياتي.. وكان غوريللا مشعرة تحب هذه الفرص التي تتيح إظهار القوة.. إن عملية تهشيم باب تناسب تمامًا فكرته عن (الاستمتاع بالوقت)..

وجاء من داره جريًا وهو يبصق في كفيه استعدادًا..

سألته وأنا ألهث:

- «ألم يثر اختفاء الرجل ريبتكم؟»

- «بلى.. لكننا نعرف نوبات سكره.. واعتدنا أن تتجاهلها..»

ودخل الدار فتفحص الباب بعين خبيرة..

وللمرة الأخيرة أنذر التاجر بصوت غليظ:

- «(فيتور).. نحن سنهشم الباب ما لم تفتحه..»

- «أذهب إلى جهنم!»

كانت هذه العبارة كافية لإثارة حماسه..

تراجع للوراء واندفع بكتفه إلى الباب.. وكانت الدفعة كافية لأني سمعت صوت المزلاج يتهشم.. ثم انفتح الباب..

كانت الحجرة مظلمة تمامًا.. لكني تعرفت هيكل (فيتور) الجالس أمام المنضدة.. وشممت الرائحة العطنة إياها..

وفي اللحظة التالية كان (تيبور) يمسك بالتاجر من قفاه بينما هذا الأخير يصرخ في جنون محاولًا التملص...

لحظة عرفت ورأيت فيها أشياء كثيرة..

ربما كان أول ما رأيت هو الشيء الأهم..

لقد كان يمسك في يده فأرًا ميتًا..

* * *

- ٢ -

ليس الأمر متعلقًا بالجذام أو الدرن..

إنه متعلق بالجنون.. الجنون المريع الذي يدفع إنسانًا لالتهام فأر دون ذرة اشمئزاز..

ولقد تمكنا من إخراج (فيتور) إلى النور وسط صراخه وهياجه.. الحق أنه كان شاحبًا كالموتى.. لم أر قط هذا الشحوب على وجه إنسان حي..

وتجمع الجيران ليروا ما يحدث.. ووقف (ألكسندر) يرمق المشهد دامع العينين، وقد عاد مجرد طفل مذعور.

وبصعوبة تمكنا من اقتياد التاجر الثائر إلى عيادة د.(ميخائيل) الذي تهشّم له طبقان ولوحا زجاج، وأصابه الذعر فأعلن أنه غير قادر على السيطرة على هذا الوحش..

- «خذوه إلى المخفر.. إلى الزنزانة وسأفحصه هناك!»

وتمكنا من اقتياد التاجر المذعور - مرّة أخرى - إلى المخفر.. كانت هناك زنزانة لا بأس بها وضعناه فيها.. لكنّ - في هياجه المسعور - راح يضرب القضبان برأسه، ويقول كلامًا مختلطًا لا نعرف كنهه.

لم نجد حلًا سوى اقتحام الزنزانة من جديد، وتقييده بمعاونة (تيبور)، حتى استطاع د. (ميخائيل) أن يدنو منه.. وهو يرتجف ذعرًا كمن يدنو من أسد.. وأفرغ محقنًا مليئًا بالفاليوم في وريده...

وأخيرا أطلق المريض شهقة طويلة، ثم غاب في سبات هادئ.. واستطاع الطبيب أن يدنو أكثر.. وأن يتحسس نبضه ويفتح جفنيه.. وأعلن ما توصل إليه:

- «إنّه مريض جدًا..»

فتعالت الأصوات تمتدح عبقريته، وطالبنا بالمزيد فقال:

- «إنها حالة (أنيميا) متقدمة.. يبدو أنها أثرت على توازنه العقلي والنفسي..»

- «والحل؟»

- «لا بد من نقل بعض الدم له..»

وتم الأمر بسرعة.. أحضر الطبيب بعض الكواشف الطبية وميكروسكوبًا، وأجرى فحصًا لدمائنا فكانت دماء (تيبور) العملاق هي الصالحه.. رباه! لكم أبدى هذا البطل ذعرًا وهلعًا كأننا نريد استنزاف دمه حتى الموت.. وأقنعناه مرارًا بأن هذا لن يؤذيه.. لكنه راح يولول كالنساء الثكالى وهو يرى الدم يتسرب من جسده ليملأ الزجاجة.

وأخيرا تم إعطاء الدم للتاجر المريض.. صحيح أنه غير كاف لكنه جعل شفتيه تبدوان أكثر احمرارًا من الورق..

وعدت لداري راضيًا فتناولت غذائي، ثم عدت المتجر الأدوية كي أفتحه، وأمارس عملي من جديد...

وفي المساء توفي التاجر (مازورسكو)..

* * *



ربما كان أول ما رأيت هو الشيء الأهم .. لقد كان
يمسك في يده فارًا ميتًا ..

وقفت (إيرينا كالسكا) في متجري، وراحت تتأمل قوارير الدواء في فضول.. ثم سألتني:
- «أريد علاجًا لفقر الدم الذي أعانيه..»
تأملت شفتيها الحمراوين، وخديها الشبيهين بتفاحتين، وقلت:
- «أنت مصابة بفقر دم؟»
- «نعم.. أظن هذا..»
- «لا اعتقد...»
وهززت كتفي وعدت إلى ميزانى الحساس أزن به تركيبة السعال التي أصنعها..
قالت في إصرار:
- «لكني أريد علاجًا لفقر الدم.. ليس من شأنك أن تمنعني..»
وأنا أمقت من يعاملني كبدّال ينحصر عمله في أخذ النقود، ولف السجق في ورقة، وتقديمه للزبون..
إن لي رأيًا ينبغي احترامه...
قلت لها في جفاء:
- «لو كنت نصابًا لأعطيتك ما تريدين..»
ثم خطرت لي فكرة لا بأس بها فقلت:
- «هذا العلاج ليس لك طبعًا..»
احمر وجهها قليلًا فعرفت أنني محق.. فأردفت:
- «ربما هو لوالدتك؟»
- «نعم.. لكني لا أريد ذيوع السر..»
- «هل هي تتصرف بغرابة؟»
إزداد وجهها احمرارًا كأنما يعلن لي أنها لا تعاني (الأنيميا) بشكل نهائي.. وقالت:
- «بغرابة؟ لا.. بل تتصرف بشذوذ إذا أردت الدقة!»
- «شذوذ؟ كأن تخنق القطط وتأكل الزهور؟»
- «بل أسوأ.. هي لا تفعل شيئًا من أي نوع!»
بدا لي كل هذا مألوفًا..
لكني في هذه المرّة لم أتحمس كثيرًا لزيارة المرأة.. ناولت الفتاة علبة الحبوب وتقاضيت الثمن في صمت..
ليتني اهتممت بالأمر أكثر!

* * *

قال (بوريس) وهو يداعب شاربه الكث، ويتلذذ بخشونة لحيته على ظهر يده:
- «دكتور.. ما معنى (أنيميا)؟»
قلت له وأنا أتأمل وجهة النابض بالصحة:
- «معناها: أي شيء سوى ما أنت عليه..»

ضحك كاشفًا عن أسنانه المغطاة بالتبغ..
كان راعيًا قوي البنيان له رائحة الضان، لكنه كان يروق للنساء باعتباره الرجل الذي هو مائة بالمائة رجل.. إن في كل رجل جزءًا من الأنوثة؛ لهذا يعتبر (بوريس) حالة فذة غير معتادة..
قال لي:
- «أنا لست معتلًا.. أريد هذا الدواء لأخي..»
- «هل هو شاحب؟»
- «طبعًا..»...
- «وغريب الأطوار؟»
- «بحق (مريم) العذراء! أنت تعرف كل شيء!»
ناولته علبة من أقراص الحديد.. يبدو أن المخزون لديَّ لن يكفي كل هؤلاء الشاحبين!
ثم إنني غادرت المتجر قاصدًا دار د. (ميخائيل).
كان النطاسي العجوز هناك عاكفًا على فتح خراج في قدم فلاحة... والمرأة تصرخ كأنهم ينتزعون عينها بمطواة غير حادة..
انتظرت حتى هدأ كل هذا الصراخ، وانصرفت المرأة وهى تطلق السباب واللعنات على الطب والأطباء..
قال د. (ميخائيل) وهو يغسل يديه:.
- «كلهم نفس الشيء.. يجوب الواحد منهم الدنيا يعيث فسادًا، ويرتكب كل الموبقات.. ثم يصيبه خراج في قدمه فيملأ الكون صراخًا، كأن قدمه هي ميزان الأكوان وحقيقة الوجود.. وبعد هذا يدفع لي حفنة (لايات) كأنما ينتزعها من قلب اطفاله..»
ثم تأمل مال المرأة في اشمئزاز.
- «إن نقودهم خالية من البركة.. لأنّهم يمنحونها مصحوبة باللعنات والدعاء على أطفالي بالموت..»
قلت له وأنا أجفف العرق الذي غمر عنقي:
- «هل تصادفك حالات فقر دم كثيرة هذه الأيام؟»
فكر قليلًا.. ثم قال:
- «ليس أكثر من المعتاد.. إن طعام هؤلاء الفلاحين لا يغني ولا...»
- «إذن ترى حالات مثل (مازورسكو)؟»
- «ليس كثيرًا كما قلت..»
هنا خطر لي أن أحدًا لا يبلغه؛ لأن المرضى جميعًا يصرّون على عدم إطلاع الأطباء..
لقد فعلها (مازورسكو) وهدد امرأته بالتهام حنجرتها، وهو ما أشكره على ما كان من موته اللطيف قبل أن يفعلها..
لكن الأخرين فعلو الشيء ذاته على الأرجح..
عدت أسأل د. (ميخائيل) - وأنا واثق أن معلوماته في الطب لا تفوق معلومات أي ترزي - عن احتمال - وجود حالات فقر دم لها شكل وبائي.. مط شفتيه في تفكير.. ثم قال:
- «لا أدري.. ربما مع الملاريا.. أو وجود تسمم رصاص.. أو عند وجود مصدر إشعاع نووي..»

وهز رأسه مستبعدًا:
- «لكنّ لا شيء من هذا في (هالماجيو)..»
- «ألا ترى أن من واجبك إخطار مكتب الصحة؟»
- «لا أظن..»
قالها في ثبات وعناد..
ليس من المستحب أن تبلغ السلطات عن وجود متاعب في نطاق عملك.. لأن أول ما سيحدث هو أن يقصوك عن منصبك، ولأن بداية الخلاص من المتاعب هي الخلاص منك..
إن (شاوشيسكو) يحبّ عمله حقًّا..

* * *

- ٣ -

قد يحدث كل شيء في (رومانيا)..
صحيح أن (بوكوفينا) لم تظل قط رومانية.. بل هي تتأرجح طيلة الوقت بين (رومانيا) و(المجر) لكنّ قواعد (رومانيا) الصارمة تسري عليها..
في (رومانيا) فقط يمكن أن يكثر الشاحبون..
في (رومانيا) فقط يحدث هذا بلا تفسير..
في (رومانيا) فقط يبدأ الكلام همسًا ثم بصوت عالٍ..
الكل يعرف أن شيئًا ليس على ما يرام يحدث..
لكنّ ما هو؟

* * *

وفي أمسية مقمرة من شهر (يونيو).. أمسية من النوع الذي يخرج فيه العشاق إلى غابة الصنوبر المحيطة بالقرية؛ أمسية من النوع الذي يندر فيه أن ترى جثثًا مشوهة..
أمسية كهذه هي التي وجدوا فيها جثة (إيرينا كالسكا) في الغابة.. كانت عيناها شاخصتين للسماء في رعب.. ولم تكن ثمّة آثار عنف في جسدها، إذا استثنينا التمزيق في عنقها والذي حدث بأنياب حادة.. وكان رأى الضابط بليغًا جدًا:
- «هذه الأشياء تحدث..»
ثم أضاف يفسر وجهة نظره:
- «إن هذه الذناب الشهباء لا ترحم..»
واقتنعنا برأيه.. صحيح أنّ هذا لم يحدث في قريتنا قط لكنه ممكن...
لا بد من مرة أولى دائمًا..
لكن د. (ميخائيل) جاءني في المساء وأدخلته زوجتي إلى مكتبي الذي هو غرفة معيشتي كذلك..

كان النطاسي العجوز شاحب الوجه، وجلس يفرك يديه بعض الوقت ويجفف العرق على جبهته.. ثم قال:
- «يبدو أنك محق يا (يوليان).. الأمور على غير ما يرام في هذه القرية..»
قدمت له كأسًا من النبيذ كان بحاجة إليه.. وسألته:
- «ما الذي جعلك ترتاب؟»
جرع الكأس مرة واحدة، وقال لاهثًا:
- «تلك الفتاة.. (كالسكا).. لم يكن في عروقها نقطة دم واحدة!»
نظرت له في حيرة ولم أقل شيئًا..
قال ضاغطًا على حروفه:
- «هل تفهم؟ ولا نقطة دم.. لقد أفرغ الذئب دمها كله..»
- «لكنكم لم تجدوا دماء حول جثتها..»
- «هذا هو ما أرمي إليه.. لقد تم امتصاص دمها كله..»
- «إنك تتحدّث عن...»
وضع الكأس على المنضدة، وقال:
- «نعم.. نحن في (رومانيا).. وأنت تعرف ما أريد قوله..»
- «لكنّ هذا هراء.. أساطير فلاحين..»
قال في هدوء:
- «لكنّها تفسر كل شيء.. وأعتقد أن من واجبنا أن نتخذ الأساليب المعهودة في الأسطورة: الوتد - قطع الرأس.. ليس مفترضًا أن نترك جثتي الفتاة و(مازورسكو) دون احتياطات..»
- «يا للهول! تريد هذا التمثيل البشع بالجثث؟»
أحسّ أنه قد تمادي قليلًا.. فقال متداركًا:
- «ربما حشو الفم بالثوم وقطعتي الفضة على العينين.. يقولون إن هذا أسلوب فعال..»
- «وهل تعتقد أن القوم سيقبلون؟.. وهل يقبل القس؟»
- «أعتقد أنه لا ضرر في هذا..»
في هذه المرّة كان دوري كي لا أبدي حماسًا..
ونجحت في إقناع الطبيب المذعور بتجاهل الأمر..

* * *

لكن الأقاويل تتزايد...
والحكايات المخيفة تكثر..
ولاحظت أن الجزء الشمالي من القرية هو موطن كل هذه القصص، وخاصّة ما يحيط منها بالكهف القديم الذي كان أهل القرية يتجنبونه بشكل خاص دون سبب واضح..
ويقع ـ ككل الكهوف ـ عند قاعدة تل حجري صغير..



كانت عيناها شاخصتين للسماء فى رعب .. ولم تكن
ثمة آثار عنف فى جسدها ..

ما هو سر هذا الكهف؟

لقد كان هناك منذ وجدت القرية، وسيظل بعدها.. وهو كهف لا يميزه أي شيء خاص.. فهو كهف كأي كهف آخر.. فم فاغر أسود تدخله وتخرج منه الوطاويط..

وللأمانة لم تكن هناك أية أساطير حول هذا الكهف، ولم يقل أحد إن الشياطين تكمن فيه أو إن الأطفال الذين يلعبون جواره يختفون.. لا شيء من هذا..

ولم يكن صالحًا لاختباء الناس أو للهو الأطفال، لأن رائحة عفنة مقيتة تخرج منه باستمرار كأنه مجرور.. لهذا لم يكن يثير اهتمام أحد.. ومن دخلوه لم يجدوا فيه ما يستحق العودة..

لكن الأقاويل تكثر..

وبالتدريج صارت القرية تنقسم إلى قريتين:

القرية الأولى جنوبيّة تجلس جوار المدفأة ليلًا.. وترتجف.. وتتحدث عن أمور مريبة تحدث في القرية الثانية..

القرية الثانية شماليّة خاوية على عروشها ملأى بأشخاص أغلقوا أبوابهم على أنفسهم، وكفوا عن مزاولة أعمالهم، ولا يعلم سوى الله من أين يطعمون ويشربون.. وكلهم مصاب بهذا الشحوب..

صحيح أننا كنا نراهم أحيانًا أو نزورهم. لكنهم قد فقدوا كل رغبة في العلاقات الودية معنا..

كأنهم صاروا آخرين..

ولم يكن في كل هذا ما يمكن إخبار السلطات به.. أو إخبار مكتب الصحة.. فمن حق الناس جميعًا ألا يكونوا ودودين..

لم تحدث حالات وفاة أخرى.. ولم نسمع عن أحداث عنيفة كالتي حدثت مع (مازورسكو) لهذا لم يكن هناك من يُقال..

إن الأمر شبيه بأن تبدي رأيك في رواية لم ترق لك... لكنّها جيدة من حيث الأسلوب واللغة والحبكة والشخصيات.. عندها يتقلص وجهك وتقول في عسر:

- «لكنّ شيئًا ما ليس على ما يرام.. شيئًا ما غير موجود.. هل تفهمون ما أعنيه؟»

كان ذلك حين قررت أن أرسل خطابًا إلى مجلة نسائية أعلنت أنها تحقق في الأمور الغامضة غير السياسية.. إنها مجلة يرأس تحريرها صحفى بدأ يلمع اسمه (جوستاف نيكولسكو).. في (رومانيا) فقط - على ما أعلم - يمكن لذكر أن يرأس تحرير مجلة نسائية.. وهذه من الأعاجيب التي أتحدث عنها..

لم أقل كثيرًا في خطابي، ولم أثرثر أكثر من اللازم، كما لم أتوقع لحظة استجابة من المجلة.. بل إنني نسيت الأمر كله..

حتى فوجئت بزيارة رجلين قادمين من (بوخارست)..

وكان هذا في منتصف أكتوبر..

* * *

- ٤ -

كانت سيارة (زاباروجيتس) فاخرة جدًا.. خرج منها رجل في منتصف العمر أنيق جدًا، فخيم المظهر، يدخن السيجار، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه، وكان يحمل حقيبة جلدية فاخرة..

أما الآخر فكان نحيلًا أصلع الرأس، يشبه القلم الرصاص ذا الممحاة، لو أنّ الأقلام الرصاص تضع العوينات..

قال الرجل الأنيق وهو يصافحني في تواضع:

- «مرحبًا.. لا بد أنك د. (يوليان بودسكو)..»

- «أنا هو..»

فالتفت إلى القلم الرصاص ذي الممحاة ليقول بالإنجليزية:

- «قلت لك إنني لم أخطئ العنوان..»

هنا فهمت سر مظهره الغريب.. إن القلم الرصاص أجنبي.. ولكن من أية جنسيّة بحق السماء؟ هاتان العينان الجاحظتان تقولان إنّه ليس أسيويًا.. لكنّ بشرته أقل سوادًا من الأفارقة.. وشفتاه أكثر غلظة من الأوروبيين.. أتراه من المريخ؟

صافحنى الرجلان.. وقال الأول:

- «أنا (جوستاف نيكولسكو)..»

شخصيًا؟! غريب هذا! رئيس التحرير آت بنفسه لدراسة الموقف؟ كنت سأجد الأمر طبيعيًا لو أرسل إليّ صحفيًا تحت التمرين أو صحفية متحمسة..

أردف وهو يقدم القلم الرصاص ذا الممحاة لي:

- «وهذا هو البروفسور (إسماعيل) من (مصر)..»

مصري؟ غريب.. إنّه لا يشبه المصريين كذلك..

- «هل وصلتك برقيتي؟»

- «للأسف إن خدمة البرق هنا.....»

- «أفهم.. أفهم.. لا عليك.. هل يوجد مكان للإقامة هنا؟»

ضربت أخماسًا في أسداس.. وقلت حائرًا:

- «الواقع لا.. إن داري صالحة على كل حال..»

تبادل النظرات مع صديقه.. كأنه يقول له (هؤلاء الفلاحون!)..

لكن صديقه كان يتابع الحديث بتلك العيون الزجاجيّة المميزة لمن لا يفهم اللغة التي يتم بها الحوار.. لهذا عاد يترجم له بالإنجليزية ما قيل.. ولم يبد القلم الرصاص سعيدًا بهذا..

لكنهما جاءا داري على كل حال.. وهي دار لا بأس بها أعتقد أنها أحسن دار في القرية..

تناولنا طعام الغداء، وعرفتهما زوجتي، وكنا حريصين على أن يدور الحديث بالإنجليزية حتى يفهمنا الطبيب المصري الذي عرفت أن له باعًا ما في علوم الميتافيزيقا.. ويبدو أن له شهرة عالمية ما..

وحكيت لهما القصة كاملة..

ثم استرخيت في مقعدي منتظرًا آراءهما..

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال د. (رفعت):

كان (بودسكو) بدينًا جدًا.. ربما أقرب للبقال الإيطالي كما نراه في الأفلام.. وبصعوبة يُمكنك أن ترى عينًا أو اثنتين، أو فمًا يتحرك وسط طبقات الشحم والعرق التي تغلفه.. كأنما عيناه وفمه ثقوب في كتلة من الزبد.. إنّه المعجزة الحية في البقاء حيًّا برغم كل هذا الدهن..

كان يتكلم بانجليزية رديئة ممزوجة بالرومانية.. لكنّ كلامه كان مفهومًا.. وإن كنت أتوقع في كل ثانية أن يسقط ميتًا..

ولنا حكى ما أثار ريبته في قريته هذه.. ثم طلب منا الرأي..

قلت في كياسة:

- «لا يمكن إبداء الرأي مالم ترَ أحد هؤلاء الشاحبين..»

قال وهو يهز رأسه في إصرار:

- «مستحيل.. إنهم لا يقابلون أحدًا..»

- «تعني أنهم لا يتسوقون، ولا يأتون لشراء (الأسبرين) منك؟»

- «إن لهم مجتمعهم الخاص كما قلت لك..»

تبادلت و(جوستاف) النظرات.. وقلت:

- «كأنه دين جديد.. دين ينفصل أتباعه عن المجتمع..»

- «دين الشاحبين إذا راق لك التعبير..»

هنا قال (جوستاف) وهو يشعل سيجاره:

- «دكتور (بودسكو).. نحن قوم عمليون نرغب الانتهاء من هذه القضية سريعًا.. لهذا يجب أن نرتب أمورنا على أساسين: الأول هو زيارة ذلك الجزء المعزول من القرية.. الثاني هو رؤية جثث من لقوا حتفهم وترتيب تشريحها تحت مظلة علمية أكثر كفاءة...»

قال (بودسكو) بصوت كالفحيح:

- «لن ترى أحدًا على الإطلاق.. كلهم في بيوتهم ولا يخرجون.. فقط حين يجيء المساء تسمع ضوضاء قادمة من هناك.. وبالطبع يخشى الجميع هاهنا تبين الأمر.. إن البقاء في الدار ليلًا جوار النار ليس فكرة رديئة جدًا كما ترون..»

فتح (جوستاف) حقيبته الجلدية الأنيقة، وأخرج كاميرا صغيرة ثم أعلن أنه يريد البدء بالتقاط صورتين للصيدلي..

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء.. فهو ككل شخص آخر يسره أن يظهر وجهه البدين في الصحف، ولعل الحظ يسعده فيراه (شاوشيسكو)..

قال (جوستاف) بعد ما انتهى:

- «هل نذهب الآن لرؤية القطاع الشمالي من القرية؟»

نهض الصيدلي معلنًا أنه موافق.. فلا يوجد ما يخشاه هناك في فترة الصباح والظهيرة..

ونهضت أنا شاعرًا بأنه من السخف أن أخاف شيئًا لا يخافه هذا الصيدلي المذعور كارنب..

* * *

راحت السيارة تشق شوارع (هالماجيو) الضيقة المرصوفة بالحجارة.. شمس العصر تغمر كل شيء بقيظها الذي يداعب في عينيك رغبة القيلولة.. والحر شديد برغم أنه أكتوبر..

الديار كلها مغلقة ولا أحد بالخارج.. لا طفل يلهو.. لا كلب يبحث بانفه في القمامة.. لا عجوز ينتظر في متجره مشتريًا لا يجيء..

الحق أنها كانت قرية الأشباح..

راح (جوستاف) يجوب الطرق بسيارته بسرعة جنونية.. يخرج من هذا إلى ذاك، ويعود من ذاك إلى هذا..

لا شيء.. خواء..

وأخيرا رأى فتحة الكهف الفاغرة إياها، عند قاعدة تل متوسط الارتفاع.. وكان من الطبيعي أن يتوقف بالسيارة هناك..

كانت الأرض منحدرة للوراء فجذب فرملة اليد محدثًا صوت (كريك ك ك!) الذي بدا غريبًا وسط هذا السكون..

ورحنا نرمق الكهف في فضول..

كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته، في محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول..

وعلى جانبي الفتحة كانت هناك كتابات بالطبشور، وقلوب متشابكة.. إلى آخر هذا الهراء..
تساءل (جوستاف):
- «ما هذا الكهف؟»
قال الصيدلي مفسرًا كل شيء:
- «هذا كهف..»
- «أعلم.. لكنّ ماذا تعرف عنه؟»
قلت أنا في ملل من اعتاد هذه الأمور:
- «القصة المعروفة.. ثمّة شيء ما يعيش بداخله.. لهذا يهاب الناس الدنو منه، ويرسمون علامة الصليب كلما رأوه.. والسر وراء ما يحدث في القرية موجود بين هذه الأحجار..»
هزّ الصيدلي رأسه البدين عدة مرات، وقال:
- «بالعكس.. لا توجد خرافات من أي نوع تحيط بهذا الكهف..»
كانت الرائحة الخارجة من الكهف عطنة جدًا، وأبدى (جوستاف) ملاحظة بهذا المعنى.. فقال الصيدلي:
- «هذا حق.. وهو سبب وجيه، ينفر الشباب من الدخول فيه.. إن الوطاويط لا تجيد أعمال النظافة كما هو واضح..»
- «إنها ليست رائحة كريهة فحسب.. بل هي رائحة شيطانية..»
ثم نظرت إلى (جوستاف) متسائلًا:
- «من الواضح أننا سندخل.. هل نفعل ذلك الآن؟»
- «لا بحق السماء.. لا بد من إعدادات.. لا بد من مسدسات وحبال وكشاف.. أنت تعرف هذه الكهوف..»
- «إذن ماذا سنفعل الآن؟»
- «نجرب قرع الأبواب..»
قالها وهو يغادر سيارته..

* * *

قرعنا الباب عدة مرات لكنّ أحدًا لم يرد..
على حين وقفت أنا على بعد خطوات أرمق نافذة الطابق الأول.. قد لا يفتح أحد الباب، لكنه حتمًا سيتلصص علينا من عل..
وكنت محقًا.. فقد رأيت وجه امرأة عجوز ذات شعر أشيب ترمقني من وراء زجاج النافذة.. ولوهلة التقت عينانا، ثم رأيتها تغيب داخل الحجرة المظلمة..
عاد (جوستاف) يضرب الباب مرارًا.. ثم إنّه سأل الصيدلي:
- «منزل من هذا؟»
- «منزل (ماريا كالسكا).. أم الفتاة التي لقيت حتفها..»



كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته ، فى
محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول ..

- «إذن دعنا نجرب بابًا آخر..»

واتجهنا في صمت - وشمس العصر تحرق عيوننا، ولا شيء سوى صوت لهائنا - إلى باب مجاور... فواصلنا قرع الباب..

قال الصيدلي باسمًا:

- «لا جدوى هناك.. أنا فعلت هذا قبلك مرارًا..»

هتف (جوستاف) في جنون:

- «لكنّ لا بد من وسيلة لإرغامهم على فتح الباب.. قوة من الشرطة على سبيل المثال أو.....»

- «لا يوجد خطأ قانوني في أن يأبى المرء فتح بابه..»

لكنّ - قبل أن يرد (جوستاف) - كان الباب قد انفتح..

وسمعنا من يدعونا إلى الدخول..

* * *

- ٢ -

كانت الرائحة العطنة تزكم أنوفنا.. لكننا دخلنا..

وفي الداخل كان الظلام دامسًا..

احتجنا إلى بعض الوقت حتى تتكيف شبكيات عيوننا، وحتّى تتخلص من مئات الشموس الملونة التي راحت تطبعها على كل شيء..

أخيرا رأينا أسرة من ثلاثة أفراد تجلس على منضدة في الظلام، وكان هناك شبح طويل القامة يعود ليتخذ لنفسه مقعدًا.. فعلمت أنّ هذا هو من فتح لنا الباب..

- «ماذا تبغي يا (يوليان)؟»

قالها الشبح الطويل بصوت مبحوح.. طبعًا لم أفهم ما قال، لكنّ (جوستاف) هو من ترجم لي الحوار بعد ذلك..

كانوا في الظلام فلم أستطع رؤية وجوههم.. لكني لم أحب كثيرًا تلك الظلال المميزة لهم.. كما أنني لم أحب ذلك الصوت المتحشرج..

سأنقل لك المحادثة كما ترجمها لي (جوستاف) فيما بعد..

قال (يوليان):

- «(ميخائيل).. ماذا دهاكم جميعًا؟ هل أصابكم الجنون؟»

قال (ميخائيل) الذي عرفت أنه الشبح:

- «لم يحدث ما يدعو لحيرتك يا صديقي.. أنت ترانا بخير..»

- «بل صرتم في عالم آخر غير عالمنا..»

- «ليس حب الانعزال جريمة..»

- «ربما كان مرضًا..»

قال (ميخائيل) وهو ينهض..

- «أنا أحبك أيا (يوليان).. ولهذا أنصحك كل النصح ألا تفتش عن الحقيقة كثيرًا.. فالحقيقة أكبر منا جميعًا.. وأنصحك كذلك ألا تأتي ها هنا ليلًا..»

تلفت (يوليان) حوله بحثًا عن شخص غير موجود.. وتساءل:

- «أين (إيزبيا)؟»

قال (ميخائيل) بنفس الصوت:

- «(ايزبيا) ماتت يا (يوليان).. منذ شهر..»

كان هذا حين علمنا ـ فيما بعد ـ أن (إيزبيا) هي زوجة الرجل.. ويبدو لسبب ما أن الخبر كان غير معقول، لأن (يوليان) راح يردد في هستيريا وذهول:

- «ماتت! (إيزبيا) ماتت؟ وكيف لم نعلم؟»

- «إن الموت يحدث.. ولا يجدي إخفاؤه أو اعلانه..»

- «وأين دفنتموها إن لم يكن في الكنيسة؟»

- «قلت لك يا (يوليان) إننا لم نعد ننتمي لكم.. ليس مأكلنا مأكلكم ولا مشربنا مشربكم، ولا ديننا دينكم، ولا قبورنا قبوركم!»

هنا تدخل (جوستاف) في هذه المحادثة الرومانسية الشائقة، التي لا أفهم منها حرفًا سوى الإيماءات والنظرات..

قال (جوستاف):

- «ليس هذا سهلًا في دولة مثل (رومانيا).. لا أحد يستطيع أن ينفصل عن المجتمع مكونًا مجتمعًا جديدًا.. إن مخالب السلطة في كل مكان وداخل كل شقّ في الصخور.. حتى الجثث في قبورها خاضعة للرفيق (شاوشسكو)..»

سمعت لفظة (شاوشسكو) ففهمت أن في الأمر تهديدًا ما..

قال (ميخائيل):

- «حتى رفيقك (شاوشسكو) لن يستطيع الوصول إلينا الآن.. فنحن في عالم آخر بعيد عن كل ما تخافونه..»

ثم أشار إلى الباب إشارة صامتة..

قال (يوليان) وهو ينهض:

- «أخشى يا (ميخائيل) أننا مضطرون لإبلاغ السلطات في (بوكوفينا).. وليس هذا ضدّ حق الجيرة بل هو معه..»

وفي صمت مشينا إلى الباب وسط الظلام..

صوت أخشاب الأرضية يئن تحت أقدامنا..

ولحسن الحظ لم يفعل أحدهم ما كنت أخشى أن يفعلوه.

مثل ماذا؟

مثل قتلنا طبعًا!

* * *

في دار الصيدلي؛ تناولنا طعام العشاء..

كانت على الحائط ساعة عتيقة من العصر الباليوزي، من التي تجلب الأشباح وتوشك دقاتها على إيقاظ الموتى.. بينما كانت هناك فوق رف المدفأة أيقونة للسيدة العذراء.. وصليب كبير جدًا.. وبضع صور للمرحومة خالة والدته..

وكانت الزوجة بدينة جدًّا كزوجها.. لكنّها صموت تبتسم في تحفظ طيلة الوقت.. وكان طهيها رديئًا على عكس كل البدينين الذين يجيدون الطهي غالبًا..

إن الطعام الروماني جيد وقريب جدًا من طعامنا.. الأمر الذي يؤكد لك أن طهيها كان سيئًا حقًّا..

قال (جوستاف) وهو يجرع ما بقي في كأسه:

- «بعد العشاء سنعود إلى الشاحبين!»

كان هذا كافيًا كي يتوقف الطعام في حلقي.. ورحت أسعل فناولني لكمة بين لوحي كتفي وكوبًا من الماء.. ثم قال:

- «هذا هو الحل الوحيد كي نكمل مهمتنا التعسة.. نحن نعرف أن شيئًا مريبًا يحدث ليلًا.. ما هو؟»

قال الصيدلي وهو ينزع المنشفة من عنقه:

- «في هذه الحالة أنا لن ألحق بكم.. آسف..»

- «هذا حقك يا صديقي.. لكننا في حاجة إلى بعض الأشياء..»

ثم راح يعد على أصابع يديه:

- «أولًا: نحتاج إلى كشاف.. ثانيًا: نحتاج إلى حبل.. ثالثًا.....»

هتف الصيدلي غير مصدق:

- «أنت لن تدخل الكهف الآن!»

- «لم لا؟ سنحاول لو وجدنا فرصة ما.. ثالثًا نحتاج إلى سلاح.. إن معي مسدسي..»

قلت أنا دون حماس:

- «مسدسي معي أيضًا..»

- «هذا رائع.. هيا بنا..»

طبعًا حاول الصيدلي إقناعنا لكننا - أعني (جوستاف) - لم نبد على استعداد للين.. ولكم تمنيت لو أنّ هذا الرجل يملك القدرة على الإقناع!

غريب أمر (جوستاف)!

لقد عرفته دومًا شخصيّة ذكية، لكنّها أقرب إلى الخفة والافتقار إلى الصرامة.. لكنّ ترقيه في المناصب والسن جعله شخصيّة كاسحة تتعذر مقاومتها.. وصار أكثر شجاعة وحزمًا..

إن الشخصية لكيان غير مفهوم.. هل حقًّا ذلك القائد الهمام هو ذات المتردد بطيء الفهم الذي عشت معه قصة المذءوب إياها؟

وجلب لنا الصيدلي ما طلبنا، وتمنى لنا حظًا سعيدًا، ورجانا ألا نتهور أكثر من اللازم.. فلا أحد يعرف على وجه اليقين ما يمكن أن نجده.. ولم تكن لدى أية نية للتهور على كل حال..

وفي العاشرة مساء انطلقنا إلى الجزء المعزول..

* * *

- ٣ -

- «الآن نترجل..»
قالها (جوستاف) وهو يوقف محرك السيارة..
لم تكن لديَّ نية من أي نوع لمغادرة السيارة.. فهي تبدو كبيت آمن دافئ، والليل قد صار أبرد.. والظلام صار أكثف..
- «هل لا بد من تركها؟»
قال في غيظ:
- «هل تمزح؟ هدير محرك سيارة وكشافاتها وسط هذا السكون والظلام؟ إن الموتى سيغادرون قبورهم مذعورين»
وغادرنا السيارة؛ بعد ما أوقفها (جوستاف) في زقاق مظلم من أزقة القرية المتشابهة كلها والمرصوفة ـ دائمًا ـ بحجر الإسكافي..
- «هل الحبل معك؟»
- «وهل الكشاف معك؟»
- «إذن نحن مستعدان..»
وانسللنا صامتين كاللصوص عبر الأزقة، لا نهتدي إلا بضوء خافت من آن لآخر لمصباح باهت في طريقنا..
لكن صوت الصخب كان يخبرنا أننا لم نضل الطريق..

* * *

أي مشهد رهيب رأيناه!
كنا ندنو من النيران الملتهبة التي أشعلوها في وسط الشارع.. والتي تعلو إلى عنان السماء، والتي يمارسون حولها نشاطًا لا أدري كنهه.. يتخلله صخب غير معتاد..
وهمس لي (جوستاف):
- «لا تدن.. تعال نتوار..»
ووجدنا وراءنا بيتًا بابه موارب.. واضح أن صاحبة قد غادره متعجلًا كي يلحق بهذا الاحتفال..
ولم نتردد.. دخلنا الباب إلى الداخل المظلم عطن الرائحة.. أين شممت هذه الرائحة من قبل؟ آه.. في الكهف طبعًا..
كانت هناك درجات سلم متآكلة تقود إلى طابق ثان.. ومن هناك تغدو الرؤية أفضل..
صعدنا في الدرج الذي لم يكن يحدث صريرًا.. ومن النافذة كان وهج النار يغمر القاعة بضوء ذهبي رقراق؛ يسمح لألف خاطرة مروعة بأن تولد...
نظرت إلى الوراء في ذعر وتحسست مسدسي.. لا أحب كثيرًا أن أجد صاحب الدار يقف وراءنا فجأة.. متى سيعود؟ هل سنشعر به؟

ثم كتمت خواطري ودنوت من النافذة، ورحت و(جوستاف) نرمق المشهد راكعين على ركبتينا..

كان المشهد عامّة يوحي بطقوس ما..

للدقة أكثر كان يوحي بطقوس الخصوبة كالتي يذكرها من رأوا فيلم (رجل الخيزران).. هذا الجو الهمجي الوثني الذي يجمد الدم في العروق.

كانوا يدورون دون كلال حول النار المشتعلة في وسط الشارع.. نار مضرمة في ما تيسر لهم من أخشاب وإطارات قديمة..

رجال ونساء كلهم شاحبو الوجوه إلى حد يذكرك بحرباء مذعورة.. وقد اكتسبت وجوههم المتألقة في النيران طابعًا مرعبًا يوشك أن يكون سينمائيًا..

وفي السماء ترددت الأهازيج التي يترنمون بها..

- «ماذا يقولون يا (جوستاف)؟»

- «لا أفهم حرفًا..»

لا يفهم حرفًا مما يغنون.. لكنهم يغنونه بحماس...

وأدركت من موقعي أن ثمّة ما ليس على ما يُرام في مظهرهم...

الشحوب؟ لا.. لا.. شيء آخر..

من هذه المسافة البعيدة وبرغم وهن بصري أرى شيئًا ما خطأ..

إن وجوههم متأكلة مهترئة.. وأنوف بعضهم بدأت تتساقط.. هل الجذام؟ لا.. لا يبدو الجذام هكذا..

وسرت قشعريرة في عمود الفقري..

إن هؤلاء القوم يتحوّلون إلى مسوخ..

* * *

وتذكرت مشهدًا مماثلًا لهذا في (جامايكا).. منذ أعوام طويلة.. سحرة (الفودو) كانوا ملتفين حول شاب، يقومون بتحويله إلى (زومبي).. (كوديكا).. (كوديكا)..

رباه! إننى أسترجع ذات الشعور المقيت بكل تفاصيله..

ويسقط القلم من يدي..

* * *

ولم يكن الشاب الذي يلتفون حوله مقيدًا إلى عمود هذه المرّة.. كان معلقًا من قدميه كالذبيحة.. وأدركت أنه حي.. وأنه مذعور.. وأنه يتلوى محاولًا الفرار حاسبًا ـ ذلك الأحمق ـ أن مجرد الإصرار كاف لقطع حبل غليظ كهذا..

همس (جوستاف):

- «بحق السماء! من هذا؟»

ـ «إنّه القربان الدموي لهذا الحفل الوثني.. هذا واضح...»
آه لو لم يكن ذلك الشعور الجهنمي بأن هناك من يراقبني!

* * *

هو ـ الذي يمشي في الظلال ـ يراك ويسمعك الآن..

* * *

هو ـ الذي يمشي في الظلال ـ يعرف أنك هنا..

* * *

هو ـ الذي يمشي في الظلال ـ لا يعرف معنى الأعذار...

* * *

كانوا يتصرفون في سلاسة ويسر كأنهم فعلوا ذات الشيء مرارًا..
أولًا: دار عليهم من يحمل صينية عليها عدد كبير من الكئوس الزجاجيّة الفارغة.. فأخذ كل واحد كأسًا..
ثانيًا: دنت امرأة عجوز شعرها أشيب ـ لا أستبعد أنها من كان يرمقنا من النافذة ـ حاملة مدية صغيرة..
ثالثًا: بالمدية أحدثت جرحًا في عنق الشاب المعلق...
رابعًا: راح كل منهم يدنو بالكأس ليفعمه من الدم المتساقط.. كانوا يقومون بهذا وهم يتحركون على شكل دائرة.. كل يملأ كأسه مرة.. ويجرعه مرة واحدة.. ثم يتحرك في الدائرة بينما يتلوه آخر..
إن الإنسان يحوي خمسة لترات من الدم.. والكأس يسع مائة سنتيمتر مكعب.. أي أنّ هناك دمًا يكفي لملء خمسين كأسًا.. ولما كان عددهم يقرب من الثلاثين؛ فقد قدرت أن ثلثيهم ـ من سعداء الحظ ـ سيملئون الكأس مرّتين..
حسبة صغيرة كانت نتيجتها أنني تحسست جيبي، حتى وجدت زجاجة أقراص (النيتروجلسرين) فدسست واحدًا تحت لساني..
أما (جوستاف) فقد تصلب كتمثال (آياح حتب)..
لحظات ثم سمعت الـ (أوع) المميزة المألوفة.. بعض الناس لا يملكون قلوبًا واهنة، لكنّ لهم معدة أوهن..
وحين استعاد قدرته على الكلام هتف:

- «(رفعت)! إنهم غيلان!»

* * *

- ٤ -

هو - الذي يمشي في الظلال - سيعود وينتصر..

* * *

لماذا يفعلون ذلك؟

إن كثيرين يصابون بفقر الدم.. لكنّ شرب الدم لم يكن يومًا من الأساليب المحببة لعلاج هذا المرض..

إنه احتفال قائم على تصفية دماء هذا الشاب ثم شربها.. وهو - بحق - أسلوب غير معتاد.. لعل امتصاص الدماء أكثر احترامًا واتفاقًا مع التقاليد.

أما ما حدث بعد ذلك فكان غير معتاد بدوره...

لقد أسكرتهم الدماء! تحولوا إلى مجموعة من السكارى المعتوهين يتطوحون يمينًا ويسارًا ويحدثون صخبًا.. وبعضهم راح يرقص رقصة خرقاء غير متسقة.. أو يقوم بحركات بهلوانية لا معنى لها..

قال (جوستاف) غير مصدق:

- «بل هم مجانين كذلك!»

- «أظن أنّ هذا أمر مفروغ منه..»

ومن جديد عاودني الشعور السابق بأنني مراقب.. نظرت إلى الوراء.. لم تكن الحجرة مظلمة تمامًا بفضل ضوء اللهب.. ولم يكن هناك ما يخيف سوي قطع الأثاث القديمة..

لكني شعرت بتلك الغريزة الملحة تقول لي: أهرب! اهرب، كأن الجحيم يطاردك؟

قلت لها: كفي سخفًا.. فأنت تجعلين منى جبانًا..

قالت في نفاد صبر: وهل كذبت عليك من قبل؟!

الحق أن لا.. وهكذا قلت لـ (جوستاف):

- «أعتقد أن الوقت قد حان للفرار..»

- «لكننا لم نفهم شيئًا ولم ندخل الكهف..»

- «لا أظن أنهم سيعطوننا فرصة لمحاولة هذا.. لو أردنا العودة فليكن هذا صباحًا ومع آخرين..»

فكر قليلًا ثم رأى أن الصواب هو ما قلته.. قال وهو يبتعد عن النافذة:

- «لا بأس.. من يدري؟ لربما عدنا بقوات من الجيش.. فهذا المكان يستحق الحرق بقنبلة ذرية..»

ولاهثين ككلبين في يوم حار؛ رحنا نهبط في الدرج قاصدين الباب الخارجي.. ومد (جوستاف) يده ليفتحه...

لقد تأخرنا أكثر من اللازم..



دنت امرأة عجوز شعرها أشيب - لا أستبعد أنها من
كان يرمقنا من النافذة - حاملة مدية صغيرة ..

ليتنا فعلناها منذ دقيقتين أو أكثر..
كان صاحب الدار عائدًا إلى داره لغرض ما..
وحين فتح الباب ورأى وجهينا اتسعت عيناه ذهولًا..
وسمعته يقول شيئًا ما بصوت كالفحيح..

* * *

- ٥ -

كانت ملامحه واضحة بصعوبة في الضوء الخافت، لكني - بطريقة ما ـ كنت أرى عينيه تلمعان في الظلام كجمرتين..

وأدركت - والقشعريرة تغمر جسدي ـ أنّ هذا المخلوق يرى في الظلام بشكلٍ جيّد جدًا..

ولم يكن أمامنا وقت للتردد أو البحث عن حل أمثل.. حياتنا تتوقف على العنف ولا شيء سواه..

وهكذا ـ في اللحظة ذاتها - ركلت الرجل في أسفل بطنه.. بينما هوى (جوستاف) بيده المتشابكتين على مؤخرة رأسه.. وحين تداعى الرجل للأرض ركله (جوستاف) بين أضلعه بحذائه الفاخر الغليظ..

مددت يدي إلى قداحتى فأشعلتها وقربتها من وجه الرجل، لأتبين ملامحه حيث تمدد على الأرض فاقد الوعي..

وهمست:

- «رباه! إنّه لا ينتمى للبشر!»

وهمس (جوستاف):

- «مسخ!»

كانت أذناه متآكلتين وأنفه مجدوعًا.. أمّا بشرته الشاحبة كهذه الورقة فكانت ملأى بالقروح.. ومن بين شفتيه سال خيط من الدماء.. ليست دماءه طبعًا.. لكنه ـ ولله الحمد - لم يكن ذا أنياب..

- «هل هو مجذوم؟»

سألني (جوستاف) وهو يرتجف..

قلت وأنا أطفئ نور القداحة كي يذهب هذا المسخ بعيدًا:

- «لقد رأيت مجذومين كثيرين في حياتي.. ويمكنني أن أؤكد أنّ هذا لا يمت لهم بصلة..»

وفتحت الباب أكثر كي يتيح لنا الخروج، ورفعت قدسي لأعبر فوق الجثة.. حين... إن هذه الأشياء تحدث دائمًا في هذه المواقف..

لقد شعرت بيدين من حديد تتشبثان بكاحلى..

ثم تحررت يد منهما كي تمسك بكاحل (جوستاف).

لقد أفاقت ضحيتنا وتشبثت بساقينا كمصايد الدببة.. وسرعان ما تعثرت وسقطت على الأرض، بينما راح (جوستاف) يواصل الركل محاولًا ألا يفقد توازنه...

لكن الرجل الساقط على الأرض كان قويًا أو منحه الغضب قوة.. وقد راح يمسك بنا وهو يُطلق صرخات عاتية كأنه عربة إسعاف مصابة بسرطان الحنجرة..

اخرس.. عليك اللعنة! اخرس!

لو كانا رجلين سوانا أنا و(جوستاف) - طبيب وصحافي - لعرفا كيف يخرسان هذا المستغيث.. لكننا لم نجد حلًا أو منعنا الرعب من إيجاد حل..

وإن هي إلا لحظات حتى انفتح الباب تمامًا..

ولمحنا في الظلام ـ لأن اللهب كان وراءهم - عشرة وجوه على الأقل من وجوه هؤلاء القوم..

كان بعضهم يحمل العصا.. وبعضهم يلوح بسكين هائلة.. واثنان كانا يمسكان بمنجل من هذا الذي لا تراه إلا في يد الموت على ورقة (التاروت) إياها..

مد (جوستاف) يده إلى مسدّسه وشهره في وجوههم وهو يرطن بالرومانية مهددًا بالتأكيد...

قلت له وأنا أنهض من عثرتي، وقد تراخت قبضة الرجل:

- «لا يا (جوستاف).. لا! لن تنال منهم سوى اثنين أو ثلاثة ثم يمزقتنا الباقون إربًا.. لا يبدو أنهم يخافون شيئًا..»

قال أحدهم شيئًا ما، ثم دخل إلى المنزل المظلم.. وكما توقعت تمامًا انتزع المسدس من يد (جوستاف) دون أن يتردد لحظة..

لا أدري متى ولا كيف أخرجونا من المنزل..

كانوا يهددوننا بأسلحتهم الفطرية، وهم يقتادوننا إلى النيران التي تزداد تأججًا..

ووجدت نفسي واقفًا على بعد أمتار من الجثة المتدلية، التي كفت عن الاحتضار منذ دقائق..

كنت أتمنى أن أمتع القارئ أكثر، فأقول إنهم مزقونا إربًا أو ألقوا بنا في النار.. لكني مازلت حيًّا أحكي هذه الأسطر.. إذن لم أمت لكني دنوت من ذلك جدًا للأسف..

وكما أقول دائمًا في قصصي: ليس المهم ما حدث.. المهم كيف حدث؟

ماذا كنت أقول الآن؟

آه! وجدنا نفسينا نقف جوار النيران، بينما هؤلاء القوم يحيطون بنا.. وفي ضوء اللهب أدركت أن ظاهرة التآكل عامّة..

إن قرية (هالماجيو) تمر بأشنع تحول مسخي يمكن وصفه..

ونظرت إلى (جوستاف) الذي وقف محتفظًا بوقاره.. وقد راح يتكلم معهم بالرومانية.. على الأقل هم لم يفقدوا فهمهم للغة بعد..

إن لغة الإيماءات والنظرات تفسر ستين بالمائة من هذه المحاورة:

- من أنتما أيها الدخيلان؟ كيف تعديتما على حفلنا الديني؟

- أنا صحافي من (بوخارست) ولي اتصالات مهمّة.. وثقوا أن (السكيوريتاتيا) لن تتركني دون بحث محموم عني...

- هاها! لا أحد يعرف أنكما هنا.. ونحن لم نعد تحت سيطرة أحد..

ثم تدخل رجل تعرفت صوته المبحوح دون جهد.. إنه (ميخائيل) زوج (إيزبيا) الذي كنا عنده صباحًا..

لغة الإيماءات والنظرات: ألم أقل لكم أن تتركونا وشأننا؟

- «هل تعرفهما يا (ميخائيل)؟»

- «إنهما كانا في القرية صباحًا مع الصيدلي (يوليان)..».

هنا التفت لي (جوستاف) وبدأ يترجم ما قيل.. قلت له في نفاد صبر:

- «دعك من هذا.. كل هذا مفهوم.. ماذا ينوون عمله معنا؟»

- «لم يتفقوا بعد.. ظننتك فهمت هذا أيضًا..»

ثم همس في خطورة:

- «إنهم لا ينادون بعضهم بالأسماء العادية.. بل يستعملون ألفاظًا ونعوتًا مثل (شيطان الظلام) و(زهرة القبور) و(نهر النار).. بل إنهم يسمون القرية كلها باسم (إنفرنوس)»

(انفرنوس) هو الاسم اللاتيني للجحيم.. وهو مألوف لمن قرأ (الكوميديا الإلهية) للإيطالي (دانتي)...

بانت المرأة العجوز التي لا أستبعد أن تكون لعبت المساكة يومًا مع (خفرع).. وكانت تحمل في يدها كتابًا سميكًا مهترئ الصفحات لكنّ له هيبة كتب الصلوات، وعلى غلافة لمحت الرمز العتيد، الصليب المقلوب.. إذن فالأمر هكذا..

ورأيتها ترفع يدها اليسرى التي تشقق جلدها وتآكل.. قبضة مضمومة يبرز أول وآخر إصبع منها.. وهو الرمز العتيد الآخر الذي أعوذ بالله من تفسيره.. قبضة الإلحاد..

كانت تتكلم وتتكلم بصوت رفيع جهوري.. وأدركت أنها الكاهنة العظمى في هذا المجتمع الغريب..

قال (جوستاف) متابعًا كلامها جملة فجملة:

- «إنها تقول إننا مرغمان على الانضمام إلى هذا المجتمع، والتخلص من خطايانا للأبد.. إنها تسمي نفسها (الروح الكبرى)، وتقول إننا سنغدو أخوين من إخوة الدم في هذا الجمع.. لا توجد فرصة للخيار؛ لأن هناك سبيلًا واحدًا هو الموت.. تقول إن (المعلم الأكبر) قادم عن قريب.. عندها يندم الخطاة الذين لم يقاوموا كبرياءهم.. والذين تقلصت وجوههم اشمئزازًا عندما لمس كأس الدم شفاههم، والذين أفرغوا أمعاءهم عندما طلب منهم التهام الفئران!»

واضح أن (جوستاف) مترجم ممتاز..

واضح أنه لم يختلق أية عبارة من خياله..

تأكدت من هذا حين قدموا لي الكاس المترع بالدم.. وحين رأيت الدعوة في عيونهم.. وحين سمعت (جوستاف) يقول:

- «إنهم ينتظرون منك أن تشرب!!»

* * *

حكاية الروح الكبرى

تحكيها هي نفسها

- ١ -

قالت (إيرما كالسكا):
لم يعد من حقي أن أسترجع الماضي.. أو أذكر نفسي باسمي القديم قبل أن أنال كهنوت الدم؛ لكني مضطرة لذلك ما دمت بصدد سرد القصة منذ بدايتها..

* * *

هو - الذي يمشي في الظلال - يعلم أنني أقول هذا مرغمة..
هو.. المعلم الأكبر.. خريولسن.. كل هذا يعني الشيء ذاته.. وهو قد سمح لي بالكلام.. لهذا أتكلم..

* * *

قبل الرؤيا كنت أمًّا لطفلين، وأرملة في الخمسين من عمري.. صحيح أنني أبدو في الثمانين لكل من يراني، لكنّ ما ذنبي؟ لقد تضافرت على شبابى نوائب الزمن وخطوبه، وتركت كل نائبة جرحًا لا يزول على وجهي.. حتى قيل إن خارطة الطرق في (رومانيا) مرسومة على ملامحي بدقة مذهلة!
أورثوذكسية متدينة، أقرأ في الإنجليل كل ليلة، وأشعل الشموع في الكنيسة، وأبكي أمام تمثال (مريم العذراء).. كان هذا قبل الرؤيا طبعًا.. وقبل أن يتخذ مني هو - الذي يمشي في الظلال - كاهنته العظمي..
كان لي طفلان جميلان.. (إيرينا) المراهقة الحسناء، التي يحلم بها نصف شباب القرية، ويتمناها النصف الآخر.. و(فالستا) الطفلة التي ستكون (إيرينا) يومًا ما..
رباه! يا لها من حياة!
تربية طفلين دون دخل تقريبًا.. الفقر.. الفقر... كلما ازددت فقرًا، كلما ازددت انحناءً، وازداد وجهي تجعدًا، وخلا فمي من أية أسنان..

* * *

والآن نقف جوار النيران نرمق المتطفلين..
كانا رجلين من (بوخارست).. أحدهما تبدو عليه أمارات الثراء والثقة بالنفس.. أمّا الآخر فهو أوسم مخلوق وقعت عيناي عليه.. إنّه نحيل يضع العوينات مما يعطيه سمتًا مهذبًا متحضرًا.. وأصلع الرأس، وأنا أحب صلع الرأس في الرجال لأنّه يوحي بالنضج والنظافة..

لم يعد سني ولا منصبي يسمحان بالوقوع في الحب.. لكني لو فعلت لكان هذا المصري الجميل أول من أختار...

نعم هو مصري.. صاحبة قال إنّه طبيب مصري.. وقال عن نفسه إنّه صحافي كبير من (بوخارست)..

لا يهم هذا.. نحن لم نعد ننبهر بالمناصب الدنيوية..

إنهما سينضمان إلى الشاحبين الآن ما داما قد جاءا.. غير مجبرين، غير مخدوعين، غير مغرر بهما..

«بكامل إرادتهما الحرة جاءا» كما يقول مصاصو الدماء..

* * *

هو - الذي يمشي في الظلال - اختارني ذات ليلة..

* * *

لم تكن لي أية علاقة بالموضوع حتى شهر (مايو) الماضي..

كنت أقضي وقتي في تخليل البصل، وصنع السلال بغرض بيعها.. كما أنني كنت أخيط ثياب الأعراس مقابل أجر..

وكانت (إيرينا) تساعدني تارة وتتهرب مني تارة.. من العسير أن تقنع فتاة مراهقة بأن مسئولية البيت تمنعها من المرح، وزيارة أترابها، واللعب في المرج وصيد اليعاسيب، أو قطف الزهور كي تدسها خلف أذنها كما تفعل بنات (هاواي) في الصور...

الحق أن (إيرينا) كانت بارعة الحسن.. والفتاة المراهقة قد تكون عسيرة في تربيتها، لكنّ المراهقة الحسناء مستحيلة..

كنت بحاجة إلى رجل بجانبي.. رجل له عينان ينبعث الشرر منهما، وله (شخطة) ترتج لها جدران المنزل وقلب (إيرينا)..

ولم يكن هناك رجل يصلح سوى (بيلاسكو)..

(بيلاسكو) جاري الذي توفيت زوجته منذ عام.. وهو مدرس في مدرسة القرية.. أصلع الرأس نحيل.. أي أنه فتى الأحلام.. ومن الطبيعي جدًا أن يطلب يدي.. فهو أرمل وأنا أرملة.. وبيتانا متلاصقان.. ولديه ولد ولدي ابنتان..

لكن الأحمق لم يبد قط أية رغبة للزواج من أي نوع.. فقط كان يتردد على الدار مساء ليجلس ويثرثر ويشرب بعض (الروم)، ثم يقول:

- «إن الحياة القاسية يا (إيرما كالسكا).. كل هذه الوحدة...»

ويسكب ما بقي من القدح في حلقه.. وينهض..

فقط لاحظت في الآونة الأخيرة أنه يزداد شحوبًا..

كان يجيء داري ليلًا.. وفي كل ليلة كان يبدو أقرب إلى لون الليمونة الناضجة أكثر فأكثر..

سألته في ذات ليلة.. وأنا أرشف من شراب عطر الرائحة أهداه لي:

- «هل أنت مريض يا (بيلاسكو)؟»

بدت عليه الحيرة.. ثم سألني عن السبب.. قلت وأنا أعيد الكوب لموضعه:

- «يقولون إنك لم تعد تغادر دارك.. لم تعد تغادر غرفتك.. ثم هذا الشحوب.. وهذه الرائحة.. بحق (مريم العذراء) أشعر كأنك تتعفن حيًا!»

قال وهو يهز رأسه كمن يطرد خاطرة ما:

- «لا شيء من هذا يا (إيرما).. إنها الوحدة لا أكثر.. أحوالى سيئة وأشعر بأنني لست على ما يرام... أنت تعرفين أن الصحة والنظافة مرادفان للسعادة.. الاكتئاب يجعل المرء شاحبًا قليل الاستحمام..»

ورأيت الدمع في عينيه فربت على كتفه..

كان يرتجف.. ورفع عينيه نحوي.. وهمس:

- «هل الفتاتان هنا؟»

- «هما عند خالتهما هذا المساء..»

وقبل أن أفهم ما يحدث أنشب أسنانه في ساعدي! كان هذا آخر ما توقعت.. وأطلقت صرخة هائلة، لكنه كان قد أطبق على الساعد في عنف.. وسالت الدماء و...

ملحوظة د. (رفعت): نظرًا لأنني أكره العنف فقد حذفت وصف هذا المشهد الدموي - الذي يستغرق صفحة من حديث المرأة - وأكتفي بالقول بأن (بيلاسكو) امتص دماء (إيرما) بالكامل.. وأنها في البداية قاومت بعنف، ثم لم تعد تجد الأمر سيئًا إلى هذا الحد.. كان يقودها إلى نوعٍ من الخدر اللذيذ.. كأنها تخطو إلى النوم بعد يوم من العناء..

تقول (إيرما كالسكا):

- «حين غبت عن الوعي كان صوت (بيلاسكو) الرخيم يتردد في ذهني، يقول ضاغطًا على مقاطعه:

«انت لن تموتي أي (إيرما كالسكا).. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها ستلفظين خطايا الماضي..»

وحين صحوت من نومي عرفت أنني صرت منهم..».

* * *

يا للنور! يا للضوضاء؟

أنا لم أعد منكم يا حمقى.. إنني أقرب إلى شاعر مرهف الحس يبغى نظم قصيدة؛ لكنّ الغوغاء لا يريدون تركه في حاله...

كانوا يقرعون الباب على طيلة اليوم.. يتساءلون.. يضيئون الأنوار.. يتأملون وجهي..

لكني كنت أصرخ فيهم غاضبة.. دعوني وشأني.. أريد الجلوس في الظلام المقدس حتى يأتي الوعد..

وكانوا يقدمون لي طعامًا رديئًا جدًّا.. لكني كنت قد وصلت إلى حقيقة لم أسغها قط من قبل: إن لحم الفئران وخشاش الأرض ليسا بهذا السوء..

لم يأت (بيلاسكو) قط ليراني..

لكني كنت أسمع صوته طيلة الوقت في ذهني:

- «هو - الذي يمشي في الظلال - ينتظر.. ينتظر حتى نغدو كثيرين ونسود.. عندئذٍ نتحرك.. وعندها يغدو المجد لنا.. أمّا الآن فلنبق حذرين منطوين نتحين الفرص..»

كانت (إيرينا) تزورني وتسألني في لهفة:

- «أماه.. ماذا دهاك؟»

لكني كنت أبعدها عني في غلظة..

وقد جلبت لي في يوم من الأيام علبة من أقراص الحديد؛ ابتاعتها من الصيدلي المخبول (يوليان)، لكني لم أمسسها.. ليس فقر الدم هو ما أعانيه.. إنّه الجوع للدم ذاته!

نعم.. كنت ظامئة للدم.. ولم يكن ما ذقته منه كافيًا في الهوام التي أنجح في الظفر بها، ولم أجرؤ قط على أن أطلب من (إيرينا) ذبح خنزير وجلب دمه لي..

كنت أتعذب.. وأتمزق، لكني تحاملت على نفسي أيامًا طويلة..

وكنت أعرف ما سيحدث.. لهذا أرسلت (فالستا) لتقيم عند خالتها.. وحاولت إقناع (إيرينا) البلهاء لكنّها أصرت على أن تظل معي، وأن تنفق على (اللايات) المعدودة التي حصلت عليها من خالتها..

وفي النهاية كان الظمأ قد بلغ بي أعتى مبلغ...

لهذا.. شربت دماء (إيرينا)..

* * *

حسن.. ثمّة رجل يُدعى (ميكيافللي) - ويبدو أنه روسي[2] - حكى لي القس عنه يومًا ما.. يبدو أنه قال (الغاية تبرر الوسيلة).. ولم أفهم معنى العبارة لكنّ القس قال لي إن المقصود بها: لو كانت أهدافك معقولة فمن الممكن أن تفعل أي شيء..

حسن.. أنا لم أعد أطيق القس ولا الكنيسة.. لكني أعترف له بأنه ثقفني كثيرًا.. وكانت هذه العبارة هي التبرير الذي وجدته حين أنشبت أسناني في عنق (إيرينا) في غرفتي المظلمة..

أنا أتحرك نحو هدف أسمى.. تحول مذهل.. تحول تهون معه التضحيات الصغرى، وعاطفة مثل عاطفة الأمومة.. وثمّة حيوانات تلتهم صغارها حين تجوع.. ما دام ذلك في اتجاه التقدم الطبيعي..

لكن (إيرينا) ماتت!

ماتت حقًّا، ولم تمر بالغفوة التي مررت أنا بها.. لم تصح ثانية حقًّا.. وأمضيت ساعات طويلة أصفعها محاولة جعلها تنهض.. ثم سمعت صوته (هو) يقول لي:

- «أنت قد تسرعت أيتها الروح الكبرى»

تساءلت في ذهول وأنا أحتضن طفلتي:

- «روح كبرى؟ من؟»

- «الروح الكبرى هي أنتِ.. لن تكون هناك من تدعى (إيرما كالسكا) بعد الآن.. بل أنت كاهنتنا العظمى.. وقد تسرعت كثيرًا..»

- «كـ... كيف تسرعت؟»

- «كان عليك أن تحقنيها بالإكسير قبل مص دمها.. والآن لم يعد من الممكن أن تعود للحياة أو تغدو منا.. لا تجزعي! فقط عليك أن تتخلصي من جثتها..»

- «و.. ولماذا أغدو الكاهنة العظمى؟»

- «لأنك قمت بالتضحية العظمى.. ابنتك!»

- «و.. مـ.. من أنت؟»

- «أنا (هو).. هو الذي يمشي في الظلال..»

* * *

- ٢ -

لم يكن عسيرًا أن أجر جثة (إيرينا) إلى غابة الصنوبر وأتركها هناك.. لحظة ضعف عابرة هزتني وأنا أتذكر كيف كانت طفلتي تهوى اللعب في هذه الغابة.. ثم تماسكت وعدت إلى داري تحت جناح الظلام...

وحين وجدوها جاءنى المأمور يخبرني بمأساتي..

كان هذا عند الظهر.. وأنا لا أطيق رؤية ضوء النهار، لكني سمعت قرعاتهم على الباب، وصوت رجاله ينادون اسمي العتيق.

تحاملت على نفسي وفتحت الباب.. ثم جعلتهم يدخلون إلى الدار المظلمة، لا يكادون يبصرون بعد ضوء الظهيرة الساطع..

وسمعت من يقول ملحوظة ما عن رائحة البيت الكريهة.. الروائح! إنهم ما زالوا يلاحظون الروائح.. أما أنا فأعتقد أن حاسة الشم لديَّ لم تعد متعلقة إلا بالدم.. هناك دم أم لا..

قال المأمور:

- «منذ متى اختفت (إيرينا) يا (إيرما)؟»

قلت وأنا أقف في الظلام:

- «منذ أسبوع أيها (القوميسير)..»

- «ولماذا لم تخبرينا؟»

- «لأنهّا تشاجرت معي وأعلنت أنها لن تعود.. مسألة عاطفيّة من سخافات المراهقة إياها.. ولكن لماذا تسأل؟»

تنهد وفي تردد قال:

- «لأننا وجدنا جثتها في غابة الصنوبر صباح اليوم!»

الآن صار على أن أصرخ وأولول..

أصرخ وأمزق شعري وألطم خدي..

ياه! لقد كان كل هذا مملًا.. لكني قمت به باعتباره من ضرورات مهمتي.. ويبدو أن أدائي كان رائعًا لأنّهم راحوا يواسونني ويقدمون لي أقداح الماء..

وكان من السهل بعد هذا أن أتظاهر بأن قدمي قد شلتا.. كان على أن أفعل هذا إذا أردت ألا أذهب للكنيسة لحضور تأبين (إيرينا).. الحق أنني لم أعد أحتمل دور العبادة كلها..

جاءت خالة (إيرينا) كي ترعاني.. وخالة (إيرينا) هي أختي طبعًا.. لكني لم أكف عن اعتبارها امرأة متطفلة ما..

امرأة عجوز ثقيلة الظل تصر على مضايقتي، وتثرثر طيلة الوقت، وتسألني عن صحتي مائة مرة في الساعة..

كنت أعاملها بغلظة.. لكنّها كانت تمصمص بشفتيها طيلة الوقت، ولا تكف عن الإشفاق على..

والأسوأ أنها راحت تنظف الدار.. وتصر على أن تدخلها الشمس وأن تتخلص من رائحتها التي تقول إنها كريهة..

حسن.. كان لا بد أن تذهب..

* * *

وحين كنت أخلو لنفسى كان (هو) يزورني ليملي عليّ كتابه الخاص به.. كتابه الذي سيقتدي به أتباعه جميعًا...

وكنت أدون كل حرف في ورقة، حتى أجتمعت لديَّ ثلاثمائة ورقة قمت بتجليدها في كتاب، ورسمت عليه الصليب... لكنّ لا ككل صليب.. بل هو صليب مقلوب.. لا أدري السبب.. لكني وجدت نفسي مرغمة على رسمه.. وأطلقت على الكتاب اسم (إنفرنوس)...

تسألون عن محتوى الكتاب؟

إن هذا يثير الفضول.. لكني غير مخولة بأن أذكر منه حرفًا لأمثالكم من الخطاة الفانين.. ليس من حق غير الشاحبين أن يعرفوا اسرار (هو) العظمى..

أكتفي فقط بذكر (الإكسير).. والذي يصنع من أوراق نبات الـ (وولف بين).. وهو نبات له باع طويل في السحر، ويقول الفلاحون دومًا إن رائحته تخلق المذءوبين..

يبدو أن كثيرين سواي يعلمون سرّه، ومن بينهم (بيلاسكو) نفسه.. وهذا الإكسير هو الذي يمنع من تمتص دماؤه من أن يهلك... لم أكن أعرف شيئًا عن هذا حين مصصت دماء (إيرينا)..

أحيانًا أشعر براحة لأنني لم أكن أعرف.. فهي على الأقل تنعم براحتها الأبدية الآن في عناية إله رحيم..

لو كنت اعرف لصارت مثلي.. خادمة لـ (هو).. وأحيانًا أندم.. فقد فقد مجتمعنا فردًا.. وفردًا مهمًا...

المهم أنني تحايلت على خالة (إيرينا) حتى سقيتها كأسًا كاملة من الإكسير، ثم فعلت معها ما فعله (بيلاسكو) معي..

وكان المنظر غير مسبوق..

في البدء تهاوت جثتها الشاحبة الخالية من الدماء أمامي.. بعد جهد عنيف كلفني نابًا من أنيابي.. آخرها في الواقع..

ثم رأيتها تتكلم بصوت مبحوح..

ورأيت عينيها ترمقاني في ثبات..

قلت لها الكلمات الشهيرة:

- «أنت لن تموتي.. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها تلفظين خطايا الماضي..»

ثم همست في أذنها:

- «(هو) - الذي يمشي في الظلال - يريدك...»

ومن ليلتها صارت الصديق الوحيد الذي يؤنس وحدتي..

لكن عددنا ازداد بعد حين..

صارت كل البيوت المجاورة منا..

وصرنا أقوى.. وامتلكنا الجرأة كي نجهر بحقيقتنا..

* * *

حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال (بيلاسكو):
(هو) - الذي يمشي في الظلال - أمرني أن أضم (إيرما كالسكا) أو ابنتها..

* * *

الحق أنني كنت ميالًا إلى تذوق دماء الفتاة.. فهي دماء غضة شابة ربما تبعث الحياة في وجودي المحتضر..
لكن ما باليد حيلة.. ومن العسير أن تجد كل ما تريد..

* * *

أنا مدرس في مدرسة القرية.. أرمل منذ فترة قصيرة.. ولي ابن في السادسة عشرة من عمره.. اسمه (كوثار)..
إن الحياة تمضي في القرى على غرار (هالماجيو) بشكل رتيب جدًا.. لا شيء يحدث.. يُمكنك أن تعرف أن الأمور ستمضى على هذا المنوال بعد عامين أو عشرة.. يُمكنك أن تحدس من سيتزوج من من المراهقين الذين تراهم في كل مكان.. يُمكنك أن تخمن أول الموتى في الفترة القادمة..
الحياة - حقًّا - رتيبة في (هالماجيو)..
لكننا منذ شهرين عرفنا الإثارة الحقيقية..
فبعد أن تغرب الشمس يبدأ المرح، وينتشر إخوة الدم في الشوارع يرقصون ويصخبون.. ونشعل النار العظمى التي تضيء لنا كل شيء.. ويغادر إخواننا بيوتهم بعد يوم طويل قضوه ينتظرون في الظلام تلك اللحظات..
هو ذا (إستبان) وهذا (بوريس) وتلك (هيلدا).. أو تلك هي أسماؤهم القديمة قبل أن يصيروا (شيطان الظلام) و(نهر النار) و(زهرة القبور).. أنا صار اسمي (الدم) وهو اسم جميل حقًّا..
- «كيف حالك يا (نهر النار)؟»
- «أسوأ من حالك يا (دم)..»
وفي هذا المجتمع صار لكل منا زوجة..
أنا زوج (إليصابات) التي صار اسمها (حداة الصحراء).. صحيح أننا لا نرى بعضنا إلا ليلًا.. لكن تفاهمنا تام...
ويسرني هنا أن أقول إن (حداة الصحراء) تنتظر أول مولود في مجتمعنا الجديد.. أول طفل يولد شاحبًا.. وقد دنا الموعد جدًا..

حول النار نحتشد وتتلو عبارات الخضوع لـ (هو) - الذي يمشي في الظلال - الذي نرتقب خروجه من الكهف متى بلغ عددنا رقمًا معينًا..

ما هو هذا الرقم المبارك؟

لا أحد يعرف.. ربما كان ستين أو سبعين أو مائة.. وربما تتم هذه المعجزة اليوم بالذات..

لقد دأبنا على زيادة عددنا.. كلما وجدنا متطفلًا من جنوب القرية عندنا.. كنا نقبض عليه، ونرغمه على أن يكون منا..

متطفل اليوم هو الشاب (أنطونيسكو) إبن القصاب.. يبدو أنه قد تسلل ليلًا ليرى ما يحدث عندنا.. وكان يحمل خنجرًا ومشعلًا.. أنا أعرف أنه يحبّ (إيرينا كالسكا) ولم يستطع أن يتفهم موتها قط..

لكنه كان أحمق بما يكفي لأنّه رأى إبني (الكابوس) - أعني (كوثار) سابقًا - وحسب أن الشباب يفهم الشباب أكثر من سواه.. حاول أن يكلمه.. ناداه...

وكان (الكابوس) حويطًا بما يكفي.. إذ دنا من صاحبنا وتبسط معه في الكلام.. ثم على حين غرة أمسك معصميه بكلتا يديه، وأطلق صرخة طويلة - صرختنا - فهرع الإخوة من كل حدب وصوب، وأحاطوا بالفتى بعصيهم ومداهم...

وكان الباقي معروفًا.. ربطنا قدميه وعلقناه في شجرة.. نسيت أن أقول إننا أرغمناه على شرب الإكسير.. كان يصرخ ويحاول أن يبصق ما انصب في فمه لكنّ الإعياء غلبه فجرع بضع جرعات..

وحين علقناه من قدميه كما في أوراق (التاروت) لم يفهم المراد منه..

دنت كاهنتنا وأحدثت الجرح إياه في وريد عنقه الودجي...

ثم رحنا نتناوب ملء الكئوس من الدم.. الدم الأحمر الفائر.. الذي يكفي لإطفاء ظمأ ثلاثين منا..

إن الدم سائل ساحر حقًّا.. كوب واحد يجدد نشاطك لمدة يومين.. ولا يوجد كوب من أي مشروب في العالم له هذا التأثير.. لكنّ الحظ كان يحمل لنا مفاجات باسمة أكثر..

لقد وجدنا غريبين متطفلين في دار (الدماء السوداء).. لقد تمكّن من القبض عليهما وحده بإرادة جديرة به...

وكان أحدهما يتكلم الرومانية وهو صحفي مكتنز فاخر المظهر من (بوخارست)، وأنا أمقت أهل (بوخارست) لأنّهم يعتبروننا نحن الفلاحين حمقى..

أما الآخر فلا أجد له وصفًا سوى أنه يشبه دودة (الإسكارس) في كتب التاريخ الطبيعي التي أشرحها للتلاميذ.. ويبدو أنه أجنبي..

كانا مذعورين يحاولان تفسير الموقف، ويبدو أن الصحفي كان يحاول تخويفنا بمنصبه وصلاته.. لكنّ الشيوعيين لن يرهبونا.. لا هم ولا الرأسماليون ولا أية قوة أخرى..

عندما نقرر المعاملة اللائقة بهذين سيبدأ المرح الحقيقي...

اقترح أحد الواقفين أن نستنزف دماءهما حالًا.. وأنا أمقت ضيق الأفق بشكل غير عادي... إن التكرار مقيت دائمًا..

لقد فرغنا من استنزاف دم (أنطونيسكو).. وهو ذا قد بدا يتحرك وهو متدل من الحبل... وقد بدت عليه أولى علامات الصحة: لم يعد الوضع المقلوب يضايقه.. إنّه قد اكتسب طبيعة الوطاويط التي تقضي حياتها مقلوبة دون ضيق.. ثم إن جسده لم يعد يحوي دماء تتجمع في رأسه وتشعره بالاختناق والاحتقان..

أقول إن (أنطونيسكو) قد صار منا، ولشد ما أثارت صحوته الهلع في نفسي ضيفينا.. لقد أثار موته الذعر في نفسيهما.. لكنّ صحوته جعلتهما يوشكان على الموت بدورهما..

لم يعد هناك داعٍ لاستنزاف آخر هذه الليلة..

إن ضيفينا سيجدان كثيرًا من المرح في الكهف..

* * *

- ٢ -

كان (كوثار) - أو (الكابوس) - هو من قادني إلى إخوة الدم..

في البدء كان مراهقًا عاديًا يضحك من قلبه ويغني ويتشاجر ويحب، ثم بدأ التحول المعهود: صار شاحبًا.. وصار يفضل الجلوس وحيدًا في الظلام، وحوله تلك الرائحة العطنة التي صارت شعارنا..

وقد حسبته في البدء مصابًا بخلل نفسي من هذا الذي يعتري المراهقين، وأفضيت بمخاوفي لد. (ميخائيل) الذي جاء وفحصه برغمه.. وأعلن أنه مريض جدًا.. وكتب لي قائمة طويلة من المستحضرات العلاجية التي تشرب أو تبلع أو تدهن أو تمص أو تشع أو تحقن..

لكن (كوثار) - لم يكن قد صار (الكابوس) وقتها - غضب جدًا عليّ بعد انصراف الطبيب.. وقال لي إن كل هذا شأن من شئونه، وهددني لو جعلت الأمر أكثر ذيوعًا بأن يقتلني..

الحق أننا لم نعتد (قلة الأدب) الأمريكية هذه في ريف (رومانيا)..

ربما سمح الآخرون لأنفسهم بذلك؛ لكنّ الأمر يختلف هاهنا.. إن الابن الوقح يصفع، وربما يُطرد لو أراد الأب..

وهكذا ضربته ضربًا لا بأس به.. وحبسته في غرفته، وهو ليس عقابًا حقيقيًا بالنسبة له، هو الذي يقضي عشرين ساعة يوميًا وحده في حجرته..

وفي المساء دخلت حجرته، حيث كان جالسًا في الظلام لا يفعل أي شيء في الواقع..

جلست جواره وقلت له بصوت أبوي هادئ:

- «ها نحن ذان معًا.. صديقان يتساران.. قل لي ما يضايقك..»

قال لي وهو يخرج قنينة من جيب سترته:

- «كل ما هنالك هو أنني لا أشعر بأنني بخير.. صدقني.. هذا هو كل شيء.. لم أعد أتحمل أية ضوضاء من أي نوع..»

وقرب القنينة من فمه وأردف:

- «ولا الضوء.. ربما هي مسألة أعصاب كما تعلم..»

صحت وانا أمسك يده في عنف:

- «وهذا؟ هل هو خمر؟ هل تشرب يا (كوثار)؟»

هزّ رأسه وابتسم.. لمحت بسمته في الضوء الخافت وقال:

- «لا يا أبت.. إنّه مجرد منشط طبي.. ثق بي..»

ورأى نظرة الشك في عيني، فقرب القنينة من فمي وقال:

- «هلمّ ذقه.. لتكون مطمئنًا..»

لامست القنينة بشفتي وعيناي لا تفارقان وجهه..

حقا لم يكن ما بها خمرًا.. بل هو سائل غير معهود.. عطر الرائحة قليلًا.. له مذاق الزنجبيل لو أضيف له النعناع..

وكان هذا خطأ.. لقد تركت لقدمي أن تنزلقا إلى ذات الشرك..

ويبدو أنه كان جاثمًا فوق عنقي.. وبصعوبة عرفت أنه يمتص الدماء من وريدي المنتفخ.. وهي عملية مرهقة استغرقت ساعة أو أكثر.. لكنّها لم تكن سيئة على الإطلاق..

فقط سمعته يلهث هامسًا:

- «أنت لن تموت.. ستعيش لتكون من إخوة الدم.. وعندها تلفظ كل خطايا الماضي..»

ولم أفهم ما يقول وقتها.. لكني فهمته الآن بعد ما عشت حتى ضممت ستة غيري إلى إخوة الدم.. وكذلك فهمت عبارته التالية:

- «هو - الذي يمشي في الظلال - يريدك..»

* * *

الحق أنها كانت خبرة غير معتادة..

نحن في (رومانيا).. والكلام عن مصاصي الدماء يبدأ منذ أن يكون الطفل في مهده.. لكنّ ما حدث لم يكن مص دماء كما نعرفه.. كان استنزاف دماء لشربها.. ولم يمت أحدنا غير ثلاثة أيام بعدها يغادر قبره ليمارس مهنته.. ولم نكن خالدين حتمًا لأن أحدنا مات بنوبة قلبيّة منذ أسابيع.. وإحدانا ـ كانت تدعى (إيزبيا) - ماتت في أثناء الولادة مع وليدها..

لكننا - وقد تزايد عددنا تدريجيًا - كنا نعرف أننا نشكل البذرة لنبتة ما.. نبتة عملاقة..

ما هو الغرض من وجودنا؟

لا ندري.. سل أية نبتة عن الغرض من وجودها، وانتظر أن تجيبك إجابة مقنعة..

لكنّ الروح الكبرى - كاهنتنا التي شرفت بضمها - جعلتنا نعرف أن لنا هدفًا واحدًا.. هو أن نكون موجودين حين يخرج هو ـ الذي يمشي في الظلال - من الكهف..

- «عندها سيهدي السلام الكواكب، ويتوارى كوكب المشتري مع المريخ، ويصير القمر في المنزلة السابعة..»

- «ويكون هذا هو فجر برج الدلو..»

هذه الكلمات من مسرحيّة (شعر) تعبر بصدق عن آمالنا..

آمالنا التي لن نتركها للمتطفلين القادمين من (بوخارست)...

حتى ولو كان أحدهم يشبه دودة (الإسكارس)..

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يكملها هو بنفسه

قال د. (رفعت):
كان الكأس أمام شفتي.. ولم أكن أعرف ما سيحدث، لكنه حتمًا لن يتضمن أن أشرب هذا السائل الكريه.. فليقتلوني إذا أرادوا.. وكل ما أرجوه هو ألا يكونوا غليظي القلب إلى حد صب هذا الكأس في فمي عنوة..
هنا جاءت النجدة في صورة رجل نحيل أصلع الرأس، رفع يده في حزم.. وصاح قائلًا شيئًا ما..
دخلوا في جدل طويل لم أفهم منه حرفًا.. لكني كنت أرمق شيئًا معينًا في اهتمام.. إن الفتى المعلق من قدميه - والذي أفرغوا دمه أمامنا - يتحرك؟
ابتسامة شيطانية تتلاعب على شفتيه.. ثم يكشر عن أسنانه.. يفتح عينيه.. لحسن حظ (جوستاف) أنه لم ير هذه النظرة بالذات..
إنه حي... حي وسعيد.. كأنه ينعم بوضعه الطبيعي المثالي.. ذكرني بوطواط معلق يهضم ما التهمه من حبات العنب في رضا...
سمعت (جوستاف) يقول لي:
- «إن هذا الرجل..»
- «المعلق؟»
- «لا يا أحمق.. أعنى الأصلع.. يقول إنّه لا داعي لاستنزاف دمنا الليلة.. وقد اقترح أن يدخلونا الكهف على سبيل المرح!»
- «الكهف؟ مرح؟»
- «هذا ما قال..»
- «وما الموجود في الكهف؟»
- «لا أدري.. لكنه بالتأكيد أسوأ من تعليقنا من الأقدام، واستنزاف دمنا عن طريق أوردة العنق!»
أخيرًا بدأ القوم يتحمسون..
وعرفت أن فكرة الكهف قد راقت للجميع..
بدءوا يدفعوننا وهم يشكلون دائرة واسعة حولنا، قاصدين ذلك الكهف السخيف، عطن الرائحة..
قال (جوستاف) وهو يرمق وجوههم الشاحبة تلتمع في اللهب:
- «(رفعت).. إن الأمر يبدو كأنهم يقودوننا إلى نوعٍ من القربان الآدمي.. وأنا لا أحب هذا..»
قلت لاهثًا:
- «أمّا أنا فأعتقد أنهم يقودوننا إلى مقبرة.. وأنا أكره هذا!»
كان الكهف ينتظرنا..
فمه الفاغر المظلم يحمل عشرات الاحتمالات.. وعشرات الإجابات لأسئلة لم نسألها.. ولم نرغب قط في سؤالها..
ما الذي ينتظرنا هناك؟

* * *

في الكتيب القادم تسمع حكاية الشاحب الثالث (كوثار).. وتعرف السر وراء هذه اللعنة التي اجتاحت (هالماجيو)..

ربما تعرف أيضًا ـ لو كان هناك وقت ـ ما حدث لنا داخل الكهف.

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ ـ ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

تمهيد

حكاية الصيدلي المرتاب

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

حكاية الطبيب النحيل

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

- ٤ -

- ٥ -

حكاية الروح الكبرى

- ١ -

- ٢ -

حكاية الشاحب الرابع

- ١ -

- ٢ -

حكاية الطبيب النحيل

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة الشاحبين

ثمة أشياء غريبة في (هالماجيو) .. أشياء من التي لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلا .. حينما تتأكد أن الأطفال ناموا .. وتستوثق من أن بابك موصد .. وأن الكلب لا ينبح فى الجرن ؛ لأنه يشعر بشىء غريب .. إنها قصة عن (هو) - الذى يمشي فى الظلال - وإخوة الدم وأعياد الخصوبة .. وكل الخزعبلات التي جاءت كي تبقى ..



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
أسطورة دماء دراكيولا

Notes

[←1]

ترجمة لاسم: Vlad the Impaler

[←2]

ميكيافلي إيطالي.. لكننا لا نطالب مصاصة الدماء العجوز بأن تكون مثقفة!

روايات مصرية للجيب

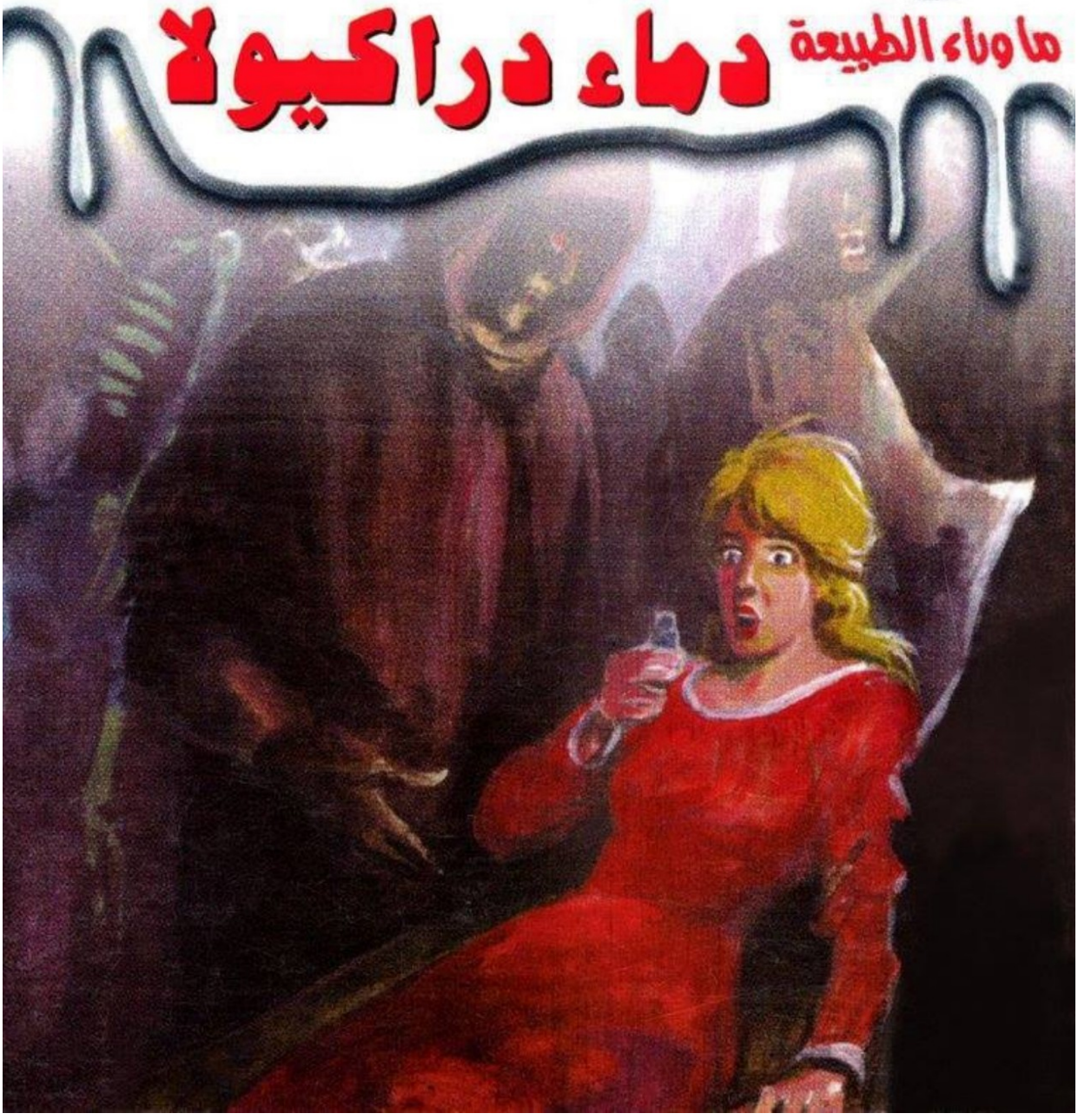
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

35

أسطورة

دماء دراكيولا

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل).. أستاذ أمراض الدم سابقًا بكلية طب (.....) و.....

ولكن.. يبدو أنني سأضيع وقتكم بلا داع في تقديم نفسي.. إن هذه القصة ذات جزأين.. ويبدو لي أن الأرجح الاكتفاء بمقدمة واحدة للقصة كلها..

كذلك ـ على سبيل التجديد ـ لن أقدم الصفحتين المملتين اللتين تلخصان ما ورد بالجزء الأول..

إن أحداثًا كثيرة تنتظرنا اليوم، وعلينا ألا نضيع الوقت والصفحات في استرجاع الماضي.. فلنقلب الصفحة ونبدأ دون إبطاء..

تعالوا نفتح الباب في نهاية الردهة.. ولكن حاذروا من أن تتلوث أقدامكم بدماء (دراكيولا).....

* * *

حكاية الشاحب الثالث

يحكيها هو بنفسه

قال (كوثار):
ـ أنا من ضم (بيلاسكو) مدرس القرية.. وأبي إلى إخوة الدم..

* * *

لا بد أن من قرءوا مذكرات أبي قد عرفوا كيف كان الأمر.. لقد جاء إلى غرفتي المظلمة ليلًا يبغي أن يعرف مشاكلي، وسر ميلي إلى الوحدة وقلة نظافتي..
لكنّ نداء (هو) كان أقوى مني، ونجحت في جعل (بيلاسكو) يشرب جرعات عدة من الإكسير.. وكانت ملاحظته قوية حقًّا، جديرة بمدرس علوم عتيد.. إنّه سائل عطر الرائحة، له مذاق (الزنجبيل) لو خُلط بشيء من النعناع..
وسرعان ما تم الأمر.. لقد جعله الإكسير قادرًا على تحمل امتصاص دمه.. وأفرغت ما بعروقه، ثم قلت له العبارة العتيدة:
- «أنت لن تموت... ستعيش لتكون من إخوة الدم، وعندها تلفظ كل خطايا الماضي..»

* * *

أمّا من ضمني أنا فـ (فيروزة) الحسناء..
(فيروزة بالكوفسكو).. اسم عربي جميل، ربما يرجع إلى عهد الأتراك في (رومانيا).. فلقد ترك لنا الأتراك أثرًا لا يمحى ها هنا..
كانت (فيروزة) فيروزة حقيقيّة تمشي على قدمين.. ذلك الجمال الصارخ الذي يُشعر الرجال بالهم والأسى.. ذلك الحسن الذي كفت النساء منذ دهر عن حسده، وصرن يعتبرنه حقيقة لا مفر منها كالشمس...
(فيروزة) ابنة (أندريا بالكوفسكو) العجوز الفظ.. الفلاح الخشن، الذي يؤمن بأن المرأة يجب أن تُضرب على الدوام، فإن لم تفعل ما تستحق عليه الضرب فهي ـ حتمًا ـ فاعلته..
لهذا كان يوسع نساء الدار ضربًا.. امرأته وابنتيه.. يحدث بهن كدمات لا بأس بها حول العيون وفي الشفاه، ثم كان يهدأ فيبدأ الحديث عن الشيوعيين الذين جعلوا الحياة لا تطاق...
- «يقولون إن الأمور تزدهر.. بحق السماء أنا أعرف شيئًا واحدًا.. لقد صار الرزق أضيق، وغدت الحياة أعسر.. مع فارق واحد، هو أن المرء لا يحق له أن يعلن ذلك..»
وتعود له الثورة، فينهض ليوسع المرأة البائسة زوجته ضربًا.. ويعتصر ذراع (فيروزة) بين إبهامه وسبابته قائلًا:
- «أنت ستكونين امرأة حسناء.. والمرأة الحسناء لا تجلب سوى المصائب لأهلها ولنفسها.. كيف لي أن أطمئن لحظة لخروجك إلى الغابة لجمع التوت؟ أو لعودتك إلى الدار في ساعة متأخرة؟»

ويضربها بعنف وهو يكاد يجن غيظًا:
- «حتى لو لم تكوني شيطانة... فهناك من الشياطين عدد كاف دائمًا..»
وتصرخ الفتاة وتولول، وتهرع جريًا من الدار..
يقول له الجيران أن يترفق..
فيقول لهم في فظاظة: إن هذا ليس من شأنهم.. فلينعموا برزقهم الوافر، ويطمئنوا على نسائهم وبناتهم القبيحات.. أمّا هو فلن ينام أو يهدأ حتى تصيبه أزمة قلبيّة، ويموت والزبد على شفتيه ككلب عقور...

* * *

كانت (فيروزة) هي فتاتي..
وكان جميع شباب القرية يعرف هذا.. وبرغم ضآلة بنيتي فإنني كنت قادرًا على جندلة من يتهكم أو يتخرص أو يلمز فيما يتعلق بها.. وكنت أثب إلى صدره قبل أن يفهم ما يحدث، لأمرغه في الغبار وأشبعه ركلًا وعضًا ولكمًا..
وبعد هذا كنت ألقاها عند الخميلة، لتمسح بيدها الباردة الرقيقة على كدماتي وتقول:
- «رباه! قد آذوك حقًّا يا صغيري المسكين..»
- «لكني أذيتهم أكثر..»
وكانت لقاءاتنا سرية يشوبها توتر شديد.. فلو رآنا أحد الحاقدين لجرى وأخبر أباها.. عندها لن يتردد (بالكوفسكو) العجوز في أن يجلب بندقيته (القرابينة) من الجرن ليفرغها في رأسي ورأس ابنته.
لم يحدث بيننا ما يشين أو ما أخجل من ذكره.. لكن أباها ما كان لينتظر حتى أقسم.. وأنا لا ألومه كثيرًا على كل حال..
كان حبنا خطرًا داهمًا.. وكانت الأيام ضدنا لأنني - حتمًا - لا أستطيع أن أتزوجها في سن مبكرة كهذه.. وما كان القس ليسمح لي بأن أخذها معي إلى كنيسته لنتزوج سرًا، كما فعل (روميو) و(جولييت) تلك الرواية التي في مكتبة أبي..
في الآونة الأخيرة تم تعد (فيروزة) تأتي للقائي في الخميلة..
وأدركت أن حصار أبيها عليها يضيق.. ورحت أفكر في كيفيّة لقائها.. لكني لم أبلغ بعد بشجاعتي درجة أن أتسلل إلى دارها.. فالخطر حقيقي لا شك فيه، وليس به شيء من الرومانسية.
إن ما حدث لـ (روميو) و(جولييت) رومانسي.. لكن لمن يقرأ قصتهما في فراشه ليلًا، وليس بالنسبة لهما بالتأكيد..
ترى كيف أنقذك وأنقذ نفسي يا (فيروزة)؟

* * *

وكان الجواب دانيًا جدًّا...

في ذلك المساء كنت عائدًا إلى داري مطرق الرأس مهمومًا، حين رأيت شبح فتاة يدنو مني... دنت فتعرفتها.. إنها (ياسمينة) أخت (فيروزة) والتي تصغرها بأعوام أربعة.. كانت ممتقعة.. حتى في الظلام استطعت أن أرى ذلك..

طفلة مذعورة تتسلل تحت جناح الليل لتقول لي:

- «(فيروزة) ليست على ما يرام..»

- «أحقًا؟ لماذا لا أجد في نفسي دهشة؟»

اتسعت عيناها الزرقاوان أكثر.. وهمست:

- «الأمر ليس كما تظن.. لا علاقة لهذا بأبي.. إنها منزوية في حجرتها، وحيدة لا تكلّم أحدًا، ولا تترك أحدًا يكلمها.. تعاف الطعام، وتوشك أن تتحول إلى شبح..»

وارتجف صوتها وهي تقول:

- «إن أمي مذعورة..»

كدت أذوب قلقًا.. لكني كنت قادرًا على بعض التفكير السديد.. ماهو دوري أنا في كل هذا وما ذنبي؟

قالت وقد رأت السؤال في عيني:

- «تقول أمي إنّه الحب.. إن حبها لك سيقتلها قتلًا.. أمي تعرف هذه الأشياء.. وتقول: ربما لو رأتك (فيروزة) لحظة.. فلربما.....»

هذه هي الكارثة.. لو رفضت لكنت نذلًا.. ولو قبلت لكنت مجنونًا..

إن العجوز (بالكوفسكو) لن يعطيني ترف الموت بالرصاص هذه المرّة.. سوف يعطيني درسًا عمليًا في كيفيّة سلخ الخراف..

لكني شاب.. والشاب لا يملك خيارين لأمور كهذه..

- «إنني أقبل.. ولكن المكان؟»

- «ستلقاك (فيروزة) عند الطاحونة القديمة.. سنعرف كيف نقنعها بهذا.. وعليك أن تكذب عليها.. قل لها إنك تحبها..»

- «وهل يكذب المرء في شيء كهذا؟»

- «.. وقل لها إنكما ستتزوجان يومًا ما..»

- «أمّا هذا فكذب صريح.. لكني سأفعله..»

تلفتت حولها في رعب.. ثم قالت وهي تذوب في الظلام:

- «شكرًا يا (كوثار).. الطاحونة القديمة غدًا بعد الغروب.. وداعًا!»

* * *

لهذا يا رفاق ترونني واقفًا في الظلام، أصغي لصوت حشرات الليل المنتظم، وأرتجف.. أرتجف انفعالًا وأرتجف بردًا..

يا لحرارة دماء الشباب! يا لاندفاعهم! قل للواحد منهم إن حبيبته تحتاج إلى التهام عينيه كي تعيش.. عندها يخرج لك عينيه دون تفكير، وفي أريحية يعتبرها الكبار حماقة، ويعتبرها الشاب

فروسية..
لماذا أتحدث عن الشباب كأني لست منهم؟
الإجابة بسيطة: لأنني لم أعد منهم..
ولكن.. هي ذي (فيروزة) قادمة في الظلام تجر ساقًا وراء ساق، محنية القامة مترنحة، لكنّها هي..
دنوت منها فاتحًا ذراعي؛ لكنّها ظلت متصلبة متخشبة، لم تبد أدنى حرارة كالتي أظهرتها أنا.. تراجعت للوراء وتأملتها..
الحق أنني لم أر شحوبًا كهذا إلا في أوراق الشجر الذابلة.. واقشعر جلدي لمرآها.. لم يكن الأمر متعلقًا بلوعة الهوى إذن.. الفتاة مريضة.. مريضة للغاية..
- «(فيروزة)! حبيبتي! يجب أن يراك العجوز (ميخائيل).. لربما..»
فتحت شفتيها المتشققتين.. وهمست:
- «لم يعد بوسعه أن يفعل الكثير.. أنت وحدك تستطيع..»
- «سأفعل حتمًا.. لكنّ أفعل ماذا؟»
- «سأموت خلال أيام ما لم.. ما لم.....»
وارتجفت ودمعت عيناها..
هنا جن جنوني.. وأقسمت: لو أنها سألتني أن أسافر إلى (تمبكتو) الآن.. أو أذهب حافي القدمين إلى القطب الشمالي.. أو أصطاد لها (كنجارو) حالًا، فلسوف أفعل..
قالت وهي تخرج قنينة من جيبها:
- «هذه القنينة.. إنها من تركيب الصيدلي.. هل.. هل تذكر (روميو) و(جولييت)؟ لقد كنت أقرأ المسرحية أمس..»
- «هذا هو ما كنت أفعله بالذات.. هل تعنين الانتحار؟»
- «بل النوم الذي يبدو كالانتحار.. ثم نصحو منه في الكنيسة في أثناء القداس، لنطلب أن يزوجونا وإلا متنا بحق»
بدت لي الفكرة لا بأس بها.. بعد ما يولول آباؤنا وبعد ما يلوم أبوها نفسه ألف مرة، نصحو من سباتنا ونطلب.. نطلب عندما يغدو الجميع على استعداد للتنفيذ.. نطلب الزواج طبعًا..
- «هل هو دواء منوم؟»
- «يقول الصيدلي إن مفعوله مضمون تمامًا.. ويكفي للنوم يومًا كاملًا..»
- «وشربت منه؟»
- «بعدك يا (كوثار).. بعدك.....»
تناولت القنينة.. ورفعتها إلى فمي..
يبدو الأمر مرعبًا.. ماذا لو كان هناك خطأ ما؟ ماذا لو كان الدواء لا يجعلنا (نبدو) موتى.. بل هو (يجعلنا) موتى؟
سيان عندي.. فعينا (فيروزة) الصافيتان المناشدتان تقولان لي ألا مجال للرفض واختلاق الأعذار...
وجرعت جرعة طويلة حاولت ألا أتذوقها لكني فشلت..

زنجبيل مخلوط بالنعناع! عبقري حقًّا يا أبي.. وصفت بدقة المذاق الذي أجهدت ذهني باحثًا عن طريقة لوصفه..

- «كيف مذاقه؟»

- «لا بأس.. عطري نوعًا.. والآن دور.....»

هنا كانت (فيروزة) قد أنشبت أسنانها في ذراعي!

ولم أقاوم كثيرًا لأن الخدر كان يسري في دمي.. بل إن الأمر لم يكن سيئًا إلى الحد الذي يبدو به...

* * *

هو - الذي يمشي في الظلال - يريدك.....

* * *

ومن يومها صار اسمي الجديد هو.. الكابوس...

* * *

حكاية الشاحبة الثانية

تحكيها هي نفسها

قالت (فيروزة):
- يقولون إن اسمي جميل.. يقولون إن وجهي أجمل..
يقولون إن حياتي سيئة.. يقولون إن مصيري أسوأ..

* * *

(فيروزة) و(ياسمينة) البنتان الجميلتان لـ (بالكوفسكو).. أكثر فلاحي القرية فظاظة وخشونة..
إن (بالكوفسكو) يعيش الحياة كأنها حرب مرهقة يجب التوتر والصراخ فيها لمن يريد أن يرى يومًا جديدًا.. ضغطه مرتفع... توشك عيناه على الانفجار بالدم.. يوشك وريدا عنقه على النزف..
لقد أقسم على أن يجعل كل ثانية من حياته معنا جحيمًا.. لا بد من الصراخ ولا بد من الركلات واللكمات.. يضرب زوجته لأسباب غريبة حقًّا: لأن الشيوعيين أفسدوا الأمور في (رومانيا).. ولا تسأله عن ذنب المرأة المسكينة، فهو يرى لها ذنبًا عظيمًا في كل شيء..
ويرى الشباب يرمقونني بإعجاب، فكان يُطلق السباب، ثم يقتادني من شعري إلى الدار، وينهال على ضربًا بحذائه الثقيل..
- «تبًا لك! لو ترك لي الأمر لحبستك في برميل طيلة حياتك أو دفنتك في المستنقع..»
ويجيء القس ليزور دارنا حاملًا مبخرته، فيقول له في رصانة:
- «لا تقس على نسائك يا (بالكوفسكو).. إن (فيروزة) حسناء لكنّها على خلق قويم.. ولا ذنب لها في جمالها..»
فيقول وهو يحاول أن يبدو مهذبًا أمام القس:
- «لهذا أحاول أن أشوهه بالمزيد من اللكمات! إن وجهًا متورمًا هو وجه أقل جذبًا للذباب..»
فيرمقه القس مذهولًا باحثًا عن كلمات يقولها.. ثم يدعو له بالرشاد ويتركه..
الحق أنني تعلّمت منذ الطفولة أن أكره جمالي، وأعتبره لعنة تلاحقني.. فأنا أظفر بكل عيوبه دون مزاياه..
ولا بد أنني كنت في أمس الحاجة إلى الحب حين عرفت (كوثار)..

* * *

دعنا لا نخلط الأمور ببعضها..
فأنا جميلة حقًّا، ويمكنني أن أروق لأي شاب في قريتنا.. لكنه لن يحبني ولن يتحمل تبعات هذا الحب وتضحياته..
أما (كوثار) فكان يحبني حقًّا.. يحنو عليّ حقًّا..
لكنني كنت أخشى عليه نتائج علاقة شائكة كهذه، مع مخلوقة أبعد ما تكون عن الاستقرار النفسي والعقلي.. مثلي..

قال لي ذات مرة:
- «ثمّة جريمة في العالم المتقدم اسمها جريمة (إيذاء الأطفال) أو (Child abuse)، وبموجبها يمكن للدولة أن تنتزع طفلًا من أبويه اللذين يضربانه كثيرًا، لتقوم بتربيته بشكل صحيح..»
تنهدت في حسرة وأنا أتحسس الكدمة على ركبتي، وقلت:
- «.. لكنّ هذا ـ لو حدث في العالم كله ـ لن يحدث في (رومانيا) أبدًا..»
وتعلمت الكثير من (كوثار)..
كم من كتب جلبها لي من مكتبة أبيه - مدرس القرية - كي أغوص فيها، وأسافر إلى عوالم نائية.. إلى (الأهرام) التي تلتمع في ضوء الشمس على حين تغفو التماسيح في النيل.. إلى شمس منتصف الليل.. إلى قطعان الجاموس البري التي يطاردها الهنود الحمر في وديان (كاليفورنيا)..
إلى عوالم لا يركل فيها الناس بعضهم البعض بلا سبب..

* * *

كانت (ناديا) صديقتي مريضة..
تقول أمها إن ابنتها لم تعد راغبة في مفارقة غرفتها، ولم تعد تكلّم أحدًا، وكفت عن الاستحمام حتى غدت للغرفة رائحة القبور.
قالت لي أمها وهي تكاد تجن قلقًا:
- «(فيروزة) هلا فعلت شيئًا؟ إنها تحبك بشكل خاص...»
لم أجد ما أقول أو أفعل سوى أن أطلب منها تدخلني إلى غرفتها.. ومن اللحظة الأولى شممت الرائحة التي ستغدو جزءًا من حياتنا منذ ذلك التاريخ..
صاحت (ناديا) وهي متكومة في الفراش:
- «أوصدى الباب يا حمقاء! أوصدى الباب!»
نهضت للباب، وابتسمت للأم معتذرة ثم أوصدت الباب بالمزلاج لأجلس وحدي في الضوء الخافت قرب (ناديا)...
برغم الظلام شبه الدامس، كان بوسعي أن أرى شحوبها الشديد.. شحوب هذه الورقة لا أقل.. وكان رأسها مضمدًا كأنما هو مجروح..
وارتجف قلبي لأنني شعرت بأن الفتاة تموت.. بالتأكيد تموت.. ثمّة أشياء تدعى (سرطان الدم) و(النزف الداخلي) و... و... وكلها تجعل المرء شاحبًا كهذه الورقة.. لكنّ من المستحيل أن يكون مرضها نفسيًا..
قالت (ناديا) بعد ما تبسطت قليلًا:
- «إنني لم أعد أطيق الناس ولا النور..»
- «هذا لأنك مريضة يا (ناديا).. إن د. (ميخائيل) سوف...»
- «لم يفعل شيئًا! لقد كان هنا منذ يومين وكتب الى هذا الدواء.. لكني لا أطيق رائحته..»
ولوحت بقارورة صغيرة أمام عيني.. وتقلص فمها اشمئزازًا..

قلت لها بحنان أم تفهم الأطفال جيدًا:
- «كل الأدوية الناجحة كريهة المذاق يا فتاة..»
قالت في عصبية وهي تناولني القارورة:
- «جربي رشفة واحدة، ولسوف أشيد لك تمثالًا!»
كان على أن أتشجع.. قربت القارورة من فمي وفتحتها.. كانت لها رائحة عطرية جعلت رأسي يدور، لكني تمالكت أعصابي ورشفت رشفة ثم رشفتين.. حقًّا ليس كريهًا أبدًا..
بعد هذا عرفت أنني في الفراش، وأن (ناديا) تنشب أسنانها في ساقي تفعل شيئًا ما.. وسمعتها تلهث قائلة:
- «أنت لن تموتي.. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها تلفظين كل خطايا الماضي!»

* * *

بعد ساعة غادرت الغرفة مبلبلة الأفكار..
كنت أعرف يقينًا أن (هو) - الذي يمشي في الظلال - يريدني.. لكنّ من (هو)؟
وسألتني الأم عن سر شحوبي، وعن عرجي البسيط.. فقلت:
- «لا شيء يا سيدتي.. إن (ناديا) نائمة الآن لكنّها بخير..»
وحين خرجت إلى النور الساطع خارج الدار، شعرت كأنني عارية وأن الشيء الوحيد الذي يجب أن أفعله هو أن أجد مكانًا رطيبًا مظلمًا أتوارى فيه.. الشمس! كيف يحبون هذا اللهب الحارق المسلط على الأرض؟ كيف يتحملونها؟

* * *

كان على أن أصنع آخرين..
وفكرت في (بالكوفسكو).. ثم رأيت أنه لا يستحق أن يغدو منا..
لهذا كان (كوثار) هو أول من فكرت فيه..
ناديت (ياسمينة) وأبلغتها رسالتي..
والآن هأنذا أتحرك في الظلام قاصدة الطاحونة القديمة..

* * *

حكاية الشاحبة الأولى
أو
كيف بدأ الوباء؟

تحكيها هي نفسها

قالت (ناديا):
كنت أول من جلب (هو) إلى (هالماجيو).. وإنني لفخور بذلك...

* * *

منذ صباي كنت أهوى غرائب الأشياء، وكان الكهف هناك دومًا ليذكرني بأن في قريتنا أشياء غامضة لم تتضح بعد.. في قريتنا لم تعد هناك أسرار.. كل قلوب الشباب واضحة كالشمس.. كل أفكار الشيوخ جلية كالماء النقي.. أعرف ما يدور برأس القس ورأس البقال ورأس الشرطي الوحيد.. أعرف ما سيحدث بعد عام وبعد عامين على وجه التقريب.. الخلاصة أن شيئًا غامضًا واحدًا لم يبق في قريتنا..
لكن الكهف.....!

* * *

وأغرب ما في هذا الكهف أنه ـ على عكس الكهوف كلها ـ غير مغلف بالأسرار.. إنّه البساطة ذاتها.. لم يختف أحد بداخله، ولم يمت أحد على بابه، ولم نسمع منه صراخًا رهيبًا في الأمسيات المقمرة...
وهذا في حد ذاته يجعله فريدًا من نوعه.. الكهف الوحيد غير الغامض في هذه الأرض!
لم يكن أحدنا يحبه، ولم يكن الشباب يقصدونه، لأن رائحته الكريهة كانت تجعل الشباب يفرون منه.. أحيانًا كان العشاق يدنون منه ليخطوا بالطبشور الحروف الأولى من أسمائهم (الحروف الأولى التي لا تسمح باستنتاج أسمائهم الكاملة)، ويرسموا قلوبًا.. لكنّ هذا هو كل شيء، لأن الرائحة الشيطانية لم تكن تسمح بما هو أكثر..
وجاء اليوم الذي بلغت فية السادسة عشرة من عمري، وأدركت أن الوقت قد حان كي أحتفل احتفالًا خاصًا فريدًا: لِمَ لا أدخل الكهف وحدي؟
الشيء الذي لم يقم به شاب واحد من شباب القرية، ولم يخطر لرجل واحدها هنا.. أقوم به أنا الفتاة الواهنة الضامرة (ناديا هالماسكيا).. أليس هذا عيد ميلاد من نوع فريد؟

* * *

لن أنسى هذا اليوم ما حييت..
كنت عائدة من المدرسة والوقت عصرًا، والحر قد جعل دروب القرية كلها خاوية تنبعث منها رائحة القيظ، ورائحة أوراق الشجر الجافة التي أوشكت على الاحتراق..

كنت أركب دراجتي، لذا قررت أن أدور دورة أطول من المعتاد قرب الكهف في النصف الشمالي من القرية.. ولم يكن هناك أحد..

وقفت أرمق الكهف بعض الوقت.. كان الإغراء شديدًا..

لست أدري ما إذا كان محض خيال، لكني شعرت بالكهف العجوز يناديني قائلًا: الآن أو لا للأبد..

هبطت مترجلة وأرحت الدراجة على الأرض، ثم دنوت - كذبابة تدنو من بيت العنكبوت - وأنا أفكر: هل من الحماقة أن.....؟

ثم كيف أدخل الكهف دون حبال ولا كشافات؟ كلهم يفعلون هذا في الروايات.. لكنّ من قال إنني سأتوغل؟ فقط سأدخل إلى مسافة لم يدخلها أحد قبلي قط..

كانت أول خطوة هي الأكثر عسرًا.. الخطوة التي جعلتني أنحني وأمر تحت الحبل.. الحاجز الساذج الذي وضعوه على سبيل الواجب..

بعد هذا كانت أربع أو خمس خطوات كفيلة بأن تجعلني في الداخل.. ولم يكن ملكوت الظلام قد ساد بعد، لكنّ ملكوت الرائحة كان قد أعلن مجده! وسمعت حفيف أجنحة..

إنها تلك الكائنات المقيتة: الوطاويط.. لكنّها ستفر حتمًا.. فلم يصطدم أحدها بي ما لم يكن أصم..

واصلت المشي بقدمين ثابتتين نوعًا فوق الثرى المبتل.. لا بد أنني مشيت في الغبشة دقيقة لا أكثر.. لكني كنت أشعر بأنني مشيت دهرًا، وراح ذلك الجزء الجبان من عقلي يقول لي:

- «هلمي يا فتاة.. عودي! لقد توغلت بما يكفي وبرهنت على شجاعتك.. والآن حان وقت التراجع.. حان وقت الفرار!»

لكني كنت آمره بالصمت..

فيعود ليقول بعد ثوان بنفس الإلحاح:

- «أمّا زلت مصرة؟ أي نوع من الحمقى أنت؟»

فيقول له الجزء الشجاع من عقلي:

- «هلا خرست قليلًا؟ إنني لم أو شيئًا بعد.. ثم إن التراجع سيجعلني أشعر بالذعر.. سأشعر كأن هولًا يطاردني..»

كنت أدرك هذا الشعور تمامًا.. ما دمت أتقدم بجسارة سيظل الخوف نائيًا عني.. الخطر كل الخطر هو لحظة التراجع..

إنني أعرف ذلك المشهد الخالد في أفلام الرسوم المتحركة، التي تعرضها سينما القرية مساء الأحد: القط يخطو فوق الهاوية دون أن يلاحظ ذلك.. يمشي في الهواء بضع خطوات، ثم يتنبه إلى أن الأرض ليست تحت قدميه.. عندها فقط يسقط!

هكذا الأمر دائمًا.. الخطر لا يؤذينا إلا حين نعرف أنه خطر..

* * *

(هو) - الذي يمشي في الظلال - يصغي لأنفاسك الآن..

* * *

من قال هذا؟

توقفت وقد تصلب الشعر في مؤخرة عنقى.. الحق أن ما سمعته لم يكن صوتًا بل كان فكرة.. فكرة أجنبيّة عنى لكنّها وجدت مكانها في ذهني.. إن هذا غريب حقًّا..

في هذه اللحظة لم أكن أرى شيئًا على الإطلاق.. لقد صار الظلام مطلقًا.. لهذا بحثت عن عود ثقاب في جيبي.. أنا أحمل دائمًا مشط ثقاب ولا أدري سبب هذه العادة..

اشتعل عود الثقاب محدثًا الوهج الأولى الساطع.. ثم الضوء الخافت المتراقص المميز.. وعلى ضوئه أدركت أن الممر مسدود..

* * *

(هو) - الذي يمشي في الظلال - ينتظرك في شغف منذ قرون..

* * *

إنه الصوت مرّة أخرى..

لكن ما رأيته جعلني أكثر اهتمامًا من كل ما أسمعه في ذهني..

إن هذا المكان مقبرة!

لم تكن كأية مقبرة رأيتها، أو تلك التي في كنيسة القرية.. بل هي أقرب إلى جدران صخرية، والجدران قد دفنت فيها هياكل عظمية كاملة.. لكنّ...

لقد انطفأ العود بعد ما أحرق أناملي..

* * *

عود ثقاب آخر.. من جديد أرى ما يدور حولي..
وفي هذه المرّة بدأ الهلع يشل أفكاري..
إن هذه الأجساد قد دفنت في الجدران دفنًا.. ومن الأيدي العظمية الممدودة خارج الجدار يمكنني أن أقسم إن بعضهم قد دفن ها هنا حيًّا في أثناء البناء! وكان هذا كافيًا كي يقهر أية شجاعة لي..
هذا المكان دنس.. مكان يحمل علامة (خريولسن) نفسه.. إنّه.....
لقد انطفأ العود الثاني..

* * *

الهلع!

نظر القط إلى قدميه وأدرك أنه لا يمشي على أرض ثابتة.. لذا جن جنونه.. حرّك قدميه في محاولة هستيرية للمشي.. ثم هوى!
أركض في اتجاه المخرج عاجزة عن ترتيب أفكاري..
يدي تحاول في جنون إشعال عود ثقاب ثالث.. لكن هذه الأشياء لا تتم إلا في تؤدة وبيد ثابتة..
و.. أي! لقد ارتطم رأسي بواحد من تلك الأشياء المدببة التي تحب التدلي من سقوف الكهوف..
يبدو أنهم يسمونها (الهوابط).. لكنّ (الجيولوجيا) هي آخر ما يمكنني تذكره الآن..
إنني.. أي! ضربة أخرى..
شعور البلل الساخن على جانب وجهي لا يعني سوى شيء واحد..
المذاق المالح في الفم.. المذاق الصدئ قليلًا.. و.....

* * *

ظلام!

* * *

كنت على منضدة خشبية قاسية أرمق السقف غير فاهمة لشيءٍ.. ورأيتهم - بين اليقظة والمنام - يحيطون بي.. عددهم حوالي الخمسة يرتدون ما يشبه مسوح الرهبان السوداء، لكنهم يغطون بها وجوههم تمامًا فلا تستطيع تبين ملامحها..
وأدركت أنني موجودة فيما يشبه بهو قصر قديم.. قصر أو قلعة.. أذكر البرد الشديد الذي كان يسري في عروقي، والشعور اليقيني بأن هذا كله حلم من أحلام سقطتي..
كانوا يتحدثون بلغة رومانية قديمة من التي نطالعها في كتب المدرسة.. وثمّة عدد من المشاعل تلقي ظلالها على المكان ممزوجة برقصة الضوء.. لكني لم أكن خائفة..



بل هى أقرب إلى جدران صخرية ، والجدران قد
دفنت فيها هياكل عظمية كاملة ..

قال واحد منهم بصوت متحشرج قليلًا:
- «هأنتذى يا فتاة بيننا.. لقد اجتزت الثغرة إلى (جانب النجوم)..»
وقال آخر بصوت مبحوح:
- «إن سنك مناسبة حقًّا.. فنحن نفضل من هي على أعتاب الشباب.. إنهن أكثر اتصالًا بالأثير وأكثر انفصالًا عن المادة..»
وقال ثالث بصوت مخنوق:
- «أنت المختارة إذن.. التي جاءت بمحض إرادتها الحرة لتنزف دمها الشاب في المحراب..»
ثم بصوت آمر:
- «هات الإكسير أيها الأخ (سانجينوس)[1]..»
وشعرت بالقارورة تدنو من شفتي.. ولم يقل أحدهم لي أن أشرب.. لكني فعلت مدفوعة بظمأ حارق.. كان الشراب عطريًا قليلًا له مذاق حريف.. فما إن فرغت من احتسائه حتى سمعت تنهدات الراحة..
بعد هذا لا أذكر ما حدث بالضبط..
فقط كنت غير واعية، لكني أسمع صوت أحدهم يقول:
- «أنت لن تموتي.. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها تلفظين كل خطايا الماضي..»
وأسمع آخر يقول:
- «(هو) - الذي يمشي في الظلال - يريد منك أن تجلبي له آخرين..»
وأسمع ثالثًا يقول:
- «فلتعودي من (جانب النجوم) يا فتاة..»
- «ولتتأهبي لقدوم (هو).. (هو) الذي يمشي في الظلال..».
- «(هو) - الذي يمشي.....»
ثم لا شيء.....

* * *

وكنت خارج الكهف من جديد.. ممزقة الأوصال مزعزعة الكيان، لكني تحاملت لأقف على قدمي..
كانت الشمس قد غابت لكنّ الأفق لم يعد مظلمًا بعد..
وتحسست جيبي.. كانت هناك قارورة صغيرة، وعرفت دون سؤال أو حاجة لأن أفتحها، أنها تحوي الإكسير.. أو المادة الخام له..
هي ذي دراجتي.. حيث تركتها بالضبط منذ ساعات ثلاث..
ركبتها وانطلقت نحو داري..
كنت أعرف أن عليّ أن أجد شخصًا آخر لنغدو اثنين..
لقد اختارني (هو) - الذي يمشي في الظلال - عالمًا أنني لن أخذله..
وكان على أن أبدأ بـ (فيروزة)..

من سواها؟

* * *

حكاية الصحفي البدين

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال (جوستاف):

ـ لم نكن نعرف شيئًا عن كل هذا، حين راح أولئك المسوخ يدفعوننا دفعًا إلى الكهف وهم يتصايحون..

وانحنينا كى نمر تحت الحبل الذي وضعوه على المدخل.. ثم وجدنا أننا نقف أمام المدخل عطن الرائحة نتبادل النظرات..

سألت (رفعت) وأنا أرمق الوجوه في ضوء النيران:

- «هل تريد رأيي يا (رفعت)؟ واضح أنهم لن يدخلوا معنا..»

قال لاهثًا وهو يستجمع وعيه المبعثر:

ـ «لا بأس.. هذا يبدو أفضل..»

وأردف وهو ينظر للمدخل المظلم:

- «نحن نعرف ما ينتظرنا مع هؤلاء القوم.. وهو أسود من الليل وألعن من الشياطين.. لكننا لا نعرف ما ينتظرنا بالداخل.. أفضل أن نجرب هذا الاحتمال...»!

ابتلعت ريقي ودسست يدي في معطفي، وقلت:

- «حسن.. ابدأ أنت بالدخول إذن!»

* * *

رحنا نخطو في الظلام إلى أن مددت يدي في جيب المعطف، وأخرجت الكشاف.. وعلى ضوئه تحسن الأمر قليلًا..

وقفت و(رفعت) بضع دقائق نرمق المكان الذي نقف فيه، والذي كان كهفًا عاديًا جدًّا.. ولم تكن هناك وطاويط لحسن الحظ.. يبدو أنها خرجت باحثة عن رزق ليلتها..

سألني (رفعت) وهو يتحسس الجدران المغطاة بالكلس:

- «هل سيتركوننا نخرج؟ أعني هل سنظل هنا للأبد بانتظار الموت أم أن التجربة انتهت عند هذا الحد؟»

مططت شفتي السفلى بمعنى أنني لا أعرف...

ثم أشرت له كي نتوغل أكثر فأكثر..

لم تكن هناك فرصة كي نضل طريقنا لأن الكهف عبارة عن ممر واحد ليست له ممرات فرعية.. ليس أمامك سوى التقدم أو التراجع..

كان الثرى مبتلًا فثمّة قطرات مائية تتساقط من السقف..

وعلى ضوء الكشاف رأينا عشرات من العيون الحمراء البراقة، ترمقنا في ذعر حقيقي، جوار الجدران..

فئران.. وأنا أمقتها.. لكنّها مذعورة مثلنا أو أكثر..

أخيرًا ـ بعد عشر دقائق من المشي - وجدنا شيئًا ما..
وسمعت (رفعت) يقول وهو يثبت عويناته على قصبة أنفه ليرى أفضل:
- «مقبرة! أو - بمعنى أدق - جثث تم دفنها في الجدار!»

* * *

رحنا نتأمل المشهد على ضوء الكشاف.. كانت هناك نحو العشرين جثة، وقد تم دفنها واقفة في الجدار، وإن ظل جزء منها خارجه.. ومن الأيدي العظمية الخارجة من الجدار، والتي بدا كأنها تحاول اقتناصنا أو إمساك أي شيء من ثيابنا؛ عرفنا الحقيقة المفزعة: لقد دفن هؤلاء أحياء، ولم يعبأ أحد بتوسلاتهم، بينما مادة البناء تجف ببطء!

سألني (رفعت) وهو يخرج من جيبه العلبة إياها، ليدس قرصًا تحت لسانه، محاولًا منع قلبه من التوقف:

- «هل تعرف موضوعًا كهذا في تاريخكم؟»

- «بالطبع لا.. هل تحسبنا ووحوشًا؟»

- «لا سمح الله.. لكنّ تاريخكم حافل بقطع الرقاب والخوازيق وخلافه.. ولربما كان موضوع الدفن في الجدران معروفًا عندكم.. لقد اعتمد (نبوخذ نصر) على أجساد الأسرى في أثناء بناء سور (بابل) العظيم.. أي أنها طريقة قديمة قدم البناء ذاته...»

- «لا أحد يدفن البشر في جدار ما لم يكن مخبولًا..»

دنا (رفعت) من أحد الهياكل العظمية، وتأمله في اهتمام.. كان يمثل النصف الأيسر لرجل كامل على حين اختفى النصف الأيمن داخل الجدار، وكان الكلس وعوامل القدم قد جعلاه يبدو أقرب إلى نحت متقن منه إلى إنسان..

رأيته يعالج الصخر المحيط بالشيء باظفاره، وهو جهد بلا جدوى طبعًا، لذا مددت يدي في جيبي لأناوله مطواتي الفاخرة:

- «جرب استعمال هذه..»

تأمل المطواة، وفتحها.. ثم نظر لي.. وقال دون أن يضحك:

- «هل أنت واثق من أنك لا تحمل دبابة في جيب هذا المعطف؟ لو كنت تحمل فراشًا للنوم أرجو أن تخبرني.. لأن.....»

وهنا كان نصل المطواة قد غاص في الحجر المتأكل.. وراح يحاول أن يخلخله ليرفع جزءًا منه.. أخيرًا بعد جهد حذر سقطت بضعة أحجار على الأرض، وعاد هو يواصل ما بدأه على ضوء الكشاف..

- «احترس يا (رفعت).. لو انكسر نصل المطواة لـ.....»

مزيد من الحجارة يسقط.. أخيرًا تحرر ثلثا الجسد عند الصدر.. واستطعت أن أرى خرق القماش البالية.. ثياب هذا الشيء التي كان يرتديها منذ يعلم الله وحده متى..

- «(رفعت)! هل ستخرجه بالكامل؟»

كانت مهمّة قذرة.. لكنّ العظام أقل رهبة من الجثث الكاملة على كل حال.. خاصة العظام التي نظفتها القرون..

لكن (رفعت) لم ينتو إخراج الهيكل بكامله..

رأيته يشير إلى شيء معلق حول عنق الميت.. قربت ضوء الكشاف وتأملته.. إنّه صليب أثري عتيق.. ولكن ماذا في ذلك؟



رحنا نخطو فى الظلام إلى أن مددت يدى فى جيب المعطف ،
وأخرجت الكشاف . . وعلى ضوئه تحسن الأمر قليلاً

رأيت (رفعت) يخرج شيئًا آخر.. شيئًا يشبه الوتد الغليظ قد انغرس وسط الضلوع فهشم أكثرها، وانتزعة بصعوبة بالغة..

وقف يتأمل الوتد البالي في ضوء الكشاف.. ثم قال بصوت هادئ:

- «الأمر واضح.. هذه جثث مصاصي دماء!»

* * *

- «عم تتحدّث يا (رفعت)؟ هل ستردد بدورك هذا الهراء؟»

قال وهو يقذف الوتد إلى الأرض:

- «أردده لكني لا أصدقه بالضرورة.. الأمر واضح.. هذه الجثث دفنت في الجدار بعد غرس الأوتاد في قلوبها وتعليق الصلبان حول أعناقها.. وبرغم هذا لم يمت الجميع..

إنها الطريقة التي لجئوا إليها في القرون الوسطى، للتخلص من مصاصي الدماء ها هنا.. والأسطورة تقول إن مصاص الدماء يظل ميتًا حتى ينزع أحد الحمقى الوتد من قلبه.. ومن الواضح أن فكرة الدفن في الجدار مثالية لمنع انتزاعه..»

- «وأنت نزعت هذا الوتد!»

قال في ازدراء:

- «الموتى لا يعودون للحياة قبل قيام الساعة.. هذا هو الشيء الوحيد الذي أثق به هنا..»

ثم نظر إلى ساعته، وسألني وهو يجفف عرقه:

- «كم لبثنا ها هنا؟»

- «ما يقرب من ساعة..»

- «وهل هذا الكشاف قادر على تحمل فترة أطول؟!»

نظرت إلى الكشاف في قلق.. لقد نسيت هذه العادة السيئة لدى الكشافات..

قلت وأنا أركل الوتد على الأرض:

- «اطمئن.. إن ضوء هذا الكشاف لا ينتهي إلا عندما ينتهي!»

* * *

- ٢ -

وعلى ضوء الكشاف الذي ما زال قويًا لحسن الحظ، واصل (رفعت) الحفر بالمطواة في جزء آخر من الجدار.. الجزء المواجه لنا.. وكان هشًا جدًا..

قلت له في سأم:

- «ماذا تحاول عمله؟ لن تثقب الكهف بالمطواة أبدًا..»

قال والعرق يغمر صلعته، وقد بدأ في اللهاث كالمذعوبين:

- «هه.. هه! أحاول التأكد من أن.. هه.. هذا الجدار لا يفصلنا عن بقية.. كوح كح! الكهف..»

- «لكنك ستقضى نحبك قبل التأكد من شيء..»

- «إنني بكامل لياقتي.. ومازال.. هه! قرص (النترات) تحت لساني..»

وهنا صمتُّ..

لقد رأينا وراء الصخور التي تفتت بما فيها.. المعالم الخارجية المتسخة لباب خشبي عملاق.. باب عليه صليب هائل الحجم، وقد ازدان - الباب - بنقوش معقدة جدًا..

نظر لي (رفعت) نظرة من نوع (هل - رأيت - كم - أنا - ذكي - يا أحمق؟).. ثم تناول الكشاف مني وراح يتفحّص الباب العملاق، ودون كلمة أخرى واصل انتزاع الحجارة بيده الحرة..

أخيرًا - بعد عشر دقائق - صار الباب جليًا لعيوننا.. وزال لدي كل شك في أنني أحلم.. هذا الشيء موجود حقًّا..

- «رباه! يبدو لي كباب الجحيم!»

قال (رفعت) وهو يجلس على الأرض يلتقط أنفاسه:

- «لن يدهشني هذا.. فقد أغلق أحدهم هذا الباب يومًا، ثم بنى وراءه جدارًا قواه بجثث مصاصي الدماء.. فماذا يمكن أن يكون وراءه؟ ليس (بابا نويل) بالتأكيد..»

وطوح لي المطواة:

- «مطواتك!»

أمّا أنا فراحت عيناي تفتشان في الخشب العملاق المتأكل.. خشب عاش قرونًا.. وأخيرًا وقعت عيناي على وثيقة من جلد الحيوانات المدبوغ، مغبرة جدًا، قام أحدهم بتثبيتها على الخشب..

وكانت مكتوبة بحروف سلافية عتيقة بولغ في زخرفتها.. لكنّها مفهومة مقروءة.. قلت لـ (رفعت) وأنا أقرب الكشاف من الوثيقة:

- «إنها تنصحنا بعدم فتح الباب..»

أراح رأسه للوراء ونزع عويناته.. وتنهد:

- «ما كنت لأحتاج إلى وثيقة أثرية تخبرني بهذا..»

أردفت وأنا أبعد عيني عن الورقة، وأنزع عويناتي بدوري لأرى أفضل:

- «إليك المكتوب.. إنها لغة رومانية قديمة جدًا لكنّها مفهومة لمن كان مثقفًا مثلي:

«فلينتصر من على حق..»

«أنا الكونت (ستيفانو) هراوة الرب، ومنفذ كلمته في هذه الربوع، أكتب للأجيال القادمة كي أحذر أبناءها من فتح هذا الباب..

«إن شرًا مستطيرًا قد حل بقرية (هالماجيو) من أعمال (بوكوفينا)، واستغاث بنا القرويون أنا الكونت (ستيفانو) حامل راية الأسد المجنح وحامي حمى الكنيسة، لذا جئنا ها هنا واستطعنا بفضل العلي القدير أن نستأصل شأفة الموتى الأحياء والـ (فامفيري) من البلاد..»

سألني (رفعت) عند هذا الجزء:

- «ما الـ (فامفيري)؟»

- «مصاصو الدماء.. لاحظ تشابه الكلمة مع لفظة (فامباير) (Vampire) الإنجليزية التي تعنى الشيء ذاته..»

ثم واصلت القراءة:

«واستطعنا - بعون العلي القدير - أن نجد بوابة الجحيم التي يأتي منها الـ (فامفيري) إلى عالمنا مما يسموّنه (جانب النجوم)، ولقد أغلقناها بإحكام ورش الآباء عليها الماء المقدس وصلوا كثيرًا، كما قمنا أنا الكونت (ستيفانو) سليل العظماء بدفن كل الـ (فامفيري) في الجدار الذي أحكمنا به غلق الباب..

«لكنّ الباب قد ينفتح لو تلوث هذا الكهف بدم عذراء شابة، عندها يعم الهول وتغزو الأبالسة الأرض لتملأها جورًا..

«أقول للأجيال القادمة التي قد تجد هذا الباب: إياكم وفتحه.. هذا الباب هو مدخل الشياطين إلى عالمنا، وهو واحد من سبعة مداخل في (رومانيا)، لكنه أكثرها هولًا وخطرًا..»

- «انتهت رسالة الكونت يا (رفعت).. ما رأيك؟»

قال وهو ما زال جالسًا على الأرض يتأمل عويناته في يده:

- «رأيي أنّ هذا الكونت لا يكف عن امتداح نفسه.. لم أر أحدًا يلقب نفسه بكل هذه الألقاب في عشرين سطرًا..»

- «أنا لا أملك مزاجًا لسماع دعاباتك السخيفة.. كن جادًا!».

قال لي (رفعت) وهو يرتدي عويناته، وينهض:

- «حسن.. سأسمع رأيك أولًا ثم أقول لك كم أنت غافل...»

أطفأت الكشاف لأدخره قليلًا، ثم قلت في الظلام الدامس:

- «أنت تعرف موضوع الفتحات التي تصل ما بين عالمنا و(جانب النجوم).. من الواضح أن إحدى هذه الفتحات موجودة في هذا الكهف، وهو ما عرفه الناس منذ زمن، وحاولوا غلقها بهذا الباب وبجثث مصاصي الدماء.. ويبدو أن الفتحة ظلت مغلقة قرونًا..

الآن يمكن القول إن إحدى مراهقات القرية دخلت ها هنا.. وجرحت نفسها.. بلل دمها - دم العذراء - الأرض.. وهكذا بدأ الكابوس وتسرب مصاصو الدماء إلى هذه القرية البائسة ليحيلوا حياتها جحيمًا..

ما أريد قوله هو أنّ هذا الباب غير موصد..»

- «فلنتأكد...»

ونهضت لأعيد إضاءة الكشاف وأسلطه على الباب.. كل شيء يبدو على ما يرام.. لكنّ.. هاهو ذا مزلاج منزلق عن موضعه.. مزلاج عملاق يصلح لغلق بوغاز.. لكنه ليس مغلقًا..

هو ذا مزلاج آخر مفتوح.. بالواقع إن الباب موارب، لكنه ليس موصدًا على الإطلاق..

نظرت لـ (رفعت)، ونظر (رفعت) لي..

- «ما رأيك؟»

- «أنت محق.. ومن هذا الباب سيأتي الكابوس..»

- «أي كابوس؟»

- «الشيء الذي أرغمونا على دخول الكهف من أجله.. فهم بالتأكيد لم يدخلونا هنا كي نثرثر في الظلام..»

ارتجفت للفكرة، وعاودت تأمل الباب الموارب.. هل نرجع؟ سيفتك بنا هؤلاء الممسوخون بالخارج.. هل ننتظر هنا؟ سينفتح الباب ويخرج منه ما لا أطيق رؤيته حتمًا..

وهنا جاءتني الفكرة الوحيدة التي بدت معقولة:

- «(رفعت).. قد يكون هذا الباب وهمًا.. لم لا نفتحه ونرى ما وراءه؟»

- «هل جننت؟»

- «بالعكس.. إنها الطريقة الوحيدة لفهم ما يحدث وربما النجاة.. من أدرانا أنّ هذا الباب لا يقود إلى خارج الكهف وربما خارج القرية؟!»

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال د. (رفعت):
- «الرعب خلف باب مغلق..
لن تكف هذه التيمة عن إثارة ذعرنا حتى تقوم الساعة أو يستبدلوا بالأبواب اختراعًا آخر..»

* * *

في تؤدة ربط (جوستاف) الحبل حول خصره، وكنت أحمل هذا الحبل في جيب معطفي.. طوله خمسة أمتار لكنه جيد متين.. أمسكت بالطرف الآخر وربطته حول معصمي.. بهذا الحبل لن نضل طريقنا أو يتعثر أحدنا في حفرة ما..
أخذ شهيقًا عميقًا ودنا من فتحة الباب، ونظر لي.. ثم غمغم:
- «كن حذرًا.. انتظر حتى يصير الحبل مشدودًا ثم اتبعني.. يجب أن يكون أحدنا في أمان لينقذ الآخر لو حدث شيء..»
- «حافظ على الكشاف.. فإن لقيت حتفك لا تنس أن تعيده إلى..»:
وارب الباب في حرص بضع سنتيمترات.. لم يحدث شيء.. رفع الكشاف قليلًا ليتفقد ما وراء الفتحة ثم هزّ رأسه.. لم أفهم معنى هذه الهزة.. يمكن أن يكون معناها (لا شيء) أو يكون (يا للهول!)..
المهم أنه اجتاز الباب وعبر إلى جانبه الآخر، ومعه عبر الضوء.. وكذا وجدت نفسي في ظلام دامس كظلام الرحم.. أو كظلام القبر...
وحبست أنفاسي وأصغيت في اهتمام لما يحدث بالجانب الآخر..
هنا لم يعد الإصغاء ذا أهميّة ما..

* * *

سمعت الصراخ الشنيع والزئير.. وسمعت صوت الرياح.. وراح الباب يترجرج كأنما يوشك أن يخرج من حلقه..
ومن الفتحة الموارِبة تسرب شعاع أحمر مريع، وتسرب دخان لا أدري هل هو أحمر أم هو يعكس لون الشعاع..
- «(جوستاااااااف)!»
صرخت حتى خرج لساني من أصوله.. صرخت حتى وثبت عيناي من محجريهما؛ فالذعر الذي غمرني كان أعمق من أي تعقل..
- «(جوستاااااااف)!»
ألصقت ظهري بالباب جاهدًا كي لا تجذبني قوي الهلاك إلى الداخل، أو تخرج لي حيث أنا..

صوت الصراخ والعواء والأنين والخوار والغطيط والنواح والعويل والبكاء والثبور.. كل هذا يمزق طبلتي أذني..

وشممت الرائحة الشهيرة: رائحة الكبريت.. رائحة مصاصي الدماء..

- «(جوستاااف)!»

وتحرك الباب بقوّة، فرماني إلى الوراء مترين، وتوتر الحبل..

* * *

هنا انفتح الباب قليلًا، وطار الكشاف إلى الداخل ليسقط فوقي.. ثم رأيت النصف العلوي لـ (جوستاف) يبرز من فرجة الباب.. يتشبث به في قوة، وعلى وجهه علامات ذعر حيواني لم أرها قط..

- «(رفعاااات)! إنهم يجذبونني!»

هرعت إلى الباب واعتصرت كم معطفه، وتراجعت للوراء.. كانت قوى الجذب غير عادية.. لقد تذكرت هذه اللحظة كثيرًا فيما بعد حين رأيت سمكة القرش العملاقة تجذب الصياد إلى الأعماق في فيلم (الفك المفترس)..

لكني كنت أملك الحبل.. وسرعان ما قمت بلفه حول صخرة كبيرة بارزة من الأرض.. بهذا ضمنت ألا يضيع الرجل لو تخاذلت أنا.. ثم رحت أجذبه بكل قواي وأنا أردد آية الكرسي والمعوذتين وكل ما في قلبي من أدعية..

أخيرا بدأنا نكسب المعركة.. بدأ يلين.. وسرعان ما لحق بي إلى الداخل.. وأغلقت الباب وراءه..

ولدقائق رقدنا نلهث وظهرنا للباب، شاعرين بضربات هائلة من الجانب الآخر.. قلت لـ (جوستاف) مطمئنًا:

- «لا تخش شيئًا.. إنهم يحاولون إرعابنا.. يستطيعون الدخول في أية لحظة لو أرادوا.. هم فقط غير راغبين!»

لم يرد.. كان منهما في صلاة طويلة باللغة الرومانية.. وشفتاه ترتجفان.. لقد تهشمت عويناته وتبعثر شعر رأسه الواهن.. أنامله تهتز كذيل حية الجرس.. ماذا رآه بالضبط؟

أخيرا هدأت الطرقات وأمكنني أن أسترخي قليلًا..

نظرت لمزلاجي الباب المفتوحين الصدئين، وأدركت أنه من المستحيل أن أغلقهما.. الباب كله لا يمكن غلقه..

فلآمل أن الكائنات على الجانب الآخر لا ترغب في الخروج الآن.. ربما هي - فقط - ثارت وماجت لأن (جوستاف) دخل لها..

سألته في هدوء وبصوت يحاول ألا يفزعه:

- «(جوستاف).. ماذا رأيت هناك؟»

لم يرد.. فعاودت السؤال:

- «(جوستاف).. ما الموجود هناك؟»

ظل صامتًا فنظرت له متوقّعًا أن يكون قد مات.. كلهم يفعل ذلك في السينما، لكنه كان حيًّا.. فقط كان متسع العينين يرمق الباب في بلاهة، وانفتح فمه فسال اللعاب منه، لكنه لم يبال به...

حقا إنني في مأزق.. سجين هذا الكهف الذي ينتظر مصاصو الدماء الشاحبون خارجه، وينتظر (جانب النجوم) بداخله، وعلى أن أواجه هذا مع رفيق فقد عقله نهائيًا!

* * *

- ٢ -

رائحة الكبريت هذه!

* * *

عليّ أن أجد حلًا سريعًا..
لقد بدأ ضوء الكشاف يخبو.. عرفت هذا لأنني كنت منذ دقائق أجلس في هذا المكان وأرى تفاصيل الباب، أمّا الآن فقد صار الباب مبهمًا غارقًا في الظلال.. و...

* * *

(هو) - الذي يمشي في الظلال - ينتظرك..

* * *

ولكن ما الذي رآه (جوستاف)؟ ما الذي يراه المرء ويجعله يجن ويفقد النطق؟ الحق أنني لا أريد أن أعرف.. (في قصة قادمة سأحكي للقارئ رحلتي إلى جانب النجوم وما رأيت فيه، لكنّ دعني أعترف أنني لم أزر جانب النجوم في المغامرة التي بين يديك الآن)..
الكشاف يضعف أكثر..
لا سبيل إلى مغادرة الكهف عن طريق الباب.. لا سبيل إلى مغادرته عن طريق الفتحة التي يحيط بها الشاحبون..
هل أنتظر للصباح عندما يغادر هؤلاء مكانهم؟ نظرت لساعتي فوجدت أنها الواحدة بعد منتصف الليل.. أنا لا أضمن نتائج بقائي ها هنا ست ساعات كاملة حتى تملأ الشمس السماء.. ربما كان كهف المفاجات هذا يحوي المزيد من الأسرار الشائقة لنا..
هل تحرك هذا الهيكل؟ لا.. لا أظن.. إنها لعبة الظلال إياها...

* * *

(هو) - الذي يمشي في الظلال - يعرف كيف يثير هلعك..

* * *

هنا قر رأيي على فكرة خطرة..
خطرة لكنّها مغرية..
الشاحبون ينتظرون خارج الكهف.. ينتظرون ماذا؟ ينتظرون هلاكنا أو تحولنا إلى شاحبين مثلهم... لقد قالوا إن علينا أن نغدو منهم.. فماذا لو حدث هذا؟
إنها لعبة خطرة.. خاصة وقد أصيب مترجمي الوحيد المختص بالترجمة (الرومانية / الإنجليزية) بالخبال.. ولن أعرف أبدًا ما سيقول هؤلاء القوم..
لكني لن أتردد أكثر.. سأحاول أن أؤدي دوري جيدًا..

* * *

كان هناك الكثير من الحجر الجيري على الجدران، فرحت أفركه بيدي ثم مسحت كفي على وجه (جوستاف) المكتنز.. لم يبد أنه لاحظ شيئًا.. رأيت اللون الأبيض يغمر البشرة فرحت بكفي أحاول جعله أكثر تجانسًا.. وأخيرًا بدا لي (جوستاف) كعفريت أبيض البشرة.. لكنّ...
(فلنأمل ألا يعرق.. إن العرق يفسد كل شيء)

حاجباه اكتسبا اللون الأبيض بدورهما، فرحت أنظفهما بلعابي.. لا بأس لن يضايقه هذا..
قمت بنفس العمل النفسي وأحكمت مسح صلعتي.. ونظفت حاجبي وشاربي جيدًا.. ثم مددت يدي إلى جيب (جوستاف) وأخذت المطواة..
آي! كادت ساقي تقتلني ألمًا حين أدميتها بالنصل.. لكن لا حيلة لي في هذا.. لا بد من بعض الدماء على الشفتين لتعطي تأثيرًا دراميًا قويًا.. وهكذا لطخت شفتي (جوستاف) وشفتي و...
(لا بد أنّ هناك ثغرات كثيرة في هذا التنكر)

بعثرت بعض قطرات الدم على باقة قميصه وفراء (الاستراخان) إياه..
وكان آخر شيء فعلته هو أن مسحت يديه حتى المعصمين بالجير، وفعلت الشيء ذاته مع يدي..
إن الجير يحرق.. وقد شعرت بجلدي يئن شاكيًا.. لو خرجنا حيين من هذا الموقف لعولجنا من (الإكزيما) لمدة عامين..
والآن - وقد تم إخراج المشهد ـ علينا أن نغادر هذا الكهف حالًا.. وقبل أن يلفظ الكشاف آخر أنفاسه..

* * *

رائحة الهواء النقي تبعد عنا رائحة الكبريت..
(جوستاف) يمشي ورائي وأنا أجره من يده، كأنما هو إنسان آلي.. فما إن رأيت مدخل الكهف، وأشباح الواقفين خلفه، وضوء النيران التي أشعلوها؛ حتى أدركت أن خطتي فاشلة..
من قال إنني أستطيع خداع هؤلاء بتنكر ساذج، قمت بعمله في ضوء كشاف يحتضر؟ ألن يتحسس أحدهم بشرتي؟ ألن يبلل العرق جبيني ليفسد كل شيء؟
لقد كنت ـ للمرة البليون - ساذجًا.. ساذجًا..

لكني قررت الاستمرار في حماقتي.. يقولون للمبتدئ في القيادة: إذا أخطأت فلا تتردد.. واصل حماقتك لأن التردد قد يحدث كارثة..
إذن فلأواصل حماقتي.. ولآمل أن يكونوا أحمق مني..

* * *

جميعًا كانوا هناك.. (شيطان الظلام).. (نهر النار).. (الروح الكبرى) وآخرون... بوجوههم المسخية المتأكلة يرمقوننا في فضول..
شخصت ببصري إلى السماء مقلدًا (صالح سليم) في (الشموع السوداء)، أو كأنني (أحمد مرعي) في فيلم (المومياء).. فقد كان يكفيني أن تلتقي عيناي بعيني أحدهم ليفتضح كل شيء، ومشيت بينهم متصلب الخطى، متقمصًا دور من رأى تجربة مروعة.. سمعتهم يتهامسون.. والأخت الكبرى تتكلم بالرومانية، وتشير بكفها ذي الإصبعين المفرودتين.. ماذا تقول يا ترى؟ تشك بالتأكيد...
سمعتهم يوجهون الكلام لـ (جوستاف) لكنه - دون تمثيل - كان في أسوأ حالة ممكنة.. وكان هو ورقتي الرابحة الوحيدة..
رحت أردد كالمجذوبين الكلمة الرومانية الوحيدة التي أعرفها الآن:
- «فامفيري! فامفيري!»
فشهق بعضهم، وتبادلوا النظرات من جديد..
وسمعت اللفظة تتردد بين صفوفهم:
- «فامفيري! فامفيري!»
يفسحون لنا الطريق.. لكني لا أجرؤ على النظر الوجوههم كي أرى ما إذا كانوا يشكون أو يتساءلون..
هل التمثيل مقنع إلى هذا الحد؟
الحق أنني. في هذه اللحظة. كنت ألعب دورى بعبقرية (لورانس أوليفييه) و(سارة برنار) و(جورج أبيض) و(يوسف وهبي)، لو أنهم اجتمعوا في شخص واحد.. وصرت أتنفس كالـ (فامفيري)، وأفكّر كمصاصي الدماء، وأمشي كالشاحبين..
كانوا يفسحون لنا الطريق..
وراح أمل وحشي يتلاعب في صدري.. لكني لم أجرؤ على الاعتراف به...
أتراهم يتركوننا نغادر المكان؟
أتراهم يهابون اعتراض طريقنا باعتبارنا صرنا صاحبي مكانة عظمى؟
أتراهم؟

* * *

هنا سمعت صوتًا أسود قاتما كئيبًا له نبرات البربر، يقول بانجليزية لها طابع (أوروبا) الشرقية:

- «عرض جيد يا د. (رفعت).. لكنه لم يخدع أحدًا!»
واستدرت مبهوتًا..
لقد عرفت الصوت.. لكني أردت أن أتأكد من الوجه..
كان هذا هو د. (لوسيفر)[2]!

* * *

- ٣ -

أردف قائلًا:

- «إنهم لم يصدقوك لحظة يا د. (رفعت) خاصة مع هذا التنكر السقيم.. لكنهم ظنوك جننت.. لهذا يراقبون ما ستنتهي إليه هذه المهزلة!»

* * *

كان (هو)..

بشحمه ولحمه.. ثيابه السوداء القاتمة والقرط في أذنه، والخواتم الماسية العديدة في أصابعه، والقلادة الذهبية على صدره، والنظرة الخاوية التي لا تدلّ على شيء على الإطلاق..

- «مدهوش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه!»

وابتسم ابتسامته الواثقة الكريهة، ومد يده يبغي مصافحتي، لكني لم أفعل، ورحت أرمق الوجوه الشائهة التي عادت تحتشد حولنا..

قال بصوته الذي يجعلك تتمنى سماع أكثر:

- «إنني هنا لأنني مدعو.. (هو) - الذي يمشي في الظلال - دعاني كي أشهد (أرماجيدون) الجديدة!»

قلت بصوت مبحوح:

- «حقًّا.. يجب أن يكون مثلك موجودًا في مكان كهذا.. إن (خريولسن) يعتبر هذه القرية مدينة ملاهٍ يتنزه فيها..»

ابتسم.. وقال وعيناه ثابتتان على وجهي:

- «إنني أنتمي إلى هنا أصلًا.. (بوكوفينا) هي بلد يتأرجح بين (المجر) و(رومانيا).. لكني أعتبر نفسي مواطنًا مجريًا..»

ثم تأمل وجهي، ومد يده الباردة ليمسح الحجر الأبيض عن بشرتي، وقال:
- «سخيف جدًا! تبدو كالأطفال حين كانوا يدهنون وجوههم بالدقيق ليفزعوا الفتيات!»
ثم نظر إلى القوم، وقال بضع كلمات بلهجة آمرة.. ولدهشتي رأيته يتأبط ذراعي كأنما هو صديق قديم لي، ويقتادني إلى أحد المنازل المحيطة بالساحة..
نظرت للوراء لأجد (جوستاف) ما زال واقفًا حيث هو، وقد عاد فمه مفتوحًا كالبلهاء.. ومن الواضح أنه سيظل للأبد في هذا الموضع.
- «لا تخش شيئًا.. إنّه قوى كأسد.. إن هي إلا صدمة عاطفيّة أورثتها إياه الأهوال التي رآها في جانب النجوم..»
قالها كأنما سمع أفكاري، وخمن ما خطر لي..
وأمام باب البيت الذي قصدناه وقفنا.. أخرج مفتاحًا من جيبه وفتح القفل ثم وارب الباب ودعاني للدخول..
ودخلت.. فلم يكن أمامي شيء آخر أفعله.. إننا تحت رحمتهم على كل حال، ويمكنهم تمزيقنا متى أرادوا..

* * *

كان البيت مظلمًا عفنًا كعادة بيوت هذا الجزء من (هالماجيو).. لكنه لم يحاول إضاءة أي أنوار كهربية..
تناول شمعة حمراء كبيرة وضعها على المنضدة، ومد يده لي مفرودة الكف في رسالة فهمتها على الفور.. أشعلت قداحتي ولامست بلهبها الفتيل فانبعث النور الخافت الخجول في المكان..
وقف يرمقني بنظراته الثابتة المزعجة، بينما جلست أنا منتظرًا خطوته التالية.. قال وهو يخطو بتؤدة نحوي:
- «الحق أنني لم أتوقع أن أجدك ها هنا.. لكني أذكرك تمامًا.. قليل هم من يرون الشمس فينكرون..»
قلت وقد فقدت شغفي بالمقاومة:
- «إن أشياء شيطانية تدور ها هنا.. الكل يعرف هذا.. لكني - أصارحك - لم أتوقع أنك وراء كل هذا..»
هزّ يديه بحركة براءة تمثيلية، وقال بصوته البري الرنان:
- «لست وراء كل هذا.. ظننت أنني أوضحت لك أنني مدعو.. أنا مثلك تمامًا مع فارق واحد هو أنك وصاحبك غير مدعوين.. ولكن عليك أن تشكر ربك على وجودي ها هنا في هذه اللحظة.. وإلا لمزقكما الشاحبون إربًا.. هذه هي فائدة المعارف والصلات!»
على الرغم منى ابتسمت.. وسألته قلقًا:
- «ولماذا تبقي علينا؟ ظننت أهدافك وهؤلاء المخابيل واحدة..»
- «هذا صحيح.. لكني سأبقي عليكما لتكونا شاهدين على قدوم (هو)..



كان (هو) . . بشحمه ولحمه . . ثيابه السوداء القاتمة والقرط فى أذنه ، والخواتم الماسية العديدة فى أصابعه ، والقلادة الذهبية على صدره . .

بعد هذا سيقرر هو ما يجب عمله بشانكما.. يجب التصرف بحكمة؛ لأن اختفاء صحفي مهم من (بوخارست) وأستاذ جامعة مصري لن يمرّ دون ضوضاء.. وعلى هؤلاء القوم أن يدركوا هذا.. حتى ولو كانت أزاهير الغرور وحمية الحمق قد ملأت أرواحهم..

نعم هم أقوياء.. لكنّ كالنبت الذي نما وترعرع.. لكنّ انتزاعه أو حرقه ما زال ممكنًا.. القوة الحقّة هي يوم يغدو هذا البيت دغلًا هائلًا متشابكًا..»

ابتسمت من جديد..

ما زال الرجل يملك قاموسًا هائلًا من التعبيرات الشعرية.. وما زال حريصًا على الكلام بلغة المسرح لا لغة الواقع..

سألته وأنا أتأمل لهب الشمعة:

- «من هو (هو) هذا؟»

- «إنّه (فلاد الوالاشي) طبعًا!»

* * *

واتسعت عيناي دهشة، وللحظة أفلت قلبي ضربة.. صحيح أننا في (رومانيا) بلد (فلاد) لكنني ظننته بعيدًا جدًا في الزمن والمكان..

- «هل تعني الكونت؟»

- «حتمًا!»

- «الكونت (دراكيولا)؟»

- «سمه كما تشاء.. (دراكيولا).. (فلاد).. (نوسفيراتو).. كلها تدلّ على ذات الشخص، أو لنقل ذات الشيء..»

أخرجت منديلًا ورحت أنظف به المسحوق الأبيض على بشرتي، وعدت أسأل مرشدي الرهيب:

- «أنا لا أفهم.. لقد قُتل مصاص الدماء منذ قرون.. ولقد حضرت تجربة لمحاولة إحيائه لكنّها - لأسباب يطول شرحها - لم تتم.. وكانت مومياؤه موجودة.. كان ميتًا كما يكون الموت.. وأنا لا أظن أنك ستزعم قدرتك - لا سمح الله - على إحياء الموتى..»

- «أنت لا تفهم..»

قالها وهو يداعب لهب الشمعة بكفه كما يفعل رجال (المافيا) عند إعلان ولائهم.. وقال:

- «كعادتك تثب إلى الاستنتاجات التي تبرهن على أنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق.. (فلاد) لم يمت قط ولم يعش قط.. هل سمعت يا دكتور عن (جانب النجوم)؟»

- «بل فتحت بابه منذ نصف ساعة أو أكثر.. وهو سبب ما أصاب صديقي..»

قال وعيناه مثبتتان على وجهي (إن عينيه لم تطرفا لحظة منذ لقائنا وأقسم على هذا)..

- «إن (جانب النجوم) هو العالم الموازي الذي يعيش فيه مصاصو الدماء، والمذءوبون، والشياطين والعفاريت.. إنّه الجحيم بعينه، ومن العسير على بشري أن يراه دون أن يجن..

«توجد عدة فتحات في (جانب النجوم) تصل ما بينه وبين عالمنا.. (رومانيا) وحدها تملك سبع فتحات منها، أخطرها جميعًا فتحة كهف (هالماجيو) الذي تشرفتما بزيارته، والتي أغلقها الكونت (ستيفانو) في القرون الوسطى..

«ومنذ قرون يحاول سكان (جانب النجوم) المرور إلى عالمنا، مجتازين الحواجز الطبيعية التي تحمي هذه الأرض، وكان بعضهم ينجح من آن لآخر، عندها يظهر مذءوب أو مصاص دماء هنا أو هناك..

«إن (جانب النجوم) يزخر بمصاصي الدماء المفزعين.. وأخص منهم بالذكر (سيجفريد الأميدي) و(يوليان المغتصب).. الحق أقول لك إن (فلاد الوالاشي) هو أكثرهم وداعة ورقة.. لكنه يملك قدرة غير عادية على اختراق الفتحة المذكورة، لذا صار هو أدنى مصاصي الدماء إلى عالمنا..

«وفي تاريخ (رومانيا) كانت هناك فترات عدة استطاع فيها (فلاد) أن يعبر الثغرة، ليعيش في البلاد يعيث فسادًا متخذًا شكلًا أقرب إلى الآدميين، ولهذا فإن من يعرفه العالم باسم الكونت (دراكيولا) ليس سوى (فلاد) متنكرًا في صورة آدمية.. صحيح إنّه يمصّ الدماء، ويفعل أكثر ما يفعله الـ (فامفيري)، إلا أنّ هذا ليس سوى عشر قدرته على الشر..

«وفي النهاية كان الحمقى يقتلونه بوتد خشبي - إلى آخر هذا الهراء - حاسبين أنهم تخلصوا منه.. في الواقع كانوا يقتلون الهيكل الآدمى الذي اختاره لنفسه، من ثم يتركه ويعود إلى (جانب النجوم) ليعد لهجوم آخر بعد أجيال..»

قلت أنا في سخرية:

- «معمرون حقًّا أولئك (الفامفيري)..»

أجاب (لوسيفر) دون أي فهم لدعابتي:

- «صحيح.. إن متوسط عمر (الفامفيري) الحق ثمانمائة عام..»

- «لنفرض جدلًا أن ذلك الأخ - ماذا كان اسمه؟ - (سجريد)..»

- «(سيجفريد الأميدي)[3]..»

- «لنفترض أنه استطاع عبور الفتحة، فماذا يحدث؟»

ابتسم كاشفًا عن أسنانه البيضاء إلى حد مريب، وغمغم:

- «إنها نهاية هذه الأرض إذن.. إن شره يفوق (فلاد) مائة مرة، وقوته تفوق (فلاد) ألف مرة.. لكن هذا لن يحدث في الوقت الحالي على الأقل..»

ثم أردف وهو يتأمل لهب الشمعة المتراقص:

- «في (جانب النجوم) يعيش (فلاد الوالاشي) في إقطاعية كبيرة، ويسمونه هناك باسم (هو الذي يعيش في الظلال)، وهي تسمية تناسبه حقًّا إذا ما أردت رأيي..

«ولكن (فلاد) كالسوائل.. والسوائل تنتشر وتتمدد.. لذا ما زال يصبو إلى زيارة الأرض من جديد..»

قلت له وأنا أنزع عويناتي لأنظفها من غبار الجير:

- «دعني أخمن.. هذه المرّة لن يأتي قبل أن يعد جيشًا كبيرًا من الشاحبين.. صحيح أنهم ليسوا (فامفيري) حرفيًا لكنهم يشربون الدم ويعيشون في الظلال مثله...»

في ثقة قال:

- «هأنتذا تجيد الاستنتاج هذه المرّة... لقد ولد الرعب في (هالماجيو) ليبقى... ومنه تخرج جيوش الظلام إلى العالم كله.. جيوش لا تدين سوى بدين وواحد: الطاعة لـ (هو) الذي يعيش في الظلال..

«لقد ظل الباب مغلقًا قرونًا.. لكنّ عذراء حمقاء دخلته كي تدمي رأسها داخل الكهف..

«كان دمها هو المفتاح الذي فتح أقفالًا لم يمسسها أحد طيلة قرون كاملة.. وسرعان ما وجدت نفسها في (جانب النجوم) تتناول أسرار الشاحبين، عادت إلى الأرض كانت قد صارت الأولى... عليها أن تضم آخرين وآخرين وآخرين..»

ظل يردد (آخرين) همسًا حتى حسبته قد جن ثم أدركت أنه فقط منتش بالفكرة..

سألته وقد بدأت القصة تتضح أكثر:

- «وماذا ينتظر (فلاد) إذن؟!»

- «ينتظر أن تصير (هالماجيو) كلها من الشاحبين بعدها يغزو (بوكوفينا) ثم (بوخارست) ثم....»

- «وكيف يصير الشاحبون شاحبين؟»

- «لا بد من الإكسير أولًا..»

ابتسمت في إنهاك.. الحق أن أحداث ليلة واحدة في (هالماجيو) كانت أكثر مما يحتمله من في سني وضعف بنيتي..

لكني تماسكت وسألته:

- «إكسير؟ وهل اسمه (فامفيرين) أو (دراكيولال) أو (فلاديمايسين) مثلًا؟ لا أعتقد أن شركات الأدوية ستتحمس له كثيرًا في مصر..»

للمرة الثانية فهمت أن لفظة (مزاح) لا معنى عنده.. إذ قال:

- «الإكسير هو مزيج من دماء (دراكيولا) ونبات الـ (وولف بين) الذي تحيط به الأساطير في هذا البلد..»

- «هل تعني أن دماء (دراكيولا) موجودة ها هنا؟»

- «إنما جلبتها العذراء - التي فتحت الباب - معها من (جانب النجوم).. ويسقونه للمرء قبل امتصاص دمه أو استنزافه..

«لولا الإكسير ماظل أحدهم حيًّا بعد تجربة كهذه.. فالإكسير يجري في العروق مجرى الدماء.. ويطرد الدم القديم الفاسد..»

- «تريد القول إن الشخص يعيش بدماء (دراكيولا) بعد هذا، ولا يعود بحاجة إلى دمائه الأصلية.. إن هذا شبيه بنقل الدم التبادلي الذي يجرونة للأطفال المصابين بالصفراء...»

قال باللاتينية:

- «أنت تقول..»

ثم استطرد في وصف قصة الشاحبين:

- «ومن هنا نبدأ يا د. (رفعت).. إن المختار في أثناء سريان الدم الجديد في دمه يُلقّن مبادئ الطاعة لـ (هو)، وحين يفتح عينيه يكون قد غدا من الشاحبين في مجتمع (إنفرنوس) التي كان اسمها (هالماجيو)..»

سألته سؤالًا أخيرًا وأنا أمنع عيني من الانغلاق:

- «وماذا ستفعلون بنا الآن؟»

كنت أريد منهم أن يشربوا دمي وينتهوا.. المهم أن يتركوني أنام.. المهم أن يرحموني من الصياح والحركات الهستيريّة.. والمهم - بالذات ـ ألا يجعلوني أرشف ذلك الإكسير اللعين.. دعوني أمت في هدوء من فضلكم ولا تحرموني تلكم الراحة الأخيرة..

قال د. (لوسيفر):

- «الحق أنني بوجودك أسعد، ولك قلبي يطرب.. عرفت من اللحظة الأولى - حول (التاروت) - أننا سنلتقي مرارًا.. وفي كلّ مرّة تتعلم الدرس الدائم: الشر لا ينهزم.. يجب أن تتعلم النظرة (المانوية) للكون ككل حيث الشر ضروري وقادر..»

بحثت عن لفظة إنجليزية لها رنين لفظة (دماغك!) التي نستخدمها في مصر لتسفيه الآراء السخيفة، فلم أجد..

لكنه ـ كما لي أن أتوقع - قال في حزم:

- «لا تجهد نفسك.. لقد سمعت اللفظة العربيّة تتردد في ذهنك.. وفهمت معناها.. لكني - لك أنصح ـ أتعشم أن تتعلم شيئًا من المصير الرهيب الذي ينتظرك وزميلك..»

ودون كلمة أخرى غادر المكان..

ومكثت وحدي في الظلام أرمق الشمعة المحتضرة..

* * *

حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو نفسه

- ١ -

قال (بيلاسكو):
هو ـ الذي يمشي في الظلال ـ أمرنا أن نتركهما حيين..

* * *

لقد كنت واقفًا بانتظار خروج الغريبين - الصحفي البدين من (بوخارست) والرجل الذي يشبه دودة (الإسكارس) ـ من الكهف..

كنا نرى المدخل المظلم على ضوء النيران التي أشعلناها في الساحة، ولا بد أننا لبثنا ساعتين أو أكثر ننتظر..

- «حرروني.. حرروني!»

كذا صاح (أنطونسكو) ابن القصاب، وكان قد صار منا تمامًا بعدما جرع الإكسير.. لذا هوى (بوريس) بمديته على الحبل ليقطعه، وهوى آخر الشاحبين بدوره إلى الأرض، وراح يحبو على أربع محاولًا الاقتراب منا..

نظرت للوراء فوجدت ذلك الزائر الغامض الذي يقولون إنّه جاء من (المجر) ليكون بيننا.. يبدو اسمه د. (فرانتز لوسيفر).. وهو اسم يناسبه تمامًا.. إن (لوسيفر) تعنى الشيطان.. وهو أنسب نعت لهذا الرجل الغامض المسربل بالسواد في كل شيء: عينيه.. شعره.. بذلته.. وحتّى صوته.. صوته كان أسود ولا أدري كيف..

كنت أهابه بشدة، لكنّ الجميع قال لنا إن هذا شرف لا بد أن نسعد به.. ولذا تظاهرت بالسعادة..

وحين خرج لنا الرجلان من الكهف لم أصدق أنهما بهذه البلاهة، لقد دهنا وجهيهما بالطبشور متظاهرين بأنهما منا.. كدنا نفتك بهما لكنّ (لوسيفر) أمرنا ألا نفعل.. وقال بلهجة لا يمكن مناقشتها:

- «إن (هو) - الذي يمشي في الظلال - لراغب في رؤيتهما..»

ثم اقتاد دودة (الاسكارس) إلى داري، وفتح بابها لا أعلم كيف.. ومكث معه بالداخل ساعة أو أكثر..

ثم خرج من الدار بقامته المديدة، ووقف أمام (الروح الكبرى) ليقول لها في غطرسة:

- «هذان لن يموتا الان.. بل موتًا يموتان حين يعود (هو)..»

قالت له (الروح الكبرى) وهي تحني قامتها المنهكة:

- «لكنّ أين نضعهما؟ سيفران حتمًا ما لم يصيرا منا..»

أشار إلى داري، وتساءل:

- «دار من هذه؟»

- «دار (الدم) وامرأته (حدأة الصحراء)..»

- «إذن هما سجينان فيها حتى يأتي (هو)..»

ونظر لي - كيف عرف أنني (الدم)؟ - وقال:
- «أنت لهما الحارس والعين والمضيف.. لو هربا أو أوذيا فلك مع (هو) - الذي يمشي في الظلال - حساب أي حساب...»
هززت رأسي مذعورًا:
- «كما تقول يا سيدي..»
هنا كان الفجر قد دنا.. ساعتان تفصلاتنا عنه، ورائحته النقية تمزق رئاتنا بألف خنجر.. لذا صاحت (الأخت الكبرى) آمرة:
- «عودوا إلى دياركم يا ابناء (إنفرنوس).. ناموا في مملكة (خريولسن) حتى تموت شمس يوم جديد..»
جررت الصحفي اليدين من كمه، فاستجاب لي في رخاوة.. لقد ذهب عقله شعاعًا من هول ما رأى في الكهف.. هذا واضح تمامًا..
دخلت داري ومعي ستة من إخواننا..
وكان الأصلع النحيل جالسًا على المنضدة في مدخل الدار، وأمامة شمعة ذابلة لم يبق فيها سوى لهب يتراقص في بركة من الشمع الساخن.. فما إن رآنا - وكان شارد الذهن - حتى رفع وجهه المرهق نحونا، وقال في هدوء المستسلم:
- «هذه إذن لجنة الاستقبال.. هل ستصفون دماءنا الآن؟ إنني لن أشرب إكسيركم أبدًا.. سيكون عليكم قتلي من دونه..»
وضحك ضحكة ساخرة جعلته يسعل..
بالطبع لم يفهم أحد الواقفين حرفًا لأن الرجل تكلّم بالإنجليزية، لكني فهمت لأنني مدرس.. وأقرأ بالإنجليزية أكثر مما أقرأ بلغتي الرومانية..
لذا قلت له بلغة رديئة نطقًا، صحيحة تركيبًا:
- «سيدي.. لن يكون هناك شيء من هذا.. إن هذه داري أنا (الدم).. وأنت ضيفي..»
كما توقعت سألني في بلاهة:
- «اسمك (الدم)؟!»
رددت بما وسعني من تهذيب:
- «بعد تحولي.. نعم.. هذا هو اسمي.. أمّا اسمي القديم الآثم فهو (بيلاسكو)..»
- «(بيلاسكو)..» - ونظر للسقف كأنما يتذوق الاسم - «اسم مرعب بدوره.. ربما هو أكثر إرعابًا من اسم (الدم)..»
انحنيت.. وقلت له التحية الرومانية التقليدية:
- «أهلًا بك في داري.. إليها تدخل حرًا ومنها ترحل سالمًا.. فقط بعد رحيلك اترك لنا بعضًا من السرور الذي جلبته معك..»
ابتسم وهو ما زال جالسًا وقال:
- «ثق أنني سأترك أشياء كثيرة بعد رحيلي.. بقع دم وما إلى ذلك.. الآن هل ستربطني بالحبال إلى المقعد؟»
- «سيدي.. إنك تخمن أفكاري قبل أن تخطر لي!»

* * *

ربطناه والصحفي المعتوه إلى مقعدين، ثم حملنا كل مقعد إلى القبو..

طبقا لم أكن راغبًا في كل هذا.. لكني لن أكون المسئول عن هروب هذين حينما يأتي (هو)..

وجاءت (حدأة الصحراء) امرأتي الجديدة، تدفع بطنها المنتفخ أمامها، وتسألني وهي ترمقهما مقيدين:

- «هل ستطعمهما؟»

- «بالطبع.. فهما غير مؤهلين لشرب الدماء بعد..»

- «وأي شيء نطعمهما؟ ليس لدينا سوى الفئران..»

فكرت قليلًا.. ثم تذكرت أن لدينا بعض اللحم المجفف في الكرار، لم نأكله منذ بدأ التحول، لذا طلبت منها أن تقدم بعضه لهما حتى لا يموتا جوعًا:

- «إن موتهما يتساوى عند (هو) مع فرارهما.. كلا الحالتين فرار من قبضته، ولا أحب أن أنتظر لمعرفة مصيرنا وقتها..»

كانت تئن وتمسك ظهرها..

شعرت بشيء كالشفقة يتحرك في صدري، لكنني قمت بوأد هذا الشعور فورًا.. لقد تم تطهيري من الوهن البشري منذ زمن سحيق، وصارت أشياء مثل الحب والعطف والرقة نوعًا من الإهانة لفكرة وجودنا ذاتها.. كان النهار يدنو.. لذا دخلنا إلى غرفتنا التي أسدلنا ستائرها، ولم تدخلها نسمة هواء منذ دهر..

دخلنا إلى الفراش، وغبنا في نوم عميق..

* * *

وحلمت.. حلمت بـ (هو) - الذي يمشي في الظلال ـ قادمًا في الغبشة.. ورأيت (حدأة الصحراء) تهرع كالملهوفة كي تسقط على قدميه هاتفة:

ـ «سيدي وسيد سيدي! لقد أعددنا الأرض لقدومك..»

عندها رأيته يفعل الشيء الذي توقعته، ولم أجد في حلقي صوتًا كي أنذرها منه.. رأيته يمد يدًا مخلبية ليعتصر رقبتها.. قال شيء في قلبي: «هي امرأتك وواجبك إنقاذها».. قال شيء في عقلي: «لا.. إنما هي جاريته يفعل بها ما يشاء..»

لكنّ (حداة الصحراء) تصرخ.. تئن تتوسل إليّ أن.....

آه آه.. آه ه!

* * *

وصحوت على الأنين، فنهضت في الظلام أرى ما هناك.. كانت تتشبث بالفراش وتعتصر الملاءات في عنف..

ـ «(بيلاسكو).. يبدو أنه.. آي! قادم!»

انتظرت لحظة حتى عرفت الخط الفاصل ما بين نومي ويقظتي.. ثم هتفت مذعورًا وأنا أتراجع للوراء:

ـ «مستحيل يا (إليصابات).. إن حملك لم يتجاوز ستة أشهر بعد..»

ضغطت على أسنانها، وقالت:

ـ «إنّه أول طفل شاحب.. أي! أي أنه ليس كالبشر.. آي! هلمّ استدع (الروح الكبرى) حالًا آآآن.. آي!»

ـ «لا!»

قلتها في جنون..

لقد ماتت (إيزبيا) على يدي (الروح الكبرى)، ومات وليدها.. فكل ما كانت العجوز تعرفه عن التوليد هو أن تجذب الوليد بأقصى قوتها، وباستخدام مخالبها السوداء...

كلا.. لن أسمح لها برؤية (إليصابات)..

وهنا فطنت للمرة الأولى أنني استعملت اسمها القديم.. وهي كذلك استعملت اسمي القديم (بيلاسكو).. غريب هذا!

لكنها تصرخ.. وصراخها كفيل بإيقاظ الموتى...

لقد نسيت تمامًا هذه اللحظات.. ليلة ميلاد (كوثار) منذ ستة عشر عامًا.. كانت أمّه تئن وكنت أنا أصرخ كالمجنون، وجاء د. (ميخائيل) يلهث من داره ليساعدها على الولادة..

ولكن.. من يساعدها الآن؟ لا أحد من الشاحبين، وصراخها يقول لي إن الأمر لن يكون سهلًا.. لن يتم تلقائيًا كما تمنيت...

دودة (الاسكارس) في القبو؟ سمعت د. (لوسيفر) يناديه بلقب (دكتور).. فهل هو طبيب أم....؟



ربطناه والصحفى المعتوه إلى مقعدين ، ثم حملنا كل مقعد
إلى القبو . .

هل أطلب عونه؟ كيف أثق به؟ الحق أنه ـ برغم قبحه - يبدو موحيًا بالثقة.. له عينان صافيتان منهكتان ترمقان الكون في أسى.. هل يسامحنى (هو)؟ فليذهب (هو) إلى الجحيم إن لم يكن فيه.. إن أم طفلي في مأزق..

* * *

كان ضوء النهار يتسلل إلى القبو.. آلمني جدًا لكني تحاملت ودخلت.. ولشدة دهشتى كان الطبيب النحيل مستيقظًا.. قال لي بعينين حمراوين من فرط الإرهاق، وهو مقيد إلى مقعده:.

- «إن هذه الصرخات غير غريبة على سمعي.. إما أنها طريقة تعذيب جديدة خاصة بكم، وإما أنّ هناك امرأة في ولادة متعسرة..»

قلت له وقد سرني أنه استنتج بسرعة:

ـ «امرأتي تلد ويبدو أن الأمور ليست على ما يُرام.. هل يُمكنك مساعدتي؟»

ابتسم.. وسألني أن أصلح وضع عويناته على أنفه، ثم قال:

- «كنت أتمنى أن أتشفى فيك وأقول: دع (هو) يساعدها.. إلا أنني عاجز عن رفض علاج مصاصي الدماء أنفسهم.. لكني أنذرك.. أنا لم أر ولادة منذ عام ١٩٤٩.. فأنا ـ لسوء حظك ـ طبيب باطني..»

- «هل يعني هذا أنك ستؤذيها؟»

ضحك برغم إرهاقه، وقال:

- «ما زلت أذكر الخطوط الأساسية.. ولن أحاول إخراج الطفل من إصبع قدمها، لو كان هذا يثير قلقك..»

لم يكن أمامي بُدَ.. لذا فككت قيوده.. وأمرته أن يتبعني إلى غرفة النوم.. إنها لمقامرة لكنّ ما باليد حيلة..

* * *

ما إن دخل الحجرة حتى صار هو الآمر الناهي..

ـ «افتح هذه الستائر اللعينة.. أريد بعض الضوء..»

فعلت على مضض.. إن هذا سيؤلمها أكثر، لكنّ هذا البشري لا يملك الرؤية في الظلام مثلنا.. فلنتحمل..

- «هل لديك قفاز؟ لا؟ حسن سأجد حلًا.. اريد سكينًا ورباطي حذاء أو قطعتين من حبل سميك..»

ونزع سترته وربطة عنقه، ورفع كم قميصه..

سألته في توتر:

ـ «هل أقوم بغلي بعض الماء؟»

ـ «لماذا؟»

- «كلهم يفعلون هذا..»
- «دعك من هذا الهراء.. ستحرق نفسك أو تحرقها.. لقد دخلت كلية الطب في بلادي كي أعرف لماذا يغلي الناس الماء وقت الولادة.. لكني - بعد عشرين عامًا أو أكثر - لم أعرف السبب بعد..»

وبدأ العمل وسط صراخ (إليصابات).. وشتائمها الرومانية للطبيب...

* * *

كانت عملية قاسية مرهقة.. ولا بد أنني كنت أبكي بصوت مسموع بينما راح هو - ببطء شديد - يحاول تبديل وضع الجنين..

استغرق الأمر نحو ساعة.. وهنا سمعت صوتًا جديدًا يضاف لعواء المراة.. كان هذا عواء رضيع.. ابني!

- «حمدًا لله!»

قلتها بصوت عالٍ، وقالتها زوجتي بالرومانية معي.. فنظر لي (رفعت) - كان هذا هو اسمه - في دهشة.. كان الدم يغرق وجهه وقميصه وعويناته، على حين راحت قطرات العرق تغسل هذا الدم..

قلت في إصرار:

- «نعم.. حمدًا لله!»

غمغم وهو يهز رأسه:

- «حسبتكما لا تستطيعان لفظ هذه العبارة..»

ثم رفع ذراعه اليمنى حاملًا قطعة اللحم المتسخة بدماء سوداء:

- «هو ذا ابنك.. شاحب ابن شاحب.. لك أن تفخر به.. لقد كدنا نفقده.. ويبدو أنني طبيب بارع حقًّا.. لم أعرف هذا من قبل..»

ورأيته يربط الحبل السري على مسافتين متساويتين برباطي الحذاء، ثم يقطع ما بينهما بالسكين..

كانت الأم قد نامت حين رفع الوليد من على بطنها وناوله لي ثم راح يستكمل ما بدأه..

تأملت الصغير الصارخ، وأدركت أنه في شحوب هذه الورقة.. له ملامح غريبة حقًّا.. ملوث بدم أسود لا أحمر..

ارتجفت هلعًا.. هذا - على قدر علمي - أول طفل يولد ليمص الدماء من اللحظة الأولى.. ماذا سترضعه أمّه؟ أدماء؟ أم هو لا يرضع أساسًا، ولسوف يشاركنا حفلاتنا الصاخبة عما قريب؟ يا للبشاعة!

كان (رفعت) قد فرغ من عمله..

قال لي وهو يرتجف إرهاقًا:

- «هل.. هل لديك ماء؟»

ثم كاد يتهاوى على الأرض، فهرعت أريحه إلى الجدار.. قال لاهثًا:

- «جيب البذلة.. الأقراص.. قرص تحت لساني..»

فعلت كما طلب وأخرجت قرصًا من العلبة التي كتب عليها (نترات قصيرة المفعول)، ودسسته تحت لسانه كما أوصاني..

مرت دقائق ثم بدأ يستعيد قواه.. لقد كان قلبه معتلًا بشدة كما هو واضح.. وكانت الليلة الرهيبة التي بدأها بمصاصي الدماء وأنهاها بالتوليد أقوى من قدرته على التحمل.. (دودة اسكارس) مريضة تستجمع أنفاسها..

وللمرة الثانية تحرك في صدري شعور الشفقة..

* * *

- ٢ -

غسلت وجهه ويديه بالماء، ثم عاونته على انتزاع قميصه الدامي، وجلبت له قميصًا نظيفًا من حاجياتي.. فمنذ أن تم التحول وقمصاني لم تمس لأنني لم أستبدل ثيابي قط..

للمرة الأولى منذ أشهر لفظت الكلمة:

- «شكرًا..»

قال وهو يرتجف بردًا وإرهاقًا وربما جوعًا:

- «أشكرك أنا أيضًا على إنقاذ حياتي..»

واقتدته إلى القبو حيث كان صاحبه غافيًا على مقعده..

- «د. (رفعت)؟»

- «هم م م؟»

- «سأثق بكلمتك.. هل تعدني بشرفك ألا تحاول الهرب لو لم أقيدك؟»

نظر لي وابتسم.. وغمغم:

- «أعدك بشرفي لمدّة ثماني ساعات أنام فيها... لكني سأحاول الهرب بعدها.. ثق بهذا..»

- «إذن انت لم تترك لي خيارًا..»

- «أظن هذا..»

وفي طاعة جلس على مقعده، على حين رحت أحكم ربطه بالحبال.. ثم تركته لألحق بزوجتي وابني في الغرفة المظلمة.. لقد بدأ النور يزعزع تركيزي إلى حدٍ ما.. وأشعر بملايين الإبر تنغرس في جلدي...

ويبدو أنني نمت قبل أن أندس تحت الغطاء..

* * *

كان الغروب دانيًا حين صحوت من النوم، وجدت (حدأة..) تلقم الرضيع ثديها وقد جلست في الفراش.. سألتها ملهوفًا:

- «أترضعينه لبنا حقًّا؟»

- «لا أدري.. يبدو مثله.. لكنّ لا تنس أننا لم نعد بشرًا!»

تأملت المشهد بضع دقائق، ثم تذكرت أسيرينا في القبو.. فهرعت إليهما حاملًا قطعة من اللحم المجفف..

كان الظلام دامسًا هناك لكني كنت قادرًا على الرؤية بالطبع، وبحثت عن شمعة أشعلها.. كان الطبيب أفضل حالًا بعد النوم، لكنّ القيد قد آلمه طبعًا، وجعل عضلاته تتصلب.. أما الآخر فمن الجلي أنه تحول إلى نبات.. نبات لا يملك أفكارًا خاصة سوى أحلام غامضة..

فككت قيد الرجلين وقدمت لهما الطعام، ولم يكن الصحفي قد أبدى ما يدل على أنه يعرف معنى الأكل، لذا دسست بعض الشرائح في فمه دسًّا.. وبعد ثوان بدأ يلوكها بالغريزة..

أخيرا سألني (رفعت) وفمه ملىء بالزاد:
- «هل الرضيع بخير؟»
- «بخير..»
- «أهو طبيعي؟ أعني.....»
- «حتى هذه اللحظة يبدو كذلك.. ما عدا ملامحه الغريبة وشحوبه..»
بعد ثوان قلت له وأنا أنظر للشمعة:
- «د. (رفعت).. أنا راغب في معاونتكما على الهرب.. فأنتما لا تستحقان الهلاك..»
- «وأنت لا تستحق ما سيحل بك بعدها..»
- «د. (رفعت).. ألم تفهم بعد؟»
ورفعت الشمعة لتضيء وجهي المتسلخ.. وأردفت:
- «نحن لم نعد بشرًا يستحقون ولا يستحقون.. نحن مسوخ يجب تدميرها.. لقد عرفت هذا حين رأيت الرضيع أمس.. لا أعرف كنه (هو) هذا.. لكنّ قبضته على روحي قد بدأت تتراخى.. وإنني لألعنه..»

* * *

وفي الساعة التالية حكيت للطبيب القصة من بدايتها.. الوباء الذي عادت به (ناديا) من الكهف لتنشره بيننا.. كل شيء.. إلى لحظة دخولهما داري..

سألني وقد صار يعرف ما أعرفه..

- «أنت كنت مدرسًا مثقفًا إذن؟»

- «بالتأكيد.. ومتدينًا كذلك»

- «لهذا كان تأثير دماء (دراكيولا) عليك ضعيفًا.. كما أن التنويم المغناطيسي لا يؤثر في أقوياء الشخصية.. إن روحك لم تفسد بعد..»

ثم سألني وهو ينظر في عيني:

- «أين يوجد دمه الخطر هذا؟»

- «من المصادفة أنهم تركوه عندي... لأنني أعرف كيف تحفظ هذه الأشياء..»

- «هل لي أن أراه؟»

مددت يدي إلى جيب داخلي في سترتي الصوفية، وأخرجت الأنبوب الصغير.. الأنبوب الذي عادت به (ناديا هالماسكيا) - أخت الذئاب كما نسميها الآن - من (جانب النجوم)، وعرضته على الطبيب الناحل..

قال وهو يتأمله بين أنامله:

- «هذا مخيب للأمل.. كنت أحسبك ستجلب قارورة فاخرة الشكل مفعمة بالدماء، فإذا بأنبوب اختبار ملىء بمسحوق.. بمادة كالفلفل الأسود..»

- «هو كذلك.. يبدو أنهم يجففونه هناك.. نحن نخلط مقدار جرام واحد بمقدار أربعة جرامات من الـ (وولف بين).. و...»

قاطعني مبتسمًا في خبث:

- «كخطوة أولى.. هل لديك فلفل أسود ها هنا؟»

- «اظن هذا.. لكنّ هل تنوي؟!»

- «إن الإغراء أقوى مني.. على الأقل سيعجز هؤلاء القوم عن ضم آخرين مهما شربوا من دماء.. إن أفضل خدمة تقدمها لإنسان هي أن تسمح له بالموت دون أن يشرب هذا الإكسير اللعين..»

ارتجفت يدي.. وفكرت لحظة في منعه.. فقال:

- «(بيلاسكو).. أأنت عدوي أم صديقي؟ هل تريد إنهاء الكابوس أم إحياءه؟ لا يوجد حل وسط.. ولا وجود للون الرمادي..»

ثم ناولني الأنبوب، وهو ينظر في عيني بثبات:

- «يمكن الخلاص منه في المرحاض لو كان عندكم واحد..»

- «سأفعل..»

- «ثم املأ الأنبوب بالفلفل الأسود.. لن يلاحظ أحدهم الأمر إلا فيما بعد..»

- «حسن...»



ورفعت الشمعة لتضىء وجهى المتسلخ . . وأردفت :
ـ «نحن لم نعد بشرًا يستحقون ولا يستحقون» . .

وحملت الأنبوب في الظلام، شاعرًا بأنه يرتجف في يدي.. فلو كان ما أحمله ثعبان جرس لكنت مطمئنًا أكثر..

وفي الحمام فتحت سدادة الأنبوبة وأخذت شهيقًا عميقًا.. ثم أفرغت المسحوق الأسود في المرحاض، دقائق كاملة وقفت فيها أرمقه وهو ينتشر على سطح الماء.. وأدركت ـ في رهبة ـ أن الماء يصطبغ باللون الأحمر القاني..

ضغطت على زر الطرد كي لا أرى أكثر.. وهدر الماء..

هدر حاملًا دماء (دراكيولا) إلى ما تحت الأرض...

* * *

عدت إلى (رفعت) في القبو، ورفعت الأنبوب المليء بالفلفل الأسود بين سبابتي والإبهام.. وقلت بصوت متحشرج:

- «قد تم كل شيء..»
- «أحسنت..»

ثم نظر إلى ساعته، وقال:

- «أرى أن تقيدنا وتخرج لهم كي لا يشك أحد في شيء.. هذا ميعاد خروجكم للاحتفال..»

فعلت كما طلب، ثم غادرت الدار مبلبل الأفكار..

كان عليّ أن أخبرهم بميلاد ابني، وأن أتركه لهم كي يجعلوه منهم بصورة نهائية..

كنت ـ كما قلت ـ مبلبل الفكر، ولهذا لم أنظر تحت قدمي..

وبالتأكيد فاتني أن أرى ما يحدث في البئر الذي تصب فيه ماسورة مجاري بيتي..

* * *

- ٣ -

وقفت قرب النار المضطرمة التي أشعلوها هذه الليلة في عربة قديمة، كانت الخيول تنقل التبن بها، وكانوا جميعًا هناك ينتظرون بدء الحفل لهذه الليلة.. والضحية فتاة من القرية جاء بها (بوريس) إلينا.. من الواضح أنها كانت معجبة به، والإعجاب جعلها تصدقه.

الآن تقف ذاهلة لا تجد الكلمات، وهي ترى كل هذا الصخب وكل هذه المسوخ.. وتشعر بأن شيئًا ما كريهًا يُراد بها لكنّها لا تعرف ما هو..

لم تكن قادرة على الفرار.. فقد ربط (بوريس) حبلًا إلى عنقها، وربط طرفه الآخر إلى عمود الإنارة الذي انتزعنا مصباحه من زمن..

لكنهم لم يبدءوا الاستنزاف بعد...

قال لي (الكابوس) وهو يرفع قارورة الإكسير:

- «هات بعضًا من المسحوق يا (دم)..»

نظرت له، وابتلعت ريقي.. كان يجب أن أكون طبيعيًا.. ومددت يدي في جيب سترتي وأخرجت الأنبوب، وبطرفي إصبعي تناولت ما قدرت أنه جرام من المادة ونقلته إلى القارورة، ثم رحت أرج الخليط بضع مرات..

قربوا فوهة القارورة من ثغر الفتاة، فتراجعت مجفلة وصاحت:

- «أنتم لن تؤذوني! فقط قولوا هذا!»

لكنّ أحدًا لم يكن يملك نية للكذب..

ودون جهد كثير لامست الفوهة شفتيها، فجرعت جرعتين وهي ترتجف هلعًا.. سعلت مرّتين ثم هدأت..

ورأيت (بوريس) يربط قدميها بالحبل توطئة لرفعها.. فصحت محاولًا تعطيلهم بعض الوقت:

- «يا إخوان.. قد أنجبت (حدأة الصحراء) طفلًا ذكرًا أمس!»

تعالى صياحهم، وسمعت أكثر من واحد يقول أشياء على غرار (كيف لم تخبرنا؟) (إنّه لخبر مبارك!).. إلخ...

هنا صاحت (الروح الكبرى) بصوتها الغرابي..

- «هو أول طفل شاحب يأتي للأرض! طفل لـ (هو) (الذي يمشي في الظلال) منذ أول لحظة في حياته.. ولكن لم لم تنادني وقت الولادة؟»

كي لا تقتلي زوجتي أيتها الساحرة الشمطاء!

تمنيت أن أقولها لكني لم أفعل.. وقلت في حياء:

- «تم الأمر بسرعة لم أصدقها..»

- «إذن هات الوليد كي نبدأ طقوسنا!»

ارتجفت لتصور ما سيحدث.. نحن لم نر مشهدًا مماثلًا لكنّ يمكن تصوره دون جهد.. لا بد أن كتاب (إنفرنوس) الذي تحمله المرأة تحت إبطها يحوي العجب العجاب..

ترددت برهة، وغمغمت شيئًا لا أعرف أنا نفسي ما هو..

قالت لي مستحثة:
- «هلمّ يا (دم).. هات الطفل.. هات (الشاحب).. هذا هو أسمه..»
غلى الدم في عروقي - لو كان فيها دم بعد - على الوضع المزري الذي صار معه الأب عاجزًا عن تسميته ابنه.. بل ولا يجرؤ على منع من يرغبون في إيذائه من عمل ذلك..
هنا سمعت صوتًا ببريًا قوي النبرة يقول:
- «أعتقد - وهو اعتقاد له ما يبرره - أن الأخ غير سعيد وغير راض.. وانه ليصطنع اللطف اصطناعًا!»
نظرنا لنرى من هو..
كان د. (لوسيفر) واقفًا.. كتلة من اللون الأسود الشرير.. لا تعرف أبدًا متى جاء هذا الرجل ومن أين؟ لكنه يظهر فجأة وراء ظهرك..
لقد كان هناك، وكانت عيناه السوداوان الثابتتان الخاليتان من التعبير تتفحصاني في اهتمام...
إنه يعرف! بحق السماء.. هذا الرجل يعرف كل شيء.
قلت محاولًا أن أبدو طبيعيًا:
- «لا شيء يدعوني إلى أن أكون غير سعيد يا سيدي، وقد صرت أبًا للمرة الثانية منذ ساعات..»
عاد يسألني بنفس النبرات الثابتة:
- «وكيف حال ضيفيك؟»
- «بخير حال.. وهما مقيدان كشاتين قبل الذبح..»
- «إذن هلمّ! هات الطفل.. وبرؤيته تنعم عيوننا..»
فارقتهم عائدًا إلى داري وأنا أشعر بنظرات الشك في عيونهم تكاد أن تخرق ظهري.. لقد صارت أيامي هنا قصيرة حقًّا..
وإذ مددت يدي إلى مقبض الباب، سمعت صرخة الفتاة الشنيعة، فعرفت أنهم بدءوا حفلهم.. وأنها تواجه الآن ما لاقاه (أنطونسكو) ابن القصاب أمس...
الشنيع هنا أن (أنطونسكو) كان من الواقفين حولها الآن، وهي تتدلى كالوطواط من قدميها المربوطتين إلى الشجرة!

* * *

نزلت إلى القبو..
كان (رفعت) يتأمل صديقه في قلق.. وبرغم الظلام كان بعض الضوء يأتي من الخارج، حيث راح اللهب يضطرم، أدركت أن الصحفى البدين لم يتحسن قط.. ما زال يرمق الفراغ مذهولًا وقد تدلت شفته السفلى، وسال منها خيط لعاب إلى صدره...
فما إن رآني (رفعت) حتى سألني:
- «لم عدت؟»
قلت وأنا أفك قيوده بسكيني:

- «إن ذلك الغامض المدعو (لوسيفر) يرتاب في امري..»
عض شفته السفلى في أسى، وقال:
- «لم يخطر هذا ببالي.. إن الرجل يقرأ الأفكار فحاذر منه..»
- «لم يعد ثمّة وقت كاف للحذر.. عليك أن تفر من هنا..»
- «لن يكون دون صاحبي..»
ساعدته على النهوض وهو يثب كاللقلق من تصلب عضلاته، وأعنته حتى دنا من النافذة الخاصّة بالقبو، وهي نافذة يقع نصفها السفلي تحت الأرض، أمّا نصفها العلوي ففي مستوى الشارع..
وعلى ضوء اللهب أشرت إلى دار على بعد مائة متر...
- «هل ترى هذه الدار ذات الباب الأحمر؟»
هزّ رأسه أن نعم، وهو ينتظر ما سأقول..
- «هذه دار (الروح الكبرى)..»
- «أعرف هذا.. لقد قرعنا بابها مرة..»
- «إن للقبو فيها نافذة تشبه هذه.. كل ما عليك هو تهشيم الزجاج بحذر، فالهبوط إلى القبو..»
- «شيء جميل.. لكني لا اعرف ما الممتع في هذا؟»
- «هناك في القبو ستة صناديق.. وهي ملأى بالديناميت كلها..»
عاد يواصل أسئلته الغبية.. (أنا أمقت كثرة أسئلة هذا الرجل):
- «ولماذا تحفظ عجوز شمطاء مثلها بالديناميت؟ إنه لا يصلح لصنع الحساء على قدر علمي..»
صحت فيه غاضبًا، وقد نفد صبري:
- «لا وقت للمزاح؟ كان هذا (الديناميت) لدى فريق من عمال المناجم مروا بالقرية منذ شهرين، وقد قتلناهم جميعًا.. لكننا نقلنا الصناديق إلى دار (الروح الكبرى) لأننا افترضنا أن (هو) سيرغب في اقتنائها حين يجيء.. والآن سأشرح لك: ستقوم أنت بالتسلل إلى القبو، وتملأ جيوبك بأصابع الديناميت.. ثم تهرع إلى الكهف، وتبدأ في غرسها عند المدخل.. ومن ثُمَ تفجر باب الجحيم هذا.. ستعيد إغلاق فتحة (جانب النجوم) وتفر إلى الجانب الآخر من القرية.. وحين تعود لا تعد وحدك..»
قال وهو يشعر بخطر الموقف:
- «ومن الأحمق الذي سيتركني أفعل كل هذا؟»
- «سأشغلهم عنك.. وثق أن كثيرًا من الضجيج سيحدث مما يمنحك نصف ساعة تعمل فيها بأمان..»
- «وكيف أفجر الديناميت؟ بقداحتي؟»
- «يوجد جهاز تفجير.. ومجموعة من الأسلاك.. لا أدري ما إذا كنت تجيد عمل هذا لكني أنصحك أن تجيده..»
سألني كطفل ينوي القيام بعمل مبهر للمرة الأولى في حياته:
- «جهاز تفجير من الذي نراه في السينما؟ أعني علبة معدنية فوقها ما يشبه الكباس؟»
- «أنت رجل ذكي.. المفترض أن يغلق هذا الكباس دائرة كهربية ترسل شرارة إشعال في الديناميت..»

هنا سمعنا الطرقات العنيفة على بابي..

- «افتح الباب يا (دم)!»

كانت طرقات غير مرحبة وغير ودود.. طرقات تتهمني بالخيانة.. من الواضح أنهم وجدوا الفتاة قد ماتت بعد استنزافها، وعرفوا كل شيء..

صحت في (رفعت) وأنا أرفع مصراع النافذة لأعلى:

- «هلمّ! اخرج حالًا!»

حشر جسده النحيل معدوم اللياقة في الفتحة، وتساءل محتجًا:

- «ولكن.. ماذا عن....؟»

- «أسرع يا أحمق!»

ودفعته دفعًا إلى خارج النافذة، بينما الطرقات تتعالى أكثر:

- «افتح يا (دم)! لقد اكتشفنا خيانتك!»

أغلقت مصراع النافذة، وهرعت ركضًا أغادر القبو...

دخلت غرفة النوم حيث كانت (إليصابات) جالسة في الظلام تحتضن ابننا، وقد اتسعت عيناها هلعًا.. ومرتجفة سألتني:

- «ماذا يريدون؟»

قلت وأنا أخرج بندقيتي من الخزانة، وأحشوها بالخراطيش:

- «يريدون الانتقام!»

- «لماذا؟ ماذا اقترفت؟»

تأكدت من أن البندقية محشوة، فأغلقتها.. وثَبّتُّ قاعدتها إلى كتفي واتخذت وضع الرماية.. قائلًا:

- «اقترفت كل ما يعتبره مصاصو الدماء إلحادًا.. ويعتبره البشر عملًا خيرًا.. لكنّ دعيني أؤكد لك...»

واتجهت نحو الباب وأنا أسمع الطرقات توشك على اقتلاع الباب:

- «لن يأخذوني بسهولة!»

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو نفسه.

- ١ -

قال (رفعت):
كانت (إنفرنوس) كلها على باب (بيلاسكو) الآن، فلم يرني أحد وأنا أغادر الدار واتجه إلى البيت المقصود.

* * *

لم تكن المهمة عسيرة، وبرغم الظلام كان الضوء القادم من الشارع كافيًا كي أجد الصناديق المذكورة.. صحيح أنني جرحت يدي في أثناء الدخول وتهشيم النافذة، برغم أنني هشمتها بحجر.. وصحيح أنني تلقّيت عضة فأر في اليد ذاتها وأنا أحاول فتح أحد الصناديق، صحيح أن كل هذا حدث.. لكنّ الأمر كان سهلًا للغاية، فالأيدي الجريحة يمكن تضميدها دائمًا.. وهناك مصل (كَلَب) في مستشفيات (بوكوفينا) دائمًا..
المهم الآن أن....
صوت الهياج يزداد وأنا أدس الأصابع الرهيبة في جيبي.. ثمانية أصابع.. لا بد أنها كافية..
صوت صراخ.. تحطيم خشب.. لا بد أنهم اقتحموا الباب الآن..
وجدت جهاز التفجير ولفة من الأسلاك جواره، فرفعته.. إنّه ثقيل حقًّا لكنّ منظره يذكرني بـ (كوريك) السيارة أكثر منه بعلبة معدنية..
ولم أنس أن ألف الأسلاك حول ذراعي..
واتجهت إلى.. آه يا قلبي! لاتتخاذل الآن..
مسكين أنت! طالبتك بالكثير وما زال أمامك ما هو أكثر.. إنني أعتمد عليك.. أنت لم تتخل عني منذ عام ١٩٢٤.. فلا تفعلها الآن!
اتجهت إلى.. النافذة...
ونجحت ـ لا أدري كيف ـ في مغادرة الفتحة...
وللحظات استلقيت على أرض الشارع الحجرية ألهث.. وأصغي إلى صوت طلقات النار من بعيد...
يبدو أن (بيلاسكو) لم يكن سهل الهضم كما ظننت..

* * *

راكضًا رحت أتجه إلى الكهف اللعين..
نظرت للوراء فوجدت جثة الفتاة المعلقة من قدميها إلى الشجرة، كأنها في كابوس حي.. لكنّها ـ على الأقل ـ قد استراحت للأبد..
تحاشيت النظر إليها، ورحت أتأمل الكهف..

كفم الموت الفاغر ينتظرني في شوق..
ينتظرني وأنا أتجه إليه.. انظر للوراء في
(لقد توقفت الطلقات.. أتراهم فرغوا منه!)

توجس.. لو جاءوا الآن فلن يكون لهذه المغامرة معنى.. (جوستاف) البائس.. هل قتلوه؟ ربما آثروا تركه حتى يجيء (هو) لو كان له أن يجيء..

ترى ما هو عقاب الشخص الذي يبدد أقدس نفائس هذا المجتمع، ويستبدل بها عدة جرامات من الفلفل؟ لن يضربوه بالعصا على أطراف أنامله طبعًا، أو يقولوا له (يا وحش)! لكني غير قادر على تخيل ما سيحدث...

هو ذا الكشاف حيث تركته في تلك الليلة ـ أمس! ـ حين خرجت لهم مع (جوستاف) متظاهرًا بالشحوب.

* * *

«إن ضوء هذا الكشاف لا ينتهي إلا عندما ينتهي!»

* * *

لم ينته بعد لحسن الحظ.. ما زال يسمح لي ببضع دقائق.. على كل حال فتحته وأخرجت الحجر الجاف لأدسه بين أسناني، وأعضه عضة مؤلمة ـ لي أنا طبعًا ـ تمنحه مزيدًا من العمر القصير..

ثم أعدته إلى الكشاف.. حسن.. الإضاءة أحسن دخلت الكهف.. مترين أو ثلاثة أمتار.. ثم رحت أفرغ جيوبي مما بها من نفائس.. ليس الديناميت مما يرهبني الآن.. فقد فجرته مرّتين من قبل حين واجهت (العساس)..

* * *

ثم انبطحي! لا تنسى يا سيدتي أن تنبطحي!

* * *

بدأت أغرسه كيفما اتفق في الجدران.. أنخر الحجارة الهشة بأظفاري ثم ثبتت كل إصبع في الفتحة..

الآن يبقى دور الـ....

لحظة! يبدو أنّ هذه ليست الطريقة المثلى.. في السينما يفجرون حزمة كاملة من هذه الأصابع ملفوفة بالسلك.. وهكذا قررت أن انتزع كل ما وضعته، وعدت أكومه في حزمة واحدة.. ثم عريت طرفًا من السلك، رحت أواصل ما بدا لي هو الحل الصائب الوحيد..

وأحكمت تثبيت حزمة الديناميت في الجدار.. ثم مددت السلك إلى الخارج مسافة كافية.. أخيرًا وجدت صخرة يمكن أن أتواري وراءها، فجذبت السلك، وقمت بربطه بجهاز التفجير مستعملًا أظفاري (كانت موضة إطالة ظفر الإصبع الصغير لليد شائعة وقتها، وبرغم أنها عادة غير متحضرة فإنني كنت ممن يزاولونها للأسف)..

هكذا أنا جاهز ويدي على (كباس) جهاز التفجير..

هكذا يمكنني البدء..

لكن ما رأيته جعلني أصاب بشلل لحظي..

* * *

- ٢ -

لقد كان (بيلاسكو) صادقًا، حتى إن شككت في ذلك لحظة..
لقد سكب دماء (دراكيولا) في المرحاض حقًّا...

* * *

كان الصخب عاتيًا، ولسان من البرق شقّ عنان السماء ليضرب الكهف فيتألق بذلك اللون (الإستاتيكي) البارد الرهيب..
واهتزت الأرض مرات ومرّات، ثم رأيت الشيء الذي قال لي صدق (بيلاسكو)..
فمن أكثر من عشرين موضعًا في ساحة القرية البعيدة، وفي عدة مواضع حول الكهف.. رأيت الأرض تتفجر لتخرج منها نافورات من الدم الأحمر القاني، يثور ويرغي غاضبًا محنقًا..
إن الأمر مفهوم.. هذه هي الدماء، وقد سرت في شبكة المجاري تحت القرية.. ثورة الغضب الأخيرة لكائن شيطاني حرمه الرحمن من إفساد عالمنا..
رحت أردد المعوذتين، وأرتجف.. أسناني تصطك هلعًا..
ولمحت الدماء تتسرب ببطء إلى داخل الكهف.. بركة صغيرة تحتشد ببطء هناك.. ما معنى هذا وما مغزاه؟
غلبني الفضول فنهضت..
ركضت إلى مدخل الكهف محاذرًا أن أدوس في السائل المخيف..
لحسن الحظ أنه يتدفق من الجانب تاركًا لي المجال كي أجد مكانًا لخطواتي..
نظرت إلى الداخل فوجدت هولًا..
لقد كان الضباب الأحمر يتزايد.. الضباب الذي رأيته حين فتحت الباب مع (جوستاف) أمس...
كان هناك صوت خوار قوي..
واستطعت أن أرى جسدًا يتحرك.. جسدًا عملاقًا يرتمى ظله على الضباب.. كان أتيا من قلب الكهف.. من المقبرة وباب (جانب النجوم).. وكان يخور كالثيران..
إنه (هو).. (فلاد).. (دراكيولا).. (نوسفيراتو)!
لقد اجتاز الفتحة إلى عالمنا!
وهرعت راكضًا إلى مخبئي شاعرًا بأنها الساعة..
فؤادي لا يكف عن الوثب.. لا يكف عن..
لا بد أنني غبت عن الوعي بضع دقائق من فرط الانفعال العاطفي..
و.... الظلام... الظلام...

* * *

وحين فتحت عيني رأيت المشهد وقد صار مزدحمًا إلى حد لا يمكن وصفه.. وعلى ضوء البرق اللحظي كنت أرى تفاصيله بدقة..

لقد جاء كل أهالى (إنفرنوس)، واحتشدوا عند مدخل الكهف..

لو أنك رأيت المشهد لأرحتني من عناء وصفه.. لكني سأحاول.. سأحاول أن أصف البرق، والظلام ونافورات الدم، والضباب الأحمر المنبعث من المدخل.. سأحاول أن أصف القوم وهم يصرخون في لهفة.. في نشوة.. وينحنون غير مصدقين.. سأحاول أن أصف رائحتهم الكريهة التي امتزجت برائحة البرق ورائحة (الأوزون) إن كانت للأخير رائحة...

وأخيرًا فهمت أكثر ما حدث...

إن العلامة التي ينتظرها (هو) كي يجتاز الثغرة، هي أن ترتوى أرض الكهف بدمائه.. وهو ما حدث نتيجة لقيام (بيلاسكو) برمي الدماء في شبكة المجاري..

صحيح أن (هالماجيو) لم تصر كلها للشاحبين.. وهذا معناه أن الأخ (فلاد) قد تلقى دعوة سابقة لأوانها؛ لكنّ هذا لا ينفي حقيقة أنه اجتاز الفتحة أو يجتازها الآن...

ورأيت المسوخ المخبولة تدخل الكهف، وهم يرددون الكلمة الوحيدة التي أعرفها ـ للأسف ـ من اللغة الرومانية كلها:

- «فامفيرى! فامفيري!»

كلهم يدخل حتى الشيوخ منهم والنساء.

كلهم يدخل الكهف ليكون باستقبال (هو الذي يمشي في الظلال)...

* * *

ولم يكن أمامي حل آخر.. صدقوني....

فقط امتدت يدي إلى (الكباس)، ودعوت الله - رب العرش العظيم - أن يكون فهمي للدوائر الكهربية صحيحًا، وأن يكون الديناميت صالحًا، وأن يكون موقعه ملائمًا، وأن يكون بوسعي أنا الكهل الواهن أن أنهي هذا الكابوس...

هوب! لم يحدث شيء...

هوب! لا شيء...

أترى من المفترض أن أضغط على هذه الأداة مرارًا كمنفاخ الدراجة الهوائية؟ أم.....؟

لكن الانفجار جعلني لا أتساءل أكثر..

* * *

استحال الليل نهارًا، واهتزت الأرض تحت قدمي، وتطاير الغبار في كل مكان..

بصعوبة صدقت أنني مصدر هذه الفوضى..

وخيل إليّ أن الدوي استمر قرونًا.. لكنه حين هدأ أخيرًا، كان بوسعي أن أرى مدخل الكهف وقد تحول إلى جبل من الصخور...

و ـ كأنما لتغسل كل هذه الآثام ـ انهمرت الأمطار مدرارًا...

* * *

ها ها ها ها ه!

دوت الضحكة العالية لكنّها لم تكن لي.. استدرت إلى الوراء فرأيته واقفًا تحت الأمطار في وقار كأنما لا يعبأ بها ولا تعبأ به.

نزعت عويناتي التي جعلها الماء لا تصلح لشيءٍ.. كان الصيب ينهمر على صلعتي، وبلل ثيابي إلى ما تحت جلدي.. لكني تقدمت نحوه وأنا أشهق طالبًا الهواء..

د.(لوسفير) ينتظرني ويداه في جيبي صدير بذلته السوداء..

قلت له والماء يسيل من حاجبي كالشلال:

ـ «والآن تعال نصف حسابنا أيها الوغد.. أرني ما ستفعله**!**»

واتخذت وضع ملاكمة عظيمًا جدًا، واتجهت نحوه، وقبضتي اليمنى تتقدمني.. إن لكمتي الخطافية سوف..

ـ «كف عن هذا السخف**!**»

قالها ودفعني للوراء بسبابته، فطرت مترًا أو أكثر لأسقط في الأوحال.. لن أستطيع أن أفعل ما يفعله الآخرون أبدًا...

وقال لي وهو يتأملني وأنا على الأرض:

ـ «لقد هدمت الكهف على رءوسهم يا د. (رفعت).. وأغلقت باب (جانب النجوم) في اللحظة التي كان (فلاد) يتأهب فيها للعبور.. لعبة موفقة حقًّا..»

ـ «لكنه عبر بالفعل.. لقد رأيته**!**»

ـ «كان هذا ياوره.. وقد جاء يستكشف الأمور قبل قدوم سيده...»

ثم أردف والمطر يزداد كثافة:

ـ «الحق أقول إنني كنت أعرف هذا من اللحظة الأولى.. وعرفت أنك ستفجر الكهف.. لكني ـ لك أن تصدق ـ تركت الأمور تمضي كي أستمتع برؤية صراعك المحموم..»

سألته وأنا أنهض مهشّم العظام:

ـ «ولماذا؟»

ـ «لأن الحمقى من أمثالك هم ما يجعل للحياة طعمًا.. إن (المانوية) تقول إن الشر ضروري للكون كالخير.. ولولا الشر ما وجد الخير.. إن الحياة لا تستقيم إلا بوجود مصاصي الدماء وقتلة مصاصي الدماء مثلك.. لهذا تركتك حيًا لأن جولات كثيرة تنتظرنا معًا.. جولات أكثر إمتاعًا من هذه..»

ـ «تريد القول إنك ستتركني حيًّا الان؟»

ـ «حقًّا أقول..»

ـ «وبمنطق القط (توم) الذي لا يلتهم الفأر (جيري) حتى لا تصير الحياة مملة كالجحيم؟»

ـ «بالمنطق ذاته..»

نظرت للسماء التي ما زالت تسخو بأمطارها.. وقلت:
- «وماذا عن (فلاد)؟»
- «سيبحث عن ثغرة أخرى يعبر من خلالها.. ولسوف ينجح حتمًا.. ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه.. فهو يعلم الآن من أغلق بوابته!»
حاولت سندي تجفيف صلعتي من الماء، وسألته:
- «وماذا عن (جوستاف)؟»
- «حي يرزق.. ستجده في القبو حيث هو.. لكنّ لا تصعد للطابق العلوي لأن المشهد ليس محببًا..»
- «رباه!»
واستدرت مبتعدًا متجهًا إلى دار (بيلاسكو)، حين سمعت (لوسيفر) يناديني من وراء ظهري.. فسألته دون أن ألتفت:
- «هل هناك جديد؟»
قال بصوته البربري واثق النبرات عميقها:
- «حافظ على صحتك.. حاول ألا تموت قبل لقائنا التالي..»
- «سأحاول.. لكني لا أعدك بشيء..»

* * *

سيكون عليّ أن أحكي كل هذا للسلطات الرومانية المتشككة..
سيكون عليّ أن أطمئن على أن (جوستاف) قد شفي من الصدمة العصبية..
سيكون عليّ أن أضمد جراح يدي، وأخذ حقن (الكَلَب) إياها..
سيكون عليّ أن أتحاشى الإصابة بالتهاب رئوي بعد كل هذا البلل..
سيكون عليّ أن أحاول النسيان، كي أستطيع النوم من جديد..

* * *

كل هذا ممكن..
أحتاج إلى وقت لكنه ممكن...
وكان على أن أشفى سريعًا من جراحي النفسية والمعنوية، كي أواجه فصيلة النازيين التي لم تمت بعد، والتي تجوب القرى ليلًا تنشر الخراب والذعر..
لكنّ هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

حكاية الشاحب الثالث

حكاية الشاحبة الثانية

حكاية الشاحبة الأولى أو كيف بدأ الوباء؟

حكاية الصحفي البدين

- ١ -

- ٢ -

حكاية الطبيب النحيل

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

حكاية الشاحب الرابع

- ١ -

- ٢ -

- ٣ -

حكاية الطبيب النحيل

- ١ -

- ٢ -

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة دماء دراكيولا

تعرفون هذا النوع من المآزق ؛ في الخارج ينتظر مصاصو الدماء في شغف ، وفي الداخل يتحرك الباب منذرًا بدخول شيء ما من عالم آخر .. وعليكم الاختيار! لو طلبتم رأي د. (رفعت إسماعيل) لنصحكم بالخروج إلى مصاصي الدماء ؛ فهم أكثر وادعة وأكثر لطفًا من ذلك الذي يفتح البـــاب الآن!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
أسطورة الفصيلة السادسة

Notes

[←1]

إن (ناديا) لا تعرف اللاتينية.. لذا لا تعرف أن (سانجينوس) مشتقة من (سانجينيوس) بمعنى (دم)..

[←2]

تنويه لمن لم يقرءوا الكتيب العشرين: كان د.(لوسيفر) هو بطل الكتيب العشرين!

[←3]

فيما بعد قابلت كل هؤلاء في قصة (أسطورة جانب النجوم)، وسأحكيها لكم يومًا ما...

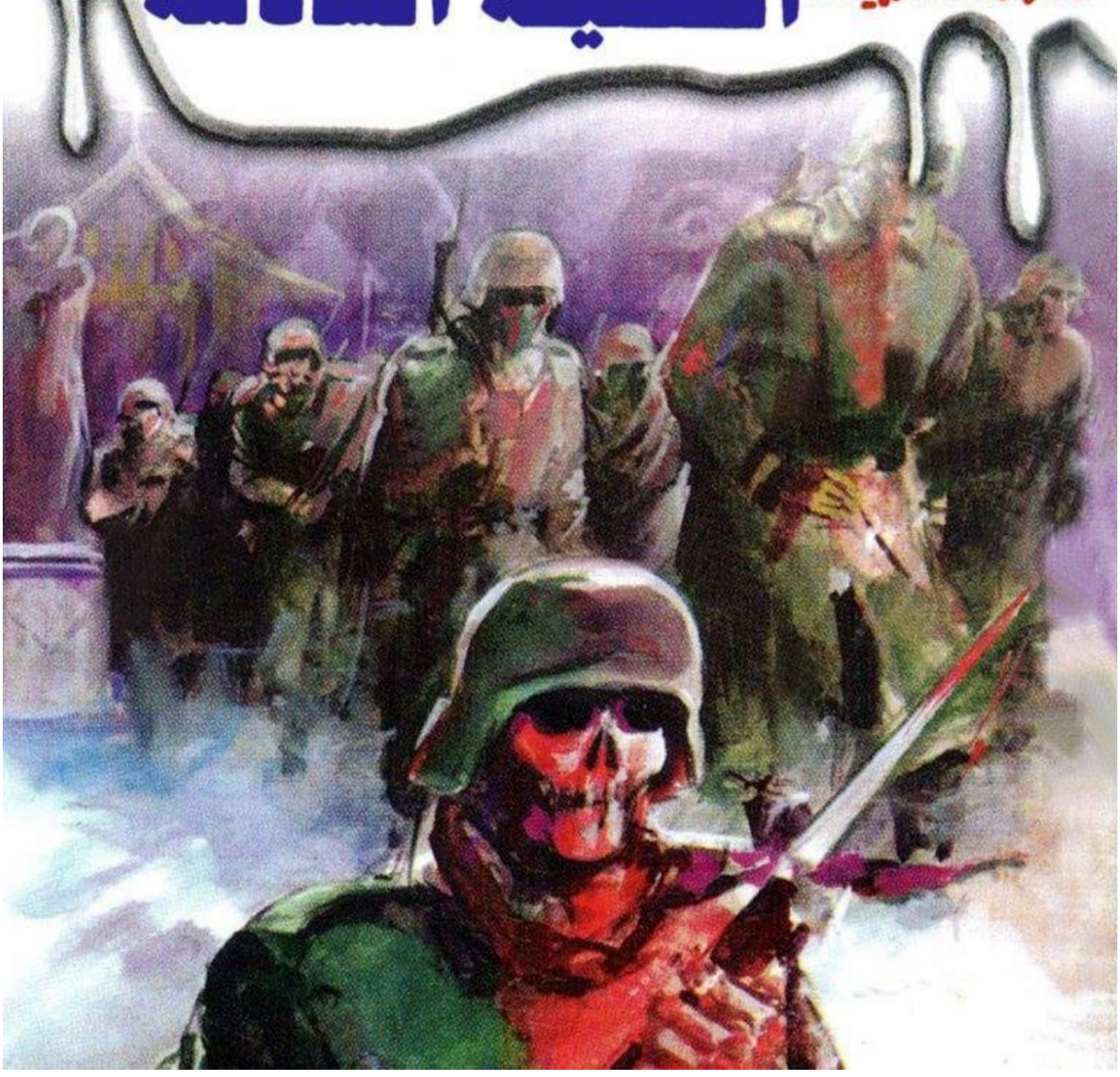
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

36

أسطورة
الفصيلة السادسة

ماوراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

من جديد يعود د. (رفعت إسماعيل) مضيفكم الدائم للكلام.. ومن جديد هي ليلة من ليالي الصيف التي يخنقك الحر فيها، فتضغط على مفتاح جهاز التكييف فقط لتدرك أنه ليس عندك واحد.. تفكر في فتح باب الشرفة لكنك تهاب تلك الحشرات (الكيتينية) الغامضة التي تدخل من الظلام، وتملأ المكان صخبًا وضوضاء، فلا تموت إلا بالشبشب البلاستيكي الأحمر.. وأنت - مرّة أخرى - لا تملك واحدًا!

عندها تعد لنفسك كوبًا كبيرًا من المياه الغازية الباردة، وتجلس إلى المكتب لتحكي حكاية أخرى، فقط تحاول قدر الإمكان ألا يلوث العرق الورقة التي تكتب عليها، فهذا يزيد الحياة تعقيدًا..

هل تعرفون ليالي الصيف هذه؟

حسن.. يمكننا أن نبدأ مباشرة.

مازلنا - إذن - في (رومانيا).. وقد انتهت قصة الشاحبين ودماء (دراكيولا) وتحدثنا كثيرًا عن جانب النجوم المثقوب وعن (لوسيفر) وقرية (هالماجيو) التي تحولت إلى قريتين...

الآن دعونا نلق الفصيلة السادسة.. لماذا هي فصيلة، ولماذا هي سادسة؟ أعتقد أن اسم (أسطورة الفرقة العاشرة) له رنين أجمل وأكثر تشويقًا.. لكني مضطر لاستعمال هذا الاسم السخيف لأن حكايتنا اليوم تتحدّث عن - تصوروا هذا - فصيلة سادسة! ما هو الموضوع بالضبط؟

قربوا رءوسكم مني حتى لا أضطر إلى الصياح في هذه الساعة المتأخرة من اليوم.. وأصغوا لحكايتي..

* * *

١- المستشفى وما إلى ذلك..

لقد تحسن (جوستاف) كثيرًا..

صحيح أنه فقد بضعة كيلوجرامات من وزنه، وازداد الصلع في مقدمة رأسه.. لكنه لم يعد ذلك الأبله الذي عدت به من (هالماجيو) بعد قصتي الرهيبة هناك..

وفي الأسبوع التالي كنت أزوره يوميًا في المستشفى الذي يقيم به، على سبيل الاستجمام؛ فأشترى زهورًا من شارع (كونستانتين زاجالو) وأدخل لأجده في غرفته.. جالسًا في الشرفة يتأمل الفراغ في شرود فلسفي محبب للنفس.

وبالطبع لم أحاول قط أن أحدثه عن (جانب النجوم) وعما رآه هناك.. إنني أتحرق شوقًا لمعرفة ما كان؛ لكنّ من عادات الناس السخيفة أنهم يجنون ويصابون بالخبال قبل أن يجيبوا على الأسئلة المهمة..

إلى أن كان ذلك اليوم.....

* * *

سألني (جوستاف) وهو ينسق زهوري في مزهرية:

- «هل ضايقتك الشرطة كثيرًا؟»

- «ليس كثيرًا جدًّا.. إن نفوذك لقوي حقًّا.. ثم إن الصيدلي تعاون معي على تلفيق قصة عن نصاب يبشر بدين غامض، وقد نجح في جعل أتباعه ينتحرون بالديناميت..»

- «وابتلعوا القصة؟»

- «ليست رديئة كما ترى.. لكنهم حظروا علينا نشرها لأسباب تتعلق بأمن الدولة..»

ابتسم في مرارة واسترخى في مقعده:

- «هذه هي مشكلة الصحفي في دولة شمولية: كل شيء محظور نشره ما لم يُسمح له بذلك كتابيًا.. والخلاصة هي أننا أضعنا وقتًا لا بأس به في (هالماجيو) ولم نظفر بشيء..»

ابتسمت وصببت لنفسي بعض الماء البارد.. وقلت:

- «لقد منعنا (هو) الذي يمشي في الظلال من دخول عالمنا.. وهو إنجاز لا بأس به بالنسبة لرجلين في حالتنا الصحية..»

ثم جرعت الماء، وقلت:

- «الحق أقول لك: إنني أشعر أن جولتنا مع (جانب النجوم) لم تنته بعد.. أعتقد أنني سأعود إليه يومًا ما...»

لم أكن أريد التلفظ بشيء عن (جانب النجوم) لكنّ لساني خانني.. ولحسن الحظ لم يبدأ (جوستاف) في الصراخ والبكاء كالأطفال.. كان هذا سيضعني في موقف لا أحسد عليه...

قال كأنما لم يسمعني:
- «يُمكنك أن تفعل أي شيء ما دام هذا بعيدًا عني..»
وساد الصمت برهة.. قال بعدها:
- «(رفعت).. أنا بحاجة إليك في موضوع آخر..»
- «موضوع مرعب آخر؟»
- «وصالح للنشر!»
قلت وأنا أدير الكوب البارد بين راحتي:
- «ألم تتعظ بعد؟»
- «بلى تعلّمت أن ابتعد عن الصيادلة المرتابين.. إن موضوعنا القادم لن يكون سيئًا إلى هذا الحد.. كم بقي من إجازتك؟»
- «حوالي أسبوعين...»
التمعت عيناه حماسًا، ومد أنامله يفك أول زر من منامته؛ استعدادًا لارتداء ثيابه العادية:
- «إذن هيا بنا.. دعنا لا نضيع وقتًا أكثر..»
- «وهل لديك فكرة عن نقطة البدء؟»
- «سنتفق على كل شيء.. كل شيء..»

* * *

ولهذا تجدونني جالسًا في ذلك المقهى في (بوخارست) مع (جوستاف) نتصفح الأوراق التي بين يديه..
قال لي وهو يبعد الأوراق قليلًا ليراها أفضل:
- «نحن لم نحقق الكثير في (هالماجيو).. لذا أنا مصر على الاستفادة من وجودك ها هنا قدر الإمكان.. كل ما أريده قصة.. قصة صغيرة أنشرها في مجلتي، مسلسلة على ثماني حلقات أو أكثر. مع عناوين مثيرة على غرار (سليل الفراعنة يهزم الـ..).. لا أدرى يهزم ماذا بالضبط.. لكنك ستسحقه سحقًا.. آه! أين هذه القهوة اللعينة؟ هيه! هل ترى؟ لقد نسينا موضوع تابوت العهد هذا تمامًا.. ما رأيك فيه؟»
هززت رأسي وأنا أتأمل المارَّة:
- «قلت لك إنني لن أتدخل في أية قصة لها رائحة عبرانية.. إن تابوت العهد موضوع محبب لليهود، لكني لا أهتم به...»
- «وما رأيك في فرقة النازيين المتجولة هذه؟»
هنا بدا عليّ الاهتمام.. لا أدري كيف أبدو حين أهتم، لكني بالتأكيد أكون مقنعًا.. لقد نزعت عويناتي في حركة تمثيلية وسألته:
- «هلا ذكرتني بهذه القصة؟»
قال وهو يتفقد الورقة بعينه:

ـ «لدينا فرقة أشباح نازية تجول بين القرى.. ثمة تقارير من (ترجول نيامتزولي) في (مولدافيا).. وتقارير من (نياموتزو) ومن (بياترا).. الحق أن الأمر أكبر من أن يكون هلاوس فلاحين..»

تمالكت قشعريرة زحفت عبر عمود الفقري..

إن النازيين مرعبون بما يكفي أحياء، فكيف حال أشباحهم؟

لكن ـ كالعادة ـ تحرك الفضول القاتل لديَّ.. الفضول الذي قتل قططًا كثيرة من قبل..

هناك لغز من ألغاز ما وراء الطبيعة ينتظرني، ولا يحتاج مني إلا إلى بعض الشجاعة.. بعض الشجاعة يا (رفعت) وليس الشجاعة كلها، ومن أدراني أنّ هناك قصة مرعبة تنتظرني هناك؟ كالعادة يظل احتمال الهراء قائمًا..

إن عاملًا مهمًا بدأ يحركني في هذه الأيام: الكبرياء المهني.. كبرياء الخبراء.. إن الجميع يصغون لي باهتمام، ويعتبرونني خبيرًا في هذه الأمور.. لقد واجهت ما يقرب من ثلاثين لغزًا مهمًا، وصرت حجة إلى حدٍ ما..

كبرياء الخبراء تمنعني من أن أرفض.. تمنعني من أن أقول لا، وأظل جاهلًا للأبد... إنّه كبرياء السباك الذي يسمع عن نوع جديد من الصنابير.. كبرياء الإرهابي الذي يحبّ تجربة كل أنواع المفرقعات.. كبرياء ميكانيكي السيارات العجوز حين يسمع عن (الرداخ) الإليكتروني لأول مرة في حياته..

لهذا نظرت إلى (جوستاف) مليًا، ثم بصوت مبحوح سألته:

- «حسن.. متى نرحل إلى (مولدافيا)؟»

* * *

٢- فصيلة الأطفال..

ليلة عيد الميلاد ١٩٤٣

لقد تحرك الدب الروسي.. تثاءب ثم بعثر الجليد الذي كسا فراءه الأبيض، ثم تحرك عبر الوديان طالبًا الانتقام...

المشكلة مع الدب الروسي هي أنه كالمحاصر في حافلة مزدحمة، لا يستطيع تحريك كوعه دون أن يصدم (بولندا) أو يضرب (المجر) أو يدمي (رومانيا)..

ويمكن لكل من يُلقي نظرة إلى الخارطة أن يدرك دون جهد أن (مولدافيا) هي أول ما يدوس عليه الدب الروسي، حين يعبر الحدود قاصدًا (رومانيا)..

* * *

والفصيلة السادسة كانت هناك[1]..

ومن مكمنه وسط الثلوج، راح الجندي الشاب (هانس مولر) يرمق الغابة البيضاء الجاثمة في الظلام..

يبدو أننا نبالغ قليلًا لو وصفنا (هانس) بالشاب.. فمن يراه يدرك أنه مجرد طفل، ومن يعرف عمره الذي لم يتجاوز السادسة عشرة يدرك أنه طفل بالفعل.. طفل بالنسبة لأن تضعه ألمانيا ها هنا مع رفاقه، وتأمرهم بمنع الجيش السوفييتي من التقدم!!

تأمل عينيه الزرقاوين المتسعتين، وشعره الأشقر الذي يغطي أعلى عينه اليسرى، وشفتيه الحمراوين المفتوحتين هلعًا، والعَن معي الحرب و(هتلر) و(ستالين) وكل الحمقى الذين يحاولون البرهنة على قوتهم، فيلقون في أوارها بصبية في عمر (هانس مولر)..

وابتلع الصبي ريقه، وتأمل الصبية من حوله...

لقد انتهت الحرب هاهنا تمامًا بالنسبة لألمانيا.. لا يعلم سوى الله ما ستكون عليه نهايتها في باقي العالم، ولكن هنا بالذات - على الحدود مع الاتحاد السوفييتي - صار الأمر مفروغًا منه.. مسألة وقت.. مسألة سرعة المدرعات السوفيتية الرهيبة فوق الثلوج.. مسألة الوقت الذي يستغرقه قتل مائة صبي هم ما تبقى من الفصيلة السادسة النازية..

شهق فتصاعد البخار الأبيض من بين شفتيه، وهمس:

- «موتي (ماما).. سيموت صغيرك بعد ساعات.. سيرقد فوق الثلوج جنديًا مجهول الاسم، ازرقت شفتاه من البرد، وحوله بركة من الدماء..»

غلبته الصورة الدامية، فراح يبكي.. يبكي ويرتجف..

* * *

وقال قائل من الأطفال حوله:
- «إنهم لن يهاجمونا ليلة عيد الميلاد.. كل الحلفاء سيحتفلون بهذه الليلة ولن يطلقوا رصاصة..»
قال قائل آخر:
- «لا تعتمد على هذا.. فالسوفييت ملحدون ولا يعرفون ليلة عيد الميلاد من سواها..»
ومن القرية الرومانية البعيدة سمعوا في الصمت صوت أجراس الكنائس.. وارتجف (هانز) حنينًا لقريته.. لليلة كهذه يقضونها جوار المدفأة ينشدون أغاني عيد الميلاد.. تماثيل الأبقار والقش وتمثالا العذراء والقديس (يوسف النجار).. وشجرة عيد الميلاد..
دفء المنزل، وبهجة الحياة التي تنتظر..
ومن بين شفتيه همس:
- «(موتي)! ماذا تعملين الآن؟»

* * *

كانت هذه هي الحقيقة..
حينما بدأت الحرب تكشر عن أنيابها، وأدركت ألمانيا أنه من العسير أن تظل فوق الجميع، كان عليها أن تلقي بمزيد من أبنائها في موقد الحرب..
وهكذا وجد (هانز) نفسه مجندًا بعد تدريب لم يستغرق سوى أسبوعين.. وأرسلوه إلى هنا ليدافع عن (الرايخ) العظيم..
فيما بعد سيندهش الحلفاء حين يدخلون (برلين) ليجدوا أن المدافعين عنها صبية في الثالثة عشرة من أعمارهم، أو شيوخ جاوزوا السبعين.. ولسوف يشعرون بالشفقة قبل أن يقتلوهم...
بالنسبة للفصيلة السادسة؛ كان أكثر جنودها البالغين قد هلكوا.. فلم يبق سوى هؤلاء المراهقين المذعورين، وحدهم في الثلج والظلام ينتظرون أولى المدرعات السوفيتية..
كانت لديهم مدرعتان لكنهما معطلتان.. وقد قاموا بتغطية أكثر أجزائهما بالملاءات البيضاء على سبيل التمويه، لكنّ المدفع المغطى بالقماش بدا لهم مرعبًا كشبح جاثم في الظلام...
وارتجفت شفتا (هانز).. وهمس مع مزيد من البخار:
- «(موتي)! إن البرد يقتلني!»

* * *

لكنّ التعليمات صارمة.. ممنوع إشعال نيران..
ومعنى هذا، في جو كهذا، الانتحار دون قيد أو شرط..
أجراس الكنائس تدوي بلا انقطاع..
دنا منه (أوتو) المجند الذي يبلغ سبعة عشر عامًا، زحف على بطنه وسط الثلوج حتى رقد جواره في الخندق، وأشعل عود ثقاب ودس لفافة تبغ بين شفتيه.. فالحقيقة هي أن ساعات الانتظار

علمت كل هؤلاء الصبية التدخين..

هتف (هانز) في هلع:
- «النار! سيروننا!»
لامس (أوتو) طرف اللفافة بالجذوة، وقال:
- لا تكن طفلًا.. إنهم يعرفون مكاننا بدقة.. إن هؤلاء الرومانيين يخبرونهم بأدق أسرارنا.. المسألة مسألة وقت لا أكثر..»
- «هل معك سواها؟»
- «هي الأخيرة.. لكننا سنتقاسمها..»
ومن مكان ما راح أحدهم يترنم بلحن (ألمانيا فوق الجميع) المفضّل للنازيين.. فقال (أوتو) باشمئزاز:
- «هلا كف هذا الحمار عن الغناء! أمّا زال يصدّق هذا الهراء؟»
ثم صاح بصوت آمر:
- «فلنغن أغنية واقعية يا رفاق.. هيا معي! أبيض أبيض هو لون ثيابه.. أبيض هو لون أدواته.. لهذا أحب اللون الأبيض.. لأن حبيبي خباز!»
تصاعدت ضحكات عصبية، وسرعان ما دوى في الظلام صوت يستكمل أغنية الأطفال البافارية هذه:
- «أخضر أخضر هو لون ثيابه.. أخضر هو لون أدواته.. لهذا أحب اللون الأخضر.. لأن حبيبي بستاني!»
- «ملون ملون هو لون ثيابه.. ملون هو لون أدواته.. لهذا أحب كل ما هو ملون.. لأن حبيبي رسام!»
وهنا سمعوا صوت صرير الجنازير..
ونظر بعضهم البعض، ولم يجدوا الوقت الكافي للكلام لأن...
بوم!
أضاء الانفجار الظلام، والتمعت الموجودات.. ثم تحسس كل منهم جسده بحثًا عن إصابات مميتة.. كان هناك صبيان يرقدان على الجليد وقد تناثر الدم حولهما، وكفا عن الذعر للأبد..
- «أطلقوا النار!»
ومن أعلى المنحدر ظهرت أولى الدبابات السوفيتية.. ظهر برجها أولًا كرأس ديناصور يتشمم الهواء، ثم ظهر باقي الجسم.. وسرعان ما بدأت تهبط المنحدر نحوهم..
- «اضربوا الجنازير.»
راحت الطلقات تدوي.. لكنّ ماذا بوسع طلقات المدافع الرشاشة أن تفعل أمام هذا الوحش الحديدي؟
- «أزرق أزرق هو لون ثيابه.. أزرق هو لون أدواته.. لهذا أحب اللون الأزرق..... لأن.....»
دبابة ثانية قادمة من أعلى..
- «.. لأن حبيبي بحَّار!»
ودوت أربع قذائف جديدة..



دنا منه (أوتو) المجند الذى يبلغ سبعة عشر عامًا ، زحف على بطنه وسط الثلوج حتى رقد جواره فى الخندق . .

ونظر (هانز) إلى فخذه فرأى أنه ينزف بغزارة.. غريب!
كان يقرأ دومًا هذه العبارة في الروايات فلا يصدقها.. كيف يجرح الإنسان دون أن يتألم؟ لكنّ هذا حقيقي.. إن شظية قد مزقت فخذه وهو لم يشعر بأدنى ألم..
سمع صراخ رفاقه فعرف أنهم - على الأقل - يتألمون...
الجليد البارد.. الدماء.. رائحة اللحم المحترق.. صرير الجنازير.. رائحة البارود.. أجراس الكنائس.. طلقات الرشاشات.. مذاق الدم المالح الصدئ.. رائحة العرق..
مئات المؤثرات التي سيذكرها دومًا كلما....
كلما ماذا؟ لن يكون هناك غد، ولن يتذكر شيئًا بعد الآن..
لقد أبيدت الفصيلة أو ما تبقى منها...
إنه الموت...
- «أسود أسود هو لون ثيابه.. أسود هو لون أدواته.. لهذا أحب اللون.. لأن حبيبي....
«منظف مداخن!»

* * *

٣- ماريانا كاراجيالي..

في العاشرة صباحًا وصلنا إلى (نياموتزو)..
كان الفندق الذي اختاره لنا (جوستاف) يُدعى باسم (لابوخنيانو)، فقلت له في حيرة:
- «المشكلة هي أنني لو ضللت طريقى فسأفتتح متجرًا لبيع الصحف في المكان الذي أجد نفسي فيه.. لن أستطيع ما حييت أن أتذكر اسم (لابوخنيانو) هذا..»
(ألكسندر لابوخنيانو) - كما قال لي - هو ملك قديم من ملوك (مولدافيا).. وكان طاغية، ضايقه تبرم النبلاء بحكمه، من ثم أقام لهم مأدبة في قصره، وأغلق الأبواب عليهم وقتلهم جميعًا، ثم صنع من رءوسهم هرمًا عاليًا أمام القصر.. وكان هذا عام ١٥٦٥م[2]..
قلت لـ (جوستاف) وقد بدا لي كل هذا مألوفًا:
- «أي أنّ هذا الفندق لو كان في مصر لصار اسمه (محمد علي).. لكن قصتك هذه لن تساعدني كثيرًا في تذكر الاسم...»
- «إذن هي مشكلتك..»

* * *

بعد الظهيرة قاد (جوستاف) عربته الفاخرة التي لم يصبها أذى في (هالماجيو)، قاصدًا أولى القرى التي تحدّثت عن رؤية الفصيلة.. وكان اسم القرية هو (برايلا)..
قابلنا عمدة القرية الذي أحسن وفادتنا، ودعانا إلى غداء فاخر من البط المحمر مع الكرنب، والسجق المشوي، وقهوة تركية.. ثم قنينة من نبيذ (الموسكا) الذي لم ألمسه طبعًا..
كان العمدة عمدة في كل شيء.. يُمكنك أن تلقاه في (كفر بدر) أو في (فرنسا) أو هنا في (مولدافيا)..
إنه بدين له شارب كث.. متأنق أناقة سخيفة قليلًا.. له لهجة واثقة آمرة، ونظرة الراضي عن نفسه تمامًا...
وكان الحكمدار (أيودو) قائد الشرطة في القرية ضيفًا على نفس المنضدة معنا، لكنه لم يتكلم.. ظل يتابعنا في اهتمام، ولم يبعد عينيه عني كأنما يشتبه في..
بالطبع دار الحوار كله بالرومانية فلم أفهم حرفًا، وإن جلست أنظر للمتكلمين في ذكاء، ولم يتعطّف عليّ (جوستاف) بالترجمة لأنّه كان يريد الحصول على المعلومة كاملة أولًا.. وإن حرص على أن يبدي لي ملاحظاته التحذيرية من آن لآخر: لا تشرب هذا.. إنه نبيذ.. لاتأكل هذا فهو سجق من لحم الخنزير.. وقد احترمت كثيرًا هذه النقطة في (جوستاف).. فهو قد يختلف مع عقيدتي أو عاداتي، لكنه يحترمها ويحافظ عليها..
المهم أن المحادثة انتهت فأشعل (جوستاف) سيجاره الفاخر الشبيه بإصبع السجق، وقال لي:

- «العمدة لم ير ولم يسمع شيئًا..»
- «هل كان ذكر هذا يحتاج إلى كل هذا الوقت؟»
- «لكنه متأكد من وجود شيء ما..»
- «جميل.. ومن شهوده؟».
- «سيحضرهم لنا واحدًا تلو الآخر.. ولسوف نصغي ونحكم عقولنا..»

هنا نظر العمدة إلى الحكمدار وقال له بعض كلمات، فنادى هذا خفير الدرك الواقف بالباب.. وكان عبارة عن شاربين لهما رجل يتدلى منهما، إن الشوارب السلافية العملاقة هذه....

وجاء الشاهد الأول بعد دقائق..

كان امرأة في الأربعين من عمرها، تغطى رأسها بإيشارب مزركش، ولها ضحكة مائعة قليلًا.. وأدركت من تبرجها المبالغ فيه أن شيئًا ليس على ما يرام فيما يتعلق بها..

جلست إلى المنضدة وراحت تداعب الخشب بأظفارها المطلية بطلاء رخيص.. وتنظر لنا في فضول وقد سرها الاهتمام الذي يحيط بها..

- «(ماريانا كارجيالي)..»

ناداها العمدة باسمها، ثم دارت محادثة طويلة بينها وبين العمدة و(جوستاف).. لن أندهش لو كانت خلاصة المحادثة أنها لم ترَ شيئًا على الإطلاق، فقد عودتني اللغة الرومانية على هذا..

بعد قليل استدار لي (جوستاف) يترجم لي بالإنجليزية ما قالته:

- «(ماريانا) أرملة شابة، ويبدو أن سمعتها ليست على ما يرام في القرية..»
- «هذا واضح.. وهو طبعًا كلامك لا كلامها..»
- «تقول إنهم عشرون جنديًا يمشون في صف طويل.. لا يمشون أبدًا متجاورين.. يرتدون معاطف الجليد والخوذات، وتبدو عليهم كل سمات الجنود المرهقين.. بل إن وجوه أكثرهم ملوثة بالدماء وشعرهم الأشقر يتهدل على جبينهم معجونًا بالدم.. ويبدو أنّ هناك جروحًا أكثر من اللازم..»

ابتلعت ريقي لتصور هذا المشهد الرهيب، وسألته:

- «وماذا يعملون غير الظهور وإثارة الهلع؟»

قال وهو يطفئ سيجاره الذي أوشك على خنق المرأة:

- «يغنون نشيد (ألمانيا فوق الجميع) بصوت حزين عالٍ.. إن المرأة تعرفه جيدًا.. فقد كانت في العشرين من عمرها حين كان الألمان ها هنا في (رومانيا).. وهي تذكر جزءًا لا بأس به من لغة هؤلاء الجنود الشقر..»

إذن المرأة في السادسة والأربعين من عمرها تقريبًا.. إن تقديري للعمر يخطئ كثيرًا في هذه الأيام.. ولكن ماذا يفعل هؤلاء النازيون غير الغناء والظهور؟

- «إنهم يقرعون أبواب الفلاحين ليلًا.. ويُقال إنهم يطلبون الطعام والشراب، لهذا يضع الفلاحون لهم الخبز والنبيذ على الأبواب المغلقة.. ويقال إن لقاءهم ليس تجربة سارة، لأن عدد الموتى ليلًا في القرية المجاورة قد صار أكثر من اللازم..»

- «وكيف يموت من يموتون؟»

استدار للمرأة وسألها عن شيء ما، فأجابت وهي تنظر لعيني مباشرة، كأنما تعرف صاحب السؤال.. وكأنني سأفهم كلامها على الفور..

قال (جوستاف):
- «يموتون بالسونكي.. لم تكن هناك طلقات رصاص، ولم يكن هناك امتصاص دماء إذا كنت في ذلك تفكر.. لقد تركنا مصاصي الدماء منذ فترة يا (رفعت)..»
ابتسمت وهززت كتفي:
- «لم أعد أثق كثيرًا ببلدكم هذا كما تعلم..»
ثم أردف (جوستاف) مستدركًا:
- «لكنّ هذا لم يحدث ها هنا قط.. إنّه يحدث في القرى المجاورة..»
- «هذا دأب إشاعات القرويين.. ولو سألت في قرية مجاورة لقالوا لك إن هذا يحدث هنا..»
أضاف (جوستاف) وهو ينظر إلى العمدة:
- «قال العمدة إن هناك بلاغات حقيقيّة عن وفيات.. لكن تحقيقات الشرطة لم تنف أو تثبت شيئًا، والسلطات في (بوخارست) لا تهتم بالأمر كثيرًا.. فمن يهتم بالأساطير في (رومانيا) لن يجد وقتًا لشيء آخر.. وعلى كل حال ليس من المستحب أن يشكو عمدة القرية لمسئول الحزب من أشباح نازية تجول ليلًا..»
- «أفهم كلامك.. إنّه بعدها لن يظل عمدة يومًا آخر..»
ثم سألته:
- «وهل من نظريات ما حول الموضوع؟»
ابتسم وحك مقدمة رأسه الذي زال شعره أو كاد، وقال:
- «كالعادة.. يتحدثون عن فصيلة نازية أبادتها الدبابات الروسية ليلة عيد الميلاد عام ١٩٤٣.. يقول العمدة إنهم كانوا في القرية يدقون أجراس الكنائس كي لا يسمعوا صوت صراخ الصبية النازيين بينما الدبابات تمزقهم!»
- «صبية؟!»
- «نعم.. إن (هتلر) لم يجد جنودًا يرسلهم إلى (رومانيا) ليموتوا سوى بعض الأطفال.. كان بحاجة إلى قوات (البانزر) للدفاع عن (تشيكوسلوفاكيا) و(بولندا).. بل و(برلين) ذاتها..»
بدت لي الفكرة رهيبة حقًّا..
أن تحضر مراهقًا لا يعرف عن الحياة سوى الزهور، وأغاني الحب، وقصائد الشعر، ولعب الكرة مع رفاقه.. تنتزعه من كل هذا وتضعه في خندق ثلجي وتقول له: (ألمانيا فوق الجميع).. ثم تتركه وحيدًا يواجه رتلًا من الدبابات السوفيتية التي لا تمزح..
إنها لفكرة رهيبة..
لقد كان (هلتر) سفاحًا، وكان النازيون قتلة، لكنّ المكلف بدفع ثمن خطاياهم ليس بالتأكيد ذلك المراهق الضعيف الوحيد..
وكأنما سمع (جوستاف) أفكاري، قال:.
- «لقد ارتكب (هتلر) فظائع كثيرة في (روسيا).. وحين تحرك (ستالين) أخيرًا للانتقام؛ استطاع - والحق يُقال - أن ينتقم بقسوة وعنف وشراسة.. لقد كان النازيون يفضلون الموت بيد الأمريكيين على الأسر بيد السوفييت..»
- «واحدة بواحدة والبادي أظلم.. لكنّ ما ذنب الصبية في كل هذا؟»
وهنا تذكرت سؤالًا مهمًا، فملت على (جوستاف):

- «(جوستاف).. ما سن هؤلاء الجند الذين رأتهم المرأة؟»
ابتسم في خبث، وقال:
- «ماذا تظن؟ بالتأكيد كلهم لم يبلغوا العشرين من عمرهم!»

* * *

٤ - ميخائيل نجروزو..

يرتدي سترة صوفية مهترئة ملأى بالبقع، وقد وضع على كوعيها رقعتين من القماش يداري بهما مزيدًا من الاهتراء..

يقف على الباب خالعًا قبعته في رهبة، كاشفًا عن رأس أصلع يلتمع بالعرق برغم برودة الجو، وعلى أنفه عوينات سميكة تجعل عينيه كأنما هي عينتان محفوظتان في مرطبان لدى طبيب..

الحق أن (نجروزو) كان منفرًا، لكنه يوحي بالشفقة..

قال له العمدة أن تقدم يا (ميخائيل)، فدنا من المنضدة ووضع قبعته أمامه متوقّعًا أن يقوم السيدان من (بوخارست) بخراب بيته..

الحق أن الشيوعية كانت ـ في (رومانيا) بالذات ـ ذات سلطة شمولية مفزعة ومرهقة للرجل المسالم العادي.. ولهذا لم أندهش كثيرًا لما حدث في (رومانيا) في التسعينات من ثورة مسلحة، وإعدام لـ (شاوشيسكو).. الحقيقة هي أن المواطن الروماني العادي كان يهاب كل ما هو حكومي، ويفضل أن يُترك وشأنه..

من جديد دارت المحادثة الرومانية الغامضة، ثم راح (جوستاف) يشرح لي تفاصيلها..

- «يقول (نجروزو) - وهو صراف القرية - إن الفصيلة النازية التي أبيدت ها هنا كانت تدعى (الفصيلة السادسة).. لكنّ الفلاحين كانوا يسمونها (فصيلة الأطفال)..

«يقول: إنهم - الفلاحين - جاءوا في الصباح بعد عيد الميلاد عام ١٩٤٣.. ليجدوا على الجليد نحو مائة جثة... كلها لشاب في العقد الثاني من العمر.. وكان الجنود السوفييت في كل مكان، يقولون: إنهم كانوا يمرحون ويضحكون وينتزعون التذكارات من الجثث، ثم أمروه ومن معه بدفن الموتى..

«يقول إنّه طلب استدعاء قس القرية ليصلي على الجثث قبل دفنها، لكنّ السوفييت رفضوا وقالوا: هؤلاء نازيون.. ولا أحد يصلي على النازيين ما لم يكن خائنًا..»

نظرت إلى الصراف المرتجف، وأدركت أنه يداري الكثير من مشاعره وأفكاره.. بالطبع لم يرق له هذا.. وبالطبع عبث الروس المنتصرون كثيرًا بالقرية.. لكنه لا يجرؤ على الكلام بصراحة أكثر لأن هذا يعرضه للخطر كعدو رجعي للشيوعية، ومعوق لحركة تقدم التاريخ..

أردف (جوستاف) وهو يدون بعض النقاط في مفكرته:

- «يقول إنهم دفنوا الجثث تحت الجليد، ولم يضعوا علامات على القبور.. لكنه يذكر جيدًا أين تم الدفن..»

- «وهل رأى هؤلاء الجنود الأشباح؟»

- «يقول إنّه رآهم مرّتين في ضوء القمر.. فتح نافذته ليراهم يمشون في صف واحد عبر شوارع القرية، وكانوا يغنون نشيدًا ألمانيًا.. ويقول إن أحدًا لم يجرؤ قط على مغادرة داره لرؤيتهم.. إلا أنه سمع طرقاتهم على بابه أكثر من مرة..»

- «ولم يفتحه طبعًا؟»

- «لا أحد يجسر على ذلك..»

ساد الصمت برهة.. ثم تكلّم (نجروزو).. كانت عيناه تلتمعان رعبًا خلف عويناته، لكنه يواصل الكلام بلا انقطاع، وأدركت أنه يتخلص من سر أثقل كاهله لفترة لا بأس بها..

قال (جوستاف):

- «يبدو أن الأرملة (روكساندرا) قد سمحت لهم بدخول دارها مرة أو مرّتين.. يقولون إنها مخبولة تمامًا.. فقدت زوجها في الحرب، ومن يومها عاشت وحيدة.. هي اليوم في السبعين من عمرها، ولم تعد الأشباح تخيفها..»

قال العمدة في غضب بضع عبارات، ففسر لي (جوستاف):

- «العمدة يلومه على أنه لم يقل هذا من قبل.. إن (روكساندرا) هذه ستكون خير عون لنا لو ظلت حية حتى نستجوبها..»

ثم نظر لي وقال بلهجة رصينة:

- «دعنا نرتب أفكارنا.. ما هو انطابعك عن كل هذا؟»

قلت وأنا أرشف القهوة التركية التي بردت تمامًا:



يقف على الباب خالعًا قبعته فى رهبة ، كاشفًا عن رأس
أصلع يلتمع بالعرق برغم برودة الجو . .

- «لو كان هذا حقيقيًا فالقصة واضحة.. لقد مات هؤلاء الصبية غاضبين مذهولين في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل..

«لم يظفروا بقبور محترمة ولا صلاة.. لهذا ـ كما يُقال دومًا ـ ظلت أرواحهم قلقة هائمة في المكان الذي قتلوا فيه..»

دوّن مزيدًا من الملاحظات في مفكرته.. ثم سألني:

- «إن ثلوج (رومانيا) تداري آلاف الجنود القتلى.. دعك من ثلوج (ستالنجراد) ورمال (العلمين) وما إلى ذلك.. فلماذا يهيم قتلى هذه الفصيلة بالذات؟»

وضعت قدح القهوة، وقلت محاولًا ألا أبدو أحمق:

- «أنا لا أتحدث عن شيء أعرفه جيدًا أو أفهمه يا (جوستاف).. كل هذه أقاويل.. لكنّ روح المراهق تكون أكثر قلقًا وتوترًا من روح البالغ.. وأنت تعرف طبعًا ما يُقال عن قابلية المراهقات الخارقة للوساطة في تحضير الأرواح، أو تعرضهن اللمس الشيطاني..»

ابتسم بغموض.. لا أدري أيسخر أم يتقبل حقيقة قاسية.. وسألني:

- «والحل؟»

- «أحيانًا يكون الصواب هو استخراج الأجساد المدفونة.. ووضعها في قبر لائق..»

- «وتريد أن أقول هذا لحكومة (شاوشيسكو)؟ أرجو استخراج أشلاء النازيين من فضلكم لتهدأ الأرواح الجوالة!»

قلت مغتاظًا:

- «أنت تسألني عن رأيي.. وقد قلته..»

كان العمدة والصراف المذعور يصغيان لمحادثتنا الإنجليزية في اهتمام ودون فهم.. لكنّ اسم (شاوشيسكو) صدم أذنيهما متوترًا.. إن الأمور تزداد خطورة إذن..

هنا قرر الصراف أن يضيف معلومة جديدة، وكان مؤداها:

- «لقد ظهر هؤلاء الجنود منذ عام أو أقل.. وهم يجولون في كل القرى المحيطة بـ (نياموتزو) دون استثناء.. يمكن أن تراهم في أية قرية، في أية ليلة دون نظام محدد.. لهذا يؤثر الفلاحون السلامة ويغلقون الأبواب عليهم، ويضعون على بابهم ما يصلح لإطعام هذه الأشباح الجائعة.. وفي الصباح كثيرًا ما يجدون أن الخبز قد اختفى، والشراب قد فرغت زجاجاته..»

قلت وقد غالبت ضحكة ساخرة:

- «غريب أمر الأشباح المتسولة الجوعى هذه.. أي منطق يقول إن الأشباح تأكل طعامنا؟»

قال (جوستاف) في جديّة:

- «أحقًا لم ترَ تجربة مماثلة؟»

- «في مصر ما زالت أمهاتنا يقدمن الطعام للطفل الرضيع، ويسكبن بعضًا منه على الأرض (لكي تأكل أخته معه) ـ أخته التي تعيش تحت الأرض طبعًا ـ وفي (هاييتي) يضع الناس الخبز والملح على الأبواب ليلًا ليأكل منها (الزومبي) الخارجون من قبورهم.. إن للملح هنا أهميّة خاصة؛ لأنّه ينهي حالة (اللاموت) التي يعانيها (الزومبي).. لكني ما زلت أراها فكرة سخيفة حقًّا..»

قال (جوستاف):

- «لكنّ هذا لا يمنع أن الطعام يؤكل ـ في حالتنا هذه ـ وآكله ليس عابر سبيل..»

- «إن هذا جدير بالتجريب..»

نظر (جوستاف) إلى العمدة، وقال شيئًا ما بالرومانية، لكني تمكنت من سماع اسم (روكساندرا).. فهز العمدة رأسه باسمًا وقال شيئًا آخر..

قالت (جوستاف) مفسرًا:

- «سألته عن حضور الأرملة ها هنا في...»

قاطعته مكملًا الجملة:

- «.. فقال إنها قعيدة ولا بد من أن نذهب إليها.. هل نسيت كلامي عن الأفلام البنغالية؟ إن لغة الإشارات والإيماءات كافية جدًا لتفسير سبعين بالمائة من الأمور..»

نهض (جوستاف) وتثاءب دون كياسة، قائلًا بالإنجليزية:

- «يا سادة.. إنّه الوقت الذي نفرد فيه أرجلنا..»

وشكر العمدة، وأعتقد أنه سأله عمن يقودنا إلى دار الأرملة (روكساندرا)، فأشار العمدة إلى الصراف.. إنه هو من سيصحبنا إليها، فمن الواضح أنها جارته إذن.. سألت (جوستاف)..

- «هل ستبيت ها هنا؟»

نظر إلى ساعته فوجد أن الشمس تغرب بعد ساعة، فقال لي:

- «لا داعي لذلك.. إن الخان في هذه القرية ليس أفضل حالًا من خان (كرايوفسكا).. هل تذكره؟ فلنمنح أنفسنا وضمائرنا لفندق (لابوخنيانو) المريح في (نياموتزو)..»

سرني أنه ذكّرني باسم (لابوخنيانو) بعد ما كنت قد نسيته.. كيف يمكن تذكر هذه الأسماء التي لا تحوي أية علامة ربط؟ من السهل تذكر اسم (نياموتزو) لأننا سنكون فيها (نيام).. و(برايلا) شبيهة بطريقة (برايل) في الكتابة.. لكنّ أي شيطان يمكنه تذكر اسم (لابوخنيانو) هذا؟!

أشار (جوستاف) إلى الصراف كي يتقدمنا...

هززت رأسي للعمدة محييًا، وغادرت الغرفة..

* * *

٥ - روكساندرا برباياني..

فيما بعد عرفت من (جوستاف) أن (ميخائيل نجروزو) وقف تحت نافذة العجوز يناديها قائلًا:
- «أنا (ميخائيل) يا خالة (روكساندرا).. ومعي ضيفان من (بوخارست)..»
ثم اتجه إلى الباب، وفتحه بعد هذا التحذير..
كانت العجوز القعيدة تترك بابها غير موصد.. هي لا تهاب شيئًا لأنهّا ـ كما هو واضح - لا تملك ما يُسرق.. سواء كان مالًا أو جمالًا.. كل القرية تعرفها وهي تعرف كل القرية.. فماذا يدعوها لطلب الخصوصية؟ وكما قال (جوستاف):
- «إن النسوة يقمن بزيارتها يوميًا.. بعضهن ينظفن لها الدار، وبعضهن يطهين لها أو يغسلن.. إن هذه العجوز هي مسئولية الجميع.. ولا أعتقد أنها تعاني الوحدة..»
- «بل تعانيها ما دامت تقبل استضافة الأشباح النازية..»

* * *

وبالداخل كانت الدار نظيفة جدًا.. لم لا ما دامت عشر نسوة ينظفنها كل يوم تقريبًا؟ وكانت الشمس تغمر أكثر أجزائها.. شمس بهيجة نظيفة بدورها، وإن كانت تنحدر بسرعة إلى الغرب..
هذا البيت - حتمًا ـ لا يناسب الأشباح خاصة النازية منها...
ورأينا طفلًا وطفلة غاية في الجمال يخرجان راكضين من الباب، وهما يتصايحان مرحًا.. لقد كانا يلعبان المساكة في دار العجوز..
هذه الدار - حتمًا ـ ليست من الديار التي يحرم على الأطفال الدنو منها.. وجوار النافذة جلست الأرملة العجوز...
من جديد أقول إنها لم تكن مرعبة كما ينبغي لها أن تكون.. عجوز مسالمة وديعة، لها ضحكة فاتنة، حتى لتتمنى أن تريح رأسك على ركبتها وتقول لها (ماما).. باختصار لم تكن تشبه (الأخت الكبرى) في شيء.. ضحكت لنا فامتلأ وجهها المجعد بمزيد من التجاعيد، وقالت عبارات بالرومانية بعثت السرور لدى (جوستاف)..
جلسنا حولها، ونهض الصراف الخائف دومًا، ليصب لنا شرابًا أحمر في ثلاث كئوس، ذلك الشراب الذي عرفت من (جوستاف) أنه شراب رمان غير مختمر (جرينادين)..
محاورة قصيرة مع (جوستاف).. صوت المرأة رفيع أقرب إلى صوت الأطفال، مع رعشة لا بأس بها بسبب الشيخوخة.
قال لي (جوستاف):
- «تقول إنها تعيش هنا وحدها منذ وفاة زوجها، وإن داء (الروماتويد) قد أحالها إلى تمثال متكلم..»

كنت أنا ـ دون جهد ـ قد لاحظت يديها، ورأيت تشوهات عنق البجعة، وحرف (Z)، وعروة الزر وكل التشوهات الروماتويدية التي كنا لا نراها إلا في كتب الطب.. إن هذه العجوز ثروة طبية حقيقيّة..

أردف (جوستاف):

- «تقول إنها لم ترَ أشباحًا.. هناك صبية ضالون يمرون ليلًا بدارها ويسألون الدخول فتسمح لهم.. إنها تعتبر نفسها أمّا لكل الصبية الضالين منذ مات زوجها دون أن يترك لها أبناء..»

- «وكيف تفتح لهم الباب؟»

ـ «الباب مفتوح كما ترى.. هي فقط تنادي من فراشها بصوتها الرفيع تقول لهم أن يدخلوا، وتخبرهم بأن الجيران تركوا لها بعض الخبز والشراب واللحم المقدد في المكان الفلاني.. طبعًا لا داعي أن أشرح لك أن الجارات هن من يضعن المرأة في فراشها ليلًا ويتركنها..»

اتسعت عيناي ذهولًا، وتأملت العجوز.

- «هل تعني أنها لم تبصر زوارها قط؟»

- «حقًّا.. وهذا لن يقدم أبحاثنا كثيرًا..»

عدت أسأله في فضول أكثر اشتعالًا:

- «وماذا عن أصواتهم؟ كلامهم؟ عاداتهم؟»

سألها عن ذلك، ثم قال لي:

- «تقول إن أصواتهم أصوات صبية مراهقين، وهم يتحدثون الرومانية الرديئة التي داخلتها لهجة أجنبيّة ما.. لكنّ عاداتهم هي عادات أي مجموعة من المراهقين.. يمزحون بصوت عالٍ.. يتبارون في ألعاب القوى.. يحيلون المكان الذي يسهرون فيه إلى حظيرة ثيران..»

- «تعني أنها لا تجد شيئًا غريبًا في كل هذا؟ أن يزورها عشرون شابًا مراهقًا كل ليلة..»

- «بل بعض الليالي..»

- «ولا أحد يعرف من أين جاءوا ولا أين يذهبون.. لكنها تحبهم على كل حال..»

- «هذا ما يبدو من الأمر.. إن العجوز على قدر من الخبال كما هو واضح.. لكنّها ليست خير شاهد لنا..»

طلب منها (جوستاف) شيئًا ما، فأشارت بيدها موافقة.. من ثم دعاني كي أنهض معه وخرجنا إلى غرفة كبيرة تناثرت بها المقاعد والأرائك مما جعلها أدنى إلى حجرة جلوس..

قال (جوستاف) وهو يتحسس قطع الأثاث:

- «هنا يجتمع هؤلاء القادمون ليلًا.. إن الغرفة يتم تنظيفها بعناية لكني أرجح أن يكون هناك أثر ما..»

رحت أتأمل المكان: البساط يدوي الصنع.. المقاعد التي لا يشبه واحد منها الآخر.. المعزف القديم في ركن الغرفة.. صورة على الجدار باللون الأبيض والبني المميز لصور الماضي، يظهر فيها رجل رومانى كث الشاربين له نظرة حمقاء.. إنّه المرحوم (برباياني) زوجها طبعًا.. كل المتوفين تبدو صورهم متشابهة.

لا شيء يثير الاهتمام...

ولكن.. هناك عند الجدار - قرب الأرضية - بقعة ما.. انحنيت وتفحصتها بعناية.. كانت لزجة قليلًا لكنّها لا تترك أثرًا في الإصبع حين تضغطه عليها، وكانت مساحتها قريبة من مساحة منديل اليد المفرود.. ويميل لونها إلى الأخضر...

- «مطواتك يا (جوستاف)..»

مد يده في جيب معطفه، وناولني مطواته السويسرية التي يحبّها كثيرًا.. ففتحت نصلها ورحت أحك المادة اللزجة في رفق لتسقط منها شذرات في منديلي..

راح يرمقني بعض الوقت محاولًا أن يفهم، ثم سألني وقد نفد صبره من هذا العمل المخبول:

- «بحق السماء ماذا تفعل؟»

قلت وأنا أدس المنديل في جيبي:

- «أجمع آثارًا.. إن هذه المادة اللزجة قد تكون عيبًا في الدهان، وقد تكون مادة (الاكتوبلازم) أو (الجبلة الخارجية).. إن الأشباح تترك كثيرًا منها في أعقاب ظهورها، ويعني هذا الا دعابة في الموضوع..»

بدا عليه الاهتمام.. وسألني:

- «وكيف نتأكد؟»

- «حين نعود إلى (بوخارست) سنتمكن من تحليلها..»

واصل تفقد المكان، ومن طرف عيني رأيت الصراف المذعور يقف على الباب في وضعه المميز منحنيًا وقبعته بين يديه.. وكان يراقبنا متسائلًا في سرّه عما نفعله بالضبط..

كانت الشمس قد صارت أرجوانية تمامًا، وبدت الرؤية أكثر عسرًا.. من ثم قال (جوستاف) وهو يتنهد:

- «قد آن أوان العودة.. إنني أكره قيادة سيارتي في الظلام..»

واتجهنا إلى الباب، وتبادل بضع كلمات مع الصراف..

ثم غادرنا الدار إلى السيارة الـ (زاباروجيتس) الواقفة تنتظر في نفاد صبر، لوح بيده للصراف ثم أدار المحرك وانطلقنا..

قلت له وأنا أغلق زجاج نافذتي فقد كان الجو يبرد بسرعة:

- «ظننتك ستقرر قضاء الليل هنا..»

قال وهو يشعل سيجاره:

- «بعد ما حدث في (هالماجيو) و(كرايوفسكا) لم أعد متحمسًا لهذا.. في كلّ مرّة كان الأمر ينتهي بكارثة من نوع ما..»

ثم نفث سحابة دخان تكفي جيلًا.. وقال:

- «سنعود لدار هذه العجوز في ليلة أخرى.. ولسوف ننتظر قدوم هؤلاء الصبية الضالين.. الحق أنّ هناك أشياء لا تريحني هنا..»

- «مثل (الجبَلة الخارجية)؟»

- «أنت وجبلتك هذه!»

قالها في نفاد صبر.. وأردف:



طلب منها (جوستاف) شيئًا ما ، فأشارت بيدها موافقة ...

- «أنا لا أحب مصطلحات المشعوذين هذه!»

صعد الدم إلى رأسي، فلو كان معي مدفع (هاون) لاسترحت ولارتكبت أول جريمة قتل عمد في حياتي.

- «(جوستاف).. أنا لست مشعوذًا.. لقد قلت لك ما يقوله خبراء الـ (ميتافيزكس)، وليس معنى ترديدى لكلام (بوذا) أنني بوذي..»

حرّك ذراع السرعات وقد خرجنا من شوارع القرية، وقال:

- «إن كنت أسأت معذرة، فلم أقصد إساءة.. لكنني أردت قول أن ما يثير ريبتي هو شيء مادي ملموس..»

- «مثل ماذا؟»

مد يده إلى جيب معطفه، وأخرج شيئًا صغيرًا ناولني إياه..

تأملت الشيء في كفي.. وقالت:

- «ما الغريب في قلادة معدنية تمثل صليب القوات البرية النازية؟ من السهل الحصول عليها دومًا..»

مد يده في جيب معطفه، وبحذر أخرج شيئًا آخر وسألني:

- «وهذا؟»

هنا صرخت جزعًا.. إنني طبيب لكني لا أحب أصابع الأيدي المتآكلة حين توضع في يدي.. خاصة حين لا أتوقع وجودها..

ألا توافقني على هذا؟

* * *

٦ - الليلة نلقاهم..

رميت الشيء فوق حجر معطفه، وصحت في تقزز:
- «يا لك من بشع! كيف طاوعتك نفسك على وضع هذا الشيء في جيبك؟»
قال وهو يعيده إلى جيب معطفه، وعيناه تدمعان ضحكًا:
- «لقد وجدته في غرفة المعيشة، وخطر لي هنا أن كل مغامرة تجمعنا لا بد أن يكون فيها إصبع مبتور.. بدا لي هذا مُضحكًا.. ثم إنني رأيت أهوالًا أكثر في حياتي فصار من العسير جعلي أتقزز..»
ونظر لي وابتسم، ثم عاد يتابع الطريق بعينيه:
- «الحق أنني لم أحسب الأطباء سريعى التأثر هكذا..»
- «إنها المفاجأة..»
قال وقد استعاد جديته:
- «من هذا نستخلص نوعية الضيوف الذين يزورون الأرملة ليلًا.. إن نوعية خاصة جدًا من الضيوف هي التي تترك صلبانًا نازية وأصابع متآكلة مبتورة في غرفة الجلوس..»
كان الليل قد غمر الطريق بعباءته السوداء، ولم تكن الإضاءة على ما يرام في هذه السبل الريفية.. لكن كشافي سيارة (جوستاف) كانا يؤديان عملهما جيدًا.
قلت له في توتر:
- «(جوستاف)! يجب أن نرى هؤلاء الزوار..»
- «سنعود غدًا بالتأكيد.. سنعود.. لكنّ.....»
وتصلبت عيناه على (التابلوه)، وقال لفظة رومانية ما لعلها سبة..
فسألته في قلق:
- «ماذا هناك؟»
عاد يتفحّص (التابلوه) ويغمغم بالرومانية، ثم قال في شرود:
- «البنزين.. لا يوجد بنزين كافٍ!»
من جديد صعد الدم إلى رأسي.. هذا الـ (جوستاف) سيجعلني أعود لـ (مصر) مشلولًا مصابًا بنزف مخي.
قلت محنقًا:
- «كالعادة - وككل الآخرين - تتصرف بغباء لا مبرر له.. لماذا لم تزودها بكفايتها في (نيامونزو) قبل الرحيل؟».
قال في قنوط كأنما قد غرق بلا أمل في بحر عميق:
- «لقد ملأت الخزان وأقسم على هذا.. ثمّة شيء ما خطأ..»
عرفت أنه صادق من صوته ونظرة عينيه..

لكن ما جدوى التأكد ما دام مؤشر البنزين يشير إلى صورة مضخة البنزين إياها، ومصباح التحذير يتوهج مرارًا؟

- «هل توجد محطة بنزين قريبة؟»

- «لا أعرف.. إنني.....»

هنا أصدرت السيارة حشرجة أخيرة كأنما تختنق بآخر قطرات في خزانها، وتوقفت نهائيًا إلى جانب الطريق..

ترجلت من السيارة.. ودرت حولها..

وعلى الضوء المنبعث من الكشافات الخلفيّة؛ استطعت أن أرى قطرات البنزين المتساقطة على طول الطريق.

زحفت بثيابي إلى ما تحت السيارة.. كانت رائحة البنزين نفاذة حقًّا، وفي الظلام تحسست بيدي فشعرت بقطرات مبللة تتساقط عليها هناك من ثقب خرطوم البنزين ليجعل رحلتنا قصيرة..

لقد استطاعت السيارة أن تتحرك أبعد مما يتوقع أحد، وهي تنزف وقودها دون كلال.. لكنّ لكل شيء نهاية مهما ابتعدت..

قال (جوستاف) وهو لم يغادر مقعده بعد:

- «ماذا تحاول إثباته؟ أتيحث عن مخدرات؟»

قلت وأنا أخرج متثاقلًا من تحتها:

- «ثمّة ثقب في خرطوم بنزين سيارتك.. هل هذا التفسير كاف؟»

صاح في دهشة:

- «أحدهم ثقبه؟ من؟»

- «ليست العثة بالتأكيد..».

- «ولماذا؟»

نفضت ثيابي، وعدت لأجلس جواره في السيارة الفاخرة، وقلت:

- «لماذا؟ لأن هناك من يريد أن نتوقف هنا.. أو لا نبتعد عن القرية كثيرًا..»

- «ولماذا؟»

- «كي يحدث لنا ما سيحدث لنا الآن!»

وأضفت مستمتعًا بإثارة غيظه:

- «إن من فعل هذا فعله ببراعة.. فهو لم يحدث ثقبًا كبيرًا يمنعنا من مغادرة بيت العجوز، أو يؤدي لاكتشافنا بقعة بنزين كبيرة قبل التحرك بالسيارة.. فقط أحدث ثقبًا صغيرًا جدًا يؤدي عمله ببطء..»

تنهد (جوستاف) مستسلمًا.. وقال:

- «ليكن.. هذا يجعل مهمتنا مزدوجة.. البحث عن محطة بنزين، والبحث عمن يستطيع سد هذا الثقب أو استبدال الخرطوم..»

وفتح بابه قائلًا، وهو يطفئ الأنوار:

- «فلنعد إلى القرية إذن..»

- «إن السير يستغرق ساعتين أو أكثر..»

- «والبقاء هنا يستغرق يومين أو أكثر..»

وهكذا غادرنا السيارة.

غادرنا الحصن الأمن الدافئ الذي يمتاز ـ في الظروف العادية ـ عن باقي الحصون بأنه يتحرك بسرعة بعيدًا عن الخطر..

بدأنا المشي فوق الأسفلت غير الممهد جيدًا، قاصدين القرية.. إن كل مغامرة لي مع (جوستاف) تنتهي بالمبيت في مكان غير متوقّع.. لقد صار هذا مملًا..

ابتعدنا عشرين مترًا حين أدركت أن المهمة ستكون عسيرة نوعًا.. فالظلام دامس حقًّا، والقمر ليس هناك ليلقي بعض الظلال.. صحيح أنني أمقت الظلال وأحب الظلام المتجانس.. لكني بحاجة إلى حد أدنى من القدرة على الإبصار..

هنا هتف (جوستاف) بصوت كالفحيح:

ـ «(رفعت)! هل تراهم؟»

نظرت نحوه في غباء:

ـ «هم؟»

رأينا ما يتحدث عنه.. صحيح أن الرؤية غير واضحة إن لم تكن مستحيلة؛ لكني استطعت أن أرى صفًا من الماشين يتقدم نحونا ببطء عبر الطريق المظلم.. ولسبب ما لم أحب كثيرًا أن أنتظر لأرى وجوههم..

وسمعت صوت نشيد يخرج من الحناجر، تبعثره الريح في كل صوب، فلا يصل إلى مسامعنا سوى بضعة مقاطع..

أنا لا أجيد الألمانية.. لكني أعرفها حين أسمعها..

كانوا يغنون بالألمانية..

* * *

«يغنون نشيد (ألمانيا فوق الجميع) بصوت حزين عالٍ.. إن المرأة تعرفه جيدًا، فقد كانت في الرابعة والعشرين من عمرها حين كان الألمان هاهنا في (رومانيا)..»

* * *

«فتح نافذته ليراهم يمشون في صف واحد عبر شوارع القرية، وكانوا يغنون نشيدًا ألمانيًا..»

* * *

ـ «(جوستاف)! فلنتوار بعيدًا!»

قلتها له وأنا أقتاده من يده إلى جانب الطريق، فراح يلهث وهو يدفع جسده المكتنز دفعًا إلى هناك.

كان هناك منحدر بسيط، ثم مجموعة من أشجار البلوط.. فجذبته جذبًا إلى ما وراء شجرة منها، ووقفنا نعب الهواء في جشع كما يعب الجمل الماء بعد صيام طويل.. أتمنى ألا يكون صوت لهاثنا عاليًا إلى الحد الذي.....

صوت الغناء يعلو باستمرار..

من موضعنا استطعنا بوضوح أن نرى الطابور الطويل الذي يتقدم في الطريق.. حقًّا صدقت الأرملة - ماذا كان اسمها؟ - حين قالت إنهم لا يمشون متجاورين أبدًا..

كان أولهم هو أطولهم قامة، وكان يفرد صدره في كبرياء عسكري ويحدو بالإنشاد من يمشون خلفه..

برغم الظلام أدرك أنهم يرتدون الخوذات، والمعاطف الجلدية الطويلة إياها، ويرفعون أقدامهم في أثناء المشي في زاوية شبه قائمة فيما يسمّونه (خطوة الأوزة).. خطوة النازيين الشهيرة..

كان المشهد رهيبًا بحق.. وسرني هذا إلى حدٍ ما.. سرني أنني بعد كل ما رأيت مازلت قادرًا على الخوف والإحساس بالرهبة.. إنني بشري.. ولم أتحول إلى صنم (يغوث) بعد..

لاحظت كذلك أنهم يتحركون كآلات مبرمجة.. لا ينظرون يمينًا ولا يسارًا، ولا يأتون بحركة واحدة تدلّ على الحياة...

كانوا يتجهون نحو سيارتنا الواقفة...

ولم يعد استنتاج الباقى صعبًا.

* * *



لاحظت كذلك أنهم يتحركون كآلات مبرمجة .. لا ينظرون يمينًا ولا يسارًا ، ولا يأتون بحركة واحدة تدلّ على الحياة ..

٧ - فصيلة الأطفال..
(ولا يوجد تكرار هاهنا)

إنّه الصباح..

هل هكذا يبدو الصباح في الجنّة؟

لم يكن (هانس مولر) واثقًا من أنّ هذه هي الجنّة فهو يعرف أن الجنّة لا مكان فيها للألم الذي يمزقه الآن، كما استبعد أن تكون هذه هي جهنم.. مستحيل أن يظل كل هذا الجليد في جهنم..

بعد قليل أدرك أنه لم يغادر عالمنا قط..

لقد كان مدفونًا تحت الثلج، لكنّ الجليد لم يغط صدره.. كانت حوله بركة من الدماء المتجمدة، ومن حوله رأى أشلاء كثيرة مبعثرة..

إنه حي.. بالتأكيد حي...

لقد انتهى الهجوم السوفييتي.. ولم ينته هو معه..

كان هناك أربعة رجال يدنون منه، وأدرك من مظهرهم أنهم فلاحون رومانيون بسطاء، يحملون الرفوش وعلى وجوههم آيات الرهبة..

أحاطوا به.. فلم يتحرك.. ظل يرمق عيونهم باحثًا عن معنى ما.. لكنه لم يفهم.. هل هم معه أم ضده؟

بعد صمت طال قال أحدهم ـ الرجل ذو الشعر الأشيب - بالألمانية:

- «لا تخف يا بني.. لقد جئنا لدفنك لكنّ الأوان لم يأت بعد..»

ولم يدر كيف أخرجوه من تحت الثلج..

نزعوا معطفه ووضعوا معطفًا قديمًا مهترئًا على كتفيه.. وكانت خوذته قد سقطت، فوضع أحدهم قلنسوة صوفية على رأسه..

ومتكئًا على ذراعي اثنين منهم، اقتادوه إلى القرية..

وأدرك (هانس) برغم ضعفه أنهم جعلوه يبدل مظهره كي لا يتعرفه السوفييت إذا لقيهم صدفة..

* * *

إنّه الصباح..

وفي الضوء اليانع استطاع أن يرى الدبابات السوفيتية في ساحة القرية، وأن يرى بعض رجال الجيش الأحمر يقفون من بعيد أمام الكنيسة.. ولم يكونوا منظمين أو يرتدون زيًا موحدًا، بل هم خليط من القوقاز وفلاحي (أوكرانيا) و(أوزبكستان). يرتدي كل منهم زيه الخاص..

لم يمنحة مرافقوه وقتًا للتأمل أكثر لأنّهم أدخلوه في أزقة ضيقة مظلمة، حتى وصل إلى باب بيت..

وفي الداخل كانت المدفأة تتوهج بالدفء.. نزعوا معطفه وأعطوه ثيابًا جافة، وقدموا له نبيذ (الموسكا)..

واسترخى على فراش بسيط، بينما فتاة شابة حسناء تغسل جروحة بخرقة مبتلة بالماء الدافئ.. الماء الذي تحول إلى دماء سريعًا..

قال لها الرجل ذو الشعر الأشيب شيئًا بالرومانية، فأحضرت مقصًا وانحنت تمزق سروال الفتى حول خن فخذه حيث أصيب أمس..

قال الرجل بالألمانية وقد لمح توتر الشاب:

- «لا تخف.. إنها ابنتي (ماريانا كاراجيالي).. وهي ممرضة تعرف ما ينبغي عمله..»

كانت حقًّا تعرف ما ينبغي عمله..

لقد استخرجت الشظية بدقة، ثم ضمدت الجرح، وبالخرقة راحت تزيل آثار الدماء من وجه الصبي..

قدّر أنها في العشرين من عمرها تقريبًا.. كانت جميلة حقًّا، لكنّ عنايتها به جعلتها في نظره أجمل شيء رآه في حياته.. حتى كاد يرى هالة الملائكة تحيط برأسها كما في الصور الدينية..

نظر إلى الرجل أشيب الشعر، وهمس بإنهاك:

- «أشكرك على هذا يا سيد.. ولكن ماذا يدعوك لهذا؟»

قال الرجل وهو يدير ظهره ليتأمل المدفأة:

- «لأنني إنسان أولًا يا (فريتز)..»

(فريتز) كناية عن أي جندي ألماني.. كما نسمي نحن أي جندي مصري بـ (دفعة).. لهذا صحح (هانس) الاسم:

- «(مولر).. (هانس مولر)..»

هزّ الرجل رأسه وقال:

- «ليكن يا (مولر).. أنا إنسان وأمقت أن أترك صبيًا مثلك يموت في الثلوج، لمجرد أن (فوهرركم) سفاح و(ستالين) طاغية.. لقد وقعتم يا بني بين شقى الرحى.. ولن أنضم ما حييت إلى أحد الحجرين الذين يسحقانكم..»

هنا رأي (هانس) رجلًا ناحلًا مذعورًا يدخل الغرفة، ليقول بضع عبارات بالرومانية.. فقال الأب:

- «هذا (ميخائيل نجروزو)، وهو صديق عزيز.. يريد أن أنقذ نفسي وأخبر الروس بوجودك هنا.. لكنه ساذج حقًّا.. يحسب أنهم سيأسرونك ويعاملونك كما تنص اتفاقية (جنيف)..»

وبصق في المدفأة وأردف:

- «إنها حرب قذرة.. لا مجال للفروسية ولا النبل فيها.. أنتم الألمان وحوش.. والسوفييت مسعورون.. وليس لك أن تتوقع معاملة شريفة أبدًا..»

قال وهو يرتجف من فرط الألم الحارق:

- «إذن ما مصيري؟ لست ميتًا ولا أسيرًا.. فمن أنا؟»

- «هذا ما سنراه في الصباح حين تستعيد قواك..»

* * *

مرتديًا ثياب فلاح روماني، مشي (هانس) مع منقذيه إلى حدود القرية.. ساحة الكنيسة.. القس الأرثوذكسي بثيابه السوداء ولحيته البيضاء الكثيفة..

كانت القرية تعجّ بالسوفييت، ويبدو أنهم انتخبوا رجلًا كي يكون العمدة، وهي الأيام الأولى التي بدأت (رومانيا) فيها تتحول إلى ذبابة شيوعية واقعة في خيوط العنكبوت الروسي..

لكن (هانس) لم يكن في حالة تسمح بملاحظة كل هذا.. كان جل تفكيره في محاولة التخفي.. هو يعرف جيدًا أن عملاء السوفييت كثيرون بين أهل القرية، ولسوف يسعدهم كثيرًا أن يبلغوا الجنرال (ميلكون) قائد السوفييت أن جنديًا نازيًا ما زال حيًا..

كانت ساحة الكنيسة تحيطها الأشجار، وثمّة تمثال العذراء تم نحته بذلك الطابع البيزنطي المميز، وأدرك (هانس) أنّ هناك بابًا سرّيًا أسفل التمثال..

انحنى القس ليجثوا على ركبتيه، ويرفع مقبضًا ما.. ثمة درجات تقود إلى أسفل.. ثم القبو المظلم الرطيب تلهو فيه الفئران، وتلتهم خشب البراميل المتأكل..

كان كل هذا بهيجًا.. فهو - على الأقل - يعنى الأمان والعزلة..

وأشعل (نجروزو) مشعلًا أو اثنين فتوهج الضوء المتراقص في أرجاء المكان، وقال (كار اجيالي) بنبرته الألمانية المهشمة:

- «هذا القبو يصلح للاختباء.. كنا نداري فيه الهاربين من الأتراك منذ قرون، وهو ما زال يصلح..»

سأله (هانس) بصوته الذي يتحسس أبواب الرجولة:

- «إلى متى؟»

- «إلى أن نجد سبيلًا لتهريبك إلى (تشيكوسلوفاكيا).. ستلحق بجيشك النازي..»

وهنا سمع من يناديه بالألمانية باسمه، فنظر مشدوهًا ليجد زميله (أوتو).. كان يربط عصابة دامية حول رأسه، وذراعه قد علقت إلى عنقه بخرقة ما.. لقد كان حيًّا..

تعانقا.. وسرعان ما أدرك أنّ هناك آخرين من رفاقه.. كلهم من الفصيلة السادسة..

كانوا في أسوأ حال، لكنهم أحياء يرزقون..

كان عددهم حوالى عشرين شابًا.. بعضهم يعرفه جيدًا، وبعضهم يعرفه وجهًا.. لقد هلك حوالي الثمانين جنديًا.. لكنّ الباقين ظلوا وسط الثلوج ينزفون ويئنون..

ووجدهم (نجروزو) ورفاقه وهم يقومون بعملية الدفن، لذا أنقذوهم وجاءوا بهم فرادى إلى هذا المخبأ الذي لا يعرفه سوى قليلين..

وهكذا التأم شمل من بقي حيًّا من أفراد الفصيلة.

لكنهم - وهذا طبيعي - كانوا أبعد ما يكونون عن الشعور بالراحة والسرور.. لقد حدث شرخ في سعادتهم الصبوية، وبدا أن النظرة في أعينهم لن تعود أبدًا كما كانت.

لو دقق مدقق في الأمر، لقال لك إن هؤلاء الفتيان ماتوا حقًّا في أثناء الغارة السوفيتية، وما بعد هذا تحصيل حاصل.. إنهم عشرون من (الزومبي) أو الموتى الأحياء، ينتظرون بلا طائل في قبو

كنيسة رومانية..

* * *

وكذا مضت أيام مملة حقًا في هذا القبو..
لم يكن الخروج للشمس مسموحًا به، وفاحت رائحة جروحهم التي تعفنت من العناية البدائيّة والبعد عن التهوية، لكنّ الحسناء الشابة (ماريانا) كانت تبذل ما بوسعها..
لم تتبادل مع (هانس) سوى بضع كلمات من طراز (أهلًا - شكرًا - حالًا - لا تتحرك) وكلها بالألمانية، لكنّ نظراتها قالت مقالات كاملة في الحب، وكان (هانس) غض الإهاب لا يملك لسان حكيم، لكنه أدرك أن عيني المرأة تتحدثان بفصاحة لا يملكها لسانها.. هذا هو درسه الأول في النساء وسيتذكره لو بقي حيًّا...
علمته عيناها أن روحيهما على نفس الموجة.. وأنها تشعر نحوه بما يشعر به نحوها.. والرجل ضعيف جدًا تجاه الأنثى التي ترعاه بعناية.. لهذا يقع كثيرون في هوى الممرضات اللواتي يرعينهم...
ربما قال (أوتو) دعابة ثقيلة أو دعابتين عن الفتاة، لكنّ (هانس) كان يوثر الصمت ويبتلع ضيقه.. فليس الوقت ملائمًا للشجار مع رفيقه من أجل فتاة لا يعرف عنها إلا لمامًا..
كم مضى عليهم في هذه الحياة؟
لو قلنا أسبوعين لكنا أقرب إلى الدقة..

* * *

- «لنا هنا أسبوعان..»
قال (هانس) شاردًا وهو يزدرد الخبز واللحم المقدد - جرايته اليومية - اللذين يحضرهما القس..
قال (أوتو) وهو يعيد تضميد ذراعه:
- «صبرًا.. إن السوفييت لن يظلوا هنا للأبد.. سيتركون حامية من عشرة جنود ثم يرحلون..»
وصفر حين رأى ذراعه قد تورمت حتى صارت أقرب الفخذ منها إلى ذراع.. فخذ عملاقة زرقاء اللون..
قال (هانس) متجاهلًا التحديق في الذراع قدر إمكانه:
- «إنني أتساءل..»
- «عم؟»
- «عن المبرر الذي يجعل هؤلاء القوم يتجشمون كل هذه الصعاب من أجلنا.. الحرب ليست حربهم، ونحن بالنسبة لهم محتلون مثلنا مثل السوفييت.. فما سر هذا الاهتمام وهذه الحفاوة؟»
بصق (أوتو) وأشعل بذراعه السليمة لفافة تبغ من نوع رديء:
- «تفو.. هناك أناس يحتفظون بآدميتهم برغم هذه الحرب..»
- «إلى درجة المخاطرة بحياتهم؟»

- «ماذا تريد قوله؟ إنهم لن يطهونا ويأكلونا على ما أظن..»
- «بدأت أشك في هذا..»
كانت محادثة مهمّة وفي موضعها..
لكن - للأسف - لم يكتب لها أن تستكمل.. لقد أجهضها (أوتو) بسخريته، وكان (هانس) يثق برأي وحكمة الفتى الذي يكبره عامًا أو أكثر.. هذا يجعله على قدر هائل من الحكمة وفهم الكون..
كانت محادثة مهمّة..
لكنها انتهت ولم تدر بينهما ثانية..

* * *

فقط حين تأخر الطعام بدءوا يشعرون بالقلق..
لقد مضى يومان أو أكثر دون أن يجيء القس بالطعام، أو يسمعوا صوت خطوات (ماريانا) الرقيق.. والمصابيح مات أكثرها...
لقد حدث شيء ما هنالك بالخارج..
قال (أوتو) للعشرين صبيًا حوله:
- «يا شباب.. قد حدث شيء ما، وعلينا أن نخرج لنلقي نظرة..»
وانتخب اثنين تسمح حالتهما الصحية بالخروج.. وأمرهما أن يغادرا القبو لكنّ لا يتهورا أو يتماديا في الابتعاد..
وجاء الليل..
تأهب الكشافان النازيان لمغادرة القبو..
لكنهما عادا بعد دقيقة ليعلنا الخبر الرهيب:
- «الباب موصد باحكام!»
- «موصد؟ كيف؟»
- «هذه هي الحقيقة..»

* * *

ركضوا جميعًا يصعدون في الدرجات، وقرعوا الباب كثيرًا دون جدوى.. لو كانوا يملكون القدرة على الابصار عبر الجدران - وهي القدرة التي يملكها قراء هذه الرواية - لاستطاعوا أن يروا المدخل.. تحت تمثال العذراء البيزنطي..
كانت هناك دبابة سوفييتية تقف هناك، وقد استقر أحد جنازيرها على الباب.. ولم يكن طاقمها فيها...
وكانت لديها أو أمر صارمة: ستنتظرها هنا أسبوعًا أو أسبوعين.. حتى يموت هؤلاء جوعًا وظمأ كالفئران..

ولم يكونوا يعرفون أن سرهم تسرب، وأن القس و(كاراجيالي) قد تم إعدامهما منذ ثلاثة أيام في ساحة الكنيسة، وأن عمدة القرية كان يعرف جيدًا أنه ما من مخرج آخر لهذا القبو..

لم يكونوا يعرفون..

وكانت هذه رحمة من الله (العلي القدير)..

* * *

٨ - فلنعد إلى القرية!

من مخبئنا وراء الأشجار، كان بوسعنا أن نرى بصعوبة العشرين جنديًا وقد وقفوا حول السيارة الهامدة..

كيف عرفت أنهم عشرون؟ لا أدري بالضبط، فعد الناس مستحيل من مسافة كهذه.. إن هو إلا انطباع عام بالأمر..

كانوا يتفحصونها.. يدورون حولها.. كما يتفحّص القط قنفذًا يراه لأول مرة..

مرّت بضع دقائق من التوتر، ثم.. كأنما أجروا بروفة هذا العمل مرارًا من قبل، انهالوا عليها ضربًا وركلًا.

طاخ! طاخ! كلانج!

- «سيارتي!»

همس (جوستاف) بهذا وتوتر.. آه! هذه هي مشكلة الناس الدائمة: إنهم يخافون على ممتلكاتهم أكثر من اللازم.. إلى حد التضحية بحياتهم ذاتها.. إن تحطيم السيارة شيء سخيف.. لكنّ الموت شيء أسخف..

قلت له هامسًا:

- «صه يا أحمق! وإلا لحقت بها..»

وكان الحفل قد صار صاخبًا حقًّا.. فهناك من يمزق الإطارات بالسونكي، ومن يهشم الزجاج بقطعة حجر، ومن يقف فوق السيارة ليرقص كما سيفعل (ترافولتا) بعد عشرة أعوام في فيلم (بريانتين)..

وسمعت شهقات (جوستاف).. لكنه آثر السلامة كما هو واضح.

قلت له وأنا أدس القرص إياه تحت لساني:

- «أعتقد أنهم سينهمكون لفترة.. تعال نهرع إلى القرية..»

وتحت ستار الظلام ابتعدنا عن مسرح الجريمة..

رحنا نركض لاهثين، وهو ركض أقرب إلى المشي الحثيث بالنسبة للياقتنا البدنية.. لكني ظللت أمل أن تكون لياقة الأشباح البدنية أسوأ منا..

* * *

وصلنا القرية النائمة أخيرًا..
سالت (جوستاف) وأنا أستجمع أنفاسي:
- «هل تذكر مكان دار العمدة؟»
- «ليس في هذا الظلام.. لكننا سنسأل..»
وفي تؤدة - وهو يفح كالأفعى - اتجه إلى أقرب الأبواب منا وقرعه، وهنا لاحظت على عتبة الباب رغيفين من الخبز الروماني الشبيه بالقرع وجوار هما زجاجة نصف ملأى..
تذكرت مشهدًا مماثلًا في (كرايوفسكا) منذ أعوام طويلة.. كان الباب موصدا وامامه صليب هائل الحجم، وكانوا خانفين من المذءوب في تلك المرّة[3].. لهذا عرفت ما سيحدث هذه المرّة دون جهد..

* * *

راح (جوستاف) يتحدث بالرومانية في حماس كمن يدافع عن قضية خاسرة، على حين دوي صوت غليظ لرجل من وراء الباب..
دعك من الجدال يا (جوستاف) وتعال.. إن الرجل خائف، وأخطر الرجال هم الخائفون.. إنهم...
بوم! كان صوت الطلقة كافيًا جدًّا.. كأنه كلمة (لا) كبيرة مقنعة صاح بها الرجل من وراء الباب..
وتراجع (جوستاف) مذعورًا.. لحق بي وهو ينظر للوراء غير مصدق أنه نجا..
فقلت له:
- «كانت طلقة تحذيرية لا أكثر.. طبعًا ستؤكد لي أن فلاحي (مولدافيا) كرام، ولا يتصرفون بهذه الطريقة أبدًا..»
بصق في اشمئزاز ونظر إلى الباب الموصد وقال:
- «بالعكس.. إنهم مشهورون بالبخل في البلاد كلها.. لكنهم لا يطلقون النار على عابري السبيل..».
- «إن الخائف يملك عذرًا مقنعًا..»
وتراجعنا..
ورحنا نرمق الأبواب التي نمر عليها، والتي كانت جميعًا غافية في ضوء المصابيح الخافت..
الحق أنه لا يوجد باب لم يوضع عليه طعام وشراب..
لا يوجد باب يقبل أن ينفتح لنا..
إننا لفي مأزق حقيقي..

* * *

كان تشابه ما يحدث لنا مع ما حدث في قصة الرجل الذئب إياها؛ يحدث خللًا ما في توازن النفسي.. كأنها صورة من ظاهرة Deja-Vu الشهيرة مع فارق واحد: نحن عشنا هذه الأحداث من



فهناك من يمزق الإطارات بالسونكى ، ومن يهشم الزجاج بقطعة حجر ، ومن يقف فوق السيارة ليرقص كما سيفعل (ترافولتا) . .

ل حقًّا..

كنا نشق طريقنا في شوارع القرية المظلمة، شاعرين بأننا خرزتان في متاهة من التي يلعب بها الأطفال.. إن هذه القرى اللعينة متشابهة إلى حد لا يصدّق..

قلت لـ (جوستاف) لاهثًا:

- «أرى أن ننتظر جوار جدار حتى تشرق الشمس.. و...»

رفع إصبعه إلى شفتيه بحركة مسرحيّة، وهمس:

- «أنصت!!»

كان هناك صوت.. حقًّا كان هناك صوت..

صوت نشيد ألماني يتردد من حناجر شابة.. شابة حتى لو كان عمرها أربعين عامًا أو أكثر..

وكان صوت الخطوات العسكرية يتعالى فوق أرضيّة الشارع..

- «إنهم قادمون!»

- «الويل!»

- «لكنّ من أين؟»

حقًّا من أين؟ من هذا الشارع المظلم هناك؟ أم من هذا الزقاق الضيق؟ أم من الناحية اليسرى؟ لا يهم.. إن الهرب في أي اتجاه سيجعلنا نصطدم بهم..

تذكرت ـ في سخرية مريرة ـ ما يحدث في الرسوم المتحركة للقط (توم): صخرة تهوي من حالق نحوه.. يفر يمينًا ثم يسارًا.. ثم يكف عن المحاولة ويقف يدخن سيجارًا بانتظار سقوطها فوقه.. فهو يعرف جيدًا ألا جدوى.. يعرف أن المكان الذي سيختاره هو المكان المحتوم لسقوط الصخرة..

إذن لا جدوى من الهرب..

الغناء يتعالى.. ويتعالى..

* * *

«ويقال إن لقاءهم ليس تجربة سارة، لأن عدد الموتى ليلًا في القرى المجاورة قد صار أكثر من اللازم..»

* * *

«يموتون بالسونكي.. لم تكن هناك طلقات رصاص، ولم يكن هناك أمتصاص دماء إذا كنت في ذلك تفكر..»

* * *

- «بست!»

سمعنا الـ (بست) هذه فالتفتنا للوراء مذعورين..
كان هناك باب.. باب موارب يشع ضوءًا مطمئنًا.. ومن فرجته كنا نرى رأسًا مظلمًا يرتدي الإيشارب.. إنها امرأة..
لم نجد مجالًا واسعًا للاختيار، فهرعنا ندخل كالجرذان الدار الوحيدة التي فتح بابها لنا.. وفي الداخل كان الدفء، لا بأس به، ومعه الشعور بالأمن والراحة.. فلو كنت في حالة ذهنية أصفى لتزوجت هذه المرأة فورًا قبل أن أرى وجهها أو.....
(ماريانا كاراجيالي)! هل تذكرونها؟ الشاهدة التي كانت تجلس في دار العمدة وتستعمل طلاء الأظفار الرخيص إياه..
إن المصادفات لا تنتهي في هذه الحياة..
كانت هناك منضدة عتيقة في وسط القاعة، دعتنا بإشارة من يدها إلى الجلوس إليها.. وراحت تتبادل حديثًا مع (جوستاف)..
كانت ترتدي ذات الثياب التي كانت ترتديها عند العمدة، لكنّ شعرها مبعثر تحت الإيشارب، وقد: غسلت وجهها من كل الأصباغ الفظيعة التي كانت تضعها ظهرًا..
صحيح أنها بدت في سنها الحقيقية، وظهرت التجاعيد الحقيقية التي تركتها الحرب مع الزمن على بشرتها؛ لكنّها بدت أدنى إلى الجمال إلى حدٍ ما ولم أعد أراها كمحارب من (الإباش) ذاهب لحرق معسكر الرجل الأبيض..
وزادني راحة هنا أنها تخلت عن ضحكتها المائعة، وأسلوبها الهستيري الاستعراضي في الكلام.. كانت تتحدّث برصانة وتعقل..
وأدركت أن ما تقوله مهم حقًّا.

* * *

بعد دقائق سمعنا الطرقات العنيفة على الباب..
تبادلنا النظرات، لكننا ظللنا جالسين حيث نحن بلا حراك..
تزايد صوت الطرقات علا، وشعرت بأن الباب يوشك على الخروج من مفصلاته.. لكنّ المرأة ظلت جالسة كأنما لا تسمع شيئًا..
- «فراو! كوم!»
ومزيد من الطرقات العاتية..
تحفز (جوستاف) لكنّ يد المرأة ضغطت على ذراعه بحزم.. بمعنى لا تنهض.. إنهم سينصرفون بعد قليل..
(فراو) معناها بالألمانية (امرأة).. و(كوم) معناها (تعالي).. تعالي يا امرأة.. أي أن هؤلاء الجنود يعرفون حقًّا من يسكن الدار.. إذن هي ليست طرقات عشوائية على أي باب..
ولكن هل يعرفون أننا هنا معها؟!

* * *

٩ - ماريانا كاراجيالي..
(معذرة لتكرار اسم الفصل.. لكني لا أجد عنوانًا مناسبًا أكثر)

كنا سبعة أو أكثر..

وكانت عملية شاقة مرهقة لكنّها ضروريّة..

هناك وقفنا ـ ومعنا القس والعمدة ـ في شمس الصباح البهيجة، و(نجروزو) المذعور بصلعته التي تلتمع في الضوء يعد الخطوات، حتى وصل إلى الموضع الذي لم ينسه منذ أكثر من ربع قرن..

سألت (جوستاف) وأنا أتحسس الرفش الذي أحمله:

- «هل العمق كبير؟»

قال وهو يعد رفشه، ويبصق في كفه كأى حطاب محترف:

ـ «لا أظن.. لقد كان الجليد سميكًا وقتها.. أمّا الآن فلا يوجد جليد كما ترى.. ربما كانوا على عمق نصف متر أو أكثر قليلًا..»

ثم صاح بالرومانية في المحيطين بنا كي نبدأ.. وسرعان ما بدأنا الحفر..

* * *

كما هو واضح للقارئ لم يحدث شيء ذو بال في تلك الأمسية..

لقد استمرت الطرقات على الباب و(فرام كوم) لبضع دقائق، ثم سمعنا صوت الخطوات يبتعد وساد الهدوء..

لكنني أدركت أن المرأة مذعورة حقًّا، ترتجف كورقة من فرط انفعال كاد يقتلها.. كلنا مذعورون لكنّها أكثرنا.. وأثار هذا دهشتي لأنهّا ـ حتمًا ـ قد اعتادت تلكم الزيارات الليلية أكثر منا..

سألت (جوستاف) وقد جاء دوري لأفهم:

- «هل فتحت المرأة بابها لنا بالصدفة؟»

- «بل رأتنا من خصاص النافذة، وأدركت أننا في مأزق..»

- «وفيم كنتما تتحدثان طيلة الوقت؟»

ابتسم بخبث، وقال:

- «أتغار؟».

- «كف عن المزاح السخيف وأوضح..»

كانت المرأة قد أحضرت لنا إناء ساخنًا به قهوة.. فلم يكن النوم واردًا على كل حال، كما أحضرت لنا إناء به ماء دافئ لو أردنا غسل أقدامنا ووجوهنا..

قال (جوستاف) وهو يصب بعض القهوة لنفسه، فتفعم رائحتها الزكية أنفينا:

- «قالت إن هؤلاء الجنود يحبون دق بابها بالذات..»

- «هذا غريب.. والسبب؟»

- «لم تفسر.. لكنّ المؤكد أنهم سيدقون باب الأرملة (روكساندرا) حين يجدون أبواب القرية كلها موصدة.. يبدو أنهم يشعرون بوجود الأرامل..»

- «ولماذا لا يفعلون هذا من البداية؟»

- «يبدو أنهم مازالوا يأملون في أن يفقد أحد القرويين عقله، ويدعهم يدخلون داره.. ولربما هم يستمتعون بإثارة فزع سكان القرية..»

- «ولكن هذه الزيارة لن تتكرر غدًا.. سيكونون في قرية أخرى..»

- «من يدري؟ ليس لأداء هؤلاء القوم قاعدة ثابتة.. قليلة هي الأشباح المنظمة..»

صببت لنفسي بعض القهوة، وسألته:

- «ولكن هل هم أشباح أم (زومبي)؟ لو كانوا أشباحًا فهم لا يملكون أصابع مبتورة يبعثرونها في كل صوب، ولو كانوا (زومبي) فإنني أرفض هذه الفكرة دينيًا.. الجسد لا يغادر قبره إلا يوم القيامة..»

نظر لي في حيرة.. إن (جوستاف) متدين وإن كان يخفي هذا في بلد لا يُعتبر التدين فيه علامة صحية.. وهو لم يصل لما وصل إليه إلا لأنّه تظاهر بأنه يعتنق الماديّة الجدلية، لكنه في أعماقه كان متدينًا حقًّا لا يقبل فكرة (الزومبي) من أساسها..

مد يده في جيبه وأخرج شيئين..

نادي الأرملة وناولها الصليب الحديدي: فتأملته بضع لحظات ثم هزت رأسها بمعنى لا.. هي لا تعرف مصدره..

نظر لي وابتسم، وقال وهو يعبث في يده المطبقة::

- «حان وقت الصراخ الهستيري.. إن لم تكن قد رأيت سلوك امرأة يُوضع إصبع مبتور في يدها فلا تدع المشهد يفوتك!»

ودون كلمة أخرى دسّ الشيء الرهيب في كفها..

كان رد فعلها خارقًا للعادة كما توقع (جوستاف)..

بالواقع لم تعط أي رد فعل على الإطلاق كأنما ما في كفها قلم أو مفتاح..

تأملته لحظة ثم أعادته لـ (جوستاف)، وهزت رأسها وقالت بضع كلمات بالرومانية، في حياد علمي لا يمكن تصديقه..

نظر لي بخيبة أمل، فقلت له وانا اتأمل اللون الأزرق في باطن الإبهام:

- «هستيريا فعلًا! يبد أن نساءكم قويات الأعصاب حقًّا..»

قال وهو يعيد الشيء إلى جيبه مرتبكًا:

- «غريب حقًّا.. لقد تأملت الشيء ثم قالت إنها لم ترَ مثله، وإنه ليس من عادة جنود الفصيلة السادسة أن يتركوا قطعًا منهم في أي مكان..»

* * *

كان أول رفش يجد شيئًا هو رفش (جوستاف)..

جثا الصحفى الروماني الأفاق على ركبتيه، وراح يعبث في التربة حتى وجد ما اصطدم به.. نهض وأمام عيوننا رفع الجمجمة التي كساها الغبار.. وحتّى من مكاني ومع ضعف بصري استطعت أن أرى فتحة دخون الرصاصة في العظمة الجدارية.. وتذكرت مهرج (هملت) في يد حفار القبور...

- «هذا هو الأول..»

وحمل الجمجمة ووضعها على ملاءة فرشناها فوق العشب، ثم عاد يواصل عمله.. وكانت الجمجمة الثانية من نصيب (أيودو) شرطي القرية، أمّا الثالثة فكانت من نصيبي، وكانت ملساء تمامًا.. هذا واحد لم يمت برصاصة في رأسه..

سال (جوستاف) وهو يبصق الغبار الذي ابتلعه:

- «هل أنت متأكد أنهم نفس الأشخاص؟»

تأملت عظمة زند وجدتها وقلت:

- «إن الخط الكردوسي[4] موجود.. ولم يحدث التحام. أي أن عمر هذه الجثث ـ أو ما وجدناه ـ يقل عن ثمانية عشر عامًا لو كانوا ذكورًا، أو ستة عشر عامًا لو كانوا إناثًا..»

- «وهذه الجماجم ذكرية بالتأكيد؟»

قلت في كبرياء وأنا أكاد لا أرى شيئًا من الغبار على عويناتي:

- «هذا عملي.. هل نسيت مهنتي الأصلية؟»

ابتسم بخبث وواصل ما يقوم به مغمغمًا:

- «أحيانًا أنسى.. إن شخصيّة (طارد الأشباح) تتضخم فيك يومًا فيومًا حتى أوشكت على خنق الطبيب!»

وواصلنا الحفر مبتلعين تعليقاتنا المسمومة..

* * *

كنا جالسين أنا و(جوستاف) طيلة الليل على المنضدة نتبادل النظرات..

لم يكن واحد منا راغبًا في الخروج حتى ولو كان هذا إلى دار العمدة؛ فقد فقدنا حماستنا.. وبدت لنا القرية كلها كابوسًا من كوابيس (كافكا) المظلمة..

أما الأرملة (كاراجيالي) فكانت قد حاولت أن تظل ساهرة بعض الوقت، ثم لم تلبث أن فقدت وضعها العمودي على الأريكة وغدت أقرب إلى اتخاذ وضع أفقي.. وتعالى صوت غطيطها..

كنا قد جرعنا الكثير من أقداح القهوة، مع سيجار (جوستاف) الأرجنتيني اللعين الذي تذكرك رائحته برائحة (النابالم) حتى لو لم تشم رائحته.. وبدا من العسير أن ننام حتى لو أردنا ذلك..

كنت مشغولًا بعد الضربات الزائدة في نبضي، والتساؤل عما إذا كانت بسبب الإفراط في القهوة أم بسبب اقتراب قلبي من الخراب النهائي؛ حين..

حين.....
حين نهضت المرأة فجأة من نومها صارخة في هستيريا..
وثب (جوستاف) من مكانه على المنضدة نحوها ليهدئها بعبارات من قبيل (نحن هنا - لا تقلقي - أنت بخير) بالرومانية طبعًا..
لكن هياجها كان عاتيًا، واحتاج الأمر إلى ثلاث دقائق كاملة حتى تعود لروعها، فتهدأ.. فتغرق في البكاء الحارق الحار..
هذه المرأة - قلت لنفسي - تداري سرًا رهيبًا..
سرًا يثقل على ضميرها كالجاثوم..

* * *

كان هذا ليلة أمس..
أما صباح اليوم فقد بدا بعيدًا جدًّا وباهتًا..
وكنا قد كدسنا ستين ونيف جمجمة فوق الملاءة، وقال القس صغير السن الذي لم يحضر المذبحة عام ١٩٤٣:
- «أيتها العذراء المقدسة! كل هذا في ليلة عيد الميلاد!»
قال (جوستاف) وهو يستخرج جمجمة أخرى:
- «إنها الحرب يا أبت.. حيث يغدو احترام الروح البشريّة نوعًا من النفاق.. على كل حال يُمكنك أن تدفن الأشلاء التي تجدها دفنًا محترمًا لائقًا بها.. إن الشيوعيين لن يرفضوا بعد كل هذا الزمن!»
قال القس:
- «لكنكم تكتفون باستخراج الجماجم..»
- «هذه هي طريقة التعداد الوحيدة المضمونة.. كما كان الجنود في الحروب القديمة يحضرون لقائدهم أنوف قتلاهم كي يدفع لهم مكافاتهم.. ثم إننا لو جمعنا العظام كلها لاحتجنا إلى عدة أسابيع..»
بالطبع دارت المحادثة بالرومانية، فلم أفهم فحواها إلا حين ترجمها لي (جوستاف)، وكنت منهكًا لكني صارحته برأيي في فظاظة مع رجل الدين المسكين الذي لا يفهم المزاح..
بدا من الواضح أننا لن نجد المزيد من الجماجم..
لقد استمررنا في الحفر في أماكن عدة لمدّة ساعة أخرى ـ أعني طبعًا أنهم استمروا على حين رحت أتأمل الجماجم في اهتمام طبي خطير - وأخيرًا بدا من الواضح أنه لا توجد بقايا أخرى..
نظرنا إلى (نجروزو) متسائلين..
سأله (جوستاف) كما قال لي بعد ذلك:
- «هل هذا كل شيء؟»
ارتجفت الشفة السفلى لـ (نجروزو) وقال وهو يجفف عرقه:
- «نعم.. نعم.. لا يوجد موضع آخر..»
- «إن العدد الذي وجدناه لا يزيد على خمس وستين جمجمة.. وأنتم جميعًا تقولون إن الفصيلة السادسة كان قد بقي منها مائة جندي..»
- «إن.. إن.. كل هذه الأرقام تقريبية..»
- «حسن.. لنقل إننا فقدنا خمس جماجم، وأنكم حسبتم تسعين جنديًا نازيًا مائة.. هذا يجعل لدينا عجزًا في العهدة مقداره عشرون جنديًا.. أين هم إذن؟»
ثم التفت إلى العمدة يسأله:
- «هل تم استخراج أية جثث بعد الحرب؟ هل جاء رجال من الصليب الأحمر ها هنا؟»
مطّ العمدة شفتيه، وقال وهو يصلح وضع قبعته:
- «لا.. إن شيئًا كهذا لا يتم دون أن يعلم به الجميع..»



وثب (جوستاف) من مكانه على المنضدة نحوها ليهدئها بعبارات
من قبيل (نحن هنا ـ لا تقلقى ـ أنت بخير) بالرومانية طبعًا . .

كنا واقفين مغبرين مشعثين غارقين في العرق، نلتف حول ملاءة تكدست فوقها ستون جمجمة أو أكثر، نتبادل النظرات عاجزين عن الفهم.. وأمامنا المرج الذي تحول إلى غربال من كثرة ما فيه من حُفَر..

وهمس لي (جوستاف) وهو يعيد كمي قميصه إلى أسفل:

- «يبدو أن (ماريانا كاراجيالي) كانت محقة فيما اقترحته علينا صباح اليوم.. لقد بدأت أفهم ما حدث..»

* * *

١٠ - ميخائيل نجروزو..
(أكرر الاعتذار عن تكرار عنوان الفصل.. لكنه.. سترون.. ملائم جدًّا)

واقفًا في فخر وانتشاء كما يفعل (هركيول بوارو) في آخر عشرين صفحة من أية رواية لـ (أجاثا كريستي)، حين يقرر كشف اسم قاتل السير. (إدوارد)؛ راح (جوستاف) يقلب عينيه بين وجوهنا حيث جلسنا في دار العمدة.. وشعرت بالحمض يتعالى في صدري.. ترى ماذا ينوي قوله؟ كان (جوستاف) يقول كل عبارة بالرومانية ثم يترجمها لي بالإنجليزية؛ لذا سأفترض أن القارئ يعرف هذا ضمنًا منعًا للتكرار..

قال (جوستاف) وهو يمشي بتؤدة ويداه في جيبه:

- «أمس زرت وصديقي المصري دار الأرملة (روكساندرا).. كانت لدينا أسئلة لكنّ لا إجابات.. فالعجوز الطيبة القعيدة لا تعرف أي شيء عن زوارها الليليين.. لكننا وجدنا شيئين في المكان الذي يجتمع فيه أولئك الجنود..»

وطوح للعمدة بالصليب الحديدي، ثم طوح لـ (نجروزو) بالإصبع المبتور...

أما الأول فراح يتفحّص الصليب في اهتمام وقور..

وأما الآخر فأطلق صرخة كصرخة مراهقة مشى فأر على قدمها، وطوح الشيء بدوره ليصطدم بحاجز المدفأة ويسقط على الأرض..

سخيف هذا الأسلوب يا (جوستاف).. إنك تتصرف كطفل مشاغب يصر على إلقاء ضفدعة في وجوه البنات..

واصل (جوستاف) كلامه:

- «ما رأيك يا سيدي العمدة؟»

ازداد شارب العمدة كثافة كناية عن التفكير، وقال في تؤدة:

- «هذا؟ إنّه خاص بالقوات البرية النازية..»

صاح (جوستاف) في انتصار:

- «في شمال إفريقيا! إنّه خاص بقوات (روميل).. لكنه - على قدر علمي - لم يكن جزءًا من أزياء القوات البرية في أوروبا الشرقية، وبالتأكيد لم يكن أحد من الفصيلة السادسة يرتديه..»

ثم أشار إلى الإصبع الملقى على الأرض وقال:

- «وهذا؟ إن. الأشباح لا تترك أطرافًا مبتورة، و(الزومبي) لا وجود لهم.. هذا معروف.. إذن ما معنى هذا؟ معناه وجود تناقض واضح، هدفه تدعيم الأكذوبة.. صليب حديدي لا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) من أين جاء.. وإصبع منزوع من جثة.. كل هذا في محاولة لإقناع القرويين بأن الفصيلة السادسة فصيلة أشباح عائدة من قبورها..»

كان كلامه قد أثار اهتمامي.. لقد اعتدت أن أستخف بـ (جوستاف)، وأعتبره رجلًا لطيفًا يملك ذكاء البراغيث.. هو مثقف جامح الآراء لكني لا أعتبره محللًا بهذه البراعة..

واصل (جوستاف) كلامه:

- «في رحلة العودة.. وجدنا أن خرطوم البنزين في سيارتي مثقوب - بفعل فاعل طبعًا - واضطررنا إلى العودة راجلين إلى القرية.. قضينا ليلتنا عند أرملة أخرى هي (ماريانا كاراجيالي)، التي تفضل الجنود مشكورين بقرع بابها ليلًا لإرهابها..

«إن (ماريانا) امرأة طيبة.. صحيح أن حالتها الماديّة تدهورت تمامًا.. فقد اغتال السوفييت أباها، وبعد هذا مات زوجها.. ولم يكن لديها دخل تعيش منه.. إن هذه الأشياء تحدث.. وعليكم قبل أن تحاسبوا المرأة على سلوكها أن تحاسبوا جيرانها الذين - ببساطة - تركوها تموت جوعًا.. إنني - ود. رفعت) معي في هذا - أرى أنها في ظروف أفضل كانت ستغدو إنسانة محترمة طيبة..»

في فتور قال العمدة وقد ضايقه تدخلنا في شئون القرية الداخلية:

- «فلنعد للموضوع من فضلك..»

- «ليكن.. لقد كانت (ماريانا) غامضة جدًا كأنما تخشى المزيد من الكلام.. قالت لي عبارتين مهمتين: (نجروزو) يعرف كل شيء.. ثم.. انبشوا قبور النازيين وعدوا الجثث..

«كان هذا هو ما قالته ونحن نتأهب لمغادرة دارها، ولم تفصح عن شيء آخر.. وما كانت حالتها لتسمح بالإفصاح..

«لهذا - تذكر - جئتك يا سيدي العمدة، وطلبت أن تفتش عن جثث الصبية النازيين.. وقد بدا لك الطلب غريبًا، لكنك وافقت على مضض..

«لقد انتهى الحفر، ويمكن بكل إخلاص أن نعلن للعالم أنّ هناك عشرين صبيًا نازيًا غير موجودين في قبرهم الجماعي.. فأين هم؟»

ثم صمت برهة كأنما ينعم بترقب الجالسين.. كان أداؤه المسرحي يفوق خير الممثلين الشكسبيريين، فلم يكن ينقصنا سوى خلفيّة موسيقية متوجسة..

قال وهو يتأمل الصليب الحديدي بين أصابعه:

- «ثمّة واحد فقط يمكنه أن يتلف خرطوم البنزين في سيارتي حين تركناها على باب (روكساندرا) وكان معنا هناك.. إن وضع الإصبع والصليب الحديدي في منزل الأرملة ليس عسيرًا على أي شخص، لأن الدار مشاع للجميع.. لكنّ الخرطوم يدل بشكل قوي على.. (نجروزو)..»

كالعادة في قصص (أجاثا كرستي) نهض (نجروزو) صارخًا محتجًا، وقد زاده الحماس بشاعة.. وتطاير لعابه في كل صوب وهو يردد:

- «أنت مجنون! لا مصلحة لي في.....»

لكن (جوستاف) - مثل (بوارو) - ظل يرمقه في برود، ويداه في جيبيه، وشبح ابتسامة على ثغره المكتنز..

أخيرًا قال:

- «أنا مؤمن أن العشرين نازيًا ما زالوا أحياء! وأنت تدعم لدى القرويين أسطورة الفصيلة السادسة كي يغرقوا في الذعر، ولا يلقوا أسئلة كثيرة..»

صاح العمدة غير مصدق كلِ هذا السخف:

- «سيدي! إن في هذا شططًا كبيرًا.. كيف يعيش. عشرون نازيًا في قريتنا نحو ربع قرن دون أن نعرف شيئًا عنهم؟ ولو كان هذا صوابًا لكان عمر الواحد منهم يفوق الأربعين عامًا.. فكيف يجمع كل الشهود على أنهم صبية مراهقون؟»

وحين وصلتني الترجمة أخيرًا، قلت ما قاله العمدة وأضفت:

- «ثم ما هي مصلحة (نجروزو) في هذا؟»

- «إن (نجروزو) يملك ميولًا نازية.. هذا ما قالته (ماريانا).. وقد أعدم السوفييت أخاه بعد الحرب لأنّه كان جاسوسًا للنازي.. هذا كافٍ كي يحمل عداء لا ينتهي للشيوعيين.. انتقامه هو أن يرى فصيلة نازية تجوب القرى وتنشر الهلع في قلوب الفلاحين..»

سألته وأنا لم أقتنع بعد:

- «وكيف يخفيهم ويطعمهم كل هذه الأعوام؟»

- «هناك أماكن كثيرة تصلح؛ منها ـ على سبيل المثال ـ قبو الكنيسة.. كل الكنائس العتيقة هنا تضم قبوًا مخفيًا.. وعلى كل حال لم يعد النازيون متوارين.. بل هم يخرجون ليلًا بحثًا عن الرزق..»

هززت رأسي من جديد شاعرًا بأن الفكرة عسيرة الهضم.. وقلت:

- «مازال تصوّر هذا عسيرًا يا (جوستاف)..»

- «لِمَ لا؟ لقد وجدوا في العام الماضي خمسة جنود يابانيين مختبئين ـ منذ الحرب العالمية الأخيرة ـ في أحراش (الملايو).. تصوّر هذا! تواروا في الأحراش ربع قرن كي لا يجازفوا بأن يُقتلوا أو يؤسروا.. ولم يسمع واحد منهم أن الحرب انتهت أو أن (اليابان) استسلمت[5]..»

- «احراش (الملايو)لا قرية رومانية صغيرة كهذه..»

لم يترجم (جوستاف) محاورتنا الإنجليزية للآخرين، لكنّ الحكمدار (أيودو) تدخل سائلًا:

- «ولماذا يبدون مراهقين لمن يراهم؟»

قال (جوستاف) في ملل:

- «إنهم يظهرون ليلًا، ولا يراهم أحد إلا من بعيد وخلف ستار.. هنا يتدخل الخيال كي يجعلهم كما يريد بالضبط.. أراهن على أن وجوههم ملأى بالتجاعيد وقد شاب شعر أكثرهم..»

نظر العمدة طويلًا إلى (ميخائيل نجروزو)..

ثم ـ بصوت لا أثر فيه لعاطفة ما ـ سأله:

- «ما رأيك في هذا يا (ميخائيل)؟»

* * *

- «مخابيل! هذا كلام مخابيل!»

هنا تدخل الحكمدار (أيودو) قائلًا:

- «ليس كلام مخابيل تمامًا.. كلنا سمعنا أنك أخفيت بعض النازيين في قبو الكنيسة أيام الحرب!»

صاح (جوستاف) في انتصار:

- «آها! أنت قلت! وأنا أرجح أنهم ما زالوا أحياء..»
قلت أنا وقد قررت أن أدلي بدلوي في بئر الشكوك هذه:
- «لحظة.. هل هذا القبو قابل للفتح؟»
قال القس بعد ما تلقى ترجمة سؤالي:
- «أنا حديث عهد بالكنيسة هنا.. لكنّ - على قدر علمي - لم يفتحه أحد منذ أعدم السوفييت الأب (غريغوريوس) في عام ١٩٤٤..»
- «أعدموه؟ إن إعدام رجال الدين خطأ فادح يتحاشى المستعمر الوقوع فيه مهما بلغ من توحش وحمق.. حتى (بونابرت) في (مصر) تجنب ذلك فلم يفعله إلا بعد ثورة (القاهرة)، كما فعله (مينو) بعد اغتيال (كلوبير)..»
قال القس:
- «إنهم - السوفييت - اتهموه بمعاونة النازي..»
- «هذا يدعم نظرية قبو الكنيسة هذه..»
ثم سألت (جوستاف) في اهتمام:
- «هل يسمحون لنا برؤية هذا القبو؟»

* * *

وقفنا تحت تمثال السيدة (العذراء) الذي يحمل الطابع المميز للفن القوطي.. وكانت النباتات اللولبية التي لا أعرف اسمها بالضبط تحيط بقاعدته، وعلى الأرض كان العشب سميكًا ملتفًا.. ورسم القوم علامة الصليب..
قال القس وهو يشير إلى قاعدة التمثال:
- «هنا عند قدمي (العذراء) يوجد باب القبو.. هذا ما قاله لي الآباء.. لكني لم أحاول فتحه، ومن حالة النباتات يمكن القول إن هذا الباب لم يُفتح منذ عقود..»
قال (جوستاف) وهو يشمر ذراعيه:
- «ماذا تنتظرون؟ هلموا نبحث..»
وللمرة الثانية في هذا اليوم تعاون الرجال السبعة على الحفر، ولم يستغرق الأمر طويلًا لأننا رأينا حلقة بارزة من الأرض كالحلقة التي تميز آبار الكنوز في قصص ألف ليلة وليلة..
- «هلموا نفتحها..»
واختلست نظرة إلى (نجروزو) صراف القرية المذعور، فوجدته في حالة توحي بدنو نوبة قلبيّة..
عيناه جاحظتان حتى صارتا مضغوطتين تمامًا إلى زجاج عويناته، وفمه مفتوح كالأبله، وقد تدلى منه خيط لعاب لم يشعر به، وكان وجهه أحمر كتفاحة لبنانية فاخرة.. هذا الرجل سيصاب بالفالج حتمًا، وسيكون ذنبه على رءوسنا ما حيينا..

صاح العمدة وهو يرمق المدخل:
- «هو هنا إذن؟ كنت حديث السن في ذلك الوقت، وسمعت عنه كثيرًا لكني لم أره قط..»
وقال (نجروزو) شيئًا ما كأنه يحلم، فنظر له (جوستاف) لحظة واتسعت عيناه من وراء عويناته، وغمغم بالإنجليزية: «رباه»!
- «(جوستاف).. لمَ كففت عن الترجمة؟»
قلتها له لائمًا.. فهو لا يكف لحظة عن الترجمة من وإلى الرومانية، حتى لو أنّ أحدهم سعل (كح كح!) لقال لي (جوستاف): إنّه يسعل.. لهذا أثار دهشتي صمته إزاء عبارة مهمّة كهذه..
قال (جوستاف) وهو يجثو على ركبته ليفحص المدخل:
- «يقول إن دبابة سوفييتية وقفت ها هنا شهرًا كاملًا وقد أراحت أحد جنزيريها على المدخل!»
- «قبل أم بعد دخول النازيين؟»
- «الأمر واضح يا أحمق.. السوفييت لم يسيطروا على القرية إلا بعد ما توارى النازيون هنا!»
- «يا للهول! هذا يعني أن.....»
- «لا أدري ما يعنيه هذا..»
- «يعني أن هؤلاء النازيين دفنوا أحياء.. ومعناه أن نظريتك خاطئة تمامًا..»
نظر لي في ضيق، ولم يعلق.. وتعاون الرجال على فتح المدخل، أمّا أنا فتراجعت للوراء قليلًا.. فالمداخل المهجورة بالنسبة لي لم تعد تعني سوى الوطاويط والفئران والجثث المتعفنة، وأعتقد أنك توافقني على أنني رأيت ما يكفي لعمر واحد منها...
ظهر مصباح من مكان ما - لا أدري من أين يأتون بالمصابيح في القصص - وسرعان ما تدلى عبر الفتحة مع رأس أحد الرجال راح - نائمًا على بطنه - يتفحّص القبو..
ثم رفع رأسه وهتف:
- «لا يوجد شيء على ما أظن!»
نقل لي (جوستاف) ما قال، ثم سأل الرجل:
- «ولا جثة واحدة؟ ولا هيكل عظمي يزحف على درجات السلم؟»
- «لا شيء.. لكني سأهبط الدرجات على كل حال..»
هنا سمعت صوت الـ (كليك كراك) إياه!
نظرت للوراء فوجدت آخر مشهد توقعته..
الصراف المذعور يضغط فوهة مسدس إلى صدغه، ويقول شيئًا ما..
كان ينظر لي بعينين لا تريان..
ورفعت كفي في محاولة ساذجة لا معنى لها لقول:
لا.. لا تفعل!
لكن - كالعادة - كنت متأخرًا جدًا..

* * *

١١ - الأرملة تعرف!

غريبة جدًا هي لحظة الموت بسلاح ناري!

كل الضوضاء والمخاوف والأفكار والأحلام تنتهي في ثانية واحدة، ويتحول المشهد إلى جسد مكوم على الأرض تنز الدماء من ثقب في صدغه، على حين تفوح في الهواء رائحة البارود.. ويقف الجميع غير مصدقين ما حدث، ولا يجرؤ أحدهم على الدنو أكثر..

صحت في (جوستاف) في هستيريا:

- «هيا! قل ما قاله قبل أن ينتحر!»

نظر لي في غباء، وعاد يتأمل الجثة:

- «لقد انتحر البائس!»

- «ماذا قال قبلها؟»

- «وهل هذا وقته؟»

- «بل هو الوقت المناسب قبل أن تنساه في غمار الأحداث!»

بلل بلسانه شفته السفلى وقال:

- «قال: لقد غادروا القبو حقًّا.. ثم: فلترحمني السماء.. إنني ملعون!»

كان الرجال الآن قد التفوا حول الجثة، وغطى أحدهم الوجه الدامي بمنديله، على حين لم يكف القس عن الصلاة بصوت مرتجف..

قلت لـ (جوستاف):

- «الأمر واضح.. إن (نجروزو) لم يكن عميلًا للنازي بل هو عميل للسوفييت.. لقد أخفى هؤلاء الصبية في القبو ثم وشى بهم.. عندها كان قرار السوفييت صارمًا.. ما دام لا يوجد مدخل آخر للقبو فلا داعي لإضاعة الرصاص.. تكفي دبابة سوفييتية واحدة تسد المدخل، وتمنح هؤلاء الشباب ميتة شنيعة يشيب لهولها الولدان..»

- «إنها مجرد نظرية..»

- «بل هي نظرية تدنو من الحقائق.. لقد أعدم الروس كل من له صلة بإخفاء الصبية النازيين.. فلماذا لم يعدموا (نجروزو)؟ وما معنى كلامه حين قال: لقد غادروا القبو حقًّا؟ معنى هذا أنه كان يتوقع أنهم ما زالوا موتى ينتظرون في القبو ككل الجثث المهذبة..»

أشعل (جوستاف) إصبع ديناميت - أعني سيجارًا - بيد مرتجفة لم تعد ذات ارتباط قوي بجهاز العصبي الإرادي.. وسألني:

- «ولماذا انتحر؟»

- «لأنّه - حين فتحنا القبو - وجد الدليل المادي على أن هؤلاء الجنود قد غادروا قبرهم، هم يبحثون عنه طالبين الانتقام.. لقد تأكد من حقيقة الفصيلة السادسة.. ولهذا آثر الانتحار من منطق (بيدي لا بيد عمرو) كما يقول العرب..»

- «هي نظرية جيدة حقًّا..»
قلت وأنا أتأمل مدخل القبو:
- «بالعكس.. إنها ملأى بالثغرات.. أولًا: من هم الجنود الذين يجوبون القرية حقًّا؟ ثانيًا: من ثقب خرطوم سيارتك ما دام ليس (نجروزو)؟ ثالثًا: الموتى لا يغادرون قبورهم.. فأين ذهب هؤلاء النازيون؛ رابعًا: ما هو دور الأرملة (كاراجيالي) في هذه القصة؟»
نفث الدخان وقال وهو يسعل:
- «الأرملة تعرف.. بالتأكيد الأرملة تعرف..»

* * *

مشينا إلى دار الأرملة، وكان (جوستاف) يلهث والعرق يغمر جبينه.. فهو لم يعتد المشي بعد ما فقد سيارته الفاخرة..
قرعنا الباب مرّتين أو ثلاث، فسمعناها تغني في دلال أغنية رومانية.. تم فتحت الباب في مرح لتصطدم بوجهينا الكالحين الملونين بالغبار والعرق والشكوك.. تبدل مزاجها فورًا واكفهر وجهها..
غمغم (جوستاف) بالإنجليزية:
- «إن هاته النسوة لا يرهقن أبدًا.. تخيل أنها قضت نفس الليلة المؤرقة مثلنا ومع ذلك هي منتعشة كالينبوع، بينما أنا وأنت أقرب إلى المومياوات..»
- «لا تنس أنها لم تستخرج ستين جمجمة مثلنا..»
فيما بعد قال لي (جوستاف) ما دار بينه وبينها بينما هي تدعونا - غير مرحبة - إلى داخل دارها..
أخبرها أن (نجروزو) قد انتحر، فصرخت قليلًا كما تقضي التقاليد وتهاتفت وأضاعت نصف ساعة كاملة.. إن القارئ لمحظوظ إذ أريحه من هذه التفاصيل المملة.. وألخص له أهم ما في الموقف..
في النهاية قالت وهي تجرع كوبًا من الماء:
- «لقد انتقموا منه.. والآن جاء دوري.. إن العدالة لا تتأخر..»
نظر لها (جوستاف) وعقد ذراعيه، وبرصانة قال:
- «يبدو أن وقت الكلام بصراحة قد حان.. ألا ترين ذلك؟»
نظرت له.. ثم لي.. رسالة بليغة جدًا.. فقال لها:
- «هذا صديقي (رفعت) وأنا أثق به تمامًا.. صحيح أنه يبدو كفرشاة الأسنان العتيقة.. لكني أحترم ما سيقول..»
غطت عينيها بكفيها إذ جلست على المنضدة، وقالت بصوت كالفحيح:
- «كانوا عشرين أخفيناهم في قبو الكنيسة بعد ما حسبهم الروس قد ماتوا.. كنا نطعمهم ونعالجهم... ولم يكن يعرف سر هذا القبو سوى القس و(نجروزو) وأبي و(سادوفسكو) وأنا..»
كانت تعد على أصابعها حتى فرغت من خمس أصابع.. تأملتها وعادت تحكي قصتها:

- «هناك من أفشي السر.. لا أدري من.. لكنه ليس أنا بالتأكيد، ولا أبي ولا القس.. لأن الأخيرين أعدما رميًا بالرصاص.. ربما كان الواشي من أهل القرية وربما كان أحد الرجلين (سادوفسكو) أو (نجروزو).. المهم أن الدبابات السوفييتية أحاطت بالكنيسة، وكان تصرف الروس باردًا وهادئًا إلى درجة تثير الذهول: جعلوا دبابة تقف على فتحة المدخل ليستحيل فتحه، وتركوها هناك بضعة أيام.. كان طاقمها خلالها يعسكر في ساحة الكنيسة ويعيش حياة عادية جدًّا.. لكننا كنا نعرف الهول الذي يحدث تحت الأرض ونرتجف منه.. ماذا بوسعنا أن نفعل؟»

سألها (جوستاف) وهو يشعل سيجاره الشهير:

- «وما سر حماسكم الشديد للنازيين؟»

- «ليس للنازيين.. بل للأطفال الذين وجدوا أنفسهم في هذا الجحيم.. لم يتحمل أبي فكرة موتهم، وكان يزمع أن يستطيع تهريبهم إلى (تشيكوسلوفاكيا) لا أدري كيف..»

سألتها أنا بعد ما فهمت ما قالته، وبعد ما حكت النا التفاصيل كلها:

- «وما سر كلامك عن العدالة؟»

- «لقد ظل شبح هؤلاء النازيين يطاردنا ربع قرن كاملًا.. كنا نشعر بالذنب وبأن دمهم على رءوسنا.. لهذا ارتجفنا هلعًا حين سمعنا عن فصيلة نازية تجوب القرى ليلًا.. إنهم يبحثون عنا.. لم يقتلونا لسبب واحد هو أنهم لم يرونا بعد.. لكنّ هذا سيحدث لا محالة..

«لكنّ أي شك في الأمر تبخر عندما فتحتم القبو لتجدوه خاويًا.. لقد غادر الموتى قبورهم كي يفتكوا بنا.. ولا يثير دهشتى انتحار (نجروزو) فالفكرة مريعة.. مريعة إلى حد لا يمكن الحياة معه..»

قلت لها و(جوستاف) يترجم:

- «سيدتي.. هل أنت واثقة من أن أحدًا لم يستخرج جثتهم من القبو؟»

- «حتمًا لا.. إن شيئًا كهذا لا يحدث سرًا..»

- «وأين (سادوفسكو) هذا الآن؟»

- «مات بذات الصدر بعد الحرب بثلاثة أعوام..»

تبادلت النظرات مع (جوستاف).. مشكلة من يعرفون أسرارًا مهمّة هي أنهم يموتون بسهولة غير عادية.. مات الرجل وسره معه..

لم يكن هناك مزيد من الأسئلة فنهضنا وشكرناها كثيرًا، ونصحناها ألا تنتحر..

* * *

وكانت عربة يجرها حصانان تعبر الشارع، وقد تربع عليها عجوز كث الشارب - كالعادة - وجواره صبي يغني ويؤرجح ساقيه المتدليتين في الهواء إذا جلس جوار الحوذي..

كانت العربة تجر سيارة (زاباروجيتس) كانت فاخرة يومًا ما، لكنّها تحولت إلى قطعة من الحديد.. عجينة حديد إن صح تعبير كهذا.. ولما كنت أستبعد أن يوجد (سمكري) سيارات مصري في (رومانيا).. فإنني أدركت أن العربة قد انتهت تمامًا.. فقط (سمكرية) السيارات المصريين يستطيعون إعادة كتلة الحديد هذه إلى عربة..

اطلق (جوستاف) شهقة ألم، توحي بأنه كان يتمنى أن يراني أو يرى زوجته في مكان هذه السيارة الحبيبة.. تحسست ذراعه مشجعًا ثم دنوت من كتلة الحديد التي وقفت إلى جانب الطريق، وأدركت أن شباب الفصيلة السادسة لم يضيعوا وقتهم ليلة أمس..

كان الحوذي الروماني يفك حباله الغليظة ويتقاضى أجره، حين جثوت أنا على ركبتي ونظرت أسفل السيارة..

ثم زحفت بثيابي ـ كالعادة ـ لأرقد تحتها وأعيد تفحص خرطوم البنزين إياه.. كان مثقوبا في موضعين أو أكثر.. لكنه ـ كذلك ـ كان ملوثًا بمادة لزجة أميل إلى الاخضرار.. (لولا ما في ذلك من مجافاة للذوق لقلت إن هذه المادة شبيهة ببلغم المصابين بباكتريا الـ (مودوموناس).. لكني أعرف بالطبع أنّ هناك آنسات ها هنا.. لذا لن أقول هذا)!

وتذكرت بسهولة أين رأيت هذه المادة من قبل..

كما تذكرت أنني أحمل عينة منها في جيبي..

* * *

١٢ ـ المقبرة..

في هذه المرّة نتصرف كروايات (شيرلوك هولمز)..
ككل آخر عشر صفحات في أية رواية لـ (شيرلوك هولمز)، كنا كامنين ننتظر ومعنا الحكمدار (أيودو).. وكان لدى الحكمدار و(جوستاف) أسئلة كثيرة لي لكني - كما في الروايات المذكورة - كنت ألتزم بصمت مستفز وأرفض التصريح بأي جديد...
كانت الشمس قد غربت..
وكنا على بعد مائة متر من بيت الأرملة، نقف بين الأشجار بانتظار اللحظة التي تبدأ التحرك فيها..
أتحدث طبعًا عن الأرملة (كاراجيالي) لا الأرملة الأخرى المقعدة..
سألني (جوستاف) وهو يحكم غلق المعطف على صدره، فقد برد الهواء أكثر:
- «حسن.. أنت تشتبه في الأرملة.. فماذا تنتظر؟»
- «صبرًا يا (جوستاف).. أعتقد أنها لن تنتظر أكثر..»

* * *

بعد ساعتين انفتح الباب، ولمحنا شبح المرأة بايشاربها المميز تخرج منه، تلفتت حولها ثم راحت تجد السير مبتعدة..
قال الحكمدار شيئًا ما، فقال (جوستاف) مترجمًا:
- «إنها تتجه إلى الغابة خارج القرية..»
وبدأنا نمشي في إثرها بذات سرعتها.. الحق أنها كانت ـ كما قال (جوستاف) - نشيطة جدًا وقد أرهقتنا سرعتها..
لكن ها نحن أولاء في الغابة المظلمة نراها، يساعدنا على هذا ضوء المصباح الذي تحمله حاسبة أن أحدًا لا يراها..
تميل يمينًا ثم يسارًا.. ثم تتقدم.. ثم تختفي وراء بعض الأشجار.. ثم تعود للظهور...
أرجو أن تكون على علم بما تفعله..
أخيرًا رأيناها تتوقف في مساحة خالية من الأشجار، تنظر حولها ثم تضع المصباح على الأرض..
لاهثا تساءل (جوستاف):
- «ما هذا المكان يا مستر (هولمز)؟»
قلت وأنا أعب الهواء محاولًا إدخال الغلاف الجوي في رئتي:
- «الأمر واضح.. هذا هو المكان الذي دفنت فيه.. هف هف! جثث الألمان بعد ما أخذتهم من القبو؟ هف هف! أعتقد أنّ هذا كان بمعونة (سادوفسكو).. هف هف! لا بد أنهما فعلًا ذلك على مدى أيام..»

- «هل تمزح؟ ولماذا يفعلان ذلك؟»

- «هف هف! طبعًا كي يُدفن الصبية دفنًا لائقًا بهم، وحتّى لا تظل صورتهم ميتين في القبو تطاردهما.. هفهف! إنّه نوع من الاعتذار المهذب للصبية.. سندفنكم لكنّ - رحماكم - لا تدعوا أشباحكم تطاردنا!»

لم يكن من السهل أن تسمع المرأة صوتنا..

بالإضافة إلى بعد المسافة، كانت جالسة منهمكة في عمل مهم: قراءة عبارات من كتاب غليظ لعله كتاب صلاة أو لعله كتاب سحر أسود.. لا أحد يدري، وكانت منهمكة جدًا...

منهمكة في القراءة بصوت عالٍ..

حتى إنها لم تسمع صوت النشيد الألماني القادم من بعيد..

* * *

كان الحكمدار هو أول من رآهم قادمين..
وصاح بأعلى صوته:
- «(ماريانا كاراجيالي)!»
وحتّى أنا بضعف بصري الشهير استطعت أن أرى صف الجنود يتحرك بخطوته العسكرية وراء صف الأشجار القريب من المرأة..
هذه المرّة سيرونها.. سيعرفونها..
كانت تنظر حيرى.. تنظر نحونا لتدرك مصدر الصوت، وتنظر للوراء لتدرك مصدر النشيد...
ثم نهضت.. وبدأت تركض نحونا.. وهي تصرخ..
لكنها رأتنا.. وتعرفت وجوهنا.. فصرخت من جديد، وانطلقت تركض مبتعدة.. في اتجاه بعيد عنا وعنهم...
صرخ (جوستاف) بالرومانية شيئًا ما ليس عسيرًا استنتاجه: تعالي هنا يا حمقاء! نحن هنا لحمايتك!
لكنها كانت تمر بحالة الشلل العقلي التي تصيب المذعورين، وتجعلهم يلقون بأنفسهم في البحر - وهم لا يسبحون - هربًا من كلب مسعور..
راحت تركض بخفتها المعهودة مبتعدة لتذوب في الظلام...
ودوي صوت من يقول بألمانية عسكرية صارمة:
- «هالتن زي! أختونج!»
ومن وراء صف الأشجار رأيناهم يركضون متفرقين..
صاح (جوستاف) وهو يركض كالملسوع:
- «بحق السماء! يجب أن نجدها حالًا..»
ورحنا نركض بين الأشجار.. نتعثر في أشياء سوداء لا ندري ما هي فننهض متشبثين بأشياء أكثر سوادًا.. إن (جوستاف)لا يضيء بالكشاف إلا لنفسه..
كانت هناك حفرة عميقة نوعًا؛ هويت فيها لأتلقى عشرات الأشواك والأغصان المدببة في وجهي.. فلو كانت مخصصة لصيد الفيلة لما كانت أكثر أذى وخطورة..
نهضت وأنا ألعن الظلام و(رومانيا) و(جوستاف)، ونجحت في أن أقف على قدمي.. حين.. حين.....
حين دوّت صرخة المرأة.. صرختها الرهيبة المدوية..
وعرفت منها أن الأوان قد فات.. لم يعد الركض ذا جدوى.. فلنرفق بهذا القلب المنهك..
ولننتظر عودة (جوستاف) ومن معه..

* * *

عادا بعد قليل يحملان جثتها..
وضعاها على الأرض جواري، وجلسا وكلهما إحباط وإرهاق..



كانت جالسة منهمكة فى عمل مهم : قراءة عبارات من كتاب غليظ ، لعله كتاب صلاة أو لعله كتاب سحر أسود . .

تأملت الجثة على ضوء الكشاف.. فرأيت طعنة السونكي في أسفل الصدر..
لا صوت سوى اللهاث واصطكاك الأسنان..
سألت (جوستاف) وأنا أمسح دمعة سالت على خدي:
- «هل رأيتماهم؟»
- «فقط وهم يبتعدون ماشين بخطوة الأوزة الشهيرة..»
- «لم تلحقا بهم؟»
- «كانوا أسرع منا.. ثم ما جدوى هذا الآن؟»
وبعد دقائق همس:
- «إن الجثث في قبورها لم تتحرك.. أليس كذلك؟»
- «الموتى لا يغادرون القبور يا (جوستاف).. فقط لم يكن هؤلاء الجنود مدفونين في قبو الكنيسة..»
- «وكيف عرفت كل هذا؟»
- «لم أعرف شيئًا.. فقط وجدت خرطوم سيارتك ملوثًا بـ (الإكتوبلازم) فأدركت يقينًا أن الأمر خارق للطبيعة.. إن رجال الفصيلة السادسة هم المسئولون عن تعطل سيارتك.. وتوقعت أن تهرع المرأة ليلًا إلى حيث المكان الحقيقي لقبور الجنود كي تطمئن إلى أنهم لم يفارقوها، وربما تصلى عليهم أو تؤدي طقوسًا لتحرير الأرواح.. المهم أنني عرفت أنها لن تمضي الليل وحيدة في دارها تنتظر..»
- «وكان هذا خطأها الفادح لأنهّا قابلتهم وحدها في ظلام الليل، وكان الباقي حتميًا..»
تبادل (جوستاف) حديثًا سريعًا مع الحكمدار.. ثم قال لي:
- «الحكمدار يطلب أن نتعاون لنقل جثتها إلى القرية..»
- «سنفعل.. وكذلك سيكون علينا أن نحضر الرجال غدًا لحفر هذه القبور، ونقل الجثث إلى مقبرة محترمة بعد ما يصلون عليها.. من يدري؟ في الغالب سيهدأ أفراد الفصيلة السادسة بعد هذا، وبعد موت (ماريانا) و(نجروزو)..»
عاد يسألني.. وهو يشعل سيجارًا كاسحًا آخر:
- «وماذا عن الإصبع المبتور إياه؟»
- «كما قلنا: من السهل دائمًا الحصول عليه.. ولربما تركه أحد أفراد الفصيلة على سبيل التذكار.. لكنه لم يكن يخصه بالتأكيد..»
وظللنا صامتين نرمق الغابة المظلمة..
ثلاثة أحياء وامرأة ميتة..
لكن شيئًا واحدًا كان يربط بيننا في هذه اللحظة..

* * *

١٣ - فصيلة الأطفال..

وشعر (هانس) بسحابة مظلمة تزحف على عينيه، فلم يعد يرى..
أتراه الموت؟ شعر برضا وسرور للفكرة.. لكنّ السحابة رحلت، وعاد يرى القبو المعتم وأجساد رفاقه..
الحق أنه لم يعد يذكر من مات منهم ومن ما زال حيًّا..
نادي بصوت مبحوح واهن:
- «(أوتو).. (أوتو).. ألم تنم بعد؟»
جاء صوت (أوتو) في الظلام مبحوحًا بدوره:
- «نعم.. لكني سأنام بعد قليل.. من يدري؟ ربما أعود شبحًا وأنتقم من كل هؤلاء الذين خانونا.. سأمرح كثيرًا.. جدًّا.....»
وحاول أن يضحك.. لكنّ آلام صدره جعلت ضحكته صرخة ألم..
- «(هانس).. هل أنت جائع؟ هل تشعر بالظمأ؟»
- «لا.. لقد تلاشى كل شيء منذ.. منذ متى؟»
- «إذن أنت تموت يا رفيقي.. لقد انتهت قصتنا!»
أصابه الذعر للحظة ثم ملأته الفكرة مرحًا.. وفي الظلام سأل (أوتو):
- «هل تذكر ما كنت تغنيه في تلك الليلة؟»
- «نعم...»
- «فلنغنه معًا الآن..»
وتعالى صوتهما الواهن الخالي من اللعاب في ظلام القبو:
- «أبيض أبيض هو لون ثيابه.. أبيض هو كل ما لديه.. لهذا أحب اللون الأبيض لأن حبيبي.. يعمل خبازًا..»
«أسود أسود هو لون ثيابه.. أسود هو لون ما لديه.. ولهذا أحب اللون الأسود.. لأن حبيبي..... لأن حبيبي جندي في الفصيلة السادسة!»

* * *

خاتمة

سألت (جوستاف) ونحن نغادر القرية:
- «أ... أرجو ألا أبدو غبيًّا.. لكنّ ما اسم ذلك الفندق في (نياموتزو)؟»
- «(لابوخنيانو) يا رفيق.. (لابوخنيانو)!»

* * *

كان هذا كافيًا فيما يتعلق بـ (رومانيا)..
إخوة دم وجانب نجوم ود. (لوسيفر) وفصيلة سادسة و(إكتوبلازم) و... و... يا للجحيم!
إنني أتركها راضيًا فقد أثرت كوابيسي.. وأثريت كوابيسها، وسيحمل كلانا للآخر أسوأ ذكرى ممكنة.. العجوز الأصلع القادم من وادي النيل يعود لوطنه أخيرًا كي يبدأ حياة هادئة..
لقد نال (جوستاف) الموضوع الصحفي الذي أراده، واكتسبت أنا خبرة لا بأس بها بظروف الاحتلال النازي لـ (مولدافيا)..
الآن أبدأ أول يوم فيما تبقى من حياتي.
لكن خطابًا معينًا كان ينتظرني..
وكان صاحب الخطاب يُدعى (هاري شلدون)..
يتحدث عن دمية معينة يسمونها دمية الـ (فتيش)..
لكن هذه قصة أخرى..

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة
١ -المستشفى وما إلى ذلك..
٢ -فصيلة الأطفال..
٣ -ماريانا كاراجيالي..
٤ -ميخائيل نجروزو..
٥ -روكساندرا برباياني..
٦ -الليلة نلقاهم..
٧ -فصيلة الأطفال..
٨ -فلنعد إلى القرية!
٩ -ماريانا كاراجيالي..
١٠ -ميخائيل نجروزو..
١١ -الأرملة تعرف!
١٣ -فصيلة الأطفال..
خاتمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة الفصيلة السادسة

مائة جندي نازي قتيل ..
خمس وستون جمجمة فى الثلوج ..
لقد أبيدت الفصيلة السادسة، وبدا للجميع أن الجمع والطرح ليس لهما جدوى وسط الدماء والرصاص .. إلا أن الأرقام لا تكذب .. وقصتنا هذه تبرهن على أن الأرقام قد تقتل ..! ..
تُرى أين ذهب الجنود الباقون؟!



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٢٥٨٦١٩٧ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٥٩٠٨٤٥٥
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:
أسطورة الدُمية

Notes

[←1] في تقسيم القوات البرية: الفيلق عدد من الفرق، والفرقة عدد من اللواءات، واللواء عدد من الكتائب، والكتيبة عدد من السرايا، والسرية عدد من الفصائل، والفصيلة عدد من الجماعات، والجماعة عدد من الجنود!!

[←2]

حقيقة.

[←3]

[←4]

epiphyseal line

[←5]

حقيقة..

روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

37

أسطورة الدُمية

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

أمّا وقد انتهينا ـ ولله الحمد ـ من (رومانيا)، محتفظين بحياتنا وأطرافنا ودمائنا.. فقد صار بوسعنا أن نبدأ قصة جديدة..

د. (رفعت إسماعيل) الذي يستضيفكم دومًا في هذه الكتيبات، لا يملك الكثير ليقدمه لكم سوى بعض الساعات العصيبة... وما أكثر الساعات العصيبة التي لديَّ من أجلكم!

كنت أنوي أن أحكي لكم قصة (نوسفيراتو)، وقد أعددت الأوراق التي تذكرني بالتفاصيل: لكني ـ في اللحظة الأخيرة ـ وجدت أن قصة واحدة عن مصاصي الدماء تكفي كل خمسة كتيبات.. وأنا ـ كما تعلمون ـ زاهد في كل ما يثير مالكم أو شعوركم بالتكرار..

ثمة قصة لا بأس بها عن (الطفيلي).. وقصة لا بأس بها عن محركي الأشياء عن بعد.. كما أنّ لدي قصة رهيبة عن طريق مهجور، لا يراه ويمشي فيه سوى المحتارين، تعساء الحظ طبعًا..

المكواة ثقيلة الظل؟ لا بالطبع.. لن أحكي قصتها لأنهّا لن تروق لعدد لا بأس به منكم؛ وأنا تاجر كلام يزهو برواج تجارته.. ولا يعرض منها سوى الأفضل...

آه! الدمية! حكاية (هاري شيلدون) الأحمق مع الدمية.. كيف نسيت هذا الأمر؟ إنني أشيخ حقًّا..

كنت قد وعدتكم باستكمال القصة.. وأنا ـ كالعادة ـ أبر بوعودي متأخرة جدًّا.. لقد كان هذا الوعد منذ سبعة عشر كتيبًا، وبالتحديد في مارس عام ١٩٩٦

يبدو أن الوقت قد حان لأفي بما عاهدتكم به.. ترى كم سبعة عشر كتيبًا في العمر حتى أنتظر أكثر من هذا؟

ليكن.. اليوم نحكي قصة دمية (الفتيش)..

* * *

شخصيات الرواية..

د. رفعت إسماعيل: طبيب يهوى الأشياء الغامضة.. في البدء كان يمقتها ثم وجد أنه مضطر لأن يحبّها كي يعيش.. إن القراء يعرفون نحوله وعصبيته وحالته الصحية المريعة، فلا داعي للثرثرة أكثر..

هاري شيلدون: خبير (كمبيوتر) أمريكي الجنسيّة.. في السابعة والثلاثين من العمر.. مندفع جدًا وأخرق؛ ويبدو أن إصراره على استرداد الدمية سيجلب له متاعب لا بأس بها.

لندا شيلدون: زوجة (هاري) الحسناء.. و(هاري) يحبّها كثيرًا، لكنه يؤمن كذلك بتعددية الحب.. وبالمناسبة هي صاحبة الدمية..

الأم مارشا: ساحرة عجوز من (جامايكا)... لها كل مزايا وعيوب أية ساحرة (فودو) أخرى، والحق أن المؤلف عاجز تمامًا عن تصنيفها في خانة الأخيار أو الأشرار..

جابرييل: ابنها الأخرق الغامض قليلًا.. ربما تحبه أحيانًا، لكنّ الثقة فيه عسيرة.. ولا أنصحك بأن تخبره بأسرارك..

ماريانا: فتاة من (بورت ريكو).. حسناء كالعادة.. إن زوجة (هاري) تنتمي لطائفة (الحسناوات المذعورات) أمّا هذه فتنتمي لطائفة (الحسناوات الغامضات) اللواتي يدارين سرًا رهيبًا وهي ساحرة.. لا يوجد أي مجاز ها هنا..

داماسو: عملاق زنجي أحمق.. ويبدو أنه لم يفهم ما هو مقبل عليه جيدًا.

* * *

- ١ -

تلهاسي في ٢٠ ابريل:

عزيزي (رفعت):

كيف حالك أيها الشيء القديم؟ أرجو أن تكون عاكفًا على هذه السخافات التي تقوم بها، وأن تكون حيًّا على الأقل..

لم ترسل لي أية خطابات ولم نلتق منذ تلك الأمسية الرهيبة مع د. (لوسيفر) يوم اجتمعنا حول أوراق (التاروت).. ويبدو لي أنك عازف حقًّا عن زيارة (الولايات).. أحيانًا أراك تتصرف كالشيوعيين في مقتك لبلدي، ويضايقني هذا.. لكنّ ما من إنسان بلا عيوب، وعيبك هو أنك مخبول يا عزيزي (رفعت)..

لعلك تذكر أنني فارقتك على عزم جاد أن أذهب إلى الأم (مارشا) واسترد من عندها دمية (لندا).. صحيح أنها ستنكر مرارًا وستزعم أن الدمية ليست عندها، لكنّي - اصارحك - أنفر من هذه المراة ولا أثق بحرف واحد مما تقول[1].

لقد تعاملت مع القصة كلها بحذر ليس من عاداتي.. وقمت بما نصحني به د. (توسيفر) ذلك العراف الغامض: دعوت (جابرييل) إلى كأس من الشراب تم ـ دون أن يلاحظ ـ وضعت الكأس في كيس من الورق، وحملته إلى أحد أصدقائي في دائرة الشرطة، وطلبت منه أن يقوم بخدمة صغيرة لي؛ هي أن يتحقق من البصمات على الكأس ويقارنها بالبصمات التي وجدوها على خزانتي المسروقة..

ماذا تتوقع؟

كما قال (لوسيفر) بالضبط.. إن (جابرييل) هو سارق الخزانة و- بالطبع - سارق الدمية.. لقد تحقق أول جزء من نبوءته، ويبدو أنها ستكتمل قريبًا..

إن (جابرييل) وأمه يكذبان عليّ.. يلعبان بي.. ومعنى الكذب واللعب أنّ هناك شيئًا ما ليس على ما يرام.. وأن نية شريرة تبيت ضدى وضدّ زوجتي السبب لا يعلمه إلا الله...

لقد قررت أن أسترد الدمية بأي ثمن...

أعرف ما ستقول أيها المتراخي العجوز: تعقل.. افعل ولكن بحرص.. إلى آخر هذا الأسلوب السخيف الذي تحاول قتل حماسي به..

لكني قد بدأت بالفعل، وربما تصلك أخبار مهمّة في الخطاب التالي لي.. لكني انتظر مقترحاتك وآراءك التي تكون غالبًا صائبة، ربما لأن لك حكمة السلاحف وعمق تفكيرها.

بانتظار خطاب عاجل منك.

بإخلاص: هاري

* * *

القاهرة في ٣ مارس...

عزيزي هاري:

سرني أن أعرف من خطابك أنك حي ومتحمس كعهدي بك.. تتحمس لكل ولأي شيء في أي وقت..

أعرف أن كلامي سيصلك متأخرًا جدًا ولن يقدم أو يؤخر شيئًا، لكني اكرر نصيحتي الدائمة: تعقل.. افعل ولكن بحرص..

لماذا لم تستعن بالشرطة ما دام (جابرييل) هو من سرق خزانتك؟ ربما لأنك تخشى انتقامًا أو العبث بالدمية..

إن دليلك قوي لا يدحض.. لكني ما زلت لا أفهم سبب ما فعله.. إن الكلام الذي قاله د. (لوسيفر) عن دمية الدم وتحول الأم (مارشا) إلى حسناء شقراء مثل (لندا)، أمر غير مستساغ على الإطلاق، ويمكن القول إنني لا أصدقه البتة..

كل ما قاله (لوسيفر) كان هراء.. ومن جديد نعرف أن أحدًا لا يمكنه التنبؤ بالغيب.. ربما كان قادرًا على قراءة الأفكار - أتحدث عن (لوسيفر) - وهذا شيء أعترف به له لكنه عاجز تمامًا عن رؤية الغد..

آذن لا معنى للذعر هنا..

القصة ـ حتى الآن - لا تزيد على كون واحد من معارفك قد سرق خزانتك، وهو أمر يحدث كثيرًا ولا يثير القلق الميتافيزيقي..

لهذا يمكن أن نلخص الموقف في بضعة أسئلة:

١ - (جابرييل) هو سارق الخزانة.. فلم فعلها؟

٢ ـ كان يريد الدمية.. فلم يريدها؟

٣ - كان يعرف أنك ستقصده وأمه.. فلم أراد ذلك؟

٤ ـ أراده للحصول على قطرات من دمك.. فما الغرض؟

٥ - ماذا يستطيع ساحر (الفودو) أن يفعل بدمية وقطرات دم؟

هذه هي الأسئلة..

وأتمنى أن تحاول الرد عليها بشكل منظم، بدلًا من ممارسة هوايتك في الصراخ العصبي وركل الأبواب وتوجيه اللكمات وجذب الناس من ياقات قمصانهم...

أما عما تقوله عن رأيي في أمريكا؛ فأنا أحب الأمريكيين فرادى لكني أمقتهم سياسة! كل أمريكي ظريف ودود حين تعرفه على حده.. لكنّ حين يجتمع ثلاثة أمريكيين تكون عندنا (فيتنام) و(فلسطين) وما إلى ذلك، وعلى كل حال ليسن الوقت مناسبًا لهذا النقاش..

اكتب لي سريعًا جدًا..

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

تلهاسي في ١٠ مارس:

عزيزي (رفعت):

عندما كتبت لي خطابك السابق: كنت بالفعل قد زرت الأم (مارشا) في شقتها التي تقيم بها في حي فقير بالمدينة..

أنت تذكر شقتها ـ أو كوخها ـ في (كنجزتن).. حسن... لقد حولت العجوز شقتها هنا إلى نسخة أخرى من ذلك الكوخ، فما إن تدخل حتى تشم رائحة البخور الخانقة، وتسمع صوت جهاز التسجيل يبعث بموسيقا إفريقية تذكرك بأناشيد (الزولو) في السينما.. على الحائط رمح أو رمحان متقاطعان، وجلود نمور، وقناع إفريقي زاهي الألوان.

أما العجوز فهي كما تذكرها بالضبط.. شاخت أكثر، لكنّها ازدادت حيوية لو لم يكن في كلامي تناقض ما.. جالسة تدخن السيجار الكوبي قاتل الرائحة إياه، وتعابث أوراق (التاروت) بأظفارها المخلبية المصبوغة بالأسود.. وقد أضافت إلى قبحها قبحًا ببعض علامات الوشم على خديها، وقرطين عملاقين يذكراني بإطارات الشاحنات في أذنيها..

كانت الشقة ملأى بالشباب المهاجر من (الكاريبي) - تعرف أننا نسميهم (سبيكس) - بشعورهم الطويلة التي تم تضفيرها مئات الضفائر الصغيرة، وقمصانهم الزاهية اللون، وعلامات إدمان المخدرات أو الاتجار بها على وجوههم، دعك من عدائيتهم الواضحة للأمريكي أبيض نظيف الثياب بينهم.. وقد ناداني أكثر من واحد منهم بـ (أيها الفتى الجميل) وهي تحمل طابعًا واضحًا من السخرية والاستهانة.. كأنني لست كامل الرجولة مثلهم...

هذا هو ما يسموّنه بـ (العنصرية المضادة).. فنحن أسأنا معاملة السود كثيرًا، لهذا هم اليوم يتفاخرون بلون بشرتهم ويحتقرون كل ما هو أبيض باعتباره قذرًا ناعمًا شاحبًا أكثر من اللازم...

لكنني أدركت أن هؤلاء القوم يحترمون الأم (مارشا) كثيرًا، ويجلونها باعتبارها الأم الروحية لكل واحد منهم.. لم يكن من الممكن في هذه الظروف أن أعاملها بغلظة وإلا لمزقونى إربًا...

دعتني المرأة للجلوس، وجرعت جرعة هائلة من الزجاجة التي تضعها دومًا جوارها، وسألتني عن (لندا) فقلت لها إنها بخير..

ثم سألتها عن دمية (الفتيش) إياها، فقالت بصوتها الرفيع الغريب:

- «الدمية عند من سرقها أيها الأشقر..»

ابتلعت عبارة (ابنك هو سارقها أيتها الشمطاء)، وقلت:

- «كنت آمل أن يساعدنا سحرك على استردادها..»

- «لست بهذه القوة أبدًا.. لكنّ لماذا تبحث عن شيء لم يعد له خطر؟ إنني أضمن لك هذا..»

- «ما زلت غير مستريح..»

- «وأنا غير قادرة على تقديم عون أكبر..»

قالتها في لهجة حازمة ذكرتني بمدير مركز الحاسبات الآلية حين يرفض طلبي للحصول على علاوة..

قررت أن أكشف ورقي أكثر، فسألتها:

- «هل سمعت عن (دمية الدم)؟»

تبادلت - بعينها الصفراء - نظرة مع أحد الواقفين حولها، ثم قالت بحذر:

- «دمية الدم - يد المجد - الكوفيد.. كلها أشياء من تراثنا.. لكنني لا أمارس (دمية الدم) على كل حال لو كان هذا ما تعنيه..»

لكنّ لا بد أن رسالتي وصلتها كاملة غير منقوصة: أنا أشك فيها.. فكرت حينًا ثم قالت وهي تمتص سيجارها في جشع:

- «أنا بطبعي لا أثرثر.. لكنّ خطرًا داهمًا يترصد بك وبأسرتك أيها الأشقر.. خطرًا يبدأ بالدمية ولا ينتهي بها!»

* * *

- ٢ -

(بقية خطاب هاري)...

... قلت لها في عصبية، وقد بدأت الفرامل المتحكمة في روحي تتلف:

ـ «ما معنى هذا الكلام؟»

ـ «معناه: إذا تناولت عشاءك مع الشيطان، فلتأت معك بملعقة طويلة!»

ازددت عصبية، وصارت نبرتي عدائية تمامًا حتى إن الشباب المحيطين بها توتروا وغدت نظراتهم لي هجومية صريحة...

قلت:

- «كل هذا جميل.. لكنّها ـ كالعادة ـ تلك النبوءات الشعرية التي لا يمكن فهمها أو النجاة من محتواها.. هلا أوضحت أكثر؟»

فلمّا لم ترد عدت أسألها بصوت متهدج:

- «أين (جابرييل) على الأقل؟»

ـ «قد سافر أمس إلى (كنجزتن).. لو أردت اللحاق به هناك فستجد أنه لا يعرف الكثير..»

نظرت لها وإلى الجالسين والواقفين، وابتلعت خواطري السامة، ونهضت دون أن أحييها أو أشكرها.. لم أجرؤ على تهديدها لا لأنني خائف من (السبيكس) الواقفين حولها، ولكن لأنني لا أضمن ما قد يحدث للدمية إذا غضبت هذه المرأة.. إنها تملك الكثير في جعبتها كما هو واضح..

ومن هذا يتضح لنا ما يلي:

ـ نحن محقان بصدد وجود خطر يتهدد (لندا)..

ـ الدمية مع الأم (مارشا) هنا أو مع (جابرييل) في (كنجزتن)...

- من المستحيل الضغط على العجوز.. فهي لا تنوي الكلام على كل حال.

ـ هناك من سيتناول عشاءه مع الشيطان، ويبدو أنّ هذا الأحمق هو أنا.

ما رأيك يا (رفعت)؟ وبم تنصحني؟

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

ملحوظة ليست في الخطابات: سيلاحظ القارئ أن ردودي متأخرة جدًّا تصل (هاري) لتنصحه بعمل اشياء فات أوانها، وتجنب اشياء وقع فيها بالفعل.. فلو كنا نعرف البريد الإلكتروني وقتها لتمت الأحداث بصورة سريعة تدير الرءوس.. لكنّ كان هذا قدرنا..

* * *

القاهرة في ٢٠ مارس:

عزيزي (هاري):

هأنذا تعيدني إلى عادة نسيتها تمامًا، ونسيت أن البشر يمارسونها حتى اليوم: عادة كتابة الخطابات بانتظام.. إن المراسلة لذة يعقبها ندم ككل الآثام الأخرى: لذة تلقي الخطاب المغلق بأختامه وطابع الولايات المتحدة الأنيق عليه.. ثم الرائحة! ليتهم يصنعون عطرًا له رائحة الخطابات المغلقة... لقد فاتهم هذا حقًّا..

بعد هذا يبدأ الندم والشعور بالحسرة... إن عليك الرد على هذا الخطاب! ويتحول الأمر إلى كابوس مقيم، هم بالليل ومذلة بالنهار.. دعك من اللحظة الكريهة حين تدخل فر اشك لتتذكر في الظلام أنك لم ترد على الخطاب بعد.. تبًا! دعنا من هذا..

لقد أمضيت الوقت - حتى وصلني خطابك - في قراءة كتاب (الغصن الذهبي) لـ (فريزر).. وكنت أبحث عن كل ما يمكن قراءته عن الدمى المسحورة أو (الفتيش)..

يقول (فريزر) إن هناك في تاريخ البشريّة نوعين من السحر:

السحر بالاقتران.. وفيه يرمز الجزء إلى الكل.. فقصاصة ملابس أو خصلة شعر تغني عن الشخص كله..

أما السحر بالتقليد فيقوم على اصطناع دمية تشبه الشخص المراد سحره، ويقوم الساحر بوخزها بالإبر مرارًا، أو يحرقها على النار سبع ليالي متواصلة حرقًا غير كامل.. وفي الليلة الثامنة يلقيها في اللهب فيموت الشخص المقصود..

على أن نوعي السحر يمتزجان أحيانًا كما في (الملايو)، وكما شاهدنا في (جامايكا)؛ حيث يتم استعمال دمية بها شعر رأس الشخص المراد التخلص منه..

لقد ظل هذا الأسلوب السحري - ونحن لم نعد مع (فريزر) هنا - سائدًا في الوجدان الجمعي البشري منذ عهد الفراعنة حتى اليوم.

وفي (طيبة) القديمة كانوا يساعدون (رع) - الشمس - على البزوغ، عن طريق صنع دمية شمعية لعدوه التمساح (أبيب) يطعنها الكاهن بمدية ثم يلقيها في النار.. وقد ساد استعمال التماثيل الشمعية في فرنسا في القرن السادس عشر مع المنجم (كوزموروجيري)، ويقال إنّه صنع تمثالًا لـ (شارل التاسع) وأذابه في النار فمات الملك بعدها بيوم (كان هذا عام ١٥٧٤)..

وثمة قصص مماثلة من انجلترا لا يتسع المجال لذكرها.. فكلها تتشابه على كل حال..

لقد كان صنع التماثيل الشمعية مبررًا كافيًا لحرق صانعها بتهمة السحر، وهذا على فترات طويلة من التاريخ..

والسؤال الآن: هل يستطيع سحرة (الفودو) ممارسة أسلوب الدمى بشكل ناجح؟

لقد رأينا جزءًا من هذا النجاح حين قامت (لندا) - عن إهمال - بترك دميتها مع (جيمي) الصغير، وقد حاول هذا الأخير انتزاع ذراع الدمية فأحست (لندا) كان هناك من يمزق ذراعها..

إن سحرة (الفودو) لا يمزحون...

ولقد قرأت بعض الشيء عن تاريخ عقيدة (الفودو)، فعرفت أنهم يمثلون المذهب (الودوني)، وهو مذهب وثني كان سائدًا في غرب إفريقيا:. فلمّا جلب الأبيض معه الرقيق إلى الولايات المتحدة: جلب معهم عقيدتهم الدينية التي تمتزج اليوم بالكاثوليكية في مزيج غريب لا يمكن أن

نجده إلا في (الأنتيل).. وهو نفس المزيج الغريب الذي نجده لدى (السيخ) في الهند حين مزجوا الإسلام بالهندوسية..

هكذا انتشر رقيق غرب إفريقيا في جزر (الأنتيل)، وكان أكثرهم ممن يتحدثون باللغة (اليوروبية)[2]...

ومن المبالغة أن نقول إن كل سحرة (الفودو) أشرار فجرة.. فمنهم عدد لا بأس به يمارسون السحر لاتقاء شروره لا أكثر..

أما الأشرار منهم - وهذا ما يُقال - فيهوون ممارسة إحياء (الزومبي).. ولو أحب الساحر الشرير فتاة وأبت أن تكون له، فإنّه يسحرها بتعاويذه حتى تتحول إلى (زومبي) خاضع له..

وكذا يهوى بعض هؤلاء السحرة صنع زومبيين يعملون في أرضهم دون أجر..

والان نعود لمشكلتك التي تبغي رأيي بصددها..

أنت تعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد.. ولا يمكن القبض على لص إلا بمعونة لص.. لهذا أرى أن تلجأ إلى معونة واحد ممن يفهمون هذه السخافات.. ماذا عن (سام كولبي) النصاب اليهودي إياه؟ أعتقد أنه غادر مصحة الأمراض العقليّة بعد محاولة اغتيال أسرة المذءوبين بأسرها.. لماذا لا تحاول الاتصال به؟ هو - كالعادة - سيتظاهر بأنه يعرف كل شيء وخبير في الموضوع.. لكنك ستنجح في معرفة الشيء الوحيد المهم في كلامه: من الذي يفهم في هذه الأمور حقًّا؟

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

تلهاسي في ١٣ مارس:

عزيزي رفعت:

لم أستطع الانتظار حتى أتلقى ردك على خطابي السابق - بتاريخ ١٠ مارس - كي أكتب لك ما استجد في القصة..

لقد خطر لي خاطر مهم.. من العسير القبض على لص إلا بمعونة لص.. وكان أول من فكرت فيه هو ذلك النصاب اليهودي (سام كولبي) ذو البروستاتا المتضخمة.. لم لا؟ هو لن يملك الحل، لكنه يعرف من يملك الحل... ثم إنّه - حتمًا - قد غادر المصحة العقليّة بعد محاولته اغتيال أفراد أسرة (هالبروك)...

أراك تهز رأسك قائلًا: يا لك من أبله يا (هاري)! لكن قل لي بربك ماذا بوسعي أن أفعل وقد أحالت الدمية اللعينة حياتي جحيمًا؟ وهكذا بحثت عن اسمه، وأجريت بعض اتصالات حتى وجدت، رقم هاتفه في (نيويورك)..

طبعا لم يتذكر من أنا.. وحتّى حين قلت له إنني صاحبك لم يبذ متذكرًا لك أصلًا.. الشيء الوحيد الذي تذكره هو شكل ورائحة الدولارات حين قلت له إنني راغب في استشارة عاجلة..

حسن.. لن أطيل عليك.. لقد حكيت له كل هذا السخف... دمية صنعها سحرة (الفودو) لزوجتي.. سارق الدمية ينكر.. إلخ.. لقد تذكر الأمر تدريجيًا.. فهو كان جالسًا معنا حين كان د.(لوسيفر) يقرأ طالع، وعلى ما أذكر لم يذهب لدورة المياه قط (بسبب البروستاتا كما تعلمون)..

قال لي بصوته المميز العجيب:

- «.. إنك في مأزق يا صديقي.. فحين يكذب ساحر (الفودو) عليك يكون هذا الغرض مخيف في نفسه..»

- «كل هذا جميل.. لكني أتوقع نصحًا ما..»

- «للأسف أنا أمارس السحر العادي.. سحر الرجل الأبيض.. لا أفهم كثيرًا عن العقائد الودونية هذه.. لكنني أستطيع معاونتك بأن أخبرك باسم ساحر (فودو) لا بأس به..».

- «هذا هو ما أتوق إليه..وأتوقع - بالضرورة - أنه ليس نصابًا كالآخرين..»

طبقًا لم يفهم هذا التلميح.. فأنا أعتبره من (الآخرين).. وقال لي وهو يحرك بعض الأوراق قرب السماعة مما جعلني أدرك أنه يقلب صفحات مفكرة ما:

- «لنر.. (ماريانا بوجادو)..»

- «امرأة أخرى؟ ومن أين هي؟»

- «إنها من (بورت ريكو).. وهي زميله قديمة في المهنة، جاءت إلى الولايات منذ خمسة أعوام.. تقيم في (نيويورك) ويحبّها أهل (الكاريبي) المهاجرين هنا كثيرًا.. يقولون إنها ساحرة شكلًا وموضوعًا.. قل لها إنك من طرفي....»

وأملاني رقم هاتفها فكتبته، وشكرته كثيرًا..

إن المكالمات الهاتفية توشك على إنهاء مدخراتي القليلة، لكني تحاملت لإجراء المكالمة الأخيرة..

سمعت جرس الهاتف يدق طويلًا، ثم سمعت صوتًا ساحرًا يسأل عن المتكلم.. إنها (ماريانا)..

صوت يختلف كثيرًا عن صوت غطاء التابوت الخاص بالأم (مارشا).. فيه رقة وعذوبة مع لكنة أسبانية لاتخطنها الأذن..

- «أنا (هاري شيلدون)..»

ضحكت في دلال ضحكة كتغريد البلابل، وقالت:

- «نعم.. نعم.. أعرف يا مستر (شيلدون).. والأمر يتعلق بالدمية طبعًا.. لماذا لا تركب أول طائرة إلى (نيويورك) كي نعالج المشكلة معًا؟»

هنا سقط قلبي في أسفل بطني..

كيف عرفت؟ لقد أنهيت مكالمتي مع (كولبي) منذ ثلاث دقائق فمن المستحيل أن يكون قد اتصل بها بهذه السرعة..

إنها تعرف كل شيء..

هذه المرأة تعرف كل شيء...

* * *

- ٣ -

(.. ومازلنا مع خطاب (هاري)..)

ولهذا يا (رفعت) تجدني أحزم حقائبي، وأستعد للطيران إلى (نيويورك).. لن يصلني ردك على خطابي السابق إذن، لكني أرجو أن تراسلني في (نيويورك) على العنوان التالي:.....

بالطبع اصطحبت معي (لندا) و(جيمي).. فمن الحمق تركهما وحيدين في (فلوريدا) على بعد مرمى حجر من (الأنتيل) بكل ما فيه من (فودو) و(زومبي) ودمى وهياكل عظمية وأمهات (مارشا).. سألقى (ماريانا) هذه.. ولعلها تنهي دوامة القلق التي أعيشها.

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

القاهرة في ٢٣ مارس:

عزيزي (هاري):

خطابان في أربعة أيام! هذا يفوق أي معدل عرفته الكتابة الخطابات.. والسبب هو سيل الخطابات الذي تحاصرني به..

وصلني خطابك الثاني اليوم، ووجدت أنك - كالعادة - فعلت ما نصحتك به قبل أن تعرف ما هو..

لا أحب كثيرًا ما بدأت تنزلق إليه من تورط مع المشعوذين، لكني أفهم قلقك على أسرتك.. أفهمه وأقدّره...

لكن لا تنبهر بـ (ماريانا) هذه كثيرًا.. إن (كولبي) نصاب لا يعرف سوى النصابين، ومن أدراك أنها لم تكن جالسة معه تصغي لمكالمتك في أثناء حديثك؟ من أدراك أنه لم يجر معها مكالمة سريعة قبل اتصالك يشرح لها مشكلتك؟ هذا ليس عسيرًا ويؤدية المشعوذون في ريفنا المصري ببراعة لا مثيل لها، وحين تدخل (المريضة) إلى المشعوذ تكتشف - في دهشة - أنه يعرف اسمها ومشكلتها وربما اسم خالتها أيضًا...

لن أطيل عليك..

أرسل لي خطابات عديدة دون انتظار رد مني.. فأنت من يقود العربة لا أنا.. ودوري لا يزيد على الانفعال والحماس؛ فلا تضيع الوقت بانتظار (جودو الذي لا يجيء).

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

نيويورك في ٥ ابريل:

عزيزي (رفعت):

بناء على موعد هاتفي، استقللت سيارة أجرة مع (جيمي) و(لندا) لنلقى ساحرة (الفودو) الجديدة هذه، وهي تعيش في (بارك أفينيو) على بعد مرمى حجر من الشقة التي حضرنا فيها الحفل إياه مع (سام كولبي).. فكأن (بارك أفينيو) هو حي السحرة في المدينة...

قالت (لندا) وهي ترمق البناية:

- «لا تبدو لي مسكونة بالأشباح على كل حال..»

وسألني (جيمي) في حماس:

- «بابا.. هل يحتفظون بمصاصي دماء في القبو؟»

قلت وأنا أنقد سائق السيارة ماله:

- «أرجو ألا يكون هذا صحيحًا والا كنا في مشكلة حقيقيّة..»

وغادرنا السيارة نتشمم الهواء البارد الغريب المميز لليل (نيويورك).. إن شقق السحرة ليست بالمكان الذي يصطحب المرء أسرته إليه لكنّ الظروف كانت غير عادية كما تعلم..

ما إن دخلنا حتى وجدنا شقّة فسيحة تفوح في هوائها رائحة عطر شديدة الجاذبية، وعلى الجدران لوحات فنية حديثة أكثرها للفنان (أندي وارهول) ملك (البوب آرت) الذي تخصص في الطباعة بالشبكة الحريرية.. إن مزاجهم السحري عصري حقًّا هنا..

كان هناك جهاز (ستريو) يذيع أغاني اسبانية، وسكرتيرة شقراء تتصفح مجلة نسائية، فما إن رأتنا حتى تهلل وجهها وسألتنا عما إذا كان هناك موعد فأجبت أن نعم..

كان الخاطر المزعج الذي يؤرقني هو: هذه الفخامة والسكرتارية إلخ... كل هذا له ثمن.. والثمن يدفعه الحمقى حين تصلهم الفاتورة..

جاءت السكرتيرة تدعونا للدخول إلى غرفة الكاهنة العظمى. فتبعناها إلى قاعة فسيحة تملؤها إضاءة زرقاء باردة كأنها ضوء القمر..

ورائحة العطر تتزايد حتى أدركت أنّ هذا مصدره.. كنت قد وصلت إلى قراري النهائي.. (ماريانا بوجادو) نصابة تحاول خلق جو من الإبهار حولها.. مع الام (مارشا) تشعر بجو عملي جاد - لو كنت تفهم ما أعنيه - يوحي بالثقة.. ليس حول المرأة إلا كل ما هو ضروري أو مفيد لها.. لكنّ مع (ماريانا) هذه تشعر بجو حواة السيرك ونزعتهم الاستعراضية..

راحت عيناي تمسحان نباتات الظل.. غابة من نباتات الظل تحيط بالمكان، على حين تتناثر على الأرض مجموعة من الطنافس.. وعلى الجدران بعض الأقنعة الإفريقية القميئة إياها..

كانت (ماريانا) جالسة القرفصاء فوق وسادة ما، أمامها - كالعادة - بللورة سحرية هائلة الحجم، ومبخرة تطلق عبقًا غامضًا في المكان.. وجوارها شيء يشبه النافورة الصناعية تتدفق المياه - بلا توقف.. من فم سمكة قرش متلوية في أعلاها، التتدحرج فوق عرائس البحر، ثم تتجمع لتكرر دورتها من جديد...

- «اجلسوا يا أصدقاء..»

قالتها بصوتها الأملس الرقراق فجلسنا حولها، وكان أكثرنا حماسًا هو (جيمي) العزيز الذي راق له كل هذا.. إنّه يرى كل هذه الأمور في التلفزيون وسره أن يراها على الطبيعة، والملاحظ أن إفزاع أطفال اليوم صار مستحيلًا.. كلما زاد كم الرعب كلما ازدادوا حماسًا وسرورًا..

جاء دور (ماريانا) في الوصف..

حسن.. لقد كانت ساحرة.. ساحرة في كل شيء.. وكان لها ذلك الجمال الباهر الذي كانوا يحرقون النساء بتهمة السحر من أجنه في (ماساتشوسيتس).. كانت سمراء ككل شعوب (الكاريبي) لكنّها مخلوقة فاتنة.. لا يوجد ما أقونه أكثر.. يجب أن تراها لتفهم..

كلا.. لم تكن ترتدي ثيابًا خليعة وترقص حول النار، ولم تكن ترتدى جلد نمر وتلوح برمح.. كانت فتاة جميلة في الخامسة والعشرين من عمرها، ترتدي تايورًا أسود محتشم، وتجلس متربعة بأناقة القط فوق وسادة، وتأكيدًا للصورة كان ينعس جوارها قط إيراني ضخم..

كان أول ما قلته عمليًا جدًّا:

- «ماذا عن الأتعاب؟»

ابتسمت فالتمعت عيناها الزرقاوان سرورًا، وقالت:

- «انت لا تترك لي فرصة للترحيب بكم يا مستر (شيلدون).. إن الأمر هين على كل حال.. ولن نختلف..»

- «أرجو ألا أضايقك، لكني سمعت هذه الكلمة من ميكانيكي سيارتي ومن السباك ومن الطبيب مرارًا.. وفي كلّ مرّة يتضح لي أن الأمر لم يكن هينًا قط وأنني أحمق.. لهذا تجدينني أصر على إيضاح نقطة كهذه قبل البدء في شيء..»

التمعت عيناها الزرقاوان أكثر فأكثر في وجهها الأسمر، وقالت بنفس النبرة العذبة الرقراقة:

- «أحتاج إلى قطرات من دمك تمنحها بكامل إرادتك!»

.....!

* * *

- ٤ -

(ما زلنا مع (هاري) كما تعلمون..)

كان هذا أكثر مما يمكن احتماله يا (رفعت)، وأعتقد أنك موافق على ذلك.. لا أدري السبب، لكنّ دمي صار سلعة مرغوبة جدًا في هذه الأيام.. كل سحرة (الفودو) يرغبون فيه..

نهضت في عصبية كما لك أن تتوقع، وصحت:

- «يبدو لي أنني وقعت في دعابة سخيفة.. إنني....»

في شمم هزت رأسها لتزيح شعرها الأسود المجعد عن عينها اليسرى، ورفعت ذراعًا أمرة:

- «أجلس من فضلك!»

كدت أواصل المشي للباب، لكنّها كررت تحذيرها:

- «لو غادرت هذا الباب فلن تعود إليه!»

بدأ التردد يراودني أمام كل هذه الثقة، وعدت لها وتبادلت نظرة حيرى مع (لندا)، ثم قلت:

- «بالطبع لن تفسري لي سبب حاجتك إلى دمي، باعتبار هذا ليس من شأني؟»

- «أنت محق.. إن الفضول عادة مقيتة حقًّا..»

ثم اردفت وهي تعود لاسترخائها:

- «أعلم أن لك تجربة سابقة في هذا الصدد.. لكن (ماريانا) تحتاج إلى الدم لأسباب تختلف عن أسباب الأم (مارشا).. يجب أن تثق بهذا وأن تمنحني ما أريد في تسليم.. إن التصديق في الطبيب يمثل ثلاثة أرباع العلاج..»

تنهدت.. وقلت لها:

- «أنا موافق..»

صاحت (لندا) في احتجاج، لكني كنت قد اتخذت قراري.. خذوا دمي كله يا مصاصي الدماء واتركوا زوجتي وابني سالمين..

وهكذا تكرر المشهد السابق بحذافيره.. الكأس.. نصل السكين.. الجرح في كفي.. ثم قطرات الدم تنساب في الكأس.. لكنّها في هذه المرّة ضمدت جرحي بشريط لاصق طبي بعد تنظيفه بمادة مطهرة، وهو ما يختلف عن أسلوب الأم (مارشا) القديم: الكتان المغموس بالزيت..

ثم إنها قالت لي وهي تضع الكأس على المنضدة وتعود لجلستها:

- «هانذا قد دفعت الثمن مقدمًا.. وهو ما يدل على ثقة بالغة في شخصي المتواضع، فما من مشتر يدفع ثمن شيء قد حصل عليه فعلًا.. وما من بائع يمنحك شيئًا دفعت ثمنه فعلًا...»

ثم نهضت برشاقة، وخطت فوق القط النائم.. متجهة إلى خزانة في الجدار لم الحظ وجودها قبل هذه اللحظة، وراحت تبحث عن شيء ما.. في ذات اللحظة شعرت ب(لندا) تجذب كمي بعصبية هامسة:

- «البللورة! أنظر إلى البللورة!»

نظرت إلى البللورة السحرية العملاقة على الأرض أمامنا، وكانت تعكس صورة مشبوهة للقاعة من ورائها.. تعرف هذه الصور شديدة الزيغ التي تراها عبر المنشورات والعدسات.. لكنّ القاعة

كما بدت في البللورة كانت تختلف كثيرًا عما نراه بعيوننا.. كانت القاعة حمراء تمامًا، وكانت (ماريانا) التي أعطتنا ظهرها وهي تنقب في الخزانة، ذات لون أخضر تمامًا.. وخيل لي كأن ذيلًا يتدلى من مؤخرتها!

نظرت إلى (لندا) نظرة ذات معنى، وقلت مقاومًا شعور بالغثيان:

- «خداع بصر! كل هذا خداع بصر!»

ثم بصوت عالٍ سألت الساحرة الحسناء:

- «هل تستعملين هذه البللورة أحيانًا؟»

قالت دون أن تنظر لي:

- «بل دائمًا.. إن لاستعمالها عدة مستويات.. أحيانا أرى فيها الغد، وأحيانًا أرى فيها الأشخاص الغائبين.. وأحيانًا أستعملها كجهاز أشعة يريني حقيقة الجالس أمامي!»

جهاز أشعة! هل هذه حقيقتك إذن يا (ماريانا) الحسناء؟ هل أنا مستجير بالرمضاء من النار؟

عادت لنا وهي تحمل صينية فضية عليها عدة أشياء.. ويبدو أنها لاحظت امتقاع وجهينا، فقالت وهي تتربع على وسادتها:

- «لا تصدقا البللورة دائمًا.. فهي تكذب على الغرباء!»

ربما البللورة تكذب.. ترى هل تكذبين كذلك يا (ماريانا)؟ لكنّ موضوع البللورة هذا بعث بعض الراحة في نفسي.. إن هناك أمورًا غامضة رهيبة ها هنا.. فلربما ليست (ماريانا) نصابة برغم كل شيء..

تناولت (ماريانا) من الصينية دمية خشبية سوداء اللون.. يبدو أنها صنعت من الأبنوس، ورفعتها أمام عيوننا.. ثم قالت:

- «ها هي ذي دمية تصلح..»

وبيد رشيقة قامت بتثبيت خرقة صغيرة على رأس الدمية، وما يشبه القرطين الصغيرين في أذنيها، ثم ألبستها ثوبًا زاهي الألوان.

- «مثل (باربي)!»

كان هذا صوت (جيمي) الصغير الذي كاد يموت استمتاعًا بما يحدث، والحق أنه دقيق في كلامه... فالأمر كله يذكرني بالألعاب التي تمارسها البنات مع الدمى.. ما هو المقصود من هذا كله؟

ثم تناولت (ماريانا) قطعة من الورق المقوى، ثبتت عليها خصلة من الشعر الأشيب، بقطعتين من شريط لاصق.. وقالت:

- «شعر من هذا؟»

صحت وقد بدأت أفهم.

- «لا تقولي إنّه شعر الأم (مارشا)!»

- «هو بعينه!»

- «وكيف حصلت عليه؟»

قالت في بساطة وهي تنتزع الشريط اللاصق:

- «بكثير من العسر طبعًا لأن ساحرات (الفودو) لا يقصصن شعورهن أبدًا.. لكني كنت حريصة على اقتناء أكبر مجموعة من شعور وأظفار كل من أتوقع أن أحتاج إلى إيذائهم.. لديَّ هنا

عينات من ثلاثمائة شخص، وقد حصلت على خصلات الشعر هذه بالبريد من (كنجزتن) بعدما دفعت مبلغًا باهضًا، وهأنذا استعملها أخيرًا!»

ثم شرحت لي أن السحر عمل إيجابي هجومي.. أما (التابو) فعمل سلبي دفاعي.. الساحر يريد الشعر ليمارس عمله.. لذا تحتم تقاليد (التابو) أن يحرص المرء على عدم قص شعره أو أظافره، فإن فعل فعليه التأكد من التخلص من فضلاته هذه..

إن السيدات العجائز في كل مكان بالعالم - وحتّى في (مصر) عندكم - لا زلن يحرصن على التخلص من الأظفار والشعر في المرحاض.. ليس هذا سوى إحياء لمعتقد (التابو) العتيق الذي تجده بوضوح لدى القبائل البدائيّة..

الخلاصة: هي أن الحصول على خصلة شعر من الأم (مارشا) لمعجزة..

وهنا يجئ السؤال المنطقي:

- «إذن أنت تصنعين تمثالًا للأم (مارشا)؟»

- «بالتأكيد..»

تقولها وهي تلف خصلة الشعر حول رأس الدمية.. فسألتها:

- «تريدين إيذاءها؟»

- «طبعًا.. بل وقتلها..»

- «والسبب؟».

- «كي لا تؤذي أو تقتل زوجتك.. أليس هذا ما تريد؟»

ابتلعت ريقي، وبدا لي هذا الحل جذريًا أكثر من اللازم، فعدت أسألها:

- «هل لا يوجد حل آخر؟»

- «على قدر علمي.. لا يوجد..»

نظرت إلى عينيها الزرقاوين الصريحتين. وعدت أسألها للمرة الرابعة:

- «وهل تعلمين تفاصيل لا أعلمها عن الموضوع؟»

- «طبعًا.. هذا عملي..»

ومدت يدها لخصلات شعرها المجعدة، وانتزعت شيئًا طويلًا لامعًا سرعان ما فهمت أنه دبوس شعر من طراز غير مألوف.. يشبه السيف الصغير إلى حد كبير..

وبيد ثابتة واثقة غرسته في صدر الدمية.. كيف يخترق الدبوس الخشب الذي صنعت منه الدمية؟ ثم أدركت أنها بالتأكيد ليست خشبية.. لا بد أنها من الفللين المطلي بلون أسود لامع..

طعنة نجلاء في الضلوع: فلو كان كل هذا الهراء صحيحًا فلا بد أن الأم (مارشا) تعتصر صدرها الآن صارخة..

سألت (ماريانا) وأنا متحمس كالأطفال:

- «هلا.. إنني أعابثها توطئة لأن أحرق الدمية نهائيًا..»

سألتها (لندا) في هلع، وكانت قد بدأت تقتنع بالأمر كلية:

- «ولماذا لا تنهين الأمر مرة واحدة رحمة بها؟»

ابتسمت الفتاة في خبث فبدت فاتنة كما لم تكن منذ رأيتها:

- «هذه هي تقاليد (الفودو).. القط يلعب بالفأر مدة طويلة قبل أن يلتهمه..»

- «وهل ستعرف أنك صاحبة التأثير السحري الضار؟»

- «من العسير أن تخمن.. فأنا غير مشهورة مثلها، ولم نلتق قط.. لكني أعرف كل شيء عنها، وأعرف أساليبها.. لسوف تحاول تجريد دميتها من السحر، لكنّها لن تستطيع... إن مدرسة (بورت ريكو) أقوى بكثير من مدرسة (جامايكا) في (الفودو)..»

ثم بلهجة آمرة:

- «تستطيعون الانصراف هادئي البال.. لقد تم كله شيء..»

واتجهنا إلى الباب شاعرين بما يشعر به زبون الحانة الثمن حين يطرد في آخر الليل، فيمشي في الطرقات الباردة عاجزًا عن تذكر اسمه أو مكانه أو اتجاهه.. فقط يعرف أن ليس على ما يرام...

هنا دوى صوتها من جديد:

- «مستر (شيلدون).. أرجو أن تعود لي بعد ما تطمئن إلى أن زوجتك وابنك في الفندق.. ثمّة أمور لا بد من توضيحها، لكنّ ليس أمامهما!»

هززت رأسي في استسلام؛ وأغلقت الباب..

ليل (نيويورك) البارد له رائحة الطهر بعد هذا الجو الغريب..

أشير إلى سيارة أجرة، فأفتح الباب لـ (لندا) و(جيمي)، وأترك لهما بعض المال، ثم أستعد للعودة إلى الساحرة..

تقول لي (لندا) في عصبية:

- «ماذا تريد هذه الشيطانة منك؟»

قلت وأنا أغلق باب السيارة:

- «لو كنت أعرف لما عدت...»

- «إذن خذ الحذر.. إن هذه المرأة لا تريحني... إنها....»

وصمتت.. لكني فهمت ما تريد قوله..

المشكلة هي أن (ماريانا) جميلة جدًّا.. جميلة من الطراز الذي يتحول الرجال أمامه إلى اطفال امام لا يفقهون شيئًا.. جميلة قادمة من نفس المسبك الذي جاءت منه (سالومي) و(ماتا هاري) و(دليلة) وكل الأخريات اللواتي قهرن أقوى الرجال بسحرهن.. قلت لها وأنا أستدير مبتعدًا:

- «كنت أظنك تعرفيننى جيدًا!»

- «بل أنا أعرفك جيدًا.. لهذا لا أشعر بأية راحة!»

وابتعدت السيارة.. ترى ماذا كانت تعنيه بكلماتها هذه؟

* * *

ومن جديد أعود إلى القاعة الفسيحة التي غمرها الضوء الأزرق كأنه بدر صناعي، واشم تلك الرائحة...

على الوسادة كانت جالسة تداعب قطها الإيراني البدين.. عجبًا! لشد ما تشبه الحيوانات البشر! هذا القط بدا لي كثري خامل ثقيل الظل وهو ينعس جوارها في غباء..

قالت حين رأتني عائدًا:

- «تعال يا مستر (شيلدون) وانظر معي إلى البلورة.. ولكن لا تخف مما تراه!»

* * *

- ٥ -

(لم ينته خطاب (هاري) بعد..)..

رحت أحملق في البللورة فلم أر شيئًا.. فقط تلك الانكسارات الضوئية المألوفة التي يعبثنا الزجاج بها حين لا يجد شيئًا آخر يفعله...

قالت وهي تنهض من على الأرض:

- «لا تقنط.. استمر في تأمل الزجاج وفكر.. فكر في زوجتك.. وفي طفلك..»

كانت تمشي على الأرض حافية القدمين، ولاحظت أن أظفار قدميها طويلة جدًا كالمخالب، وقد طلتها بلون أزرق فاقع..... وأثارت هذه الملحوظة شيئًا من التقزز في نفسي.. فهد آدمي.. هذه المرأة فهد لا امرأة..

رحت أتأمل البللورة في صبر، حين سمعت رنين كأس.. ولمحت يدها تمتد لي من فوق كتفي بكأس مترعة بسائل أزرق..

تناولت الكاس وتشممت هذا الشيء.. على قدر علمي لا يوجد مشروب أزرق في الكون؛ ولا اعتقد أن هؤلاء القوم يشربون الحبر...

سألتها بعيني عن محتوى الكأس، فقالت وهي تعود لجلستها حاملة كأس مماثلة:

- «هذا سر من أسرار (بورت ريكو).. لكنّ لا تخف.. ليس به ذيل سحلية ولا جناح خفاش..»

رشفت رشفة.. كان عطرًا قليلًا ومذاقه ليس رديئًا.. ربما هو أقرب شيء إلى الشاي المكسيكي بالليمون، وهذا ـ بالطبع ـ لن يقرب مذاقه لذهنك يا عزيزي لأنك لم تذق هذا ولا ذاك..

قالت لي وعيناها تلتمعان:

ـ «أنت تحب أسرتك يا مستر (شيلدون)..»

ـ «مثلما تحبين أنت أسرتك.. هل أنت متزوجة؟»

رشفت رشفة من كأسها، وقالت:

- «لا.. إن بعض الساحرات يستمددن قواهن من عدم الزواج.. مثلما كانت كاهنات (دلفي) قديمًا.. ولهذا لم ولن أتزوج..»

ـ «يا للخسارة! لقد خسر كثيرًا..»

- «من؟»

- «زوجك الذي لن تتزوجيه..»

ضحكت قليلًا وقد راقت لها الدعابة، ثم عادت الجديّة إلى ملامحها وأمرتني بإعادة تأمل البللورة..

بضع دقائق من التركيز ثم بدأت أرى أشياء..

كانت خيالات ربما ولدها إرهاق عيني.. أنت تعرف النصائح التي يسدونها لمن يبتاع بللورة سحرية من تلك المحلات في (هارلم).. يقولون له أن يتدرب بضعة أشهر على الحملقة في كوب مليء بالحبر، ويحاول أن يرى فيه أشياء.. بعد هذا تكون البللورات شيئًا مألوفًا له..

أعتقد أنها مجرد طريقة للإصابة بالخبال.. وعندما تصاب بالخبال يغدو من السهل أن ترى أي شيء في البللورة.. من (آشور بانيبال) حتى زوج خالتك..

حسن.. أعتقد أنّ هذا هو ما حدث معي..

لقد رأيت الأم (مارشا) العزيزة تأخذ قطرات دم من يدي وتضعها في كأس.. ثم رأيت (جابرييل) يقف أمامها في رهبة كعادته معها، بعدها رأيت (مارشا) تمسك بدمية (لندا) إياها التي سرقها ابنها من داري، وممسكة بإبرة دقيقة راحت تغرس فيها اشياء لم ادر كنهها.. تغرسها في الصدر والبطن والأطراف..

بعد هذا أمسكت بمحقن ودست الإبرة في الكأس، وشفطت بضع قطرات من دمي، ثم حقنتها في رأس الدمية بحذر شديد...

انتقلت الكاميرا بحركة (ترافلنج) بطيئة جدًّا لتظهر لنا وجه (جابرييل) يبتسم ابتسامة شيطانية.. دقيقة جدًا هذه البللورة حتى إنني توقعت سماع موسيقا تصويرية رهيبة في أية لحظة..

فتحت فمي لأقول:.
- «ولكن ما معنى هذا الطقس؟»
فما إن وصلت إلى حرف (العين) في جملتي حتى تبددت الصورة كماء جدول ألقيت فيه حجرًا.. وسمعت (ماريانا) تطقطق بلسانها، وتقول لائمة:
- «كان يجب أن تصمت.. إن هذه الرؤي حساسة جدًا. وسريعة الذوبان..»
كنت أرتجف هلعًا، فالأمر كان له مذاق كريه غريب.. وحين تمالكت نفسي سألتها:
- «ما.. ما معنى هذا بحق السماء؟»
اتكأت على مرفقها الأيسر، وراحت تداعب القط الممل في استرخاء، ثم قالت بلهجة هادئة رزينة:
- «هذا هو ما تم بعد مغادرتك شقّة الأم (مارشا) في (فلوريدا).. لقد قدمت لها دمك عن طيب خاطر.. وهذا الدم الممنوح برضا هو ما كانت تحتاج إليه كي تحكم قبضتها على صاحبة الدمية، فالمفترض أن يكون صاحب الدم ذا علاقة روحية وثيقة بمن تمثلها الدمية، وأن يمنح دمه لساحر (الفودو) عن طيب خاطر وبلا إرغام.. وهذا ما يجعل الأمر شبه مستحيل.. لهذا يلجأ السحرة إلى الخداع والكذب..»
- «وكيف يمكن وقف هذا المفعول الرهيب؟»
ابتسمت وأشارت إلى دمية الأم (مارشا) إياها، وكانت قد وضعتها فوق رف خاص.. وقالت:
- «بقتل الساحرة طبعًا.. هل نسيت ما جاء بالعهد القديم؟ (لا تترك ساحرة تعيش).. سفر الخروج - الإصحاح ٢٢ - آية ١٨»
قلت وانا ابتسم بر غمي:
- «لو تم الالتزام بما جاء في العهد القديم لكان على أن أبدأ بقتلك أنت.. فأنت كذلك ساحرة..»
- «لو قتلتني لما علمت ما تعلمه الان.. ولما تفاديته..»
رأسي مزدحم بالأسئلة لكنّ هذه المرأة تتكلم بالقطارة.. لذا حاولت ترتيب ما أريد الاستفسار عنه في نقاط:
- «لقد مر زمن طويل منذ زرت الأم (مارشا) ومنحتها دمي، فلماذا لم يحدث شيء حتى الآن؟»
- «يحتاج الأمر إلى أشهر من المعالجات الخاصّة.. ولا أظنك متضايقًا لتأخير الكارثة..»
- «كيف ولماذا تريد. الأم (مارشا) إحكام قبضتها على (لندا)؟»
نهضت في رشاقة، واتجهت إلى الجدار.. رأيتها تفتح خزانة موصدة فتتناول منها عددًا من الشموع السوداء.. ثم بوساطة عود ثقاب أشعلت واحدة منها، وثبتتها في شمعدان سباعي فضي.. ثم واصلت غرس وإشعال باقي الشموع..
قالت وهي تواصل عملها كأنه روتين ممل:
- «لأنهّا تريدها لابنها (جابرييل)! إن الفتى بحاجة إلى زوجة أمريكية بيضاء، ومن المصادفة أنه يحبّ زوجتك منذ رآها أول مرة في (جامايكا).. دماءك التي في رأس الدمية ستبدأ في الغليان ولن تطيق (لندا) أن تراك، بل ستهرع لتكون خادمة (جابرييل) وجاريته وزوجته..»
- «كذب!»



بعـدها رأيت (مـارشـا) تمسك بدمـيـة (لندا) إياها التى سرقها ابنها من دارى ..

صرخت وأنا أثب على قدمي محنقًا، عازمًا على تحطيم رأس أي إنسان أجده.. فلمّا لم أجد ركلت - للأسف - القط ثقيل الظل.. فأصدر أنينًا غريبًا.. لست من هؤلاء العصبيين الحمقى لكني شعرت للحظة بأنني أفهم كل ما يقولون عن القطط..

هتفت المرأة محنقة:

- «لاتثر غضبه.. فلن تحتمل تبعات ذلك!»

وكان القط الأبله قد ركض إلى ركن القاعة فوقف هناك متحفزًا يرمقني في كراهية... هرعت (ماريانا) إليه وركعت على ركبتيها جواره تحتضنه وتنظر لي نظرتها اللائمة..

قلت لها دون أن أعتذر:

- «كل هذا الكلام تخريف وادعاء..»

- «لك أن تعتبره كما تريد.. لكنّ صدق كلامي سيتضح بعد أيام وعندها ستتذكر سمراء (الكاريبي) التي قالت لك الصواب ذاته..»

ثم أدارت ظهرها لتتولى أمر شموعها السوداء..

وفي فتور قالت:

- «شكرًا على زيارتك يا مستر (شيلدون)..»

غادرت المكان مفعمًا بالشكوك ومشاعر متناقضة.. وذات شعور السكير المطرود من حانة يطاردني..

اكتب لك هذه الرسالة بالغة الطول - أربع عشرة صفحة - في غرفة الفندق، وقد نام (جيمي) ونامت (لندا) والفجر يتثاءب بعد نعاس مريح..

(رفعت).. إنني خائف..

لن أعود إلى (فلوريدا) فورًا.. سأنتظر بضعة أيام أخرى.. إن (ماريانا) تعرف الكثير وأنا بحاجة إلى معرفة ما تعرفه..

اكتب لي سريعًا برأيك كاملًا..

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

القاهرة في ١٦ ابريل:

عزيزي (هاري):

تلقيت في شغف خطابك الطويل عن مقابلتك مع ساحرة (الكاريبي) الساحرة.. وقد قرأته في نفس الوقت الذي يمكن أن أقرأ فيه مرجعًا طبيًا سميكًا.. إنه يصلح لطباعته ككتاب من القطع الكبير يكون اسمه (الساحرة والأحمق) أو (المعتوه يلدغ من جحر مرّتين):

أنت متهور يا (هاري).. وقد حاولت أن تداوي المصيبة بكارثة.. وأرى أنك نجحت إلى حد كبير...

* * *

- ٦ -

(بقية خطاب رفعت)..

هل تذكر كلمات د. (لوسيفر) - الحكيمة برغم أن قائلها وغد - لك في جلسة لعب الورق إياها؟ «المرء لا يترك قطرات من دمه لدى ساحرة (فودو) ويرحل...»

هأنذا تكرر ذات الخطأ حرفيًا.. ثم إنني تعلّمت أن أخاف النساء بارعات الحسن اللواتي يتحول الرجل أمامهن إلى طفل..

إنني أهنئك على هذا الوصف الدقيق الذي جعلني معكم في مكان واحد أشم رائحة العطر وأرى الضوء الأزرق.. لكن المرأة لم تسحرني ولم تفتنني؛ لأني لم ألقها شخصيًا.. لهذا أنذرك مما يتراءى لي بين السطور...

تأمل معي كل هذا..

ساحرة (فودو) تملك خصلات من شعر مئات الناس.. بل وشعر الأم (مارشا) شخصيًا، ولا أدري كيف نجحت في سرقته..

البللورة السحرية تريك وحشًا أخضر اللون له ذيل..

الشموع السوداء التي تشعلها أمامك، وهي طريقة سحرة (الفودو) في قتل أعدائهم.. فهم يشعلونها تحت صورة العدو حتى تحترق كلها..

القط الشبيه برجل أعمال مكتنز خمول....

ثم شراب أزرق تجرعه أنت دون حذر.. وأنا لا أثق بأي شراب أزرق منذ نعومة أظفاري ومعي حق في هذا...

إن هذه المرأة خطرة يا (هاري).. خطرة وأنصحك بألا تتعامل معها أكثر من هذا... عُد إلى (فلوريدا) وحاول أن تمارس حياة طبيعية إلى أن يتضح شيء جديد...

لا يوجد شيء آخر أقوله.

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

نيويورك في ٢٥ أبريل

عزيزي (رفعت):

لم أجد في خطابك جديدًا.. بل هو كالحوار الثرثار الذي يضاف إلى الأفلام حين لا يكون له داع.. السيارة تحترق لكنّ البطل يصرخ: السيارة تحترق!

وكنت أحسبك ستقول أشياء حكيمة رائعة، لكنّ هذا عهدي بك..

في الصباح التالي جلست مع (لندا) على مائدة الطعام بالفندق نتناول افطارنا. ولها حكيت ما حدث أمس مع السحرة..

قالت في برود:
- «هذه الذئبة لم تضف شيئًا جديدًا، وأقترح أن نعود إلى (فلوريدا) اليوم..»
قلت لها وأنا أرشف قهوتي:
- «ليس قبل أن أقابلها مرّة أخرى لأعرف المزيد..»
متنمرة عصبية صحت وهي تلقي بشوكتها في طبقها:
- «لكني لا أريد.. لا يُمكنك إرغامي على هذا!»
- «إذن يُمكنك العودة مع (جيمي) وسأبقى أنا..»
كان دمي يغلي غضبًا كعادتي كلما أدركت الحقيقة المروعة: أن الناس لا يطيعونني طاعة عمياء، والكون لا يسير كما أريد له بالضبط.. يسمون هذا بـ (الشخصية الفمية) ويقولون إن أمي أسرفت في تدليلي في طفولتي.. لا يهم.. المهم أنني أعرف الصواب، وكل الحمقى الآخرون لا يعرفونه.. لذا يجب أن يقبلوا ما أقول..
لكن (لندا) لم تكن ممن يميلون لتمر العاصفة:
- «تريد أن نترك لك المكان.. لتنعم بساحرتك هذه!»
- «هل جننت؟»
- «بل أكون مجنونة لو لم أعلق ولم ألحظ انبهارك بها.. إنك تتظاهر بأداء واجبك الأسري لكنك - في الحقيقة - لا تؤديه إلا لأنّه يدنيك منها..»
كلام مستفز.. والأسوأ هو أنه ليس كذبًا كله..
قلت لها في هدوء متظاهرًا بأنني سمعت لتوي ألعن حماقة في الكون:
- «أنت تخرفين كثيرًا هذه الأيام..»
- «وأنت لا تطاق..»
وغادرت المائدة غضبى، فرحت أرمق المحيطين بنا كأنني أقول لهم: ماذا تريدون أيها الفضوليون؟ مشادة بسيطة..
والحق أنني بدأت أشعر أنّ هذه المرأة جميلة، لكنّها حمقاء.. (لندا) هي نموذج للرأس الفارغ الجميل، وأحيانًا أحسّ أنني أمقتها..
وفكرت في (ماريانا) بشيء من الحنين.. (سالومي) القادمة من (الكاريبي) بعطرها المميز وصوتها الرقراق ولكنتها الأسبانية..
ولا أدري متى جلست أمام السكرتيرة انتظر لقاء الساحرة في شقتها.. وفي هذه المرّة كانت الإضاءة حمراء تمامًا.. لكنه لون أحمر رقيق لا يذكرك بالشياطين على غرار ما تراه في المراقص، لكنه مبهج كأوراق الورد..
قلت لها وأنا أتشمم العطر في الهواء:
- «إذن أنت تغيرين الإضاءة كل يوم..»
قالت وهي تشهق طلبًا للاسترخاء:
- «إن مزاجي هو ما يحدد لي لون اليوم.. اليوم أشعر بخمول وقلق لذا أستعين باللون الأحمر كي يعكس حالتي النفسية أو يبدلها.. أرى أنك لم تكذب خبرًا، وجئتني طالبًا الرأي..»
ثم أشارت إلى بللورتها السحرية، ومدت يدها تتناول تمثال (مارشا) الذي كان على الارض جوارها، وانتزعت دبوسًا من شعرها وغرسته في الدمية..

وفي البللورة رأيت المشهد الذي توقعته: رأيت الأم (مارشا) تصرخ وتعتصر صدرها. ورأيت أن الشباب المحيطين بها يلتفون حولها مذعورين.. أحدهم جلب لها كوب ماء وأحدهم وسد رأسها على صدره.. لكنها كانت تقول أشياء بلغة (جامايكا) المحلّيّة..

قالت (ماريانا) وهي تعيد الدبوس إلى شعرها:

- «تقول لهم إن ساحرًا ما يعابثها بـ (الفتيش).. إن العجوز خبيرة في هذه الأمور، ولا يمكن خداعها.. تقول إنها ستنتقم من هذا الكلب حتمًا لو امهلها القدر..»

- «لكنه لن يمهلها كما نعلم..»

ابتسمت ابتسامة من نوع (هانتذا - قد صرت ـ فاهمًا ـ اللعبة)..

وقالت:

- «أنت ذكي بالإضافة إلى وسامتك.. وماذا عن (لندا)؟»

- «عصبية جدًّا.. وقد تشاجرنا بعنف..»

بخبث ابتسمت وقالت:

- «دعني أخمن.. تشاجرتما بشأن الشيطانة التي ستنتزعك من زوجتك وطفلك.. اليس كذا؟»

أذكاء امرأة أم سحر ساحرة أم هي البلورة السحرية؟ لن أعرف أبدًا.. لكني قلت في ارتباك:

- «بلى.. إن (لندا) حمقاء و.....»

- «بل هو سحر الأم (مارشا) يتحرك في أعماقها.. ومن الواجب أن نسرع أكثر، إن الأمر قد يفوق الكراهية.. قد يفوقها إلى درجة لا تتصورها..»

- «ماذا تعنين؟»

ضحكت ضحكتها الرقراقة وقالت:

- «أتحدث عن القتل طبعًا! إن (لندا) قد تكرهك إلى درجة القتل.!»

* * *

وفي اليومين التاليين ساءت علاقتى بـ (لندا) كثيرًا، وتوطدت مع (ماريانا) إلى حد لن تتصوره يا (رفعت)؛ لقد شعرت معها بالعناية والحماية ومنحتني الاطمئنان الذي يشعر به المريض بين يدي طبيب حاذق.

المشكلة هي أن (لندا) ازدادت عصبية، وصارت علاقتنا سلسلة لا تنتهي من المشاجرات أمام أو من وراء (جيمي) الصغير..

وفي النهاية صارحتها أنني حقًّا راغب في رحيلها إلى (فلوريدا).. كادت تحتج لكنني قلت لها هذه الكلمات وأنا معها في سيارة الأجرة المتجهة إلى المطار، وقد تم حجز تذكرتين لها وللصغير.

ودون كلمات ودعتها في المطار ونصحتها بالحذر بنظرة من عيني، ثم لثمت (جيمي) الذي سألني في براءة:

- «هل ستبقى هنا يا بابا حتى تقتل الساحرة؟»

- «طبعًا يا حبيبي.. بابا يعرف ما يجب عمله...»

كان هذا (الترحيل) المفاجئ غرض غير الذي قد يخطر لك..

الحق أنني كنت قد بدأت أهاب (لندا).. لم أرد أن أخوض هذه الحرب دون أن اطمئن إلى خطوطي الخلفيّة.. لا أريد هجمة من وراء ظهري، وهو شيء وارد جدًّا في عالم السحر المسموم هذا.. أعرف أنك لا توافق على كل هذا يا (رفعت) لكني فعلته على كل حال. وأتوقع منك خطابًا مليئًا بالـ (ياه) والـ (لا) والـ (أوه).. لكني أفعل ما يجب أن أفعله.

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

القاهرة في ٧ مايو:

عزيزي (هاري):

لن أقول (ياه) ولا (لا) ولا (أوه).. بل سأفسح المجال لسباب لا أجرؤ على كتابته لكنك تعرف ما فيه على كل حال..

أنا لا أجد سببًا واحدًا يبرر مشاجراتك مع (لندا)، ولا سببًا يدعوك إلى إرسالها لـ (فلوريدا) التي هي ـ كما قلت في خطابك الأسبق ـ مرمى حجر من (الكاريبي) والسحرة، ولا أجد سببًا يبرر بقاءك في (نيويورك) بعد ما صار الموضوع منتهيًا..

لا تفسير لهذا كله سوى أنك مسحور مفتون يا عزيزي (هاري)..

كما يقول تعبيركم اللغوي.. bewitched

(هاري).. أنا أرى الغيوم تحتشد.. ولو كان بوسعي أن ألحق بك الآن لفعلت.. لكني أتمنى أن تبصر النور وتفهم موقعك.

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

- ٧ -

تلهاسي في ٢٥ إبريل:

عزيزي د. (رفعت):

إنها المرّة الأولى التي أكتب لك فيها، ولا أدري إن كان (هاري) يراسلك بانتظام لكني وجدت هذا العنوان تحت زجاج مكتبه..

إن الموضوع يتعلق بقصة الدمية التي أعرف أنك تعرفها.. حسن.. ليست هذه هي المشكلة.. المشكلة هي أن (هاري) يتغير باستمرار وغدا مستبدًا برأيه متصلب الدماغ.. وهو حاليًا في (نيويورك) واقع تحت سيطرة ساحرة حسناء من (بورت ريكو) اسمها (ماريانا)..

ثمة شيء ما خطأ في كل هذا..

ساحرة (بورت ريكو) تزعم أن السبيل الوحيد للخلاص من اللعنة التي تلاحقني هو أن تقتل الأم (مارشا) بدمية صنعتها لها.. لا أعرف كل ما قالته المرأة لـ (هاري) لأنّه غامض جدًّا يلتزم الصمت لكنه يصدّق كل حرف تقوله.. وأنا أعتقد ان ساحرة (بورت ريكو) أكثر خطرًا من الأم (مارشا).. فقط هي ناعمة حسناء كالأفعى، وهذا ما يغري الحمقى بالدنو منها...

أما الهدف من لعبتها هذه؟ لا أدري.. كل ما أدريه هو أن حياتنا كانت مستقرة حتى ملأ كابوس الدمية حياة (هاري)، فلم يعد يفكر في شيء آخر..

إنني أتمنى ثانية واحدة من حياتنا السابقة، جين كانت الصراحة شعارنا.. وكان (هاري) ملكي حقًّا.. ترى ما رأيك في هذا يا د. (رفعت)؟

ثمة سؤال آخر له طابع طبي.. وقد خطر لي ألا أخبر (هاري) بشيء حتى أعرف وجهة نظرك..

لقد لاحظت في الأيام الثلاثة السابقة شيئًا يشبه الخدوش في جسدي؛ خدوشًا على البطن والذراعين والقدمين.. خدوشًا تؤلم كالخدوش وتبدو كالخدوش.. بحق السماء! إنها خدوش فعلًا؟

هذه الخدوش تظهر تلقائيًا.. فلا تزعم لي أن فهدًا يداعبني بمخالبه في أثناء نومي، وقد ذهبت لطبيب الأسرة الذي فحصها بعناية، ثم قام بحجز موعد لي لدى مختص أمراض... نفسية!

جن جنوني وسألته عن سبب عدم طلبه لرأي مختص بالأمراض الجلدية، فقال لي إنّه يعتقد أنّ هذه الجروح ذاتيّة (Self inflicted) مما يجعله في شك من حالتي النفسية..

وفي عيادة د. (مورجان)، باشر الطبيب فحص جلدي بعدسة مقربة، وقال لي كلامًا كثيرًا عن عادة التمزيق الذاتي (Automutilation) التي تمارسها النساء العصابيات.. فهن يخدشن أنفسهن ويمزقن جلودهن ربما دون أن يعرفن ذلك، وهذا تنفيث عن توتر طال أمده..

سألته في حزم:

ـ «أنت تعتقد أنني صاحبة هذه الخدوش؟»

هزّ رأسه، وقال على الفور:

ـ «بالطبع لا! إن اتجاه الخدوش - حيث يتجمع الجلد - هو للخارج وليس للداخل.. وهي القاعدة التي يعرفها كل طبيب شرعي عن ظهر قلب.. لا يُمكنك عمل هذه الخدوش لنفسك..»

وهكذا فارقته شاعرة بتوتر غريب..

كلهم قالوا إنّه ما من مرض جلدي يحدث هذا المنظر.. وأنا أعرف أنه ما من أحد في داري يخدشني ليلًا.. فما تفسير ذلك؟

د.(رفعت).. إنني أزداد تشوها يومًا بعد يوم.. وتفكيري يتركز في الاحتمال الوحيد الباقي: دمية (الفتيش)..

فما رأيك أنت؟

ملحوظة: راجع الصورة المرفقة.

بإخلاص: لندا شيلدون

* * *

القاهرة في ٧ مايو:

عزيزتي (لندا):

يثير دهشتي كل ما ذكرت في خطابك عن (هاري).. وما كنت لأتوقع أن يصل به الحماس إلى هذا الحد[3]..

أنا طبيب ومن واجبي أن أجد اسمًا لاتينيًا من عشرة أحرف لهذا الذي تمرين به، لكني لا أجد.. ولا أجد في نفسي ميلًا لقبول نظرية الدمية هذه.. لقد رأيت مفعولها وخطرها، لكني لا أعتقد أن أحدًا سيلهو بخدشها على سبيل التسلية..

قمت بعرض الصورة الفوتوغرافية التي أرسلتها الي على بعض الأطباء المختصين بالأمراض الجلدية، فلست أنا خير من يُفتي في هذه الأمور، خاصة إذا كان التصوير رديئًا إلى هذا الحد.. وكان رأي أحدهم أنها صورة لظهر سحلية، ورأى آخر أنها تشبه ساحل إفريقيا الشمالي كما يراه القمر الصناعي، وقال ثالث في ثقة إنها صورة دقيقة جدًا لباكتريا السل..

الحق أنني لا أجد ما أقول يا (لندا) سوى: سأكتب لـ (هاري) كي يلحق بك في (فلوريدا) ولتنته هذه القصة اللعينة.. سأرسل لك كذلك عنوانًا أو اثنين لأطباء في (انجلترا) يُمكنك إرسال صور فوتوغرافية أفضل لهم.

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

تلهاسي في ٢٨ إبريل:

الأم (مارشا):

هكذا أناديك دون ألقاب رسمية، والحق أقول إنني لا أعرف اسمك الكامل.. لم أجرؤ كذلك ـ لأسباب يطول شرحها ـ على زيارتك في العنوان الذي وجدته في أوراق زوجي؛ لهذا كتبت لك هذا الخطاب أملًا في أن أجد منك عونًا..

إن زوجي (هاري شيلدون) متغيب الآن في (فلوريدا).. يستعين بسحر فتاة من مواطنيك اسمها (ماريانا بوجادو)، ويبدو أنها ساحرة (فودو) بارعة، لكنّها أوقعته في شباكها الشيطانية ويبدو أنها تسعى جاهدة كي تفرق بيني وبينه لأسباب لا أعرفها حقًّا..

ثمة مشكلة صحية تؤرقني، ولم يجد لها الطب تفسيرًا علميًا محترمًا..

لهذا كله أرجو أن أتلقى منك ردًا على هذه الرسالة، وأن تسمحي لي بزيارتك للاستشارة، وأنا مستعدة لدفع أية تكاليف.

لندا شيلدون

* * *



وفى عيادة د . (مورجان) ، باشر الطبيب فحص جلدى بعدسة مقربة ، وقال لى كلامًا كثيرًا . .

(خطاب بالفرنسية)..
عزيزتي مسز (شيلدون):
تلقيت في شغف خطابك، وبالطبع اضطررت للاستعانة بمترجم كي يفسر لي بدقة؛ ثم أمليت هذا الرد إملاء لأن الكتابة لم تكن قط من الفنون التي اجيدها.. إنها عسيرة حتى على ساحرة (فودو)...
إنني يا بنة أعرف كل شيء عن (ماريانا) وسحرها، ومن المؤسف أن زوجك الشاب حار الدماء لم يكن بالذكاء المطلوب، ووقع في خيوط العنكبوت، فلم يبق عليها إلا أنّ تثقب بطنه لتمتص أحشاءه..
إن ميثاق ساحرات (الفودو) صارم، ولا يمكن مخالفته، لهذا اكتفيت بتحذير زوجك تحذيرًا عابرًا غامضًا..
لكن (ماريانا) لم تعد منا.. ولم أعد أحمل نحوها أي التزام، لأنهّا تحاربني صراحة.. لهذا يسرني أن أساعدك على مواجهتها..
أنا بانتظارك في أية ساعة بعد الثامنة من مساء غد.. وكوني حذرة في طريقك، لأن منطقتي أبعد ما تكون عن أن توصف بالأمن.

خادمتك المطيعة

مارشا باريت

* * *

تلهاسي في ٣٠ إبريل:
عزيزي د. (رفعت):
دعني أحدثك عن التجربة الخارقة التي قمت بها الليلة، والتي عدت منها فورًا منذ عشر دقائق..
رباه! إن القلم يرتجف في يدي انفعالًا، وهأنذا أخلط قواعد اللغة وأستبدل حروف الجر.. أعذرني..
لقد ذهبت لزيارة الأم (مارشا) في العنوان الذي وجدته لدى (هاري)، وبالطبع لم أصحب (جيمي) معي لأن ساحرتي (فودو) هما جرعة أكثر من اللازم بالنسبة لطفل في سنه.. لذا تركته مع جليسة أطفال..
ستقول لي: يا حمقاء! ربما.. لكني لن أنتظر حتى تهدم الأخرى حياتي وتشوه جسدي.. يجب أن أرى ساحرة الـ (فودو) الوحيدة التي أعرف مكانها، وهي الأم (مارشا)..
كانت المغامرة الحقيقية هي اجتياز تلك الأزقة القذرة الملأى بأوغاد (الكاريبي) يلتفون حول براميلهم المشتعلة بالنار على سبيل التدفئة، ويرمقونني في ارتياب وكراهية..
وكنت مستعدة للدفاع عن نفسي في أية لحظة؛ وقد أمسكت بسلسلة مفاتيح وأبرزت مفتاحًا بين كل إصبعين من قبضتى؛ لتصير لكمتي شرسة.. وهي الطريقة التي تعلمتها في مدرسة الدفاع عن النفس..
لكن شيئًا لم يحدث لحسن الحظ.. ودلني شاب ذو قلنسوة صوفية على دار الأم (مارشا)، وكان هذا كافيًا كي يحترمني الجميع.. إن للساحرة العجوز سلطة مطلقة ومهابة في هذا القطاع..

وحين دخلت كانت.....

قمت - أنا (رفعت إسماعيل) - بحذف الوصف المكرر من خطاب (لندا) لأنّه لن يضيف شيئًا.. فلقد رأت ما رآه (هاري) بالضبط..

كانت هذه أول مرة ألقاها فيها منذ التقينا في (كنجزتن) عندما احترق بيت د.(دلمار)، وبدت الى أكثر بشاعة وقبحًا.. رباه! لو كانت تمثل الخير في هذا الصراع فكيف يبدو الشر؟!

قالت لي بصوتها الأجوف الغريب وإنجليزيتها المضحكة الرديئة:

- «تعالي يا بنة واجلسي..»

واشعلت سيجارًا شبيهًا بما يدخنه الرفيق (فيدل كاسترو) حين ينهمك في حكم (كوبا).. فجلست جوارها وسعلت قليلًا..

قالت الأم (مارشا) وهي تتأمل الخدوش على وجهي:

- «زوجك الأحمق قد شرب شراب (ماريانا).. حمقى قليلون جدًّا هم من يرون شرابًا أزرق فيشربونه! ثم أعطاها قطرات من دمه، وهذا أكثر حمقًا.. فالمرء لا يعطى قطرات من دمه الساحرة (فودو) أبدًا!»

قلت لها وقد أثار ما قالته غيظي:

- «فيما عداك طبعًا؟»

- «ولا أنا! ماذا تعرفين عنى يا بنة؟ وماذا عن نواياي؟ زوجك الأحمق كرر الخطأ مرّتين.. فلو فرضنا أنه يستطيع أن يثق بي.. فكيف يثق بـ (ماريانا)؟»

- «كان حائرًا عاجزًا عن اتخاذ جواب صائب.. ولكن كيف عرفت كل هذا؟»

نهضت، وبقامة محنية كالقرد اتجهت إلى فتحة في الجدار، مغطاة بستار أحمر، فأزاحت الستار.. عندها رأيت الجمجمة إياها ذات الشمعتين في تجويفي العينين (المحجرين):.

وقالت وهي تعيد إشعال الشمعتين:

- «إن لي أساليبي..»

ثم أردفت وهي تعود لجلستها على الأريكة، وتلملم أطراف عباءتها زاهية الألوان إلى حد مقزز:

- «بالمناسبة.. كيف حال ذلك الطبيب المصري الوسيم - وحكت رأسها محاولة التذكر -.. (رفعت) على ما أذكر..»

ابتسمت برغمي.. وأرجو أن تسامحني يا د. (رفعت).. فلا أحد يمكن أن يسميك وسيمًا؛ لكنه ذوق هذه العجوز الشمطاء الغريب..

- «بخير.. ما زال يعاني ملاحقة الأشباح له..»

قالت وهي تجرع جرعة كبيرة من زجاجة بجوارها:

- «له تحياتي.. ولنعد الآن إلى (ماريانا).. دعيني أصارحك بسر رهيب يا بنة.. إن (جابرييل) هو من سرق خزانة زوجك!»

قررت أن أكون صريحة بدوري، فقلت:

- «ونحن نعرف هذا من البداية!»

* * *

- ٨ -

(باقي خطاب لندا)...
ضحكت المرأة طويلًا ضحكة زنجية رفيعة رنانة..
- «هي هي! هذا هو ما نُسمّيه (ركض الثعالب).. كلانا يعرف حقائق كثيرة عن الآخر لكننا نداريها عن بعض.. هي هي! وهل تعرفين لماذا سرق (جابرييل) الدمية؟ لأنّه مسحور يا بنيتي.. مسحور.. واقع تحت سحر (ماريانا) اللعينة.. إن دمية (الفتيش) عندها، وهي تملك سيطرة كاملة على الفتى.. لهذا نفيته إلى (كنجزتن).. أمرته بالرحيل إلى هناك حتى أجد خلاصا لروحه..»
- «ولماذا جلب (هاري، إلى هنا؟»
- «أنا أمرته بذلك.. كنت بحاجة إلى قطرات من دم المستر (شيلدون) كي أستخدمها في إيذاء (ماريانا).. إن دميتك عندها ودماء الرجل الذي تحبينه عندي.. توجد طريقة نعرفها نحن لاستخدام هذه الرابطة..»
«إذن ما الذي قمت به حين زارك أول مرة.. يوم جردت دمية (الفتيش) من سحرها؟»
نفثت دخان السيجار في وجهي وسعلت، وقالت:
ـ «لم أفعل شيئًا.. فقط تظاهرت بأنني أفعل.. وما كنت لأستطيع عمل شيء دون الدمية نفسها.. إن النصاب لا يُفتضح أمره في مهنتنا هذه أبدًا يا بنة.. كلنا نفعل نفس الشيء ونقول نفس العبارات ونطلق ذات البخور، فماذا تتوقعين أن يكون علامة مميزة للنصاب؟ لقد صدقني زوجك ومنحني دمه عن طيب خاطر.. وهكذا بدأت محاولاتي لإيذاء (ماريانا)..»
- «ولم تنجحي بعد..»
- «حقًّا.. إن سحرة (بورت ريكو) أقوى منا بمراحل.. لكني سأفعلها بالتأكيد.. حتمًا سأفعلها..»
قلت لها وأنا أبتسم في تشف:
- «هي الأخرى صنعت لك دمية، وهي تتسلى بإيذائها...»
انفجرت المرأة تضحك كاشفة عن أسنان نخرة مقيتة.. أعني بالطبع ما تبقى منها.. وقالت:
ـ «صدقت أنت أيضًا هذا المشهد! ألم أقل لك إن النصاب لا ينكشف في مهنتنا هذه؟ إن الأمر كله سخيف.. هل تصدقين أنّ هذه المرأة ظفرت بشعيرات من رأسي؟ كيف؟ ومن هو مراسلها في (كنجزتن) كي يرسل لها هذه الشعيرات؟ ولماذا تحتفظ بهذا الشعر طيلة الوقت بانتظار أن يعرض عليها أحدهم فكرة قتلي؟ إن الفكرة كلها طفولية، وما كان من المعقول أن تصدقاها..
«لا أحتاج إلى ذكاء كثير كي أعرف أنها تعرض على زوجك صورًا رهيبة في بللورتها السحرية؛ للعذاب والألم الذي ألقاه الآن..»
كان كل هذا لا يصدّق.. فعدت أسألها:
- «هل (ماريانا) هذه ساحرة أم نصابة؟ وإن كانت نصابة فما هو خطرها بالنسبة لك؟»
قالت وهي تطفئ سيجارها:
- «بل هي ساحرة.. ساحرة لعينة إن كانت هناك ساحرة غير لعينة.. لكنّها خدعت زوجك كي تكسب ثقته أكثر.. والآن يُمكنك فهم الأمر بوضوح:

«أولًا: سرقت دمية (فتيش) متقنة لك..»
«ثانيًا: ظفرت بقطرات دم من زوجك منحك إياها بكامل رضاه، وضعى ألف خط تحت جملة (بكامل رضاه) هذه..»
«ثالثًا: ظفرت بزوجك نفسه، عن طريق جمالها وشرابها الأزرق..»
«هل بدأت تفهمين ما أريد قوله؟»
بغباء قلت لها وأنا أهز رأسي:
- «لا أفهم شيئًا واحدًا لعينًا..»
مطت شفتها السفلى زرقاء اللون في اشمئزاز، وغمغمت:
- «أنت طفلة بلا خبرة، ومن الحكمة ألا تعرفي أكثر.. كل ما يمكن قوله هو أن أسرتك ذاهبة إلى الهاوية.. هل تفهمين هذا على الأقل؟»
- «أفهمه.. وأخشى أن نكون متأخرين جدًا..»
- «لا يوجد سوى سبيل واحد للنجاة: أن تساعديني في قتل (ماريانا)!»
تحفزت في جلستي شاعرة بأنني في ورطة لا مفر منها، وقلت:
- «لن أزورها في شقتها لأحز عنقها بالمقص لو كان هذا ما تفكرين فيه!»
- «إنها فكرة طيبة لكنك لا تملكين الأعصاب لهذا.. إنني بحاجة إلى خصلة من شعرها!»
ها نحن أولاء نكرر القصة ثانية، وقد صرت في وسط مبارزة بالدمى لا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) كيف تنتهي..
- «هل ستصنعين لها دمية (فتيش)؟»
- «لا يوجد حل آخر..»
- «أو لا تملكين مكتبة من خصلات الشعر مثلها؟»
من جديد مطت شفتها السفلى مشمئزة، وقالت:
- «إنها لا تملك شيئًا كهذا.. ولو امتلكت فمن الطبيعي أن تقتني خصلة من شعري بينما لا أمتلك أنا خصلة من شعرها.. من الممكن أن تكون عندك صورة موقعة من (إلفيس بريسلي)، لكنّ من المستحيل أن تكون لدى (إلفيس) صورة موقعة منك! الكل يعرف الأم (مارشا) ويعمل حسابها لكنّها تكاد لا تعرف أحدًا بعينه!»
سألتها وأنا أتأهب للرحيل:
- «وكيف أحصل على هذه الخصلات؟»
- «الأمر مستحيل بالنسبة لي ولك.. لكنّ زوجك يستطيع! إن فرشاة شعر المرأة أو مشطها تصلح تمامًا..»
- «وهل يقبل (هاري) هذا؟»
- «ليكن هو الاختبار الأخير الذي يبر هن به على حبّه لك..»
وإذ نهضت تذكرت شيئًا، ففتحت حقيبتي متسائلة:
- «أ... ما هو أجرك؟ أرجو ألا يكون قطرات من دمي؟»
ضحكت كثيرًا عارضة على ثروتها من فجوات الفم، ثم قالت:
- «هي هي! لا أجر يابنة.. لا أجر.. إن المصلحة واحدة.. هي هي! (داماسو)! أين أنت أيها الأحمق؟»

فرأيت عملاقًا أسود يرتدي (سويتر) جلديًا على اللحم بر غم برودة الجو، وله تلك الخصلات المضفرة الطويلة المميزة لقومه؛ رأيته يدخل الغرفة وهو يتأملني بعينين صفراوين!

قالت الأم (مارشا) دون أن تنظر إليه:

- «اوصلها إلى مكان آمن وتاكد من انها ركبت سيارة أجرة.. إنها في حمايتك..»

- «ليكن ايتها الأم..»

وخرجت معه عبر الطرقات المظلمة المخيفة، كان يحمل كشافًا يضيء به الطريق لنا.. وكان هناك حشد من شبابهم على قارعة الشارع يبحثون عن المشاغبة، فوقف كجدار من العضلات أمامهم، وسلط الكشاف على وجهه ليعرفوا من هو.. هكذا مررت دون متاعب!

وهأنذا في داري أكتب لك هذه السطور يا د. (رفعت).. بعد هذا سأكتب لـ (هاري) طالبة المطلب العجيب: شعيرات من رأس (ماريانا).. سأحاول أن أكون حازمة مقنعة لأنّه يؤمن بـ (ماريانا) ويثق بها، ولن يسمح لأحد بالتشكك في أمرها..

أرجو أن تصارحني برأيك.

بإخلاص: لندا شيلدون

* * *

القاهرة في ١٠ مايو:
عزيزتي (لندا):
وصلني خطاباك المؤرخان ٢٠ أبريل و٣٠ وأبريل وقد أرسلت لي الخطاب الأخير قبل أن يصلك ردي على الأول، ربما بسبب تلاحق الأحداث.. لقد اختلطت على الحقائق تمامًا، ولم أعد أرى شيئًا في هذا الضباب.. لكني أكرر عرضي بأن تستدعي (هاري) ليعود إلى (فلوريدا).. لقد مر عليه شهر ونيف في (نيويورك) ولا أعتقد أن إجازته مفتوحة..
كنت أتمنى أن أنصحك بنسيان الأمر كله، لكني لست مستريح الضمير إلى نصيحة كهذه، ولربما كان موضوع خصلة الشعر هذا خاليًا من الضرر.. جربي فلن تخسرى شيئًا..
الدمية لدى (ماريانا)! هذا أقرب للمنطق، ويفسر لنا أشياء كثيرة بما فيها الخدوش في جسدك.. هناك قط في الموضوع على ما أذكر! ويبدو أن دميتك تناسبه جدًا في اللّهو..
ولكن يجب أن نعرف السر وراء هذا كله..
كيف عرفت (ماريانا) بوجود دمية؟ لماذا دميتك بالذات؟ ماذا تريد منها؟ ماذا تفعل بقطرات من دم (هاري)؟ ماذا تفعل بـ (هاري) ذاته وهو - على قدر علمي - لا يصلح لتزيين المكاتب؟
تحبه؟ لا أظن.. لو كانت هذه اللعبة بغرض الظفر بـ (هاري) فهي تتعب نفسها دون داع.. كان يمكنها أن تناديه بـ (بست) أو تبتسم له ابتسامة عابرة، وهذا - حسب معرفتي بـ (هاري) - كاف جدًا..
إنني أشعر بغباء شديد.. ويبدو أنني لن أفهم ما يحدث إلا لو كتبت خطابًا للأم (مارشا) أحاول فيه استعمال سحري القديم وضعفها الخاص تجاه وسامتي.. أرجو أن ترسلي لي عنوانها في (فلوريدا)...

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

تلهاسي في ٣٠ ابريل:
حبيبي (هاري):
هو ذا أسبوع قد مر ولم تكتف خاطرك بالاتصال بي أو بـ (جيمي).. إن زواجنا في خطر داهم يا (هاري).. أنت تعرف ما أريد قوله، وتعرف أنّ هذه الساحرة قد سلبتك توازنك العقلي..
عُد لـ (فلوريدا) دون إبطاء، وانس كل شيء عن الدمية اللعينة.. ثمّة شيء آخر مهم: أنا بحاجة إلى خصلات من شعر رأس هذه الـ (ماريانا).. لا تسألني عن كيفيّة الحصول على فرشاة شعرها أو مشطها فانت على ذلك قدير.. لا تسالني عن غرض الحصول على شعرها.. إنني أحاول إنقاذنا..
هذا هو مطلبي الأوحد يا (هاري).. وأتوقع منك أن تنفذه لي لو كنت راغبًا في أن نظل معًا.. لا تبخل بهذا الدواء لإنقاذ علاقة تلفظ أنفاسها الأخيرة في فراش الشك وعدم الفهم...
(جيمي) يرسل لك تحياته، ويسألك: متى تعود يا بابا؟
إلى أن يفرق الموت بيننا..



فرأيت عملاقًا أسود يرتدى (سويتر) جلديًا على اللحم برغم برودة الجو ، وله تلك الخصلات المضفرة الطويلة المميزة لقومه . .

زوجتك: لندا

* * *

(نيويورك) في ٤ مايو:
حبيبتي (لندا):
حقا أنا عاجز عن فهم كل هذه العصبية والحيرة في خطابك.. لا توجد مشاكل على الإطلاق، و(ماريانا) ستتخلص من الدمية تمامًا في نهاية هذا الأسبوع.
أراك قد بدأت تنزلقين في حفرة الخبال، وتتحدثين بلغة (الفودو) عن الشعر و(الأتر) وما إلى ذلك..
لا أريد أن تحتل هذه الأمور جزءًا من عالمك..
لكنك قاطعة جدًا في خطابك وحادة، إلى درجة أنني قررت أن أقدم لك الدليل على صدق نواياي.. تجدين في هذا الخطاب ثلاث أو أربع شعيرات من رأس (ماريانا)، وبالطبع دون علمها..
لكني أكرر: لا تتصلي بالأم (مارشا) أبدًا.. افعلي كل ما تريدين على مسئوليتك الخاصّة لكنّ دون اللجوء إلى هذه الشمطاء..
اكتبي لي سريعًا وأخبريني بما يستجد، ولو سار كل شيء على ما يُرام فلربما كنت عندك في نهاية الأسبوع.
في السراء والضراء

زوجك: هاري

* * *

القاهرة في ١٠ مايو:
عزيزي (هاري):
كفاك هرجًا وسخفًا وعُد إلى (فلوريدا).. يا لك من أحمق!
صديقك (للأسف): رفعت إسماعيل

* * *

- ٩ -

تلهاسي في ٥ مايو:

عزيزي د. (رفعت):

لقد أرسل لي (هاري) عدة شعيرات حصل عليها من رأس (ماريانا).. لا أدري كيف حصل عليها.. فمعنى هذا أنه استطاع الوصول إلى فرشاة شعرها وانتزاع بضع شعيرات.. وهذا يدل على العلاقة الوثيقة بينهما الآن.. لكني مسرورة على كل حال، وقد أرضاني كل الرضا أنه فعل هذا من أجلي حين طلبته..

ولقد توجهت إلى الأم (مارشا)، وخضت بالطبع مغامرة الوصول إلى دارها عبر ذلك المستنقع المزدحم بتماسيح (الكاريبي) مدمني المخدرات أو بائعيها.. لم يكن لديها هاتف وإلا لطلبت منها أن ترسل من يصطحبني..

ووصلت بسلام.. فدخلت إليها، ودون كلمة أخرى قدمت لها الشعيرات، وكانت قد أعدت دمية تشبه إلى حدٍ ما ساحرتنا الأخرى..

قالت لي وهي تتامل الخصلات في النور:

- «لم أكن أعرف أن (ماريانا) تصبغ شعرها..»

قلت وأنا أنزع معطفي وأجلس:

- «إنها امرأة على كل حال..»

دست الشعيرات كيفما اتفق حول رأس الدمية، ثم تناولت دبوسًا عظيمًا، وبحنكة وتؤدة وغرسته في قلبها، وقالت:

- «الآن تتألم!»

لكنّ واحدة فقط تألمت.. تألمت وصرخت وتكورت حول نفسها وهي تعوي كمن يتم ذبحه.. هذه الواحدة هي أنا..

ألم ساحق ماحق مزّق صدري فصرخت..

يبدو أنني غبت عن الوعي بضع دقائق، لأنني صحوت لأجد نفسي ممددة على الأريكة غارقة في العرق البارد، والأم (مارشا) جاثية جواري تصب في حلقومي سائلًا ما..

وكان (مريدوها) واقفين يرمقون المشهد في فضول..

قالت وهي توسد رأسي على صدرها، الذي تفوح منه رائحة عطرية خانقة:

- «هذا يفسر اللون الأشقر للشعيرات!»

- «ماذا تعنين؟»

- «أعني أن زوجك المخلص أرسل لك شعيرات من رأسك أنت.. وحسبت أنا أن لون شعر (ماريانا) الأصلي أشقر.. لكنّ كل شيء اتضح الآن.. لقد صنعت دمية (فتيش) أخرى لك وكدت أدمرها!»

- «الوغد! كيف يجرؤ؟»

ساعدتني على الجلوس، وقالت:

- «يا بنة ليس من السهل أن تحكمي على زوجك أخلاقيًا.. فهو تحت قبضة الساحرة.. إنّه مسحور، ولا يمكن أن تلوميه على ما فعل وما لم يفعل..»

وتنهدت وأردفت وهي تشعل سيجارها العظيم:

- «إن الشيطانة أقوى وأذكى منا بمراحل.. لا بد أن (شيلدون) كان يحتفظ بخصلة من شعرك فأغرته باستعمالها، ولا بد كذلك أن أطلعها على خطابك!»

- «والحل؟»

- «يوجد حل واحد.. لكنه خطر..»

وفي الدقائق التالية شرحت لي نظريتها للخلاص..

ربما تلومني يا د. (رفعت) لكني لا أجد حلًا آخر.. لقد استطاعت المرأة العجوز أن تملأني ذعرًا، وقد تأكدت بنفسي من أنها ليست نصابة.. الألم الممض في صدري يؤكد لي أنها ليست نصابة..

لن أحكي لك ما اعتزمته في هذا الخطاب، فلربما تفشل المحاولة كلها.. وعندها لن أجني منك سوى التوبيخ.

بإخلاص: لندا شيلدون

* * *

نيويورك في ١٣ مايو:

عزيزي (رفعت):

اليوم هو الجمعة ١٣.. وهو يوم يذكرك - دون شك - بأجواء معينة لا تغيب عن ذكائك.. لقد علمتني (ماريانا) أن أظل في غرفة الفندق لا أبرحها حتى يمرّ اليوم على خير..

إنها لفتاة ساحرة حقًّا!

تعرف شيئًا عن كل شيء، ونصائحها لا تخيب أبدًا..

إن (لندا) لا تثق بها لحظة، لكني أعرف الأسباب.. من الصعب أن تثق امرأة بامرأة أجمل منها وأكثر سحرًا وتأثيرًا..

لقد اعتدت أن أزورها ليلًا.. حيث أجلس معها في صومعتها الساحرة أصغي لموسيقا (الكاريبي) الصاخبة الغامضة، وأربَت على ظهر قطها الإيراني الجميل.. لقد بدأت أنا نفسي أتحول إلى قط ناعس جوارها.. ثم نتسلى بتأمل البللورة السحرية إياها، فأتمكن من معرفة ما تقوم به (لندا) وما تقوم به أنت في هذه الأثناء.. (تأكيدا لكلامي أنت قضيت يوم الجمعة 13 في الطهي، بعد ما أديت صلاتكم في المسجد).

أمس قامت (ماريانا) بأهم خطوة في القصة كلها: ألقت دمية الأم (مارشا) في النار.. وهكذا ماتت العجوز الشمطاء واسترحنا منها..

أتوقع خطابًا من (لندا) في أية لحظة تبلغني بهذه التطورات.. إن الاتصال بالهاتف أسهل وأسرع، لكنّ - صدقني - لم أعد أريد أن أسمع صوت (لندا).. ويبدو أن فكرة الطلاق لم تعد مستبعدة إلى هذا الحد..

أراك تفتح فمك لتعترض..

نحن معشر الأمريكيين عمليون جدًّا يا طبيبي العزيز، ولا شيء يغرينا باستمرار علاقة لا طائل من ورائها لمجرد أن الطلاق عسير أو قاس...

إن البدايات الجديدة حق متاح للجميع.. ولا تنس أن البدايات الجديدة لمجموعة من المهاجرين هي التي خلقت (الولايات المتحدة)..

لا.. لن أتزوج (ماريانا)..

ما من رجل بكامل قواه العقليّة لا يفكر في الزواج من (ماريانا)؛ لكنّها تأبى ذلك بشدة.. إنها تستمد قواها من عدم زواجها كما قلت لك آنفًا.. إنها تنصحني ببداية جديدة مع واحدة أخرى غيرها وغير (لندا) بالطبع..

رباه! كم هي ساحرة!

تأمل جلستها الأنيقة على الوسادة حين تحضر لي طبقًا من الكافيار الغريب لذيذ المذاق، تأكله معي بملعقة غريبة فضية طويلة جدًا، ثم تقدم لي كأسًا من الشراب الأزرق الذي لا يعلم سوى الله مايحتويه كي يمنحني كل هذا السرور والانتشاء..

بعد هذا نتسلى بقراءة خطابات (لندا) وخطاباتك إليّ.. لم لا؟ ليست لدى أسرار أخفيها عن (ماريانا) منقذتي..

لكم ضحكت (ماريانا) حين قرأت خطابًا لـ (لندا) تطلب فيه شعيرات من رأس الأولى.. لماذا بحق السماء؟ إن الأم (مارشا) تلعب لعبتها وتستحوذ على (لندا) بالكامل..

نصحتنى (ماريانا) بأن أرسل أى شعر للأم (مارشا).. إن الدعابة ستكون أقوى لو كانت شعيرات من (لندا) نفسها.. ثم طمأنتني أنّ هذا لن يؤذي (لندا) أبدًا ما دامت الدمية التي ستصنعها (مارشا) أقرب إلى (ماريانا) نفسها..

- «ما دامت ساحرة عبقرية حقًّا، فمن المفترض ألا يخدعها هذا!»

قالتها في خبث، وراق لي الأمر كثيرًا ونفذته.. إنني أحمل في حافظتي خصلة من شعر (لندا) جلبًا للحظ أيام كانت قادرة على تغيير حظي..

نسيت أن أحكي قصة أخرى مثيرة..

لقد وجدت عند (ماريانا) منذ يومين قطًّا أسود هائل الحجم، ينعس جوار قطها الإيراني.. فلمّا رآني فتح عينيه الصفراوين عن آخرهما وراح يرمقني بتلك النظرة البليغة التي تجيدها القطط، مع أسلوب (المواء الصامت) الذي يمزق نياط القلوب؛ حين يفتح القط فمه ويرتجف فيه السفلى في مواء لا يُمكنك سماعه..

قالت له (ماريانا) في فظاظة:

- «اخرس يا (داماسو)!»

سألتها عنه وكيف وجدته، فقالت في غموض وهي تداعب عنقه:

- «جاء كي يعضني لكني جعلته ملكي..»

ثم نهضت إلى خزانة في الجدار، وعادت حاملة آلة تصوير فورية صغيرة ناولتني إياها، وطلبت أن ألتقط صورة لهما معًا..

سألتها في غباء وأنا أكشف العدسة:

- «هل تحبين القط إلى هذا الحد؟»

- «بل الأم (مارشا) تحبه أكثر مني!»

وطوقته بساعديها وضمته إلى صدرها، بينما التمع الفلاش وهي تضحك ضحكة انتصار شرسة لم أفهم مغزاها..

وفهمت أنها سترسل الصورة إلى الأم (مارشا)..

ما هو السبب في رأيك؟

اكتب لي يا (رفعت) ولا تبخل بالخطابات..

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

تلهاسي في ١٣ مايو:
عزيزي د. (رفعت):
كنت أنوي - ما دمت فشلت ـ أن أكتم عنك الأمر.. لكني أكاد أجن رعبًا وغيظًا...
أنت تذكر أنني قررت أن أعمل بنصيحة الأم (مارشا).. والنصيحة هي أن أقتل (ماريانا) بالأساليب التقليدية! نعم أنا مجنونة لكني لم أعد أدري ما هو صواب وما هو خطأ.. لقد جاء عصر الغاب ولم يعد شيء قادرًا على حمايتي سوى ذراعي أنا..
المُحت لي الأم (مارشا) أن عملاقها الزنجي (داماسو) - الذي يحرسني في أثناء مغادرة دارها - يمكن أن يقوم بالمهمة.. إنّه قاتل أجير (Hit man) على قدر لا بأس به من الكفاءة..
فقط على أن أحضر له العنوان وتذكرة سفر من وإلى (نيويورك) مع ألفي دولار أدفع نصفها قبل العملية والباقي بعدها..
وكان التفاهم تامًا، ولعبت الأم (مارشا) دور الوسيط مما جعل العملاق يثق بي ويتكلم بصراحة.. سيزور (ماريانا) في شقتها طالبًا استشارة، وهو من (الكاريبي) ولن يثير ريبتها.. عندها ينتهز الفرصة كي يهشم رأسها ثم يعود بالطائرة، بعد ما يلتقط صورة فورية لجثتها بكاميرا صغيرة اشتريتها له كدليل على ما أنجز..
حسن.. لقد تم الاتفاق في ٦ مايو بعد كتابتي خطابي الأخير لك.. لكنّ (داماسو) سافر من حينها ولم يعد قط..
سألت الأم (مارشا) عنه.. أتراه بدد المال، وراح يلهو في (نيويورك) ناسيًا كل شيء عن مهمته؟
قالت لي في غموض:
- «واحد آخر يلعق الغبار!»
الحق أنني لا أفهم شيئًا.. هل العجوز تخدعني؟ لا ألومها لو تفعل، فأنا ساذجة خائفة أغري الجميع بالتلاعب بي، ومن الحمق ألا يخدعني من يلقاني..
هذا هو كل شيء.. ولا جديد سوى أن الخدوش في جسدي مستمرة، و(هاري) لا يتصل بي ولا يرسل خطابات..
ترى ما رأيك في هذا يا د. (رفعت)؟

بإخلاص: لندا شيلدون

* * *

القاهرة في ٢٠ مايو:
هاري شيلدون:
اسمح لي أن أناديك دون ألقاب نفاق على غرار (عزيزي) أو (صديقي).. فأنا مكتف بشرف أن يكون صديقي ملك الحمقى في العالم...
ألا تفهم ذلك الشرك الذي تخطو نحوه في ثقة؟



وطوقته بساعديها وضمته إلى صدرها ، بينما التمع الفلاش
وهى تضحك ضحكة انتصار شرسة لم أفهم مغزاها ..

تحولت إلى قط ناعس - حسب كلامك حرفيًا- يستمتع بالنوم عند قدمي (ماريانا) هذه بأظفارهما الزرقاء.. وتأكل الكافيار معها بملعقة طويلة.. ألا يذكرك هذا بكلمات الأم (مارشا): «إذا تناولت طعامك مع الشيطان.....»؟ راجع خطابك لي في ١٠ مارس لو كنت تحتفظ بنسخة من خطاباتك..

ثم ترسل للأم (مارشا) بخصلات من شعر زوجتك لتستعمله في السحر!

وهذا ليس كل شيء... موضوع القط الأسود والكاميرا الفورية.. ثمّة أشياء عرفتها من خطاب آخر وصلني، وتؤكد لي أنّ هذا القط الأسود ليس قطًا تمامًا! ثمّة شخص يُدعى (داماسو) قد زار (ماريانا) بغرض إيذائها.. هل صارت القصة واضحة أكثر؟ وكان يحمل كاميرا فورية صغيرة.. هل فهمت؟

بعد هذا تؤكد لي أن (ماريانا) تعلم الغيب.. والدليل هو أنني صليت الجمعة ثم رجعت أطهو طعامي! يا للذكاء! كل مصري مسلم غير متزوج يفعل الشيء ذاته في يوم الجمعة، وأنت تعرف جيدًا أنني أطهو طعام الأسبوع مرة واحدة في يوم العطلة - الذي هو يوم الجمعة في (مصر) - سبع كريات من الخضر.. وسبع كريات من الأرز.. وسبع شرائح من اللحم كلها ملفوفة في رقائق الألومنيوم، وفي الغالب أتخلص منها جميعًا لأنني أكتشف أن مذاقها كمذاق الحذاء..

أما عن موضوع حرق الدمية فلا تطمئن كثيرًا.. الأم (مارشا) حية ترزق ولم يمسسها ضرر..

(هاري).. أنت مجنون أحمق..

لقد حان وقت إنهاء هذه المهزلة والعودة إلى دارك..

كف عن الكلام عن الطلاق وكل هراء مماثل.. فقط سأذكر لك جزءًا من آية من آيات القرآن الكريم تلخص الموقف بدقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

{... ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله...}

صدق الله العظيم

سورة البقرة - الآية ١٠٢

المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

تلهاسي في ٢٠ مايو:

عزيزي د. (رفعت):

لقد شرحت لي الأم (مارشا) كل شيء..

والحقيقة مرعبة أكثر مما تتصور!

* * *

- ١٠ -

(مازلنا مع خطاب لندا).....

لقد ذكرت لي الأم (مارشا) خبرين:

الأول: هو أن (داماسو) لن يعود.. لقد ظفرت به (ماريانا) وها هو ذا (واحد آخر يلعق التراب) كما قالت الأم (مارشا)..

لقد وصلتها بالبريد صورة لا بأس بها تمثل (ماريانا) مع قط أسود ذي عينين صفراوين.. ولم تحتج إلى ذكاء كثير كي تعرف القط.. يبدو أن ساحرة (الكاريبي) الشابة تعرف عملها حقًّا..

الثاني: هو أن ٣٠ مايو القادم هو عيد من أعياد (الفودو)، يمارس فيه السحرة الودونيون كثيرًا من طقوسهم المرحة: إعادة (الزومبي).. حرق الذمي المنسية.. إلخ...

تقول لي الأم (مارشا):

- «لقد دنا عيد السحر.. و(ماريانا) تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر.. وهذا هو ما كانت تخطط له منذ فترة طويلة..»

سألتها حائرة متوترة:

- «وما هي اللحظة؟»

- «لحظة الخلاص من زوجك!»

حسن.. أنت تعرف يا د. (رفعت) أنّ هناك حدودًا لقدرة المرء على كتمان فضوله.. هذه الساحرة العجوز تطالبني بألا أسالها عن سبب الخلاص من زوجي وكيفيته، وإلا اعتبرتني فضولية بشكل غير لائق... أنّ هذا ـ كما توافقني - يفوق قدرتي على التحمل..

لهذا ألححت في سؤالها..

أخيرًا تكلمت العجوز، وكان ما قالته رهيبًا:

- «إن (ماريانا) في السبعين من عمرها!»

وتذكرت ملامح الساحرة الشابة الفاتنة، وبدا لي كل هذا سخفًا.. فلا يوجد سحر بهذه القوة أبدًا..

قالت (مارشا) وقد لمحت عدم التصديق في عيني:

- «إن (ماريانا) تنتمي إلى ما يسموّنه بـ(الآما).. أي أنها أنثى دائمة الشباب تستمد شبابها من دماء الرجال.. و(هاري) زوجك يصلح بالطبع.. لكنّ هناك شروطًا لعملية كهذه: عليها أن تقنعه بأن يقتل امرأة يحبّها، وعليه أن يعطي (ماريانا) قطرات من دمه بكامل رضاه، ثم عليه أن يرقد في وسط الدائرة ويسمح لها بأن تنتزع قلبه، والشرط الأخير هو أن يتم هذا يوم عيد السحر أي بعد عشرة أيام!»

سألتها وأنا أعيد ترديد الكلمات ببطء كي أستوعبها:

- «يقتل امرأة يحبّها! أي يقتلها هي؟!»

- «بل يقتلك أنت يا بنة! إن (هاري) ما زال يحبك للأسف..»

- «يقت.. يقتلني كـ.. كيف؟»

- «ليس الأمر عسيرًا.. إن دمية (الفتيش) مع (ماريانا) منذ البداية، وكل ما عليها هو إقناعه بإلقائها في النار، وهذا ليس صعبًا ما دامت أقنعته باستعمال شعرات من رأسك في دمية أخرى..»
- «وقطرات الدم أعطاها بالفعل..»
- «بكامل رضاه! لا تنسى هذا..»
- «إذن موضوع الـ.. الدائرة هـ.. هذا..»
وهنا فاض بي وانفجرت في البكاء.. البكاء صمام الأمان كي لا تنفجر المرأة تحت وطأة مخاوفها وأحزانها..
قالت الأم (مارشا) وهي تكفكف عبراتي بمنديل متسخ:
- «هذا هو ما ستقوم به (ماريانا) في ٣٠ مايو.. لقد فعلته كثيرًا جدًا من قبل.. ثم هناك موضوع ازواجها السابقين.....»
وصمتت برهة ثم أردفت:
- «إن القطط المحيطة بها لها وجوه معبرة أكثر من اللازم.. ويبدو أنها تتركهم يدربون مخالبهم على دميتك ليلًا..»
وثبت جالسة عند قدميها كما يفعلون في المسرح التراجيدي، وصحت بصوت لا بد أنه خرج متهدجًا:
- «وما الحل أيتها الأم؟»
- «الحل هو أن نلحق بهم في (نيويورك)، ونحاول إيقاف هذه المهزلة.. إن لدى أساليبي.. لكني أنصحك يا ابنة ألا تتركي ابنك وحده هنا.. فمن يدري؟»
- «سأتركه عند خالة له في (بنزاكولا)..»
- «أقول لك: من يدري؟»
قالتها في غموض.. وأنا أعرف الأم (مارشا) حين تتحدّث في غموض وترفض أن تفصح.. إنها تعرف أكثر من اللازم..
وهكذا قررت أن أتحرك.. لا يوجد مفر من التمادي حتى آخر الشوط.. ثلاث تذاكر طائرة إلى (نيويورك)، وغرفة في ذات الفندق الذي كنت أقيم فيه مع (هاري)..
سيمتقع وجهه حين يراني ليغدو بلون هذه الورقة.. سيتهمني بالخبال وتبديد المال.. لكني لا أبالي.. لقد صرت العقل المفكر لهذه الأسرة.
بإخلاص: لندا شيلدون

* * *

نيويورك في ٢٥ مايو:
عزيزي (رفعت):
لن تتصور أبدًا هذه المفاجأة: لقد عادت (لندا) مع (جيمي) إلى (نيويورك)! كنت لم أترك الغرفة المزدوجة التي استأجرتها في الفندق، وفوجئت بهما ينتظراني في قاعة الاستقبال.. شاحبي الوجهين مرتبكين كطفلين ينتظران العقاب..

لم أقل شيئًا.. فقط صعدت معهما إلى الغرفة، وهناك انفجرت في (لندا) كما لك أن تتوقع.. إنها تبالغ في الخوف وتبالغ في الخبال.. كل شيء يسير على ما يرام هنا، فما الداعي لتبديد مالي في تذاكر السفر؟ ثم من أدراها أنني ما زلت في الفندق ذاته؟ يبدو أنها أجرت مكالمة طويلة المسافة من (فلوريدا) لتتأكد من ذلك..

قالت كلامًا كثيرًا عن (ماريانا) التي تتلاعب بنا.. وعن خطتها لاستعادة شبابها عن طريق قتلي.. وعن خصلات الشعر التي كادت تقتل (لندا).. وعن الأم (مارشا) التي ما زالت حية ترزق..

بالواقع قالت لي نفس الكلام الذي قلته أنت في خطابك المؤرخ بتاريخ ١٦ إبريل.. حتى إنني أسائل نفسي عما إذا كنتما تتبادلان الأفكار..

والمشكلة هنا هي أن (لندا) مسحورة وأنا لا أصدق حرفًا مما تقول.. ما هو الدليل على أن الأم (مارشا) حية سوى كلامها؟ (لندا) تؤكد أن دمية (الفتيش) عند (ماريانا) التي تتسلى بتركها للقطط، وأنا أؤكد أن الدمية عند الأم (مارشا) التي تسعى لجعل (لندا) تحب (جابرييل) المتيم بها.. كلمتي أمام كلمتها..

لا دليل يؤيد كلام أي منا سوى إصراره على أنه محق..

تسألني لماذا لا أعود إلى (فلوريدا)؟

لأن (لندا) لم تشف بعد من السحر حتى بعد وفاة صاحبته.. لقد رأيت المشهد مرارًا في بلورة (ماريانا) السحرية؛ أنا أقف أمام مرأة الحلاقة بفائلتي الداخلية وذقني مغطاة بالصابون.. بينما حسناء شقراء تقف ورائي وسكين المطبخ مخبأة وراء ظهرها.. حسناء شقراء مثل (لندا).. بل هي (لندا) ذاتها.. والباقي معروف لكل ذي خيال!

(ماريانا) قالت لي إن هناك حلًا واحدًا لتطهير (لندا).. هذا الحل هو أن أنتظر حتى عيد السحر في ٣٠ مايو، وهو عيد مهم لدى السحرة الودونيين.. وفي هذا اليوم تصير (لندا) زوجتي من جديد، ونعود إلى (فلوريدا)..

(ماريانا) سألتني عن شجاعتي، وقالت:

- «هل أنت مستعد للتخلص من الدمية يوم أستعيدها لك؟»

- «لكنّ هذا يؤذي (لندا).. أليس كذلك؟»

- «ليس حين أطلب منك ذلك.. فقط ثق بي ولا تسأل.. وعندما آمرك بالنوم وسط دائرة الرماد المحترق ثق بي ولا تسأل..»

تغمرني الحيرة.. لكنني أثق بها.. أثق بها ولهذا لا أسأل.....

ولهذا أماطل (لندا) في الرحيل، وأصغي لما تقول من هراء وأتظاهر بأنني أهتم.. إنني العقل المفكر لهذه الأسرة ولن أنسى هذا..

أنتظر منك خطابات لا تلومني فيها أيها الكهل الأصلع.

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

نيويورك في ٢٦ مايو:

عزيزي د. (رفعت):

أنا الآن في (نيويورك) مع (جيمي).. لقد التأم شمل الأسرة من جديد، لكنّ أي التئام! ثلاثة مخلوقات يشعر كل منهم بأن الاثنين الآخرين ساذجان غبيان أخرقان..

الأم (مارشا) طلبت إلغاء حجز الغرفة التي اخترتها لها هنا.. قالت لي في سيارة الأجرة التي أقلتنا من المطار:

ـ «يا بنة أنا لست مستعدة لهذه الأماكن الفاخرة.. إن لي اماكن تريحني، ومعارف يهمهم أمري كلهم من قومى.. إن الأم (مارشا) تحتاج إلى مكان مظلم يعبق برائحة البخور وأغاني (الكاريبي).. لهذا نفترق..»

وحددت للسائق عنوانًا معينًا أعتقد أنه من أحياء (نيويورك) الرهيبة.. وقد أسعدني ـ برغم كل شيء ـ الخلاص من هذه الساحرة بشكلها الغريب وثيابها الزاهية وعطرها المزعج، والفضول التي تثيره لدى كل من يراها..

سألتها عن كيفيّة لقائها، فقالت في غموض:

ـ «أنا التي سألقاك حين تحتاجين إلى..»

وغادرت سيارة الأجرة، وطلبت من السائق أن يوصلني و(جيمي) إلى الفندق.. كان (جيمي) مذعورًا منها طيلة رحلة الطائرة، وقد سرّه أن يتخلص منها.. وبلهجته الطفولية قال:

- «ماما! أنا أحب الساحرة الأخرى.. الجميلة!»

- «ليس جمال القلب مرتبطًا بجمال الوجه دائمًا يا بني..»

وفي الفندق قابلنا (هاري)..

حقا لم يلقنا بحرارة، ولم يتحمس.. بل إنّه انفجر غاضبًا في، لكني لم أخبره ـ وكذا (جيمي) ـ بأمر الأم (مارشا).. فلو عرف أنها في (نيويورك) لأصابه الجنون، ولربما اتخذت الأخرى إجراء ما..

لقد قاوم بعناد شديد كل محاولاتي لإقناعه بالعودة إلى (فلوريدا).. كنت أبغى أن نعود في أول طائرة، لكنه مصر على الإنتظار أسبوعًا آخر..

د. (رفعت)! إنّه ينتظر ٣٠ مايو في شوق!

إن الأمر يفلت من قبضتي، ومن الواضح أنني سأحاول قتل (ماريانا) هذه التي جعلت حياتي جحيمًا..

حين يصلك هذا الخطاب سيكون ٣٠ مايو قد انتهى، ومعه انتهت آلامي بالموت أو القتل أو الفرار.

لا أدري.. الله وحده يعلم ما سيحدث في ذلك اليوم.

بإخلاص: لندا شيلدون

* * *

القاهرة في ٣ يونيو:

(هاري) و(لندا):

أتوسل إليكما أن تكفا عن هذا السخف، وتعودا إلى (فلوريدا)، وإلى حياتكما الطبيعية..
إنني موشك على السيطرة على ظروفي، ويمكن أن ألحق بكما في الولايات في النصف الأول من (يوليو)..
فقط ابقيا سالمين من أجلسي.. أبقيا عاقلين من أجلي.
المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

القاهرة في ١٠ يونيو:
(هاري) و(لندا):
لم أتلق أي خطاب منكما منذ ٢٦ مايو، ولم أعرف ما تم في عيد السحر هذا.. أرسلا لي خطابًا من سطرين يقول إنكما بخير...
إن عدم وجود أخبار هو خبر طيب No news , good news.. أي لا توجد أخبار سيئة على الأقل.. لكنّ الأمر يختلف ها هنا..
إن هلاك هذه الأسرة يمكن أن يتم في صمت مريب، وعدم وجود أخبار قد يعني كارثة..
المخلص: رفعت إسماعيل

* * *

- ١١ -

تلهاسي في ٣١ مايو:

عزيزي د. (رفعت):

لا أدري متى أتمكن من إرسال هذا الخطاب.. لا بد أنك تموت قلقًا علينا لو كان فهمي لمعنى الصداقة صحيحًا، فقد تبلبلت مفاهيم كثيرة لديَّ في الآونة الأخيرة.....

لقد جاء يوم ٣٠ مايو الرهيب أخيرًا..

لم نتبادل أنا و(هاري) أية كلمات طيلة اليوم.. كان الجو مشحونًا بتلك الكهرباء القلقة التي تجعل أمعاءك تتقلص، ويبدو أنني أصبت بإسهال حاد جعلني أدخل الحمام مرارًا..

وفي المساء قال (هاري): إنّه ذاهب ليلقى (ماريانا) وحده.. توسلت إليه ألا يفعل لكنه كان مصرًّا.. مصرا إلى درجة أن توسلاتي كلها ودموعي راحت هباء...

- «سأذهب معك أردت أو لم ترد..»

هنا دفعني بغلظة، وخرج من الغرفة.. وسمعت مفتاح الباب يدور في القفل.. لقد حبسني مع (جيمي).. هل أصرخ وأقرع. الباب حتى يأتي أحد الخدم ليخرجني؟ أم أطلب الشرطة؟ أم.....؟

لكن المشكلة قد حلت بسهولة لا تصدق، إذ سمعت قرعات على الباب، وصوتا كغطاء التابوت إذ ينغلق يقول:

- «هذه أنا يا بنة.. لقد جئت في الوقت المناسب..»

عاد الدم إلى عروقي فصرخت وأنا ألقي بنفسي على الباب:

- «إنّه موصد يا أم (مارشا).. موصد!»

- «ليس مع ساحرة (فودو).. الأبواب الموصدة وهم!»

وانفتح الباب كأنما لم يكن موصدًا من البداية...

وجه العجوز الزنجي الدميم، وجسدها المنحني غصن ذابل، والقرطان العملاقان في أذنيها، والأظفار المخلبية..

لكنني - تفهم ما أقول - رأيتها ملكة جمال العالم لحظتها..

صحت وانا ألقي نفسي على صدرها:
- «قد ذهب للقاء الأخرى.. إنها اللحظة المختارة!»
في ثقة قالت وهي ترفع كفها لتخرسني:
- «كفي! اعلم.. سنلحق به حالًا..»
ومتوكئة على عكازها راحت تشق طريقها عبر ممر الفندق، ورحت أقفو أثرها مذعورة متعثرة أجر يد (جيمي) الذي لا يفهم كل هذا..
- «ماما! إلى أين؟»
- «سنلحق بأبيك يا حبيبي..»
- «لا ليس بابا.. لقد صار يخيفني..»
- «إنه يحبك يا بني.. يحبك.. لكنّ أعصابه منهارة..»
غريبًا جدًّا منظر ساحرة (الفودو) العجوز التي اعتادت الأكواخ والأدغال وهي تشق طريقها وسط الفندق النيويوركي الأنيق.. لكني خمنت أن سحرًا ما قد شلّ عقل العاملين، فلم يستوقفها أحد للسؤال أو حتى الفضول..
وفي الخارج كانت سيارة عتيقة الطراز تنتظر.. ورأيت بداخلها شابين من بلطجية (الكاريبي) إياهم.. لكني كنت أثق بالعجوز.. لهذا لم أتردد في الركوب.. كانت لفافتا تبغ تلتمعان في ظلام السيارة..
قالت الأم (مارشا) وقد جلست في المقعد الخلفي جواري، وهي تلهث من جراء مجهود المشي الحثيث:
- «تبًا! إنني أقضي حياتي جالسة على أريكة فلم أعتد كل هذا الجهد.. والآن يا بنة نحن ذاهبون إلى (ماريانا)..»
ثم أشارت إلى الوغدين في مقدمة السيارة وقالت:
- «هذان من أبنائي.. كل فتية (الأنتيل) أبناء الأم (مارشا).. هي هي هي!»
احتضنت (جيمي) أكثر وسألتها:
- «إذن تنوين استخدام القوة لا السحر؟»
- «هي هي! هناك شيء من كل شيء.. بالقوة نواجه القوة وبالسحر نواجه السحر..»
- «وهل لا بد من أخذ الطفل معنا؟»
- «تلك أضمن وسيلة لحمايته.. فلن يكون آمنًا حتى في مخفر الشرطة.. أمانه هو معي أنا الأم (مارشا)..»
وراحت السيارة تشق شوارع (نيويورك).. كانت في أسوأ حال ممكن حتى شعرت بأنها توشك على التفكك إلى أشلاء في أية لحظة..
أخيرا وصلنا إلى البناية التي تقيم فيها (ماريانا) في (بارك أفينيو)..
استدارت الساحرة العجوز لتتأكد أنه ما من أحد يتبعنا، ثم انحنت في الظلام تقول لرجليها:
- «تعاليا معي.. إن سلاحيكما معكما.. أليس كذلك؟»



وانفتح الباب كأنما لم يكن موصداً من البداية ..
وجه العجوز الزنجى الدميم ، وجسدها المنحنى ..

مع بلطجيين كهذين تغدو الأسلحة التقليدية رقيًا مبالغًا فيه.. كان أحدهما يحمل قبضة نحاسية، والآخر يلف قبضته حول حلقة تبرز منها أشواك مدببة، ومن الواضح أنهما يحملان مديتين زنبركيتين في جيب كل منهما واحدة.. حسن.. إننا أقوياء بما يكفي..

ترجلنا إلى المدخل.. ولا شيء في الظلام ولا صوت سوى صوت الأحذية وعكاز الأم (مارشا) بدقاته المصممة المصرة على التقدم..

ثم صوت أنفاسنا المتوترة..

المصعد يهبط.. الباب ينغلق على أكثر المجموعات شذوذًا في تاريخ هذا المصعد: بلطجيان وساحرة (فودو) وامرأة مذعورة وطفل..

المصعد يرتفع إلى الطابق المنشود..

وقفنا أمام الباب.. رفع أحد الرجلين يده ليقرع الجرس لكنّ الأم (مارشا أشارت له بمخالبها كي لا يفعل).. نظرت إلى القفل ثانية واحدة.. و.. كليك! الباب ينفتح تلقائيًا..

ابتسمت في ثقة.. ومن فرجة البابا شممنا رائحة البخور كأقوى ما يكون، وسمعنا موسيقا (الزولو) إياها كأعلى ما يكون.. ثمّة شيء في كل هذا يذكرني بمشاهد الذروة (الكليماكس) في الأفلام السينمائية.. أيًا ما كان ما يحدث بالداخل فهو لن يطول كثيرًا..

وها نحن أولاء نقف في قاعة الاستقبال ترمقنا لوحات (أندي وارهول)، لكنّ لا سكرتيرة شقراء..

الباب، الذي يقود إلى صومعة (ماريانا) مفتوح، ينبعث منه ضوء أحمر شيطاني، والبخور يخرج من الغرفة في جشع..

في حذر دنونا من الباب واسترقنا النظر..

لقد تحولت الغرفة الواسعة الأنيقة إلى مكان غريب هياكل عظمية على الجدران في كل صوب.. نسار مشتعلة في وسط المكان حيث كانت النافورة الصناعية.. نجوم خماسية مرسومة على الأرض، ودائرة طبشورية أمام النيران..

الموسيقا عالية جدًا، فهذا المكان مصدرها إذن..

ووسط الدائرة كانت (ماريانا) واقفة.. وأدركت من الوهلة الأولى أنّ هذه حقيقتها التي كانت تخفيها وراء مظهر الفتاة الرقيقة الغامضة..

كانت ترتدي أسمالًا وقد لطخت وجهها بصبغة حمراء - أم هي دماء؟ - وشعرها ثائر كالبراكين، وتتلوى كالأفاعي مع الموسيقا..

وكانت تمسك بخنجر طويل مخيف الشكل في يدها اليسرى..

استغرق هذا الكشف البصري ثلاث ثوان هي التي استغرقناها حتى دخلنا الحجرة.. وفي الثانية الرابعة رأيت (هاري) جالسًا على الأرض القرفصاء على بعد مترين من الدائرة، ومن اللحظة الأولى عرفت أنه ليس في وعيه.. ثمّة مخدر ما يؤدي عمله على خلايا عقله الآن..

شعرت (ماريانا) بنا فاستدارت ببطء..

كانت عيناها حمراوين بلون الدم.. عرفت هذا برغم الضوء الأحمر..

* * *

صرخ (جيمي) وداري وجهه الصغير في بطني.. (ويقولون إن صغار اليوم يستحيل إفزاعهم).. يبدو أن (جيمي) قد رأى ما فاق الحدود..

- «ماما! أنا خائف ف ف! فلنعد للبيت!»

اعتصرت وجهه في حزم، ورفعت رأسي لأرى ما يحدث..

بصوت كالفحيح قالت (ماريانا):

- «الأم (مارشا)! لقد انتظرتك طويلًا!»

واصلت (مارشا) تقدمها الحثيث إلى مركز الغرفة، وقالت:

- «(ماريانا)! إن حسنك يزداد.. ومن العسير أن يصدّق المرء أنك في سني!»

الساحرتان تتبادلان النظرات في الضوء الأحمر الكابوسي..

قالت (ماريانا) بصوتها الثعباني المرعب:

- «أنت بارعة حقًّا أيتها الأم.. إنني لم ألتق بك وجهًا لوجه قط..»

- «وأنت قوية.. لقد خدعتني مرارًا وحرمتني من حارس مخلص كنت اعتبره إبنًا لي..»

- «هل أحضرت الدمية؟!»

مدت الأم (مارشا) يدها في ثنيات ثيابها، وأخرجت دمية..

دمية الـ (فتيش) المصنوعة لي!

* * *

صرخت وأنا أتراجع للوراء:

- «الأم (مارشا)! لقد كانت الدمية معك منذ البداية! إذن كانت (ماريانا) بريئة طيلة الوقت!!»

ضحكة زنجية طويلة رفيعة أطلقتها الأم (مارشا)، وقالت:

- «يا ابنة ليس الصدق من صفات السحرة.. إنهم ملعونون في كل الأديان.. لهذا لا تثقي بهم أبدًا..»

ثم استندت إلى عصاها، ووضعت يدها على ظهرها متألمة:

- «منذ البداية كنت أصبو لهذه التعويذة التي تعيد الشباب.. كنت بحاجة إلى دمية (فتيش) لامرأة.. وقطرات من دم رجل تحبه هذه المرأة..»

أضافت (ماريانا) في عذوبة:

- «يمنحها بكامل إرادته!»

- «... يمنحها بكامل إرادته.. ثم يأتي الجزء المعقد الذي كنت أجهله، والذي تعرفه (ماريانا) جيدًا لأن سحرة (بورت ريكو) أكثر براعة منا.. كان الوقت ضيقًا.. وزوجك ـ ذلك الأحمق ـ واقع تمامًا في براثن (ماريانا)، لذا فكرت في قتلها أو انتزاع السر منها.. لكنّ لا جدوى..»

وتأوهت في حسرة، وأردفت:

- «الشباب! إنني أتحول إلى مومياء يومًا بعد يوم.. بينما هذه الشيطانة تصغر وتزداد سحرًا.. كان لدى (ماريانا) كل شيء تحتاج إليه كي تستعيد شبابها في عيد السحر.. كل شيء ما عدا دمية الـ (فتيش) الخاصّة بك.. كانت في مأزق والوقت ضيق لا يسمح لها بأن تبدأ من جديد مع زوجين آخرين.. وكنت في مأزق لأن الوقت ضيق لا يسمح لي باكتشاف التعاويذ الناقصة..»

قالت (ماريانا) وهي تداعب شعر (هاري) المستسلم تمامًا:
- «وهكذا اتفقنا على التعاون معًا.. سنظفر معًا بالشباب.. لقد راحت كل منا تحارب الأخرى، وحكت لكل منكما أكاذيب كثيرة وحكايات معقدة جدًا.. كان كل هذا مضيعة للوقت.. في النهاية اتصلت بي الأم (مارشا) عارضة التعاون.. ستحضر لي الدمية والزوجة والطفل يوم ٣٠ مايو.. وأنا أستكمل التعويذة.. لم يكن أمامي سوى القبول.. فلو لم تتم التعويذة اليوم سأشيخ في غضون أيام لأغدو مثلها أو أسوأ منها..»
كنت أتماسك كي لا يغشي على..
نظرت للباب فوجدت الوغدين يسدانه، وقد بدا عليهما الاستمتاع بالأمر.. لا سبيل للهروب إذن..
صحت وأنا أعتصر (جيمي) بين ذراعي:
- «ولكن ما ذنبنا في هذا؟»
قالت (ماريانا) وهي تداعب ذقنها بطرف الخنجر:
- «يا حبيبتي.. التعويذة تحتاج إلى دماء أسرة يحبّ أفراد بعضها البعض! ليس دم الأب ولا الأم فحسب.. بل الجميع!!»
ثم نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار، وهتفت:
- «فلنبدأ!»

* * *

صحت في الأم (مارشا):
- «لكنك كنت خيرة.. لقد أنقذت حياتنا في (جامايكا) يومًا ما..»
هزت رأسها وأشعلت سيجارًا غليظًا، ونفثت الدخان وسعلت:
- «كح كح! كانت الظروف تختلف وقتها، ولم تكوني في معسكر الخصوم.. اليوم أنا بحاجة لإيذائك كي أسترد شبابي.. فلماذا أتردد؟ أنت تفهمين هذه الأمور جيدًا.. أنتم تذبحون الأطفال في (فيتنام) كي لا يقل دخلكم اليومي من الدولارات.. فلماذا لا أفعل أنا نفس الشيء كي أحتفظ بحيويتي؟»
- «و (جابرييل) الذي أرسلته إلى (جامايكا)؟ هل هذا كذب أيضًا؟»
- «هذا صحيح.. فالغلام ما زال مرهف الحس، وكان سيعرقل مشاريعي هاهنا.. لهذا نفيته مؤقتًا إلى أن ينتهي الأمر..»
كانت (ماريانا) قد فتحت كف (هاري) ودست الخنجر فيها، بينما هو يرمق الأفق بنظرات متصلبة خاوية..
- «إنّه غافل تمامًا.. فقد شرب ترياقي منذ دقائق..»
ثم همست في مسمعه:
- «هلمّ يا (هاري).. إن (لندا) تكرهك حقًّا.. تذكر ما رأيته في البللورة السحرية، وانهض لتدافع عن نفسك!».
بانتشاء ذاهل تأمل الخنجر.. ثم نهض..
وفي عينيه لمحت الكراهية الحقّة..

وعرفت أنني قد انتهيت...

* * *

هنا - بخبرتها الرهيبة - قالت الأم (مارشا) في قلق:
- «(ماريانا).. إن عينيه تتحركان.. يبدو لي أنه ليس.....»
في اللحظة التالية قام (هاري) بعملين في وقت واحد..
أولج الخنجر حتى مقبضه.. ولكن ليس في صدري، بل في صدر (ماريانا).. ثم مد يده في جيبه وانتزع مسدسًا صوبه نحو عملاقي (الكاريبي)، وصرخ في حزم:
- «لا تتحركا!!»
هنا فقط اكتملت الأحداث التي لم تكن قد اكتملت بعد..
أكملت الأم (مارشا) عبارتها التي لم تجد وقتًا كافيًا لتقطعها:
- «... ليس نائمًا.. إنّه يتظاهر بذلك!»
وفي عيني (ماريانا) الجميلتين التمعت نظرة حيرى غير مصدقة، وهتفت وهي تئن:
- «لماذا يا (هاري)؟ كنت سأحيلك إلى (زومبي) خاص بي ي ي ي!»
ثم هوت أرضًا..
وهنا فقط - كما يحدث في أفلام الرعب - رأينا حقيقة وجهها.. لقد راح يتجعد سريعًا كتفاحة ذابلة، وفي غضون دقيقة عرفنا قيمة التعويذة التي كانت تستعملها سنويًا.. لقد كانت (ماريانا) أقبح وأبشع شيء رأيناه في حياتنا.. كان لها وجه مومياء وجسد قرد ضامر..
كانت الأم (مارشا) ترمق المشهد متصلبة، دون وجل ولا خوف ولا أدني علامة تنم عن المفاجأة.. ساحرة ملأى بالكبرياء حقًّا..
صاح (هاري) بها وهو يصوب مسدّسه:
- «هاتي هذه الدمية اللعينة! اقذفيها إليّ!»
فعلت كما أمرها، قدس الدمية في جيبه.. ووضع ذراعه على كتفي وبنظرة حادة تفقد الرجلين، وقال:
- «لو تصرف الجميع بحكمة فلن يكون هناك قتلى آخرون.. سنغادر المكان الآن.. لكنكم لن تجيئوا في إثرنا.. مفهوم؟»
قالت الأم (مارشا) وهي تتفحص جثة (ماريانا) بطرف عكازها:
- «من جديد تتصرف بحمق يا أشقر.. لو كنت مكانك لقتلتنا ونحن تحت رحمتك..»
- «لا أحب قتلك إلا مضطرًا.. فلن أنسى يوم ساعدتني وأسرتي..»
ثم صاح بي أمرًا:
- «(لندا)! انتزعي الخنجر من صدر الشيطانية.. لا نريد أن يجد رجال الشرطة دليلًا ضدي.. خذيه معك»
في تقزز فعلت ما أمر به، وقلت:
- «لكنّ هؤلاء شهود.. وبصماتك في كل صوب.. والسكرتيرة تعرف اسمك...»

- «هؤلاء لن يتكلموا.. وبصماتي أزلتها خلسة في أثناء انشغال (ماريانا) بالاستعداد للطقوس.. أما السكرتيرة فتركت العمل منذ أسبوع أو أقل.. إنها في (كاليفورنيا) الآن..»

ثم أشار للباب دون أن يبعد عينيه عن الثلاثة:

- «أوقفي سيارة أجرة وانتظريني.. إن طائرتنا ستقلع بعد ساعة.. سنعود إلى (فلوريدا)..»

رحت أركض نحو الباب مع (جيمي)..

المصعد.. باب البناية...

سيارة أجرة..

حمدا لله.. حمدًا لله!

لقد انتهى الكابوس يا د. (رفعت).. انتهى..

(ملحوظة من د. (رفعت): في الجزء الباقي من خطابها تعطي (لندا) تفسيرها لما حدث.. وقد رأيت أن أحذف هذا الجزء، لأن (هاري) سيكرر نفس الكلام.. ولكن بشكل أفضل في خطابه الذي أنشره في الصفحة التالية).

* * *

- ١٢ -

تلهاسي في ١ يونيو:
عزيزي (رفعت):
كيف حالك أيها الكهل؟ أراهن على أنك حي ترزق ما دمت تقرأ هذه السطور..
لقد قرأت خطاب (لندا) لك في أثناء كتابته، وعن طريق اختلاس النظرات من فوق كتفها.. وهو خطاب جيد لكنه لا يفسر كل شيء..
الحق يا (رفعت) أنني كنت مفتونًا كعبد لا يمكن إعتاقه، وكنت سعيدًا بهذا التورط.. كل شيء كان يقودني إلى مذبحة لا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) كيف كنت سأنجو منها...
أنا لا أعلم شيئًا عن طقوس الشباب.. لكني أعتقد أن (ماريانا) - بعد قتلنا ـ كانت ستبلل الدمية بدمنا وتحرقها.. شيء من هذا القبيل..
لقد كانت (ماريانا) بحاجة إلى دمية (فتيش) لامرأة بيضاء، وعرفت أن لدى الأم (مارشا) واحدة - هي التي سرقتها من خزانتي - بالإضافة إلى قطرات من دمي وعلاقة حب وثيقة مع زوجتي صاحبة الدمية.. هذا هو كل شيء تحتاج إليه (ماريانا).. وبدأت ألاعيبها معي كي أصير خادمها المطيع وأحضر لها أسرتي كلها عن طيب خاطر..
ثم تم الحلف الرهيب بين الساحرتين.. وكانت هذه هي الخدعة التي انطلت عليّ وعلى (لندا)...
كنت مفتونًا لكنّ خطابك الذي أرسلته لي بتاريخ ٢٠ مايو كان هو بداية الشرخ الذي حدث في قيودي.. وببطء بدأت أتحرر وأعرف من أنا وأين أنا..
أنت أحمق يا (رفعت) وكلامك سخف.. لكنّ خطابك كان يحوي فقرة مهمّة.. تلك الآية من كتابكم المقدس.. هل تذكرها؟
لقد قرأتها في البداية دون عناية.. لكنّ كلماتها ظلت تطاردني ليلًا ونهارًا.. أعرف أنك أرسلت الترجمة الإنجليزية وأن قرانكم الكريم يعتمد على اللفظ العربي أساسًا، لكني لم أنس الآية التالية:
{ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر} و{وفيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه}..
ثم الآية المطمئنة: {وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله}
حقًّا.. أنا وقعت في براثن ساحرة كافرة - بل ساحرتين - تحاول التفريق بيني وبين زوجتي.. لكنها لم تنجح في إيذائي إلا إذا أراد الله (سبحانه وتعالى) ذلك..
مرارا فتحت خطابك وأعدت قراءة هذه الآية الكريمة.. وصممت على أن أقاوم ما يُراد بي..
كان على أن أذهب إلى موعد (ماريانا) لأعرف.. لكني اتخذت احتياطي فابتعته مسدسًا.. أنت تعرف أن شراء مسدس في (نيويورك) أكثر سهولة من شراء علبة تبغ في (القاهرة).. وبالطبع حرصت في شقّة (ماريانا) على ألا أشرب مزيدًا من السوائل الزرقاء.. كنت أسكبها في أصيص النباتات كلما أدارت ظهرها لي.. لكني حرصت على أن أرسم على وجهي علامات العته المذهول، حتى إذا كانت تتوقع هذا منى وجدت ما تتوقعه، وهو شيء لم يخدع ساحرة مخضرمة مثل (مارشا)...

لكن الأوان كان قد فات..

لقد ارتكبت جريمة قتل يا (رفعت)، لكني لست نادمًا على الإطلاق..

إن (ماريانا) استحقت ما حدث لها، ولو عشت الموقف ثانية لفعلت الشيء ذاته.. (لا تترك ساحرة تعيش).. هي ذكرتني بهذه الآية من سفر الخروج في التوراة.. وقد نفذت ما بها حرفيًا.. لكني ضعفت أمام الأم (مارشا) ولا بد أنك تفهم أسبابي..

لقد عادت الأم (مارشا) إلى (جامايكا).. أحيانًا يساورني القلق حين أفكر في احتمالات انتقامها.. إنها تملك قطرات من دمي، وتملك عنواني في (فلوريدا)، لكني أردد لنفسي: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله}.. فأشعر بالراحة والثقة..

أما عن تحقيقات الشرطة في (نيويورك) فلم تسفر عن شيء.. هناك عجوز من (بورت ريكو) وجدوها في شقتها مقتولة.. وسلاح الجريمة مختف ولا توجد بصمات.. إن هذه الأشياء تحدث.. مهاجري (الكاريبي) يهوون قتل بعضهم كما تعلم..

لقد عادت المياه تتدفق تحت الجسر، وحياتي و(لندا) تولد من جديد.. أمّا الدمية فقد دفنتها - مع الخنجر - في أعمق بقعة من تراب الحديقة، حيث لن يجدها إنسان إلا بعد قرون..

بانتظار خطاب منك يا أطيب وأحمق من عرفت.

بإخلاص: هاري شيلدون

* * *

الخاتمة

وكذا انتهت أسطورة الدمية..

لم أتدخل فيها إلا لمامًا وسط الخطابات المتبادلة، ولعل هذه هي ميزتها الأولى، ولا أرجو أن تكون الوحيدة.. إن القارئ العزيز يستحق مكافأة أخرى، هي أن أخرس تمامًا.. فلا أعلق على هذه القصة..

إن رأيي لن يضيف جديدًا.. بل سيلعب دور التعليق الثرثار على الأفلام، حين تحترق السيارة فيصرخ صارخ: السيارة تحترق!

(هاري) قالها يومًا ويبدو أنه كان محقًا..

* * *

في القصة القادمة نبتعد عن الرعب والساحرات ومصاصي الدماء، لنناقش ظاهرة علمية طريفة وإن كانت عسيرة على التصديق..

هل يمكن أن نجد تفسيرًا لكون فتاة حسناء مثل (نجلاء) تعاني من.....؟

لكن لا.. ليس الوقت وقت الكلام...

إن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقدمة

شخصيات الرواية..

- ١-

- ٢-

- ٣-

- ٤-

- ٥-

- ٦-

- ٧-

- ٨-

- ٩-

- ١٠-

- ١١-

- ١٢-

الخاتمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة الدُمية

ليست الدُمى كلها بهيجة مسلية .. ثمة أطفال يهابونها ، وأحيانًا يكونون على حق .. هذه قصة عن دُمى (الفتيش) ، وسحرة (الفودو) ، وطقوس (الكاريبي) ، وكل هذه الأسماء التي قد لا نعرف ما هي .. كلنا ـ بالغريزة ـ نهابها .. وغالبًا ما نكون على حقّ!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ ٢٨٣٥٥٥٤ ٢٥٨٦١٩٢
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
أسطورة النصف الآخر

Notes

[←1] من العسير متابعة هذه القصة دون قراءة الكتيب العشرين (حكايات التاروت) صفحة ٩٢. ويا حبذا لو قرأت كذلك الكتيب الخامس (الموتى الأحياء)..

[←2]

د. (جمال عبد الناصر) أقنعة الرعب.. المكتبة الثقافية ٤٦٦

[←3]

هذا كذب بالطبع.. فقد كتبت الخطابين في يوم واحد كما يلاحظ القارئ..

روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

38

أسطورة
النصف الآخر

ما وراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

ها نحن أولاء نلتقي من جديد، ولكن مع شيء من الغرابة.. لقد تحدثنا في القصص السابقة عن كل الأشياء الكريهة على غرار (هو) - الذي يمشي في الظلال - والدمى المسحورة اللعينة، وفصائل النازيين التي لا ترضى بأن تموت بسهولة، وكل الهراء من هذا النوع..

حسن.. يبدو أن الوقت قد حان لنتحدث عن اشياء غريبة.. هناك أشياء كريهة وأشياء رهيبة وأشياء خارقة للعادة وأشياء غريبة، وقد اخترت اليوم القائمة الأخيرة..

أغلقوا باب السرداب وتأكدوا من أن الأشباح لن تغادره.. أغلقوا المزلاج بإحكام وتعالوا هاهنا..

تعالوا إلى العجوز (رفعت إسماعيل)، أستاذ أمراض الدم المتقاعد وهاوي الأشباح الذي أرغمه كل شيء على هذه الهواية...

هل ستقرءون هذه القصة في الشتاء؟ إذن أضرموا النيران في الموقد ـ المدفأة ـ الراكية وانكمشوا جيدًا لتنعموا بالدفء..

هل ستقرءونها صيفًا؟ إذن أغلقوا النوافذ بإحكام.. إن شخصًا حيًّا يغمره العرق لخير من جثة باردة..

والآن هل استعددتم تمامًا؟

أرجو ألا ينهض أحدكم فجأة ليشرب كوبًا من الماء أو.. أو.. لأن هذا يقطع حبال أفكاري كما تعلمون..

سأحكى لكم حكاية النصف الآخر..

* * *

الفصل الأول:

لا أهميّة له سوى الحشو
ويمكن لسريعي الملل أن
يبدءوا بالفصل الثاني

قالت (نجلاء):

- «الواقع يا د. (رفعت) أن ما أشعر به لا يتجاوز مجموعة من الخواطر واللمحات والانطباعات التي قد تكون حقيقة، وقد تكون وليدة خيال امراة لم يتعلم قط كيف يهمد أو ينام...

«إن لكل قصة بداية.. ومن الخطأ أن نقلب الغلاف الأخير كي نعرف النهاية لأن مبرر وجود القصة يتلاشى بهذه الطريقة.. وبدايتي كما تعلم كانت في (القاهرة).. في (شبرا) بالتحديد..»

«إن أبي موظف بسيط من تلك الطبقة التي نعتبرها (مستورة).. فهو لم يرنا مذاق الثراء لكنه - أيضًا - حمانا من لدغة الجوع، وكان أبًا من الطراز الذي يمكن أن تضعه في القاموس، وجواره سهم يشير إليه مصحوبًا بكلمة (أب).. هل تعرف جيل الآباء ذوي الشارب الكث والبطن الكبير. الذين يعودون للدار ظهرًا حاملين الجريدة والبطيخة، والعرق يسيل على صلعتهم؟

وتكون أمي - الريفية البارة - قد أعدت طعام الغداء، فيلبس جلبابه ويصلي الظهر ثم نحتشد حول الطبلية.. كنا من الطبقة التي تملك مائدة طعام، لكنّها تفضل الأكل على الطبلية. ولم تكن مائدة الطعام تستخدم سوى للاستذكار.. هل تعرف هذه الطبقة؟ حسن!

بعد هذا يجلس أبي في الشرفة مستمتعًا بفرد ساقيه على البلاط البارد، وتأتي أمي بصينية بها البطيخة مقطعة، فيبدأ في التهامها ولا ينسى أن يحتفظ بالبذور السوداء، فهي تتيح لهما ساعات متعة لا بأس بها في أمسية صيف أخرى..

«بعد هذا يتجشأ مرة أو مرّتين، ويعلن أن ميعاد النوم قد حان... كنا في ذلك الزمن السعيد حين كان الناس ينامون عصرًا، ولا ينزلون إلى الشارع بحثًا عن عمل جديد لزيادة الدخل..»

«وهكذا.. يجرع جرعتين من القلة الموضوعة على السور، والتي نقعنا في الماء المحيط بها بذور المشمش لتلين، ثم يعلن من جديد أن وقت القيلولة قد حان.. صحيح أنني و(ناهد) لا نرغب في النوم.. صحيح أننا مليئتان بالطاقة راغبتان في مزيد من اللّهو، لكنّ كلمة أبي هي حكم لا يُرد..»

انتهيت من رشف قدح القهوة، وبحرص وضعته على الزجاج.. ثم سألتها وأنا أعود إلى استرخاء جلستي:

- «(نجلاء).. حين جئت هاهنا كنت أحسب أنك تدخرين لي ما هو أكثر من انطباعاتك عن طفولتك..»

بدورها جرعت من مشروب المياه الغازية.. ولاحظت أنها تجرع جرعات أكبر مما ينبغي لفتاة.. لا بد أنها ستتجشأ الآن..

بالفعل تجشأت، لكنّ داخل فمها المغلق، فانتفخ خداها للحظة.. ثم قالت:

- «إنني سمعتهن يقلن ما هو أكثر وأطول في برنامجك (بعد منتصف الليل)، ولم تعترض وقتها.. بل قلت إن كل هذا يضعك في الجو...»

بحثت عن رد يفسر هذا التناقض ويحرجها، فلم أجد..

لذا آثرت الصمت، وأشرت لها كي تستمر في قصتها..

قالت:

- «بعد هذا التحقنا بالمدرسة.. وكنا.....»

* * *

وكعادتي قمت بضبط ساعتي على ردود فعل منتظمة كلما مضت دقيقة أو دقيقتان.. على غرار (مم؟).. (هم م م؟).. (آه ه!) (هم؟).. (هاها).. مما يوحي لها بأنني أتابعها بدقة.. وشرد ذهني..

بدأ الأمر بمكالمة هاتفية من د. (محمد شاهين).. هل تذكرون أستاذ (الأنثروبولوجي) طيب القلب الذي عرفته بسبب سوء فهم قاتل في قصة (آكل البشر)؟ لقد كدت أضربه وقتها، ثم انعقدت بيننا صداقة حميمة إلى حدٍ ما.. فنحن في عالم لا يحوي أنصاف الحلول.. إما أن تكون ظالمًا أو مظلومًا، سارقًا أو مسروقًا، خادعًا أو مخدوعًا.. لهذا وجدت أنني أميل إليه لأنّه - (محمد شاهين) - مظلوم مخدوع مسروق دائمًا..

أعرف أن الشخصية القويمة هي التي لا تَظلم ولا تُظلم.. لا تَخدع ولا تُخدع.. لا تَسرق ولا تُسرق.. لكنّ أين هذه الشخصية اليوم؟

لهذا وجدت أنني أميل إلى مصادقة العصفور وليس الأفعى..

تلقيت منه مكالمة هاتفية، قال فيها إنّه بحاجة إلى مشورتي..

- «لماذا يا أبا حميد؟»

- «إن الأمر يتعلق بابنة أختي.. (نجلاء)..»

وكنت أعرف أن له أختًا جاءت من قريته مباشرة إلى بيت زوجها في (شبرا).. وهى فلاحة طيبة باسلة لا تعرف شيئًا عن أي شيء ولا يهمها معرفته..

- «خيرًا؟ هل هي مصابة بسرطان الدم؟»

ثم اعتذرت عن هذه الغلظة في التعبير.. فلماذا يطلب أحدهم رأي طبيب أمراض دم إذن؟ ثم اتضح لي أن الفتاة تريد الجانب الآخر من شخصيتي: صائد الأشباح الهاوي..

وعرفت أن (نجلاء) في الثالثة والعشرين من عمرها.. غير متزوجة.. تخرجت في كلية الحقوق.. تتدرب في مكتب محام شهير بلا أجر.. وظروفها الماديّة لا تفوق ظروف أية فتاة أخرى في ظروفها!

قال لي (محمد شاهين):

- «إن (نجلاء) تعاني مشكلة معينة.. ولن أستطيع الكلام أكثر في الهاتف لكننا بحاجة الى معرفة رأيك.. هل الأمر يقع في دائرة الخوارق.. أم في دائرة الأمراض النفسية؟»

ابتسمت وقلت متخيرًا ألفاظي:

- «لا بد أن (الحاجة) أختك قد قامت بعمل اللازم في هذا الصدد.. ولا بد أن شيوخًا كثيرين من طراز (الهدهد المصاب بالبواسير) قد رأوا الفتاة..»

ضحك طويلًا في سماعة الهاتف، ثم قال:

- «أنت محق في استنتاجاتك كالعادة.. لكنهم جميعًا فشلوا حتى إن أختي صارت - مع كثير من الامتعاض - على استعداد لسماع رأي أمثالك..»

- «إن هذا يملؤني قلقًا.. لكني بحاجة لأن أرى الفتاة..»

- «هل أنت في القسم غدًا؟»

- «نعم.. وليكن هذا في الحادية عشرة صباحًا..»

بعد قليل من الصمت، سألني في توجس:

- «أ.. (رفعت) هل سرطان الدم احتمال وارد حقًّا؟!»

هنا صعد الدم إلى رأسي، ووضعت سماعة الهاتف حتى لا أنفجر في وجهه.. إن هذا الرجل لن يكف عن السذاجة.. كأنها واجب مقدس!

* * *

وطبعًا - لكم أن تراهنوا على ذلك - كنت قد نسيت كل شيء عن الموضوع في الموعد المحدد.. إلى أن انفتح باب مكتبي ليدخل (محمد شاهين) بوجهه المبتل عرقًا، ويلثمني مائة مرة على خدّي.. ثم يلتقط أنفاسه وقد كاد يُصاب بنوبة قلبيّة، ثم قدّمني إلى (نجلاء)..

وكنت قد كونت فكرة مسبقة - لم تخطئ كثيرًا - عن مظهرها، فـ (محمد شاهين) لا يمكن اتهامه بالجمال، وكذلك أخته بالتأكيد..

إذن لن تكون (نجلاء) بارعة الحسن أبدًا ما لم يكن أبوها في جمال أبطال الأساطير الإغريقية..

وكانت (نجلاء) متوسطة الجمال حقًّا، لكنّ لها ذلك الوجه المريح الذي يبعث في نفسك الشعور بأنك تعرفها من قبل، مع مسحة الاحترام والوقار النفسي مما يشي بأصل طيب.. (بنت ناس) حقيقيّة رباها آلها جيدًا..

دعوتها للجلوس، وطلبت العامل كي يحضر زجاجة مياه غازية وقدحي قهـ.....

- «بل قدح واحد يا (رفعت).. فأنا سأنصرف لأن عندي محاضرة.. ثم إن انصرافي سيتيح لها حرية الكلام..»

- «كما تحب..»

وسرني التخلص منه لأنّه سيزيد الأمور سوءًا، ولن يترك لها الفرصة كي تقول كلمة مفهومة واحدة..

بعد هنيهة صمت سألتها كي لا تنهمك في التحديق في البساط إلى حد إحداث ثقب به:

- «يُمكنك الكلام إذن..»

هنا جلب لنا العامل ما طلبنا، ورمق الفتاة بنظرة خبيثة كأنه قد فهم كل شيء، وكاد يغلق الباب علينا عند انصرافه لولا أنني (شخطت) فيه.. لا أحب التذاكي ولا المتذاكين أبدًا..

عدت أسألها عن قصتها، وأنا أرجو أن ينتهي هذا الهراء سريعًا..

قالت وهي تتحسس زجاج مشروبها البارد في شرود:
- «د. (رفعت).. هناك من يتألم ويفرح ويحلم بدلًا مني!».

* * *

الفصل الثاني:

لا أهميّة له سوى التطويل
ويمكن لســريعي المــلل البدء
بالفصل الثالث

- «فليكن ذكرًا يا رب.. ثم ليكن ما يكون بعدها»

لا بد أن عبارة كهذه كانت تتردد في ذهن الأستاذ (عبد الجواد)، وهو ينتظر قلقًا في الصالة خارج غرفة النوم، لفافة التبغ توشك على أن تحرق أنامله، بينما الصرخة الطويلة المعذبة تدوي من وراء الباب المغلق.. والداية (أم أيمن) تصاحب هذا بإيقاعها الخاص (ياالله! خليكي تخلصي!).. فتزداد الصرخات شراسة، ويضع د. (محمد شاهين) شقيق زوجته كفه على معصمه يدعوه للهدوء..

الصالة كئيبة ضيقة، تتناثر الأطباق على مائدة الطعام.. فقد باغتت آلام الولادة الأم وهي تلتهم عشاءها، وكانا في ذلك الزمن حريصين على تناول العشاء على المائدة، قبل أن يصنع له الأسطى (طه) تلك الطبلية العتيدة التي صارت ملتقى الأسرة.. في كل ركن من الصالة تجد منشفة ملقاة، أو سروال منامة خلعه وهو يرتدي ثيابه على عجل، أو خرقة لا تدري دورها بالضبط لكنّها هناك..

من المطبخ تهرع (أم بلبل) حاملة وعاء الماء الساخن، متجهة إلى غرفة النوم.. لا ولادة دون ماء ساخن كما أنه لا حافلة دون نشال.. ويستمر الصراخ.. ثم يدوي صوت عواء المخلوق الصغير الذي - لأول مرة من تسعة أشهر - يطرد من دفء الرحم وظلامة المريح للأعصاب..

وتخرج الداية بوجه مكفهر بعض الشيء لتصارح الأب بأنه رزق بطفلة حسناء.. لا.. بل بطفلتين! لقد كانت المرأة حاملًا في توءمين..

إن الأمور تسير هكذا دومًا.. أكثر الرجال ولعًا واشتياقًا لإنجاب الذكور يلقون عقابهم فورًا.. لكنّ (عبد الجواد) كان في حالة تفكك نفسي وجسدي كامل، فلم يجد في روحه ما يسمح بالشعور بخيبة الأمل، بل وجد الدموع ولا شيء سواها..

طفلتان! مصيبتان على الأرجح، لكنه سيجد الوقت الكافي للأسى فيما بعد، أمّا الآن فالمهم الإطمئنان على البائسة الغالية..

وكانت المرأة بخير، وقد راحت (أم بلبل) تردد عبارات التهنئة الممزوجة بالعزاء، وتمليه قائمة لا بأس بها بلوازم المولودتين.. كان هذا عصرًا لا يعيش الطفل فيه ما لم يشرب المحيطون به (المغات).. ولا تعيش النفساء ما لم تلتهم ثلاث دجاجات يوميًا..

وكان (عبد الجواد) يعرف كل هذا، وقد أعد كل شيء للحصول على نصيبه في الجمعية التي نسقها مع زملائه في العمل، ويتقاضاه في هذا الشهر بالذات.. إن أربعين جنيهًا لمبلغ فادح حقًّا يسمح بشراء كل ما يحتاج إليه الموقف..

وتسأله الداية عن الاسم الذي سيختاره للتوءمتين، فيقول دون استشارة الزوجة (وهذا شيء طبيعي.. إنه هو الأب فما دخل الأم في الموضوع؟):

- «سيكون اسم واحدة (نجلاء) والأخرى (ناهد).. ولكن كيف أميز بينهما؟»

لكنّ حين رأى الرضيعتين أدرك أن سؤاله لا مجال له ها هنا، فالتوءمتان غير متشابهتين.. وكانت واحدة منهما تملك وحمة كبيرة في فخذها، ولها رأس مستطيل غريب الشكل.. أمّا الأخرى فكانت حسناء لو أمكننا قول هذا عن رضيع ملوث بالدم، ما زال وجهه مجعدًا كقرد صغير..

ذات الرأس المستطيل ستحمل اسم (نجلاء).. أمّا الأخرى فستحمل اسم (ناهد).. لم يكن ضليعًا في اللغة العربيّة، لذا افترض أن اسم (ناهد) يوحي بجمال أكثر مما لاسم (نجلاء).. ثم إن تماثل حرفي (النون) بدا له موسيقيًا إلى حد لا يوصف..

وراح يلوك الاسم بين شفتيه كمن يتلمظ:

- «(ناهد عبد الجواد).. (نجلاء عبد الجواد).. لا بأس.. لا بأس على الإطلاق!»

* * *

وواءءء! ووواءء!

وحتى في ساعات الفجر الأولى..

* * *

تقول (نجلاء):

- «لم تلحظ واحدة منا شيئًا غير معتاد في حياتها..»

لقد كبرنا كأي توءمين آخرين.. ولم يكن بيننا تشابه لهذا نجونا من الملحوظات السخيفة المعهودة لدى الكبار، ولم تحتر المعلمات بشأننا، ولم تحاول أمي أن تميزنا بعلامة ما..

وكما هي العادة، تشابهنا في بعض الصفات.. لكن اختلافنا كان أشد، وهذا طبيعي لإظهار التضاد بيننا.. إن اللون الأسود لا يصير أسود إلا لأن هناك أبيض.. والسماء ليست سماء إلا لأن تحتها أرضًا.. هذا طبيعي..

من البداية بدا للقوم أنني اتخذت نموذج الفتاة الذكية اللامعة المنكبة على دروسها، لكنّها متوسطة الجمال منطفئة تمامًا اجتماعيًا، وبكثير من العسر يمكنها أن تنطق ثلاث كلمات ذات معنى..

أما (ناهد) فاتخذت نموذج الحسناء العابثة خالية الرأس، التي تعيش أتعس لحظات حياتها أمام الكتاب، وتلقى ـ برغم هذا ـ كل تدليل المعلمات.. إن المعلمات يتصرفن بطريقة مختلفة مع الطالبة الجميلة مهما بلغ غباؤها، ومهما بلغ حبهن للعدل..

وهكذا.. كنت أحظى أنا بالتشجيع الدراسي بينما تحظى هي بكل شيء آخر.. وفي المنزل كان لها مكان خاص ومنزلة متميزة لديَّ ابي.. وكان يقول لها في غضب مصطنع:

- «ليت لك ربع عقل أختك ومثابرتها..»

لكنّ وجهه كان يقول العكس.. كان يقول إنّه حقًّا ليس غاضبًا تمامًا كما يدّعي.. كان يقول إنّه - كأكثر الرجال - لا يؤمن بأهمية عقل المرأة.. المهم هو وجهها.. وفي هذا الصدد نالت (ناهد) درجة الامتياز أمّا أنا فنجحت بصعوبة..

وأحصل على درجة ٩٧ بالمائة في الشهادة الابتدائية، بينما تحصل هي على 76 بالمائة تزغرد أمي وتوزع أكواب (السوبيا) الباردة على الجيران، وتقول كأنما تمدحني:

- «إن (نجلاء) تملك عقل رجل!»

فتقول الجارات الشمطاوات:

- «و (ناهد) تملك وجه امرأة.. ثم إنها لم ترسب.. لقد نجحت نجاحًا لا بأس به أبدًا!»

كنا طفلتين بينما هذه المشاعر تمزق روحي..

الآن دخلنا مرحلة المراهقة، فكيف بذات المشاعر إذن؟

كلا يا د. (رفعت).. لا تظلمني.. أنا لم أحسد أختي ولم أتمن قط أن يحترق وجهها بالحمض مثلًا.. كما لم أتمن أن يكون لي وجهها.. كل ما هنالك هو أنني شعرت بنفاق وغباء هذا المجتمع الذي يحكم على الناس بمجرد النظر لوجوههم.. يُمكنك - وأنت لست جميلًا يا د. (رفعت) - أن تبرع في عملك، وأن تكون طاهرًا ساميًا ذكيًا، وأن تضحك للجميع وتغسل وجهك كل صباح، لكنهم - صدقني - لن يضعوك أبدًا في مكانة د. (رأفت) زميلك هاهنا.. و (رأفت) هذا لا يملك أية موهبة سوى ملاحة قد لا يستحقها..

* * *

كانت (ناهد) حمقاء، وحسبت أن مهمتها الوحيدة في الكون هي استعراض جمالها الفاتن.. أمّا أنا فكنت كالقطار السريع لا أعرف لي طريقًا خارج القضيب الحديدي الواصل بين بيتي والمدرسة، أقطعه في دقائق وأنا أنظر إلى قدمي، فلو استبدلوا بحرًا بشارع (شبرا) لما لاحظت ذلك، لكنّ (ناهد) كانت ستلاحظ حتمًا..

بات واضحًا أن (ناهد) ستتزوج قبلي.. في الغالب بعد إنهاء دراستها الثانوية، لأنهّا ليست من الطراز المناسب للتعليم.. ثم إن الخُطّاب بدءوا يفدون إلى دارنا وهي بعد في السنة الأولى من المدرسة الثانوية!

وهو حدث جلل كفيل بجعل صاحبته ملكة متوجة في المدرسة الثانوية، حيث لا كلام لدى البنات المفعمات بالأحلام إلا عن هذا اللغز الأسطوري الرهيب: العريس...

وفي الصف كانت (ناهد) قد أنشأت لنفسها عصابة صغيرة، من الفتيات المدركات لجمالهن، وكن يجلسن في نهاية الفصل يمارسن حيلًا صغيرة على المدرسين، أو يمزحن بصوت خافت ولا يتابعن حرفًا مما يُقال..



أما (ناهد) فاتخذت نموذج الحسناء العابثة خالية الرأس ، التى تعيش أتعس لحظات حياتها أمام الكتاب . .

أما أنا فكنت أجلس في موضع متقدم.. وأثبت ذاتي بأن أكون أفضل وأذكى، ولا أترك سؤالًا يلقيه المعلم إلا أجبته.. عندها كان ينظر للصف الخلفي ويقول في تهكم:

- «ليت لك ربع عقل أختك يا (ناهد)..»

فيجيء صوتها الضاحك من خلفي:

- «لقد اختارت هي العقل واخترت أنا الجمال ولم يعد بوسع واحدة منا أن تتراجع!»

فيهز المعلم رأسه.. إنّه يخجل طبعًا من أن يعترف بصحة هذا.. لكنه يرى ويعرف جيدًا.. لقد تقاسمنا كل شيء كما تقول (ناهد) ولا يوجد تفسير آخر..

* * *

لكننا لم نتشاجر قط، ولم نكن قطًا وفأرًا كما تتصور...

كنا شقيقتين.. صحيح أنني كنت أملك صديقاتي وكانت هي تملك صديقاتها، وكان لي عالمي وكان لها عالمها.. لكننا - في موعد الانصراف - كنا ننصرف معًا، ليبدأ الجزء الثاني من يومنا.. خاليًا من الضغائن لكنه - كذلك - خال من المودة الحارة.. إن السلام لا يعني الحب دائمًا.. قد يعني (عدم الحرب) كذلك، وكان هذا هو السلام السائد بيننا..

ثم دارت الأيام - التعبير المبتذل القديم - حاملة لنا بعض المسرات المحدودة كأخ ذكر جاء على غير موعد، وبعد أعوام طويلة من عدم الإنجاب.. أي أنني أكبر هذا الأخ بخمسة عشر عامًا أو أكثر قليلًا، وكانت هناك بعض الأحزان التي لا تخلو منها حياة أية أسرة كوفاة عمتي، وإصابة أبي بنوبة قلبيّة شفي منها لكنه لم يعد قط كما كان.. وكانت فكرة طفله الصغير جدًا الذي يوشك أبوه على الرحيل تؤرق أبي كثيرًا..

- «أولاد الشيب يتامى!»

هكذا كان يردد دائمًا وهو يرمق الصغير يقرقر ضحكًا، أو يهرول في الصالة بمشيته الحديثة المضحكة المترنحة...

والآن انتهت دراستنا الثانوية، ولم يكن ما حققته فيها يماثل ما انعقد عليّ من أحلام.. ربما كان اضطراب حالتي النفسية أو اضطراب الظروف هو السبب.. كنت أتمنى أن أكون مهندسة لكنّ لم تبق لي سوى كلية الحقوق، وشتان بين أن تدخلها لأنك تحب القانون وأن تدخلها لأنّه لا يوجد سواها..

أما عن (ناهد) فمن الطبيعى أنها رسبت.. كلنا كنا نعرف ذلك وننتظره كي تبدأ الجزء الثاني من حياتها..

- «إن (ناهد) لا تصلح لتلقى العلم.. دعونا نزوجها إذن»

قالها أبي كأنما يضيف جديدًا، وكأن هذا لم يكن مخطط حياة (ناهد) منذ كانت في السادسة من عمرها..

وينفتح الباب ليدخل (محمود شهاب).. مهندس في الثلاثين من عمره.. له ملامح (رشدي أباظة) لو أنّ هذا الأخير كان أحول العينين قليلًا، ولم يكن من هذا الطراز الحديث الباحث عن عقل المرأة، أو المؤمن بدور المرأة في المجتمع.. كان يريد زوجة تسر عينيه وكفى.. والحق أنه كان أحمق.. إن

(ناهد) لا تصلح زوجة على الإطلاق.. إنها لوحة جميلة يعلقها في غرفة الصالون لا أكثر، وعليه بعد هذا أن يبحث عن زوجة حقيقيّة!

لكن (محمود) تزوج (ناهد).. وكان بيتهما السعيد في (حلوان)، مما جعلهما بعيدين عنا حقًّا، وكانت حياتهما هانئة على الأقل في بدايتها.. لم يكن شيء غريب في كل هذا.. لأن القصة لم تبدأ بعد.

* * *

الفصل الثالث: لا أهميّة له سوى التطويل ويمكن لسـريعي المـلل البدء بالفصل الرابع

قلت لـ (نجلاء):

- «كل هذا جميل ويسرني سماعه، لكني مازلت بانتظار لحظة ظهور مصاص الدماء، أو انفتاح قبر عمتك لتخرج منه جثتها المتآكلة جاحظة العينين.. لقد اعتدت سماع ورؤية هذه الأشياء، وإنه ليثير قنوطي أن.....»

- «سيخيب أملك إذن!»

قالتها وهي تضع زجاجة المياه الغازية على الزجاج، وتتجشأ مرّة أخرى بطريقتها المكتومة التي تكور خديها، وأردفت:

- «لن تجد شيئًا من هذا في قصتي.. إنني أتحدث عن.. عن أطياف المشاعر!»

أطياف المشاعر! إنها الثانية عشرة ظهرًا وأنا مرهق جائع ثم تجيء هذه لتحدثني عن أطياف المشاعر.. ساعة كاملة ولما يبدُ لقصتها رأس ولا ذيل.. إنها - ببساطة - تريد أن تشتم أختها الحسناء (ناهد) وأن أوافقها على ذلك وإلا كنت وحشًا جاهلًا..

أمري لله.. أكملي يا (نجلاء) هانم..

* * *

قالت (نجلاء):

- «وفي يوم كنت عائدة من الكلية بأسلوب القاطرة الشهير المأثور عني.. ذات المشية التي كنت أمشيها وأنا في المدرسة الابتدائية، ولا فارق سوي أنني تعلّمت ركوب الحافلات المزدحمة والوثب في أثناء سيرها، واحتضان حقيبتي كي لا يدسّ أحدهم يده فيها..

كنت أعبر الميدان المزدحم أمام الجامعة حين.. حين ماذا؟

لا أدري بالضبط.. يبدو أنني طرت في الهواء وأنا أسمع صوت فرامل حادة عنيفة مولولة، ثم سقطت كجوال القطن على الأسفلت.. ولم أصدق أنني أستحق كل هذه الضوضاء، وأنّ هذا يحدث لي أنا بالذات..

كنت خجولًا أمقت لفت الأنظار، حتى لو كان هذا بسبب حادث سيارة، لهذا سارعت بالنهوض ألملم ثوبي وأفتش عن حذائي الذي طار في مكان ما، ورأيت صاحب السيارة يصيح مغضبًا:

- «حمقاء! ألا تفتحين عينيك أبدًا؟»

لم أرد لكنّ المحتشدين المتحمسين قاموا باللازم، وسرعان ما ابتعدت عنهم في توتر كأنني حيوان غريب برّي.. لست من الطراز الذي يقف ليولول في هستيريا أو يلوم السائق.. إنني حية وكل أطرافي تتحرك.. فلا داعي لمزيد من الضوضاء أرجوكم..

وهرعت أتواري باحثة عن الحافلة التي ستعيدني إلى البيت..
فقط حين ابتعدت، أدركت أن كل عظامي تؤلمني، وحين عدت للدار لم أخبر أحدًا بما حدث؛ لكني - أمام المرأة - رأيت الكدمات في كل صوب.. حقًّا لقد كانت صدمة قوية..
نمت كالقتلى حتى منتصف الليل، ثم أيقظتني أمي حاملة صحفة عليها طعام العشاء وكوب لبن، ولثمت جبيني وقد شعرت بأن مرضًا ما قد بدأ يغزو جسدي، وكل الامهات - كما تعلم - يعتقدن أن كل الأمراض تبدأ وتنتهي بالبرد.. لماذا أصر على ارتداء هذا الـ (بول - أوفر) الخفيف بينما أضطر للخروج في السابعة صباحًا كي ألحق بالكلية؟
قالت لي كذلك إن (ناهد) وزوجها كانا في زيارتنا الليلة، وإن (ناهد) كانت مريضة بدورها وكأن كل عظمة من عظامها قد تم تهشيمها بيد الهاون.. وقد رفض الزوجان أن يوقظاني..
ثم أعربت عن حنانها الأمومي قائلة:
- «ألا ليت مصيبة تأخذكما معًا لأستريح من قلقي عليكما!»
وضربت كتفي في غل ثم تمنت لي ليلة طيبة.. والاستذكار؟ فليذهب إلى الجحيم.. صحتك أهم من أي شيء..
وأطفأت النور..

* * *

في الأيام التالية يا د. (رفعت) لم ألحظ شيئًا غير طبيعي.. إن الآلام تحدث لنا جميعًا وأكثرها بلا تفسير..
كم مرة شعرت فيها بالم في كاحلك، أو وخزة في صدرك، أو رأيت كدمة لا تفسير لها على ذراعك؟ كم مرة شعرت فيها بصداع لا تفسير له؟ كلها أشياء تحدث ولا تستحق التعليق..
في نهاية الأسبوع قمت مع أبي بزيارة (ناهد) في دارها في (حلوان).. إنها رحلة شاقة حقًّا. لهذا لا نقوم بها إلا مرة في الشهر، ولم تكن حياة (ناهد) ذات منغصات خاصة أكثر من أية حياة زوجية أخرى..
كانت (ناهد) مدللة لم تتحمل مسئولية قط، ولم تعد كوب شاى لنفسها، ثم أدركت الحقيقة المريعة: إنها لن تظل أميرة للأبد... إن زوجها المهندس المكافح يحتاج إلى ربة بيت كذلك!
كانت لديها طفلة صغيرة في العاشرة من عمرها تعينها إلى حدٍ ما، وهي خادمة من قرية أمي.. لكنّ ماذا بوسع طفلة أن تفعل أمام هذا الكم المريع من المهام؟ الغسيل.. الطهي.. الكي.. التنظيف..
ووسط هذا كانت (ناهد) تحاول أن تقنع نفسها أنها سعيدة.. لكنّ خيبة الأمل كانت جلية على وجهها، وللمرة الأولى في حياتي شعرت بأنها تحسدني!
جلس أبي مع (محمود) في الصالة يثرثران، ويقرران سياسة الدولة وهل ينبغي على (عبد الناصر) أن يوقف حرب الاستنزاف أم لا، بينما رحت أساعد (ناهد) في الغسيل.. لقد ابتاع لها (محمود) غسالة ثياب كهربية من ذلك الطراز الرهيب الذي لم يكن هناك سواه وقتها..
وكانت (ناهد) واقفة على يسار الغسالة، تمد يدها بالماسك الخشبي لتلتقط قطعة قماش طافية فوق سطح الماء، لكنّها تعثرت واضطرت إلى الاستناد إلى جسم الغسالة المعدني.. هنا يجب أن

أقول إنها كانت حافية القدمين، وإن سلكًا ما كان عاريًا في هذا الجهاز الغير محكم الصنع.. و.....

هي ي ي ي ي ي ي ي!

دوت صرختها المعذبة الشنيعة المليئة بالانتفاض والاهتزاز، ورأيتها تتصلب دون أن تتخلى عن تمسكها بالمعدن، و.....

في اللحظة التالية شعرت بقوّة هائلة ترجني رجًا من الداخل... يد عملاق تعتصر قلبي وتحاول اقتلاعه مني أو اقتلاعي منه...

وصرخت بدوري..

وفي غمرة الألم أدركت أن أرض الحمام المبتلة قد أغلقت الدائرة الكهربية المارَّة بجسدينا.. وكنت حافية القدمين كذلك..

إنه.. إنّه المو.. و.. و.. ت!

سريع التصرف كما يحدث في السينما - أليس شبيهًا بـ (رشدي أباظة) لولا بعض الحول؟ - اندفع (محمود) إلى الحمام ليرى المشهد العجيب..

ودون أن ينتظر ثانية للفهم وثب إلى لوحة (المنصهرات) الكهربية المجاورة للحمام، فانتزع الأجسام الخزفية كلها وألقاها أرضًا، وانقطع التيار الكهربي عن المنزل..

وفي اللحظة التالية سقطنا على الأرض معًا كجلمودي صخر حطهما السيل من عل، كما لا بد أن (امرؤ القيس) كان سيصفنا.

بعد هذا كان المشهد التقليدي: أبي يدلك وجهي ويلدغه، بينما (محمود) يسقي زوجته بعض الماء.. وكلانا - أنا وهي - على الأرض المبتلة باردتي الأطراف زرقاويي الشفاه...

فيما بعد قال (محمود) في عصبية:

- «من الحمق أن تمد المرأة يدها إلى جهاز كهربي، وهي حافية القدمين فوق أرض مبتلة.. إن أي حمار جر يعرف هذا جيدًا بالسليقة..»

وقال أبي وهو يتحسس صدره في قلق:

- «لقد كدت أفقدهما في ثانية. لقد قدر الله ولطف بنا..»

لكنّ (محمود) ظل يرمق أرض الحمام في فضول، ثم قال:

- «الغريب أن الماء لا يصل إلى حيث (نجلاء).. وإنني لأسائل نفسي عن سبب الـ.....»

- «إنها الكهرباء!»

قالها أبي كأنما هي إجابة تغني عن أي شيء..

عاد (محمود) يقول:

- «لقد استكملت (ناهد) الدائرة الكهربية حين لمست المعدن، لكنّ ما الذي لمسته (نجلاء)؟ ما الذي استجد بالنسبة لها؟»

قلت في إنهاك:

- «حقًّا لا أجد تفسيرًا.. لعلي لامست جسم الغسالة دون أن الاحظ ذلك»

من جديد قال أبي منهيًا الكلام:

- «إنها الكهرباء.. لا تسأل أبدًا عن الكهرباء..»

لكنّ (محمود) غمغم للمرة الأخيرة وهو يرمق أرض الحمام:

- «حقًّا.. مازلت لا أفهم..»

لا أفهم...

* * *

الفصل الرابع:

لا أهميّة له سوى الإطناب
ويمكن لسريعي الملل أن
يبدءوا بالفصل الخامس

قالت (نجلاء):

- «مرض غريب بدأ ينتابني في الأشهر التالية.. وهو مرض غامض حقًّا يغلب الظن أن كتب الطب لم تصفه..»

سألتها وقد بدأت القصة تثير شغفي:

- «صفي لي الأعراض.»

تنهدت وتحسست قرطها المتدلي، وقالت:

- «دوار شديد.. كل شيء لا يثبت في موضعه.. حياتي كلها حالة من لحظات ما بعد دورانا المستمر حول أنفسنا في الطفولة.. ثم القيء.. القيء عند الاستيقاظ من النوم، وعند التفكير في الأكل أو شمّ رائحته.. ثم ذلك الاشمئزاز غير العادي من اللحوم.. اللحم حتى لو كان صورة في مجلة أو ذكرى، وتتحرك العصارة الحمضية من معدتي متجهة لأعلى مهددة بالانفجار..»

قلت أطمئنها، وأنا أنتقي كلماتي جيدًا:

- «يا صغيرتي إن سرطان المعدة احتمال وارد، لكنّ لا تدعى التفكير فيه يفسد حياتك، ربما لا يكون الأمر سرطانًا برغم كل شيء!»

ابتسمت، وغمغمت:

- «حقًّا يا د. (رفعت).. إن كلماتك كالبلسم على روحي.. لم أفكر في هذا الموضوع قط.. وما هي الاحتمالات الأخرى؟»

ابتسمت كي أوحي لها بالهدوء، وقلت في رقة:

- «إن القيء الصباحي يشير إلى الفشل الكلوي بشدة.. وهو - مع شحوب بشرتك - احتمال لا يمكن استبعاده.. لكنّ لا تدعيه يجعل حياتك جحيمًا... يمكننا إجراء اختبار معملي بسيط كي.....»

ضحكت طويلًا فلم أفهم سبب ضحكتها.. ثم عادت تسألني في خبث:

- «لا احتمالات أخرى؟»

فكرت قليلًا.. ثم قلت في ملل:

- «الهستيريا طبعًا وهي واردة جدًا.. خاصة بالنسبة للفتيات المحبطات عاطفيًا - ولا أعنيك أنت بالذات بهذا - وطبعًا هناك احتمال الحمل لكنه مستبعد هنا.. كلا.. لا تفكري في أورام المخ بتاتًا.. لا يوجد لديك صداع ولا ذلك القيء (القاذف) الخاص بأورام المخ.. لو كان ما لديك ورمًا بالمخ لكنت أنا حمارًا..»

عادت تضحك، وقالت:

- «د. (رفعت)! إنك تملأ حياتي حبورًا بكل هذه الاحتمالات البهيجة.. على كل حال لقد فشل كل الأطباء في معرفة مصدر الخطأ.. وشربت براميل كاملة من أدوية القرحة المعدية الشبيهة بالجير،

دون جدوى طبعًا.. لقد انتهت هذه الأعراض بعد ثلاثة أشهر، والسبب في ذلك هو أنها قررت أن تنتهي!»

فكرت في الأمر مليًا، وكدت أعلق ثم أشرت إليها كي تواصل قصتها..

قالت وهي تحدق في البساط:

- «بعد ستة أشهر من هذا كانت أعراض ضيق التنفس ترهقني رهقًا شديدًا.. كأن ثقلًا يجثم على صدري مانعًا حجاب الحاجز من الحركة.. وفجأة بدأت أعراض التنفس تزول لتبدأ أعراض المثانة: مئات المرّات أدخل دورة المياه، وأنهار من البول لا تفسير لها سوى مرض البول السكري..»

- «وطبعًا لم يتضح أنك مصابة به..»

- «بالطبع.. لقد حار الأطباء في تفسير كل هذا، وحار الشيوخ مطلقوا البخور الذين استعانت بهم أمي.. إن أكثر هؤلاء نصابون على كل حال.. إن الشيخ ذا (السر الباتع) حقًّا لا يطلب عشرين جنيهًا ودجاجة أجرًا له..»

سألتها وقد بدأت أفهم ما يحدث:

- «وهل كنت تشعرين بحنين لشيءٍ ما؟ اشتياق لنوع معين من الطعام؟»

ابتسمت في خبث، وقالت:

- «تسأل عن (الوحم) يا د. (رفعت)؟ إنني عذراء لم يمسسني بشر قط..»

- «إن قصتك كلها تفسرها لفظة واحدة: الحمل.. لكنني لن أقولها..»

قالت وقد سرّها أني بدأت أفهم:

- «ثم في تلك الليلة الرهيبة، راح أعنف ألم يمزقني.. ألم جعلني أصرخ مرارًا وأعض الوسادة وأبكي.. وقد راح أبي وأمي يحاولان جعلي أهدأ.. سقتني أمي بحارًا من (الكراوية)، وهرع أبي يبحث عن جارنا في الحيّ (سيد) وهو ممرض في المستشفى العام..»

«فيما بعد وصفت أمي صراخي وآلامي بأنه كصراخ وآلام من تلد.. وقد أثار هذا حيرتها، فمن الواضح أنني لا ألد، لكنّ هذا الصياح المألوف.. هذه الوتيرة الواحدة للأنين.. لحظات الاسترخاء بين ألم وآخر..»

«وفي هذه اللحظات جاءت (أم بلبل) جارتنا.. لقد شاخت وصارت قنطارًا من الدهن لكنّها تحاملت على نفسها لتبلغنا بالمكالمة الهاتفية التي وصلتها، فهاتفها هو الهاتف الوحيد في البناية.. كانت المكالمة تحمل أخبارًا سارة: لقد أنجبت (ناهد) طفلًا!»

جلست على حافة مقعدي، وقد بلغت بي الإثارة مداها، وصحت:

- «(ناهد) كانت حاملًا! لم تقولي لي هذا!»
- «لأنك لم تسألني! وهو حمل تأخر كثيرًا على كل حال..»
- «وكانت ولادتها في الوقت ذاته؟»
- «حقًّا.. لقد كانت ولادة سريعة جدًا وغير متوقعة بالنسبة لبكرية مثلها.. كنا ننتظر أن تلد بعد أسبوع، ولم نكن نرتاب في شيء حين أوينا للفراش ليلًا.. لو كانت أمي تعلم لظلت بجوارها في (حلوان)...إن الأمهات من طراز أمي يكرهن أن يضيعن مناسبة كهذه..»

قلت لها وأنا أنهض لأذرع الغرفة متوترًا:

- «وهكذا اتضح كل شيء لك..»
- «طبعًا..»
- «وهل يعلم أبواك هذا؟»
- «لا.. ولن يفهما لو أخبرتهما..»
- «و (ناهد) تعلم؟»
- «طبعًا.. لقد أمكنها أن تتذكر مئات التفاصيل الصغيرة التي لم تدرك أهميتها وقتها..»
- «وبالطبع تعلمين أعراض حملها بدقة؟»
- «بالتأكيد.. لقد شعرت بكل ما وصفته لك..»

دسست يدي في جيبي، ورحت أردد بلا كلل:

- «غريب! غريب!»

* * *

قالت (نجلاء):

- «حقًّا.. كل هذا غريب.. لكنّ الأمر يبدو طبيعيًا جدًّا حين تكون أنت صاحب هذه الأحاسيس.. ولا تكف عن التساؤل: ربما هو وهم.. ربما مصادفة.. ربما خيل إلى أنني أشعر بكل هذا.. لماذا؟ لأن أشياء كهذه لا تحدث أبدًا..»

ابتسمت بدوري، وجلست في المقعد المواجه لها لأشعرها بنوع من الحميمية وقلت لها (وإن كان أكثر الكلام لنفسي):



«ثم فى تلك الليلة الرهيبة ، راح أعنف ألم يمزقنى .. ألم
جعلنى أصرخ مرارًا وأعض الوسادة وأبكى» ..

- «بالعكس يا صغيرتي.. إن الاتصال النفسي والمعنوي بين التوءمين لأمر معروف وقديم، وثمّة اتصال آخر أقوى وأكثر وضوحًا هو اتصال الأم بابنها.. من منا لم يمرّ بموقف كهذا؟ تتألمين أو تحزنين ثم تعودين لأمك، فتصارحك بأنها كانت تشعر بانقباض شديد، في الوقت عينه الذي مررت فيه بتجربتك غير السارة..»

بعد هذا بأعوام قرأت في كتاب للأستاذ (أنيس منصور) أن مدير معهد (الكشف عن الكذب) في (أمريكا) حكى عن أم آلمتها بطنها بشدة، وفي المستشفى بحثوا عن التهاب في زائدتها الدوديّة فلم يجدوا.. بعد ساعات دق جرس الهاتف وكانت ابنتها تخبرها بأنها أجرت جراحة الزائدة منذ قليل، وأنها الآن بخير![1]

إن التواصل الشعوري بين جسمين ماديين منفصلين لأمر غريب؛ لكنّ من الواضح أنه شيء قديم ومعروف لدى البشريّة..

توجد عادة عجيبة اسمها (الكوفيد) Couvade، تمارس على نطاق واسع لدى الشعوب شبه البدائيّة في (أمريكا الجنوبيّة) و(جنوب شرق آسيا)..

والملاحظ هاهنا أنها لم تمارس قط في (إفريقيا) ولا (استراليا)...

والعادة مضحكة بعض الشيء لكنّها تعكس شيئًا مما نتحدث عنه...

حين تلد الأم يدخل زوجها كوخه وحيدًا ليرقد في الفراش ويئن.. ويكف عن عمل أي شيء لمدّة أيام، ويتحاشى أي عمل عنيف، ولا يلتهم سوى الأرز بالملح!

بمعنى آخر: يقوم هو بكل ما تقوم به النفساء، بينما الأم الحقيقية غارقة في أعمال البيت الشاقة دون لحظة راحة واحدة!

ما معنى هذا؟ ما الغرض منه؟ لا أحد يدري حقًّا..

وكالعادة ـ كلما تعلق الأمر بعادات البدائيين ـ كانت الكلمة الفصل للسير (جيمس فريزر) في كتابه الشهير (الغصن الذهبي).. يقول (فريزر) إن الأب يأكل أكلًا لينًا كي لا يؤذي معدة الوليد!

ويتأوه في الفراش كي يخدع الأرواح الشريرة، فتحسبه هو الأم وتهاجمه.. وهو - بطبيعة الحال - أقدر على مكافحتها وأقوى..

ها نحن أولاء أمام مثال فريد للتكامل الحيوي: المرأة تلد فيتأوه الرجل ويرقد في الفراش في حالة إعياء، والرجل يأكل طعامًا سهل المضغ كي لا يتأذى ولده!

إن (الكوفيد) طقس بدائي رمزي نتحدث عنه طلبًا للطرافة، لكنّ ما الموضوع فيما يتعلق بصديقتنا (نجلاء) هذه؟

* * *

الفصل الخامس:

لا أهميّة له سوى الاستطراد
ويمكن لسريعي الملل أن يبدءوا
بالفصل السادس

كان د. (محمود) جالسًا في معمل (وظائف الأعضاء) - (الفسيولوجيا) إذا كنت تفضل ذلك - عاكفًا على تصحيح بعض أوراق طلابه.. وكنت متوترًا بصدد اللقاء، فلا شيء يثير الذعر مثل أن تلقى إنسانًا لم تره منذ ثلاثة أعوام.. لقد عاد من (ألمانيا) أخيرًا ولن يكون اللقاء سهلًا.. لا بد من كثير من الصراخ والتهليل والقسم و.. و.....

وقد كان بالضبط، مع كثير من العناق، والضرب بقبضة اليد بين لوح الكتف، والرذاذ المتطاير من الفم. وأخيرًا استطاع أن يهدأ فأخبرته بمشكلة (نجلاء)..

ابتسم في غموض، وقال وهو يتقدمني إلى منضدة ما:

- «أنت تبحث في أكثر أسرار النفس البشريّة تعقيدًا.. لا تتوقع أن تكون لديّ إجابة جاهزة لهذا، حتى لو كنت حاصلا على جائزة (نوبل) في الطب..»

كانت هناك ثلاثة كلاب تعسة مقيدة إلى إطارات خشبية، حيث يمارسون عليها تجارب (بافلوف) الشهيرة - ذات الجرس - رأيته يشير إلى قفص به أنثى كلب لطيفة المنظر، تحيط بها ثلاثة جراء رائعة الجمال.. كان ينتوي شيئًا ما.. وكانت عينا الكلبة قلقتين مثلي تمامًا..

قلت له مرتابًا:

- «لحظة.. لا تقل إنكم تعذبون هذه الكائنات الوديعة بدعوى العلم..»

ابتسم وهز رأسه نفيًا:

- «سنفعل لكنّ ليس الآن.. إن (توسكا) قد صارت أمًّا، وهذه مناسبة تستحق الاحتفال بها.. يمكن تأجيل التجارب بضعة أيام أخرى.. تعال يا (بسيوني)..»

جاء العامل التعس بدوره كأحد هذه الكلاب، ودون سؤال مد يده إلى داخل القفص والتقط جروًا صغيرًا لا يكف عن التلوي والصراخ الرفيع.. حاول عض يده الخشنة لكنّ ما من عضة تستطيع اختراق هذا الجلد الثخين..

- «(محمود).. ماذا تنوي بالضبـ..»

- «شششش! انتظر لحظة..»

ورأيته يحمل الجرو الصغير ويشير إليّ كي أتبعه إلى حجرة جانبية صغيرة، ثم أمرني أن أقف على الباب مما يتيح لي رؤية المعمل والحجرة الجانبية في الآن ذاته.. كانت (توسكا) تدور في قفصها وتصدر أنينًا رفيعًا يمزق نياط القلوب.. لقد طار صوابها فرقًا..

رأيت (محمود) يكمم الجرو الصغير بيده اليسرى، ثم بيده اليمنى يغرس دبوسًا دقيقًا في ظهره.. تلوّى الشيء عديم الحيلة ألمًا، لكنه لم يستطع العواء..

- «(محمود) هل جننت؟ أترك هذا الـ.....»

في اللحظة التالية نظرت إلى القفص الذي كانت به (توسكا)، فرأيتها تشب على قدميها الخلفيتين، وقد تشبثت بالسلك الغليظ، وراحت تعوي دون هوادة وبلا كلل.. كانت تتألم حقًّا.. لا شك في هذا..

انتزع د. (محمود) الدبوس وغرسه في فخذ الجرو...

صرخة ألم رهيبة ليس من الجرو، بل من (توسكا) ذاتها.. وقد بلغ بها الهياج حدًا مريعًا، فلو لم تكن في قفصها لمزقتنا شر ممزّق..

- «كفى.. كفى! لقد اقتنعت! ليس من واجبك أن تذبحه كي تضمني إلى وجهة نظرك!»

قال كمن ينهي محاضرة شائقة:

- «كان هذا مثالًا بسيطًا.. كما ترى: لم تعرف الأم ما حل به، ولم تسمع له صرخة ألم، لكنّها تألمت.. أي جاهل يمكنه أن يرى أنها تألمت.. (بسيوني ي ي ي)!»

وهرع (بسيوني) يلحق برئيسه، فحمل الجرو المولول ليعيده إلى أمّه، وهو يردد عبارات التهدئة:

- «هيه! كفى! لقد عاد لك يا امرأة! سترين أننا لم نأكله بعد!»

والحق أن عيني كادتا تدمعان وأنا أرى لهفتها على رضيعها، وهي تلعقة بلسانها في جنون كأنما تتأكد من أنها أزالت رائحتنا المقززة من على فرائه..

قال د. (محمود) وهو يغسل يديه تحت صنبور ماء:

- «إن الأمر قابل لتفسيره أدبيًا أو فلسفيًا.. إن الأطفال قطعة من روح الأم انفصلت عنها، ولهذا تشعر الروح الكبرى بآلام أجزائها.. لكنّ أعطني تفسيرًا علميًا واحدًا لا يقودك إلى المصحة العقليّة.. لا يوجد.. إن الذراع المبتورة لا تشعر بما يحدث في جسد صاحبها.. دعني أبتر ساقك ثم أعد منها شواءً ممتازًا.. يُمكنك وقتها أن تجلس معي بانتظار نضجها وتأكل منها لو أردت.. لكنّ لا تزعم لحظة أنك ستشعر بذات النار التي تحرقها..»

الحق أنّ هذه الصورة بدت لي شاذةً نوعًا: أنا و(محمود) نجلس إلى المائدة نتلمظ، بينما ساقي النحيلة موضوعةً على الفحم، وقد بدأ صبرنا ينفد وجوعنا يتزايد.. يا له من مشهد!

سألته وأنا أحرك ساقي كأنما لأتأكد من أنهما هناك:

- «وبالطبع ما ينطبق على الأمهات ينطبق على التوائم..»

جفف يده بالمنشفة، وقال:

- «نعم.. إن نظرية G.O.K تفسر كل هذه الأسرار الأزلية..»

- «وما خلاصة هذه النظرية؟»

- «GOK أي God Only Knows (الله وحده يعلم) وهي من التفسيرات المحببة لنفر كبير من العلماء.. وبها تجد الحقيقة وراء مثلث (برمودا) وشهاب (تونجوسكا) وظاهرة التخاطر و.. و..... إنهم يسمون هذا المذهب باسم (اللا أدرية)..»

حقًّا.. GOK (سبحان الله).. لكنّ من واجبنا أن نبحث وأن نحاول أن نعلم.. علنا نقتبس جذوة من نار العلم السرمدية اللامتناهية، تبدّد عنا ظلام الكهف ليلًا..

G.O.K.. لكنّ مشكلة (نجلاء) تنتظر الحل..

* * *

في الثامنة مساء توجهت إلى دارها..

كان د. (محمد شاهين) قد أعطاهم فكرة عن مقدمي، والحقيقة هي أنني لم أدر سببًا لرغبتي في زيارة دارها.. لربما شعرت بأن تواجدي في مسرح الجريمة خير من القراءة عنه في الصحف، ولربما حسبت أنني سأرى شيئًا لم أتوقعه ينير لي هذا الظلام..

لكن أهم الأسباب لقدومي هو أن (ناهد) قد وعدت بزيارة أهلها في ذلك الوقت بالذات، وهي لعمري صدفة جيدة....

تسالون عن سر حماسي للأمر؟ يا سلام! إن فضولي البشري لا يمكن إرواؤه، ثم إن هذه المغامرة بعيدة ولله الحمد عن التوابيت التي تنفتح عند منتصف الليل، والأشياء التي تعوي عندما يبزغ القمر من وراء السحاب.. إنها مغامرة شبيهة بحل الكلمات المتقاطعة في جريدة، ولا تزيد أو تقل في خطرها عن ذلك..

كان شارعًا ضيقًا متوسط النظافة.. نظرت لشرفة الطابق الثالث فلم أجد القلة إياها، لا بد أن الأب اشتري ثلاجة بالتقسيط من معاشه.. لكني رأيت القطة المشمشية الواقفة على السور نصف غافية، وهي ـ القطة ـ من طقوس الطبقة المتوسطة المقدسة.. لا بد من واحدة يضربونها بعصا المكنسة حين تسرق اللحم أو تعوي في مواسم التكاثر...

السلم هو السلم المعهود في هذه المنازل.. بعض درجات مهشمة أو معوجة.. رائحة عطن من البئر.. شقق الجيران مفتوحة تصاعد من بعضها رائحة عشاء يطهى، وترى كل هذا في ضوء خاب من مصباح سلم يخفى أكثر مما يظهر..

الطابق الثالث... كان الهواء يتحدى رئتي آن تبتلعه، وتسارعت دقات قلبي فالتقطت أنفاسي برهة، ستقتلنى ناطحات السحب هذه يومًا ما.. دققت الجرس فظهر لي الأب هاشًا باشًا.. كان كما وصفته تمامًا: أب.. لا أكثر ولا أقل، يرتدي جلبابًا أبيض يكشف عن كرش لا بأس به، وحافي القدمين على سبيل التبسط...

وجلست فيما يشبه قاعة الجلوس.. بحثت عن الأريكة إياها التي تغطيها سجادة الصلاة لتخفي تمزقات القماش.. آه! ها هي ذي.. ثم بحثت عن الصورة اللعينة التي تطاردني في كل مكان، والتي تظهر فتاة تحاول أن تلثم بشفتيها فم ثعبان بين أناملها.. آه! ها هي ذي! أنا لم أخطئ طريقي إذن.. وطبعًا الجدران مطلية بالجير ذي اللون الأصفر الشاحب كالعدس.. بيت تقليدي جدًّا.. و ـ كالعادة ـ مزدحم جدًا بالأثاث أكثر مما يتحمله الأمر..

جاءت الحاجة ترحب بي، وهي كما وصفتها (نجلاء) تمامًا، وإن بدا الشك في أمري واضحًا في نبرتها ونظراتها..

«هذه المرأة تعتبرني نصابًا»

قلتها لنفسي، واحترمتها لصراحتها.. فمن أنا كي أزعم أنني أفهم ما عجز عنه كل المشايخ الذين جاءت بهم؟.. من أنا أمام كل البخور الذي أحرقته، والأحجبة التي علقتها في صدر ابنتها؟

قال الأب وهو يضع كوب الشاي على الأريكة جواري:

ـ «إن (نجلاء) تتعذب بحق يا دكتور..»

كان الكوب في وضع خطير، فلو تحرك ربع بوصة لانقلب.. لهذا تركز انتباهي كله على منع هذه الكارثة.. قلت له شارد الذهن:

- «أنتم ترونها تتألم طيلة الوقت..»
- «ليس الأمر مقصورًا على الألم.. أحيانًا ننهض من على الطبلية ثم تعلن أنها جائعة.. وأحيانًا تشمئز من الطعام برغم أنها لم تذقه منذ يوم.. أحيانًا تبكي أو تضحك دون سبب..»
حقًّا إن الأم محقة..
يسهل على الرجل العادي أن يفترض أنّ هذه أعراض مس.. التباس.. تقمص من الجن.. أمّا الطبيب النفسي فسيرى حالة (هستيريا) مثيرة اللاهتمام..
جاءت (نجلاء) فحيتني في حرارة، وجلست تنتظر.. سألتها وأنا أنظر لساعتي:
- «هل مدام (ناهد) قادمة؟»
- «هكذا وعدتنا.. ولا أدري لم تأخرت..»
ثم قالت بلهجة ذات معنى:
- «يبدو أن الصداع قد جعلها تتأخر عن المجيء...»
وفهمت ما تعنيه.. لقد شعرت بصداع شديد مما جعلها تفترض أن (ناهد) تشعر بنفس الشيء.. وهو وضع مرهق حقًّا.. كيف يُمكنك تمييز الصداع الأصيل من الصداع المقلد؟.. كيف يُمكنك تمييز صداعك من صداع الآخر؟..
- «آه!.. ها هي ذي!»
قالتها وهي تنهض استجابة لدقة الجرس، وظللنا في صمت بضع دقائق، ثم دخلت (ناهد) وزوجها إلى المكان..

* * *

أما عنه فكان شبيهًا بـ (رشدي أباظة) حسب قول (نجلاء) لكنّ لو كان (رشدي أباظة) شبيهًا بـ (عبد الفتاح القصري)! إن دقة الوصف عند بعض الفتيات تصيبني بالجنون أحيانًا.. كأن لهن عيونًا غير عيوننا..
أما عن (ناهد) فكانت تضم رضيعها - الملفوف كموميا (حتب حرس) - إلى صدرها، ونظرت لي في عدم فهم.. الحق أنها كانت باهرة الجمال.. الشمس الساطعة التي تحرق عينيك بنورها.. لكنّها لا تبعث الارتياح في النفس، وثمّة مسحة ما من القسوة والعجرفة على وجهها.. ولعلى مخطئ في هذا، لكنّ (نجلاء) كانت بحق أكثر جاذبية وراحة للنفس..
صافحنى الزوج في ارتياب، وصافحتني هي في شك، فداعبت الرضيع في اشمئزاز، ثم جلسنا جميعًا في توتر..!
في النهاية - على صوت رشفات الشاي القلقة - قالت (نجلاء):
- «أعتقد ان د. (رفعت) يريد الانفراد بي أنا و(ناهد)..»
تبادل الأب والأم وزوج الابنة نظرات عدم الفهم.. خاصة أن الأخير لم يكن يعرف لي دورًا في الحياة أصلًا.. لكنّ (ناهد) اختصرت مجهود الشرح إذ سقط كوب الشاي الساخن على قدمها فأطلقت صرخة..
وفي اللحظة ذاتها صرخت (نجلاء) وهي تتحسس قدمها:

- «قدمي..!.. أه ه ه!».

هرعت الأم تتفحص قدم (ناهد)، وراحت تنظف ما سقط على الأرض بخرقة قماش لا أدري من أين جاءت بها، أمّا أنا فأدركت بنظرة سريعة أن الحرق سطحي لا يستحق ضجيجًا.. الغريب أن قدم (نجلاء) بدأت تكتسي باللون الأحمر ذاته..

نظرت للزوج فرأيته ينظر لي ذات النظرة.. قلت:

- «الآن أنت تفهم سر مجيئي..»

قال وقد صرنا على موجة واحدة:

- «إن هذه الحوادث تتكرر كثيرًا جدًّا.. لم يعد بالإمكان ألا تلاحظ ذلك..»

ثم - بلهجة شبه آمرة - قال للأب والأم:

- «والآن هلما يا حماتي ويا عمي.. لم يحدث ضرر من الشاي والحمد لله.. لكنّ الدكتور يريد فحص (نجلاء) بدقة..»

امتثل الاثنان للأمر، وهما لا يفهمان.. لقد قاما بتقديمنا لبعضنا منذ دقائق والان صارت لدينا أسرار خاصة لا ينبغي أن يطلع عليها!

حين هدأت الفتاتان أخيرًا قمت كي.. أوبس! لقد حدث المحظور وطار كوب الشاي ليلون الأريكة كلها نسيت وضعه الحرج في غمرة انفعالي.

رحت أعتذر وهم يؤكدون ألا مشكلة هنالك، لكنهم - قطعًا - يتمنون أن يقطعوا عنقي في سرائرهم..

انتهى المزاح فقمت كي أعرف حقيقة هذه الظاهرة..

* * *

الفصل السادس: لا أهميّة له سوى الاسهاب ويمكن لسريعي الملل أن يبدءوا بالفصل السابع

كانت النتيجة إيجابية حقًّا..

جربت اختبارات الإحساس المعروفة كالألم والحرارة ـ بقاعدة كوب الشاي الساخنة ـ والضغط العميق، وفي كلّ مرّة كان وخز معصم (نجلاء) أو إصبع قدم (ناهد) يصل دون تحريف إلى الأخرى وفي الموضع ذاته.

لقد كان جهازهما العصبي واحدًا..

ظل الزوج ـ واسمه (محمود) ـ يتابع المشهد صامتًا كالأسماك.. لكنّ النتائج كانت واضحة تمامًا لا تحتاج إلى أدنى تعليق..

بعد قليل همس بصوت كالفحيح:

ـ «كنت أشك في هذا منذ حادث الغسالة الكهربية.. لكني لم أعد قط متأكدًا كهذه اللحظة.. إن هذا مستحيل..»

ـ «الآن ترى أنه ليس مستحيلًا...»

قالت (ناهد) وهي تشد كم قميصها لتعيده إلى موضعه:

ـ «لا ندري متى بدأ هذا، لكننا أفقنا فجأة لنجد أننا ـ أنا و(نجلاء) نشعر بالأشياء ذاتها، وإنني أتساءل عن كوننا لم نلحظ هذا في طفولتنا.. يمكن القول إن الأمر بدأ منذ عام واحد..»

قلت في حيرة:

- «ربما كان السبب هو أنكما تباعدتما فتضخم هذا الشعور ليعوض المسافة بينكما.. ربما كان السبب هو أنكما تقدمتما في العمر وصرتما أكثر قدرة على فهم ما لا ينتمي إلى أحاسيسكما.. لا أدري حقًّا.. لكنّ بدء الظاهرة متأخرًا لا ينفي وجودها..»

قالت (نجلاء) بلهجة حاسمة:

- «ما هو مصيرنا؟.. هذا هو السؤال..»

قال الزوج بلهجة مستخفة:

- «أي مصير؟ لا مشكلة هنالك.. ولا خطر..»

قاطعته وأنا أريح جسدي المنهك على الأريكة:

- «لا خطر؟ من قال هذا؟ من حق كل واحدة منهما أن تعيش حياة طبيعية، وألا تتألم حين لا يكون هناك سبب للألم.. لو أجرت واحدة منهما جراحة فما ذنب الأخرى؟.. ثم إننا لسنا خالدين على الأرض.. لو جاء قضاء الله وتوفيت واحدة..»

في ضيق غمغمت (ناهد):

- «فأل الله ولا فألك!»

شعرت بغيظ إلى هذا الحد هي حمقاء مغرورة؟ قلت في هدوء:

- «كلنا سنموت، ولن يخلد أحدنا لمجرد أنّ هذا يروق له.. لو ماتت واحدة منكما فما مصير الأخرى؟»

كلها أسئلة بلا إجابة..

كلها أسئلة إجابتها الوحيدة هي G.O.K الشهيرة..

ربما يتكفل الزمن بمزيد من الإجابات لمعضلة كهذه..

* * *

بعد هذا بأسبوع كنت راقدًا في الفراش أقرأ، وقراءاتي في الآونة الأخيرة تدور حول القصص الرومانسية شديدة البلاهة.. ليس بسبب الحب - لا سمح الله - لكنّ لانها الشيء الوحيد الخالى من التوتر، وهذا من حقي بعد مغامراتي إياها في (رومانيا).. ولم يمنعني من قراءة مجلات (ميكي) سوى بعض الحياء والخجل من كهولتي..

دق جرس الهاتف فسمعت من يخبرني في هلع أنه (عبد الجواد) والد (نجلاء).. لابد أنه يتصل من شقّة (أم بلبل) بالتأكيد.

كلا.. (نجلاء) لم تمت.. إنها تتلوى ألمًا من وطأة أسوأ مغص يمكن وصفه، ويبدو أنها لا تكف عن القيء.. ثم:

- «أرجوك أن تأتي يا دكتور!»

نظرت إلى الساعة.. إنها الثالثة بعد منتصف الليل.. وهذه هي مشكلة الرد على الهاتف.. لا أقوى على الخروج الآن، لكني كذلك لا أجرؤ على التنصل.. هناك مستشفيات كثيرة ساهرة، ينتظر بها



وفى كل مرة كان وخز معصم (نجلاء) أو إصبع قدم (ناهد) يصل
دون تحريف إلى الأخرى وفى الموضع ذاته . .

آلاف الأطباء الشبان المتحمسين المفعمين نشاطًا وحيوية، فما ذنبي أنا بالذات؟ لم تعد صحتي تسمح لي بالركض في الشوارع ليلًا حاملًا حقيبتي.. لكني سأفعل..

ارتديت ثيابي، وتناولت حقيبتي، وركبت السيارة منطلقًا إلى (شبرا)..

كالعادة كانت أكثر من شقّة مفتوحة، وكان هناك جيران كثيرون بالمنامة أو قميص النوم، وقد تحولت شقّة (نجلاء) الضيقة إلى سيرك.. وفي غرفة النوم كانوا يصبون شراب (الكراوية) صبًا في حلق الفتاة المولولة الباكية، فنهيتهم عن هذا وأمرتهم بالخروج..

كان الفحص سلبيًا.. لا توجد علامات على أي شيء مريب سوى تصلب عام في جدار البطن، ولم تتذكر الفتاة شيئًا غير معتاد بصدد طعامها أو شرابها.. الكل أكل وشرب معها...

كانت الحيرة تغمرني، ثم بزغ الحل في ذهني سريعًا.. يا لي من أحمق! إنها تتصرف كالمصابات بالتهاب بريتوني دون أن تكون مصابة به حقًّا.. فما معنى هذا؟

غادرت الحجرة مسرعًا، فاستوقفني الأب سائلًا:

- «طمئني يا دكتور.. ماذا دهاها؟»

ابتسمت له في عذوبة وأنا أزيحه عن طريقي:

- «لا شيء.. مجرد ثقب في قرحة معدية.. والتهاب بريتوني!»

- «وهل هذا خطير؟»

- «إنّه يقتل.. فهل هذا خطير بما يكفي؟»

تقلص وجهه في رعب.. لقد نسيت أنه مصاب بوهن في القلب.. عسى ألا يفعلها الآن فلا وقت لديَّ.. سألني وهو يرتجف:

- «إذن.. إذن لماذا تتركها؟»

- «يا له من سؤال! طبعًا لأنقذ (ناهد)! إن الثقب في معدتها هي!»

* * *

كانت رحلة رهيبة إلى (حلوان)، أسترشد فيها بوصف الأب لدار ابنته.. وكان ضوء الفجر يخالط الظلمات، حين صعدت في الدرج قاصدًا الشقة في الطابق الثاني..

وقبل أن أقرع الباب سمعت الصراخ الذي أكد لي أنني لم أكن حمارًا حين تركت (نجلاء) وجئت هنا انفتح الباب عن وجه زوج (ناهد)، ولم يقل حرفًا يعبر عن الدهشة أو الترحيب أو الرضا..

فقط صاح كأنما يستكمل محادثة سابقة:

- «إذن تعال لتراها.. إنها تموت!»

ودخلت وراءه لأجد ذات المشهد للجارات محمرات العيون اللواتي يتمنين لو انتهي كل هذا الضجيج ليعدن للنوم، والطفل يعوي كالذئاب على صدر واحدة منهن..

وفي غرفة النوم وجدت فوضى عارمة، وملاءات مكومة في كل صوب، بينما (ناهد) متكورة في الفراش تئن وتصرخ...

كانت جوارها أكواب (الكراوية) الخالدة وفصوص الليمون، وأكواب النعناع بالكمون.. كل واحدة من الجارات تطوعت بإعداد شيء ما.. والخدمة التي قدمنها هي إعطاء مشروب ساخن لمريضة ذات ثقب في معدتها..

وفي هذه المرّة كان التشخيص واضحًا تمامًا، فلم أضيع وقتًا أكثر وصحت آمرًا أحدهم بأن يستدعي سيارة الإسعاف بالهاتف..

ربع ساعة أو نصف.. تأخرت السيارة ربع أو نصف ساعة حتى جاءت، وفي هذا الوقت شبعت صراخًا وخمسًا وسبابًا من (ناهد).. فهي - كأي شخصيّة مدللة غير ناضجة - تعتقد أن الألم إهانة لها، ولا تدخر جهدًا حين تتألم في أن تشعر الآخرين بالذعر والتوتر والذنب..

إنها تصرخ كأنما يتم ذبحها دون أية محاولة للسمو بالألم أو تحديه، بينما (نجلاء) كانت تئن من بين أسنانها، برغم أنها تشعر بذات القدر من الألم..

* * *

وفي المستشفى - حيث أعمل - تمت الجراحة بنجاح ساحق.. إن د. (علي) أستاذ الجراحة يعرف حقًّا ما يقوم به.. لقد كانت (ناهد) تهوى تعاطي أقراص (الأسبرين) لعلاج صداعها المزمن - وكل هاته الفتيات الهستيريات مصابات بصداع مزمن - لكنّ الأسبرين أدى عمله جيدًا فأحدث قرحة في معدتها، والقرحة استحالت ثقبًا بسهولة بالغة..

في اليوم التالي مررت على عنابر الجراحة لأراها..

كان العنبر مزدحمًا، فزوجها لم يستطع ولم يرد أن يدخلها إلى مستشفى خاص.. كانت راقدة على ظهرها وأنبوب (رايل) ما زال يخرج من أنفها.. بينما جلس الزوج جوارها يقشر أصابع الموز لها، فقط ليكتشف أنها لن تأكل قبل مدة، من ثم يدسّ إصبع الموز في فمه ويبدأ في تقشير إصبع آخر..

قال لي حين رآني، بفم مليء بالموز:

- «إنها بخير.. والفضل لك.. لقد أضعنا ثلاث ساعات كاملة في هراء الجارات ونصائح الأصدقاء..»

تناولت إصبع موز بدوري، فبدأت تقشيره وقلت:

- «لا شافي سوى الله.. أعتقد أن المغص قد زال عن (نجلاء)؟..»

- «حقًّا زال.. لكنّها تشعر بألم في جدار بطنها.. على حد كلامها تشعر كأن هناك جرحًا مخيطًا..!»

- «هذا لا يثير دهشتي الآن...»..

ودسست إصبع الموز في فمي مفكرًا في ما إذا كان من الوقاحة أن أمد يدي لأسلخ إصبعًا آخر. لكنه قدّم إليّ إصبعًا آخر ليوفر عليّ العناء، ثم كوّر ورقة الجريدة على ما تبقى منه، ليغلق باب الكرم..

هنا لاحظت أنه ينظر إلى الوراء في ارتياب..

نظرت بدوري للوراء، فوجدت شابًا في العقد الثالث من العمر يقف على مسافة مترين من الفراش مترددًا بين إقدام وإحجام...

وبوثبتين كان قد اتخذ قراره.. انحنى ومد يده يصافح (ناهد) في حرارة، وغمغم بشيء من ارتباك:

- «حمدًا لله على سلامتك يا (ناهد).. يبدو أنك على ما يرام..»

ثم بثلاث وثبات كان قد ابتعد..

يمكنني هنا أن ألخص غرابة الموقف كما يلي:

١ ـ هو لم يصافح الزوج ولم يفه أمامه ببنت شفة.

٢ ـ مصافحته طالت وقتًا أكثر مما يجب.. حتى لو كانت (ناهد) رجلًا لما احتاج لكل هذا الوقت ليصافحها.

٣ ـ رد فعلها هو إلى الارتباك والحيرة والحرج أقرب.. لا توجد أية حرارة في استجابتها..

٤ ـ لم أرتح لمظهر الفتى.. له شارب رفيع مما يحبّ الأوغاد أن يضعوه فوق شفاههم العليا، وله عينان ضيقتان آئمتان كذوبان فيهما غباء ودنس.. ثم شعره الطويل المتدلي على كتفيه كما تقضي الموضة في أوائل السبعينات..

٥ ـ من الواضح أنه في حالة ماديّة أدنى من متوسطة.. ثيابه تشي بذلك، وكذا عدم إحضاره لشيء معه، خاصة علبة الشيكولاته الأبدية التي هي قانون المرض غير المكتوب..

٦ ـ واضح كذلك أن الزوج لم يحبّ رؤيته قط، لقد بدا على وجهه ذات التعبير الذي يبدو على وجهك لو وجدت بورصًا ساقطًا في طبق الحساء على مائدتك! هو التعبير ذاته بلا مبالغة.

٧ ـ من الواضح أنني قوي الملاحظة حقًّا!

بعد انصراف الفتى نظر لها الزوج مليًا.. ثم همس بصوت كالفحيح:

ـ «كيف عرف هذا الحيوان بوجودك هنا؟»

* * *

الفصل السابع:

لا أهميّة له سوى الثرثرة ويمكن لسريعي الملل أن يبدءوا بالفصل الثامن

وجدت أن وقت الانسحاب قد حان.. فنهضت مهنئًا بشفائها، شاكرًا لزوجها ما قدمه لي من موز.. ولم أدر قط أنّ هذا اللقاء كان ذا أهميّة كبرى في سياق هذه القصة..

* * *

- «لقد زارها (صلاح) في المستشفي ثلاث مرات!»
- «تبًّا له من وقح!»
- «لو عرف زوجها لفجّر رأسه!»
- «ماذا يريد منها؟»
- «لقد تزوجت وأنجبت فماذا بعد؟ هل يجب أن تموت أيضًا؟»

كنت جالسًا في شقّة (نجلاء) أصغي لهذه المحاورة اللطيفة الواقعة بين أربعة أطراف ـ فقد كان د. (محمد شاهين) معنا ـ وأنا أتظاهر بالصمم، وبأنني منهمك في تقشير (البونبون) اللزج الملتصق بورقته..

في النهاية شعرت بأن عدم تدخلي فيما لا يعنيني قد صار أقرب إلى الوقاحة وقلة الذوق.. التهذيب الحقيقي هنا هو أن أتدخل فيما لا ناقة لي فيه ولا جمل..

سألت دون اهتمام حقيقى:

- «أ.. معذرة.. ولكن من هو (صلاح) هذا؟»

* * *

(صلاح)؟ (صلاح)؟ من الذي لا يعرف (صلاح) في (شبرا) كلها؟

(صلاح) الظريف المرح.. (صلاح) القوي.. (صلاح) الوغد.. (صلاح) الثعلب.. (صلاح) الفارس المغوار الذي لا يشق له غبار..

رسب في الشهادة الثانوية ثلاث مرات، وبعدها كف عن المجادلة ولا أحد يعرف ما يفعله بالضبط.. لكن جيبه دومًا مليء بالنقود التي ـ على الأرجح ـ لم يسرقها..

هل تبحث عن سمسار نصاب للسيارات المستعملة؟ (صلاح) يصلح دومًا.. هل تريد أن تضرب أحدًا؟ (صلاح) يصلح.. هل تريد أية ورقة رسمية مزورة؟ (صلاح) سيأتيك بها مقابل مبلغ مالي طبعًا.. فلو أنهم يسمحون بكتابة كلمة (أفاق) في خانة (المهنة) بالبطاقة الشخصية لوجدتها في بطاقة (صلاح) حتمًا..

كانت (ناهد) في المدرسة الثانوية وقتها، مخلوقة فاتنة تعرف أنها فاتنة.. وكان لابد أن يحوم (صلاح) حولها وقد استنتج أنها ليست حصنًا منيعًا كتوءمتها (نجلاء).. لحسن الحظ أن أجمل الأختين هي أقلهما التزامًا وصرامة..

وشخصيته (صلاح) هذه جذابة للنساء دومًا.. في البدء تهابه الفتاة ثم تجده طريفًا ثم تجده جذّابًا.. وكان على (صلاح) أن يحوم حول (ناهد) مرارًا في أثناء ذهابها أو عودتها من المدرسة، وهو يُلقي عبارات غزل ذكية مازحة لا تملك الفتاة أمامها أن تكتم ابتسامة..

ثم راح يدور حولها بالدراجة البخارية التي اقترضها من (سعيد) صديقه ويصر على تسميتها (مكنة)، ويأتي بحركات بهلوانية من التي لا تراها إلا في السيرك، فكانت تبتسم أكثر فأكثر.

وأخيرًا ضحكت!

هنا نجد ظاهرة غير مسبوقة.. إن أمثال (صلاح) هذا غير قادرين على الحب أبدًا، بل هم يطاردون المرأة مدفوعين بنوع من غريزة الصياد..

مجرد قلب جديد يضاف إلى نادي القلوب المحطمة.. ورأس وعل جديد يعلقه فوق المدفأة مزهوًا..

لكن (صلاح) أحب (ناهد) حقًّا، ولم يعد يرغب في شيء سواها.. من الغريب أنه بدأ يستقيم، وبدأ يبحث عن عمل منتظم شريف.. وفي أعماقه السوداء أشرق ضوء خافت: الحاجة إلى زوجة..

لكن وعود (صلاح) نوع من الدخان الأزرق لا يدوم طويلًا.. يعد في حماسة وينسى وعده في حماسة أكبر..

سرعان ما كان يعود لحياة الأفاق.. فهي أسهل وأكثر ربحًا.. ثم إنها تناسب طباعة المتقلبة الثعلبية المتآمرة..

لكنه ظل مولعًا بـ (ناهد).. ولعل هذا كان الشيء الوحيد الصادق في حياته عديمة النفع بأسرها..

وفي ليلة سوداء اصطحب أباه العجوز - خفير سابق في مصنع - وذهب ليخطبها من أبيها الأستاذ (عبد الجواد)..

كلا لم يكن أحمق ولم يتحامق.. كانت نظريته تستند إلى دعامات قوية.. فالفتاة تميل إليه وهذا واضح.. كل الفتيات بهمن به على كل حال.. ثم إن الفتاة رسبت في الشهادة الثانوية وهذا يجعل سعرها أقل حتمًا. أضف لهذا أنه كان ذا دخل مرتفع، صحيح أن أحدًا - ولا هو نفسه ـ لم يستطع أن يحدد مصدر هذا الدخل بالضبط.. لكنّ المال هو المال.

وكان هذا في عهد الموظفين المحترمين.. حين كان الموظف القادم من الطبقة المتوسطة يعتلى سلم المجتمع قبل أن يهوي اليوم إلى أسفله.. لهذا بدا طلب (صلاح) شديد الوقاحة في نظر الأب، وكان رفضه باتًا وقاسيًا:

- «إن ابنتي لن تتزوج رجلًا لا أعرف ما هو عمله بالضبط.. ولو سأل أحدهم ابنها عن وظيفة أبيه فماذا يقول؟»

أضف لهذا أن الفتى كان يتمتع بأسوأ سمعة في الحي كله.. ولم يكن أحد يثق به إلا كما يثق بثعبان.. والثعابين ليست أفضل العرسان لابنتك بالتأكيد..

كان الرفض باتًا.. لكنّ (صلاح) لم يستسلم قط، ولم يصدّق أن (ناهد) لن تكون له..

* * *

وهنا تتحرك الرومانسية في أفظع صورها..

رومانسية قصص (ماجدولين) و(غادة الكاميليا) وكل ما لم يقرأه (صلاح) لكنه يتصرّف على أساسه.. وقد تعلم الدرس الأول من هذه القصص:

يجب أن تكون حبيبتك لك وإلا لن تكون لآخر!

وبالفعل تصرف بتهور مبالغ فيه، فاستوقفها في أثناء عودتها من المدرسة، وانفعل لدرجة أنه أمسك بمعصمها بقوّة، صارخًا في هستيريا:

ـ «أنا لا أرفض! أنا لا أرفض!»

حاولت أن تتملص في نعومة دون جدوى، من ثم بدأت تصرخ بدورها واحتشد المارَّة وكانت فضيحة لا بأس بها..

وهكذا ذهب الأب إلى المخفر حيث أبلغ عن الحادث، واستدعوا (صلاح) ليوقع على إقرار بعدم التعرض للابنة..

وقع (صلاح) طبعًا.. لكنّ ما أهميّة توقيع كهذا؟ إن (صلاح) يحمل بذرة مخالفة القوانين في أحشائه، وكلما خالف قانونًا شعر بأنه أحسن حالًا.. لهذا لم يكن التعهد يساوي أكثر من الورق الذي كتب عليه، وأدرك الجميع أنه لن يتوقف..

خطبت (ناهد) بعد هذا لمهندسها الهمام، وظل الجميع يرتجف هلعًا من انتقام (صلاح) لكنه لم يظهر.. بعد هذا أقيم الزفاف في حفل متواضع في شقّة د. (محمد شاهين) حتى لا يشعر (صلاح)، وقد حبسوا أنفاسهم فرقًا، ولم يكن أحد ليبدي دهشة لو اقتحم (صلاح) المكان حاملًا مسدسًا ليفرغه في صدر العروسين... إن هذا يحدث دائمًا في الأفلام العربيّة، ومن الغريب أنه فات على العاشق المكلوم اياه..

لكن (صلاح) لم يكن هنا.. كان قد سافر إلى (فرنسا) ليجمع العنب في هوجة سفر الشباب المصري إلى أوروبا في أوائل السبعينات.. وهي رحلة لن تسفر عن شيء في الغالب سوى بضع كلمات فرنسية يتشدق بها، وقميصين وسروالين على أحدث موضة، وعلبة سجائر (جولواز) يحملها في يده لأن السروال ضيق، ويضعها دومًا حيث يراها الجميع..

اختفى (صلاح) أعوامًا عديدة من العالم اليومي، ومن مخاوف الأسرة، وبدا أن الحياة تتحسن..

كان ذلك حين بدأت أعراض (التماثل الشعوري) هذه، وظهر في حياة الأسرة شيء أصلع نحيل يدعونه بـ (رفعت إسماعيل).. وهذا شيء مريع، لكنه ليس أفظع من (صلاح) على كل حال..

* * *

الآن يظهر (صلاح) من جديد...

ويظهر في المستشفى ليهنئ (ناهد) على سلامتها أمام زوجها، الذي لم يتبين شخصيته إلا بعد رحيله..

إن الوغد لم ينس شيئًا، ولم يتعلم شيئًا..

كان يحسب أن ما جمعه من مال في (فرنسا) - وهو في الغالب قليل جدًا - يصلح لتغيير نظرة الأب له..

لكنه وجد فتاته قد تزوجت ورزقت طفلًا..

الشخصيات الناضجة تعرف كيف تقبل الحقائق ولا تتحدى المجتمع، لكنّ من الأحمق الذي يصف (صلاح) بالنضج؟

وفي الآونة الأخيرة كف (صلاح) عن الظهور في (شبرا).. لم يعد أحد يراه.. لكنّ وجهًا جديدًا مثيرًا للتساؤلات ظهر في (حلوان)..

وبدا واضحًا أن الفتى لم ولن ينسى..

إنه يبحث عن المتاعب بالمجهر الإلكتروني..

ولم تكن (ناهد) تعرف هذا حين خرجت مع طفلها إلى السوق...

* * *

الفصل الثامن:

لا أهميّة له سوى ملء السجادة
ويمكن لسريعي الملل البدء بالفصل التاسع

كنت قد فرغت من عملي فجلست أطالع بعض المنشورات الطبية التي وصلتني إلى الكلية، حين سمعت صوت الخطوات المألوف على الباب وقرعات خجولًا تطلب الإذن بالدخول..

رفعت عيني لأرى (نجلاء)، وقد بدا لي كأن قطار بضاعة قد مر فوقها مرّتين..

كان وجهها مليئًا بالإعياء والإرهاق.. وهناك كدمات في كل مكان خاصة على خديها.. ومن خطواتها أدركت أنها تعرج قليلًا..

لم أجد ما أقول، وبدا لي من الابتذال أن أسألها عمّا هنالك.. سارعت بإحضار مقعد لها، وربت على كتفها مطمئنًا.. ثم سألت:

- «أنت أم هي؟»

لقد صار هذا السؤال تقليدًا في الآونة الأخيرة.. لا يمكن أن تعرف ما لم تسأل.. قالت وهي تلتقط أنفاسها:

- «هي.. لقد حدث هذا في التاسعة صباحًا.. تلقيت ـ وأنا في المكتب - عشرات الصفعات والركلات.. الطريف أن أحدًا لم يفعل هذا بي..

وأدركت على الفور نوع التجربة التي تتعرض لها (ناهد) الآن.. غادرت المكتب مسرعة وركبت - بمظهرى العجيب - إلى (حلوان).. وهناك عرفت أن (صلاح) هاجم (ناهد) وهي في السوق.. بعد محاورة قصيرة انهال عليها صفعًا وركلًا كالمجانين، وكاد يفتك بها لو لم يتدخل الناس الذين أصابهم الذهول لثوان.. وبالطبع كادوا يفتكون به بدوره.. إنه في المخفر الآن.. وهي في أسوأ حال..»

شعرت بذهول عميق..

أي بلطجي هذا؟ أي حيوان؟

إن من يضرب أمًّا تحمل طفلها يستحق أن يتم تمزيقه إلى قطع ورميه للتماسيح.. لماذا لم تعد في مصر تماسيح؟

رشفت جرعة من كوب الماء الذي أمامي.. لقد جعل الغضب لساني كحطبة، ثم قلت لها:

- «إنّه قد جن تمامًا.. والأدهى أنه عاقب اثنتين لا واحدة!..»

ابتسمت في حزن.. فلم يكن هناك ما يُقال..

قلت لها بعد صمت طال:

- «لماذا جئت اليوم؟ أعني إنني أرحب بك دومًا، ولكن أية ريح طيبة ألقت بك ها هنا؟ ألتخبريني بكل هذا؟»

قالت في شرود وهي تتحسس كدمة تحت عينها اليسرى:

- «أقول إنني لم أعد أطيق هذا الوضع يا د. (رفعت).. إنني أفرح فلا أدري إن كنت فرحة حقًّا.. أحزن فلا أدري إن كنت حزينة حقًّا أم هي.. حتى الجوع لم أعد واثقة من أنّه جوعي.. لقد فازت (ناهد) بكل شيء.. واليوم لم تعد مشاعري ذاتها من حقي..»

- «إنها تعاني الشيء ذاته على كل حال، ولا أظنها سعيدة..»

- «لكنّها حمقاء!»

قالتها في اشمئزاز، وأردفت:

- «حمقاء! والحمقى يجلبون على أنفسهم الوبال دائمًا.. أنا لا أضرب ولا أصفع.. لا يوجد شيء من المشاعر والأحاسيس الكريهة فيما أنقله لها.. أمّا هي فتجعلني أدفع ثمن حماقاتها!»

نظرت لها مليًا.. ثم في كياسة غمغمت:

- «بالعكس.. أنت تنقلين لها شعورًا كريهًا طيلة الوقت..»

- «وما هو؟»

- «الغيرة!»

* * *

زجوا بالفتى في السجن لمدّة ثلاثة أشهر، وهي فترة أشبه بإجازة الصيف بالنسبة للفتاتين وأسرتهما.. سيخرج حتمًا... لكنّ ربما يغدو أكثر تهذيبًا.. حين يحبّ من لا يستطيع الحب، يغدو إقناعه بنسيان الأمر ضربًا من المستحيل..

اندمجت في حياتي الطبيعية الهادئة، فكان لي لقاء مع طفل ممسوس ربما أحكي لكم قصته فيما بعد، وتعرفت كائنًا شيطانيًا يدعى (كراسوس) ربما يسعدني الحظ بان أقدمه لكم.. ذكروني فيما بعد بهذين.. هه؟

أقول إنني اندمجت في هذه الحكايات البهيجة التي تتكون منها حياتي، حين جاءتني (ناهد) ذات صباح في الكلية.. وهي المرّة الأولى التي تفعل فيها ذلك.. كانت كالعادة جميلة جدًا سمجة كحيوان (الأرماديللو).. لكني رحبت بها، وأنا أستعيد القصة إلى ذاكرتي من جديد...

قالت في شيء من الضيق:

- «تعبت كثيرًا حتى وجدت هذا المكتب»

اعتذرت لها بشدة عن عدم استطاعتي وضع مكتبي في منتصف ميدان (التحرير)، فمن العسير أن يسمحوا لي بذلك، ثم سألتها في غلظة عن سبب تشريفها لي..

قالت وهي تضع ساقًا على ساق، وتلوك قطعة لادن في عصبية:

- «إن الجروح تملأ جسدي، ورأيت أن أخذ رأيك..»

ثم مدت ساعدها لتريني معصمها الذي امتلأ بالكدمات..

قلت وأنا أخلع عويناتي لأضع عوينات القراءة:

- «يبدو أن.. هل قابلت (صلاح) مؤخرًا؟!»

تنهدت في صبر كأنما لا تصدق أي حمار هذا، وقالت:

- «(صلاح) في السجن.. ألم تفهم هذا من (نجلاء)؟»

- «إذن ما الذي؟.. هذه كدمات يا بنيتي وليست مرضًا جلديًا.. لا بد من إصابة ما..»
- «هذا هو ما أقوله.. إصابة ما، وهي لم تحدث لي..»
- «الأمر سهل إذن.. إن كل هذا حدث لـ (نجلاء).. أحسبنا تجاوزنا مرحلة الاندهاش لأمور كهذه..»
- «لكنّها تنكر!»
قالتها في كراهية.. في مقت.. وازدادت سرعة فكيها في مضغ قطعة اللادن مما جعل أصوات انفجارات عالية تدوي..
بدأت أهتم بالأمر، فانحنيت واستبدلت بعوينات القراءة عوينات المسافات لأراها أوضح، وسألتها:
- «تريدين القول إنها لم تصب بكدمات؟»
قالت في عنف:
- «نعم.. أو بمعنى أدق: لم يصبها أحد بها.. إن هناك في جسدي آثار كدمات وحروق كلها في أماكن غير ظاهرة.. وهذا معناه..»
اللعنة!.. إن الأمر يزداد تعقيدًا..
إن الأطباء يعرفون مرضًا نفسيًا شهيرًا هو (التمزيق الذاتى) وكالعادة يطلقون عليه اسمًا عسيرًا مثل autoniutilation وهو منتشر إلى حدٍ ما بين الإناث، وهناك مرض آخر هو انتزاع الشعر الذاتي، واسمه اللاتيني المرعب في حد ذاته هو Trichotellomania.. وهو ـ كالعادة ـ منتشر بين الإناث، وكل المريضات به ينكرن أنهن يؤذين شعورهن أو يدمين أجسادهن.. وبالطبع تكون أكثر الإصابات في مواضع تخفيها الثياب حتى لا يتعرضن لأسئلة فضولية، وكثيرًا ما حيرت حالات كهذه أطباء الأمراض الجلدية الذين يحسبونها مرضًا خطيرًا لا اسم له..
لماذا يؤذي الإنسان جسده الخاص؟ إنّه نوع من عقاب الذات أو استعذاب الألم يدل على خلل نفسي مريع..
لماذا ـ إذن ـ تؤذي (نجلاء) نفسها؟ إجابة سهلة جدًا: لأن هذا هو السبيل الوحيد لإيذاء (ناهد)! (ناهد) التي ظل لها طعم مرير في فم (نجلاء) طيلة هذه الأعوام.. (ناهد) التي ظفرت بكل شيء دون أن تستحقه.. إن (ناهد) يجب أن تنال نصيبها من الأذى..
لقد استنتجت (ناهد) الأمر بسهولة ودون عناء، وفي غضب قالت لي:
- «هذه الحمقاء مجنونة تمامًا.. يجب أن تمنعوها، وإلا لا أضمن لحظة ما ستفعله كي تؤذيني.. ربما تلقي بنفسها أمام قطار أو تشعل في ثيابها النار.. تصوّر هذا! إنها تحقد عليّ منذ عرفت معنى الحقد..»
نظرت لها صامتًا...
في الحقيقة لم يكن كل ما قالته هراء إلى هذا الحد...
لكنّ هل تفعل (نجلاء) ذلك حقًّا؟

* * *

صاحت (نجلاء):

- «أقسم بالله العظيم إن هذا لم يحدث!»

ثم نهضت مندفعة إلى رف المكتبة على الجدار:

- «هات لي مصحفًا كي أقسم عليه..!»

نهضت فأعدت المصحف إلى موضعه على الرف، وقلت لها:

- «لا أحب أن تقسمى في أمور تحتمل الكذب أو الخطأ.. كل هواة (تمزيق الذات) ينكرون - أو لا يعرفون - أنهم يفعلون ذلك..»

قالت وهي تشير إلى ذراعها المليء بالكدمات:

- «هي التي فعلت هذا بنفسها وبي.. أنت لا تعرف (ناهد).. إنها الأنانية المجسدة والشر المطلَق.. حتى إنني لأبكي كل ليلة حين أتذكر أنّ هذه هي أختي التوءم..»

جلست إلى مكتبي، وخلعت عويناتي ورحت أعتصر عيني بأناملى منهكًا، ثم قلت لها:

- «اسمعي يا (نجلاء).. إن علاقتكما المعقدة هذه تحتاج إلى كاتب من وزن (دستويفسكي) الرهيب كي يدرسها.. وبما إنّه مات فإنني أقترح أن تريا محللًا نفسيًا بارعًا.. أعرف واحدًا هو د. (سامي) لكنه يعيش في (الإسكندرية).. ربما لو..»

وفتحت عيني فوجدتها قد رحلت..

* * *

الفصل التاسع:

لا أهميّة له سوى التطويل ويمكن لسريعي الملل أن يبدءوا بالفصل العاشر

كان (صلاح) هِلْجامة..

و (هلجامة) هي لفظة عربية منسية لكنّها فصيحة جدًا، وتعبر باختصار عن الشخص الكذوب الخائن الجبان اللص المنافق القذر البخيل القاسي الواشي المدعي المغرور الجاهل الـ... باختصار (هلجامة) تعنى من حوى كل نقيصة وخلا من كل فضيلة..

ولأن (صلاح) هلجامة، فقد غادر السجن لكنه لم يغادر عالمه المليء بالقسوة والاستخفاف بمشاعر الآخرين..

فقط قرر أن ينتظر حتى تسنح فرصة الانتقام...

* * *

كانت المشكلة هي أن (ناهد) لم تعد تغادر الدار، فإن غادرتها كان زوجها معها في كل خطوة.. وحين يذهب زوجها للعمل كانت (ناهد) تغلق باب الشقة بإحكام ولا تخرج أبدًا أو تنظر من نافذة..

ومن حين لآخر كان يرى أباها يدخل البناية، أو خالها، أو شقيق زوجها.. لقد تعلم هؤلاء ألا يتركوا (ناهد) وحدها أكثر من بضع ساعات كل يوم..

تدريجيًا نسى (صلاح)- وهو يجلس في المقهى يدخن الشيشة ويشرب الشاي (الكشري) - أن عليه أن ينتقم.. صار الأمر أقرب إلى لغز مسل يتحدى الذكاء من ألغاز مجلة ـ كيف يؤذي أميرة تحيا في حصن يحيط به الفرسان الأشداء في كل صوب؟»

* * *

في ذلك الصباح المشمس جلس في المقهى يراقب مدخل البناية على الجانب الآخر من الشارع كدأبه.. كان قد وضع عوينات سوداء وأطال لحيته في السجن، كما قصر من شعر رأسه.. لكنه ـ لمزيد من الضمان ـ كان يمسك بجريدة يخفي بها وجهه كلما شعر أنّ هناك من ينظر في اتجاهه...

رشف رشفة من الشاي، وسحب نفسين من الدخان:

الآن يستطيع أن يرى الأب والتوءم الآخر ـ القبيحة ـ يغادران المبنى، لكنهما لم يكونا وحيدين، الآن يرى (ناهد) وطفلها على كتفها، وزوجها ذا العينين الحولاوين.. يبدو أن الأسرة كلها ذاهبة النزهة، أو ربما لزيارة أم الزوج أو شيء من هذا القبيل..

بحركة غريزية رفع الجريدة ليخفي وجهه، ودقق النظر أكثر..

كانوا يعبرون الشارع وينظرون في اتجاه السيارات، حين برز صبي على دراجة هوائية.. كان مندفعًا أكثر من اللازم فاصطدم بـ (نجلاء) بقوّة لا بأس بها، وهي لم تره لأنّه كان يسير في عكس الاتجاه.. سقطت أرضًا وصرخت صرخة قصيرة..

هنا لاحظ ظاهرة غريبة بعض الشيء..

لماذا صرخت (ناهد) بدورها؟ ولماذا مدت يدها تتحسس كتفها؟ إنّه لم ير شيئًا يضربها، ومن المؤكد أنها تتألم حقًّا.. غريب هذا! ربما آلم الرضيع كتفها بشكل ما.. ولكن يا لها من مصادفة!

استطاع أن يرى الزوج يوبخ الصبي، ثم يُطلق سراحه.. بينما الأب ينحني على (نجلاء) ليرى ما دهاها حيث جلست على الإفريز تئن.. هو ذا يمد يده إليَّ كاحلها ليتفحصه.. بدا ألم شديد على ملامحها..

وانطلقت عينا (صلاح) كالرصاصة لتريا ما أصاب (ناهد).. إنها تمسك بكاحلها وعلى وجهها أعتى آيات الألم.. لقد أرغمها الألم على الجلوس بدورها على الأرض والطفل على كتفها، وبيدها الحرة راحت تدلك ساقها عند المفصل الملتوي..

ما معنى هذا كله؟

كان ذكيًا، وكان يتمتع بغريزة الذئاب.. لهذا بدأ يفهم ما يحدث، لكنه لم يصدقه.. هذا هراء.. إن المصادفات..

ولم يكن يتمتع بعقل علمي منظم، لكنه وضع منهاجًا علميًا لا بأس به لإجراء تجربة كانت ستروق لـ (ديكارت) بالتأكيد...

نادى غلامًا مر به في المقهى.. غلامًا من هؤلاء الحفاة الذين يمشون حاملين قطعة من الورق المقوى صامتين كالقبور.. وهي رسالة صامتة لمن يبغي تلميع حذائه..

في كف الغلام دسّ عشرة قروش - وهو مبلغ كان فادحًا وقتها - وفي أذنه همس ببضع كلمات، شفعها بصفعة على ظهره وصيحة:

- «حمامة يا له! أسرع قبل أن يبتعدوا!»

ولم يكذب الغلام خبرًا..

عبر الشارع ركضًا، ثم مضى يهرول فوق الإفريز حتى وصل إلى (ناهد) التي كانت قد استطاعت التحامل على نفسها فالوقوف..

وفجأة - قبل أن تفهم ما حدث - كان الغلام قد داس على قدمها بقدمه الخشنة الغليظة،، وواصل هرولته مبتعدًا..

من جديد تأوهت وقالت شيئًا ما عن تلك البهائم التي لا ترى أمامها، وفي اللحظة ذاتها تأوهت (نجلاء) من جديد ونظرت إلى قدمها..

ثم إنها - (نجلاء) - تحاملت على نفسها لتنهض مستندة إلى الأب وزوج شقيقتها، وببطء بدأت تمشي.. ثمّة عرج بسيط لكنّها تمشي على كل حال.. وراح الأربعة يبتعدون عن المشهد..

وفي مقعده حيث جلس يرمق كل هذا، والجريدة تداري وجهه نوعًا، أدرك (صلاح) أن يومه لم يضع سدى...

إن لهذا الذي رآه معنى خطيرًا..

إن نفعه لمؤكد، وإن كان تفسيره عسيرًا على الأفهام.. لا يهم!

الخاسرون فقط هم من يبالون بالتفسيرات..

* * *

بالطبع لم أعرف شيئًا من كل هذا، لأن (نجلاء) و(ناهد) قررنا أن تحرماني من أسرارهما اللطيفة، ومن كوني المستشار الصحي المجانى لهما.. لابد أنني أبديت تبرمًا واضحًا في المرّة الأخيرة..

وهكذا غرقت في التفاصيل الهادئة لحياتي.. مثل الوباء الغامض الذي بدأ يحيل القوم إلى مسوخ في تلك القرية الفرنسية، والمومياء التي تغير مكانها ليلًا في المتحف المصري.. إلخ.. ذكروني أن أحكي عن هذه القطع الرائعة في مناسبة أخرى..

أما الآن فيمكن القول إن شهرين مرّا دون أن أسمع خبرًا عن تلك الأسرة، وأكون كاذبًا لو قلت إن هذا ضايقني.

إنني أمقت العلاقات النفسية المعقدة وأشمئز منها، لهذا لا أرتاح كثيرًا للكراهية المتبادلة بين الشقيقتين، تلك الكراهية التي تحمل قدرًا لا بأس به من الحسد والغيرة، وتتوارى وراء ابتسامات معسولة.. إن (نجلاء) تغار من جمال (ناهد) و(ناهد) تغار من عقل (نجلاء)، فهى - برغم جمالها الصارخ - تشعر بأنها لم تزد على عصفور جميل الشكل فارغ الرأس، اقتناه زوجها في داره.. ولعلها كانت تتمنى حقًّا لو ذهبت إلى الجامعة، وحملت كراس محاضرات، وأمضت ساعات المساء في استذكار كئيب.. يومًا ما ستكون (نجلاء) محامية وسيطلقون عليها لقب (الأستاذة)، بينما يذوي جمال (ناهد) فلا يبقى منه سوى عجوز جاهلة خاوية العقل..

لم أشعر - وأنت توافقني - باستمتاع كبير إذ أتورط في كل هذه المشاعر السوداء القادمة من أغوار روايات (دستويفسكي)، كما لم أتحمس كثيرًا لموضوع (صلاح) الذي يصفع الأمهات في الأسواق، ويزور حبيبته أمام زوجها فلا يخفى حبّه لحظة.. كل هذا يثير هلعي ويجعلني أنكمش أكثر فأكثر.. واتذكر كلمات المطرب الإنجليزي (كات ستيفنز):

- «آه يا صغيرتي إنّه لعالم متوحش..
من العسير أن تحتفظي بابتسامتك فيه..
فإذا صممت على الرحيل تذكري أن تأخذي حذرك..
فهو عالم متوحش لا يرحم.. وأنت مجرد طفلة..»

لقد قالها (كات ستيفنز) ثم اعتنق الإسلام، وصار اسمه الشيخ (يوسف إسلام)؛ من أهم قادة الدعوة الدينية في (لندن).. ويبدو أنه لم يجد مفرًا من هذا العالم المتوحش إلا في الدين[2]..

حقًّا إنّه لعالم متوحش يا صغيرتي..

* * *

في ذلك اليوم فتحت باب شقتي في العاشرة مساء، لأسمع جرس الهاتف لا يكف عن العواء والصراخ...

غريب أن اللهفة والذعر يظهران في جرس الهاتف أحيانًا..

هرعت لأرد في الظلام، وطبعًا اصطدمت بمقعدين حطما ساقي، كما سقطت المزهرية كعادتها منذ عشر سنوات، وبرغم هذا لا تتهشم أبدًا لتريحني منها..



من جديد تأوهت وقالت شيئًا ما عن تلك البهائم التى لا ترى أمامها ، وفى اللحظة ذاتها تأوهت (نجلاء) من جديد ونظرت إلى قدمها . .

أخيرا وجدت السماعة فرفعتها، وبحنق صحت:
- «ماذا تريد؟»
- «أنا د. (محمد) يا (رفعت).. د. (محمد شاهين)..»
- «هذا لم يجب على سؤالي بعد..»
- «إن (نجلاء) لم تعد من المكتب بعد..»
شرحت له في صبر أنني لست مسئولًا عن مواعيد ذهابها وإيابها، إلا إذا كنت زوجها، أو سائق سيارتها الخاصّة، أو سائق حافلة المدرسة، أو - لا سمح الله - كان لي سجل مشهود لخطف الفتيات..
- «لكنّها مريضتك»
- «ما دامت ليست مصابة بسرطان الدم، فالأمر لا يخصني»
قال في رصانة من يحاول تمالك أعصابه كي لا ينفجر فيّ:
- «(رفعت).. أنا أحدثك كصديق.. هل تجد من الطبيعي أن تتأخر ابنة أختك حتى العاشرة مساء، وهي لم تتأخر قط بعد الثالثة في أي يوم؟ وهم لا يعرفون شيئًا عنها في المكتب».
- «كلهن يفعلن ذلك، ثم يعدن للدار دون أن يمتن، وهي شجاعة أدبية حقيقيّة.. لو كنت مكانها لَمُت».
ثم - قبل أن ينفجر فيّ - صحت:
- «اسمع.. هل طلبتم صديقاتها؟»
- «كلهن في ديارهن معززات مكرمات»
- «وهل لها خياط أو مصفف شعر؟ لا بد من واحد..»
- «إلا هي.. إنها تفعل كل هذا في البيت..»
- «وماذا عن الأقسام والمستشفيات؟»
- «لقد فعلت هذا وأكثر.. أتحسبني كنت أمزح منذ الخامسة؟»
هنا وجدت أن أفضل ما أفعله هو أن ألحق به...
امقت هذه الدواعي التي أترك البيت بسببها.. لو كان في نزولي في ساعة كهذه بعض نفع للفتاة لفعلت، لكنّ الأمر هو نوع من الاستنزاف العاطفي لي.. لماذا أجلس في داري مستريحًا ما دام من الممكن أن أتعب؟ حتى ولو كان تعبي بلا جدوى...

* * *

ويمكنك بوصفك رجلًا ذا خيال أن تتصور منظر الأسرة من الطبقة المتوسطة إذ جلست على جمر، بانتظار خبر أي خبر..
كانت (ناهد) هناك وزوجها وطفلهما الذي يعوي كالذئاب جاعلًا الأمر جحيمًا بما يشيعه من توتر..، والأم لا تكف عن البكاء والارتجاف، والأب هو متوفٍ ينتظر فقط أن نعلن أنه كذلك..
قلت وأنا أتأمل (ناهد) في تمعن:
- «أعتقد - وأنتم توافقونني - أن (نجلاء) لم تمس بأذى حتى هذه اللحظة».
قالت مؤيدة رأيي:

- «هذا أكيد.. لا أشعر بأدنى ألم..»
- «هل هي خائفة؟»
- «لا.. وإن هذا لغريب...»

ابتلعت ريقي وسألتها السؤال الأخير:

- «هل هي حية؟».

* * *

الفصل العاشر: وهو مهم حقًا.. لكن لا يمكن فهمه دون قراءة ما سبق

ومن قال إن التطابق الشعوري بين توءمين، يجب أن يكون مطلقًا، ولا ينتهي في لحظة بعينها؟ من قال إنّه يجب أن ينتهي بموت التوءمين في لحظة واحدة؟ إن انتهاء الترابط الشعورى بين الأختين ـ في حالتنا هذه ـ قد يعني موت واحدة منهما..

يقول الإنجليز: إن عدم وجود أخبار هو خبر طيب.. أي إنّه لا توجد أخبار سيئة على الأقل.. وهو قول آخر من تلك الأقوال الشهيرة التي تبدو للوهلة الأولى حكيمة ثم يتضح أنها ساذجة.. تحيل مثلًا انقطاع أخبار أخيك في الحرب أو أبيك المسافر.. أحيانًا يكون انقطاع الأخبار خبرًا سيئًا في حد ذاته..

* * *

وهكذا ظللنا جالسين في صمت لا تنقصنا سوى اقداح القهوة السادة، وصوت المقرئ لنكون في سرادق عزاء..

نهض (محمود) في عصبية وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم وقف وصاح:

ـ «إن هذا كله يحطم الأعصاب.. لو كانت مخطوفة فليقولوا هذا ويخلصونا.. ولو كانت ميتة..»

توقعت أن تلومه (ناهد) لكنّها لم تفعل.. هي فقط تكره الكلام عن موتها هي.. لهذا وأصل الكلام..

ـ «فليتصلوا بنا لندفنها!»

في اللحظة التالية تراجع رأس (ناهد) للوراء.. أكاد أقسم أن شفتيها قد ازرورقت.. وراح صدرها يعلو ويهبط ككباس قطار بخاري.. مدت يدها إلى عنقها كأنما تطلب الهواء، وراحت تحدث أصوات شهيق وزفير متواصلة.. كانت في حالة (انعدام الحيلة) الشهيرة..

وصاح (محمود) في ذعر وهو يحدّق بعينيه الحولاوين فيها:

ـ «د. (رفعت)! ماذا يحدث لها؟»

- «إنها.. تختنق!»

- «ولماذا لا تفعل شيئًا؟»

ـ «لا يوجد سبب لهذا.. إن (ناهد) تعكس ما تمر به (نجلاء) الآن.. إن (نجلاء) في مكان ما تواجه خطر الغرق!»

- «يا للكارثة!!»

وجثا على ركبتيه جوارها، وهو يتمنى أن يفعل شيئًا لكنه لم يجرؤ حتى على لمسها.. فقط راح ينظر اليّ طالبًا العون ثم لها متوسلًا..

أخيرا بدأت تسترد لونها الطبيعي، وهدأت نوعًا.. واستطاعت أن تتحكم في جلستها على الأريكة.. لقد نجت (نجلاء).. هذا واضح..

الآن وقد اطمأننت إلى أن الصلة الشعورية لم تنقطع، صرت أكثر اطمئنانًا إلى أن (نجلاء) حية ترزق.. هي - فقط - تعاني، ومعاناتها تتضمن الغرق على كل حال..

- «ماذا تظنه يحدث للأخرى؟»

- «لا أدري.. حقًّا لا أدري..»

* * *

في الرابعة صباحًا، عدت إلى شقتي.. وكنت اعرف أن النوم لن يجيء، فهو كالحظ يجيء مرة واحدة فإن تجاهلته فيها لا يجيء ثانية.. وعلامات الشيخوخة التي حلت بي كان أولها ظاهرة (الاستيقاظ قبل الأوان) المميزة للشيوخ.. بحثت في مكتبتي عن رواية (الأخوان الكورسيكيان) للكاتب الأشهر (الكسندر دوما).. وكتبها عام ١٨٦٦.

وكان صوت أذان الفجر الأول يتردد من بعيد، حين بحثت وسط الصفحات عن فقرة المبارزة... ها هي دي..

(لوي) - التوءم الأول - يقف في ضاحية بـ (باريس)، ويده على زناد المسدس وأمامه خصم عتيد.. إنها مبارزة لرد الشرف من التي يزخر بها أدب (دوما).. تنطلق الرصاصة الأولى لتستقر في جسد (لوي)..

في اللحظة التالية يشعر (لوسيان) - التوءم الثاني - الذي يمتطى صهوة جواده في (كورسيكا) بألم فظيع في صدره فوق الضلع السادس، ثم يخترق الألم صدره ليخرج من مفصل فخذه.. ذات مكان إصابة (لوي)..

لقد كان (دوما) بحس الفنان المرهف يصف بالضبط ما نحن بصدده هنا..

بعد هذا بأعوام عدة، وبالتحديد في عام ١٩٧٧ في المؤتمر الثاني لدراسات التوائم في (واشنجتون)، أعلن المؤتمرون ما يلي:

- لو انقسمت، البويضة الملقحة خلال الأيام العشرة الأولى من التلقيح فلا ينتظر أن يولد كل توءم بمشيمة منفصلة.

- لو حدث الانقسام بعد الأيام العشرة الأولى، يجيء توءمان متطابقان لهما ذات الشبه، ولكن أحدهما صورة مرآة للاخر.. أحدهما أيمن والآخر أشول.. أو اتجاه الشعر في أحدهما لليمين والآخر لليسار...

- لو حدث الانقسام بعد اليوم الثالث عشر يجيء التوءم السيامي الرهيب، حين يشترك التوءمان في قلب أو كبد أو صدر واحد.. والأمثلة على هذا شهيرة ومعروفة في كتب العجائب وكتب الطب

- لو جاء التوءمان من بويضتين منفصلتين فنن يكون بينهما تشابه.. وهو ما يسموّنه بـ (التوءم غير المتماثل) أو Fraternal twins.

* * *

واحدة من كل تسعين ولادة تأتي بتوءمين.. وربع هؤلاء التوائم يكونون متطابقين.. إن (نجلاء) و(ناهد) جاءتا من بويضتين منفصلتين، لهذا هما توءمان غير متماثلين، لكنّ من الواضح أنهما احتفظتا بصلتهما الحيوية المتعلقة بالإحساس بالألم..

إن دراسات الدكتور (لويس كيث) من كلية الطب جامعة (نورث وسترن) بـ (إلينوي) لتعتمد اعتمادًا كبيرًا على دراسات أستاذ آخر إيطالي هو (لويجي جيدا)، ولقد قام هذا الأخير بدراسة 15 ألف توءم منذ عام ١٩٥٣ حتى الآن، وقد توصل الاثنان في النهاية إلى أن علاقات التوائم الذهنية تتباين في مراتبها..



مدت يدها إلى عنقها كأنما تطلب الهواء ، وراحت تحدث
أصوات شهيق وزفير متواصلة . .

في أدنى المراتب يأتي الدافع المشترك: حين يرغب توءم في الاتصال بأخيه لمجرد أن أخاه رغب في نفس الشيء في الوقت ذاته.

في مرتبة أعلى يأتي التخاطر الذهني وتوارد الخواطر.. إن التوءم يفكر في ذات الأشياء التي يفكر فيها أخوه...

أما أعلى المراتب - كما يقول (لويس كيث) - فهي الاشتراك في الألم في الموضع ذاته والوقت ذاته..

هناك نظرية مهمّة طرحها (لويجي جيدا) بعد دراساته المضنية على التوائم، وهي نظرية (ساعة الحياة).. أي الساعة الحيوية التي تتحكم في أقدار التوائم.. إنهم يمرضون معًا ويتألمون معًا وكثيرًا ما يموتون في اللحظة ذاتها.. لم يكن لهذا تفسير واضح في ذلك الوقت، لكنّ الطب الحديث - طب التسعينات - عرف كثيرًا جدًا عن (الجينات)، وعرف أننا نحمل مصائرنا وأمراضنا محددة مرسومة في الصبغيات الموجودة بخلايانا..

ولما كان التوءمان يشتركان في الصبغيات، كان من الطبيعي أن يشتركا في المصائر والأمراض والساعات الحيوية..

كنت غارقًا في هذه الخواطر حين سمعت أذان الفجر.. سأصلي وأنام، وعسى ألا.. لم لا أنتزع فيشة الهاتف أصلًا؟ إن الأمر خطير لكني أشعر بحاجة أكثر خطرًا للنوم..

* * *

كما توقعت بالضبط ذهبت إلى الكلية لأجد (محمد شاهين) ينتظرني، وكان العرق يبلل صلعته وعنقه.. واضح أنه قضى أسوأ ليلة منذ ليلة زفافه، وهتف بمجرد أن رآني:

- «أين كنت يا أستاذ؟ إن هاتفك هذا..»

فشرحت له في صبر أنني كنت نائمًا كجثة، وكان عليه أن يجيء لداري ليوسع الباب ركلًا لو كان متحمسًا إلى هذا الحد..

- «لم أستطع المجيء لأن الساعة كانت الخامسة صباحًا، وليست عندي سيارة.. لقد بدأت الآلام!»

- «(ناهد) تتألم!»

- «وبانتظام» - قال وعيناه تتسعان رعبًا - «.. لقد ذاقت كل شيء من الدبابيس تحت الأظفار إلى حروق السجائر في شحمة الأذن إلى الصفعات..»

وارتجف هلعًا وأخرج منديله (المحلاوي) العملاق الذي يصلح كفنًا له، فجفف العرق على عنقه وقال:

- «(رفعت).. هناك من يعذب (نجلاء) بمنتهى الوحشية في هذه اللحظات..»

جلست شاعرًا بخطورة الموقف.. لم أدر ما أقول.. لماذا لا يصدّق هؤلاء الحمقى أنني لا أملك أدنى فكرة عما ينبغي قوله أو عمله؟

- «وفي رأيك من يفعل هذا؟»

- «لا أدري...»

وساد الصمت هنيهة، بعدها قلت في شرود:

- «حاول خنقها بإغراقها في الماء.. كان يمكنه التمادي لكنه كان يهدف إلى التعذيب لا أكثر.. بعد هذا استعمل أسلوب الدبابيس والحرق بالسجائر.. هل لدى (نجلاء) من يكرهها لهذا الحد؟»

- «إنها كما رأيت.. لا تملك شرًا ولا نجاحًا.. ولا أعداء»

فكرت قليلًا.. لن أستبعد أن تكون الفتاة في مكان ما تتسلى بتعذيب نفسها عالمة أنها تؤذي أختها باستمرار.. إن علاقة الأختين معقدة جدًا وتحتمل الكثير..

* * *

وفي المساء ازداد الأمر سوءًا..

كانت (ناهد) تصرخ باستمرار بلا كلل.. وراحت تجذب ساقيها من تحت الملاءة في اشمئزاز، كما تفعل المرأة حين ترى فأرًا أو سحلية توشك على الجري فوق جلدها.. كان أداء جيدًا من (البانتومايم)، وأدركت دون جهد أنّ هذا ما تمر به (نجلاء) الآن.. سألني الزوج الملهوف وهو يحتضنها مهدئًا..

- «ماذا يحدث؟ إنها لا تتحمل الملاءة على قدميها»

- «كما ترى.. أعتقد أن من يعذب (نجلاء) يستخدم الفئران الحية الآن.. إنه لواسع الخيال حقًّا..»

بالطبع لم نتصور لحظة أن من يعذب (نجلاء) يفعل هذا ليعذب (ناهد).. إن الأمر واضح لك لأنك تتابع هذا كله من مقعد علوي يستوعب ويشمل كل التفاصيل.. أشبه بمن يراقب تخبط النملة في متاهة تبحث عن فتحة الخروج منها، أمّا نحن فقد كان الأمر مبهمًا بالنسبة لنا ولم نر الأمور بهذا الوضوح قط.

قال لي (محمود) وهو يعتصر طفله الصارخ ليخرسه:

- «هل يمكننا استخدام هذا الشعور المشترك بينهما في العثور على الأخرى؟»

- «هذا ما أفكر فيه..»

وجلست على طرف الفراش، وانتظرت حتى هدأت نوعًا ثم سألتها:

- «(ناهد).. أغمضي عينيك وفكري جيدًا..»

نظرت لي في شك.. ثم فعلت كما قلت..

- «هل تشعرين أو تشمين شيئًا؟ هل تسمعين شيئًا؟»

كان هذا ينجح في القصص دائمًا.. ستشم رائحة ياسمين وتسمع صوت طائرة وصوت قطار.. وتسمع قطرات ماء على النافذة.. عندها نستنتج أنها - (نجلاء) - سجينة في كوخ جوار حقل ياسمين قرب مطار وقضيب سكك حديدية، وبالطبع هناك ماسورة مياه أو ميزاب جوار النافذة.. هذا ينجح في القصص لكنه لا ينجح في الواقع أبدًا.. فالفتاة - ببساطة - لا تشعر ولا تسمع أو تشم شيئًا..

- «لن يصلح هذا..»

قالها د. (محمد) في ذكاء، فنظرت له بغل.. ليته لا يتحفني باستنتاجاته العبقرية هذه لدقائق..

قلت لها من جديد:

- «حاولي أن تركزي.. سنطفئ النور ونغادر الحجرة.. فكري في الكلمة التي تتردد الآن في ذهن (نجلاء).. فكري.. فكري..»

قلت هذا وأنا أجذب الرجلين خارجًا من الحجرة ببطء..
وجلسنا من جديد على الأريكة التي تسترها سجادة الصلاة، وكانت الأم قد أعدت لنا بعض الشاي كالعادة.. أمّا الأب فكان في الفراش يمارس كل مهام الجثة كدأبه منذ اختفت (نجلاء)..
قال (محمود):
- «لقد أبلغنا الشرطة هذا الصباح..»
- «هذا جيد.. لكنّ لابد من خيط يبدءون منه»
ثم رحت أقلب أفكاري كما يقلب الفأس الأرض بعد زراعة البطاطس.. طبقات أخرى لم تخطر لي ببال تظهر..
من خطف (نجلاء) - وهي غالبًا مخطوفة - لا يريد موتها.. يريد عذابها.. لا توجد طريقة عقليّة ما للبحث عن (نجلاء)..
وفجأة صحت في حماسة حتى انسكب الشاي من يدي على الأريكة كعادتي:
- «انتظر!.. لديَّ فكرة.. فكرة عبقرية!»
- «اهنئك...» قال د. (محمد).
ونهضت مسرعًا إلى الحجرة، وأنا أردد:
- «سنجد (نجلاء).. وسنجدها بسهولة!»
- «ولكن هلا شرحت لنا ما..»
مددت يدي إلى المقبض لأفتحه، حين سمعت صرخة (ناهد) تتردد في أرجاء الغرفة الموصدة:
- «صلاااح!»

* * *

هنا أجدني مضطرًا للتوقف لأن لساني قد أرهقه السرد، وضوء الفجر يتسلل من خصاص النافذة.. أريد أن أنام...
وماذا حدث بعدها؟ بالطبع سأحكي ذلك بالتفصيل.. المفروض أن نعرف في الجلسة القادمة ما حدث للتوءمتين.. ونعرف كيف وجدت (نجلاء) بفكرتي العبقرية.. ونعرف ما حدث لـ (صلاح) هذا..
انتظرني فإني عائد كالعادة بتكملة هذه القصة، ما لم أمت طبعًا وهو احتمال وارد.. لكني احسبكم ستتضايقون لموتي أكثر من ضيقكم بقصة غير مكتملة.. ولسوف يشفع لي هذا بعض الشيء.
فإلى لقاء.....

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

* * *

رقم *الإيداع*: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـدمـة

الفصل الأول:

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

الفصل العاشر:

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة النصف الآخر

ثمة أسرار كثيرة وعلامات استفهام لا حصر لها تحيط بالتوائم .. وفي هذه القصة يقابل د. (رفعت إسماعيل) للمرة الأولى ظاهرة غريبة بعض الشيء .. إن للتوءمتين (نجلاء) و(ناهد) سرًا صغيرًا .. وهذا السرّ لا يمكن إذاعته هنا على الغلاف الأخير ، وإلا ما عاد سرًا ..!



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
أسطورة التوءمين

Notes

[←1]

أرواح وأشباح. دار الشروق. الطبعة الثالثة عشرة.

حقيقة. [←2]

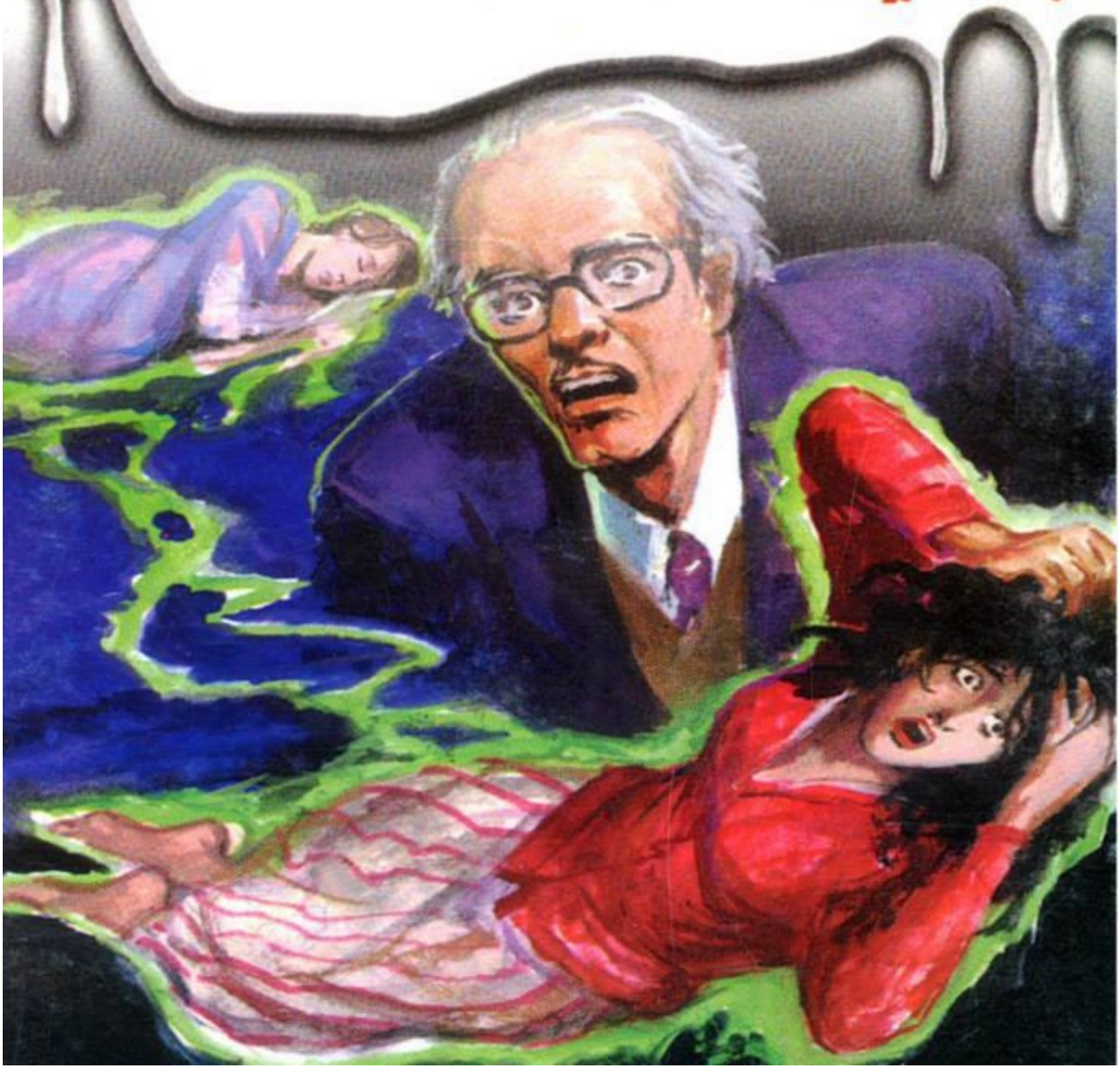
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

39

أسطورة التَّوْءَمَيْن

ماوراء الطبيعة



مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

في هذا الكتيب نستكمل حكاية التوءمين (نجلاء) و(ناهد)، واللتين صار لاسمهما ذات رنين (هناء) و(شيرين) أو (ريا) و(سكينة) بالنسبة لمسمعي..

ولمن لم يقرءوا الكتيب السابق أقول: أرجو أن تقرءوا الكتيب السابق، لأن التلخيص يفسد كل شيء..

فقط نضع بعض النقاط على الحروف فنذكركم أن التوءمين قد اكتشفتا وجود تطابق شعوري تام بينهما.. إن الألم الذي تشعر به إحداهما يزور الأخرى في الوقت ذاته في المكان ذاته..

عرفنا كذلك أن (نجلاء) تمثل الفتاة متوسطة الجمال - يمنعنا التهذيب من وصفها بالقبح - الذكية إلى حدٍ ما.. وهي أول من لاحظ هذه الظاهرة وقررت - لشدة ذكائها - الاستعانة بي أنا (رفعت إسماعيل) صديق خالها..

أما (ناهد) فتمثل الفتاة باهرة الجمال - يمنعنا التهذيب من الصراخ انبهارًا بها - فارغة الرأس، ثقيلة الظل.. تزوجت مبكرًا وأنجبت، لكنّها ما زالت تعاني مطاردة الحب العنيد السمج لأفاق يدعى (صلاح)، لم يقبل قط حقيقة كونها تزوجت..

إن مضايقات (صلاح) لا تنتهي.. وقد أحال حياة الأسرة الهادئة إلى جحيم حقيقي.. والكارثة هنا هي أنه يعرف الآن سر الأختين الصغير، ويعرف أن الطريقة المثلى لإيذاء (ناهد) هي عن طريق إيذاء (نجلاء).. إن (ناهد) محاصرة بحراسة لا تهمد.. أما (نجلاء) فلا..

ولأسباب يطول شرحها؛ وجدت نفسي متورطًا حتى الساقين في مستنقع العلاقات الأسرية المعقدة المتشابكة لهذه الأسرة.. ووجدت نفسي أمام علاقة المقت والتشكك العجيبة بين الأختين، اللتين تحمل كل منهما حقدًا وحسدًا لا بأس به نحو الأخرى..

لهذا ظلت علامات الاستفهام تتراقص أمامي..

إن أشياء غير عادية ستحدث..

أشعر بهذا..

أعرفه جيدًا.....

الفصل الأول: مجرد تمهيد.. ولعل الفصل الثاني أكثر حيوية

ونعود لجلستنا الصامتة في غرفة الجلوس، نتبادل صوت الأنفاس.. ونصغي لدقات الساعة المعلقة في الركن..

دوى صوت أذان الفجر من مسجد قريب، ففطنت لأول مرة إلى أنني لم أنم.. بل تذكرت ـ فجأة ـ أن لي منزلًا لم أعد إليه هذه الليلة.. غريب هذا الحماس مني أنا الذي كففت منذ سبعة وتسعين عامًا عن الحماس لأي شيء.. يبدو أنني ما زلت شابًا إلى حدٍ ما..

قال د. (محمد) وهو يشمر عن ذراعيه وبصوت مرهق ناعس:

ـ «هل تريد دخول الحمام يا (رفعت)؟»

قلت في غيظ:

ـ «أنا هنا منذ الثامنة مساء.. ولو لم أكن بحاجة للحمام لكان معنى هذا إصابتي بفشل كلوي وانسداد معوي ما!»

هزّ يده كأنما ينصحني بان أخرس، وقال:

ـ «حسن.. حسن.. لم أقارف إثمًا إذ سألتك.. تفضل إلى الحمام..»

وناولني شبشبًا زلقًا مبتلًا كي أذهب به.. صوت الصمت، وصوت الأذان القادم من بعيد.. وإرهاق السهر.. كل هذا يحمل مذاقًا خاصًا.. مذاق الشجن.. الأحزان التي اختزنتها الأجيال تركزت ونقت، وهو ذا إكسيرها يتلخص في لحظات شفافة هي السمو ذاته..

* * *

بعدما فرغنا من الصلاة، أعد لنا (محمود) مزيدًا من أكواب الشاي الأسود لأسكبها على الأريكة، وجاءت لنا الأم بصينية عليها طبق من البيض المقلي الغارق في السمن، ومعه رغيفان أو ثلاثة.. ولسان حالها يقول: كلوا، ولكم أمقت أن أراكم تفعلون! ويل للوغد الذي يجرؤ على هذا..

ولم نجرؤ طبعًا..

بعد دقائق من الصمت، سألني (محمود):

ـ «حتى هذه اللحظة لم أفهم ما تنتوي عمله..»

قلت وأنا أرشف ما بقي من الشاي في كوبي:

ـ «إن (نجلاء) نائمة الآن.. عرفت هذا لأن (ناهد) نائمة.. كل ما بوسعنا هو أن ننتظر حتى تبدأ في الصراخ ثانية، وعندها نعرف يقينًا أن (صلاح) عاد يمارس هوايته..»

ـ «وبعدها؟»

مددت يدي إلى المحقن الزجاجي الذي وضعته معدًا على المنضدة:

ـ «بعدها أعطي (ناهد) هذه الجرعة من (البارالدهايد)..»

ازدادت عيناه حولًا دلالة على اهتمامه بالأمر، وسألني:
- «وما دور هذا الـ (باردلايد)؟»
- «(بارالدهايد).. إنّه سيجعلها تغرق في نعاس عميق مريب..»
- «تريد ألا تشعر (نجلاء) بالتعذيب؟»
- «بل أريد ما هو أكثر.. إن (صلاح) لا يفقه شيئًا في الطب، ولسوف يجد أن ضحيته سقطت فاقدة النطق والوعي.. بعبارة أخرى سيشعر كانها ماتت.. أو توشك على الموت..»
- «وهذا ما يريده...»
- «بل هذا آخر ما يريده...»
ووضعت المحقن بحذر في مكانه، ونظرت إلى (محمد شاهين) الذي لا يتابع حرفًا مما نقول.. كان رأسه قد سقط على صدره وراح يغط كحافلة الأرياف..
قلت لـ (محمود) بعد ما تثاءبت مرّتين:
- «إننا نلعب على نقطة واهية.. لكنني - بما أعرفه عن طبائع البشر - أعتقد أننا نستطيع الاعتماد عليها: (صلاح) ليس بقاتل.. ثم إنّه يحبّ (ناهد) ولن يتركها تموت.. وهو - مثلنا - يتوقع أن موت (نجلاء) يقود بالضرورة إلى موت (ناهد).. ماذا يفعل عندئذٍ؟ إن مصير فكرتي يتوقف على تصرفه وقتها.. سيصيبه الذعر.. هذا مؤكد.. بعدها سيفر تاركًا الجمل بما حمل، أو يطلب العون الطبي مجازفًا بافتضاح سرّه.. وهما احتمالان يزيدان من فرصتنا..»
حك رأسه كأنما يرغم الفكرة على الدخول، ثم قال:
- «وماذا لو أصابه الذعر أكثر من اللازم؟ ماذا لو قرر أن يحرق ضحيته ليخفي آثار الجريمة؟ كلهم يفعل ذلك..»
- «لا أعتقد.. إن رهاني الوحيد هنا هو على فهمي لطباع البشر.. (صلاح) لا يقتل أبدًا، ولو قتل فلن يبدأ بـ (ناهد) التي هي (نجلاء)..»
ثنى ساقيه تحته طلبًا لبعض الراحة.. والحقيقة هي أن جلستنا هذه جعلتني أشعر بأن ظهري قضيب سكة حديدية، وأردافي تزن أطنانًا حتى لتغوص في الأريكة أميالًا وأميالًا.. قال:
- «وما هدف مغامرته هذه إن لم يكن القتل؟ ماذا سيفعل بـ (نجلاء) بعد ما يمل أساليب التعذيب كلها؟ إنها تعرف عنه كل شيء الآن..»
قلت متأوهًا:
- «آي! ظهري! أعتقد أن كل ما يحدث وسيلة للضغط علينا.. وفي النهاية سيقدم عرضه المجنون.. طلقوا (ناهد) وزوجوها لي.. وإلا ستموت ألمًا مع (نجلاء) في اللحظة ذاتها!»
- «ويظن الأمر بهذه السهولة؟»
- «لم لا؟ هو غير ناضج اجتماعيًا.. مجرد طفل في براثن (الهي) التي لا تهادن المجتمع ولا تتنازل عن أية رغبة.. وبالنسبة له أنت معتد أثيم.. وغد يجب أن يقتل ضربًا بالأحذية..»
- «أشكرك على دقة تعبيرك..»
- «لهذا أعتقد وأومن وأثق وأجزم بأن (صلاح) لن يتمادى.. تجربتنا هذه ستحطم حاجز ثقته، ليقف في العراء يرتجف بردًا ورعبًا.. ولهذا أيضًا أرى أن...»
عندها دوّت صرخة (ناهد) المريعة.....

«أرى أن...» ماذا؟ حقًّا لم أعد أتذكر.. إن النساء قاتلات قصص محترفات، والمعجزة الحقيقية هي أن تستكمل جملة واحدة تامة حين تكون امرأة في الجوار..

قلت له وأنا أتأمل المحقن:

- «هذه هي لحظة الحقيقة كما يقول الإنجليز.. ستريحها هذه الجرعة من آلامها وآلام أختها..»

ودلفت معه إلى الحجرة حيث كانت المرأة المذعورة المولولة.. رفعت الملاءة، وقلت لها شيئًا عن الحقنة التي ستريحها، وقالت هي شيئًا عن حاجتها إلى أي شيء ولو كان سمًا، ثم بعد دقائق غابت في نعاس عميق.. لو كانت (نجلاء) تمر الآن بهذا النعاس الفجائي، فلا بد أن ذعر خاطفها شديد.. لو لم أكن طبيبًا لحسبتها ميتة حقًّا..

تحسست نبضها ليطمئن قلبي، وأنا أشم رائحة (البارالدهايد) المقيتة في هواء الغرفة.. ثم أشرت إلى الزوج كي نغادر الحجرة..

- «ليس بوسعنا الآن سوى الانتظار..»

* * *

لكم يثير مللي أن أعرف أنني على صواب في كلّ مرّة، فلا توجد مرة واحدة يخيب فيها رأيي أو يتضح الى أنني حمار..

في العاشرة صباحًا كان هناك رجل شرطة على الباب، وكان مرآه كافيًا كي يبعث خيالات المشرحة والمستشفيات في عقولنا جميعًا.. وكان بدوره متوترًا قلقًا، أخبرنا أن (نجلاء) موجودة الآن في المستشفى لكنه لا يعرف تفاصيل أكثر..

وهرعنا - أنا والزوج و(محمد شاهين) - إلى المستشفى المذكور، لنجد (نجلاء) هناك في أسوأ حال ممكن.. الكدمات تملأ وجهها.. والخدوش في كل صوب.. بالإضافة إلى أنها كانت في حالة من الوعي تذكرك بالغيبوبة..

وعرفنا أن شرطة النجدة تلقت مكالمة هاتفية من مجهول - مذعور كذلك - يخبرهم بأن هناك فتاة في حالة سيئة، في بناية لم يُستكمل بناؤها بعد في (حلوان)، وناشدهم بالإسراع لأنهّا توشك على الموت إن لم تكن ماتت بعد.. وبالطبع وضع السماعة قبل أن يسأله المساعد عن بياناته..

وانتقل رجال الشرطة إلى هناك ليجدوا أن البناية خالية تقريبًا.. لا يوجد أمامها خفير يدخن المعسل، ولا ينبح في مدخلها كلب أجرب المفترض أنه مخيف.. صعدوا في درجات السلم الطوبية إلى الطابق الرابع.. وأخيرًا وجدوا فتاة مقيدة ملقاة جوار الجدار، وكانت تشي بأثار معاملة سيئة حقًّا.. بالإضافة لهذا وجدوا حشية مفروشة على الأرض الترابية، وبعض أطعمة، ولفافات تبغ كثيرة تركها من خطفها حوله..

كانوا هذه المرّة بحاجة إلى سيارة إسعاف، وحين وصلت هذه بعد ساعتين كالعادة - مما يدلك على لهفتهم الشديدة - نقلت الفتاة إلى المستشفى، وقال الأطباء إنها على ما يرام جسديًا.. فقط ضربت بشدة وعنف غير معتادين.. المشكلة الوحيدة هي أنها مصدومة نفسيًا وعاطفيًا، وبالتالي صار استجوابها مستحيلًا في هذه الآونة.. ويبدو - كما قال الأطباء - أنها تحت تأثير مخدر ما...

كان هذا كل شيء، وقد أجبنا عن أسئلة المحضر بعدد لا بأس به من الإجابات كلها على غرار (لا أعرف.. لست متأكدًا.. هذا محتمل).. لكنّ الزوج أصر على ذكر اسم (صلاح) في المحضر.. فهو يتهمه بكل شيء، ويطالب رجال الشرطة بالقبض عليه في أقرب وقت..

وحين فرغنا، قال لي د. (محمد شاهين):

- «كانت نظريتك صائبة برغم كل شيء.. إن أعصاب الفتى لم تتحمل أن يراها تموت أمامه، وربما بسببه.. لكنّ هل تعتقد أن الخطر ما زال قائمًا؟»

قلت وأنا أرمق (نجلاء) الغافية، بينما خراطيم المحاليل تتشابك حولها كغابة من الخطر:

- «مع (صلاح) أو من دونه؛ سيظل الخطر قائمًا.. إن هاتين الفتاتين مرغمتان على أن تتقاسما مشاعرهما، والأدهى أنهما تكرهان بعضهما.. ربما إلى حد أن تؤذي الواحدة نفسها لتؤذي الأخرى.. هذا وضع غير طبيعي.. وكل الأوضاع غير الطبيعية خطرة ما لم يثبت العكس...

* * *

الفصل الثاني: إعـداد.. ولعل الفصل الثالث يناسبك أكثر..

في الأيام التالية دنونا برفق من عالم (نجلاء) الشائك، ولم يحاول واحد منا أن يذكرها بما هو أكثر من اللازم.. كانت تتحسن ببطء، لكنّ ذكرى ما حدث ظلت منطقة محرمة بالنسبة لنا، وتعاهدنا ـ دون أن نقولها ـ على أن نتركها هي تتكلم أولًا.. فإن لم تفعل فلن يبدأ أحدنا..

كانت الشرطة متلهفة على سماع اتهامها الواضح الصريح لـ (صلاح)، لكنّ الفتاة ظلت تتحاشى هذا المنعطف في كلامها.. وأدركت أنه هددها كثيرًا، حتى صار بالنسبة لها كائنًا يفوق القدرات البشريّة.. كضميرها.. كالأخ الأكبر الذي يراقبنا في قصة (جورج أورويل)... لو تكلمت أكثر فسوف يعرف بابا (صلاح) ويذيقك الويل.. الويل الذي لا يقدر أي (محمود) أو (رفعت) أو (محمد شاهين) أو أي رجل شرطة على منعه..

ومن نافلة القول هنا أن أقول إن (صلاح) اختفى.. تلاشى تمامًا.. بحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه...

وظل السؤال معلقًا: كيف اختطفها؟ كيف نقلها إلى (حلوان) على مرمى أحجار من دار أختها؟ كيف ولماذا اختار هذه البناية المهجورة؟ ماذا كان يريد بالضبط؟

وهكذا دارت الأيام كما يحدث في أفلام السينما المبكرة: تطايرت الأوراق من على تقويم الحائط، حتى مر شهر كامل..

* * *

كنت أمشي في أروقة إدارة الجامعة، باحثًا عن موظف يسبب لي مزيدًا من المشاكل، ويقول لي إن أوراقي لن تتم أبدًا لهذا السبب أو ذاك، حين قابلته.. من؟ د. (محمد شاهين) طبعًا.. فمن الطبيعي أنني لا أعيش لدى تلك الأسرة، والحقيقة هي أنني لم ألقه منذ عشرة أيام...

بعد التحيات المبتلة بالعرق سألته عن (ناهد) و(نجلاء)، فقال لي باسمًا:

ـ «ماذا؟ ألم تعرف؟ إن (ناهد) قد سافرت مع زوجها إلى (اسوان)، حيث سيعمل في السد العالي.. لقد كان يتهيب هذه الخطوة منذ زمن.. أنت تعرف كراهية المصري للترحال، ويوم تركت قريتي لأدرس في (القاهرة)، ودعتني أمي بالعويل على محطة القطار.. لكنّ (محمود) لم يعد يملك خيارًا آخر.. إن (أسوان) تبعده عن ذلك الوغد الطليق.. ثم لا تنس أنه مهندس قبل أن يكون زوج (ناهد)..»

قمت بابتلاع المعلومة ومحاولة هضمها.. لا بأس.. لكنهم ـ الحمقى ـ ينسون أن (نجلاء) ما زالت هنا، وكان عليهم ترحيل الأختين إلى (سويسرا) لو كانوا يطلبون الأمان حقًّا..

قلت له وأنا أطوي أوراقي:

ـ «هذا جميل.. لكنّ ماذا عن (نجلاء)؟ إنها ما زالت متاحة على ما أظن..»

نظرة غريبة التمعت في عينيه.. نظرة أثارت هلعي.. وبلزوجة قال:
- «ما رأيك في (نجلاء)؟»
دون حذر قلت:
- «فتاة طيبة ذكية تمت تربيتها جيدًا..»
- «وسيدة بيت من الطراز الأول!»
- «إنها ليست جميلة.. لكنّ وجهها مريح يسر النفس..»
- «جدًّا!» - واحمر وجهه كعرف ديك، وأردف:
- «نحن نتفق على الخطوط الأساسية إذن!»
- «أية خطوط؟»
نظر حوله ليتأكد من عدم وجود مراقبين، ثم تأبط ذراعي بذراعه الدسمة المكتنزة، واقتادني ليسند ظهري إلى الحائط، كما يفعل رجال الشرطة في الأفلام الأمريكية عندما يعتقلون لص المتاجر:
- «(رفعت).. أنت أخي وتعرف جيدًا كم أحب مصلحتك.. إن المثل يقول: (اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك).. و(نجلاء) عزيزة أثيرة إلى نفسي.. وأراني أبخسها حقها لو سمحت لأي وغد آخر.. أ... لأي رجل آخر أن يظفر بها!»
كنت أنا نموذجًا مجسدًا للغباء والبلاهة.. وفي النهاية تمكنت من تشكيل الأحرف في شكل جملة:
- «هل تمزح؟»
- «لا مزاح في الحلال.. إن (نجلاء) بحاجة إلى رجل يحميها، وأنت رجل حقيقي.. يعلم الله أنك رجل حقيقي..»
مسحت قطرات لعابه من على وجهي، وعدت أصيح:
- «أنا غير قادر على حماية نفسي من بعوضة، وتطالبني بحماية هذه الفتاة التي تتحمل آلامها وآلام أختها معًا؟ ثم.. هي في عمر ابنتي.. ولو تركت أمي - رحمها الله - تزوجني (شفيقة) ابنة العمدة وأنا في سن العشرين؛ لكانت عندي طفلة في عمر (نجلاء).. (محمد).. إما أنك جننت، وإما أن تصلب شرايين المخ قد.....»
هنا - فقط - تقلص وجهه، وأدركت كم العواطف الذي يكتمه طيلة هذا الوقت.. لقد كان عمليًا على وشك البكاء:
- «إنني بمثابة أب لها الآن.. إن أباها لم يعد في حال تسمح بـ... وأصارحك أن المسئولية ترهقني... ترهقني...»
- «لهذا تلقيها فوق كتف أول حمار تلقاه، مثلما حاول (أطلس) أن يلقى بالكرة الأرضية فوق كتفي (هرقل)؟»
من جديد بش وجهه:
- «أنا لست (أطلس).. لكنك أفضل من (هرقل)..»
- «اسمع يا (محمد).. أنا الآن شيخ فان.. ربما أبدو في العقد الخامس لكنّ قلبي وصحتي يؤهلاني لأن أكون في العقد العاشر.. ولا أجد نفسي - بعد كل ما رأيت في حياتي - صالحًا لشيءٍ سوى أن أسعل، وأطلب كوب ماء، ثم أنطق بالشهادتين وأموت.. وتحدثني عن الزواج بعد كل هذا؟!»

بدا عليه القنوط، وقال وهو يُطلق سراحي:
- «لا تقل شيئًا الآن.. فكر ثم سأسألك ثانية..»
قررت تغيير الموضوع الشائك.. سألته وأنا أطوى أوراقي للمرة الثالثة:
- «هل ستعود (نجلاء) للعمل؟»
- «بالطبع لا.. إن ما حدث لها حدث وهي في مكتب ذلك المحامي..»
- «إذن عندي عمل لا بأس به لها..»
- «حقًّا؟ وما هو؟»

* * *

(مختار نجيب).. اسم له رنين قوي يوحي بمحام بارع أو طبيب نابه.. وكان صاحب هذا الاسم من بلدة مجاورة لبلدتي في (الشرقية)، وهو من أسرة طيبة على قدر لا بأس به من الثراء، وقد صار محاميًا استعنت به في مشكلة الأرض إياها التي أثارت خلافًا بين أمي وأخي.. لم يكن شخصًا رديئًا لكنّ صوته العالي - إلى درجة سماع همسه حين يكون في بئر السلم وأنا في شقتي - جعلني زاهدًا في توطيد علاقتي به، وجعلني أفر من كل مناسبة تقرب بيننا..
لكني - بفضل الله تعالى طبعًا - استطعت أن أعالج ابنه من نوع نادر من أنواع فقر الدم، وعلى طريقة زعماء (المافيا) صار مدينًا لي بخدمة لا يمكن أن يرفضها، ولي أن أسأله إياها في أية لحظة..
كان (مختار) سليط اللسان، غير سهل الهضم، يقع مكتبه في أكثر شوارع (القاهرة) إزدحامًا، والبناية نفسها ذات أهميّة أمنية خاصة، لذا هي مدججة برجال الشرطة المتنكرين منهم والسافرين.. باختصار: كان مكتب هذا الرجل هو أكثر الأماكن أمنًا لصبية مذعورة يطاردها مجنون، خاصة إذا كانت هذه الصبية محامية شابة..
وهكذا ترونني مع (نجلاء) في المصعد، نتّجه للقاء محامينا الأشهر الذي سيعقد لها اختبارًا سريعًا لا بد أن تنجح فيه.. تحملت الكثير من الصراخ والضحكات المجلجلة التي يطوح فيها رأسه للوراء وذقنه للأمام، ثم التأكيد على أن الفتاة بخير، ولسوف تكون كابنته أو أكثر..
كنت مطمئنًا لهذا، وزاد من اطمئناني ذلك المحامي الشاب الخجول الذي جلس يسترق نظرات أكثر خجلًا لـ (نجلاء).. كان اسمه (كمال)، وأصابعه نظيفة من الخواتم تمامًا.. إن هذه لحظة من اللحظات النادرة التي يصير فيها المستقبل واضحًا تمامًا وحتميًا..
وابتسمت خلسة.. وتخيلت المحامية الشابة المبتدئة المذعورة في ردهات المحكمة الرهيبة، لا تعرف شيئًا سوى ما ينصحها به (كمال)، فلو كانت هي (النداهة) أو كان هو مسخ (فرانكنشتاين) نفسه، فلا يهم.. الحب سيولد حتمًا.. ولسوف تمضي حياة الفتاة في مسار طبيعي لا بأس به أبدًا..
ودعتها كأنني أم اطمأنت على فلذة كبدها، وعدت أمارس حياتي التي هي دائمًا حياتي..
لكن القضية لم تنته بعد.. ولم تمت المشكلة..
ظلت تطل برأسها خارج التابوت في إصرار غريب..

* * *

متى حدثت المأساة التالية؟
لا أذكر بالضبط.. ربما بعد هذا بثلاثة أشهر..
أذكر فقط أنني كنت في مكتبي أقرأ بعض المراجع الطبية، حين.....

* * *

الفصل الثالث: إطنــاب كثيــر ويمـكن أن تبـدأ بالفصل الرابع..

دق جرس الهاتف في مكتبي، فرفعت السماعة لأعرف الكارثة التالية.. لماذا كارثة؟ لأن هذا الجرس الأحمق لا يدق إلا لهذا السبب:

- «آلو؟»

كان هذا صوتًا جهوريًا يمكن سماعة من دون هاتف، فقلت:

- «(مختار)؟ ماذا حدث؟»
- «الفتاة.. (نجلاء).. إنها في حالة صحية مريبة..»
- «هذا لن يكون غريبًا على..»
- «لقد طلبت منا الاتصال بك حالًا.. رفضت نطلب الإسعاف.. بالله عليك أسرع يا (رفعت)، فقد نلنا من صراخها ما يكفي..»
- «ولكن.....»
- «أنا بانتظارك» (كليك!)..

وبغباء رحت أرمق السماعة في يدي.. لا مفر ولا منجى لي إذن.. إنها لقادرة على العثور على في أي مكان وأية لحظة، وكلما شعرت (ناهد) بصداع أو آلام في ظهرها.. والمشكلة هي عجزي التام عن التنصل.. ألم أكن أنا الذي زرع تلك المصيبة في مكتب (مختار)؟

وهكذا ارتديت سترتي، وهرعت إلى سيارتي.. سيكون الوصول إلى مكتب (مختار) والعثور على مكان للتوقف مستحيلًا في ساعة كهذه.. لكنّ ما باليد حيلة..

* * *

وتحسست خصرها حيث رقدت على المقعد الجلدي، لا تكف عن الأنين.. فأطلقت صرخة عارمة وانفجرت باكية..

كان الأمر واضحًا.. مغص كلوي شديد إلى درجة أنه جعلها تصرخ، وهي من الطراز الصموت الخجول الذي يصرخ عن طريق عض شفتيه..

قال لي (مختار) وهو يشعل لفافة تبغه الثالثة:

- «يجب أن تأخذها معك! لا يمكن تركها هنا..»

وهتف (كمال) في هستيريا وهو يقرب كوب ماء من شفتيها:

- «افعل شيئًا يا دكتور! لو كانت بحاجة إلى دمي فخذوه!»

وأنا أمقت هذا النوع من التطوع العاطفي الذي لم يطلبه أحد..

من تحدث عن دم هنا؟ قلت وأنا أنهضه:

ـ «لسنا في أحد أفلام (توجو مزراحي) يا بني.. إن خير ما تقدمه لها هو أن تكف عن صب السوائل في فمها، فخير ما سيحدث هو أن تقيء فوق ثيابك..»

ولـ (مختار) قلت وأنا أشخبط كلمات على ورقة:

ـ «أمّا عنك، فرغبتك في الخلاص منها حتى لا تموت في مكتبك وتجلب لك المصائب، رغبتك هذه لا تهمني البتة.. قل لأحد العمال أن يجلب لنا هذه الأدوية حالًا..»

بدا مترددًا فأخرجت ورقة عملة دسستها في يده، متعمدا الإهانة.. لكنه كان عمليًا أكثر من اللازم، فاكتفي بأخذ المال والورقة والخروج من الغرفة.. لهذا ينجح الناس ويثرون بينما أفشل أنا..

جاء الدواء، فافرغت ما استطعت منه في عروق الفتاة، وبدا لي أنها تتحسن حقًّا.. نظرت لساعتي فوجدت أنها الثالثة بعد الظهر، ولا بد أنّ هناك مشهدًا مأساويًا مماثلًا يحدث في (أسوان) الآن..

ـ «هل أنت بخير الآن يا (نجلاء)؟»

بصعوبة فتحت شفتيها اللتين التصقتا بالقشور، وقالت:

ـ «ن.. نعم.. شكرًا لك..»

ـ «إذن تعالي ببطء.. سأوصلك للبيت..»

دون كلمة أخرى أعاد لي (مختار) عشرين قرشًا بقيت من مالي بعد شراء الدواء، وقال في كياسة إنّه يرحب بأن تأخذ الفتاة إجازة لمدّة يومين.. أمّا (كمال) فعانقني في حرارة ليغرق وجهي بالدموع والعرق.. إنّه عاشق متحمس حقًّا، ولا بد أنه يغني لها الكثير من أغاني (عبد الحليم حافظ) بصوته الأجش المشروخ..

وفي سيارتي سألتها عن رقم هاتف (ناهد) في (أسوان)، فلا بد من إخطار الزوج بالأمر.

كانت منهكة ملبدة الفكر نوعًا من تأثير الدواء ـ الذي يحوي بعض المخدر طبعًا ـ لكنّها أملت الرقم ببطء شديد، وكررته أنا كي استظهره، ووصلنا لدارها فساعدتها على الصعود، وبالطبع قوبلت بأفظع عاصفة من الهستيريا والجزع.. وكان على أن أؤكد لهم أنني لست السبب فيما حدث..

في النهاية نزلت الدرجات المهشمة، واتجهت إلى السنترال المجاور كي أتصل بـ (أسوان).. وفي تلك الأيام كان الاتصال بمحافظة أخرى يستغرق نفس الوقت اللازم للسفر إليها بقطار الدرجة الثالثة..

لا بد أنني ازددت شيخوخة، حين سمعت صوت الموظف يهدر في مكبر الصوت بالرقم الذي طلبته، وهرعت إلى الكابينة لأغلقها عليّ، وأسمع صوت (محمود) يتساءل عن المتكلم..

ـ «إنّه أنا يا (باشمهندس).. (رفعت إسماعيل)..»

ـ «أعوذ بالله! هل توفي أبو (ناهد)؟»

ـ «للأسف لا.. أردت أن أطمئنك على (نجلاء).. لقد انتهت نوبة المغص الكلوي، ولا بد أن (ناهد) بخير بدورها الآن..»

ساد الصمت هنيهة، ثم غمغم في بلاهة:

ـ «مغص؟ إن (ناهد) على ما يرام.. اعدت لنا الغداء وتناولته معي، ثم هي الآن تغسل الأطباق في المطبخ.. لحظة.. ها هي ذي قادمة! لا شيء يا (ناهد).. لا شيء.. لم يمت أحد.. إنّه ذلك

الطبيب يؤكد أنك تتألمين من المغص الكلوي.. حتى لو كنت بخير فلا تصدقي ذلك لأن الأطباء لا يخطئون أبدًا..»

وسمعت صوتها تغمغم بشيء ما، ثم جاء صوته:

- «على كل حال أشكرك يا دكتور.. أبلغ السلام الجميع من لديك، وقل لهم أن يتصلوا بنا..»

ووضع السماعة..

غادرت الكابينة غارقًا في العرق.. عرق القيظ وعرق الارتباك..

إذن (ناهد) لم تمر بالألم ذاته.. للمرة الأولى منذ بدأت الظاهرة، أجدها تتصرف بشكل منفصل عن شقيقتها.

ما هو التفسير؟

التفسير الأول: هو أن الظاهرة انتهت.. كان لها زمن معين ثم استنفدت أسبابها ومواردها، وانتهت.. كما يفتك بنا فيروس (الإنفلونزا) لأيام، ثم يقرر فجأة أن ينهي دورة حياته..

التفسير الثاني: هو أن بعد المسافة لعب دورًا في إضعاف الظاهرة، وهو تفسير يمكن قبوله إذا افترضنا أن موجات أثيرية معينة تنتقل من واحدة للأخرى، ولا يمكن قبوله إذا تبنينا نظرية (ساعة الحياة) التي تحدثنا عنها في الكتيب السابق (الفصل التاسع)..

الطريقة الوحيدة للاستقراء هي أن نجرب إحداث ألم لدى (نجلاء)، وبشكل متكرر، فإذا حدث توارد شعوري كان هذا دليلًا على وجود خطأ ما.. وإن لم يحدث كان علينا أن نقرب الأختين ونعيد التجربة.. بهذا يمكننا قبول أحد التفسيرين أو رفضهما معًا..

* * *

عدت إلى الشقة لأطمئن على (نجلاء) من جديد... كانت نائمة بذلك الإنهاك الذي يلي المغص الكلوي، ويجعل تمييز المريض من الملاءة عسيرًا حقًّا..

سألني الأب عن صحة (ناهد)، وهو حدس غريب لأنني لم أقل لأحد إنني سأتصل بها.. والأغرب هو أن الرجل يعي ما يحدث حوله جيدًا، وكنت أظنه لا يفهم ما يحدث بوضوح..

- «بخير... بخير...»

وقربت مقعدي من فراش (نجلاء)، وكانت المرّة الأولى التي أجد فيها وقتًا لأتأمل الغرفة الضيقة التي شهدت صبا الشقيقتين.. كانت مطلية بالجير الذي تشقق في عدة مواضع، والسقف يشي بتسرب ماء حدث في وقت ما.. وعلى الجدار صور مقصوصة من مجلات فنية عليها نجوم الساعة: (عبد الحليم حافظ) - (سعاد حسني).. ثم كتابات على الجدار بعضها كلمات من أغان، وبعضها دعاء بالنجاح.. وكانت خزانة الثياب مفتوحة تكشف عن بعض (البلوزات) الرخيصة التي - حتمًا - تشاجرت الفتاتان كثيرًا بسببها يومًا ما.. (ناهد) هانم قد ارتدت بلوزتي الجديدة دون أن تطلب إذني.. (نجلاء) سرقت دبابيس شعري.. أين قميص نومي الأبيض؟!

وابتسمت، وتمنيت ألا يرى أحد ابتسامتي.. لقد رأيت في حياتي أفخم القصور في (سكوتلندا)، وأرقى الفنادق في (جنيف)، لكنّ هذا الجو المصري الحميم ما زال يثير حنينًا شديدًا في أعماقي..

فتحت عينيها ببطء، ورمشت قليلًا.. فسألتها بصوت رقيق:

- «(نجلاء).. هل أنت بخير الآن؟»
- «نـ... نعم...»
- «لدى سؤال واحد.. لو أجبت عليه سأرحل ويمكنك العودة للنوم..»
- «قله..»
- «هل حدثت لك آلام غير مبررة منذ سافرت (ناهد) إلى (أسوان)؟»

رمشت من جديد، بعينين حمراوين زائغتين كأنما تتذكر.. ثم قالت:

- «لا.. مرة واحدة أو مرّتين.. لقد تحسن الوضع كثيرًا..»
- «هذا هو كل شيء.. شكرًا..»

ونهضت، ودعوت الأب كي يقودني لباب الشقة.. يمكن القول إن المسافة هي العامل الأساسي الذي أدى الشفاء هاتين المزعجتين.. إن اتصالهما شبيه بموجات الراديو التي تضعف عندما تمر السيارة تحت نفق...

ولأسباب مماثلة لا يستطيع مذياعي التقاط نشرة" أخبار (الإسكيمو) لو كانت لديهم نشرة أخبار...

كل شيء واضح متسق، وأعتقد أنني أستطيع إغلاق هذا الملف للأبد، ووضعه فوق أحد رفوف ذاكرتي كي يغطية الغبار وخيوط العنكبوت.. المهم - فحسب - ألا أنسى أنه هناك.....

* * *

الفصل الرابع: كثير من الهراء.. ولا أدري ما يمنع من الانتقال للفصل الخامس..

نتشرف بدعوتكم يوم الخميس ٧/ ١١ في تمام الساعة السابعة مساء.

لحضور حفل زفاف

الآنسة /نجلاء عبد الجواد
كريمة الأستاذ: عبد الجواد خليفة
المدير العام بالضرائب سابقًا

إلى

الأستاذ/كمال أبو قورة
نجل المرحوم / محمود أبو قورة

وذلك في منزل العروس. والعاقبة عندكم في المسرات.

تأملت الدعوة التي أحضرها لي د. (محمد شاهين) في رضا.. كل شيء كما توقعته بالضبط، وها هي الدعوة المطبوعة بمزيج من اللونين الذهبي والفضي مع رسم ساذج لعريس وعروس يتطلعان للسعادة في طريق مفروش بالورود، يقود إلى عربة ذات خيول مطهمة!

يضحكني دومًا هذا التصور الركيك للسعادة، ولكني راضٍ برغم كل شيء.. إن (نجلاء) فتاة طيبة طاهرة، ومن حقها أن تمارس حياة طبيعية..

هل أذهب؟ بالطبع.. أنا لا أطيق حفلات الزفاف، لكني لا أطيق قضاء ليلة الخميس وحدي في داري، وليست لديَّ خطة محددة.. ثم إن الفرار من (محمد شاهين) مستحيل على كل حال..

* * *

وهكذا ـ مرتديًا البذلة الكحلية التي تجعلني فاتنًا ـ توجهت إلى دار (نجلاء)، وكانت الأفراح في تلك الأيام تعقد دائمًا على سطح البناية، ولم تكن هناك تلك المظاهر العجيبة كأندية الخمسة نجوم، والتورتة متعددة الطوابق، ورقص العريس والعروس في حفل زفافهما.. ربما كنت متخلفًا، لكني لا أستسيغ هذه المظاهر الحالية على الإطلاق..

كان الشارع كله مجتمعًا هناك، والإضاءة تزيد الحر حرارة، وثمّة جارة بدينة قررت أن تلعب دور الراقصة، مما لم يساعد على إضفاء مزيد من البهجة..

وبطرف عيني لمحت باقة ورود عليها بطاقة (مختار نجيب) المحامي..

هناك كانت (نجلاء) في الكوشة إلى يمين عريسها، وقد حرص من زينها على أن يبدو مجهوده واضحًا، لقد حولها إلى أقبح عروس مولد يمكن أن تراها. أمّا (كمال) فكان يرتدي بذلة سكرية اللون، ولا يكف عن العرق والتظاهر بالمرح..

محاذرا أن تضربني الراقصة البدينة بكوعها - وفي هذا هلاكي حتمًا - اجتزت المكان لأهنئ العروسين، ودنا مصوّر أصلع كي يلتقط لنا صورة باسمة طلبها العريس بإلحاح.

واستطعت أن أرى (ناهد) - وطفلها الذي تعلم المشي الآن - تشق طريقها، وتطلق زغرودة قوية تلفت بها الأنظار، أمّا (محمود) فكان يتشاجر مع أحدهم.. وكل الناس يتشاجرون في حفلات الزفاف لسبب لا افهمه حقًّا.. ولاحظت بصمات شمس (أسوان) الحارقة على بشرته.

كان المفر الوحيد لي هو ركن المكان.. تسللت إلى هناك، وأعطيت ظهري لكل هذا الزحام، ورحت أرمق الظلام النقي المخيّم على المنطقة، وانتابتني رجفة في عروقي.. هذا الشعور المتفرد العتيد.. حين تدير ظهرك للصخب، وتقف وحدك في الظلام شاعرًا بلذة الشجن.. لذة الحزن.. أو ما يسميه الإنجليز بـ (زهرة الحائط)..

الشارع صامت ينعكس عليه ضوء شاحب من الزينة المعلقة على السطح، والشارع خال لأن كل سكانه يقفون الآن ورائي..

استطعت أن أرى ذلك الخيال لأحد المارَّة يمشي الهويني في الطريق وقد بدا شاردًا.. شاردًا إلى درجة لا تسمح بها هذه الضوضاء..

نظر لأعلى نظرة عابرة، ثم واصل المسير، لكنّ هذا كان كافيًا لي..

هذا (صلاح)! برغم الظلام والمسافة عرفته..

(صلاح) يحوم حول حفل الزفاف، فلماذا؟

لا اعتقد انه سيقتحم الحفل ليطلق الرصاص على (ناهد).. الحياة ليست بهذه الميلودرامية التي نراها في السينما.. هنا أكثر خطورة من الرصاص..

معناه أنه لم ينس قط، ولم يتعلم قط..

معناه أنه قريب، يعرف كل شيء عن هذه الأسرة، وثمّة شيء يختمر في ذهنه طيلة الوقت..

هن أصرخ وألفت نظر الموجودين؟ في الغالب لن أفيد بشيء من هذا سوى إفساد ليلة العمر على (نجلاء).. (صلاح) سيختفي كما يختفي الفأر في مقلب قمامة، بمجرد أن يدرك أننا لاحظناه...

رأيت أن الحل الأكثر صوابًا هو أن أخبر (محمود).. ناديته، واختليت به بعيدًا عن السامعين، وأخبرته همسنا أن (صلاح) هنا! إنّه يحوم حول البناية...

- «الوغد! لا بد أنه ينتوي عملًا أحمق!»

- «لا أظن.. إنّه يبحث عن وسيلة يرتكب بها عملًا أحمق، لكنه لم يستقر على رأي بعد..»

- «وماذا ننتظر؟ هل نلحق به..»

- «كنت أفكر في الشيء ذاته.. لكني - أصارحك - لست من هواة أن أتلقى اللكمات في أنفي أو الركلات في بطني، كما أنني - بالتأكيد - لا أحب طعنات المدى في طحالي.. ولهذا - أصارحك - أشعر بالخوف من التعرض لهذا الشيء المخبول..»

احمرّ وجهه وازدادت عيناه حولًا:

- «دعه يحاول شيئًا كهذا، ولسوف يجمعون أشلاءه بالملقط..»

وكور قبضته وانطلق، فرحت أركض خلفه محاولًا أن أبدو على طبيعتي..
وفي الشارع كان الظلام دامسًا.. الانعكاسات الشاحبة لأضواء الزينة هي الشيء الوحيد الذي يجعلنا نميز ما حولنا..
- «فلتتفرق، وعلى من يراه أن ينذر الآخر..»
- «هل تقترح صيحة وعل (الإستبس) في موسم التزاوج؟»
نظر لي في الظلام، فلم ألمح ضحكة التهكم على وجهه تعبيرًا عن ثقل ظلي، واتجه إلى اليمين فاتجهت إلى اليسار..
لم امش سوى عشرين خطوة حتى وجدته.. كان خارجًا من زقاق جانبي، وفي يده لفافة تبغ غير مشتعلة.. لقد تبدل كثيرًا حقًّا، فلم يعد يطيل شعر رأسه، وأطال لحيته بطريقة غريبة، إذ أوصلها بسالفيه، حتى صار أقرب لصور كتب التاريخ التي تمثل الإمبراطور (غليوم الأول) أو (غاريبالدي) - لا أدري من بالضبط - وعلى عينيه عوينات بلا إطار.. لكنّ من المستحيل أن يرى المرء هذا العود مرّتين.
دنا مني، وباشمئزاز لا داعي له دسّ لفافة التبغ في شفتيه، وقال:
- «تشمح تولع لي؟»
بسبب اللفافة التي شوهت حروفه.. وهنا فطنت إلى الحقيقة الغريبة: (صلاح) لا يعرفني ولا يذكرني.. لم يرني سوى دقيقة واحدة في المستشفى، ولربما لم يلحظني أكثر، أمّا أنا فأذكره جيدًا بالطبع.. لقد رأيت ممثلًا سينمائيًا شهيرًا ذات مرة في ميدان (التحرير)، ورآني هو أيضًا.. لكنّ من طبيعة الأشياء أنني ظللت أذكر كل تفاصيل ثيابه، بينما هو نسيني بالتأكيد بعد دقيقة واحدة..
وكان (صلاح) هو بطل هذا الفيلم.. يلعب دور (الشرير) أو (الفيلين) ببراعة غير عادية.. لهذا نذكره جميعًا حتى لو لم يذكرنا هو..
أشعلت له لفافة تبغه بيد مرتجفة قليلًا، ورحت أفكر: هل أصرخ الآن؟ هل أنقض عليه وليكن ما يكون؟
في النهاية وجدت حلًا مرضيًا يعطله بعض الوقت.. رحت أسأله عن موضع محل شهير في (شبرا)، وكان بعيدًا عن هذا المكان يحتاج إلى كثير من الشرح.. وبطرف عيني نظرت إلى الناحية الأخرى من الطريق.. أين (محمود)؟
كان (صلاح) يشير بذراعه ليوضح شرحه أكثر...
- «هل تعرف تلك الصيدلية؟ تعرفها؟ ليكن.. ستفارقها وتتجه لليمين وتمشي دون توقف حتى تصل إلى سينما (التحرير).. سينما ماذا؟»
- «(التحرير)..»
- «لا بأس.. ومن هناك.....»
كان خيال (محمود) قادمًا.. وفي اللحظة التالية وثبت علي (صلاح) واحتضنته بذراعي بطريقة جعلتني بعيدًا عن متناول قبضتيه.. لن يهرب..

- «ماذا؟ هل جننت؟»

ولكن (محمود) فهم على الفور، واندفع ركضًا إلى حيث كان جسدانا يلتحمان، وسمعت صوت اللكمة الأولى كما كان يحدث في أفلام (فريد شوقي).. المؤثرات الصوتية لألواح الخشب المتضاربة، و(حميدو) يقهر اللصوص جميعًا..

سقطت على الأرض بين الأقدام، فقد جرحت وأنا أثبت عويناتي على أنفي.. ورأيت الهول ذاته في صراع الرجلين.. لم يكن صراع غضب أو صراع تحد، بل هو صراع قتل.. أحد الرجلين يحاول قتل الآخر..

كان (صلاح) تحت تأثير المفاجأة وعدم الفهم، و(محمود) كان قويًا بحق.. لهذا سقط (صلاح) أرضًا، ولم يكن الرفق بعدو ساقط من أخلاق (محمود) اليوم، لذا راح يركل الجسد في أكثر المواضع إيذاء له..

وهنا تنبهت للمرة الأولى.. لقد صرنا بصدد عملية قتل..

- «(محمود)! يكفيه هذا ولنطلب الشرطة!»

لكنّ سعار الجنون تسلط على المهندس، زالت كل مساحيق الحضارة ليتحول إلى رجل كهف يفتك برجل آخر من أجل السيطرة على العشيرة..

- «(محمود)!»

وجريت لأجذبه من ذراعه، لكنه انتزعها ووثب في الهواء ليسقط فوق.. أي!! فوق ضلوع (صلاح)..

وقف يلهث كثور بري أنهكة الهنود على حين جثوت أنا جوار الفتى الممدد على الأرض، وتحسست نبض عنقه.. لا؟ نبض معصمه؟ لا؟ أشعلت عود ثقاب وتفحصت حدقة عينيه.. لا؟

نهضت زاحف الساقين، وبصوت متحشرج أعلنتها:

- «لقد مات!»

- «إنّه يتظاهر بذلك.. سيفيق حالًا..»

- «بل هو ميت فعلًا، ولو كنت أنا عاجزًا عن تمييز الموت بعد ثلاثين عامًا من الطب، فأنا في مشكلة حقيقيّة..»

هنا راحت السكرة وجاءت الفكرة.. وقف حائرًا يتأمل (ما أوكته يداه وما نفخه فوه)، وللحظة حسبته على وشك البكاء..

- «والعمل؟»

هتف:

- «لا عمل سوى إبلاغ الشرطة..»

- «هل تمزح؟»

وتلفت حوله يرمق الشارع الخالي المظلم، ثم هتف:

- «إن أحدًا لم يرنا ولم يسمعنا وسط هذه الضوضاء.. لن يعرف أحد أبدًا ما حدث..»

ابتسمت في شفقة لسذاجته، وقلت:



وفى اللحظة التالية وثبت على (صلاح) واحتضنته بذراعى
بطريقة جعلتنى بعيداً عن متناول قبضته . .

- «أولًا: ليس هذا ديدني.. أنا لا أخالف القانون، ولا أتهرب من مسئولية أخطائي.. ثانيًا: من الحمق أن تحسب الشرطة لن تتعرف الجثة.. إن الفتى له سوابق كثيرة وبصماته عندهم، ومن السهل أن يعرفوا أنّ هذا (صلاح).. ولسوف يجدون أنه قتل على بعد خطوات من دار الفتاة التي كان يهددها..

وكل المدعوين للزفاف يمكنهم أن يؤكدوا أننا غادرنا الحفل في الساعة كذا، وقد بدت الخطورة على وجهينا.. لا يا (محمود).. لا تحاول إصلاح زلة بجريمة كاملة الأطراف..»

- «لقد انتهي مستقبلي.. ولربما كانت المشنقة هي.....»

- «لا أظن.. إن المحامين سيؤكدون أنك كنت تدافع عن نفسك وعن بيتك، وتاريخ الفتى لا يترك شكًا في هذه المقولة..»

كان ما زال مترددًا، فجذبته من ذراعه لنبحث عن أقرب جهاز هاتف..

* * *

لقد انتهينا - بشكل حاسم جذري - من مشاكل (صلاح).. فهل هناك مصدر آخر للمشاكل؟

* * *

الفصل الخامس:

إسهـاب شـديـد.. وأرى أن تنتقل إلى الفصل السادس..

لم تطل التعقيدات لحسن الحظ، فأطلق سراحي أنا بضمان وظيفتي، ولم يطل الأمر بـ (محمود) كذلك لأن الجريمة استوفت أركان الدفاع عن النفس..

لكن ما حدث سبب قلقًا هائلًا للجميع، وبالطبع أفسد ليلة عمر (نجلاء) تمامًا، مما يدلك بحق على قلة حظها في كل شيء.. قليلات هن الفتيات اللائي يستطعن الفخر بأن جريمة قتل ارتكبت في حفل زفافهن..

لقد عادت المياه الهادئة تتدفق تحت الجسور، وبرغم كوني كارهًا للعنف زاهدًا فيه؛ فقد بدا لي أن ما حدث كان هو الحل الوحيد.. إن بتر الذراع المصابة بالسرطان لحل دموي عنيف، لكنه يظل الحل الوحيد حقًّا..

* * *

كان هذا صوت د. (محمد شاهين) في الهاتف:

- «(رفعت).. لم اسمع صوتك منذ شهرين..»

كدت أصارحه بأنني زاهد في كل ما يجعلني أرى هذه الأسرة ثانية.. اختطاف وقتل، وصورة المرأة التي تلثم ثعبانًا، وشاي ينسكب على الأرائك.. كل هذا أقوى مني...

- «كنت مشغولًا بعض الشيء يا (محمد)..»
- «ألن تزور (نجلاء) في دارها؟»
- «وهل هذا ضروري؟»
- «هي مريضتك وابنتك.. ثم إن المجاملة....»

هنا وجدت أنّ هذه المهمة ضروريّة.. في الآونة الأخيرة بدأت أتحول إلى حيوان غير اجتماعي يعشق (الأوكسجين) ويمقت (ثاني أكسيد الكربون)، ورحت أحاول جاهدًا ألا أنزلق إلى الدرك الذي رحت أنزلق إليه.. لهذا صرت أرغم نفسي على حضور حفلات الزفاف، وزيارة المرضى، وأداء واجبات العزاء..

- «ليكن يا (محمد).. متى وأين؟»
- «في الثامنة مساء.. نفس البيت..»
- «أحقًا؟ هي لم؟»
- «إن (كمال) مازال يتحسس طريقة المهني.. وأبوها وأمها بحاجة إلى رعاية.. وأخوها ما زال طفلًا..»
- «ألم تنجب بعد؟»

راح يضحك حتى انقطعت أنفاسه، وقال:
- «(رفعت)! أنت لست بهذه السذاجة.. لقد تزوجا منذ شهرين.. أنت تعلم أن الحمل يستغرق تسعة أشهر..»
غلى الدم في عروقي.. هذا الرجل لن يكف عن السذاجة، ولن يفهم مزاحي أبدًا.. ولديه الشجاعة كي يخبر طبيبًا بحقيقة أن مدة الحمل تسعة أشهر..
- «ليكن يا (محمد).. أراك هناك في الثامنة..»

* * *

قرعنا الجرس، ففتحت لنا (نجلاء) الباب.. خيل الى أنها صارت أجمل إلى حدٍ ما، ثم قررت أنّ هذا يعود إلى الإضاءة القادمة من اليسار، والتي كان (رمبرانت) يعشقها.. إنها تجعل الأشياء أجمل دومًا[1]..
كانت الشقة كما هي، فيما عدا أنهم أعادوا طلاءها بشكل غير دقيق، وكان هناك (أنتريه) جديد له رائحة (دمياط)، وجهاز تلفزيون صغير موضوع فوق (بوفيه) مليء بالزخارف..
.
إن هي إلا دقيقة حتى برز لنا (كمال)، وكان قد تجاوز مرحلة العريس الذي يقابل الضيوف بالروب، إلى مرحلة مقابلتهم بمنامتة ذات الخطوط الخضراء الطولية، ثم جاء الأب مترنحًا منهكًا، وجاءت الأم هاشة باشة تحمل صحفة عليها كوبان مليئان بمشروب وردي مخيف..
تبادلنا التهاني والشكر، ولم ينبس أحدنا بحرف عما كان، ولم نذكر ما فات لأنّه - ببساطة - قد مات.. فقط وضعت مظروف (النقوط) إياه في مكان ظاهر..
سألت (نجلاء) عن أخبار جديدة مفرحة على غرار القيء صباحًا، فاحمرّ وجهها خجلًا وأغمضت عينيها أن نعم..
نظرت لها نظرة متسائلة فهمت معناها على الفور، فأغمضت عينيها من جديد، هذه المرّة بمعنى (لا).. لا لم تعان (ناهد) أعراضًا مماثلة في (أسوان)...
لقد شفيت الأختان تمامًا كما هو واضح..
حملت (نجلاء) الصحفة بكوبيها الفارغين، فانتحى (كمال) ليجلس بجواري، وربت على ركبتي بيده مرددًا عبارات من نوع (آنستنا يا دكتور)، ثم همس وعلى وجهه علامات الجديّة:
- «هل يمكن أن أنفرد بك في الشرفة لبضع دقائق؟»
وهي اللحظة التي أخشاها.. لحظة أن يطلب من ألقاه أن ينفرد بي، ثم يبدأ في وصف مشكلة حياته المأساوية: غازات البطن أو الإسهال أو الدوار إذا ما نهض من الفراش بسرعة.. ثم لا يقتنع بأي اقتراح أقدمه...
أسلمت أمري لله وتبعته إلى الشرفة الضيقة ذات السور الخفيض، الذي يهدد بسقوط واحد منا في أي لحظة.. وحاولت جاهدًا أن أمنع حزم الثوم المعلقة هناك من خدش صلعتى، وأزحت بقدمي دراجة أطفال مكسورة بلا عجلات لا بد أن (أخناتون) كان يلعب بها جوار أمّه (تي)..
قلت له بعد ما طال الصمت:

- «اهنئك على ولّى العهد القادم..»
- «عقبى لك!»
بدت لي الكلمة عجيبة، لكني تجاهلتها، وعدت أسأله:
- «هل أجرت اختبارًا للحمل؟»
- «لا.. لكنّ الأمور واضحة، وعلى كل حال لم أطلب الانفراد بك لهذا.....»
- «إذن؟»
ابتلع ريقه باحثًا عن كلمات ثم قال بصعوبة:
- «إن (نجلاء) في حالة غير طبيعية.. أعنى.. ليست مجنونة حتمًا لكنّ البعض قد يصل الاستنتاجات غريبة لو رأى ما تقوله وما تفعله أحيانًا.. إنها لا تشعر بشيء، وفي غاية السعادة.. لكنّ أحدًا لم يخبرني من قبل بـ.....»
نظرت إلى الشارع الذي صبغة المساء بلونه الأزرق الأنيق، وقلت:
- «مفهوم.. مفهوم.. وأنت تشعر بأنك خدعت!»
- «لا.. أنت لا تفهمني..»
وتذكرت ما خطر لي من قبل.. أن من لا يعرف ولا يفهم الرابطة الشعورية بين الأختين يمكنه - دون عسر - أن يتهمهما بالجنون.. لكنّ لماذا لم تصارحه (نجلاء) بالأمر من قبل؟
أجاب على تساؤلي بأسرع مما توقعت:
- «لست أتكلم عن مشاعر (ناهد) التي تنتقل لأختها.. بل أتحدث عن شبح (صلاح) الذي يطاردها في كل صوب، فهي لا تنفرد بنفسها في المطبخ أو الحمام إلا وتبدأ في الصراخ..»
تصلب شعر رأسي المتبقي على الجانبين، وقد أثار كلامه اهتمامي:
- «شبح (صلاح)؟»
- «نعم.. ذلك الفتى الذي ما انفك يلاحق أختها.. إنها تراه في كل مكان وتقول إنّه ينظر لها نظرات ثابتة مزعجة.. ثم يتلاشي ما إن يلحق بها أحد..»
- «وتقول إن (نجلاء) سعيدة برغم هذا؟!»
- «وهذا هو الغريب.. إنها تصرخ وتولول ثم تنسى الأمر برمته بعدها، وتضحك وتمرح.. كأن ما حدث حدث لواحدة أخرى..»
بالنسبة لي كان الأمر واضحًا.. هذا هو ما يميز التفاعل الهستيري الذي يوشك أن يكون مقصورًا على النساء[2].. الهستيريا هي أصلًا هروب من ضغط نفساني شديد لشخصية غير ناضجة، وقد يصل هذا التفاعل إلى أقصى صوره التي تذكرنا بالدكتور (جيكل) والمسز (هايد)، حين تسيطر شخصيّة من شخصيتين يملكهما المريض وتحرك قياده دون أن يعرف ذلك.. أمّا الصورة الأخرى فتأخذ شكل صداع هستيري.. عمى هستيري.. شلل هستيري..
إن الشلل أو العمى عرضان مخيفان يسببان ذعر أي مريض حقيقي، لكنّ مريض الهستيريا يفاجئنا بحالة عجيبة من اللامبالاة.. تصوّر فتاة في العشرين من عمرها قد أصابها شلل نصفي، وبرغم هذا تبدو مسرورة أو خالية البال.. هذه نقطة من نقاط عديدة يلاحظها الطبيب، وتضيف وزنًا إلى عبارته النهائية التي يعلنها بثقة: لا يوجد سبب عضوي للشلل..
هذا الشلل هستيري يحتاج إلى مختص بالامراض النفسية..

قال لي إن (نجلاء) سعيدة برغم أعراضها المخيفة، وهذا يوضح دون شك أنها رؤي هستيرية.. لم تكن تجربة الاختطاف مريحة بالطبع، ولم يترك لها (صلاح) أية ذكرى باسمة..

قلت له وأنا أتراجع عن السور كي لا أسقط:

- «كل هذا متوقّع بالتأكيد.. ولن يدهشني أبدًا.. إن ما عاشته لم يكن بالضبط أمرًا سهلًا..»

- «إذن ترى أن أتناسى الأمر؟»

- «بلا شك.. إن الحل الوحيد هو أن تذهب بها إلى أحد الأطباء النفسيين، ولدى د. (محمد إبراهيم) صديقي.. لسوف يُطلق على حالة (نجلاء) اسمًا لاتينيًا مكونًا من عشرين حرفًا على الأقل، وهو مجهود لا بأس به يستحق أجره عليه طبعًا..»

هزّ رأسه، وطقطق بلسانه:

- «لا لا.. كله إلا هذا!»

وكان هذا طبيعيًا، فهو من الناس العاديين - رجال الشارع لو سمحت لي - الذين يضعون الأمراض النفسية كلها في سلّة واحدة اسمها (الجنون)، ومعه يغدو شرح الفارق ما بين (العصاب) و(الدهان) عسيرًا نوعًا...

قلت له وأنا أعود إلى الداخل:

- «ليكن.. يمكننى فهم وجهة نظرك، وإن كنت لا أقبلها.. الحل الأخير في جعبتي هو أن (تُبقي الوضع على ما هو عليه)، وننتظر..»

وماذا بوسع أي منا أن يفعله سوى أن ينتظر؟

فلننتظر.....

* * *



قال لى : إن (نجلاء) سعيدة برغم أعراضها المخيفة ، وهذا يوضح دون شك أنها رؤى هستيرية . .

الفصل السادس: ثرثرة طويلة ولن ألوم من ينتقل إلى الفصل السابع..

وانتظرنا.....

وكانت هناك أنباء سارة أبلغني بها د. (محمد شاهين):

- «لـ (صلاح) أخ أسوأ منه وأكثر غلظة وشرًّا يدعي (ماهر).. وكان في (فرنسا) منذ زمن منهمكًا في جمع العنب وتدخين سجائر الـ (جولواز)، حتى طردته الشرطة الفرنسية لأن إقامته انتهت..

«لقد عاد (ماهر) إلى (شبرا)، وعرف أن أخاه قد مات.. مات ضربًا بعد ما تلقى علقة ساخنة.. والحق أنني أفهم لماذا اعتبر الفتى هذه الميتة مهينة لأخيه..

«يقول الجيران إنّه راح يولول كالهنود الحمر يهاجمون معسكر الجنرال (كاستر)- وهذا التشبيه من عندي طبعًا - وسقط مغشيًا عليه، فراحوا يفركون أصابع قدميه ويدلكون صدره العريض بالبصل الذي طرحته إحدى الجارات من الشرفة..

«ثم إنّه أخيرًا نهض، وراح يُطلق الأناشيد الجنائزية التي تتوعد بالويل ممن صنع هذا بأخيه.. إن دم أخي لن يذهب هباء.. لسوف يرى هؤلاء الأوغاد ولسوف يلبسون - جميعهم - الطرح..»

قلت لـ (محمد شاهين) وأنا أبتلع ريقي:

- «ألن ننتهي من أسرة (البلطجية) هذه أبدًا؟ تلك المجموعة من الشخصيات (السايكوباثية) التي تنسى تمامًا وجود القانون..»

قال وهو يضحك في مرارة:

- «(سايكوباثية)؟ لو عرف (ماهر) هذا أنك أسميته (سايكوباثي) لفتح بطنك بمطواته دون مناقشة، وعلى كل حال أعتقد أنك في دائرة التهديد على كل حال..»

قلت بشجاعة حقيقيّة:

- «هذا سبب كاف كى لا أزور (شبرا) لعدة قرون.. وماذا عن رجال الشرطة؟ ما رأيهم في هذا؟»

- «إن الفتى يكتفي بإطلاق التهديدات، لكنه لم يفعل شيئًا، وليس ما في الضمائر جريمة يحاسب عليها القانون.. عليه أن يفعل أولًا..»

- «أي يبدأ بتهشيم راسي؟»

- «ربما.. لكني أخبرتك بهذا كي تكون حذرًا... لقد أبلغت (محمود) بدوره، وهو حانق تمامًا.. لكنه لم يخبر (ناهد) بسبب حملها..»

- «(ناهد) حامل؟!»

- «وفي الشهر الرابع.. عقبى لك!»

ووضعت سماعة الهاتف حائرًا:

- «(ناهد) حامل.. لماذا لم يقل أحد هذا قط؟ إذن يمكن القول إن الفتاتين حاملان في الفترة ذاتها، وهذا يسبب قدرًا من الخلط دون شك.. من هي صاحبة مشاعر الغثيان و(الوحم) وما إلى

ذلك؟»

وهنا راحت فكرة عجيبة بعض الشيء تراودني..

* * *

- «هل أجرت اختبارا للحمل؟»
- «لا.. لكنّ الأمور واضحة، وعلى كل حال أنا.....

* * *

ومن جديد طلبت د. (محمد شاهين) في داره:

- «د. (محمد).. هل أجرت (نجلاء) اختبارًا اللحمل؟»
- «لا.. لكنّ هل يوجد سبب آخر إصابة عروس بالغثيان والقيء صباحًا؟»
- «يا لكم من حمقى!»

ووضعت سماعة الهاتف، وقررت أن أفعل أي شيء في حياتي سوى التفكير في هاتين الأختين، وحكاياتهما المعقدة..

وفي الأيام التالية انهمكت تمامًا في قضية الفتى الذي يحرك الأشياء عن بعد.. أنتم تذكرونها طبعًا.. ماذا؟ لم أحكها بعد؟ حسن.. ذكروني بذلك في المرّات القادمة..

أقول إنني انهمكت تمامًا، وسافرت مرّتين إلى قريتي على سبيل العودة إلى الجذور، ثم عدت لأجد (محمد شاهين) ينتظرني وقد احتقن وجهه البدين كأنه سيصاب بنزف مخي..

- «النتيجة سالبة!»
- «نتيجة ماذا؟»
- «(نجلاء) طبعًا..»
- «(نجلاء) من؟»

هنا بدأت مخايل السكتة القلبيّة تبدو عليه، وازدادت عيناه جحوظًا:

- «(نجلاء) ابنة اختي طبعًا.. ماذا دهاك؟»

تثاءبت، وفتحت أحد الخطابات الملقاة على مكتبي، وقلت:

- «هذا شيء أعرفه منذ زمن.. أنتم مجموعة حمقى لا أكثر.. ولقد مرّت (نجلاء) بأعراض الحمل كلها قبل أن تتزوج، لأن (ناهد) أختها شعرت بها، وبرغم هذا لم يخطر لأحدكم أن يجري اختبارًا لـ (نجلاء) الآن.. (الأمور واضحة).. هذا كل ما قاله زوجها لي.. إن التاريخ يكرر نفسه لأن الحمقى لم يصغوا إليه في المرّة الأولى..»

شرب كوبًا من الماء كعادة الموشكين على الموت، وقال:

- «ليكن.. نحن حمقى.. لكنّ ما قولك إذا كانت (ناهد) لم تشعر بشيء على الإطلاق، واكتشفت حملها بالصدفة؟»

توقفت عن فتح الخطاب، وتصلبت:

- «ماذا تعني؟»
- «أنت سمعتني جيدًا!»
- «(ناهد) لم تعايش أعراض الحمل؟»
- «بالتأكيد!»

هنا أسقط في يدي.. من أين جاءت (نجلاء) بهذه الأعراض الزائفة إذن؟ هناك حالة نفسية يعرفها أطباء النساء جيدًا؛ حين تنقطع الدورة الشهرية للمرأة، ويبدأ بطنها في الانتفاخ، وتمر بأعراض الحمل الهضمية المقيتة، ثم يتضح أنه لا يوجد حمل.. وأن انتفاخ بطنها هو غازات احتبست لا شعوريًا في القولون.. ويسمى هذا المرض بـ (الحمل الكاذب) أو ـ طلبًا للرطانة ـ (سودو ساييزس)..

المشكلة أنّ هذه الحالة تصيب ـ فقط ـ النساء العقيمات المتقدمات في العمر، واللاتي يتحرقن شوقًا للأمومة.. فما دور (نجلاء) هنا؟!

بالطبع لا بد من البحث عن تفسير آخر في مكان آخر..

نظرت بغباء إلى (محمد) وغمغمت:

- «لا أعرف ما أقول.. حقًّا لا أعرف ما أقول..»

* * *

كان الأمر بحق يفوق قدرتي على الفهم..

ها هي ذي (نجلاء) تمارس (الكوفيد) الذي تحدّثت عنه في الكتيب السابق، لكنه (كوفيد) حقيقي وليس رمزيًا معنويًا كالذي أعرفه.. الحامل الحقيقية في أتم صحة وأوفر عافية، بينما أختها ـ غير الحامل ـ لا تكف عن الأنين والغثيان..

والأغرب هو ما راح يحدث لـ (نجلاء) في الأيام التالية.. تكررت ظاهرة الآلام التي لا سبب لها، ومنها ما هو بسيط كآلام الكاحل أو الظهر، ومنها ما هو عنيف مصحوب بكدمات..

كان تفسير هذا سهلًا في البداية: (ناهد) قد استعادت ربطتها الشعورية بأختها برغم بعد المسافة، وها هي ذي تمر ـ حتمًا ـ بأوقات عصيبة..

لكن هذا التفسير تهاوى سريعًا إثر مكالمة من د. (محمد شاهين) لـ (محمود) في (أسوان).. اتضح على الفور أن (ناهد) لم تشك من شيء، وخاصّة تلك الإصابة العنيفة في الكتف التي تعوي (نجلاء) ألمًا بسببها..

ما معنى هذا؟ هل جنت (نجلاء)؟

كان بوسعي أن أقول هذا، وأن أتهمها بالكذب أو الجنون، لو لم أر موضع الإصابة بعيني: كدمة زرقاء هائلة مخيفة الشكل، وفي موضع عسير حقًّا أن تحدثه هي بنفسها.. إن الجروح التي يحدثها المرء في جسده تكون دومًا في متناول يديه..

ثمة احتمال لا بأس به أن تكون (نجلاء) قد ضربت بكتفها جسمًا بارزًا ـ كمقبض الباب مثلًا ـ متعمدة إحداث هذه الكدمة، لكني لا أجد في هذه الفتاة الهشة قوة كهذه.. إن للجسم البشري حدوده، حتى لو كانت تسكنه روح مجنونة..

- «(نجلاء).. هل أنت متأكدة من أنّ هذه الإصابة لم تحدث، ثم نسيت أنت سببها؟»
- «ياله من سؤال! هل يمكن لي أن أنسى إصابة كهذه؟»
- «هل يوجد نزف من أنفك أو لثتك؟»
- «لا..»

فقط في أمراض الدم النزفية - وسرطان الدم طبعًا - يمكن أن يجد المرء في جسده كدمات كبيرة كهذه بلا تفسير.. لكنّ - في تلك الحالات - لا يصاحب الكدمة ألم كالذي تشعر به.

وعلى كل حال، قمت باستبعاد هذا الاحتمال بعناية.. إن وظائف تجلط الدم وتخثره الخاصّة بها على ما يرام...

وجاء حل المشكلة سريعًا، ولكن بعد ما يئسنا من إيجاد تفسير.. جاء في خطاب من (محمود) أرسله من (أسوان).. كان يحكي عن شمس (أسوان) الدافئة والسد العالي.. إلخ.. إلخ.. ثم حكى لنا - أعني لأقارب (ناهد) - عن الحادث الرهيب الذي كاد يفتك بـ (ناهد) لولا أن سلم الله..

لقد كانت تعبر الشارع شاردة الذهن، حين اصطدم بها (حنطور) مسرع، فسقطت أرضًا واصطدمت سنابك الخيل بكتفها.. والغريب أن شيئًا لم يحدث، وأن الإصابة لم تحدث بها ألمًا من أي نوع..

يقول (محمود):

- «ظلت في الفراش أسبوعًا كاملًا تحت تأثير الرعب لا الألم، ولم أخبركم بشيء حتى لا تطير أنفسكم شعاعًا.. الآن فقط يمكنني أن أحكي لكم بعد ما انتهى الموضوع، وتأكدت من عدم وجود ضرر، وتأكدت من سلامة الحمل..»

- «وللمصادفة ـ القلوب عند بعضها - اتصل بي د. (محمد شاهين) خال (ناهد) ليقول لي إن كتف (نجلاء) يتألم.. هذه المرّة أنا واثق من أن موضوع الشعور المشترك بين الأختين انتهى، وأن سفرنا إلى (أسوان) كان هو العلاج الناجع للمشكلة.. لهذا لا أجد تفسيرًا سوى أن (القلوب عند بعضها).. حمدًا لله.. ولتدم هذه المحبة بيننا!»

- «كيف حالك يا حماتي؟ لقد بحثت في (أسوان) كلها لك عن.....»

انتهى الخطاب، وما بقي هو هراء معروف.....

ما معنى هذا؟

تبادلت النظرات مع د. (محمد شاهين) والخطاب في يدي..

ما معنى هذا؟

سؤال مهم، لكنّ إجابته غريبة.. بل أقرب إلى السخف.

أخيرا قالها د. (محمد)، وهو يأخذ الخطاب من يدي كي لا أطالع أسرارًا عائلية ليست من حقي (ويعلم الله أنني لا أهتم بها أصلًا).

- «هل كونت رأيًا؟»

قلت وانا أتحاشى نظراته المذهولة:

- «يمكن تلخيص الموقف في عدة نقاط:

١ - (نجلاء) تشعر بأشياء لم تحدث لها.

٢ - (ناهد) ليست هي صاحبة هذه المشاعر.



كان بوسعى أن أقول هذا ، وأن أتهمها بالكذب أو الجنون ، لو لم أر موضع الإصابة بعينى : كلمة زرقاء هائلة مخيفة الشكل . .

٣ - (نجلاء) شعرت بالحمل بينما (ناهد) لم تشعر به.. وفي النهاية (ناهد) هي الحامل لا (نجلاء).

٤ - (ناهد) أصيبت في حادث، ولم تشعر حتى بألم، بينما (نجلاء) هنا تتألم بعنف وقسوة..»

ثم عقدت أناملي تحت ذقني لأبدو خطرًا، وقلت:

- «أعتقد أن الظاهرة تتخذ منحى جديدًا..»

- «ماذا تعني؟»

- «أعنى أن (نجلاء) لم تعد تشعر بما تشعر به (ناهد) فحسب.. بل وتشعر الآن بما لم تشعر به (ناهد) كذلك.. وبعبارة أدق: لقد صارت (نجلاء) هي التي تتألم وتعاني بدلًا من شقيقتها!»

* * *

الفصل السابع: لا جديد فيه.. ويمكن أن تنتقل للفصل الثامن..

- «هذا ما كنت أتوقعه!»

كذا صاحت (نجلاء) في جنون حين أخبرتها بالاستنتاج الغريب..

- «(نجلاء).. إن ما يُقال بالصراخ يمكن أن يُقال بصوت خفيض..»

هذه المرّة كانت الدموع في عينيها.. دموع الغيظ.. دموع من ظُلم ظلمًا بيّنًا:

- «هذا ما كنت أتوقعه! إن (ناهد) مخلوقة أنانية كريهة، وقد ظلت طيلة حياتها تجلب لي المشاكل، وتفوز بكل شيء.. اليوم هي قد وصلت إلى الوضع الأمثل لها: أنا أتألم بدلًا منها!»

تذكرت قصة (الأمير والصعلوك) حين كان للأمير وصيف مهمته أن يجلد بدلًا منه؛ كلما ارتكب الأمير خطأ يستحق الجلد عليه من أبيه أو معلمه.. هذا الوضع شبيه بحالتنا إلى حد كبير..

قلت لها:

- «ليس للأنانية دور في الموضوع.. وهي لم تختر هذا الوضع.. لقد اختارت الطبيعة وضعًا متميزًا لإحدى التوءمين، وحتّى في التوائم السيامية يحدث أن يحتكر أحد التوءمين النمو كله، بينما يتضاءل التوءم الآخر، ليتحول إلى مجرد ثألولة أو ورم في جسد أخيه..»

- «والحل؟»

سألتني في يأس، فقلت لها بعد تفكير:

- «إن الوضع لم يصل للاستقرار بعد... ما زالت حالتكما المريبة هذه في طور التحولات.. وعلينا أن ننتظر...»

- «ننتظر؟ كل ما نفعله أن ننتظر..»

- «(نجلاء).. لو كان قرص الدواء الذي ينهي حالتك في جيبي، فلا يوجد أي سبب يمنعني من إعطائك إياه حالًا..»

* * *

على أنني في تلك الليلة قررت أن الأوان قد حان لأستعين بمن هم أقدر مني وأكثر علمًا..

كنت أعرف أن د. (إيجور تاركوفسكي) صديقنا القديم - هل تذكرونه وتذكرون ثلاثية قارئي الأفكار إياها؟ - قد ترك (مركز بحوث المخ) في مانهاتن، وانتقل مع أسرته إلى (ساوث كارولينا) ليعمل تحت إشراف واحد من أهم وأعظم علماء ما وراء الطبيعة في عصرنا، ألا وهو عالم النفس الأمريكي (جوزيف بانكس راين)[3]..

جلست وكتبت خطابًا لـ (إيجور) أحكي فيه قصة الأختين العجيبة، وطلبت رأيه، فإن لم يكن لديه رأي فليسأل أستاذه العظيم..

وبعد أيام جاءني المغلف الأنيق الذي ألصقت عليه طوابع تمثل الآنسة (حرية) التي تحرس المدخل إلى (الولايات)..

كان الخطاب من (إيجور تاركوفسكي)، ويقول فيه:

جامعة (دوك)

معمل الباراسيكولوجي

عزيزي د. إسماعيل

تلقّيت ـ بمزيد من شغف ـ خطابك، وسرني أن صاحب الصولات والجولات في عالم ما وراء الطبيعة يطلب رأيي.

في البداية أحب أن أصحح خطأً بسيطًا: أنا لا أعمل مع البروفسور (راين) بل أعمل على الأسس التي وضعها، قبل أن يستقيل من جامعة (دوك) ليعمل في مشروعه الخاص الذي سمّاه (مؤسسة بحوث طبيعة الإنسان)، وكان هذا عام ١٩٦٥ أي قبل مجيئي بدهر..

إن معمل الباراسيكولوجي هنا تم إنشاؤه عام ١٩٣٠، وهو معمل محترم يحاول تطبيق الأساليب العلمية الصارمة على ظواهر النفس، ونحن نستعين بالكثير من الإحصاء وقوانين الاحتمالات وميكانيكا الكم كي نفسر أشياء لا نعرف عنها سوى أقل القليل..

يسهل على المرء أن يفقد يقينه بجدوى ما نفعله.. يسهل أن يعتبرنا مجموعة من الحمقى ضلوا السبيل.. لكني سأكون آخر من يقنط.. لقد كنت أنا نفسي ظاهرة غريبة من تلك الظواهر يومًا ما، وإنني لمستعد لتصديق أي شيء يُقال في هذا الصدد..

لقد قابلنا كثيرًا جدًّا من ظواهر التطابق الشعوري بين التوءم ولا أجد غرابة في هذا..

الغريب حقًّا هو ظاهرة (إزاحة الشعور) هذه، فهي جديدة لم أسمع عنها قط، والأمر فيما أراه جدير بدراسة مدققة..

إذن أمامك حلان:

الأول: هو أن ترسل التوءمين إلى (الولايات المتحدة)، ولسوف تقوم (رابطة الباراسيكولوجي) الأمريكية بتمويل نفقات سفرهما.

الثاني: هو أن تنتظر ثلاثة أشهر، لأنني في طريقي إلى (كوريا) لحضور مؤتمر علمي مهم، ويمكن أن أتوقف يومين في (القاهرة).

أبرق لي بردك أو اكتبه في خطاب.

بإخلاص

د. أ. تاركوفسكي

* * *

كان جوابي هو انني أفضل الانتظار، لأنّه من المستحيل طبعًا أن أطلب من الفتاتين السفر إلى (الولايات المتحدة) لتكونا فأري تجارب في معامل جامعة (دوك)، حتى لو كانت هذه سياحة

مجانية..

* * *

طلب مني (مختار) - صديقي المحامي - أن أمر عليه في المكتب لشأن مهم، وعرفت على الفور أنّ هذا بخصوص (نجلاء) التي صرت أنا وكيل أعمالها كما يبدو..

توجهت إلى مكتبه في التاسعة مساء كما طلب، ولم يكن هناك في قاعة الانتظار سوى ابن بلد فظ يوحي بأنه جزار ضرب زوجته بالساطور.. وجاء (كمال) من غرفة الأستاذ، فما إن رآني حتى تهلل وصافحني بحرارة، ثم جلس جواري تعبيرًا عن الود. فسألته:

- «كيف الأحوال عندك؟»

- «على أسوأ حال.. وأنت؟»

- «سيئ كالعادة.. كيف حال الرؤى؟»

- «مستمرة.. والآلام لا تتوقف..»

- «وأين هي الآن؟»

- «إنها تعود للدار في الرابعة عصرًا، وأصارحك انني لم أعد متحمسًا لعملها.. ربما كان البيت خيرًا..»

- «لكنّ العمل يبقيها بعيدًا عن ذاتها وعن ذكرياتها..»

هنا انفتح الباب وبرز (مختار) ليرحب بي بصوته الجهوري، ويدعوني إلى الدخول.

- «أنا هنا يا أستاذ منذ ساعة ثم.....»

قالها الزبون الفظ محتجًا، وهو يرمقني شذرًا، وأدركت أنه على وشك فتح بطني أنا في أية لحظة..

- «أصبر يا معلم.. أريد أن أكون رائق البال حين تناقش قضيتك»

وشدني من ذراعي، فأطلق الزبون نفخة هواء كادت تطيرني..

وانغلق الباب دوننا، فسألت (مختار):

- «إنك تتعامل مع عينات بشريّة غريبة.. هذا الرجل مذنب - لا أدري بأي شيء حقًّا - ويمكن لأي قاض أن يتبين هذا..»

ضحك وهو يجلس وراء مكتبه، وقد طوح برأسه للخلف وفكه للأمام:

- «ليس الأمر كما تظن.. إنّه جاء ليرفع قضية على من اعتدى عليه بالضرب! والآن دعنا فيما أردت أن أحدثك فيه، تلك الفتاة (نجلاء).. هل هي؟»

وحرك أنامل يده المفتوحة جوار جبهته بإيماءة معروفة معناها الجنون، فقلت في كياسة:

- «لا.. ما كنت لا.....»

- «قل الحقيقة يا (رفعت)!»

- «ليست مجنونة.. لنقل إنها مصابة بـ (العُصاب) وليس (الذهان)..»

- «حلاوتك!» - وضرب المكتب بقبضته - «(عُصاب) و(ذهان)! حقًّا يا له من فارق كبير! بالنسبة لي يا (رفعت) أنا لا أفهم إلا ما أراه.. فتاة لا تكف عن الصراخ دون سبب.. أتركها وحدها

دقيقة ولسوف تجن هلعًا.. لا تتركها وحدها تجدها تصرخ ألمًا دون أن يمسسها أحد.. كل هذا كثير.. كل هذا لا يليق بمكتب محاماة محترم..»

ثم ابتلع ريقه، وبصوت أكثر هدوءًا قال:

ـ «أنا لا أريدها عندي.. لكني لن أتخذ أية خطوة ما لم أتأكد من أنك موافق.. فلن أنسى ما قدمت لي من خدمات..»

قلت لنفسي: لا بأس.. الزوج كان ينوي هذا على كل حال..

وله قلت:

- «ليكن.. أنت أدرى بمصلحة هذا المكتب.. افعل الصواب...»

هنا انفتح الباب ليثب (كمال) إلى الداخل مذعورًا، وقبل أن أفهم كان قد تشبث بربطة عنقي ليقول في هستيريا:

- «لقد.. لقد.. (نجلاء)! تعال حالًا يا دكتور!»

في برود قال (مختار) وهو يسترخي في مقعده:

- «كما ترى! الأمور المعتادة هنا.. اذهب معه ولسوف أتصل بك..»

وانطلقنا خارج المكتب، وفي المصعد قال لي لاهثًا: إن الجيران اتصلوا به ليبلغوه أن (نجلاء) ابتلعت أقراص الإسبرين لتنتحر..

يا للحمقاء!

* * *

وجدتها بكثير من العسر وسط مئات الجيران وأطفالهم الذين احتشدوا في غرفة النوم، حتى تذكرت أتوبيس (٣٠٥) الذي كان يمرّ في هذه اللحظة قرب دارها، وتوقعت أن يمرّ المحصل بتذاكره أو أن أسمع من يقول: (العربيّة فاضية قدام يا حضرات)..

كانت نائمة أو فاقدة الوعي، وجوارها ما يسميه الطب الشرعي بـ (الدليل العرضي)، وهو ـ هنا ـ عدة أوراق خضراء كانت تحوي الإسبرين الذي ابتلعته..

وأطلقت الأم صرخة حارة مولولة مستغيثة ملتاعة مقهورة:

- «يا حبيبتي يا بنتي ي ي ي ي ي!»

كان هناك كوب من الماء بقى بعض الملح في قاعه مما جعلني أعرف أنها تقيأت بالفعل، وتحسست نبضها.. كل شيء على ما يرام...

رفعت صوتي كي يسمعني أحد خلق الله:

- «هل ابتلعت الأقراص هنا؟»

ضربت الأم بكفها على صدرها:

- «نعم.. نعم نعمممعم!»

أمسكت بالأوراق الخضراء، وعددت الثقوب.. عشرة ثقوب لا أكثر.. إن هؤلاء المنتحرين يعانون جهلًا مطبقًا بعلم السموم..

لقد رأيت كثيرًا من حالات الانتحار، وأكثرها كان تهويشًا لا أكثر من شخصيات مضطربة.. عندها كنت ترى المنتحر يركض ركضًا - حتى ليسبق كل من حوله - جاريًا إليك، وهو يولول في ذعر:

لقد انتحرت! لقد انتحرت!

وباستجوابه يتضح أنه ابتلع قرصين من الإسبرين في حين نعالج بعض مرضى الحمى الروماتزمية بستة عشر قرصًا يوميًا من الإسبرين!

لكن (نجلاء) لم تكن (تهوش).. هي فقط تجهل علم السموم، ولحسن الحظ أنها لم تجرب إحدى الطرق المصرية المحببة؛ على غرار إشعال النار في النفس بموقد (الكيروسين)، أو قطع شرايين المعصم، أو شرب زجاجة (بوليس النجدة)..

قلت للأم وأنا أنهض:

- «لا تقلقي.. إن عشرة أقراص لا تؤذي بعوضة، وفي الغالب هي قد تقيأت الكمية كلها.. سأكتب لها دواء للمعدة يمنع ما ابتلعته من تمزيق غشائها المخاطي..»

وللنسوة الشمطاوات المحتشدات، وكلهن نهم إلى رؤية مصيبة أو سماع فضيحة، قلت:

- «الآن إنصرفن مشكورات.. وعلى من ترغب منكن في الانتحار مستقبلًا أن تقفز من السطح، فهذا يعطي نتائج رائعة!»

نظرن لي كأنني مجنون بعيون تقطر سمًا.. ومصمصن بشفاههن، وجذبت كل واحدة طفلها الحافي الذي يتدلى المخاط من أنفه، وبرطمت بالدعاء عليّ، ثم لثمت الأم بشفتين لزجتين:

- «هل تريدين شيئًا يا حبيبتي؟ قلبي عندك!»

وهكذا بدأ الأوكسجين ينمو على استحياء في الغرفة..

* * *

وقف (كمال) جوار باب الحجرة عاقدًا ذراعيه على صدره.. كان غاضبًا مهمومًا كارها لكل شيء..

الحق إنّه لموقف مؤسف، وشممت رائحة سبب لا يمكن تصديقه لغضبه، لكني واثق من أنّه كان هناك: كيف جرؤت على الانتحار دون أن تطلب إذنه؟

عسير على أي رجل أن تنتحر زوجته على كل حال.. إن هذا يلصق به تهمة الافتراء والتوحش أو الغلظة..

كان (كمال) غاضبًا، واستطعت فهم أسبابه..

جلست جوارها ولدغت خدّها بأظفاري حتى فتحت عينيها الحمراوين بلون الدم، من فرط البكاء والقيء..

قالت العبارة الخالدة التي أهلكتها الأفلام العربيّة::

- «اتركوني.. دعوني أمت!»

واصلت اللدغ بقسوة، وقلت:

- «كنا نرجو ذلك، لكنّ عشرة أقراص من الإسبرين لم تكن كافية للأسف، وعلى كل حال مازلت لا أفهم السبب..»

- «إنها تلك الآلام.. تلك الرؤى.. كل شيء!»

وانفجرت في البكاء والمخاط، بينما الأم تردد دون انقطاع عبارات فعالة في طرد الأشباح والعفاريت.. تلك العبارات التي لو سمعها الأب (ميرين) في رواية (طارد الأرواح الشريرة) لطار فرحًا[4]..

قلت لها في نفاد صبر:

- «ليكن.. أنت تتعذبين.. لكنك تحاولين الفرار من العذاب إلى الجحيم المطلَق، ولو انتحر كل المعذبين فلن تجدي من يدفنك.. إنها فكرة حمقاء، وما كنت أظنك بهذا السخف..»

لكني كنت أعرف أن المنتحر - حقيقة لا تهويشًا - هو ببساطة شخص مجنون.. شخص وصل لحالة من الجنون اللحظي يستحيل فيها أن يتعقل.. وعرفت مدى الألم الذي اعتمل في نفس هذه الفتاة..

قلت لها بخشونة:

- «لو أردت الانتحار فافعلي.. إن رحيلك سيزيد من بهجة الحياة، ويعالج الزيادة السكانية، ويحسن موارد الدولة بما لا يُقاس.. لن يخسر أحد شيئًا سواك على كل حال..»

- «د. (رفعت).. لا تقس عليّ أرجووووووك!»

وراحت تنهنه كالعادة.....

مسحت مخاط أنفها بطرف الملاءة، ثم نهضت عازمًا على الانصراف.. لكنّ وجه (كمال) لم يرحني...

عرفت أنه يفكر في أمر خطير.. عسير عليه أن يتحمل كل هذه الفضائح وكل هذه الضوضاء، وبما أنه رجل تقليدي سيكون رد فعله تقليديًا..

سألني بوجهه الكظيم:

- «هل كل شيء على ما يرام يا د. (رفعت)؟»

- «بالتأكيد..»

- «هل هي بخير ولا خوف عليها؟»

- «نعم..»

- «أي أنها تتحمل جيدًا الآن؟»

- «لا أدري ما الذي.....»

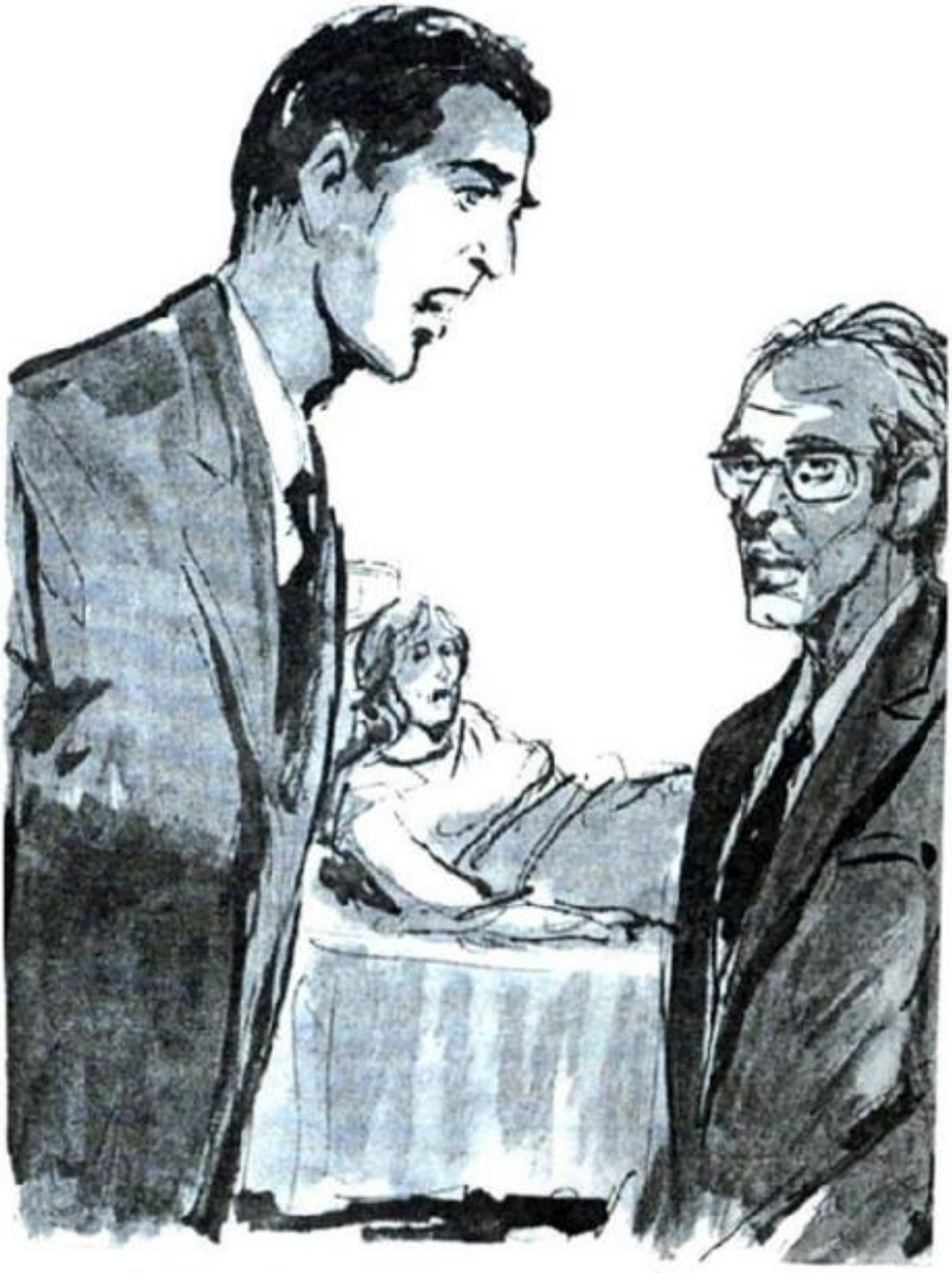
قال دون أن ينظر لأي شيء.. لا لي ولا لها ولا للأرض ولا للسقف:

- «حسن.. هي طالق منذ هذه اللحظة!»

ودون كلمة أخرى غادر الغرفة..

هذا الفتى - كما ظننت دائمًا - يهوى مشاهدة الأفلام العربيّة..

* * *



قال دون أن ينظر لأى شىء .. لا لى ولا لها ولا للأرض
ولا للسقف : « حسن .. هى طالق منذ هذه اللحظة ! » ..

الفصل الثامن: أحداث متوقعة.. ولو كنت مكانك لانتقلت للتاسع

كدت أذكره بأنه لم يطلقها ثلاثًا، وبهذا ما زالت لديه فرصة لإرجاعها لعصمته.. ثم قررت أن الصمت قد يكون أفضل..

* * *

لن أصف المشهد الميلودرامي العنيف الذي تلا هذا.. إن هذه الأمور تحطم الأعصاب على كل حال..

لن ألومه - وكيف ألومه؟ - ولكني ألومها.. لقد بلغ بها الألم ذروته ولم تجد إلا حلًا واحدًا.. والحل كان غير مرض لأي طرف.....

وهكذا غادرت المنزل، وقد قررت أن أزور الفتى عند (مختار) كي أحاول إصلاح الأمور.. إن (نجلاء) حمقاء مزعجة لكنني أحبها كابنة لي، وما زلت أجدها تستحق ما هو افضل..

أين أنت يا (إيجور)؟

* * *

وفي صالة الاستقبال بالمطار وقفت ـ وقد جاء الميعاد - حاملًا لافتة كبيرة كتب عليها بحروف لاتينية (دكتور إيجور تاركوفسكي)، فبدا مظهري كأحد مندوبي شركات السياحة ينتظر فوجًا من (نيام نيام)..

الغريب هنا أنني لم أر (إيجور) قط، ولا أعرف كيف يبدو..

فقط على أن أبحث عن شخص له سمات (شرق أوروبا)، وله أنف عملاق عجيب.. هكذا وصف نفسه..

كان الزحام شديدًا، ورحت أبحث بين الخارجين من البوابة عن أي وجه يصلح.. تلك المرأة.. لا؟ هذا الطفل؟ صعب.. هذا الكهل؟ لا..

ثم رأيته أخيرًا.. من العسير أن تخطئه العين حقًّا.. أكبر أنف يمكن أن تراه في نصف الكرة الشمالي بعد المرحوم (سيرانو دي برجيراك).. أنف يذكرك ببيتي (ابن الرومي) العبقريين:

حملت أنفًا يراه الناس كلهم

من ألف ميل عيانًا لا بمقياس

إن شئت كسبًا به صادفت مكتسبًا

أو انتصارًا مضى كالسيف والفاس

أي إنّه أنف صالح لكسب الرزق، وصالح للحرب كذلك! فيما عدا هذا كان وجهه مليئًا قسيمًا يذكرني على الفور بوجوه أهل (رومانيا) أو (بلغاريا) أو.....

المح اللافتة أخيرًا، فدنا مني، ولا بد أنه كان يردد في ذهنه أبياتًا من الشعر البولندي تصف صلعتي ونحولي الشديد...

بإنجليزية متأمركة لا أثر للكنة أجنبيّة فيها، سألني:

- «د. (إسماعيل).. أليس كذلك؟»

- «د. (تاركوفسكي).. أليس كذلك؟»

- «طالما تصورتك في شكل مختلف قليلًا..»

- «لحسن الحظ أنك لست فتاة، وإلا لماتت رعبًا..»

نظر حوله.. ثم سألني بطريقة عملية جدًا:

- «أين الموضوعان؟»

وهي طريقة يوحي بها بالتجرد العلمي، فقلت له باسمًا:

- «ليس بهذه السرعة... إن الحماس شيء جميل أفتقر أنا له، لكنّ ليس إلى هذا الحد.. يجب أن تستريح أولًا..»

- «المشكلة هي أن وقتي ضيق، وعليّ أن أطير إلى (كوريا) غدًا..»

- «إذن تذهب لفندقك، ولسوف أعود لأصطحبك في السادسة مساء..»

* * *

رتبت اللقاء في مكتبي بالجامعة.....

يجب أن أقول هنا: إنني كنت قد اتصلت بـ (محمود) في (أسوان) طالبًا حضور (ناهد) على وجه السرعة، لأن خبيرًا أمريكيًا (في هذه الأشياء) قادم بعد أسبوع..

إن أنانية الإنسان ولا مبالاته تثيران حنقي دومًا.. لقد تعلّمت ألا أندهش لشيءٍ، وتعلمت أننا جميعًا حفنة من الأوغاد لن ينقذهم من عذاب جهنم إلا رحمة ربّي..

لكن ليس إلى هذا الحد!

لقد قال لي (محمود) في برود:

- «هل تعلم كم يرهقنا السفر إلى (القاهرة) ماديًا ومعنويًا؟!»

- «هذا الرجل قد يملك الحل لمشكلة الأختين.. إنه تلميذ (راين) شخصيًا.. تصوروا هذا! تلميذ (جوزيف بانكس راين)!»

- «حتى لو كان تلميذ (ابن سينا) شخصيًا، فهذا لن يجعل الانتقال أكثر سهولة..»

كنت أعرف نقطة الاختلاف الأساسية هنا، والتي يحاول ألا يفصح عنها لي: لقد صارت (ناهد) على ما يُرام بل هي وجدت من يتألم ويتعذب بدلًا منها.. إذن ما دورهما في المشكلة؟ لقد انتهت متاعبه ومات (صلاح)، وكفت (ناهد) عن العذاب.. لماذا ينبغي أن يعطل أعماله ويحضر زوجته لتصير فأر تجارب عالم أمريكي من تلاميذ (راين)؟

غلى الدم في عروقي.. أنا أمقت هذه الفلسفة النفعية مقتي لجهنم، ولهذا قلت له ضاغطًا على كلماتي:

- «(محمود).. أنا لا أمزح.. إن (نجلاء) في جحيم مقيم، بل حاولت الانتحار مرة، ولسوف تنجح حتمًا في المرّة الثانية، وشفاؤها يحتاج إلى أن تتفضل وحرمكم بالحضور إلى (القاهرة)..»

- «إذن لماذا لا تحضر عالمك هذا و(نجلاء) إلى (أسوان)؟ إنها فرصة للسياحة..»

- «وددت هذا، لكنّ وقت الرجل لن يسمح بهذا الترف..»

- «ولكن.....»

قلت له من جديد بوقاحة وتحدٍ:

- «(محمود) إن لم تأت سيكون لي تصرف آخر!»

- «هل هذا هو التهديد؟»

- «هو بعينه..»

- «وماذا ستفعل أيها القوي؟»

- «لن أقول لك كي لا تتخذ احتياطاتك.. أنا بانتظار حضوركما!»

ووضعت السماعة في حزم:

لم أكن أمزح أو أدعى القوة.. لدى بالفعل ورقة قوية للضغط على (محمود)، لكني لم أكن لأستعملها أبدًا: (ماهر)! إن (محمود) مستعد لعمل أي شيء كي لا يذهب الطبيب الأصلع للقاء (ماهر) ويخبره بعنوان (محمود) ورقم هاتفه.. (محمود) الذي هو قاتل أخيه.. وبرغم أنّ هذا حل يطير رأسي بدوره...

* * *

لكنني - ولله الحمد - لم أضطر إلى هذا الاختبار، الذي يضع في الميزان مصداقية تهديداتي..

سرعان ما ظهر (محمود) وحرمه - التي دنت من الولادة.. وطفلهما...

ثلاثة وجوه أحرقتها شمس (أسوان) يبدو عليها بعض التذمر مع القلق.. إن (محمود) لم يعد يحبّ العودة إلى (شبرا)، خاصة بعد ما عرف أن شبح (صلاح) يتعقبه في صورة (ماهر) هذا..

وفي السادسة مساء.. دخلت مكتبي مع (إيجور تاركوفسكي)، وبعد دقائق جاء الطبيب المقيم - الذي أصابه الذعر لظهوري في ساعة كهذه - ومعه توءمان وزوج.. (ناهد).. (نجلاء).. (محمود).. قمت بإجراء التعارف اللازم، ثم طلب مني (إيجور) أن أخفي (ناهد) بعيدًا عن أختها.. وقال لي:

- «للأسف لا أجد إمكانيات معاملنا، كالدائرة التلفزيونية المغلقة وجهاز قياس الطاقة النفسية، لكني سأحاول التصرف في حدود الإمكانيات.. هل معك ساعة؟ حسن.. سأعطيك ورقة بالمؤثرات المؤلمة التي ستحدثها لدى (ناهد) - أليس هذا اسمها؟ وعليك أن تحدد الوقت بدقة بالغة لكل مؤثر.. حسن؟»

- «موافق..»

واصطحبت (ناهد) المتشككة إلى العنبر بعيدًا عن سمع ونظر أختها..

ثم بدأت أعرض ذراعها لمؤثرات متباينة من وخز الإبر إلى الحرارة إلى اللمس إلى الاهتزاز، وفي كلّ مرّة كنت أدون الوقت..

طال الفحص لمدّة نصف ساعة.. ثم طلبت منها أن تعود معي..

سألتني في ضيق وهي تنزل كم ثوبها:

- «ماذا يريد ذلك المختل؟»

- «يريد معرفة الحقيقة..»

- «ماذا يقول بالإنجليزية؟ أنا أكره أن يتكلم الناس عني بما لا أفهمه..»

تنهدت في صبر، ولم أعلق.. فقط تقدمتها إلى حجرتي..

كان (إيجور) جالسًا إلى المكتب بدون آخر ملاحظاته، ثم مد يده ليتناول ما كتبت أنا..

قارن الأزمنة بطرف قلمه، ثم هزّ رأسه:

- «تطابق شعوري تام.. لا شك في هذا..»

ثم قال وهو يناولني ورقة أخرى:

- «الان نفعل الشيء ذاته بالعكس..»

ومن جديد اصطحبت (نجلاء) المكتبة الصموت إلى العنبر، وكررت ما فعلته مع أختها.. وكالعادة سألتني:

- «هذا (الخواجة).. هل هو مجنون قليلًا؟»

- «ربما.. لكنه عبقري كذلك..»

- «وهل يملك شفائي؟»

- «لا أدري.. لكنه يملك أن يحاول..»

وعدنا إلى حجرتي، وفي هذه المرّة ابتسم (إيجور) ومد يده يلوح بملاحظاته لي.. كانت ورقته بيضاء من غير سوء..

إن (ناهد) لم تشعر بشيء على الإطلاق مما أصاب (نجلاء)..

قلت له وأنا أجلس:

- «لا جديد في هذا.. كلنا يعرف هذا.. فقط تأكدت أنت من أنني لا أخرّف أو أتلاعب بك..»

قال وهو يرمق الفتاتين في انبهار:

- «إن هذا لكنز حقيقي.. ولعلها المرّة الأولي التي توصف فيها ظاهرة مماثلة.. وإنني لفي حاجة إلى إجراء رسم للمخ في أثناء حدوث هذه الظواهر.. أحتاج أيضًا إلى إجراء اختبار بالبطاقات لقياس الإدراك فائق الحس لدى (نجلاء) هذه..»

كانت (نجلاء) ملمة بالإنجليزية إلى حدٍ ما، فاستطاعت التقاط كلمات مثل (حقيقي - المرّة الأولى - نجلاء) لكنّها لم تقدر على وضع هذا كله في عبارات ذات معنى..

أما (محمود) - وقد ازدادت عيناه حولًا - فقد فهم أكثر المحادثة، وبدا لي متوترًا بحق.....

قلت لـ (إيجور):

- «يمكنني ترتيب رسم المخ غدًا مع وحدة الأمراض العصبية.. هل تحتاج لشيءٍ آخر؟»

- «نعم.. أريد مجالًا للأشعة تحت الحمراء..»

ضغطت على أسناني، وأنا أتصور هذا السيرك الذي أنا مطالب بإعداده غدًا.. يمكن اقتراض الجهاز بشيء من العُسر من وحدة الأطفال المبتسرين، فهم لا يستغنون عنه في حالات صفراء

حديثي الولادة.. لكن الأمر شبه مستحيل في (مصر) حيث تصطدم بمئات العقبات: عهدة.. لا يمكن نقله.. ماذا تريد عمله بالضبط؟ لا بد من تصريح من العميد.. لا بد من موافقة الأمن.. إلخ.
لكنني قد عزمت على أن أفعل ما يريده (إيجور)..

* * *

الفصل التاسع: ممل جدًّا.. وعليك بالفرار إلى العاشر

في العاشرة صباحًا انتهيت من أكثر الترتيبات..

كان همي الأكبر هو الفضوليون.. فلا أريد أن ألصق بسمعتي - كطارد أشباح مخبول - تهمة إجراء تجارب غامضة لا تستند إلى أساس علمي..

وما أكثر الفضوليين! كأنما هو أمر خارق للطبيعة أن ترى فتاتين توءمين وطبيبًا أصلع وطبيبًا أمريكيًا كبير الأنف، يحمل أحدهم جهازًا للأشعة تحت الحمراء وبطاقات ورسام مخ... وكل هذا متجه إلى مكتبي الذي أحكمنا غلقه..

قام (إيجور) أولًا بإجلاس (نجلاء) أمامه.. ثم راح يخرج لها أوراقًا عشوائية من مجموعة أوراق لعب خاصة به... كانت الأوراق تحمل رسومًا معينة سهلة كالنجمة والدائرة والصاعقة.. إلخ.. وكان على (نجلاء) أن تخمن الرسم الموجود على ورقة اللعب، دون أن تراها، وتقوله لأترجمه لـ (إيجور)...

كانت هذه التجربة من تجارب (راين) الشهيرة.. إن عدد بطاقات اللعب اثنتان وعشرون، فلو استطاعت (نجلاء) أن تصل للتخمين الصحيح في خمس منها لكان معنى هذا امتلاكها للإدراك الفائق للحواس E.S.P..

والمشكلة في هذه التجارب أن قابليتها للتكرار محدودة جدًا؛ وهذا يؤدي إلى ارتفاع في نسبة (الاحتمالية) التي يرمز لها الإحصائيون بـ (P).. إن التجارب التي ترتفع فيها نسبة (الاحتمالية) هي تجارب يمكن تفسير نتائجها بالصدفة المحضة.. تجارب لا يمكن تكرارها بنفس النتائج.. تجارب يتعذّر النظر إليها بمنظار علمي لأن الحقيقة العلمية (يجب) أن تكون قابلة للتكرار...

أفقت من خواطري على صوت (إيجور) يقول بانتصار:

- «سبع!»

سبع من اثنتين وعشرين محاولة.. لا بأس على الإطلاق..

قلت له:

- «لكنّ الرقم سينخفض لو كررت المحاولة بالتأكيد...»

ضحك طويلًا، وقال:

- «إنها المحاولة الثالثة يا صديقي.. والنتائج هي ست.. تسع.. سبع.. برغم أنك تترجم لي ما تقوله الفتاة أجدك شارد الذهن تمامًا..»

ووضع الأوراق في علبة أنيقة ودسها في جيبه، وأردف:

- «إن الفتاة تملك إدراكًا فائقًا للحس.. هذا ما استوثقنا منه، وليس لقانون الصدفة دور هنا..»

- «وماذا يجدينا هذا؟»

- «سترى حين انتهى..»

وأمرني بأن أبدأ بإظلام الغرفة وإسدال الستائر، وفي الظلام شبه الدامس جعلت (ناهد) ترقد على سرير الفحص الصغير وتغمض عينيها، بينما (نجلاء) تجلس وراء مكتبي..

ثم قام (إيجور) بتسليط كشاف الأشعة تحت الحمراء على (ناهد)، بعد ما قام بربط أقطاب رسام المخ الكهربي إلى رأسها..

سيرك! هذا هو ما تحول إليه مكتبي.. لو ان عميد الكلية مر الآن وفكر في أن يفتح الباب.....!

- «الآن أبدأ المؤثرات المؤلمة..»

وهكذا وقفت جوار سرير الفحص، ورحت - لقد صار هذا مملًا - أغرس دبوسًا في ساقي الفتاة وذراعيها، ثم أعرضها لمؤثرات حرارية (هي دبوس قمت بتسخينه بقداحتي)، ثم أضغط على عظامها..

من خلف المكتب كنت أسمع صوت الـ (أي) والـ (أوه) الخاص بـ (نجلاء)، واقشعر جسدي.. غريب جدًا.. أن تؤذي جسدًا فيتأوه جسد آخر من شدّة الألم...

كان (إيجور) يراقب رسام المخ الكهربي في أثناء عمله..

وفجأة صاح وهو يخرج آلة تصوير من حقيبته:

- «(رفعت)! هل تراه؟!»

* * *

إنّه يأتي من العدم ليذوب في العدم..

هل تراه؟ يعبر الآباد والأبعاد كي يتجسد في صورة شعاع زمردي لا يني عن التوهج.. براقًا وامضًا رقراقًا ينساب في تؤدة.. فهل تراه؟

تتوهج له أرواحنا قبل وجوهنا وسماتنا الخارجية..

لقد جاء من بعيد.. من قلب الكون حيث تنعس الأسرار.. من وراء السدم في المجرات القصية.. من كهوف لم يزرها بشر.. من جزر لم ترسم على خريطة.. من كواكب لم يرها مرصد.. من الجانب المظلم من القمر..

ربما لمحه - في فجر الكون - غزال وليد، فأجفل يلحق بخطا أمّه عبر سهول (التايجا)، أو ارتجف لرؤياه طفل على كتف أمّه، فارتجفت بدورها لأنهّا لا ترى ما يراه.. فلا بد أنها بسملت وحوقلت..

ربما التمع لحظة في عيني فتاة تمنيت أن تكون لك، وعرفت أنك لها..

ربما اقشعر له جسد ناسك يرمق السماء المظلمة وحيدًا، وربما رآه (بيتهوفن) ولم يستطع وصفه، فداعب مفاتيح البيانو كي تولد سيمفونيته التاسعة..

ربما رآه من يحتضرون لحظة احتضارهم ولم يصفوه قط.. ربما أبصره أكثر من شاعر طار صوابه بعدها.. فلم يكتب حرفًا...

ربما يبقى بعد ما نفنى..

ربما هو موجود قبل أن نوجد..

لكنه هامس غريب متفرد، لهذا لم نعرف بوجوده قط..

هل تراه يا (رفعت)؟

نعم أراه.. وأعجز عن وصفه..

* * *

كان الضباب الفوسفوري الأخضر الرقراق يتسلل في خط طويل بطيء من رأس (ناهد) إلى فضاء الغرفة.. يتلوى هنا وهناك.. يدور من حولي ومن حول رأس (إيجور) ثم ينتهي ليحيط رأس (نجلاء) بهالة كهالات القديسين في رسوم (رافائيل)..

وفي ذعر همست (نجلاء):

- «بسم الله الرحمن الرحيم.. ما هذا؟»

برهبة، وتؤدة همست لها:
- «إبقى كما أنت بلا حراك.....»
ونظرت مستغيثًا إلى (إيجور)، لكنه ـ لحسن الحظ ـ لم يبدُ مذعورًا ولا مذهولًا.. كان يعرف ما عليه أن يتوقعه..
قال لي بصوت ثابت:
- «هذا هو (السيال الحيوي).. لا تخف.. لقد رأيته كثيرًا في تجارب تحضير الأرواح، ولا يمكن رؤيته إلا في الأشعة تحت الحمراء..»
وواصلت (نجلاء) الأنين بلا انقطاع، بينما جسدها كله قد صار مغلفًا بهذا الضباب الأخضر..
(إيجور) يمسك بالكاميرا ويلتقط عدة صور للأختين... كليك! كليك! كليك! مستحيل أن يسمح هذا الظلام بصورة جيدة، ما لم يكن هذا الفيلم من نوع خاص يلتقط الأشعة تحت الحمراء..
قال لي همسًا:.
- «استمر في إيذاء (ناهد)..»
كانت (ناهد) مغمضة العينين كما أمرتها..
ومددت يدي بالدبوس كي أغرسه في شحمة أذنها - برفق طبعًا ـ لكنّها اختارت هذه اللحظة كي تفتح عينيها.. ولا بد أن ما رأته كان مرعبًا..
- «آآآآآآه! أضيئوا الأنواااااار!»
كانت صرختها مريعة كأنما تحاول انتزاع ذراعها الأيسر.. لكني لا ألومها أبدًا.. لا بد أن منظرنا كأشباح سوداء وسط ضباب فوسفوري أخضر كان مرعبًا...
وكانت الصرخة كافية كي يتلاشى الضباب بلا مقدمات...
وبيد مرتجفة أضأت النور الكهربي، واتجه (إيجور) إلى النافذة ليفتح ستائرها.. ضوء الشمس الحبيب يتسرب كأنه مسحوق غسيل يزيل كل هذه الظلال النفسية...
نظر حوله ثم قال:
- «هل الجميع بخير؟»
قلت له:
ـ «أظن هذا، ما لم تكن واحدة منهما قد جنت..»
ورحت أزيل الأقطاب عن رأس (ناهد)، التي راحت ترتجف وأسنانها تصطك.. وراحت تردد:
- «عفاريت! أنتم تتعاملون مع العفاريت! لقد كانوا هنا معنا.. أنا واثقة من ذلك..»
- «ماذا تقول؟»
كذا سألني (إيجور) وهو يجمع حاجياته في حقيبته، فترجمت له ما قالت الفتاة.. قال بابتسامة عليمة بالأمور:
- «لا ألومها كثيرًا.. لكنّ لا عفاريت في الموضوع.. قل لها: إن هذه صورة من الحياة اليومية في معامل (الباراسيكولوجي)..»
ـ «لن أقول، فلن تفهم.....»
هنا دوّت طرقات على الباب..

-
«د. (رفع ت)! هل أنت بخير ؟»
لقد سمعوا صراخ الفتاة.
.
توتر (إيجور) لكنني أشرت بيدي كي يطمئن، واتجهت إلى الباب وفتحته...
كان هناك ثلاثة أطباء



يتلوى هنا وهناك .. يدور من حولى ومن حول رأس (إيجور) ثم ينتهى ليحيط رأس (نجلاء) بهالة كهالات القديسين فى رسوم (رافائيل) ..

وممرضتان وعامل، قد حشروا رءوسهم في فتحة الباب محاولين فهم ما يجري هنا...
قلت لهم بابتسامة مشجعة:
- «لا شيء.. إنّه (السيال الحيوي) قد أثار رعب الفتاة.. إن هذه الأشياء تحدث!»
هزوا رءوسهم في فهم ذكي وانصرفوا..
هذا هو الحل الوحيد.. دعهم يعتقدوا أنني مجنون وكفى.. أمّا إعطاء تفسيرات كاذبة فلن يزيد الأمور إلا تعقيدًا.. وعلى كل حال أعتقد أن كلًا منهم يخشى أن يسأل الآخرين عن معنى (السيال الحيوي) هذا، حتى لا يبدو جاهلًا بأمر بديهي..
وعدت إلى (إيجور) أسأله:
- «الآن أريد تفسيرًا لكل ما حدث في هذه الغرفة..»

* * *

الفصل العاشر: مـهـم نـوعًا.. لكنه لن يضـيف شيئًا إلى الفصل التالي

قال (إيجور تاركوفسكي):

- «إن الفتاة أنانية.. وهذا هو مفتاح الموضوع..»

كنا جالسين في (كافتريا) صغيرة على طريق المطار، عالمين أنه يجب أن يكون في صالة المسافرين خلال ساعة..

قلت له وأنا أقطع شريحة اللحم:

- «لقد كان يومك مرهقًا.. تجربة الصباح، طبع الصور ودراسة رسم المخ، ثم استنتاج الموقف من كل هذا..»

راح يلوك طعامه مفكرًا ثم قال:

- «هذا عملي وأنا أحبه.. أنت رأيت الصور طبعًا.. فما رأيك؟»

وأشار إلى عدة صور ملقاة على المنضدة بجوار طبقه.. كانت ـ في أكثرها ـ تظهر بقعًا لونية لها السمت الخارجي لـ (ناهد).. هذا هو جسدها كما تراه الأشعة تحت الحمراء، وكان (السيال الحيوي) يخرج منها كدخان لفافة تبغ ويتلوى في الهواء..

قلت له:

- «الأمر واضح.. كل شيء يبدأ من الفص الجبهى للفتاة.. إن رسم المخ ـ كما تؤكد أنت ـ يظهر نشاطًا كهربيًا غير عادي هناك..»

راح ينظر للجالسين حولنا: الفتى والفتاة الجالسين يتهامسان على منضدة ذاتيّة.. العجوز الأرستقراطية الصموت التي تحشو فمها بالمكرونة... الرجل العصبي الذي يبدو كلص حقائب،، ولا يكف عن التلفت حوله..

وقال:

- «كل هؤلاء يبعث منهم (سيال حيوي) في كل لحظة من حياتهم، ويؤثر بشكل ما على من يحيطون بهم.. لهذا تلقى من يمنحك البهجة أو النشوة، وتلقى من يمنحك الكآبة أو القلق.. لهذا تعرف الشخص حتى لو تنكر بشكل متقن.. لهذا يُمكنك أن تحسد الآخرين.. إن (السيال الحيوي) المنبعث منك يؤثر بشكل ضار في (السيال) الخاص بمن تحسدهم، ولهذا يمرضون ويتشاجرون ويتصرفون بحماقة..»

- «هذا كلام شعري لا يمكن إثباته..»

هزّ رأسه في أسي، وغمغم:

- «هذا حق.. كل تجارب الباراسيكولوجي غير قابلة للتكرار للأسف.. وقد اعتدنا أن نساوي الـ (P) أكثر من خمسة بالمائة.. هذا قدرنا...

لكن هناك ما يعرفه الإحصائيون بـ (الخطأ من النوع الثاني)، حين تكون النتائج مهمّة حقًّا، لكنّ الإحصاء يقول إنّه لا أهميّة لها.. ولعمري هذه هي مشكلة الـ (P) الأزلية..»

انتهت شريحة اللحم للأسف ولم أشبع بعد، لذا رحت التهم السلطة وأصغي لما يقول (إيجور):

- «إن الفتاتين تملكان ذات (السيال الحيوي)، لهذا كانتا على اتصال شعوري دائم كأنما ما يربط بينهما سلك من أسلاك الهاتف..»

رفعت يدي معترضًا لأذكر. كما يقولون في الاجتماعات - نقطة نظام:

- «لحظة.. لقد ظهرت هذه الظاهرة في وقت متأخر نسبيًا.. ربما بعد انتهاء فترة المراهقة..»

- «منطقي... أن تباعد الفتاتين جسديًا - بعد ما تزوجت إحداهما - جعل الرابطة المعنوية أقوى.. إن الهاتف لا أهميّة له حين تكون زوجتك معك في غرفة واحدة، لكنّ حين تسافر أنت يغدو الهاتف أهم جهاز في الكون..»

كدت أخبره أنني غير متزوج، ثم تجاهلت هذا حتى لا يسألني عن السبب وكل هذا الهراء.. وسألته أو - بالأحرى - عارضته:

- «المفترض أن الظواهر الباراسيكولوجية تنتعش في سن مراهقة الفتيات، وإلا لا تنتعش أبدًا..»

- «نحن لسنا بصدد ظاهرة باراسيكولوجية معروفة كالتحريك عن بعد أو التخاطر أو الوساطة.. نحن نتحدث عن اتصال شعوري ازداد قوة في فترة ما..»

عدت أسأله وقد انتهت السلطة للأسف:

- «لكنّ هذا الاتصال انقطع في فترة ما..»

- «بعد حادث الاختطاف.. هذا صحيح..»

ورشف بعض الماء، وأردف:

- «لقد كان العذاب شديدًا، والخوف أشد.. لهذا قاومت (نجلاء) كثيرًا كي تلغى ارتباطها الشديد مع أختها.. إنها لا تميل إليها بحال، لكنّ عقلها الباطن - عقل شهيدة حقيقيّة - لم يتحمل فكرة أن تعاني (ناهد) الآلام ذاتها.. هكذا ببساطة قام بقطع حبل الاتصال بين الأختين، ولم تعد (ناهد) تستقبل شيئًا..»

- «هكذا ببساطة؟ لم أحسب (نجلاء) بهذا النبل..»

- «هي بهذا النبل لكنّها لا تعرف.. وهذا هو سبب عذابها..»

ثم مد يده بالسكين، ووضع رغيفًا في طبقه، وبنصل السكين قسمة إلى نصفين:

- «هكذا كانت الفتاتان كيانًا واحدًا سرعان ما انقسم في رحم الأم، وظفرت واحدة منهما بقسط هائل من النفعية والأنانية، بينما لم تظفر الأخرى بشيء منهما.. نفس الشيء حدث بالنسبة للجمال وفرص الحياة، وإن كانت (ناهد) غير جميلة على الإطلاق بمقاييس أمريكي مثلي..

«أنت تعرف ما يحدث للتوائم السيامية كثيرًا.. إذ يتحول واحد منهما إلى وحش أناني يمتص كل الغذاء، ويمتص وجود أخيه نفسه، ليتحول الأخير إلى ورم أو ثألولة في جسد الأول..

«كانت (ناهد) توءمًا من هذا النوع الأناني، لكنّها امتصت (نجلاء) نفسيًا، وببطء - حين انقطع الإرسال من جهة (نجلاء) - صارت (ناهد) قادرة على إرسال كل آلامها وأحزانها إلى أختها البائسة.. بل إنها ترسل مخاوفها كذلك لها!»

التهمت أحد نصفي الرغيف، وسألته:

- «ماذا تعني؟»

- «شبح الفتى الذي يطارد (نجلاء).. من المنطقي أكثر أنه يطارد (ناهد) التي لا بد أن تشعر بعقدة ذنب تجاهه.. أعتقد أنّ هذا الشبح يطارد (ناهد) أساسًا لكنّها ترسله إلى أختها!»

- «(ناهد) تفعل كل هذا؟»
- «لا شعوريًا تفعله.. عقلها الباطن يفعله..»
وأشعل لفافة تبغ غريبة المنظر، فسألته في حيرة:
- «حسبت من رسالتك السابقة أنك لا تدخن..»
- «أحيانًا أفعل.. أحيانًا بعد وجبة دسمة كهذه!»
نظرت إلى الأطباق الفارغة، وتساءلت عن فارق لفظة (دسم) بين المصري والأمريكي.. لشد ما تتباين الثقافات.
نفث دخان اللفافة في الهواء، وقال:
- «ثمّة نقطة مهمّة لم تلحظها أنت، ولاحظتها أنا في خطابك.. لقد أجريت جراحة ـ لقرحة معدية ـ لـ (ناهد)، وبرغم هذا لم تنم (نجلاء) عندما أخذت (ناهد) جرعة التخدير.. وبعد هذا بأشهر نامت (نجلاء) حين حقنت أنت (ناهد) بالـ (بارالدهايد).. فما سر هذا التناقض؟»
اتسعت عيناي.. حقًّا لم أتنبه لهذا من قبل..
قال مبتسمًا:
- «في الماضي كان البث الشعوري مزدوجًا بين الأختين، وكان بوسع (نجلاء) أن تستجيب أو لا تستجيب، لأن لديها مشاعرها الخاصّة.. أمّا في الحاضر فقد صارت (نجلاء) تحت سيطرة (ناهد) بالكامل..»
هززت رأسي موافقًا، وبدأت أفتك بنصف الرغيف الأخير، فقال باسمًا:
- «لم أحسبك بهذه الشهية الطيبة برغم نحولك!»
- «إنني لا أعترف بطعام المطاعم.. أعتبره نوعًا من فواتح الشهية لا أكثر.. ولا أذكر قط أنني شبعت في مطعم..»
وبفم ممتلئ بالخبز سألته:
-«والحل؟»
قال في جديّة وهو يرمق الصور:
- «إن (ناهد) استحوذت تمامًا بسيالها الحيوي على أختها، ولا مفر لنا سوى استئصال مصدر هذا السيال.. إن بوسعنا الآن أن نحدد ذلك المصدر: المنطقة (ب) من الفص الجبهي لـ (ناهد).. وما أتحدث عنه هنا هو الجراحة النفسية، كالتي أجريت لي في (الولايات).. إن دكتور (إيرهارت) في (منيسوتا) قد صار حجة في هذه الجراحات، ويعالج الهستيريا والوسواس القهري بمبضعه ببراعة تامة..»
ابتلعت ريقي، وعدت أسأله:
- «والنفقات؟»
- «هل يمكن تدبير علاجها على نفقة الحكومة هنا؟»
ابتسمت في مرارة:
- «يمكنني أن أتصور نفسي وأنا أكلم المسئولين هنا عن ضرورة استئصال (السيال الحيوي) لـ (ناهد) على نفقة الدولة! سيكون هذا مشهدًا مسليًا حقًّا..»
أطفأ لفافة تبغه مفكرًا، ثم قال:

- «يمكن إقناع جامعة (دوك) بتحمل النفقات في سبيل البحث العلمي.. إن حالة الأختين مغرية بلا شك، وتهم الكثيرين.. لكني لا أضمن لك هذا.. يمكنني أن أؤكد أنني سأحاول جهدي..»

- «هذا ما أريده..»

نظر لساعته، وأعلن أن الوقت قد حان للذهاب للمطار، فناديت النادل كي أدفع الحساب.. قال (إيجور) وهو يخرج حافظته:

- «دعني أتول هذا.. ما دمت لم تشبع!»

أمسكت يده في صرامة:

- «أنا من محافظة تدعى (الشرقية).. ونحن لا نمزح في أمور كهذه.. ثم إنك لست أمريكيًا بالكامل ولا إنجليزيًا.. أنت بولندي أصيل!»

وأوصلته للمطار عاجزًا عن شكره بما يكفي..

لن يعرف أبدًا كم أفادني.....

* * *

الفصل الحادي عشر: شديد الأهمية لهذا أنصحك بقراءة ما سبق لتفهمه..

بعد ثلاثة أيام:

جرس الهاتف يدق بلا انقطاع في داري، ذلك الرنين الطويل الذي يشي بمكالمة غير محلّيّة.. إن المكالمات المحلّيّة تجلب الهموم، لكنّ غير المحلّيّة تحمل المصائب دائمًا..

وهرعت إلى السماعة وقلبي يتواثب.. فسمعت من يتكلم بالإنجليزية.. ليس هذا من (كفر بدر) طبعًا ما لم يكن اللورد (كيلرن) قد تولى العُمدية هناك.. وأخيرًا جاء صوت (إيجور):

- «د. (رفعت).. إنهم موافقون هاهنا!»
- «ماذا؟ وافقوا دون مشاكل؟»
- «كانت هناك مشاكل لكني ذللتها، والدكتور (إيرهارت) مستعد لإجراء الجراحة مجانًا في مستشفاه بـ (منيسوتا)..»
- «حقًّا لا أعرف ما أقول لك..»
- «أنت تعرف كيف تتصل بي.. عندما تستعد الفتاتان سارسل لك بالتعليمات، ولسوف تجد تذاكر السفر في مكتب القائم بالأعمال..»
- «شكرًا يا (إيجور).. شكرًا!»

ووضعت سماعة الهاتف، وارتديت ثيابي على عجل..

* * *

الأسرة كلها جالسة في قاعة الجلوس، التي جعلها الازدحام كحافلة في ساعة الذروة.. أمامي تجلس (نجلاء) منزوية ترمق الأرض بلا انقطاع، وفي أريكة واحدة يجلس الأب والأم لا يفهمان ما يحدث، وجوارهما (محمد شاهين)..

أما (محمود) و(ناهد) - وقد جلس ابنهما على ركبتي أبيه - فيجلسان على مقعدين متجاورين، وبطن (ناهد) المنتفخ يشي بأننا اقتربنا جدًا..

نظرات الارتياب في شخصي المتواضع لا تتوقف.. (كمال) يقف جوار النافذة مستندًا بكوعه إلى إطارها، ويحاول الفرار بعينيه منها كي لا يرانا ولا نراه..

كان قدوم (كمال) هو أفضل ما استطعت عمله، وبوساطة قوية من (مختار) المحامي.. أنا لا أقنع أحدًا، لكنّ (مختار) قوة كاسحة عاتية تجرف أمامها كل شيء، ويستحيل معها أن تعلن رأيك الخاص..

كانت جلسة أمس مع (مختار) هي التي نجحت في غسل مخ الفتى، ولم يكن شريرًا ممعنًا في شره.. كان يحبّ (نجلاء) حقًّا، وتكفيه لمسة إصبع كي يعود لها طالبًا الصفح، وردها إليه..

لقد أسعد هذا (نجلاء)، لكنّها أزمعت أن تلعب لعبة الأنثى العتيدة، وتتظاهر بأن الأمر غير ذي أهميّة لها.. إن الحياة ممكنة من دون (كمال) كما هي ممكنة به..
كان هذا الموقف حين بدأت جلستنا هذه في بيت الأسرة..

* * *

قلت لهم منتقيًا كلماتي:
- «كما ترون قد فرغ الدكتور (تاركوفسكي) من إجراء اختباراته، وهو يرى أن وضعنا ليس مستحيلًا.. إن (نجلاء) و(ناهد) قابلتان للشفاء من هذا الارتباط السخيف..»
هنا قال (محمود) متململا:
- «لكنّ هذا الموضوع انتهى منذ زمن طويل..»
- «انتهى بالنسبة لزوجتك، لكنه قائم وبشكل شنيع بالنسبة لـ (نجلاء)، وما لم نفعل شيئًا ستظل تلعب دور مركز الآلام لأختها، وهذا ليس عدلًا على الإطلاق..»
- «والحل؟»
كان الأمر عسيرًا بحق، ولقد أصررت على إقحام (كمال) لأجد في جانبه ما يعضدني.. إن ما أقوله سيفجر في وجهي غضبة عاتية..
قلت في تؤدة:
- «هناك جراحة.. وهي ليست بالضبط جراحة هينة، لكنّ نسبة نجاحها لا بأس بها، وسيكون على الجراح أن يستأصل من مخ (ناهد) ذلك الجزء المسئول عن تدفق السيال الحيوي إلى أختها.. بعبارة أخرى سنقوم بقطع سلك الهاتف بين الأختين..
«أعرف أنّ هذا عسير، لكنّ يطمئننا أن الجراحة ستجري في مركز مختص بهذه الأمور في (منيسوتا).. وستتحمل جامعة (دوك) كافة نفقات الجراحة، فلن يكون علينا سوى الذهاب إلى (أمريكا) برأس (ناهد)!»
- «ونعود من دونه!»
قالها (محمود) في ضيق، وهو ما كنت أتوقعه..
قلت له في كياسة:
- «لن يعود أحد دون رأس.. إن الجراحة النفسية علاج فعال معترف به، وما من حل آخر..»
- «نحن - ببساطة - نرفض هذا الحل..»
وبسماجة أضافت (ناهد):
- «ثم لا تنس أنني حامل في الأشهر الأخيرة.. بل الأيام الأخيرة..»
قلت وأنا أنظر إلى (نجلاء) الصموت:
- «ونحن سننتظر حتى تضعي حملك.. لن يجري أحد جراحة في المخ لحامل متم..»
اتسعت عيناها في توحش، وقالت:
- «سأكون واضحة.. أنت تريد مني أن أسلم رأسي لعلمائك المخبولين هؤلاء كي يقطعوا جزءًا من مخي، وكل هذا على أساس نظرية ذلك الأمريكي غريب الأطوار.. والمطلوب علاجي من

مرض لا وجود له أصلًا..»
- «لكنه موجود بالفعل لدى (نجلاء).. هذه هي المشكلة.. لو كنت أنت من تعانين لبحثت بكل قواك عن مخرج.. أمّا والنار في بيت الجيران فما دخلك أنت بالموضوع؟»
قال (محمود) في كياسة، وبلهجة من يهدئ الأمور:
- «دكتور (رفعت).. أنت أسديت لنا خدمات كثيرة، وكنا صديقين لفترة لا بأس بها.. لكني أراك تقول ما لا يصدقه عقل.. ومن جديد نحن نرفض هذا الاقتراح السخيف..»
هنا قاطعته (ناهد) في عصبية، وبتوحش متزايد قالت لي:
- «ليس هذا كل شيء.. يجب أن تكف عن الإيقاع بيني وبين أختي.. كف عن إشعارها بأنني أملك الحل ولا أريد تقديمه لها.. كف عن وضعي في صورة الأنانية...»
كانت قد تحولت الآن إلى نمر شرس مخيف بحق، فلا يدنو منه إلا مجنون.. وكنت أنا هذا المجنون..
قلت في برود:
- «أنا لا أشعرها بشيء.. أنت بالفعل تملكين الحل..»
نفخت غيظًا واحمرّ وجهها.. كانت من النسوة المتبرجات اللواتي يزلن شعر حواجبهن ليرسمن بدلًا منها خطًا بالقلم الأسود، ولم يكن تأثير هذا - مع غضبها - محببًا للنفس.. كان تأثيرًا شبه شيطاني..
قالت:
- «حسن.. أنا أرفض حلك هذا وأريد منك أن تخرس!»
كان وقع الكلمة عنيفًا، وشعرت بصفعة معنوية على خدي.. فأنا لم أعتد الإهانة قط.. وسمعت (محمد شاهين) يطقطق بلسانه معترضًا..
نظرت إلى (نجلاء)، وبصوت مشروخ قليلًا سألتها:
- «(نجلاء).. لماذا تلزمين الصمت؟»
لم ترفع عينيها نحوي، وهمست:
- «وماذا أقول؟»
- «قولي رأيك!»
وقال (محمد شاهين) في لهفة:
- «(نجلاء).. هل أنت راضية؟»
بابتسامة جانبية مريرة، قالت:
- «أنا أجد الاقتراح غير منطقي، عسيرًا أن أبتلعه.. ولو كنت مكان (ناهد) لما قبلت!»
سرت تنهيدة ارتياح في جو الحجرة، والتمعت ضحكة وحشية كريهة على وجه (ناهد)، ثم قال (محمود) بتؤدة:
- «لقد سمعت ما قيل يا د. (رفعت).. أعتقد أنه ما من أسئلة أخرى..»
ثم نهض في إيماءة ظاهرها اللطف وباطنها الإهانة، وقال:
- «الآن نرجو عذرك لأن هناك أمورًا عائلية خاصة ستتم مناقشتها، وهي ليست مما يمكن قوله أمام الغرباء!»
كان هذا هو الطرد..

المعنى واضح إذن.. نحن جميعًا متفقون.. فمالك أنت بنا يا أحمق؟ أسرة سعيدة متماسكة.. دون (رفعت إسماعيل) و(إيجور) و(راين) وكل علماء (دوك) المتطفلين..
ودون كلمة أخرى غادرت المكان.....

* * *

طبعًا لا داعي لذكر تفاصيل المرض الذي ألم بي، وألزمني الفراش لمدّة أسبوع بعدها..
لقد حار زملائي فيه، واعتقدوا أنها حمى تيفودية أو.. أو.. لكني كنت أعرف التشخيص الصحيح.. إن كبريائي وقد جُرح ينزف سمومًا في دمي..
طبعًا لن أحكي هذه التفاصيل السخيفة، فهي شيء معروف..
فقط أقول إنني قلت لنفسي: هذا هو جزاؤك الحق.. لماذا تتدخل فيما لا يعنيك وتسدي العون لمن لم يطلبه؟ أتطلب مزيدًا من الحكمة والعلم؟ ما جدوى الحكمة والعلم اللذين يسببان طردك بهذه الطريقة؟
أسبوع مرّ عليّ في الشقاء.. لكني في نهايته كنت قد غدوت شخصًا آخر.. شخصًا لا يبالي بالآخرين..
والمؤسف أنني كنت بهذا سعيدًا راضيًا..

* * *

وبعد أسبوعين من تلك الجلسة الدامية قُتلت (ناهد)..
كان هذا في السابعة مساء، وقد انتهت إجازة زوجها، لذا كانت تعد كل شيء للسفر في الغد إلى (أسوان).
أخبرني د. (محمد شاهين) وهو يبكي أن (محمود) و(ناهد) وطفلهما نزلوا إلى الشارع للتسوق..
وكان الشارع التجاري مزدحمًا يغص بالناس، و(ناهد) تمشي وراء زوجها في حذر كي لا يصطدم أحد ببطنها الكبير...
هنا برز رجل من وسط الزحام، وقبل أن يفهم أحد ما حدث غرس سكينًا في عنقها، وهو يصرخ:
- «من أجل (صلاح)!»
والتفت الزوج إلى الوراء ليرى المشهد الدامي، وفي اللحظة ذاتها كان المعتدي - ملوحًا بسكينه - يحاول أن يشق الزحام مبتعدًا.. أجفل بعض المارَّة وابتعدوا.. لكنّ اثنين من أولاد البلد (الفتوات) استطاعا أن يجندلا المعتدى أرضًا ويصرعاه، وكان هناك ملازم شرطة شاب في ثياب مدنية، وثب على المعتدي وانتزع السكين من يده، وألصق بجبهته طبنجته الحكومية..
لقد تم القبض على الفاعل - الذي هو (ماهر) طبعًا - لكنّ بعد ما حدث الضرر المطلوب..
ها هي ذي (ناهد) ترقد على الرصيف، في بركة من دمها، مفتوحة العينين شاخصة للسماء، والزوج يحاول ذاهلًا أن يعرف موضع الخلل الذي انتزع الحياة من هذا الجسد..

ـ «إسعاف! إسعاف!»

طلبها، وطلبها بعض الواقفين، لكنّ ـ بالنسبة لأكثرهم ـ كان الأمر واضحًا تمامًا.. لقد ماتت المرأة على الفور.....

لقد انتظر (ماهر) اللحظة المناسبة طويلًا جدًا، وكان ينوي قتل الزوج لكنه عدل عن ذلك، فـ (ناهد) ضحية مفضلة لأنهّا تعذب الزوج للأبد، ثم إنها الحب القاسي الذي تخلى عن أخيه..

وها هو ذا يفعلها في أبعد اللحظات عن توقع شيء كهذا..

* * *

أخبرني (محمد شاهين) بهذا هاتفيًا، وهو لا يكف عن البكاء؛ فسألته:
- «والجنين؟»
- «بالطبع مات بدوره.. ماذا تريد؟»
هنا تذكرت.. ثمّة مأساة أخرى أكثر أهميّة:
- «وماذا عن (نجلاء)؟!»
- «لم تعرف بعد.. إنها مع زوجها في (الإسكندرية) ولا نعرف كيف نتصل بها!»
- «يا حمقى!»
كانت المأساة قد وقعت في السابعة مساء، وأخبرني (محمد شاهين) بها في الثالثة بعد منتصف الليل..
لقد سافرت (نجلاء) مع زوجها إلى (الإسكندرية) على سبيل شهر عسل ثان، وكي تهدئ أعصابها بعد كل ما كان من توترات.. ولكن يا له من وقت! يا له من وقت!
سألته في حنق:
- «وهل تعرفون أين تقيم؟»
- «عند أخت (كمال) في (العصافرة).. لماذا تسأل؟»
- «وتعرف عنوانها؟»
- «ربما أجده عند أم (كمال).. ولكن لماذا تسأل؟»
- «لأنك أحمق! يجب أن نسرع حالًا إلى (الإسكندرية)، فلو صح توقعي، أعتقد أن الأستاذ (عبد الجواد خليفة) قد فقد ابنتين لا واحدة!»
قال لي ذلك الجانب الطفولي من عقلي الباطن..
- «ألم تقسم على عدم التدخل في شئون أسرة المتاعب هذه؟»
فيقول له الجانب الناضج من عقلي:
- «ثمّة أشياء أهم من الكبرياء، وأمور لا يمكن التردد فيها أساسًا..»
وهكذا - أنتم تعرفونني - رحت أشق الطريق الزراعي بسيارتي، جوار (محمد شاهين) الذي أنساه الذعر حزنه، وراح يردد الأدعية كي لا تنقلب السيارة..
كان الظلام دامسًا وثمّة (شبورة) لا بأس بها، في هذه الساعات الأولى من اليوم.. وشعرت كأنني أشق طريقي وسط سحابة، أو وسط غابة من القطن الأبيض..
لم أخف لأنني كنت منهمكًا في توجيه اللوم والسباب لمرافقي:
- «يا حمقى! يا أغبى الناس طرًا! لقد كان يوم عرفتكم يومًا لم تشرق له شمس.. والأسوأ منه يوم جعلتك تدخل داري في البداية!»
فكان يرتجف وينصحني بأن أهدأ كي لا نموت..

* * *

وبعد مائة دقيقة لا أكثر كنت أشق شوارع المدينة النائمة، مسترشدًا بوصفه.

أخيرًا وصلنا للبناية المتواضعة في الشارع الذي أغرقه الضباب.

ثمّة كلب ينبح في مكان ما، وكلب يرد علي



والتفت الزوج إلى الوراء ليرى المشهد الدامى ، وفى اللحظة ذاتها كان المعتدى ـ ملوحًا بسكينه ـ يحاول أن يشق الزحام مبتعدًا ..

ه.. البرد.. الصمت..
قلت لـ (محمد شاهين) وأنا أطفئ المحرك:
- «لا أرى آثار موت.. لكنّ اصعد لترى..»
- «بل تجيء معي..»
وترجلنا، ورحنا نرمق الكائن المظلم المغلق على أسراره..
- «هذا هو العنوان لا شك في هذا..»
وفي بطء صعدنا الدرجات المظلمة.. كل شيء يذكرني ببيت (شبرا) كأن (نجلاء) - حتى حين تتنزه - لا تختار سوى ما يشبه بينتها الأصلية..
وعند الطابق الثاني والأخير قرع (محمد شاهين) الجرس طويلًا..
ونظرت لساعتي: السادسة صباحًا تقريبًا، ولما تشرق الشمس بعد.. وزوار الفجر يلهثون بانتظار فتح الباب..
صوت المزلاج.. سؤال فظ عن الطارق.. الشراعة تنفتح..
ضوء السلم يضاء ليغمرنا بالنور...
رجل فظ الملامح خشنها بطاقية النوم يرمقنا في ذهول غاضب..
ومن خلف ظهره لمحت وجه (كمال) المتسائل المندهش..
وبعد دقيقة برز في مجال الرؤية ما كنت أبحث عنه...
(نجلاء)...
كانت سليمة معافاة لو تجاوزنا عن المنديل المربوط حول عنقها..

* * *

الخاتمة

عزيزي (إيجور):

..... وكما ترى من رسالتي الطويلة، كانت هذه خاتمة الأحداث الدامية والمؤسفة التي عصفت بهذه الأسرة..

أما تفسيري لما حدث، فهو أن موت (ناهد) قطع الرابطة ما بين التوءمين، وتحررت (نجلاء) أخيرًا..

لقد كان جل ما شعرت به هو ألم حاد في العنق، وبحة في صوتها، حتى إنها اضطرت إلى ربط عنقها.. لكنّها ظلت حية..

هذه هي الإجابة عن سؤالنا عما كان سيصيب إحدى الأختين لو ماتت الأخرى..

لقد تم استئصال الجزء النشط من عقل (ناهد) بطريقة جذرية للغاية، وإن كنت لا أشعر بأسف كثير لهذا.. لقد استحقت (نجلاء) حريتها، وإنني لواجد عدالة شعرية لا بأس فيما حدث..

هلكت الفتاة السيئة، وعاشت الطيبة سليمة معافاة..

وإنني لأرى بعين الخيال..

أرى (نجلاء) و(كمال) يظفران بسعادة استحقاها ولم يظفرا بها قط..

أرى طفلتهما الجميلة الطبيعية تمرح بينهما..

أرى ابن (ناهد) يترعرع في دار خالته طيبة القلب، دون أن يشعر لحظة بالحرمان من أمّه...

أرى (محمود) وقد عاد وحده إلى (أسوان) يمارس حياته بلا مخاوف.. ولسوف ينسى.. حتمًا سينسى..

أرى (نجلاء) - بعد عمر طويل وشيب كثير - تلفظ أنفاسها الأخيرة، لتلحق بـ (ناهد) في العالم الآخر، وأعرف مطمئنًا أنه ـ للمرة الأولى - لن تتعذب واحدة منهما بدلًا من الأخرى، لأنّه عالم عادل تسوده الرحمة الإلهية..

* * *

انتهت قصة التوءمين..

وحق لي أن أظفر ببعض الراحة..

لكنني - في ملاحقتي للغرائب - شبيه بالنشال الذي لا يتوب أبدًا، مهما أمسكت به الشرطة، ومهما تلقى على قفاه من صفعات في الحافلات..

لهذا كانت هناك حلقة رعب..

وهذه الحلقة.. كانت تدور حول موضوع محبب: الرعب خلف باب مُغلق...

كانت هناك قصص عديدة، لكنّ أفضلها كان.....

ولكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـــدمـة

الفصل الأول:

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

الفصل العاشر:

الفصل الحادي عشر:

الخـاتمـة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة التوءمين

كان الضباب الفوسفوري الرقراق يتسلل كالدخان في فضاء الغرفة ، منبعثًا من رأس (ناهد)، ليلتف ببطء حول رأسي ورأس (نجلاء) .. ونظرت مستغيثًا إلى (إيجور) لكنه ـ لحسن الحظ ـ لم يبدُ مذهولاً .. كان يعرف ما عليه أن يتوقعه...



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم:
وراء الباب المُغلق

Notes

[←1] رمبرانت فان راين: فنان هولندي عظيم، هو رائد ما أسموه بـ (القرن الفلامنكي) في الرسم.. وله لوحة شهيرة جدًا هي (الحارس الليلي).

[←2]
لفظة هستيريا مشتقة من لفظة (رحم) اللاتينية، وكانوا - قديمًا - يحسبون المرض مقصورًا تمامًا على النساء، واعتقدوا أن الرحم سببه.. طبعًا لم يعد هذا الكلام دقيقًا..

شخصيّة حقيقيّة.. والتواريخ كذلك. [←3]

[←4] طارد الأرواح الشريرة: رواية رهيبة للأديب الأمريكي لبناني الأصل (وليام بيتر بلاتي)، وقد قدمت في فيلم أحدث ضجة (لم يعرض في مصر).

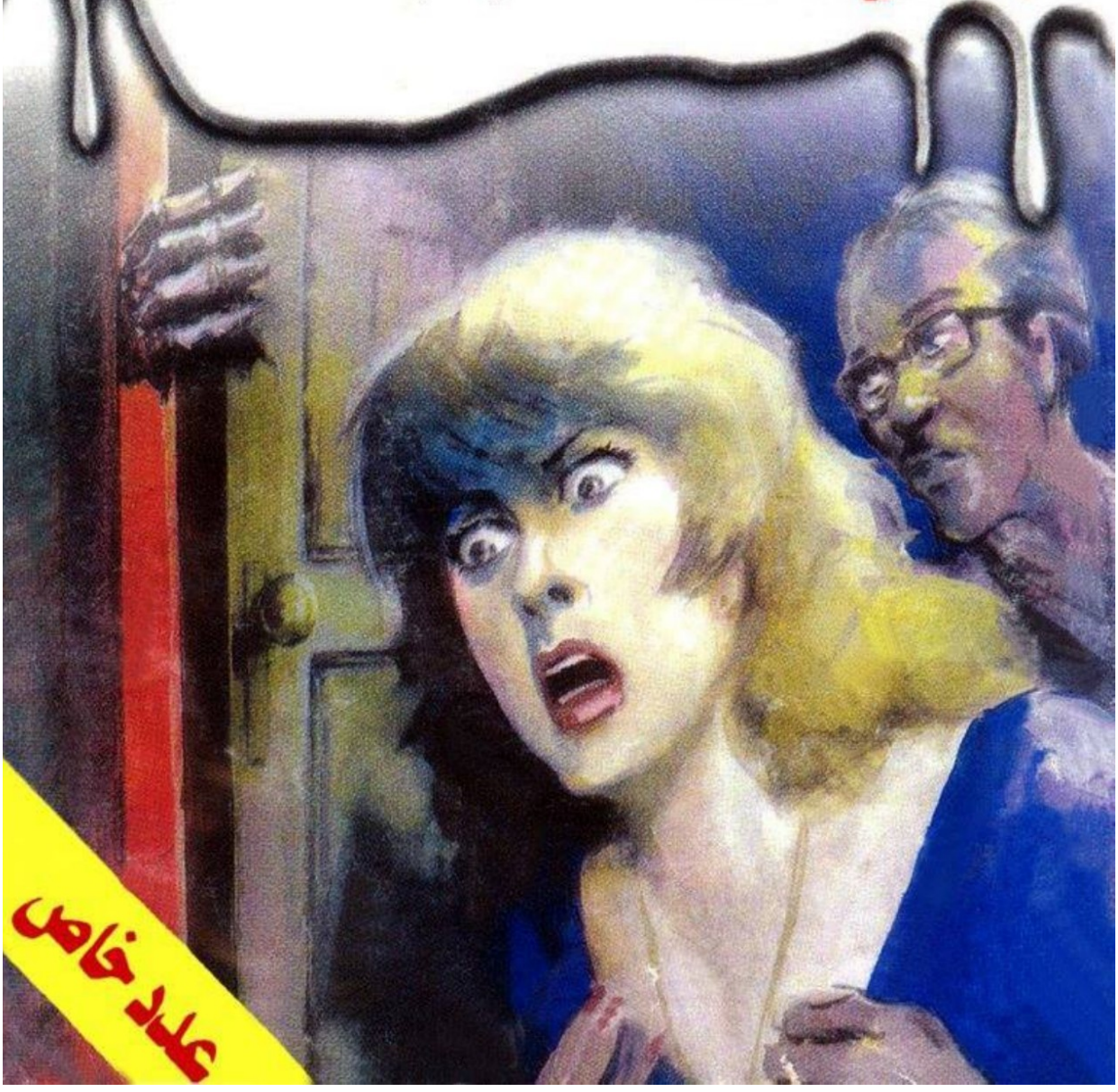
روايات مصرية للجيب

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

40

وراء الباب المغلق

ماوراء الطبيعة



عدد خاص

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « **د. أحمد خالد توفيق** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

مرحبًا بكم..

جميعكم يعرف تلك العادة السخيفة التي يصعب أن أتخلى عنها، ألا وهي تقديم حلقة رعب كلما فرغنا من عشرة كتيبات، وهي عادة لا أجد لها تفسيرًا، وككل العادات الضارة غير ذات التفسير يستحيل أنّ أتخلى عنها..

هذه هي حلقة الرعب الرابعة.. وهي كالعادة مجموعة من القصص القصيرة، والقصيرة جدًا تتحدّث جميعًا عن موضوعي المفضّل: الرعب..

في هذه المرّة نناقش جانبًا من الرعب، لا يختلف عليه اثنان أو - كما يقول أجدادنا - لا تتناطح عليه شاتان، وهو الرعب الذي يكمن خلف باب مغلق...

ما الذي ينتظرنا خلف الباب المغلق؟ ما الذي سيحدث لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المفتاح، ثم إلى المقبض، وسمحنا لفضولنا الإنساني أن يرتوي؟ هل نعود أحياء؟ هل نعود سالمين؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا بسرد أي هول رأيناه؟ كثيرون تساءلوا.. وكثيرون لم تبق لهم حلوق قادرة على الكلام بعدها!!

ها أنتم أولاء حولي.. وها هي ذي النار وجلستنا المعتادة حولها، وبعض أقداح الشيكولاتة الساخنة طبعًا، والشوق في العيون اللامعة، أدعو الله ألا يتحول إلى خيبة أمل بعد انتهاء القصة..

واربوا هذا الباب، ولكن تأكدوا من أنّه لن..

ينغلق!!

آي!!

لا عليكم! إنها أمسية طويلة ولربما وجدنا المفتاح بشكل ما في نهايتها، أو لربما سمع استغاثتنا أحدهم بالخارج.. لا تحملوا هم الخروج، ولنصغ الآن إلى العجوز (رفعت إسماعيل) وهو يحكي لكم حلقة الرعب الرابعة..

* * *

وراء الباب المغلق

كنا سبعة.. تباينت وجوههم وثيابهم وأهواؤهم، لكننا اجتمعنا في تلك اللحظات التي لا تنسى..

كنا سبعة.. أربعة رجال وثلاث نساء، وحاول الرجال أن يتصرفوا كما يليق برجال مهذبين، لكنّ ظروف الرعب التي مررنا بها جعلتنا نفقد ميراث الحضارة في لحظات، وصارت قواعد اللياقة ترفًا لا يتحمله الموقف..

كنا سبعة.. وهو رقم تفاءلت به الثقافات على أنواعها، لكننا تمنينا للحظة لو ينخفض هذا الرقم قليلًا.. ولهذا أسبابه..

كنا سبعة.. لكنّ الاطمئنان لم يكن ثامننا..

* * *

بدأت القصة في خريف عام 1971..

والفصول في مصر قد تتشابه، وقد تختلط، لكنّ شيئًا واحدًا يميزها هو الرائحة.. رائحة الأسفلت المبتل في الشتاء.. رائحة حبوب اللقاح وزهور البرتقال القادمة من أرض محروثة: هذا هو الربيع.. رائحة العرق ورائحة أنسام الليل الرحيمة في الصيف.. لكن الخريف له روائح عديدة.. سيحدثك التلميذ عن رائحة ورق تغليف الكتب، ورائحة الممحاة في الحقيبة الجلدية الجديدة.. وسيحدثك الموظف عن رائحة (الجوافة) التي لا تفارق الثلاجة.. وستحدثك المراهقة دامعة العينين عن رائحة الحزن ذاتها.. وسأحدثك أنا عن رائحة المساء المبكر..

الخريف! يا لعذوبته.. يا لقسوته!

بدأت القصة في خريف عام 1971..

اتصل بي صديق قديم هو الدكتور (جابر إبراهيم)، يدعوني إلى قضاء سهرة الخميس في داره بـ (المقطم).. قلت له إنني سأمرض يوم الخميس، وإن صحتي لم تعد تحتمل السهر، لكنّ، انفجر ضحكًا:

- «يا (رفعت)! يا لك من مخبول! أنت تعرف أن سهرة في داري لا تعني سوى بعض المناقشات المثقفة الذكية، وربما بعض قطع (الجاتوه) مع الشاي.. لا شيء مما تخاف القدوم لأجله..»

كدت أصارحه أنّ هذا بالذات هو ما أخاف القدوم لأجله.. سيكون هناك كثير من الأوغاد الثرثارين الذين يتكلمون ويضحكون بصوت عالٍ، وكل منهم يحاول أن يبرهن للآخرين أنه بخير وهم ليسوا بخير...

في النهاية قبلت كي أخرسه، وإن كنت أعترف أن أسماء بعض الموجودين بدت لي مغرية بالتأكيد...

نظرت لنفسي في المراة، وقلت:

- «ألن تكف عن الذعر يا (رفعت)؟ متى تصير حيوانًا اجتماعيًا، وقد كاد العقد الخامس من عمرك ينتهي؟»

لكن الإجابة كانت جاهزة لدي:

- «لن أصير حيوانًا اجتماعيًا أبدًا.. فمن رابع المستحيلات أن تلقن كلبًا عجوزًا حيلة جديدة كما يقول الإنجليز..»

ولكن من هو (جابر إبراهيم)؟

* * *

لا أعرف الكثير عن هذا الرجل.. أعترف بهذا..

إنه أستاذ جامعي... يقوم بتدريس الجراحة لطلبة الطب، ولديه عيادة هي نافورة مال في واحد من أرقى أحياء القاهرة - وان أذكر الحيّ طبعًا حتى لا أمنحه دعاية مجانية - وهو متأنق جدًا، ولسبب ما صار من نجوم الإعلام الحقيقيين الذين يندر أن تخلو صحيفة من صورة لهم، ولا بد من أن تراه مرة أو مرّتين أسبوعيًا في التليفزيون..

نشأت بيننا صداقة ما، من طراز سطحي لا يخلو من المجاملة.. إنني رجل كثير المعارف، قليل الأصدقاء كما تعرفون...

ولم أتخيّل قط أن علاقتنا يمكن أن تكون أعمق من هزّ الرأس من على بعد كلما التقينا، وإخبار مرضى تضخم الطحال ـ الذين ينوي استئصال طحالهم ـ أن الجراحة لن تفيدهم بشيء..

فكيف أمضى أمسية عند هذا الرجل؟

لكن الإغراء كان قويًا كما قلت.. فالرجل يملك فيللا في (المقطم) يُقال إنها، أروع منظر يمكن أن تراه في حياتك، وقائمة المدعوين لا بأس بها، تتضمن أسماء مثل (محمود عوني) الكاتب الصحفي الشهير، و(هيام) الممثلة الشابة بارعة الحسن، ومطرب شاب نسيت اسمه يغني مثل (عبد الحليم حافظ) دون توفيق كبير.. لماذا أذهب إذن؟ لأن العمر يمضي، وأنا لم أر كل شيء بعد.. ما زالت هناك أشياء أخرى غير الزومبيين والمذءوبين تحتاج إلى أن أراها قبل أن أغمض عيني في رضا، وأموت..

* * *

وفي الثامنة من مساء الخميس، دخلت سيارتي العتيقة في حياء وتهيب ذلك الممر المحاط بالأزهار عند مدخل الفيللا.. كانت السيارات الواقعة تشي بالثراء ـ حسب مقاييس هذه السنة - وشعرت بالفعل بأن عجلات سيارتي ترتجف في خجل.. لحسن الحظ كنت أرتدي البذلة الكحلية التي تجعلني فاتنًا، وقد سكبت على نفسي نصف زجاجة من (الكولونيا) التي أهدتها لي ابنة أختي في عيد ميلادي العاشر..

فتح لي الباب خادم نوبي يرتدي طربوشا وحزامًا عريضًا من نفس اللون فوق جلبابه الأبيض، وبأدب اقتادني إلى قاعة فسيحة تتناثر فيها الأرائك في فوضى منظمة.. ثمّة موسيقا راقية قادمة من مكان ما أو إضاءة عادية ساطعة كإضاءة حفلات العُرس لا يميزها شيء..

عدد من القوم يجلسون أو يقفون، غارقين في محادثات فاتتني بداياتها بالطبع.. وسمعت من تقول لي في تهذيب:

- «مرحبًا يا د. (رفعت).. أنا (ناهد)..»

استدرت مرتبكًا لأجد سيدة في منتصف العمر، تضع على رأسها جمة صفراء عالية لامعة كأنها من الخزف - وهي المودة في هذا الزمن - وفيما عدا هذا لم تبد لي مجنونة أو بلهاء..

- «أنا حرم الدكتور (جابر).. كيف عرفتك؟ وهل يخفى القمر يا دكتور؟.. أنت اليوم أشهر من نار على علم، ولا يمكن إقامة حفل يضم نجوم المجتمع دون أن تدعى إليه!»

بحثت عن منديلي لأمسح قطرات العرق على صلعتي، وقلت:

- «هذا شرف لي.. وأين هو؟»

ضحكت في مرح ضحكة خنفاء أرستقراطية:

- «بعلي؟ ليس هنا.. ثمّة جراحة عاجلة جعلتهم يستدعونه.. إنّه لا يكف عن هذه اللعبة السخيفة: هجري وحدي دون صديق ولا معين.. لكنه سيعود بالتأكيد.. لا بد أن يعود، فلا دار له إلا هنا..»

وببساطة جذبتني من كم سترتي تقتادني إلى حيث اجتمع عدد من ضيوفها.. وبأناقة كالتي تراها في السينما قاطعتهم وأجرت عملية التعارف:

- «صبرًا يا شباب.. معي ضيف خارق للعادة هنا هو د. (رفعت إسماعيل).. قاهر الأشباح!»

بدا الغباء على الوجوه، فأدركت أن سمعتي لم تصل إلى هنا.. فحاولت أن تساعدهم على التذكر:

- «(بعد منتصف الليل)! البرنامج الرهيب الذي منعته الرقابة! لقد كان د. (رفعت) هو ضيفه الدائم..»

أخيرًا تذكر واحد أو اثنان شيئًا كهذا، لكني لاحظت في ضيق طريقتها في تقديمي، وهي طريقة لم تخل من السخرية.. سخرية خبيثة جدًا يصعب الإمساك بها.. وأدركت أن مظهري صدم هؤلاء القوم.. وأنهم يكتمون في أذهانهم بعض الخواطر الساخرة عن ذوق هذا الدكتور (جابر)..

صعد الدم إلى رأسي، وقررت أن أكون سيفًا باترًا عند أول بادرة تدلّ على التحرش.. من أنتم يا حمقى؟ وماذا تعرفون عن أي شيء كي تعطوا أنفسكم الحق في انتقادي؟!

قالت مدام (ناهد)، وهي تشير إلى مكان خال على الأريكة:

- «هلمّ أجلس يا دكتور (رفعت).. دعني أقدم لك هؤلاء السادة..»

إن هذه الحسناء لا تحتاج إلى تعريف.. لقد رأيت صورتها مرارًا، ولم أنس اسمها.. الممثلة الشابة (هيام) التي لو كان تمثيلها في مستوى جمالها.. لكانت لدينا (سارة برنار) أخرى...

والسبب الذي جعلني لم أنسها ليس مراهقة متأخرة، لكنّها تشبه (ماجي) كثيرًا، خصوصًا عندما تنظر للسقف وتضم شفتيها كأنما تتذكر.. هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أتذكرها جيدًا...

لقد قامت (هيام) بأداء ثلاثة أو أربعة أدوار في أفلام ملونة، لكنّ حال السينما المصرية قبل حرب أكتوبر كان مضطربًا، وكان مصابًا بانعدام وزن وتخلف عقلي واضح، مما جعل من العسير على السينما أن ترى في هذه الممثلة سوى جمالها.. وحقًا كانت (هيام) بارعة الجمال...

أما الشاب ذو النظرات الحزينة والسالفين الطويلين والشامة، والذي يتكلم همسًا وهو يسبل عينيه، فهو المطرب الشاب (سمير الصياد).. وهو قد أوغل في تقليد (عبد الحليم حافظ) حتى أنه يوشك على الإصابة بالبلهارسيا وتليف الكبد مثله.. له أغنيتان علقتا بأسماع الناس، لكني لا أذكر منهما سوى مقطع واحد يقول:

«أنا لو أنساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين»

وذلك بسبب الكسر الواضح للوزن باستعمال (حافتكر) في الشطرة الأولى، ومن العجيب أن أحدًا لم يلحظ هذا أو يهتم له، وكلما أبديت تأففك من هذا، ضحك محدثك في استخفاف وقال: «إنّه غناء على كل حال.. ليس الأمر بهذه الخطورة!».. فتحمر أذناك خجلًا..

أما عن صوت الفتى فكان لا بأس به، ما خلا حشرجة معينة في حنجرته تغريك باستعمال أقرب عصا كي تحاول تسليك حنجرته بها..

ثالث الجالسين هو (محمود عوني).. الكاتب الصحفى الشهير، الذي يرأس تحرير ثلاث صحف واسعة الانتشار.. وهو متأنق يدخن الغليون، ويبتسم في وقار، وقد حرص على أن يطيل سالفيه الأشعثين الشائبين ليعطياه منظرًا غريبًا كقرود (البابون)..

كان كاتبًا لا بأس به، وقد أحببت كتاباته حقًّا، وأعتقد أنه إنسان ذكي.. الغبي بين الكتاب يفتضح أمره سريعًا..

رابعة الجالسين هي الشاعرة (نادية فهيم).. وهي شاعرة في الأربعين تدخن بإفراط.. وتكره الرجال، باعتبارهم اللصوص الذين ظلوا يسلبون المرأة حقوقها منذ فجر التاريخ حتى اليوم..

هذا نمط معروف، ولا داعي للكلام عنه أكثر..

كان هناك كذلك مخرج سينمائي عجوز هو الأستاذ (حسين أبو النجا).. وهو من جيل الرواد كما يقولون، ولم يكف يومًا عن الإخراج - السينمائي طبعًا - لذات الحبكة.. بنت الحارة الشهمة الشجاعة التي يقع ابن الأكابر في هواها، ثم تحاول خطيبة ابن الأكابر منع النهاية السعيدة لهذه القصة.. لقد قدم الرجل مائة فيلم، كلها على مستوى واحد من السوء.. لكن المعجزة التي جعلته يستمر دون أن يموت، جعلته بحق جديرًا بأن يكون من رواد فن السينما، وصار اسمه (المخرج الكبير)..

هؤلاء هم أهم الوجوه، وقد تناثر آخرون من حولنا، لكني لم أميز منهم واحدًا بعينه، وتساقطت الأسماء سريعًا..

بدأت الجلسة متحفظة، ثم دعا أحدهم المطرب إلى الغناء، وتعالت الأصوات ترجوه على غرار (غن يا وحيد)، فراح يتننح في تواضع ويشير لحنجرته بما معناه إنّه لم يستعد..

في النهاية برز عود من مكان ما، وبدأ الرجل يعزف، وانطلق صوته المشروخ يغني.. و.. وبدأ البعض يصفقون مع اللحن..

أعترف هنا أنني بدأت أصفق بدوري، ووجدتني أقهقه في سرور... هذا غريب! في البداية كنت متشككًا مشمئزًا من هذا الجو بأسره مع لمسة تعال لا بأس بها، وفجأة اندمجت وهزمت.. في نفسي تحرك ذات الطفل الموجود لدى الجميع، والذي يسره ويشعره بالفخر أن يجلس مع المشاهير.. حتى دعاباتهم التي - في مكان آخر - كنت سأجدها سمجة مبتذلة، بدت لي هنا جيدة لمّاحة لا تخلو من الذكاء..

راح الفتى يلوح برأسه يمينًا ويسارًا، وهو يردد دون كلل:

«أنا لو أنساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين»
وخطر لي أن مؤلف كلماته أحمق دون شك.. يكفيه استبدال (راح أعرف مين؟) بـ (حافتكر مين؟) لتستقيم الأمور، ولما سمح لواحد مثلي بأن ينتقد ملكاته التأليفية..
دارت المرطبات - فقط لحسن الحظ - ومعها الجاتوه، وحلوى ما في أطباق تشبه ذيول حيوان (الأرماديللو)..

* * *

جلست جوار الأستاذ (محمود عوني) نناقش مستقبل البلاد.. متى تنتهي حالة اللاسلم واللا حرب، وهل لا بد من معركة فاصلة أم لا...
كان ذكيًا بالفعل، وقد قدمت لي آراؤه الكثير من الأفكار الجديدة، إنّه رجل يعرف أكثر بكثير مما يقول.. واحد من (الباصقين فكريًا) لو سمحتم لي بهذا التعبير.. ولاحظت أنه لا يعلن عن آرائه إلا همسًا، وهو يتلفت من وراء كتفيه.. هذا بالطبع يتناسب مع خطورتها..
لا أدري متى ولا كيف جرى بنا الوقت بهذه السرعة؛ لكنني نظرت إلى ساعتي لأجدها الواحدة بعد منتصف الليل..
كان عدد لا بأس به من الحاضرين قد انصرف بالفعل، والغريب أن الدكتور (جابر) لم يظهر بعد.. حفل في داره يوشك على الانتهاء، وبرغم هذا لم نره لحظة واحدة..
ونقلت خواطري للمدام (ناهد) التي كانت واقفة على الباب تثرثر مع رجل أصلع وزوجته التي تدثرت بالفراء على كتفيها..
قالت (ناهد):
- «هذا هو شأن الأطباء.. ألست طبيبًا يا د. (رفعت)؟»
شعرت بالخجل من نفسي لأنني أملك الوقت الكافي الذي أمضيه في حفل كهذا، دون أن أنهمك بجمع المال.. يا لها من فضيحة!
كدت أنهض لأنصرف مودعًا محدثي اللبق، وباقي الضيوف، لكنّ مضيفتنا النصف حسناء رفعت إصبعها السبابة إلى جانب رأسها في حركة أنيقة، وقالت:
- «لا.. لا! انصراف قبل عودة زوجي؟ مستحيل!»
صارحتها بأنني بدأت أميل للاعتقاد بأن زوجها قد توفي للأسف.. وأنني لن أنتظر هاهنا إلى ساعة الحشر بانتظار عودته..
نظرت لي في خبث، ثم نظرت للموجودين، وراحت تعدهم بإصبعها في شرود:
- «واحد.. اثنان.. خمسة.. ستة.. أنا السابعة.. لا بأس!»
ثم بانتصار هتفت:
- «لقد حان الوقت!»
تبادلنا النظرات، وكف المتحدثون عن الكلام، وتساءل سائل:
- «حان الوقت لماذا؟»
- «حان الوقت كي لا ينصرف أحد!»

سألتها في غباء:

- «سبعة لن ينصرف أحدهم؟ ما هذه اللعبة؟!»

اتجهت إلى مركز القاعة، وصفقت بيديها طالبة الصمت، ثم صاحت:

- «يا سادة أنا آسفة على الإزعاج.. لكنّ الحقيقة هي أننا جميعًا محبوسون هنا، وحتّى يعود زوجي.. لقد رحل الخدم وأغلق آخرهم الباب بالمفتاح.. النوافذ في الطابق الأول كلها مدعمة بالحديد.. الهاتف لا يعمل الآن لأن أحدهم عطله من الخارج!!»

هب الكل واقفين، وتعالت الكلمات الغاضبة كما لا بد أن تتخيل..

وصاح المخرج العجوز في عصبية:

- «ما معنى هذا؟ هل هذا مخطط إجرامي؟ أية لعبة هذه؟»

وصاحت الممثلة الحسناء بالهستيريا الواجبة:

- «ربّاه! ماذا تعني هذه المرأة؟!»

تراجعت مدام (ناهد) للوراء خطوتين لتهدئ حماس القوم، وقالت:

- «هذه هي تعليمات زوجي، وأنا هنا سجينة مثلكم.. لماذا؟ لو أنكم جلستم والتزمتم الصمت لاستطعت أن أشرح!»

تبادلنا النظرات، ثم عدنا لمجالسنا متوقعين الأسوأ.

في رزانة سألها الكاتب الصحفي:

- «مدام (ناهد).. واضح أننا في موقف بلا تفسير.. أو أنك تملكين تفسيره الوحيد.. وإننا لنكون مسرورين حقًّا لو قدمت لنا ما يزيل حيرتنا..»

ابتسمت، وجلست واضعة ساقًا على ساق، وقد اعتمدت بمرفقيها على ركبتها، وقالت في هدوء:

- «الأمر يتعلق بلعبة من نوع خاص..»

* * *

- «مرحبًا يا أصدقاء..»

- «أنتم جميعًا تعرفون هذا الصوت دون شك.. إنه صوتي.. لكنّ قليلين منكم يمكنهم ملاحظة الحشرجة التي بدأت تتسرب إلى نبراته.. ربما لم تلحظها سوى (ناهد)، وقلت لها كلامًا كثيرًا عن برد المساء والتهابات الحلق، وأحسبها صدقت ما قلت..»

كان الصوت ينبعث في تؤدة من جهاز التسجيل الذي وضعته مدام (ناهد) على المنضدة الزجاجيّة أمامنا.. ومع دوران الشريط كانت عيناها تتسعان بأهدابها الصناعية الكثيفة.. أدركت دون جهد أنها لا تفتعل شيئًا.. إنها تسمع هذا الشريط للمرة الأولى حقًّا...

كانت قد أحضرت لنا الجهاز، ومعه شريط تسجيل من الطراز العتيق ذي البكرات، وقالت لنا: إن هذه هي الرسالة التي تركها زوجها للموجودين هنا، وأمرها ألا تبدأ التشغيل إلا حين ينخفض عدد المدعوين إلى سبعة بمن فيهم هي ذاتها..

بالطبع وعدته بذلك.. وبالطبع - وإن لم تقل هذا - استمعت إلى الشريط خلسة كي لا تفاجأ بشيء.. الأمر الذي يؤكد لي أن زوجها قد قام باستبدال الشريط قبل أن ينصرف، وبعد ما تأكد من أنها لن تجد وقتًا لسماع هذا الشريط الجديد.. النتيجة هي أنها حائرة مندهشة، تسمع هذه العبارات للمرة الأولى وإن لم تعترف لنا بسبب حيرتها..

ويستمر الصوت من جهاز التسجيل:

- «لو كان الدكتور (رفعت إسماعيل) ما زال موجودًا، فلربما استطاع أن يفهم معنى ما أقول.. إن سرطان الحنجرة يصيب الجراحين كما يصيب سواهم، وسيكون مملًا أن أقول: يا ليتني امتنعت عن التدخين حين كان هذا بوسعي.. لكنّ الأوان قد فات، والبكاء على اللبن المسكوب يزيد الأمور سوءًا..»

هنا شهقت الزوجة، وغطت فاها المصبوغ بأناملها محاولة كتمان صرخة.. واضح تمامًا أنها لا تعرف عن الموضوع شيئًا..

الصوت يستمر:

- «سافرت إلى الخارج، ولم أخبر أحدًا بأنني أعتزم استشارة أساتذة جراحة الحنجرة في الولايات المتحدة، وقد قالوا لي ما كنت أعرفه.. لقد صار العلاج متأخرًا جدًا، ولم يعد من أمل لي إلا في العلاج التحفظي الذي يجعل لحظات الموت أكثر بطئًا..»

ساد صمت طويل بعدها..

كان السؤال الذي يتردد في أذهان الجميع هو: ما علاقة هذا كله بسجننا؟ لو أراد أن يموت فهذا شأنه، لكنّ ما دخلنا بهذا كله؟

عاد الرجل يتكلم بصوته الرصين، الذي بدات أميّز فيه الحشرجة الآن.. (فقط بعد ما قال ذلك، لأنني لست ممن يدعون الحكمة بأثر رجعي):

- «الليلة لن أكون في (مصر).. عندما تسمعون هذا الشريط سأكون في طريقي بالطائرة إلى (الولايات المتحدة) لأؤدي لنفسي آخر حقوقي نحوها، وهو تحصيل حاصل كما تعلمون، لكني مضطر لعمله..

«أسمعكم تتساءلون عن السبب الذي جعلني ألعب هذه اللعبة الغريبة.. أدعوكم إلى حفل ثم أتغيب عنه، وفي الغالب - لو سارت الأمور كما خططت لها - ستجدون أنكم سجناء في داري لسبب لا تفهمونه.. ويمكنني أن أخبركم بما هو أكثر..

«لقد عاد الخدم لديارهم سعداء بهذه العطلة.. أغلق واحد منهم الباب الرئيسي كي لا تتمكنوا من الرحيل، ولم ينس أن يفك بعض الأسلاك في صندوق توزيع الهاتف بالشارع لينتهي احتمال أن تستدعوا أحدًا[1]..

«كل هذا معروف لزوجتي، وبحماقتها المعتادة قبلت أن تشارك فيه لأنني أردت أن أضعكم في اختبار ذكاء لكيفية الخروج من هنا.. لكنّها لم تعتقد ولم تشك لحظة في أن الانتقام هو غرضي

ا
ل



كان الصوت ينبعث فى تؤدة من جهاز التسجيل الذى
وضعته مدام «ناهد» على المنضدة الزجاجية أمامنا ..

وحيد من كل هذا..

«إنني أكرهكم يا سادة! أكرهكم وأكره وجوهكم الكالحة التي تحتشد في داري طمعًا في التسلية، ولو لم يكن وجودكم في حياتي مهمًا للرونق الاجتماعي - مثلكم مثل كلاب (الداشهاوند)، والخيول الأصيلة - لطردتكم شر طردة، أو أبدتكم بأقرب علبة مبيد للصراصير أجدها في يدي!

«لا داعي للضيق! أنا لا أعني بكلامي واحدًا بعينه منكم.. فلا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) من هم السبعة الذين تبقوا منكم في هذا الحفل.. وإنني لأتساءل..

«ترى هل بقي (عادل زكي)؟ تبًا له من منافق لص.. أنا أعرف جيدًا كم يكرهني وكم يلسن عليّ خلسة.. لكنّ الأقنعة التي علمنا المجتمع ارتداءها محكمة جيدًا، متقنة للغاية.. الآن وقد جاءت لحظة الحقيقة يسرني أن أعاقبه بطريقتي..

«ترى هل (سلوى عامر) هنا؟ كنت طيلة حياتي أمقت هذه المتصنعة المبتذلة التي تتظاهر بحبها للأدب.. إنها أغبى من القملة وأكثر خسة منها..

«هل المخرج الأحمق ضيق الأفق (أبو النجا) هنا؟ أنا أعرف جيدًا دناءته، وتلاعبه بالوجوه الجيدة، وأعرف أكثر من سواي أنه يكرهني..

«هل؟ هل؟ لن أعرف أبدًا..

«لكني متأكد من شيء واحد.. زوجتي هنا.. مهما كانت شخصيات الستة.. فلا بد أن (ناهد) هي السابعة..

«(ناهد) هي نموذج جيد للزوجة التي تصنع زوجها.. تصنعه عن طريق تعذيبه وإرغامه على أن يغرق همومه في العمل ومزيد من العمل.. إنها صنعتني بالطريقة التي تصنع بها الكلاب المسعورة بطلًا في العدو! وطيلة حياتي لم تكف عن إشعاري بالفشل، وبأنني منحتها أقل بكثير مما تستحق.. ما إن بدأ الثراء يدق بابي حتى قررت أن ترقي نفسها إلى طبقة جديدة، وسرعان ما تحول (أبويا) إلى (بابي)، و(أمي) إلى (مامي) بمعجزة ما..

«لقد انتحلت شخصيّة سيدة مجتمع، وقررت فجأة أنني غير جدير بها؛ لأن مثيلاتها يمشين على الذهب ويرفلن في الحرير في ظروف أخرى مع رجال آخرين.. وأصارحها أن مثيلاتها يضربن بالسياط يوميًا لو كان أزواجهنّ أكثر حزمًا مني!

«شخص واحد هاهنا لا أحمل له ضغينة معينة، وأرجو أن يسامحني لو كان لم ينصرف بعد.. د. (رفعت إسماعيل): هل أنت هنا يا دكتور؟

«أنا لا أكرهك بالتأكيد.. ربما كنت لا أطيقك، لكنّ هذا موضوع آخر.. أنت كائن فضائي عجيب، وما زلت أندهش كلما رأيت قامتك الناحلة، وكيانك المريض، والملل يطل من عينيك وراء عويناتك السميكة...

«حقًّا هذا لا يبرر الانتقام منك.. لكني كنت بحاجة إليك كما يحتاج أي حساء إلى ملح.. إلى توابل..

«أنت تعرف الكثير عن عالم الرعب والأسرار المستغلقة - أو هكذا يقولون - وإن لدى هاهنا كثيرًا من الرعب الذي يحتاج إلى وجودك..

«سامحني يا زميلي على ما قد تسببة لك هذه الأمسية من متاعب، واشكرني على ما قد تضيفه إلى خبراتك الرهيبة..

* * *

«إن قواعد اللعبة هي البساطة ذاتها، وقد استمددتها من كل أساطير الباب المغلق في تراث الإنسانية..

«أنتم هاهنا سجناء.. لا.. لا تحاولوا الهبوط من الطابق الثاني لأنني أغلقت الباب الرئيسي الذي يقود إليه، وأبواب الفيللا غير قابلة للتحطيم.. ربما الشيء الوحيد الذي سيتحطم هو عظامكم لو حاولتم اغتصاب باب منها..

«على أنني تركت ثلاثة أبواب موصدة في الطابق الأرضي.. ثمّة باب واحد يقود إلى الخلاص، وبابان يقودان إلى الهلاك التام لكم، ولن أقول كيف طبعًا..

«الباب الأول: هو الباب الذي يقود إلى غرفة مكتبي.. الباب الثاني: هو الذي يقود إلى غرفة المعيشة الصغيرة.. الباب الثالث: هو الذي يقود إلى غرفة السينما.. إن (ناهد) لم يكن عندها وقت لدخول هذه الغرف قبل الحفل..

«تشاوروا بعناية، واختاروا.. ثم افتحوا الباب الذي اخترتموه ولا تندموا على قراركم هذا.. سيكون الهول شديدًا لو كان قرارًا خاطئًا، ولسوف تظفرون بميتة تكتب عنها الصحف شهورًا بعد هذا..

«إن هذا الموقف هو ببساطة تمثيل دقيق لحياتنا كلها.. ثمّة باب قد يقودك إلى المجد والخلود، وباب قد يقودك إلى الهلاك الأبدي.. المشكلة هي أن تحسن الاختيار.. المشكلة هي ألا تختار الباب الخطأ أبدًا.. لا أدري كيف.. هذه هي أزمتنا جميعًا.. أنا قد اخترت بابي، وظفرت بسرطان في الحنجرة، وحقد لا ينتهي على الأدعياء مثلكم.. ترى ماذا تختارون أنتم؟!

«إن فرصتكم واهية لكنّها ليست معدومة.. سبعة عقول لا بد أن تصل للإجابة الصحيحة، حتى لو كانت عقولًا كعقولكم..

«وهنا يسأل سائل: لماذا رقم سبعة بالذات؟

«سؤال جيد وأنا أحب الأسئلة الجيدة..

«لقد كان رقم (سبعة) شديد الأهميّة في حياتي، وتركزت كل أحداثها المهمة حول رقم (سبعة) هذا، ومن الغريب أن أحدًا لم يندهش لكوني ولدت في اليوم السابع من الشهر السابع من عام 1917.. ربما في الساعة السابعة مساء كذلك...

«إن رقم (سبعة) شديد الأهميّة في الأديان، وشديد الأهميّة في قصص الشعوب.. وقد ظل رقم (777) يمثل الكمال المطلَق في وجدان البشريّة منذ زمن سحيق..

«لهذا قررت أن أمارس لعبتي على آخر سبعة حمقى يبقون في داري بعد ما يرحل الجميع..

«أعرف أنكم ستشيعونني باللعنات، وسوف ينهال سبابكم على رأسي، لكني أخرج لكم لساني بلا حرج، وأقول: إنني لا أعبأ بما تقولون؛ لأنني سأكون في قبري قريبًا، لا أهتم بشيء سوى ما أنا فيه..

«وداعًا يا سادة، وأتمنى لكم اختيارات موفقة!»

* * *

ظل الشريط يدور بلا صوت سوى صوت البكرة الرتيب، وفي النهاية تحرر الجزء الأخير الشفاف ليلحق بما سبقه..

كنت أنا أول من تكلّم:

- «صديد! هذا الرجل قد ضغط على (دمل) في روحه ليلوث كلماته بكل هذا الصديد..»

وقال الأستاذ (محمود عوني) وهو يشعل غليونه:

- «زوجك يا سيدتي مجنون تمامًا، ومن الغريب أن أحدًا لم يلحظ هذا، برغم أن (جنون العظماء لا يمرّ دون تعليق)، كما قال (شكسبير)..»

كانت في أسوأ حال ممكن، ولم تكن على استعداد لسماع العبارات المكررة السخيفة على غرار (إنّه مجنون يا سيدتي) و(يا للهول!) وما إلى ذلك..

الآن كان كل واحد منا يحتج بطريقته.. الممثلة تحتج بكثير من الهستيريا، مع بعض العبارات التي صارت تفلت منها، ولا تدلّ على أصل شديد الرقي للأسف.. المطرب يمد يديه في حيرة وعدم فهم تمثيليين كأنما هو يوشك على غناء أغنية عاطفيّة، ولسان حاله يقول: أنا لا أستحق هذا.. أمّا الصحفي الكبير فقطب جبينه بما معناه: لنكن عقلانيين بعض الشيء...

الشاعرة الغاضبة ازدادت كثافة وسرعة تدخينها، وراحت لفافة التبغ تهتز بين أناملها منذرة بزلزال عصبي، وراحت تقول عبارات من نوع (هذا لا يليق بنا).. (دعابة سخيفة من إنسان ظنناه على قدر ما من النضج)...

سألتهم وقد قررت أن أجلس:

- «من منكم أخبر الآخرين أنه هنا؟»

تبادلوا النظرات.. أخيرًا قال المطرب وهو يتحسس شامة جبينه:

- «إن طبيعة حياتنا الاجتماعية تجعل من المستحيل التنبؤ بميعاد معين نعود فيه لديارنا..»

هذه هي المشكلة إذن.. كل هؤلاء أشخاص من الممكن جدًّا أن يبيتوا خارج ديارهم، ولن يندهش أحد لغيابهم...

سألت الكاتب الصحفي الذي أعرف أنه يعيش حياة اجتماعية مستقرة قوامها الالتزام:

- «هل تعرف المدام أنك هنا؟»

نفث المزيد من دخان الغليون، وقال:

- «للأسف لا.. إنها مع الأولاد في (العجمي) هذه الليلة بالذات.. ولا تعرف أنني هنا..»

- «في (العجمي) في (أكتوبر)؟!»

- «إنها تعشق إسكندرية في الشتاء!»

هنا سألني المخرج العجوز بنفاد صبر:

- «وأنت يا د. (رفعت)؟ ما هي ظروفك؟»

ابتسمت في حزن:

- «أنا؟ إنني آخر إنسان يمكن أن يسأل عنه أحد أو يتساءل عن سبب غيابه.. إن موتي سيضايق جيراني لأسباب تتعلق بالرائحة لا أكثر!»

وطبعًا لم يكن من داع لسؤال السيدة (ناهد).. فالوحيد الذي يمكن أن يقلق عليها هو زوجها... زوجها الذي هو في طريقه الآن ليموت بـ (الولايات المتحدة)..

الحقيقة هي أننا في مأزق لا بأس به.. لكنّ هل هو مأزق حقًّا؟

* * *

نهضت (هيام) في هستيريا وعصبية متجهة نحو أحد الأبواب في طرف القاعة، وهي تصيح:
- «دعونا نخرج من هنا! إن هذه اللعبة بدأت تثير أعصابي.. لا أحب أن يتسلى أحدهم بي..»
لكنّ (ناهد) لحقت بها، فاعتصرت معصمها في عصبية أكثر، وهمست من بين أسنانها:
- «اهدئي يا (هيام).. هذا هو باب غرفة السينما.. وهي من الغرف التي تكلّم عنها الآن!»
- «لا يهمني ما يقول هذا الأحمق.. سأخرج الآن و.....»
- «**اهدئي!!**»
دوّت صرخة (ناهد) المنذرة المخيفة، وأدركنا أنها على حافة الانهيار بدورها.. ورأت الفتاة أن فتح الباب قد يكون خطرًا وقد لا يكون.. لكنّ الخطر الحقيقي الداهم هو (ناهد) التي تحولت إلى نمر شرس، وكان العرق مع الدموع قد غمر وجهها، وسال كل الطلاء الذي دهنت به سحنتها، فبدت كأحد محاربي (الأباش) بعد ما سلخ رأس الجنرال (كاستر).. منظر مخيف فعلًا..
سألتها في فضول علمي بريء:
- «غرفة سينما؟ هل لديكم غرفة سينما؟!»
أخذت شهيقًا عميقًا، وتراجعت عن الباب، وقالت في ملل:
- «لدى زوجي آلة عرض للهواة من طراز 16 مم.. وهو يهوي مشاهدة الأفلام في هذه الغرفة.. ليست سينما بالمعنى الصحيح، لأن أكثر الأفلام الروائية هي مقاس 35 مم...»
دعوتها إلى الجلوس، ثم طلبت منهم أن يلتزموا الصمت، كي نناقش بنظام ودون هلع موقفنا غير المعتاد هذا.. لست من هواة استعمال اللغات الأجنبية، ما دام في العربيّة ما يقابلها، لكني رحت أردد مرارًا بالإنجليزية (Don't Panic).. لأن لفظة (Panic) الإنجليزية تعبر بدقة عن الهلع الذي يسلبك القدرة على التفكير، والذي يجعل رواد السينما يتدافعون على الأبواب ويهشمون بعضهم البعض؛ إذا شموا رائحة دخان.. ولسبب كهذا تصمم أبواب قاعات المؤتمرات والمسارح بحيث تنفتح إلى الخارج لا الداخل..
قلت لهم محاولًا أن أكون باردًا عقلانيًا:
- «كما ترون نحن في وضع غير مسبوق.. ما زلت أشعر أن في الأمر مزحة أو دعابة ما، الغرض منها اختبار أعصابنا..»
- «مستحيل!»
كانت هذه من الزوجة التي قالتها دون أن ترفع عينيها، واعتصرت قدح الشاي بين يديها في عصبية، وغمغمت:
- «لو كنت تعرف زوجي لعرفت أنه لا يمزح.. وعندما يقول إنّه ينوي هلاكنا فلك أن تثق في هذا!»
- «هذا هو فصل الخطاب..»

وصببت لنفسي بعض الشاي من البراد الخزفي الأنيق.. كان قد يرد تمامًا.. لكني كنت بحاجة إليه.. وأردفت:

- «حسن.. يمكننا إذن أن ننطلق من فرضية ثابتة، هي أنّ هذا الموقف حقيقي.. وهو في رأيي لا يخلو من تشابه مع مواقف شهيرة في الأدب العالمي.. إن من يخطب الحسناء (بورشيا) في مسرحيّة (تاجر البندقية) عليه أن يختار واحدًا من ثلاثة صناديق.. الصندوق الأول من الذهب.. الثاني من الفضة.. الثالث من الرصاص.. وفي أحد الصناديق تنتظر صورة الحسناء..»

بالطبع يقع كل خطاب (بورشيا) في خطأ أحمق.. إذ يفترض كل منهم أن صورة حسناء كهذه لا بد أن توجد في صندوق من ذهب أو فضة.. فقط بطل المسرحية هو الذي يفطن للمغزى الأخلاقي للموقف، ويختار الصندوق المصنوع من رصاص.. وبالطبع كان هو الصندوق المطلوب..

- «أتذكر أيضًا.....»

في غيظ قالت (هيام):

- «وحياة والدك لسنا الآن في ندوة ثقافية..»

كتمت خواطري وصمت.. وكنت أوشك أن أحكي قصة (ستوكتون) الشهيرة عن الباب الذي تنتظر أميرة جميلة خلفه، والباب الذي ينتظر نمر شرس خلفه.. وعلى الأسير أن يختار أحد البابين.. المشكلة هي أن (ستوكتون) لم ينه القصة قط.. بل أعلن أنه عاجز تمامًا عن إنهائها، لهذا يفضل الانسحاب، تاركًا الأمر لخيال القارئ!

قال الأستاذ (محمود) وهو يعيد حشو غليونه:

- «بل الموقف يحمل روائح من مئات القصص في التاريخ، ومنها قصة ذي اللحية الزرقاء الذي أهدى زوجته قصرًا به مائة غرفة، لكنه أمرها ألا تفتح الغرفة المائة.. النتيجة هي أن الزوجة صارت حياتها جحيمًا، ما الذي يوجد في الغرفة المائة؟!»

- «إن قيمة الباب المغلق عتيقة راسخة في وجدان الإنسان، ربما منذ اخترع الباب.. وها نحن أولاء نواجه الموقف ذاته بوضوح وفجاجة لم يسبق لهما مثيل..»

ونظرت إلى العيون من حولي، وابتلعت ريقي، وقلت..

- «السؤال هنا هو: ما الذي نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ؟»

سأل الأستاذ (محمود) الزوجة في رفق:

- «هل زوجك يفهم شيئًا في المفرقعات؟»

ابتسمت ابتسامة مريرة بزاوية فمها، وغمغمت:

- «هل تمزح؟ بالطبع لا..»

- «وهل هو بارع في الأعمال المنزليّة؟»

- «كان! لكنّ وضعه الاجتماعي وانشغاله لم يعودا يسمحان له بإصلاح صنبور المطبخ، أو تركيب كشاف من (نيون) لو كان هذا ما تعنيه.. على كل حال أنا لا أثق في قدرته على عمل شيء بالشكل الصحيح..»

قلت في لهجة ذا مغزى:

- «هذا هو بالضبط ما جعله يضعك في قائمة الانتقام هذه.. يبدو أنه تحول بالنسبة لك إلى آلة لجمع المال لا أكثر..»

رشفت رشفة من قدح الشاي الذي تمسكه بكفيها معًا، وقالت:

- «الحق ما تقول.. أحيانًا كنت أتمنى ألا يعود إلى الدار.. فهذا يضيع بعض وقت جمع المال.. ربما كان من الأفضل أن يرسل ما يكسبه إلى الدار بحوالة!»

ابتسمت.. فلم أتوقع هذه الصراحة منها..

وكانت هذه ـ مع انهيار (هيام) - هي النوادر الأولى لما سيتكرر كثيرًا في هذه الليلة السوداء: انتزاع أقنعة الحضارة واحدًا تلو الآخر.. الظهور دون أي قناع اجتماعي من أي نوع..

حقًا هي تجربة فريدة..

* * *

من جديد تساءل الأستاذ الكبير:

- «ما الذي نتوقعه لو فتحنا الباب الخطأ؟»

- «لن نعرف أبدًا.. لكنّ الحلول السهلة مثل نمر حبيس، أو بعوض يحمل الحمى الصفراء، أو قنبلة تطيح بنا؛ كلها تبدو خياليّة جدًا وبعيدة جدًا..»

- «إذن هو يمزح..»

- «مستحيل!!»

من جديد قالتها الزوجة في ثقة، وكررت مسلمتها الشهيرة:

- «زوجي لا يمزح أبدًا..»

قلت أنا وأنا أضع قدح الشاي:

- «ليكن.. علينا الآن أن نختار ما بين البقاء هاهنا، أو تجربة أحد هذه الأبواب.. والسؤال هو: أي باب؟!»

تبادلنا النظرات.. حقًّا لم يكن هناك من يملك الإجابة.. باب مكتب.. باب غرفة السينما (وهو موحٍ بشيء ما).. وباب غرفة المعيشة الصغيرة.. كلها أبواب كأية أبواب أخرى، ولا يميزها شيء.. وفي ثقب مفتاح كل باب منها استقر مفتاح بريء المظهر فاخر إلى حد مستفز... كأنما يدعونا بصمت إلى الدخول..

ساد الصمت برهة (والبرهة كما يقول اللغويون فترة طويلة من الوقت، لا كما هو شائع.. الهنيهة هي ما يعبر عن الفترات القصيرة).. ثم تكلّم الأستاذ الصحفي في تؤدة، وكان ما قاله معقولًا:

- «لننفعل أي شيء.. سننتظر.. وحتمًا سيبحث أحدهم عنا.. سيجئ واحد من مكان ما.. بائع.. محصل كهرباء.. ضيف.. ولسوف يقرع الجرس عندها.....»

صاحت (هيام):

- «لكنّ هذا يحتاج إلى وقت.. على الأقل لن يحدث قبل شروق الشمس..»

- «وما هي المشكلة؟ نحن هنا مستمرون في حفلنا البهيج نتبادل مناقشات ممتعة.. البيت ملىء بالطعام والشراب.. حتى الطرب موجود هاهنا..»

وأشار في مماحكة إلى المطرب، فابتسم هذا في عصبية..

قلت وأنا أخلع سترتي:

- «لا بأس.. يبدو لي هذا حلًا مناسبًا بالنسبة لأشخاص لا يسأل عنهم أحد، ولا يهم أين يبيتون هذه الليلة..»

وبدأت الجلسة الثانية لنا..

حقًا لم يكن المرح ثامننا في هذه المرّة..

كانت هناك دعابات لكنّها مخنوقة خجول، وحاول المطرب أن يدندن شيئًا ما.. لكنّ مزاجه كان متعكرًا بحق.. هؤلاء المطربون الجدد لا يمكن لشيءٍ أن يمنعهم من الغناء سوى القنبلة الهيدروجينية، ومعنى صمته هو أن ما نمر به هو بحق كارثة..

في النهاية هبطت موجة المرح كما ارتفعت، ولم يبق من البحر سوى سطح راكد قلق صموت..

وبمرور الوقت تحررنا من وقارنا أو نسيناه.. نزعت (هيام) حذائيها، ووضعت ساقًا تحتها وهي جالسة، وفك الأستاذ الصحفي ربطة عنقه، على حين نسي المطرب التعبير الولهان الأسيان على وجهه، وبدا أكثر مرضًا وأقل رقة، حتى توقعت أن تنزع مدام (ناهد) جمتها الصفراء الثقيلة كي تريح رأسها قليلًا، أو يمد المخرج العجوز يده في فمه ليخرج طاقم أسنانه ويلقيه في كوب الماء أمامي..

كانت مدام (ناهد) أكثرنا راحة طبعًا، فهذا بيتها.. لهذا نهضت مرارًا، وغسلت وجهها، وعادت لنا أكثر من مرة حاملة شيئًا يؤكل أو يشرب.. ثم تجرأت أكثر فأعلنت:

- «من يرد استعمال الحمام يمكنه هذا..»

وكانت هذه هي جملة الخلاص لنا.. لحسن الحظ أن زوجها المخبول لم يضم باب الحمام إلى القائمة.. لن نموت باحتباس بولي على الأقل...

بدأت (هيام) تغفو بعد كل الطاقة الهستيريّة التي بذلتها، فأراحت رأسها على كتف الشاعرة، وغابت عن الوجود، وهنا نهضت (ناهد) فجلبت غطاء صغيرًا من (التريكو) فرشته على ركبتيها.. وعادت للجلوس..

قلت وأنا أتأمل الأبواب في شرود:

- «الرعب خلف باب مغلق.. لقد جربت هذه القصة مرارًا.. وكانت آخر مرة في (رومانيا) في كهف مظلم.. كان الباب يقود لعالم شيطاني يسموّنه (جانب النجوم) منه يجيء مصاصو الدماء إلى عالمنا!»

- «هراء!»

قالتها الشاعرة في اشمئزاز، وأشعلت لفافة تبغ أخرى..

لم أعلق لأن الجدل مع هذه السيدة مضيعة للوقت.. أحيانًا يكون من الذكاء ابتلاع الإهانات.. خاصة إن لم ينتج هذا عن ضعف..

قال الكاتب الصحفي:

- «ما من أحد منا إلا وكانت له تجربة رهيبة مع باب مغلق... الباب الفاصل بين عالمين.. بين الجهل والمعرفة.. بين الرعب والتوجس.. بين الانتظار ونهاية الانتظار...»

نظرت إلى الجالسين، وقلت:

- «هذه فكرة لا بأس بها لتمضية الوقت.. لم لا يحكي كل منا قصته مع الباب المغلق؟!»

- «ربما لا توجد قصة..»

- «أشك في هذا.. من يدري؟ إن عدم وجود قصة هو قصة مسلية في حد ذاتها..»

تساءل المطرب الصاعد، وهو يضع عوده جانبًا، كأنه (معبد) وقد فرغ من تعليم المقامات الـ (دنانير):

- «ما جدوى هذا؟»

قلت وأنا أنزع حذائي لأتربع على الأريكة:

- «جدواه ألا يشعر بمرور الوقت أولًا.. جدواه أن نزداد حكمة ويتسع خيالنا.. جدواه لي أن أعرف أكثر.. ظننت هذا السؤال لا يجيء من فنان، وقد امتلأ العالم بمن يشكون في جدوى الفن أصلًا..»

ولكني في سرى لم أجرؤ على اعتبار هذا الفتى فنانًا.. الفن كما أفهمه شيء أكثر رقيًا وشفافية ونورانية.. الفن هو ما يصنعه (رينوار) و(فان جوخ) و(صلاح طاهر) و(موتسارت) و(عبد الوهاب) و(لورانس أوليفييه) و(محمود مرسي)..

نقطة ثانية لا تخلو من الحذلقة: (الفنان) هو الحمار الوحشي في اللغة العربيّة، أمّا ما نعنيه هنا فهو (المُغن).. وهو نموذج آخر للخطأ الشائع حين يصير هو الصواب الوحيد.. ويحتاج الأمر إلى شجاعة غير عادية كي تكافحه...

قال المخرج العجوز:

- «ليكن.. إن الفكرة تروق لي، وربما ألهمتني بعض أفكار جديدة!»

(أدعو الله ألا يحدث هذا، وإلا كانت سهرة مملة حقًّا).. قلتها في سري، ثم طلبت أن يبدأ السرد من سيبدأ..

- «ومن يبدأ؟»

في تواضع قال المخرج وبلهجة من ينتظر تزلفًا مماثلًا:

- «لو كان بالأكبر سنًا فهو أنا.. ولو كان بالأكبر مقامًا فهو الأستاذ (محمود عوني)!»

قلت دون أن أوجه له أية مجاملة:

- «إذن يُمكنك البدء يا (سمير)!!»

* * *

وهكذا دارت حلقة الرعب الرابعة.....

ترى كيف دارت؟!

* * *

الباب الأول:
موعد مع الأستاذ



الباب الأول

« موعد مع الأستاذ »

يفتحه : «سمير الصياد»

«هذه القصة لن تنتهي إلا بنهاية من اثنتين :
إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كي يصل إلى إلهامه، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ!»

- ١ -

راح (سمير الصياد) يلهث، ويشهق وقد سبل عينيه، ممعنا في التهافت كعادته.. وكأنما يقلد (عبد الحليم حافظ) في أفلامه القديمة، حين كان يصارح محبوبته بأنه مريض بمرض مميت..
قال وهو ينظر للسقف:
- «قصتي مع الباب المغلق؟ يا لها من قصة!»

* * *

بيت الأستاذ (عزت عبد الحميد)..
كنت واقفًا هناك أمسح حذائي، في مؤخرة ساقي سروالي، وترتجف يدي في عصبية على العود، وبصعوبة أتمالك أعصابي..
لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أجيء فيها إلى هذه (الفيللا) الفاخرة في حي (الزمالك).. لقد جئت هاهنا مرارًا.. اشتريت أكثر من رغيف (طرب) من الكبابجي الذي يقع محله في بداية الشارع، وأمشي حالًا حتى (فيللا) الأستاذ لأقف في الظلام وسط غطاء أوراق الشجر.. ألتهم (الطرب) وأشعر به ينفذ إلى روحي مباشرة.. فأحلم.....
أمضي ساعة أو بعض ساعة في المكان ذاته، ثم أرحل مدندنًا بالأحلام، وقد اكتسى كتفا قميصى بفضلات الطيور التي تغفو بكثافة فوق الأشجار..
(طرب) و(طيور) و(موسيقا).. يا له من مزيج جميل! لقد قضيت معه أعوامًا، وفي روحي امتزج مذاق (الطرب) بأعذب الألحان..
لكن هذه هي المرّة الأولى التي أجئ فيها لبيت الأستاذ (مدعوًا)..

* * *

كانت بدايتي هي بداية أي مطرب شاب.. نشأت في قرية قرب (الدلنجات) بالبحيرة، ومنذ طفولتي قيل لي إن صوتي يمتاز بشيء ما..
وفي العشرين من عمري بدا أنني لن أصلح لشيءٍ إلا أنّ أكون مطربًا، ونزحت إلى (القاهرة) لأدرس الموسيقا، وأقيم في فندق رخيص من فنادق القباقيب إياها..
اشتركت في عدة حفلات، ووقعت في أكثر من قصة حب كنت أنهيها دومًا - حين أملها - بأن أصارح المحبوبة بأنني مريض بالسرطان، وأغنى لها في شجن:
- «كنت أتمنى يطول العمر، وأعيش لياليه»
ثم أنصرف دامعًا وهي دامعة، لأشتري شطيرتي فول من (مسعد)، وألتهمهما في العشاء، ثم أنام قرير العين، أفكر في حب جديد!
رباه! لقد كانت أيامًا جميلة..

على أن أكثر من قائل صارحني بأنني أضيع شبابي بحق.. صوت جميل كصوتي يستحق أن أكرمة بلحن جميل أو أجمل.. لم يكن لديَّ ملحن سوى واحد من سني يُدعى (عباس)، ولم يكن واعدًا جدًا..

ونصحوني بأن أحاول الاتصال بالأستاذ (عزت عبد الحميد).. فهو يجيد تلميع المواهب الجديدة وصقلها.. ثم إنّه متهاود في أسعاره مع الشباب ولطيف المعشر كما قالوا..

حصلت على رقم الهاتف مذهولًا مبهور الأنفاس، وحاولت مرارًا أن أحصل على موعد، لكنه كان يصغي لي ببرود، ثم يقول عبارته الشهيرة: (ربنا يسهل) أو يعتذر في تهذيب أو غلظة..

ذات مرة طلب مني أن أنشد في الهاتف مقطعًا من أحد الموشحات، ولم أكن مستعدًا له.. بعد ما أصغى إليّ غمغم شيئًا عن عدم حاجته لأكل البيضة كلها كي يعرف أنها فاسدة..

لكني لم أيأس، ولم أقنط...

وفي النهاية وافق على مقابلتي في تمام العاشرة مساء ذلك اليوم السعيد...

* * *

نزلت من سيارة الأجرة - وكنت في حاجة لذلك، لأن العود معي - ملهوفًا متلاحق الأنفاس، ورحت أرمق الفيللا، الجاثمة في الظلام كأنها المجد ينتظرني..

دنوت من البوابة الحديدية فقرعت جرسًا، ونظرت إلى ساعتي.. إنها العاشرة وخمس دقائق.. تبًّا! شعرت في لهفتي أنّ هذه الدقائق الخمس قد تكون السبب في انهيار مستقبلي الفني..

جاء بواب لا يرتدي الجلباب ففتح لي الحديقة، وكانت هناك كلبته تحاول الوثب لتمزيق أحشائي، لكنه منعها في رفق، واسمها كأية كلبة تحترم نفسها هو (توسكا).. لا بد أنّ هناك قانونًا يمنع تسمية إناث الكلاب باسم آخر..

اجتزت المدخل الذي تم رصفه بقرميد صغير ملون، وتناثرت على جانبيه مصابيح سوداء أنيقة، كمصابيح الشوارع لكنّها أجمل بالطبع..

شعرت بضآلة حقيقيّة.. ترى كم أغنية ناجحة يجب أن أقدم قبل أن أمتلك ثمن ثلاثة عواميد من هذه؟

هنا رأيت من يمشي بين النباتات خارج المنزل، ودنوت منه فعرفته على الفور.. إنّه الأستاذ بشحمه ولحمه كما اعتدنا أن نراه في كل وسائل الإعلام.. أنتم تعرفون منظره المهيب دون شك.. الشعر الأبيض الناعم المنساب كخيوط الفضة.. النظرة (اللوردية) الأرستقراطية من وراء العوينات... الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن.. ربطة العنق التي يرتديها بكامل أناقتها تحت روب قصير براق..

فما إن رآني حتى وقف ويداه في جيبي الروب، وغمغم بانبهار:

- «(سمير).. (سمير القرموطي).. أليس كذلك؟»

احتبس الكلام في حلقي، فأشرت لصدري في بلاهة أنه أنا..

قال في وقار، وهو لا يكف عن تأمل وجهي بفضول:

- «هذا ليس اسمًا فنيًا.. (سمير الصياد).. هذا هو اسمك الجديد.. لم نبتعد عن البحر والقراميط كثيرًا!»

وطوح برأسه للوراء وانفجر في قهقهة معدنية مجلجلة كما يظهرون بشوات ما قبل الثورة في السينما.. وقبلت أنا في كثير من التواضع والحياء عملية تبديل اسمي التي لا دخل لي فيها...

ولحقت به إلى داخل الفيللا، بينما هو يتكلم في حرارة:

- «كنت أعني بزهوري.. أنت لا تتصور حساسية البنفسج لهذا الجو الذي نمر به.. ثم إنني كتبت لك لحنًا لا بأس به، وكنت أعتزم أن أضع عليه لمساتي الأخيرة في ظلام الحديقة..»

ثم - دون تحفظ - راح يدندن بصوت عالٍ:

- «را تاتاتارا را را تين.. را تاتاتارا را تين..»

وصمت قليلًا.. ثم قال:

- «أنا لو انساكى حافتكر مين؟ من بعد هواكي حياتي أنين.. هذه هي الكلمات التي تصلح لهذا الوزن.. سأقترح عليك اسم شاعر مناسب من يجيدون تركيب الكلمات على الألحان لا العكس.. وهو سيكمل لك القصيدة إلى آخرها..»

وكان هذا هو ميلاد أغنيتي الجديدة، التي اشتهرت بها لأول مرة في حياتي..

كيف كان حالي في هذه اللحظات، ومع هذه المودة الزائدة؟ طبعًا يمكنني أن أوفر هذا العناء على نفسي.. كنت ذاهلًا فاقد النطق تقريبًا.. لقد اختارني الحظ فجأة كي يقدم لي كل شيء، ولا أعرف التفسير..

* * *

كانت غرفته كما تخيلتها بالضبط بلا زيادة ولا نقصان...

يوجد أكثر من عود مزدان بالعاج على الحوائط، مع صورة عملاقة له وهو يبتسم في غموض... صورة لم أحسب قط أن حجمها ممكن.. كما أنّ هناك حوالي خمسة أجهزة تسجيل من ماركات مختلفة، وبعض نباتات الظل أمام نافذة عملاقة تحتل جدارًا كاملًا، ولا يظهر منها الآن سوى سواد الليل تنتثر فيه أضواء الحديقة..

قال لي وهو يجلس واضعًا ساقًا على ساق:

- «مشكلتك أنك تقلد (عبد الحليم حافظ) أكثر من اللازم.. وهذا لن يقودك لأي مكان لأن الأصل موجود وفعال.. عليك أن تتميز ولا تمتاز.. عليك بالبحث عن طابع جديد..»

وهنا دق جرس الهاتف، فرفع السماعة وراح يتكلم مع أحدهم في عبارات سريعة مقتضبة لم أفهم منها الكثير..

اختلست النظر إلى الحجرة من حولي.. كان حجمها هائلًا يذكرني بدوار العمدة في قريتي، لكنّ بابا ضخمًا كان ينتظرني في الركن.. ولا أدري سبب ذلك، لكني لم أستطع إبعاد عيني عنه...

انتهت المكالمة، فوضع السماعة وشرد بذهنه بعد هنيهة قال وهو يمتص إبهامه:

- «هذا (عادل شفيق) يريد تعديلًا في لحن أغنيته الأخيرة..»

بانبهار الأغبياء صحت:

- «الأستاذ (عادل شفيق) شخصيًا؟ المطرب؟»

ابتسم في سخرية:

- «طبعًا يا بني.. لا حاجة لي إلى معرفة طبيب أسنان بهذا الاسم.. أرجو أن تمهلني لحظة..»

ونهض في تؤدة متجهًا إلى ركن القاعة، حيث كان الباب الخشبي الضخم الذي لم تفارقه عيناي..

فتحة، وللحظة رأيت ضوءًا أحمر غريبًا يخرج من ورائه، وفي اللحظة التالية كان الباب قد انغلق وجلست وحدي..

وضعت العود الخاص بي على الأريكة، ورحت أتأمل المكان.. لشد ما تمنيت رؤية عملية الخلق لدى هذا الرجل العظيم.. يقول من يعرفون (محمد عبد الوهاب) إنّه لا يكف عن الزوام كالقطط في سرّه، من فرط الألحان التي تحتشد في ذهنه.. ويقول من عرفوا أمير الشعراء (أحمد شوقي) إنّه دائم الشرود، وكثيرًا ما يخرج علبة التبغ ليدون عليها بخط صغير بعض أبيات أتاه وحيها فجأة..

ترى ما هو دور الوحي في حياة الأستاذ (عزت عبد الحميد)؟

إنّه لمشهد مثير حقًّا.....

جلست أنتظر.. أصخت السمع والخيال إلى ما وراء الباب المغلق، وهنا خيل لي أنني أسمع صوتًا غريبًا.. صوتًا أقرب إلى شهيق الغريق في اللحظات المريرة التي يرتفع فيها لسطح الماء، فيحاول أن يعب الهواء عبًا، فلا يجني سوى ملء رئتيه بالفقاقيع..

ها آآآآه! هاااااه! ها آآآآه!

وتكرر الصوت نحو عشر مرات.. ثم دوى صوت شيء يسقط أرضًا..

بوم!

* * *



اننى اسمع صوتاً غريباً .. صوتاً اقرب إلى شهيق الغريق .

- ٢ -

قال (سمير الصياد) بصوته المبحوح:
هرعت إلى الباب فدققته في أدب مرارًا، وقلت:
- «هل من شيء أفعله يا أستاذ؟ هل أنت بخير؟»
مرّت فترة أطول من اللازم، ثم سمعت الباب ينفتح ورأيته يخرج..
كان في أحسن حال.. بأناقته المعهودة وانتعاشه، لكنّ شيئًا من التحفظ سرى إلى أسلوبه في الكلام، وقال لي:
- «لا داعي للقلق.. فلا أجد ما يدعوك للسؤال..»
ثم دعاني إلى الجلوس، ومد يده إلى عود مزخرف ملقى على إحدى الأرائك، فراح يدندن عليه لحنًا لم أتعرفه، وثني جذعه ليدون شيئًا من نوتة موسيقية على بعض الأوراق أمامه...
ثم حرّك شفتيه في استمتاع كمن يتلمظ:
- «هكذا.. لا بأس على الإطلاق..»

* * *

قلت للفتى وأنا أفرد ساقي طلبًا لإراحتهما:
- «هذه القصة لن تنتهي إلا بنهاية من اثنتين إما أن الأستاذ العظيم يستعين بالسحر، أو ما هو أسوأ كي يصل إلى إلهامه، وإما أنك تظن هذا ثم يتضح أنك مخطئ!»
ابتسم المطرب الشاب كمن حوصر في ركن من الحلبة، وقال:
- «هكذا لا تترك لي مجالًا لإكمال قصتي يا د. (رفعت).. إن قصتي أغرب على كل حال..»
هنا تدخل الأستاذ (محمود عوني):
- «لا يجب أن تكون كل القصص جديدة لا يمكن التنبؤ بنهايتها يا د. (رفعت)، وإلا كان من الخير لنا أن نظل صامتين..»
قلت في شيء من خجل:
- «معذرة.. لكني إن اشتهرت بشيء فبسرعة الملل.. يخيّل إلى أن كل ما يحدث ويُقال من حولي، قد حدث وقيل من قبل، لكنّ الناس جميعًا نسوا ما عداي!»
حقًا.. كان هذا هو الشعور الذي ضايقني طيلة حياتي..
في التسعينات كتبت الصحف عن حادث الزوجة التي قتلت زوجها، ووضعت أشلاءه في أكياس بلاستيكية.. أصيب الناس بالهلع، وراحت الصحف تكتب عن (الدموية التي تسربت إلى نفسية رجل الشارع) وعن تغير أنماط الجريمة في (مصر) وعن.....
لم يصدقني أحد حين قلت إن هذه الجريمة حدثت مرارًا في الثمانينات والسبعينات والستينات، وربما كانت تحدث قبل اختراع الأكياس البلاستيكية، لكنّ الجميع نسوا ببساطة، وصرت أنا المخبول الوحيد، وغير هذا كثير..

ولكن دعونا نصغ لقصة الفتى إلى نهايتها..

* * *

قال (سمير الصياد) بصوته الولهان:

- «توطدت صداقتي مع الأستاذ، ورحت أتردد على داره ثلاث مرات أسبوعيًا.. وأخيرًا جاءت اللحظة التي دخلت فيها (ستوديو) الصوت كي أسجل رائعتي الأولى.. «أنا لو أنساكي حافتكر مين..»، وبعدها قدمت رائعتي الثانية: «الحب اللي جاني.. غير الأولاني!»

بدأت الشهرة تنمو ببطء، واشتريت سيارة نصف عمر، ودُعيت إلى بعض حفلات، حيث كان عدد لا بأس به راغبًا في سماع (الحب اللي جاني).. وفي الواقع كنت مدينًا للأستاذ بكل شيء.. حقًّا صدق من قالوا: إنّه هو الحل السحري للمبتدئين في الغناء..

بشرط أن تروق له أولًا!

وضع ألف خط تحت هذه العبارة.. لماذا اختارني الرجل بالذات بعد ما وصف صوتي بأنه (بيضة فاسدة)؟ ولماذا احتفى بي كل هذه الحفاوة.. قد يقول قائل: إنّه غير وجهة نظره في صوتي، ولكن متى أعاد سماعه؟

دائمًا ظلت علامة الاستفهام معلقة.. بلا جواب..

* * *

علامة استفهام الثانية كانت تحيط بالباب المغلق..

ما الذي يفعله الرجل خلف هذا الباب المغلق؟ في كلّ مرّة يبحث فيها عن إلهام جديد كان يعتذر، ثم ينسحب إلى هناك، وتمر دقائق بعدها يعود إليّ بالجواب.. والجواب دائمًا جميل متقن.....

هنا تدخلت - آنا (رفعت إسماعيل) - في الموضوع - وسألته:

- «هل أنت واثق من أن ما خلف الباب المغلق ليس دورة مياه؟ كثيرًا ما يجيء الإلهام في الحمام للعظماء!»

ابتسم (سمير) كأنما كان يتوقع هذا، وقال:

- «كل الثقة.. الناس لا تشهق في الحمام كالغرقى، وتدخل في إغماءة.. هذا هو الصوت الذي أسمعه..»

- «حقًّا هذا غريب.. وبالطبع قمت أنت بفتح الباب يومًا..»

- «كيف عرفت؟»

- «أنا أعرف البشر.. لقد قتل الفضول القط كما قال الإنجليز منذ دهور..»

- «حقًّا فتحت الباب..»

وشردت عيناه إلى بعيد.. كان يتأمل المقبض الذهبي الغليظ..

* * *

لقد تركه الأستاذ، ودخل الغرفة المغلقة، ولبضع دقائق ظل جالسًا وحده يتأمل الباب في نهم.. المقبض الذهبي ـ المُذهّب للدقة اللغويّة ـ الذي ينتظر يدًا جريئة تفتحه..

أخيرًا سمعت صوت الـ (هاآآه! ها آآه!) المميز.. بعده صوت ارتطام المدوي، وكانت هذه هي اللحظة المناسبة..

وثبت إلى الباب وفتحته، وبحذر سكبت عيناي من الفرجة الضيقة التي أحدثتها..

كانت غرفة ضيقة جدًّا كأنها القبر، باردة إلى حد لا يمكن تصديقه، جدرانها حمراء تمامًا، عليها زخارف غريبة غير منسقة..

أما أغرب شيء في الموضوع فهو أنها كانت خالية تمامًا.. لم يكن بها أحد، ولم يكن الوقت كافيًا كي أبحث عن مخابئ في أي مكان بها..

تملكني الهلع بحق، وفي اللحظة التالية قف شعر رأسي، لأنني لمحت ما يشبه التجسد في مركز الحجرة.. التجسد الذي يتخذ هيئة إنسان ملقى على وجهه على الأرض..

أغلقت الباب وعدت لمكاني، وأنا أنتفض كورقة....

* * *

حقًا لم يكن الأستاذ بشريًا..

لم يكن ينتمي لعالمنا، ولا قواعدنا الماديّة الصارمة..

لقد اختفى بلا تفسير من غرفة مغلقة، وهو لا يجيد ألعاب الحواة، ولو كان يجيدها، فلماذا يمارسها وهو وحيد؟!

وانفتح الباب أخيرًا ليدخل الأستاذ، وفي هذه المرّة لم أستطع حتى أن أتحمل لمسة ساقه لساقي، وهو يحتك بها في أثناء عودته لمجلسه..

كنت أخشاه كثعبان، ولكني حرصت على ألا يرى هذا في وجهي، على أن أبادر بالفرار عند أول فرصة، فلا أعود هاهنا أبدًا..

راح يدندن كعادته محاولًا تذكر إلهامه الأخير.. كتب ما قال في وريقة صغيرة، ثم سألني عن سر شرودي، فابتكرت إجابة مرتجلة:

ـ «إنّه الاكتئاب.. الاكتئاب.. ربما الخوف من ألا أقدم جديدًا..»

نظر في عيني طويلًا حتى كدت أصرخ، ثم - دون مقدمات ـ سألني:

ـ «هل تؤمن بالجان؟!»

* * *

سؤال غريب في لحظة غير مناسبة على الإطلاق.. قلت له بعد ما بلعت ريقي:

ـ «الجان مذكور في القرآن الكريم.. هذه إجابة كافية على ما أظن..»

عقد يديه على صدره، واسترخي في مقعده، وقال:

ـ «لنضع السؤال بطريقة أخرى... هل تؤمن بقدرة البشر على تسخير الجان؟!»

- «لا أدري يا سيدي.. لا أدري..»
ما الذي يرمي إليه ولأية ورطة يقودني؟
قال وهو ينظر إلى السقف:
- «قديمًا كان العرب يعتقدون أن الشعراء يأتيهم الإلهام من جان وادي (عبقر).. فيما بعد كثر التعبير عن الإلهام بي. (جنية الموسيقا) و(شيطان الشعر) و.... و... هل تعتقد أن كل هذا خالٍ من الصواب؟»
وقف شعر رأسي إذ فكرت في معنى هذه المحادثة.. لقد صار الموضوع واضحًا إذن..
نهض وراح يذرع الغرفة جيئة وإيابًا ويداه في جيبي روبه، وقال كأنما يكلم نفسه:
- «هذه هي الطريقة.. هكذا يتحول موسيقار نصف موهوب مثلي إلى عبقري، ببساطة حين يتعلم الطريقة المثلى، وحين يقبل أن يحمله الجان إلى مملكتهم الجهنمية.. إن الأمر غريب لا يصدّق، لو رأيته لحسبته نوبة صرعية.. أمّا بالنسبة لموضوع التجربة، فالأمر شبيه بالموت.. بانتزاع الحياة من حلقومه..»
وابتسم ابتسامة خبيثة، والتفت لي:
- «هل تحسبني أحمق؟ لماذا لم أغلق الباب على نفسي؟ لماذا تركتك تتسلل كما يتسلل القط إلى المطبخ، ليسرق فخذ الدجاجة؟ لأنك مثلي تحمل العلامة.. يقولون إن هناك علامة.. وهذه العلامة ترشح المختارين للاتصال.. أنا رأيتها حين قابلتك في حديقة الفيللا، وكنت أزمع طردك بشيء من الرفق.. عندها تغير مسلكي تمامًا، كما لا بد أنك لاحظت؛ لأنني عرفتك على الفور.. العلامة! لا شيء يميزنا سوى هذه العلامة!»
وأشار إلى الشامة الزرقاء فوق حاجبه الأيمن..
عندها سقط قلبي في قدمي، وتحول عمودي الفقري إلى عمود من الجليد...
أنا أملك شامة مماثلة.. هذا هو السر إذن..
قال في شيء من الشراسة:
- «والآن لا توجد أنصاف حلول: أنت معنا أم ضدنا؟ اختر!»
- «لاااه!»
قلتها وأنا أثب كالزنبرك من مقعدي، ونظرت لوجهه فوجدت أنه قد تبدل إلى حد مروع.. لم أره من قبل بهذه الشراسة والتوجس...
وفي ثوان كنت قد اندفعت إلى الباب، إلى الحديقة، إلى باب الفيللا الحديدي، ورحت أضربه وأهزه في جنون.. بينما الكلب ينبح، والبواب يحاول إقناعي بالانتظار حتى يفتح لي بالطريقة العادية المحترمة..
بعد لحظات كنت قد ابتعدت كثيرًا جدًا عن المكان والزمان والحدث..

* * *

ومن يومها لم تلمس قدماي شوارع الزمالك..

صحيح أنني لم أكف عن الغناء، وكانت لأغنيتيه لمسة لا بأس بها في حياتي الفنية، لكني ـ وهذا مفهوم ـ لم أكن على استعداد قط لرؤية وجهه من جديد..

كثيرون تساءلوا عن سبب انقطاع صداقتنا، وأقنعوا أنفسهم بأن الرجل قد انتظر مني أشياء، وتوسم في صوتي أشياء، لم أحقق منها شيئًا.. وبالتالي قرر أن يتخلص مني...

لكني لم أتكلم.. فقط رحت أحاول أن أجد جراحًا بارعًا يزيل تلك الشامة فوق حاجبي.. لكنّ الأطباء نصحوني بألا أفعل.. إن الجراحة قد تترك أثرًا لا يفضل الشامة في شيء..

وحكيت القصة لأحد المطربين، فأغرق في الضحك، وقال:

- «هل نجح في خداعك؟ إن الأستاذ يداعب ضيوفه مداعبات عملية قاسية ليست هذه أسوأها.. وأعتقد أنه مل صداقتك، فقرر أن ينهيها بفاصل تمثيلي جيد يحكيه لضيوفه في سهرة ضاحكة..»

- «والاختفاء؟»

ـ «إنّه ثرى ويملك القدرة على بناء أكثر من جب سحري في تلك الغرفة.. هذه ألاعيب حواة..»

لكني لم أنس قط، ولم أجد تفسيرًا:

لو صدقنا كل هذا فكيف حدث التجسد البطيء؟ كيف تغيرت ملامحه بهذه السرعة، كأنما أعظم ممثلي الكون؟

شيء في روحي يخبرني أنه كان صادقًا، وأن ما حدث حدث فعلًا..

لقد كان الهول ينتظرني خلف الباب المغلق..

وما زال ينتظرني في منامي كل ليلة!

* * *

الباب الثاني:
مع الحَطَمَة!



الباب الثاني

« مع الحَطَمَة! »

تفتحه : «نادية فهيم»

«كنت أراه يزحف في بطء، خارجًا من البحر، يجر جسده بصعوبة.. لكن بإصرار، عازمًا على أن يقضي ليلته تحت سقفي، لا يفصلني عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه! »

- ١ -

ساد الصمت إلا من أنفاسنا، وقد راح كل منا يتصوّر القصة في خياله بمواقع تصوير وممثلين مختلفين لا يجمع بينهم إلا (سمير الصياد)..

تساءلت مدام (ناهد) في حيرة محاولة التذكر:

- «هل (عزت عبد الحميد) له شامة فوق حاجبه؟»

قال (سمير) وهو يتثاءب:

- «له.. لكنّ لكي تلاحظيها لا بد من أن تكوني المعجبة رقم واحد به مثلي.. أو مثلما كنت..»

قلت وأنا أتأمل الوجوه:

- «لا بأس.. في القصة الأولى كان الباب هو الممر إلى وادي (عبقر)، أو ربما دعابة سمجة من ملحن ثرى قاس.. من يحكي القصة الثانية؟»

كانت (ناهد فهيم) شاعرتنا الـ (فيمينست) ترمقنا في شرود، وهي تريح أصابعها المصبوغة التي تحمل لفافة التبغ على ذقنها.. فلمّا رأتني أنظر لها قالت في ضيق:

- «أنا لا أملك قصصًا مماثلة، ولا أنوي لعب دور (شهرزاد)..».

- «لكنك لا تستطيعين لعب دور (محمد على كلاي).. إن (شهرزاد) كانت قوية بطريقتها، واستطاعت خداع عتل صفيق مثل (شهريار) بقصصها الممتعة.. هذا لم يتضمن أية تنازلات من أي نوع»

وألحت عليها (ناهد) في رقة مصطنعة:

- «أرجوك يا (نافي) أن تحاولي!»

(نافي)؟ يا له من اسم غريب للتدليل.. (نادية فهيم) قد تحولت إلى (نافي)، فلن تنتهي الأمسية قبل أن أتحول إلى جثة أو إلى (رفرف) دون شك، وكلاهما أسوأ من الآخر..

حولت (نادية) شفتيها إلى دائرة التخرج حلقة دخان كاملة الاستدارة، لا يستطيع أعتى المدخنين الرجال أن يصنعها، وقالت:

- «حسن.. لدي قصة عن باب... ولا يهمني ألا تروق لكم، لأنني لا أستمد ثقتي من الآخرين.. أنا كائن متكامل و(Self-managed) أو هذا هو ما كافحت من أجله طيلة حياتي..»

- «أصغوا إليّ إذن..»

* * *

سعلت الشاعرة الغضبي (نادية فهيم) مرّتين، ثم قالت:

- «متفردة أنا.. متوحدة.. متنائية عن كل القطيع.. لكم حاولت أن ألحق بموكب السارين ليلًا، لكنّ خطاي لم تكن كخطاهم، وقامتي لم تكن كقاماتهم، وأحلامي لم تكن كأحلامهم..

لذا تفردت، وتمثلت مقولة (رانبو) الشاعر الفرنسي: أنا آخر.. Te Suis un autre..»

تنحنحت، وبحذر قلت لها:

ـ «أ.. معذرة.. إننا في ظروف أسود من قلب الكافر، وكنا سنقدر لو تكلمت بشيء من التبسيط.. حتى الشاعر يمكن أن يقول كلامًا عاديًا أحيانًا!»

مطت شفتيها في اشمئزاز، وقالت:

ـ «أرأيت؟ أنت كذلك واحد من السارين ليلًا.. لهذا أشمخ برأسي في عليائي - حيث يحلم الطحلب الزغبي - وأزدريكم يا سادة.. صادقة أقولها.. حارة أقولها.. لاهبة أقولها!»

* * *

«بحياتي أبواب عشرة...
وحكايا عن جيش البربر...
والباب الموصد في قلبي...
يتحدى فرسان الغازي...
من منكم يدنو؟
أو يجسر؟»

* * *

ربما تعلمون أنني تزوجت مرّتين، وكان الطلاق هو النهاية في كلّ مرّة.. إن الرجال لا يحتملون المرأة التي تطالب ألا تعامل كامرأة..

هاك يا صغيرتي ما سيحدث:

سيجلس معك، ويكلمك عن (سارتر) وعن الوجودية، ويتلو أبياتنا من شعر (لوركا)، ويقول لك كلامًا كثيرًا عن انبهاره بعقلك، وأنه للمرة الأولى - يلقى المرأة التي تبدو كامرأة، وتفكر كرجل..

سيقول إن حياتك معه لن تختلف عن سلسلة من الأعياد الفكرية والمهرجانات العقلانية... لقد حان الوقت لنفهم ذلك الكائن المدعو (حواء) حق الفهم...

سيقول هذا وأكثر يا فتاة، ولسوف تصدقين.. كيف لا تصدقين هذه الكلمات من رجل رزين أنيق في منتصف العمر، عرك الحياة وعركته؟

ولن يمرّ وقت طويل حتى تجلسي جواره في (الكوشة) - إلى يمينه على وجه الدقة ـ وأنت تحلمين كمراهقة صغيرة..

بعد أشهر - لو حالفك الحظ ـ ستدركين الحقيقة.. إن الجمال عند الرجل أهم من أي عقل.. طبق الفول بالزيت على مائدة الإفطار أهم من كل كتابات (سيمون دي بوفوار).. مباراة الأهلى والزمالك أهم من ندوة شعرية يتكلم فيها (أبو العلاء المعري) شخصيًا لو أمكن هذا..

تدريجيًا تدركين أبعاد الخدعة، وتدركين أن الدور المختار لك هو دور الزوجة لا أكثر ولا أقل..

ستثورين يا فتاة.. لكنك ستتلقين كلمات قاسية جدًا، ربما بعض الصفعات كذلك لو كان زوجك شرسًا مثل زوجي الثاني..

ستكون معاناة طويلة، حتى يتم الطلاق، بعدها تقررين ألا تكرري الخطأ ذاته.. لكنّ سرعان ما يظهر رجل رزين أنيق في منتصف العمر، يحدثك عن (سارتر) ويتلو عليك شعر (لوركا)..
عندها تقولين لنفسك: لعل الأمر مختلف هذه المرّة؟

* * *

تم زواجي الثاني في بداية الشتاء..
بعدها رحلت مع زوجي (هشام) - وهو صحفي كما تعلمون - إلى شاليه في (بلطيم) يملكه أحد أصدقائه.. وكانت (بلطيم) في هذا الوقت شبه خالية من الشاليهات والمصطافين كذلك، لأننا كنا في الشتاء، وحتّى في فصل الصيف كانت الإسكندرية - خاصة (العجمي) - هي المصيف المرموق الذي يحلم به الجميع..
كان الشاليه يتكون من أربع غرف.. اثنتان منهما موصدتان بالمفتاح، وقد تركت لنا غرفتان هما كافيتان تمامًا..
وضعنا حقائبنا.. وقررنا الخروج للنزهة على الشاطئ.. بالطبع ارتدي كل منا ثيابًا شتوية ثقيلة، فالطقس لم يكن يسمح بالمزاح.. وكانت الأمواج ثائرة كأنما ضاقت بالبحر المتوسط، وودت لو فتح لها أحدهم الباب إلى المحيط...
مشينا بضع دقائق، وفي نفس كل منا شك لا يعترف بيه: هذه المعطلة لن تكون ناجحة جدًّا.. صحيح أننا متفردان.. تنائينا عن القطيع.. لكنّ كل هذا الفراغ الأثيري لم يكن ليناسبنا حقًّا..
لقد أنهينا أكثر ما لدينا من كلمات وملاحظات ودعابات، ونحن نمشي متشابكي اليدين بمحاذاة الشاطئ.. خمس دقائق لا أكثر.. والمفترض أن لدينا أسبوعًا كاملًا، فماذا نعمل فيه؟
السماء مكفهرة تنذر بالويل، والبرد قارس، وهدير الأمواج يقتل كلماتك ما إن تغادر فاك..
قلت له بعد ما حاولت إشعال لقافة تبغ ست مرات:
- «فلنعد إلى الشاليه...»
رفع كفه بمجافاة حاجبيه، ونظر للأفق، ثم قال:
- «ثمّة أناس هناك...»
- «أناس؟ غريب! حسبتني المجنونة الوحيدة هنا..»
وبالفعل ازداد المشهد وضوحًا إذ دنونا أكثر..
كان هناك عشرة من الرجال يقفون على الشاطئ، ورذاذ الموج يغمرهم من آن لآخر فتحتقن العيون، وتسعل الرئات، تعقبها البصقات.. وكان واضحًا من منظرهم أنهم يؤدون عملًا خطرًا أو يناقشون أمرًا جللًا..
دنونا أكثر، ثم سمعت (هشام) يقول لي:
- «لا تنظري!»
وكان هذا بمثابة أمر لي كي أنظر، ونظرت..
على الرمال رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا في قميص وسروال، عاري القدمين، مبتلًا تمامًا.. غريق.. هذا واضح.. غريق تأخر إنقاذه كثيرًا جدًّا جدًّا...

كان منتفخًا، برز لسانه وارتسمت أوردته كالشجيرات على جلده.. بينما الرغاوي البيضاء تسيل من شفتيه، وحقًا لم أر غريقًا من قبل، ولم أكن سريعة التأثر.. لكنّ المشهد أثار هلعي بحق..

ما زال بوسعي أن أرسمه بدقة على الورق لو أردت..

كنت أقاوم هذه النوازع الأنثوية في نفسي - دليل عبودية قرون طويلة ـ لكنني لم أستطع أن أمنع شهقة، ثم أدرت ظهري للمشهد، وبدأت أتهانف..

من وراء ظهري سمعت (هشام) يتساءل:

- «كيف نزل البحر في طقس كهذا؟!»

صوت خشن يقول:

- «لم ينزل يا أستاذ.. لكنّها جذبته!»

- «من هي؟»

ـ «الْحَطَمَة طبعًا.. ربنا يحفظنا..»

صوت آخر يقول:

ـ «لا بد أنه في البحر من أسبوع على الأقل.. حالته تقول ذلك»

الصوت الأول يقول:

- «لا تحاول وزوجتك المشي على الشاطئ ليلًا.. لا تؤاخذني.. أنت غريب، والغريب أعمى ولو كان بصيرًا! هذا البائس لم يعرف هذا.. أو عرفه ولم يصدّق!»

* * *



رأيت ما يشبه جسدًا آدميًا فى قميص وسروال ، عارى القدمين مبتلاً تمامًا .. غريق .. هذا واضح ..

- ٢ -

دفنت (نادية) ما تبقى من لفافة تبغها في المطفأة الزجاجيّة، ومدت يدها إلى العلبة بحثًا عن أخرى، فطقطقت بلساني معترضًا:

- «إن هناك وسائل أكثر رحمة للانتحار... ليس بهذه الكثافة..»

والحقيقة هي أنها كانت شخصيّة عُصابية كما خلق العَصاب.. ولو أن (فرويد) نهض من قبره ورآها لمات فرحًا من جديد!

أحجمت.. فسألتها:

- «كانت لي مغامرة ما مع الحَطَمَة.. إنها نداهة البحر التي تدعو الشباب اللحاق بها،فالغرق... هل هذه هي القصة هنا؟»

هزت برأسها في عصبية:

- «لا.. واضح أن حَطَمَة (بلطيم) هذه كانت من النوع الذي يخرج يده من تحت الماء، ليقبض على سيقان من يمشون على الشاطئ.. إن أساليب الحَطَمَات تختلف كما تعلم..»

* * *

قالت الشاعرة الحانقة دومًا:

- «أفسد هذا المشهد يومنا تمامًا.. كما تتوقعون..

عدنا إلى الشاليه فتناولنا غذاءنا من المعلبات في صمت.. لاحظت في اشمئزاز أن (هشام) يملأ فمه بالطعام كالخرتيت قبل أن يبتلعه.. كان يأكل برقة العصافير حينما كان يخطب ودي، وكان يقضم حبة العنب على ست مرات.. وبدأت أشم رائحة التحول إياها..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

بعد الغداء لاحظت أنه يسلك أسنانه بعود ثقاب، ولما فشل مزّق قطعة خيط من كم منامته وراح يمررها بين الأسنان وبعضها، على سبيل الـ (Floss) المرتجل..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

أحضر جهاز الـ (بيك أب)، ووضعه على المنضدة، ثم انتقي أسطوانة لمطربة شابة اشتهرت بأغانيها عديمة المعنى، وكنت قد جئت بعدة ألبومات لـ (فاجنر) و(جانيس جوبلن)..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

أدرت أسطوانة لـ (فاجنر)، وجلست منتظرة أن يبدأ في الحديث الرومانسي معي، لا سيما لو كان ذا طابع ثقافي.. لكنه راح يحكى دعابات سمجة عن الحموات الشرسات، والزوجات المتسلطات، و... و... حاسبًا أنّ هذا يجعله أقرب لقلبي، وينهي كل دعابة بـ (هاع هاع هاع!)..

صارحته بهذا، فابتسم ولم يعلق...

جلس بمنامته ورفع قدمًا يريحها على المقعد، ثم راح يعبث في أصابع قدميه باستمتاع كما يحبّ الرجال أن يفعلوا..

صارحته بهذا، فانفجر في..

قال لي إنّه لم يتلق كل هذا القدر من الانتقادات منذ كان طفلًا في الرابعة من عمره، وإن أمّه لم تبذل كل هذا الجهد التربوي معه، وإنني بالتأكيد إنسانة متسلطة قررت أن تتحكم في كل التفاصيل، في أول نصف ساعة من حياتنا الزوجية..

راق لي هذا.. فالحرب هي أرضى التي أشعر فيها براحة حقيقيّة..

«من منكم يدنو.. أو يجسر؟»

بدأت معركتنا الأولى، ولم تكن عنيفة جدًا بطبيعة الحال، لكنّها انتهت به صامتًا كالأسماك، وبي أشعل لفافة تبغ في عصبية..

وفي المساء تشاجرنا ثانية مع صوت الأمواج..

في الصباح لاحظت في ضيق أنه يريد أن يلتهم الإفطار دون أن يغسل وجهه، وهكذا تشاجرنا مرة ثالثة..

عند الظهيرة تشاجرنا بعنف، لأنّه يريد أن يخرج النزهة، بينما أنا مصرة على أن نجلس ونستمع لـ (فاجنر)، والأدهى أنه دعا بخراب بيت (فاجنر) وكل أحفاد (فاجنر) إلى يوم الدين..

- «من فضلك.. أريدك أن تكون متحضرًا.. لا أسمح لك بسب (فاجنر)!»

ـ «هذا خير من أن أسبك أنت أيتها المتسلطة!»

وغادر الشاليه غاضبًا، والحقيقة هي أننا أحرزنا سبقًا هائلًا في عصر السرعة هذا.. لقد حققنا خلال أربع وعشرين ساعة من الجفاء والنفور ما يحققه سوانا في عشر سنوات!

* * *

عند المساء جاءني يتودد، طالبًا الصفح، لكني قررت أن أواصل المعركة للنهاية، وأعلنت رأيي في أنه يحاول أن يفرض على سيطرته، وهكذا تشاجرنا للمرة الـ... لا أذكر كم.. وغادر الشاليه غاضبًا معلنًا أنه لن يمضي الليلة فيه..

- «وأين ستذهب إذن؟»

ـ «هذه مشكلتي لا مشكلتك..»

يا له من نصر! لقد نجحت في استفزازه إلى حد أن يهجر البيت من ثاني يوم لزفافنا.. وهو نصر لم يتحقق مع زوجي الأول إلا بعد سنة كاملة...

وهكذا جلست وحدي، وأدرت أسطوانة (فاجنر) بأعلى صوت ممكن، ثم رحت أقرأ أشعار (إليوت)، وأنا أقول لنفسي: حقًّا لم أنخدع، وكانت توقعاتي صائبة.. كل الرجال سواء.. ما إن تغمدى سيفك لحظة حتى يحاولوا أن يحزوا رقبتك بسيوفهم..

كلهم يتظاهر بالشيء ذاته، وكلهم. في الحقيقة ـ الشيء ذاته..

ألا تبًّا لهم!

* * *

بحياتي أبواب عشرة..
وحكايا عن جيش البربر...

* * *

على أنني - عند منتصف الليل - بدأت أشعر بقلق غريب..
كان السكون تامًا إلا من صوت البحر الثائر، أتخيّل أمواجه السوداء العملاقة كجبال، فأرتجف هلعًا وأقشعر..
إن خوفي ضعف.. والأدهى أنني كنت سأغدو أكثر راحة لو كان الرجل بجانبي، لكني ضغطت على أعصابي، وواصلت القراءة..
وفي الواحدة صباحًا سمعت الصوت من وراء الباب المغلق..

* * *

كان هناك من يتحرك في الحجرة الأولى.. سمعته وقد انتهى صخب (فاجنر).. الحجرة التي لا أملك مفتاحها..
دنوت من الباب، وأصخت السمع، ثم ألصقت أذني.. وكان ما سمعته هو صوت إنسان يلهث.. يلهث في تعب.. يلهث في جشع للهواء.. يلهث كما يلهث الغرقى!
دنوت أكثر وطرقت الباب بسلامية سبابتي، وفي صوت كالهمس تساءلت:
- «من هنا؟»
فكرت في أن أرفع طبقة صوتي أكثر، ثم عدلت عن هذا.. لا أريد ألا يجيء الرد.. سيثير هذا رعبي، والأفظع أن يجيء الرد!
كان صوت شيء خشبي يرتطم بالداخل.. أدركت دون عسر أنه مصراع النافذة الخشبي إذ تحركه الرياح..
أيا من كان بالداخل، فقد دخل من النافذة، والنافذة منخفضة في مستوى قامة الإنسان، وتحتها تبة صغيرة من الرمال..
وأصخت السمع أكثر فأكثر..
كادت أذناي تمتزجان بالخشب، وأنا أحاول التركيز..
لا جدال في أنّ هذا صوت لهاث..

* * *

تمالكت أعصابي، وأشعلت لفافة تبغ بيد مرتجفة.. لا يجب أن تضعفي يا (نادية) لا يجب.. أنت لست فتاة واهنة هستيرية..

اتجهت إلى الحقيبة في غرفتنا، فانتقيت سكينًا هائلة الحجم، وخرجت لأرفع صوت الموسيقا إلى أعلى درجة ممكنة..

الآن أغادر الشاليه.. يجب ألا أبقى فيه لحظة أخرى..

لماذا لا أبقى في غرفتي؟ لأنهّا لا يمكن غلقها.. فهي لا تغلق إلا بمفتاح ليس معي.. وليس لبابها مزلاج من أي نوع..

لماذا لا أبقى في الشاليه؟ لأن الشخص - أو الشيء - الموجود في الغرفة يملك مفتاح الغرفة! كيف عرفت؟ لأنني سمعت صوت المفتاح يدور في الكالون من الداخل!.

وضعت على كتفي معطفًا، وانتعلت حذائي، وبحذر فتحت باب الشاليه، شاهرة السكين في يدي..

هذه هي فائدة الرجال الوحيدة.. أن يتقدموا الأنثى في مواقف كهذه، كي يتلقوا الطعنة الأولى، ويتركوا للأنثى فرصة الفرار..

أخيرا وقفت بالخارج في الظلام..

الريح لا تكف عن العواء.. وتمضغ معطفي كما يقول (نزار قباني)، والبحر من بعيد يشبه واديًا من الجبال السوداء الشامخة التي لم يرها بشر قبلي..

درت ببطء حول نفسي، فقط لأتأكد من أن أحدًا لم يتبعني، وهنا حدث الشيء الذي يحدث دائمًا للأبواب ذات كالون (اللاتش) في الأجواء العاصفة..

انغلق باب الشاليه وتركني بالخارج!

* * *

والباب الموصد في قلبي.
يتحدى فرسان الغازي..

* * *

وقفت بضع ثوان عاجزة عن اتخاذ قرار.. إن التعقل لا جدوى منه.. الهلع هو الحل الوحيد إذن..

كنت أرتجف كورقة، لكنني أقنعت نفسي بأن البرد هو السبب، وببطء - شاهرة السكين - رحت أدور حول المكان..

لم يكن الظلام دامسًا، فثمة مصباح صغير واهٍ عند مدخل الشاليه، وعلى ضوئه استطعت أن أرى النافذة المفتوحة التي راح شيشها يهتز مع الريح في إصرار غريب...

دنوت، أكثر، وقلت لنفسي:

- «لو كان المتسلل، كلبًا أو قطًا، لأمكنني أن أطمئن.. سأثب إلى الغرفة وأفتحها من الداخل.. وهكذا تنتهي المشكلة..»

لكنّ ما رأيته على الرمال لم يكن مريحًا..

في البدء كانت آثار جر كأنما جسد ثقيل يزحف أو يجر فوق الرمال المبتلة.. ثم تتحول الآثار إلى قدمين حافيتين غاصتا في الرمال غوصًا، وأخيرًا تتوقف الآثار أسفل النافذة..
هل أدخل؟

* * *

لا بد أنني وقفت في البرد والعاصفة أكثر من نصف ساعة..
لكنني كنت أرتجف لسبب آخر...
الغريق بوجهه المنتفخ، ولسانه البارز... كنت أراه يزحف في بطء، خارجًا من البحر، يجر جسده بصعوبة.. لكن بإصرار، عازمًا على أن يقضي ليلته تحت سقفي، لا يفصلني عنه سوى باب يملك هو وحده مفتاحه! كنت أراه رأي العين الآن....
في النهاية - وبعد وقت طويل - لمت نفسي على جبني، واتجهت إلى النافذة، وقد قررت أن أثب إلى الداخل: وليكن ما يكون.. أمامي حلان: إما أن أبقى حيث أنا للأبد وأتجمد، وإما أن أجرب حظي بالداخل..
استجمعت قواي، ووثبت إلى الداخل، حيث الظلام الدامس..
مرت لحظة لم أدر ما هي، ثم وجدت يدًا مبتلة قاسية تمسك بمعصمي الذي يحمل السكين.. بإصرار وغلظة..
هنا صرخت.. صرخت.. صرخت..

* * *

وحين استعدت وعيي كنت جالسة في غرفتنا أرتجف.. وكان (هشام) واقفًا أمامي يجفف شعره المبتلة بمنشفة..
قال لي دون أن أفهم تمامًا ما يقول:
- «حمقاء أنت حقًّا! كدت تفتكين بي بهذا السكين.. إن للخلاف حدودًا!»
- «أنت.. أنت.. كيف جئت؟»
هزّ رأسه في لا مبالاة:
- «لم أذهب قط.. لم أجد مكانًا أمضي فيه ليلتي، فدرت حول الشاليه وفتحت نافذة الغرفة المغلقة، ودخلتها.. منعني كبريائي من أن أعود كي أستسمحك للبيات!»
- «و.. وآثار الأقدام.. والبلل؟»
- «لقد حاولت أن أجرب السباحة ليلًا.. لكني وجدت الأمر أكبر مني... توغلت في الماء حتى خصري، ثم عدلت عن ذلك، وعدت إلى الشاليه وقد انقطعت أنفاسي..»
- «و.. والمفتاح؟»
- «وجدت نسخة منه داخل الغرفة، وأولجتها في الكالون لأتأكد من أنها صالحة له.. وكنت على وشك الخروج إليك لولا أن وجدتك تثبين لي من النافذة حاملة سكينًا!»

ساد الصمت، إلا من أنفاسنا، ومن هدير الموج..
أخيرًا سألته:
- «هل جننت حتى تنزل البحر في ساعة كهذه؟»
- «لا أدري.. لقد كان النداء أقوى مني، وشعرت بأن الأمر سهل جدًّا هين جدًا.. للحظة حسبت أنني قادر على قهر البحر ذاته..»
وبخجل ابتسم، وأضاف:
- «لا أدري.. لكنني أحسب أن (الحَطَمَة) نادتني!»
قلت له وأنا أنزع معطفي الذي صار باردًا كالرصاص:
- «إن لي مطلبًا واحدًا لا مجال لك كي ترفضه..»
- «وما هو؟»
- «أن نعود إلى (القاهرة) غدًا!»

* * *

فيما بعد ازدادت علاقتنا سوءًا، وتم الطلاق بعد أربعة أشهر..
إن (هشام) رجل، ولهذا كان يحمل كل عيوب الرجال ومنها الغرور، الذي يدفع رجلًا للسباحة في البحر عند منتصف الليل في الشتاء..
هل حقًّا نادته (الحَطمة)؟ حتى اللحظة الأخيرة كان مصرًّا على هذا، أمّا أنا فكنت مصرة على أنه مجنون..
لكن خلف الأبواب المغلقة قد يرى المرء ويسمع أي شيء..
ربما ـ لهذا ـ أستطيع أن أفهمه إلى حدٍ ما!

* * *

الباب الثالث:
جريمة شبه كاملة



الباب الثالث

« جريمة شبه كاملة »

يفتحه : «محمود عوني»

«كان يلهث بحق.. مُرهقًا بحق.. لكنّ جسده لم يكن هو الذي يؤدي كل هذا العمل الشاق.. كان عقله هو الذي يعمل ويأمر..»

- ١ -

انتهت قصة (نادية)، فابتسمت مدام (ناهد) بوجهها المرهق المتعب المجعد، والذي أظهر الماء حقيقته، وقالت:

- «حقًّا كانت تجربة رهيبة يا (نافي).. ومن الحظ الحسن أنك لم تجني ذعرًا..»

ارتجفت يدا الشاعرة، وهي تفتح حقيبتها بحثًا عن مرآة وقالت:

- «أنا لا أجن ذعرًا لأنني ثابتة الجنان.. الآخرون فقط يفعلون!»

نظرت في ساعتي.. كان الفجر دانيًا، ومعه يوجد احتمال لا بأس به في انتهاء معاناتنا.. أشرت إلى الأستاذ (محمود عوني)، وقلت:

- «أعتقد أن الوقت قد حان لسماع قصتك يا سيدي..»

ابتسم بوقار، وداعب سالفه الأشعث غريب الشكل مفكرًا، ثم قال:

- «قصة عن باب مغلق؟ كنت طيلة الوقت أفكر في واحدة لكني لم أجد.. لكني أعرف قصة حدثت الشخص أعرفه.. هل هذا مسموح به؟»

- «طالما كانت شائقة..»

- «أعتقد هذا.. والآن اسمعوا لما أقول..»

* * *

قال الأستاذ (محمود عوني):

- «عرفت (إبراهيم الغنام) من فترة طويلة.. ربما منذ عام 1936.. كنت وقتها في العشرينات من عمري؛ شابًا مجنونًا بالصحافة، وكان هو من أعظم مديري التحرير الذين عرفتهم الصحافة المصرية..

ارتقى الرجل بفنه إلى درجة دانية من الكمال، وجعل من الصحف التي عمل بها معرضًا مبهرًا للخبر حين يتزاوج مع الصورة والإطار الأنيق، وأعتقد أنني لو لم أعرفه لكنت بالتأكيد في موضع آخر من عالم الصحافة..

* * *

في الآن ذاته عرفت (صبحي محجوب)، وهو من جيل (فاروق)، لكنه يختلف عنه اختلافًا بالغًا.. لقد قابلته للمرة الأولى في أحد المقاهي التي يرتادها الرعاع، لماذا ارتدتها أنا؟ ليس لأنني من الرعاع إذا خطر لكم هذا؛ ولكن لأنني صحفي.. وعليّ أن أذهب لكل مكان وأعرف شيئًا عن كل شيء..

وفي مقهى من تلك المقاهي، جلست أدون بعض الملاحظات في مفكرتي، وأعد أوراقي.. حينما سمعت من المنضدة المجاورة صوتًا ساخرًا يقول:

- «هذا هو الصحفى الحق! فلنحييه!»

نظرت مدهوشًا، لأجد رجلًا أصلع بادنًا، تلتمع صلعته بالعرق، ويتطاير اللعاب من شفتيه الغليظتين، ويرتدي بذلة مليئة ببقع الزيت لا بد أن (تحتمس الثالث) ارتداها في زفافه.. كان يدخن (الجوزة) في نهم، ولا يكف عن البصق على الأرض كي يمسح البصقة بحذائه العتيق..

لما رأى دهشتي واستعدادي للقتال، قال:

- «لا تتضايق! أنا صحفي مثلك، وأعرف الصحفي حين أراه؛ لكنّ دعني أقل لك إن الحماس لن يقودك بعيدًا.. إن هذه المهنة لا ترحم!»

هذا صحفي؟ غريب حقًّا..

بالتأكيد حين دخلت عالم الصحافة لم تكن هذه الصورة في ذهني.. إن كل شاب يدخل عالم الصحافة لا يرى سوى صورة (التابعي) في ذهنه، وفيما بعد صارت صورة (محمد حسنين هيكل) الشبيه بلورد إنجليزي نبيل، هي الصورة التي يحلم بها الشباب.. أمّا هذا الشيء الذي يخاطبني؟

قال لي:

- «أنا (صبحي محجوب).. الماشي في الظلال، والذي يثير نفور الجميع..»

- «تشرفنا..»

سألني عن جريدتي، وعن مجال عملي، وطلب مني أن أدعوه إلى حجر آخر مع كوب شاي.. هكذا إذن! يتسول ببساطة..

سألني وهو يشفط الشاي في هيام:

- «هل تعرف الكلب (إبراهيم الغنام)؟ لا بد أنك معجب به..»

تحفزت في عصبية:

- «أنا لا أسمح لك بـ.....»

ضحك في مرارة كاشفًا عن أسنان تساقط أكثرها، وما بقي منها لم يعد جميلًا، وقال:

- «دعك من حماس الشباب الأحمق هذا.. هذا الرجل هو ببساطة أقذر لص عرفته المهنة، وهو مصاص دماء يعيش على جهود الآخرين وعرقهم وربما دمائهم..»

وفي اللحظات التالية، حكى لي بالتفصيل ما لم أعلمه قط عن الرجل...

لقد بدأ الرجلان بداية واحدة، لكنّ ما لم أعلمه عن (الغنام) هو أنه كان مستعدًا لكل شيء وأي شيء، وكان يسرق أفكار صديق عمره ببساطة وينسبها لنفسه، ويدس له عند كل الجهات بما فيها البوليس السياسي نفسه، وهكذا بدأ (الغنام) يصعد السلم بسرعة، ومع كلّ مرّة يصعدها كان (صبحي) يهوي درجة أو درجتين..

ثم ارتكب (صبحي) خطأ عمره: تزوج، وهكذا هبط درجة في السلم الاجتماعي، ثم أنجب وهكذا هبط درجة أخرى.. وهكذا حدث له بالضبط ما توقعه فيلسوف الانفجار السكاني (مالتوس)..

لا يدري (صبحي) متى ولا كيف وصل لهذه النتيجة.. صديق شبابه مدير تحرير لامع يتهافت الشباب لسماع حرف منه، بينما هو - (صبحي) - قد صار رائد مقاهٍ، يُطرد دائمًا من أي مكان يتواجد فيه أكثر من عشر دقائق..

وجاء العرض من (الغنام) تحت ستار مساعدة صديق في مأزق..

سيعمل (صبحي) معه، ولن يظهر في الصورة أبدًا.. فقط سيستمد منه الأفكار الجيدة الجديدة - وما أكثرها عند (صبحي محجوب) - ويقدمها للناس باعتبارها من أفكاره هو.. والمقابل؟ طبعًا

بضعة ملاليم لا تشبع ولا تغني من جوع، لكنّها على الأقل تُبقي أطفاله أحياء..
الآن صارت لدى (إبراهيم الغنام) مؤسسة كاملة من الصحفيين الشبان المتحمسين، وثلاثة من المترجمين الشيوخ ثقيلى الوزن، وصحفي عجوز هو (صبحي)، وكان كل هؤلاء يعملون ليل نهار مقابل ملاليم أو كلمة مديح بسيطة.. وفي النهاية تخرج الجريدة أو المجلة في أبهى صورة ممكنة تحمل للقارئ نبأ أن (مدير التحرير) هو (إبراهيم الغنام)؛ ومن النادر أن يلاحظ رجل الشارع اسم مخرج الفيلم السينمائي أو مدير تحرير الجريدة.. لكنّ القاعدة تتحطم مع مخرجين مثل (هتشكوك) أو (يوسف شاهين) أو (فيلليني)، ومع مدير تحرير مثل (إبراهيم الغنام)..
كان (صبحي) يكره الرجل بحق.. يحقد عليه بحق.. يحتاج إليه بحق.. يعجب به بحق...
علاقة معقدة جدًا، تحتاج إلى أديب من طراز (دستويفسكي) كي يعبر عنها بدقة..

* * *

أما ما حدث بعد هذا بشهرين؛ فأمر لم أره، لكني قرأته.. ولا أستطيع الإفصاح عن مصدر قراءتي له قبل أن أكمل القصة..

* * *

كان (صبحي) يغلي حقدًا كما قلنا؛ وكان في ذهنه يضع الخُطة تلو الخُطة للانتقام؛ حين اتصل به (إبراهيم الغنام) من (الإسكندرية) يطلب منه أن يوافيه هناك..
كانت المكالمة في المقهى بالطبع لأن (الغنام) يعرف بالضبط أين وكيف يجد فريسته، وجاء القهوجي الشاحب (سنقر) يخبره بأن هناك من يريده على الهاتف..
رفع السماعة في توجس، فسمع (العام) يصيح في مرح:
- «هذا أنت أيها العجوز! لم لا تنس أعباءك وتجيء إلى (الإسكندرية) بعض الوقت؟»
- «ليس معي ما يكفي لنسيان الأعباء كما تعلم..»
- «لا عليك.. الجيب سداد.. إنني بحاجة إليك في بعض أمور مهمّة.. إن رأيك لم يعد الاستغناء عنه ممكنًا..»
وكانت هذه هي البداية لموقف اعتاده (صبحي) وعرفه جيدًا.. عملية اعتصار الأفكار النهمة من صديقه القديم المتظاهر بالمودة..
وهكذا ذهب إلى بيته المتهالك الضيق، فقال لامرأته التي عصبت رأسها (علامة النكد الأزلي) إنّه سيقضي يومًا أو يومين في (الإسكندرية) وركل الطفل الذي ركل أخاه الأصغر، ثم اتجه إلى الباب دون أن يضيف كلمة واحدة..

* * *

جلس في القطار يجفف العرق المحتشد على جبينه..

كان الألم حادًا ضاغطًا عاصرًا.. وكان يعرف إلى حدٍ ما ما يعنيه هذا الشعور الممض خلف عظمة القص..

هي ذي سنوات من الفقر والإحباط والغضب المكبوت، تجتمع كلها في شرايين التاجية لتسدها..

ها هو ذا القلب الذي لم يذق لحظة سعادة واحدة، يحتج في صمت أولًا، ثم يصرخ ثانية.....

ها هو ذا ينذره بالصمت للأبد..

وعندما تجاوز القطار (دمنهور)؛ كانت النوبة قد انتهت، لكنّها أسلمته إلى إعياء شديد، لم يفق منه إلا حين شمّ رائحة محطة (الإسكندرية) المميزة..

كان (إبراهيم الغنام) يملك شيئًا هو ما بين (الشاليه) و(الفيللا) في (العجمي)، وفي ذلك الوقت كان (العجمي) شاطئا شبه مغلق ترتاده الصفوة، ويهابه العامة بشدة.. ولم يكن الوقت وقت اصطياف، لذا لم يندهش (صبحي) لكل الفراغ الذي قابله به الشاطئ المظلم..

أخيرا وجد الشاليه / الفيللا، ولم يكن المدخل مغلقًا، لذا انساب إلى الداخل، وقرع الباب حتى فتحه (إبراهيم الغنام)..

ولم يكن هذا الأخير مسرورًا جدًّا..

* * *

- ٢ -

قال (محمود عوني):

- «لم يكن (الغنام) بادي السرور بهذه الزيارة، لكنه رحب بصديقه القديم، ودعاه إلى الداخل.. قال شيئًا ما عن أنه كان يتوقع قدوم (صبحي) نهارًا.. لم يتوقع كل هذا الحماس المبالغ فيه..

في النهاية اضطر إلى القبول بالأمر الواقع، ودعاه ليجلس..

كان يرتدي منامة حريريّة، مما يدل على أنه استعد لدخول الفراش، وكانت هناك منضدة عليها لفافة ورقية مفتوحة بها كائن أسود عذب الرائحة، يسموّنه (كباب).. وكانت هناك سلّة أنيقة بها بعض التفاح طوح بواحدة منه إلى (صبحي)، ولم يناوله السكين بالطبع..

جلس في أريكة مريحة، وقال:

- «الموضوع - ببساطة - هو مجلة جديدة يريدون أن يعهدوا لي بأن أكون مديرًا لتحريرها، والأمر ليس بالسهولة التي يبدو عليها، لأنني مكلف بوضع تصوّر لكل شيء.. كل شيء بدءًا بشكل الغلاف وانتهاء بمن يكتب ومن لا يكتب.. والمطلوب ألا يشبه هذا العمل أي عمل سابق..»

ثم مد يده في جيب منامته، وأخرج مظروفًا صغيرًا:

- «هاك! خذ!»

وطوح به في الهواء، لكنّ (صبحي) لم يكن ممن يجيدون لعب التنس، وارتطم المظروف بكتفه ليسقط أرضًا..

قال (الغنام) وهو يعود لاسترخاء جلسته:

- «هذه أتعاب مقدمة.. وينتظرك مظروف مماثل بعد الانتهاء من كل شيء.. من المفروغ منه أننا لن نعود إلى (القاهرة) إلا بعد ما نضع تصورًا شاملًا محكمًا لكل شيء..»

وأشار لرأسه بسبابته:

- «نريد بعض (المخمخة) إذن..»

قضم (صبحي) نصف التفاحة مرة واحدة..

وراح يلوكها بصعوبة بأسنانه المنهكة، وتساءل:

- «هل لهذا جئت هاهنا؟»

وكان يعرف الإجابة.. بالطبع ليس لهذا فقط.. لكن (إبراهيم الغنام) قال في جديّة:

- «بالطبع.. لقد فررت من كل أعبائي.. لا أحد يعرف أنني هنا، ولسوف تنقلب (القاهرة) رأسًا على عقب بحثًا عني؛ لكنهم لن يفكروا في هذا الشاليه.. إنني متفرغ للتفكير العمييييق..»

لم يكن (الغنام) متزوجًا.. ربما تزوج مرة وطلق، ولشد ما حسده (صبحي) على هذا.. لهذا يحتفظ بنضارته وخلوه من الهموم.. صحيح أن المرء يتزوج، كي لا يكون وحيدًا في شيخوخته، لكنّ (الغنام) لن يكون وحيدًا أبدًا.. سيجد دومًا من يهتم به، ويقدم له ملعقة كبيرة من شراب السعال حين يتعالى سعاله ليلًا.. حتى لو ابتاع هذه الخدمات بماله..

قال (صبحي) وهو يُلقي ما تبقى من التفاحة في فمه:

- «معذرة.. لكني لا أستطيع التفكير بمثانة مليئة..»

- «هذا حقك البشري.. (التواليت) على يسارك عند نهاية السلم..»
ونهض (صبحي) متثاقلًا.. فوجد درجًا خشبيًا ينزل لأسفل إلى ما يشبه القبو..
كان الحمام كما وصفه الرجل.. وكالعادة كان عطرًا فاخرًا به مرآة هائلة الحجم، تراصت على رفها زجاجات من العطور و(اللوسيون) تفوق ما في أي متجر كبير..
غسل (صبحي) وجهة المبتل بالعرق من وعثاء السفر، ورش عطرًا ما من زجاجة تحت إبطيه..
بدأ ينتعش، وأضافت المثانة الفارغة انتعاشًا إلى انتعاشه، فغادر الحمام، عازمًا على العودة إلى جلاده..
هنا رأى الغرفة المفتوحة أمام الحمام..

* * *

كانت الجدران عارية تمامًا إلا من القرميد، ومن السقف تدلى مصباح متهالك.. أضاءه فوجد أن الغرفة أقرب إلى حمام آخر تحت الإنشاء.. بها صنبور ماء يتدلى من ماسورة عارية، وبها فتحتا صرف في الأرضية..
كانت هناك شكائر من الأسمنت مكدسة في الركن، وعدة صفوف متراصة من القرميد... كما كانت هناك أدوات بناء: رفش وتلك الأداة التي يستخدمها البناءون في وضع الأسمنت.. وكانت هناك كمية لا بأس بها من علب تحوي بلاطا قيشانيا ـ قبل عصر السيراميك طبعًا ـ وكل ما يوحي بأن هذه الغرفة ستتحول إلى شيء آخر، ما إن يسمح الوقت بذلك.. هذه الغرفة بدورها توحي بشيء ما لا يدري كنهه..
تأمل المكان في اهتمام، ثم غادره بعد ما أطفأ النور...
كان الباب مواربًا، لذا تركه كما رآه، وصعد في الدرج إلى حيث كان (إبراهيم الغنام) يفرز محتويات ملف كبير..
- «شفيتم!»
قالها باسمًا في سخرية، ثم دعاه إلى الجلوس بجواره...
- «أريدك أن تدرس هذه الأوراق.. كن حرًا تمامًا في التعديل أو الحذف..».
هنا رفع (صبحي) وجهه في تحد، وقال:
- «ومن قال إنني قبلت؟»
بهت (الغنام) قليلًا، ثم هتف:
- «لقد تقاضيت أتعابك!»
- «لم أمس المظروف.. أعتقد أنه في موضعه على الأرض لو لم أكن مخطئًا.. وعلى كل حال أنت لم تناولني شيئًا في يدي، بل ألقيته في وجهي إلقاء»
وضع (الغنام) الملف جانبًا، وقال بتؤدة:
- «(صبحي).. أنت لا تملك الرفض.. أنا بحاجة إليك، وليس من المعتاد أن أكرر هذا مرّتين..»
- «وأنا مصر على الرفض..»

- «والأسباب؟»
ابتسم (صبحي) في مرارة، ونظر إلى حيث كان المظروف:
- «كم في هذا المظروف؟»
- «خمسون جنيهًا.. لماذا تسأل؟»
- «لأنني سئمت الاستسلام.. لقد استسلمت لك مرارًا، وصنعت نجاحك، لكنّ المكافأة في كلّ مرّة كانت بضعة ملاليم.. حتى الكلاب قد تعض صاحبها إذا ما بالغ في إساءة معاملتها..»
- «خمسون جنيهًا؟! يا لك من جشع! إن طيبة قلبي مع صديق قديم تدفعني إلى إذلال نفسي دون مبرر.. أنت لم ترَ هذا المبلغ، وفي الغالب لن تراه أبدًا.. هل تعرف السبب؟»
- «إنني أتحرق شوقًا لمعرفته..»
اشتعل الغضب نارًا في عيني (الغنام) وصاح:
- «لأنك أحمق! لأنك بلا مواهب ولا قدرات.. إن الحياة تحسن اختيار من تهبه ثمراتها... فقط الموهوب والذكي والبارع ينالون كل شيء، بينما أمثالك ينحدرون.. ينحدرون.. ولا يكفون عن الشكوى من الظلم الفادح الذي يلقونه.. لقد استحقوا ما حدث لهم، ولا ظلم هناك.. دعهم ينعموا بلذة الشعور بالاضطهاد.. دعهم يمارسوا (البارانويا) على أوسع نطاق.. إنهم يستحقون كل شيء لأنّهم حشرات.. وأنت مجرد حشرة لا يجب أن نتملقها أكثر من اللازم كي لا تلدغنا!»
وأخذ شهيقًا عميقًا كي يواصل الهجوم:
- «(صبحي محجوب).. إنني أخفض عرضي إلى ثلاثين جنيهًا.. وأعرف أنك ستقبلها مهما تعاليت.. لماذا؟ لأنك بحاجة إليها.. لأن أطفالك جياع، ولأن أباهم جاهل معدوم الموهبة.. ولأن.....»
لم يكمل العبارة التالية، لأن (صبحي) غرس السكين في صدره حتى المقبض..

* * *

الآن صار المشهد دراميًا بحق..
يقف (صبحي) ذاهلًا يرمق الرجل الأنيق الممدد على الأرض، ينزف دمًا من صدره بلا انقطاع..
لم يحتج إلى أن ينحني ليتحسس صدر (إبراهيم) أو نبض معصمه.. فالموت شيء يمكن معرفته بالسليقة..
ومن الغريب أنه لم يفقد ترتيب ذهنه.. لقد أثار الرجل أعصابه إلى حد غير مسبوق، وصارحه بكل ما كان كلاهما يعرفه.. لكنه يداريه خلف قناع الحضارة والتهذيب..

الآن صار الموقف تجريديًا تمامًا.. مشادة انتهت بضربة سكين كما يحدث في مقهى (شيحة)، لا في بيت مدير تحرير كبير..
يمكنه الفرار.. لا أحد يعرف أنه هنا..
لكنه كان ذكيًا بما يكفي.. لا بد من بصمة هنا أو هناك.. لقد ترك دون تحرز بصماته في كل مكان، ويحتاج إلى عشر سنوات كي ينظفها جميعًا، هذا طبعًا بعد أن يحصل على دكتوراة في العلوم الجنائية..
في قرارة نفسه لم يكن نادمًا إلى هذا الحد.. لم يكن ندمه أكثر من ندمه بعد قتل فأر تسلل إلى المطبخ.. ربما الاشمئزاز هو الشعور الطاغي الآن..
وهكذا تركز فكره في الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق: إدفن أخطاءك.. الوسيلة التي توصل إليها (قابيل) وهو يتأمل جثة أخيه (هابيل) لكنّ لم يكن هناك غراب هاهنا..

* * *

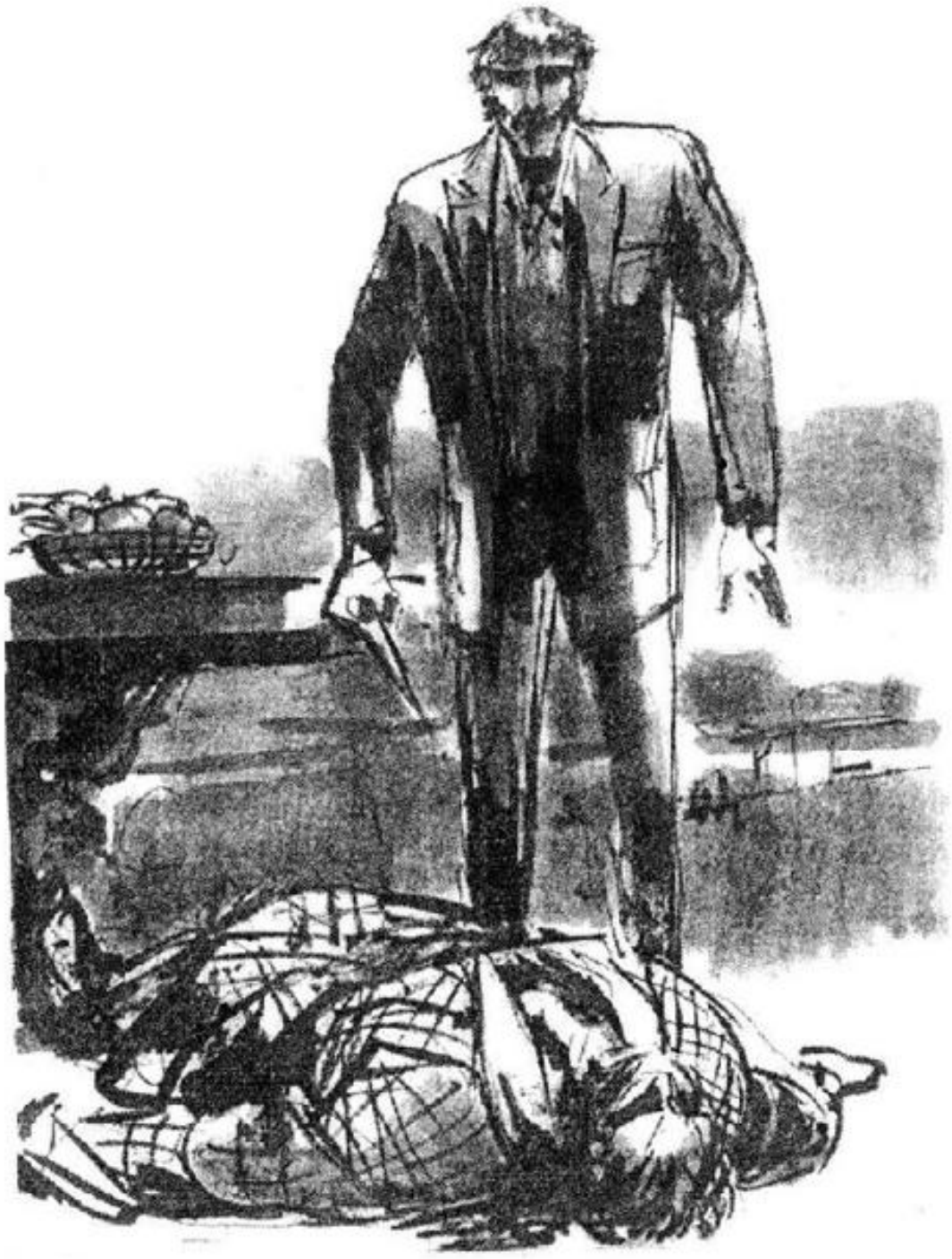
الغرفة التي أمام الحمام...
إنها توحي بشيء ما..

* * *

ولم يكن (صبحي) رياضيًا قط..
بالأحرى كان يملك جسد شيخ وقلب مومياء وعضلات طفل رضيع.. وكان داء السكري قد فتك به بشدة، مع تدخين (الجوزة) المستمر..:
لهذا لم يكن جر جثة (الغنام) عملًا شديد الإمتاع، لم يكن نزهة مريحة.. كان العرق ينساب على صلعته وتحت إبطيه، واستطاع أن يشم رائحة العطر الذي سرقه في الحمام، تفعم الجو.. إنها حقًّا رائحة (إبراهيم الغنام) المميزة، حتى كأن الرجل يملأ المكان..
هو ذا يهبط في الدرج الخشبي..
يجر الجسد جرًا إلى الغرفة التي تنتظر استكمال بنائها..

* * *

لا أحد يعرف أن (الغنام) هنا..
لا أحد يجيء لهذا الشاليه..
من المعروف أن (الغنام) كثير التنقل، كثير الاختفاء، كثير السفر إلى الخارج..
لا توجد جريمة دون جثة.. لا بد من جثة قبل البحث عن قاتل..
هذه هي المعطيات، وعليه أن يستفيد منها..



* * *

في كثير من العسر جر الجثة إلى الداخل.. تعلق الباب في خف إحدى القدمين، فحرره لكنّ الباب انغلق وراءهما..

لا بأس.. إنّه بلا قفل أصلًا..

أضاء النور الواهن، واستعد كي.....

هنا أطبقت عليه يد الجثة!

هلع ونظر مذعورًا إلى ساقه، ليجد (الغنام) وقد فتح عينيه في شراسة يعتصر ساقه بيد من حديد، ويحاول أن يمسك بالساق الأخرى..

كان المشهد مريعًا أشبه بالخضات التقليدية في أفلام الرعب، حين يعود الشرير الميت للحياة فجأة قرب نهاية الفيلم.. فقط ليتضح أنه لا يموت بهذه البساطة..

- «اتركها يا أحمق!»

وبصعوبة مد يده إلى حيث كان الرفش.. تمكّن من القبض عليه.. رفعة عاليًا ثم هوي به مرّتين..

* * *

من جديد عاد الهدوء واستتب الأمن..

عاد فؤاده إلى معدل خفقانه الطبيعي، فجلس جوار الجثة يلهث..

أخيرًا استرد قواه، فنهض...

كانت هناك قصعة فارغة ملأها بالأسمنت من جوال هناك، وجرها جرًا إلى ما تحت صنبور الماء..

الآن يجيء دور العمل الفني البارع..

جر الجثة إلى الجدار القرميدي وأراحها هناك، بحيث تحتل أقل مساحة ممكنة.. ثم مزج الأسمنت بالماء.. لو كان هناك رمل لصنع (مونة) رائعة بحق، لكنّ لا وقت للتدقيق في قواعد علم الخرسانة على كل حال...

وضع طبقة من الأسمنت على الأرض تمتد في خط بطول الجدار، ثم بدأ يرص قطع القرميد متلاصقة فوقها..

هذه هي خطّته.. لقد صنع جدارًا جديدًا يبتعد عن الجدار القديم بنصف متر.. وما بين الجدارين وجد فراغًا يصلح قبرًا دائمًا للجثة..

لن يجد أحد الجثة إلى يوم الدين.. ربما لو أزالوا الشاليه لوجدوها؛ لكنّ أحدًا لن يلاحظ أبدًا أن طول الغرفة قد انكمش نصف متر، دون سبب واضح..

- «كل شيء ينكمش في الشتاء!»

وراقت له الدعابة، فطفق يضحك، ويواصل مهمته في الضوء الخافت المؤذي للعينين..

ستفتش الشرطة كثيرًا، وستبحث في الشاليه، لكنهم لن يجدوا ما يدل على أن (الغنام) أمضى ليلتين هنا.. هو سيزيل كل الآثار وسيأكل الكباب والتفاح ويخفي الأوراق في حقيبته..

الآن يضع صنفًا ثالثًا من القرميد، ويزيد من كمية (المونة).. لحسن الحظ أن الصنبور هنا.. كان سيحتاج لنقل الماء من الحمام وياله من جهد!

لسوف يوضع اسم (إبراهيم الغنام) في قوائم من (خرجوا ولم يعودوا)، وبعد أشهر عدة سينسى الناس من كان..

بصمات؟ لن يهتم أحد برفعها، لأنّه لا جثة هنالك.. وحيث لا توجد جثة لا توجد جريمة.. سيبدو الشالية في نهاية عمل (صبحي) كأنما لم يزره أحد منذ عام..

صف سادس من القرميد.. الجدار يعلو.....

كان يلهث بحق.. مُرهقًا بحق.. لكنّ جسده لم يكن هو الذي يؤدي كل هذا العمل الشاق.. كان عقله هو الذي يعمل ويأمر..

* * *

السادسة صباحًا..

يا لها من ليلة ليلاء!

ونظر لأعلى ليجد أن الجدار قد علا تقريبًا.. حتى لامس السقف.. كانت آخر أربعة صفوف هي الأصعب، وقد احتاج إلى الصعود مرارًا على خمس شكائر من الأسمنت كدسها في شكل سلم.. رباه! لم يحسب قط أن شيكارة الأسمنت لها هذا الثقل المريع.. لا يُمكنك أن تصدق هذا ما لم تحاول جر واحدة على الأرض..

كان يدرك أنه سيمرض بشدة بعد هذا.. سيلازم الفراش شهرًا أو أكثر.. ربما.....

* * *

هنا بدأ الألم..

لم يكن تدريجيًا كما اعتاده، بل هو ألم مفاجئ صارم قاهر يتحين الفرصة في نهم.. وقد اعتاد هذا الألم وعرف مصدره جيدًا..

وأصابه الذعر وترك ما يقوم به..

كلا.. لن يموت هنا.. لن يموت بهذه البساطة.. عليه أن يهدأ قليلًا.. لكنّ محاولة الهدوء كانت تحتاج منه إلى جهد يزيد العناء على قلبه.. ما كان لهذا القلب أن يتحمل كل هذا الانفعال والجهد العضلي..

شهق في جزع.. عليه أن يغادر هذا الحمام الخانق.. عليه أن...

مترنحًا هرع إلى الباب الموصد، فقط ليكتشف المفاجأة غير السارة على الإطلاق.. الباب بلا مقبض طبعًا.. لكنه يحوي (الكالون) الداخلي، وله لسان قد برز الآن ليدخل في ثقبه..

يحتاج إلى مقبض.. يحتاج إلى جسم معدني مضلّع يدسة في الثقب ليدير به اللسان.. لكنّ كيف يجده والألم يزداد، والهواء أكثر ندرة من.. من (اليورانيوم)من الـ.....؟

دق الباب مرّتين أو ثلاثًا..

تحول الصراخ إلى عواء طويل كعواء ذئب جريح..

ثم لا شيء..

ظلام مطبق..

* * *

بعد ثلاثة أشهر فتح رجال الشرطة الشاليه / الفيللا، فوجدوا أشياء غريبة جدًا..

وجدوا جثة - تحولت إلى عظام الآن - خلف جدار نصف مكتمل.. ووجدوا هيكلًا عظميًا يحاول الزحف إلى باب بلا مقبض..

وكان هناك شيئان آخران لهما أهميّة خاصة:

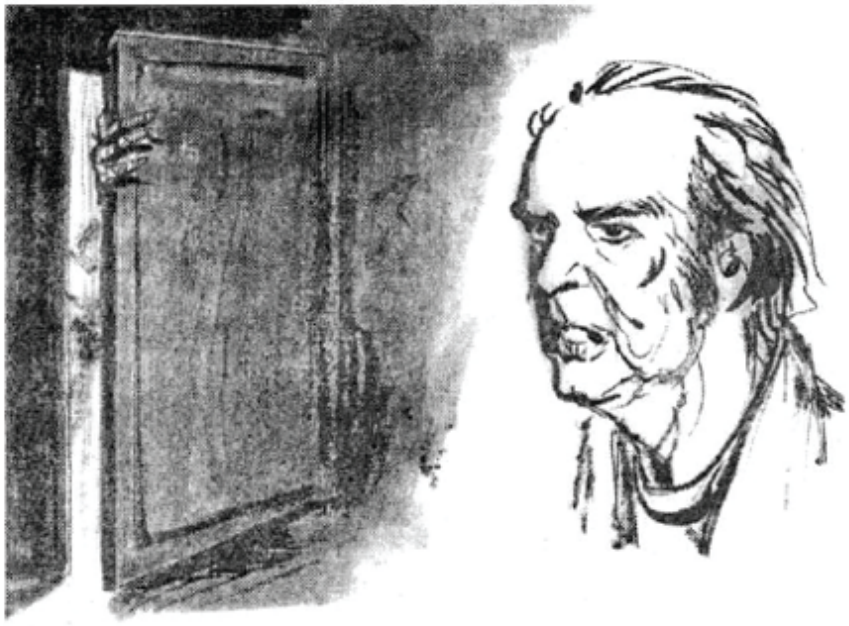
الأول هو جهاز تسجيل أداره (إبراهيم الغنام) منذ جاءه (صبحي)، وكان يزمع تسجيل كل تفاصيل المحادثة لتفريغه فيما بعد، وتنسيق أفكاره، وهو ما لم يخطر ببال (صبحي) قط، ولم ير الجهاز أصلًا..

الثاني هو مقبض باب - نصف مقبض إن صح التعبير - وجدوه مختلطًا بأسمنت جافة في قصعة..

وتساءلوا: من الأحمق الذي يخلط مقبض باب بالأسمنت؟ وما هو الغرض؟

* * *

الباب الرابع:
كلاكيت!



الباب الرابع

« كلاكيت ! »

يفتحه : « حسين أبو النجا »

« ملامح الرجل غريبة حقًا.. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر.. شعره منتصب كأشواك قنفذ، وها هو ذا يضع كفيه على جانبي رأسه ويصرخ.. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد.. »

- ١ -

قلت لـ (محمود عوني) بعد ما انتهت قصته:

- «إذن كانت القصة هكذا! إنني سمعت تفاصيل القصة حين حدثت في زمنها، لكني لم أعلق عليها أهميّة كبرى، ولم أعش فيها كما أعيش الآن.. إذن كان مقبض الباب في قصعة الأسمنت من البداية!»

ابتسم في وقار، وقال:

- «طبعًا.. لكنّ من المبالغة أن يقول إن هذا كان سينقذ (صبحي)، فالمكان ناء والمجهود كان عنيفًا..

ثمة عدالة شعرية فيما حدث، وإن كنت أكذب لو زعمت أنني مسرور بهذه النهاية..»

قالت مدام (ناهد) وهي تضع بعض الشطائر أمامنا، كانت قد جلبتها من المطبخ:

- «لقد تعاطفت مع (صبحي) أكثر من (إبراهيم الغنام)، ولعلى شريرة في هذا التعاطف..»

قال المخرج العجوز، وهو يمد يده إلى شطيرة:

- «هذا لأن القصة كلها من وجهة نظر (صبحي)، وهذا يجعلك تعيشين تجربته، وتتبنين قضيته على الفور مهما كانت خاطئة.. هذا يحدث كثيرًا في السينما حين يجعلك السيناريو تتبنين قضية لص أو قاتل، وهو خطأ أخلاقي، لكنّ النهاية تبرره.. وثمة قاعدة قديمة في (هوليود) تقول: دع المشاهد يعشق الأخطاء ثلاثة أرباع الفيلم؛ إذا كنت تنوي جعله يمقتها في الربع الأخير.. ولو كانت القصة من وجهة نظر (الغنام) لكان تعاطفنا في اتجاه مختلف تمامًا..»

ساد الصمت برهة، ثم قلت بفم مليء:

- «الباب الأول كان يخفي سرًا جهنميًا لملحن شهير.. الباب الثاني كان يداري غريقًا اتضح أنه ليس كذلك.. الباب الثالث أفسد جريمة شبه كاملة.. ترى ماذا ينتظرنا خلف الباب الرابع؟!»

ونظرت إلى المخرج العجوز (حسين أبو النجا)، وقلت:

- «هذا دورك يا سيدي..»

في عصبية قال:

- «حان أوان ذلك.. ظننتكم ستتجاهلون قصتي للأبد..»

- «بل نحن نبقي الحلوى لنهاية الوجبة...»

قلتها مداهنًا متملقًا.. فلا أرغب في إثارة غضبه في ليلة كهذه..

* * *

قال المخرج الكبير (حسين أبو النجا):

- «كنت في ذلك الحين متعاقدًا مع المنتج الكبير (....) لتصوير آخر أفلامي (فاجعة فوق السطح)؛ مع النجمة الشهيرة (حسناء) والأستاذ (عمر عزت).. من المعروف عني أنني من

المخرجين سريعى الإنجاز، وأن فترة ثلاثة أسابيع كافية جدًّا لتصوير أطول فيلم لي، كما أنني أتحرك في حدود الميزانية المقررة لا أتجاوزها..»

يتهمني النقاد بضيق الأفق والسطحية.. لكنني - ببساطة - رجل فهم الجمهور، وعرف ما يتوقعون منه، ويمكنني إنجاز أي فيلم بخلطة سرية أعرفها وحدي.. بعض الجريمة.. بعض الحب.. بطلة حسناء.. رقصة شرقية.. عصابة ما.. النهاية السعيدة والزواج.. من يتزوج من؟ البطل والبطلة طبعًا مهما تباينت شخصيتاهما..

حقًّا لن يفوز فيلم من افلامي في مهرجان (برلين)، ولن يظل في دور العرض عامًا كاملًا، لكنه يحقق هامش ربح لا بأس به للمنتج، والسينما صناعة قبل أن تكون فنًا.. إنني أضمن سرعة دوران رأس المال، وهكذا يمكننا صنع فيلم ثان فثالث، كلها تكفل الحياة الرغدة لي ولأطفالي، وللمنتج والممثل.. والمونتير.. ولم يترك مشاهد دار السينما شاعرًا أنه قد خدع.. لقد حصل على كل شيء.. وبـ (الكيلو)..

من يشكو إذن سوى النقاد المعقدين منكوشي الشعر كثيري التدخين؟

* * *

- «أكشن!»

قلتها بلهجتي الآمرة الممطوطة التي أعشقها، وهكذا هرع صبي الـ (كلاكيت) المصاب بالأنيميا يتلو أمام العدسة رقم اللقطة، وعدد مرات تصويرها، ثم نزع اللوحة وانسحب..

هدير الكاميرا العالي.. الأضواء الباهرة.. الديكور.. الممثلون..

رباه! من يزعم بعد هذا أننا نقدم هراء؟!

إن كل هذا يكلّف مالًا.. لكنه رائع ولا يُصدق..

ودنا البطل من البطلة ليلقى العبارات التي حفظها من (السيناريو)..

طبعًا لا داعي للقول إنّه حفظ هذه العبارات من ربع ساعة لا أكثر، ورآها لأول مرة في حياته من ثلث ساعة.. لا وقت لديَّ ولا لديه لجلسات الاستماع ومناقشة السيناريو وكل هذا الهراء.. لسنا في (ستوديو الممثل الشهير في (هوليوود) حيث يكون على الممثل أن يفكر ويحلم ويتنفس كبطل الفيلم، دون أن يكف عن أن يظل هو.. هؤلاء القوم لديهم الوقت والمال، أمّا هنا فأنا بحاجة لبطل يجيد اصطناع أربعة أنماط من العواطف: الغضب - القلق - الفرحة ـ الهيام.. هذا كاف جدًا..

البطلة تعطيه ظهرها وتواجه الكاميرا (هذا هو الميزانسين المفضّل لدي مهما سخر الساخرون)، بينما هو يكلمها في هيام:

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

فتقول في تعال:

- «لا تقل لي هذا... قله. لـ (نادية)...»

فيبدو الألم على وجهه.. ألم سينمائي مين الذي يحرك الملامح كلها...

ثم يقول:

- «(نادية) وأنا مجرد صديقين... لم يعد بيننا ما..... إلخ..»

هنا لاحظت أن الباب في خلفيّة الكادر يتحرك... المشكلة هي أنه واضح للعيان أكثر من اللازم، وهما وحيدان كما هو مفترض.. في العادة أنا لا أدقق كثيرًا.. في هذه الأمور، وفي أحد الأفلام دخلت البطلة غرفتها لتبكي أمام مرآتها، وحين عرض الفيلم ظهرت صورتي واضحة تمامًا في المرآة، ورآها النقاد جميعًا![2]

ماذا حدث؟ هل انطبقت: السماء على الأرض؟ هل توقفت الحياة؟ سرعان ما تمر أشياء كهذه، وينساها الناس.. لا أحد يعلق المشانق لأسباب واهية مثل هذه.. دعك من أنها أشياء تؤدي لرواج الفيلم..

ولرب من يدخل السينما فقط ليرى صورتي في مرآة البطلة، ويضحك!

- «ستووووب!»

دوّت صيحتي الغاضبة.. فهذه المرّة لم يكن من السهل أن أتجاوز عن هذا.. وما أحنقني هو أنني لا أصور اللقطة مرّتين إلا فيما ندر..

وصحت في عمال الاستديو المذعورين:

- «من الذي يحرك هذا الباب؟»

- «لا أحد يا سيدي.. لا أحد..»

وهرع أحد فنيي الكهرباء نحو الباب وفتحه.. لم يكن ورآءه شيء سوى ستار مفرود من الكتان.. إنّه ديكور مسطح ذو بعدين كل ديكورات السينما، ومن غير الوارد أن يتوارى أحد وراءه..

- «إذن تأكدوا من غلقه كي لا ينفتح..»

ولم يكن الباب مزودًا بقفل أو مزلاج، لذا تفتق ذهن أحدهم عن جلب قطعة قرميد ووضعها تحت الباب، حيث تظل بعيدة عن مجال العدسة، وتمنع الباب من الاهتزاز...

كان البطل قد انتهى من تدخين لفافة تبغه، والبطلة قد وضعت مساحيقها وأعادت لصق أهدابها الصناعية للمرة الألف هذا اليوم..

- «صمتًا! سنبدأ!»

ومن جديد جلست في مقعدي، وأطلقت صيحة البدء.. فالكلاكيت، ثم راحت آلة التصوير تهدر، و...

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

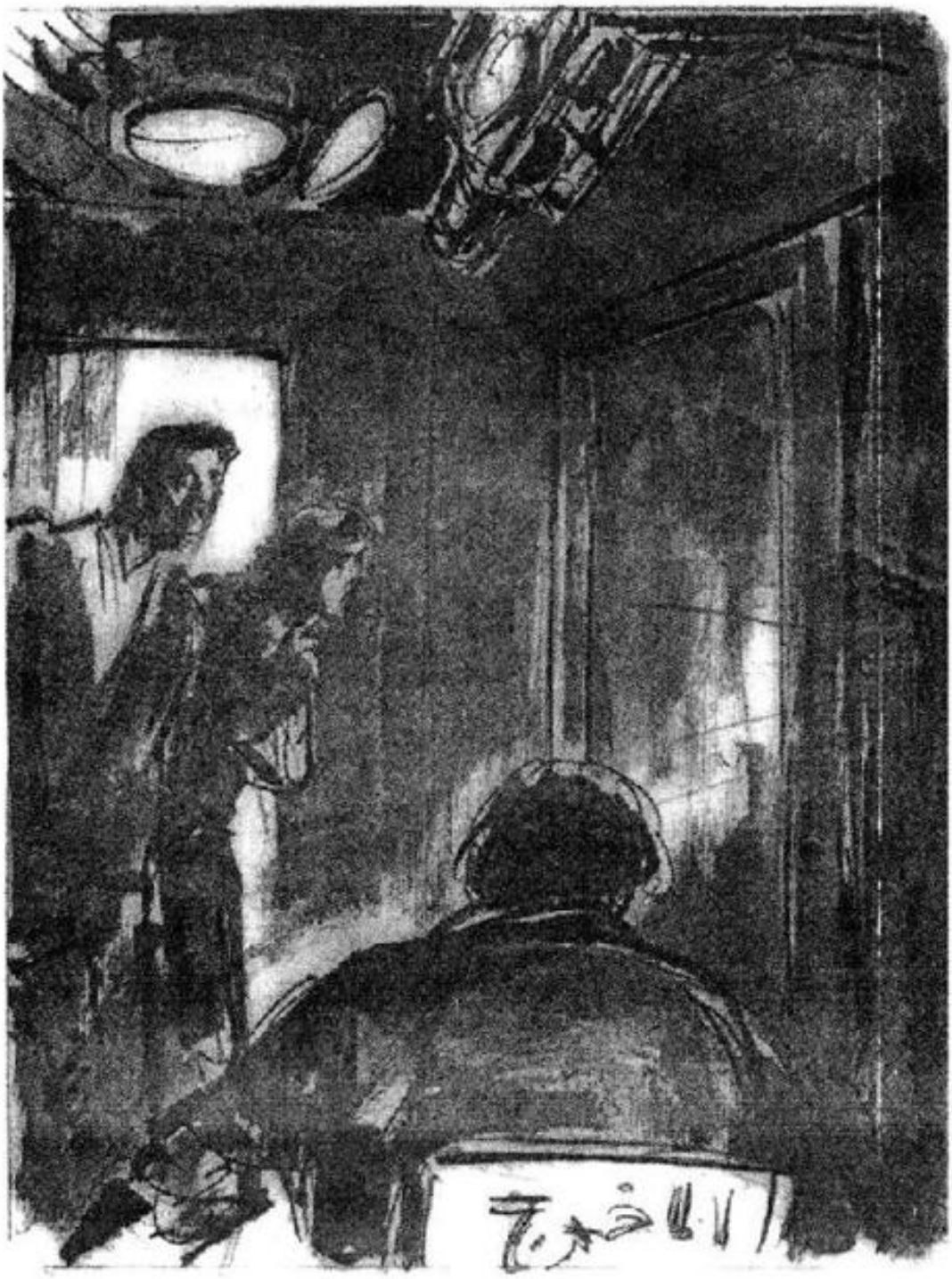
- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

- «(نادية) وأنا مجرد.....»

هذه المرّة تحرك الباب بعنف أكثر، وتعالى الصرير مع صوت قطعة القرميد إذ تحتك بالأرضية..

وتبادلنا النظرات مشدوهين.....

* * *



- ٢ -

قال المخرج العبقري (أبو النجا):

- «لكم أن تتصوروا غضبي وضيقي من هذا السخف.. نهضت بنفسي إلى الباب وتفحصته.. كان ثقيلًا إلى حدٍ ما، وقد ساعد قالب القرميد في جعل عملية فتحه جهدًا إيجابيًا، لا يمكن أن يتم بفعل الهواء..»

هنا قاطعته سائلًا:

- «لحظة.. تقول إن وراء الباب ستار قماشي.. فماذا وراء الستار؟»

هزّ رأسه، وقال:

- «لا شيء.. مجرد فرجة تقود إلى جدار.. وكان ما خطر لي هو أن أحدهم يتسلل إلى ما وراء الستار ليدفع الباب من خلاله...»

- «من هو؟»

ابتسم في تهكم، وقال:

- «كثيرون... كل الناس تملك حقدًا معينًا على العاملين في مهنة السينما، وتتمنى إفسادها.. قد يصرخ أحدهم انبهارًا حين يرى نجمة سينمائية حسناء، لكنه في قرارة نفسه يمقتها ويتمنى لها الفشل.. وكل سينمائي حاول أن يصور فيلمًا في شوارع (القاهرة)؛ يعرف جيدًا كيف يحاول الناس جاهدين أن يفسدوا ما يقوم به دونما سبب واضح..»

- «وهل وجدت رجلك الحاقد هذا؟»

- «لا.. طبعًا..»

* * *

قمنا بتفتيش الكواليس جيدًا؛ فلم نر إلا قطة وأطفالها الرضع، وقد قام العمال بطردها بالمكنسة بلا رحمة..

ثم إننا أحكمنا غلق الباب بمسمار محوى ثبتناه من الخلف؛ وبدأنا تصوير المشهد المقيت.. لثالث مرة..

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

- «ستووووب!»

لأن الباب تحرك من جديد، وبعنف يتناسب مع الإحكام الذي قمنا بتثبيته به..

ورأيت المصور يضرب كفًا بكف، على حين راح عمال التصوير يبسملون ويحوقلون، وقد أدركوا ما أدركته أنا..

ما يحدث هنا خارق لقوانين الطبيعة..

راحت البطلة تصيح في هستيريا:

- «أوف! هذه ليست سينما.. هذا ليس عملًا! لم لا تعلمونهم كيف يصنعون الديكورات قبل أن تبلونا بهم؟!»

وكنت معتادًا على هستيريا النجمات هذه؛ وأجدت امتصاصها طيلة حياته.. حقًّا لم أكن قط من المخرجين الطغاة..

- «أعرف أنّ هذا يثير الضيق يا (مدام).. لكنّ دعينا نصور هذه اللقطة، ولسوف أجد حلًا في أثناء تقطيع الفيلم..»

نفخت في ضيق، وهتفت من أنفها:

- «ماكياج!»

وللمرة الألف هرعت الماكييرة لتضع المساحيق على أنفها اللامع..

ومنى دنا مساعدي - وهو شاب ذكي سيصنع أفلامه الرديئة يومًا ما بالكيفية ذاتها - وهمس:

- «لقد انتزعت قوة ما المسمار المحوي من مكانه!»

- «أعرف.. فيما بعد سيكون لدينا وقت كاف لتطهير المكان بالبخور والأوراد؛ أمّا الآن فالوقت يعني مالًا..»

وبصوتي الجهوري المحبب صحت:

- «آكشاااان!»

ومن جديد هدرت آلة التصوير، والتمعت مصابيح (الآرك) بعد ما وضعنا (شارج) جديد في الآلة، وراح مكبر الصوت الصغير ينحدر من عل، ليواصل مهمته..

- «(مرفت).. أنت الأمل الذي انتظرته طيلة حياتي..»

هزت كتفها في ملل.. كان مللها ونفاذ صبرها اللذان بدأت التصوير بهما يرتفعان بأدائها إلى درجة الإعجاز:

- «لا تقل لي هذا.. قله لـ (نادية)..»

-«(نادية) وأنا مجرد.....

ومن جديد انفتتح الباب.. انفتح أكثر فأكثر.. كاشفًا عن الستار القماشي... ونظر لي مساعدي في قلق، لكنني أغمضت عيني بمعنى (لا مشكلة هناك).. دعوا! الأمور كما هي..

وواصل البطل حزنه، بينما الباب يواصل اهتزازه في مؤخرة الكادر:

- «(مرفت).. لو رفضت حبي سأقتل نفسي..»

ثم علا أداؤه أكثر.. وصاح:

- «سأقتل نفسي!»

تمثيل ردى جدًا أو مسطح للغاية.. لكنه يؤدي الغرض ما دام الفتى بحق وسيمًا، لا تكف مجلة (النجوم) عن نشر صورته، وتعلقها كل مراهقة حمقاء في غرفتها.. حالمة بأن يقتل نفسه من أجلها هي..

واستدار ليجري خارجًا من الكادر، على حين نظرت البطلة نحوه في شك، ثم صاحت وقد تزعزعت ثقتها:

- ((عادل)!! ((عادل)!!»

- «ستووب! رائع! إطبع!»

كذا صحت أنا وقد راق لي الأداء بشدة.. إنه ردئ.. لكنّ لن تجد أفضل منه مع هؤلاء الممثلين وبهذه الميزانية..

هنا انفجر مصباحان، وسمعنا صرخة البطلة في الظلام..

وساد الهرج والمرج...

* * *

لم تكن الحروق في وجهها مريعة.. ستشفى سريعًا وتحتفظ بجمالها الذي هو موهبتها الوحيدة...

وقبل أن تنصرف لدارها، دعت عليّ بالعمى والشلل، ودعت على الاستوديو بالخراب، واستعملت ألفاظًا يعاقب عليها القانون، تعلمتها في أزقة أجهل عنها كل شيء.. ثم أضافت:

- «لقد كان يومًا أسود من بدايته.. والآن يسرني أن أنسحب من تصوير هذا الفيلم الرديء...»

لا.. لا.. كله إلا هذا...

- «والعقد؟ والشرط الجزائي؟»

في لهجة مسرحيّة. فخيمة صاحت:

- «(بله واشرب ميته)!»

وغادرت المكان، وقد حولت الضمادات وجهها إلى ما يشبه الأخ (بوريس كارلوف) في أفلام (المومياء) التي أثارت رعبنا في شبابنا لفترة لا بأس بها..

صاح مساعد المخرج وهو يرتجف رعبًا:

- «إنّه الخراب!»

- «يا بني أنت حديث عهد بالمهنة.. لقد مررت بهذا الموقف مائة مرة، وفي كل منها كانت المياه تعود لمجاريها بمجرد أن يلمح المنتج بزيادة الأجر.. دع الأمر لي وأعد لي اللقطات التي لا تظهر فيها هذه الحدأة.. سنقوم بالبدء فيها غدًا..»

* * *

في الصباح يقول خفير الاستوديو أشياء غريبة حقًّا..

الرجل منهار متوتر الأعصاب، يقسم أنّ هذا الباب ظل ينفتح وينغلق طيلة الليل.. ثم إن أضواء الاستوديو المطفأة راحت تتوهج كلها مرارًا، ويقسم كذلك أنه سمع أنينًا متصلًا من وراء الباب، وفي كلّ مرّة كان يفتحه ويتحقق، ثم يدور حول الستار القماشي ليتنصت.. لكنه في كلّ مرّة لا يجد شيئًا..

- «الصوت يا أستاذ كان قادمًا من كل مكان ولا مكان.. كأنما الجدران ذاتها تئن!»

تأملت شاربة الغليظ ووجهه الأسمر الخشن، وقلت وأنا أبتعد:

- «يبدو أنك صرت شاعرًا على كبر! واحسرتاه على حال الرجال..»

صاح محاولًا جعلي أسمعه:

- «أنا لا أخرف.. والله على ما أقول شهيد..»

لكني كنت قد ابتعدت..

* * *

ودعاني المونتير (عباس) كي أرى معه (الراشز) Rushes، وهو مصطلح يعنى اللقطات التي تم تصويرها اليوم السابق، ومن المعروف أنه لا وقت لدى لمتابعة عملية تقطيع الفيلم.. يقولون: إن هذه فرصة رائعة للمخرج ليعيد إخراج فيلمه مرّتين، وأفضل مخرجي العالم هم من بدءوا مهنتهم في غرفة (المونتاج).. مخرجين على غرار (ديفيد لين) و(صلاح أبو سيف) و(كمال الشيخ)..

لكن من قال إنني أريد أن أكون أفضل مخرج؟ فقط أريد أن أكون أنجح مخرج.. أسرع مخرج.. أغنى مخرج..

وفي غرفة (المونتاج) - التي أمقتها - وضعوا أمامي كوبًا كبيرًا مليئًا بالقهوة.. على حين جلس (عباس) يدير آلة (الموفيولا) التي تعمل ببدال صغير، وتتيح لك رؤية المشهد على شاشة زجاجية صغيرة..

كانت تلك اللقطة الكريهة التي يصر الباب على أن ينفتح فيها في كلّ مرّة.. لدينا أربع نسخ منها، وإن كانت أول ثلاث نسخ غير مكتملة، لأن صوتي كان يقطع المشهد في لحظاته الأخيرة..

فقط النسخة الرابعة كانت كاملة؛ وحتّى مشهد هروب البطل من الكادر مصممًا على الانتحار..

وفي هذه المرّة انفتح الباب بالكامل، واستطعت أن أرى من يقف في فتحته، واقفًا خلف البطل إذ يتكلم..

- «من هذا؟»

كان هذا سؤال المونتير، فلم أرد.. لم يكن هناك جواب..

ملامح الرجل غريبة حقًّا.. عيناه جاحظتان مليئتان بالذعر.. شعره منتصب كأشواك قنفذ، وها هو ذا يضع كفيه على جانبي رأسه ويصرخ.. طبعًا صرخة صامتة لم يسمعها أحد..

وانتهت اللقطة هنا، إذ غادر البطل الكادر، وصاحت البطلة تناديه.. ثم صحت أنا بدوري أهنئهما على روعة الأداء..

وتبادلت النظرات مع المونتير أمام الشاشة الفارغة..

- «من هذا؟»

كرر سؤاله للمرة الثانية.. فقلت بصوت مبحوح:

- «لا أعرف.. ولم يره أحد في أثناء التصوير..»

وابتلعت ريقي، وأردفت:

- «هذا هو الشيء الذي كان يفتح الباب في كلّ مرّة.. لقد عجزت عيوننا عن رؤيته، لكنّ خامة الفيلم الحساس استطاعت ذلك..»

وأقشعر جلد لهول الفكرة..

لقد نجح الفيلم الخام في اقتناص دليل مادي على..... على.....

رباه!

* * *

ماذا يوجد خلف هذا الجدار؟

كانوا يراجعون التصميمات القديمة.. لا شيء سوى غرفة فارغة كانوا يستخدمونها قديمًا للمحولات، ويخزنون فيها مولد كهرباء.. ثم تم إلغاؤها منذ عدة أشهر.. وسدوا بابها بالقرميد..

كان مدير الاستوديو متشككًا كارهًا؛ لكني كنت مصرًّا، ووعدته بأن أعيد ترميم الفتحة على نفقتى الخاصّة..

وعند العصر جاء ثلاثة رجال، قاموا باستعمال المطارق والأوتاد الحديدية لتهشيم ثغرة في القرميد.. ثغرة تسمح بدخول رجل واحد لا أكثر..

وبعد نصف ساعة دخل أصغرهم حجمًا من حاملًا كشافًا ضوئيًا..

طبعًا سمعناه يصرخ..

هذا مفروغ منه وكنا نتوقعه..

* * *

وتم إجراء تحقيق سريع فعرفنا الكثير..

لقد حدث هذا في ذات الليلة التي كان البناءون عاكفين فيها على سد باب حجرة التوليد هذه..

إهمال معتاد حدث.. لقد عاد العمال إلى بيوتهم، وترك فني الكهرباء بعض الأسلاك العارية الخطرة.. وفي الليل تسلل متشرد ما لينام داخل الحجرة غير عالم بأن نهايته تنتظره في شغف..

في الصباح جاء فني الكهرباء ليجد جثة متخشبة على الأرض..

لقد حاول المتشرد أن ينام فوق قطبين عاريين لسلكين غليظين، والنتيجة هي أنه تفحم.. لم يجد الوقت الكافي ليصرخ...

وهنا اتخذ الكهربائي قراره...

لا أحد يعلم ما حدث.. لا أحد يعرف هوية المتشرد.. لن يبحث أحد عنه.. يمكن - بشيء من التدبير ـ أن يفلت من تبعات الإهمال الجسيم هذه..

وبسرعة أخلى الكهربائي الغرفة من كل ما يمت للكهرباء، ووارى الجثة المتصلبة في ركن مظلم وغطاها بالخرق القماشية، ثم خرج ليقف جوار الفتحة بانتظار عمال البناء حين يجيئون...

وخلال نصف ساعة ارتفع القرميد، ليسد باب الغرفة، وتحول المكان إلى قبر دائم للغريب، الذي لم يرتكب خطأ سوى محاولة النوم تحت أول سقف وجده..

لم يكن فني الكهرباء قد أخبر أحدًا بسره، لكنه انهار سريعًا حين استجوبناه، وحين أحسّ بأن جريمته لم تمت بعد... هناك أشياء لا يمكن دفنها تحت التراب مهما حاولت..

* * *

يمكن بشيء من الخيال أن نقول إن شبح القتيل - مجهول الاسم - أحسّ بالباب الذي وضعوه أمام الجدار.. كان بابًا وهميًا، لكنة افترض أنه يقوده إلى الخارج.. إلى حيث يعرف الناس المأساة غير الضروريّة التي جعلته يفقد حياته، ولا يحظى بدفن لائق..

لقد نجحت خطّته.. وإن تكتم الاستوديو كل شيء حتى لا يُساء إلى سمعته..

وحينما قمنا بتوسيع الفتحة، ودخلنا الحجرة المنسية، كان ما رأيناه هو كومة من الخرق البالية في ركن مظلم..

أزحنا الخرق.. فوجدنا هيكلًا عظميًا يرتدي بقايا ثياب متفحمة..

إن الجماجم تتشابه بالتاكيد.. والفارق بينها لا يعرفه سوى طبيب شرعي..

لكنّ من شاهدوا فتحتي العينين في تلك الجمجمة بالذات؛ شعروا بأنهما تحملان اتهامًا صامتًا.. اتهامًا لنا جميعًا..

* * *

الباب الخامس:
كلوستروفوبيا



الباب الخامس

« كلوستروفوبيا »

تفتحه : «هيام»

«لا تكوني بلهاء يا (هيام).. يجب أن تخرجي من هنا أو تجدي خطة ما، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشل حركتك نهائيًا..»

- ١ -

قالت مدام (ناهد) وهي تتثاءب:

- «بالله عليك! يا لها من طريقة لإمضاء الأمسية! لقد اقشعر جلدي من هذه الأقاصيص، وإنني لأتساءل عن صاحب هذه الفكرة..»

قلت في كبرياء:

- «يا له من سؤال! إنّه أنا طبعًا..»

ابتسمت وتأرجح رأسها كأنما ثملى دون طلا؛ والحقيقة هي أن الساعات التي أمضيناها هنا جعلتني أقل كراهية ومقتًا لهؤلاء القوم.. ليسوا بالسخف ولا التفاهة ولا الإملال الذي حسبته.. يُمكنك أن تحب أي إنسان - ولو كان إنسان (نياندرتال) - إذا أمضيت معه وقتًا كافيًا، وسمحت لوهجه البشري أن يلمس روحك.. حتى المخرج الأحمق والشاعرة التي تمقت الجميع.. كل هؤلاء يحملون طاقة إنسانية ما، وحين تدنو منهم تدرك أنهم ضحايا كسواهم...

قالت مدام (ناهد) وهي تنظر لضوء الفجر المتسرب على حياء من الخارج:

- «لقد نسيت ما نحن فيه.. تصوّر هذا! اندمجت في القصص حتى غابت عني تمامًا حقيقة موقفنا؛ وما ينتظرنا من علامات الاستفهام.. إن فكرتك لم تكن رديئة تمامًا يا د. (رفعت)..»

في هذه اللحظة بدأت (هيام) - ممثلتنا الصاعدة - تفتح عينيها.. لقد صار شكلها جديرًا بهذه الدقيقة.. دقيقة الاستيقاظ من النوم.. جفنان منتفخان، وشعر منكوش، ونظرة معادية كارهة للنور.. وبين شفتيها راحت تلوك ذلك الطعام الغامض الذي يلوكه النيام جميعًا..

راحت ترتجف قليلًا، فعقدت ذراعيها على صدرها، وقالت إنها تشعر ببرد شديد...

بعد ثوان.. غمغمت كالأطفال (عطشانة)، فجلب لها (محمود عوني) بعض الماء في كوب من دورق..

تثاءبت وتساءلت عن الساعة، فأخبرناها.. لطمت خديها غير مصدقة، واحتاج الأمر إلى عشر دقائق كي تعود لصوابها..

قلت لها بلهجة آمرة:

- «هيا.. قصتك!»

صاحت في رعب:

- «ماذا؟»

- «قصتك مع الباب المخيف!»

قال لي الأستاذ (محمود) في رفق:

- «صبرًا يا د. (رفعت).. المسكينة تصحو من النوم في مكان غريب ومع غرباء، لتجد من يأمرها بأن تحكي قصة عن باب مخيف!»

- «إنّه الحماس كما تعلم..»

أخيرًا عاد للفتاة وعيها - يا لها من بلهاء - وهرشت شعرها بطريقة غير رومانسية بالمرة، ثم قالت بعد ما تثاءبت كفرس النهر:

- «لدى قصة.. دعوني أحكها لكم..»

* * *

قالت (هيام):
- «يقولون إن حوادث الطفولة أشبه بالخدوش التي تترك على سطح لين من الأسمنت.. سرعان ما يجف فلا تمحى الخدوش أبدًا..
يقولون إن كل عقدنا ونحن بالغون، بدأت في طفولتنا..
يقولون.. يقولون..
وأحسبهم صادقين في هذا كله..

* * *

في طفولتي قارفت خطأ ما.. حقًّا لا أذكر ما هو.. لكنه كان هينًا بالتأكيد، وما هو الخطأ غير الهين الذي يمكن أن تقارفه طفلة في السابعة من عمرها؟
كان هذا في بيت عمتي، وكانت سيدة صارمة تؤمن بأن الأطفال (لازم يتربوا)، لهذا اعتصرت لحم ذراعي في غل بين إبهامها وسبابتها.. وراحت تضغط وتضغط، وهي تكشر عن أسنانها..
ثم دون مناقشة جرتني جرًا إلى السطح حيث (عشة الفراخ) الخالية، من بعد ما فتكت (الشوطة) بما فيها من دجاج..
كان المكان قذرًا، وفضلات الدجاج في كل مكان، لكنّ الأسوأ هو أنها أحكمت غلق الباب على من الخارج لأجد نفسي وحيدة في الظلام (كان الليل قد جاء)، دون بصيص من نور يتسلل من السلك المخصص للتهوية.. وسمعتها ـ وسط صراخي ـ تبتعد زاحفة بخفيها الثقيلين..
فقط قالت في لهجة محايدة تمامًا:
- «لازم يتربوا!»
وكذا وجدت نفسي أصرخ وأصرخ.. أضرب الجدار الخشبي بقدمي.. برأسي.. وفي ذهني تجمد كل شيء.. حتى (العاو) الذي كان يتحين فرصة كهذه ليخرج؛ أصابه الهلع فوقف فاردًا كفيه عاجزًا عن الكلام...
وبالنسبة للأطفال لا يوجد سوى المطلَق.. هم تركوني هنا، لذا سأظل حيث أنا للأبد.. لن أرى النور ثانية..
وبالنسبة للأطفال ـ كذلك ـ لا يوجد إحساس بالزمن.. لذا يصعب أن أقول كم لبثت.. بالنسبة اليّ بدا لي أنّ هذا امتد قرونًا، وبالنسبة لأبي بدا أنني لبثت ساعة..
لقد عاد ليجد أنني سجينة في (عشة فراخ) فوق السطح في الظلام، ولم أدر كيف وجدت نفسي في حضنه وهو يعتصرني بقوّة، ويقول مغضبًا لعمتي:
- «في (عشة الفراخ) يا (عنايت)؟! ماذا فعلته كي تستحق كل هذا في غيابي؟!»
ولم اسمع ما قالته عمتي بالتفصيل، لكنني ميزت آخر عبارة قالتها ألا وهي:

- «دول لازم يتربوا!»

* * *

حسن.. كانت هذه هي الخبرة العظمى في طفولتي، وكانت بداية مرض (الخوف من الأماكن المغلقة) الذي لم أشف منه قط..

فيما بعد قال لي الأطباء: إن مريض (خوف الأماكن المغلقة) لا يستطيع تذكر مناسبة معينة بدأت فيها شكواه.. كلهم يقول: لقد ولدت هكذا.. لكن - في حالتي هذه - كانت تجربة الطفولة واضحة وضوحًا مدرسيًا يثير الانبهار..

وفيما بعد عرف الجميع أنني لا أحتمل أن ينغلق باب علي، وفي الصف كنت أصرخ هلعًا لو خرجت كل الطالبات وتركنني وحدي.. كما أنني في الحمام كنت أترك الباب نصف موارب برغم أنّ هذا غير لائق، لكنّ فكرة الباب المغلق كانت تتحدى أي حياء، واعتادت زميلاتي أن يعابثنني بأن ينتهزن أول فرصة ليغلقن على أي باب؛ لكنّ رد فعلي كان في الغالب شرسًا يثير الهلع في نفوسهن..

* * *

كبرت وبدأت أميل إلى فن التمثيل.. لا أدري لِمَ، لكنّ يبدو أنّ هذا نوع من العلاج الذاتي.. ولهذا لم أعد أندهش حين أسمع عن الفرق المسرحية في المصحات النفسية.. إن التمثيل علاج لا بأس به..

اشتركت في مسابقة للوجوه الجديدة، وكان لي باع في الفرق المسرحية الإقليمية، ثم أرسلت لي مجلة (النجوم) خطابًا تدعوني فيه إلى مقابلة شخصيّة تتكون من عدة ممثلين وأستاذ مسرح عجوز..

وكما يحدث في الأسر المتوسـ... المتحفظة.. ذهبت مع (بابي) وأخي طبعًا.. و..

* * *

هنا تدخلت، لأنني لم أستطع منع نفسي:

- «تعنين بـ (بابي) أباك طبعًا؟»
- «هه؟ ماذا تريد؟»
- «الذي أنقذك من السجن في (عشة الفراخ) وأنت طفلة؟!»
- «د. (رفعت).. لا أفهم ما ترمي إليه..»
- «لا شيء.. أكملي قصتك..»

* * *

قالت (هيام) وهي ترمقني في لوم:

ـ «أجريت المقابلة الشخصية بنجاح، وأديت مشهدًا قصيرًا من فيلم لـ (فاتن حمامة) حفظته عن ظهر قلب.. الحق إنني كنت محظوظة، لأنني نلت قلوبهم وقبولهم من اللحظة الأولى، وعرفت أنني نجحت..

بعد هذا ترددت مرارًا على مكتب المنتج الذي رشحوه لي؛ وأعطاني (سيناريو) رديئًا لم يرق لي قط، لكنه أخبرني - في أدب ـ أنني لا أملك بعد الحق في الرفض..

وقال: Take it or leave it (خذيه أو اتركيه)، لكنّ أحدًا لن يقدم لك فرصة أخرى..

كان الإغراء شديدًا.. أن أرى وجهي مجسمًا على شاشة السينما العملاقة.. وعلى الملصقات.. إنها اللحظة التي يكفت فيها المرء عن أن يكون شخصًا عاديًا، ويتحول إلى رمز مطلق كالحق والخير والجمال..

كان عليّ أن أقبل، وظللت آمل أن أصل إلى درجة من القوة تتيح لي الاختيار.. لكنّ هذه اللحظة لم تأت قط..

وجاء اليوم الذي وقفت فيه أمام العدسة، و(الدوللي) يلاحق حركاتي، بينما الأضواء الساطعة تكشف كل تجعيدة وكل خلجة في وجهي.. الحق إنّه شعور رهيب، ولا داعي لأن أقول إنني فقدت الوعي في المرّة الأولى..

لكني - ببطء ـ بدأت أتخذ صورة النجمة متوسطة الشهرة، وكان التعليق الذي يلاحقني لا يتغير: فتاة بارعة الحسن لكنّها بلا موهبة، وصوتها مشروخ، ووجهها له كل القدرات المعبرة التي يمكن أن تجدها في وجه الحصان..

* * *

وضمت (هيام) شفتيها ونظرت للسقف كأنما تتذكر، فخفق قلبي، لأنهّا في هذه اللحظة بدت كـ (ماجي) تمامًا.. قالت:

- «لا يهم.. لقد صرت شهيرة، وظهر وجهي ثلاث مرات على غلاف مجلة (النجوم)، وصارت لي شقّة في (جاردن سيتى) تنهمر عليها مكالمات المعجبين والمعجبات..

لكن داء (الأماكن المغلقة) لم يتركني لحظة..

* * *

- ٢ -

قالت (هيام):

- «كان اسم الداء كما وصفه (مراد) معالجي هو (كلوستروفوبيا).. وهو مكون من مقطعين (كلوسترو فوبيا) يقولون إن معناها (رهاب الغرف المغلقة).. وقد حفظت الاسم بلا عسر لأنني كتبته في كل أوراقي، وعلى كل جدار من شقتي..

أنا مصابة بالـ (كلوستروفوبيا).. قلتها لأمي فضربت بكفها المفتوحة على صدرها، وصاحت:

- «يا لهوي! لا تقولي هذا علنًا يا مجنونة وإلا لن يتزوجك أحد! كنت دومًا أحذرك من الخروج للمدرسة دون إفطار!»

* * *

ظهر (عادل) في حياتي بعد ما عرض فيلمي الثاني..

تعرفته في حفل بعيد ميلاد إحدى الصاعدات مثلي.. كان مهذبًا له كل الصفات التي يمكن أن تصف بها رجلًا وسيمًا، لكنه ـ لا أدري السبب - بدا لي سمجًا يتطرف نوعًا، وفي طباعه شيء من طبائع الذبابة..

كان يلاحقني دائمًا، وله طريقة معينة يلتقط بها خيوط أية محادثة تخصني، ليتدخل فيها بالإجابة والتعليق كأنما هو مندوبي الصحفي أو خطيبي مثلًا[3]...

كان يهيم بي حبًّا، لكنّ هذه مشكلته لا مشكلتي.. لست مطالبة بأن أحب كل من يحبونني، وإلا لقضيت حياتي دون شاغل آخر..

لكن الفتى صار كابوسًا دائمًا.. ما من حفل أو مكان أرتاده إلا وأجده.. وحتّى في أثناء التصوير في الاستوديو كنت أجد وجهه السمج يبتسم في ثقة مشجعًا لي.. ومن نافلة القول أن أقول إنّه كان صاحب علاقات عديدة في الوسط الفني ولم يكن وجوده مستغربًا في أي مكان.. باختصار: لا مفر منه..

في النهاية استسلمت وتركته يحيط إصبعي بخاتمه الذهبي في حفل خطبة كان حديث الصحف وقتها..

* * *

لم أكن سعيدة على الإطلاق..

المفترض أن تسعد الخطبة أية فتاة، لكني لم أعد أية فتاة.. لقد صرت رمزًا كما قلت، ومن حقي اختيار أي شاب في أية لحظة يخطر لي هذا، وعليه أن يرقص فرحًا وفخرًا..

ما الذي يرغمني على معرفة هذا المهندس ثقيل الظل؟ إنّه لا يعرف سوى الإعجاب بنفسه، ولا يملك من الأفكار إلا كل ما هو قريب ومطروق وممل.. وكنت أنا مجرد ديكور أنيق يجمل به نفسه..

وجاء الأوان الذي صارحته فيه بأننا لا نصلح لبعضنا..

كان طفلًا عنيدًا اعتاد الاستحواذ على كل شيء.. لم يطق أن تتخلى عنه دميته الجميلة.. الأطفال يلقون ألعابهم من الشرفة حين يملونها، ولم يحدث قط أن ألقت دمية بطفل من الشرفة..

وكما توقعت توهج الغضب في عينيه.. غضب وحشي، وهتف:

- «لا يا (هانم)! أنا لا يسهل الخلاص مني.. لن يكون ذلك إلا بإرادتي واختياري!»

ثم فرد ذراعيه في دهشة تمثيلية:

- «ثم ماذا يقول أصدقائي عني؟ لقد تركته النجمة الكبيرة، لأنّه لا يناسبها؟ ما هي الصورة التي سيتركها انفصالنا لديهم؟»

كنت أرتجف خوفًا، لكني قلت في ثبات:

- «(عادل).. أنا أتحدث عن مستقبلي، وليس المستقبل رهنًا بنزوات المجاملة، وقد أغلقت كلماتك هذه باب الرجعة لو كان هناك واحد!»

ووضعت الخاتم في كفه دون كلمة، عندها ابتسم بخبث، وقال:

- «باب الرجعة! إن هناك أبوابًا مغلقة أخرى!»

* * *

كانت كلماته كنبوءات العرافين الغامضة، التي تتضح سطورها فيما بعد.. ولم أفهم هذا إلا في وقت متأخر جدًّا..

هأنذا أركب سيارتي الجديدة عائدة من الاستوديو بعد انتهاء التصوير.. النصيحة التي يقولونها دومًا للأنثى سائقة السيارة هي:

«انظري جيدًا تحت المقعد الخلفي قبل أن تقودي.. نصيحة جيدة لكني نسيتها..»

ها هو ذا من يقول لي: توقفي!

أوقفت السيارة على جانب الطريق، وأقول في دهشة:

- «(عادل)! كيف تسللت إلى سيـ...؟»

وفي اللحظة التالية هوى شيء ثقيل على مؤخرة عنقي، وساد الظلام...

* * *

الآن أصحو لأجد نفسي على أريكة قديمة مهترئة.. الغبار في كل مكان، غرفة ضيقة تمامًا.. هذا ما استطعت أن أراه على ضوء متراقص لشمعة مثبتة على المسند الخشبي للأريكة..

أين أنا؟ ماذا حدث؟

طبعًا من الواضح أنني مخطوفة.. وخاطفي هو (عادل) طبعًا..

يا له من أحمق! يظن أنني بهذا سألين؟ لعله شاهد فيلم (جامع الفراشات) حين قرر البطل المختل عقليًا أن يحتفظ بحبيبته في داره مع مجموعة الفراشات الخاصّة به، والغريب أنها بدأت تميل إليه في النهاية.. لكنّ (عادل) أحمق بالتأكيد..

ستنقلب الدنيا بحثًا عني، ولسوف يكون اسمه هو أول اسم في قوائم الشرطة، لأن قصة انفصالنا وتهديده على كل لسان..

ماذا يرمي إليه هذا المدلل؟

وكان أن وجدت ورقة موضوعة بعناية على الأريكة، تجيب باختصار على كل أسئلتي..

رحت أقرؤها في ضوء الشمعة وأرتجف:

«حبيبتي..

«ما كنت أتصور أن أعاملك (بهزه) الطريقة يومًا، لكنك قد أرغمتني على (هاذا).. [سأحاول أن أتجاوز عن أخطاء اللغة ما دمتم تعرفون أن (عادل) خالي العقل وجاهل]..

«حين تطالعين هذا الخطاب، سأكون في طريقي إلى (بيروت) لأستجم بعض الوقت، وهو وقت قد يطول حقًّا..

«هذا البيت يخص قريبًا بعيدًا لي، وهو مغلق منذ أعوام طوال، لكنّ قليلين يعرفون أن مفتاحه معي، وهو بعيد تمامًا عن العمران.. وبلا جيران على الإطلاق، وآيل للسقوط بشدة...

«ستجدين الكثير من الطعام والمعلبات، وصنبورًا يمدك بالماء لأني لا أريد لك أن تموتى جوعًا أو ظمأ..

«وماذا عن الموت رعبًا؟

«هذا وارد بالتأكيد.. فقد عرفت جيدًا خوفك من الأماكن المغلقة، وأنت الآن في أكثر الأماكن انغلاقًا في الأرض.. هذه حجرة ضيقة قمت بإحكام غلق بابها ونافذتها الوحيدة، والبيت كله عتيق متهالك، لا يمكن المشي فوق لوح خشب دون أن يتهشم إلى نصفين، ولا يمكن الوثب في المكان دون أن يتساقط المصيص من السقف على رأسك..

«لقد تعمدت التأكد من عدم وجود ثعابين أو فئران كي لا أكون قاسيًا، لكني سأتركك تستمتعين بحق برهاب الأماكن المغلقة كما تسمينه.. وستطول فترة استمتاعك كثيرًا جدًا، لأن أحدًا لن يبحث عنك هنا.. سيبحثون عنى ليستجوبوني، لكنّ كيف يجدونني في (بيروت)؟!

«سأعود يومًا، وعندها من يدري؟ ربما يكون كبرياؤك المرضي قد تهاوى بعض الشيء.. ربما يمكننا الكلام عن مستقبل مشترك

خطيبك (عادل)»

* * *

ما إن قرأت الخطاب، حتى تلاحقت أنفاسي، وشعرت بالشعور المعتاد في هذه المواقف: الاختناق.. الحاجة للهواء التي تدنو من الذعر..

ونظرت في هلع إلى الشمعة.. إنها الوحيدة ها هنا.. سيسود الظلام بعد وقت قد يطول أو يقصر، لكنه آت لا محالة.. وعندها.....

طار قلبي وعقلي شعاعًا، ورحت أبكي وأصرخ.. أصرخ وأبكي..

ومن جديد ـ كما في طفولتي - رحت أضرب الجدران مولولة طالبة الغوث.. أنا لم أفعل شيئًا.. لم أفعل شيئًا!

* * *

«دول لازم يتربوا!»

* * *

لبعض الوقت جننت تمامًا.. رحت أتوسل إلى عمتي كي تطلق سراحي.. أنادي أبي.. أتحاشى فضلات الدجاج على الأرض، ثم أثوب إلى رشدي.. فأنادي (عادل)..

وبعد ساعة رقدت منهكة أرتجف..

كانت الشمعة طويلة لحسن الحظ، كأنها من شموع الزفاف، وقدرت أن أمامي ساعة أخرى أنعم فيها بنورها المخيف..

ساعة.. و.....؟

من أشعل هذه الشمعة يا ترى؟ بالتأكيد (عادل) أشعلها جواري، ثم فر من المكان قبل أن أفيق، وأوصد الأبواب بعناية.. هل يعني هذا أن الوقت كان ضيقًا أمامه في أثناء عملية حصاري؟

حملت الشمعة في يدي، وأمرت نفسي بالتماسك.. لا تكوني بلهاء يا (هيام).. يجب أن تخرجي من هنا أو تجدي خطة ما، قبل أن يتكفل الظلام الدامس بشل حركتك نهائيًا..

كانت الحجرة ضيقة ـ كما قال ـ بها نافذة موصدة بعناية، وقد ثبت عليها لوحان من الخشب بعدد من المسامير يفوق الخيال.. لو لم أجد (بنسة) هاهنا لكان هذا السبيل مستحيلًا..

يوجد باب.. باب عتيق الطراز لا يبدو بهذا التماسك...

لقد أغلقه (عادل) بقطعة خشب رقيقة واهية.. وكان من الطراز الذي ينفتح للخارج.. يبدو هذا حلًا لا بأس به...

ونظرت في الحجرة حولي بحثًا عن جسم خشبي أو ثقيل.. كانت هناك في طرف الغرفة مكتبة متسخة مغطاة بالغبار ترتفع إلى مترين، أمامها مقعد خشبي يبدو ثقيلًا إلى حدٍ ما..

قمت بتثبيت الشمعة إلى الأرض.. وانتظرت حتى انتظم وهجها، وبدأت أتحرك في رقعة الضوء الخافتة..

حملت المقعد الخشبي بكثير من جهد، واتجهت إلى الباب، و.. بوم! دوى الصوت كالانفجار في الغرفة الضيقة.. وبدأ الخشب يذعن قليلًا.. ضربة ثانية ثم ثالثة..

توالت الضربات، وأملي يزداد..

أخيرا بدا الباب مترنحًا بانتظار الضربة الأخيرة التي تقهر عناده، وهي ضربة تحتاج إلى اندفاع.. ربما محاولة بالكتف كما يفعل المخبرون في السينما حين يقتحمون وكر عصابة..

تراجعت للوراء وأخذت شهيقًا عميقًا.. و.....

ثم لفت نظري شيء معين..

* * *

كان هناك باب وراء المكتبة!

باب ثان بالغرفة حاولت المكتبة أن تداريه لكنّها لم تستطع.. ظل إطاره بارزًا إلى جانبها.. وهذا – ببساطة - معناه أنّ هذا هو الباب الحقيقي، وإلا فلماذا داراه (عادل)؟

سؤال جديد: كيف خرج (عادل) من هذه الغرفة؟ النافذة والباب كلاهما مغلق ومُحكَم من الداخل، ولو خرج من باب تدارية المكتبة، فكيف عادت إلى مكانها بعد رحيله؟

إجابة منطقية: (عادل) في مكان ما في هذه الغرفة! ربما يتوارى في مخبأ سرّي أو وراء الأريكة أو.... لا بد أنه كذب بصدد السفر إلى (بيروت)... وهذا يفسر الشمعة المضاءة بجواري.. لا بد أنه كره ألا يرى منظري مذعورة.. درت حول الأريكة في توجس لأرى..

ولم أجد الوقت الكافي لأصاب بالذعر للاكتشاف الرهيب؛ لأن (عادل) وثب بالفعل من وراء الأريكة، صائحًا:

- «مفاجأة!»

كان يحمل مطرقة في يده.....

وهكذا أطلقت صرخة وتراجعت للوراء، نحو الباب الذي أوشكت على اقتحامه.. وأزمعت أن أحاول الآن..

لقد جن الفتى.. جن تمامًا.. في ضوء الشمعة بدا لي كشيطان رجيم يريد تهشيم رأسي..

اندفع نحوي فتراجعت مبتعدة عن الباب، وفي اللحظة ذاتها لم يستطع التوقف... اندفع نحو الباب كثور هائج، فلم يتحمل الباب هذه الضربة الأخيرة وانفتح للخارج..

وسمعت صرخة رعب هائلة، ثم اختفى (عادل) من أمامي..

ومن حياتي أيضًا..

* * *

كنت واقفة أرتجف أمام الباب المفتوح، أرمق الهاوية التي سقط فيها.. لقد كانت شرفة! شرفة سقطت منذ زمن.. لكنّ بابها ظل هناك، وكانت على ارتفاع ثلاثة طوابق من الطراز القديم... أي ما يعادل ستة طوابق من الطراز الحديث!

والهواء قد اصطبغ بلون الغسق المهيب..

كانت الشرفة تطل على فناء فسيح ملئ بالمهملات، وبعض برك الماء الآسن، ووسط القاذورات وجدت جثة (عادل) وهو يرمق السماء غير مصدق ما انتهت إليه دعابته..

وارتجفت في هلع..

هذا المصير كان بانتظاري لو حاولت اقتحام الباب المغلق..

(عادل) كان يتوقع هذا ويتمناه، وترك لي شركًا متعمدًا هو لوح الخشب الواهي على الباب، ليغريني بالمحاولة، بالطبع بعد ما أعد الباب لينفتح للخارج..

كان يلاعبني كقط يتسلى برؤية محاولات فأر للتملص..

* * *

وحين استطعت أخيرًا أن أزيح المكتبة الثقيلة، استطعت أن أمد يدي إلى مقبض الباب وأفتحه في حذر..

أفتحة متوقعة الأسوأ..

لا شيء سوى درجات تقودني إلى أسفل.. لقد نجوت، ولقي (عادل) مصيرًا لم يتوقعه قط.. والأقسى هو أنني لن أبلغ الشرطة كي لا أسبب شوشرة.. المنزل متهالك و(عادل) يملك مفتاحه.. لقد حدث خطأ جسيم يا سيدي.. لقد نسي أن الشرفة لا وجود لها.. هذه الأشياء تحدث..

من يدري؟ لربما انتحر بسبب فشل قصة حبّه لممثلة حسناء تُدعى (هيام).. هل تعرفها؟ إنها جميلة جدًا.. لكنّها لا تجيد التمثيل..

حقًا ما أخطر ما قد ينتظرنا خلف باب مغلق!

* * *

«دول لازم يتربوا!»

* * *

الباب السادس:
أمنية واحدة



الباب السادس

« أمنية واحدة »

تفتحه : «مدام ناهد»

«تقززت من الفكرة، لكننى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشيء المقيت أمامي.. ترى لماذا قبلت المبيت ها هنا؟»

- ١ -

الآن يمكن القول إننا في النهار..
الضوء الأبيض الساطع النقى يتسرب من كل الستائر، وتلك الدغدغة في أذهاننا جميعًا تجعل الرؤية مشوشة والخواطر مضطربة.. وقال (محمود عوني) ناظرًا في ساعته:
- «لقد قضينا الليل بأكمله ها هنا.. تصوروا هذا!»
لكنّ أحدًا لم يتصوّر لأن هذا هو ما حدث فعلًا.. ونهضت متثاقلًا لأفتح نافذة وأنظر إلى الخارج عبر القضبان الحديدية.. سعلت مرّتين بسبب الهواء النقي الذي لم أعتده من قبل، ثم عاودت النظر.. حقًّا هو منزل منعزل تمامًا، ناء عن العمران.. ومهما صرخنا منادين لن يسمعنا أحد..
قلت دون أن ألتفت:
- «لقد دنا موعد خلاصنا.. حتمًا سيحدث شيء في صالحنا..»
قال المطرب الولهان بصوته المبحوح:
- «حان وقت سماع قصتك يا د. (رفعت)..»
- «أفضل الانتظار للنهاية.. إن قصتي رهيبة بحق، وأفضل أن يكون النهار قد أعلن كامل ملكوته حتى لا أتلف أعصابكم..»
- «إذن هو دور مدام (ناهد)؟»
- «لو سمحت بهذا..»
جلست مدام (ناهد).. وأصلحت وضع شعرها المستعار الخزفي على رأسها، وكان قد اتخذ كل الأوضاع الممكنة منذ بداية السهرة، حتى لم يعد شعرًا مستعارًا، لكنّ عمامة على رأس (مهراجا) هندي مخبول..
قالت بعد شهيق عميق:
- «حقًّا كانت لي قصة مع باب مغلق.. لا أدري إن كانت مخيفة.. لكنّها بالتأكيد شائقة..»

* * *

الباب الأول كان يدارى سرًا شيطانيًا لملحن شهير..
الباب الثاني كان يداري غريقًا اتضح أنه ليس كذلك..
الباب الثالث كان سبب فشل جريمة..
الباب الرابع كان يخفى انتقام شبح من قاتليه..
الباب الخامس كان شركًا مميتًا..
أمّا بابي أنا فكان يختلف كثيرًا جدًّا..
كان هو تجسيد كوابيسي كلها.. ولكم تمنيت ألا ينفتح أبدًا..

* * *

سافر (جابر) إلى مؤتمر علمي في (اليابان).. مؤتمر له ذلك الاسم الطويل الذي لا يمكن حفظه على غرار (المؤتمر الرابع عشر لجراحات الأنسجة المكونة لعناصر الدم - ورشة عمل).. إلخ.

ولما كانت علاقتنا حميمة جدًا؛ كان الوداع مؤثرًا بحق...

- «حان الوقت.. سلام!»

- «حسن..»

ووضع جواز السفر تحت إبطه، ولحق بالسائق.. وهو مشهد رأيته عشرات المرّات في حياتي.. كنت أصر على أنه لا يحبّ شيئًا في الكون سوى عمله وسوى نفسه، بينما كان يرى أنني لا أحب سوى المال والمظهر الاجتماعي.. محاولة الظهور كـ (ليدي)، ذلك الداء الذي يصيب زوجات الأطباء الناجحين كثيرًا جدًّا...

أنا لم أطلب شيئًا سوى أن أجده بجانبي... طيلة حياتي الزوجية كنت أتصرف كأرملة.. أفعل كل شيء وحدي.. أحضر الحفلات وحدي.. أذهب للأعراس وحدي.. أتعاقد على الهاتف وحدي.. أدفع العوائد وحدي.. أزور شقيقاته وحدي.. أشتري ثيابي وحدي..

فقط حين يظهر - في الثالثة بعد منتصف الليل - أتذكر أنني متزوجة وأن زوجي حي يرزق.. لكنّ هذا لا يدوم أكثر من نصف ساعة بعدها يتعالى شخيره، وفي الغالب يغادر الدار في السابعة صباحًا وأنا نائمة، لهذا تعد له الخادمة طعام الإفطار..

والكارثة هي أن كثيرات يحسدنني على هذا الزوج الناجح، ويتململن من أزواجهنّ الموجودين بكثرة، ولا يكفون عن العبث في أصابع أقدامهم على الأريكة، وهم يتابعون بتوتر مباراة الأهلي الأكثر أهميّة لهذا الموسم...

زوج غير موجود أبدًا.. وزوج موجود دائمًا..

وعلى المرأة أن تختار أحدهما للأسف..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت (نرمين) صديقتي، وهي أرملة شابة تعيش في (المقطم) بدورها:

- «(نرمين).. هل لديك ارتباطات لهذه الليلة؟»

دوّت ضحكتها الرفيعة الشبيهة بضحكة (عرسة) أصابها سرطان الرئة، وقالت:

- «لماذا تتحدثين بهذه الصيغة الرسمية؟ ليست لدى ارتباطات طبعًا.. إن بعضهن آتيات لزيارتي لو كان هذا لا يضايقك..»

- «البتة..»

وهذه من أوجه الخلاف بيني وبين زوجي، فأنا اجتماعية كأفراس النهر، بينما هو متوحد نوعًا، وإن كان يقبل الاجتماعيات، لأنهّا تتيح له التألق الإعلامي الذي يهواه...

وهكذا ركبت سيارتي الصغيرة، وتوجهت إلى منزل (نرمين)، وهي لا تعيش وحدها لكنّ لديها طفلين وخادمتين.. وهذا شيء محبب في مكان منعزل كهذا..

وفي دارها احتشدت أربع نساء من الشلة، بعضهن أعرف جيدًا، وهن جميعًا من نادي (الأرامل/المطلقات/المحبطات) الذي انضممت له من زمن.. في هذا النادي يغدو الرجال شيئًا منسيًا بعيدًا أو مكروهًا كالجحيم..

كان الكلام تافهًا سطحيًا... كالعادة، والدعابات مكررة.. باختصار كانت أمسية رائعة من الطراز الذي يروق لي!

وفي الحادية عشرة مساء فرغنا من العشاء، وجلسنا على مائدة مستديرة نلعب (الكونكان) ونصغي لغناء (أم كلثوم)، وكانت هناك امرأتان تدخنان، رفعت واحدة منهما رأسها للسقف، وراحت تنفث الدخان في هيام.. وتغمغم:

- «يا سلام يا ست!»

بعد نصف ساعة، وقفت (نرمين) وأعلنت أنها تشعر بالملل، وأن ألعاب الورق لم تعد تروق لها، ثم قالت وعيناها تلتمعان بالحماس:

- «سأريكن مفاجأة صغيرة!»

* * *

«اللي شفته.. اللي شفته..
قبل ما تشوفك عنيه، عمر ضايع يحسبوه إزاي عليا؟
اللي شفته.....

* * *

كلا لم تعد لنا بلوح (ويجا) الذي تستخدمه النساء لتحضير الأرواح، لو كان هذا ما جال بذهنكم، وهو تسلية نساء كثيرات من هذه النوعية..

عادت بشيء ألطف بكثير.. جمجمة آدمية موضوعة فوق وسادة من (الساتان) الأحمر، وقد وضعت شمعتان قصيرتان في مجرى العينين الرهيبين.. رباه! لم يكن منظرًا محببًا بالتأكيد؛ خاصة مع ضحكة الموت العابثة الساخرة على فم الجمجمة..

قالت إحدى النسوة ضاحكة:

- «يا ساتر! هل قررت استدعاء العفاريت لقضاء الأمسية؟»

نظرت لنا (نرمين) لترى تعبيرات وجوهنا، التي تباينت بين التقزز والفضول والاستمتاع، وقالت:

- «إن لهذه الجمجمة شأنًا كبيرًا.. وقد حصلت عليها مقابل مبلغ لا بأس به من المال من ساحر (تنزاني) جاء إلى (القاهرة) منذ أسبوع..»

انفجرت النسوة مقهقهات، وسعلت إحداهن كثيرًا ثم قالت بين ضحكاتها:

- «هوهوهوه! هيهيهي! أنت أيضًا وقعت في شرك هذا الساحر؟ لقد وقعت (نازك) هانم في شرك مماثل.. إن (القاهرة) تعجّ اليوم بهؤلاء السحرة الأفارقة؛ وقد تقاضى الرجل منها ألفي جنيه مقابل أن يجعل..... هي هي! هوهوهوه! يحبّها ويطلب يدها للزواج.. أنت تعرفين الفراغ الذي تعيش فيه منذ مات زوجها.. وحسبت تلك الشمطاء أن.....

هنا قاطعتها إحدى الجالسات في استمتاع:

- «يجعل من يطلب يدها؟»

قالت في مكر وهي تنفث دخانها:

- «لن أقول.. البيوت أسرار!»
- «بالله عليك قولي يا (سوزي).. إن هذا خبر الموسم..»
كانت (سوزي) تتمنى الإلحاح، وبالطبع كانت ستذكر الاسم:
- «الأستاذ (محمود عوني)!»
وانفجرت النسوة ضاحكات كما يضحك المعلمون في مقهى (بعجر)، فلم ينقصهن إلا أنّ يبصقن على الأرض، ويطلبن المزيد من الشاي (الكشري)...

* * *

وهنا قطعت مدام (ناهد) حكايتها، ونظرت معتذرة إلى الأستاذ (محمود عوني) قائلة:
- «معذرة يا أستاذ.. هذا هو ما حدث..»
لكنّ فارس الأحلام كان نائمًا، وقد تدلى فيه في غباء، وتصاعد منه شخير كفيل بإيقاظ الصم.. ابتسمت لي، فقلت لها:
- «لا عليك يا سيدتي.. إن الرجل لا يضايقه في شيء أن تستعين النساء بالسحرة كي يحصلوا على حبّه.. لربما كان هذا مصدر فخر له إلى حدٍ ما، حتى ولو كن من طراز (نازك) هانم هذه..»
قالت مدام (ناهد):
- «إن النساء قد ينجذبن إلى عقل الرجل الناضج أحيانًا..»
- «لكنّ ليس دائمًا للأسف! يمكنني أن أؤكد لك هذا!»

* * *

قالت مدام (ناهد):
الحقيقة هي أنّ هذه المجموعة من النسوة كن حشدًا من العقول الخاوية التافهة.. لا يثير شغفهن سوى آخر فضيحة، ويسيل لعابهن للقيل والقال.. إنهن عاطلات بالوراثة، ثريات إلى حد الاختناق، وفكرهن أضحل من فكر دجاجة...
حقًا! أحيانًا كنت أشعر أنني وسط مجموعة من الدجاج، لا يكف عن الصياح والتضارب بالمناقير، وبعثرة الأرز...
أعود لقصتى إذن....
قالت (نرمين) في كبرياء وهي تمسك بالجمجمة:
- «إن السحرة يختلفون.. هذه الجمجمة هي الساحر (تنزاني) فائق القدرات، ومن المؤكد أنها تحقق أمنية واحدة لكل من يطلب منها شيئًا..»
- «هذا ما قيل لـ (نازك) بالحرف!»
ومن جديد دوّت الضحكات الساخرة.. هي ي ي ي ي..
الآن يحمر وجه (نرمين) في عصبية.. تضع الجمجمة على المنضدة المستديرة بينهن.. تأخذ قداحة إحداهن لتشعل بها الشمعتين في المحجرين.. تقول في تحد سافر:

- «دعينا نجرب! وسنرى من يضحك أخيرًا...»
- «رهان؟»
- «رهان...»
- «فلتبدئى أنت يا صغيرة.. اطلبي شيئًا عسيرًا مثل.. مثل...»

وحكت (سوزي) ذقنها المزدوجة بظفرها، ثم قالت في خبث:

- «اطلبي أن يعود زوجك المرحوم للحياة!!»

* * *

- ٢ -

لثوان ساد صمت بليغ، وتلاقت عينا المرأتين في تحد واضح، ثم همست (نرمين) بصوت مبحوح:

- «ليكن.. سأتمنى هذا الآن!»

انتصب شعر ساعدي ذعرًا، وصحت:

- «لا يا (نرمين)! لا مزاح في أمور كهذه.. كله إلا هذا..»

في تحد همست دون أن تنظر لي:

- «تأخرت يا صغيرتي.. أتمنى أن يعود زوجي لي!»

* * *

نصاب يكسب رزقه من الثريات خاويات العقل..

هذا هو ساحرها الإفريقي.. حتمًا هو كذلك.

ولكن.. لو كان هذا صوابًا؛ فلماذا انطفأ النور الكهربي في اللحظة ذاتها؟!

* * *

دوّت بعض صرخات، وشهقت واحدة منهن حينما لم يعد من نور سوى البصيص الأحمر المنبعث من عيني الجمجمة..

ثم عاد النور الكهربي من جديد.. ومعه ساد جو من التوتر.. لقد مات المرح للأبد، وبدا أن الخوف قد انضم لمجلسنا..

همست إحداهن ويداها ترتجفان:

- «أخشى.. أخشى أننا ارتكبنا خطأً جسيمًا..»

في ثقة قالت (سوزي) وهي تنهض:

- «لا تكوني سريعة التأثر يا (ناني).. هل تتصورين أن نجيء غدًا لنجد (قاسم) بك جالسًا في غرفة المعيشة يشاهد التلفزيون؟ لو كان هذا ممكنًا لطرت فرحًا.. سأتمنى وقتها أن يموت زوجي أنا!»

وانفجرت ضاحكة لكنّ أحدًا لم يشاركها المرح..

وببطء بدأت الموجودات ينسحبن.. كل واحدة منهن تقبل (نرمين) وتشكرها على السهرة اللطيفة، ثم تهرع بخطا مرتجفة نحو باب الخروج، كأنما تتنفس الصعداء....

* * *

وكذا وقفت و(نرمين) نتبادل نظرات صامتة تقول الكثير....
قالت وهي ترتجف انفعالًا:
- «هل ستتركينني أنت أيضًا؟»
كدت أفتح فمي، لكنّها احتضنتني في عنف، وهمست والدموع تخنق صوتها:
- «أرجوك لا تذهبي! إنني خائفة.. أموت هلعًا..»
- «لكنّ.....»
- «إن زوجك مسافر لعدة أيام، ولا أطفال لك.. ما المشكلة لو أمضيت معي ساعات الليل هذه؟ سأطلق سراحك في الصباح.. فقط لا تتركيني في ساعات جزعى وتوجسي..»
ماذا أقول؟ لا شيء طبعًا..
وهكذا قبلت أن أمضي الليل مع (نرمين)، والحقيقة هي أنني خفت بدوري أن أعود لبيتي الخالي في هذه الليلة بالذات.. هي لديها خادمتان وطفلان وبرغم هذا خائفة.. ماذا عنى أنا؟

* * *

اتجهت (نرمين) إلى المطبخ، وعادت حاملة صحفة عليها كوبان من الشاي لا يدلان على براعة في التقديم.. ووضعتها أمامي..
- «أين الخادمتان يا (نرمين)؟»
- «في إجازة.. ألم تلحظي هذا طيلة السهرة؟»
- «والطفلان؟»
- «نائمان كالملائكة في غرفتهما.. سنتكلم قليلًا وتحكين لي عن آخر مشاكلك مع زوجك، ثم ندخل لننام في غرفتي.. ولن نتكلم عن السحرة الأفارقة أبدًا إذا كان هذا يروق لك..»
- «ليس أحب لي من هذا..»
وكذا أمضينا ساعة أو أكثر في ثرثرة نسائية سخيفة، ثم نهضت (نرمين) وتمطت وأعلنت أن الوقت قد حان للنوم..

* * *

كان هذا حين بدأ جرس الباب يدق...
تبادلنا نظرة فزعى.. نظرة أنثيين سمعتا جرسًا بعد منتصف الليل.. وهمست في رعب:
- «جرس الباب! هل تنتظرين أحدًا؟»
مطت شفتها السفلى أن لا، وأنصتت السمع..
- «لا بد أنه متشرد قد.....»
من جديد عاد الجرس يدق بإصرار، ضاغطًا على أعصابنا بإلحاح وازداد توترنا..
رأيتها تهرع لتفتح الباب، دون حيطة، فصحت بها:
- «توقفي يا حمقاء! لا بد من أن نعرف القادم أولًا..»

كان هذا سهلًا.. فالبيت يشبه بيتي.. (فيللا) من طابق واحد، لها باب رئيسي مزود بعدسة كاشفة..

أضأت نور المدخل، ونظرت عبر العدسة، فلم أر أحدًا.. كان المدخل خاويًا، فلابد أن من دق الجرس كان يقف جوار الباب الآن حيث لا يُرى بسهولة.. وبالتأكيد لغرض يختلف عن بيع اللبن..

كانت هناك خرق من قماش ملقاة كيفما اتفق أمام المدخل، لكني لم أدر سبب وجودها في تلك اللحظة..

- «من الطارق؟»

سألتني في لهفة، فهززت رأسي:

- «لا أدري.. لكنّ بوسعنا تركه حيث هو.. شيء يحدثني أن فتح الباب حماقة ما بعدها حماقة..»

دوى رنين الجرس ثانية..

ثم جاء صوت الطرقات العنيف المصر.. طرقات من يعرف أن له كل الحق في الدخول هاهنا..

بوم بوم! بوم بوم!..

ثم صوت رجل ينادي:

- «(نرمين)! (نرمين)!»

* * *

نظرت لوجه (نرمين) آملة أن أجد عدم الفهم على وجهها، لكني وجدت وجهها يتبدل ببطء - كما يتحول بطل الفيلم إلى مذءوب في السينما - ليمر بطور من الدهشة، فالرعب، فالحيرة، فالفهم، ثم بدأت ابتسامة ترتسم على ملامحها..

ابتسامة هي أقبح ما رأيت في حياتي...

- «(قاسم)! لقد عاد!»

- «هل تمزحين؟»

- «الصوت صوته.. لقد عاد بحق!»

ومن جديد عاد الطرق والرجل يصيح في نفاد صبر:

- «(نرمين)!»

رباه! وقطع القماش الممزقة أمام الباب!

ورأيتها تهرع إلى الباب، وتعالج المزلاج في هستيريا، وهي لا تكف عن الصياح كأنما جن جنونها:

- «زوجي! لقد عاد! ليس معه المفتاح! الأكفان لا تصلح لتعليق المفاتيح.. هذا طبيعي.. صبرًا يا (قاسم).. سوف.....»

- «هل جننت؟»

وهرعت أمنعها..

لن يدخل هذا الشيء إلى المكان، أكان زوجها أم لم يكن.. يجب أن أمنع هذه المجنونة من... كانت قوية بحق وقد منحتها اللهفة قوة عاتية.. لكني تشبثت بمعصمها فلمّا لم أفلح غرست أسناني بقوّة في لحمه.. صرخت وتراجعت للوراء، بينما الصوت يتوسل:

- «(نرميين)! البرد شديد ها هنا!»

صاحت في تنمر وهي تتحسس موضع العضة:

- «هل جننت أيتها الحمقاء؟»

- «بل أنت من جُن هنا.. كيف تسمحين لشيءٍ كهذا بدخول دارك؟ لو كان زوجك فهي كارثة، ولو لم يكن زوجك فالكارثة أعظم..»

- «لكنه (قاسم).. زوجي!»

- «يا سلام! ألا تجدين ما يخيف في كل هذا؟»

بدت على وجهها رقة بلهاء، وهمست بينما الطرقات تتعالى:

- «(قاسم) رقيق كالحلم، ولن يؤذينا..»

المصيبة هي أنني بدأت أصدق هذا.. كنت واثقة من أن الموتى لا يغادرون قبورهم، لكنّ ما هي قدرات السحر الأسود بالضبط؟ هل يمكن أن.....؟

- «(نرمين).. أرجوك لا تفتحى هذا الباب!»

- «أريني سببًا يمنعني! لقد تحققت أمنيتي الوحيدة!»

- «ولكن.....»

هنا وجهت ركلة لساقي، ثم كورت قبضتها ودفنتها في معدتي، وعندها وجدت نفسي أتلوى على الأرض، بينما هي تعالج المزلاج في صبر...

- «أين وضعت المفتاح؟ لقد أغلقته بالمفتاح.. سوف....»

وهرعت تفتش عن مفتاح الباب، بين كل تلك الأكواخ الخزفية التي يعلقونها جوار الأبواب لتتدلى المفاتيح منها...

لم تكن أمامي فرصة أخرى سوى.....

ها هي ذي الجمجمة.. مازالت تضحك ضحكة الموت الساخرة، وبقايا الشمعتين في المحجرين لن تنته بعد..

هل يمكن أن؟

تقززت من الفكرة، لكننى تقززت أكثر من أن ينفتح الباب لأجد هذا الشيء المقيت أمامي.. لماذا قبلت المبيت ها هنا؟

ودنوت من الجمجمة، وأغمضت عيني، وتمنيت بصوت عالٍ:

- «أتمنى أن يرحل هذا الشيء الآن!»

وانتظرت أن ينطفئ النور، فقد تعلّمت أنّ هذه هي علامة قبول الأمنية، لكنّ شيئًا لم يحدث..

أغمضت عيني وتمنيت بصوت أعلى.

- «أتمنى أن يرحل هذا الشيء الآن!»

وعندها حدث شيء غريب..

* * *



وهرعت أمنعها ..
لن يدخل هذا الشيء إلى المكان ..

انفتح الباب لأجد.. كل النسوة اللائي كن في الأمسية يدخلن للمكان، وكلهن يقهقهن في مرح مجنون، ومعهن بواب الفيللا الذي رأيته عند قدومي في بداية الأمسية..

والأغرب كان التبدل في موقف (نرمين).. لقد استندت بذراعها الأيمن إلى الباب كأنما لا تستطيع الوقوف، وراحت تهتز مرارًا بضحكة مجنونة.. ثم انتصبت مترنحة، وصاحت:

- «هي هي هي! هل رأيتن؟»

ثم أشارت إلى البواب الذي كان يضحك بدوره:

- «هذا هو صوت المرحوم زوجي!»

كنت الغباء مجسدًا، لذا قالت (سوزي) وهي تجفف دموعها ـ دموع الضحك - بمنديل:

- «معذرة يا (ناهد).. لقد راهنتني (نرمين) على أنها قادرة على جعلك تموتين ذعرًا.. قلت لها إنك قوية جريئة، لكنّها أصرت على هذا.. طلبت مساعدتي، وأعدت لك هذه التمثيلية من الجمجمة إلى الطرقات على الباب.. وطبعًا (عباس) هو من أطفأ النور لحظة التمني.. لقد بلغ بك الذعر إلى حد أن تتوسلي إلى هذه الجمجمة الحمقاء!».

نظرت لهن غير مصدقة، وقلت شيئًا على غرار:

- «أنتن.. أنتن.....»

ضربت (نرمين) على كتفي في مرح، وهتفت:

- «لا تنسى أنك مزقت لحم ساعدي.. هيا يا صغيرتي be a sport.. (كوني ذات روح رياضية)!»

انتزعت يدها في عصبية، وهرعت أغادر هذا المنزل المنحوس في الظلام...

مزحة! مزحة قاسية! من أي حجر قوت هذه القلوب؟ إمرأة تقحم ذكرى زوجها الراحل في مزحة كهذه، ونسوة ظللن ينتظرن في الظلام كل هذا الوقت كي يتسلين على حسابي.. وأنا.. أنا الحمقاء التي تم استغلالها عاطفيًا ونفسيًا دون ذنب جنته...

كنت أقود سيارتي، أكاد لا أرى شيئًا من الدموع، وأقول من بين أسناني:

- «حمقـاوات! عشيرة من الدجاج خاوى العقل! غبيات!

«غبيات! غبيات!»

* * *

الباب السابع:
زنزانة خريولسن



الباب السابع

« زنزانة خريولسن »

يفتحه : «د. رفعت إسماعيل»

«لم أعلم وقتها ما يرمي إليه الرجل حقًا، ولم أعلم أنني أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال..»

- ١ -

انتهت مدام (ناهد) من قصتها؛ وكان من السهل أن تدرك الأثر الحقيقي لما حدث لها، من رجفتها، والدمع الذي بدأ يحتشد في عينيها ويسيل من أنفها.. إهانة لم تعتدها ولا تجد لها داعيًا..

قلت وأنا أثنى ساقي تحتي:

- «كنت أتوقع هذه النهاية بسهولة.. فعودة الموتى من قبورهم أمر يتعارض مع الدين ومع العلم ما.. والإساءة الحقيقية التي سببتها لك هذه الدعابة هي جعلك تفترضين أنّ هذا ممكن.. لقد اصطدمت في حياتي بكثير من التجارب المماثلة؛ لكنّ هذا المقياس لا يخيب أبدًا.. ربما قابلت مذءوبين، وربما قابلت أشباحًا أو مصاصي دماء، لكنّ الموتى لا يعودون من قبورهم أبدًا..»

- «لم يكن ذهني بهذا الوضوح وقتها..»

هنا سألني المطرب الولهان بصوته المبحوح:

- «هل لديك بدورك قصة عن باب؟»

نظرت حولي.. كان (محمود عوني) نائمًا، وكذا شاعرتنا الثائرة.. وقد ضايقني هذا لأني فقدت اثنين من جمهوري.. لكنّ ما كنت أملك حماسًا زائدًا يجعلني أوقظهما...

قلت بعدما تثاءبت:

- «سأحكي لكم أفضلها.. ولكن لاتقا..آآآ.. طعوني..»

* * *

قلت لهم:

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن في مصر..

لم يكن في مكان تعرفونه...

الباب الذي أتحدث عنه لم يكن بابا خشبيًا أو حديديًا؛ بل كان أقرب إلى جدار سميك يُهدم ولا يُفتح...

لكن الناس هناك كانوا يسموّنه بابًا...

* * *

كان هذا في (إنجلترا).. في كهف قرب قرية في (ويلز)...

كان الفلاحون يمرون أمام الكهف، ويتكلمون عن (خريولسن) الحبيس هناك، وعن الساحرة التي أنجبته، والتي أعدمتها محاكم التفتيش ودفنتها ها هنا.. في ما سموه بـ (زنزانة خريولسن)...

قالوا إن الساحرة في لحظة احتراقها قالت:

- «سيحل الشؤم بكم سبعة أجيال.. وسيعود ولدي (خريولسن) حين يفتح الباب له رجل من دم أجنبي..»

كانت هذه هي النبوءة وقد نسيها كثيرون....
لكن ما لم ينسه أحد هو أن المصائب لم تفارق القرية لحظة، طيلة تاريخها المديد...

* * *

وبعد أعوام طويلة جئت إلى الكهف، لأقف أمامة مع د. (هنري ليستر)، وقال لي الرجل كلامًا كثيرًا عن الآثار العتيقة التي وجدها في هذا الكهف، والتي تضيف الكثير إلى معلوماتنا عن تاريخ (ويلز) في القرون الوسطى...
ناولني مطرقة، وطلب مني أن أفتتح هدم هذا الباب الحجري، الذي يفصل ثلث الكهف عن ثلثيه، والذي لم يجرب أحد عبوره.
- «ولماذا أنا؟»
- «لأنك. ضيفنا.. وهذا شرف لنا..»
وانتشيت فخرًا، وبدأت أول ضربات أحاول بها تهشيم هذا الجدار.. ولم أعلم وقتها ما يرمي إليه الرجل حقًّا، ولم أعلم أنني أول دم أجنبى يدخل هذا الكهف من سبعة أجيال.. ولم....

* * *

وهنا توقفت عن سرد قصتي...
لقد سمعنا جميعًا صوتًا غريبًا جمد الدم في عروقنا...

* * *

الخاتمة

«أنا لو أنساكي حافتكر مين؟

.. من بعد هواكي حياتي أنين»

- ١ -

لم أجد الوقت الكافي لاستكمال قصتي عن زنزانة (خريولسن)، والتي أعد القراء بأن أحكيها بالتفصيل يومًا ما؛ لأن صوت جسم ثقيل يسقط ثقب مسامعنا.. وفتح من كان غافيًا عينيه في ذعر، وتساءل:

- «ما هذا؟»

نهضت مدام (ناهد)، ونظرت في حذر إلى الغرف المغلقة، وقالت:

- «الصوت من غرفة المكتب؟ ثمّة شخص هناك!»

وقفنا متصلبين؛ عاجزين عن اتخاذ قرار صائب، وقال المخرج العجوز (أبو النجا) في توتر:

- «فلنر ما هنالك!»

قلت له وأنا أضغط على معصمه في رفق:

- «لا تنس الاتفاق وما نحن فيه الآن.. ربما كانت هذه وسيلة لجعلنا ننسى الحذر، ونندفع بحماقة إلى الحجرة..»

في ضيق غمغم (محمود عوني)، وهو يفرك عينيه:

- «لقد طالت هذه الدعابة على كل حال؛ والساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا.. لا بد من نهاية ما.. إن هذا موعد وصولي إلى الجريدة، فأنا طائر مبكر.. ولم أتخل عن هذا ثلاثين عامًا إلا لإجازة قصيرة..»

- «أنا كذلك لديَّ ما أحتاج للعودة إلى داري من أجله.. بالمناسبة أنا سعيد بكونك تعمل بهذا الحماس صباح الجمعة..»

- «ليست هناك عطلة أسبوعية للصحفي..»

- «لهذا أرى أن الوقت قد حان كي نعيد تقييم الموقف، ولربما قررنا أن نفتح أحد هذه الأبواب بعد كل شيء..»

* * *

شطائر وشاي من جديد!

لقد التهمت شطائرًا وشربت شايًا في هذه الليلة كما لن أفعل طيلة حياتي لو عشت؛ والمشكلة هي أن كل هذا الشاي ألهب معدتي، وجعلني أجتاز حالة (اللانوم - لا يقظة) التي أمقتها.. ذهني مبلبل كمن يتهيأ للنوم، لكنه متوتر مشدود كمن في ذروة يقظته.. لا أستطيع البقاء مفتوح العينين لكني - كذلك - لن أنام لو حاولت..

قلت لهم:

- «الموقف الآن بسيط جدًا.. لقد انتظرنا لفترة طويلة، وما زال من الممكن أن ننتظر أكثر، لكنّ هناك خيارًا آخر هو أن نحشد أعصابنا وندخل.. في هذه الحالة على كل منا أن يخمن الباب الصحيح، وعليه أن يقدم أسبابًا مقنعة...»

قالت (هيام) وهي تطرف بعينيها الحمراوين من فرط السهاد:
- «الأمر واضح.. الغرفة الآمنة هي غرفة السينما.. أكثرنا ها هنا فنانون لهم علاقة بفن السينما، ولا بد أنه يخبرنا أن الفن هو خلاصنا مما نحن فيه..»
- «ربما كان العكس!»
قالتها (ناهد) في ثقة؛ وأردفت وهي تنظر لعيوننا:
- «لقد كان زوجي يسخر في سرّه منكم، ويكره افتعال وضحالة بعضكم، ومن الوارد جدًا أن يضع انتقامه في هذه الغرفة بالذات..»
أضفت أنا وقد راق لي كلامها:
- «هذا يبدو معقولًا.. وأضيف أنا أنه لو كان قد قرأ (شكسبير)؛ فمن المنطقي أن يكون الباب الصحيح هو أقل الأبواب جاذبية وبريقًا.. مثلما حدث مع صورة الحسناء (بورشيا) في (تاجر البندقية).. إنني أرشح باب غرفة المكتب..»
نظرت لي (ناهد) غير فاهمة، وتقلص وجهها مستنكرةً:
- «أظن أن باب غرفة الجلوس هو الأدنى للصواب.. ما دام يعتقد أنه شهيد الحياة الزوجية مع امرأة مفترسة مثلي.. يريد أن يقول لي: إن النجاة هي في حياة منزليّة مستقرة..»
قال الأستاذ (محمود عوني) وهو يشعل غليونه، بعد إفطار حافل:
- «أنا أضم صوتي لد. (رفعت) بصدد غرفة المكتب.. فالرجل مثقف عالم؛ ولا بد أنّ هذه الغرفة مقدسة بالنسبة له هذا يضع النقاط على الحروف..»
في اشمئزاز قالت الشاعرة دون أن تنظر لأحدنا:
- «حمقى هم أنتم.. تمشون لنهايتكم في إصرار كدراما إغريقية كتبها (سوفوكليس)..»
- «معروف أننا حمقى.. لكنّ لماذا هذه المرّة؟!»
دست قدميها في حذائيها ووقفت، وقالت دون أن تنظر لنا:
- «رقم سبعة.. الرقم المختار.. ألا يشير لشيء ما؟»
هنا اتسعت عينا (ناهد) في فهم.. وارتجفت شفتاها:
- «رباه! غرفة السينما بها سبعة مقاعد.. أنت محقة يا (نادية).. إنها لم تنس هذا الرقم، لأنّها دخلت تلك الغرفة مرارًا، لترى أفلام الهواة التي كان زوجي يصورها.. لقد سألته يومها ساخرة عن سبب إصراره على سبعة مقاعد لا أكثر في هذه الغرفة.. لماذا لم تكن ستة أو ثمانية مقاعد، فقال لها إن رقم (سبعة) مهم بالنسبة له...»
هنا فرد (سمير الصياد) يديه كأنما يغني، ورفع حاجبية حائرًا:
- «وهذا معناه الدخول أم عدم الدخول؟»
- «ياله من سؤال! الرجل يتفاءل برقم سبعة.. ندخل طبعًا!»
قلت لها مفكرًا:
- «بالعكس.. لو فكرت بطريقة أخرى لأحجمت عن الدخول.. نحن سبعة ونهايتنا في غرفة ذات سبعة مقاعد.. رقم (السبعة) يأخذ طابعًا ملحميًا محببًا للنفس..»
من جديد ابتسمت الشاعرة في ثقة، ونهضت إلى مكتبة أنيقة على الجدار تراصت عليها كتب لم نلحظها طبعًا طيلة الأمسية، وأشارت إلى الكعوب، وقالت:

ـ «ثلاث نسخ من كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) الذي كتبه المغامر الشهير (لورانس) الذي لقبوه بـ (لورانس العرب).. هذه رسالة واضحة جدًا؛ ومشكلتكم هي أنكم سطحيون.. لقد اعتادت عيونكم أن تنزلق انزلاقًا فوق الكتب، بينما تثبت على تفاهات الحياة...»

وأخذت شهيقًا عميقًا وقالت:

ـ «الحل يكمن في غرفة المكتب!»

قال المخرج الكبير في سخرية:

ـ «يا سلام! بهذا الوضوح؟! لم لا يكون قد قصد فيلم (لورانس العرب) الذي أخرجه (ديفيد لين)، والذي قدم (عمر الشريف) للسينما العالمية؟ هنا يكون مفهومًا أنه يشير لغرفة السينما!»

ونهض متأوهًا، فقد تحولت ساقاه إلى لوحي خشب بعد كل ما جلس خاصة مع داء التهاب العظام المفصلي..

قلت بدوري بلهجة الحسم.

ـ «الحق أننا نطيل التفكير أكثر من اللازم.. ربما لم يكن الرجل يقصد شيئًا أصلًا. ربما ليس بهذه الثقافة وخلو البال.. لسنا ـ بعد كل شيء ـ في حلقة من حلقات (هولمز)، ولا نحن بصدد قصة (الحشرة الذهبية) لـ (إدجار آلان بو).. ربما كان الأمر أتفه من هذا.. من أية حجرة سمعنا صوت الارتطام؟»

قالت مدام (ناهد) مشيرة بأناملها نحو باب من الأبواب.

ـ «من غرفة المكتب.. هنا!»

ـ «إذن لنتوكل على الله ونفتحها.. لو ظللنا ها هنا إلى يوم الدين فلن نصل إلى قرار ما..»

* * *

ـ «أنت الأول يا د. (رفعت) ما دمت صاحب الفكرة!»

وتركوني أتقدم إلى الباب، وتراجعوا تحسبًا للأسوأ..

ارتجفت يدي قليلًا.. الحقيقة هي أن الباب اكتسب ثقلًا معنويًا رهيبًا بالنسبة لي، وشعرت كأنني على وشك فتح بوابة (جانب النجوم) ذاتها.. المقبض يدور.. ريقي يجف.. نبضي يتسارع..

صوت صرير خافت.. ثم...

ثم (هيام) تصرخ في هلع..

* * *

- ٢ -

ووثبنا جميعًا للوراء، بينما ركض الفأر الأبيض الصغير بين سيقاننا.. وكانت صرخة (هيام) شبيهة بامرأة ينتزعون عينها بمسمار صدئ..

- «فأر! إي ي ي ي ي ي!»

صحت في هيستريا:

- «صمتًا!»

إن النساء يصرخن دومًا حين يرين فأرًا، لا بسبب الذعر على ما أظن، ولكن لأن العادة تحتم أن يصرخن.. وذعرهن يكون مخيفًا أكثر من الفأر نفسه..

وعدت أنظر عبر فرجة الباب إلى الحجرة..

* * *

كانت مظلمة هادئة أنيقة، نضوع برائحة عطر خفيف رجولي، يمتزج مع رائحة الكتب المحببة امتزاجًا.. مكتب فاخر من طراز (لويس ما....)..

لا بد أنه أحد (اللويسات) الذين يخيّل إليك أنهم لم يفعلوا سوى صناعة الأثاث في فترات حكمهم..

الكتب على رفوف جدارية، أكثرها طبي طبعًا.. لمحت هذا في الضوء الخافت القادم من وراء ستار من القطيفة..

على الأرض أمام المكتب كان كتابان قد سقطا، وانفتحت صفحاتهما، وفي ركن المكان هرع فأر أبيض يتوارى مذعورًا...

قلت لمدام (ناهد) وأنا أدخل باطمئنان أكثر..

- «هذا هو مصدر ما سمعناه.. أحد الفأرين أسقط الكتابين من موضع حرج كانا فيه على حافة المكتب..»

قالت (هيام) في اشمئزاز، وهي تواصل النهنهة:

- «فئران في بيتك.. رباه! كنت أحسبه نظيفًا!»

قلت قبل أن تفترسها (ناهد).

- «فئران بيضاء! هذا يدل على أنه اشتراها خصيصًا ليضعها هنا.. لو كانت الفئران التي تتسلل للبيوت القذرة بيضاء؛ لبدا لي هذا جميلًا..»

- «وما معنى هذا؟»

- «لا شيء سوى العبث.. كان يعابثنا، بالإضافة إلى أن أصوات الفئران في أثناء حركتها ستملؤنا بالتساؤلات حتمًا.. إنها لعبة أعصاب مختارة بعناية..»

واتجهت إلى باب غرفة السينما لأفتحه..

* * *

ولم تكن هناك فئران بالداخل..

فقط سبعة مقاعد، وشاشة بيضاء، وآلة عرض، ومطفأة تبغ هنا أو هناك... ولاحظت أن آلة العرض معبأة بفيلم..

ساد الصمت.. ثم قالت الشاعرة الثائرة:

- «يبدو الأمر موحيًا.. يريد منا نحن السبعة أن نجلس ونشاهد هذا الفيلم، ولا يعلم إلا الله - تعالى - ما يحويه..»

دنا المخرج العجوز من آلة العرض، وعالج زرًا بها، من ثم بدأت الأرقام المميزة تتوالى على الشاشة، ثم بدأت الصورة مع الهدير...

كان هذا هو (جابر) شخصيًا.. على الشاشة.. ومن الواضح أنه قام بتصوير نفسه في غرفة المكتب؛ لأن الإضاءة لم تكن على ما يرام، ومعظمها من الناحية اليسرى حيث النافذة كما في لوحات (رمبرانت)..

- «مرحبًا بوصولكم إلى هنا!»

قالها وهو يبتسم في خبث، فتبادلنا النظرات.. هذه بالفعل رسالة واضحة مباشرة لنا.. قال المطرب:

- «إذن كان الأمر.....»

- «إخرس!»

- «إخرس!»

دوّت ست عبارات (إخرس)، فخرس، ولولا الظلام لقلت إن أذنيه احمرتا خجلًا.. آخر شيء تحتاج إليه هو الاستنتاجات الذكية..

وعلى الشاشة واصل (جابر) الكلام في تؤدة:

- «لا أدري من بقي منكم هنا ليشاهدوا هذا الفيلم، ولا أدري إن كنتم وصلتم إلى هنا بالصدفة أم بتفكير منظم.. لكني أرحب بكم.. في الواقع خطرلى أن تلميحي إلى رقم (سبعة) سيذكركم بالفن السابع: السينما، ويقودكم إلى هنا..

«الآن أعتذر عما سببته من أذى وقلق لكم...

«لو سارت الأمور كما أتخيّل؛ فلا بد أنكم أمضيتم ليلة سوداء تضربون أخماسًا بأسداس، وتتساءلون عن انتقامي.. في الحقيقة هذا هو الانتقام بعينه الذي رتبته لكم..

«أنا لست إرهابيًا ولا خبيرًا في تدريب الكواسر والوحوش.. أنا رجل مثقف مسالم، ولا بد من انتقامي أن يكون مثقفًا مسالمًا كهذا..

«لا باكتريا طاعون.. لا عناكب سامة.. لا ألغام أرضيّة.. ولا حتى إناء من الزيت المغلي يسقط فوق رأس من يفتح الباب..

«فقط الخوف من المجهول.. فقط عدم الاطمئنان...

«هذا هو انتقامي.. أمّا لماذا أنتقم منكم؟ فقد سمعتم شريط التسجيل، وهنا أضيف أن المجتمع يعاني من غثاثة وهشاشة وتفاهة لا تصدق.. وما فعلته هو بمثابة صرخة احتجاج أخيرة تقول: أنت

تافه بحق أيها المجتمع.. جرب مشاعر القلق مرة واحدة على يدي....
«والآن أفارقكم دون ضغائن.. وأعرف أننا لن نلتقي ثانية.. إن محامي يملك كل التفاصيل القانونية يا (ناهد)، ويعرف كيف يستعيد جسدي من الولايات المتحدة ليُدفن في قريتي: وهو سيرتب لك كل تفاصيل الميراث.. فلا تقلقي..»
هنا صاحت (هيام) وقد شعرت بأنه ينهى الكلام:
- «لحظة! أين المخرج من البيت؟»
كأنما سمع صيحتها، ابتسم بخبث على الشاشة وقال:
- «بالمناسبة كدت أنسى أن أخبركم بطريقة الخروج من هنا.. إن الباب الرئيسي مفتوح، وليس مغلقًا بالمفتاح كما توهمتم!
«والآن وداعًا!»

* * *

وخرجنا كأطفال أشقياء، سمحت لهم المعلمة القاسية بالفسحة نضحك في بلاهة.. نرمق السماء غير مصدقين.. نضرب أكفنا مصافحين، وراحت (هيام) تدور حول نفسها وقد فردت ذراعيها، مئات المرّات كأنها (نحلة) مما يلعب بها الصبية.. أمّا الشاعرة فراحت تسعل معبرة عن سرورها..
لقد كنا بلهاء بحق..
هذه إهانة عاتية، جعلت منا الغباء مجسدًا.. ولن ينسى أحدنا أبدًا هذه الصفعة الوهمية على خده، كلما فكر في ذكائه وبراعته..
لكن كل شيء انتهى على ما يرام..

* * *

وبعد أسبوعين توفي د. (جابر) في مستشفى بـ (منيسوتا)..
تفرقنا وتباينت مصائرنا، لكنّ كلًا منا لم ينس قط هذه اللحظة الإنسانية الحميمة التي وحدت بيننا، وشعوره بأن الآخرين لم يكونوا بهذا السوء..
ربما تستطيع أن تحبهم بشيء من الجهد لو أردت...

* * *

كانت هذه حلقة الرعب الرابعة....
ترى هل أخبركم الآن بمحتوى حلقة الرعب الخامسة؟
بالطبع لا.. هل تعرفون لماذا؟
لأن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

مقـدمة

وراء الباب المغلق

البـاب الأول: موعد مع الأستاذ

- ١ -

- ٢ -

البـاب الثانـي: مع الحَطَمَة!

- ١ -

- ٢ -

البـاب الثالـث: جريمة شبه كاملة

- ١ -

- ٢ -

البـاب الرابـع: كـلاكـيت!

- ١ -

- ٢ -

البـاب الخـامـس: كلوستروفوبيا

- ١ -

- ٢ -

البـاب السـادس: أمنية واحدة

- ١ -

- ٢ -

البـاب السـابـع: زنزانة خريولسن

- ١ -

الخاتمة

- ١ -

- ٢ -

الفهرس

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

وراء الباب المغلق

ماذا ينتظرنا خلف الباب المغلق ؟ ماذا لو مددنا أيدينا المرتجفة إلى المقبض ؟ ماذا لو سمحنا لفضولنا بأن يرتوي ؟ هل نعود أحياء ؟ هل تبقى بحلوقنا قوة تسمح لنا أن نحكي ما حدث ؟ هل تظل لدينا حلوق أصلاً ..



د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم:

أسطورة فرانكنشتاين

Notes

[←1] لا تنس أن القصة تحدث عام 1971 حيث لم يكن هناك هاتف محمول، ولو كان مع أحد الموجودين لانتهت القصة بعد صفحة واحدة!

حقيقة... لقد حدث هذا بالفعل مع مخرج آخر لن يذكر اسمه طبعًا!

[←2]

[←3]

على سبيل التحذلق: خطيبي لا تنطق إلا مع كسر الخاء وتشديد الطاء!